


حريق القاهرة

فى الوثائق السرية البريطانية

مجدى نصيف



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No-541-jA-1996

العدد ٥٤١ ـ شعبان ١٤١٦ هـ يناير ١٩٩٦

FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرشا

سوريا ١١٥ ليرة ـ لبنان ٧٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٢٧٠٠ فلس ـ الكويت ١٧٥٠ فلسا ـ السعودية ١٥ ريالا.

حريق القاهرة

فى

الوثائق السرية البريطانية

بقلم

مجدى نصيف

دار الهلال

تصميم الغلاف للفنان
حلـــمى التــــــونى

منهج الكتاب

بدأت العمل على دراسة الوثائق البريطانية السرية الخاصة «بثورة يوليو ١٩٥٢»، ابتداء من عام ١٩٨٢، ذلك أن «إدارة الوثائق العامة» البريطانية تفرج عن الوثائق السرية التى مرّ عليها ثلاثون عاما، وبالتالى فمن أجل العمل على «مقدمات ثورة يوليو» رأيت أن ابدأ بتاريخ ٨ أكتوبر عام ١٩٥١، وهو اليوم الذى ألغيت فيه معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا، وما تلا ذلك من أحداث الكفاح المسلح وحريق القاهرة، إلى الأشهر الستة السوداء فى تاريخ مصر والتى أعقبتها ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

ليس الهدف من هذه الدراسة هو كتابة تاريخ ثورة ٢٣ يوليو، لكن الهدف هو تتبع موقف الاستعمار البريطانى من ثورة يوليو، منذ اللحظات الأولى لانبثاقها، وبعد الإفراج عن الوثائق البريطانية السرية لهذه الفترة أصبح هذا العمل ملحا، خاصة بعد صدور مذكرات معظم من شاركوا فى صنع هذه الثورة.

كانت بريطانيا تحتل مصر آنذاك، ترابط قواتها على بعد مائة كيلو متر من القاهرة على طول قناة السويس، حيث القيادة العسكرية أيضا لكل منطقة الشرق الأوسط. كانت السفارة هى التى تحكم مصر من الناحية العملية، وكان السفير البريطانى هو ملك مصر غير المتوج.

لم تكن شمس الاستعمار الغربى قد غربت عن المنطقة بعد. ولكن هذه الثورة التى قامت فى مصر، هى التى ستصفى الامبراطورية فى شرق السويس فيما بعد. كان انطونى أيدن وزير الخارجية فى حكومة المحافظين حين قامت ثورة يوليو، وهو الذى سيصبح فيما بعد رئيس الوزارة عندما يقرر تصفية الثورة بالطرق الاستعمارية التقليدية، فيتخذ قراره بـ «العدوان الثلاثى» على مصر بالاشتراك مع فرنسا وإسرائيل. وهنا تكون نهاية الامبراطورية شرق السويس، بعد فشل العدوان. كانت ثورة يوليو بقيادة زعيمها جمال عبدالناصر هى التى دقت آخر الأسافين فى نعش الاستعمار البريطانى.

والكشف عن هذه الوثائق هو كشف عن أدق أسرار هذه الفترة، ولكن من الخندق الآخر، خندق الأعداء، هؤلاء الذين كانت

مصالحهم ضد الثورة المصرية وضد جمال عبدالناصر، وضد مصر والمصريين، وضد العرب والقومية العربية. إن هذه الوثائق تكشف - بين ما تكشف - خطط هؤلاء الذين كانت مسئوليتهم تتبع دبيب النملة - كما يقول المثل الشعبى - حتى لا تضيع المنطقة كلها منهم، ومصر فى موقع القلب منها.

هذه هى أهمية الوثائق البريطانية السرية، وهنا أيضا خطورتها. من هنا كان لزاما علىّ أن أضع النقاط التالية:

أولا: إن هذه الوثائق تمثل وجهة النظر البريطانية الخالصة، إنها تمثل وجهة نظر مصالح الامبراطورية البريطانية فى مصر والمنطقة، تلك الامبراطورية التى ستتحطم فيما بعد على صخرة «ثورة يوليو ١٩٥٢» ذاتها.

ثانيا: إن هذه الوثائق تجىء فى مرحلة بدأ فيها الاستعمار البريطانى يسلم بعض مناطق نفوذه للاستعمار البازغ الجديد: الامبريالية الأمريكية، وفى مصر بدأ النفوذ الأمريكى يتزايد بالذات.

ثالثا: إذا كانت الوثائق البريطانية تشكل وجهة نظر «الطرف الآخر» فهى بذلك أحادية النظرة.

رابعا : هناك عدة ملفات وعدة وثائق «رأى» المسئولون عدم الإفراج عنها، السبب واضح ومفهوم، إن هذه الوثائق تفضح مواقف وآراء وشخصيات ليس من مصلحة بريطانيا حاليا الافراج عنها، والتعبير الذى يطلق عليها هو أنها «تحبس» لفترة أخرى .

ونصل إلى الحديث عن منهج اختيار الوثائق البريطانية.

إن هدفنا هو دراسة الوثائق دراسة شاملة. فكما قلت ليس الهدف هو كتابة تاريخ ثورة يوليو، وإنما الهدف هو إجراء دراسة على الوثائق وتقييمها كلها بشكل عام.

المنهج الذى اخترته هو دراسة الوثائق البريطانية المفرج عنها - ابتداء من سبتمبر عام ١٩٥٢ وما بعد ذلك، وفهم السياق العام للسياسة البريطانية، واختيار وثائق بناء على هذا، وترجمتها ترجمة حرفية، تعمدت فيها أن تكتب باللغة العربية كما جاءت فى الأصل تماما، بما فى ذلك التفصيلات الدقيقة المرسل والمرسل إليه، ميعاد الارسال وميعاد الاستقبال، ودرجة سريتها (سرى أو سرى للغاية إلخ) حتى يتبين للقارىء أهمية الوثيقة ويضعها فى سياقها التاريخى.

وقد اخترت لهذه الفترة أيضاً فكرة التسلسل التاريخى فيما يكاد يكون يوماً بيوم، بل أنه فى الجزء الخاص بقيام الثورة ليلة

٢٢ يولية وطوال الأيام التالية حتى طرد الملك، تكاد أن تكون ساعة بساعة. وتبدأ الاجزاء بحريق القاهرة وأسبابه ثم فترة الستة أشهر بين حريق القاهرة فى ٢٦ يناير وحتى ليلة قيام الثورة فى ٢٢ يولية، ثم استقرار الثورة. وجزء خاص بالإصلاح الزراعى وحده.

وآمل أن استمر فى هذه الدراسة إذا سمحت ظروفى وإمكانياتى.

مجدى نصيف

مقدمة

مثلث الصراع السياسى في مصر الملكية

منذ دستور ١٩٢٣ والصراع السياسى فى مصر يدور بين ثلاث قوى أساسية:

(أ) الملك

(ب) الاستعمار البريطانى

(جـ) الوفد

كان «حريق القاهرة» فى ٢٦ يناير بمثابة شهادة وفاة لهذه القوى الثلاث، أى للنظام كله . وهذا هو السبب فى اختيارنا أن نبدأ دراستنا عن «ثورة ٢٣ يوليو» فى الوثائق السرية البريطانية بهذا التاريخ، لأنه كان بداية «العد التنازلى» للنظام «القديم»: مصر المحتلة من الاستعمار البريطاني الذى توجد قواته العسكرية على ضفاف قناة السويس، مصر الديمقراطية، الحزبية – وقيام ثورة يوليو ١٩٥٢، نظام سياسى جديد، بدون استعمار وبدون أحزاب سياسية فى نفس الوقت، مصر الجمهورية حتى بدأت طريقاً يختلف تماماً.

الوفـد : فى هذا المثلث، هو ممثل الشـعب دون منازع ، حزب جماهيرى عـريض، إلى «الجبهة» أقرب. قاد ثورة ١٩١٩ لكنه لم يصل بهـا إلى إجـلاء الانجليـز عن مـصـر، فـالظروف الدوليـة والاقليمية والمحلية لم تسمح له إلا بالوصول إلى مـعادلة سياسية جديدة كسب فيهـا الشـعب المصـري أرضـاً سيـاسـية جـديدة ، فـشـارك فى السلطة بشكل مـحـدود – لكنه احـتل مكانتـه فى قلب الشعب وصـار يمثل القطب الثالث فى مثلث الصـراع السيـاسى ، يعاديه «قصـر عـابدين» حيث يحكم الملك، و«قـصـر الدوبارة» حيث تحكم بريطانيا من خلال السفير البريطاني.

وفى كل انتـخـابات حـرة كانت تعقـد، حـصل الوفـد فيـهـا علي أغلبية الأصـوات ليـصل إلى السلطة، كـانت السـفـارة البـريطانيـة والقصـر يسعيان إلى إقـالته أو دفعه إلى الاسـتقـالة، لتتولى الحكم إحـزاب الاقليـة : الأحـرار الدسـتـوريون، والسـعـديون، والكتلة، والشـعب، والاتحـاد. وينتقل الوفـد إلى المعارضـة. وتتـم انتـخـابات جديدة مزوّرة تتولى فيها أحزاب الاقلية السلطة «بشرعية» برلمانية – ديمقراطية مزوره. وهكذا.

ظلت هذه هي قـاعدة الممارسة السياسية – الحزبية فى مصـر منذ نشـأة الحياة الحزبية الحديثة بعد صدور دستور ١٩٢٣، حتى

نجاح حركة الضباط الاحرار فى الانقلاب ضد هذا النظام القديم ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وكانت هناك مصالح مشتركة بين الملك وبريطانيا، لكن ليس معنى هذا أن مصالحهما كانت متفقة تماماً، على العكس كان الملك فاروق يكره الانجليز الذين يرون أنه يتصرف بحمق وقد ملأت مباذله أخبار الصحف الاجنبية ويعلم بها الشعب المصرى، مما يجعل العرش غير آمن ويعرض الوجود البريطانى للخطر. وكانت المصلحة المشتركة - الدائمة، هى إبعاد الوفد عن الحكم بأى شكل . هذا باستثناء فترة واحدة ، عندما أجبرت، بريطانيا «القصر» على عودة الوفد إلى السلطة فى «حادث» ٤ فبراير ١٩٤٢ الشهير، كانت الحرب العالمية الثانية مشتعلة أنذاك بين ألمانيا النازية، والحلفاء، وكان رومل يستعد ليدق أبواب الإسكندرية . فكان من الضرورى تأمين «الجبهة الداخلية» فى مصر وتنصيب حكومة شعبية يرضى عنها جميع المصريين.

استمر الصراع بين أطراف المثلث حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، لكن أضيفت إليه قوى جديدة فاعلة على المسرح السياسى. دخلت الحلبة السياسية لتضيف إلى هذه أو تلك من قوى مثلث الصراع:

● **الولايات المتحدة الامريكية** سأصبحت في عالم ما بعد الحرب القوة الامبريالية البازغة الجديدة في العالم، تلك القوة التي بدأت تحل محل الامبراطوريات الاستعمارية - القديمة. وهنا على أرض مصر كان المسرح يمهد «لمعركة السويس» التي ستكون مقبرة الامبراطوريات القديمة. . وبدأت الولايات المتحدة تزيد من وجودها في مصر ذات الموقع الاستراتيجي - المفتاحي في الشرق الأوسط. وفي فترة ما قبل «حريق القاهرة» كان جيفرسون كافرى السفير الامريكي بالقاهرة صديقاً شخصياً للملك فاروق، الذي استخدم الامريكان ضد الانجليز، وكثيراً ما كان «الواسطة» بين «قصر الدوبارة» و«قصر عابدين». لكن في النهاية كانت الولايات المتحدة تعمل في ظل «الوجود - الاحتلال» البريطاني، وكان هدفها أن ينتقل الوضع من الوجود الاستعماري القديم إلى الوجود الاستعماري الجديد، بقبول مصر الدخول في الاحلاف العسكرية الجديدة التي طوقت الاتحاد السوفييتي و«المعسكر الاشتراكي» . لكن القوى الوطنية - الديموقراطية وعلى رأسها الوفد رفضت الانخراط في هذه «الاحلاف» التي ستحول الوجود «الاستعماري» - البريطاني إلى «وجود شرعي».

● والوجود البريطانى الذى كان من الممكن فهم مبرراته عندما وقع الوفد نفسه معاهدة ١٩٣٦ ونذر الحرب العالمية الثانية على الأبواب والجبهة - الديموقراطية تتشكل فى أنحاء العالم ضد الفاشية، هذا الوجود البريطانى نفسه لم يعد مبرراً بعد انتصار الحلفاء، وبدأت بريطانيا تسوف فى «الجلاء» الذى يريده الشعب المصرى الذى بدأ يحس، ومعه كل الحق، أن هذا الاحتلال جاثم، ولن يجلو بالمفاوضات التقليدية التى أجرتها الحكومات المصرية المختلفة والتى تحطمت على عدة صخور، منها صخرة السودان، إذ أصبح جلياً أن بريطانيا تريد فصل السودان عن مصر ، وتفتيت وحدة وادى النيل.

● بزغت قوى جديدة بعد الحرب، هى بشكل عام جزء من الحركة الوطنية - الديموقراطية، تمثلت أساساً فى التنظيمات الشيوعية وأنصار السلام، وانتقلت قطاعات من المجتمع إلى موقف ثورى يريد «الجلاء بالدماء» وكان على رأسها الطلبة وقطاعات من الطبقة العاملة، وقطاعات من الطبقة الوسطى التى طحنها تضخم الحرب والذى وصلت نسبته إلى ٣٣٣٪ بينما لم يزد فى بريطانيا نفسها عن ١٦١٪. وازداد الدور الذى يلعبه «الاخوان المسلمون»

وتحول تنظيم «مصر الفتاة» إلى «حزب مصر الاشتراكى» وصحيفته التى ألهبت الجماهير بمقالاتها النارية وعناوينها المهيجة. وكذا الدور الذى لعبه «الحزب الوطنى الجديد».

باختصار تحولت مصر إلى «حالة غليان» ضد الاستعمار البريطانى وضد النظام الملكى، وأدركت الجماهير أنهما العدو الرئيسى الذى يجب التخلص منه. وأدركت بريطانيا فيما بعد الحرب مشاعر الكراهية العميقة لوجودها فى مصر فسحبت قواتها إلى منطقة القناة وقواعدها هناك. لكن استمرت مصر تُحكم من «قصر الدوبارة».

● **الملك فاروق** : تغير موقف الحركة الوطنية من الملك فى نفس الوقت الذى تغير فيه موقفها من الانجليز، بل وتزامن هذان الموقفان، على وجه التقريب، فعندما توج ملكا عام ١٩٣٦ اجتاحت المصريين فرحة ورحبت باعتلائه العرش، وملأتهم الآمال فى أن الملك الشاب سيتجدد فى عهده شباب مصر، فيتخلص الشعب من الانجليز، كان موقف المصريين آنذاك «الملك نعظمه ونلتف حول عرشه»، لكن يوم حريق القاهرة كان الهتاف «يسقط الملك» مدوياً أمام قصر عابدين. الفسارق ستة عشر عاماً لا غير فقد فيها

الملك رصيد شعبيته. بعد أن تحول من شاب يمثل آمال مصر، إلى ملك «داعر تملأ . . فضائحه الدنيا» ملك مرتش يقف على رأس هرم الفساد، يبيع الرتب والنياشين بالمال، ويبيع جيشه فى حرب فلسطين ١٩٤٨ مقابل قبضة من الأموال فى صفقات من السلاح الفاسد. وازداد هذا الفساد حتى جعل الانجليز على استعداد للتضحية بالملك، خاصة بعد بزوغ قوة جديدة فى الجيش المصرى هى حركة الضباط الاحرار. لم تكن القوى القديمة تدرك بالضبط ما هية هذه الحركة، وإن كانت تدرك أنها موجودة كرد فعل لما حدث فى حرب فلسطين ١٩٤٨ وخيانة الملك فى صفقات الأسلحة الفاسدة التى دخل بها الحرب وهو يوجهها نحو «العدو» فارتدت إلى صدره . هنا أدرك الضباط الشبان أن «العدو» أيضاً فى الداخل.

★★★

هنا نصل إلى الوضع السياسى فى مصر قبل حريق القاهرة

أدت كل هذه الظروف إلى حمل الوفد إلى السلطة فى الانتخابات التى جرت عام ١٩٥٠ وفى خطاب العرش .. الذى يقدم برنامج الحكومة قطع على نفسه عهداً بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ التى تربط مصر ببريطانيا.

حمل الشعب المصرى السلاح وبدأت طلبة الجامعة والعمال ومثقفون وموظفون يتدربون، وهكذا بدأ «الكفاح المسلح» وتصاعد بمشاركة الحكومة الوفدية وتشجيعها فى شخص فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية وسكرتير عام الوفد، وكذا عبدالفتاح حسن باشا الذى كان مسئول الاتصال المباشر بالفدائيين.

وبدأ الانجليز والملك المواجهة، كل يريد أن يحقق أهدافه. فأمام تصاعد الكفاح المسلح والحريات الديموقراطية التى سمحت للشعب المصرى بالتعبير عن نفسه وحمل السلاح، تزايدت مخاطر الحصار حول الملك والانجليز. هنا حدث نفس ما حدث فى حرب فلسطين ١٩٤٨ وإن كان بشكل مختلف. وككل جريمة كبيرة الحجم ليس هناك دليل مباشر على مرتكبيها. ولكن كأى جريمة قتل عادية يكون السؤال من هو المستفيد الأول. وهنا تشير كل الأصابع إلى «قصر الدوبارة» و«قصر عابدين». فالخاسر الأول والأكبر هو الوفد الحركة الوطنية، والشعب المصرى. وما حدث بعد تنحية «الحكومية الوفدية» يؤكد هذا : انهاء الكفاح المسلح، وضع الفدائيين بعد القبض عليهم، فى السجون، محاصرة الوفد والإقامة الجبرية لعدد من زعمائه، ضرب حرية الصحافة إلى آخر هذه الإجراءات.

ولكن . إذا كـان الانجليـز والملك هم الرابحـون بشكل مـباشـر، فقد كانوا الخاسرين على المدى البعيد. كان «حريق القاهرة» هو المسمار الأخير فى نعش النظام بـأكمله. فقد قرر تنظيم «الضباط الاحرار» بعده ، تقديم ميعاد انقلابهم الذى أطاح بالملك، ثم بعدها بسنتين أطاح بالانجليز. لتبـدأ مـصـر مـرحلة جـديدة تمـامـاً فى حياتها السياسية.

وهدف هذا الكتاب هو تقديم «الوثائق البريطانية السرية» التى أفرج عنها، والخاصة بتاريخ هذه المرحلة.

حريق القاهرة

بعد أن طالت المفاوضات مع بريطانيا حول تعديل المعاهدة أكثر من ٩ أشهر.. لم يعد أمام حكومة الوفد إلا أن تفي بالوعد الذى قطعته على نفسها فى خطاب العرش فى ١٦ يناير ١٩٥٠ حين أعلن مصطفى النحاس، «.. ترى حكومتى أن معاهدة ١٩٣٦ قد فقدت صلاحيتها كأساس للعلاقات المصرية البريطانية وأنه لا مناص من تقرير الغائها ، ولا مفر من الوصول إلى أحكام جديدة ترتكز على أسس جديدة تعرفونها جميعا، ألا وهى الجلاء الناجز الشامل، ووحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى» (١) وفى ١٨ أكتوبر ١٩٥١ وفى جلسة تاريخية أعلن مصطفى النحاس وسط تصفيق هيستيرى من نواب الحكومة والمعارضة:

---

(١) عبدالفتاح حسن ذكريات سياسية ص ٥١ – مطبعة دار الشعب ١٩٧٤.

١ - إلغاء المعاهدة وملحقاتها وأحكام الاتفاق الخاص بالاعفاءات والميزات التى تتمتع بها القوات البريطانية الموجودة فى مصر.

٢ - إنهاء العمل بأحكام اتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو ١٨٩٩ بشأن إدارة السودان (فيلغى الوضع الذى كان قائماً حين كان حاكم السودان انجليزيا يصدر بتعيينه مرسوم ملكى مصرى).

٣ - تعديل المادتين ١٥٩، ١٦٠ من الدستور لتعزيز الوضع الدستورى الجديد للسودان وتلقيب الملك - ملك مصر والسودان وتوحيد شطرى وادى النيل (٢).

تبع الالغاء القانونى للاحتلال البرطانى إلغاء الملحقات وأحكام الاتفاق الخاص بالاعفاءات والميزات التى تتمتع بها القوات البريطانية الموجودة فى مصر وكان ذلك يعنى إلغاء جميع الاعفاءات المالية التى كانت ممنوحة للسلطات العسكرية البريطانية وتشمل الرسوم الجمركية على المهمات العسكرية والأسلحة والعتاد ومواد التموين وكذلك الرسوم المستحقة على السفن المارة بالمياه

---

(٢) نفس المصدر : ص ٥٢، ٥٣.

المصرية لخدمة القوات البريطانية وأجور النقل والاتصالات البرقية والتليفونية الخاصة بهذه القوات. وامتنعت الجمارك عن تقديم التسهيلات الجمركية الأخرى الخاصة بأولوية المرور والشحن والتفريغ كما امتنعت السكك الحديدية المصرية عن أداء أية خدمة للقوات البريطانية أو نقل أية مهمات أو عتاد لها. كما حرمت الحكومة دخول الرعايا البريطانيين البلاد ما لم يكونوا حاملين الجوازات عليها تأشيرات دخول من السلطات القنصلية المصرية فى البلاد القادمين منها وأنهت تصاريح الاقامة للبريطانيين الذين كانت إقامتهم بسبب الخدمة فى القوات البريطانية وألغت العمل بالتصاريح التى كانت ممنوحة من قبل بموجب المعاهدة ومنعت هبوط الطائرات العسكرية البريطانية بالمطارات المصرية أو تزويدها بالبيانات الجوية الفنية أو بأى نوع من التسهيلات (٣).

اتخذ مجلس الوزراء بجلسته السرية فى ٢١ أكتوبر مجموعة من القرارات تعبر عن جدية الحكومة فى قرار الإلغاء. وأهم هذه القرارات:

---

(٣) عبدالرحمن الرافعي: مقدمات ثورة ٢٣ يوليو ص ٤١، ٤٢- مكتبة النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٦٤.

أولا: اتخاذ كل السبل المؤدية إلى عدم تعاون العمال مع القوات البريطانية على أن تصرف لهم الحكومة أجورهم من يوم توقفهم عن العمل وأن تدبر لكل منهم ما يناسبه من عمل.

ثانيا: على الجيش المصرى ألا يغادر السودان مهما كانت الظروف وعليه أن يقاوم كل محاولة لإخراجه لآخر رجل وآخر طلقة.

ثالثا: مقاومة القوات البريطانية إذا ما اجتازت منطقة القناة مهما كانت النتائج، والدفاع عن القاهرة إلى النهاية.

رابعا: إرسال برقية إلى مجلس الأمن بتحميل الانجليز مسئولية تهديد السلام العالمى من جراء اعتداءاتهم التى تزداد كل يوم على سيادة مصر وأراضيها وأهلها ومرافقها العامة (٤).

تبين هذه القرارات مدى خطورة الخطوة التى أقدمت عليها حكومة الوفد. لأول مرة فى تاريخ الحقبة الاستعمارية تقوم دولة صغيرة محتلة. بالغاء معاهدة معترف بها دوليا من جانب واحد.

فبهذا القرار أقرت حكومة الوفد مبدأ جديدا فى علاقات الدول الصغرى بالدول الكبرى هو مشروعية التحرر من قيود أية اتفاقية أو معاهدة طالما أصبحت لاتتفق مع مصالح هذه الدولة.

(٤) عبدالفتاح حسن : مرجع سابق ص ٨٨، ٨٩.

إن القيمة الرمزية للالغاء بجانب قيمته الفعلية هى التى أدت إلى عنف رد الفعل سواء من بريطانيا أو أمريكا أو من الشعب المصرى نفسه الذى أخذ المبادرة بوضع الإلغاء موضع التنفيذ فما كان ينتظر إلا أن تعلن حكومته إلغاء الشرعية القانونية للاحتلال، تلك الشرعية التى كانت تنظيماته الوطنية قد ألغتها من قاموسها منذ عدة سنوات مضت، ووضعت شعار الكفاح المسلح موضع التنفيذ وشكلت « كتائب التحرير » التى شاركت فيها تنظيمات الإخوان المسلمين والشيوعيين والحزب الاشتراكى «مصر الفتاة» وبعض ضباط الجيش والبوليس وافتتحت معسكرات للتدريب وساعدت الحكومة على ذلك بالموافقة على تسريح بعض ضباط الجيش والبوليس للقيام بتدريب هذه الكتائب.

كانت الخسائر البريطانية نتيجة للعمليات الفدائية كبيرة وخاصة فى الفترة الأولى حيث لم تكن القيادة قد اتخذت بعد الاجراءات الاحتياطية لمقاومة مثل هذه العمليات هذا بالإضافة إلى أن تغلغل العمال المصريين فى كل المعسكرات البريطانية ساعد على تنفيذ عمليات داخل هذه المعسكرات مما رفع من نسبة الخسائر.

وإذا أضفنا إلى المقاومة المسلحة انسحاب العمال المصريين من العمل فى المعسكرات الانجليزية يتضح لنا إلى أى حد كان وضع القوات الانجليزية حرجاً فى منطقة القناة. فمن يوم ١٦ أكتوبر وهو اليوم الذى أعلنت فيه الحكومة فتح مكاتب لتسجيل أسماء عمال المعسكرات الراغبين فى ترك عملهم مساهمة فى الكفاح الوطنى حتى يوم ٣٠ نوفمبر،سجل ٩١,٥٧٢ عاملا أسماءهم، وفى هذا اليوم التقط جهاز بوزارة الداخلية إشارة تتضمن تقريرا عن حالة العمل فى ذلك اليوم نصه: «نسبة الغائبين ١٠٠٪ عدا كاتب واحد». وقد علمت القاعدة البريطانية من هذا الانسحاب غير المتوقع للعمال المصريين الذين كانوا يقومون بكل الأعمال غير العسكرية واضطرت القيادة إلى طلب عمال من قبرص ومن مناطق أخرى ولم يكن ذلك ممكنا نظرا لضخامة عدد العمال المنسحبين. بجانب النقص الشديد فى المواد التموينية نتيجة لتوقف المتعهدين عن توريد الخضراوات واللحوم والمستلزمات الأخرى الضرورية لإعاشة ٨٠ ألف جندى وضابط.

وضح لبريطانيا أن بقاء استخدام القاعدة مع عدم رضاء المصريين «هو أمر مستحيل ولذا فقد وضعت بريطانيا ثلاث خطط

لإجبار الوفد على التراجع عن موقفه أو تغيير الحكومة إذا ما تطلب الأمر ذلك :

١ - خطة للعمل السياسى والدبلوماسى.

٢ - تقوم القوات البريطانية باحتلال القاهرة أو أن يقوم الملك بانقلاب عسكرى بمساعدة الجيش المصرى.

٣ - حرق القاهرة.

غطت محاولات تطبيق الخطة الأولى الفترة من إلغاء المعاهدة حتى عملية هدم كفر أحمد عبده بالقرب من السويس فى أوائل ديسمبر. وكانت تقوم على أساس استخدام وسائل الضغط الدبلوماسى التقليدية سواء من جانب بريطانيا أو الولايات المتحدة. فما كاد مصطفى النحاس يعلن إلغاء المعاهدة. حتى أصدرت السفارة البريطانية - مساء نفس اليوم - بيانا أعلنت فيه أن إلغاء الحكومة المصرية للمعاهدة من جانبها يعتبر عملا غير قانونى، وأن الحكومة البريطانية تعتبرها سارية المفعول وتحتفظ بحقوقها (٥) ثم عقداجتماع بريظانى - فرنسى مشترك صدر عنه بيان بعدم الموافقة على قرار مصر. وبعد ذلك بقليل عقد دين أتشينسون وزير خارجية الولايات المتحدة مؤتمراً صحفياً أعلن

(٥) عبدالرحمن الرافعى: مرجع سابق ص ٢٨.

فيه عدم موافقة الحكومة الامريكية على قرار الحكومة المصرية وطالبها بالتمهل. كما أعلنت قيادة حلف شمال الاطلنطى عن عقد اجتماع لدراسة الموقف شارك فيه رؤساء أركان حرب القوات الامريكية والفرنسية والبريطانية. وفى يوم ١١ أكتوبر وجهت بريطانيا انذاراً لمصر تحملها فيه مسئولية أرواح القوات البريطانية فى منطقة القناة وأصدرت قراراً بأنها «ستدافع عن مصر ضد أعدائها حتى وأن رفضت مصر» (٦).

فشلت محاولات دفع الحكومة الوفدية للتراجع عن موقفها وما كان فى استطاعتها حتى لو أرادت أن تتراجع بعد أن أخذ الشعب زمام المبادرة بيده ووضع الإلغاء موضع التنفيذ ومن هنا حاولت بريطانيا وأمريكا أن تجدا مخرجا للموقف يحفظ لحكومة الوفد ماء وجهها فى نفس الوقت الذى يحتفظ فيه الحلف بالقاعدة ولم يكن ذلك المخرج إلا الالتفاف حول قرار الإلغاء على أساس اعتراف الدول المعنية بالإلغاء وبذلك لا تضطر الحكومة المصرية إلى التراجع عن قرارها بعد أن أدركت بريطانيا استحالة ذلك ،

---

(٦) جمال الشرقاوى : حريق القاهرة قرار اتهام جديد – دار الثقافة الجديدة – الطبعة الأولى مارس ٧٦.

على أن تقبل مشروعاً للدفاع المشترك. وتقدمت الدول الأربع (بريطانيا وأمريكا وفرنسا وتركيا) رسمياً بالمشروع الذى كان يهدف فى أساسه إلى إبقاء الاحتلال أبديا ولا يقتصر على منطقة القناة فقط بل يمتد إلى جميع الموانىء والمطارات والمرافق وبعد ذلك تفتح مصر كلها ليس فقط لجيوش بريطانيا ولكن لجيوش الدول الأربع بالاضافة إلى جيوش استراليا ونيوزلندا وجنوب أفريقيا أى لكل دول أعضاء الحلف والدول المرتبطة به (٧).

رفضت حكومة الوفد هذه المقترحات وجاء بالخطاب الذى أرسلته وزارة الخارجية المصرية إلى السفير البريطانى: «أن الحكومة المصرية لايمكنها أن تنظر فى هذه المقترحات أو فى أية مقترحات أخرى لحل النزاع بين المملكتين مادامت تحتل مصر والسودان قوات بريطانية. كما أن مقترحات الدول الأربع لاتختلف فى جملتها عن المقترحات التى سبق أن قدمتها الحكومة البريطانية فى ٤/٢١، ١٩٥١/٦/٨ وهى المقترحات التى رفضتها الحكومة المصرية جملة وتفصيلا.

---

(٧) كمال الدين رفعت: حرب التحرير الوطنية بين الغاء معاهدة ١٩٣٦ والغاء اتفاقية ١٩٥٤/ ص ٧٠ اعداد مصطفى طيبة- دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٨.

برفض الحكومة المصرية للمقترحات وضح لبريطانيا وأمريكا مدى الإصرار الحكومى الشعبى على المضى قدما فى قرار الالغاء وعلى عدم قبول أى مشروعات بديلة .

وضعت الخطة الثانية موضع المناقشة وكانت هذه الخطة تتلخص فى أن تزحف القوات البريطانية لاحتلال القاهرة وتغيير الحكومة بالقوة أو إجبارها على الرجوع عن قرارها أو أن تساعد بريطانيا الملك فى القيام بانقلاب عسكرى يسخر فيه الجيش المصرى للقيام باحتلال القاهرة.

صرف النظر عن هذه الخطة سريعاً إذ أن دخول القوات البريطانية القاهرة كان قد أصبح مستحيلا بعد أن أصبحت منطقة القناة نفسها عبئاً فقد أفسد الفدائيون كل خطط من هذا القبيل، الأمر الذى جعل الانجليز يتحققون من أن تقدمهم صوب القاهرة سيكون حربا شاملة هزيمتهم فيها سيئة وخسائرهم جسيمة (٨) ويؤكد صدق تقدير كمال رفعت للموقف تلك الوثيقة البريطانية وهى عبارة عن مناقشة بين الجنرال روبرتسون والفسيجس يقول فيها روبرتسون.

---

(٨) نفس المصدر السابق .

- ناقشت الموقف مع زملائى ونحن متفقون تماما على أنه إذا نفذت عملية Rodeo Bernard (وهو الاسم الكودى لخطة الزحف من قاعدة السويس واحتلال القاهرة) فأنها سوف تواجه بمقاومة شديدة وستوجد حالة حرب».

if Rodeo Bernard is launched it will be fiercely resisted and a condition of war will exist: (٩)

أما القيام بانقلاب عسكرى يطيح بحكومة الوفد ينفذه الملك بمساعدة المخابرات البريطانية فأنه أيضا أصبح غير ممكن بفضل المد الثورى الشعبى الذى امتد إلى قلب الجيش الذى كان من المؤكد أنه سيدير أسلحته ضد الملك فينتهى أمره. كان موقف الجيش المصرى هو الصخرة التى تحطمت عليها آمال بريطانيا فى الغزو أو الانقلاب.

بفشل الخطة الأولى أى الضغط والالتفاف على قرار الإلغاء، والثانية الغزو وانقلاب الملك لم يعد أمام بريطانيا إلا تنفيذ الخطة الثالثة التى أوكل تخطيطها إلى المخابرات البريطانية ومجموعة من أقرب المقربين إلى الملك.

---

(٩) F.o 371/96870 Record of conversation between the Vciqs and general Robertson-26/1/52

استغرق الإعداد لهذه الخطة قرابة الشهرين ابتداء بتدمير كفر أحمد عبده في أوائل ديسمبر ١٩٥١ حتى تنفيذ الحريق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢. وتتلخص الخطة فى القيام بسلسلة من الأعمال الاستفزازية تكون مقدمة للحريق وإقالة حكومة الوفد وتعيين على ماهر باشا رئيساً للوزراء ونجد أول إشارة إلى هذا المخطط. فى مذكرات عواد حسن وهو مواطن من الاسماعيلية كان الانجليز يعتبرونه أخلص وأذكى عملاؤهم ولذا فقد كان موضع ثقتهم ولكنه فى الواقع لم يكن عميلا بل كان وطنياً مخلصاً ساعد بكل طاقته كتائب الفدائيين قبل الثورة كما تعاون تعاونا مخلصا مع جهاز مخابرات الثورة ضد الانجليز. يقول عواد حسن فى مذكراته عن يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٥١: «باتريك ضابط مخابرات انجليزى يكثر هذه الأيام من زيارته للاسماعيلية وهذا العجوز الماكر له أصدقاء عديدون واتصالات واسعة.. هو بالنسبة لى صيد ثمين.. إن باتريك لايخفى عنى شيئا فقد علمت منه اليوم وخلال دردشته معى خبراً فى غاية الخطورة. لقد أخبرنى أن السفارة البريطانية أرسلت إلى لندن تقريراً عن الوضع فى مصر ضمنته الموافقة على الاتصال بفاروق لإقالة وزارة الوفد وتعيين على ماهر رئيساً للوزارة وطلبت

السفارة إن يتم هذا التغيير بغاية السرعة لأن حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا ومحمد صلاح الدين وزير الخارجية لم يعد في مقدورهما التراجع عن الموقف الذي أعلناه وأنهما - النحاس ومحمد صلاح الدين - في ورطة لايمكن الخروج منها بسهولة فلقد كان من نتيجة إلغاء المعاهدة - وهذا ما لم يكن في الحسبان - أن انطلقت جماهير الشعب في معركة ضدنا. ولقد أصبحت البلاد في حالة ثورة شاملة على بريطانيا وأمريكا وهذا الوضع المتفجر لايجدى معه سوى تولى على ماهر الوزارة فهو قادر على إنهاء الوضع (١٠) وبعد الحصول على موافقة وزارة الخارجية على الاقتراح بدأ وضع الخطة موضع التنفيذ حيث بدأت سلسلة الأعمال الاستفزازية تتصاعد بحيث تعطى الانطباع في النهاية بأن الحريق كان امتداداً طبيعياً للأحداث التي سبقته وتحمل حكومة الوفد المسئولية عنها.

كان أول هذه الاستفزازات «معركة كفر أحمد عبده» حيث افتعلت قيادة القوات البريطانية أول عملية تحرش مدبرة للاجهاز

---

(١٠) كمال رفعت : مرجع سابق ص ١٢٨ - ١٢٩.

على الحكومة فكانت القيادة البريطانية تجدد المهلة الممنوحة للسلطات المحلية بإجلاء الكفر وأبعاد سكانه مرة بعد أخرى كي توالى هذه السلطات الاتصال بوزير الداخلية الذى كان يجدد أوامره برفض الانذار والمقاومة وقد اتبع الانجليز بتجديد الانذارات أسلوب الحرب النفسية للكشف عن ضعف الحكومة وامتهانها من جانب وتحطيم روح المقاومة الشعبية من جانب آخر ثم اقتحموا فى النهاية القرية بعد عملية استعراضية اشتركت فيها ٢٥٠ دبابة و٥٠٠ مصفحة وعدد من الطائرات (١١)!

ردت الحكومة المصرية على هذا الاستفزاز بسحب السفير المصرى من لندن وطرد جميع الموظفين البريطانيين من خدمة الحكومة المصرية وإصدار تشريع بتوقيع عقوبات على المتعاونين مع القوات البريطانية ثم إعداد تشريع بإباحة حمل السلاح.

إذا كانت الخطوة الاستفزازية الأولى قد جاءت من قيادة القوات البريطانية والسفارة، فقد جاءت الثانية من الملك الذى أصدر قراراً فى ٢٤ ديسمبر ١٩٥١ بتعيين حافظ عفيفى باشا رئيسا للديوان الملكى وبتعيين عبدالفتاح عمرو باشا سفير مصر

(١١) كمال رفعت : مصدر سابق ص ١٤٤.

السابق فى لندن مستشاراً بالقصر وكانا معروفين بعدائهما الشديد للحركة الوطنية والوفد ، وعلاقتهما الطويلة ببريطانيا فقد كان الأول هو الوحيد بين السياسيين المصريين الذى أعلن عدم موافقته على إلغاء المعاهدة، أما الثانى فكان يعتبر سفيرا ثانيا لبريطانيا أكثر منه سفيرا لمصر فى بريطانيا.

ادركت الحركة الوطنية مغزى تعيين حافظ عفيفى رئيسا للديوان فاندلعت سلسلة من المظاهرات تحتج على تعيينه بشعار موحد «يسقط عفيفى وحافظ عفيفى»، وقد صرح النحاس لبعض ثقاته أن هناك اتجاها لإحداث انقلاب وزارى فى مصر لمصلحة الانجليز والامريكان وان يدا أمريكية تدفع الأمور فى هذا الاتجاه وإنه حسب معلوماته فان دور حافظ عفيفى قد رسم فى واشنطن لا فى لندن . وان تعيينه رئيسا للديوان هو خطوة أولى فى مؤامرة طويلة تهدف الى كلفتت القضية الوطنية (١٢) ولعل ذلك يلقى بعض الأضواء على الدور الامريكي الخفى فى تلك الفترة كما سيتضح فيما .

---

(١٢) جمال الشرقاوى : ص ٢٧ عن طارق البشرى كان هذا الشعار ينادى – ببساطة شديدة – بإسقاط الملك فاروق.

بعد عشرة أيام فقط من تعيين حافظ عفيفى رئيسا للديوان زادت بريطانيا من معدل الاستفزازات واختارت هذه المرة طريقتها القديمة ، فرق تسد ففى ٤ يناير ١٩٥٢ وأثناء غارة بريطانية على مدينة السويس بحثا عن الفدائيين أشعل مجهولون النار فى كنيسة المدينة حيث قتل بعض الأقباط وكان الهدف بالطبع هو إثارة فتنة بين المسيحيين والمسلمين ربما تجد بريطانيا فيها مخرجا للموقف أو على الأقل تزعزع من موقف الحكومة الوفدية بتشتيت الإجماع من حولها وشغلها وشغل الصحافة الوطنية بمعارك جانبية بالإضافة الى استعداء الرأى العام العالمى على الحكومة الوفدية وعلى الفدائيين الذين اتهمتهم بريطانيا بإشعال الحريق . وثبت من التحقيقات التى أجرتها الحكومة مسئولية «جماعة إخوان الحرية» المرتبطين والممولين من المخابرات البريطانية عن الحادث وكانت إغارة القوات البريطانية على المدينة مجرد تغطية للجماعة لتنفيذ العملية .. وأعلنت الحكومة فى ١٤ يناير مسئولية إخوان الحرية عن الحريق وإنه كان جزءا من المخطط البريطانى لضرب الوحدة الوطنية.

كانت الخطوة التالية فى حملة الاستفزاز والتصعيد هى اغتيال راهبة امريكية يوم ١٩ يناير وإذا كان حرق كنيسة السويس

موجها أساسا لزعزعة الجبهة الداخلية فان اغتيال الراهبة كان موجها أساسا إلى الرأى العام العالمى وذلك بالايحاء بأن حياة الأجانب مهددة فى ظل الحكومة الوفدية المتعصبة والمعادية لمصالح الأجانب بشكل عام وليس الانجليز فقط ولذا فان تدخل بريطانيا لإسقاطها سيكون مبررا بالحجة التقليدية حماية أرواح الأجانب .

وعلى الرغم من الحملة الشعواء التى شنتها الصحف الامريكية والبريطانية على مصر وعلى عجز حكومتها عن حفظ النظام ومعاداتها للأجانب لانهم أجانب ولانهم أيضا مسيحيون فان تقرير لجنة تقصى الحقائق البريطانية عن الحادث يقول ما معناه أنه من الصعب القاء مسئولية الحادث على الفدائيين إذ أن إطلاق النار كان من الجانبين أى البريطانى والمصرى، وان اللجنة لم تجد من الإدلة ما يقطع بأن الرصاصة التى أودت بحياة الراهبة جاءت من الجانب المصرى اذ ربما تكون قد جاءت من الجانب البريطانى أيضا ولأن التقرير لا يتهم المصريين مباشرة بالاغتيال المتعمد فان وزارة الخارجية البريطانية أرسلت تعليماتها بعدم اذاعة التقرير أو نشره لما قد يؤدى إليه من بلبلة خاصة بعد الحملة الصحفية المنسقة التى أحيط بها الحادث وخوفا من أن يستغل التقرير ضد بريطانيا بالكشف عن ألاعيبها ومؤامراتها .

كانت الخطوة الأخيرة فى الإعداد ليوم الحريق هى مذبحة الاسماعيلية يوم ٢٥ يناير ففى صباح ذلك اليوم حاصرت القوات البريطانية المدعمة بالدبابات والمصفحات والمدافع مبنى محافظة الاسماعيلية ووجه قائد القوة الجنرال اكسهام انذارا الى قائد قوة بلوكات النظام المعسكرة بالمبنى بتسليم أسلحة قواته وإجلائها على المدينة فى ظرف ساعتين وعندما اتصل قائد القوة بوزير الداخلية فؤاد سراج الدين طلب منه المقاومة حتى آخر رجل وآخر طلقة وقد كان. فقاتلت القوة حتى نفدت ذخيرتها بالكامل وقتل ٥٠ جنديا وجرح ثمانون وأسرت القوات البريطانية الباقين أى قرابة الألف جندى بعد أن دمرت مبنى المحافظة بالكامل.

حدد فؤاد سراج الدين باشا بصدق هدف بريطانيا من هذه العملية فى شهادته لم يكن هناك أى مبرر للاستفزاز البريطانى إنما قصد الانجليز وضعنا أمام أمرين إما أن تستسلم القوة المصرية حسب شروطهم فيكون ذلك إذلالاً للوطنية المصرية.. وضربة قاصمة للحركة الفدائية وإما أن تصمد القوة وتخوض معركة غير متكافئة فيحدث ما يحدث ويثور الشعور القومى بصورة حادة .. فيكون ذلك الجو الذى تتم فيه المؤامرة وتضرب

حكومة الشعب ومن ثم تتوقف الحركة الفدائية أى أن الانجليز خططوا لاحتمالين كلاهما يؤدى إلى نتيجة تخلصهم من المأزق الموجودين فيه (١٣).

٢٦ ينـــاير

فيما بين الساعة الثانية عشر والنصف والساعة الحادية عشر مساء كانت النار قد التهمت ٧٠٠ محل وسينما وكازينو وفندق ومكتب ونادى فى شوارع وميادين الاوبرا شارع ابراهيم الجمهورية وشارع فؤاد ٢٦ يوليو وشارع عدلى وشارع قصر النيل وشارع سليمان باشا وشارع عبد الخالق ثروت وميدان مصطفى كامل وشارع شريف وشارع رشدى وشارع جامع شركس وشارع البستان وشارع محمد فريد وشارع عماد الدين وشارع نجيب الريحانى وشارع محمود بسيونى وشارع البورصة الجديدة وشارع توفيق وميدان التوفيقية وشارع جلال وشارع الملكة رمسيس وميدان الاسماعيلية «التحرير» وشارع الخديو اسماعيل«التحرير» وشارع الشواربى وشارع الفلكى وشارع الألفى وميدان حليم باشا وشارع قنطرة الدكة وميدان قنطرة

(١٣) جمال الشرقاوى : مرجع سابق ص ٢٨ ، ٢٩.

الدكـة وشـارع كلوت بك وشـارع دوبريه وشـارع كـامل صدقى وشارع الظاهر وشارع محمود فهمي وميدان باب الحديد وشارع المهرانى وشارع المهدى وشارع خليج الحور وشارع محمد على وشارع الأهرام .

وخلال هذه الساعات أكلت النيران ٣٠٠ محل بينها أكبر المحلات التجارية في مصر كلها ، ٣٠ إدارة ومكتبا لشركات كبرى، ١١٧ مكتب أعمال وشقق سكنية ١٣ فندقا كبيرا منها شبرد ومتروبوليتان وفيكتوريا ، ٤٠ دار سينما بينها ريفولى وراديو ومترو وديانا وميامى وهونولولو ، ٨ محلات ومعارض كبرى للسيارات ، ١٠ متاجر للسلاح ، ٧٣ مقهى ومطعماً وصالة منها جروبى والأمريكين وجميع المطاعم والملاهى الممتازة ، ٩٢ حانة ، ١٦ ناديا ، منها الترف كلوب ونادى رمسيس ونادى دار العلوم والنادى اليونانى ونادى محمد علي ، بنك واحد هو بنك باركليز . وقد أسفرت حوادث اليوم عن مقتل ٣٦ شخصا احترق منهم ٢٢ شخصا ١٣ فى بنك باركليز و٩ فى الترف كلوب و٤ برصاص البوليس وأصيب ٥٢ شخصا بجروح وتشرد عدة آلاف من

العاملين فى المنشآت التى احترقت قدر عددهم بمن يعولون من أسر بعشرين ألف نسمة (١٤) .

وإذا كانت الكتابات ووجهات النظر التى ترى أن الحريق لم يكن مدبرا وإنما كان رد فعل لأحداث اليوم السابق فى الاسماعيلية اعتمادا على أن الحرائق استهلت بحريق كازينو أوبرا الذى أشعله المتظاهرون بالمظاهرة المشتركة لبلوكات النظام وطلبة الجامعة عندما استفزهم وجود ضابط فى شرفة الكازينو يحتسى الخمر ... إلخ . الا أنه لا التقرير السرى البريطانى عن الحريق ولا شهادات شهود العيان تشير إلى ذلك ، بل تؤكد أن الحريق بدا بينما الحياة فى الميدان تسير سيرها العادى فالتقرير البريطانى عن الحريق يؤكد أنه «فيما يخص مظاهرة بلوكات النظام وطلبة الجامعة فى صباح ٢٦ يناير فان اللجنة تعتبر أن هذه المظاهرة لا تشكل جزءا من خطة الحريق ولكنها وفرت فرصة ظاهرة للمدبرين لوضع خططهم موضع التنفيذ (١٥) ويسقول شاهد العيان صالح أحمد على عندما سئل هل كانت توجد أية مظاهرات فى الميدان ؟

---

(١٤) جمال الشرقاوى : مرجع سابق ص ٢٨ ، ٢٩ .

(١٥) F.O 371/96873 . Report of the British embassy Comitte of enquiry the riots in Cairo on the 26 th January p. 34. JE/0/8/86

أجاب «لا فى الوقت ده ماكنش فيه مظاهرات» ، عشان كده إحنا معرفناش على طول إيه سبب الحريق» (١٦) . ويقول شاهد عيان آخر هو أحمد فؤاد ندا «فوجئت بهذه المجموعة «تلم» بعض الكراسى وأخرج أحدهم وكان يلبس «حرملة» مشمع لونها أصفر برتقالى مما كان يستعمل فى أيام الغارات فى الدفاع المدنى .. ويضع على ظهره «مخلة» فيها بودرة وضع يده فيها وأخرجها «بكبشة» ورماها وولع عود كبريت (........) حاولت أتكلم معه .. أريد أن أعرف هو تبع أى جهة .. لم يرد علىّ بكلمة واحدة وكان بيمد وأنا بمد وراه يا أستاذ يا حضرة .. لا رد وإنما يروح مطلع البودرة وموقع الكبريت فى صمت هو وأحد الناس اللى كانوا معاه . شكله طويل مكان ياقة القميص ظاهر فى رقبته من أثر الشمس .. مما يدل على أنه يلبس بدلة وكرافتة دائما .... وجهه أحمر . أقطع بأنه غير مصرى . (١٧) .

أجمعت المصادر الرسمية والبريطانية على أن الحريق كان مدبرا وأن المجموعات التى قامت بتنفيذه تلقت تدريبات خاصة

---

(١٦) جمال الشرقاوى : مرجع سابق ص ٩١ .
(١٧) المصدر نفسه ص ٩٣ ، ٩٤ .

على أسرع الوسائل لإشعال الحريق . فالتقرير يقول فيس فصله الثالث أن اللجنة ذهلت من حجم وكثافة البراهين المجمعة والمؤكدة على أن معظم الحرائق قد خططت بعناية في وقت ما قبل ٢٦ يناير وانها نفذت بواسطة مجموعات منظمة تحت قيادة مسئول نظرا للسرعة والدقة التى كانوا يتحركون بها من هدف إلى هدف. إن هذا يؤكد أن ذلك كان تنفيذا لتعليمات معطاة مسبقا . إن هذه التعليمات كانت على درجة عالية من الكمال والدقة فقد اختيرت الأهداف بحيث تكون فى شوارع رئيسية تسهل الحركة فيها فى حالة أى مواجهة مع البوليس . كما كانت هذه المجموعات المنظمة تحمل معها قنابل حارقة ومسحوق مساعد على سرعة الاشتعال وزجاجات بها مواد بترولية ومواد مشتعلة أخرى بالاضافة إلى (أجنات حديدية) بل ومواقد استيلين لصهر حواجز الصلب الواقية للنوافذ . إن هذه الأدوات والمواد تؤكد للجنة بما لا يدع مجالا للشك وجود خطة معدة مسبقا وبعناية . وتعتقد اللجنة أن مدبرى الحريق كانوا قد اختاروا مسبقا يوم السبت بعد الظهر لتنفيذ خطة الحريق وأن مظاهرات يوم ٢٦ صباحا وفرت لهم الفرصة لتنفيذ ذلك . لقد كان اختيارا موفقا . ففى حوالى الواحدة بعد

الظهر يوم السبت فإن دور السينما تكون مغلقة بعد الحفلة الصباحية . المحلات الكبرى والمكاتب . مغلقة أيضا بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع وبذلك فإن منفذى الحريق يكونون قد نعموا بحرية غير عادية فى تنفيذ خطتهم (١٨) ويقول تقرير آخر «إن إشعال الحرائق كان منظما بدقة وقد ظهر ذلك بوضوح فى درجة الانضباط التى ربما لا يكون لها مثيل فى تاريخ الاضطرابات فى مصر (١٩)» .

وتؤكد الوثائق المصرية الرسمية على المعنى نفسه فقد جاء فى المذكرة التفسيرية لإعلان الأحكام العرفية «أن دعاة الفتنة فى البلاد وفريقا من الذين فسدت ضمائرهم لم يتورعوا عن استغلال هذه الظروف فأثاروا الفتنة وعرضوا مدينة القاهرة للفوضى والدمار والحرق والسرق والنهب محاولين بذلك قلب نظام الحكم فى البلاد وفقا لخطة مدبرة ومطمعين للعدو أن يتخذ من ذلك ذريعة للتدخل فى شئون الوطن» وتؤكد مذكرة وزارة الخارجية المصرية فى ردها على الاحتجاج البريطانى على حوادث ٢٦ يناير على

---

(١٨) مصدر سابق : Report of the British embass y

(١٩) Secret tele from Chancery to Sfri- F.O. 371/96871/ . can department 31/1/52 - JE/0/8/36

المعنى نفسه «أن المعلومات التى تيسر جمعها حتى الآن تثبت أن مثيرى الاضطرابات هم فئة خاصة كانت تنتظر الفرصة السانحة لاشاعة الارهاب والخراب فى المملكة وأتيحت لها الفرصة المواتية فنفذت خطتها الاجرامية» .

كان الحريق خطة مدبرة ومرسومة بعناية قامت به مجموعات مدربة تدريبا عاليا حتى يمكنها أن تقوم بتنفيذ ٧٠٠ حريق بطريقة واحدة كما جاء فى تقرير اللجنة : «إن طريقة إشعال الحرائق كانت واحدة : اقتحام الباب الرئيسى وإلقاء المحتويات فى الشارع أو استخدامها كمواد سهلة الاشتعال خاصة السجاجيد والموبيليا باستخدام سائل أو مسحوق شديد الاشتعال . إن السرعة التى احترقت بها المبانى حتى الكبيرة منها تؤكد أن القائمين بالتنفيذ كانت لديهم معرفة سابقة ودراية بأسرع الوسائل لإشعال الحرائق(٢٠)» .

ويقول كمال رفعت «أنهم كانوا فرقا منظمة من محترفى الحرق والتخريب انقضت على قلب العاصمة فى سيارات الجيب تحمل أحدث أساليب الحرق والتدمير وأشدها فاعلية كانوا يقومون

---

(٢٠) مصدر سابق . British embassv erport

بمهمتهم بأعصاب باردة ودون أن يبدر عنهم شعار أو تصدر عنهم كلمة أو اشارة كان عملهم مدروسا وطريقتهم مرسومة الأماكن التى يقصدونها محددة سلفا تتقدم مجموعة لاقتحام الأبواب أما بنفسها أو بعمل فجوة بمواقد الاستيلين وتسرع إلى الداخل مجموعة ثانية تقذف فى جوف المبنى المواد الناسفة والحارقة وتندفع خارجة بعد ثوان معدودة وفى لمح البصر يكون المبنى كله شعلة من النيران وبعد أقل من دقيقة تكون فرق التخريب قد انتقلت إلى مبنى جديد وفى جميع الأماكن التى امتدت إليها النيران نفس سيارات الجيب ونفس الأسلوب المحكم المدروس»(٢١)» .

إذن لم تكن المظاهرات الغاضبة هى التى احرقت القاهرة بل فرق تتحرك فى سيارات جيب ومواد حارقة وأجنات ومواقد استيلين وخرائط محددة عليها الأهداف التى يجب مهاجمتها وحرقها . فمن تتبع هذه الفرق ؟ ومن الذى مولها وأعد لها الخطة واختار التوقيت ؟ ومن الذى ضمن لها عدم تدخل الجيش والبوليس؟ ومن الذى أمن لها انسحابها بعد انتهاء مهمتها ؟

(٢١) كمال رفعت : مرجع سابق ص ٦٤ ، ٦٥ .

وأخيرا ومن الذى زيف تقارير البوليس وتحقيقات النيابة لكي يحول الانظار عن المجرمين الحقيقيين ؟

اقتسم الملك وبريطانيا الجزء الأول من الخطة أى حملة الاستفزاز ضد حكومة الوفد فكيف اقتسما الجزء الثانى من الخطة أى تنفيذ الحريق ؟

تحدد دور الملك كالآتي :

(١) تغييب البوليس والجيش وشل قدرة الحكومة على استخدامها طوال الوقت الضرورى واللازم لتنفيذ العملية أى ما بين ٦ - ٨ ساعات بشكل يضمن للفرق أداء عملها فى هدوء وسرعة وفى مأمن من إلقاء القبض عليها وبالتالى تعريض الخطة للفشل وكشفها خلال التحقيقات .

(٢) اتخاذ القرار السياسي باعتباره رأس الدولة والمسئول عن أمنها باستدعاء القوات البريطانية لكى تعيد الأمن والنظام إذا ما أفلتت دفة الأمور من يده نتيجة لظروف غير متوقعة . أما إذا سارت الأمور حسب الخطة فان الملك سيكلف الجيش بالتدخل وذلك بعد أن تكون الخطة قد انجزت . وإشارة إلى الموقف فى

٢٦، ٢٧ يناير فان الملك كان قد أرسل أحد ضباطه المخلصين إلى مواقع الجيش على طريق السويس وكانت مهمته أن يشرف على تنفيذ تعليمات الملك والتى كانت تقضى بأن يقاوم الجيش إذا تحركت قواتنا إلى القاهرة قبل الميعاد وإلاّ (أكرر إلا) يقاوم إذا كان زمام الموقف قد أفلت بالكامل» .

That the army should resist if our troops had moved on Cairo premat - urely and not (repeat not) to resist if the situation had in fact got completely out of control.

«كما قال الملك أنه لم يفترض أنهم كانوا يستطيعون مواجهة قواتنا لوقت طويل ولكنه كان متأكدا أنهم كانوا سيبرهنون على قدرتهم على الثبات إلى أقصى حد ممكن فى طاقتهم» (٢٢) .

كانت الخطة إذن أن تثار الاضطرابات وتشعل الحرائق حيث تثبت عدم قدرة حكومة الوفد على حفظ الأمن والنظام فإذا تطورت الأحداث بشكل غير متوقع وخرجت عن قدرة الملك على السيطرة

---

(٢٢) F. O 371/96872 secret tele. ev 0366 from steven-don Fo13/2/52

عليها وأفلت الموقف من يده فان القوات البريطانية ستتدخل . أما إذا استطاع الملك السيطرة على الموقف فان تدخل القوات البريطانية يصبح غير ضرورى لأن الموقف سيكون قد حسم فى الاتجاه المطلوب .

ولكى يؤمن الملك موقفه خوفا من أن يستعجل الانجليز التحرك قبل أن يتضح الموقف أو تتقدم القوات الانجليزية وتحتل القاهرة وتطيح به وبحكومة الوفد معا . خاصة وهو يعلم أن بريطانيا لم تكن يوما راضية عنه وأنها من الممكن أن تعزله وتولى أى من أفراد عائلة محمد على العرش إذا ما رأت في ذلك مخرجا أو مصلحة لها ، خاصة وأنها تعلم مدى كراهية الشعب المصرى له. لم يكن الملك راغبا فعلا فى أن تحتل القوات البريطانية القاهرة لأنها إن لم تعزله فإن هذا الاحتلال سيجعله أسير رغباتهم ومطالبهم . مما يحد من قدرته على الحركة والمناورة والانفراد بالقرار. وأخيرا يظهر الملك بصورة الملك الوطنى إذا ما خالف الانجليز الاتفاق وتدخلوا بدون أن يعطيهم هو الضوء الأخضر بذلك لذا فإنه أصدر أوامره إلى القوات المصرية على طريق السويس بالمقاومة إذا ما فكرت بريطانيا أن تعمل لحسابها فقط ،

وبما أنه كان يعرف جيدا كما قال هو بنفسه للسفير البريطانى أن هذه القوات غير قادرة على المقاومة لوقت طويل أى أنها لن تعرقل بشكل جدى تقدم القوات البريطانية فان الغرض الوحيد من إصدار هذا الأمر هو الاستهلاك الداخلى فحسب .

أدى الملك دوره فى تنفيذ الحريق - وفى تغييب جهازى - البوليس والجيش عن مسرح الأحداث وشل فاعلية القوات الموجودة فى منطقة الحريق . فيوم ٢٦ يناير أختير لاقامة مأدبة غذاء لضباط الجيش والبوليس بالعاصمة فقط . من رتبة صاغ فما فوق ومأمورى الأقسام المختلفة وكان مجموعهم ٨٠ ضابط جيش وبوليس هم تقريبا كل قيادات المستوى الأول والثانى والثالث والرابع . ويذكر محمود البيدينى محافظ القاهرة بالنيابة عام ١٩٥٢ بأنه كان الوحيد الذى لم يدع إلى هذه المأدبة من بين جميع المسئولين عن العاصمة لأنه «كان لابد من شغلى أنا الآخر بانتخابات المجلس الصوفى حيث أرسل محمد حسن أمين الخاصة الملكية يخبرنى بأن الملك مهتم جدا بهذه الانتخابات وأنه شخصيا ينتظر النتيجة» . (٢٣) .

---

(٢٣) شهادة محمود البيدينى : جمال الشرقاوى - رجع سابق ص ٣٠ .

حدد ميعاد المأدبة بالواحدة والنصف على أن يصل المدعون إلى القصر فى الثانية عشرة والربع ويشتعل أول حريق فى الثانية عشرة والنصف أى بعد أن أصبح الضباط أسرى فى القصر لا يمكنهم مغادرته إلا بأمر الملك .

أما قوات البوليس التى وجدت فى مسرح الحوادث أثناء الحريق فإنها لم تتدخل على الإطلاق لوقف التخريب أو القبض على المشاركين فيه بالنسبة لهذه النقطة يقول التقرير البريطانى عن الحريق :

«وقد تلقت اللجنة أدلة جامعة شاملة تؤكد عدم الفاعلية التامة لقوات البوليس كأداة لحفظ القانون والنظام .. إن النقص الواضح فى التعليمات الواجب إصدارها فى مثل هذه الاضطرابات من جانب السلطات المصرية العليا فان رجال البوليس فشلوا تماما فى القيام بواجباتهم كحراس للأرواح والممتلكات»(٢٤) .

إن ما أشار إليه هذا التقرير من غياب أية تعليمات بمقاومة التخريب من القيادات العليا يتضح من موقف اللواء ابراهيم إمام

---

(٢٤) مصدر سابق : الوثيقة البريطانية المذكور.....
British embassy report

رئيس البوليس السياسى الذى تؤكد كل القرائن على أنه كان ضالعا فى العملية وقد تحددت مهمته فى شل فاعلية قوات البوليس التى قد توجد فى مكان الحرائق باعتباره أكبر رتبة موجودة فى مسرح العمليات على أساس أن كل الضباط «العظام» كانوا مدعويين للمأدبة الملكية . ولعل عدم دعوته هو بالذات للمأدبة وهو برتبة لواء تفضح بلا شك طبيعة الدور الذى أوكل إليه . يقول فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية يوم الحريق فى محضر تحقيق النائب العام عن حوادث اليوم أن «اللواء إمام أصدر أمرا إلى مساعدى الحكمدار ومفتشى البوليس فى صباح يوم الحادث بعدم تفريق المظاهرات مخالفا بذلك التعليمات الواضحة والصريحة بتفريق أية مظاهرة ولو بالقوة» .

ويقول الملازم أول حلمى صديق الضابط المكلف بحراسة ميدان الأوبرا يوم ٢٦ يناير : «حضر إلى ميدان الأوبرا كل من السيد اللواء / إبراهيم إمام رئيس القسم السياسى والسيد الأميرالاى / سيد السيسى مساعد فرقة ب بمحافظة القاهرة وكان هناك لوريان يحملان جنودا يقفون بالميدان توجهت إلى الاميرالاى السيد السيسى وطلبت من سيادته الترخيص باستخدام الجنود

وأنه مازالت هناك فرصة لإيقاف التدمير والقبض على الأفراد ، فطلب منى أن أعرض ذلك على السيد اللواء إمام الذى نظر إلىّ ولم يرد بكلمة فوقفت دون أن أجد تعليلاً لذلك وأنا برتبة ملازم أول وهناك كثيرون من الضباط أكبر رتبة انتقلت إليهم مسئولية الموقف» (٢٥) .

كما يذكر فؤاد سراج الدين باشا فى أقواله على لسان أحد الضباط الذين أخذوا مبادرة مقاومة التخريب من أنفسهم أنه بينما كانوا يحاولون تفريق المظاهرات المحيطة بسينما ريفولى «وصل إمام بك وطلب منهما (الضابطين) ترك المظاهرة والذهاب معه إلي حديقة الأزبكية فذهبا ظنا منهما أنهما سيتلقيان أوامر مهمة هناك. ولكنه لم يصدر إليهما أية تعليمات وقد طلبا منه أكثر من مرة أن يأذن لهما بالذهاب إلى مكان المظاهرات ولكنه فى كل مرة يطلب منهما الانتظار وأخيرا أضطرا إلى تركه والعودة إلى مسرح الحوادث» (٢٦) كما ذكر أيضا فى أقواله «بأنه علم أن مدير «أجنس فورد» أخبر الدكتور ألفونس

(٢٥) شهادة الملازم أول محمد حلمى صديق : جمال الشرقاوى ملحق الشهادات .

(٢٦) أقوال فؤاد سراج الدين للنائب العام : جمال الشرقاوى ص ٥٢٢ .

عبدالباقى شقيق حرم النائب المحترم دوس بك أن إمام بك نصحه فى صباح يوم ٢٦ يناير بنقل سياراته من المحل حيث ستحصل مظاهرات فى هذا اليوم ، وفعلا نقلها كلها . «والاجنس» موجود فى شارع عدلى باشا أمام الترف كلوب» (٢٧) وبالطبع لم يقصد اللواء إمام بتحذيره مظاهرات عادية مثل تلك التى اعتادتها القاهرة بشكل شبه يومى وإنما كان يقصد مظاهرات من نوع خاص شارك هو نفسه فى وضع خططها وتحديد أهدافها وخط سيرها : يقول أبو الخير نجيب رئيس تحرير الجمهور المصرى عام ٥٢ وشاهد عيان لحريق الأوبرا «لاتزال صورة زعيم البوليس السياسى اللواء إبراهيم إمام ماثلة أمامى وقد مضى أكثر من ٢٣ سنة . فقد أدهشنى حقا ولازلت أعانى هذه الدهشة حتى الآن وقفته غير المبالية وكأنه رجل وافد على مصر لا دخل له بما يحدث فيها وتفسيرى لسلوك رئيس قلم البوليس السياسى هذا أنه كان راضيا عن هذه الجريمة الخطيرة ولا يمكن تعليل تصرفه هذا إلا بأنه كان يشرف على تنفيذ مؤامرة هو يعلم بها مسبقا وما جاء إلا لكى

(١٧) نفس المصدر ص ٥٢٢

يطمئن على تنفيـذها» (٢٨) ولعل أغرب مـا يمكن أن يقـال عن دور البوليـــس فى ذلك اليـوم هو مـا حدث من قوة البوليـس المكلفـة بحراسة التــرف كـلوب والتى كانت قوامـها عادة ٤٠ جنديا فقد خفضت من ٤٠ إلى ٤ أفراد فقط عندما لاحت المظاهرات فى بداية شارع عدلى (٢٩) .

أما كيف غيب الملك الجيش عن المساهمة فى قمع الاضطرابات فكان ذلك عن طريق حيـدر باشـا رجل الملك . فقـد أتبع حيـدر المماطلة والتسويف فبينما طلب وزير الداخلية نزول الجيش لأول مرة فى الحادية عشرة والنصف فان الملك لم يصدر الأمر بنزول الجيش إلا حوالى الثالثة بعد الظهر عندما توجه وزير الداخلية إلى القصر متوسلا الاسراع بنزوله .

ويبـدو أن إلحـــاح وزير الداخليـــة هـو الذى دفـع الملك إلي إصـدار الأمر ، .. بعد إحاطة المظـاهرات بقصـر عابدين نفسـه وهتافها بسـقوط المـلك وحـالة الفـزع ، التى اسـتولت على الملكة

---

(٢٨) شـهادة الاستـاذ أبو الخيـر نجيب رئيس تحرير الجمـهور المصرى : جمال الشرقاوى ملحق الشهادات .

(٢٩) FO 371/96871 secret from chancery Cairo to African deparbment 31/1/52 JE/0/8/36

أم ولـي العهـد نتيـجـة لذلك فيقـول رفـعت الشـهاوى عضـو الحـزب الاشـتراكي وأحـد قـادة المظـاهرة التي حـاصـرت قـصـر عـابدين في شـهادته « ... وكان فى ذلك اليوم كبار رجال القـوات المسلحـة ورجـال الدولة مدعوين فى قـصـر عـابدين على غـداء مع الملك بمناسبة سـبوع ابنه فكـانت تلك فرصتنا أن نسـمع كبار رجـال القـوات المسـلحـة والملك مـوجـود رأينا بصـراحـة وبعـد ترديد هتـاف عـفيـفى أى (يسـقط عـفيـفى وحـافظ عـفيـفى) . صـرخـت «يسـقط الملك» وكـان ذلك الهـتـاف بسـقـوط الملك صراحـة يطلـق لأول مـرة فى ميـدان عابـدين ورددت الجـماهير الهتاف كـالرعد وكان ذلك فى تمـام السـاعة الثـالثة بالضبط ولم تمر لحظة حتى رأينا السماء تمطر رصاصا من أكثر من جهة .. من القـصـر الملكى حـيث الحـرس الملكى ومن مـسـافـة بعـيدة حيث قسم عابدين (٢٠)» .

فى هذا الوقت فقط اتخذ الملك قراره بانزال الجيش أى عندما وصل الخطر إلى أبواب القصر ويؤكد ذلك السفير الامريكى الذى

---

(٢٠) شـهادة الاسـتاذ رفـعت الشـهـاوى : جمـال الشـرقـاوى ملحق الشـهادات .

كان موجودا فى القصر منتظرا مقابلة الملك عندما ذكر لزميله السفير البريطانى فيما بعد ، نتيجة لمقابلته . «أنه أى الملك – لم يتخذ قرار تدخل الجيش إلا بعد أن ظهر الفزع على الملكة نتيجة لاقتراب المظاهرات من القصر» لو لم تكن المظاهرات قد اقتربت من القصر وهتفت بسقوط الملك فان الملك بالتأكيد كان سيماطل فى اتخاذ القرار حتى ينجز آخر فصل فى العملية أى بانسحاب فرق التخريب .

تفرقت المظاهرات المحيطة بالقصر عندما ووجهت بالرصاص وزال الخطر لذا فان قيادة الجيش لم تعد متحمسة لتنفيذ الأمر إذ أنه بالرغم من صدور الأمر فى حوالى الثالثة فان قوات الجيش لم يكتمل نزولها ولم تبدأ فى تأدية مهمتها إلا فى حوالى الثامنة أى بعد أن كانت الخطة قد نفذت بالكامل وتوقف إشعال حرائق جديدة فى منطقة وسط القاهرة . وحتى بعد الثامنة فان موقف قوات الجيش كان مشابها لموقف قوات البوليس ويذكر التقرير البريطانى: «أن بعض دوريات الحراسة من الجيش كانت تسمح لبعض القائمين بالاضطرابات بالتحرك بحرية بل واختراق صفوف القوة بدون التعرض لها ، وأنه أيضا فى حوالى الساعة ٨،١٥ من مساء يوم ٢٦ يناير وصل لورى محملا بالجنود إلى ميدان سليمان

باشا ونزل عشرة جنود اصطفوا فى وسط الميدان فى مواجهة التمثال وأطلقوا دفعة من مدافعهم الرشاشة فى الهواء ثم عادوا ثانية إلى اللورى الذى انطلق بهم ثانية . كما أن دوريات الحراسة المكلفة بمنطقة قصر النيل لم تقم بعملها على الاطلاق (....) إنه من الواضح تماما أن الجيش لم يتصرف بحزم وشدة وان إطلاقه للنار كان فقط فوق رءوس المتظاهرين وليس أدل على ذلك من أنه لم ترد لنا أية تقارير يعتمد عليها بأن أى من المتظاهرين قد قتل برصاص الجيش فى ذلك اليوم (٣١) والمعنى الوحيد لهذه الفقرة هى أن الجيش نزل متأخرا وبعد انجاز الخطة بالكامل ولكنه أيضا أمن انسحاب فرق الحرق والتخريب .

أما المهمة الثالثة للملك وهى المساهمة ببعض الأفراد فى فرق التخريب والواقع أنه ليس هناك أية براهين تثبت ذلك إلا شهادة حكمدار بوليس مصر اللواء مراد الخولى والتى يقول فيها: «وأثناء أطفاء (حريق أوبرا) جاء نى بلاغ أن هناك حريقا فى سينما ريفولى فذهبت إلى هناك فوجدت «عسكرى» من «حرس السرايا» ينقل النار من مكان إلى مكان وببدلته الرسمية فأخذت أنادى عليه

(٣١) مصدر سابق British embassy re-

من تحت وأزعق عليه .. لم يسأل عنى ، كان معايا مسدس كنت أقدر أضرب فيه لكن خشيت أن أقتله أو أضربه بتوع الجيش يزعلوا وتنتقل الحرب وتبقى بين الجيش والبوليس» (٣٢) .

إن اشتراك عناصر مرتبطة بالقصر أو «الحرس الحديدى» أو مأجورة .. يبدو لنا منطقيا فى سياق أحداث اليوم . خاصة وأن هناك من الوثائق ما يثبت أن رجال القصر حذروا أصدقاءهم الذين خشوا أن يصيبهم أذى من جراء الحريق ولعل هذه الوثيقة تكشف بوضوح عن ذلك ، وهى شهادة لقائد الجناح (البريطانى ، هندل چيمس) :

« .... غادرت السفارة البريطانية متوجها إلى المفوضية الاسترالية . وقابلت مستر ماس الوزير المفوض فاعطيته تقريرا مشابها . وقد كان مستر ماس يناقش صواب الاستمرار فى ترتيبات حفل الاستقبال بمناسبة يوم استراليا الوطنى . وقد أخبرته أننى تلقيت مكالمة تليفونية من أحد كبار المسئولين المصريين المعروف لكلينا ، طلب منى أن أنصح الوزير بعدم عقد الاستقبال» .

---

(٣٢) شهادة اللواء مراد الخولى حكمدار بوليس مصر : جمال الشرقاوى ملحق الشهادات .

وعلى الأرجح أن تكون هذه الشخصية المصرية ، إما الدكتور يوسف رشاد أو حسنى باشا سكرتير الملك لأنهما كانا صديقين شخصيين له . وواضح من خلال تقاريره التى قدمها للسفارة عن هذه الفترة أنه كان على اتصال مستمر معهما .

يمكننا الآن أن نحدد العناصر التى لعبت الأدوار الرئيسية فى تنفيذ الخطة بجانب الملك :

(١) اللواء محمد إبراهيم إمام رئيس قلم البوليس السياسى ومهمته شل فاعلية قوات البوليس الموجودة فى مسرح الأحداث .

(٢) الفريق حيدر باشا قائد عام الجيش واللواء المهدى رئيس الأركان وكانت مهمتهما تأخير نزول الجيش وضمان عدم فاعليته وسلبيته حتى تنجز العملية .

(٣) الدكتور يوسف رشاد وأوكل إليه الاشراف على الفرق المشاركة فى العملية لخبرته الطويلة في مثل هذه المسائل فهو عضو مؤسس «للحرس الحديدى» جهاز اغتيالات القصر الذى قام بمحاولتين فاشلتين لاغتيال النحاس باشا .

(٤) حافظ عفيفى باشا رئيس الديوان وكانت مهمته اختيار اللحظة المناسبة لدفع حكومة الوفد للاستقالة أو إقالتها .

أمـا الملك فـقد اعـتـرف بدوره فى العـمليـة وهدفـه منها عندمـا صـرح للسـفـير البـريطانى بأنه «يواجـه بعض الصـعوبـات من على مـاهر باشا خاصة فى مسـألة التعيينات لكنه أوضـح بأنه هو الذى أخذ على عـاتقه مـسئولية طرد حكومة الوفـد لذا فان ما يقوله يجب أن تقوم به الحكومة الجديدة (٣٣)» .

دور بريطانيا فى الحريق :

بريطانيـا هـى المسـتفـيد الأول من الحـريق بلا مـنازع وذلك فى حد ذاته يدفعنا للإشـارة إليها بأصابع الاتهام .

كان دورهـا واضـحـا فى حملة الاستفزاز والتصعيد ضد حكومة الوفد : هدم كفر عبده وكنيسـة السويس واغتيال الراهبة ومـعركة الاسمـاعيلية والثلاثة الأخيرة تمت فى العشـرين يوما السـابقة على الحريق .

فى أوائل فـبـراير ورد خطاب مـجـهـول إلي على مـاهر باشـا رئيس الوزراء الذى تولى بعد إقالة وزارة الوفد ، هذا نصه : «بـعد التحيـة» أحيط رفعتكم بأنى أثناء تجوالى بسـيارتى فى ٢٦ يناير

---

(٣٣) FO 371/96872 tele . NO 367 from Cairo to F.O 14/2/52 JE 10/8/68

الماضى بالقرب من فندق شبرد وجدت سيارة بها سيدة متوسطة القامة والعمر وبجوارها رجل متوسط العمر والقامة يبدو عليهما أنهما أجنبيان ورأيت غلمانا مصريين يحومون حول هذه السيارة وكانت السيدة والرجل يوزعان نقودا على هؤلاء الغلمان وكان البعض راكبا دراجة والبعض على الأقدام إلى أن أتت سيارة جيب ووقفت بجوار السيارة التى بها السيدة والرجل وأخذ أحد ركابها الخمسة رزمة أوراق مالية من السيدة ... وانصرفت السيارة الجيب إلي شارع فؤاد الأول وتلتها السيارة الأخرى ثم انحرفت على شارع الملكة .. وقد تبعتها بسيارتى فوجدتها ذهبت إلى ضاحية مصر الجديدة ووقفت أمام المنزل رقم ٤٣ شارع سعيد فنزلت السيدة منها وصعدت إلى الدور العلوى بالفيللا وأن الرجل انصرف بالسيارة فتبعته وفى أثناء الطريق حاولت أن أعرف رقم السيارة فوجدت أنه رقم هيئة سياسية ومطموس .... ولم أتمكن من قراءته للأسف ... لكنه تابع سيره إلى السفارة البريطانية ورجعت أنا بسيارتى .

وهذه المعلومات أردت أن أدلى بها لرفعتكم وأرجو اعفائى من ذكر اسمى وتحرون هكذا رفعتكم بمعرفة السلطة المختصة لتظهر الحقيقة جلية واضحة» .

ملحوظة : «سيارة الجيب المذكورة أعلاه بعد أخذ النقود من السيدة التى بالسيارة الأخرى اندفعت بشارع فؤاد ورمت مواد ملتهبة على محلات شيكوريل والعروسة» .

وبعد مراقبة دقيقة من البوليس للشقة المذكورة استطاع أن يحدد معالم شبكة كاملة من شبكات المخابرات البريطانية فقد كانت السيدة التى توزع النقود هى مدام BROOKS WINFORD EITHELR وهى انجليزية أما الرجل فهو جيمس فوخت وهو أيضا بريطانى الجنسية أما باقى أعضاء الشبكة فهم موظفون فى بعثة تصفية المخازن البريطانية أو موظفون فى السفارة البريطانية . وبالرغم من وضوح دور المخابرات البريطانية فى الحريق خلال الكشف عن إحدى شبكاتها فان هذا الخطاب المجهول وتقرير البوليس التفصيلى عن مراقبة أعضاء الشبكة قد اختفيا أو حفظا ولم يشر تقرير النائب العام إلى أى منهما . كما أنه لم يتخذ أى اجراء للقبض أو حتى مجرد التحقيق مع أعضاء هذه الشبكة المشتبه فيهم ، فقد اعتاد البوليس والقضاء على أن يتوقف بتحقيقاته واتهاماته عند أبواب القصر الملكى لا يتعداها ويقبض على المجرمين الحقيقيين : حدث هذا فى محاولتى اغتيال مصطفى النحاس بواسطة الحرس الحديدى وفى قضية مقتل أمين عثمان

عام ٤٦ وفى قضية مقتل الشيخ حسن البنا المرشد العام للاخوان المسلمين .

فى ١٨ فبراير ١٩٥٢ أى بعد ٢٢ يوما فقط من الحريق كتبت روز اليوسف مقالا بعنوان «الأصابع الانجليزية فى حوادث ٢٦ يناير» أكدت فيه أن الأوامر قد صدرت الى موظفى الشركات البريطانية الكبرى ومنها شركة شل وشركة الصناعات الكيماوية بمغادرة مكاتبهم فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٦ يناير وأن ابواب هذه الشركات قد أقفلت فى العاشرة والربع تماما . كما أن بنك باركليز أعلن عن نقل جميع معاملاته الى فرع الموسكى .. وفتح أبوابه لعملائه فى اليوم التالى للحريق ومعنى هذا أن جميع دفاتره ومستنداته قد نقلت من فرع قصر النيل الى فرع الموسكى قبل الحوادث بيوم كامل على الاقل ولو لم تنقل هذه المستندات لما استطاع البنك الاستمرار فى معاملاته وكانت خسارته كبيرة (٣٦) ويؤكد الاستاذ محمد صدقى سكرتير نقابة شملا عام ١٩٥٢ هذه الواقعة عندما يذكر فى شهادته «فى هذه الفترة كنت أسكن فى

---

(٣٦) روز اليوسف – ١٨ فبراير – جمال الشرقاوى : مرجع سابق ص ٤٠

حارة العوايد خلف بنك باركليز .. وقبل الحريق بحوالى أسبوعين لاحظت أن البنك أخذ ينقل خزائنه على سيارات نقل كبيرة وكذلك مستنداته الى فرع الموسكي (٢٧) .»

كما تؤكد روز اليوسف فى نفس المقال ان بعض المواطنين قد شاهدوا مستر ج . د (جمال الدين) مندسا بين المتظاهرين اثناء حريق أوبرا وهو انجليزى أسلم ومتزوج من مصرية ويتكلم العربية بطلاقة ويعتبر من أنشط رجال المخابرات البريطانية في مصر (٣٨) وليس معنى وجود بعض رجال المخابرات البريطانية فى المظاهرات فى ذلك اليوم ان الحريق قد نفذ بواسطة عناصر اجنبية فكل الشواهد تؤكد ان فرق التخريب كانت مكونة أساسا من عناصر مصرية دربت وأعدت فى القاعدة البريطانية بمنطقة كسفريت بالذات حيث كان هناك معسكر خاص تحيطه اجراءات معينة تعزله عن العالم الخارجى عزلة تامة وكان تابعا لقسم خاص من المخابرات البريطانية وقد جمعت المخابرات البريطانية فى هذا

---

(٣٧) شهادة الأستاذ محمد صدقى سكرتير نقابة شملا عام ١٩٥٢ جمال الشرقاوى ملحق الشهادات .

(٣٨) روز اليوسف . مرجع سابق .

المعسكر خليطا غريبا من القتلة والمجرمين والمغامرين المحترفين وقد بلغ من حرصها على عزل هذه الفرق عن العالم الخارجى أن كان معسكرهم معدا ومجهزا تجهيزا كاملا للاكتفاء الذاتى بما فى ذلك وسائل النزعة الجنسية وكان من المحظور تماما الدخول كما كان على من فيه الاقامة الدائمة وعدم مغادرته الا للقيام بمهمة يكلف بها وما كان نزلاء هذا المعسكر العجيب ليقبلوا تلك الحياة اللانسانية الغريبة لولا أحكام الاعدام أو تأييدات الليمانات أو انتقام المخابرات ينتظرهم فى خارجه [٣٩] كما يذكر الاستاذ كمال رفعت أيضا فى شهادته أن الانجليز يدربون مجرمين محترفين لاستخدامهم فى العمليات الخاصة ذلك بمدرسة «شملان» بلبنان – كما كانوا أيضا يأخذون بعض الأفراد من مصر ويدربونهم فى قبرص فى قاعدة «اركيتورى[٤٠]».

ويذكر اللواء شريف العبد وكان ضابط اتصال يقيم داخل المعسكرات البريطانية ويحتك بالانجليز من الداخل أنه كان يلاحظ أن بعض الأماكن يوجد بها مصريون . لكن الانجليز كانوا

---

(٣٩) كمال الدين رفعت . حرب التحرير الوطنية .

(٤٠) شهادة كمال الدين رفعت . جمال الشرقاوى ملحق الشهادات

يحرصون حرصاً كاملاً على ألا أعرف شيئاً عنها ولا أقترب منها .وعندما كنت أقترب بالصدفة .. كانوا لا يتورعون عن وقفى[٤١].

بالإضافة إلى الفرق الخاصة التى أعدتها المخابرات البريطانية إعداداً خاصاً لمهام التخريب والاغتيال كان هناك جماعة «إخوان الحرية» وهو تنظيم ممول من المخابرات البريطانية وإن كان أعضاؤه أساساً من المصريين وكان للجماعة رئيس بريطانى ورئيس مصرى وقد اتجهت الجماعة إلى تجنيد أعضائها من أكثر الطبقات فقرا حيث يمكن أغراؤهم بالمال بسهولة لدفعهم لتنفيذ أغراضها وقد سبق وأن أشرت إلى دور هذه الجماعة فى حريق كنيسة الاقباط بالسويس وقرار الحكومة الوفدية بحل الجماعة بعد ثبوت قيامهم به .

ذكرت مجلة روز اليوسف فى مقالها السابق عن دور المخابرات البريطانية فى حوادث ٢٦ يناير أن التــرف كلوب كان يزدحم يوميا ابتداء من الساعة ١١ ظهرا (٤٠ - ٥٠ عضوا) ولكن يوم الحريق لم يكن فيه سوى عشرة عجائز بالمعاش [٤٢] ويبدو أن

---

(٤١) جمال الشرقاوى ، مرجع سابق ص ٤٣٤

(٤٢) روز اليوسف ١٨ فبراير . جمال الشرقاوى ص ٤٤٠ .

الملك والانجليز قاموا بحملة تحذير واسعة لأصدقائهم وللشخصيات والمؤسسات التى يخشى على حياة الأفراد فيها ولعل تلك البرقية من السفير البريطانى إلى وزارة الخارجية توضح ذلك، إذ أنها تشير إلى أن الخسائر البريطانية نتيجة للحريق تعتبر صغيرة نسبيا بالمقارنة بالخسائر الضخمة التى أحدثها اليوم كما تذكر البرقية أن القتلى الانجليز فى التيرف كلوب هم من العجائز فوق السبعين والثمانين(٤٣). ولنا أن نفترض هنا أن هؤلاء العجائز لم يحذروا لسبب أو لآخر أو ربما تكون المخابرات البريطانية قد ضحت بهم وقدمت موعد وفاتهم عدة شهور لكى يبدو الحريق طبيعياً كرد فعل لأحداث الاسماعيلية فى اليوم السابق حيث يقوم المتظاهرون باغتيال بعض الرعايا البريطانيين انتقاماً لشهداء مذبحة الاسماعيلية، ولكى تبعد الشبهة عن مشاركة بريطانيا فى الحريق إذ كيف يمكن أن تنفذ المخابرات البريطانية حريقا يروح ضحيته رعايا بريطانيين؟ والواقع أن مقتل بعض الأجانب فى الحريق قد استخدمت على أوسع نطاق من جانب الدعاية

---

(٤٣) FO 371/ 96870 Tele. NO. 243 From Stevenson to Fo 29/1/52 JE 10/8/31.

البريطانية ليس فقط لنفى الشبهة عن الاشتراك فى الأحداث ولكن أيضاً لاظهار الوطنية المصرية كحركة معادية للأجانب بشكل عام وليس ضد الوجود العسكرى البريطانى فقط ولعل هذا يفسر لماذا تعمد المدبرون أن يكون التدبير والتخريب أيضاً شاملا لمنشآت ومبان ومصالح تابعة لجنسيات أوربية مختلفة .

أعدت قيادة القوات البريطانية خطتين للتدخل بالقاهرة .

أولاهما والتى أعطى لها الاسم الكودى Rodet Bernard(٤٤) وكانت تهدف إلى اقتحام القاهرة بدون أن يتقدم الملك أو قيادة القوات المصرية بطلب رسمى بدعوة القوات البريطانية للمساعدة فى قمع الاضطرابات وقد صرف النظر عن تنفيذها نهائيا فى حوالى الساعة ٥ بعد الظهر يوم السبت ٢٦ نفسه عندما أدركت القيادة البريطانية أن القوات المتقدمة سوف تواجه بمقاومة شديدة وستوجد بالتالى حالة حرب (٤٥) وان تنفيذ هذه الخطة فى ظل الظروف الحالية تبدو لنا أنها سوف تسبب من الاضرار أكثر مما تنفع(٤٦).

---

(٤٤) F.0371/96870 Record of conversation between the Vcigs and general Robertson on the high speed teleprinter26/2/52.

(٤٥) نفس المصدر .

(٤٦) نفس المصدر .

أما الخطة الثانية وقد أعطى لها الاسم الكودى Rodeo Floil فكانت تهدف فقط إلى اخراج الـ ١٥٠٠ مواطن بريطانى تقريبا وبمجرد أن تنتهى فان القوات المشتركة فيها يجب أن تعود إلى منطقة قناة السويس» (٤٧) ويبدو أن هذه الخطة الثانية المحدودة كانت ستنفذ بواسطة القوات الخاصة المحمولة جوا تجنبا لاصطدامها بالقوات المصرية المرابطة على طريق السويس ولم تنفذ هذه الخطة أيضا لأن الذريعة التى كان من الممكن الاستناد اليها لتنفيذ العملية وهى تهديد حياة الرعايا البريطانيين لم تحدث باستثناء مقتل بعض العجائز الانجليز فى الترف كلوب وحفنة فى بنك باركليز لم تحدث خسائر بريطانية أخرى فى الأرواح . ولأن القيادة البريطانية لم تنفذ الخطة الأولى خوفا من المقاومة التى يمكن أن تواجهها هذه القوات فمن الممكن أن تكون قد ألغت الخطة الثانية لنفس السبب أيضاً . وأخيراً فإن القيادة البريطانية والسفارة كانتا تأملان حتى آخر لحظة فى أن يطلب الملك أو قيادة الجيش المصرى بشكل رسمى دخول القوات البريطانية القاهرة وقد وضعت الخطة الرئيسية فى حسابها هذا الاحتمال عندما

---

(٤٧) نفس المصدر .

تنص على أنه «إذا فشل الجيش المصرى وطلب الملك منا أن نتدخل فإننا نستطيع ويجب أن نتدخل» (٤٨) ولم يكن هذا الحلم يراود القيادة البريطانية والسفارة البريطانية فقط بل وزارة الخارجية البريطانية نفسها والتى ظلت أضواء القسم المصرى فيها مضاءة حتى الصباح فترسل برقية شفرية سرية فى الساعة الثالثة وعشرين دقيقة من صباح يوم ٢٧ يناير تعرض فيها وجهة نظر الوزارة فى الموقف : «هنا (أى فى وزارة الخارجية) يبدو لنا الموقف بأنه إذا كان الجيش المصرى غير قادر على إعادة النظام والقانون وطلب مساعدتنا سواء عن طريق الملك أو عن طريق قيادة الجيش فان هذا سيكون أحسن ظرف للتدخل والذى سيؤدى إلى حل سنرحب به جميعاً ».

This Would the best condition for an intervin-tion and smight lead to a solution we shouldall welcome.(٤٩)

وبناء على هذه البرقية توجه الملحق العسكرى للمرة الثانية إلى قيادة الجيش فى التاسعة من صباح ٢٧ يناير وجدد عرضه

---

(٤٨) نفس المصدر .

(٤٩) Fo.371/96870 Cnfidentiel Cypter tele No. 190from F.o to Cairo D.3..20A.M27 /1/1952..

بالمساعدة ولكن ضباط القيادة وهيئة الأركان رفضوا بشكل قاطع «وأنه ليست هناك حاجة لأية مساعدة منا (٥٠)».

ولم تفقد السفارة وقيادة القوات البريطانية فى مصر الأمل فى استلام الطلب الرسمى بالتدخل إلا فى الساعة الثامنة و٢٢ دقيقة من مساء ٢٧ يناير عندما أبرق السفير البريطانى إلى وزارة الخارجية متحسراً « لم تعد هناك أية امكانية لأن يطلب منا المساعدة فى حفظ النظام لقد مضى الوقت الذى كان فيه هذا الطلب ممكنا » (٥١) .

الدور الأمريكى الخفى :

من الصعب على المتتبع لتاريخ علاقات الولايات المتحدة الأمريكية بمنطقة الشرق الأوسط أن يلاحظ اهتمام السياسة الأمريكية الشديدة بمصر فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . وكان ذلك الاهتمام النتيجة المباشرة لدرس الحرب العالمية الثانية ووضوح أهمية موقع مصر الاستراتيجى .

(٥٠) F.o 371/96870 Cypher tele No193 form Stevenson to F.o 27/1/52 D.M, 48 AM

(٥١) F.o 371/96870 Confidentiel Cypher tele No138 form Cairo to F.o. D8. 22 27/1/52

وحكم درس الحرب هذا مجمل السياسة الأمريكية تجاه مصر فقد أدركت أن قاعدة السويس الضخمة هى نقطة ارتكاز أساسية فى نظام الدفاع الغربى ولا يمكن الاستغناء عنها (٥٢) .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية ترى أنه اذا لم تجد بريطانيا حلا سلميا لنزاعها مع مصر فستصبح مركزا لمقاومة نظام الدفاع الغربى والذى كان مفترضاً أن يبدأ بمصر ثم يمتد بعد ذلك الى جميع الدول العربية (٥٣) لذا فانها قد بذلت أقصى ما فى طاقتها للوصول لحل لهذا النزاع المزمن . وجاء إلغاء المعاهدة : ليدق ناقوس الخطر للسياسة الامريكية عن امكانيات تطور الموقف فى مصر خاصة ، مع ازدياد قوة الحركة الديمقراطية المقاومة لسياسة الأحلاف والمعاهدات غير المتكافئة وتعاظم حركة المقاومة ضد الملك بين ضباط الجيش . واحتمال امتداد اللهيب الى الدول المجاورة لذا فإن الولايات المتحدة رأت فى مقترحات الدول الأربع التى تقدمت بها فى أكتوبر حلاً لهذه المعضلة أى ارضاء المطالب الوطنية المصرية بإلغاء المعاهدة وفى الوقت نفسه الاحتفاظ بقاعدة

---

(٥٢) Coil E,Meyer, Egypt and the u. s.the formative years, associated university press Cranbury, New jersey p37.

(٥٣) نفس المصدر ص ٣٨ .

قناة السويس ضمن نظام الدفاع الغربى . وجاء رفض حكومة الوفد لهذه المقترحات شكلاً وموضوعاً ضربة قاضية لآمال الولايات المتحدة فى امكانية التفاهم مع حكومة الوفد واقتنعت الحكومة الامريكية بوجهة النظر البريطانية بأن الحكومة المصرية بعد رفض المقترحات لن تتراجع عن موقفها فى إلغاء المعاهدة وأن الحل الوحيد الممكن هو تغييرها وإحلال حكومة «صديقة» محلها ، يمكن التفاهم معها . ولعل هذا التفاهم البريطانى الأمريكى هو ما قصده مصطفى النحاس باشا عندما قال «إن هناك اتجاهاً لإحداث انقلاب وزارى لمصلحة الإنجليز والأمريكيين وأن يداً أمريكية تدفع الأمور فى هذا الاتجاه وأنه حسب معلومات النحاس باشا فإن دور حافظ عفيفى قد درس فى واشنطن لا فى لندن»(٥٤) .

إن مصلحة الولايات المتحدة فى إجهاض الوضع الثورى فى مصر ليست محل مناقشة، لقد عملت أمريكا وبنشاط على التخلص من حكومة الوفد وإحلال حكومة «صديقة» مكانها تقبل

(٥٤) عبد الفتاح حسن – مرجع سابق

الدخول فى نظام «الدفاع الغربى» خاصة وأن الوفد كان هو العقبة.

فالملك كان متحمسا لمقترحات الدول الأربع التى رفضتها حكومته . فعندما سأله السفير البريطانى عما إذا كانت لديه أية أفكار يمكن أن تبدأ على أساسها المفاوضات أجاب بأنه متفق معه «فيما يخص الدفاع فإن مقترحات الدول الأربع كافية جداً» (٥٥)

إن صداقة الملك فاروق بكيرمين روزفلت حفيد الرئيس الامريكى تيودور روزفلت ورجل المخابرات الأمريكية الشهير تلقى ظلالا حول الدور الذى لعبه .

والمرجح أن يكون هو الذى قام بتنسيق الخطة بين أطرافها الثلاثة الملك - أمريكا - بريطانيا ووضعها موضع التنفيذ ، فما كان يمكن للملك أن يقبل المشاركة مع بريطانيا فى عمل مثل هذا بدون ضمانات أمريكية مسبقة بألا تستغل الموقف لصالحها فقط أو تقدم على عمل يضعه فى موقف حرج خاصة وأن الثقة بين الاثنين أى الملك والانجليز كانت مفقودة منذ وقت طويل فخلال

---

(٥٥) F. O 371/96872 tele 367 From Cairo to F. O 14/2/52

فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية غالبا ما كان السفير الأمريكى يقوم بدور الوسيط بين قصر عابدين وقصر الدوبارة . وكانت السفارة البريطانية تعول كثيرا على هذه الوساطة لتنفيذ طلباتها التى لا تنتهى نظرا للاحترام والتقدير الذى يكنه الملك للسفير الأمريكى مستر كافرى وليكرمين روزفلت الذى كان يعتبره صديقا شخصياً ولعل أوضح دليل على الدور الذى لعبته أمريكا فى أحداث يوم ٢٦ يناير هو أن السفير الأمريكى كان موجودا بقصر عابدين ابتداء من الساعة الرابعة على الأقل . وكان هو الدبلوماسى الأجنبى الوحيد الذى استقبله الملك فى ذلك اليوم ، يبدو أن هذه المقابلة تمت بصورة سرية ، اذ لم يرد أى ذكر لها سواء فى شهادات المعاصرين أو شهود العيان أو الزعماء السياسيين أو فى أى مصدر آخر غير الوثائق البريطانية التى أشارت الى هذه المقابلة بشكل مختصر جدا حيث ذكرت أن الملك اشتكى للسفير الأمريكى من البريطانيين ولم تحدد لماذا كما أنه أعطى له تقريرا شفهيا عن مأدبة غداء الضباط حيث قال «أنه أعطاهم تعليماته ووصف النتيجة بإنها مرضية» (٥٦)

---

(٥٦) F. O 371 / cypher . no 174 from Cairo to F . o . 26/1/52 JE/0/8/9

بعد الحريق :

كتب السفير البريطانى صباح ٢٦ يناير وقبل أن تبدأ أية حرائق خطابا الى مستر بووكر Bowker المسئول بوزارة الخارجية رداً على خطاب كان قد أرسله له حول أنجح وأسرع الطرق للقضاء على الوفد بعد أن تنجح المؤامرة يعبر فيه بووكر عن قلقه من قوة معارضة الوفد بعد طرده من الحكم ومدى ما يمكن أن تضعه من عقبات فى طريق تنفيذ برنامج ما بعد الحريق، وفى رده على هذا الخطاب يكتب لبووكر مطمئنا «أعتقد انه لا توجد إجابة ملخصة على النقاط الأخرى التى أثرتها ولكنى أعتقد أن هناك مبالغة فى حجم الصعوبات التى يمكن أن تواجهها حكومة جديدة من المعارضة الوفدية حيث أننا يجب أن نضع فى اعتبارنا أن الشك واللامبالاة سوف تنسى المصريين الوفد .

والطريقة التقليدية فى ضرب الوفد وهو فى المعارضة عن طريق الاحتفاظ بعلاقة جيدة مع الوفد واستخدام القمع البوليسى بدون رحمة هى أنجح الطرق . لقد استخدمت هذه الطريقة سابقا وأعتقد أنها يمكن أن تستخدم ثانية (٥٧) .

(٥٧) F . O 371 / 96872 . letter from stevenson to R. J. Bowker F. O London S WI 26/1/52

كشف السفير البريطانى فى هذه الرسالة عن الوسائل التى ستتبعها بريطانيا للقضاء على الوفد فلم يكن الحريق هدفا فى حد ذاته ولاكان وسيلة لطرد الوفد من الحكم فحسب ولكن أيضا للقضاء عليه بالقمع البوليسى بدون رحمة .

كان الإلحاح البريطانى على تحميل الوفد ، مسئولية الحريق قبل أن يقول القضاء كلمته الأخيرة مركزا ويوميا وتكاد ألا تخلو أية رسالة من الرسائل المتبادلة بين الوزارة والسفارة البريطانية فى مصر من تأكيد هذا الاتهام وتكاد لا تخلو أيضا أية مقابلة بين السفير البريطانى وأى من المسئولين المصريين من طلب ملح بالتركيز على ابراز هذه النقطة .

فبعد أربعة أيام فقط من الحريق وثلاثة أيام من مباشرة الوزارة المصرية الجديدة أعمالها وفى أول مقابلة بين السفير البريطانى وعلى ماهر باشا رئيس الوزراء الجديد الذى عين بعد إقالة حكومة الوفد الوطنية ، يقدم السير رالف ستيفنسون السفير البريطانى قائمة المطالب البريطانية وكان أولها «ضرورة معاقبة المسئولين عن الحريق سواء المشاركين فيه فعلياً أو بالإهمال»

وقـــد أكـــدت على مـسئـوليـة وزيـــرى الداخليـة والشـئون الاجتماعية السابقين(٥٨) .

وفى يوم ٣١ يناير يطلب السفير البريطانى من وزارة الخارجية البريطانية تنظيم حملة دعائية «حتى يدرك الرأى العام هنا وفى الخارج الحالة المروعة التي قاد إليها حزب الوفد البلد (...) إذا استطعنا متابعة هذا الخط بقوة فإن ذلك ربما يساعد على ماهر فى مواجهة الوفد الذى يعد نفسه بالتأكيد للعودة للحكم» (٥٩) .

وتحسبا لهذه العودة المحتملة .. يحاول السفير أن يعزل الوفد سياسـيـاً سواء بمنعه من أن يتعاون مع الحكومة أو مع القوى السياسية الأخرى حتى يستطيع السفير أن يفرض شروطه وطلباته على الحكومة بدون أن تواجه بضغط مباشر من الوفد على الحكومة أو غير مباشر عن طريق الجبهة الوطنية المزمع تشكيلها لذا فإنه يقابل الياس اندراوس باشا حتى يتأكد من أن الملك سوف يمارس ضغطه على عليّ ماهر باشا بخصوص مغازلته

(٥٨) F . o 371 / 96871 Cypher secret tele No 25b from stvenson on to F . o 30/1/52 JE /0/8/35

(٥٩) نفس المرجع .

الخطيرة للوفد ،كما أكد بشكل خاص على أنه لا أمل فى التفاوض مع مثل هذا التشكيل المقترح للجنة السياسية الوطنية إذا كان محمد صلاح الدين على علاقة بها (أى اللجنة) بأى شكل من الأشكال» (٦٠) . ولم ينس بالطبع كما اعتاد منذ يوم ٢٦ يناير أن يشدد على ضرورة القاء مسئولية أحداث ٢٦ يناير على فؤاد سراج الدين باشا وزير داخلية الوفد (٦١) .

لم يكن السفير البريطانى سير رالف ستيفنسون راضياً عن مجرى الاحداث بعد الحريق فقد كان يرى أن حكومة الوفد لم تتلق الإدانة الكافية على «جرائمها» وبعد أن كان قد طلب من حكومته يوم ٣١ يناير تنظيم حملة دعائية ضد الوفد فى الداخل والخارج ، يعود يوم ٥ فبراير وبمناسبة الاحتجاج الذى كان من المفترض أن يقدم فى الغد - ٦ فبراير ، ليطالب بتنظيم الحملة لأن «حكومة الوفد لم تتلق بعد الإدانة التى تستحقها ، وأن موقف الصحافة العالمية يعوزه الحماس لذا فإننى آمل أن تغطى هذا الاحتجاج حملة دعائية كاملة مدعمة اذا كان ذلك ممكنا بتصريح فى مجلس العموم» (٦٢) .

---

(٦٠) F . o 371/96871 cypher tele from stevenson to f . o ٣/ 2/JE / 0 / 47

(٦١) نفس المصدر .

(٦٢) F . 0371 / 96872 from Cairo to F. O 5/2/52 JE/0/8/59.

جاء الاحتجاج البريطانى لا ليحمل حكومة الوفد المسئولية السياسية عن الأحداث فقط بل ليتهمها أيضا بالمشاركة فيها «إن اللامبالاة والإهمال يقودانا الى الاعتقاد بأن الحكومة المصرية فى ذلك الوقت (يقصد حكومة الوفد) لم تكن غير مهتمة فقط بالمحافظة على النظام والقانون ودفع الخطر عن حياة الأجانب وممتلكاتهم بل أنها شجعت أنشطة المجرمين ، وكانت على علم بالمؤامرة» (٦٣).

ويستمر تصعيد الحملة ضد الوفد حيث تنصح الوزارة سفيرها بأن «تتقدم الدول التى أضيرت مصالحها بالحريق بمطالب مشتركة أو على الأقل بتنسيق كامل فيما بينها لأن ذلك مفيد تكتيكيا» (٦٤). ومحاولة اثبات المسئولية الرسمية للحكومة الوفدية عن الحريق بشكل جماعى تعنى ان قبول مطالب دفع التعويضات هو اعتراف ضمنى بمسئوليتها عن أحداث ذلك اليوم أى اعتراف رسمى بعدم قدرتها على حفظ الأمن وحماية أرواح الأجانب ومصالحهم .

---

(٦٣) F . o 371/96872 5 / 2 / 52 JE/0/8/54

(٦٤) F . o 371 / 96871 from F . O to Chancery Cairo 9/ 2 / 52 JE/0 / 8 /46

بذلت السفارة البريطانية كل ما فى وسعها لتحمل الوفد مسئولية الأحداث ثم جاء تقرير لجنتها لتقصى الحقائق عن الحريق «بمثابة قرار اتهام كامل وتفصيلي وخاصة الفصل الأول - ضد فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن وضد وزارة الوفد بشكل عام . والتقرير يتهم الوفد بتخطيط تنفيذ الحريق . ومنذ البداية استخدمت حكومة الوفد كل الوسائل المختلفة لحث الجماهير على القيام بالأعمال العدائية ضد البريطانيين فى منطقة القناة بشكل خاص وخلق جو عدائى ضد المصالح البريطانية فى كل البلد بشكل عام»(٦٥) .

تشكلت «كتائب التحرير» وكان المسئول فى الحكومة عن مدها بالمال والسلاح عبد الفتاح حسن باشا فضلا عن تسريح بعض ضباط الجيش والبوليس لتدريبهم ولا شك أن ذلك كان بتنسيق مع سراج الدين . ونظم حزب «الوفد» ، مظاهرات ٢٦ ، ٢٧ ديسمبر ١٩٥١ ضد تعيين حافظ عفيفى رئيسا للديوان، هذا فضلا عن طرد الموظفين البريطانيين العاملين فى خدمة الحكومة المصرية

---

(٦٥) F . o 371 / 96873 Report of the British embassy Comitte of enquiry into the riots Cairo on the 26 th January JE/0/8/86.

واعداد قانون بإباحة حمل السلاح بالإضافة الى التشريع الخاص بمعاقبة أى مصرى يتعاون مع القوات البريطانية فى منطقة القناة، وكان فؤاد سراج الدين باشا ووزارة الداخلية المصرية هما «الدينامو» وراء كل هذا ، وهذا ما جعل السفارة تركز عليه هجومها فكان مسئولاً عن كل شئ فى نظر لجنة تقصى الحقائق حتى أنه هو الذى مول أحمد حسين زعيم حزب «مصر الفتاة» إن اللجنة تعطى أهمية كبرى لوجود منظمة تحت إمرة أحمد حسين زعيم الحزب الاشتراكى تشكل خطراً كبيرا على الأمن العام وأن هذه المنظمة كانت ممولة من فؤاد سراج الدين وأن هذا التمويل هو الذى مكن أحمد حسين من الانفاق على تشكيله العسكرى[٦٦].

كان من الواضح أن الحكومة مصممة على القيام بعمل استفزازى كبير ضد القوات البريطانية فى منطقة القناة ، بعد أن اتضح فشل طريق المفاوضات .

ولعل أخطر وأغرب ما فى هذا التقرير هو الفقرة السابقة من الفصل الأول والتى ترى أن حادث الاسماعيلية ، هو الاستفزاز

---

(٦٦) تقرير لجنة تقصى الحقائق : مصدر سابق ص ٢ .

الذى كان فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن يسعيان إليه [٦٧]
أى أن التقرير يتهم الحكومة بأنها هى التى كانت تسعى الى الاستفزاز عندما نفذت القوات البريطانية مذبحة الاسماعيلية لتكون الخطوة الأخيرة فى الطريق الى القاهرة .

فى رأى اللجنة أن خلفية الموقف من صباح ٢٦ يناير كانت كالآتى :

أ - حالة من التوتر الشديد ارتفعت نتيجة للدعاية الحكومية ومقالات الصحف الخاصة بأحداث الاسماعيلية فى اليوم السابق.

ب - وجود أعداد كبيرة من المتظاهرين فى الشوارع بالاضافة الى الخطابات المهيجة لفؤاد سراج الدين والآخرين مساء ليلة ٢٦ يناير .

جـ - أذاعت الحكومة المصرية بيانا بأن مصر سوف تقاوم حتى يخرج آخر جندى بريطانى من مصر .

د - إن الحكومة المصرية فى جلسة غير عادية بحثت مسألة قطع العلاقات مع بريطانيا وطرد جميع أفراد الجالية البريطانية من مصر ونزع ملكية رجال الأعمال البريطانيين [٦٨] .

(٦٧) نفس المصدر : ص ٣ .
(٦٨) تقرير لجنة تقصى الحقائق البريطانية مصدر سابق .

هكذا أصدرت السفارة قرار اتهامها ضد الوفد ولكنها قبل أن تصدر هذا القرار كانت قد أصدرت الحكم بالاعدام على الوفد والقضاء عليه بحيث لا تقوم له قائمة بعد ذلك وحددت وسائلها وهى القمع البوليسى أولا مستغلة فى ذلك خضوع الحكومة الجديدة لكل طلباتها التى تمادت فيها لدرجة أن السفير البريطانى السير رالف ستيفنسون طلب اعتقال كل من فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن ولكن على ماهر رفض ذلك (٦٩) .

ولأن الخطة أثمرت سريعا وبدا أن كل شئ فى مصر يسير على ما يرام ولذا فقد مَنَّ السفير نفسه بشهر عسل طويل بلا نهاية مع حكومة على ماهر الصديقة والملك المتعاون الذى يبذل هو أيضا قصارى جهده لمحو سجل الوفد من ذاكرة المصريين .

وكما اختارت بريطانيا قبل الحريق الهدف الذى ستوجه له سهام اتهامها فإن الملك أيضا قد حدد هدفه وهو «شنق» أحمد حسين زعيم الحزب الاشتراكى والذى قاد أكبر وأعنف حملة تشهير وفضح للملك على صفحات جريدة الحزب الاشتراكى خلال عامى ١٩٥٠/١٩٥١ .

---

(٦٩) عبد الفتاح حسن : مرجع سابق ص ١٠٣ .

كانت إقالة الوفد تعنى تحميله المسئولية السياسية عن الأحداث ، أما أحمد حسين فقد أختيرت له المسئولية الجنائية وسخر الملك لذلك أجهزة وزارة الداخلية التى كان وزيرها مرتضى المراغى مصمماً على إعدام أحمد حسين بإختلاق أدلة فقد «أوضح لضباطه منذ وقت طويل بأنه اذا لم يستطيعوا أن يقدموا أدلة ضد أحمد حسين فانهم سيقدمون للمحاكمة» (٧٠) .

وظهر أيضاً اتهام للشيوعيين بالقيام بحريق القاهرة ، إذ ظهرت ملصقات فى أماكن مختلفة في القاهرة تقول : «الشيوعيون فعلوا هذا» وتأكد هذا فى الشهادات التى أوردها جمال الشرقاوى فى كتابه ، لعبد الوهاب غنايم رئيس تحرير صوت الأمة عام ١٩٥٢ الذى قال أنه رآها يوم ٢٥ يناير الساعة التاسعة مساء ويوم ٢٦ يناير صباحاً و ٢٧ صباحاً عند كوبرى شبراً وعند الازبكية . (٧١) وشاهد آخر هو محمد صدقى قال فى نفس الكتاب أنه شاهدها عند كوبرى الملك الصالح الساعة السابعة يوم ٢٦

---

(٧٠) مقابلة مع مرتضى المراغى F . O 371 / 96875 Secret . tele. No 871 from Cairo to F . o

(٧١) شهادة الاستاذ عبد الوهاب غنايم رئيس تحرير الامة عام ١٩٥٢: جمال الشرقاوى .

ينــاير وهو فى طريقـــه الى عمله فى مـحـــلات شـمـلا بشـارع فؤاد [٧٢] .

نفت المصادر الانجليزية والمصرية أية مشاركة للشيوعيين فى الحريق فقد ذكر مرتضى المراغي وزير الداخلية لـ M . J Creswell «أنه لا توجـد أية قـرائن من أى نوع عن مـشـاركة الشـيـوعـيين المبـاشـرة فى الاضطرابات (حـريق القـاهرة) وقـد قلت له أن مـعلوماتنا تتـفق مع ذلك» [٧٣] . وهذا ينفى أن أى من الجـهـتين سواء السـفارة أو القصـر هى التى قامت بطبع هذه الملصقات ، ويميل عـدد من الكُتّاب الى القـول أن هذا من فـعل المخـابرات المركـزية الامـريكيـة ، وأن هذا هو نصـيب أمـريكا من «نتـائج الحريق» .

---

(٧٢) شـهادة الاستـاذ مـحمد صدقى سكرتير نقابة عمـال شـملا عام ١٩٥٢ : جمال الشرقاوى ملحق الشهادات .

(٧٣) F . O 371 / 96875 from M . J Creswell to F.O12/5/52

حكومة تولد فى سيارة إسعاف

لعب الأخوان علي ومصطفى أمين دوراً كبيراً في مهاجمة «الوفد» فقد كانت «أخبار اليوم» هى رأس الرمح فى هذا الهجوم، إذ ركزت كل مادتها على «فضائح» الوفد ووزرائه وزعمائه دون إشارة الى دوره الوطنى البارز .

وتتذكر الوثائق البريطانية الكثير عن دورهما الحاسم فى إقالة حكومة الوفد بعد حريق القاهرة ، وتعيين حكومة على ماهر باشا ، بعد أن لعبت «أخبار اليوم» دوراً فى إلقاء تبعة «الحريق» على الشيوعيين ! ومن سياق الأحداث كما روتها الوثائق ، يتضح بجلاء هذا الدور :

(١) عندما استقبل الملك على ماهر باشا فى الساعة السابعة اتفق معه على تشكيل حكومة جديدة برئاسته وغادر على ماهر بعد ذلك القصر الى منزله ، ولكن فى حوالى الساعة الثامنة وبينما كان أحد كبار موظفى القصر يستعد لمغادرته ليسلم مصطفى النحاس قرار إقالته ويسلم على ماهر قرار تكليفه ، وصل الى القصر حيدر باشا قائد عام الجيش ليحتج ، لدى الملك على إقالة الوفد وتكليف

على مـاهـر بدون أن تأخـذ وجـهـة نظره وقـال انه يوجـد وفـديون كثيرون فى الجيش وإنهم سوف لا يغفرون إقالة النحاس وأشار على الملك بأن يسـتـدعى مـصطفى النحـاس ويطلب منه تشكيل حكومة قومية وفى حالة رفضه فسوف يكون ذلك مبرراً لأن يقال أنه قـد أعطى فـرصـة أخرى . وعـقـد الملك اجـتـمـاعـاً آخـر مع مـسـتـشـاريه وأجل إرسـال قـرارى الإقـالة والتكليف حـتى يتـضـح الموقف ويقوم بمشاورات جديدة .

(٢) بعـد الثـامنة بقليل تلقى أحـد المسـئولين فى السـفـارة البريطانية مكالمة تليفونية من على أمين – العدو اللدود للوفد – وسأل عن حقيقة ما اذا كان هناك تحرك لقوات بريطانية كبيرة فى منطقة القناة وقد وضح المسئول البريطانى له بأنه لا توجد لديه معلومات محددة عن تحركات للقوات البريطانية ولكن لا شك فى أن القيادة العسكرية تعد للتدخل إذا ما تجددت أعمال العنف ضد الرعـايا والممـتلكات البـريطـانيـة ، وردا على سـؤاله حـول مـوقف السفارة إذا ما تم تغيير الحكومة الوفدية أجاب المسئول البريطانى «بأن الحكومة الجـديدة إذا أثبتت أنهـا قـادرة على حـفظ القـانون والنظام وحـمـاية أرواح الرعـايا البريطانيين فـإن مـسـألة التـدخل

«بأن الحكومة الجديدة إذا أثبتت أنها قادرة على حفظ القانون والنظام وحماية أرواح الرعايا البريطانيين فإن مسألة التدخل سوف لا تصبح مطروحة للمناقشة (٧٤) .

اتصل على أمين على الفور بأخيه مصطفى أمين الذى كان بالقصر الملكى وأبلغه بمضمون المحادثة فأبلغها بدوره الى الملك .

في ذلك الوقت كان الملك ومستشاروه قد اقتنعوا نسبيا بمنطق حيدر باشا أى بضرورة استدعاء النحاس وتكليفه بتشكيل حكومة قومية ائتلافية فاتصل الملك بعلى ماهر وأبلغه بانه قد غير رأيه وانه سيستدعى النحاس أولا وأنه سوف يكلفه (أى على ماهر) بتشكيل الوزارة إذا ما رفض النحاس فكرة الوزارة القومية كما هو متوقع. وقد اقتنع على ماهر باشا بوجهة نظر الملك .

ولكن بعد فترة قليلة عاد على ماهر واتصل بالملك وأبلغه أنه أعاد تقييم الموقف وأنه سوف يشكل الحكومة الجديدة فقط إذا لم يتم استدعاء النحاس على الإطلاق . كان السر وراء تغيير على ماهر لموقفه هو زيارة عاجلة قام بها على أمين له فى سيارة إسعاف لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للانتقال بسهولة فى مثل هذه الحالات المستعجلة جدا فى ظل حظر التجول المفروض على البلاد بعد «الحريق» .

بعد أن غير على ماهر باشا موقفه على إثر مقابلته لعلى أمين ساد المجتمعين بالقصر إحساس عام بأن تدخلاً بريطانيا واقعا لا محالة . وكان حيدر باشا غير مقتنع على الإطلاق بصحة هذا وقال إن معلومات الأخوين أمين غير صحيحة لأن جهاز مخابراته لم يبلغه بأية تحركات بريطانية على الإطلاق فعاود مصطفى أمين وبتشجيع من عمرو باشا الاتصال بالسفارة البريطانية في حوالى التاسعة والربع ولكنه لم يتلق على الاطلاق تأكيدا لمسألة التدخل .

بعد العاشرة بقليل تمكن حافظ باشا من الانفراد بالملك وأقنعه بأن تغيير حكومة الوفد مسألة ضرورية وملحة وقبيل الحادية عشرة بقليل تلقى مصطفى النحاس خطاب إقالته وتلقى على ماهر خطاب تكليفه (٧٥) . .

وفى أول مقابلة بين السفير البريطانى سير رالف ستيفنسون وبين على ماهر باشا قدم السفير قائمة طويلة من المطالب والشروط والنصائح خلاصتها : «العودة بالعلاقات المصرية – البريطانية الى مستوى ما قبل حكومة الوفد أى الى ما قبل الغاء المعاهدة .

---

(٧٥) المصدر السابق F . O 371 / 96872 No45..

(١) معاقبة المشتركين في الحريق بالتنفيذ أو بالإهمال وأكد على مسئولية وزيرى الداخلية والشئون الاجتماعية السابقين (٧٦) أى على معاقبة الوفد في شخص سكرتيره العام وفى شخص الوزيرين اللذين نفذا خطة إلغاء المعاهدة .

٢ – وضع رقابة على السلاح في كل انحاء البلاد وقد وافق على ماهر باشا على ذلك وقال أن التشكيلات التى تخضع لرقابة الحكومة فقط هى التى سوف يسمح لها بحمل السلاح وأن هذا لن يحتفظ فى منازل الأفراد .

٣ – فرض الرقابة على الصحف المتطرفة ووافق على ماهر على ذلك وقال أن تشريع قانون عام جديد غير ممكن فى الوقت الحاضر ولكن خطوات مهمة سوف تتخذ لمنع التحريض على العنف .

٤ – خفض درجة التوتر وقد أكد على ماهر أن حكومته لن تتابع الإجراءات التى اتخذتها الحكومة السابقة وخاصة قانون عدم التعاون مع البريطانيين . كما ألح السفير على ضرورة القضاء على الارهاب (الفدائيين) فى منطقة القناة عن طريق

(٧٦) F . O 371 / 96871 cypher Secret tele No 256 from st venson to F . o 30 / 1 / 52 JE/ 0/8 35.

السماح للسلطات المحلية بالتعاون مع السلطات العسكرية البريطانية فى حفظ النظام ،ووافق على ماهر على هذه النقطة وقال أنها واحدة من النقاط التى يزمع مناقشتها مع حاكم منطقة السويس[77] .

بعد أن نسق السفير سياسته مع سياسة على ماهر فى المسائل ذات الطبيعة المستعجلة مثل إيقاف العمل الفدائى وقانون عدم التعاون .. الخ اتجه الى القصر لينسق خطة مواجهة أى تحرك للوفد والقوى الوطنية ضد الملك والانجليز .

وتقضى هذه الخطة بتدخل القوات البريطانية إذا أفلت الزمام من يد الملك ولم يكن مقتنعا بما قاله الملك بأنه سيطلب تحرك القوات البريطانية عندما يفقد سيطرته على الموقف ويلح السفير على ضرورة إعطاء القوات البريطانية والسفارة «شيك على بياض» بحرية التدخل عندما ترى بريطانيا أن ذلك ضرورى ويعلل ذلك بأن انتظار طلب من الملك ، قد يؤدى الى تأخير قواتنا لأنه من الممكن أن يكون الموقف سيئاً لدرجة أن الاتصال بيننا يمكن أن يكون

---

(٧٧) نفس المصدر .

مسألة غير ممكنة فى مثل هذه المواقف وربما يكون من الضرورى أن تتقدم قواتنا لتتخذ مواقعها فى وقت مبكر حتى يمكن أن يكون تقدمها سريعاً .. وأن تقدم القوات البريطانية يجب ألا ينظر إليه كعمل عدائى من جانب القوات المصرية لذا فأنه من الضرورى وجود نوع من التنسيق غير العلنى بين قواتنا البرية ..

وقال الملك أنه قد تفهم الموقف بشكل كامل ووافق على رغبتى فى وجود اتصال بين القوات ولذا فإننى اقترحت أن أرسل ملحقى العسكرى خلال عدة أيام لمناقشة المسألة مع هيئة الأركان المصرية وقد وافق الملك ووعد بأعطاء التعليمات الضرورية بذلك ..» (٧٨) ..

كانت بريطانيا إذن تعلم أن الوضع لن يستمر هادئا بعد إقالة حكومة الوفد . وكانت السفارة البريطانية تتوقع تحركاً وفدياً شعبياً ، قد يطيح بكل شئ . هذا رغم نجاح مؤامرة «حريق القاهرة» فى إيقاف المد الشعبى الجارف وحركة الفدائيين إذ أودعوا السجون التى امتلأت أيضا بأعضاء التنظيمات الوطنية والتقدمية .

(٧٨) F .O371 / 96872 cypher Aecret tele No 366 from Stevenson to F. O 13 / 2 / 52 JE / 0 / 8 / 66

الوثائق السرية البريطانية

لجنة تقصي الحقائق بالسفارة البريطانية بالقاهرة

عن

حوادث الشغب بالقاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢

أعضاء اللجنة

الرئيس : مستر م . ت . اودسلى ، مستشار (شئون العمال) .

الأعضاء : مستر . أ ، هـ . كنج ، القنصل العام بالقاهرة .

السكرتير : مستر ماركوس هيل ، ممثلا لغرفة التجارة البريطانية ، مستر ج ، ب ، فلكس ، السكرتير الأول التجاري ، مستر س . ج فولكس ، ملحق .

السكرتير : مستر ك . هـ . كلوكاس السكرتير الثانى (شئون العمال) .

السكرتير المساعد : مستر د . كين بويد .

فهرست

الفصل السادس : أدلة على هجمات أو تهديدات
موجهة الى رعايا بريطانيين
ورعايا غير مصريين

الفصل السابع : أدلة على موقف بوليس مدينة
القاهرة أثناء حوادث الشغب .

الفصل الثامن : الأدلة على نشاطات الجيش المصرى
بعد نزوله للمدينة

الفصل التاسع : الأدلة فيما يختص بكفاءة وتأثير قوة
المطافى

الفصل العاشر : الأدلة بخوض المساعدات التى قدمها
مصريون الى أشخاص مأزومين أو
لاحباط عنف الرعاع .

الفصل الحادى عشر: تفا صيل عن خمس هجمات على
أرواح وممتلكات بريطانية .

● الفصل الثاني عشر

ملاحظات ختامية

● ملاحق ●

● قائمة بالمؤسسات التى أحرقت أو نهبت بالقاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ كما هو معروف حتي ١٢ فبراير ١٩٥٢ اس

ب ● اقرار السير توماس رسل باشا

ج ● اقرار من أ. ت. ويليامسون

د ● اقرار من المستر ج. هامبروك

و ● اقرار من مستر جون ستيوارت سميدن

ز ● اقرار من المستر تيترنجتون

الفصل الأول

ملخص للأحداث السابقة على يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ والتى لها صلة بحوادث الشغب التى جرت فى القاهرة فى ذلك اليوم

١ - عند تعرض اللجنة لأحداث الشغب والتدمير الواسع النطاق للممتلكات الذى جرى فى القاهرة يوم ٢٦ يناير عام ١٩٥٢، فى الاعتبار، فإنه نرى من الضرورى أن نستعرض باختصار فى بداية هذا التقرير بعض الأحداث ذات المغزى والصلة التى حدثت بعد أن ألغت الحكومة المصرية من جانب واحد المعاهدة البريطانية - المصرية يوم ١٥ اكتوبر ١٩٥١.

٢ - منذ البداية فإن الحكومة الوفدية حاولت بكل السبل التى تحت يدها أن تلهب الجماهير المصرية للقيام بأعمال عدائية ضد القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس، وأن تخلق عداءً متزايدا فى جميع أنحاء البلاد تجاه المصالح البريطانية عموما.

٣ - وفى محاولة الحكومة الوفدية أن تظهر للعالم وحدة الأمة وتأييدها لسياسة الحكومة، فإنها نظمت تظاهرات ضخمة فى ذكرى عيد الجهاد الوطنى يومى ١٣، ١٤ نوفمبر ١٩٥١ فى الاسكندرية والقاهرة. ولقد مرت تلك التظاهرات بسلام وبطريقة منظمة - رغما عن سوابق الماضي ومخاوف سلطات الأمن المسئولة.

وكان ذلك شيئا ذا مغزى، حيث ظهر - أنه عندما ترغب الحكومة، فى سبيل أهدافها، أن تحافظ على النظام بين جماهير أضخم بكثير من تلك التى كانت فى الشوارع يومى ٢٦ يناير ١٩٥٢، فإنها كانت تستطيع ذلك.

ولقد تبنت الحكومة تكوين «كتائب التحرير» وتدريبها رغما عن - كما فهمت اللجنة - التحذيرات المتكررة الصادرة عن مستشاري الأمن للحكومة - وعن القصر، بأن تلك «الكتائب» لايمكن السيطرة عليها وأنها سوف تكون بمثابة تهديد مستديم للنظام العام.

ولقد تم اتخاذ خطوات بعد ذلك لاخضاع الحركة «الكتائب» اسميا لسيطرة الحكومة، فتم تأليف لجنة للاشراف على التدريب.

على أنه كان واضحا من الخطوات التى اتخذت أن هدف الحكومة هو فرض السيطرة بينما تظل فى نفس الوقت فى وضع

يسمح لها بالتنصل من مسئولية أفعال تلك «الكتائب». ولقد أعطت الأحداث التى تلت تكوين تلك «الكتائب» مؤشرات قوية تدل على أن عبدالفتاح حسن باشا - الوزير السابق للشئون الاجتماعية والقائم بأعمال وزير الحربية والبحرية - كان قادرا أن يظل تقريبا الوزير المسئول عن «كتائب التحرير». ومن خلال سلطته هذه استطاع ندب بعض ضباط البوليس والجيش لتدريب وإدارة عمليات «كتائب التحرير» بالاضافة إلى صرف كميات من الأسلحة والذخائر.

لقد أشيع أيضا أنه، وبدون شك باتفاق فؤاد سراج الدين، وهو الذى دبر التظاهرات الطلابية التى جرت فى القاهرة والاسكندرية يومى ٢٦، ٢٧ ديسمبر ١٩٥١ ضد تعيين حافظ عفيفى باشا رئيسا للديوان الملكى.

ولقد تسامحت الحكومة أيضا فى نشر إعلان فى أحد الجرائد عن رصد مكافأة لقتل الجنرال سير جورج ارسكين وضباط بريطانيين آخرين.

وتجاهلت الحكومة احتجاجات السفارة البريطانية بخصوص موضوع الطرد الجماعى للموظفين البريطانيين الذين يعملون فى خدمة الحكومة المصرية. وقدم قانون يسهل للمدنيين حمل السلاح.

وكان أمام البرلمان مشروع بقانون يجعل من التعاون مع القوات البريطانية جريمة عظمى عقوبتها القصوى هى الإعدام.

كما أن التصريحات العلنية المثيرة للمشاعر والصادرة عن فؤاد سراج الدين باشا بعد حادثة كفر أحمد عبده واستسلام حوالى ١٣٠ من رجال البوليس فى أبوحماد كانت طازجة فى الذاكرة، وكذلك حوادث الشغب الطائفية فى السويس والهجوم على المطاعم والبارات فى القاهرة وغزو الطلبة لدار الإذاعة الحكومية بوسط المدينة فى النصف الأول من يناير.

٤ - وفى هذا الوضع فإن اللجنة تعلق مغزى رئيسيا لوجود «منظمة» تحت سيطرة أحمد حسين - زعيم الحزب الاشتراكى المصرى، تلك «المنظمة» لم تكن فقط معادية للحكومة كما هى معادية للبريطانيين وذلك طبقا لرأى المراقبين المصريين من ذوى المعرفة، بل كانت أيضا تشكل تهديدا أكبر للنظام العام أكثر من أى «منظمة» أخرى منفردة. ومع ذلك فإن اللجنة قد أخبرت من قبل مصادر يمكن الاعتماد عليها، بأن أحمد حسين كان يدعم دعما سخيا من قبل وزير الداخلية السابق - فؤاد سراج الدين باشا خلال الشهور القريبة الماضية، وإن أحمد حسين تبعا لذلك أصبح لديه القدرة على تقوية الطابع المتشدد النشط لمنظمته.

إن المراقبين ذوى الخبرة يعتبرون أن أحمد حسين ومنظمته هم فقط الذين لديهم الوسائل المتوافرة فى متناول أيديهم بسهولة لأن يخططوا وينفذوا معظم هجمات إشعال الحرائق يومى ٢٦ يناير ١٩٥٢، ولذلك فإنه ليس من غير المنطقى اعتبارهم مسئولين عن تلك الهجمات، ولكن : كما قرر فى الفقرة الثانية من الفصل الثانى عشر «من هذا التقرير» فليس هناك لدى اللجنة دليل مبنى على حقائق لتقرير تلك المسئولية.

٥ - من الواضح أن الحكومة الوفدية كانت مصممة على أن تستثير فى وقت ما صداما رئيسيا مع القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس. وتأييدا لذلك الغرض فإن التصريحات غير المسئولة والنارية لفؤاد سراج الدين باشا وأعضاء آخرين فى الحكومة، وكذلك أفعال الحكومة المذكورة فى الفقرة ٣، قد خلقت وضعا محفوفا بأكثر النتائج خطورة. وهناك مغزى خاص يتصل بالتصريح الذى أدلى به فؤاد سراج الدين باشا يوم ٢٣ يناير ١٩٥٢ عندما قال :

«إن الأمور قد تخطت النقطة التى يكون فيها لمجرد الاحتجاجات أية فائدة. لذلك فإن الوضع قيد البحث فى مجلس الوزراء المصرى. إن خطوات هامة قيد البحث النشط الجاد

لمجابهة الأعمال البربرية للقوات البريطانية. ان الأعمال البربرية للقوات البريطانية فى الإسماعيلية قد تخطت أى شىء يمكن للعقل البشرى أن يتخيله : لقد طردت النساء إلى الشوارع وهن نصف عاريات وأخذن إلى المعسكرات حيث مازال مصيرهن مجهولا. لقد دنست المساجد وامتهنت المدافن وقتل وجرح أعداد كبيرة من المصريين وصلبوا على الأشجار».

وأدلى أيضا بتصريح غاية فى الشراسة بعد حادثة حصار محافظة الإسماعيلية - بعد يومين من التصريح السابق - ولقد بلغ اللجنة أن ذلك التصريح موحى به من قبل عبدالفتاح حسن باشا.

إن النغمة العامة لكل تلك التصريحات كانت متوائمة فى كليتها مع التصريحات الملتهبة التى أدلى بها مصطفى النحاس باشا وعبدالفتاح حسن باشا فى مساء ٢٦ يناير ١٩٥٢ فى الوقت الذى كاد النظام فيه أن يفرض وبينما كانت القاهرة مازالت تحترق.

٦ - لا حاجة إلى تعداد المقالات الافتتاحية والأخبار الزائفة والبيانات الصادرة عن وزارة الداخلية منذ اكتوبر ١٩٥١. وهناك مثل معين يمكن إيراده عن المسئولية الشخصية لفؤاد سراج الدين باشا فى بعث الدعاية المعادية لبريطانيا.

فقد صدر عدد خاص يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٥١، لجريدة وفدية سياسية يومية محلية تسمى «الصراحة» - يملكها ويرأس تحريرها صحفي يهودى سيىء السمعة يسمى البير مزراحي.

وقبل صدور ذلك العدد بأيام أشارت الصحيفة إلى أنه سيصدر على نفقة فؤاد سراج الدين باشا، كان ذلك العدد الخاص عبارة عن نشرة مصورة عنونت «الفظائع البريطانية فى منطقة القناة»، وكان الكلام المصاحب للصور مكتوبا باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، ولقد تم توزيع تلك النشرة عن طريق البريد - وبدون دفع ثمنها - وذلك حتى تاريخ ٢٢ يناير ١٩٥٢ - أربعة أيام فقط قبل حوادث الشغب.

٧ - ومن المهم الاشارة عند هذه النقطة إلى المعلومات التى أعطيت للجنة، والخاصة بحالة الضبط والربط والأحوال العامة فى قوة البوليس فى الشهور القليلة الماضية. ويبدو للجنة أن ولاء رجال البوليس المشكوك فيه وروحهم المعنوية الهابطة كان يجب أن يسبب قلقا عميقا للحكومة. ولقد كانت الحكومة على علم باجتماع عام عقده ضباط البوليس فى القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ حيث تمت مناقشة شكاوى قديمة تدور حول المرتبات والترقيات وتعيين أشخاص من خارج هيئة البوليس فى وظائف تملأ عادة بكبار ضباط البوليس. كان الجو العام فى الاجتماع يقترب من حالة

التمرد وكان هناك تهديد باضراب للبوليس خلال شهر فبراير. ولقد نشرت تلك التهديدات في الصحف ولكنها أنكرت طبقا لتعليمات فؤاد سراج الدين باشا حيث من المعلوم أنه رفض أن يعطى اعتبارا جديا لشكاواهم.

ولقد أبلغت اللجنة أيضا - اعتمادا على شهادة ضابط برتبة قائمقام بالبوليس السرى المصرى، أن البوليس لم يكن يشعر بالرضا بأى حال عن الاختلاف فى المعاملة مقارنا بالجيش فى ناحيتى المرتب والترقية، وأن الترقيات الاستثنائية لضباط الجيش قبل ٢٦ يناير بأيام قليلة «قد صبت الزيت على النار»، وانه «بينما لم يفعل الجيش شيئاً» فإن البوليس قد تحمل نتائج الصدام مع القوات البريطانية فى منطقة قناة السويس وبالذات فى كفر أحمد عبده حيث اعطيت لهم أوامر من فؤاد سراج الدين للقتال حتى آخر رجل. «ولكن فى الحقيقة لم يحدث قتال» وفى أبو حماد حيث تلقوا تعليمات مشابهة، ولكن استسلم منهم ١٣٠ رجلا، ونتيجة لذلك تم تقديم قائدهم للمحاكمة. وفى الإسماعيلية صباح يوم ٢٥ يناير ١٩٥٢ حيث كان رجال البوليس محاصرين تماما بالقوات البريطانية التى كانت تتفوق عليهم عدديا بمراحل فقد أمرهم فؤاد سراج الدين مرة أخرى بالمقاومة حتى آخر رجل، ونتيجة لذلك قتل منهم ٤٦ وجرح ٧٢ وأسر عدة مئات. وكانت تلك النهاية الفاجعة

وعدم رضاهم عن الخيارين اللذين قدمهما لهم فؤاد سراج الدين إلا وهما أما أن يقتلوا أو أن يقدموا للمحاكمة، قد أديا إلى إظهارهم لما كاد أن يصل إلى حد التمرد ضد الوزير السابق للداخلية صبيحة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢، فلم تكن لديهم العزيمة ليؤدوا واجبهم فى ذلك اليوم.

٨ – كانت الأخطار الجديدة الكامنة فى موقف مثل هذا، يجب أن ترشد الحكومة فى تصرفاتها، فى الوقت التالى مباشرة للتصادم الخطير فى الإسماعيلية فى الصباح المبكر من ٢٥ يناير ١٩٥٢، ولكن من الواضح أن تلك الأخطار قد تجوهلت أو قلل من شأنها عندما أصبح على الحكومة أن تتعامل مع نتائج تلك الحادثة – التى كانت فى الرأى المعتبر للجنة صداما حاولت الحكومة وبالذات فؤاد سراج الدين باشا وبمساعدة عبدالفتاح حسن باشا، حاولت بقدر جهدها استثارته، وبينما من الحقيقى أن الحكومة قد أعلنت حالة الطوارىء وزادت من قوة حرس البوليس على البعثات الدبلوماسية الأجنبية فإنه لايبدو للجنة أن الحكومة أظهرت أى قصد جاد لمنع حوادث الاخلال بالنظام من قبل الجماهير أو الحد من نطاقها، أو حماية الأرواح البريطانية والممتلكات والمصالح الأخرى.

٩ – وفى رأى اللجنة ان الخلفية العريضة للوضع كما كان موجودا فى وقت مبكر من صباح يناير ١٩٥٢ هى :

أ – تزايدت الضغوط الموجودة نتيجة الدعاية الحكومية والصحفية فيما يختص بصدام الإسماعيلية فى الصباح السابق.

ب – كانت هناك تظاهرات كبيرة وعالية الصوت فى شوارع القاهرة وخطب نارية من فؤاد سراج الدين وآخرين فى الليلة السابقة.

جـ – أثناء الليل فإن أربع طائرات من شركة BOAC «خطوط الطيران البريطانية لما وراء البحار» قد تم التحفظ عليها جبريا وتعرض ركابها وموظفو الشركة لامتهانات كبيرة وتعديات مادية وتهديد بإحراق طائراتهم من قبل موظفى وعمال مطار فاروق وآخرين جلبوا من الخارج.

د – قامت محطة الإذاعة الرسمية التى تسيطر عليها الحكومة فى الليلة السابقة بإذاعة تصريح بأن مصر ستقاوم حتى يخرج آخر جندى بريطانى من مصر وذلك ضمن التصريحات الكثيرة المعادية لبريطانيا.

هـ – فى اجتماع طارىء فى الليلة السابقة فإن مجلس الوزراء المصرى بحث قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا العظمى وطرد الجالية البريطانية، «أشير إلى هذا التهديد فى خطاب

رسمى موجه للسفارة من وزارة الخارجية المصرية قبل أسبوعين من ذلك التاريخ» وكذا مصادرة كل المصالح البريطانية.

١٠ - وفى هذا الجو العام، كان يجب على الحكومة أن لا ترى شيئا سوى الخطر الجاد عندما علم أن قوة كبيرة من بلوكات النظام، بعضها مسلح بالبنادق، قد توجهت بقيادة بعض ضباطها إلى الجامعة بالجيزة، وهناك انضم الطلاب إلى تلك القوة فى مظاهرة، كانت فى الساعة التاسعة متوجهة ناحية قصر عابدين وهى تهتف هتافات ضد الحكومة وهتافات أخرى. ولا يبدو أنه تمت أية محاولة لوقف تلك المظاهرة أو التحكم فيها بل على العكس فإن مصدر ثقة قال أنه سمع محادثة تليفونية بين القائم بأعمال محافظ القاهرة وبين فؤاد سراج الدين باشا قال فيها الأخير أنه لا يجب على البوليس أن يتدخل. ومن المعلوم أيضا أنه فى طريقهم إلى وجهتهم فإن عبد الفتاح حسن باشا خطب فى المتظاهرين قائلا سأنزل معكم إلى الشارع قريبا. وحتى بالنسبة لأى مراقب عادى، فإن مثل تلك المظاهرة فى ذلك الوقت بالذات كانت محفوفة بأكثر النتائج خطورة ، ولكن كما تبين فإن الحكومة لم تفعل شيئا لايقافها أو التحكم فيها، ولا يسع إلا الاستنتاج بأن دوافع الحكومة كانت شريرة عن قصد.

١١ - توجه المتظاهرون إلى ميدان إبراهيم باشا حيث وصلوا الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا، وهناك حدثت أول حادثة إشعال نار «انظر الفصل الثانى». وتعتبر اللجنة تلك الحادثة أنها كانت إشارة البدء فى تنفيذ الخطة المسبقة الإعداد المشار إليها فى الفصل الثالث.

١٢ - ويبدو أن المتظاهرين قد تفرقوا كموكب منظم بعد وقت ليس بالطويل من وصولهم إلى ميدان إبراهيم باشا حيث لم يتم أى ذكر فى شهادة شاهد عيان تلقتها اللجنة أن أى جماعات من بلوكات النظام قد شوهدت فى أى من حوادث إشعال النيران. ومن الجائز أنه كان هناك طلاب من المظاهرة فى بعض عصابات إشعال النار المنظمة، ولكن لم يمكن التعرف عليهم بصفتهم الطلابية بواسطة شهود العيان.

الفصل الثانى

الأدلة على بداية التدمير بواسطة النيران ووسائل أخرى.. ونطاقه

١ - إن الحادثة التى أشير إليها فى الفقرة قبل الأخيرة من الفصل السابق كانت بخصوص مطعم نادية «كازينو بديعة» الذى يمتلكه ويكاد يكون كل رواده من المصريين. إن الأدلة التى أعطيت للجنة من قبل مصرى شاهد الحادثة إبتداء من الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق بعد الظهر إلى الساعة الواحدة بعد الظهر كانت كما يلى :

أ - كان يوجد فى ميدان إبراهيم باشا فى ذلك الوقت حوالى ثلاثة آلاف شخص معظمهم من المصريين.

ب - عندما وصل الشاهد كان هناك عدد لايزيد عن الثلاثين أو الأربعين من شباب الأفندية المهندمين قد

بدأوا فعلا فى التحضير لإحراق المطعم، وذلك بقيامهم برمى الأثاث والستائر إلخ، إلى الشارع من الشرفة.

جـ - كانت هناك صفائح من البنزين أو الكيروسين تنقل إلى أعضاء العصابة فى الشرفة والذين كان يمكن رؤيتهم يرشون السائل القابل للاشتعال بغزارة على طول الشرفة وداخل المبنى، وكان بعضهم يرش الأثاث المكوم فى الشارع بالكيروسين.

د - قال الشاهد أنه سمع بوضوح أمراً بإشعال النار فى المبنى وفى كومة الأثاث فى الشارع.

هـ - إن عربة يد بعجلتين استخدمت فى نقل مؤن صفائح البنزين والكيروسين.

و - إن رجال البوليس الكثيرين فى الميدان بمن فيهم رجال بوليس يملئون عربتى نقل ويرتدون الخوذات ويرابطون على بعد قليل من الكازينو لم يتدخلوا، كذلك لم تتدخل أيضا قيادة قوة الإطفاء التى يقع مقرها الرئيسى على بعد أقل من مائتى ياردة من مكان الحادث، وذلك طوال الوقت الذى كان الشاهد موجودا فيه، أى حوالى ٤٥ دقيقة تقريبا.

ز - إن الجماهير كانت تتفرج بهدوء وبدون أن تهتز، وذلك عندما أشعلت النيران، ولم تظهر الجماهير «أى إحساس بدنى أى

كان» (أى لم يسيئهم الخراب الذى يحل بمدينتهم) كما لو كانوا يتفرجون على عرض أو حفل سينمائى.

حـ - إن المطعم كان مشتعلا عندما غادر الشاهد الموقع حوالى الساعة الواحدة. وانه بحلول ذلك الوقت فإن معظم الجمهرة المؤلفة من ثلاثة آلاف شخص كانت قد تركت الموقع لتذهب بدون شك إلى نيران أخرى.

إن أقوال الشاهد تنقل هنا ببعض التفاصيل لأن ملاحظاته عن تلك الحادثة بالذات تصف بدقة ظروف ونمط الهجوم على معظم النيران الرئيسية الأخرى إن لم يكن جميعها. لقد أكد بالخصوص أنه خارج النطاق القريب لمنطقة النيران فإن الحياة العامة كانت تسير سيرها الطبيعى، وأن السكان أظهروا قليلا من الإكتراث أو عدم إكتراث، وأن حركة المرور - حتى بالقرب من النيران - كانت تحت تحكم رجال المرور بالطرق المعهودة وان الدكاكين الصغيرة على الأقل كانت مفتوحة ويجرى فيها التعامل. ولقد ندد الشاهد بعدم اكتراث وسلبية مدينة، لم يعرف خلال العالم المتمدين.

٢ - إن السكرتارية التجارية للسفارة قد جمعت تفاصيل عن المبانى التى دمرت أو تحطمت وأن تلك التفاصيل مثبتة فى الملحق رقم «أ»، ولا تضم القائمة العدد الكبير الذى تحطم من البارات أو المحلات الصغيرة المملوكة لفرد واحد.

الفصل الثالث

الأدلة على وجود خطة مسبقة للهجوم على مبان مختارة

١ - إن اللجنة شديدة التأثر بثقل واجماع الشواهد التى تساند الرأى بأن معظم هجمات إشعال النار فى المبانى لابد وأنها كانت مخططة بعناية فى وقت ما، يسبق ٢٦ يناير، وأنها نفذت بواسطة عدد من العصابات جيدة التنظيم والإعداد من ناحية المعدات تحت قيادة أشخاص الذين - إذا أخذنا فى الاعتبار السرعة التى كانوا يتنقلون بها من هدف مختار إلى آخر، والضبط والربط الذين يسيطران على أتباعهم والرعاع المشاركين لهم - توصلنا إلى أن أولئك القادة يعملون بوضوح طبقا لتعليمات أعطيت لهم. وكما يظهر فإن تلك التعليمات كانت على درجة كبيرة من الاكتمال حيث أن المبانى المختارة للتدمير لم تكن تقع فقط على الشوارع الرئيسية حيث يمكن الحركة السريعة إذا حدثت مجابهة مع البوليس أو الجيش، ولكن تلك المبانى

اشتملت أيضا على أهداف فى شوارع خلفية غير ظاهرة. وفى أحد الحالات فإن الأفندى الذى كان يقود العصابة شوهد وفى يده قائمة مكتوبة بالمبانى. وفى حادثة أخرى فإن قائد العصابة قال : «إن المبنى موجود على قائمته»، كان ذلك المبنى يسمى فى السابق «هوتيل ستاندارد» حيث كان ينزل الضباط البريطانيون. ورغم أن الاسم كان مايزال مكتوبا فى دليل تليفونات القاهرة فإن وظيفة المبنى كفندق كانت قد انتهت منذ أربع سنوات.

إن السرعة التى اقتحمت بها بعض المبانى والتى جمعت بها المواد القابلة للاشتعال حتى فى طابقين أو ثلاثة، والسرعة التى اشعلت بها النيران كل ذلك نعتبره شاهدا على أنه بالنسبة لبعض العصابات على الأقل فانها كانت تشتمل على واحد أو أكثر كان على معرفة بالمبنى والنقط الحيوية التى ينبغى الهجوم عليها.

وأن حقيقة أن معظم العصابات التى تمت ملاحظتها كانت تضم ما بين عشرة إلى ثلاثين من الأفندية حسنى الملبس بالاضافة إلى عدد متفاوت من الرعاع، وأنهم كانوا يستعملون وبسرعة كمية وافرة من القنابل الحارقة «قنابل الترميت كما وصفت فى إحدى الحالات»، والبودرة الحارقة وزجاجات البترول والمواد القابلة للالتهاب والمطارق ومقصات معادن والروافع «العتلات» الحديدية وأدوات أخرى لفتح الأبواب والنوافذ الحديدية. وفى إحدى الحالات

فقد استعمل لهذا الغرض جهاز الأوكسى استيلين، كل ذلك تعتبره اللجنة تأكيدا غير مشكوك فيه لوجود خطة معدة جيدا للتدمير على نطاق واسع. ولم يتردد بعض قادة العصابات المعنية أثناء ذروة هياجهم – خلال العملية بأن يعترفوا بأنهم يعملون طبقا لأوامر. فقد سمع أحدهم يقول مثلا : «إن أوامرنا أن نحرق شارع عدلى باشا». وقال آخر كان يتبع عصابة حاولت ثلاث مرات اقتحام مستشفى فرنسى: «إن أوامرنا أن نحرق المستشفى بالكامل». وعندما وافق أخيرا على ترك المستشفى بدون تدمير قال لعصابته: «لن نحرق المستشفى وأظن أننى سأستطيع تفسير ذلك لهم». وهو يعنى كما يفترض أولئك الذين أعطوه التعليمات.

٢ – لم تكن جميع الهجمات من عمل العصابات المنظمة الموصوفة فى الفقرة السابقة. إن عدد الحوادث كان أكبر بكثير مما كان يمكن أن تقوم به تلك العصابات فى الساعات القليلة المتاحة. لقد كان الوضع بدون شك أن الدهماء غير المنظمين الذين كانوا يتزاحمون بعد انتهاء عمل العصابات المنظمة، قد هاجموا ونهبوا دكاكين صغيرة كانت سهلة الاقتحام وهم يستعملون فى ذلك أى أدوات تحت متناول أيديهم بسهولة.

٣ – إن اللجنة تعتقد أن منظمى الخطة كان فى تخطيطهم اختيار فترة ما بعد الظهر يوم سبت لتنفيذ خطة إشعال النار، وإن

المظاهرة التى حدثت صباح يوم ٢٦ يناير والتى أشير إليها فى الفقرة العاشرة من الفصل الأول، أعطت لهم الفرصة لكى ينفذوا غرضهم. إن ذلك الوقت هو بوضوح أنسب وقت، ففى الساعة الواحدة تكون دور السينما ذات العرض الصباحى قد أغلقت أبوابها وتكون المحلات الكبيرة ومعظم المكاتب قد أغلقت أبوابها أيضا لعطلة نهاية الأسبوع. وبذلك يكون لدى عصابات إشعال النار حرية فريدة لتنفيذ عملياتها.

ومن الممكن أيضا أن وجود عدد كبير من ضباط الجيش والبوليس ذوى الرتب الكبيرة فى حفل غداء، أقامه لهم جلالة الملك فاروق يوم حوادث الشغب قد استغل من قبل منظمى الخطة عندما قرروا وضعها موضع التنفيذ فى ذلك اليوم.

٤ – وفيما يتصل بمدى اتساع خطة إشعال النيران فإن اللجنة لفتت الانتباه إلى حقيقة أن العقارات التى يمتلكها أو يشغلها بريطانيون لم تكن تمثل الجزء الأكبر من تلك التى دمرت نتيجة لحوادث الشغب – انظر الملحق أ.

صحيح أن كثيرا من الهجمات كانت نتيجة بالطبع للشعور السائد المعادى لبريطانيا، ولكن من الواضح بشكل مساو أن العصابات هاجمت معظم المناطق فى وسط المدينة ، حيث تتوافر امكانات الحياة الراقية، حيث تباع المشروبات الكحولية والبضائع

الفاخرة، وحيث تتوفر التسلية على النمط الغربى، وذلك بغض النظر فى كل الحالات عن جنسية الملاك.

إن اللجنة لاتجد لديها القدرة - بناء على المعلومات المتوافرة لديها على أن توافر أى تعليقات عن بواعث الأشخاص الذين قاموا بتلك الهجمات. لقد ادعى مثلا أن أفرادا من الإخوان المسلمين، ان لم تكن الجماعة نفسها، قد يكونون قد اشتركوا فى الهجمات على البارات والمطاعم، اتباعا لمثلهم العليا المتزمتة، وأن عناصر شيوعية ساعدت بتدمير الأماكن التى يستعملها الأغنياء. لكن اللجنة ليس لديها أى معلومات عن تلك الادعاءات. وان اللجنة تسجل رأيها بأن تلك الهجمات لايمكن أن ترجع إلى الشعور المعادى لبريطانيا وحده.

٥ - إن نوعيات زعماء العصابات، وطرق سيطرتهم قد تفاوتت فالعمليات فى «الترف كلوب» مثلا، قرر عنها أنها اديرت من قبل رجل يرتدى بزة رسمية أنيقة كحلية اللون «وكاب» من نفس اللون، ويضع علامة رتبة ما على شريط الكتف. ولم تتمكن اللجنة من تحديد هوية تلك البزة الرسمية، ولكن من الجائز أن يكون الشخص من موظفى شركة مصر للطيران. ولم يشترك ذلك الشخص بنفسه فى أى تحطيم أو إشعال للنار، لكنه وقف خلال اليوم كله فى أماكن ظاهرة مختلفة يدير عمليات أتباعه الذين كانوا

يعاملونه باحترام، وصل إلى حد الوقوف بانتباه عسكرى أثناء التخاطب معه، ولقد قرر شاهد آخر أنه شاهد رجل فى ملابس أوربية جامعا جمهرة حوله وهو يخطب فيهم باستثارة. أما العمليات عند سينما راديو، فقد كان يديرها رجل من النمط «الكتائبى» وفى حادث فى شارع قصر النيل، فإن العمليات كان يقودها رجل يرتدى جلبابا كاكيا وعمامة. وفى حادث آخر فى نفس الشارع فإن العمليات كان يقودها رجل يرتدى بنطلونا أزرق اللون وقميصا بنصف كم، ويضع شارة خضراء على ذراعه. ولقد تبين أن شخصين من نمط الأفندية خرجا من سيارة «سيتروين» وأدارا العمليات فى أحد الحوادث. وفى حادثة أخرى رؤيت سيارة من الطراز نفسه. أما مثيرو الشغب حول «جروبى» فى ميدان سليمان باشا فكان يتحكم فيهم رجال يستعملون الصفارات، ولكن طبيعة الاشارات لم تكن واضحة.

٦ - ويبدو أن العصابات المنظمة اتبعت نماذج نمطية إلى حد كبير فى الحوادث المختلفة. فكان هناك رجل أو اثنان يقودان عددا قليلا من الأشخاص الذين تعطى لهم الأوامر ويقومون بتنفيذها، ثم جمهرة من المتفرجين الذين قد يشاركون أو لايشاركون فى العملية. وفى بعض الحالات كان أعضاء العصابة يكبحون جماحهم حتى تبتدىء الهجمة وتتطور.

ويبدو أن الأعداد المشاركة كانت قليلة نسبيا لاتزيد عن ثلاثين ولكن يتجمع حول العصابات جمهرة ذات أعداد متفاوتة. فعند «الترف كلوب» في شارع عدلي باشا كان معظم المشاركين النشطين في الهجمة الأولى يلبسون الملابس الأوربية، ولقد حاولوا أن يكبحوا جماح الرعاع لبعض الوقت ونجحوا في ذلك. وكان الوحيدون الذين شوهدوا وهم يدخلون «الترف كلوب» بعد تحطيم المدخل الأمامي، ومن صنف الأفندية وواحد أو اثنين من مرتدي الجلابيب. لكن يبدو واضحا من التقارير المتوفرة انه قد تبعهم بعد ذلك بقليل مجرمون أكثر تصميما على السلب والنهب ولهم نوايا للقتل. وفي شارع عدلي باشا عموما كان معظم الذين يشاركون في الهجمات الكثيرة مهندمين يرتدون ملابس على النمط الأوربي، وهناك عدد من التقارير تقول أن أولئك الرجال كانوا يتكلمون لغة إنجليزية جيدة. وفي شارع فؤاد الأول كان معظم المهاجمين يرتدون الملابس الأوربية، وفي الهجمة على بار الأمريكين كان هناك أربعة أو خمسة أفندية، وحوالي اثنى عشر رجلا يرتدون الجلابيب. أما مثيرو الشغب في ميدان الإسماعيلية فقد تبين أنهم كانوا ينتمون لطبقة الحرفيين الأفقر، حيث كان بعضهم يرتدي أوفرولات زرقاء. وشوهد رجال يرتدون أوفرولات أيضا في شارع قصر النيل. وعند سينما ميامي فإن أولئك الذين دخلوا أو ليشعلوا النار، كانوا مجموعة مكونة من رجل يرتدي الأوفرول وأفندي وصبيين.

٧ – فى كثير من الاقرارات التى تسلمتها اللجنة فإن الزمن التقريبى الذى تم فيه الهجوم قد ذكر. وبينما من المستحيل التقدير الدقيق لعدد العصابات المنظمة التى كانت تعمل طبقا لتعليمات كما وصف فى الفقرة الأولى من هذا الفصل، فإن اللجنة تعتبر أنه من المنطقى أنه كانت هناك على الأقل أربعة أو خمسة مواقع فى وسط المدينة تهاجم فى نفس الوقت. وهذا يعطى تأكيدا اضافيا بوجود خطة مسبقة الإعداد، حيث أنه يلزم لتطوير واستمرار هجمات متزامنة على مساحة واسعة : اختيار أهداف، والتخزين المسبق لمواد مشعلة بكميات كافيةاستعدادا للتوزيع الفعلى يوم الحوادث، لقد حدثت الهجمات الرئيسية بين الظهر تقريبا والساعة السادسة بعد الظهر، عندما وصلت قوات الجيش. على انه كانت هناك هجمات منعزلة على مبان بعد ذلك الوقت، ليس فقط فى وسط المدينة ولكن فى أحد الأحياء حيث دمرت ثلاثة ملاه ليلية.

٨ – إن تصميم أولئك الذين كلفوا بمهام تتصل بأحداث الشغب، على ألا يسمحوا لشيء بالتدخل فى خططهم يمكن تصويره جيدا بالرواية التالية لما حدث فى محطتى بنزين :

«فى فترة بعد الظهيرة طلب ثلاثة أفندية يركبون سيارة «سكودا»، من مدير محطة خدمة فى الجيزة ستة جالونات من البنزين. ولما كان هناك نقص فى الوقود، فإن مدير المحطة عرض عليهم جالونان فقط. عندئذ أظهر الأفندية لمدير المحطة مدفع

«تومى» وأسلحة أخرى فى مؤخرة السيارة. وقالوا أنهم من الكتائب «فدائيون»، وأنهم فى عجلة ليذهبوا ويساعدوا زملاءهم فى القاهرة..ومن خوفه قام المدير باعطائهم الست جالونات».

«بعد الظهر وصلت سيارة بها ثلاثة رجال يرتدون بزات كاكية «وكابات» خضراء (التى يلبسها رجال «الكتائب» خلافا للجيش) وصمموا على التزود بأحد عشر جالونا من البنزين ورفضوا دفع ثمنه، وكانت العربة نصف النقل مليئة بالجلابيب، ولقد أخذ مدير محطة البنزين رقم العربة وأعطاها للسلطات».

إن الاشارة فى التقرير التالى لعربة مليئة بالجلابيب يمكن أن تعنى أن تلك الملابس كان المقصود بها أن تستعمل للتنكر لاخفاء هويات بعض المشاركين فى الهجمات.

الفصل الرابع

الأدلة على الأساليب التى اتبعت لوضع الخطة المسبقة الإعداد موضع التنفيذ

١ - من الواضح بالنسبة للجنة أن أساليب الهجوم المنظم تبعت نمطا متشابها: كان يتم اقتحام كل مبنى أولا ثم ترمى المحتويات السهلة التحريك إلى الشارع حيث تستخدم فى معظم الأحيان لتكوين كومة تشعل فيها النيران، وكان الأثاث والسجاجيد والمواد الأخرى المناسبة داخل المبنى تكون وتشعل بعد رشها بغزارة بسوائل أو مساحيق حارقة. وتعتبر اللجنة ان السرعة التى التهمت بها النيران - حتى المبانى الضخمة - دليل كاف على أن العصابات دربت جيدا فى وقت سابق على أسرع وسائل اشعال النيران، وإنها كانت مزودة تزويدا كافيا بالمواد المحرقة.

إن بعض الشواهد على التكتيكات المسبقة الإعداد قد أظهرت حين ألقيت زجاجات مليئة بالبترول على

مطعم السطح «بنادى الترف» من مبان خلفه فور بداية الهجمات على المدخل الأمامى.

٢ – تعلق اللجنة أهمية كبيرة على الدلائل التى وصلتها تحت هذا العنوان حيث أن اللجنة تعتبر نجاح الخطة المعدة قد يرجع أساسا إلى أساليب الهجوم المؤثرة التى اتبعت.

إن المقتطفات التالية من روايات شهود عيان تصور الأساليب الموصوفة فى الفترة السابقة.

معرض الفن الفرنسى المعاصر – شارع قصر النيل:

حوالى الساعة الثانية والربع بعد الظهر شاهدت عصابة لا يزيد عدد أفرادها عن اثنى عشر شخصا يهاجمون أغطية أبواب معرض الفن الفرنسى المعاصر. كان يقودهم شاب يرتدى بنطلونا أزرق وقميصا، ويضع على ذراعه شارة خضراء عليها حروف عربية بيضاء وكان باقى أفراد العصابة يرتدون الجلابيب ومعهم قضبان حديدية يحاولون بها فتح أغطية أبواب المتجر.. وعند حوالى الساعة الثانية والنصف رأيت من شرفة منزلى أن العصابة قد نجحت أخيراً فى اقتحام المتجر الفرنسى، ثم قام أفرادها بتكويم بعض الخرق فى منتصف الشارع، وفى نفس الوقت كان آخرون من أفراد العصابة يلقون بمحتويات المتجر إلى الشارع ويحطمونها. كان أحد أفراد العصابة يمسك بلفة من القماش

الأسود ويضع بعض طياتها بداخل نوافذ العرض «الفاترينات» المحطمة. كان الرجل ذو الشارة على ذراعه - والذى كان من الواضح انه يدير العملية - يقف فى منتصف الشارع ممسكا بمشعل مشتعل. صب عدد من أفراد العصابة بعض السوائل على كومة الخرق ووضعوا بعضا من تلك الخرق المبللة على طيات القماش الأسود فى نوافذ العرض. وذهب الرجل ذو الشارة على ذراعه إلى المتجر وأشعل كومات الخرق التى تصاعد لهيبها بسرعة.

جروبى ميدان سليمان باشا:

حوالى الساعة الرابعة والربع بعد الظهر، رجعت العصابة من شارع الانتيكخانة إلى «جروبى» وهاجمت الأغطية الصلب - لأبواب جروبى من ناحية شارع الانتيكخانة. ونجح أفرادها أخيرا فى فتح الأبواب بالقوة وألقوا بالمحتويات والأثاث إلى الشارع. ثم هاجموا جروبى من ناحية شارع قصر النيل، وكرروا نفس الشىء هناك. وبعد ذلك بقليل ظهر رجال يرتدون الجلابيب على أبواب النادى اليونانى فى الطابق الأول فوق «جروبى» بدأوا يلقون بالأثاث.. ثم اشتعلت النيران.

سينما راديو :

عندما اقتحمت السينما عن طريق كسر أبوابها الزجاجية

حطم كل شيء خشبي وبدأوا في عمل كومة منه، في مقدمة السينما تحت الشرفة. ثم ألقي بدفاتر التذاكر وكرسي أو اثنين وبعض أرفف الكتب على الكومة وأشعلت، ولكنني لم أر أسلوب الاشعال.

سينما ريڤولي :

رأيت ما بين ٢٠ إلى ٢٥ شخصا معظمهم يرتدون الملابس ينزعون أغطة النوافذ والأبواب ويلقون بالأثاث إلى الخارج، وأيضا بأثاث وشماس من مقهى السطح إلى الشارع، بينما قام آخرون يساعدونهم شباب يرتدون الجلابيب في اشعالها بالنار.

متاجر مختلفة في شارع عدلي باشا:

وفيما يختص بطريقة الهجوم فإنهم مزقوا الأغطية الحديدية للنوافذ بسرعة مريعة مستعينين بأدوات خاصة مثل «البنس» ثم تسلقوا إلى أي مدخل يمكن أن يدخلوا منه وأشعلوا النار في المباني : وفور دخولهم بدأ الدخان يتصاعد.

مخزن بيرة «ستلا» بشارع سليمان باشا :

قطع المشاغبون – الذي لم يكن عددهم كبيرا – أغطية الأبواب بواسطة نوع من المناجل أو الهلب في مكان يعلو القفل بالضبط ثم رفعوا الباب بالقوة محطمين جزءه الأسفل ثم اشعل المبنى حينئذ.

معارض سيارات موريس :

كان هناك عدد صغير جداً من الأفندية المهندمين فى الطريق خارج تلك المعارض، وكان أربعة منهم يمسكون بعامود صلب : طوله حوالى ١٢ قدماً تعلوه لافتة «ممنوع الانتظار» أو علامة مشابهة، ويستعملون ذلك العامود كمدق لخرق الأغطية الحديدية للأبواب، ولم يكن هناك فى الحقيقة أى تجمهر هنا، ولكن كان هناك رجل بوليس فى دركه بالقرب من المكان، ولم أر أى سيارة لاطفاء الحريق (ملاحظة : هذا الوصف للحادث سانده شاهد آخر أضاف أن «المهاجمين كانوا يضحكون والبوليس يتسلى للغاية، وكانت هناك سيارة مشتعلة فى الطريق بالقرب من المكان»).

٣ - استخدمت وسائل محرقة مختلفة لبدء النار ، فقد شوهد عدد من الشباب فى شارع سليمان باشا يحملون مشاعل ملتهبة، وشوهدت خمسة من تلك المشاعل بواسطة شاهد بطول شارع قصر النيل، وصاحب العصابة المتجهة للمستشفى الفرنسى بالعباسية «لورى» يحمل براميل من البترول أو الكيروسين، ووجد داخل حطام متاجر صفيحة بنزين سعة أربعة جالونات . وأشعل محل الاكسلسيور ببطانية مبللة بالبترول، أما سينما ريڤولى فقد اشعلت بالقاء زجاجات البترول.

ويقول أحد الشهود عند تلك السينما أنه رأى رجلا يحمل

مسحوقا «من المعتقد انه محرق». وعند فندق شبرد ألقى المشاغبون بما هو على شكل قنابل الترميت ومسحوقا أبيض. بينما كان آخرون طبقا لشهادة ضابط بوليس مصرى يبللون السجاجيد بغزارة، بالبترول.

وفى شارع عدلى باشا كان أحد طرق الاشعال هو أخذ الأثاث المشتعل من إحدى النيران، لاشعال نار أخرى. وعند سينما ميامى رأى شابا يلقى بلفافة من الورق البنى فى حجم علبة السجائر الكبيرة. ولكن ليس بنفس السمك. لم يحدث انفجار ولكن اندلع اللهيب بسرعة وبعنف كبير. وفى شارع شامبليون شوهدت لوريات تحمل حزما من القش، ورأى ضابط سابق بالجيش الفرنسى ماييدو وكأنه قنابل يدوية محمولة فى سلة. ووجدت عند حديقة «المجلس البريطانى زجاجة مملوءة بالبترول سليمة وأخرى مكسورة فى الخارج».

حادثة أخرى استخدم فيها المسحوق الأبيض كانت الهجمة على متجر و. هـ. سميث وولده، حيث اشعل المسحوق بواسطة الكيروسين.

الفصل

الخامس

الدلائل على أعمال السلب والنهب

١ - فى الفقرة السادسة من الفصل الثالث تشير اللجنة إلى السيارة التى أظهرها قواد العصابات المنظمة وأعضاؤها على الرعاع الذين ربطوا أنفسهم بجماعات اشعال النار. وهناك دليل كاف فى روايات شهود عيان بأن الهدف الأساسى للعصابات المنظمة كان تحطيم الممتلكات وليس السلب، وأن معظم المحاولات التى قام بها الرعاع لسرقة البضائع فى وقت الهجمات كانت تجابه بمجابهة حاسمة، وفى بعض الأحيان قاسية من قبل العصابات المنظمة، وكأمثلة على هذا الضبط والربط الذى لابد انهما كانا طبقا لأوامر أعطيت من سلطة مركزية نورد ما يلى :

أ - بعد نجاح المهاجمين فى اقتحام متجر بدأوا فى القاء كل المحتويات إلى الطريق، وبدأ عدد قليل من الرعاع فى الاستيلاء على بعض الأدوات الفضية أو المطلية وحاولوا الجرى بها بعيدا، إلا أن تلك الأدوات أخذت منهم وحطمت.

ب – فى فندق «شبرد» كانت الفيترينات «نوافذ العرض» فى البهو تحتوى أشياء كثيرة قيمة، ولقد حطمت تلك الأشياء ولم تأخذ بواسطة العصابات المنظمة.

جـ – وفى متجر للجلود فى شارع عماد الدين أمسك بمن حاولوا النهب، وألقى بالبضائع فى النيران المشتعلة فى الشارع.

د – فى متجر كبير بشارع فؤاد الأول عومل محاولى النهب بقسوة من قبل العصابة المنظمة «جماعة الاحراق»، وادعى أن أحد اللصوص ألقى به فى النار وأحرق حتى الموت.

٢ – على أنه بعد أن يتحرك مشعلو النار إلى بنايات أخرى كان يحدث بدون شك نهب على مدى واسع من قبل الدهماء الذين استولوا على البضائع فى المتاجر التى هاجموها بمبادرة منهم. وتلاحظ اللجنة من الروايات الصحفية أن الوزير الجديد للداخلية أعطى تعليمات بأن يتم البحث الواسع لاستعادة أكثر ما يمكن من المسروقات، وأن كميات معتبرة من المنهوبات قد وجدت فعلا. وقد قيل للجنة من مصادر ثقة أن الكثير من تلك كانت قد سرقت بواسطة رجال البوليس.

الفصل السادس

أدلة على هجمات أو تهديدات موجهة إلى رعايا بريطانيين ورعايا غير مصريين

١ ـ إن الأدلة المتوفرة للجنة تحت هذا العنوان متضاربة، فمن غير شك أن كثيرا من الأوربيين كانوا ضحايا معاملة عنيفة وتعرض آخرون لاعتداءات أقل وحشية، ولكن اللجنة تعتبر أنه من المنطقى الافتراض فى تلك الحالات بأن المعتدين لم يكونوا بالضرورة أعضاء فى العصابات المنظمة، حيث أظهر أولئك قدرا من الانضباط من كل عمليات الاحراق التى ارتكبوها، ولكن المعتدين كانوا أشخاصا آخرين تأثروا بالهيجان السائد. ومن ناحية أخرى فإن بعض الرعايا البريطانيين وآخرين من جنسيات أخرى قد أكدوا أنه كان يمكنهم التحرك بحرية فى المناطق المتداخلة مع مواقع الهجمات وقت حدوثها بدون أن يتعرضوا لأى نوع من الاعتداء، ولكن اللجنة تعتقد أنهم كانوا

محظوظين. فالحوادث خارج «نادى الترف» أثناء الهجوم وبعده تعطى أسطع الأدلة وأكثرها إقناعا عن الأعمال الوحشية التى ارتكبت ضد رعايا بريطانيين. وتلك الأعمال مسجلة فى الفصل الحادى عشر.

٢ ـ والحوادث الأخرى تحت هذا العنوان شملت الآتى:

(أ) رأى شاهد عيان ركابا ـ يبدون أوربيين ـ وقد أخرجوا خارج سيارتين فى الشارع ولقد تعرضوا لمعاملة عنيفة، ولكنه لم ير ماحدث لهم.

(ب) فى الشارع نفسه سأل مثيرو الشغب عما إذا كان هناك انجليز فى مبنى معين وأضافوا أنه فى حالة وجودهم فلابد من إخراجهم إلى الشارع.

(ج) فى بنك «باركليز» وقت إحراقه ـ طلب مصرى من أحد جاويشية البوليس الواقفين بالقرب أن يساعده فى إنقاذ أسرة أحد موظفى البنك، حيث يعرف أنها تسكن شقة على سطح البنك، فرد عليه الجاويش قائلا: بأنه إن لم يصمت فسيسلمه إلى الدهماء.

(د) عند سينما ريفولى كان أحد موظفى السينما الأوربيين يبحث فى المبنى عن المدير وسكرتيرته، فلما أوقفه الرعاع، أجاب بأنه يحاول إنقاذ روحين، عندئذ سأله متزعمهم إن كانوا مسلمين، فأجاب بالإيجاب، ومكنته تلك الكذبة من الاستمرار فى بحثه.

(هـ) عند مستوصف ليدى كرومر بشارع الجيزة فان عصابة كانت بلا شك مسئولة عن إحراق ثلاثة ملاه ليلية فى المنطقة، سألت مرارا عما إذا كانت رئيسة الممرضات الانجليزية موجودة، فكذب عليهم البواب وهو شيخ متدين وقال إنها ليست موجودة.

(و) أقر المستر بيرووت مساعد المندوب التجارى الكندى بأنه قد هوجم من قبل من يصيحون «انجليزى»، وتعرض أحد الرعايا البريطانيين الآخرين للتجربة نفسها.

٣ ـ مما يجب معرفته أنه بينما كانت سيدة بريطانية تهرب من شقتها فوق محل كوداك (الذى كان مشتعلا) بشارع عدلى باشا فإن موقف المتجمهرين كان عدائيا، ولكن مصريين بدوا كقائدين لجماعات الإحراق اعتنيا بها، وأمرا الجمهرة بألا يمسها أحد ولقد أطاع الجمهور.

٤ ـ يقر أحد الشهود بأنه فى ذلك الوقت تعرض لى أفراد متعددون يبدون جميعا وعليهم سمة الطلاب الأفندية، ولم أتعرض خلال زياراتى الثلاث للمدينة لأى متاعب شخصية من طبقة لابسى الجلابية.

٥ ـ ومن ناحية أخرى فإن المسز ولیامسون التى ولدت فى مصر، وكانت خارج «الترف كلوب» تحاول بشدة إخراج زوجها من المبنى، أحاط بها رجال يمسكون المدى ويقسمون على قتل جميع الإنجليز.

أدلــــــة على مــــوقف بـوليس مدينة القاهرة أثنـاء حوادث الشغب

١ ـ تلقت اللجنة أدلة غالبة على انعدام تأثير قوة البـوليس كـأداة للمـحـافظة على القـانون والنظام فبـاستثنـاءات قليلة جـدا وبالذات القوة المؤلفة من ١٩ رجلا والتى كانت تقوم بحراسة قصر القنصلية العامة البريطانية فإن رجال البوليس كانوا غير مكترثين بالمرة بالهيـجـان الدائر حـولهم، ورفـضـوا تقـديم المسـاعـدة حـينمـا طلب منهم ذلك، وهربـوا من واجبـات الحـراسـة حينمـا اقتـرب الرعـاع، وصـفـقـوا وشـجـعـوا جمـاعـات الإحـراق، والمشـاغـبين وانغـمـسـوا فـى بعض أعـمـال النهب، وكان الضـبـاط مـشـاركين فى ذلك مثلهم مـثل جنود البوليس العاديين.

وهناك إشارة فى الفقرة الثانية فى الفصل الثانى عشـر إلى احـتـمال تعـمـد عدم إصدار أوامـر لمقـاومـة الشـغب من قـبل السلطات العليـا للحكومـة المصـرية، ولكن من الواضح تماما أنه بسبب غياب الأوامر ورغما عنها، فيكاد يكون كل رجل بوليس قد فشل تمـامـا فى

القيام بالواجبات المتوقعة عادة من حراس الحياة والممتلكات. ومن بين الحوادث التى لايمكن تعديدها والمبلغة من شهود عيان، عن ذلك الإهمال للواجب، اختارت اللجنة الأمثلة المعبرة الآتية:

(أ) عندما هوجمت سينما راديو كان هناك رجل أو اثنان من رجال البوليس فى مكان قريب لم يحاولا منع الجمهور من رمى الطوب، ولقد مرت عربة نقل محملة برجال البوليس وسط الدهماء، ولم تتوقف، وهناك مركز للبوليس قريب جدا، لكنه لم يفعل أى شىء لإرسال فرقة مطاردة إلى مكان الحادث، ولقد كان هناك شرطا مرور فى الشارع بدا عليهما أنهما يتمتعان بالفرجة.

(ب) أثناء حادثة «الترف كلوب» مرت سيارتا نقل محملتان برجال البوليس وضابط يركب دراجة بخارية، بموقع الحادث بدون توقف، وهلل لهم المشاغبون.

(ج) فى الميدان المواجه لسينما ريفولى فإن خمسة عشر جنديا من بلوكات النظام وقفوا يشاهدون إحراق السينما، وكان هناك عدد كبير من رجال البوليس النظاميين فى الميدان، ولكنهم لم يفعلوا شيئا.

وعندما طلب من ضابط البوليس أن يساعد فى إنقاذ شخصين فى المبنى المحترق أجاب بأن على سائله أن يفعل ذلك بنفسه، ولقد أبلغت اللجنة أيضا بأن أحد المصريين الذى لم يعرف عنه أنه موالى للبريطانيين أو للغرب اندهش عندما شاهد السينما، وهى

تحترق، وإمام بك مساعد حكمدار بوليس القاهرة يراقب النيران والنهب الذى يقوم به المشاغبون، وعندما قام الشخص المشار إليه بسؤال إمام بك، الذى كان يضع إحدى يديه فى جيبه، ويداعب يده الأخرى بمسبحة أو سلسلة مفاتيح، عما إذا كان يعتزم القيام بعمل ما لتفريق المشاغبين، أجاب إمام بك: «دع الأولاد يلهون». (وذلك الضابط المشار إليه فى الفقرة الخامسة من الفصل الحادى عشر والفقرة الثانية من الفصل الثانى عشر). وبعد وقت فإن حمولة عربة نقل من رجال البوليس النظاميين وصلت أمام السينما، ولكنهم ظلوا فى العربة حتى قام أحد ضباط البوليس بتفجير قنبلة غاز مسيلة للدموع بين المشاغبين. ثم خرج رجال البوليس من عربة النقل وتفرقوا.

(د) أرسل أربعون من رجال البوليس المسلحين وعدد من الضباط إلى مبنى «بنك باركليز»، فى وقت ما، قبل الساعة الثانية عشرة ظهرا، وذلك بناء على طلب من إدارة البنك، ولكن بحلول وقت الهجمة على البنك كان جميع أولئك الجنود عدا إثنى عشر منهم وأحد الضباط قد سحبوا أو اختفوا. وبالتأكيد قام رجال البوليس أولئك بإطلاق الرصاص فوق رءوس الرعاع، ولكن ذلك لم يمنع مايربو على خمسين من المشاغبين من كسر أحد الأبواب الجانبية واقتحامه حوالى الساعة الثانية وخمسين دقيقة وإشعال النيران فى البنك.

(و) شاهد عدد كبير من رجال البوليس سواء كانوا يركبون عربات نقل أو مترجلين الهجوم على محل جروبى فى ميدان سليمان باشا، ولم يقصروا فقط فى التدخل، ولكن تصرفاتهم طبقا لشهود عيان عديدين أشارت إلى تعاطفهم مع المشاغبين.

(هـ) عندما هوجمت سينما كايروبلاس، فإن حرسا مكونا من ضابط وأربعة رجال بوليس، لم يوقفوا مشعلى النار.

(ل) سأل صاحب محلات شملا «محل تجارى كبير فى شارع فؤاد الأول» أحد ضباط البوليس عن سبب عدم قيامه بانقاذ المبنى، أجابه ليس عندى وقت لك.

(م) هناك صور لدى الحكومة المصرية الحالية تبين ضباط بوليس يتفرجون على حريق فندق شبرد.

(ن) عندما سأل أحد شهود العيان لواحدة من الحوادث رجال البوليس القريبين عن سبب عدم قيامهم بأى عمل، أجابوا بأنهم غاضبون على البريطانيين فى منطقة القناة، وأن الذى يجرى هو شيء جيد، وأنه فى القريب لن يكون هناك بريطانيون باقين فى مصر.

٢ ـ وهناك إدانة حتى أكثر خطورة ضد البوليس تعضضها دلائل كافية أن بعض أفراد قوة البوليس أنفسهم شجعوا بنشاط أو ساعدوا المشاغبين، ليس كفاعلين مشاركين فى هجمات إشعال النار، ولكن كمساعدين ومشجعين، فمثلا شوهدت ثلاث حالات من

قبل شهود العيان رؤى فيها رجال البوليس ، «قاطعون خراطيم الإطفاء، وكون رجال البوليس «كردونا» لمنع الدهماء من التدخل، وذلك أثناء قيام مشعلى النار فى الهجوم على صالة كبيرة لعرض السيارات، وشوهد رجل بوليس وهو يعطى عصى طولها ٦ بوصات «مما بدا وكأنه جلجنيت للمشاغبين» وهناك تقارير متعددة عن رجال بوليس يهتفون ويقودون المتظاهرين «وهناك صور لبعض تلك الحوادث لدى الحكومة الحالية». وبينما كان «الترف كلوب» يحترق شوهد رجل بوليس آخر وهو يربت على ظهر أحد مشعلى النار. أما رجال البوليس المسلحون الذين كانوا يقومون بالحراسة خارج البنك الأهلى المصرى «فرع سليمان باشا» فلم يقوموا بأى جهد للتدخل فى أعمال السلب التى كانت تجرى بالقرب منهم، بل وحتى تحادثوا مع القائمين على النهب عندما انتهوا. وشوهد جاويش وثلاث كونستبلات فى الجماعة التى هاجمت مقر و. هـ. سميث وأولاده ولكنهم لم يشاهدوا يدخلون المبنى بل كانوا متفرجين فى الشارع.

٣ ـ إن اللجنة تؤكد وجهة نظرها أنه لحد كبير فإن النتائج المروعة لأعمال الشغب يوم ٢٦ يناير يجب أن ترجع إلى الانهيار الكامل لتحكم البوليس المؤثر فى الموقف فى بداياته المبكرة، وتلفت اللجنة الانتباه بشكل خاص إلى الفقرة الثانية من الفصل الثانى عشر وإلى الملحق المشار إليه فى تلك الفقرة والذى يشمل وجهة النظر المرجعية للسير توماس رسل باشا.

الفصل الثامن

الأدلة على نشاطات الجيش المصرى بعد نزوله للمدينة

١ ـ إن الشواهد المعطاة للجنة بخصوص الجيش غير واضحة بالضرورة، حيث أن قوات الجيش لم تصل بقوة كافية إلا حوالى الساعة السادسة مساء حيث حل الظلام فى ذلك الوقت، وكانت نشاطات جماعات الإحراق تقارب على الانتهاء، وكان بوسع عدد صغير فقط من شهود العيان مساعدة اللجنة فى هذا المجال.

٢ ـ على أن اللجنة قد أخبرت أنه عندما وصل الجيش إلى شارع سليمان باشا قوبل بالتحية والهتاف والتصفيق، ولكنه تجاهل تلك الإشادات، وبدأ فى السيطرة فورا، ولقد أخبرت اللجنة أيضا بأن طريقة عمل الجيش فى شارع عدلى باشا كانت مؤثرة، وأنه فى شارع شامبليون بدا وكأن جنود الجيش يؤدون مهمتهم بجدية، وعندما وصلت دورية بقيادة اثنين من الضباط لحماية مكتب «تلغراف ماركونى» فى دار الإذاعة فإنهم أطلقوا النار على جمهرة من الدهماء

تلتف حول نار مشتعلة وأصيب أحد المشاغبين بطلقة جعلته يقفز في الهواء ويسقط في النار.

٣ ـ ومن ناحية أخرى فقد قيل بأن بعض دوريات الجيش، سمحت لمثيرى الشغب وآخرين بأن يتحركوا بحرية خلال صفوفها وأيضا، أنه حوالى الساعة الثامنة والربع فإن حمولة عربة نقل من الجنود وصلت إلى ميدان سليمان باشا، وبعد أن اصطفت مفرزة مكونة من عشرة منهم كتفا إلى كتف أمام التمثال فى منتصف الميدان والتف بعض النظارة حولهم، عمر الجنود بنادقهم وأطلقوا دفعة من النيران فى الهواء ثم ركبوا عربة النقل وتحركوا. وقيل أيضا أن دوريات فى شارع قصرالنيل لم تتخذ أى إجراء من أى نوع.

٤ ـ وهناك شاهد عيان آخر «مالك المبنى المذكور فيما يلى» قرر أنه بين الساعة السادسة والسادسة والنصف مساء فإن عربة نقل تحمل مابين ١٥ ــ ٢٠ جنديا وصلت وتوقفت أمام محلات شملا «فى شارع فؤاد الأول» على بعد عدة ياردات من مدخل المتجر، وبعد وصول القوات بحوالى ربع ساعة رأيت عصابة أخرى من حوالى ثلاث أو أربع أفندية على الجانب الأيسر من شارع فؤاد الأول على ناصية حلوانى تسيباس، وفى تلك اللحظة وصلت عربة جيب مفتوحة بها أفندية آخرون يحملون صورة فوتوغرافية كبيرة لم أستطع أن أرى تفاصيلها، وبدأ وكأن أولئك الأفندية

يعطون تعليمات للعصابة وذلك على مرأى ومسمع كاملين من الجنود. ثم دخلت العصابة شارع جلال ناحية سينما كايرو بالاس الموجودة خلف مبنى محلات شملا.

وبعد دقائق حوالى الساعة السابعة مساء رأيت النيران تخرج من الركن الشمالى الغربي للمبنى الذى أمتلكه، وافترضت طبقا لذلك بأن العصابة المذكورة قد دارت حول المبنى وأشعلته، وخلال كل ذلك الوقت بقى الجنود فى عربة النقل ولم يحاولوا حماية المبنى، كانوا يطلقون طلقات متفرقة من مكانهم فى عربة النقل، وفعلا قطعت إحدى الطلقات سلك الترام فى الشارع، وعندما رأى الجنود اللهيب والدخان يتصاعدان من خلف المبنى حركوا عربة النقل حوالى خمسين مترا ناحية الغرب فى الشارع ثم توقفوا ثانية، ولم يخرجوا من عربة النقل ولم يحاولوا وقف الحريق أو الأشخاص المتسببين فيه.

٥ ـ ويبدو من المحتمل للجنة أن الهجمات المنظمة كانت قد بدأت منذ بعض الوقت تخلى مكانها للشغب التلقائى، وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه تدخل الجيش. ومن المؤكد تماما أن الجيش لم يتصرف بأى حزم قاس وأن طلقاته كانت موجهة أعلى رءوس الدهماء وليس هناك أى تقرير مؤكد عن مصرع أى مشاغب على يد الجيش.

ولكن يجب أن يؤخذ فى الحسبان أن ظهور الجيش فى الشوارع نتج عنه بعض العودة للنظام، وأنه قد تسبب فى إعطاء انطباع واضح بتصميمه الظاهر على المحافظة على النظام. ولم تقدم السلطات المصرية حتى الآن تصريحات دقيقة بخصوص عدد الرعايا غير البريطانيين الذين فقدوا حياتهم أو أصيبوا إصابات خطيرة نتيجة للحوادث المخلة بالنظام.

الفصل التاسع

الأدلة على كفاءة قوة المطافىء

١ ـ كانت هناك بعض الشكاوى عن أعمال قوة المطافىء وجودا أو عدمه، ولكن من المقبول به من قبل اللجنة أن قوة المطافىء كانت تعمل تحت مصاعب كبيرة وشاذة، وأن بعض ما ظهر أنه عدم كفاءة منهم أسىء فهمه من قبل بعض شهود العيان، ومن المستحسن تذكر أن أفراد قوة المطافىء غير مسلحين وأن معدات إطفائهم وبالذات خراطيم الإطفاء كانت فى متناول الهجوم السهل لعناصر معادية من الرعاع المشاغبين.

وزيادة على ذلك، فإن قوة المطافىء ووجهت بسلسلة من النيران بمستوى من العنف لم تكن لها به خبرة سابقة، وحيث كانت آلات الإطفاء والسلالم والصنابير والمعدات الأخرى أقل بكثير مما كانت تتطلبه الحاجة.

٢ ـ إن التعليقات التالية مبنية على إقرارات وصلت للجنة وتشير إلى بعض الأعمال التى ارتكبت ضد قوة المطافىء وإلى الصعوبات التى واجهتها:

(أ) اضطرت القوة إلى التخلى عن بلوغ وجهتها فى شارع عدلى باشا عندما كانت تقترب من مكان النيران المنتشرة فى موقع «الترف كلوب».

(ب) في شارع قصرالنيل كان من الواضح أن القوة حاولت جهدها ولكن كان يعوقها ضعف ضخ المياه.

(ج) ساعد رجل إطفاء بنشاط خلال الدخان الكثيف وألسنة اللهيب فى البحث في سينما ريفولى عن المدير وسكرتيرته.

(د) ما بدا لأحد الشهود وكأنه تحركات غير هادفة من سيارة إطفاء ربما كان يرجع إلى تعدد الحرائق التى كان على القوة أن تتعامل معها.

(هـ) ربما كان مابدا من عدم فعالية راجعا إلى نقص المياه وتقطع خراطيم الإطفاء «الفقرة الثانية من الفصل السابع تحوى إشارة إلى قيام ثلاثة من رجال البوليس بتقطيع الخراطيم».

٣ ـ ومن ناحية أخرى شوهدت حالات من فشل قوة المطافىء فى التعامل مع الحرائق بسرعة أو بالجدية والنشاط المتوقعين عادة من رجال المطافىء وأحد الأمثلة الواضحة قد وصف فى الفقرة الأولى (و) من الفصل الأول، وعند حادثة الترف كلوب عدم وجود ضغط للمياه تسبب بدون شك فى خروج المياه بشكل ضعيف متقطع من فوهة خراطيم المياه، ولكن شوهد رجل الإطفاء وهو يشارك بنشاط فيما يسلى المتجمهرين. وفى حالة أخرى فبعد أن

قام رجال المطافىء بإطفاء إحدى الحرائق مكثوا لمدة طويلة فى سيارتهم رغم وجود الحرائق متعددة فى المنطقة نفسها لاتقوم سيارات إطفاء أخرى بالتعامل معها. قال شهود متعددون أن رجال المطافىء وصلوا إلى مكان الحرائق ونظروا إليها ثم تركوا المكان.

٤ ـ وتحت هذه الظروف فإن اللجنة لاتجد عندها المبررات لإعطاء أى أحكام قاطعة عن تصرف قوة المطافىء ككل خلال حوادث الشغب.

الفصل العاشر

الأدلة على المساعدات التى قدمها مصريون لأشخاص مأزومين أو لإحباط عنف الرعاع

١ ـ لاتحب اللجنة ألا يسجل فى هذا التقرير الحالات المتعددة المذكورة فى إقرارات شهود عيان عن المساعدات الحميمة التى قدمها مصريون إلى رعايا بريطانيين مأزومين أو مهددين أو الأعمال التى قدمها أولئك المصريون للحد من أو إحباط نشاطات مثيرى الشغب، إن اللجنة لعلى ثقة من أن نسبة قليلة من تلك الحالات قد وصلت إلى علمها، ولكن من الواضح تماما أنه على وجه الخصوص فإن المصريين الذين يعملون كخدم للأوربيين قد تصرفوا بإخلاص وشجاعة مثاليتين، فمن المعروف أن عددا من بوابى المساكن قد أعطوا معلومات مضللة للمشاغبين الذين سألوهم عن وجود أشخاص بريطانيين فى منازلهم. وطلب أحد البوابين من الجمهور أن يتصرفوا كمسلمين ويصدقوه وذلك عندما خدعهم وقال أن مخدومه ليس بالمنزل.

٢ ـ كان الخدم النوبيون نشطين فى محاولة إطفاء النيران فى شارع عدلى باشا، وكان بواب سينما ميامى هو أحد القلائل الذين أعطوا قوة المطافىء مساعدتهم فقد ساعدهم فى مد خراطيم المياه. ورغم أن بواب أحد المبانى التى هوجمت فى شارع قصرالنيل كان شيخا متقدما فى السن، فإنه شوهد وهو يندفع مهاجما قائد إحدى العصابات ويطرحه أرضا، وعندما قام قائد العصابة أمسك به البواب وألقاه على كومة مشتعلة من بقايا منقولات أحد المبانى القريبة، وعندئذ تحركت العصابة بعيدا.

٣ ـ أقر المستر بترورت مساعد المندوب التجارى لكندا بأنه حين هوجم خارج «الترف كلوب»، فإن شابا مصريا يرتدى ملابس أفرنجية اقتحم الجمهرة وأمسك بيدى وجرنى وهو يصرخ ويضرب فى الرعاع ناحية درج أحد المبانى القريبة الذى نجح بعد ذلك فى إدخالى فيه بينما قام مصريان آخران بصد الجمهرة. ولقد وصلنا إلى الطابق الرابع أو الخامس، حيث خبأنى وكلف اثنين من العمال بحراستى.

٤ ـ رأى أحد الشهود مصريا أنيقا يقود بريطانية مصابة بعيدا عن مكان حادث «الترف كلوب»، وبدا أنه يقودها برضاها ولم تكن بأى حال تجرى أو مجبرة على مرافقة الرجل.

الفصل

الحادى عشر

تفاصيل عن خمس هجمات على أرواح وممتلكات بريطانيــة

١ ـ فى مكان آخر فى هذا التقرير، إشارة إلى حوادث جرت لأرواح أو ممتلكات بريطانيـة، ولكن اللجنة ترى من المرغوب فيه أن يشتمل التقرير على روايات أكثر تفصيلا لكى يتم التعرف الكافى على الأساليب التى اتبعت وعلى النتائج المروعة.

٢ ـ مبانى السادة و. هـ. سميث وأولاده فى أحد الشوارع الخلفية غير الظاهرة من شارع سليمان باشا. ولقد أحرقت تلك المبانى تماما ودمر كل مخزون الشركة بما فى ذلك مكتبة كبيرة. ولقد أثر فى اللجنة بالخصوص الرواية ـ عن الهجمة والتدمير ـ والتى قدمها بواب مصرى موظف بتلك الشركة، ولذلك ستعطى شهادته تلك بتفصيلاتها الكاملة فيما يلى:

«فى يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ أغلقت أبواب المبنى بالنسبة للجمهور فى الساعة الواحدة، وتم وضع الأغطية الصلب، للأبواب ونوافذ العرض وأغلق الباب

الأمامى، ووضعت عليه الأقفال. كان آخر من ترك المبنى من الموظفين هو كبير المحاسبين الذى خرج الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر عن طريق أحد الأبواب الخلفية، بعد خروجه قمت بإغلاق الباب الخلفي، كان باب البضائع الخلفى قد أغلق ووضعت عليه الأقفال فعلا. ثم قام الفراشون بتنظيف المبني وأنهوا عملهم حوالى الساعة الثالثة حيث قمت بإغلاق الباب الخشبى الخلفي، وبعد أن فعلت ذلك جلست على دكة خشبية أمام المبنى، وحوالى الساعة الرابعة والنصف بينما كنت جالسا جاءت إلى الشارع جمهرة كبيرة كان معظم من فيها يرتدون الجلابيب، ولكن كان بينهم عدد قليل من الأفندية يرتدون الملابس الافرنجية، وكان بينهم أيضا ثلاثة رجال بوليس ببزاتهم الرسمية، شاويش وكونستبلان، بدا أحد الأفندية ـ الذى سيكون بوسعى التعرف إليه إذا رأيته ثانية ـ وكأنه يقود الجمـ ـة. كان يمسك بقائمة مكتوبة فى يده توجهت إليه وأخبرته أن المبنى، هو مكتبة عربية، فزجرنى طالبا منى الصمت، لأن لديه قائمة ويعرف أن المبنى لشركة بريطانية، ثم أعطى ذلك الأفندى تعليمات إلى الجمهرة بتحطيم المبنى، فبدأوا بمهاجمة المبنى بالفئوس و«العتلات» والعصى الخشبية من ناحية سكة الفضل، وعندما بدأت الجمهرة فى مهاجمة المبنى، توجهت إلى القنصلية الفرنسية القريبة جدا حيث كان هناك سبعة أو ثمانية رجال بوليس بقيادة شاويش فى نوبة الحراسة. طلبت من

الشاويش أن يمنع الجمهرة من اقتحام مبنى و. هـ. سميث وولده، لكنه طلب منى أن أبتعد قائلا أنها ليست مهمته، فرجعت عندئذ إلى المبنى حيث وجدت بعض الأفندية قد تسلقوا وكسروا اللوح الزجاجى لنافذة مكتب كبير المحاسبين ودخلوا منه إلى المبنى ثم بدأوا عندئذ فى تحطيم الباب الخشبى الخلفى وباب البضائع فى الشارع الجانبى، وعندما تم ذلك دخل عدد أكثر من الجماهير وأشعلوا النار فى الدور الأول كله، وقبل أن يفعلوا ذلك ألقوا ببعض الأثاث من مكتب كبير المحاسبين إلى الشارع.

بعد ذلك رأيت عددا من الأفندية ينزل إلى الدور تحت الأرض «البدروم» للمبنى حيث المخزن الذى كان مليئا بالأدوات الكتابية والجرائد وصناديق الورق المقوى الحاوية للبضائع، وبدأوا بإلقاء نوع ما من البودرة البيضاء فوق البضائع، ثم بدأوا يخرجون «الكيروسين» من المواقد فى حجرة المخزن ويصبونه فوق البضائع ثم يشعلونها وفور فعلهم ذلك هبت ألسنة اللهب إلى السطح.

وعندما اشتعل المبنى بكامله أخبرنى المتجمهرون أننى إن حاولت دخول المبنى لمحاولة الإطفاء فلسوف يلقون بى فى النار، بعد ذلك بدأ المتجمهرون فى إشعال النار فى الأثاث الذى كان قد ألقى به فى الشارع، ثم تركوا المبنى على أننى لم أر أيا من رجال البوليس الثلاث يدخل المبنى فقد ظلوا فى الشارع يشاهدون مايجرى.

٣ ـ هوجم الفرع الرئيسى لبنك باركليز فى شارع قصر النيل حوالى الساعة الثانية والنصف بعد ظهر، تجمعت جمهرة خارج المبنى وتصايحت بهتافات، وألقوا بالطوب ومقذوفات أخرى على النوافذ المغلقة وعلى أبواب البنك، وفتح الباب الجانبى قسرا، اقتحم عدد من الرعاع الدور الأرضى وبدأوا فى تحطيم الأثاث وإخراج الأوراق من الدواليب، وكوموا كل ذلك ثم أشعلوا فيه النار، ولم يعيروا موظفى البنك بالدور الأول أى اهتمام، ويطلب من البنك فإن حوالى أربعين رجلا من رجال البوليس وعددا من الضباط كانوا قد أرسلوا لحماية المبنى قبل الساعة الثانية، على أنه بحلول الوقت الذى تطور فيه الهجوم على البنك كان الجميع عدا ضابطا واثنى عشر جنديا قد تركوا المكان ولقد أطلق أولئك بعض الطلقات فى الهواء، ولكنهم لم ينجحوا فى إثناء الرعاع عن الهجوم، ولقد وجد يونانيان وخمسة مصريين من موظفى البنك ميتين فى وقت لاحق، وقتل أيضا صاحب بوفيه فى الطابق الثالث وثلاثة من موظفيه وجميعهم من المصريين، كانت أجساد القتلى الأحد عشر محروقة بشدة، ويبدو من المحتمل أن النيران المشتعلة قد أردتهم ولم يهاجمهم المتجمهرون. كان أحد المصريين الذين شاهدوا الحادث والذى يعرف أن أحد أصدقائه البريطانيين يسكن مع عائلته فى شقة على سطح مبنى البنك قد طلب من شاويش بوليس أن يساعده فى انقاذهم. فأجابه الشاويش بأنه إن لم

يسكت فسيسلمه للرعاع، ولقد هرب نائب مدير البنك المصرى الجنسية واثنان من الموظفين البريطانيين بانزلاقهم على أنابيب المجارى خلف المبنى، ولقد أخبر النائب الجمهور المعادى بأن مرافقيه ايطاليين ونتيجة لإلحاح اثنين من الجمهور فإن المتجمهرين لم يفعلوا شيئا للاثنين سوى سرقة ما معهما، ثم تسليمهما لأقرب قسم بوليس، ولقد ترك المبنى تحت رحمة النيران التى دمرته تماما، ولم يؤد لا البوليس ولا قوة المطافىء واجبات الحماية المفترضة من وجودهما، ومن المثير للإهتمام تسجيل أنه فى وقت سابق من شهر يناير فإن بعض أعضاء حركة نسائية مصرية تظاهرن أمام البنك ومنعن الدخول إليه لمدة ساعتين وهللت لهن بحماس جمهرة كبيرة من المتفرجين عندما رفضن التحرك بعيدا بأمر البوليس، وتعالى لهن الهتاف أيضا عندما اقتدن إلى قسم البوليس.

٤ ـ إن كلا من المعهد البريطانى ومكاتب المجلس البريطانى قد دمرا تماما والتفصيلات التالية وفرها لنا المستر س. د. هويل ممثل المجلس البريطانى فى مصر.

مكاتب «المجلس البريطانى» - ٣٢ شارع عبدالخالق ثروت باشا:

حدثت هجمتان الأولى الساعة الرابعة والربع، والثانية بين الساعة السابعة والساعة الثامنة مساء.

يوجد بالطابق الأول من المبنى مكاتب محامى السيد سير. يوتيس، ومقر شركة سبيكو SPECO، أما الطابق الثانى فقد كان غير مسكون حيث أخلاه فى وقت قريب أشخاص كانوا قد نظموا فيه بيتا سيىء السمعة «دعارة» تحت اسم «امبريال هاوس» أما الطابقان التاليان فقد كان يشغلهما «المجلس البريطانى» كانت اللوحة النحاسية التى تحمل اسم «المجلس البريطانى» والموجودة على باب المبنى الخارجى على الشارع قد نزعت من مكانها منذ عدة أسابيع طبقا للتعليمات وأعيد تركيبها على الحائط الموجود فى ردهة السلم بجوار المصعد، ولكن لافتة «الامبريال هاوس» كانت مازالت معلقة على قضيب، مركب فى الحائط فوق باب المدخل الخارجى.

أتى إلى الشارع من ناحية شارع عماد الدين مجموعة مكونة من ١٥ إلى ٢٠ شابا من الأفندية حوالى الساعة الرابعة والربع، وعندما اقتربوا من المبنى تصايحوا: امبريال هاوس، وفتحوا الباب قسرا، واندفعوا مختفين وهم صاعدون السلم، ولقد أقر أحد الشهود بأنه لو كانت لافتة «الامبريال هاوس» على الباب الخارجى غير موجودة فإن الهجمة لم تكن لتحدث، ومن الصعب تصديق ذلك، والأكثر احتمالا أنه كان معروفا أن «المجلس البريطانى» ليس له لافتة خارجية على الشارع وأن المبنى الذى عليه لافتة «الامبريال هاوس» كان سيهاجم. لم تمس مكاتب السيد يوتيس فى الطابق

الأول، ولكن مكاتب «شركة سبيكو» هوجمت، ولقد فتحت إحدى شقق «الامبريال هاوس»، ولكن لم تمس وفى الطابق الثالث كانت توجد مكاتب الممثل المقيم للمجلس البريطانى، ونائبه وقسم الحسابات ومخزن كبير، وذلك فى إحدى الشقتين، وفى الشقة الثانية الموجودة على الجانب الآخر، كان هناك قسما التعليم والامتحانات، وقد أتت النيران على هذه الشقة الثانية ولم يبق منها شيء، ولقد ألقى بكامل الأثاث والأوراق فى شقة «الممثل» إلى الشارع وأحرق جزء من الشقة، أما المخزن فلم يدمر وترك سليما، على أن كل محتوياته اختفت، وأما الأثاث والأوراق الخ.. المجمعة فى الشارع فقد أشعلت فيها النيران التى لم تبق منها شيئا، ولقد فتحت إحدى الخزائن الحديدية عنوة من الخلف، ولكن رغما عن كل المجهودات فإن خزانة حديدية أخرى لم يمكن فتحها، وفى الطابق الرابع، فإن إحدى الشقق ـ شقة الإدارة ـ لم تفتح ولكن وجد مفتاح مكسور فى إحدى خزائنها، أما الشقة الأخرى فى الطابق نفسه فقد اقتحمت واختفت أو دمرت أدوات معينة لكن الدمار كان قليلا.

وفى الطابق الثالث فى الشقة المحترقة التى كان يشغلها قسما التعليم والامتحانات فلقد اكتشف جزء من قنبلة «كوكتيل مولوتوف»، وكذلك بالقرب من كومة الأشياء المحترقة فى الشارع وجدت زجاجة «كوكتيل مولوتوف» سليمة.

لم تكن الجمهرة خارج المبنى فى الشارع كبيرة ومن المستحيل تماما ايجاد شواهد على مدى التدمير الذى تم فى كل من الهجمتين الأولى فى الرابعة والثانية فى السابعة لقد اختفى الفراشون والبواب خلال الهجمة الأولى . واقر أحد الشهود بأنه لم تكن هناك انقاض خارج المبنى فى الساعة السابعة، ولكن ناقضه آخرون، ولكن من الواضح لحد ما أنه لم تكن هناك هجمة متكتلة من الجمهور ، ولكن التدمير تم على يد مجموعة جيدة التنظيم .

المعهد البريطانى سكة المغربى :

يقع المعهد فى شارع خلفى صغير يصل بين شارعى عدلى باشا وفؤاد الأول موازيا وقريبا من شارع عماد الدين . فى حوالى الساعة الواحدة والثلث بعد الظهر ، ظهر ما بين اثنى عشر الى خمسة عشر شابا أعمارهم بين العشرين والثلاثين ، وهم يجرون ناحية شارع فؤاد الأول كانوا من الأفندية ويقودهم شاب يرتدى بزة رمادية ويمسك بمسدس كبير من طراز الكولت . أما الآخرون فكانوا يحملون العتلات والفئوس ، وكان بعضهم مسلحا بالمدى . كانت المجموعة تحمل بالات من قماش الجوت وعندما تم تحطيم نوافذ الطابق الأرضى . أشعلت تلك البالات وألقى بها الى الداخل

وفى نفس الوقت كسر الباب الأمامى الذى كان موصدا بمزلاج بطريقة كنا نعتقد أنها قمة في الأمان ، واقتحم المدخل ، ولقد أحرق الجزء الأوسط من المبنى والجناح الأيمن منه تماما . أما الجناح الأيسر فقد كان متماسكا من الناحية البنائية . وكان التدمير طفيفا للغاية ، ولقد اقتحمت المكاتب فى خلفية المعهد ، ولكن هنا أيضا لم يكن التدمير كبيرا ، على أنه كان هناك تدمير كبير تال لذلك نتيجة لمياه الاطفاء وهبوط الحوائط والارضيات . ومنذ الحريق فلقد أمكننا أن نخرج من بين الحطام حوالى نصف أثاث الفصول الدراسية وحوالى خمسة آلاف كتاب وذلك من مكتبة كانت تضم أصلا ثمانية عشر ألف مجلد . لقد استمرت الهجمة لمدة نصف ساعة وعندئذ انصرفت المجموعة بنظام فى نفس الاتجاه الذى ظهرت منه أى فى اتجاه شارع فؤاد الأول .

وعند ذلك كانت هناك جمهرة مؤلفة من خمسين شخصا فى الشارع الضيق . ولكنه لم يبد أنهم اشركوا بدور فعلى . كان المبنى عندئذ يحترق بعنف فى منتصفه ووصلت قوة المطافئ الساعة الثالثة . على أن أجزاء من المبنى كانت لاتزال تضطرم صباح الثلاثاء .

كان هناك رجل بوليس يقف للحراسة خارج المبنى عندما وصل المهاجمون ولكنه فر ولم تصدر عنه أى مقاومة . ويبدو من الواضح لحد كبير أنه لم تكن هناك هجمة من جماهير متكتلة ولكن كان التدمير نتاج .. عمل مجموعة منظمة جيدا .

٥ - شركة خطوط الطيران البريطانية لما وراء البحار B.O.A.C.

تعرضت تلك المؤسسة تعرضا خطيرا للحوادث وذلك بالنسبة لكل من مكاتبها فى القاهرة ولطائراتها فى مطار فاروق أثناء ليلة ٢٦/٢٥ يناير ١٩٥٢ ، لقد قدم مستر ماكسويل من الشركة للجنة تقارير مفصلة عن تلك الحوادث نورد تلخيصا لها :

أ - الهجمة على المكاتب الرئيسية للمؤسسة ومركز حجز التذاكر .

بعد الساعة الثانية بوقت قصير أشعلت النار فى مركز حجز التذاكر . انقسمت العصابة الى مجموعتين قامت احداهما بتحطيم النوافذ وتسلقت الى داخل المبنى من ناحية شارع شامبليون، بينما حاولت المجموعة الأخرى تغطية المدخل من ناحية شارع قصر النيل وبعد اتمام الاقتحام أشعلت العصابة النيران فى المقر

اشعالا مؤثرا ونتج عن ذلك تدميره بالكامل . ولقد أقر شاهد عيان بأن كردونا من البوليس منع الدهماء من التدخل ، بينما كانت عصابة الإحراق تؤدى عملها ، ولقد أشعلوا أيضا صالة عرض سيارات فى الطابق الأرضى لنفس المبنى وحطموا سيارات كثيرة سحب كثير منها الى عرض الشارع وأشعلت فيها النيران .

وعندئذ وجه المحرقون انتباههم الى المبنى الجديد لنفس المؤسسة والذى يقع عبر الشارع بالضبط أمام مركز حجز التذاكر، كان ذلك المبنى يضم بالاضافة الى مكاتب شركة الطيران عددا من المؤسسات الخاصة تشتمل على مؤسسة معروفة جيدا لمحامين بريطانيين . ولقد أحرقت أوراقها ومستنداتها القانونية وغير ذلك بالكامل ، فبعد أن تم اقتحام المبنى من الأمام والخلف ، فإن أعضاء العصابة صعدوا الى طوابق مختلفة والقوا بقطع أثاث الى الشارع ثم قاموا باشعال النار فى داخل المبنى ، بينما قام آخرون وصفوا بأنهم شباب حسنو الملبس يرتدون الملابس الأوربية باشعال النار فى الأثاث فى الطريق .

ولقد أقر أكثر من شاهد بأن مدير محطة بنزين «سكونى فاكوم» هو الذى كان يدل أعضاء العصابة على أحد أبواب المبنى ،

، وهو الذى وفر لهم أيضا البترول الذى اشعلوا به المبنى . ولقد رأى شاهدان سيارة ستروين تقترب ويقوم راكبوها بتسليم مابدا وأنه زجاجات من البترول الى أعضاء العصابة .

ملاحظة : شوهدت سيارة من الطراز نفسه فى حادثة أخرى .

لم يفعل البوليس شيئا . وعندما قام مدير مركز حجز التذاكر بالتوجه الى ثلاثة ضباط بوليس فى سيارة كانت قد اقتربت من مكان الحادث وسألهم عما يجب أن يفعل لوقف النار ضحكوا منه وتحركوا بعيدا . والاقرار التالى بواسطة شاهد مستقل ، عما رآه أثناء إحراق مقر شركة الطيران يعطى هنا لأنه يوفر وصفا دقيقا للمشهد الذى كان مشابها لحوادث أخرى كثيرة .

«مررت بالمبنى فى سيارتى فى الساعة الثالثة والربع ، ثم فى الرابعة والنصف ثم فى الخامسة والنصف يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ وذلك فى محاولة منى للتوجه الى مكتبى بالمدينة فمن الشرفة فى شقتنا العالية جدا ، شاهدت دخانا كثيفا مصدره ميدان الاسماعيلية (التحرير حاليا - المترجم) وعند وصولى الى الميدان رأيت أن مبنى شركة الطيران B.O.A.C. هو المشتعل ، ورأيت شبابا حسنى الملبس - ليسوا بالكثيرى العدد - وهم

منشغلون تماما خارج مكاتب الشركة يضيفون موادا الى النيران التى كانت قد بدأت فعلا .

كان عددهم قليلا وكانوا بالتأكيد من الأفندية ، ولم يكن هناك تجمهر كبير والموجودون يشاهدون ما يحدث وهم فى حالة عدم اكتراث ، ويشتملون على رجال بوليس نظامى لايفعلون شيئا لايقاف المجرمين .

وعندما رجعت الساعة الرابعة والنصف كانت النيران فى أعلى المبنى فى الطوابق الثالث والرابع ، تشتعل بعنف ، ولقد اعتقدت فى ذلك الوقت أن النيران امتدت من أسفل المبنى الى أعلاه ، ولكننى علمت بعد ذلك أن تلك النيران كانت اشعالا منفصلا . وعند كل من الساعتين الرابعة والنصف والخامسة والنصف كان المنظر هناك مايزال يضم عددا ليس كبيرا من الشباب حسنى الملبس يغذون النيران . بينما يقف جمهرة من المدنيين والبوليس فاغرى الأفواه ولايفعلون شيئا .

الحوادث فى مطار فاروق

بعد الساعة العاشرة بقليل فى مساء ٢٥ يناير فى مطار فاروق، منعت طائرة تابعة لشركة .B.O.A.C الطيران

البريطانية من الاقلاع طبقا لتعليمات بوليس الجوازات . لقد أزيح سلم الطائرة جانبا ، ورغم أن الركاب كانوا فى الطائرة فإن مخارجها أغلقت تماما . ولقد منعت طائرة أخرى - كان ركابها فى المطعم من الاقلاع أيضا حينئذ أعطى قائد محطة الشركة البريطانية B.O.A.C. بالمطار تعليمات فورية بأن يعاد توجيه طائرتين كان من المقرر نزولهما فى المطار فى الساعة التالية، الى مطارى نيقوسيا وبيروت. ولكن ضابط المراقبة الجوية المناوب والذى كان يتصرف طبقا لتعليمات من مدير عام الطيران المدنى، رفض ارسال تلك التعليمات الى الطائرتين المذكورتين، وبذلك هبطتا فى ميعادهما، وعندئذ أغلقت مخارجهما تماما وترك الركاب بهما .

ولقد تم بنجاح اعادة توجيه طائرتين أخريين بواسطة المستر ماكسويل الذى ارتدى طربوشا وجلبابا وتمكن من الهرب واستعمال تليفون . أما الركاب فى المطعم فقد حبسوا بدون طعام أو شراب ، ويقال أن بعضهم شرب ماء من التواليت ، وفقط كان من الممكن توفير اللبن المغلى وتوصيله الى خمسة أطفال رضع كانوا بين المحبوسين . وعندها ترك رجل بوليس دركه فى الساعة

الثامنة صباحا، كان أحد صغار ضباط الجوازات نشطا فى الهاب المشاعر ضد البريطانيين ونجح فى اقناع موظفى المطار بعدم التعامل مع الطائرات البريطانية أو عدم التعاون مع موظفى شركة الطيران البريطانية .B.O.A.C أما ضباط الجمارك والجوازات وموظفوهما فقد كانوا مهيمنين وعدائيين ولقد رفض السماح حتى باستخدام التليفون، ولكن تم ايصال رسالة للسفارة بعد وقت عن طريق المستر بنجهام مدير محطة شركة الطيران البريطانية .B.O.A.C الذى تمكن من الهرب من نافذة دورة المياه، وبعد الساعة الثالثة بقليل وصل المستر وارول سميث (رئيس المستشارين) وملحق الطيران المدنى إلى المطار برفقة قومندان ونائب قومندان بوليس القاهرة ومدير بوليس الجوازات ومراقب عام الطيران المدنى ونائب مدير المطار . وطالب المستر وارول سميث بالافراج عن الركاب المحبوسين فتم ذلك . وعند حوالى الساعة الخامسة صباحا ترك المطار لكى يرتب ارسال قوات مسلحة الى المطار وبعد ضغط كبير وافق موظفو المطار على السماح للطائرات بالاقلاع فور وصول القوات المسلحة (ليس الجيش) . وصلت فصيلة من بوليس الحدود حوالى الساعة

السابعة، وأخبر قائدهم موظفى شركة الطيران البريطانية بأن تلك ستكون المرة الأخيرة التى يساعد فيها البريطانيين، وبعد تأخير طويل سلمت جوازات السفر للركاب وبعد أن استمعوا الى محاضرة من قائد فصيلة حرس الحدود عن حقوق مصر فإن ركاب الطائرتين الأوليين سمح لهما بالركوب، وعندئذ قامت جمهرة كبيرة بالاندفاع عبر الممر وهاجم أفرادها وأذوا ثلاثة مكانيكيين بريطانيين كانوا يخدمون إحدى الطائرات وعندئذ قامت قوات الحدود التى لم تكن قد تلقت تعليمات حتى ذلك الوقت بتفريق المتظاهرين وأقلعت أولى الطائرات فى الساعة الثامنة والربع، وخلال عشرين دقيقة كانت الطائرات الأربعة قد أقلعت وذلك بدون السماح لها بالتزود بالوقود، وتوجه اللجنة انتباها خاصا للنقط الثلاث التالية :

أ – لقد كان الاغلاق التام من الخارج لأبواب ثلاث طائرات فى حين أن ركابها كانوا مايزالون بداخلها عملا فظا وخطيرا بالذات . فى تلك الظروف فان الجو فى طائرة ذات ضغط جوى ثابت سيتسمم بعد وقت قصير، ولابد أن الـ ٨٨ راكبا المعنيين الذين حبس بعضهم لمدة ثمانٍ ساعات كانوا قد كابدوا عدم الراحة ، ومشقة كبيرة .

ب – إن رفض توصيل تعليمات اعادة التوجيه للطائرتين كان انتهاكا لأحكام الهيئة الدولية للطيران المدنى التى تشترك مصر فى عضويتها .

جـ – إن كلا من حكمدار ومساعد حكمدار بوليس القاهرة قد توفر لديهما بتلك الحادثة هذا الانذار المبكر لما يحتمل أن يحدث بعد ذلك فى اليوم نفسه ، ولكن من الواضح أنهما ، اهمالا أو عمدا قد تجاهلا متضمنات تلك الحادثة – أنظر الفقرة الثانية من الفصل الثانى عشر – إن موقف إمام بك مساعد الحكمدار كان مشكوكا فيه بالذات بالنظر الى تصرفاته عند سينما ريفولى – انظر الفقرة الأولى من الفصل السابع – وما قيل عن عدم إمكان الاتصال به خلال كل فترة الاضرابات أنظر الفقرة الثانية من الفصل الثانى عشر .

كان السير مايلز توماس أحد ركاب الطائرات الذين تعرضوا للحادث ومن المحتمل جدا أنه قدم تقريرا عن الموضوع كله الى وزارة الخارجية .

٦ – كانت الهجمة على «الترف كلوب» غاية فى الشراسة ونتجت عنها كارثة .

لقد بدأت الهجمة الساعة الواحدة والربع وتبعت هجمات على مطعم الاكسلسيور وعلى صالات عرض « شركة الانجلو اجبشيان موتورز» على الجانب الآخر من الشارع، وعلى سينما مترو التى تقع على بعد خطوات عند التقاطع مع شارع سليمان باشا .

إن السرعة التى عملت بها عصابات الاحراق يمكن الحكم عليها اذا لاحظنا أن مطعم الاكسلسيور اشتعل باللهيب قبل ربع ساعة فقط من بداية الهجوم على «الترف كلوب»، إن اللجنة مطمئنة الى معلومة أن قائد الهجوم على «الترف كلوب» كان شخصا يرتدى بزة رسمية – انظر الفقرة الخامسة من الفصل الثالث – ولقد شوهد وهو يسيطر على حوادث أخرى فى نفس المنطقة .

كان يحرس النادى عدد من رجال البوليس اختلف القول فى عددهم بين اثنين وستة . على أنهم لم يحركوا ساكنا لحماية النادى، وتجاهل المهاجمون مجرد وجودهم .كان هناك كثير من الرعاع فى الجمهرة ولكن العصابة المهاجمة كانت من الأفندية حسنى الملبس . ولقد تبع الهجوم النمط الموصوف فى الفقرة الأولى من الفصل الرابع ، وفى هذه الحادثة استعمل عامود إنارة أو أداة مشابهة فى تحطيم باب المدخل الأمامى ولولا فقدان الخطير للأرواح الذى تبع الهجمة لما وجدت اللجنة من الضرورى اضافة تعليقات أخرى . ولكن كما هو معروف فان عشرة من الرعايا البريطانيين قد قتلوا وتعرض آخرون لأذى شخصى بالغ .

إن سلطات التحقيق المصرية تجرى تحقيقا شاملا فى ظروف

الحادث ويقوم المستر و.د. ڤانر (محام بريطانى فى القاهرة) بتمثيل المصالح البريطانية . ولقد تفضل بأن قدم إلى اللجنة نسخا من اقرارات بعض الأعضاءالذين كانوا فى النادى وقت الهجمة وتمكنوا من الهرب (ليس بدون أن يتعرضوا للأذى) وكذا اقرارات آخرين شهدوا ما حدث خارج النادى بعد ذلك .

لقد حاولت اللجنة أن تجمع التفاصيل المعطاة فى تلك الاقرارات رغم أنها - كما سيكون من الواضح - لايمكن أن تعطى جميع جوانب الظروف التى فقد فيها الذين قتلوا أرواحهم . إن اللجنة تسجل التتابع التالى للأحداث وذلك بتحفظ مفهوم :

أ - أوصد الباب الأمامى بالمزلاجالساعة الثانة عشرة والربع أو قبل ذلك وذلك بسبب التوتر السائد ولقد وصل أحد الأعضاء فى حوالى ذلك الوقت وأدخله حارس المخل .

ب -غادر أحد الأعضاء الناى حوالى الثانية عشرة والنصف وأثناء مغادرته تقابل مع عضوين يدخلان (المستر بوير والمستر جونز وكلاهما قتل بع ذلك) ولقد قالا له إنهما قد شاهدا مابدا وكأنه حريق فى ميدان إبراهيم باشا (ميدان الأوبرا الآن - المترجم) ونظر الجميع تجاه ذلك الميدان وشاهدوا جمهرة قليلة العدد من الطرف البعيد من شارع عدلى باشا .

ودخل أحد الأعضاء النادى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر بواسطة باب جانبى . وفى الوقت نفسه قيل لعضو آخر تليفونيا بواسطة حارس البهو أن هناك حريقا بميدان الأوبرا .

جـ - دخل ثلاثة أعضاء الساعة الثانية عشرة وخمسا وأربعين دقيقة وقال أحدهم أنه لم يشاهد مايخرج عن المألوف فى شارع عدلى باشا فى ذلك الوقت .

د - فى الساعة الواحدة بعد الظهر شاهد عدة أعضاء الهجمة تتطور عند مطعم الاكسلسيور وكذلك الهجمة التى حدثت بعد دقائق قليلة على صالات عرض «شركة انجلو اجبشيان موتورز» على الجانب الآخر من الشارع .

هـ - تمت عدة محاولات من السكرتير (المستر توماس) وبعض الأعضاء الآخرين لوضع متاريس خلف الباب الأمامى .

و - بدأت العصابة فى الدق على الباب الأمامى الساعة الواحدة وعشر دقائق وتمكنت من اقتحامه بعد الساعة الواحدة والثلث ببرهة .

ز - تمكن عدد من الأعضاء من الهرب عن طريق باب خلفى بين الساعتين الواحدة والواحدة والثلث . ولقد قام الموظفون

المصريون بالإسراع بمغادرة المكان عند ظهور أول دلائل المتاعب . ولقد أمسكت العصابة بحارس البهو عند اقتحامها ولكنهم اخلوا سبيله عندما اثبت لهم جنسيته اليونانية .

ح – بقى فى المبنى : المستر ن . توماس (السكرتير) ، المستر كليا تريك : قفزا كلاهما من نافذة جانبية واصيبا إصابات خطيرة، المستر ج .م . بوير : قتل ، المستر ج . أ . كريج : قتل ، المستر هـ . ا . كنيدى : قتل ، المستر س . ف . ا . جونز : قتل ، المستر د. س . والمسز كروفورد : قتلا ، ويعتقد أحد الأعضاء أنهما لم يدخلا المبنى قبل حوالى الواحدة وعشر دقائق ، الضابط الجراح و . س . ميلر : قتل ، المستر ن ، ويليا مسون : قتل ، المستر أ . والدماير : قتل ، المستر ج . ج . ج تيود : قتل .

ط – شوهد المستر بوير بواسطة أحد الأعضاء وهو يذهب الى حجرة البلياردو فى الدور الأرضى قبل حلول الواحدة وعشر دقائق تماما . ورآه عضو آخر يلعب البلياردو هو والمستر كيندى بعد ذلك الوقت بقليل . ومن المحتمل جدا أنهما قد توجها الى أحد الطوابق العليا قبل أن تقوم العصابة بالاقتحام وعندما هرب المستر توماس حوالى الواحدة والنصف وخمس دقائق ، فانه شاهد الدكتور ميلر

والمستر ولیامسون فی طریقهما إلی حجرة المطالعة بالطابق الأول ولیس هناك معلومات متوفرة عن المكان الذی كان الآخرون موجودین فیه عندما أحیط بهم .

ی - إن النتائج المأساویة الدامیة فی حاجة الی التسجیل . ولقد قام المستر آ. هـ . كنج القنصل العام بالقاهرة والذی شاهد الجثث فی المشرحة بتوفیر التفاصیل التالیة :

المستر بویر : وجد فی حجرة نوم عاریا من وسطه والی أسفل وكانت الملابس علی نصفه الأعلی ممزقة تماما والاجزاء المكشوفة من الجسم محروقة ووجد دم متجمد علی أحد جوانب الوجه من جرح بجوار جانب الجبهة .

المستر كریج : وجد فی حجرة نوم ونصف جسمه الأعلی عاریا وبالكاد متعرض للحرق وكان هناك جرح طولی یقطع الوجه الذی كان لونه متغیرا .

المستر كیندی : وجد فی حجرة نوم وثلاث أرباع جسمه عار ومحروق . والوجه متورم وجرح فی محاشمه .

ولقد كان المستر بتروررت مساعد المندوب التجاری لكندا هو الذی وجد الجثث أولا وتعرف علیها، وذلك حوالی نصف اللیل یوم

٢٦ يناير . وكان القائمقام فارس من البوليس المصرى موجودا كذلك. كانت بعض حجر النوم سليمة تقريبا، ولكن جميع الحجرات نهبت تماما . وتتفق اللجنة مع رأى المستر كنج بأنه حيث أن جثتى المستر بوير والمستر كيندى كانتا محروقتين فان ملابسهما لابد أنها نزعت قبل أن تحرق النيران أو السخونة حجرات النوم التى وجدا فيها، وقبل أن يكون الدخان المتصاعد من حرائق الطابق الأول قد خنقهما أو منع النهابون من دخول حجرات النوم ولو كان ذلك افتراضا صحيحا فانه من الممكن تماما أن أولئك الرجال قد هوجموا وقتلوا قبل أن تؤثر فيهم النيران .

المسز كروفورد : وجدت تحت المنضدة فى حجرة نوم وهى سليمة ومن المحتمل أنها ماتت مخنوقة بالدخان .

المستر ويليامسون : وجد فى حجرة بالطابق الأعلى وعلى جسمه قطع قليلة من الملابس ، وجسمه محروق بشدة .

وقد قال الدكتور هاملتون الذى كان يرافق المستر كنج أنه كانت هناك كسور مضاعفة على كل من معصمى المستر ويليامسون ، ولكن سبب الوفاة لم يكن واضحا . وأن تقرير التشريح الذى تعده السلطات المصرية (إن كان يمكن القبول بالاعتماد عليه) سوف يظهر إن كان هناك اصابات أخرى قضت عليه .

ولقد فقد الأشخاص الخمسة الباقون حياتهم خارج النادى ووجد اثنان في خلفية النادى ، وثلاثة على بعد قليل من شارع عدلى باشا . كان الجميع محروقين بطريقة تصدم ، وممثلا بهم . ولقد تم التعرف على اثنين فقط . وليس هناك شواهد على الكيفية التى لاقوا بها حتفهم بالضبط ، وخصوصا اذا كانوا قد قتلوا قبل حرقهم .

وفيما يلى رواية شاهد عيان موثوق به عن الوحشية الحيوانية للرعاع :

فيما بين الساعة الواحدة والنصف والثانية إلا ربع كان الترف كلوب يشتعل ، ظهر رجلان الواحد بعد الآخر على الشرفة الصغيرة فى الطابق الثالث فى منتصف الجانب الخلفى للنادى . كان أحدهما يلتف بستارة أو ملاءة والآخر يلتف بغطاء سرير . كان الأول يرتدى بدلة بنية داكنة والآخر يلبس سترة رمادية وبنطونا من لون آخر . قام المتجمهرون الذين كانوا هناك بقذفهما بالأحجار وأشياء أخرى . ونتيجة لاصابتهما بالذعر فقد قفزا بدون أن يراهما أحد سقط أحدهما على ظهره على سطح صغيرة لتعريشة تقع بين سور النادى وسور محطة بنزين شل المجاورة

ولابد أنه قتل من جراء سقطته ، أما الآخر فقط سقط فى فناء صغير . وذهب بعض المتظاهرين ينظرون إليه ، ولابد أنه كان مازال على قيد الحياة حيث أنهم ركلوه بدون رحمة وضربوه بالقضبان الحديدية . كان وجهه داميا ولا يمكن التعرف عليه ، ولم يعد لديه لا حذاء ولا ربطة عنق ، وقام كل من مر به بركله أو ضربه بالعصى . ولقد وضع أحد الأشخاص ورقة من صحيفة على وجهه، ولكن الجمهور نزعها فورا . أما الجثة الأخرى فقد أحضرت هناك وكانت أقل تشوها وكان الوجه مغطى بقبعة رمادية . ولقد تركت الجثتان هناك لحوالى ربع ساعة (فى شارع بجوار الطوار على الجانب الأيسر لشارع سليمان باشا) وبدا وكأن الشخص الذى يرتدى بذلة بنية شابا صغيرا .

وفى حوالى الساعة الثانية قام الرعاع بامساك الجثتين من أرجلهما وجراهما فى عرض الطريق إلى الجانب الجنوبى لشارع سليمان . وهناك ضربت الجثتان ثانية وخلعت عنهما الملابس ثم وضعت خلف مبنى «الباترنل» وظلتا هناك ما بين ثلاثة أرباع الساعة الى الساعة ، ثم قام الجمهور الذى هاجم باراثينا الصغير فى شارع ثروت باشا بحمل الجثتين ووضعهما فى أحد النيران

المشتعلة أمام البار وكوموا الكراسى والمناضد فوقهما ، وتركوهما تحترقان.

وعند الساعة الواحدة والنصف ، أراد أحد الأشخاص أن يخرج عن طريق نافذة الطابق الأول فى الركن الجنوبى الغربى للنادى ، وكانت أغطية النافذة مسدلة ، ولما رأى المتظاهرون أن أحدهم يحاول فتح الغطاء ليهرب أخذوا يدقون على الغطاء بقضبان حديدية لكي يخيفوا الشخص ويمنعوه من مغادرة المكان. وهناك روايات أخرى .

١ - حوالى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، كنت فى الممر خلف عمارة الايموبيليا ، كان انتباهى منجذبا «للترف كلوب» حيث كان الجزء الشرقى منه باديا من مكانى . كان النادى مشتعلا وكانت النار والدخان تخرجان منه . كان أوربى عجوز أشيب الشعر يقف على الجزء الشرقى الجنوبى للنادى، كان يقف مستندا بيديه على الشرفة ينظر بشجاعة الى الجمهرة. كنت أستطيع رؤية الاحجار وهى تلقى على النادى، من قبل جمهور على الأرض من الناحية الجنوبية للنادى. رأيت شخصا يحاول إدخال الرجل المسن ولكنه رفض أن يتحرك، وبعد عدة دقائق رأيته

يصاب بحجر وبعدما وضع رأسه بين يديه مستندا على الشرفة وبعد دقائق وقف الرجل المسن ثانية، ومرة أخرى لاحظت شخصا ما يحاول إدخاله . ولقد تركت المكان عندئذ وتوجهت الى مكتبى.

ملاحظة : من المحتمل أن الرجل المسن كان المستر كريج.

ب - رأيت ذلك النادى بعد إحراقه من قبل المتظاهرين الذين كانوا فى ذلك الوقت بداخله يبحثون عن الخزائن الحديدية : ولقد سمعت من أناس معينين أن بعض الانجليز الذين كانوا داخل المبنى قد احرقوا ولقوا مصرعهم، وأن اثنين منهم كانا قد هربا من النوافذ قتلهما المتظاهرون فى شارع ثروت باشا بالقرب من رقم ٢٣ . ولقد ذهبت هناك لأرى ماذا يحدث فوجدت إنهما قتلا والقى بهما على الأرض داخل أحد البارات فى ركن المبنى رقم ٢٣ شارع ثروت باشا وأن أحد رجال البوليس كان يشاهدهما ثم وضع عليهما لوحا خشبيا. ولقد رأيت أيضا أعضاء معينة من جسديهما وهى مقطوعة وفى المساء أثناء قيامى بتوزيع التلغرافات فى تلك المنطقة وجدت الجثتين محروقتين فى منتصف شارع ثروت باشا أمام العنوان المذكور .

جـ - حاول رجل الهرب من الطابق الأعلى بواسطة حبل قام بجدله كيفما اتفق ولكن الحبل قطع فسقط الرجل فى الفناء الخلفى

«للترف كلوب» ولقد دخل مثيرو الشغب ذلك الفناء الخلفى للنادى لأخذ ذلك الرجل إلى الخارج وفى نفس الوقت أمسكوا برجل آخر كان يخرج من الباب الخلفى للنادى .

ولقد ضرب مثيرو الشغب الرجل الأخير على رأسه وأخرجوا كلا الرجلين من النادى خلال محطة الخدمة والقوا بهما فى شارع ثروت باشا . وهناك قاموا بتعريتهما وقاموا عموما بضربهما فى كل اتجاه، على إنه يعتقد أن الرجلين كانا إما ميتين أو غائبين عن الوعى قبل أن يحضرا الى الشارع.

يبدو أنه فى وقت لاحق من النهار هوجم أحد البارات أمام محطة الخدمة بشارع ثروت باشا وأشعل والقى بجثتى الرجلين السابقى الذكر اللتين كانتا ما تزالان فى الشارع فى النار، وفى المساء عندما رجع الشاهد الى محطة (الخدمة) حوالى الساعة الثامنة مساء فقد شاهد الجثتين محترقتين.

ملاحظة : يبدو أن الشخص الأول قد يكون المستر جونز .

د- حاول رجل الهرب من نافذة جانبية «للترف كلوب» بان لف نفسه فى بطانية وقفز على أن البطانية علقت فى النافذة فسقط الرجل فى فناء النادى الذى كان مشتعلا ولقد حرق الرجل .

هـ- فى وقت مابين الساعة الواحدة والربع والواحدة والنصف من يوم ٢٦ يناير كنت اسير فى شارع سليمان باشا بالقاهرة أمام مبنى «شركة الانجلو اجبشيان موتورز . كان هناك تجمهر كبير بينى وبين «الترف كلوب» ولكن فوق رءوسهم رأيت رجلا يظهر فى شرفة النادى، بدا وكأنه مطارد من داخل النادى. لا يمكننى وصف الرجل غير القول بأنه فى أواسط العمر وأن ملابسه كانت مقطعة وممزقة واعتقد انه كان يرتدى سترة . وبينما كنت أحاول شق طريقى خارج التجمهر سمعت صراخا «لقد قفز» ورأيت جزءاً من التجمهر يحيط بالرجل وافترضت إنه يقتل ركلا . ولكنى لم ار بالفعل الرجل إلا عندما كان يقف فى الشرفة .

و - فى حوالى الساعة الرابعة بعد الظهيرة نفسها كنت فى شقة تواجه مبنى «الباترنل» فى شارع شريف باشا كنت فى الشرفة شاهدت جمهرة من المشاغبين . ومعظمهم من الشباب - بدوا كأنهم يحاولون إشعال النار فى خزان بنزين فى محطة شل للبترول القريبة . كان هناك بعض رجال المطافئ . واقتربت مجموعة من الرجال (لست متاكدا من الاتجاه الذى اتوا منه) وهم يجرون جسدا ميتا وعاريا بدا وكأنه ذكر أوربى فى حوالى الستين

من عمره حليق واصلع لحد كبير ولكن له بعض الشعر الرمادى .
لم تكن هناك جروح ظاهرة علي جسده ولكننى متأكد بأنه كان ميتا فعلا . ولقد ترك الجسد على الطوار بينما سرق بعض المتجمهرين خشبا من حانوت بقال . ثم حاولوا عندئذ حرق الجثة على كومة من ذلك الخشب ولكنهم لم ينجحوا إلا فى إحراقها بشكل خفيف ، واعتقد أن الجثة تركت على الطوار حتى اليوم التالى .

ذ - أثناء بعد الظهر المبكر وضع بعض الرجال جسدين فى حارة صغيرة خلف مبناه . ولقد غطياهما وذهبا بعيدا . وفى وقت لاحق رجع أناس أكثر عددا وكوموا أثاثا ومهملات على الجثتين وبدأوا فى عمل شعلة نارية . ولقد تجادل معهم البواب قائلا : « إن ذلك بلا فائدة ، وأنه عمل همجى أن يحرق الأموات وهو ضد الدين الاسلامى بالتأكيد ولكن بعد بعض الوقت فإن مثيرى الشغب هددوه إن لم يسكت عن الجدال فسيحرقوه هو أيضا ، فرّ هاربا وهو يعتقد أن أولئك الناس اتوا من الترف كلوب .

ملاحظات ختامية

١ – عند إعداد الفصول السابقة فإن اللجنة قد استعانت فقط بالروايات التى تلقتها من شهود عيان ، عن حوادث فعلية، وكذا بالمعلومات المتوفرة عن طريق مصادر موثوقة ، وذلك بخصوص المواضيع ذات الصلة الوثيقة بأحداث يوم ٢٦ يناير .

وفى حدود هذا المجال فان الاقرارات التى استخدمت حقيقية ، وأن ما انتهت اليه اللجنة إذن – حيث وجد – يعتبر فى نظرها (اللجنة) .. له ما يبرره .

على أن المعلومات ليست معروفة كلها للجنة ولن تكون متوفرة إلا للسلطات المصرية التى قد تذيع القضية بأكملها فى الوقت المناسب ، إما عن طريق تصريح عام أو بواسطة اجراءات قانونية ضد الأشخاص المدعى إنهم مسئولون بشكل مباشر أو غير مباشر عن الحوادث المفجعة يوم ٢٦ يناير . وحتى الوقت الحالى فإن الحكومة المصرية لم تدل بأى بيانات

عن حوادث الشغب ، ولم تسمح بأن تنشر فى الصحافة المحلية أى روايات عن حوادث ذلك اليوم .

٢ – وفى هذه الاثناء فإن اللجنة تلفت الانتباه لما خرجت به من دراستها للوثائق التى تحت يدها الى النتائج الرئيسية التالية :

أ – للأسباب المفصلة فى الفصل الأول ، فإن الحكومة المصرية السابقة لابد أن تعد مسئولة كلية عن خلق الظروف التى جعلت من الممكن وضع خطة الاحراق موضع التنفيذ . وبخصوص هذا الموضوع فإن اللجنة توافق تماما على حزم مبررات الفقرة ذات الصلة فى الاحتجاج الذى أرسلته السفارة البريطانية الى الحكومة المصرية يوم ٦ فبراير ، ولسوف تقوم بتكرار تلك الفقرة فيما يلى تسهيلا للإشارة اليها :

– «لقد كان من الواضح لبعض الوقت قبل الاحداث الموصوفة أعلاه أن الحكومة الملكية المصرية التى كانت عندئذ فى السلطة كانت لاتعير اهتماما الى الحفاظ على النظام العام والأمن فى البلد. إن تشجيعها العلنى والسرى للعناصر الاجرامية والخطب المثيرة للمشاعر التى ألقاها وزراء مسئولون وآخرون ، وأن عدم اكتراث الحكومة بالتهديدات العامة والخاصة لأرواح الرعايا

البريطانيين وتشجيعها النشط للهجمات على القوات البريطانية وإهمالها بالسماح بخرق القوانين الدولية والمحلية ، كل ذلك قد جعل الحوادث المفجعة التى حدثت يوم ٢٦ يناير نتيجة منطقية لسياستها .

ب – هناك قليل من الشك فى تفكير اللجنة بأن أحمد حسين وحزبه – الحزب الاشتراكى المصرى – كانوا المخططين الأساسيين والمنفذين لمعظم التدمير ، وأن وجهة النظر هذه توجد لدى كثير من المراقبين ذوى الخبرة ، ولكن ليس هناك دليل حقيقى واقعى متوفر لدى اللجنة على هذا .

ومن ناحية أخرى فمن المعروف أن أحمد حسين كانت تصرف له أموال كثيرة من فؤاد سراج الدين باشا ، وإن الغرض من ذلك كان يمكن أن يشتمل لمدى كبير على ارضاء النزعة السامة المعادية للبريطانيين عند فؤاد سراج الدين بطريقة أو بأخرى .

وهناك أسباب قوية للاعتقاد بانه فى ليلة ٢٥ – ٢٦ يناير دخل عبد الفتاح حسن باشا (احتمالا كرسول لفؤاد سراج الدين) فى مفاوضات سرية مع أحمد حسين لتنظيم مظاهرة معادية لبريطانيا محدودة المدى فى اليوم التالى . ولقد تم الاستيثاق بان راكبى عدة

سيارات عادية أو جيب الذين شوهدوا وهم يترددون مرارا على مواقع حوادث الاحراق هم من اتباع أحمد حسين . ولقد رؤى بعضهم يشاركون فى الهجمات .

ورغما عن عدم وجود إثباتات حقيقية فإن اللجنة تعتبر انه ليس هناك شك منطقى فى أن أحمد حسين ، ومن تبنونه - فؤاد سراج الدين وعبد الفتاح حسن - لهم دخل بما حدث .

لقد كان معروفا عن أحمد حسين منذ فترة طويلة أنه أكثر زعماء العصابات ذكاء وخطورة فى البلد ، وليس من المدهش سماع انه حاول ترتيب ظروف تنفى عنه التهمة يوم ٢٦ يناير ، ولقد سألت اللجنة عن كيفية أن خطط الإحراق التى وضعها أحمد حسين كانت غير معروفة لسلطات الأمن المصرية التى كانت تقوم عادة بإجراءات لإفساد مثل هذه الأفعال المشاغبة . وان التفسير هو ان تلك السلطات قد أخفى عنها تماما بواسطة هذين الوزيرين السابقين المذكورين سابقا - عن المدى الكامل للتعضيد المادى والتشجيع لاحمد حسين وعن تزويده بالمؤن من الأسلحة والذخائر والمتفجرات والتى أعطيت له من مصادر حكومية وأن حسن سريرة المبلغين الذين أعطوا اللجنة تلك الاقرارات ليست محل مساءلة من اللجنة .

ولقد كانت هناك شائعات تدور فى القاهرة منذ وقت مضى عن المساعدات المالية المذكورة وان كان واحد أو اثنين من هذين الوزيرين السابقين قد أخفيا الحقائق الفعلية عن سلطات الأمن المختصة فإن فى ذلك إشارة الى دهائهما الزائد .

جـ - بالنظر الى وجود نظرية سائدة تقول بأن الاخوان المسلمين قد لعبوا دورا نشيطا فى حوادث الشغب يوم ٢٦ يناير ، فإن اللجنة تعتقد أنه من اللازم تسجيل أن السلطات المصرية المسئولة - ونقلا عن مصادر موثوقة قد قررت أنها لم يتوفر لديها أى إثبات عن تورط تلك الجماعة بصفتها . ولكن السلطات المصرية تعترف بانه كافراد فان كثيرا من أعضائها يمكن أن يكونوا قد استغلوا الموقف عند تطوره . إن طبيعة الفظائع التى ارتكبت يوم ٢٦ يناير كانت فى أحوال كثيرة متوائمة كلية مع المثاليات المتطرفة للأعضاء العاديين للجماعة والتى كان لها سمعة غاية فى السوء كهيئة تقوم بأعمال الارهاب .

د - من المعروف أنه منذ حوادث الشغب يوم ٢٦ يناير والتغيير التالى فى الحكومة ، فإن كثيرا من الشيوعيين ومساندى «حركة السلام» قد ألقى القبض عليهم من قبل السلطات . وهذا يفرض

السؤال عما إن كانت حركة السلام والمنظمات الشيوعية المحلية كان لها يد فى الحوادث المفجعة . إن الدلائل المتوفرة حتى الآن لدى سلطات الأمن المصرية لاتشير الى أن الشيوعيين مسئولون كجماعة عن أى من الهجمات غير أنه من المعتقد أنهم كافراد قد استغلوا الفرصة لوضع أهدافهم الهدامة التى يصرحون بها موضع التنفيذ . إن سبب الاعتقال المكثف لأعضاء تلك المنظمات هو أنهم دعوا باستمرار إلى هدم النظام العام فى دعاياتهم.

هـ - فى الفقرة العاشرة من الفصل الأول هناك إشارة إلى مظاهرة بلوكات النظام وطلبة الجامعة فى صباح يوم ٢٦ يناير. إن اللجنة تعتبر أن تلك المظاهرة لم تكن جزءا من الخطة المسبقة الإعداد للإحراق ولكنها قد هيأت فرصة واضحة لوضع الخطة موضع التنفيذ.

و - إن قوة البوليس قد تعرضت للنقد بسبب تقاعسها وعدم كفاءتها أيضا - أنظر الفصل السابع - ومن الدلائل المتوفرة يبدو أن البوليس قد تلقى الأوامر بأن يدع المظاهرة الأصلية لبلوكات النظام وطلبة الجامعات تأخذ مجراها، وذلك بدرجة من التهاون غير حذرة. ولكن الأسئلة التى طرحت فى الفقرة السابعة عشرة من مذكرة السيرتوماس رسل باشا فى الملحق (ب) لها صلة

واضحة بالفترة التى تبعت الحريق الأولى فى ميدان إبراهيم باشا - أنظر الفصل الثانى.

إن إجابات تلك الأسئلة ليست معروفة للجنة ولكن من المعروف أن السلطات العليا للحكومة لم تأخذ الاحتياطات المعتادة قبل حدوث حوادث الشغب، والتى أشار اليها السيرتوماس. ولم تأخذ بأى اجراءات مضادة مؤثرة بعد وقوع حادثة الإحراق الأولى عند الظهر فى ميدان إبراهيم باشا.

ولقد تبين أن حكمدار بوليس القاهرة ونائبه قد أعطيا تعليمات متضاربة وعكسية. وكان من نتيجة ذلك أن قوات البوليس المتوفرة كلها لم تستخدم. ولقد سجل فى الفصل السابع أن رجال البوليس منفردين قاموا بالنهب مع الرعاع ومنعوا قوة الإطفاء من تأدية واجباتها. ولكن ليس هناك دلائل تظهر أن قوة البوليس ككل كانت جزءا مشاركا لخطة مسبقة الإعداد لهجمات الإحراق - كما تطورت تلك الخطة. ولقد أبلغت اللجنة أن مراقبا مصريا رسميا له إمكانية الحكم قد عبر عن دهشته من أوضاع حشد البوليس والقوات المعاونة يوم ٢٦ يناير، وعن عدم الإمكان الكلى للإتصال بنائب حكمدار البوليس طوال فترة الاضطرابات - لقد كان متفرجا متسليا بينما كانت سينما ريفولى تحترق (أنظر الفقرة جـ من الفصل السابع). ولكن فى رأى اللجنة فإن أوضاع حشد

البوليس لم تكن بالضرورة خطأ، ولكن كان الغياب الكلى للتعليمات السلطوية السريعة وكذا غياب العزيمة من تنفيذ تلك التعليمات والتحقق من أنها قد نفذت - كل ذلك هو الذى ساعد الدهماء على حكم المدينة منذ الظهيرة فصاعدا. ولقد قيل إن خمسمائة مشاغب ذى تصميم قد وضعوا القاهرة تحت رحمتهم لعدة ساعات. ولو كانوا قد جوبهوا منذ البداية بقوة بوليس مسلحة ذات عزيمة مساوية، أو لو كان قد استعين بالجيش فور التأكد من أن البوليس لا يوثق به، فهناك مقولة بأن كل الخطة كانت ستنهار فى الحال تقريبا. وفى نظر اللجنة فإن فشل الحكومة - لأى سبب كان للتأكد من أن الجيش كان يمكن الاستعانة به، ومن إحضاره لإرجاع النظام عندما ظهر أن الوضع سيخرج من يد الحكومة - كان ذلك هو الجريمة الرئيسية.

ز - رغما عن الاضطراب الذى بدا حول وجود الأوامر التى صدرت لانزال الجيش - فإن النداء الأول تم حوالى الظهر. على أن الأوامر النهائية لتدخل الجيش لم تصبح نافذة حتى الساعة الرابعة بعد الظهر، وكان التدخل المؤثر بعد ذلك الوقت بزمن غير قصير. وليس هناك شكوك بأن الجيش قد اشترك فى الإخلال بالنظام.

٣ - إن اللجنة ترغب فى تسجيل عرفانها بأشخاص كثيرين قدموا مساعدات لايمكن تقدير قيمتها لهذا التحقيق ، وذلك بمدها بعد فترة قصيرة من الطلب، بروايات شهود عيان عن الحوادث المختلفة.

ولم يكن كل أولئك الشهود رعايا بريطانيين. وكان بعضهم مازال لم يشف تماما من الصدمة التى صاحبت تجاربهم.

إن اللجنة تجد من المناسب أن ترفق مع تقديرها أربع روايات شخصية عن الحوادث، وذلك لكى يتم تقدير التعاون الذى تلقته اللجنة حق قدره، وتلك الروايات فى الملحقات جـ، د، هـ، و.

رئيس اللجنة	أعضاء
م. ت. اورسلى	أ. هـ. كنج
السكرتير	ماركوس هل
ك. هـ. كلوكاس	جـ.. ب فكاس
مساعد السكرتير	س. ج. هـ فولكس
ديفيد كين بوير	السفارة البريطانية

بالقاهرة

١١ فبراير ١٩٥٢

قائمة بالمؤسسات التى أحرقت أو نهبت بالقاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ كما هو معروف حتى ١٢ فبراير ١٩٥٢

١ - مؤسسات بريطانية أو بها مصالح بريطانية هامة:

١ - بنك باركليز - فرع القاهرة الرئيسى - شارع قصر النيل.

٢ - روبرت هيوز وشركاه ليمتد. شارع قصر النيل.

٣ - مركز حجز B.O.A.C الجارى انشاؤه على الجانب الآخر من شارع البستان.

٤ - مكاتب «المجلس البريطانى» والمعهد البريطانى شارع عبدالخالق ثروت باشا وسكة المغربى.

٥ - توماس كوك وولده ليمتد. قسم السفريات والمصرف شارع ابراهيم باشا.

٦ - جون جونز شارع ابراهيم باشا.

٧ - سينما ريفولى شارع فؤاد الأول.

٨ - شركة كايرو موتور (مجموعة موريس رنفليد) شارع الملكة نازلى.

٩ - الشركة البريطانية للسيارات (ت.م. مور) (مجموعة روتس) شارع سليمان باشا (ناصية البستان).

١٠ - انجلو اجبيشيان موتورز (وكلاء فورد بالقاهرة) شارع عدلي باشا.

١١ - و. هـ. سميث وولده ليمتد سكة الفضل.

١٢ - «الترف كلوب» شارع عدلي باشا.

١٣ - محطات خدمة شركة شل بشارع الملكة نازلي وقصر العيني.

١٤ - نادى شركة شل الرياضي بغمرة.

١٥ - داوود عدس وولده. شارع عماد الدين.

١٦ - كوداك (مصر) شارع عدلي باشا.

١٧ - I.C.I مضارع البويات شارع الانتكيخانة.

١٨ - النادى المالطي شارع عبدالخالق ثروت باشا.

١٩- شركة يونيفرسال موتور (سيارات ستاندارد وجاجوار) بشارع فؤاد الأول.

٢٠ - شركة ايست (سيارات ستديو بيكر وسنجر) شارع الملكة نازلي.

٢١ - أوزبورن هاوس (مقر ضيافة اطقم طيران شركة B.O.A.C السابق) شارع طلعت حرب باشا.

٢٢ - الشركة البريطانية لمهمات الركوب والرياضة شارع عدلي باشا.

٢٣ - محل سيموندس وشركاه (خبازون) شارع عدلى باشا.

٢٤ - محل العروسة للخردوات. شارع فؤاد الأول.

٢٥ - جون ديكسون وشركاه ليمتد (معارض آلات طباعة) ٣ شارع البستان.

٢٦ - ملهى الأريزونا شارع الأهرام.

٢٧ - بيروت، فانز، سيمز مارشال (محامون) مبنى B.O.A.C

٢٨ - بارماناونج - شارع عبدالخالق ثروت باشا.

٢٩ - سندر وشركاه ليمتد (مشروبات روحية) شارع شريف باشا.

٣٠ - وايتهيد موريس (مصر) ليمتد. أدوات كتابية - شارع عبدالخالق ثروت باشا.

٣١ - سى. ى - كريستوفيديس وشركاه (وكلاء عموميون) شارع دوبريه.

٣٢ - وليام داربى وشركاه (نظارات) شارع ابراهيم باشا.

٣٣ - شركة تنظيف الشرق الأدنى. شارع عبدالخالق ثروت باشا.

٣٤ - محل هاو للألبان شارع عدلى باشا .

٢ - مؤسسات غير بريطانية :

ا - فنادق :

٣٥ - شبرد . شارع ابراهيم باشا .

٣٦ - وندسور (سويسرى) شارع ألفى بك.

٣٧ - فيكتوريا شارع ابراهيم باشا .

٣٧ ا - ايدن شارع فؤاد الأول.

ب - متاجر كبرى :

٣٨ - شيكوريل شارع فؤاد الأول.

٣٩ - شملا شارع فؤاد الأول.

٤٠ - بنزيون شارع قصر النيل.

٤١ - اوريكو شارع فؤاد الأول. .

٤٢ - شالون شارع قصر النيل.

٤٣ - اوزرد دى بيك (تدمير طفيف) شارع عبدالعزيز.

جـ - مطاعم وبارات :

٤٤ ، ٤٥ جروبى (الفرعان) ميدان سليمان باشا وشارع عبدالخالق ثروت باشا .

٤٦ ، ٤٧ - الأمريكين (نفس الشركة) شارع سليمان باشا وشارع فؤاد الأول.

٤٨ - باريزيانا شارع الألفى بك.

٤٩ - سانت جيمس شارع ألفى بك.

٥٠ - بارسيسيل ميدان التوفيقية.

٥١ - مقهى ووكلاء شركة بيرة ستيلا شارع سليمان باشا.

٥٢ - سافيل : شارع شريف باشا.

٥٣ - ريتز - شارع قصر النيل.

٥٤ - اكسليسيور شارع سليمان باشا.

٥٥ - ارمتياج عمارة الايموبليا.

٥٦ - «عند جان» شارع سليمان باشا.

٥٧ - شركة تحضير الطعام لركاب الطائرات - شارع الالفى بك.

٥٨ - مطعم الكورسال: شارع الألفى بك.

٥٩ - بوفيه نيوكورسال: شارع الألفى بك.

٦٠ - مطعم وبار الاكسليسيور - شارع سليمان باشا.

د. دور سينما وأماكن لهو أخرى

٦١ - مترو - شارع سليمان باشا.

٦٢ - راديو - شارع سليمان باشا.

٦٣ - أوبرا - ميدان الأوبرا (ميدان إبراهيم باشا).

٦٤ - ديانا - شارع الألفى بك.

٦٥ – سينما واحدة بحى شبرا.

٦٦ – ساحة باتيناج (تزلج) بشبرا.

٦٧ – سينما بيجال شارع عماد الدين.

٦٨ – كباريه بديعة ميدان الأوبرا (ميدان ابراهيم باشا).

٦٩ – سينما فومينا شارع عماد الدين.

٧٠ – سينما أوديون شارع بستان الدكة.

٧١ – أوبرج الأهرام – شارع الأهرام.

٧١ ا – سينما ميامى – شارع سليمان باشا.

٧١ ب – سينما كايرو بالاس شارع سراى الازبكية.

٧١ جـ – سينما متروبول شارع فؤاد الأول.

٧١ د – سينما النصر.

٧١ هـ – سينما فلوريدا.

٧١ و – سينما الظاهر.

٧١ ز – سينما ركسى.

هـ – مؤسسات تجارية :

٧٢ – T.W.A شارع ابراهيم باشا

٧٣ – بورصا (مشروبات روحية ونبيذ) شارع الملكة نازلى.

٧٤ – زوتوس (مشروبات روحية) شارع الملكة نازلى.

٧٥ – ٧٦ – ٧٧ – ثلاثة بقالين يونانيين بشبرا.

٧٨ – وكلاء ميشلان شارع عماد الدين.

٧٩ – عكاوى – جواهرجى (سرق) شارع سليمان باشا.

٨٠ – الفن المعاصر (أدوات فضية وزجاجيات) شارع قصر النيل.

٨١ – بونتر يمولى (روبرت) وشركاه. شارع قصر النيل (أثاث).

٨٢ – اخوان تمراز (قطع غيار سيارات) شارع الملكة نازلى.

٨٣ – بوتشى ليفانوس (بقالة) شارع قصر النيل.

٨٤ – كيفورك لونيح تشاكجيان (حدائد) العتبة الخضراء.

٨٥ – كومباردس (مشروبات روحية) شارع فؤاد الأول.

٨٦ – ناشيونابل (ملابس سيدات) ميدان مصطفى كامل.

٨٧ – روملى (شركة قطع غيار سيارات) شارع الانتيكخانة.

٨٨ – ديشون الصهيون (تحت النادى المالطى) شارع عبدالخالق ثروت.

٨٩ – حداد (أثاث) شارع عبدالخالق ثروت.

٩٠ – كوهتكا (أدوات كهربائية) شارع عدلى باشا.

٩١ – جورج فنهزم وشركاه (ماكينات) شارع ابراهيم باشا

٩٢ – ايزاك بوس (لمبات وأدوات كهربائية) شارع ابراهيم باشا.

٩٣ - شركة الموتورات (المعدات) البحرية المصرية شارع ابراهيم باشا.

٩٤ - بوندى ج. ا. وأولاده (بنادق وأدوات رياضية) شارع قصر النيل.

٩٥ - محل أرارت للأدوات الرياضية.

٩٦ - فانيتى بشوب شارع قصر النيل.

٩٧ - ى. ماراتيس (اصلاح بنادق) شارع عدلى باشا.

٩٨ - او. ك. سيماريباس (بقال) شارع الملكة نازلى.

٩٩ - فيشيا (أدوات حديدية) شارع رشدى باشا.

١٠٠ - أ ، د شندلر (مطابع) شارع شريف باشا.

١٠١ - الشركة المصرية للتوريدات الهندسية والمحركات (وكلاء) شارع ابراهيم باشا.

١٠٢ - شركة مصر للملاحة (للشحن البحرى) ش. م.م شارع ابراهيم باشا.

١٠٣ - شركات عربات النوم - شارع ابراهيم باشا.

١٠٤ - نصيب توركوم (معادن) شارع عماد الدين.

١٠٥ - شركة النقل والهندسة ش. م. م (ماكينات وسيارات) شارع قصر النيل.

١٠٦ – ج. بافيد وشركاه (سيارات بيجو) شارع الألفى بك.

١٠٧ – شركة ستنادرد ستيشنرى (و . سعد وشركاه) شارع عبدالخالق ثروت.

١٠٨ – المفسلة الامريكية شارع قصر النيل.

١٠٩ – نيولندن هاوس (ملابس) ميدان مصطفى كامل.

١١٠ – محلات نوماس (بقال) شارع عماد الدين.

١١١– امريكان اجيبشيان لويد (وكلاء بواخر) شارع ابراهيم باشا.

١١٢ – مصنع هلتكس (ملابس داخلية) غمرة.

١١٣ – ج. سوسمان (جواهرجى) شارع عبدالخالق ثروت.

١١٤ – ا. ليسكوفنتش (جواهرجى) شارع عماد الدين.

١١٥ – مكتبة مسعود – شارع عبدالخالق ثروت.

١١٦ – ا. فولينا (جواهرجى) شارع فؤاد الأول.

١١٧ – ا . بى ستور (حقائب يد سيدات) شارع سليمان باشا.

١١٨ – سبيكو (أنشاءات خاصة) شارع عبدالخالق ثروت «سويسرى».

١١٩ – شركة هلفسيا للتأمين على الحياة (سويسرى) ٣٩ شارع قصر النيل.

١٢٠- شـركـة خطوط طيـران بان أمـريكان شـارع ابراهيم باشا.

١٢١ - ميزون أوبل شارع قصر النيل.

١٢٢ - لابونيك شارع قصر النيل.

١٢٣ - ميزون فرانسيز للكتب شارع قصر النيل.

١٢٤ - ماريو (تطريز) شارع قصر النيل.

١٢٥ - سكتابينو (ملابس رجالى) شارع قصر النيل.

١٢٦ - جينو (ملابس رجالى) شارع قصر النيل.

١٢٧ - بوستون هاوس (ملابس رجالى) شارع قصر النيل.

١٢٨ - جاك (جوارب نايلون) ميدان مصطفى كامل.

١٢٩ - حسن محمد (أثاث).

١٣٠ - حنفى حسن (تاجر وترزى) شارع عبدالخالق ثروت.

١٣١ - مصنع أكياس زاروف.

١٣٢ - ميزون حتحوت (أقمشة صوفية) شارع عماد الدين.

١٣٣ - مخزن أودين جوزيف (صيدلى كيمائى) شارع قصر النيل.

١٣٤ - ايرين (روائح عطرية) شارع عماد الدين.

١٣٥ - الكتروهاوس (بضائع كهربائية) شارع شريف باشا.

١٣٦ - ميشيل خاروزاكى شارع شريف باشا.

١٣٧ - شركة فؤاد شارع توفيق.

١٣٨ - ستوديو ناصيبيان.

و - متنوعات :

١٣٩ - نادى السيارات المصرى (طفيف) شارع قصر النيل.

١٤٠ - القنصلية السويدية شارع عدلى باشا.

١٤١ - القنصلية اللبنانية شارع البستان.

١٤٢ - الغرفة التجارية الفرنسية شارع الفضل.

اقرار السيرتوماس رسل باشا

ملاحظة: السير توماس باشا حكمدار سابق لبوليس القاهرة، والرواية التى يعطيها عن حوادث يوم ٢٦ يناير مبنية على معلومات نقلت له، ولكن التعليق الذى قدمه على تلك الروايات يأتى من مصدر له مثل هذا الوزن لذى قيمة واضحة».

عند جريان الحوادث مجراها الطبيعى فإن حكمدار البوليس يكون تحت يده من أجل التحكم فى حوادث الشغب قوة كبيرة تابعة له من فرقة حرس المدينة (بلوكات نظام المدينة) ، وتعسكر قوات (بلوك نظام المدينة) فى ثكنات البوليس بحى العباسية. ويستخدم جزء من تلك القواعد كحرس على خزائن الحكومة والمخازن الخ، وجزء منها يحتفظ به كاحتياطى للشغب، ويقضى جنود هذه القوات خدمة اجبارية مدتها ثلاث سنوات فى البوليس

وليس فى الجيش . وفى حالة توقع الحكمدار حدوث متاعب خطيرة فإنه عن طريق وزارة الداخلية يستدعى الجيش المصرى ليتولى حراسة الخزينة العامة وبذلك يتوفر له زيادة من قوات الحرس الضاربة قدرها أربعمائة رجل.

إن قسم البوليس لايؤخذ فى الحساب من أجل الأعمال المضادة للشغب، لأن قواته لاتعمل ابدا كتشكيك، ولأنهم يسكنون فى منازل خاصة ويحتفظ بهم فقط بالقسم كاحتياطى صغير قبل خروجهم الى مهامهم.

والقوات الراكبة وعددها ١٧٠ رجلا يمكن استخدامها فى مهام مكافحة الشغب فى مراحله الأولى، أما عند تطور الأحداث فيمكن استخدامها فقط كمشاة لتقوية البوليس الراجل.

وعندما تكون هناك أحداث خطيرة ، فهناك الاحتياطى القوى من الجيش المصرى.

والجيش المصرى اذا حدث توقع لاحداث خطيرة فإن احتياطيا قويا منه يحتفظ فى ثكنات قصر النيل، ويعين ضابط مصرى كضابط اتصال مع حكمدار البوليس لتسهيل الاتصالات وسرعتها.

وفى يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢ فإن قوات حرس مدينة القاهرة. كانت تقوم بمهامها كالمعتاد، كان هناك أكثر من ١٠٢٠

من أفـراد تلك القـوة قـد أرسلوا منذ مـدة الى منطقـة القناة متمركزين في بورسعيد والسويس، وكان كل ماتحت يد الحكمدار من القوات المدربة خصيصا على مكافحة الشغب حوالى ٨٠٠٠ رجل.

وكانت فرقة حرس الأقاليم (بلوكات خفر الاقاليم) والمؤلفة من حوالى ثلاثة آلاف رجل تعسكر في العباسية خلف ثكنات فرقة حرس مدينة القاهرة وكان الغرض من تلك القوة هو توفير احتياطى قوى يمكن الاستدعاء منه من قبل مديريات أمن الأقاليم فى حالة احتياجها لقوات مكافحة الشغب.

الخطوات المعتادة لعمل البوليس عند توقع متاعب

قـام مـحـافظ الاسكندرية أحـمـد مـرتضى المراغى بك (وزير الداخلية فى الحكومة الحالية - حكومة أحمد نجيب الهلالى) باتباع النظام المعتاد فى حالة التوقع الظاهر لوقوع أحداث شغب، وذلك بالنظر الى حادثة مكتب الصحة بمنطقة القناة، وذلك بأن أمر بإلقاء القبض على كل الأشخاص الخطيرين المعروفين ، وكذا الفتوات يوم الجمعة ٢٥ يناير وفى مثل تلك الظروف فإن عدة مئات من أولئك يلقى عليهم القبض عادة. ويقال أن حوالى ٣٥٠ من هؤلاء قد ألقى القبض عليهم فى الاسكندرية ونتيجة لذلك لم تحدث أى متاعب هناك.

وفى القاهرة لم تتخذ أية إجراءات من هذا القبيل . قام جنود فرقة حرس الأقاليم بالخروج من ثكناتهم فى بداية صباح يوم ٢٦ يناير حوالى الساعة السابعة والنصف وتزاحموا فى طريقهم الى المدينة : للأزهر والجامعة .

لقد تخلصت مديرية أمن الجيزة من القوة التابعة لها من فرقة حرس الاقاليم بأن أرسلوا الى نقاط بعيدة فى شارع الاهرام . ويعتبر ناقل هذه المعلومات لى أن عصيان فرقة حرس الأقاليم كان هو الفرصة التى تنتظرها عصابات الإحراق والقتل المنظمة بدرجة عالية .وهو يعتقد أن تلك العصابات كان لديهاخطتها الجاهزة . ولكنها لم تكن لتنفذها لولا عصيان فرقة حرس الأقاليم.

يقول من أخبرنى بأنه كانت هناك تظاهرات تسير فى المدينة خلال كل الصباح، وكانت تعليمات الوزارة هى عدم مهاجمة تلك التظاهرات ومعاملتها برفق.

لقد وجدت دائما أن التظاهرات يمكن تفريقها اذ هوجمت بحزم فى بدايتها الأولى . أما إذا سمح لها بأن تنمو فإنها تصبح أكبر من أن يستطيع البوليس التعامل معها وذلك فى حالة عدم السماح بإطلاق الرصاص.

وهناك درس مهم للغاية تعلمته كحكمدار للبوليس وهو طبع ثلاث نسخ من كل أمر أتلقاه تليفونيا ، وفى نفس وقت حدوث المكالمة ، وارسال نسخة من تلك الأوامر الى موظف وزارة الداخلية الذى أعطى الأمر لكى يمهره بتوقيعه . وكان ذلك أيضا بمثابة سجل ثمين للغاية . وأشك فى أن ذلك الروتين قد اتبع صبيحة يوم ٢٦ يناير . أن مخبرى لا يعتقد بأن هناك أوامر غير سليمة قد أغطيت للبوليس ، ولكنه يعتقد بأن الوزارة مسئولة فى نهاية الأمر عن انعدام الأوامر وعن عدم القيام بأى عمل فى مواجهة ظرف فى غاية السوء .

وعلمت من مصدر آخر أن الحكمدار الاميرالاى الخولى بك كان ولمدة طويلة سابقة قد تخلى عمليا عن مكانه للأميرالاى ابراهيم إمام بك الذى ، ولو أنه فعليا مساعد فقط لحكمدار بوليس القاهرة فلقد استخدمته الوزارة كضابط بوليس سياسى للبلد كلها . وأمضى معظم وقته فى الوزارة حيث تم تخطى الخولى بك بقدر كبير.

هكذا ترك الحكمدار بقوة مصغرة من فرقة حرس المدينة - وهى فقط يعتمد عليها فيما مضى - ومدربة على مكافحة الشغب .

ولكن كان لديه أيضا قوات راكبة لكي يستخدمها إما راكبة أو راجلة وذلك بقوة إجمالية متوفرة من ٧٠ الى ٨٠ رجلا . وكان يمكنه أيضا أن يطلب فرق الهجانة (فرق راكبى الجمال) من عين شمس حيث يتوفر من ٣٠٠ الى ٤٠٠ رجل ، كلهم سودانيون كانوا دائما يعتبرون أكفأ قوة قتالية متوفرة .

(قوة الحدود هى التى كانت لديها مهام بالقصر (الملكى).

(وطرح رسل باشا الأسئلة التالية):

١ – لماذا لم يقم الخولى بك بإصدار أوامره بإلقاء القبض المعتاد (على المشتبه بهم) مثلما فعل المراغى بك فى الاسكندرية يوم الجمعة ٢٥ يناير؟

٢ – لماذا لم تحل قوات من الجيش المصرى محل فرقة الحرس التى تقوم بحراسة الخزائن العامة الخ، كما كان يتم دائما وبذلك يتم تحرير عدد كبير من الرجال المدربين والمنضبطين لكى يقوموا بمكافحة الشغب؟

٣ – ولماذا لم تخرج القوات الراكبة من ثكناتها ابدا؟

٤ – ولماذا لم يرسل فى طلب الهجانة؟

٥ – ولماذا لم يستدع الجيش الا بعد احراق المدينة؟ إن كازينو

بديعة كان قد تم احراقه فعلا عند حلول الساعة الثانية عشرة والنصف، وكانت سينما ريفولى تشتعل الساعة الواحدة والنصف وتدخل الجيش حوالى الساعة السادسة مساء.

٦ - لماذا استخدمت قوات البوليس المتوفرة كلها والمجموعة من الاقسام فقد حول منزلى النحاس باشا وسراج الدين باشا؟

٧ - هل استخدمت كل قوة حرس الحدود كلها فى قصر عابدين؟ لقد علمت بإن إبراهيم إمام بك كان يعطى أوامر مخالفة لتلك التى يعطيها الخولى بك. وأن الخولى بك فى الحقيقة قبل بذلك الوضع.

اعتقد أن الخولى بك - الحكمدار - يجب أن يستدعى أمام لجنة تحقيق حيث يمكنه الدفاع عن نفسه بأن يظهر كيف إنه قد تخطى، وأن الأوامر اعطيت تخطيا له من قبل إبراهيم إمام بك، مساعد المحافظ الذى كان اليد اليمنى لفؤاد سراج الدين باشا مع ابراهيم إمام بك كل الوقت.

القاهرة ٥ فبراير ١٩٥٢

اقرار من أ . ت ويليامسون
ساكنة الشقة ٥٥ بالعمارة
رقم ٤٥ ب شارع
شامبليون القاهرة

يواجه شقتى التى تقع بالطابق الخامس اتجاهان . فهى من ناحية تشرف عبر شارع شامبليون ـ على المحاكم المختلطة. وهناك مجال رؤية واضحة على امتداد شارع عبد الخالق ثروت باشا إلى شارع الملكة نازلي يسده جزئيا نادى الصحافة.

وفى الاتجاه الآخر فان شقتى تشرف على سينما حديقة ميامى ويمكن إلقاء نظرة على شارعى سليمان باشا وعدلى باشا .

عند حوالى الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة شعرت أن شيئا ما يحدث فى شارع فؤاد الأول. كانت هناك طلقات أو انفجارات وسحب من الدخان تأتى من تلك الناحية. ومن وقت لآخر كانت جمهرة كبيرة تندفع إلى الخلف كما لو كانوا يصدون راجعين. كان عدد من الناس ينتظرون لعدة دقائق ثم يجرون ثانية

إلى شارع فؤاد. وعند تلك المرحلة كان من الواضح أن معظم الجمهرة من المتفرجين ، البعض منهم فضولي، ومعظمهم واضح الخوف يحاول أن يلجأ إلى مكان أمين بسرعة.

وأثناء تلك الفترة رأيت ثلاث قنابل من نوع ما تسقط على سقف المحكمة المختلطة. ولم أكن استطيع أن أرى مصدر تلك القنابل. كانت سحب من الدخان تأتى من انفجار القنابل، ولكنها كانت تنطفىء، بسرعة، وسقطت اثنتان إلى أسفل فى محطة الخدمة، وعلى الفور قام العمال برشها بالماء ، لقد كانت السمة الواضحة هى الدخان الكثيف الأسود وقبل دقائق قليلة من حلول الساعة الثانية إلا ربعا لاحظت لأول مرة أن سينما ميامى تشتعل ومن شرفتى التى تطل على تلك الناحية رأيت نارا تشعل عمدا فى السينما المفتوحة الصيفية. كانت النيران قد اشعلت فعلا عندما رأتها . وكان هناك عدد من الشباب في ملابس أوربية وعدد من الرجال يرتدون الجلابيب يغادرون المكان. وبقى شاب واقفا ومعطيا ظهره لشاشة العرض مشرفا على كومة من الكراسى إلخ ومرشدا لرجل يرتدى جلبابا أبيض عن كيفية تكويمهم. وعندما تم عمل

الكومة على نحو يرضيه، ألقى فى النار ما بدا لى وكأنه لفافة صغيرة من الورق البنى فى حجم علبة السجائر، ذات العشرين سيجارة ، ولكنها ليست فى نفس السمك. وعندما ألقى باللفافة قفز راجعا إلى الخلف لم يكن هناك انفجار، ولكن ألسنة اللهب تصاعدت فورا بعنف شديد.

وفى أثناء ذلك الوقت كان أشخاص فى البعثة الدبلوماسية السويسرية قد بدأوا فى رش أكوام البقايا خلف الشاشة بالماء من خرطوم، ورآهم الشاب يفعلون ذلك فلم يعارض ولكن فور توجيه الخرطوم لألسنة اللهب صاح بهم.

ولم يكن من الممكن أن اسمع ما يقول ولكن من تلك اللحظة حدد رجال البعثة السويسرية عملهم فى منع النار من الامتداد الى مقر البعثة. وحيث أن ذلك الشاب كان راضيا عن ذلك التصرف فان احساسى كان المقصود لم يكن بالضرورة تعرض الأرواح للأخطار. كان الشاب من طبقة الأفندية . مهندم الملبس، وأعتقد انه كان فى العشرينات المبكرة من عمره . مناسبا للجامعة، ولو اننى اعتقد انه أكبر سنا من أن يكون فى الجامعة. ولكن

المصريين ينضجون فى سن أقل لدرجة أننى لا أستطيع إعطاء رأى محدد بخصوص سنه. وكان الشباب الآخرون الذين رأيتهم يغادرون المكان فى نفس النمط والسن.

كان الرجل الذى يعمل تحت إمرته مهندما للغاية فى جلباب أبيض وعمامة ـ ولقد أثر فىّ حسن هندامهم ـ ولقد كان ذلك الرجل فى منتصف العمر.

وبينما كان الشاب يدير العملية نظر إلى أعلى ورآنى. وظهر على وجهه تعبير ـ لم أطقه ـ من الرضاء عن النفس. لقد كان من الواضح إنه فخور بما يفعله.

لقد كان مازال فى نفس المكان عندما جريت الى الناحية الأخرى من المنزل لأرى إن كان هناك أى إثر لزوجى. وعند تلك اللحظة لم يكن هناك تجمهر بل فقط عدد كبير من الناس يخرجون من شارع فؤاد الى بيوتهم بأسرع ما يمكنهم. رأيت زوجى، وجريت نازلة على السلم لأستقبله ورجعت معه إلى الشرفة المطلة على سينما ميامى. وبحلول ذلك الوقت (حوالى الثانية إلا عشر دقائق)، كان الشاب ومساعده قد اختفيا، وكانت كل سينما ميامى

من الداخل والخارج (المغلقة والمفتوحة) عبارة عن شعلة ضخمة من النار. وكانت تلك اللحظة هى التى لاحظنا فيها لأول مرة أن «الترف كلوب» كان مشتعلا.

ومن ذلك الوقت فصاعدا لا أستطيع تحديد الأوقات بدقة وعند أوقات مختلفة فى فترة ما بعد الظهيرة كانت الجمهرة المدفوعة خلفا من شارع فؤاد الأول كثيفة وهائجة ، وفى أحيان أخرى كانت ساكنة نسبيا . ولم آخذ انطباعا فى أى وقت بأن الجمهرة كانت معادية. فلو كان مبنانا قد امتدت إليها ألسنة اللهب من حريق سينما ميامى ـ كما بدا أنه سيحدث فى لحظة ما ، فلم أكن سأشعر بالخوف من النزول للطريق بين أفراد الجمهور. لم أر دليل على النهب، لو أننى يجب أن أقول بأن الرغبة المجنونة للجماهير للرجوع ثانية لشارع فؤاد الأول لم تكن لتوجد إلا لوجود إمكانية للنهب.

وفى وقت مابعد الظهيرة مر فى الشارع لورى ضخم مثقل بحمولة كبيرة من القش، قادما من شارع فؤاد الأول ناحية شركة كايرووموتور. كانت يتبع اللورى سيارة مفتوحة يرفرف عليها علم

مصرى كبير جدا. كان شاب صغير من نفس نمط شاب حادثة سينما ميامى يجلس على «الكبود» المفتوح. كان ينحنى ويحيى ذات اليمين وذات اليسار. ولقد صفق له شخص واحد فقط - شخص من نمط أبناء الشوارع بالقرب من باب مستشفى فكتوريا. كانت مجموعة صغيرة متماسكة من الرجال الذين يرتدون الجلابيب يندفعون وراء السيارة ويتبعهم الشرذمة المعتادة من الدهماء.

وبينما كانوا يمرون رأيت رجلا يرتدى جلبابا أبيض يرمى بقنبلة من فوق أعمدة السور بجوار الباب الجانبى للمحاكم المختلطة. ولقد اشتعلت تلك القنبلة لدقائق قليلة بدون أن تحدث ضررا ثم انطفأت .لا يمكننى القسم بأن حمولة اللورى من القش كانت تستخدم لإشعال حريق شركة كايروموتور، ولكن حيث أن اللورى لم يستدر خارجا الى شارع الملكة نازلى من أى من اتجاهيه (وكان يمكننى رؤية كلا الاتجاهين بوضوح) وحيث أن اللورى لم يرجع ثانية. فيبدو أن استخدام حمولة القش فى ذلك الحريق كان استنباطا منطقيا.

وعلى أى حال فبعد وقت قليل من وصول اللورى الى هناك ارتفعت ألسنة لهيب هائلة. رأينا سيارات تجر من صالة العرض، وتحترق فى الشارع. ومن النوافذ العليا لمقر شركة كايروموتور كانت تلقى الكراسى والأوراق والأثاث الى الشارع، وذلك لإضافتها للهيب. وفى نفس الوقت أشعلت نار جديدة فى الطابق الأعلى واشعلت هناك منفصلة على ما أظن ـ حيث لم يكن هناك وقت لامتداد الحريق الأول من الشارع الى الطابق الأعلى.

ولقد حمل المصابون من ذلك الحريق إلى نادى القضاة حيث اعتنى بهم الجمهور وكان من المستحيل تحديد اذا كانوا ضحايا أو مشاركين فى الهجمة. بدا وكأن الجمهور مهتم حقيقة بسلامتهم.

إن هناك دائما عددا كبيرا من البوليس يتمركزون فى المحاكم المختلطة ، ولكن عند الساعة الواحدة الا ربعا عندما رأيت أول إشارة إلى حدوث المتاعب، لم يكن هناك واحد منهم يبدو للعيان. وفى وقت لاحق رأيت حوالى ثلاثين منهم يجلسون هناك يدردشون. كانوا مسلحين فقط بعصى صغيرة يدلونها من أيديهم.

لم يكونوا مهتمين بأى حال بما هو حادث، لم يساعدوا أحدا فى التدمير ولكنهم لم يمنعوا احدا . لم يكونوا من البوليس المساعد، بل كانوا من البوليس النظامى يرتدون بزات انيقة.

وفى وقت ما بعد الظهيرة رأيت مجموعة صغيرة من رجال تبدو عليهم الخشونة الشديدة ينسابون ببطء أكثر من كونهم يتحركون قصدا ناحية شارع فؤاد الأول . وفى وسط تلك المجموعة كان هناك رجل من البوليس المساعد، كان واضحا إنه أحدهم ولا يقوم بأى تحكم فيهم. كانوا يبدون جميعا متعبين.

ولعدة مرات خلال بعد الظهيرة رأيت عربات يد محملة بالقش تجر فى اتجاهات مختلفة.

وفى وقت ما بين الساعتين السادسة والسابعة مساء أصبح إطلاق النار الآتى من ناحية شارع فؤاد كثيفا ومستمرا . ومن ذلك الوقت فصاعدا تفرق الجمهور تدريجيا واستمر إطلاق النار طوال الليل.

أجنس وليامسون

١٩٥٢/١/٣٠

اقرار من المستر .ج . هامبروك مدير فرع القاهرة لشركة ماركونى للراديو والتلغراف عن أحداث وقعت فى القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ كما سجلها هو فى وقتها

تركت دار الإذاعة (راديو هاوس أصح، لأنها مقر شركة ماركونى وليست دار الإذاعة المصرية ـ المترجم)، فى الساعة الواحدة والربع بعد الظهر، وذلك للذهاب الى «الترف كلوب». وبينما كنت اقترب من المبنى لاحظت كميات من الدخان تتصاعد، وفى تلك اللحظة اقترب منى أحد سعاة شركة ماركونى قادما من ناحية النادى ونصحنى بالهروب قائلا، إن الدهماء قد أشعلت حريقا فى النادى، وانهم يقتلون الانجليز، ولقد فكرت انه من الحكمة أن ارجع الى المكتب بدون أن انتظر لأتاكد مما يحدث بالنادى. وعندما وصلت راجعا الى راديو هاوس، كان الذعر سائدا بصورة أكثر. كانت عصابات منظمة من المتشردين تقترب

من خلال الشوارع الجانبية وهم حاملون لفائف ضخمة من ا لخرق وصفائح بترول سعة أربعة جالونات.

وكانوا يتجهون ناحية الجانب الشمالي من المدينة ولم يبد أن أحدا مهتم بشارع قصر النيل أو بساكنيه.

وقد قال لي المستر تريجاس (ملاحظ مناوب) انه فهم أن الدهماء أشعلت النار في سينما ريفولي وسينما مترو.

كان العدد المعتاد من رجال البوليس يتمركزون عند الباب الرئيسي للمبنى وحتى ذلك الوقت كان شارع علوى هادئا بدرجة معقولة . بالنظر للظروف السائدة.

أخبرت المستر تريجاس انني سأتناول الغداء مع المستر فيلدر وانني سأعود فيما بعد إن ساءت الأمور. وعند حوالي الساعة الثالثة إلا ربعا، أصبح واضحا من سحب الدخان المتصاعدة من أجزاء مختلفة في المدينة أن الأمور قد ساءت بكثير. وشعرت أنه حتى أكون منصفا بالنسبة للمستر تريجاس فانه من المفيد أن أرجع الى راديو هاوس. كان الرعاع الهائجون يندفعون من خلال شارع علوى متجهين ناحية شارع قصر النيل وقد لاحظت أثناء

دخولى، أن الشارع. من الوجهة الأمنية مختلف تماما عن الحال الذى تركته عليه منذ حوالى الساعة. فلم يكن هناك أى أثر لرجل بوليس.

نصحت المسئول القائم باعمال البهو - السيد عمر - بان يراقب الوضع جيدا عند الباب الامامى وأن يبلغ فورا لو ظهر أن مثيرى الشغب يتجهون ناحية راديو هاوس.

ولقد قام بمهمته بأتم حكمة، وكان دائم التردد على مكتب التلغراف لينبئنى عن الحرائق الجديدة التى تشعل. وفى معظم الحالات تقريبا كانت المبانى التي تشعل تمسى أكثر اقترابا من مبنانا. كان الوقت قد اقترب من حوالى الرابعة عندما أخبرنى أن متجرى بيتشليفانوس وبوننتر يمولى بشارع قصر النيل يشتعلان وان المحلات بعمارة الايموبليا المواجهة للبنك الاهلى تدمر فى الهجوم.

كانت ذلك بالنسبة لى اقرب على نحو مقلق ، ولكننى كنت متحققا بأنه حيث لاحماية تتوفر لمقر مؤسستى . فليس هناك ما استطيع عمله فى هذا الشأن.

كانت التقارير الصحفية تتقاطر على المكتب، وكان هذا شيئا حسنا لأن الموظفين كان لديهم الكثير من العمل الذى يشغلهم

تماما. وفي تلك الظروف كان من الضرورى أن يكون المرء مشغولا تماما. ولقد خرجت بعد ذلك برفقة السيد عمر للتأكد من مدى اقتراب أقرب حريق فوجدت متجر شالون المواجهة لفتحة شارع علوى، وكذا المتاجر المجاورة له، تشتعل بشدة.

عند رجوعى لراديو هاوس أخبرت المستمر تريجاس أن أقرب حريق لايبعد بأكثر من حوالى ثمانين أو مائة ياردة لا غير، وأن مثيرى الشغب يبدون راضين تماما بان ينزعوا من المحلات كل ما يستطيعون وضع أيديهم عليه وان يجروا تلك الأشياء الى نهر الشارع ويشعلونها مستعينين بخرق مبللة بالبترول وبزجاجات مياه غازية مليئة بالبترول. (كانت ألسنة اللهيب المتصاعدة من تلك النيران تتصاعد الى ارتفاع من أربعين الى خمسين قدما) ولقد كنت أتمنى متفائلا بانه حيث أن راديو هاوس يقع فى شارع جانبى فان مثيرى الشغب سيظلون مركزين هجماتهم على المحلات والمبانى فى الشوارع الرئيسية.

ورغما عن ذلك التفاؤل فاننى يجب أن اعترف بأنه عند تلك اللحظة فاننى فكرت فى أن أجمل صوت يمكن أن يسمع سيكون

جرس سيارة الأطفاء أو صوت صفارة رجل البوليس، ولكن لم يسمع أى صوت منهما. كانت المدينة تماما وكليا فى أيدى رعاع اجراميين مصممين على الإحراق والقتل والتدمير.

وكان هذا هو الوقت الذى تمكن فيه أصدقاء من الاتصال بى تليفونيا ليخبرونى بمصير الزملاء أعضاء «الترف كلوب» . وبعد مرور عشر دقائق أو ربع ساعة اندفع رجل بوليس الى مكتب التلغراف (وقد تعرفت فيه على أحد رجال الحرس الأصليين ولابد أنه كان مختبأ). وكان يصيح بأعلى صوته: «بسرعة أخرجوا جميعا، على الفور فالمبنى يحترق». كان هناك ستار خفيف من الدخان قد تسلل الى داخل المكتب مسببا لبعض نوبات السعال لجميع الموجودين ، لكن لم تكن هناك أى علامة على وجود نار مشتعلة. قمت أنا والمستر تريجاس فى نفس الوقت بسؤال رجل البوليس عن المكان الذى تشتعل فيه النار بالضبط فى راديو هاوس. فأجاب بأن النار تشتعل فى المبنى الملاصق ، وايضا فى سطح المبنى. فأخبره المستر تريجاس بانه حيث لا توجد أى علامة على اشتعال النار فى مبنانا، فانه ليس من اللازم على الموظفين

اخلاء المبنى. فأجاب رجل البوليس بأننا يمكن ان نفعل ما نشاء ، أما بالنسبة له فانه سيخرج دون ابطاء . ولقد خرج ولم أره ثانية، ولا أستطيع الا أن أتمنى أن يكون سليما آمنا ، فقد فعل أقصى ما يستطيعه.

أخبرت الموظفين بأننى سأتأكد من مكان النار بالمبنى - إن كانت هناك نار - واذا كانت هناك ضرورة فسنخلى المبنى. ولم يعارض أى منهم. واستمر كل منهم يؤدى عمله الخاص به. ولقد كانت تلك لحظة عظمى، وربما لم نتعرف على ذلك حينئذ . وخرجت ثانية يصحبنى السيد عمر (الذى كان يلح علىّ باستمرار فى عدم الخروج من المبنى ومع ذلك أصر على مصاحبتى). وفتشت المبنى من الخارج فوجدت أن نارا قد أشعلت فى البار الانجلو اجيبشيان فى المبنى الملاصق لراديو هاوس.

كان مثيرو الشغب قد نهبوا أيضا مكاتب مؤسسة سندر عبر الشارع . وكانوا يفتحون صناديق ديوارس فيحطمون زجاجات الويسكى ويلقون بالأخشاب فى النار. لم يكن اللهيب فى بار الانجلو اجيبشيان يمثل خطرا فوريا على مكاتب التلغراف فقد

توقعت ان الارجح ان الحوائط السميكة للمبنى ستمنع النيران من الانتشار. وارسلت السيد عمر الى سطح المبنى فرجع بعد قليل قائلا، بأن نارا صغيرة كانت قد بدأت على السطح الملاصق نتيجة لطيران بقاياممشتعلة، ولكن تلك النار كانت قد انطفأت عندما صعد للسطح.

توجهت ثانية للتأكد من مدى انتشار النار فى بار الانجلو اجيبشيان فوجدتها تشتعل بعنف مستمر. كان بعض الدهماء يرقصون كالمجانين حول النار التى أشعلوها فى نهر الطريق. (ولذلك تكونت عندى فكرة بأن ليس كل الويسكى قد سكب فى الطريق). وفى هذه الأثناء فان، الحرائق التى كانت مشتعلة فى المحلات المختلفة فى شارع قصر النيل (بعمارة الايموبليا) قد اتصلت ببعضها مكونة حريقا هائلا. قفلت راجعا إلى راديو هاوس - فى صحبة السيد عمر على الدوام - وتشاورت مع المستر تريجاس عن أفضل سبل التعامل مع الوضع. وفى نفس الوقت طلبت من السيد عمر أن يخبرنى على الفور اذا اعتقد أن الدهماء سيبدأون فى مهاجمة المكتب.

قررنا أن نوقف العمل لعدة دقائق . وأثناء تلك الفترة كنت سأقول للموظفين انه فى حالة هجوم الدهماء فان عليهم ان ينضموا اليهم فورا (٩٥٪ من الموظفين مصريون) ويشيدوا بهم كمواطنين ويساعدوهم ظاهريا فى تحطيم المكتب، وأثناء فعلهم ذلك فان عليهم ان يجدوا مخرجا ويذهبوا الى بيوتهم، إن كان ذلك فى الإمكان. ويجب على المرء أن يتذكر دائما ان حكم الدهماء كان يسود المدينة، واننا تخلينا من مدة طويلة عن أى تفكير فى معونة قادمة وذلك لأنه ببساطة لم تكن عندنا أية فكرة عن مصدر أو كيفية وصول تلك المعونة إن كانت ممكنة . لم يدخل السيد عمر الى مكتب التلغراف حوالى عشر دقائق ليبلغنى بأى شىء جديد، وكنت على وشك الخروج للتأكد من التطورات عندما رأيت ضابطين من ضباط الجيش المصرى يدخلان المكتب وكل منهما يحمل مسدسا، ومن نافلة القول أننى توجهت إليهما مباشرة - متبوعا بالمستر تريجاس - وقلت لهما:

- «انكما لا تعرفان كم أنا سعيد برؤيتكما يا سادة».

وهمس لى المستر تريجاس فى صوت خفيض:

- «من الأفضل عدم التكلم بالانجليزية الآن يا سيدى».

فتساءل أحدهما: «لم لا ونحن الاثنان نتكلم انجليزية معقولة».

كان يتكلمان انجليزية ممتازة، وأكدا لى إنهما بدورهما سعداء لرؤيتى ولرؤية طاقم الموظفين لم يمسسنا ضرر ولرؤية المكتب سليما.

وبدا لأول وهلة وكأنهما مندهشان قليلا لوجود أجانب فى المبني. ولقد فهمت منهما أنهما مقدمة مفرزة الحراسة وأنهما احضرا عددا قليلا من الجنود ليضربوا نطاقا حول المبني وأن تعزيزات ستصل على التو.

عبرت لهما عن شكرى وطلبت من المستر تريجاس أن يعمل على توفير الراحة لهما، وخرجت ثانية لافتش عن مدى انتشار النار فى المبنى المجاور.

ووجدت أن الجنود قد اتخذوا موقعهم بالفعل مغلقين مدخل شارع علوى كان من الواضح أن لديهم أوامر بمنع دخول غير المسئولين الى راديو هاوس، وأن يتركوا مهمة تصريف الدهماء الى قوة الجنود الرئيسية المتوقع حضورها فى وقت لاحق.

كانت النار قد امسكت تماما في الجزء الأسفل من المبنى المجاور، ولكن اذا أخذنا في الحسبان أن قوات الجيش كانت على أهبة الوصول وانه كان من غير المحتمل ان نيرانا أخرى ستشعل فانني كنت آملا أن الحريق المجاور سينطفيء تلقائيا ولن يمتد الى راديو هاوس.

وفي هذه الأثناء كان الحريق في نهر الشارع قد تصاعد الى حجم ضخم، بينما يستمر مثيرو شغب مسهم الجنون في إلقاء المناضد والكراسي إلخ، الى اللهيب بينما يرقص آخرون بجنون. رجعت الى مكتب التلغراف وأخبرت المستر تريجاس انني اعتقد أن النار لن تنتشر الى أبعد من ذلك وانني سأقوم بجولة تفتيشية أخرى بعد عشر دقائق.

وبعد مرور عشر أو خمس عشرة دقيقة تقريبا حوالي الساعة السادسة والربع بعد الظهر . قمت بجولة أخرى ووصلت الى شارع البنك الأهلي، في نفس الوقت الذي وصلت فيه تعزيزات الجيش. وقامت القوات بفتح النار على الدهماء المحيطين بالنار أمام بار الانجلو اجبشيان . وقد رأيت أحد الراقصين المتهوسين -

وكان واضحا انه أصيب فى مؤخرته - يقفز عاليا فى الهواء ثم يسقط وسط اللهيب.

وحيث أن إطلاق النار كان بدون تميز إلى حد ما وحيث اننى طمأنت نفسى بأن النار لن تمتد لراديو هاوس. فقد أسرعت راجعا الى مكتب التلغراف حيث كنت أعرف أنه فى ذلك الحين سأكون أنا وطاقم الموظفين فى أمان ربما أكثر من أى مكان آخر فى القاهرة . كانت تلك فى الحقيقة فكرة مريحة

ج . هامبروك

القاهرة

٥ فبراير ١٩٥٢

اقرار من مسترجون ستيوارت سميدن المدير العام لشركة اوديون القاهرة ليمتد

كنت بمكتبي بسينما ريفولي الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق ظهرا، عندما قامت سكرتيرتي الآنسة انجبورج بلفت انتباهي الى أن تجمهرا بدأ يهاجم مدخل السينما. نظرت خلال نافذة مكتبي ورأيت تجمعا كبيرا يرمي بمقذوفات على الواجهة محطما لافتات النيون ونوافذ متعددة. أرخيت أغطية نوافذ المكتب. وبعد ذلك مباشرة سمعت أصوات كما لو كانت معدات ثقيلة تستخدم في تحطيم الأبواب. ولذلك اعطيت أوامر لأعضاء مختلفين من هيئة موظفيّ بأن يصعدوا معي الى السطح. ومن بين أولئك الأشخاص كان السيد جان ناظرسيان مدير قسم الاطعمة وأيضا حسين حنفي الحارس الموفر لنا من قبل وزارة الداخلية. أخذنا المصعد الى السطح ومن هناك رأيت أن الرعاع دخلوا المبنى فعلا. وقد

قررت أنه من ا لضرورى أن ألتجىء الى مكان آمن. اقترح السيد ناظرسيان أن نترك المبنى عبر سلم الطوارىء الحديدى ومن هناك نخرج عبر مبنى تحت الإنشاء ملاصقا لسينما ريفولي . وبالنظر الى جمهرة الرعاع الكبيرة الموجودة بالشارع وحيث لدى أسباب تدعونى للاعتقاد بأن من بين الرعاع ستكون هناك عناصر تراقب وتنتظر أن أغادر المبنى، فقد قررت ألا افعل ذلك، ولكن أن التجىء الى مكان ناء بالمبنى اعتقد أنه سيمكننى ألا الاحظ. حتى الوقت الذى يقوم فيه البوليس أو أى قوة أخرى بالحضور لإعادة استتباب الأمن.

ورغم أن جنسية سكرتيرتى مصرية، فان والدتها سويدية وتعليمها انجليزى. وهى تتكلم العربية بلكنة «أجنبية» غير مصرية، ولذلك اعتقدت انه من الآمن لها أن تظل معى.

ولقد قام أعضاء آخرون من طاقم الموظفين الذين كانوا معنا على السطح بمغادرة المبنى عن الطريق الذى وصفته آنفا، ولكن بقى معنا السيد ناظرسيان وحسين حنفي. نزلنا الى مخزن الطعام وهو غرفة تحت مطبخ المطعم حيث توجد غرف تبريد الأغذية . وهناك سلم صغير فى الركن البعيد للغرفة يقود الى ممر

يوجد على يساره مخزن البقالة وعلى يمينه مخزن النبيذ. ولقد كان هدفى أن التجىء الى مخزن النبيذ.

وقد أغلقنا باب مخزن الطعام خلفنا تاركين حسين حنفى والسيد ناظرسيان هناك ليكونا بمثابة ستار، وكلاهما يستطيع التحدث بعربية جيدة. وكان القصد هو انه فى حالة قيام الرعاع بالاقتحام ، كان عليهما أن يحاولا إعادة توجيههم الى جزء آخر من المبنى وفى نفس الوقت يغادران المبنى.

ولقد توجهت الآنسة غبن عندئذ الى مخزن النبيذ وأغلقنا خلفنا الباب الموجود أسفل السلم الصغير.

وبعد خمس عشرة دقيقة سمعنا أولا النافذة ثم الباب الخارجى لمخزن الطعام يهشمان. ثم سمعنا صوت الرعاع داخله.

كنا نستطيع سماع أصوات تحطيم المكان كله. وعندئذ وبعد خمس دقائق سكتت الضجة فى الحجرة المجاورة لنا، حيث بدا وكأن الرعاع قد غادروها.

وبعد أن خرج الدهماء من مخزن الطعام قررنا أن نتحرك بعيدا عن مخزن النبيذ حيث تعرفنا على حقيقة أنه بوجود مثل هذا

العدد الكبير من الزجاجات التى يمكن تحويلها الى سلاح مخيف فان مخزن النبيذ مكان خطر لا يستحسن البقاء فيه. ولذلك تركناه الى مخزن الطعام الذى دخلناه عن طريق كسر أربعة ألواح زجاج فى وسط الباب.

كان حريق كبير قد أشعل في الحارة الواقعة فى مستوى الأرض تحت نافذة مخزن الطعام ومن الصياح باللغة العربية الذى ترجمته الآنسة غبن لى - فهمنا انهم يغذون النار بواسطة تكويم الأثاث والمواد القابلة للاشتعال والتى كانوا يخرجونها من المبنى . ورغم أن الدخان الناتج عن ذلك الحريق سبب لنا عدم الراحة لحد مَا، فاننى كنت واثقا أننا لم نكن فى خطر من تلك النار . حيث اننا كنا فى الطابق الثالث والجدران الخرسانية الملاصقة للنار والتى تصل الى مستوانا لن تمسك فيها النار.

وفى نفس الوقت وحيث تدل الأمور على انتشار الرعاع داخل المبنى وخارجه، ينشرون الدمار كيف يشاءون بدون أى تدخل، فلم أفهم لماذا لم يحضر البوليس ليقدم لنا المساعدة. كانت تلك لحظات قلق شديد لى حيث شعرت أنهم يمكن ان يكتشفوا مكاننا فى أى لحظة.

وعند حوالى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر دخل مخبأنا فعلا دخيل كان قد تسلق هابطا من سطح المبنى وحطم النافذة ودخل الحجرة، على اننا تمكنا بنجاح من ان نتجنب اكتشافه لمكاننا، ولأن الدخيل كان مهتما اكثر بالنهب والسلب عن أن يهتم بنا. فقد هتف صائحا ، لا يوجد شيء أو شخص هنا وخرج بنفس الطريقة التى دخل بها .

بعد عشر دقائق سمعناهم يصيحون أسفلنا بانهم سيرجعون الى المخزن، ولذلك تحركنا ثانية هذه المرة الى مرحاض غير مستخدم يحتوى على صناديق فارغة، ووصلنا اليه عن طريق سلم صغير يهبط من الردهة التى بين المخزنين، ولقد ظللنا هناك حتى اكتشفتنا قوة الإطفاء حوالى الساعة الرابعة مساء.

لقد نفذنا عندئذ الى الخارج عبر مخزن الطعام الذى كان مليئا بالدخان من حريق أشعل فى المكتب الصغير الواقع خارج باب المخزن تماما. ومن المحتمل أن ذلك الحريق قد أنقذنا من أن يكتشفنا الرعاع لأن الناظر عبر الحريق سيتأكد له استحالة أن لا يختنق أحد موجود بسبب الدخان.

وفى نفس مستوى مخزن الطعام توجد شقة مكاتب يشغلها موزعو «أفلام ج . أرثر رانك الشرق الأوسط ليمتد» ولقد دخلناها بواسطة سلم الهروب من الحريق حيث أن الباب كان مكسورا. كان رجال الاطفاء يريدون منا أن ننزل الى الشارع ولكننى عندما نظرت من نوافذ المكتب رأيت أن جمهرة ضخمة مازالت توجد أسفل المبنى، فقررت انه من المستحسن البقاء فى المبنى حيث انه ليس من المفيد القفز من المقلاة الى النار، وأن نخرج من ورطة لنقع فيما هو أدهى. ونظرت من خلال أغطية النوافذ ولم أتمكن من رؤية اى عدد كبير من رجال البوليس، رغم أن رجال الأطفاء قالوا لى أن قومندان البوليس كان فى الشارع. ولقد قلت له أن يسأل القومندان عما إن كان من الأمان أن ننزل للشارع وإن كان ذلك هو الممكن - ان يرسل لنا القومندان من يخفرنا. ولم يتحقق ذلك. ولكن قومندان قوة الاطفاء صعد الينا ووافقنى على انه من المستحسن أن ابقى حيث كنت فى تلك الردهة. بعد ذلك بقليل صعد الىّ ثلاثة أعضاء من هيئة موظفى السينما وطلبوا منى مغادرة المبنى كان أحدهم يحمل لفافة بها ملابس مصرية لى. ولكنى لم أجد من المستحسن أن استغل تلك الملابس. حيث اننى

لا اتكلم العربية بطلاقة كافية. كان المتجمهرون مازالوا موجودين ولمرتين أثناء انتظارنا سمعنا أصوات قنابل مسيلة للدموع وطلقات نارية تطلق فى الشارع وبعد حوالى عشرين دقيقة، صعد نفس الموظفين يرافقهم أحد موظفى شركة كولدير ليمتد واخبرونا انه يجب أن نغادر المبنى، لان عناصر إجرامية كانت مازالت فى المبنى تقوم بالتفتيش حجرة بعد حجرة، وأننا نتعرض لخطر داهم بالبقاء حيث كنا.

ولذلك تركنا سينما ريفولى عن طريق سلم الحريق. وعن طريق المبنى المجاور الذى كان تحت الانشاء ، وانتظرنا فى الطابق تحت الأرضى من ذلك المبنى حتى أحضر السيد بهجت توفيق مهندس السينما سيارة تاكسى الى خلفية المبنى حيث غادرنا الموقع حوالى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر.

ج . س سميدن

اقرار من المستر تيترنجتون
القاطن برقم ١٨ شارع محمد مظهر - الزمالك

عند حوالى الساعة الواحدة والثلث من يوم السبت ٢٦ يناير ١٩٥٢، تركت سيارتي خارج نادى السيارات الملكى من الناحية الغربية لشارع قصر النيل، وتوجهت مترجلا الى رقم ١٧ شارع قصر النيل فوق لاباس حيث كنت مدعوا على الغداء .

وعند حوالى الساعة الواحدة والنصف أخبرت أن إحدى المدعوات اتصلت تليفونيا من شارع النمر المتفرع من شارع سليمان باشا، قائلة أنها غير قادرة على المرور عبر الشوارع بسبب وجود مثيرى الشغب، فخرجت لإحضارها .

دخلت الى شارع بهلر متوجها ناحية شارع سليمان باشا ورأيت فى شارع سليمان باشا عصبة من الشباب بعضهم فى ملابس أوربية والآخرين يرتدون الجلابيب. كانوا يصيحون، وكان بعضهم يحمل مشاعل ملتهبة. فانسحبت عندئذ الى ناحية ١٧ شارع قصر النيل وعند دخولى شارع قصر النيل رأيت مجموعة من الأشخاص آتين من ناحية البنك الاهلى وسمعت صوت تهشيم

زجاج متبوعا بعامود من الدخان ، آتيا من ناحية المبانى الواقعة فى الناحية الشمالية من الشارع ولقد توجهت حينئذ الى الطابق الرابع من المبنى رقم ١٧ وخرجت الى الشرفة. وعند حوالى الساعة الثانية إلا ربعا بعد الظهر ، رأيت سيارات تحترق على كلا جانبى الشارع من ناحية أقصى الغرب لشارع قصر النيل عند مركز حجز تذاكر الطيران، ولكننى لم أتمكن من رؤية أى أشخاص هناك نتيجة للدخان ولبعد المسافة. عند حوالى الساعة الثانية بعد الظهر قررت الخروج لأضع سيارتى في مكان آمن وبينما كنت خارجا من المبنى رأيت عصابة تبدأ فى الدق بقضبان من الصلب على الاغطية الصلب لأبواب محلات لاباس ، لكن موظفى لاباس قاموا بلفت أنظارهم الى الاعلام المصرية التى ثبتت فى حوامل على جانب المبنى ، واقنعوا أفراد العصابة بأخذ الأعلام بدلا من مهاجمة المبنى. ولقد رأيت أحد رجال البوليس يساعدهم في إنزال أحد الأعلام. وعند ذلك الوقت رأيت مركبة متوسطة ذات طراز عسكرى - أكبر من حجم الجيب - آتية من شارع قصر النيل من ناحية البنك الاهلى . كانت المركبة مليئة بشباب يرتدون الجلابيب وتحت قيادة امباشى من سلاح الطيران

الملكى المصرى يرتدى بيريه أحمر ويضع شارة على ذراعه ، وكان جالسا بجوار السائق. كانت العربة ذات غطاء (كبود) وفى منتصف ذلك الغطاء كانت توضع صورة فوتوغرافية بارتفاع قدمين. ولم يمكنني معرفة صورة من تلك ولقد رأيت العربة تجول فى الشوارع الى مابعد حلول الظلام ، واثناء كل فترة توالى الأحداث المشار اليها فى هذا الاقرار. وقد رأيتها حوالى ست مرات. وكان المتجمهرون يهتفون دائما لتلك العربة .

ذهبت ناحية نادى السيارات الملكى ودخلت سيارتى وقدتها الى الناحية الجنوبية لشارع سليمان باشا، وتركتها فى شارع الشيخ حمزة حيث بدا كل شىء ساكنا ورجعت سائرا على قدمى عبر ميدان سليمان باشا .

وعند حوالى الساعة الثانية والربع بعد الظهر وعندما دخلت شارع قصر النيل آيبا ، رأيت عصابة لا يزيد عددها عن اثنى عشر شابا يهاجمون مصاريع (أغطية) أبواب محل «الفن المعاصر» الفرنسى. كان يدير أعمالهم شاب يرتدى بنطلونا ازرق وقميصا ويضع شارة خضراء على ذراعه مكتوبا عليها بحروف عربية بيضاء. كان بقية أفراد العصابة يرتدون الجلابيب ويمسكون

قضبانا حديدية يحاولون بمساعدتها فتح أبواب المحل كان هناك في ذلك الوقت عديد من رجال البوليس ينظمون المرور في ميدان سليمان باشا ولكنهم لم يعيروا التفاتا للحوادث الجارية. كان هناك أيضا نطاق (كردون) من رجال البوليس يغلقون شارع قطاوى بك من ناحية لاباس. ومن المفترض أنهم يقومون هناك بحماية القنصلية البريطانية ولكنهم بالمثل لم يعيروا التفاتا الى ماهو حادث. وعند وصولي الى باب المبنى رقم ١٧ بشارع قصر النيل أشار الى جمهرة من المتجمعين وصاحوا : «انجليزى» مررت خلال التجمهر وعبر الباب الذى أغلقه البواب خلفى وفى طريقى الى أعلى المبنى أخبرنى صبى مصرى يناهز الخامسة عشرة من عمره أن «الترف كلوب» يشتعل وأن خمسة انجليز (رجال) قد قتلوا هناك. صعدت الى أعلى وخرجت الى الشرفة.

عند حوالى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر رأيت من الشرفة أن العصابة قد نجحت أخيرا في اقتحام المتجر الفرنسى، وقاموا بتكويم بعض الخرق فى منتصف الشارع. وفي نفس الوقت قام آخرون من العصابة بالقاء محتويات المتجر الي الشارع وتحطيمها . كان أحد أفراد العصابة يحمل لفافة من القماش

الأسود وكان يضع طيات منها داخل نوافذ عرض المتجر المهشمة. أما الرجل ذو الشارة على ذراعه والذى كان واضحا انه يدير العملية، فقد كان واقفا في منتصف الشارع يحمل مشعلا ملتهبا. قام بعض أفراد العصابة بسكب بعض من سائل على كومة الخرق ووضعوا قبضات من الخرق المبللة على القماش الاسود في نافذة عرض المتجر. قام الرجل ذو الشارة على ذراعه والذى كان يحمل المشعل الملتهب بالتوجه الى المتجر واشعل كومات الخرق التى التهبت عندئذ بسرعة كبيرة. ولم يفعل رجال البوليس الموجودين في ميدان سليمان باشا وفي النطاق المضروب عبر شارع قطاوى بك، أى شىء رغم أن افراد نطاق البوليس مسلحون بالبنادق.

وعند حوالى الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة بعد الظهر كان المتجر الفرنسى مشتعلا تماما. وقد رأيت عندئذ ان هناك عصابة أخرى قد أتت من شارع قصر النيل من ناحية الشرق، كانت تهاجم مقر متاجر روبرت هيوز. كانت تلك العصابة أيضا تتألف من حوالى اثنى عشر الى عشرين شخصا. معظمهم تحت سن العشرين، وبعضهم لا يمكن أن يكون أكبر من عشر سنوات. كان معظمهم يرتدى الجلابيب ولو أن بعضهم كان يرتدى

بنطلونات وقمصانا. وبعد نجاحهم في اقتحام المتجر بدأوا يلقون بكل المحتويات الى الطريق، وأمسك بعضهم بأدوات فضية أو مطلية بالفضة وجروا بها بعيدا. غير أن المتجمهرين اخذوا منهم تلك الادوات وحطموها . وقد ألقى بقطع الملابس الى الشارع حيث أخذ بعض النظارة قسما منها وجرى به بعيدا. اما قطع الملابس الاخرى فقد كومت فى الطريق وسكب عليها سائل. ولقد اخذت بعض تلك الملابس المبللة بعد ذلك ووضعت في نوافذ عرض المحل بدون اشعال. اما بعضها الآخر فقد اشعله شخص واقف فى الشارع يمسك بمشعل متوهج. وقد بدا ان ذلك الرجل يدير العملية وقد قام بعد ذلك باشعال اللفائف التى ألقى بها فى المتجر. وعند حوالى الساعة الثالثة كنت استطيع ان احصى وجود خمسة مشاعل على طول شارع قصر النيل ، تستخدمها العصابات المنشغلة بتدمير مبانٍ مختلفة ولم يأخذ البوليس المتمركز بعرض شارع قطاوى أي خطوة لحماية محلات روبرت هيوز .

وعند حوالى الساعة الثالثة قامت العصابة التى هاجمت المتجر الفرنسى بعبور ميدان سليمان باشا وهاجمت بدون نجاح الباب الأمامى وناحية جروبى المطلة على شارع الانتيكخانة وحيث أنهم

فشلوا في ايجاد منفذ بالوسائل التى تحت أيديهم فانهم تحركوا بعيدا فى شارع الانتيكخانة. وعند حوالى الساعة الرابعة كان فى إمكانى أن أرى - انعكاسا على واجهة جروبى من ناحية شارع الانتيكخانة - حريقا من الناحية الاخرى من الشارع ، ولكننى لم أكن استطع رؤية الحريق نفسه من المكان الذى كنت أقف فيه .

حوالى ذلك الوقت وصلت عربة نقل محملة بجنود بوليس يرتدون معاطف سوداء . ووقفت تلك العربة فى ميدان سليمان باشا فى مواجهة مدخل جروبى. وظل الجنود جالسين في العربة يدخنون السجائر ، بينما الحرائق تشتعل فى شارع الانتيكخانة. ولم يحاولوا حتى أن يجهدوا أنفسهم بالخروج من العربة ومشاهدة مايجرى. وبعد قليل وصل ضابط بوليس آتيا من شاعر قصر النيل من اتجاه الشرق ووقف بجانب عربة البوليس فى مواجهة جروبى، جلس على دراجته البخارية يدخن سيجارة وذهب بعيدا بعد خمس دقائق.

حوالى الساعة الرابعة والربع عادت العصابة من شارع الانتيكخانة الى جروبى وهاجمت المصاريع الصلب من ناحية شارع الانتيكخانة، ونجحوا اخيرا فى فتحها قسرا وألقوا

بالمحتويات والأثاث الى الشارع. ثم قاموا بعد ذلك بالهجوم على جروبى من ناحية شارع قصر النيل، وفعلوا نفس الشيء هناك. وبعد ذلك بقليل ظهر رجال يرتدون الجلابيب فى نوافذ «النادى اليونانى» الذى يقع في الطابق الاول فوق جروبى وبدأوا فى القاء الاثاث خارجا. واستمر ذلك لوقت معتبر وطوال فترة الهجمة على جروبى وتدمير مقره ومقر النادى اليونانى استمر رجال البوليس جالسين فى العربة يدخنون السجائر. واشتعلت النار عندئذ فى جروبى . وبعد حين تحركت العربة بحمولتها من رجال البوليس بضعة ياردات داخل الميدان ويفترض أنهم فعلوا ذلك للابتعاد عن النيران.ولقد ظلوا هناك حتى حلول الظلام - حوالى الساعة السادسة بعد الظهر ولم يقوموا بأى إجراء .

عند حوالي الساعة الخامسة وصلت عربة اطفاء الى ميدان سليمان باشا. توقفت ونظر رجالها عدة دقائق الى جروبى الذى كان يشتعل - ولم يتخذوا أى إجراء واختفوا ناحية شارع جامع شركس .

وحوالى ذلك الوقت شاهدت شبانا عديدين مسلحين بالقضبان الحديدية والعصى ذات النهايات الصلبة أو المواسير الرصاص

يمشون عبر الشوارع . ورأيت أحدهم (ويبدو فى حوالي الخامسة عشرة من عمره) يوقفه رجل بوليس في شارع قصر النيل ويفحص سلاحه وربت على ظهره وسمح له بالاستمرار فى السير فى طريقه وحوالى الساعة الخامسة والنصف وصلت عربة إطفاء وذهبت بدورها عن طريق شارع جامع شركس .

وفى حوالى الساعة السادسة الا ربعا بعد الظهر هوجم محل بوتشليفانوس وهو محل بقالة مشهور في شارع قصر النيل، ولم اكن استطيع أن أرى تفاصيل مايحدث حيث يقع المحل في نفس جانب شارع قصر النيل حيث كنت أقف .

عند حوالى الساعة السادسة وصلت عربة نقل محملة بقوات الجيش الى ميدان سليمان باشا وصفق لها جمهور النظارة الذى كان يتألف فى معظمه من رعاع يرتدون الجلابيب وقليل من الافندية . وعندما وصلت قوات الجيش ، تحركت عربة البوليس التى كانت واقفة أمام جروبى في شارع قصر النيل ناحية الشرق يحيط بها إشادة النظارة على طول الشارع .

عند حوالى السادسة وعشر دقائق نزلت قوات الجيش من عربتها وضربت نطاقا شبه دائرى فى الناحية الشرقية، لميدان

سليمان باشا، ابتداء من شارع جامع شركس الى شارع الانتيكخانة . كانت المسافة بين كل جندى والآخر حوالى خمس ياردات ، وكان اعضاء العصابات المسلحون بالعصى والقضبان الحديدية يتحركون بحرية عبر نطاق الجنود الذين لم يفعلوا شيئا لايقافهم .

عند حوالى السابعة مساء بدا وكأن نادى السيارات الملكى أو مبنى قريب منه وكأنه يحترق .

وعند حوالى نفس الوقت جاءت عصابة مكونة من حوالى اثنى عشر شابا وهاجمت متجر شكسبير في شارع قصر النيل. كان زعيم تلك العصابة يرتدى جلبابا وعمامة . لم يفعل نطاق الجنود أى شيء لوقف الهجمة ولكن ابواب المبنى الذى كان رجلا مسنا يلبس عمامة اندفع ناحية زعيم العصابة وألقى به أرضا . ولقد قام ذلك الرجل ثانية ولكن البواب أمسك به وألقاه على كومة من النفايات من المتجر الفرنسى ، كانت مازلت تتوهج وعندئذ تحركت العصابة بعيداً .

وعند ذلك الوقت رأيت عدداً من رجال البوليس يتجولون فى الشوارع فى ثنائيات وهم يحمــلون الدروع ، ولكنهم لم يقوموا

بأى إجراء كان . وحوالى نصف الوقت ظهرت عربة إطفاء أخرى وتعاملت مع الحريق المشتعل فى جروبى من ناحية شارع قصر النيل ولكنهم بدوا أكثر اهتماماً بالتعامل مع الحريق المشتعل فى نادى السيارات الملكى ، أكثر من اهتمامهم بحريق جروبى .

وعند حوالى السابعة وخمسين دقيقة مساء أزيل النطاق الذى كان يضربه جنود الجيش ، وتحركت بهم عربتهم بعيدا . وعند حوالى الثامنة والربع مساء وصلت عربة نقل جنود أخرى من الجيش فى ميدان سليمان باشا ووضعت مفرزة من عشرة جنود كتفا الى كتف أمام التمثال فى منتصف الميدان فى مقابل فندق ناشيونال . تجمع النظارة حولهم .

قام الجنود بتعمير بنادقهم وأطلقوا دفعة من الرصاص ثم ركبوا وتحركوا بعيداً .

وبعد ذلك بقليل بدأت دوريات من جنود الجيش تتحرك فى شارع قصر النيل فى اتجاه الشرق ولكن على قدر ما كنت أرى لم يكونوا يقومون بأى إجراء كان . إن الحقائق المعطاة فى هذا الإقرار مرتبة زمنياً كما حدثت ، ولكن الأوقات المعطاة ربما لا تكون دقيقة حيث اننى لم أكن آخذ ملاحظات عن الوقت .

ترجمات

*تطور الاقتصاد السوفيتى بقلم : يورى بروشوك – نفد – مكتبة يولية – القاهرة – ١٩٦٥

*العصر الذرى مجموعة مقالات علمية – نفد – مكتبة يولية – القاهرة – ١٩٦٦

* أصل الأرض والكواكب تأليف ب . ليفين – نفد – دارالكاتب العربى – القاهرة – ١٩٦٨

* نظرية فى أصل الأرض بقلم: الاكاديمى اوتوشيمت – نفد – دارالمعارف – القاهرة – ١٩٦٩

*القمر فى انتظارنا بقلم : روبرت خوزية – نفد – سلسلة كتاب اليوم – ١٩٦٩

* عصر الانسان أم الروبوت دارالثقافة الجديدة – القاهرة – ١٩٧٣

* اليسار الجديد : بقلم : بولشاكوف – نفد – دار الثقافة الجديدة – القاهرة – ١٩٧٦

* امبريالية المساعدات : بقلم : تيريزا هايتر

دار ابن رشد – بيروت – ١٩٧٩

* ثورة الساندينستا – نفد –

دار الهمزانى – عدن – ١٩٨٤

* أطول الحروب : جاكوبو تيمرمان – دارالثقافة الجديدة – ١٩٨٥

* المخابرات الاسرائيلية ٨ طبعات فى القاهرة وبيروت وعدن

تحت الطبع :–

ثورة ١٩٨٩ تأليف مارتون أش .

فهرس

رقم الايداع
١٦٢٦ / ٩٦
I . S . B . N
977 - 07 - 0450 - 4

كتاب الهلال القادم ..

اليهـــــود

د. جمال حمدان

يصدر يوم ٥ فبراير ١٩٩٦

كتاب الهلال بعد القادم ..

ما بعد عام ٢٠٠٠

بقلم:

د. ميلاد حنا

يصدر يوم ٥ مارس ١٩٩٦

هـذا الكتـاب

على صـفـحـات هذا الكتـاب دراسـة جـادة ومـثـيـرة للوثائق السرية البريطانية التى تم الإفراج عنها والتى تتناول حريقـا غـامـضـا ، استـغـرق يومـا واحـدا فى تاريخنا المعاصر ، والكشف عن هذه الوثائق هو كشف عن أدق أسرار وخفايا ذلك الحدث الذى غير مـجرى الحـيـاة فى مـصـر وهو حـريق القـاهرة فى ٢٦ يـنـاير ١٩٥٢ .

حيث إن حريق القاهرة شهادة وفاة لمثلث الصراع السياسى فى مصر الملكية المتضمن للملك والاستعمار البريطانى والوفد . أى للنظام كله ..

والهـدف من هــذه الدراسـة الموضـوعـيـةهو تتـبع موقف الاستعمار البريطانى من ثورة يوليو ١٩٥٢ منذ اللحظات الأولى وكشف مصالحهم ضد مصر والمصريين وضد جمال عبد الناصر والعرب والقومية العربية .. إن هذه الوثـائق تكشف - بين مـــا تكشف - خطط هؤلاء لتـقزيم مصر ومـحاصرةحركات التحـرر حتى لا تضيع المنطقـة كلهـا منهم ومـصـر فى مـوقع القلب منها..

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ٭ الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

جمال الغيطاني

الزويل

حلمي التوني



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة:

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
No-542-FE-1996 العدد ٥٤٢ - رمضان - فبراير ١٩٩٦
FAX 3625469 فاكس

اسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٦٠ ليرة - لبنان ١٠٠٠٠ ليرة - الاردن ٣٧٠٠ فلس - الكويت ٢٠٠٠ فلس - السعودية ٢٠ ريالاً.

اليهود

انثروبولوجيا

بقلم

د. جمال حمدان

تقديم

د. عبدالوهاب المسيرى

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

مقدمة

بقلم : د. عبد الوهاب المسيرى

اليهود أنثروبولوجيًا * ، أى «اليـهـود من النـاحـيـة الأنثروبولوجيـة» هـو عنوان الكتيب الذى بين أيدينا، ألّفـه هذا العـبقـرى الفلتة، جمال حمـدان . ورغم صـغـر حجم الكتيب فإنه يبلور كثيراً من أفكاره وآرائه ولا يمكن فـهمه إلا فى إطار منظومـته الفلسفية والسياسية ومنطلقاته الفكرية .

وهذا الكتيب، مثل كل كتابات جمـال حمدان، ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبى للكلمـة، أى الدراسـة التى يكتـبهـا أحـد المتـخـصـصـين الأكاديميين دونمـا سـبب واضح ولا تتـسم بأى شىء سوى أنهـا «صـالحة للنشـر» لأن صـاحبـهـا اتبع مـجموعة من الأعراف والآليات البحثية (من توثيق ومـراجع وعنعنات علمية موضـوعية) تم الاتفاق عليها بين مجموعة

---

* لتقليل عدد الهوامش سنورد أرقام الصفحات في النص نفسه بعد عنوان الكتاب (إلا كتاب **اليهود أنثروبولوجيًا** فسنكتفي بالإشارة إلى رقم الصفحة) .

١) **إستراتيجية الاستعمار والتحرير** (دار الهلال) ١٩٦٨ .

٢) **شخصية مصر** (الهيئة العامة للكتاب) ١٩٩٥ .

٣) **العالم الإسلامي المعاصر** (دار الهلال) ١٩٩٣ .

٤) **ثلاثية حمدان** : د. عمر الفاروق «دار الهلال» ١٩٩٥ . اقتبسنا من هذه الكتاب بعض أقوال جمال حمدان التى وردت فى الطبعة الموسعة لكتاب **شخصية مصر**.

من المتخصصين والعلماء . والهدف عادةً من مثل هذه الكتابات (التى يُقال لها «أبحاث» مع أنها لا تنبع من أية معاناة حقيقية ولا تشكل «بحثاً» عن أى شيء) هو زيادة عدد الدراسات التى تضمها السيرة العلمية للأكاديمى صاحب الدراسة، فتتم ترقيته، فالصالح للنشر هو عادةً ما يؤهل للترقية . قد تقوم الدنيا ثم تقعد وقد يُقتل الأبرياء وينتصر الظلم وينتشر الظلام، وصاحب «البحث» لا يزال يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، ثم يكتب ويوثق ويعنعن وينشر، وتدور المطابع وتسيل الأحبار ويخرج المزيد من الكتب . ثم يذهب صاحبنا إلى المؤتمرات التى تُقرأ فيها أبحاث أكاديمية لا تبحث عن شيء ليزداد لمعاناً وتألقاً، إلى أن يُعيَّن رئيس المجلس الأعلى لشئون اللاشيء الأكاديمى، يتحرك فى عالم خالٍ من أى هموم انسانية حقيقية - عالم خالٍ من نبض الحياة : رمادية كالحة هى هذه المعرفة الأكاديمية، وذهبية خضراء هى شجرة المعرفة الحية المورقة .

النموذج المعلوماتي التراكمي

كتيب جمال حمدان ليس دراسة أكاديمية بهذا المعنى، وإنما هى دراسة عميقة كتبها مثقف مصرى «صاحب موقف»، لا يكتب إلا انطلاقاً من لحظة معاناة وكشف . وهو لا شك يتّبع معظم الأعراف الأكاديمية ويستخدم كل الآليات البحثية من توثيق وعنعنة، ولكن الآليات هى مجرد آليات، والوسائل لا تتحول أبداً إلى غايات، والمعلومات موجودة وبكثرة (وربما تفوق بمراحل ما تأتى به المراجع المعلوماتية) ولكنها مجرد معلومات . فنقطة البدء هى قلق وجودى عميق أدى إلى ظهور مشروع فكرى متكامل، والهدف يظل دائماً هو الوصول إلى الحقيقة وكيف يمكن

تحويل الحقيقة إلى عدل .

ولذا فكل دراسات جمال حمدان هى دراسات إشكالية، محاولة للإجابة عن سؤال ما، وتصب كل الأسئلة فى مشروع فكرى واحد، محوره مصر . فجمال حمدان صاحب فكر وليس ناقلاً للأفكار مثل عدد لا يُستهان به ممن يُسمون بالمفكرين فى بلادنا، ممن جعلوا همهم نقل آخر فكرة وآخر صيحة، عادةً من الغرب "أولئك الذين يرون أن العالم هو الغرب .. ولا شىء سواه، وهى النظرة الاستعمارية التى سادت طويلاً، والتى تركز على أن الدنيا هى أوربا Euro-Centric والآن على أوربا وأمريكا معاً Atlanto Centric أو الغرب بعامة West Centric" (ثلاثية حمدان ، ص ٢٣) . صاحب الفكر هو إنسان قد طوّر منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بقدر من الترابط والاتساق الداخلى (فهى تعبِّر عن قلقه وآماله)، ويكمن وراءها نموذج معرفي واحد – رؤية واحدة للكون . أما ناقل الأفكار، فهو إنسان ينقل أفكاراً متناثرة لا يربطها بالضرورة رابط، وتنتمي كل فكرة إلى منظومة فكرية مستقلة . وما يحدث فى كثير من الدراسات الأكاديمية أن كاتبيها يقومون بنقل الأفكار المتباينة ويعرضون لها، دون إدراك للنموذج المعرفى الكامن وراءها، أو مع إدراك كامل له دون أن يكترثوا بتضميناته وتطبيقاته، فمهمتهم هى النقل (حتى نلحق بركب الحضارة الغربية) – نقل كل شىء بأمانة شديدة وحياد أشد، وموضوعية متلقية هى فى واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية، والقدرة على الاجتهاد. فى هذا الإطار يحل السرد المباشر للأفكار محل عمليات التفسير بما تتضمنه من تفكيك وإعادة

تركيب، ويختفى المنظور النقدى، فتتعايش الأفكار المتناقضة جنباً إلى جنب ولا يمكن التمييز بين الجوهرى منها والهامشى . ونقل الأفكار ورصها دون إدراك لتضميناتها الفلسفية لا يختلف كثيراً عن نقل المعلومات ومراكمتها دون إدراك للمعنى الكامن وراءها والتحيزات القابعة داخلها والسياق الذى نبعت منه . ولذا فمثل هذه الدراسات "قد تنقل عمداً أو عن غير عمد وجهات نظر محدودة ومحسوبة سياسياً" (كما يقول جمال حمدان ص٧) وهكذا يتحول المثقفون إلى أعضاء فى شركات نقل الأفكار التى لا تختلف كثيراً عن شركات نقل المعلومات أو حتى البضائع.

جمال جمدان لا ينتمى إلى هذه المدرسة المعلوماتية التراكمية التى استشرت تماماً فى صفوف الباحثين بسبب سهولة الإنتاج العلمى من خلالها (استبيانات – جداول – تحليل سطحى للمضمون – استطلاع رأى – أرقام) . ولاشك أن غياب المشروع الحضارى المستقل يزيد من انتشار هذا النموذج، إذ يحل التفكير السهل المباشر من خلال الكم المصمت محل التفكير المركب من خلال الرؤية والهوية والحلم والأمل، ويصبح التلقى المهزوم والإذعان (الموضوعى) للأمر الواقع بديلاً لمحاولة رصد الواقع بأمل تغييره وإعادة صياغته . وقد زحف هذا النموذج على المقررات المدرسية وفلسفة التعليم فى مدارسنا، ومن هنا التلقين، والدروس الخصوصية التى لا تعلِّم الطالب شيئاً، إذ أن المهارة الأساسية التى يكتسبها هى مهارة اجتياز الامتحانات .

إن المدرسة المعلوماتية التراكمية معادية للفكر والإبداع، تدور فى

إطار الموضوعية المتلقية، السلبية، العقل عندها آلة ترصد وتسجل، وليس طاقة إنسانية مبدعة تعيد صياغة العالم، وهى لا تكترث بالحق أو الحقيقة لأنها غرقت تماماً فى الحقائق والوقائع والأفكار المتناثرة، ترصدها من الخارج دون تعمق ودون اجتهاد وكأنها أشياء مرصوصة، كم لا هوية له، ولذا تفقد الظواهر شخصيتها ومنحناها الخاص . وكما يقول جمال حمدان : "نحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الإسرائيلى تأخذ فى جملتها الصيغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانه وتركيبه : فالكل يهود أو صهيونيون، والكل يعيش فى كنف الاستعمار وحمايته، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة ... إلخ . وفى هذا الإطار التجريدى الضيق [أى الاختزالى] أو المتعجل غير المتأنى ... تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية، وتبدو أحياناً – أكاد أقول – كما لو كنا نطارد شبحاً" (ص ٦).

ثنائية تكاملية

وبدلاً من هذه المطاردة العبثية للأشباح غير الحقيقية، يقترح جمال حمدان "دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح، تجسده، ثم تشرحه أصلاً وتاريخاً، جنساً وتركيباً، تطوراً وتوزيعاً" (ص ٦)، بدلاً من الاختزال التركيب؛ وبدلاً من التلقى الإبداع؛ وبدلاً من التفاصيل الفكرية أو المعلوماتية الميتة رؤية متكاملة وحية . تبدأ هذه الرؤية بتعريف (أو إعادة تعريف) علم الجغرافيا ذاته (وهذا أمر يغيب عن الكثيرين، أن البحث

المبدع الأصيل فى مجال العلوم الإنسانية يعيد صياغة حدود العلم ذاتها) . فالجغرافيا "هى علم تباين الأرض (أى التعرف على الاختلافات الرئيسية بين أجزاء الأرض المختلفة)". هى ولا شك «علم» ولذا فهى تتعامل مع الكم والعام . يقف معظم باحثينا عند هذه التضاريس أو الحدود المادية الصارمة ، ولكن جمال حمدان المبدع الجسور يتقدم ويغامر ليتعامل مع الكيف والخاص فيؤكد أن قمة علم الجغرافيا هو التعرف على «شخصية الأقاليم» . يقول ذلك وهو يعرف تماماً أنه قد ولج عالماً جديداً مختلفاً، «فالشخصية الإقليمية» شيء أكبر من مجرد المحصلة الرياضية لخصائص وتوزيعات الإقليم، إنها تتساءل أساساً عما يعطى منطقة تفردها وتميزها بين سائر المناطق، وتريد أن تنفذ إلى «روح المكان» لتستشف "عبقريته الذاتية التى تحدد شخصيته الكامنة" .

عالم الكم هو عالم الأشباح التى لا بدن لها ولا قوام ولا روح . ولإنها لا بدن لها نجدها تهوم فى الأماكن ولا يمكن الإمساك بها . وهى أيضاً لا روح لها، فالروح هى مصدر فردية المرء وتميزه عن غيره من بنى الإنسان . هذا لا يعنى أن الجسد ليس له تميزه، فشكل الجسد وبنيته يختلفان من فرد إلى فرد ومن مجموعة بشرية إلى أخرى . ولكن تميز الجسد ليس بنفس درجة تميز الروح، فالجسد فى نهاية الأمر والتحليل والمطاف كم مادى ينتمى لعالم المادة، وقوانين الحركة . بل إن تميزه الحقيقى يأتى من وجود الروح فيه ، التى تصوغ الجسد داخل خطاب حضارى متميز (من ملبس ومأكل وزينة) تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر، فهى تخرج بالجسد من عالم الطبيعة وقوانينها العامة وتدخل به عالم

الحضارة الإنسـانية بثرائها وخصوصيتها .

ولأن الجغرافيا كعلم تتجاوز عالم المادة والحواس المباشرة وليست سجينة الكم، فهي لا تقبع قط في الآن وهنا وحسب، وإنما تتجاوزهما، "فهي تترامى بعيداً عبر الماضي وخلال التاريخ . لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن أن نتعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر للشخصية الإقليمية" (**شخصية مصر** ، ص ٣) .

ولنلاحظ ما يفعله جمال حمدان : فهو يرفض أحادية البُعد ويتبني ثنائية أساسية تشكل جوهر رؤيته . وكما يقول : "حق لنا أن نبقى تفاصيل التفاصيل ... ولكن أحق علينا كذلك ألا نغرق فيها أو نتوه، وإنما علينا أن نتجاوزها، نقفز منها وفوقها إلى أعلى الكليات وأعم العموميات... وإلى جانب النظرة التحليلية الميكروسكوبية والجغرافية المجهرية، لاغنى عن النظرة التركيبية التليسكوبية والجغرافية والماكروسكوبية الواسعة الأفق" (**ثلاثية حمدان** ، ص٢٩) . ولكن الثنائية التي يدعو لها ليست ازدواجية وإنما ثنائية تكاملية : كم يتكامل مع كيف - جغرافيا تتكامل مع تاريخ - مكان يتكامل مع زمان - جسد يتكامل مع روح - جزء يتكامل مع كل - خاص يتكامل مع عام . والتكامل هنا لا يعني ذوبان واندماج الواحد بالآخر (فهذا يؤدى إلى الواحدية) وإنما يعني تقاطع وتفاعل يؤدى إلى تفرد وتجاوز لعالم الكم المادى . وإذا أخذنا العنصر الثاني في الثنائيات فسنكتشف أنه لا ينتمي لعالم المادة المصمتة وإنما ينتمي إلى عالم الإنسان (كيف - تاريخ

- زمان - روح) . وكما يقول جمال حمدان : "البيئة قد تكون فى بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان . وربما تكون الجغرافيا صماء ، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها . ولقد قيل بحق أن التاريخ ظل الإنسان على الأرض، بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان" (**شخصية مصر** ، ص ٤) .

بيئة خرساء وجغرافيا صماء . هذا هو عالم الواحدية المادية (والدراسات الموضوعية المعلوماتية التراكمية المتلقية) فى مقابل إنسان ينطق وتاريخ يتحدث بلسان فصيح (مثل كتابات جمال حمدان)، والتاريخ هو محاولة الإنسان تجاوز عالم المادة ولذا فهو يلقى بظله عليها - على الأرض. ولكن مادية العالم وموضوعيته لا يمكن للإنسان أن يبتلعهما، ولذا فالأرض تلقى هى الأخرى بظلالها على الزمان الإنسانى .

المحصلات الرياضية

هذه الثنائية الأساسية هى التى جعلت جمال حمدان يرفض هذا المفهوم المعرفى الذى يشكل الأساس الفلسفى للنموذج المعلوماتى التراكمى والذى قوض دعائم الإبداع الإنسانى وإمكانية الاجتهاد وأحل محله فكر مادى حتمى ممل يقضى على الإنسان - يلقى بظلاله الكثيفة الكئيبة عليه حتى يخفيه تماماً، أعنى فكرة وحدة العلوم التى أصبحت من المنطلقات المعرفية الأساسية للبحث العلمى فى مصر والعالم . وجوهر هذه الفكرة هو أنه يجب عدم التمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، فالاختلاف بين الإنسان والأشياء ليس اختلافاً فى الجوهر

والنوع والكيف، وإنما هو اختلاف فى التفاصيل والدرجة والكم، ولذا فإن ما يسرى على الأشياء (والظواهر الطبيعية) يسرى فى أساسياته على الإنسان، ولذا فلابد أن يكون هناك منهج واحد لدراسة الإنسان والأشياء ولسلوك الإنسان والنمل . قد لا يقول دعاة هذا المنهج ذلك صراحةً (فمن منا يمكن أن ينكر إنسانيته ببساطة وبشكل صريح وواضح؟) ولكن مثل هذا الموقف متضمن في منطلقاتهم المعرفية . يرفض جمال حمدان هذا المنطق المادى المصمت المعادى للإنسان : "فالجغرافيا الكاملة الكامنة لا تتحقق فى شيء كما تتحقق فى دراسة الشخصية الإقليمية ... والشخصية الإقليمية ليست تقرير حقيقة علمية مطلقة يمكن أن تخضع تماماً للقياس الرياضى والإحصاء، وذلك على الرغم من أنها تعتمد أساساً ... على مادة علمية موضوعية بحتة . إنها عمل فنى بقدر ما هى عمل علمى" . وهو لا يجد فى هذه الثنائية أى تعارض، فالجغرافيا "فلسفة المكان ... فلسفة عملية واقعية ... ترتفع برأسها فوق التاريخ ... وتظل أقدامها راسخة فى الأرض" . وفى عبارة رائعة تعكس هذه الثنائية وتفرض عليها قدراً من التكاملية – وهو سيد مثل هذه العبارات – يقول حمدان : "فلسفة تحلق بقدر ما تحدق" . الجغرافيا فى نهاية الأمر "علم وفن وفلسفة فى ذات الوقت : علم بمادتها، فن بمعالجتها، فلسفة بنظراتها" . كل هذا يعني رفض النموذج المعلوماتى التراكمى (الواحدى المادى)، "فهذا المنهج المثلث يعنى ببساطة أنه ينقلنا بالجغرافيا من مرحلة المعرفة إلى مرحلة التفكير، من جغرافيا الحقائق المرصوصة إلى جغرافيا الأفكار الرصينة" (**شخصية مصر** ، ص ٦) وما بين الرص

التراكمى والرصانة الإنسانية ثمة فرق شاسع .

ولعل هذا هو السبب الحقيقى لتركه الجامعة، فالنزوع نحو الرص كان قد بدأ فى التصاعد (حتى وصل مؤخراً إلى أبعاد لا يمكن تخيلها) . لعله أحس بالكارثة المحدقة وبالتشيئ المطبق، وبأن عالم الكم والأشباح يزداد اقتراباً واتساعاً فقرر أن يحمى علمه وابداعه، لأنه عالم لا فلسفة فيه ولا فن ولا إبداع - وإنما محصلات رياضية صماء خرساء لا تقول شيئاً ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ثمة نقطة أساسية هنا تحتاج لمزيد من التأكيد وهى أن فكرة وحدة العلوم بنزعتها المادية المتطرفة (كل الأمور مادية طبيعية خاضعة للقانون الطبيعى الحتمى الصارم) لا تقوم بالمساواة بين كل الظواهر وحسب وإنما تقوم فى نهاية الأمر وفى التحليل الأخير بتسويتها وردها إلى عنصر مادى واحد . فتختفى الثنائيات والخصوصيات ويختفى عدم التجانس وتظهر المحصلات الرياضية التى تشبه الهامبورجر أو النظام العالمى الجديد بنزوعه نحو العولمة والكوكبة والكوكلة «نسبة الى الكوكا كولا» وتحويل العالم إلى سوبر ماركت ضخم، كل الناس فيه سواسية كأسنان المشط البلاستيك المستورد أو المصنوع محلياً . جمال حمدان لا يطيق هذا، فعالمه عالم إنسانى ثرى جميل مورق ينبض بالحياة ويتسم بعدم التجانس والخصوصية والتفرد .

وينعكس كل هذا فى مفهومه للوحدة، فهو يرفض الوحدة العضوى المصمتة التى تدور فى إطار الرؤى المادية وتشيئ الظواهر، وتجعلها كلاً

متجانساً أملس . بل إنه يؤكد البُعد الإنساني في مبدأ الوحدة ذاته : "إن الوحدة السياسية لا تأتي بالضرورة من الوحدة الطبيعية، وإنما من الوحدة البشرية تأتي . فالعبرة في قيام دولة موحدة دستورياً هي وحدة الناس، أي وحدة القومية بمعنى تجانسهم في المقومات الأساسية من لغة مشتركة وتاريخ ملتحم ومصلحة مترابطة وعقيدة سائدة ... ثم إن الوحدة السياسية وحدة وظيفية، والوحدة الوظيفية في أي مجال لا تأتي من الوحدة التركيبية بل من التنوع التركيبي، فأي جدوى من أن تتحد أقطار متشابهة منمطة في إنتاجها ومواردها وإمكانياتها إلا أن يكون مجرد تمدد أميبي عقيم؟ وهذا بالدقة ما يُعرف بمبدأ «التنوع في الوحدة» أو «الوحدة في التنوع»" (**شخصية مصر**، ص ١٣) .

سيدة الحلول الوسطي

هذا المنهج يتبدّى تماماً في رؤيته لمصر، فهي نتيجة تفاعل بين بعدين أساسيين (ائتلافاً واختلافاً) : الموضع والموقع، وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية، هي فلتة ولكنها ليست وثناً، ولم يكن هو عاشق وثني لمصر (كما يحلو للبعض تصويره) يتعبد في محراب مصر، ولذا فهو يرفض السقوط في ميتافيزيقا المكان المصري (أو أي مكان آخر) فيقول : "كثير من هذه السمات تشترك فيها مصر مع هذه البلاد أو تلك، ولكن مجموعة الملامح ككل تجعل منها مخلوقاً فريداً فذاً حقيقةً" (**شخصية مصر** ، ص ٨) .

جمال حمدان كان محباً لمصر، والحب «أسرار» كما يعرف كل

من عرف الحب الحق، وأن تبوح به هو فى حكم المحال، وإن اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ! ولذا أن تحاول أن تفهم السر وأن تفصح عنه فى ذات الوقت هو شكل من أشكال الثنائية . ولكن العالِم - الفنان - الفيلسوف - الذى يستند عالمه إلى ثنائية تكاملية يعرف ذلك تماماً، ولذا فهو يحاول أن يفهم السر وهو يعلم مسبقاً أنه لن يكشفه، ولن يسويه، وهو يحاول أن يبوح ولكنه يعلم أن البوح والإفصاح لن يجففا بحر الحب وعيون المحبة ! ولذا فالعلم الذى سيؤسسه ليس علماً رصديًا ترشيحيًا برانيًا - نقتل الفراشة ثم ندرسها ونفسرها . أو كما يقول : "إن الدراسة الإقليمية التحليلية .. تثرى معرفتنا بالمعلومات، غير أنها قل أن تتقبض على روح المكان أو تجسد العبقرية بإحكام، إنها تُشرِّح الإقليم .. إلا أنها فى غمار ذلك تضحى بروح الإقليم" (**ثلاثية حمدان** ، ص ٢٩) تزهقه تماماً . وما يريد أن يؤسسه جمال حمدان هو علِم مبنى على الحب، علِم يحلق ويحدق، "يتحرك من التخصيص إلى التعميم .. من الجزء إلى الكل" (**ثلاثية حمدان** ، ص ٢٩)؛ يدرك السطح البرانى بتفاصيله والعمق الجوانى بأبعاده؛ يعرف الوحدة ولا ينكر عدم التجانس. "ولذا لا ينبغى لنا أن نبالغ فندعى تجانساً مطلقاً، يكفى أن نقول تجانساً نسبياً" . "وهذا التجانس ليس النقاوة الجنسية" (التى يدعيها العنصريون البيولوجيون الماديون لأنفسهم)، فمن الواضح "أن دماء كثيرة دخيلة وغريبة قد أضيفت إلى عروق مصر وصبت فى شرايينها ... وليس من الدقة العلمية فى شىء أن نصور مصر بوعاء جامد يتشكل كل من دخله بشكله، فليس هناك أطر

ثابتة إلى هذا الحد كأنها أقفاص حديدية" (**شخصية مصر** ، ص ٣٢) .

كاتبنا ينفر بشكل واضح من النماذج الاختزالية المغلقة والتجانس الواحدى المطلق، عالم الأشباح إياه . ومصر التى يحبها ليست شيئاً مادياً، جغرافيا محضا، وإنما هى رقعة يلتقى فيها الزمان بالمكان. هى مجموعة من الثنائيات التى لا تذوب ولا تُختزل فى كل واحدى مصمت - "هى بطريقة ما تكاد تنتمى إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماماً، فهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا، ولكنها تمت أيضاً إلى آسيا بالتاريخ ... وهى بجسمها النحيل تبدو مخلوقاً أقل من قوى، ولكنها برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأساً أكثر من ضخم ... وإذا كان لهذا كله مغزى، فهو ليس أنها تجمع بين الأضداد والمتناقضات، وإنما أنها تجمع بين أطراف متعددة غنية وجوانب كثيرة خصبة وثرية، بين أبعاد وآفاق واسعة، بصورة تؤكد فيها «ملكة الحد الأوسط» وتجعلها «سيدة الحلول الوسطى»، تجعلها أمةً وسطاً بكل معنى الكلمة، بكل معنى الوسْط الذهبى، ولكن ليس أمةً نصفاً» ! (**شخصية مصر** ، ص ٨ -٩) .

الدائرة العربية والدائرة الإسلامية

وسيدة الحلول الوسطى هذه "فرعونية بالجد ... عربية بالأب" (**شخصية مصر** ، ص ٨) . ولكنها ثنائية تكاملية، وليست ازدواجية "فالأب والجد من أصل وجد أعلى واحد مشترك. "غير أن العرب هنا وقد غيَّروا ثقافة مصر، هم «الأب الاجتماعى» فى الدرجة الأولى، وليسوا

«الأب البيولوجى» إلا فى الدرجة الثانية" (**شخصية مصر** ، ص ٢١٣). فالتعريب والإسلام ... "هما أعظم حقيقة فى تاريخ مصر الثقافى والروحى ويمثلان انقطاعا حضاريا، ونقطة تحول حاسمة وخط تقسيم فى وجودنا اللامادى" (**شخصية مصر** ، ص ٢٠٨). وبالنسبة لجمال حمدان يُعد هذا الوجود اللامادى هو العنصر الأهم فى ثنائيته التكاملية . «فبعد التعريب ...أصبحت [مصر] جزءاً لا يتجزأ من العالم العربى وعاشت غالباً إقليماً أو رأساً فى رؤيته السياسية وفى ظل وحدته القومية" (**شخصية مصر** ، ص ٢٠٨) .

والاستعارات أو الصور المجازية التى يستخدمها جمال حمدان تشى بولائه العربى على حساب جذوره «المصرية» . فنحن نحب الجد ونتذكره، أما الأب فنحن ننتمى إليه، ونسير معه خاصةً وإذا كان الأب العربى هو "آخر انقطاع فى الاستمرارية المصرية"، خاصةً أن الجد قد ابتعد كثيراً، فمصر الفرعونية (كما يبيِّن جمال حمدان) "لم تعد إلا مكدسة فى المتحف أو معلقة كالحفريات على سفوح الهضبتين، أما فى الوادى فقد انقرضت كما انقرضت من قبل تماسيح النيل من النهر . ولهذا فنحن ننتهى إلى أن الحضارة الفرعونية قد ماتت فى مجموعها، دون أن ينفى ذلك الاستمرارية المحورية فى حضارتنا المادية" (**شخصية مصر** ، ص ٢٠٧) . ولذا يُحذر جمال حمدان دعاة "الفرعونية (وغيرها من دعاوى الرجعية التاريخية والوطنيات الضيقة كالفينيقية والآشورية) فالمقصود من هذه الدعوات نفى القومية العربية ونسخ العروبة ومضاربة القومية الشاملة بالوطنية المغلقة" (**شخصية مصر** ، ص ٢١٤) . كما

يُحذر من دعاة الاستمرارية في الكيان المصرى "لا ليبرز أصالة ما، ولكن ليقلل من جانب الانقطاع، وبالتالى ليضخم فى البُعد الفرعونى فى تاريخنا فيبعدنا عن عروبتنا ويطمس معالمها" (**شخصية مصر**، ص٢٠٨ - ٢٠٩) .

ومصر التى فى خاطره وفى فمه، وسيدة الحلول الوسطى، تقع فى وسط ثلاث (أو أربع) دوائر مختلفة "بحيث صارت مجمعاً لعوالم شتى، فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى" (**شخصية مصر** ، ص ٩) . وهو فى كتابات أخرى يشير إلى أفريقيا وآسيا باعتبارهما الدائرة الثالثة . ثم هناك الدائرة الرابعة الأعظم والمحيط الأكبر : بقية العالم .

ولنبدأ بالدائرة الأولى أى الدائرة العربية . "الإطار العربى [حسب تصور حمدان] ليس مجرد بُعد توجيهى أو إشعاعى ولكنه خامة الجسم وكيان جوهر فى ذاته" (**شخصية مصر** ، ص ١٧٨) . ومع هذا لا يرى حمدان أن الوحدة العربية وحدة عضوية مصمتة : "فليس مما يضير قضية الوحدة العربية أو يخرب حركة القومية العربية أن يكون لكل قطر من أقطارها شخصيته الطبيعية المتبلورة بدرجة أو بأخرى داخل الإطار العام المشترك . وهذا التنوع والتباين فى البيئات إنما يثرى الشخصية العربية العامة ويجعلها متعددة الجوانب والأبعاد" . وهو "لا يعنى التمزيق السياسى أو تأكيد الانفصالية الراهنة بحال ولا يشجع الولاءات الوطنية فى وجه الولاء القومى العربى الكبير أو على حسابه" (**شخصية مصر**، ص ١٣،١٤) .

ولنتوقف هنا قليلاً لأشير إلى حقيقة غائبة عن الكثيرين : جمال حمدان بلا منازع هو واحد من أهم فلاسفة ثورة ٢٣ يوليه فقد بلور رؤيتها للذات وللكون وللآخر، ووضّح الأسس الفلسفية لمشروعها الحضارى الثورى، ونظّر للصراع العربى الإسرائيلى باعتباره صراعاً سياسيًا مصيريًا حضارياً له أبعاد دينية، فابتعد به عن العنصرية . ولكن يبدو أن بيروقراطية ثورة ٢٣ يوليه لم تكن مدركة لأهمية اللحظة التاريخية ولا لمدى ثراء الإمكانات، لأنها كانت ثورة برجماتية عملية تؤمن بالحقائق والمعلومات والحلول الجاهزة، فضاع ما ضاع، وجلس فيلسوفنا الحزين يُنظِّر لها، بينما كانت أمانة الدعوة والفكر «الاشتراكى» تمتلئ بموظفين قادرين على إصدار أى بيان يُطلب منهم لخدمة مصلحة الدولة والنظام (أى نظام كما بيَّنت الأيام) وبذلك وُضع الفكر فى خدمة اللحظة ولم توضع اللحظة فى إطار الفكر .

ولا تختلف الوحدة الإسلامية من منظور حمدان كثيراً عن الوحدة العربية، فهو يرفض المفهوم العضوى الكاسح للوحدة الإسلامية التى يجعلها تدخل فى صراع مع الوحدة العربية "بهدف المضاربة بينهما من جهة وتذويب القومية العربية وتمييعها من جهة ثانية" . بدلاً من هذا يطرح مفهوماً «صحيًا وصحيحاً» للوحدة الإسلامية . "توحيد الدين، بمعنى توحيد عقيدة الإسلام لا المسلمين، لتذويب الفروق والفرق الحفرية التى ورثها عن ماضٍ فقد الآن سياقه الزمنى ؛ وتعميق روح الإسلام وتقويمها حيث سطحية أو ابتعادات أو تحريفات ؛ التبادل الثقافى والفكرى العام والمزيد من التنسيق الاقتصادى والترابط والتبادل التجارى؛ التضامن

السياسى الوثيق فى المجتمع الدولى لمجابهة الأخطار الخارجية والتعاون لتحرير الدول الإسلامية المستعمرة .. تلك جميعاً هي المجالات الخصبة والفعالة والواجبة لتفاعل العالم الإسلامي سياسياً ... إنها فى كلمة «وحدة عمل» لا «وحدة كيان» . بل يمكن أن نضيف : وحدة مصير، إلا أنها ليست دستورية، فى كلمة أخرى : وحدة فكرية لا دستورية . أو هى كما قال عبد الناصر فى دوائره الثلاث "دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ..." . فإذا كانت الدائرة العربية وحدة مصير، والأفريقية وحدة جوار، فالإسلامية وحدة عقيدة" (**العالم الإسلامي المعاصر ، ص ٢٠٦**) .

فلسطين : عين القلب وقدس الأقداس

بعد هذه المقدمات التاريخية/ الجغرافية، الزمانية/ المكانية، هذه البانوراما العريضة حان الوقت أن نقترب من موضوعنا وأن نسأل : أين تقع إسرائيل من كل هذا؟ وأين يقع اليهود؟ . يعبِّر جمال حمدان عن الموقف الجيوستراتيجى المصرى كله فى إيجاز من خلال سلسلة من المعادلات الإستراتيجية على النحو التالى :

"- من يسيطر على فلسطين .. يهدد خط دفاع سيناء الأول .
- من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط .. يتحكم فى سيناء .
- من يسيطر على سيناء .. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير
- من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير .. يهدد الوادى ."

وهذه بالضبط «نواة نظرية الأمن المصرى» (**ثلاثية حمدان** ، ص ٢٢٨) . إن موقع مصر "مهدد أبداً وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل"، خاصةً وأنها "تريد أن ترث دور القناة نهائيًا، بل وتهدف إلى سرقة موقع مصر الجغرافى"، ومن ثم "يصبح المبدأ الإستراتيجى الأول فى نظرية الأمن المصرى هو مرة أخرى : دافع عن سيناء – تدافع عن القناة .. تدافع عن مصر جميعاً، ولا ضمان بالتالى إلا بذهاب العدو" (**ثلاثية حمدان** ، ٢٢٨) .

ثم ننتقل إلى الدائرة الأولى حيث نجد مصر "محكوماً عليها بالعروبة" (بعد أن دخل الجد الفرعونى المتحف)، فهى «لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها، أن تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت" (**ثلاثية حمدان** ، ص ٢٤) . بل إنها محكوم عليها بزعامة العالم العربى الذى تقع فلسطين فى منتصفه، ولكن "بدلاً من فلسطين التى توحد شطريه [والتى تمثل] نقطة عبور بينهما، تظهر إسرائيل التى تمثل فاصلاً أرضياً يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها" فهى "إسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفاً مزمناً فى مواردها وأداة جاهزة لضرب حركة التحرير" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ١٧٥).

ثم ننتقل إلى الدائرة الثانية، أى الدائرة الاسلامية. سنكتشف "إن فلسطين عين القلب من العالم الإسلامى، لا جغرافيا فحسب، بل ودينيًا أولاً وقبل كل شىء . إن يكن العالم العربى هو قلب العالم الإسلامى روحيًا وموقعاً، فإن فلسطين – كمصر فى هذا الصدد – هى

أرض الزاوية من العالم الإسلامى طبيعياً . وبالفعل فإنها تقع فى صرة العالم الإسلامى تتوسطه – ما بين الصين شرقاً والأطلسى غرباً وما بين وسط آسيا شمالاً وجنوب أفريقيا جنوباً . إن مكانة فلسطين فى العالم الإسلامى تتلخص ببساطة وبما فيه الكفاية فى أنها من منطقة النواة وقدس الأقداس فيه أرضاً وديناً" (**العالم الإسلامى المعاصر**، ص ٢٠٨) .

ثم تلتحم الدائرتان العربية والإسلامية "فالخطر الصهيونى لا يستهدف الأرض المقدسة فى فلسطين فحسب"، وإنما "يمتد من النيل إلى الفرات شرقاً بغرب، ومن الإسكندرونة حتى المدينة شمالاً بجنوب . وهذا وذاك يعنى نصف المشرق العربى بالتقريب، ويضم كل أرض الإسلام المقدسة بل وكل دائرة الرسالات، ويرادف قلب العالم العربى، وفى الوقت نفسه صرة العالم الإسلامى" (**العالم الإسلامى المعاصر** ، ص ٢١٥) . ولذا "إن كان ثمة للعالم الإسلامى من وحدة سياسية، فهى وحدة العمل السياسى ، وهو العمل من أجل إنقاذ واستنقاذ فلسطين للعروبة والإسلام . وإذا كان من واجب العالم العربى أن يدعو إلى «قومية المعركة»، فإن من واجب العالم الإسلامى كما يرى كثيرون أن يتنادى إلى «إسلامية المعركة» (**العالم الإسلامى المعاصر** ، ص ٢١٦ – ٢١٧) .

وتتسع الدوائر لتصل إلى الدائرة الأفريقية الآسيوية وهناك أيضاً سنجد إسرائيل "أخطر مناطق العدوانية الإمبريالية فى العالم الثالث ... أخطر مناطق التسليح الغربى ... ترسانة أمريكية مسلحة حتى

الأسنان" . ويضع جمال حمدان ما يسميه "معادلة عالمية تتألف من عدة متتاليات إقليمية تختزل أساسيات الصراع المستقبل :

- مصير الإمبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث .
- مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربى .
- مصير العالم العربى يتوقف على مصير فلسطين/ إسرائيل."

رأس جسر ثابت

إسرائيل إذن ذات أهمية خاصة بالنسبة لجمال حمدان وهى ليست مهمة فى ذاتها، إذ تنبع أهميتها من أهمية فلسطين بالنسبة لمصر والعالم العربى والعالم الإسلامى والعالم الآسيوى/ الأفريقى والتشكيل الاستعمارى الغربى . وحينما يتناول جمال حمدان ظاهرة إسرائيل فإنه يراها باعتبارها ظاهرة غربية بالدرجة الأولى، ثم ظاهرة يهودية بالدرجة الثانية . يصف جمال حمدان إسرائيل بأنها ظاهرة استعمارية صرفة (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١١٩) . أما الصهيونية فهى بكل بساطة السرقة (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ٢٠٩) هى قطعة من الاستعمار الغربى (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٩١) ولكنها قطعة تتمتع بأهمية خاصة "فهى بالنسبة إليه قاعدة متكاملة آمنة عسكرياً، ورأس جسر ثابت إستراتيجياً، ووكيل عام اقتصادياً وعميل خاص احتكارياً" (**إستراتيجية الاستعمار

والتحرير ، ص ١٧٥) . ولذا فإن الصهيونية "اليوم هى بلا مبالغة أو مزايدة أكبر خطر وتحدٍ يواجهه العالم الإسلامى المعاصر، تماماً كما يواجهه العالم العربي : أكبر من صليبيات العصور الوسطى، وأكبر من كل موجة الاستعمار الأوربى الحديث التي غطته فى القرن التاسع عشر والذى لم يتعد على اتساعه حدود الأغراض السياسية أو الإستراتيجية أو الاستغلالية . إن الاستعمار التوسعى الأخطبوطى الصهيونى إن يكن سرطان العالم العربى، فهو جذام العالم الإسلامى فى الوقت نفسه" (**العالم الإسلامى المعاصر** ، ص ٢١٥) .

هذه هى بعض الجوانب العامة لهذه الظاهرة الاستعمارية . ولكن جمال حمدان لا يقنع مطلقاً بالعام ولذا فهو يتقدم خطوة للأمام ليدرس خصوصية إسرائيل :

١ - **الاستعمار الصهيونى «استعمار عميل»** ، «فلقد كان من المستحيل أن يتحقق الحلم إلا بالمساعدة الكاملة من قوى السيادة العالمية، فالاستعمار هو الذى خلقها بالسياسة والحرب، وهو الذى يمدها بكل وسائل الحياة من أسلحة وأموال، وهو الذى يضمن بقاءها ويحميها علناً" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير**، ص ١٧٦) . «ومن هنا التقت الإمبريالية العالمية مع الصهيونية لقاءً تاريخياً على طريق واحد هو طريق المصلحة الاستعمارية المتبادلة : فيكون الوطن اليهودى قاعدة تابعة وحليفاً مضموناً أبداً يخدم مصالح الاستعمار، وذلك ثمناً لخلقه إياه وضمانه لبقائه»

(**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٦٨).

٢ - **إسرائيل استعمار سكني في الدرجة الأولى** ، فلئن كانت بداياتها قد واكبت موجة الاستعمار المداري في القرن التاسع عشر، إلا أنها استهدفت وحققت كل مقومات استعمار المعتدلات الذي ساد في القرنين السابع عشر والثامن عشر وسعى إلى التوطن الدائم في بيئات معتدلة شبه أوربية المناخ . ولعل استعمار الجزائر كان أقرب سابقة لها تاريخيًا، ولكنها تظل تمثل آخر موجة من الاستعمار السكني الاستيطاني في العالم كله (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٢) .

هذه هي الصورة العامة ولكن جمال حمدان يرى أن ثمة خصوصية لهذا الاستعمار السكني :

أ) "إذا صح أن نميِّز في الاستعمار السكني للمعتدلات بين النمط اللاتيني الذي يضيف المستعمرين إلى الأهالي الأصليين بلا إبادة عامة كما في أمريكا اللاتينية أو الجزائر، وبين النمط السكسوني الذي يقوم على إحلال المستعمرين محل الأهالي الوطنيين بالإبادة أو الطرد كما في أستراليا وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، فإن إسرائيل تقع بالتأكيد في النمط السكسوني" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٢) .

ب) "تتميَّز إسرائيل بما يجعلها حالة فريدة شاذة لا مثيل لها بين

كل نماذج الاستعمار السكنى، فهى تجمع بين أسوأ ما فى هذه النماذج، ثم تضيف إليه الأسوأ منه . هى كأستراليا والولايات المتحدة انتظمت قدراً محققاً من إبادة الجنس، وهى كجنوب أفريقيا تعرف قدراً محققاً من العزل الجنسى، ولكنها تختلف عن الجميع من حيث أنها طردت السكان الأصليين خارجها تماماً ليتحولوا إلى لاجئين مقتلعين معلقين على حدودها" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٢ - ١٧٣) .

جـ) كما أن إسرائيل ليست عملية سرقة عادية "فقد اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات، فالاستعمار الاستيطانى [الإسرائيلى] عملية رهيبة من نزع الملكية على مقياس شعب ووطن بأسره" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٤) . و"إسرائيل بهذا كله أعلى - أم نقول أدنى؟ مراحل الاستعمار السكنى، وهى الاستيطان بالاستئصال والإحلال .والإجتثاث والإبادة" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٣) .

٤ - إسرائيل استعمار توسعى أساساً ، «وأطماعها الإقليمية معلنة بلا مواربة، وخريطة إسرائيل الكبرى محددة من قبل ومتداولة، ومن «النيل إلى الفرات أرضك يا إسرائيل Erets Israel» هو شعار الإمبراطورية الصهيونية الموعودة . وهدف

إسرائيل الكبرى أن تستوعب كل يهود العالم فى نهاية المطاف، ومثله لا يمكن أن يتم إلا بتفريغ المنطقة من أصحابها إما بالطرد وإما بالإبادة . وبطبيعة الحال، فلا سبيل إلى هذا إلا بالحروب العدوانية الشاملة . ونحن بهذا إزاء أخطبوط سرطاني في آنٍ واحد، إزاء عدوان آني واقع وعدوان سيقع في أي آن" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٤) .

٥ - أدَّى كل هذا إلى **عسكرة المجتمع الإسرائيلي تماماً** ، "فقد تعيَّن في حالة إسرائيل ، أن تصبح حدودها هي جيوشها، وجيوشها هي حدودها" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٤) . «كما أن وجودها غير الشرعي رهن من البداية إلى النهاية بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة، فما قامت ولن تبقى - وهذا تدركه جيداً - إلا بالدم والحديد والنار . ولهذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها و. اتها، و«أمن إسرائيل» هو مشكلتها المحورية، أما حلها فقد تحدد في أن أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها، وهو ما يعبَّر عنه بـ «عسكرة» إسرائيل وأنها استعمار اقتصادي، فهذا أساسي في كيانها منذ أن اغتصبت الأرض وما عليها من ممتلكات" (**إستراتيجية الاستعمار والتحرير** ، ص ١٧٣).

متحف الأجناس

إسرائيل - كما أسلفنا - استعمار سكاني مبني على نقل السكان

(اليهود) من الخارج إلى فلسطين، ولذا يصبح هؤلاء اليهود إشكالية أساسية، ومن هنا **اليهود أنثروبولوجيًا** . وجمال حمدان - كما أسلفنا - يرفض وحدة العلوم، «لذا فعلوم الإنسان مختلفة عن علوم الحيوان والحشرات والأشياء»، ولذا فهو لا يشيئ ما هو إنساني، أى لا يراه باعتباره شيئاً، أى لا يخضعه لمنطق الأشياء وقوانينها . كما أنه لم يشيئ مصر أو العالم العربى والإسلامى، ولم يشيئ الجغرافيا فى علم طبيعى، ولم يشيئ إسرائيل (ليجعلها إما قاعدة عامة للاستعمار الغربى، أو تعبير فريد عن مؤامرة يهودية شيطانية أزلية)، فهو أيضاً لا يشيئ اليهود .

لا يدرس جمال حمدان اليهود باعتبارهم رسل الحضارة النورانيين (الشعب المختار فى الرؤية الصهيونية) ولا هم شياطين ملاعين (قوة الشر الأزلية فى الرؤية المعادية لليهود) . فكلتا الرؤيتين تشيئان اليهود وتضعهما فى مجال خاص بهم، مقصور عليهم سُمّى «الدراسات اليهودية» وهى تسمية متحيزة لأقصى حد، تنطلق من رؤية اليهود باعتبارهم وحدة (كتلة عضوية من الملائكة أو الشياطين) . يرفض جمال حمدان هذا ويضع اليهود، كما يضع أى ظاهرة أخرى، فى النقطة التى يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع الجزء . فاليهود هم بالدرجة الأولى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية العامة، ومع هذا فثمة ملامح خاصة فريدة لهم : العودة اليهودية إلى فلسطين ليست عودة توراتية أو تلمودية أو دينية وإنما هى "عودة ... إلى فلسطين بالاغتصاب، هو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى، أى استعمار لا

شبهة فيه بالمعنى العلمي الصارم . تمثل جسماً غريباً دخيلاً مفروضاً على الوجود العربي، أبداً غير قابل للامتصاص ... فهم ليسوا عنصراً جنسيًا في أي معنى بل جماع ومتحف حي لكل أخلاط الأجناس في العالم كما يدرك أي أنثربولوجي" (ص١٧) . "إن يهود العالم اليوم مختلطون في جملتهم اختلاطاً بعُد بهم عن أي أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة" (ص ١٨١) .

هذه هي الصورة العامة، ولكن هناك دائماً الخاص، "وإذا كان ثمة تحفظ ما، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط" (ص ١٨١). وبعد أن يبيِّن هذه المراحل وتلك الدرجات يخلص إلى "أن اليهود اليوم إنما هم أقارب [illegible] والأمريكيين، بل هم في الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة، لحماً ودماً. وان اختلف الدين . ومن هنا فإن اليهود في أوربا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون في المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلاً وسلالة، لا يفرقهم عنهم سوى الدين (ص ١٨٣).

هذه هي النتيجة النهائية، ولكنه لا يصل إليها من خلال المرافعات القانونية والمنطقية الرنانة أو من خلال لي عنق الحقائق، أو من خلال أنصاف الحقائق (التي يسمونها «الأكاذيب الحقيقية»)، وإنما من خلال دراسة متعمقة لكل التفاصيل الممكنة . أنظر – على سبيل المثال – دراسته لشكل الرأس باعتباره أهم المؤشرات على النقاء، أو الخلط (ص ١٤٢ ــ ١٤٦) . يعرض حمدان للقضية من خلال بناء منطقي واضح

يختبره دائماً من خلال القرائن والشواهد المتعينة المختلفة . وهو فى دراسته لا يكف عن الإشارة للسياقات التاريخية المتعددة وتنوعها . ففى أقل من صفحة واحدة (ص ٦٠) يشير إلى تاريخ الصراع بين الدولتين العبرانيتين (٥٨ - ٦٠) وإلى يهود الجزيرة العربية (الذين يتناولهم فى عدة صفحات أخرى فيدرس تاريخهم [ص ٦٣] وتوزيعهم [ص ١٠٤] وأعدادهم [ص ١٠٥] وخروجهم من العالم العربى) .

والهدف من هذه السياقات التاريخية والأبعاد المركبة المتنوعة هو الخروج بالظاهرة اليهودية من سجن الدراسات اليهودية ليدخل بها فى سياق العلم العام . فاليهود جزء من تواريخ التشكيلات الحضارية التى يوجدون فيها ولا يوجد أى داع لعزلهم عما حولهم من ظواهر . فكما أن إسرائيل استعمار استيطانى إحلالى شأنه شأن أى استعمار استيطانى إحلالى يمكن دراسته داخل إطار حركيات تاريخ الاستعمار الغربى . فاليهود هم أيضاً بشر، يمكن دراستهم داخل إطار حركيات تواريخ المجتمعات المختلفة شأنهم شأن كل البشر. وهو بذلك يسترجع لهم إنسانيتهم التى استبعدها كل من الصهاينة والمعادين لليهود الذين صوروا اليهود، على سبيل المثال، على أنهم فى حالة شتات دائمة، يهيمون على وجههم من بلد لآخر يرفضون الاندماج فى مجتمعاتهم. لا يقبل جمال حمدان مثل هذه الأساطير الشائعة، ويبيِّن أن اليهود لم يقاوموا عمليات صبغهم بالصبغة الهيلينية كما تزعم التواريخ الصهيونية،

لا يمكن إنكار أن بعضهم قد قاوم بالفعل بل ونشأت الدولة المكابية للتصدى للنزعة الهيلينية، إلا أن الأغلبية الساحقة قبلت بهذه الحضارة الهيلينية "وانتشروا انتشاراً واسعاً بعيد المدى فى كل العالم الهيلينى البيزنطى" . هذا الانتشار لم يكن تعبيراً عن شتات أبدى وتجوال لا نهاية له، وإنما هو استجابة إنسانية عادية لأوضاع حضارية اجتماعية . ولذا نجد أن "فى مصر قُدر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود" (ص ٦٦)، هذا قبل سقوط الهيكل، أى أن سقوط الهيكل لم يكن هو سبب تشتت / انتشار اليهود وإنما هو نتيجة اندماج اليهود فى الحضارة الإغريقية، شأنهم شأن الشعوب الأخرى .

من المعلومات المتناثرة إلي الأنماط المتكررة

لا يرص جمال حمدان المعلومات والحقائق والوقائع رصاً، ولا يراكمها وكأنها قطع من الأحجار الصماء، فهو دائم البحث عن أنماط، ذات معنى ومغزى، كامنة فى التفاصيل . وهو لا يتناول مادته العلمية الخام بشكل مباشر وكأن عقله صفحة بيضاء ملساء، وإنما يواجهها من خلال إشكالية محددة، فبعد أن يأتى بحشد هائل من المعلومات عن أعداد اليهود فى العالم وتوزيعهم، يطرح السؤال التالى : "ماذا تعنى هذه الأرقام وتلك التوزيعات؟" . وما هى "ملامح الصورة العامة" . الإجابة هى أن "أوربا عملياً هى الوطن المطلق لليهودية العالمية، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا . وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطاراً وأحجاماً من الشرق إلى

الغرب : دائرة شرق أوربا ومركزها بولندا الروسية، ودائرة غرب أوربا ومركزها الراين وفرانكفورت، وأخيراً دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك " (ص ٩٤) .

هذا هو الإطار العام، ولكن داخل الإطار العام توجد أنماط أقل عمومية "فالصورة بعد الحرب العالمية الثانية غيرها قبلها، واليهود في الإطار الكوكبي هم ظاهرة قزمية" (ص ٩٦) . وانتشار اليهود في أنحاء العالم ليس انتشاراً كميًّا أو تمدداً أفقيًّا وإنما يتبع هو الآخر نمطاً محدداً، فهم ليسوا منتشرين على وجه العموم بل يُلاحَظ اتجاههم "نحو سواحل المحيط الأطلسي شرقية وغربية . فإذا ما أضفنا إلى ذلك نمط التوزيع في أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال أفريقيا تقليديًّا في المغرب، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط، بعد أن كانت حتى القرن الماضي تتركز أساساً في القلب القاري للعالم القديم" (ص ١٠٩) .

وينتقل حمدان من أنماط التوزيع في العالم على وجه العموم إلى أنماط التوزيع داخل كل قطر، فيبيِّن أن "اليهود بالدرجة الأولى سكان مدن، وسكان مدن كبرى بالدقة، ثم هم إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها . وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديماً كان أو حديثاً ولا تتبلور في وقتنا هذا . والأمثلة تغني عن الحصر، ولعل أوضحها في الذهن المثال الأمريكي" (ص ١٠٩) . وأرجو أن يتأمل القارئ بناء هذه المقطوعة «هم سكان مدن»

نعم ولكنها ليست أي مدن وإنما «مدن كبرى»، وهي ليست مدن كبرى وحسب وإنما «عواصم» . ثم يضع يدنا على النمط الذي يربط التعميم المجرد بالتفاصيل المتعينة و«يهود دولة ما» هم عادةً «يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها» . وهكذا يكتسب النمط ألوانه وتفاصيله، ثم تنتهي المقطوعة بالإشارة إلى تاريخ اليهود قديماً وحديثاً، وأخيراً إلى المثال الأمريكي المتعيِّن . يبيِّن حمدان أن اليهود يقيمون أساساً في نيويورك وشيكاغو وبضعة مدن أخرى . ويتناول نيويورك ذاتها بالدراسة التي يسميها (بروح الدعابة التي لا تفارقه، رغم نبرته الجادة) "تل أبيب الكبرى، بل إنها إسرائيل الكبرى" . ثم يعود إلى النمط مرة أخرى فيقول: "إن عدد اليهود في المدن يتناسب تناسباً طردياً مع أحجامها، فهم أقوى ما يكون في نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو، بينما لا وزن لهم مثلاً في بوسطن" (ص ١١٢) . ثم يتبنى نبرة القاص ويسأل : "هل تريد مزيداً من الأمثلة؟" وهو بالطبع لا ينتظر الإجابة فيعطي قارئه عشرات الأمثلة : تورنتو ومونتريال وباريس ولندن وتونس واستنبول وجوهانسبرج وسيدني، أي أنه يختبر بنفسه النمط العام الذي طرحه بالإشارة إلى كثير من القرائن والتفاصيل ليبيِّن مقدرته التفسيرية وليكتسب له الشرعية التي يستحقها .

ثم يصل حمدان إلى فلسطين، دائماً فلسطين، مركز اهتمامه وسر انشغاله باليهود : "حتى في فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٩ . ٧٥٪ من

سكان إسرائيل يتكدسون في المدن . والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية urbanism . ولكنها ببساطة «حثالة مدن» العالم انصبت واستقطبت في دولة" (ص ١١٣) . قد تتفق معه وقد تختلف، وقد تقبل ما يتوصل له من نتائج وقد ترفضه . قد ترى طريقة ربطه بين التفاصيل وتجريده للأنماط متعسفة قليلاً أو كثيراً، وقد تذهب إلى أن نبرته حادة قليلاً أو ربما أكثر من اللازم، قد تقول أن استخدام عبارة «حثالة مدن» انحراف عن المنهج العلمي المحايد أو البارد، قل ما شئت ولكن لا يمكن بعد ذلك أن تقر عيناك بالموضوعية المتلقية وعمليات رص الإحصائيات وتحليل المضمون ولا تملك إلا أن تفكر فيما يقول، فقد شحذ ذهنك وحفز عقلك وعلمك كيف تنفض عن نفسك غبار التلقي، وها أنت ذا تجد نفسك منشغلاً مثله بالتفسير والبحث عن أنماط لها معنى ودلالة داخل التفاصيل التي تبدو وكأن لا معنى لها ولادلالة، أي أنك الآن منشغل بالحقيقة لا بالحقائق والوقائع، وها أنت ذا تدرك أن الحقيقة لا توجد في الحقائق وإنما في الأنماط التي يستخلصها عقل الباحث، وأن عليه (إن كان حقاً محباً للحقيقة وليس عبداً للحقائق) أن يكد ويتعب ليصل إلى من يحب .

اليهودى كتاجر

أشرنا إلى رؤية حمدان لتوزيع اليهود في المكان، ولكن تظل الصورة في حاجة إلى مزيد من الظلال، حتى لا نقع في عالم الأشباح

العامة، حتى ننتقل من مجرد النيجاتيف أو أشعة إكس التي لا تنطق إلا بالقوانين العامة المادية (الخاضعة للقياس) إلى اللوحة المبدعة التي رسمتها يد إنسان ولذا فهي قادرة أن تنطق بالعام والخاص، وأن تحيط بالكم والكيف والزمان والمكان، وبما يقاس بدقة وبشكل مباشر وبما لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال إستراتيجيات إدراكية مختلفة بسبب تركيبيته . لإنجاز هذا يشير جمال حمدان إلى توزيع اليهود المهني والوظيفي ويُلاحظ ابتعادهم عن "الزراعة أولاً وعن الصناعة إلى حدٍّ بعيد" (ص ١٠٢)، كما يُلاحِظ أنهم يتركزون في "الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية ... إلخ" (ص ١٠٤) . ثم بعد أن يحدد الأطروحة بهذا الشكل العام ينطلق في الزمان والمكان ويبيِّن أنه "ليس بالعالم كله مجتمع يهودي زراعي واحد يستحق الذكر" . "وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة، فقديماً كانت كلمة اليهودي مرادفة لكلمة «التاجر»، وحديثاً يحتشد اليهود في الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد، على سبيل المثال، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين في ولاية نيويورك ... من اليهود" (ص ١١٥) .

بل إن مستوى التعميم يتجاوز اليهود ليصبح نمطاً عالميًا، "واليهودي بهذا كله قد أصبح مركباً اقتصاديًا – اجتماعيًا شديد الوضوح حتى ليُضرب به المثل وحتى اتُّخذ علماً ونموذجاً على حالات مشابهة : كذاك مثلاً يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين

«يهود جنوب شرق أسيا»، وكذاك يوصف الهنود في مدن ساحل أفريقيا الشرقية «يهود شرق أفريقيا» !" (ص ١١٦)، أي أنه يخرج بالنمط من عالم اليهود إلى عالم الإنسان ككل، وتصبح الظاهرة اليهودية جزء من العلم العام، علم اجتماع الأقليات التجارية الهامشية .

ولا ينسى جمال حمدان البُعد الديني . فرغم تأكيده أن الصراع العربي الإسرائيلي ليس صراعاً دينيًا (على الأقل من طرفنا) إلا أنه لا يسقط المكون الديني. فكما أن الدائرة إسلامية هي إحدي الدوائر الأساسية التي تقع مصر وفلسطين في وسطها فإن العقيدة اليهودية تشكل إحدي الدوائر الأساسية للصهيونية واسرائيل. ولذا فهو يتناولها بالدراسة ويصفها "بأنها وحدها من بين الأديان السماوية، هي التي تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية في أنها ديانة «مقفلة مغلقة» أي تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبداً" . واليهودية "قد تكون عالمية بحكم توزيعها، ولكنها في واقع الأمر أبعد شيء عن العالمية بحجمها القزمي الضئيل"، وبحكم أن اليهودية "ديانة جغرافية (مقصورة على وطن) وعنصرية (مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه)" (ص ٩٧) . وعلى الرغم من أن جمال حمدان لا يشير إلى ماكس فيبر هنا إلا أنه من الواضح أنه قد قرأ بعضاً من أعماله (ويشير له بالفعل في بعض دراساته الأخرى) مما يبيِّن مدى اتساع أفقه الثقافي والتفسيري .

ونفس الاهتمام بالدين كمقولة تحليلية يظهر في رؤيته للاندماج، فعلى عكس ما يقال عن النزعة الجيتوية عند اليهود فإن جمال حمدان يبيِّن أن "اليهود أكثر تعرضاً للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من

الأقليات الأمريكية" (ص ١٧٠) . ومع "تسارع واطراد العلمانية والانصهار لابد وأن يتناقص اليهود إلى أن يختفوا" . وعلى عكس ما يتصور البعض هنا في العالم العربي "لا يؤخر هذا الاختفاء إلا ضد السامية أكثر من أي عامل آخر" (ص ١٧١) . ومن هنا الصهيونية، ومن هنا "الدولة الجيتو" (ص ١٧٢) . وهذا التحليل يبيِّن التزام جمال حمدان بالتعددية السببية ورفضه أن يعطي أولوية سببية لعنصر واحد . فظهور الدولة الصهيونية هو ولاشك جزء من الهجمة الاستعمارية ضد المنطقة، ولكن هناك أيضاً عناصر خاصة بالجماعات اليهودية مقصورة عليهم ساعدت على تأسيس هذه الدولة . ولذا لابد وأن تُرصد هذه الدولة لا في إطار هذا العنصر أو ذاك وحسب، وإنما من خلال كل العناصر .

حجر أم رشاش متطاير؟

يتحرك جمال حمدان من العام إلى الخاص ومن الخاص إلى العام، ولذا فهو حريص على أن يبتعد أسلوبه عن الصيغ اللغوية الجاهزة ليبحث عن كلمات وعبارات محددة تعبِّر عن المنحنى الخاص لرؤيته . ولذا نجده يكد ويتعب ليعثر على الكلمات الدقيقة الدالة ("جغرافيا صماء") ويتلاعب بها لإبراز المعنى المطلوب ("الرص والرصانة") أو الجمل المتناقضة (عدوان آني واقع وعدوان سيقع في أي آن) . وهناك النبرة الخاصة في خطابه، فهو قادر على أن يتوقف عن السرد ليتوجه للقارئ مباشرةً . ويمكنه أن يتحدث بلهجة العلماء ثم يرصع هذا الكلام بعبارة جميلة في ذاتها، كما أنه مصري صميم في ولائه شبه الكامل للنكتة،

ولكنها نكتة تُوظَّف دائماً في خدمة الرؤية !

انظر على سبيل المثال هذه الفقرة من **شخصية مصر** "أما الانفتاح الذي يرادف الانتفاخ، فقد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة في أعلى السلم الاجتماعي" (**ثلاثية حمدان** ، ص ٢٢) . هذا التلاعب بالألفاظ، الذي هو في جوهره شكل من أشكال الدعابة، يعبِّر بدقة بالغة عن جانب من الواقع المصري . فالأسلوب الخاص هنا ليس زخرفة وإنما تعبير عن ثنائية حمدان التكاملية الخصبة .

وهناك أخيراً استخدامه للمجاز . واللغة المجازية ليست زخرفة كما يتصور البعض، فالمجاز هو وسيلة إدراكية وطريقة للتعبير عن إدراك مركب تعجز اللغة النثرية عن التعبير عنه . ولأن إدراك جمال حمدان للواقع مركب وفريد فإنه كثيراً ما يلجأ للمجاز . وهذا في حد ذاته تعبير أيضاً عن رفضه لفكرة وحدة العلوم . فاللغة الرياضية العامة المجردة التي تصلح للتعبير عن الظواهر الطبيعية لا تصلح للتعبير عن كل جوانب الظاهرة الإنسانية . ففي وصفه لتوزع اليهود في العالم يبيِّن أنه "ليس صحيحاً أن «تحت كل حجر في العالم يهودياً»"، ويأخذ استعارة الحجر ويقترح استعارة أخرى مشتقة منها ولكنها تقف بالنسبة لها على طرف النقيض : "الأصح أن نقول أن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطاير في معظمه يتحول أحياناً إلى تراب رمزي بحت" . وهكذا يتحول الحجر الصلب إلى «رشاش متطاير» ثم إلى «تراب» (ص ١٠٥) . وفي

مكان آخر يتحدث مرة أخرى عن توزيع اليهود فيقول "الصورة المجازية ليست نهر مجره مرصعة عالميًا بمستعمرات اليهود، ولكنها يمكن أن تكون منثوراً من النوى والنويات السديمية هناك وهناك" لقد استخدم هنا نفس الآلية تقريباً، فقد أخذ صورة "نهر المجره" ليحوله إلى "منثور من النوى والنويات السديمية" (ص ١٠٥)، بدلاً من النور الذي له مركز وقوام يظهر عالم بلا مركز .

أثر جمال حمدان

هناك قضية خاصة ولكنها عامة (غير ذاتية تماماً وغير موضوعية تماماً) في ذات الوقت (ثنائية حمدانية) وهي علاقتي ومدى تأثري به . قرأت هذا الكتاب حينما كنت أكتب **موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية** والتي صدرت عام ١٩٧٥. كنت أحس نحوه بالإعجاب الشديد سواء في أسلوب كتابته أم أسلوب حياته: هذا الزهد العلمي الشديد، هذا الإعراض عن الدنيا الذي مكنه من إنجاز بعض جوانب مهمة من مشروعه المعرفي الضخم (ولعل هذا هو الذي شجعني على الاستقالة من الجامعة لأنجز مشروعي المعرفي) . ومن المفارقات التي تستحق التأمل أن هذا الأستاذ الجامعي الذي ترك الجامعة، والمثقف الذي اعتزل الحياة الثقافية قد ألقى بظلاله على كل من الجامعة وحياتنا الثقافية.

ولكن رغم الإعجاب الشديد هذا يبدو أنني حين قرأت كتابه لأول مرة كنت أبحث ساعتها عن المعلومات شأني في هذا شأن أي باحث،

ولكن يبدو أيضاً أنني استوعبت في ذات الوقت منظومة فكرية كاملة ثم استبطنتها تماماً دون أن أدري . غير أني لم أدرك هذا إلا مؤخراً بعد أن انتهيت من كتابة **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية : نموذج تفسيرى وتصنيفى** جديد (والتي استغرقت معظم الفترة السابقة من حياتي) وجلست لأتأمل في مصادر فكري . وقد تزامن هذا مع كتابة هذه المقدمة، فهالني حجم تأثري به في طريقة تفكيره . لقد جاء في كتابه الكثير من المعلومات والوقائع فأخذت منها ما أخذت، واستبعدت ما استبعدت، ثم تبدلت المعلومات وتحورت، كما تتبدل المعلومات وتتحور، ولكن بقي ما هو أهم: بقي فكره ورؤيته ومنهجه . فمن الواضح أنني تعلمت من جمال حمدان رفض الواحدية المادية العلمية والتعصب للمناهج الرياضية، وإعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس في عملية التفكير العلمي . ومن أهم ما تعلمته منه هو الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها في نطاق العلم الإنساني العام ووضعها في عدة سياقات تاريخية لتصبح ظواهر مختلفة ذات أبعاد مختلفة وليست ظاهرة واحدة مغلقة تتسم بالوحدة . ولكن أهم ما تعلمته منه وهو ما تعلمته من أساتذتي (مثل د . إيميل جورج – د . نور شريف – د . ديفيد وايمن) طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل في المعلومات وتفسيرها . لقد تعلمت من جمال حمدان كيف تُكتشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة وكيف نجرد الحقيقة من الحقائق . ولا أدري هل تعلمت منه أيضا شيئا من الصلابة والقدرة علي المقاومة؟ .

أثر جمال حمدان لا يمكن أن تجده في سطر أو سطرين أو صفحة أو صفحتين من كتاباته، وإنما هو هناك بين السطور، وهذا هو أعمق الأثر . ولكن مع سيطرة النموذج التراكمي المعلوماتي، أُهملت أهمية هذا النوع من التأثر .فمجال البحث العلمي بالنسبة للكثيرين هو الحقائق وليس الحقيقة، هو المعلومات وليس الأنماط الكامنة وراءها، ولذا فحينما يُدرس أثر كاتب على آخر فإن الدارسين عادةً ما يبحثون دائماً عن بضعة جمل وعبارات واقتباسات مباشرة نقلها الكاتب المتأثر بالكاتب المؤثِّر (وهكذا عُدنا مرة أخرى لشركات النقل!) . وقائمة المراجع فيما يُكتب من دراسات تدور في إطار هذا النموذج المعلوماتي، مما يعني أن إسهام عشرات المفكرين والمعلمين في صياغة أفكار الدارسين لا يعترف به لأنه مثل هذا الاسهام لا يوجد في سطر بعينه أو في صفحة محددة، وما يوجد بين السطور لا يُقاس ولا يُمسك بالحواس الخمس ولذا فهو غير موجود من منظور كمي معلوماتي.

كما أنني يمكنني أن أثير قضية أخرى وهي لِم لمْ يؤثر جمال حمدان في هؤلاء الذين يكتبون دراسات في نفس الموضوع بطريقة تتناسب مع حجمه الفكري . يمكنني القول أن النموذج المعلوماتي التراكمي قد سيطر تماماً وحوّل كل شيء (الآراء والرؤى والأحلام والآلام) إلى معلومات . ولذا تحولت كتابات هذا المفكر الفذ إلى مادة أرشيفية، يتناولها بنهم الكُتَّاب المعلوماتيين . وأعتقد أن معظم ما يُكتب هذه الأيام يُكتب صدوراً عن هذا النموذج، ولكن الأسوأ من هذا أن ما يُقرأ الآن يُقرأ بنفس الطريقة، وهكذا تضيع الحقيقة ولا يبقى سوى الحقائق !

والتكريم الحقيقي لجمال حمدان لابد وأن يأخذ شكل محاولة التوصل لا إلى ثمرة فكره وإنما إلى طريقة تفكيره، لا إلى ما قاله وذكره وأورده من معلومات وحقائق ووقائع وإنما كيف توصل إلى ما توصل إليه من نتائج وكيف نجح (أو أخفق) في توصيله . ولابد وأن نكتشف طبيعة مشروعه البحثي ونبين ما أنجزه منه وما لم ينجزه - فهناك أجندة بحثية بين السطور علينا أن نصل إليها ونبينها للأجيال . إن جمال حمدان وضع أساس خطاب تحليلي جديد، لم يلتزم به هو نفسه أحياناً، وهذا هو شأن الرواد دائماً. علينا أن ندرس هذا الخطاب ونصل إلى برنامج بحثي يحوي الإشكاليات الأساسية التي طرحها جمال حمدان، ثم نكمل المسيرة وبذا لا تضيع حياته هدراً وتكتسب عزلته معنى، ويتحول إنجازه الفكري الشامخ من مجرد مجموعة أفكار مرصوصة وكتابات مصفوفة تُسحب من الخزائن في المناسبات العامة ليُكرَّم اسم صاحبها ثم تُعاد مرة أخرى، لتستمر في الرقاد ! يتحول هذا الانجاز الشامخ إلي رصيد حي يُضاف إلى رصيد هذه الأمة الفكري فيزيدها علما وحياة . والله أعلم .

دمنهور والقاهرة ٥ فبراير ١٩٩٦

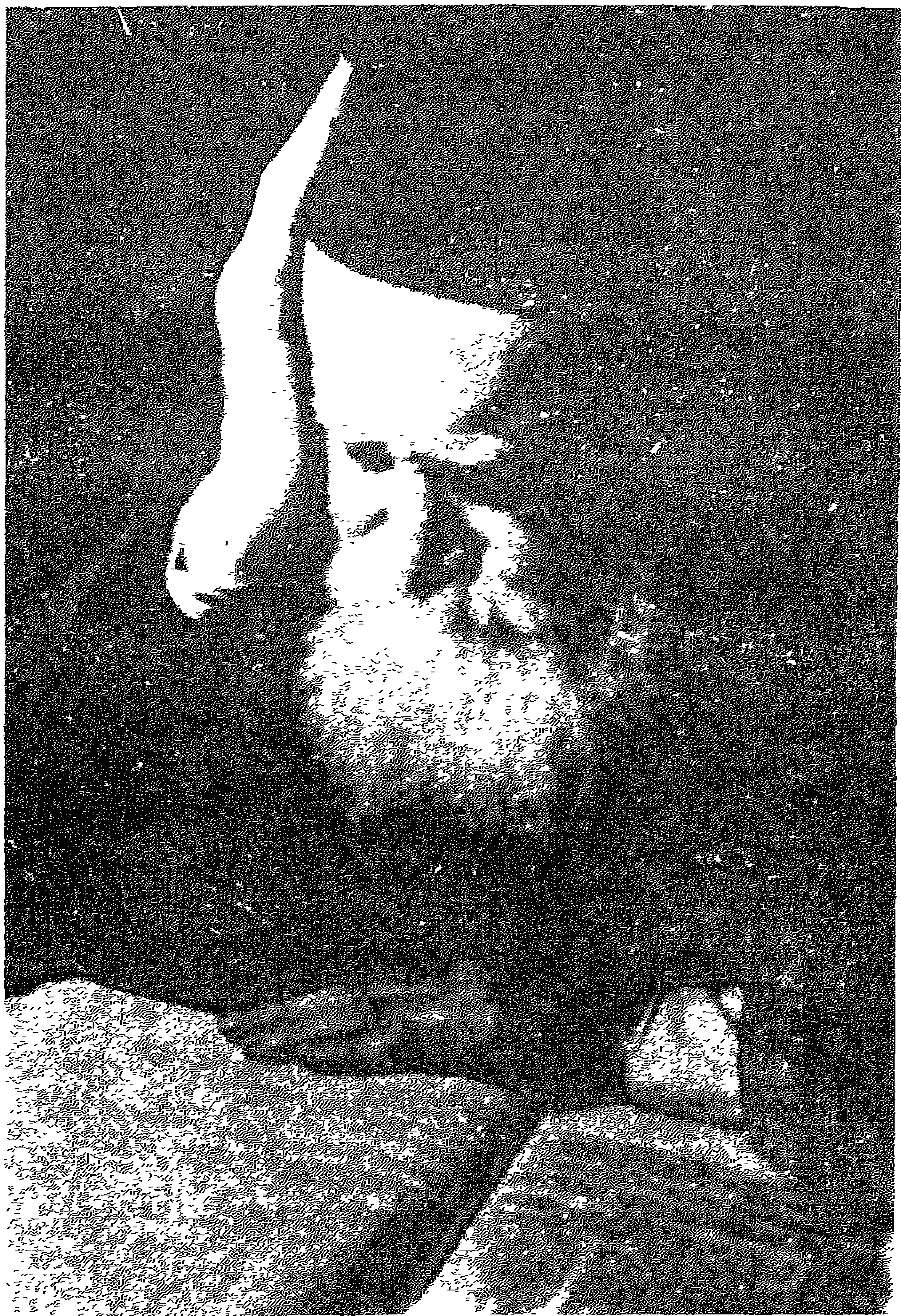
١٦ رمضان ١٤١٦

اليهود
انثروبولوجيا

"إن العرب واليهود أبناء عم من الناحية العنصرية" بهذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل بن الحسين الهاشمى الذى سيصبح ملكا على العراق فيما بعد ، يخاطب القاضى الامريكى اليهودى فيلكس فرانكفورتر فى ١٩١٩ . وهو بعد أن يضيف الى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم وفيما تمكنوا من القيام به فى طريق تحقيق أهدافهم القومية ، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهى "أننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا فى عودتهم الى البلاد ... وهناك مجال فى سوريا يتسع لنا جميعا" . ويعود نفس المتحدث الى نفس الفكرة ليؤكدها فى مؤتمر الصلح بباريس فى نفس العام فيعلن أن "هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود ، كما أنه ليس ثمة تعارض واضح فى الصفات المميزة للشعبين" ..

وبعد نحو نصف قرن من هذه التصريحات التى تصدر على مستوى القيادة السياسية ولكنها تتكلم ، أو تسمح لنفسها أن تتكلم ، كما لو بلسان الانثروبولوجيين ، تعود نفس النغمة لترتفع على نفس المستوى وبنفس اللسان ، حين أعلن السعودى فيصل أثناء زيارته للولايات المتحدة فى العام الأخير انه لايكن شيئا ضد اليهود (يقصد تمييزا لهم عن الصهيونيين) "لأننا أبناء عمومة فى الدم" وهذا حسين الاردن آخر الهاشميين يأتى من بعده ليعلن أخيرا جدا أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة فى التاريخ جنبا الى جنب وفى صداقة وتعاون كأقارب وجيران ..

عميقة إذن هذه الفكرة ، فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود ، ومنتشرة متفشية هى إذن بين الكثيرين لا فى الخارج فحسب ولكن بين العرب أنفسهم ، بل وعلى مستوى قياداتهم ، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دعية فرضت أو فرضت نفسها عليهم . ولاجدال أن لهذه الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية التى يمكن أن تترتب



عالم تلمودى

عليها ، كما فعل فيصل بن الحسين فى الواقع حين رحب باليهود فى سوريا فى النص السابق !

فرغم أن من الثابت المقرر فى القانون الدولى أن ترك شعب لوطنه آلافا سحيقة من السنين لايمكن الا أن يحرمه كل حق فى المطالبة بالعودة اليه الآن ، ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة اعادة تشكيل الخريطة السياسية

للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضى الغابر ، الأمر الذى يمكن أن يقلب صورة الدنيا رأسا على عقب بشكل ساخر بل سخيف لايتصور ، نقول رغم هذا كله فان فكرة قرابة العرب واليهود فى الدم قد يمكن أن تلقى بعض ظلال على قضيتنا المصيرية الاولى فى فلسطين ، وقد يمكن أن تفتح بابا للحلول الخاطئة أو الخائنة ، سيئة النية أو ساذجة النية :

وليس هذا مجرد استدلال أكاديمى أو أسقاط منطقى ، وانما هو بالفعل مانجده فى أكثر من دائرة من الدوائر العربية وغير العربية . فليس

بعيدا مشروع الملك عبدالله ، الذى اقترحه بنفسه على بريطانيا حلا لمشكلة فلسطين فى الأربعينات ، من انشاء "مملكة سامية" يكون هو على رأسها ويكون لليهود فيها حكمهم الذاتى ! وفى السنوات الأخيرة ترددت فكرة "الاتحاد الفيدرالى السامى" بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد صهيونيين . ولعلنا أن نكتفى منها هنا بذكر مشروع الفريد ليلينتال فى كتابه الأخير The other side of the coin. الذى يقترح فيه أن يعود الصهيونيون الاسرائيليون الذين من أصل أوروبى الى أوروبا ، ويبقى الاسرائيليون الذين هم من أصل شرقى فى فلسطين ، وذلك مع عودة عرب فلسطين اليها ليعيشوا معهم فى دولة واحدة جديدة ، تدخل مع الوقت فى علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية متطلعة إلى اتحاد اقتصادى مع الأردن وغزة ومتجهة فى النهاية الى "اتحاد سامى" كبير !

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات أو نقدها ، فكل حل لايعيد الوضع الى ماكان عليه قبل

١٩٤٨ بل قبل ١٩١٨ مرفوض بلا نقاش ، وكل حل لايزيل اسرائيل من الوجود لامدخل له من البحث العلمي ، ولكن سؤالنا المحورى هاهنا هو الاساس الجنسي المزعوم فى تلك المشروعات : أحقا نحن أقارب اليهود وأبناء عمومتهم ؟ على أى أساس علمي ذلك ، وأى دليل تاريخي ينهض بذلك ؟ واضح أن المجال هو مجال الانثروبولوجى والانثروبولوجيا - علم الانسان - بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق دينية وبما يقيس من أجسام وصفات تشريحية ووراثية ... إلخ .

ونحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا فى العربية عن العدو الاسرائيلى تأخذ فى جملتها الصبغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ الى حقيقة كيانهم وتركيبهم : فالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيشون فى كنف الاستعمار وحمايته ، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود

فلسطين التوراة ... الخ . وفى هذا الاطار التجريدى الضيق ، أو المتعجل غير المستأنى - الذى قد يكون عمليا ومفهوما فى ذاته - تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية ، ونبدو أحيانا - أكاد أقول - كما لو كنا نطارد شبحا ! ونحسب أننا لهذا كله بحاجة الى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشرحه أصلا وتاريخا ، جنسا وتركيبا ، تطورا وتوزيعا ... إلخ .

ونحن هنا سنبدأ بالأصول القديمة فى التاريخ الجنسى والدينى ، ثم نتتبع انتشار اليهود فى العالم هجرات وتوزيعا ، حتى إذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين الانثروبولوجى لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التى تجرى فى عروقهم ، وإلى أى حد ينتمون الى أصولهم الأولى ومن ثم الى أية درجة من القرابة ينتسبون إلى العرب أو ينتسب العرب إليهم .

وفى تقديرنا أن مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورة شرطية لأى فهم عربى سليم أو عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الأمر بالدعايات الصهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وابتسار الحقيقة العلمية ذاتها . كذلك لابد أن نبادر من البداية فنحذر من أن كثيرا من الكتابات العلمية البحتة فى الموضوع ينبغى أن تتناول بحذر واحتراس شديدين لأنها تعتمد ـ فعلا إن لم تعترف علنا ـ على المصادر اليهودية والصهيونية أساسا ، وهى من ثم قد تنقل عمدا أو عن غير عمد وجهات نظر محددة ومحسوبة سياسيا .

ونحن من جانبا ـ على صعوبة المحاولة نفسيا وقوميا ـ لن نترك لتحيزنا السياسى الحق والواجب أن يتدخل فى معالجة علمية موضوعية ، لا لسبب إلا لأن الدراسة العلمية الخالصة تؤازر ـ كما يتفق ولحسن الحظ ـ القضية السياسية وتدعمها ولاتتعارض معها فى الجوهر والصميم . إن الحق والحقيقة ـ كما سنرى ـ فى جانبنا على حد سواء .

فى التاريخ القديم

أول مانسمع عن اليهود فى التاريخ مع ابراهيم - أبى الانبياء ابراهيم الخليل - الذى ظهر مع قومه فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يؤلف دولة الكلدانيين فى أور . ومن قبل كان ابراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك "الخزان البشرى" الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف - كاقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها "ولود » - يقذف بالموجة تلو الموجة الى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة .

ففى حوالى ١٨٠٠ ق . م هاجر ابراهيم وقومه ، فى دورة عكس عقارب الساعة ، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا الى حوران ثم إلى فلسطين . وهناك

سيولد له اسحق ، ولاسحق سيولد يعقوب ، ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الأسباط او القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة فى التاريخ والتوراة .

ولكن هجرة ابراهيم الى فلسطين وإن كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فانها لم تكن الاخيرة ، ذلك أنهم لمْ يأتوا مرة واحدة كجسم موحد ، وإنما على عدة دفعات جاءوا ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات . والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن ١٤ ق . م .

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية ـ أو بالأحرى تسميات ـ اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات : اسرائيل والعبريون واليهود . والأولى نسبة مباشرة إلى اسرائيل ، الاسم البديل ليعقوب . أما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان إلى كنعان حيث "عبروا" النهر ـ نهر الفرات أو نهر الأردن لاندرى أيهما المقصود تماما ـ فسموا بالعبرانيين . ويقابل هذه

التسمية عند المصريين القدماء كلمة .Habiru، وعند البابليينKhebirru، ولو أن هذه وتلك تعنى ، فى رواية ، البدو أو اللصوص أو المرتزقة كما وصفهم أعداؤهم فى كنعان اشارة الى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم . أما التسمية باليهودية فتدل أصلا على أبناء يهودا Jehudah,Judah أحد أبناء يعقوب، الذين أصبحوا يمثلون البقية المهمة من بنى اسرائيل بعد الأسر البابلى ، فصارت تطلق فيما بعد على الاسرائيليين جميعا . واسم يهودا نفسه قريب من اسم اله الشعب يا هو Jahveh, Jehovah التي قد تكون بدورها تحريفا للنداء العربى ياهو (؟) .

كيف وجد اليهود فلسطين ؟ وجدوها أرض كنعان أساسا ، نسبة الى سكانها الكنعانيين . والكنعانيون فى التوراة أبناء كنعان بن حام بن نوح ، وهم أول من سكن فلسطين على أرجح الآراء . وفى الدراسات السامية القديمة أن الكنعانيين ـ هم الآخرين ـ قبيلة سامية من الساميين الشماليين ، جاءت أصلا من الجزيرة

العربية منذ ٢٥٠٠ ق . م ـ وفى رواية أخرى منذ ٣٥٠٠ ق . م ـ وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ ألف ـ أو ألفى سنة وأقاموا بها حضارة راقية . كذلك فان جزءا من الكنعانيين كان قد رحل منها إلى الساحل اللبنانى حيث عرفوا بالفينيقيين . ومعنى أرض كنعان هو الأرض المنخفضة .

إلى جانب الكنعانيين فى فلسطين كان ثمة كوكبة أخرى من القبائل السامية الصغرى كالايدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم أرض كنعان ، خاصة حول جنوب البحر الميت . وثمة كذلك كان العموريون بعيدا الى الشمال ، وهم أولاد أناك Anak فى التوراة ، وكانوا قد سيطروا على جزء كبير من فلسطين قبل الزحف المصرى الفرعونى نحو الشمال حوالى ١٦٠٠ ق . م .

وحتى نستكمل الصورة ، يحسن أن نذكر أيضا ـ خارج فلسطين ولكن بجانبها توا ـ الآراميين الذين استقروا فى سوريا كموجة سامية منذ القرن ١٤ ق . م ، أى فى تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين .

ولايبقى لنا الآن فى التتابع التاريخي سوى الفلسطينيين Philistines الذين يعدون ـ وحدهم تقريبا من بين كل العناصر والموجات المذكورة أحدث عهدا من العبرانيين فى المنطقة . أصل هؤلاء من "شعوب البحر Sea-Peoples » المشهورين فى التاريخ القديم والذين أتوا من العالم الإيجى بعامة وانتشروا فجأة وبصورة درامية على سواحل اللفانت أو مشرق البحر المتوسط نتيجة اضطرابات فى موطنهم لعلها نجمت بدورها عن تدفق الاغريق . فقدر للفلسطينيين ـ الذين يرجح البعض كريت أصلا لهم ـ أن يستقروا على ساحل أرض كنعان فى ١٢٠٠ ق . م ، أى أيام حروب طرواده ، حيث أعطوها اسمهم منذئذ .

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بأرض كنعان أن يحاربوا الكنعانيين ، ولكنهم لم يسيطروا إلا على التلال والاراضى الفقيرة الداخلية ، وظلت السهول الغنية فى أيدى الكنعانيين الاصليين . وأغلب تاريخ اليهود فى تلك المرحلة تاريخ دموى

لا أخلاقى يدور حول الحرب والغزو ، إلا ان الهزيمة كانت من نصيبهم غالبا ، وعلى يد الفلسطينيين أقوى أعدائهم بصفة خاصة . حتي اذا كان منتصف القرن ١٧ ق . م ، أى بعد ١٥٠ سنة فقط من هجرة ابراهيم ، هاجر يعقوب وأولاده الى مصر بسبب القحط المشهور . وفيها استقروا بأرض جاشان Land of Goshen (وادى الطميلات والشرقية) نحوا من ٣٥٠ سنة إلى أن خرج بهم منها سيدنا موسى (من الجيل السابع بعد ابراهيم) حوالى ١٣٠٠ ق . م وذلك هربا من اضطهاد فرعون (رمسيس الثانى) الذى استبعدهم "ومرر حياتهم فى الطوب والملاط" انتقاما منهم لتعاونهم فى خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر .

وفى التوراة أن قوة هذا "الخروج" كانت ٦٠٠ الف نسمة . وكانت العودة الى أرض كنعان الهدف ، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين "العمالقة" أدى بهم إلى المعصية فعقاب التيه فى سيناء ٤٠ سنة . ويرى البعض أن الحكمة من

التيه ، الذى امتد بذلك الى مدى جيل كامل تاريخيا فى بيئة صحراوية قاسية جغرافيا ، هو اخضاع اليهود لعملية صارمة من "الانتخاب الطبيعى" تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة ، وبذلك تديل من جيل هش منسحق إلى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة . وهكذا كان ، الى ان قادهم يشوع الى نهر الأردن حيث انتزعوا بعضا من أرض كنعان فى الداخل ، ولكن دون العاصمة يبوس (القدس) وساحل الفلسطينيين .

وفى فجر الألف الاولى قبل الميلاد بالضبط (بالتحديد عام ١٠٠٠ ق م) وحد داود الأسباط او قبائل اسرائيل الاثنتي عشرة ، وهزم اليبوسيين والفلسطينيين وأسس ووسع مملكة اسرائيل حتى امتدت "أرض اسرائيل Frets Israel من دان فى الشمال الى بير سبع فى الجنوب ».واتخذت من يبوس عاصمة لها بعد أن تحول اسمها الى أورشليم Ierouschoulaim أى مدينة السلام غير أن الدولة ـ التى لم تصل قط أو لم تصل إلا بالكاد الى الساحل ـ لم تلبث أن انشطرت بعد

خليفته سليمان صاحب الهيكل الى مملكتين : مملكة يهوذا جنوبا فى هضبة يهودية ، وتضم قبيلتى يهودا وبنيامين ، ومملكة اسرائيل شمالا فى السامرة ، وتضم القبائل العشر الباقية . ومن المهم والطريف أن نلاحظ أن حدود هاتين الدولتين تتفق الى حد أو آخر لا مع رقعة اسرائيل المزعومة حاليا وإنما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الأردن .

والمهم أن الدولتين ، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربتين ، وقعتا فى سياسة المضاربة بين مصر والعراق أو الخضوع لهما ، فتعرضت المملكة الجنوبية لطرقات مصر مرتين الاولى على يد شيشنق والثانية على يد نخاو ، الى أن جاء دور المملكة الشمالية حين قضى عليها نهائيا سرجون الأشورى فى القرن ٨ ق . م (عام ٧٢١) ثم قضى نبوختنصر البابلى علي الجنوبية فى القرن ٦ ق . م حيث دمر أورشليم والهيكل (٥٨٦ ق . م) . وبذلك زالت الى الابد دولة اليهود فى

فلسطين بعد حياة طولها اربعة قرون فقط يغلب عليها الطابع الدموى العنيف ، بينما ان كل اقامة اليهود المتصلة فى فلسطين لم تزد على ستة قرون من ١٢٠٠ ق . م حتى ٥٨٦ ق . م .

الشتات

الشتات البابلى

واذا كانت الفترات السابقة معا هى المرحلة التكوينية ـ سفر التكوين ـ فان من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات Diaspora الذى يمكن أن نميز فيه ثلاث دورات او اربعا . فقد بدأ سرجون بنقل كثير من اسرائيلى السامرة من ابناء القبائل العشر الى بابل واسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الاخرى . ولكنه نبوختنصر بالذات الذى نقل اغلبية اليهود ـ اخرون يقولون ربع سكان يهودية ـ أسرى الى بابل ، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة ارباع المليون .

ذلك كان "الاسر البابلى" الشهير الذي يمكن ان يعد الشتات الأول . واذا كان الفرس ، بعد ان هزموا بابل (على يد كسرى ٥٣٨ ق.م) واحتلوها وممتلكاتها فى فلسطين ، قد سمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم بعد نصف قرن من الأسر البابلى ، فإن قلة ضئيلة هى التى عادت ، وتقدر بنحو ٥٠ ألفا ، وحتى هذه لم تجد ترحيبا لأن ارض أجدادهم كان يحتلها الآن أسرى سرجون الذين وطنوا بها ، ولذلك أسكنوا فى منطقة يهودية الجنوبية حيث لم يطرب لعودتهم حتى اليهود المقيمون أنفسهم .

أما الأغلبية المطلقة منهم فقد بقيت فى العراق حيث كونت مستعمرات مهمة نمت حتى بلغت فى عهد المسيح مليونا بل وأكثر من المليون فى القرون التالية إبان العصور العربية الاسلامية . وقد امتد انتشار اليهود فى العراق شمالا إلى كردستان . غير أن يهود العراق ـ مع كل سكانه ـ تعرضوا للابادة مع الطوفان المغولى حيث هوى عددهم الى بضعة آلاف فقط . على أن يهود

العراق كانوا نواة الشتات شرقا . فمنهم انشطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة فى عهد كسرى ، ولكن هجرتهم الكبرى كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى . وبالمثل كان يهود هيرات فى افغانستان ويهود بخارى وسمرقند فى التركستان شظية من نواة فارس .

كذلك يقال أن يهود القوقاز ـ الذين يردون مستعمراتهم المبعثرة فى تضاعيف جبالها هناك الى العصر الأشورى ، ولو أن أول ذكر لها تاريخيا يرجع إلى القرن الخامس الميلادى ـ يقال إنهم أتوا من فارس ونواتها القديمة . ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع انتشار اليهود حتى نهاياته ومستعمراته القصوى فى الشرق الأقصى بالهند والصين .

ولعل من الجائز لنا أن نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الاسلام ، ولو أننا لانعرف على وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التى سلوكها اليها ، ومن ثم لاندرى اذا كان امتدادهم اليها

يرتبط بالشتات البابلى أو بما تلاه من شتات . ففى الجاهلية الأخيرة كان اليهود غير قليلين فى مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن . ففى الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلهم ، بل كانت المدينة تحمل اسما يهوديا هو يثرب . غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة كانوا فى معظمهم عربا محليين متحولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين . أما فى اليمن بالذات فقد تحولت أعداد كبيرة من سكان العصر السبئى الى اليهودية ، بل كان أحد ملوك سبأ فى القرن السادس الميلادى يهوديا هو ذو النواس . كذلك فقد كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الامبراطورية الحبشية يهودا أصلا ثم تحولوا مبكرا الى القبطية غير أن ظهور الاسلام صفى اليهودية تماما فى الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن حيث ظل اليهود الى وقتنا هذا .

هذا ، واذا كان شتات الأسر البابلى قد اتجه أساسا نحو الشرق ، فمن المحتمل أن بعض الهجرة اتجهت غربا الى شمال افريقيا (المغرب)

حيث يدعى اليهود ممن يسكنون الجبال اليوم ويتكلمون البربرية أن أجدادهم تركوا فلسطين اليها قبل الأسر البابلى نفسه ، وحيث يسمون أنفسهم البلشتيم Plishtim والكلمة تحريف واضح لفلسطين . بل هناك من يرى أن من المحتمل أن اليهود دخلوا شمال افريقيا مع الفينيقيين ، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة ـ بالتحول ـ بدرجة ما فى حين مابين عدة قبائل بربرية حتى ماقبل قدوم الاسلام .

الشتات الهلليني

أما الشتات الثانى من شتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهللينية التى بعد قرنين من السيادة الفارسية ، تبدأ بفتوح الاسكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين . والاتجاه العام فى هذا الشتات هو نحو الغرب هذه المرة . فاذا كان بعض اليهود فى فلسطين قد قاوموا الصبغة الهللينية بعنف وقاموا فى القرن الثانى

قبل الميلاد بالثورة المكابية المتعصبة التى انشأت دولة يهودية ضد ـ هيللينية ، فان الكثيرين منهم انتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى فى كل العالم الهللينستى والبيزنطى .

ففى مصر قدر أن ثلث سكان الاسكندرية البطلمية كان من اليهود ، كما يقال أنهم قاموا فيها بثورة قتلوا فيها ٢٢٠ الفا من السكان الاصليين (؟) . وعدا مصر ، فقد وجد اليهود فى سوريا وآسيا الصغرى من قبل بدرجة أو بأخرى . وعدا هذا وذلك ، كان ثمة مركزان رئيسيان لتركز اليهود : البلقان ، وسواحل البحر الأسود الشمالية ، وكل يسبق العصر المسيحى بوقت طويل . وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم الى جنوب الروسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطية . أما مركز ساحل البحر الأسود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الإغريق بعد الأسكندر . وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والتتار التى اجتاحت جنوب الروسيا .

غير أن للتتار هنا دورا مهما فى التاريخ اليهودى . فقد قامت منهم دولة فى القرن السابع الميلادى هى دولة الخزر التترية التى تحولت بالجملة تماما فى رواية أو تحول حكامها وطبقاتها العليا فى رواية أخرى ، الى اليهودية فى القرن الثامن أى أيام شارلمان ، بينما ـ بالمقابل ـ تحول اليهود المهاجرون الى لغة الخزر التركية المسماة بالجاجتاى Jagatai وبهذا أصبح فى المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متحولون من السكان المحليين .

وقد كان للخزر مركزان ، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) عند مصب الفولجا ، والثانى فى القرم . وقد الغى المركز القزوينى فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن المركز القرمى ظل حتى القرن الحادى عشر الى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التى تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة . وعندها انتشر كثير من الخزر من يهود

ومتهودين فى أجزاء كثيرة من جنوب الروسيا ، بالاضافة الى ماعسى أن يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين حيث يمكن أن نتتبع ظهورهم - على الطريق - فى روثينيا فى القرنين ١٠ - ١١ ، وفى بولنده فى القرنين ١٢ - ١٤ . وفى القرن الثانى عشر (عام ١١١٠ بالتحديد) منعت الروسيا نهائيا دخول أى يهود جدد بها وحددت للموجود منهم مناطق معينة لايقيمون خارجها ، وهى التى ستؤلف النطاق الذى سيعرف تاريخيا بحظيرة اليهود Jewish Pale »

الشتات الرومانى والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والأخير فى تاريخ اليهود القديم . انه الشتات الرومانى الذى أخذهم بعيدا الى العالم الرومانى أى الى الغرب الأقصى بالنسبة الى الموطن الأصلى فلسطين ، وذلك فى حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة . وقد بدأ هذا

الشتات فى الواقع مع الثورة المكابية ، لكنه اكتمل مع الفتح الرومانى لفلسطين الذى يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحى .

فلقد تواترت ثورات اليهود - الذين لم يعودوا يزيدون على أقلية من سكان فلسطين - على الحكم الرومانى الذى رد بتخريب أورشليم والهيكل وبابادة اليهود فى مذبحة سنة ٧٠ ميلادية الفاصلة (تيتوس) التى صفت أغلبهم محليا وفر منها أقلهم الى مصر وسوريا . غير أن بقايا اليهود عادوا الى الثورة فى ١٣٥ ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت الى الأبد على مصير اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية . فعدا تدمير أورشليم والهيكل مرة أخرى ، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة .

فعن الأولى يقول جوزيفوس المؤرخ Josephus أن ٠٠٠ر٣٥٠ر١ قتلوا فى المعارك التى يعددها ، كما يقال أن ٠٠٠ر٩٠٠ آخرين اسروا أو بيعوا كرقيق ، كما مات مئات من الآلاف غيرهم من المجاعات والأوبئة والمذابح . ويعلق هنتنجتون -

وهو جغرافى يهودى لايخفى تعصبه - بأن هذه أرقام مبالغ فيها بلا شك ، ويمكننا نحن أن ننبذها ونعدها خرافية تماما لأن الأدلة التاريخية واشارات التوراة نفسها كما راينا تضع كل تعداد اليهود فى حدود تقصر دون ذلك كثيرا جدا ولاتتجاوز ثلاثة أرباع المليون كحد أعلى . ومن الناحية الأخرى فان البعض يقدر أن عدد من أبيد من اليهود فى هذه الثورة لايقل عن ٦٠٠ الف . فاذا صح هذا الرقم ، ولعله أدنى الى العقل ، فذاك انقراض جنسى حقيقى لم يكد يترك منهم شيئا .

وحتى هذا الذى تبقى تكفلت الهجرة القهرية بتصفيته . فقد حرم الرومان على اليهود دخول القدس نهائيا ، وطردوهم من فلسطين الى كل أجزاء الامبراطورية ، وكان هذا هو التاريخ الذى انتهت فيه والى الأبد علاقة اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا . أنه الخروج الأخير . كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود فى قبرص . وحتى ندرك مدى ضآلة ماتبقى من اليهود بعد هذه المذابح

والمطاردات ، يكفى أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو ٤٠ ألفا فقط ! وهو رقم لابد أن نتذكره دائما لما سيكون له من دلالات جنسية وتاريخية وسياسية عميقة المغزى .

أما ماتبقى بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصا فيما بعد بتحول بعض أفرادها الى المسيحية . ولعل أهم تلك البقايا السامريون الذين تحولوا الى قوقعة قزمية مغلقة فى نابلس(Schechem القديمة)حتى أنها لاتزيد اليوم على مائة أو مائتين ! وفى بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود فى فلسطين كلها ليزيد على ١٠ آلاف نسمة ..

والملاحظ أن تحولا جذريا طرأ على اليهود بعد هذه الإبادة الشاملة والتشريد . فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى كله الغزو والعدوان . وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف . أما بعد مجازر الأشوريين والبابليين ثم الرومان فقد تحول اليهودى فجأة الى شخصية

مستضعفة خانعة تحقق أغراضها بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة . ويرجع هنتنجتون هذا التحول فى الشخصية الجماعية الى عملية الانتخابات التى فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة ولم يبق إلا عناصر الجبن والمسكنة والخبث ... الخ . ومنها ومن حينها أخذ اليهود طابعهم الذى عرفوا به فى كل العالم حتى اليوم .

على أن يهود الشتات الرومانى لم يأتوا من طريدى فلسطين وحدها وإنما كذلك من كل مستعمراتهم السابقة القائمة فى العالم الهللنستى . فتبعوا الرومان الى إيطاليا واسبانيا وفرنسا والمانيا حتى الراين ، وكان طريق الرون ـ الراين ـ فرانكفورت ، وهو طريق التجارة وشريانها التقليدى ، خطا محوريا فى دخولهم العالم الرومانى . ومنذ القرن الثالث الميلادى على الأقل كانوا قد وصلوا الى الراين ، حيث تحولت فرانكونيا بالذات الى قاعدة رئيسية ونواة لهم وكادت عاصمتها فرانكفورت أن تكون عاصمة يهود

الشتات الجديد . ومنذ ذلك الوقت نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة فرانكفورت واليهود ستظل عبر القرون حتى يومنا هذا .

ويقدر البعض عدد اليهود فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الخامس الميلادى بما يتراوح بين ٤ ، ٧ ملايين أى نحو ٧ ٪ من مجموع السكان . وهذا الرقم ـ أيا كان نصيبه من الدقة أو الصحة ـ ينبغى أن نذكره جيدا وأن نقرنه فى الذاكرة بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الأخير والبالغ ٤٠ ألفا ، لان معناه أن اليهود فى الشتات ضاعفوا عددهم بين ١٠٠ ، ١٨٠ مرة فى أقل من ٥٠٠ سنة (!) وهو معدل فلكى لايمكن إلا أن يلقى ضوءا حاسما على طريقة نموهم ، إن تزايدا طبيعيا أو تزايدا بالتبشير والتحول .

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث أن أتت بحروبها الصليبية التى أشعلت نار الاضطهاد الدينى ضد اليهود فى جميع أنحاء أوروبا مثلما أثارتها ضد العرب خارجها وعلى أطرافها

ومشارفها . هنالك بدأت عمليات الطرد بالجملة والإبادة التى ستؤدى فى النهاية الى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوروبا . ففى أواخر القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤) اختفى يهود فرنسا تماما بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة . أما يهود ايطاليا فظلوا متقوقعين بها حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع وحيث تلقوا ـ فضلا عن ذلك ـ هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد .

اما يهود المانيا واسبانيا فسوف يكون لهم الدور الاكبر فى قصة اليهود فى العصور الحديثة . فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الإبادة والطرد ، ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوروبا من ناحية وجنوب أوروبا وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى ، أعنى ثنائية الأشكناز والسافردى على الترتيب Sephardim Ashkenazim والاشكنازيم والسفارديم كلمتان قديمتان فى التوراة استعارتهما التقاليد اليهودية

فى العصور الوسطى لتميز بين يهود المانيا ويهود اسبانيا على الترتيب ، اعتقادا منهم بأن يهود المانيا ينحدرون من نسل قبيلة يهودا ، ويهود اسبانيا من نسل قبيلة بينامين . والسفارديم يعدون او يدعون انفسهم "ارستقراطية" اليهود على الأساس الدينى ، غير أنه قدر للأشكناز أن يؤلفوا الأغلبية الساحقة عدديا ـ ٨٠ الى ٩٠ ٪ فيما يقدر ـ والطبقة المسيطرة المتفوقة حضاريا الى حد يحتقرون معه السفارديم احتقارا لايحفلون باخفائه .

فاذا عدنا الى الشتات وبدأنا بالأشكناز ، وجدنا أن أول اضطهاد يتعرض له يهود الراين بألمانيا يبدأ مع الحملة الصليبية فى القرن الحادى عشر (١٠٩٦) ولو أنهم كانوا قد بدأوا يتسربون الى العالم السلافى فى بوهيميا وبولنده قبل ذلك بقرنين أو أكثر . هنالك بدأت الهجرة الهاربة التى تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتى اتجهت أساسا نحو الشرق . ونحو الشرق اتجهت لأن ملوك بولنده ، الذين كانوا يعملون على

زيادة سكان مدنهم ، رحبوا بكل هجرة فاغتنم اليهود الفرصة ، وكان خروجا بالجملة وصل الى حد أثار في النهاية مخاوف بولنده . غير أن انتقال جسم الأشكناز كان قد تم نهائيا ، وتحولت نواة فرانكونيا القديمة الى مجرد بقايا أو الى شبح يذكر بالتوزيعات التاريخية الأولى ، وفي نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن المانية مفتوحة لليهود هي فرانكفورت وفرمس Worms. وفيرت Furth

أما في بولنده وجنوب الروسيا فقد التقى اليهود الألمان مع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر الذين كانوا بدورهم قد بدأوا يطاردون نحو الشمال والغرب على يد الاضطهادات السياسية الشهيرة المعروفة في الروسيا بالبوجروم Pogroms ، والتى اتسع نطاقها ليشمل يهود بولندة بعد تقسيم هذه الدولة وانتقال الشطر الاكبر منها الى الروسيا . وتتمثل آثار هذا اللقاء الآن من بين ماتتمثل في يهود القرم الذين ينقسمون الى يهود قرائين ، والى يهود القرمشاك Krimshaks الربانيين، كما تتمثل في يهود ليتوانيا القرائين .

• والمهم أن ذلك اللقاء تحول ـ ولم يكن له بد من أن يتحول ـ ليس فقط الى شملية تراكم عددى وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها فى العالم حتى اليوم ، وإنما تحولت كذلك الى عملية خلط ومزج وصهر سيسود فيها يهود الغرب الألمان عدديا وحضاريا على السواء . ومن أوضح وأبسط مظاهر هذه السيادة اللغة الجديدة التى نشأت عن التفاعل وهى اليديشية Yeddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التى حملها معهم يهود الغرب- وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودى بالألمانية ـ والتى ستصبح أهم لسان بين السنة اليهود التى لا حصر لها .

أما عن السفارديم فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود ـ جنبا الى جنب مع العرب .. من أسبانيا فى حروب ، "الاسترداد Reconquista » عام ١٤٩٢ بعد عصر من الاضطهاد والإبادة على يد محاكم التفتيش . والمقدر أن عدد يهود اسبانيا العربية وصل فى حين ما إلى حد المليون نسمة . (٣١)

انتشر هؤلاء اليهود فى فترات مختلفة الى هولندا وانجلترا ، والى ايطاليا وفرنسا ، ولكن خاصة الى شمال افريقيا ابتداء من مراكش حتى تونس ، وبالأخص الى الإمبراطورية العثمانية . ففى الامبراطورية العثمانية الحديثة التوسع وجدت الأغلبية الساحقة من السيفارديم موطنها الجديد ، ابتداء من البلقان والدانوب حتى الأناضول والشرق الأوسط حيث كانت سالونيك والقسطنطينية من أهم بؤرات تجمعهم ، وحيث التقوا باليهود القدامى من بيزنطيين وسابقين للعصر البابلى سواء غرباء مهاجرين أو محليين متحولين .

وفى كثير من هذه المهاجر الجديدة أصبح السفارديم ـ كالأشكنازيم فى مهجرهم الجديد ـ هم السائدين عدديا بين الجاليات اليهودية ، بل كادوا أن يكونوا العنصر الوحيد فى يهود مدن البلقان . وفى كل هذا المجال الجغرافي أطلق عليهم اسم الاسبانيولى Spaniol, Spagnuoli كما حملوا اليه ـ كالأشكناز ـ لغتهم الاسبانية المحرفة

المعروفة باسم اللادينو Ladino ، وظلوا حتى اليوم يلبسون لباسا خاصا ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة إقامتهم الاسبانية .

الشتات الحديث

تلك قصة "اليهودى التائه أو المتجول" من أول شتات قبل الميلاد الى آخر شتات فى مطالع العصور الحديثة . بيد أن هناك حلقة رابعة تتمم السلسلة ، وتتركز فى القرن أو القرنين الأخيرين ، ولا بأس أن نشير هنا بايجاز الى خطوطها العريضة ولعلها خطان رئيسيان أو ثلاثة . وفيها جميعا سيكون الدور الأكبر بطبيعة الحال للأشكنازيم بحكم سيادتهم العددية ، واذا كان السفارديم قد ساهموا فى الشتات الحديث فبقدر محدود .

والانتشار الأول والأهم فى الفترة المعاصرة هو بلا شك انتشار العالم الجديد بمعناه الواسع

والولايات المتحدة بصفة خاصة ، ويمكن أن نميز في هجرة اليهود الى أمريكا الشمالية مراحل ثلاث ، لكل منها قطبها الجغرافي ، وثلاثتها ترسم معا حركة واضحة من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي . فالأولى تتفق مع مايعرف في التاريخ الأمريكي "بالعصر الاستعماري" في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ومصدرها الرئيسي اسبانيا والبرتغال ، وقوامها السفارديم أساسا ، وطلائعها الأولى مبكرة حقا تتعاصر مع الآباء المهاجرين والبيورتان ، ولكنها في الجملة قوة محدودة عدديا .

أما المرحلة الثانية ففي أواسط القرن التاسع عشر تقع ، وترتبط أساسا بأواسط أوروبا : ألمانيا بالدرجة الأولى ثم فرنسا . ذلك عصر الثورات والاضطرابات السياسية التاريخية في القارة ، فكان خروج يهودي نشيط حمل الى الولايات المتحدة نحو ربع المليون : فالمقدر أن ثورتي ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ قذفتا إليها بنحو ٢٢٠ ألف يهودي .

أما المرحلة الثالثة ففترة ممدودة حول دورة القرن من ١٨٨٥ الى ١٩١٤ ، وكان قطبها المركزى فى الارسال الروسيا القيصرية يحف به هالة تشمل النمسا ـ المجر ورومانيا . وقد دخل الولايات المتحدة من اليهود بين ١٨٨١ ، ١٩١٠ زهاء ٥٦٢,٠٠٠,١ ، منهم ١١٩,٠٠٠,١ من الروسيا ، ٢٨١ ألفا من النمسا ـ المجر ، ٦٧ ألفا من رومانيا . وفيما بين ١٩٠٠ ، ١٩١٣ فقط هاجر من الروسيا ٩٦٤ ألف يهودى الى الولايات المتحدة ، ٦٠ ألفا الى كندا .

ذلك إذن تيار كثيف عرم من وسط وشرق أوروبا انفجر مع استمرار الاضطهاد والغربة من جهة ومع فتح باب الهجرة الى الولايات المتحدة من جهة أخرى ، انفجر ليستقر فى أمريكا الشمالية منذ العشرينات من القرن الحالى وليصبح فيما بعد أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض على وجه الاطلاق . كذلك انطلقت الهجرة الى أمريكا اللاتينية بأغلب وحداتها السياسية خاصة البرازيل والأرجنتين .

أما فى العالم القديم فقد كانت كثافة وقوة الهجرة أقل بكثير ، وكانت استراليا وجنوب افريقيا هما القطبين الأساسيين فيها ، غير أننا لاينبغى أن ننسى المجال السوفيتى حيث هجر بعض من يهود الروسيا الى الشرق الأقصى السوفييتى وأقيمت لهم جمهورية خاصة هى جمهورية بيروبيدجان Birobidjan اليهودية فى حوض الآمور . ومحصلة كل هذه الهجرات أن الانتشار الحديث توزع فى كل الاتجاهات ، أى على اطار دائرى حول النواة التاريخية القديمة ، ولكن مركز ثقله المطلق كان دائما صوب الغرب الأقصى استمرارا لاتجاه المحور الأسى فى كل حركة الشتات اليهودى عبر التاريخ .

بعد هذا تمثل الفترة النازية فى المانيا الهتلرية دورة شتات جديدة . فقد أدى الاضطهاد النازى لليهود ، الذى وصل الى قمته فى عمليات الابادة الجماعية التى يقدر البعض جملة حصادها إن خطأ أو صوابا وأن حقا أو مبالغة بنحو خمسة ملايين يهودى ، أدى هذا الى حركة خروج أو

بالأحرى هروب من الرايخ وأوروبا الوسطى بعامة . وإذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوروبا فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية ، فإن الجزء الأكبر منها اتجه الى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة . فكانت عملية تفريغ ليهود وسط أوروبا وتكثيف ليهود الولايات المتحدة ، كما كانت بداية عملية أو جريمة زرع اسرائيل .

وهذه الجريمة الأخيرة نفسها هى دورة جديدة فى ـ ماذا نقول ـ شتات اليهود ، غير أنها اختزلت وكثفت كل تاريخ اليهود فى الاضطهاد وعكسته على عرب فلسطين الشرعيين . إنها الدورة الصهيونية التى قامت بعملية "اسقاط" على العرب لكل تجربة يهود الشتات من إبادة وطرد وخروج ابتداء من الاسر البابلى حتى ضد السامية النازية . ومع اغتصاب فلسطين ، الذى تسميه الصهيونية بالكذب وللسخرية المريرة "حرب الاستقلال" "والعودة الى أرض الميعاد"

(!) تشعبت تيارات وموجات الهجرة نحو بؤرة واحدة وجديدة .

من بين هذه التيارات كان التيار الأوروبى هو السائد فى بداية صنع اسرائيل ، ثم تحول الى آسيا ، وبعدها الى افريقيا على الترتيب . ولما كان هذان المصدران الأخيران يقع أغلبهما فى العالم العربى ، بينما طرد عرب فلسطين الى البلاد العربية المجاورة ، فقد وصل السفه الاسرائيلى الصهيونى إلى حد الزعم الفاجر بأن العملية كلها ليست إلا عملية "تبادل سكان" ! غير أن المستقبل القريب جدير بأن يثبت أن اسرائيل لن تكون إلا مجرد مرحلة فى رحلة الشتات التاريخية ، مجرد جملة اعتراضية فى تاريخ فلسطين ، وقريب هو لاشك "الخروج" الجديد ...

طوائف ثلاث

ونستطيع الآن بعد أن انتهينا من ديناميكية اليهود عبر التاريخ أن ننظر نظرة عامة الى



الحى اليهودى فى عدن

صورتهم الاستاتيكية الحالية كما تتمثل فى التصنيف الأولى لفئاتهم الطائفية . ولقد رأينا التفرقة بين الاشكناز والسفاردى ، ولكن لابد أن نضيف اليهود الشرقيين Oriental Jews .

هؤلاء لايقعون داخل أى من المجموعتين الأوليين ، وإنما يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القديمة من فلسطين رأسا أو من مراكز يهودية ثانوية . وهم اذا كانوا ـ نظريا ـ الأقرب الى الأصول الفلسطينية ، فانهم الأقل عددا والأدنى مرتبة فى الهيراركية اليهودية ، فكل من الأشكناز والسفارديم ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء بلا مواربة .

أما توزيعا ، فان الأشكناز يشملون اليوم يهود غرب ووسط وشرق أوروبا ، بالاضافة الى خلاياهم الجديدة التى انشطرت فى العالم الجديد بقارتيه ، ثم جنوب افريقيا واستراليا ، ويشمل السفاردى يهود البلقان والشرق الأدنى ، كما يشمل مستعمرات وجاليات مبعثرة على شواطىء البحر المتوسط الشمالية والجنوبية ، بالاضافة أخيرا

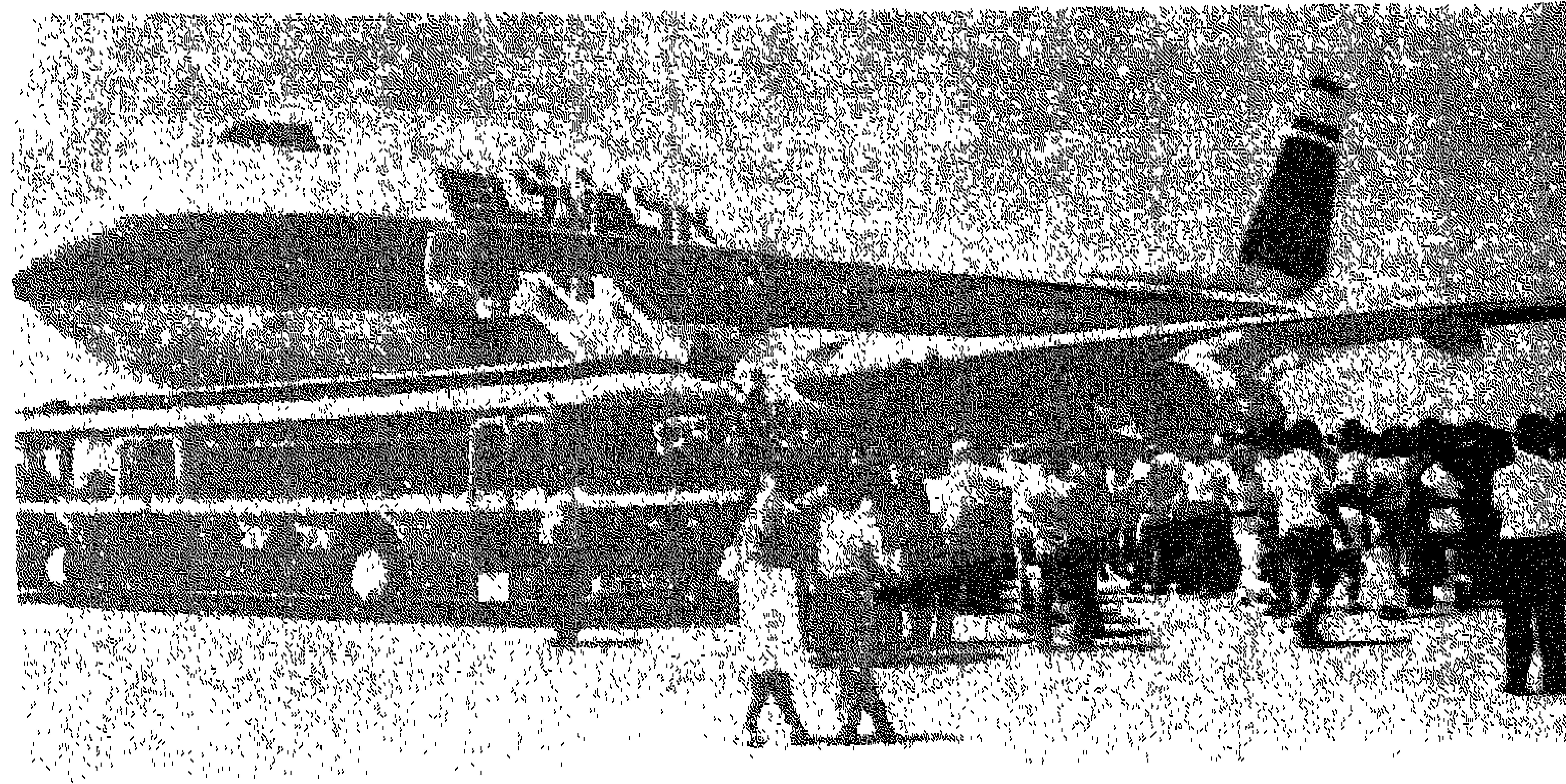
الى امتداداتهم الحديثة ، والمحدودة فى العالم الجديد شماله والجنوب . أما اليهود الشرقيون فاليهم تنتمى مستعمرات فى شمال افريقيا وفلسطين ، ثم مستعمراتهم فى العراق واليمن ، ثم القوقاز وايران والتركستان الروسية ، وكذلك الهند والصين .

وبعض هذه التوزيعات يستحق شيئا من التفصيل . ففى القوقاز تنتثر شظايا اليهود الشرقيين تحت أسماء مختلفة : فثمة يهود الجبال فى داغستان من بقايا الخزر القدامى والذين يعيشون فى ثنايا الشعب اللزجى Lesghians ويتكلمون لهجة فارسية ، وثمة يهود جورجيا فى تفليس خاصة ، ثم يتمم الصورة الفسيفسائية يهود الشماخة Shemakha فى أذربيجان. أما فى فلسطين ، فاذا كان اليهود المحليون قبل الاغتصاب هم من الشرقيين ، فقد جمعت الصهيونية بالهجرة بين المجموعات الرئيسية الثلاث بنسبة النصف من الأشكناز والنصف من السفارديم والشرقيين .

توزيع اليهود فى العالم

اكتملت لنا الآن فيما نأمل صورة هيكل التاريخ اليهودى على نحو ما ، وآن لنا أن نضع التوزيع الراهن لليهودية العالمية Judenthum تحت المجهر وذلك قبل أن نتقدم لندرس انثروبولوجية اليهود جنسيا ، فان لتوزيع اليهود فى ذاته - واليهود بالذات - قيمة ودلالة انثروبولوجية حاسمة كما سنرى . ولعل من الواضح الآن أن الذبذبة العنيفة مابين نمو وتناقص هى ملمح أساسى جدا فى كيان اليهودية العالمية ، شأنها تماما شأن السيولة الجغرافية النادرة المثال فى توزيعها المكانى .

إنها إذن ذبذبة مزدوجة فى الزمان والمكان ، بل لعلهما هنا جانبان لشىء واحد . إلا أن الذبذبة العنيفة فى الزمان تجعل نمو اليهود فى نهاية المطاف وعلى المدى الطويل أقرب الى الجمود والتوقف النسبى . فكلما نموا بالزيادة الطبيعية



مطار بن جوريون

سرعان ماتحصدهم الاضطهادات فيعودون الى نقطة البدء من جديد . أما الذبذبة فى المكان فتنتهى الى تغيير جذرى ومثير فى أوطانهم الاقليمية بصورة انقلابية تماما .

ونحن نستطيع هنا أن نعرض "لقطتين" لتوزيع اليهود بين تاريخين متباعدين بما فيه الكفاية لندرك هذه الذبذبات الانقلابية . الأولى فى العقد أو العقدين الأخيرين من القرن الماضى ، والثانية فى يومنا هذا ، فحولنا ١٨٨٠ وبعدها قدر عدد يهود العالم بنحو ٦ر٥ مليون نسمة ، منهم ٥ر٥ مليون فى أوروبا وحدها بنسبة ٥ر٨٤ ٪ ، ٤٢ ألفا فى افريقيا بنسبة ٥ر٦ ٪ ، ٢٥٠ ألفا فى آسيا بنسبة ٤ ٪ ، والبقية فى أمريكا واستراليا .

أما حوالى نهاية القرن أو دورته فقد قدر عدد يهود العالم بنحو ٨ الى ٩ ملايين . من هؤلاء كان ٦ ـ ٧ ملايين يتوزعون فى أوروبا وحدها أى بنسبة ٨٠ ٪ . وهناك فى أوروبا ، حيث التوزيع أو الكثافة أبعد شىء عن التجانس ، كان مركز الثقل يتحدد فى دائرتين يفصل بينهما برزخ أو انخفاض

عميق : دائرة فى الشرق وأخرى فى الغرب . فالأولى دائرة الأساس ، وهى بالفعل دائرية شكلا ، تغطى جنوب غرب الروسيا وجنوب دويلات البلطيق وكل بولندة (والأخيرتان كانتا تابعتين للروسيا سياسيا) ثم أقصى شرق المانيا حيث اشتد طفح يهود بولندة بدرجة خطيرة أثارت ضيحة ضد السامية ، ثم أخيرا امبراطورية النمسا ـ المجر شمال الدانوب . وحدود الدائرة شرقا فى الروسيا قاطعة حادة بحكم القانون الذى قصر اقامة اليهود على مناطق معينة ، وترسم قوسا من القوقاز الى البلطيق .

أما فى مجموعها فتزن الدائرة أكثر من ٦ ملايين يهودى : إنها ببساطة قطب اليهودية فى العالم . وثقلها الطاغي هذا وحده يجعلنا نفترض لها أكثر من مصدر تاريخي ، فليس من المعقول أن نفترض أنها استمدت كل جسمها من الدائرة الصغرى وحدها الى الغرب ، بل لابد كذلك أن نفترض المصدر الشرقى عن طريق القوقاز ، الى جانب التحول الدينى المحلى . من هذه الدائرة

يحتل جنوب غرب الروسيا القلب المطلق ، فكان فى الروسيا نحو ٤ ـ ٥ ملايين أى نصف يهود العالم . ولكننا حين نقول الروسيا فإنما نقصد معها الجزء الأكبر من بولندة الذى ضم إليها فى التقسيم السياسى "Polognerusse" والذى كان هو النواة النووية الحقة فى كل دائرة اليهود الشرقية . بل يذكر البعض أن يهود بولندة وحدها كانوا يؤلفون نصف يهود العالم . أما بقية التوزيع فكانت النمسا ـ المجر تلى بنحو مليونين ، ثم رومانيا بحوالى ٦٠٠ ـ ٧٠٠ ألف .

أما عن الدائرة الثانية فى الغرب فهى أصغر بكثير ، تنتشر فى حوض الراين بعامة وفرانكونيا والألزاس واللورين وهولندا بخاصة ، وتستقطب جميعا حول مدينة فرانكفورت . فكان بكل ألمانيا نحو ٦٠٠ ـ ٧٠٠ ألف ، الجزء الأكبر منهم فى حدود هذه الدائرة ، وكان بهولندا ١٠٠ ألف ، وبفرنسا ٨٠ ألفا . أما خارج هاتين الدائرتين فتقل أعداد وكثافات اليهود كثيرا أو كثيرا جدا : بريطانيا ١٠٠ ألف أغلبهم فى لندن ، إيطاليا ٥٠

الفا ، أما اسكندناوة فكان اليهود ممنوعين حتى منتصف القرن تقريبا ، وفى اسبانيا لم يكن ثمة يهودى على الاطلاق منذ "الاسترداد" أما خارج اوروبا فكان المقدر أن يهود الولايات المتحدة لايزيدون حينذاك رغم بداية تدفق الهجرة من الروسيا ـ لايزيدون عن نصف المليون مبعثرين فى مدنها الكبرى ، منهم ربع مليون فى نيويورك .

وفى ١٩٠٥ قدر عدد يهود العالم بأكثر من ١١ مليونا ، نصفهم فى الروسيا ورومانيا ، وثلثهم فى المانيا والنمسا ، والسدس فى بقية العالم . ولكن أثر الهجرة الى العالم الجديد كان قد بدأ ، فان أغلب هذا السدس الأخير أو نحو ١٣ ٪ من مجموع اليهود كان يحتشد فى الولايات المتحدة وحدها .

ماذا تعنى هذه الارقام وتلك التوزيعات ؟ مهما يكن من أمر ، وبغض النظر عن التطورات الطفيفة فى التوزيع بين تلك التواريخ المتقاربة ، فإن ملامح الصورة العامة واضحة ، فأوروبا هى عمليا

الوطن المطلق لليهودية العالمية ، ومايوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا . وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هى أقطاب

التوزيع حتى نهاية القرن الماضى ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطارا وأحجاما من الشرق الى الغرب : دائرة شرق أوروبا ومركزها بولندة الروسية ، ودائرة غرب أوروبا ومركزها الراين وفرانكفورت ، وأخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك .

لننظر الآن الى توزيع اليهود المعاصر لنرى الانقلاب المطلق ، فقط لنذكر أولا أن الصورة فى أوروبا قبل النازية والحرب الثانية كانت تختلف كثيرا فى أساسياتها عن صورة نهاية القرن ، وفى نفس الوقت كانت تتشابه . تتشابه من حيث أنها تمثل تكثيفا تراكميا لتلك الصورة بحكم التزايد الطبيعى ، وتختلف فى أنها بدأت تعكس نتائج وآثار الهجرة الى العالم الجديد بصورة حاسمة . إنها باختصار تمثل مرحلة الانتقال من نمط

منتصف القرن التاسع عشر الى نمط منتصف القرن العشرين .

ففى عام ١٩٣٩ قدر يهود العالم بنحو ١٥ مليونا ، (ولعل هذه أعلى قمة سجلتها ديموغرافية اليهود فى تاريخهم ، فبعدها جاءت ابادة النازية التي - وأن رفضنا مبالغات وتهويل الدعايات الصهيونية - حصدت منهم لاشك عددا كبيرا) . أما عن التوزيع ، فالمقدر أنه كان بأوروبا ١٠ ملايين أى الثلثان ، منهم ٣ ملايين فى الاتحاد السوفييتى ، ٣ ملايين فى دول شرق أوروبا الجديدة وهى دويلات البلطيق وبولندة ، أما أمريكا فكان نصيبها ٤٫٥ من المليون ، وآسيا ثلاثة أرباع المليون .

أما عام - ١٩٦٦ - وبعد أن عاد اليهود إلى النمو الطبيعي منذ نهاية الحرب ، فإن عددهم يقدر رسميا بنحو ١٣٫٤ من المليون . والرقم - قبل أن ندخل إلى تحليل جزئياته - جدير بوقفة تأمل ، فإن له أكثر من مغزى . فأولا ، اذا تذكرنا عدد اليهود

فى القرن الخامس الميلادى (٤ ـ ٧ ملايين) فان معناه أن اليهود فى ١٥٠٠ سنة لم يتضاعفوا إلا مرة واحدة أو اثنتين أو ثلاث ، بينما كانوا قد ضاعفوا أنفسهم فى القرون الخمسة السابقة بمعدلات خيالية ! ولا تفسير لهذا إلا ميكانيكية النمو والتناقص بالتناوب ، أو ميكانيكية شد الحبل المزمنة بين قوى النمو الطبيعى وقوى الاضطهاد والابادة . ثانيا ، وفى الاطار الكوكبى ، يبدو اليهود على الفور شيئا ضئيلا بالغا حد القزمية فى ديموغرافية العالم : ١٣٫٤ من المليون من أكثر ٣٣٠٠ مليون ، أو ٣ ـ ٤ فى الألف من سكان العالم ، وتبدو اليهودية بسهولة قوقعة دينية حفرية ضامرة .

والواقع أن اليهودية ، وحدها من بين الأديان السماوية ، هى التى تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية ، فى أنها ديانة "مقفلة أو مغلقة" أى تحجم عن التبشير وتجتر نفسها أبدا . واذا كان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه الى نوعين : ديانات "جغرافية" وديانات "عنصرية" ـ

يعنى على الترتيب ديانات محلية التوزيع قاصرة على وطن أو بيئة محدودة ، أو مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه - فإن اليهود يمثلون شذوذا يكاد يصل إلى حد المتناقضة الفذة .

فهم قد بدأوا ديانة جغرافية وعنصرية معا ، وبصرامة قاطعة ذلك ، ولكن منذ الشتات انتشروا أيدى سبأ فى أرجاء العالم لتصبح اليهودية عالمية أو شبه عالمية بمجرد توزيعها ، وإن كانت أبعد شىء عن العالمية بحجمها القزمى الضئيل . كذلك فقد تخلط اليهود - كما سنرى - وداخلهم بالتحول والتزاوج دماء عناصر شتى لاحصر لها ، فما عادوا عنصرا بعينه متجمدا على الديانة ، ولا الديانة عادت مرادفة لعنصر جنسى واحد . ومع ذلك فاليهود واليهودية ، بالسياسة والمذهبية ، تمثل عنصرية عاتية غاشمة تلخصها فى كلمة واحدة الصهيونية المعاصرة .

والآن كيف يبدو نمط توزيع هذه الأقلية الدينية العالمية ؟ الجدول الآتى ، الذى يدور حول أواخر

الخمسينات وكما أورده كتاب (اليهودية العالمية World Jewry لايعطى إلا ١٢ مليونا كمجموع كلى، ولذا فهو يقدم صورة رقمية قد تختلف قليلا عن صورة اليوم ، ولكنه يظل يعطى نسبا صحيحة بوجه عام .

القارة	عدد اليهود	٪
أوربا (بكل الاتحاد السوفيتى)	٣,٤٠٠,٠٠٠	٢٨,٨
أمريكا الشمالية	٥,٤٣٣,٠٠٠	٤٥,١
أمريكا الجنوبية	٦٣٣,٠٠٠	٥,٣
آسيا	١,٨٥٥,٠٠٠	١٥,٤
افريقيا	٥٨٥,٠٠٠	٤,٩
استراليا ونيوزيلند	٦١,٠٠٠	٠,٥

والحقيقة الكبرى التى يكاد يضج بها الجدول هى أن نصف يهود العالم جميعا يعيشون فى العالم الجديد ، السواد الأعظم منهم فى أمريكا الشمالية التى تعنى عمليا الولايات المتحدة بالتحديد . هذا بينما لاتضم أوروبا ، وهى التى كانت منذ نصف قرن حتى نهاية القرن الماضى

تحتكر ٨٠ ٪ من يهود العالم ، لاتضم إلا مايزيد على الربع قليلا . انقلاب كامل ، وانتقال مطلق لمركز الثقل ! وهو انتقال فى نفس الاتجاه وعلى نفس المحور التاريخى لحركة ورحلة اليهودى التائه : الى الغرب دائما .

أما آسيا وافريقيا فلا تجمعان معا الا خمس اليهودية ، وهذا أيضا شذوذ طارىء جديد لأن النسبة الكبرى منهم تتشكل من صهيونية اسرائيل الدخيلة الغاصبة ، وبغيرها لاتزيد اسيا وافريقيا على ٧ ـ ٨ ٪ من يهود العالم ، بل يهوى عدد يهود اسيا الى ١٣٦ ألف فقط وتهوى نسبة آسيا الى ٢ر٥ ٪ لتصبح أقل من افريقيا وأقل القارات جميعا باستثناء استراليا .

أما داخل القارات ففى هذا الجدول انعكاس لأهم ملامحها بحسب أرقام "اليهودية العالمية" سابق الذكر ، علما بأن النسب المئوية تشير الى نسبة يهود كل دولة الى سكان تلك الدولة .

الدولة	عدد اليهود	٪
كندا	٢٣٣,٠٠٠	١,٤
الولايات المتحدة	٥,٢٠٠,٠٠٠	٣,١
الأرجنتين	٣٦٠,٠٠٠	١,٨
البرازيل	١٢٠,٠٠٠	٠,٢
أوروجواى	٥٠,٠٠٠	٢,٠٠
النمسا	١١,٨٠٠	٠,٢
بلجيكا	٣٥,٠٠٠	٠,٤
هولندا	٢٦,٠٠٠	٠,٢
تشيكوسلوفاكيا	٢٠,٠٠٠	٠,٢
بريطانيا	٤٥٠,٠٠٠	٠,٩
فرنسا	٣٥٠,٠٠٠	٠,٨
بولنده	٤٥,٠٠٠	٠,٢
المانيا	٣٠,٠٠٠	٠,٠
المجر	١١٠,٠٠٠	١,١
ايطاليا	٣٢,٠٠٠	٠,٣
رومانيا	٢٢٥,٠٠٠	١,٣
الاتحاد السوفيتى	٢,٠٠٠,٠٠٠	٠,٨
تركيا	٦٠,٠٠٠	٠,٢
المغرب	٢٠٠,٠٠٠	٢,١
الجزائر	١٣٠,٠٠٠	١,٤
تونس	٨٠,٠٠٠	٢,١
مصر	٤٠,٠٠٠	٠,٢
أثيوبيا	١٢,٠٠٠	٠,١

الدولة	عدد اليهود	٪
جنوب افريقيا	١١٠,٠٠٠	٠,٧
الهند	٢٥,٤٠٠	٠,٠
ايران	٨٠,٠٠٠	٠,٤
اسرائيل	١,٧١٩,٠٠٠	٨٩,٢
سوريا	٥,٠٠٠	٠,١
لبنان	٦,٠٠٠	٠,٤
اليمن	٣,٥٠٠	٠,١
عدن	٨٠٠	٠,١
استراليا	٥٧,٠٠٠	٠,٦

والجدول حافل بالحقائق المثيرة الجديرة بكل ملاحظة وتدبر . فأولا ، كما انتقلت الصدارة من أوروبا الى أمريكا الشمالية ، انتقلت من الروسيا (الاتحاد السوفييتى) الى الولايات المتحدة التى هى اليوم المعقل الأكبر لليهودية حيث تضم وحدها ٤٤ ٪ منها . وقد نما عدد اليهود فى الولايات المتحدة من ٤٫٠٨١٫٠٠٠ فى ١٩٢٦ الى ٤٫٤٦١٫٠٠٠ فى ١٩٣٦ ، ثم ظل بعد ذلك يرد لسنوات طوال متتابعة على أنه ٥ ملايين بحسب

تقدير الأجهزة اليهودية . وكما يعلق بيرجلBergel فذاك مجرد تقدير تخمينى لاشك ، وأهم من ذلك أنه مبالغ فيه على وجه اليقين ككل أرقام الأقليات . وأيا ماكان ، تظل كتلة الولايات المتحدة هى أضخم حشد يهودى فى العالم .

ثم يأتى الاتحاد السوفييتى كالثانى فى العالم بسدس مجموع اليهود أو حوالى ١٦ ٪ . وبهذا تكون الولايات المتحدة والاتحاد هما الدائرتين الكبريين الآن فى محيط اليهودية العالمية اللتين ورثتا دائرتى شرق أوروبا والراين فى القرن الماضى ، أو قل إن دائرة الراين الصغرى هاجرت وعبرت المحيط لتصبح هى مركز الثقل الطاغى . ويلى الاتحاد اسرائيل الصهيونية فى فلسطيننا المحتلة لتكون الثالثة في العالم ، وهى لاتضم من يهود العالم الا ١٣ ٪ .

واذا كانت هذه هى أرقام أواخر الخمسينات ، فقد نشرت أخيرا أرقام حديثة عن تعداد اليهود فى الدول الثلاث السابقة يمكن على أساسها أن نرى تغيرا ملحوظا فى أوزانهم . فالكتاب السنوى

اليهودى الأمريكى يقدر عدد يهود العالم فى أول ١٩٦٦ بنحو ١٣٫٤ من المليون نسمة ، منهم ٥ ملايين فى الولايات المتحدة أى بنسبة ٣٧ ٪ ٢٫٤٨٦٫٠٠٠ فى الاتحاد السوفييتى بنسبة ١٨ ٪ ، ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ فى اسرائيل بنسبة ١٦ ٪ وبمقارنة هذه الأرقام والنسب بأرقام أواخر الخمسينات يرجح لدينا أن بعض التغييرات هى فى الحقيقة مجرد تصحيحات لأرقام تقريبية سابقة . والمهم على أية حال أن نسبة الولايات المتحدة قد انخفضت قليلا ، بينما ارتفعت نسبة الاتحاد السوفييتى ، وارتفعت نسبة اسرائيل ـ لاشك بالهجرة ـ أكثر وأكثر .

هذا إذن عن "الثلاثة الكبار" ـ كما يقال ـ فى اليهودية العالمية . ولكن ثمة بعدها دول تتدرج من حوالى نصف المليون الى ثلث المليون الى ربع المليون ، هى على الترتيب بريطانيا نصف ثم الارجنتين وفرنسا ثلث ثم كندا ورومانيا ربع . ثم تلى بعد هذا ٥ دول يزيد عدد اليهود فى كل منها على المائة ألف ، هى على الترتيب ، المغرب

فالجزائر فالبرازيل فالمجر فجمهورية جنوب افريقيا ، مع ملاحظة أن الهجرة أخيرا من المغرب والجزائر قد هبطت بأعداد اليهود فيهما كثيرا جدا حتى خرجت بهما من هذه المجموعة .

من هذا التصنيف الحجمى لايمكن الا أن نصل الى نتيجة بالغة الأهمية إن لم تكن ثورية حقا . فاذا نحن أضفنا مجموع الثلاثة الكبار لاتضحت لنا حقيقة بالغة الخطورة وهى أن ٨ر٩ مليون يهودى من ١٣ مليونا أو نحو ٦٩ ٪ تحتشد جميعا فى ثلاث من دول العالم وذلك بحسب أرقام الخمسينات أو ٩ر٧٨٥ر٠٠٠ من ١٢ر٤٠٠ر٠٠٠ اى بنسبة ٧١ ٪ بحسب أرقام ١٩٦٦ .

كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول الثلاث عشرة فئة ١٠٠ + الف لوجدناها تحتكر وحدها ١١ر٢٠٧ر٠٠٠ يهودى من المجموع العالمى البالغ حينذاك ١٢ر٠٣٥ر٠٠٠ أوزهاء ٩٣ ٪ . فما معنى هذا ؟

قد يكون اليهودى عالمى التوزيع ، بمعنى أنه

لاتكاد تخلو دولة فى العالم منه ، وقد يكون توزيع اليهودية على طرف النقيض من توزيع الاسلام الجغرافى الذى ينفرد من بين الأديان بمحيط مطلق يكاد يكون متصلا بلا انقطاع ، ولكن ليس صحيحا أن "تحت كل حجر فى العالم يهوديا" ... إنما الأصح أن نقول أن توزيع اليهود العالمى توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحول أحيانا الى "تراب" رمزى بحت ، بينما أن ٦٩ ٪ أو ٧١ ٪ من يهود العالم يتكدسون ككتلة من "الاحجار الضخمة" فى ٣ دول ، ٩٣ ٪ فى ١٣ دولة . وبينما تتراوح نسب اليهود الى عدد السكان الكلى فى دول الجاليات الكبرى (ماعدا فلسطين المحتلة) بين ٣ ٪ كما فى الولايات المتحدة وبين ١ ٪ ، تتأرجح فى بقية دول العالم حوالى ١ر٠ ، ٢ر٠ ، ٣ر٠ ، ٤ر٠ فى الأعم الأغلب ، وكثيرا ماتكون أقرب الى الصفر .

أما اذا عدنا الى التوزيعات الاقليمية ، فسنجد الصورة أوضح مايكون ، ولكن أيضا أشد مايكون ثورية فى أوروبا ، فثمة دائرتان أو بالأحرى الآن

نواة ضخمة ونوية ثانوية . النواة فى شرق أوروبا (٣ ملايين) الاتحاد السوفييتى بمليونين وربع المليون ثم رومانيا بربع مليون ، والمجر بنصف ذلك . ومن الواضح أن هذه النواة تقلص ضامر لنواة القرن الماضى الثقيلة بعد أن خفت فى القلب وقلمت أطرافها فى بولنده وتشيكوسلوفاكيا وشرق المانيا والنمسا بفعل الهجرة والحرب وعمليات التصفية النازية . أما النوية (أقل من المليون) ففي بريطانيا وفرنسا أساسا ، وهى بهذا قد ورثت نوية الراين القديمة التى تبددت الآن تماما وأصبحت المانيا مثل بولنده من أقل دول أوروبا يهودا . وخارج هاتين الدائرتين ينتشر اليهود فى شبه تجانس على نحو ما ، ببضعة آلاف أو عشرات الآلاف لا أكثر فى بقية وحدات القارة . وبهذا وذاك جميعا نرى أن توزيع اليهود وكثافتهم تقل سريعا فى أوروبا شمال الألب من الشرق الى الغرب .

وعلى العكس من هذا انحدارهم Gradient على الشاطىء الآخر من البحر المتوسط فى شمال

أفريقيا ، فهم يقلون عددا ونسبة كلما اتجهنا من الغرب الى الشرق ، من المغرب الى الجزائر الى تونس الى مصر . ونطاق يهود أفريقيا العربية ، الذى كان يزن قبل الخروج الأخير نحو نصف المليون ، يكاد يكون المجال اليهودى الوحيد فى القارة باستثناء الطرف الجنوبى الأقصى فى جمهورية جنوب أفريقيا حيث جذبهم الاستعمار السكنى (١١٠ آلاف) . وكلا المجالين - سيلاحظ - خارج مدارى بوضوح . أما بين المدارين فقليلة جدا هى الوحدات التى تعرف اليهود قدامى أو جددا ، وقليلة هى جدا أعداد اليهود فيها على أية حال - كأثيوبيا وبعض وحدات الاستعمار الأوروبى السابق فى مثلث القارة الجنوبى .

أما فى آسيا العربية - باستثناء فلسطين المحتلة منذ قيام اسرائيل - فقد أصبح اليهود مجرد بقايا لا وزن لها فى أى مكان ، بضعة آلاف أو مئات فى بعض وحدات منها وليس كلها . أما قبل ذلك فكانت أهم تجمعاتهم فى العراق (١٠٠ ألف) واليمن (٧٠ ألفا) بينما خلت وتخلو منهم

بقية الجزيرة العربية . واليوم تأتى إيران كأكبر جالية يهودية فى آسيا خارج العالم العربى . (٨٠ ألفا) تليها الهند (٢٥ ألفا) - أما يهود تركيا فمركزون عمليا فى اسطنبول على البر الأوروبي لا الآسيوى . وربما أتت بعد ذلك جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بجالياتها اليهودية القديمة ، وجمهورية بيروبيدجان فى الشرق الأقصى السوفيتى بمستعمرتها الجديدة . وعدا هذا فبقية آسيا "خالية" من اليهود إلا من أعداد رمزية بحتة هنا وهناك .

أما فى العالم الجديد فإن اليهود يتركزون أساسا فى الشمال الشرقى ، الربع الغنى ، ثم تلى نوية ثانوية فى الغرب الأوسط وولايات الهادى . أما فى الجنوب عامة وولايات الجبال فيقلون كثيرا . وبالمثل فى أمريكا اللاتينية يتركز اليهود على السواحل الشرقية أولا ، وفى النطاق دون المدارى أو خارج المدارى ثانيا ، كما فى البرازيل والأرجنتين . ومن هذا النمط ، واذا تذكرنا معه انتقال أحد مركزى ثقل اليهود فى

أوروبا من وسطها الى غربها ، يمكننا بسهولة أن نتصور الكتلة الكبرى من اليهودية العالمية تتجاذب كما لو كانت مغناطيسيا نحو سواحل المحيط الأطلسى شرقية وغربية . فاذا ما أضفنا الى ذلك نمط التوزيع فى أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال افريقيا تقليديا فى المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الاغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطىء ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضى تتركز أساسا فى القلب القارى للعالم القديم .

طفيليات المدن

تلك بصورة عامة الخطوط العريضة فى توزيع اليهود على سطح الأرض . غير أننا ننسى نصف الحقيقة اذا نحن أغفلنا خاصية نادرة وشديدة الالحاح والتواتر فى التوطن اليهودى ، وأعنى بها سكنى المدن .

فاليهود بالدرجة الأولى سكان مدن ، وسكان

مدن كبرى بالدقة ، ثم هن الى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم فى الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين الى جوارها . وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديما كان أو حديثا ولاتتبلور كما تتبلور فى وقتنا هذا . والأمثلة تغنى عن الحصر ، ولعل أوضحها فى الذهن المثال الامريكى .

يهود نيويورك = ٢ر٥٦٠ر٠٠٠

بينما يهود اسرائيل ٢ر٣٦٤ر٠٠٠

يهود نيويورك فى ٥ ضواحى أساسا : مانهاتن ، بروكلين ، برونكس ، كوينز ، ريتشموند ، نصف مدرسى نيويورك يهود لذا المدارس تغلق السبت .

فمدينة نيويورك الكبرى تضم وحدها أكثر من مليونين ونصف مليون يهودى ، أى أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة وما يكاد يقارب كل يهود الاتحاد السوفيتى . وهى بذلك أكبر "ارساب"



شلما مصر الأول

يهودى فى أى نقطة منفردة فى العالم : إنها تل أبيب الكبرى ، بل أنها هى إسرائيل الكبرى . وبقية يهود الولايات موزعة بين المدن الكبرى بصرامة . وتدل الدراسات السكانية فى الولايات المتحدة على أن عدد اليهود فى المدن يتناسب تناسبا طرديا مع أحجامها ، فهم أقوى ما يكون فى نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو ، بينما لا وزن لهم مثلا فى مدينة بوسطن .

هل تريد مزيدا من الأمثلة ؟ فى كندا حيث كل اليهود ٢٣٣ ألفا نجد ٧٧ ألفا فى تورونتو ، ٦٥ ألفا فى مونتريول . فى باريس ١٧٥ ألفا أى ٥٠٪ من كل يهود فرنسا البالغين ٣٥٠ ألفا . فى لندن ٢٨٠ ألفا من أصل مجموع ٤٥٠ ألفا . مدينة تونس ٥٥ ألفا بينما أن دولة تونس ٨٠ ألفا . اسطنبول ٥٠ ألفا فى حين أن كل يهود تركيا ٦٠ ألفا . فى جمهورية جنوب افريقيا ١١٠ آلاف ، ٥٠ ألفا منهم فى جوهانسبرج وحدها . وفى استراليا يتركز فى ملبورن ٢٥ ألفا وفى سيدنى ٢٢ ألفا من مجموع كلى قدره نحو ٥٧ ألفا . وهكذا وهكذا .

حتى فى فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون الى سكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٧٥٫٩٪ من سكان إسرائيل يتكدسون فى المدن ، وكانت بذلك ثالثة دول العالم بعد أسكتلندا ثم انجلترا وويلز فى درجة المدنية Urbanism والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية . ولكنها ببساطة "حثالة مدن" العالم انصبت واستقطبت فى دولة ..

والمعنى المباشر لهذا كله أن اليهود ، وقد رأينا أن توزيعهم الفعلى ليس عالميا بالصورة المطلقة المرسومة فى أذهاننا ، أبعد شىء عن التوزيع "الغطائى" الشامل وإنما هم أدنى الى التوزيع النقطى البحت . الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعا عالميا بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هنا وهناك . على أن هذا إن حدد مجالتهم الجغرافية ، فانه عادة ما يجعل منهم

أقليات مهمة أو خطرة فى بيئاتهم المدنية تلك ، بل قد يؤلفون الأغلبية فيها أحيانا كما عرفت بالفعل بعض مدن بولندا فى القرن الماضى ، مما يفسر سيطرتهم المادية والسياسية من ناحية ؛ ويضخم شعورهم بالذات من ناحية أخرى ، وبالتالى يفاقم من شدة التعصب ضدهم والاضطهاد من ناحية ثالثة ..

إلام نرد هذه الظاهرة المميزة ـ الى غريزة "طفيلية" استغلالية فى طريقة الحياة اليهودية ، أم الى قوى ضغط خارجية ؟ يرى البعض أن قوانين العصور الوسطى حرمت على اليهود امتلاك الأرض وفرضت عليهم حياة "الجيتو" . ولكن البعض الآخر يرى أن اليهودى مرتبط بالمال والتجارة والسمسرة والربا أبدا ، وأنه يكره العمل اليدوى الشاق أو فى الخلاء ، يكره بذل الجهد الجسمانى بعامة ، ويفضل أن يعيش بعقله لا بعضله Brain not Brawn من هنا – وليس من هناك يبتعد عن الزراعة أولا وعن الصناعة الى حد بعيد ، ولذا لا يكثر فى المناطق الزراعية أو

الصناعية ويتقاطر على العكس فى المدن حيث الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية .. الخ .

والواقع أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودى زراعى واحد يستحق الذكر ، وباستثناء بعض خلايا معزولة فى الروسيا القيصرية وبولندا القديمة لا نعرف فى التاريخ الحديث أن اليهودى ارتبط بالزراعة . وبالمثل فى التعدين والصناعة : فمن الغريب ان الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ـ على شدة تباين وتناقض مذاهبهما ـ لا يعرفان يهوديا واحدا من عمال المناجم بالذات ! وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة ، فقديما كانت كلمة اليهودى مرادفة لكلمة "التاجر" ، وحديثا يحتشد اليهود فى الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين فى ولاية نيويورك ـ ودورها المحورى فى الاقتصاد الامريكى تلخصه ببلاغة الكناية الساخرة

"بالولاية الامبراطورية Empire State اشارة الى ناطحة السحاب المشهورة !ـ نجد نصف هذا المجموع من اليهود .

ومن الواضح من هذا كله أن طراز حياة اليهودى هو الأعمال غير المنتجة والوظائف الطفيلية . ومن المحقق أن هذا سبب أصيل وعميق فى كراهية الأمم لهم ، ولعله ـ أكثر من التعصب الدينى البحت ربما ـ المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم . واليهودى بهذا كله قد أصبح مركبا اقتصاديا ـ اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة : كذاك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين "يهود جنوب شرق آسيا" ، وكذاك يوصف الهنود فى مدن ساحل أفريقيا الشرقية "بيهود شرق افريقيا" ! ومهما يكن من أمر ، فان الحقيقة تظل قائمة من أن اليهود سكان مدن أساسا ، أكاد أقول "طفيليات مدن" أساسا ، وتظل لها نتائجها الاجتماعية والجسمية التى ستنعكس كما سنرى

على مشكلتهم الانثروبولوجية .

مجتمــع الجيتــو

لقد رأينا حتى الآن أن توزيع اليهود توزيع كوزموبوليتانى أولا ، ومتروبوليتانى ثانيا ، ولكن يبقى اخيرا أن نضيق بؤرة عدستنا أكثر واكثر لنرى الخلية النهائية والأساسية فى توزيع اليهود .. أنها الجيتو Ghetto حى اليهود أو معزلهم فى المدينة ! فطوال عصور التاريخ ، وفى كل البلاد والأقاليم ، أرتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة السكنية فى حى خاص من المدينة : الجيتو كما يقال له فى كثير من بلاد أوربا وامريكا ، أو حارة اليهود فى المانيا Judengasse وكما نقول نحن فى مصر، وهو اليوديريا فى أسبانيا الوسيطة، Juderia أو هو الملاح Mellah كما يقال فى مدن المغرب العربى، أو القاع قاع اليهود كما فى مدن اليمن .

وكثيرا ماكانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة ، واحيانا كان الحى برمته يقام خاج أسوار المدينة الأم ذاتها

أمعانا فى العزل . وفى الغالب الأعم يؤلف حى اليهود قطاعا من الأحياء الفقيرة المنحطة من المدينة ، ويكفى فى هذا الصدد أن نذكر كمجرد مثال حى ستينى وهو ايتشابل Whitechapel Stepney فى الايست اند نطاق الفقر الشهير فى شرق لندن . ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا الحصار ليعيشوا فى الأحياء الراقية غير اليهودية ، كما أن تطور الحياة الاجتماعية يقلل الآن كثيرا من صرامة عزلة الجيتو .

ومع ذلك وعلى الفور نفهم أن العزل السكنى Residential Segregation هو قانون اليهودى فى المدينة . وكثيرا ما يرتد هذا العزل الى قوانين الدول والشعوب التى يعيش اليهود بين ظهرانيها ، يفرضونه بالقوة على اليهود تباعدا عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو الباريا + شنخشا كما يعبر ماكس فيبر ، وكذلك احكاما للرقابة عليهم وحصرا لاخطارهم . ولكن كثيرا أيضا ما يرجع هذا الى صنع اليهود أنفسهم ، سعيا منهم كأقلية مسحوقة الى التركز والاحتشاد فى نقطة واحدة ضمانا للحماية فى حظيرة واحدة . لقد بدأ اليهود

رحلا فى عصر التوراة ، وظلوا رحلا فى عالم الشتات ، وككل قطعان الرحل أبوا إلا أن يعيشوا فى حظائر مسورة داخل مدن الشتات ..

الأصل الجنسي لليهود

حتى الآن لم نعرض إلا لتاريخ اليهود عبر الزمان ولتوزيعهم فى المكان ، دون أن نتعرض للجانب الانثروبولوجي البحت أصلا وجنسا . وقد آن لنا أن نسائل أنفسنا : من هم اليهود وأين يقعون فى العائلة البشرية ؟ ما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم ، والى أى مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد الى بنى إسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد ؟ وثمة علامات استفهام أخرى تنبع بالضرورة من تلك : هل ثمة من نقاوة جنسية يمتاز بها اليهود ؟ ما مدى الصحة فى القول بأنهم والعرب "أبناء عمومة" ؟ على هذه الأسئلة يتوقف كثير من المزاعم والادعاءات السياسية ، وعلى اجاباتها يتوقف الرد عليها وتفنيدها .

والواقع أننا ينبغى أن نلتفت بوعى الى أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الانثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسى كما يتمثل فى الأطماع السياسية ، كما ينبغى أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الانثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقا بحيث تخدم دعاواهم الاستعمارية فى فلسطين ، وصميم القضية أنهم ، إذ يبحثون عن مبرر من الجنس للعودة الى "أرض الميعاد" يشرع اغتصابهم لفلسطيننا العربية ، يركزون بؤرتهم على "النقاوة الجنسية" لليهود ، بمعنى أنهم بعد أن يخرجوا ببنى إسرائيل من فلسطين الى الشتات يلحون فى أنهم ظلوا نقاة بمنأى عن الاختلاط الدموى مع الشعوب التى انتشروا بينها (الجوبيم كما يسميهم اليهود ، أو الجنتيل Gentilles كما يسمون هم أنفسهم ، أو «الأمم» كما نقول نحن العرب) ، وأن يهود اليوم أينما كانوا هم بذلك النسل المباشر لبنى إسرائيل التوراة ، ومن ثم فهم فى آن واحد مجموعة جنسية واحدة ، وقومية تاريخية واحدة ، مثلما هم طائفة دينية

واحدة . ومن ذلك جميعا يخلصون ، لا الى تدعيم أسطورة "الشعب المختار" ، الشعب النقى الخالص فحسب ، وإنما كذلك وفى الدرجة الأولى الى تدعيم حق العودة المزعوم واغتصاب فلسطين .

بهذا تصبح قضية النقاوة الجنسية قضية محورية فى المناقشة بالضرورة . والحقيقة أن فكرة النقاوة هذه منتشرة وشائعة الى حد غير عادى ، لا فى التقاليد الدارجة عند رجل الشارع الاوروبى فحسب ، ولكن حتى بين بعض من علماء الاجناس أيضا - لاشك لاعتمادهم على كتابات اليهود أنفسهم عن أنفسهم ، وهى الكتابات التى تبدأ من فكرة قبلية مسبقة موجهة الى أهداف بعيدة غير موضوعية . ولكن هناك - لحسن حظ العلم - من وقف طويلا عند المشكلة باستقلال وموضوعية ، وأثبت أن دعوة النقاوة أبعد شىء عن الحقيقة والواقع .

وبهذا نكون ازاء مدرستين أو اتجاهين : اتجاه يرى اليهود متميزين مختلفين فى صفاتهم

الجنسية عن السكان المحيطين مهما وأنى كانوا ، وبالتالي يؤلفون عبر العالم وحدة جنسية أو نمطا اثنولوجيا متفردا بارز الوضوح . واتجاه آخر يراهم صورة مقربة من السكان المحيطين في كل مكان وانعكاسا لتركيبهم وتكوينهم الجنسى ، ومن ثم لا يؤلفون الا وحدة دينية لا جنسية أو جينية . وبين الأنثربولوجيين، يمكن أن نتخذ كون Coon رمزا بدرجة أو بأخرى للاتجاه الأول، بينما يقف ربلى Ripley علما على الاتجاه الثانى.

ونحن هنا سندير مناقشتنا بالفعل حول هذه الفكرة الفاشية فكرة النقاوة ، فنبدأ أولا باعادة تركيب الصورة والأصل الجنسى ليهود التوراة فى فلسطين كنمط اثنولوجى محدد ، ثم نتتبع الصفات والملامح التشريحية والجسمية لليهود فى المهجر والشتات لنرى الى أى حد تتفق مع ذلك النمط الأبوى الأصلى القديم . وفى هذا المجال سنحاول أن نعزل أولا تلك الصفات والملامح التى تتكيف بالبيئة طبيعية أو اجتماعية بحسبانها عناصر مكتسبة لا تكشف أصلا أو عرقا ، فلا يبقى بعدها

فى البؤرة الا الصفات الوراثية الدفينة الحقة التى يمكن لها وحدها أن تقرر وتحدد مسافة الخلف أو القرب بين يهود التوراة ويهود اليوم ، ومن ثم مدى النقاوة فالاستمرارية الجنسية بينهما . وبذلك كله نستطيع أن نحدد موقفنا من النظريتين الأساسيتين نظرية النقاوة ونظرية الاختلاط .

الاجماع بين الانثروبولوجيين كامل على أن يهود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفاتها التى نعرف ونرى اليوم من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول الى توسط فى الرأس وقد اختلط يهود بنى إسرائيل فى فلسطين مع الجماعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين ، وتمثلوا كثيرا من دمائهم وابتلعوا أعدادا منهم حتى أصبحوا هم أنفسهم مجموعة مركبة عبرية بعامة ، ولكن تلك الجماعات نفسها لم تكن لتخرج عن نفس السلالة الجنسية القاعدية المتوسطية ، ومن ثم لم يغير الاختلاط معها النمط الاساسى لليهود فى قليل او كثير .

والأدلة المباشرة لدينا محدودة ولكنها مقنعة . فثمة قليل من الجماجم عثر عليها فى فلسطين وخارجها تعود الى عصر سليمان وبعده ، وتشير الى سلالة البحر المتوسط مع قلة نادرة من حالات عرض الراس . وأهم من ذلك رسوم وتماثيل قدماء المصريين والبابليين التى تحدد كل الجماعات والعناصر التى ذكرنا ومن بينها يهود فلسطين الأوائل التى لا تختلف عن ملامح العموريين والساميين . فبينما يبدو الفلسطينيون كالأوروبيين من سلالة البحر المتوسط ببشرة فاتحة اللون ، يبدو العموريون طوال الوجوه ، ببشرة مصفرة وأنوف محدبة ، ويبدو الساميون - الذين يشملون لاشك الكنعانيين - بجباه مائلة وأنوف مبالغ فيها كأنوف العرب والعراقيين اليوم . وعلى هذا يمكن القول أن يهود فلسطين أيام داود كانوا سمرا من سلالة البحر المتوسط ، على عدة أنماط ، واحد منها على الأقل طويل الوجه أقنى الأنف . وإذا أضفنا دلالة التوراة فيمكن أن نردف قصر القامة ، ففى التوراة يصف سفر الاعداد الإسرائيليين

بالمقارنة إلى العموريين أبناء أناك بأنهم "as grasshoppers in their own sight"

ويعنينا هنا أن نقف قليلا عند عنصرين بعينهما وهم العموريون والحيثيون . فثمة نظرية قديمة كانت ترى فى العموريين (الشعب الاحمر) عرقا "نورديا" اشقر ، وكانت ترد ما فى يهود اليوم من شقرة اليهم . ويبدو أن اصل هذه النظرية يرقى إلى مؤرخ الشرق القديم سايس Sayee وثمة نظرية قديمة كذلك كانت تعد الحيثيين من الأرمينيين Armenoids عراض الرءوس، واليهم كانت ترجع عامل عرض الرأس وتحدب الأنف فى يهود اليوم، ولعل أول من روج لهذه النظرية هو ينسن .Jensen

وهاتان النظريتان : اللتان كان هادون من انصارهما ، يمكن الترتيب على أساسهما للزعم بأن اليهود يبدأون فى موطنهم الأول وهم مختلطون ويمثلون اكثر من نوع أو نمط جنسى محليا ، وبالتالى يمكن على أساسهما تفسير اختلافات الصفات الجنسية ليهود اليوم داخل حدود نظرية

النقاوة الجنسية . غير أن كون يثبت خطأ النظريتين نهائيا فلم يكن العموريون شقرا أو حمرا بل صفرا ، ولا كان الحثيون أرمينيين بصورة ما ، بل ليس هناك دليل تاريخى على اختلاط مهم لليهود بهم .

لنحاول الآن أن نبحث عن يهود معاصرين يمكن اعتبارهم بغير شكوك استمرارا نقيا لبني إسرائيل عصر التوراة حتى نقارن بين الطرفين . ليس بالعالم اليوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات اليهودية منذ أولى مراحل نشأتها . ولهذا السبب لسنا نستطيع أن نعتبر ، أن أى جماعة من اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين تمثل تمثيلا صادقا يهود فلسطين أيام المسيح . ولكن لعل السامريين هم المجموعة الوحيدة من اليهود التى يتفق الجميع على أنها ظلت فى فلسطين كطوال التاريخ حتى يومنا هذا فى عزلة كاملة وتزاوج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها ، وأنهم أكثر من أى مجموعة أخرى يمثلون العرق اليهودى الفلسطينى

الأصلى القديم ».

هم فى قرية من قرى نابلس يقيمون ، وعددهم اليوم لا يعدو المائة أو المائتين ، أى أنهم يتجهون من قديم نحو الانقراض المحقق . هم متوسطو الرءوس الوجه طويل ضيق ، ولكن القامة أطول من المألوف المعروف عن اليهود ، كما يبدون نسبة من اللون الفاتح أكبر من المعهود فى سلالة البحر المتوسط ، ولو أن السمرة تظل سائدة . وبالنسبة ليهود فلسطين بعامة فى أوائل هذا القرن ـ أى قبل هجرة الصهيونية ـ فالقامة قصيرة ، والرأس متوسط والوجه ضيق كثيرا ، والأنف الأقنى يسود بين نحو ٨٠٪ من العينة المدروسة . أما الشقرة فلا وجود لها .

صفات اليهود الجسمية

لعل الصورة الجسمية لليهودى القديم ، يهودى فلسطين قبل المسيح ، قد اتضحت معالمها العامة لنا الآن . ونستطيع إذن أن ننطلق فى جولتنا حول

العالم لنقارن اليها صفات يهود اليوم . ولنبدأ ببعض الصفات والملامح الأكثر شيوعًا فى التصور الدارج عن اليهود ، ولكن الأقل مغزى فى الدلالة الانثروبولوجية ، لنبدأ بالقامة وما يتصل بها من محيط الصدر ، ثم بملامح الوجه عامة والأنف خاصة .

من الشائع جدا عن اليهودى أنه قصير القامة ، إن لم يكن حقا كالقزم أحيانا . وهذا صحيح علميا ـ أو بالدقة كان ـ الى حد كبير . فالدراسات المترية تظهره فى أغلب الحالات فى كل الدنيا أقصر من غير اليهود بضع بوصات تزيد أو تقل فقط بحسب طول القامة السائد حوله . وفى المتوسط لا تتعدى تلك القامة عند اليهودى الناضج قامة صبى فى السادسة عشرة من الجنتيل الأمريكى . وحيث ترتفع نسبة اليهود عدديا ـ كما كانت الحال فى بولنده فى القرن الماضى ـ يخفضون بوجودهم من مستوى أو متوسط القامة العام بنسبة وجودهم وبنسبة طول الجنتيل . ولا تكاد تعرف الانثروبولوجيا استثناء



طفلان يهوديان

لهذه القاعدة الا حالات نادرة : ففى يهود التركستان تتساوى القامة مع السكان المحيطين من التاجيك ، وفى أوديسا وريجا وجد اليهود أطول من المسيحيين ، وفى تونس وجدوا أطول من العرب ، وقد رأينا منذ قليل أن السامريين ليسوا أطول من جيرانهم الفلسطينيين فحسب ولكنهم يعدون طوال القامة على أى مستوى .

هل يمكن أن يعد قصر القامة اذن صفة جنسية أصيلة من المركب اليهودى ؟ كلا على الأرجح ، رغم ذلك ورغم اشارة التوراة الى الظاهرة . فمن ناحية لا يمكن أن نتكلم عن وحدة النمط اليهودى من حيث القامة ، لأنه برغم سيادة القصر فان هناك تفاوتا محسوسا بين مجتمعات اليهود المختلفة ، وكذلك يتراوح اشكناز أوروبا فيما بينهم كثيرا . ومن ناحية أخرى فالثابت الآن علميا بلا مراء أن القامة صفة جسمية مرنة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ، بالصحة والتغذية ، وأنها صفة مكتسبة وظاهرة اجتماعية مثلما هى ، أو أكثر مما هى ، وراثية جامدة .

واغلب الظن أن قصر قامة اليهود هو وليد الجيتو وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد . كما أن من المعتقد أن تفشى عادة الزواج المبكر جدا بين اليهود حتى وقت قريب كانت مسئولة عن نوع من الانحطاط الجسمي انعكس على القامة . أما حين وحيث تزول هذه الظروف البيئية فان قامة اليهودى تنطلق لتقترب من قامة الجنتيل كما فى حى الوست اند الراقى بلندن وكما حدث حديثا فى الولايات المتحدة . ومن قبل كان اليهود أطول قامة فى أوكرانيا الخصبة منهم فى ليتوانيا الفقيرة المجدبة .

عدا القامة الضئيلة ، يوصف اليهودى عادة بضيق الصدر . والأدلة العلمية تؤكد مرة أخرى الفكرة الدارجة فتجد محيط الصدر أقل كثيرا من المتوسط العام عند الجنتيل ، وسعة الرئتين ضئيلة والقفص الصدرى مسحوبا مسطحا . والقياسات من مختلف أجزاء العالم لا تختلف فى هذا الصدد . ولكن مرة أخرى نعود فنجد أن هذه نتيجة طبيعية لنمط الحياة وللبيئة الى جانب

الحرفة . فالحرف الداخلية التى فرضها الجيتو على اليهود ، لاسيما الحرف اليهودية التقليدية منها كالخياطة والصياغة وصناعة الأحذية .. الخ ، ترتبط وثيقا بتلك الظاهرة . ولذا فانها ـ كالقامة ـ لا يمكن أن تكون صفة جنسية أصيلة ولا دليلا قاطعا له وزنه في تحديد الأصول الوراثية لليهود . وفي الولايات المتحدة حيث تحسنت بيئة اليهود جدا تختفى الظاهرة تماما .

وننتقل بعد هذا الى جانب يبدو على السطح أكثر خطورة ومغزى ، ولعله أكثر ما يقال عن اليهود شيوعا عند الرجل العادى ، وأعنى به ملامح الوجه أولا والنظرة العامة أو "السحنة" ثانيا . فالشائع الدارج أن اليهودى يتصف تقليديا بالسمرة (والمقصود هنا سمرة الشعر والعين لا البشرة ، أى برونت) ، ثم بالأنف الأقنى الضخم ، والعيون المنتفخة ، والشفاة الممتلئة . أما عن النظرة العامة فالمقول الشائع والمتداول هو أن هناك "نظرة يهودية" أو "سحنة يهودية" بطريقة ما تميز اليهودى لأول وهلة ويعرفها هو

جيدا عن نفسه كما يعرفها الجنتيل . فما مدى صحة هذه الأفكار الدارجة ، وما قيمتها فى تحديد نقاوة وأصل اليهود ؟

أما أن اليهودى أسمر الشعر والعين ، فحقيقة تؤكدها الدراسة العلمية ، ولكن لا كقاعدة عامة مطلقة وإنما كاتجاه سائد . وفى أجزاء كثيرة من اوروبا وجد أن نسبة السمر بين اليهود تصل احيانا الى ثلثى العينة المدروسة ، وأن هذه النسبة تعادل ضعفى مثيلتها بين الجنتيل . (ونسبة السمرة دائما أعلى - بالمناسبة - بين اليهوديات منها بين اليهود) . ومع ذلك ففى مناطق معينة من بولندا وجد أن نحوا من ثلث الى خمسى اليهود ذوو شعر فاتح . كذلك فمن الثابت أن هناك عنصرا أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين ، يجنح بهم الى اللون الأصهب Rufous وحتى بين السفارديم هناك كثير من الشقر . وتبدو الشقرة واضحة كذلك فى يهود الالزاس واللورين ، وأوضح فى يهود انجلترا .

نصل من هذا الى أن سيادة السمرة بين اليهود ليست إلا نصف الحقيقة ، وربما كان أهم منها أنه ليس هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن تفاوت لون الشعر والبشرة بينهم مابين شقرة وسمرة إنما هو ظاهرة لا يمكن أن تفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة أو بأخرى . فمن حيث الشعر والعين ، لا نجد فى فلسطين عامة شقرة ما (قبل إسرائيل) بينما يبدى قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة ، وفى العراق ودائرة القوقاز تسود السمرة ، هذا بينما فى شمال افريقيا تحدث الشقرة بنسبة ٥٪ ، ترتفع الى نسبة السدس بين سفارديم سالونيك واسطنبول ، وفى القرم ٧٥٪ سمر من البرونت والباقى من لون فاتح ، ثم بين اشكناز أوروبا تهبط نسبة السمر الى ٥٥٪ وتتحدد نسبة الشقر بنحو ١٠٪ والباقى لون فاتح ، حتى إذا ما وصلنا الى يهود ليتوانيا كان ٥٥٪ من لون فاتح . فهذه إذن سلسلة تصاعدية يبدى لون اليهود فيها معامل ارتباط وثيق مع لون السكان المحيطين السائد .

ويرى كون أن أشكناز أوروبا قد حققوا لانفسهم توازنا ثابتا بطريقة ما فى لون الشعر والعين : ففى البلاد التى يغلب على الجنتيل فيها الشقرة أو الشقرة على السمرة نجد اليهود أميل الى السمرة نسبيا ، وفى البلاد التى تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فان اليهود تميل الى أن تكون أكثر شقرة . وسواء اتفق هذا الرأى مع معامل الارتباط الواضح فى السلسلة السابقة أو تعارض معه ، فالشىء المؤكد أن اليهود ليسوا متجانسين لونا .

أما عن لون البشرة نفسها ، فالفروق بين اليهود ليست أقل حدة ، وليس ثمة نمط موحد البتة . فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة بعامة . وهم كذلك فى التركستان حيث يشبهون فى لونهم لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم فى غزارة شعر الجسم . أما فى اليمن فهم أن بدوا أفتح قليلاً من اليمنيين فما ذاك إلا لحياتهم فى الظل بعيدا عن العمل فى الخلاء . أما فى أوروبا فلا يختلف

الاشكناز عن الأوروبيين فى لون البشرة .

وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض ، فثمة "اليهود السود" الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثى لليهود الى أشكناز وسفارديم وشرقيين . من هؤلاء الفلاشة Falasha فى شمال الحبشة، وهم الى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الأجاو الكوشية القديمة. ومنهم كذلك فى أفريقيا الدجاتون Daggatuns في جنوب الصحراء الكبرى. أما فى آسيا فهناك اليهود السود من التاميل فى كوتشين بجنوب غربي الهند ، وهم يسمون هناك هكذا تمييزا لهم عن جيرانهم "اليهود البيض" الذين ينحدرون من أصل فلسطينى منذ أيام الشتات الأولى . وربما جاز لنا أن نضيف الى نماذج اليهود السود مجموعات فى أمريكا اللاتينية من الزنوج أو الخلاسيين الذين اعتنقوا اليهودية أو اختلطوا بيهود مهاجرين .

ننتقل الآن الى الأنف . فأما الأنف الأقنى المحدب ـ الذى الصق باليهود واشاعه رسام الكاريكاتير حتى صار علما : "الأنف اليهودى" ـ

فليس فى الحقيقة صفة يهودية . فالملاحظات الانثروبولوجية تتثبت أولا أنه ليس منتشرا بين اليهود بدرجة خاصة أو غير عادية ، وأنه ثانيا منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حدود . فبين يهود بولندا لم تزد نسبة حدوثه على ٩٪ من العينات ، وهى نفس نسبة البولنديين ، ولو أن النسبة ترتفع فى غاليسيا الى ٣٠٪ . وفى مدينة نيويورك لم يعثر على الأنف "اليهودى" الا بين ١٥٪ من ذكور اليهود الراشدين . أما الشكل الاكثر حدوثا بين اليهود فهو الانف المستقيم كما فى يهود شمال افريقيا ويهود العالم العربى والسفارديم . مثلا بين يهود اليمن ٦٠٪ أنوف مستقيمة ، بل وهناك نسبة من الأنف المقعر . وبين اشكناز أوربا تسجل القياسات سيادة الانف المستقيم فى حين يقل الانف المحدب عن النصف دائما : بل أن الانف المقعر ليكثر بين يهود الروسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة . فهناك ترجح نسبة حدوث الأنف المقعر نسبة الانف المحدب كثيرا ، بينما فى ليتوانيا

تصل نسبة الانف المقعر الى ٥٠٪ ويختفى الأنف المحدب كلية .

ومن الناحية الأخرى ، فالأنف الأقنى المحدب شائع بوفرة بين غير اليهود : وجد بين ثلثى العينة فى جنوب شرق بولندا ، وهو منتشر كثيرا بين العرب والافغانيين وكثير من الأوروبيين .. الخ . ونحن أقرب الى الصحة ـ فيما يرى كون ـ حيث نصف الانف الأقنى "بالانف السامى" مِنا إذ نصفه "بالانف اليهودى" ، ولو أن هادون يرى عكس هذا تماما حيث يقول أن تسمية الانف اليهودى بالسامى خطأ شائع وانه فى الحقيقة من أصل أرمينى .

وأيا ما كان ، فالذى يميز الأنف اليهودى حقا إنما هو تشكل أو تشوه خاص يشمل انخفاض أو تدلى طرف الانف مع ارتفاع جناحى المنخرين حتى ليبدوان معلقين على الوجنتين ، مما يؤدى بالتالى الى ظهور قصبة الانف مرئية بوضوح . والظاهرة ككل يمكن أن تسمى "بالمنخره Nostrility" وتقرب بروفيل الانف كثيراً من رقم ٦

الافرنجى مد ذيله . وهذا قد يعطى شعورا بتحدب الانف فى حين أنه مستقيم فى الواقع . ولكن يبقى بعد ذلك كله أن هذا النمط لا يوجد لدى كل اليهود او حتى أغلبهم . وفى النتيجة فان من المستحيل ان نتكلم عن نمط أو شكل يهودى بعينه من الانف ، ولا يعرف اليهود وحدة أنفية أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية .

تبقى العيون . الحاجبان ، اللذان يبدوان ثقيلين لسوادهما ، أميل عادة الى أن يقتربا بعضهما من بعض . أما العيون فبينما نجد عيونا شريطية غائرة بين اليهود العرب ، تسود بين أشكنازيم أوروبا العيون "المائية" الضخمة البارزة والجفون المنتفخة الثقيلة التى - كما يعبر ريلى - تعطى شعورا أما بالحزن أو النظرة الحالمة وأما بالخبث المكتوم . على أن المهم أن ليس هناك عيون خاصة باليهود وبالمثل فان ما يقال عن امتلاء الشفاه مع بروز الشفة السفلى مدلاة إن لم تكن مقلوبة - حقا ، ليس شائعا او شرطيا بين اليهود .

يبقى الآن ما يقال عن "سحنة يهودية" بعينها يمكن بها التعرف على اليهودى . قد لا يمكن إنكار وجود مثل هذه السحنة أحيانا ، ولكن المحقق علميا أنها لا توجد عند كل اليهود ، فهى إن كانت موجودة بين بعض الاشكناز فى أوروبا فانها لا تكاد تعرف فى أشكناز أمريكا ، كما أنها ليست غير معروفة تماما بين غير اليهود . ومن ثم فهى كثيرا ما تخدع الرائى فى التشخيص فيأخذ غير اليهود على أنه يهودى واليهودى على أنه غير يهودى . وإذا كانت هذه النظرة أو المسحة تتركز بطريقة ما حول العينين والأنف والفم ، فان من الصعب تحديدها وقياسها .

ولكن الأهم من ذلك كله أن سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ماهى تعبير اجتماعى مكتسب من البيئة الاجتماعية ، من صنع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الاخطار المستمرة حتى لقد أسماها البعض "تعبير الجيتو" . إنها باختصار من فعل الانتخاب الاصطناعى لا الوراثة والبيولوجيا ، تثبتت عن

طريق التزاوج الداخلى والانتخاب الجنسى والانتخاب الاجتماعى والمهنى . ومعنى هذا إننا إذا صادفنا هذه المسحة اليهودية فى الوجه فإنما هى مجرد إرث الاضطهاد الدينى أيا كان الأصل الجنسى والسلالة العرقية ودون أن تعنى أن صاحبه من نسل بنى إسرائيل التوراة بالضرورة .

تلك إذن مجموعة من الصفات الجسمية المنسوبة الى اليهود أو الملاحظة فيهم ، لا تدل على الأصل العرقى ولا تحسم مشكلة . وهى إن دلت على شىء فانما تدل على انعدام أى وحدة بين يهود العالم فى تلك الصفات ، إن لم تدل حقا على تأثير بعيد المدى للسكان الذين يعيش بينهم اليهود ، أى على الاختلاط الجنسى وامتزاج الدماء . ولكننا نفضل أن نؤجل هذا الحكم ريثما نستكمل بقية صفات اليهود الجسمية . فنصل الآن الى الصفات الجنسية التي تعد محور الدراسات الأنثروبولوجية جميعا ، ترتبط مباشرة بالوراثة ولا تكاد تتأثر بالبيئة ، ويمكن أن تكون مؤشرا وثيقا الى الأصول الأولى ومقياسا ومحك

للنقاوة أو الخلط . إنها لا شك شكل الرأس .

وكما رأينا فان يهود بنى إسرائيل فى فلسطين التوراة كانوا ككل الساميين المحيطين طوال الرءوس أساسا . فإذا ما وجدنا رءوسا غير ذلك بين يهود اليوم فليس ثمة إلا تفسير واحد وحيد لا سبيل الى الشك فيه وهو اختلاط الدم بعناصر غريبة . هذا مع التذكرة بأن سيادة طول الرأس

نفسها بين اى مجموعة من اليهود لا تنفى عنهم بالضرورة امكانية حدوث اختلاط جنسى ما مع غيرهم من طوال الرءوس ، لان تزاوج طوال الرءوس بطوال الرءوس لا ينتج الا طوال رءوس مثلهم . فكيف إذا رصدنا شكل الرأس عند اليهود فى مسح عام ؟

من بين المجموعات الرئيسية الثلاث ، الاشكناز والسفارديم والشرقيين ، يقع الاشكناز جميعا بين عراض الرءوس ، وأحيانا بين عراض الرءوس جدا . هكذا هم فى كل أوربا والعالم الجديد ابتداء من الفولجا حتى كاليفورنيا ، حيث

تصل نسبتهم الراسية الى مثل ما للالمان الجنوبيين والفرنسيين الالبيين . بل أهم من هذا انهم فى ذلك يشبهون السكان المحيطين محليا ويقتربون جدا من شكل ونسبة راسهم . فليس ثمة فارق مثلا بين اليهود والمسيحيين بالروسيا وبولندا فى شكل الراس ، بينما فى منطقة القوقاز تتحول رءوسهم الى شكل "قمع السكر" الشهير عند الارمنيين والقفقاز ، بل نجده حتى فى يهود التركستان .

على أن كون يلاحظ أن الاشكناز فى أوروبا يقلون فى نسبة عرض الراس - وإن يكن قليلا جدا ، درجة أو اثنتين - عن السكان المحيطين ، كما أن وجوههم أقل استعراضا أو أكثر استطالة نوعا ما . ولهذا ينتهى كون الى أن اليهود قد حققوا أيضا فى مجال شكل الرأس توازنا ثابتا كما فعلوا فى لون الشعر . هذا عن الاشكناز .

ولقد كانت النظرية الشائعة بعد هذا أن السفارديم على طرف النقيض مباشرة من الاشكنازيم ، أى طوال الرءوس جميعا ، ولكن هذه

المقابلة تبسيطية أكثر مما ينبغى ، فحقا يغلب طول الرأس بين السفارديم ، ولكن منهم جماعات استعرضت رءوسهم كما فى شمال ايطاليا حول تورينو وغيرها ، وربما لحقت بهم جماعات أخرى من سفارديم البلقان . ومع ذلك يمكن بصورة عامة جدا أن نقبل تلك المقابلة العريضة من قبيل التبسيط الميسور .

هذا ويلاحظ أن السفارديم يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لا يمكن للتزاوج أن يغير من شكل رءوسهم وإنما على العكس يؤكده . غير أن مما يجدر ذكره أن أبعاد مقاييس الرأس المطلقة فى ذاتها أقل بعامة بين هؤلاء اليهود منها بين شعوب الجوبيم المحيطة ، وأقرب بذلك ـ هكذا يقول كون ـ الى نمط يهود فلسطين التوراة أو السامرة .

يبقى اليهود الشرقيون . هؤلاء يأتون فى المنزلة بين المنزلتين أو بالأحرى يقعون فى حدود التسنيف . فجزء منهم طوال الرءوس كالسفارديم ، وهذا يشمل يهود مصر والشام

واليمن والعراق وجنوب ايران . وهنا أيضا يلاحظ أن السكان المحيطين طوال الرءوس ، الا أن ابعادهم المطلقة أى حجم الراس أكبر نوعا بدرجة وبالأخرى من اليهود .

أما الجزء الآخر فهو كالاشكناز استعرضت رءوسهم كما فى شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال ايران ، ثم يهود التركستان الروسية بكل شظاياها ، وأخيرا اليهود القرائين فى القرم وليتوانيا . ففى كل هذه الحالات يعيش اليهود فى محيط واسع من عرض الرأس الشديد ، وفيه استعرضت رءوسهم بشدة حتى لا يختلفون عنه البتة . الا أن هناك فارقا فى شكل الوجه ـ لا الرأس ـ فهو يميل نوعا الى الاستطالة بينما هو عريض بين السكان المحيطين ، وهو فى هذا يذكر الى حد ما بوجوه يهود فلسطين التوراة ، والسامرة . ومع ذلك فهو أقل ميلا الى الاستطالة بين يهود دائرة القوقاز والقرم منه بين يهود دائرة التركستان .

من هذا المسح السريع نصل اذن الى أن اليهود يقعون من حيث شكل الراس فى مجموعتين : عراض رءوس وطوال رءوس . والمجموعة الأخيرة تشمل أغلب السفارديم ونصف الشرقيين ، أما الأولى فتضم النصف الآخر ـ الشرقى أو الشمالى ـ من اليهود الشرقيين بالاضافة الى كل الاشكناز . ومن الناحية العددية ، ولها هنا مغزى كبير ، تزيد مجموعة عراض الرءوس على ٨٠ ـ ٩٠٪ على الاقل من كل يهود العالم ، والاقلية الضئيلة الباقية هى طوال الرءوس . ومن الناحية الجغرافية ، يتوزع عراض الرءوس من اليهود فى مناطق سكانها عراض الرءوس ، ابتداء من وسط أوروبا حتى وسط آسيا ، بينما يقيم طوالهم بين أجناس طويلة الرأس ابتداء من المغرب حتى العراق .

ومن هذا وذاك يتضح على الفور أن الاغلبية الساحقة من اليهود إنما تحولت الى عراض الرأس بعملية استعراض Brachycephalisation أو تأثر بالألبية أو الدينارية كما تسمى علميا -Alpinisa

وذلك عن طريق tion Dinaricisation .
واحد ووحيد وهو التزاوج والاختلاط الجنسى مع غير اليهود , بينما الأقلية التى احتفظت بطول راسها الأصلى لا يتحتم بالضرورة أن تكون قد افلتت من مثل ذلك الاختلاط ، ولكنه أمر متروك فى هذه الحالة الى الأدلة التاريخية . وهذا ما ينقلنا الى قضية النقاوة الجنسية والاختلاط ، شواهدها وادلتها ، أبعادها ومغزاها .

نقاوة أم اختلاط:
يهود تاوربوا ام اوروبيون تهّودوا ؟

حسنا ، بأى مغزى يمكن أن نخرج من هذه الدراسة ، وأى معنى تحمل بالنسبة لدعاوى الصهيونية السياسية وغير السياسية ؟ الشىء المحقق أن ما قد يختص ويشتهر به اليهود من "طابع" أو "سحنة" مميزة هو أمر لا ينكره العلم تماما ، ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فانها برمتها ظاهرة حضارية من صنع اليهود أنفسهم ونتيجة

لإحساسهم الملتهب بذاتهم طائفيا وشعورهم المتضخم بكيانهم الديني ، وليست صفة جنسية دالة ولا تعني البتة وحدة الأصل أو نقاوة السلالة . بل على العكس من هذا تماما ، يمتاز اليهود بمناقضة فذة وحقيقية جدا : شبه تجانس أو شبه وحدة جزئية في السحنة والنظرة العامة ، وتنافر مطلق في الأصل الجنسي .

ويحاول كون أن يجعل من اليهود طوال الرءوس من السفارديم وبعض الشرقيين وحدة إثنولوجية Ethnic Unit قائمة بذاتها ، قد تتباين فيما بينها من منطقة الى منطقة ، ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين . وبالمثل يصور اليهود الاشكناز ومعهم بقية الشرقيين على أنهم وحدة اثنولوجية أخرى . ومع ذلك فهو يعترف بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة في أوروبا يمكن بسهولة أن تلتقط من مبين يهود القارة ، وأن أغلب اليهود يمثلون خليطا بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الأنواع والسلالات . وكذلك يضيف أن من السهل جدا أن نلتقط من بين يهود الروسيا أفرادا



يهود من العالم العربي

يمتازون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير وعظام الوجنة البارزة بدرجة لا تفرقهم عن Snuo جماعات الفن المغولية التى تسكن منطقة الفولجا ، بينما يوجد بين اليهود الألمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون .

ويمكن من ناحيتنا أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايكو تكاد تغطى كل ما نعرف بين البشر من اختلافات في الصفات الجنسية . فثمة اليهود السود فى الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى . واليهود الملونون فى الهند ، بل والصفر أحيانا في التركستان ، وأخيرا اليهود الشقر في أوروبا . أو كما لاحظ دالبى Dalby فى أواخر القرن الماضى هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود - البيض والسمر والسود . هناك اليهودى الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الاشكناز ، واليهودى النحيف دقيق الملامح طويل الرأس من السفارديم ، ثمة الأنف اليهودى المحدب والأنف المقعر بين كثير من يهود الروسيا ، ثمة العيون اللوزية فى السفارديم والمكتنزة

الضخمة فى الاشكنازيم والعيون المغولية المسحوبة فى بعض يهود وسط آسيا .

وبعامة فان السفارديم أشبه بعنصر البحر المتوسط والاشكناز أشبه بالصقالبة الشماليين . وفضلا عن هذا فان الدراسات السيرولوجية أثبتت تماما أن اليهود يبدون فيما بينهم معدل تفاوت كبيرا جدا فى فئات الدم مما ينفى تجانس الأصل ، وأكثر من ذلك لا تبدى تلك الفئات أى علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين ، مما يؤكد عمق انفصالهم جنسيا عن الأصل القديم .

واضح تماما اذن أن الحديث عن وحدة جنسية بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الاطلاق ، وأن اليهود لا يعرفون الوحدة الجنسية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية . وواضح بالتالى أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم إنما هى محض "خرافة" كما يعبر ربلى . والواقع أن هذه قضية لم تعد ، بل لم تكن قط ، موضع جدل بين

العلماء . فكما قال رينان من قبل ، أن المغزى الاثنولوجى لكلمة يهود ـ على الأقل فى شرق ووسط أوروبا ـ قد انتهى منذ أمد طويل . وفى نفس المعنى أكد دالبى أنه ليس ثمة بعد أى شىء كقضية جنس يهودى على الاطلاق . وكما يقول ربلى من بعد : ليس اليهود جنسا بل مجرد "ناس" بكل بساطة .

وعلى هذا الحكم الحاسم الأخير يعلق مؤلفو كتاب «نحن الأوربيين We Europeans وهم جوليان هكسلى وهادون وكارسوندرز : "ونحن نعتقد أنه على صواب . إن اليهود لا يمكن أن يصنفوا لا كأمة ولا حتى كوحدة اثنولوجية ، بل هم بالأحرى مجموعة اجتماعية ـ دينية تحمل قدرا كبيرا من عنصر البحر المتوسط والأرمنى وغيرهما كثير ، وتتفاوت تفاوتا عظيما فى الصفات الجسمية " . ثم يضيف هؤلاء الكُتّاب قائلين "إن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين فى الأعم الاغلب ، فانهم بالتأكيد يبدون من الصفات الارمينية اكثر مما يبدون من الصفات « السامية » وأن النمط

الجنسى الذى يميز طائفة السامريين ، وإن كنا نلقاه بين اليهود المحدثين الا أنه بالتأكيد نادر بينهم" .

ومن بعد ربلى ومن بعد معلقيه أيضا يقرر هوتون Hooton بجزم قاطع :"حقيقة هى لاشك أن اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعة متنوعة" . وهو إذا كان يجد فيهم قدرا ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية ، فما هى بوحدة جنسية تماما ولا وطنية ولا لغوية ولكن الى حد ما كل أولئك. ويؤكد أشلى مونتجيو Ashley Montagu نفس الانتهاء فيقرر على النقيض مباشرة من كون أن اليهود ليسوا وحدة أثنولوجية بل، باصطلاحه، مجرد «معزولة حضارية Cultural isolate.

والسؤال الآن : كيف تم اختلاط أو تخليط اليهود ، وما هى الادلة والشواهد التاريخية عليه ؟ لنذكر أو لنتذكر أولا أن اليهود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة إثبات العكس على أساس أن حياة العزل فى الجيتو والعداء والاضطهاد الدينى عوامل مضادة للاختلاط

والتزاوج . ولكن الواقع التاريخى اليقينى كما سنرى يكذب هذا التصور أو التصوير تماما . كذلك فانهم يتخذون من أسماء الاشخاص اليهودية دليلا على عدم التزاوج ، فعلى سبيل المثال أسماء كوهن وكوهين .. الخ تشير الى نسل الكوهانيم أو الكوهانين Cohanim أبناء هارون وكهنة المعبد القدامى (والاسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أى دم غريب . ولكن الحقيقة أن هذا الاسم خرج عن حدوده الأصلية وأصبح أكثر أسماء اليهود شيوعا . ومن الناحية الاخرى ، فان أسماء يهودية أصيلة وبحتة هى اليوم من أكثر الأسماء شيوعا بين الملايين من المسيحيين فى أوروبا . فكيف حدث هذا بغير التزاوج والتجول ؟

الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمى فحسب ، ولكنه أيضا انتهازى ومغرض بوضوح ، ولذا لا يمكن الاعتداد به فضلا عن الاعتماد عليه . ويكفى للتدليل على هذا الذى نقول أن نذكر موقفهم أيام اضطهاد النازية فى

ألمانيا . فلما كان كل شيء يقاس حينذاك بالجنس النوردى والأصل الآرى ، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والأصل ليفلتوا من عقاب ولعنة السامية . أما الآن بعد اغتصاب فلسطين ، فكل دعواهم أنهم ساميون لحما ودما !

ولكى نعرف أين الحقيقة فى هذا الانقلاب الانتهازى الفاضح ، يكفى أن نورد تعليق هوتون على اضطهاد ألمانيا النازية لليهود حيث يسخر قائلا أن اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردى مثلما يمتلك الالمان أنفسهم ! ولاشك أن مما له مغزاه كذلك أن القليل من الكُتّاب الذين يأخذون بنظرية نقاوة اليهود الجنسية هم من دعاة النظريات العنصرية التى نبذها العلم تماما مثل هوستون ستيوارت تشمبرلن الذى يزعم أن تلك النقاوة هى سر قوتهم مثلما تجعلهم "غرباء بين كل الأمم" !

التزاوج والتحول اذن حقائق لاشك فيها ، وعليها يجمع جمهرة الانثروبولوجيين ابتداء من كين الى ربلى الى كون .. الخ . فهذا كين يتكلم

عن "الـزيادات الضخمـة من (الجنتيل) المتحولين" ، ويقول "أن الافتراض بأن اليهود ضموا قليلا أو لا شيء من المتحولين هو افتراض لم يعد بعد مقبولا" . ويضغط مؤلفو "نحن الأوروبيين ، خاصة على نقطة مهمة وهى أن نمو أعداد اليهود فى المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة إنما يرجع فى جزء منه الى التحولات الضخمة الى اليهودية أما ربلى فيقرر أن ليس ثمة أيسر من اثبات الاختلاط والتزاوج والتحول بين اليهود والجنتيل فى أوروبا وخارج أوروبا .

ولقد كان هناك طريقان أساسيان لإنتشار اليهودية وتمددها : التحول الدينى سواء من الوثنية أو المسيحية ، والتزاوج والامتـزاج الدموى . وللتحول شكلان رئيسيان : التحولات بالجملة ، وهى معروفة محددة تاريخياً أهمها حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التاميل واليهود القرائين فى طوروس .

الشكل الثانى هو التحولات الفردية المستمرة فى كل مكان وزمان . أما التزاوج فشكلاه الزواج

العلنى والسرى أو العلاقات الجنسية غير الشرعية . وكُتّاب اليهود يصرون على ضآلة دور التحولات بعامة والتحولات الجماعية بخاصة فى انتشار اليهودية . وعلى أية حال فلا شك أن اليد العليا كانت دائما للتزاوج ، هادئا ودفينا ومزمنا . وقد ارتفع التزاوج المختلط بين اليهود والجنتيل الى نسب عالية فى فترات الهدوء وتوقف الاضطهاد ، فإذا كان الزوج يهوديا نشأ الأبناء يهودا ، ولكن كان يحدث أحيانا أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الأبناء من ديانة الأب .

أدلـة الاختـلاط التاريخيـة

فى ضوء هذه الأسس العامة ، نود الآن أن نستقرىء وقائع التاريخ نفسه ، ماذا تقول وكيف تحكم فى قضية الاختلاط والتحول . فإذا بدأنا عرضنا التاريخى من البداية ، فسنجد أن يهود فلسطين التوراة تخلطوا فى عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودى ودليلة الفلسطينية) ومع

جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال : "أمك كانت حيثية ، وعموريا كان أبوك") . وهذا الاختلاط الجنسى كان أقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعا منه فى قلبها الوعر المعزول . وكثيرا ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات "وثنيات" من الاجانب المحيطين أن يتركوا الوطن الى تلك السهول المجاورة . كذلك فمن الثابت ابان الأسر البابلى الذى استمر ١٤٠ عاما أن كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة .

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسيا بل دينيا ، بحيث ينتهى إذا تحول الجنتيل الى اليهودية ، والواقع أنه فى أيام اليهودية الأولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعا أبدا ، كما حدث فيما بعد . هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس أن يهود انطاكية نجحوا فى تحويل الكثيرين الى عقيدتهم وأدخلوهم مجتمعهم . وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول



راقصة يهودية من تركيا

الى اليهودية بلا شك فى القرن الثانى الميلادى . ومن الامثلة المهمة النساء اليهوديات اللائى تم بيعهن كاماء وأخذن الى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان ، وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم الى مواقع أخرى ، فشب أبناؤهم كيهود .

والثابت أن التحول والاختلاط كانا من المظاهر المتفشية قبل العصر المسيحى مباشرة وفى قرونه الأولى . فحين تشتت اليهود فى العالم المتوسطى وجدوا أنفسهم ازاء اختيارين : إما أن يرتدوا وثنيين كجيرانهم الجدد ، وإما أن يحتفظوا بديانتهم . وهناك ـ كما يقول بيرجل ـ "أصبح الكثيرون ، ربما الأغلبية ، وثنيين ، وذلك لأن من بين القبائل الاثنتى عشرة عشرا « مفقودة » كما تحدثنا الروايات" . وفى حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسى جنبا الى جنب مع كيانهم الدينى ، ويصبحون جزءا لا يتميز عن الأمة التى أقاموا بينها . أما إذا ظلوا على يهوديتهم ، فانها اذن العزلة الاجتماعية ، ومن ثم فلا تزاوج إلا إذا



مجموعة من يهود الارجنتين

تحول الوثنيون الى اليهودية ، وهذا بالدقة ما حدث مرارا وتكرارا لأن اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة ، وهذا ما يفسر جزئيا تنوعهم وتباينهم الجنسي . الا أن الموقف تغير بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية ، حيث أصبح التحول الى اليهودية صعبا ، ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف .

أما في العصور الوسطى حيث أصدرت المجالس الكنسية قرارات صارمة بمنع زواج المسيحيين باليهود كما فعل مجلسا توليدو عام ٥٣٨ ، ٥٨٩ ، ومجلس روما عام ٧٤٣ ، فان أغلب الكُتّاب يفسرها على أنها دليل على خطورة المدى الذى كان الزواج المختلط قد وصل اليه بالفعل . بل أن اضطهاد القوط الغربيين فى اسبانيا لليهود فى القرن الخامس والسادس الميلاديين إنما يرجع - كما يؤكد كين - الى نشاطهم التبشيرى الخطير والى تفشى الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين .

وثمة أدلة أخرى على الاختلاط والتحول على نطاقات اقليمية كبيرة . فالسفارديم قبل خروجهم من اسبانيا كانوا قد استوعبوا دماء أيبيرية وغربية وبربرية كثيرة فى عروقهم . وفى شمال افريقيا من المؤكد ـ كما رأينا ـ أن اليهودية كانت قوية الانتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الإسلام مباشرة . وفى المغرب يبدو اليهود المتكلمون بالبربرية اليوم مختلفين بشدة عن يهود السفارديم المتكلمين بالاسبانية فى المدن المغربية بينما أن اليهود المتكلمين بالعربية فى نفس المدن ينحدرون من أكثر من أصل يهودى واحد أهمه بلا شك العنصر البربرى . أما فى أوربا فالأدلة التاريخية تشير بكل قوة الى أن اجداد الأشكناز اختلطوا مع ابناء غرب أوربا الى ما قبل الحروب الصليبية الأولى اختلاطا أقوى من اختلاط أجدادهم الأحدث مع أبناء البلاد السلافية فى شرق القارة . فغزارة شعر اللحية والجسم وتموج شعر الرأس ، الى جانب عرض الرأس ، تدل على تأثير جنسى البى فرنسى أو ألمانى أكثر منها مؤثرات سلافية .

أما عن التحول ، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدم مسيحيين ، خشية تحولهم الى اليهودية ثم الزواج بهم . إلا أن الأرجح أن هذا المنع لم يجد نفعا ، حيث نجد على سبيل المثال كبير أساقفة المجر يقرر فى عام ١٢٢٩ أن كثيرا من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات ، وأن التحولات "بالآلاف" كانت مستمرة وفضلا عن هذا ، فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والأقنان من امكانية التهود والزواج من اليهود . وفى اسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد أجبر مئات من الآلاف من اليهود على التنصر بالقوة والتحول الى المسيحية حيث ذابوا بعدها فى السكان .

أما فى عصرنا الحديث فتتوافر الأدلة والأحداث الثابتة التى تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء . فمع الهجرة الى العالم الجديد تحول كثير من الهنود الحمر والزنوج فى أمريكا الوسطى والجنوبية الى اليهودية ـ ولا علاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود أصلا . ومع اختفاء التعصب

الدينى فى أوروبا الصناعية ، وأكثر منه مع العلمانية المطردة ، انهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية . وإذا كانت التحولات الجماعية بالجملة قد قلت ، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية فى العصور الحديثة ، ويمكن أن نتخذ من بعض الأسماء مؤشراً فى ذلك الاتجاه : مثلا الشاعر هاينى والموسيقى مندلسون وغيرهما من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية . وفى روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحولهم الى المسيحية .

ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود فى العصور الحديثة والوسيطة فى أوروبا ما كشفت عنه تجربة النازية فى ألمانيا . فقد كان على المرء الذى يبغى اثبات الدم الآرى فيه أن يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الآرية ، يعنى هنا اليهودية بالتحديد . ولكن المفاجأة أن التجربة كشفت أن عددا ضخما من الحالات من المواطنين الالمانيين "الى أقصى

حد" ثبت أن أجدادهم وأجداد أجدادهم تجرى فى عروقهم الدماء اليهودية !ـ تماما كما تردد عن ريشار فاجنر من قبل ..

وفى العام الماضى فقط أخرج كاتب فرنسى كتابا كان له دوى كبير حيث أثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجرات الانساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة فى العالم الغربى من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء ... الخ . كيف تجرى فى عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى ، وبالعكس فإن كثيرا من اليهود المعروفين داخلتهم دماء مسيحية . أما فى الولايات المتحدة ، حيث أعظم مستعمرة لليهود اليوم ، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود أنصاف وأرباع اليهود ... إلخ ، لاسيما منذ القرن الماضى حين أصبح الزواج المدنى مباحا وقانونيا .

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا الى أخرى لا تقل أهمية ومغزى ، تلك أعنى ظاهرة ذوبان أو انصهار اليهود واندماجهم أو

امتصاصهم فى شعوب العالم المعاصر الحديثة Assimilation، وموقف الصهيونية السياسية منها . فالصهيونية إذ تحاول عبثا أن تجعل من اليهودية العالمية شعبا وقومية وأمة بل وجنسا مستقلا وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر، وتجمع بين عشرات الشعوب والقوميات والأمم والأجناس ، لا تزيف حقائق التاريخ الواقع فقط ، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى الى تجميد تطور المجتمع الإنسانى . فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أوربا الوسيطة والحديثة لا يرجع الى التعصب الدينى وحده بقدر ما يرجع الى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب احساسهم المتضخم بأنفسهم وادعاءاتهم بالتفوق الموهوم ، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الاقطاع والحكم الاوتوقراطى المطلق ومناخ الطبقية التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعة لهذا الاضطهاد بمثل ما أن هذا الاضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة

اليهود أنفسهم الى مزيد من الإصرار والتمسك بانعزاليتهم وانفراديتهم وتضادهم .

وهى - الصهيونية - ترى الآن أن روح الليبرالية المعاصرة السارية وتطور الوعى السياسى فى المجتمع الصناعى الحديث ومثل التسامح الدينى إن لم يكن اللامبالاة الدينية ، كلها طفرات جديدة وخطيرة "تهدد" بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية ، وبالتالى تهدد بسقوط الستار الحديدى الذى ضربه اليهود حول أنفسهم وانتفاء التضاد السادى - المازوكى الذى افتعلوه مع بيئاتهم ، ومن ثم تهدد بذوبانهم فى شعوب الأمم ثقافة ولغة بل ودينا وجنسا .

ومن هنا تصل الصهيونية فى انحرافها الى حد الشذوذ الفكرى والعنصرى ، فنجدها تحاول محمومة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحه وتجسيد اسطورته الى الأبد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذى يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل أخطر ما يتمثل فى التزاوج المختلط مع غير اليهود ، وفى تحول بعض اليهود الى عقائد

اخرى . ولئن كان هذا اليوم أوضح وأخطر مايكون في بوتقة الولايات المتحدة ، فان أوروبا الغربية تعرفه أيضا بدرجة أو بأخرى . والخط التاريخي الذي أكد نفسه منذ البداية وهو تخلط وتهجن اليهود وذوبانهم جنسيا ، يعيد اليوم تأكيد نفسه برغم انحرافات وشعارات الصهيونية ، بل ويفرض نفسه أكثر منه في أي وقت مضى .

ولنقف هنا قليلا عند يهود الولايات المتحدة . الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة في الحيثية المدنية ، كما في الولايات ، فكثيرا ما يتزوجون من الجنتيل . فإذا أصر الطرف اليهودي على أن يغير الطرف الآخر عقيدته نشأ الأبناء يهودا وظلت الاسر يهودية . أما إذا تحول الطرف اليهودي الى المسيحية فقد يتزوج الأبناء فيما بعد يهودا ويعودون بذلك الى اليهودية ، والا فان الاسرة اليهودية تنقرض في النهاية . غير أنه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود الى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهوديا . وهكذا فان التحول الديني يؤدي في النهاية الى

التمثل والانصهار مع المجتمع الأمريكى .

والاحصائيات تدل على زيادة مطردة فى الزيجات المختلطة بين اليهود . فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين أن نسبة الزواج الداخلى بين اليهود فى مدينة نيوهافن عام ١٩٤٦ كانت ٩٧٪ ، وأن ٣٪ يتزوجون خارج الطائفة . ووجد بحث آخر أن نسبة الزواج المختلط فى نفس المدينة ارتفعت من ١ر١٪ الى ٣ر٦٪ بين ١٩٠٠ ، ١٩٤٠ ، أى أنها وصلت الى ضعف التقدير الأول . والواقع أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية . والى جانب ذلك فانهم كمجتمع مدن أساسا يمتازون بمعدل مواليد منخفض ، بل أشد انخفاضا منه بين أى مجموعة مدنية أخرى ، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعى ».

وفى النتيجة ـ هكذا ينتهى كاتب مثل بيرجل ـ فان يهود أمريكا لابد أن يتناقصوا عدديا سواء

على الاطلاق أو بالنسبة الى مجموع السكان . ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار فلا مفر لهذا التناقض من أن يشتد ويشتد . ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية فى الولايات المتحدة "ظاهرة عابرة" فى نهاية المطاف ، ولا يؤخر اختفاءهم النهائى الا ضد السامية أكثر من أى عامل آخر . ولا سبيل الى الشك فى صحة هذه النبوءة العلمية ؛ فالصهيونية نفسها على وعى تام بها ، وهاهى ذى جولدا مايير أعلنت أخيرا فى صرخة محمومة أنه فى خلال جيل أو اثنين سينتقص يهود الولايات المتحدة إلى ٥ر١ مليون نسمة . لقد شهد شاهد من أهلها ـ أقصد اعترف متهم من عصابتها .

لن يجدى أذن تصايح وصراخ الصهيونية العالمية شيئا ازاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التى لا مكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو ، وأين ؟ـ فى قلب دوامة تلك الحضارة وفى عين اعصارها فى الغرب الأوروبى والأمريكى ! وإذا كانت العصور الوسطى هى عصر تحول غير

اليهود الى اليهودية ، فان عصرنا أصبح بوضوح تام عصر تحول يهود الى غير اليهودية !

من هنا نفهم كيف أن الصهيونية "تتاجر" بالفعل فى الاضطهاد ، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلما خبت جذوتها أو رمادها ، وتراه ضمان بقائها ، فى الوقت الذى تمثل فيه إسرائيلها دولة المنتفعين بهذا الاضطهاد . بل أن الفكرة الجذرية فى خلق إسرائيل ليست فى النهاية الا فكرة الجيتو بحذافيرها وإنما على مقياس مجمع كبير : فهى وعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهود على الجوبيم وتضادهم معهم : إنها الجيتو دولة أو هى دولة الجيتو . ولكن كما ذاب ويذوب الجيتو فى الخارج لن يمضى وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو إسرائيل الى الأبد ..

وبعد ، فلقد انتهت رحلتنا عبر التاريخ بحثا عن الأدلة والشواهد اليقينية على اختلاط وذوبان اليهود ، فهل يمكن من محصلة هذا العرض المفصل أن نضع أيدينا على جوهر وميكانيزم

العملية كلها ؟ نعم ، وجغرافى يهودى بالذات ـ هنتنجتون ـ هو الذى يضعها بين أيدينا ! فطوال التاريخ ـ كما يقول ـ نلمح ظاهرتين أساسيتين : أعداداً ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية ، وفى نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية .

وفى النتيجة فان جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر وفى ابتعاد دائم عن الأصول الأولى بحيث يتضاءل أبدا وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بنى إسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تختفى وتنقرض فضلاً عن أن تظل قابلة للتعرف عليها وتحديدها . إنها عملية احلال وابدال مزمنة دائما ، معدية أحيانا ، ظاهرة ومستترة ، وئيدة ربما ولكنها أكيدة قطعا . إنها تكاد تقول عملية "تغيير دم" كلية وشاملة .

وفى النتيجة يكاد يصبح جسم اليهود فى آخر المطاف شيئا مختلفا انثروبولوجيا عن يهود التوراة إن لم يكن لا علاقة له بهم تقريبا أو فى

الأعم الأغلب . ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق أن ألمحنا اليه بشأن تعداد اليهود حيث بدأوا الشتات بأرقام هزيلة جدا ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات .

نستطيع إذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان الى أن اليهود يتألفون من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط . وإذا كان ثمة خلاف بعد هذا ، فانما يدور حول المدى والدرجة. والى أى حد . هنا نجد رايين أساسيين : فيرى ربلى أن اليهود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون بينهم وابرز ما يتمثل هذا فى شكل الراس ، الاساس الانثروبولوجى الأول والجوهر ، ثم الى حد ما فى لون البشرة ، وبناء على هذا يقبل رأى لوميروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسيا أريون أكثر منهم ساميين أو بتعبير آخر إنهم أوروبيون تهودوا أكثر منهم يهودا تأوربوا .

"والى نفس المدرسة والرأى ينتمى مؤلفو "نحن الأوروبيين" : "إن اليهود ـ هكذا

يؤكدون ـ من أصل مختلط ، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطا" . ثم يضيفون "كان هناك دائما قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التى أقاموا فيها .. بحيث أن عددا من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان ، وأن المجتمعات اليهودية أصبحت تشبه السكان المحليين فى كثير من الخصائص . وبهذه الطريقة أصبح يهود افريقيا وشرق أوروبا واسبانيا والبرتغال ... الخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض فى النمط الجسمى" .

ويؤكد نفس الكُتّاب الفكرة فى موضع آخر قائلين "والنتيجة أن يهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين جينيا وأن السكان اليهود فى كل بلد يتداخلون ويتشابكون مع غير اليهود فى كل صفة يمكن تصورها . وكلمة يهودى صحيحة كوصف اجتماعى ـ دينى أو شبه قومى أكثر منها كتعبير اثنولوجى فى أى معنى جينى (ولو أن هذا لا يقصد به أن اليهود أمة بالمعنى المفهوم

للكلمة) . وكثير من الصفات « اليهودية » هى بلا شك نتاج التقاليد والتربية اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجى والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة" .

ومرة ثالثة يضغط هؤلاء المؤلفون على نفس الانتهاء فيقولون إن "ما احتفظوا به وورثوه ليس « صفات جنسية » بل تقاليد دينية واجتماعية . فاليهود لا يؤلفون جنسا محددا وإنما مجتمع يشكل جماعة شبه قومية ذات أساس دينى قوى وتقاليد تاريخية خاصة . وأنه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن « جنس يهودى » تماما كما لو تكلمنا عن جنس آرى"

هذا عن الرأى الأول فى اليهود . أما الرأى الثانى فيمثله كون الذى يقبل تشكلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يرى فيهم الى جانب ذلك آثار الأصل الفلسطينى العبرى القديم بخصائصه المتوسطة ، وبخاصة فى شكل الوجه الطويل وأبعاد أو حجم الرأس الصغير . ومن هذا المنطلق

يدير كل مناقشته على أساس أن اليهود اليوم فى بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئات تحولوا الى اليهودية ، وإنما هم فى الاغلب الأعم يهود حقيقيون من أبناء الشتات الفلسطينى امتزجوا دمويا بأبناء تلك البيئات الأصليين : مثلا : يهود العراق يهود حقيقيون وليسوا عراقيين تهودوا ، يهود بخارى والتركستان ليسوا مجرد تاجيك أو سارت تهودوا بل أصلا يهود ولكن استعرضت رءوسهم بالاختلاط بهؤلاء ، ويهود وسط أوروبا ليسوا ببساطة أوروبيين تهودوا وانما يهود تأوربوا .. ويقدر كون ـ كمجرد تخمين بحت كما يعترف ـ أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطينى الأصلى فى يهود أوروبا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع العناصر الداخلة فى تكوينهم ، وهى بذلك أهمها .

ومن هذا كله ينتهى الى أن اليهود "ليسوا مجرد كومة عشوائية Grob-dag توحد بينها رابطة مشتركة من الدين بلا تماسك بيولوجى أكثر مما لوحدات عفوية كمستمعى الراديو أو عاملات

الحياكة" ! وقد يمكن أن نعد موقف هنتنجتون قريبا من موقف كون ، حيث يسمى اليهود ـ بلغته الخاصة – «مجموعة قربى Krrh» شأنهم فى ذلك شأن البيوريتان أو الماورى أو الاغريق (كذا) . غير أننا نرى فى هذه التشبيهات المتنافرة ما يعقد الصورة أكثر مما يبسطها ، ويكفى أن نتخذ من كون علما على الرأى ورمزا له .

أين تقع الحقيقة بين هذين الرأيين ـ والفارق بينهما فارق كبير فى الدرجة يوشك أن يكون فارقا فى النوع ؟ هذا هو السؤال : المحقق أننا لا يمكن علميا أن نستبعد من بعض من يهود العالم نسبة ما من الأصل الفلسطينى القديم . ولكن من المحقق أيضا أن تقدير كون وتصويره يبالغ بعامة فى تلك النسبة . فالملاحظ أولا أن الفروق الجسمية التى يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالبا وواهية جدا أحيانا . وثانيا وأهم من ذلك أنه مادامت الدماء الاجنبية الغريبة قد غزت اليهود وداخلتهم ـ حتى ولو كانوا من أصل فلسطينى قديم ـ الى الحد الذى يقربهم ـ على

الأقل ـ من هؤلاء الجيران ، فقد ابتعدوا وانفصلوا تماما عن ذلك الأصل السحيق .

وليس من المتصور ـ أليس كذلك ؟ـ غير هذا بعد نحو ألفى سنة من التشتت والاختلاط ، لاسيما إذا تذكرنا ـ وهو اعتبار مهم للغاية ـ أن كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثانى لم تزد عن ٤٠ ألفا ! وهذا الرقم وحده يكفى ليوحى ، رغم كل قيود العزل والاضطهاد ، بأن يهود الشتات الاصلاء قد ذابوا وانصهروا وضاعوا فى محيط المهجر كقطرة فى بحر ، وأن يهود العالم اليوم فى سوادهم الأعظم هم أجانب متحولون أكثر منهم يهودا متجولين ..

ماذا يتبقى فيهم إذن من بنى إسرائيل التوراة أو من بنى إسرائيل التوراة فيهم ؟ إن من يمكن أن يعد منهم من نسل بنى إسرائيل التوراة حقا ومباشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضآلة الى أقصى حد . مثلا فى أواخر القرن الماضى يجد الانثروبولوجى المخضرم المعروف فيلكس فون لوشان Von Luschan أنه «من بين يهودنا المحدثين

نحو ٥٠٪ عراض رءوس ، ١١٪ ذوو بشرة بيضاء ، وما لا يزيد عن ٥٪ يتفقون مع ما عرفنا أنه النمط السامى القديم" . وهذا يتفق تماما مع ما تؤكده دراسة حديثة جدا قام بها فى العام الاخير فقط أنثروبولوجى بريطانى هو جيمس فنتون على يهود إسرائيل توصل فيها الى أن ٩٥٪ من اليهود ليسوا من بنى إسرائيل التوراة ، وإنما هم اجانب متحولون أو مختلطون .

ولئن صح هذا ـ ولعله صحيح ، وهو بالتأكيد أقرب الى الصحة والمنطق من تخمينات كون ـ فمعناه أن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبتة وفاقدة تماما من الناحية العملية ، وأنهم بالفعل أوروبيون سلاف أو آريون أكثر منهم ساميين . وهذا يصدق على الأشكنازيم فى أوروبا ، وعلى امتدادهم الأمريكى الذى زاد اختلاطه فى البوتقة الأمريكية ، أكثر منه على أية مجموعة أخرى من اليهود ، مع ملاحظة أنهم ـ الأشكنازيم ـ هم السواد الأعظم من يهود العالم عدديا .

والخلاصة الموضوعية أن يهود العالم اليوم مختلطون فى جملتهم اختلاطا بعد بهم عن أى اصول إسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل فى تكوينهم إلا قطرة فى محيط . وإذا كان ثمة تحفظ ما ، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط ، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان أقل تهجنا وتخلطا والبعض أكثر كالاشكنازيم . غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هى أن الأقل تخليطا إنما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضآلة من مجموع اليهودية العالمية ، بينما أن المخلطين تماما والذين ابتعدوا جدا أو كلية عن الأصول الأولى يشكلون الأغلبية الساحقة منهم . ومن هنا فلا جناح علينا إذا نحن قررنا فى النهاية أن اليهود اليوم ليسوا من بنى إسرائيل ، وأن هؤلاء شىء وأولئك شىء آخر أنثروبولوجيا ، والا رابطة بين الطرفين الا الدين والدين فقط .

افكار خاطئة

وتخريجا من هذا وترتيبا عليه ، تسقط على الفور عدة أفكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا

ظل لها من الحقيقة فى نظر العلم الصحيح . فأولا ، مادام اليهود لم يعودوا من الساميين فى شىء ، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع الفاشى ، إن لم يكن المغالطة الكبرى العامدة ، فى تسمية اضطهاد اليهود "بضد السامية" ، فنحن فى الحقيقة ازاء "ضد اليهودية" ببساطة وبلا تعقيد . وإذا كان الالمان يتكلمون عن ضد السامية Anti Semitimus وكراهية اليهود Judenhetze كمترادفين، ، فإن التعبير الآخر أدنى الي الحقيقة العلمية من الأول ولا تفسير لهذه التسمية الخاطئة أنها تعتمد على اسس أو مداورة الإنجيل والتوراة التى تسبق بكثير التغير الجذرى والاحلال والابدال المطلق الذى لحق دماء اليهود . والاضطهاد النازى لليهود فى المانيا لم يكن فى جوهره الا اضطهاد المان لالمان ، لا يقل معظمهم عنهم فى الآرية والنوردية ، وإنما يختلفون فقط فى الديانة وطريقة الحياة .

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أى دعوى قرابة

دم بين العرب واليهود : قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ـ وإنما تاريخيا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من الأصول العليا التى تفرعت عنها العربية ، وقد يكون من الصحيح ، بل إنه لصحيح بالفعل ، أن اسماعيل أبا العرب واسحق أبا اليهود أخوة غير أشقاء وكلاهما ابنا إبراهيم ـ ولكن فى البداية فقط تصدق هذه الاخوة على نسليهما ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما في دماء غريبة ووصل الذوبان الى حد الاحلال حتى أصبحنا ازاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة باسحق فضلا عن اسماعيل . ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوروبا والعالم الجديد أقارب العرب جنسيا أكثر من قرابة الأوروبيين والأمريكيين للعرب ! وغير هذا ـ حتى لو قال به ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين الى فيصل آل سعود ـ ليس إلا من قبيل أوهام العوام بل جهالات الملوك !

إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوروبيين

والأمريكيين ، بل هم فى الاعم الاغلب بعض وجزء منهم وشريحة ، لحما ودما ، وأن اختلف الدين . ومن هنا فان اليهود فى أوروبا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون فى المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت ، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلا وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين . أما إين يمكن أن يكون اليهود غرباء فى منفى ودخلاء بلا جذور فذاك فى بيت العرب وحده ، فى فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم الا أن يكون استعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز . وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ انثروبولوجيا وغير انثروبولوجى .

وانطلاقا من هذا يسقط كذلك أى ادعاء سياسى للصهيونية فى "أرض الميعاد" . فبغض النظر عن أن القانون الدولى يتكفل بشجب وتفجير ادعاءاتهم على أى أساس تاريخى أو دينى ، فان الانثروبولوجيا تبدد أى أساس جنسى قد يزعمون فى هذا الصدد . فمن ناحية ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة ، بل هم مجرد طائفة دينية تتألف

من أخلاط من كل الشعوب والقوميات والأمم والأجناس . ومن ناحية أخرى فلا علاقة لهم جنسيا أو انثروبولوجيا بفلسطين ، وهم أجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الأوروبيون أو الأمريكيون بالنسبة اليها . وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها إسرائيل الصهيونية ، فليست هذه عودة الابن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان ، وانما هى غزو الاجنبي الغريب بالاثم والعدوان..

وتداعيا وانطلاقا من هذا الانتهاء الأخير ، ينبغى أيضا وفى النهاية أن نرفع نغمة حذر أو تحذير حول قضية ليست هى القضية الفلسطينية ولكنها تشبهها أو بالاحرى تشبه بها ، ونعنى بذلك ما يسمى دعوة "الصهيونية السوداء" . فالاخوة الافريقيون فى صحوة نهضتهم الحديثة قد وجدوا - كارث من عصر الرقيق - قطاعا منهم خارج افريقيا فى العالم الجديد يعيش فى أدنى السلم الاجتماعى وتحت ضغوط التفرقة العنصرية الضارية . ومن ثم نادى بعضهم - جارفى والجارفية Garvey بالعودة الى افريقيا الام كحل

لمشكلتهم فى أمريكا . وبغض النظر هنا عما لاقته الدعوة عمليا وفكريا من فشل أو معارضة ، فقد كان أثيرا لدى أصحابها تشبيه الموقف بموقف الصهيونية : فجعلوا تهجير الرقيق الافريقى الى العالم الجديد هو **الخروج الأسود** Black Exodus **والشتات الأفريقى** "A.Diaspora **وجعلوا** افريقيا الأم هى "أرض الميعاد" و"الوطن القومى" ورؤيا العودة هى "الصهيونية السوداء" ..

والذى يعنينا هاهنا ليس الحكم على الدعوة أولها ، وإنما أن ننبه أصدقاءنا الافريقيين برفق الى خطورة وخطأ التشبيه . فإذا كان زنوج أمريكا هم فعلا وحقا من سلالة افريقيا ، فان الأغلبية الساحقة من يهود عالم اليوم ليسوا من بنى إسرائيل أو سلالة فلسطين فى شىء . وإذا كان لزنوج أمريكا نظريا حق تاريخى وجنسى فى العودة الى افريقيا ، فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتا بالنسبة الى فلسطين . ومن ثم فلا مجال ولا

وجه للتشبيه بالصهيونية . بل إنه لتشبيه يسىء الى فكرة العودة الافريقية أكثر مما يفيدها .

والصهيونية من جانبها تتلقف هذا التشبيه لتتقرب به الى زنوج الولايات المتحدة والعالم الجديد وتستدر عطفهم المخدوع على حركتهم العادية الغاصبة . إنه إذن تشبيه غير موفق ، وهو غير صحيح الى ذلك وقبل ذلك ، ومن الخير لأصدقائنا الافريقيين وخير قضيتهم وقضيتنا معا أن يسقطوه والفكرة الخاطئة التى تكمن خلفه .

المصـــــــــادر :

- W.Z Ripley, The Races of Europe, Lond., 1900.
- C.S Coon, The Races of Europe, N.Y., 1939.
- Julian Huxley, A.C. Haddon, A.M. Carrsaunders, We Europeans, Pelican, 1939.
- J. Deniker, Les Races et les Peuples, Paris, 1926.
- Egon E. Bergel, Urban Sociology, Mcgrew Hill, 1955.
- Ellsworth Huntington, Palestine and its Transformation, Boston, 1911.
- The Pulse of Progress, N.Y., 1926.
Mainsprings of Civilization, N.Y., 1945.
- C.S. Coon, Have the Jews a Racial Identity in Jews in : a Gentile World, ed. Graeber & Britt N.Y., 1942.
- Y.M. Goblet, Political Geography and the world Map, Lond., 1955.
- A.C.Haddon, The Races of Man, Cambridge, 1924.
- M.F. Ashley Montagu, Introduction to Physical Anthropology, Springfield, 1951.
- W alter Fitzgerald, The New Europe, Lond., 1946.
- Adolphe Landry, Traite de Demographie, Paris, 1949.
- W.F. Ogburn, M.F. Nimkoff, A. Handbook of Sociology, London., 1953.

- P. Sorokin, Contemporary Sociological Theories, N.Y. & Lond., 1926.
- George Adam Smith, Historical Geog. of the Holy Land, N.Y. 1932.

- نجلاء عز الدين : العالم العربى ، القاهرة (مترجم) .
- جمال حمدان : المدينة العربية، القاهرة ، ١٩٦٤ .

ملحق لتحديث كتاب د . جمال حمدان

تتسم كتابات الدكتور جمال حمدان بعمقها الفكرى وأطروحاتها ذات المقدرة التوليدية العالية .. ولذا فقيمتها الفكرية والمنهجية تظل باقية ، وان تغيرت بعض الحقائق والمعلومات . إذ تظل نماذجه التحليلية التفسيرية التصنيفية هى القيمة الأساسية التى تركها لنا وهى التى نتعلم منها كيف نفكر ونفسر ونصنف .

ومع هذا من المفيد لقارىء هذا الكتاب المرجع أن يعرف الصورة العامة لأعداد اليهود فى العالم ومسار هجراتهم حتى عام ١٩٩٥ ، وهكذا مايحاول أن يزوده هذا الملحق به ولنلاحظ انه رغم تحديث الأرقام فإن النموذج التصنيفى العام لم يتغير والذى ينطلق من رؤية الجماعات اليهودية باعتبارها جماعات بشرية يسرى عليها مايسرى على غيرها من قوانين ، أى أنها لاتشكل شعبا مختارا أو عصابة اجرامية .

تعداد الجماعات اليهودية وتوزعها في العالم وبعض المعالم السكانية فى الوقت الحاضر ١٩٩٢

Worldwide Number and Distrbution of the Jewish Communities and Some Demographic Features at the Present

يقدر عدد سكان العالم من اليهود طبقا لإحصاءات عام ١٩٨٧ بنحو ١٣ مليونا «١٢,٩٣٤,٦٠٠» وصل إلى ١٢,٩١٣,٨٠٠ عام ١٩٩٢ «حسبما ورد فى الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى لعام ١٩٩٤» . وهو يقل قليلا عن عددهم فى عام ١٩٨٢ ، والبالغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ أو عددهم فى عام ١٩٨٤ وهو ١٢,٩٦٣,٣٠٠ «وهو ما يدل على أن يهود العالم قد وصلوا إلى نقطة الصفر فى النمو» وقد تناقص هذا العدد عن عددهم فى عام ١٩٦٧ حيث كان ١٣,٨٣٧,٥٠٠ أى أن عدد اليهود نقص بنحو المليون فى الفترة من عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٨٢ دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعى ، والجماعات اليهودية موزعة فى الوقت الحاضر من الناحية الجغرافية فى كل أرجاء العالم على النحو التالى :

أوربا «بما في ذلك روسيا الآسيوية والبلقان وتركيا»	١,٩٢٤,٢٠٠
آسيا «فلسطين المحتلة أساسا»	٤,٣٧٨,٦٠٠
أفريقيا (جنوب أفريقيا اساسا)	١٠٦,٧٠٠
أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية «الولايات المتحدة أساسا»	٦,٤٠٩,٧٠٠
استراليا ونيوزيلندا	٩٤,٦٠٠
المجموع	١٢,٩١٣,٨٠٠

وأكبر توسع جماعات يهودية هي :

الدولة	نسبتهم الى يهود العالم	عدد أعضاء الجماعة اليهودية
الولايات المتحدة	٤٣,٥٪	٥,٦٢٠,٠٠٠
إسرائيل	٣٢,٨٪	٤,٢٤٢,٥٠٠
فرنسا	٤,١٪	٥٣٠,٠٠٠
روسيا	٣,٢٪	٤١٥,٥٠٠
كندا	٢,٨٪	٣٥٦,٠٠٠
بريطانيا	٢,٣٪	٢٩٨,٠٠
أوكرانيا	٢,١٪	٢٧٦,٠٠٠
الارجنتين	١,٦٪	٢١١,٠٠٠
جنوب أفريقيا	٠,٨٪	١٠٠,٠٠٠

• وإذا نظرنا الى توزع أعضاء الجماعات اليهودية من منظور التشكيلات الحضارية والسياسية ، فإن الصورة سوف تختلف تماما ، فلو استبعدنا سكان المستوطن الصهيوني ، فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتركزون أساسا في أمريكا الشمالية حيث توجد أغلبيتهم الساحقة التي تبلغ «٤٦,٢٤٪ وفي أوربا الغربية حيث تبلغ ١٤,٩٪ وروسيا وأوكرانيا حيث نسبتهم ٥,٣٪ أي أن ٦٩,٨٪ من يهود العالم باستثناء فلسطين المحتلة يوجدون في أمريكا الشمالية وأوربا ، ويعيش معظمهم في الوقت الحالي في

البلدان الناطقة بالإنجليزية «الولايات المتحدة وكندا وإنجلترا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا» ولذا فإنه يمكننا أن نقول: إن اللغة التى يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية هى الانجليزية وليس العبرية أو اليديشية .. ومن الملاحظ أن الجماعات اليهودية فى أوربا الشرقية والاتحاد السوفييتى وأوربا آخذة فى الذوبان وأن عددهم فى أمريكا اللاتينية آخذ فى التناقص السريع .. ولذا يمكننا التنبؤ بأن يهود العالم أو ما يقال له «الشعب اليهودى» سيصبح جزءا لايتجزأ من الشعب الأمريكى بعد أن كان جزءا لايتجزأ من التشكيل الاستيطانى الغربى ومن شعوب شرق أوربا ونلاحظ فى الجدول السابق الذى يبين أكبر تسع جماعات يهودية فى العالم أن ٩٣,٢٪ من يهود العالم يعيشون فى تسعة مراكز رئيسية بما فى ذلك الدولة الصهيونية ، وان ٧٦,٣٪ يعيشون فى دولتين اثنتين «الولايات المتحدة وإسرائيل» ونلاحظ أن البلاد التى يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية تتمتع بمستوى معيشى مرتفع ودخول مرتفعة ، كما أنها تنتمى الى مايمكن تسميته بالتشكيل العرقى الأبيض ، ففى الأرجنتين ، حيث توجد أعلى نسبة من البيض فى أمريكا اللاتينية توجد أيضا أعلى نسبة من اليهود .

وهناك عنصر آخر يرتبط بالعنصر السابق وهو أن نسبة ١٥٪ من يهود العالم توجد فى أوربا ، وتوجد الأغلبية العظمى فى دول استيطانية : الولايات المتحدة وكندا اللتان تضمان ٥,٩٧٦,٠٠٠

«٤٦,٢٧٪ من يهود العالم» وإسرائيل التى تضم ٤,٢٤٢,٥٠٠ «٣٢,٨٥٪ من يهود العالم» . وجنوب أفريقيا التى تضم ١٠٠,٠٠٠«٠,٨٪» والبرازيل والارجنتين وبقية دول أمريكا اللاتينية ٣٨٢,٠٠٠ «٢,٩٪» ويمكن أن نضيف كذلك استراليا ونيوزيلندا التى تضم ٩٤,٦٠٠«٧,٪» أى أن الجماعات اليهودية مرتبطة بأوربا وبتجربتها الاستيطانية جغرافيا وتاريخيا ، إذ يوجد فى هذه البلاد ٩١٪ من يهود العالم ، وكذلك فان الدياسبورا اليهودية، أى انتشار اعضاء الجماعات فى أنحاء العالم ليست ، انتشارا عشوائيا ، وإنما هو انتشار يصاحب انتشار التشكيل الاستعمارى الغربى خصوصا فى جانبه الاستيطانى ، وبالتالى ، فإن اسرائيل لاتشكل استثناء من القاعدة بل هى جزء من نمط غربى عالمى ، وارتفاع الدخول ليس منفصلا تماما عن العنصر الاستيطانى اذ أن التجربة الغربية الاستيطانية كانت تهدف أساسا الى حل المشاكل الاقتصادية للمجتمعات الغازية ، وكانت إحدى أهم المشاكل هى الفائض البشرى . وقد كان المجتمع الغربى ينظر الى اليهود باعتبارهم مادة بشرية استيطانية نافعة فتحركوا أو تم تحريكهم داخل هذا الاطار .

وفيما يلى توزع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم فى الوقت الحاضر حسب احصائيات ١٩٩٢ .

الأمريكتان :

١ ـ الشمالية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
كندا	٢٧.٧٥٥.٠٠٠	٣٥٦.٠٠٠	١٢.٨
الولايات المتحدة	٢٥٧.٨٤٠.٠٠٠	٥.٦٢٠.٠٠٠	٢١.٨
المجموع	٢٨٥.٥٩٥.٠٠	٥.٩٧٦.٠٠٠	٢٠.٩

٢ ـ الوسطى

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
الانتليز الهولندية	١٧٥.٠٠٠	٤٠٠	٢.٣
بنما	٢.٥٦٣.٠٠٠	٥.٠٠٠	٢.٠
بورتوريكو	٣.٦٢٦.٠٠٠	١.٥٠٠	٠.٤
جامايكا	٢.٤٩٥.٠٠٠	٣٠٠	٠.١
جزرالبهاما	٢٦٨.٠٠٠	٣٠٠	١.١
جواتيمالا	١٠.٠٢٩.٠٠٠	٨٠٠	٠.١
الدومينكان	٧.٦٢١.٠٠٠	١٠٠	—
فيرجن ايلاند	١٠٧.٠٠٠	٣٠٠	٢.٨
كوبا	١٠.٧٠٩.٠٠٠	٧٠٠	٠.١
كوستاريكا	٣.٢٧٠.٠٠٠	٢.٠٠٠	٠.٦
المكسيك	٨٩.٩٩٨.٠٠٠	٤٠.٠٠٠	٠.٤
بلاد أخرى	٢٥.٣٣٠.٠٠٠	٣٠٠	—
المجموع	١٥٦.٣٨٩.٠٠٠	٥١.٧٠٠	٠.٣

٣ ـ الجنوبية

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
الارجنتين	٣٣,٤٨٧,٠٠٠	٢١١,٠٠٠	٦.٣
إكوادور	١١,٣١٠,٠٠٠	٩٠٠	٠.١
أوروجواى	٣,١٤٩,٠٠٠	٢٣.٨٠٠	٧.٦
باراجواى	٤,٦٤٣,٠٠٠	٩٠٠	٠.٢
البرازيل	١٥٦,٥٧٨,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠	٠.٦
بوليفيا	٧,٧٠٥,٠٠٠	٧٠٠	٠.١
بيرو	٢٢,٩١٣,٠٠٠	٣,٠٠٠	٠.١
سورينام	٤٤٦,٠٠٠	٢٠٠	٠.٤
شيلى	١٣,٨١٣,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١.١
فنزويلا	٢٠.٦١٨,٠٠٠	٢٠,٠٠٠	١.٠
كولومبيا	٣٣.٩٨٥,٠٠٠	٦,٥٠٠	٠.٢
المجموع	٣٠٨,٦٤٧,٠٠٠	٣٨٢,٠٠٠	١.٢
المجموع الكلى للأمريكتين	٧٥٠,٦٣١,٠٠٠	٦,٤٠٩,٧٠٠	٨.٥٣

استراليا ونيوزيلاندا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
استراليا	١٧.٨٤٣,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	٥.٠
نيوزيلاندا	٣.٤٨٧,٠٠٠	٤,٥٠٠	١.٣
بلاد أخرى	٦.٦١٧,٠٠٠	١٠٠	–
المجموع	٢٧.٩٤٧,٠٠٠	٩٤.٦٠٠	٣.٤

آسيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إسرائيل	٥.١٩٥.٩٠٠	٤.٢٤٢.٥٠٠	٨١٦.٥

الدول الآسيوية فى الاتحاد السوفييتى «سابقا»

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
أذربيجان	٧,٢٠٠,٠٠٠	٢١,٠٠٠	٢.٩
أرمينيا	٣,٥٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠.١
أوزبكستان	٢١,٦٠٠,٠٠٠	٤٥,٢٠٠	٢.١
تركمانيا	٤,٠٠٠,٠٠٠	١,٩٠٠	٠.٥
جورجيا	٥,٥٠٠,٠٠٠	١٨,٠٠	٣.٣
طاجكستان	٥,٧٠٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	٠.٩
كازخستان	١٧,٢٠٠,٠٠٠	١٤,٥٠٠	٠.٨
قريفيزيا	٤,٦٠٠,٠٠٠	٣,٧٠٠	٠.٨
المجموع	٦٩,٣٠٠,٠٠٠	١٠٩,٦٠٠	١.٦

بلاد آسيوية أخرى :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إيران	٦٣.١٨٠.٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠.٣
تايلاند	٥٦.٨٦٨.٠٠٠	٢٠٠	–
سنغافورة	٢.٧٩٨.٠٠٠	٣٠٠	٠.١
سوريا	١٣.٧٦٢.٠٠٠	١.٢٠٠	٠.١
العراق	١٩.٩١٨.٠٠٠	٢٠٠	–
الفلبين	٦٦.٥٤٣.٠٠٠	١٠٠	–
كوريا الجنوبية	٤٤.٥٠٨.٠٠٠	١٠٠	–
الهند	٨٩٦.٥٦٧.٠٠٠	٤,٥٠٠	–
هونج كونج	٥.٨٤٥.٠٠٠	١,٠٠٠	٠.٢
اليابان	١٢٤.٩٥٩.٠٠٠	١,٠٠٠	–
اليمن	١٢.٩٧٧.٠٠٠	١,٦٠٠	٠.١
بلاد أخرى	١.٩١٨.٥٠٦.١٠٠	٣٠٠	–
المجموع	٣.٢٢٦.٤٣١.١٠٠	٢٦,٥٠٠	–
المجموع الكلى للبلاد الآسيوية	٣.٣٠٠.٩٢٧.٠٠٠	٤.٣٧٨.٦٠٠	١.٣

أفريقيا :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
إثيوبيا	٥٤،٦٢٨،٠٠٠	١،٥٠٠	–
تونس	٨،٥٧٩،٠٠٠	٢،٠٠٠	٠،٢
الجزائر	١٩،٥٩٠،٠٠٠	٣٠٠	–
جنوب أفريقيا	٤٠،٧٧٤،٠٠٠	١٠٠،٠٠٠	٢.٥
زائير	٤١،١٦٦،٠٠٠	٤٠٠	–
زامبيا	٨،٨٨٥،٠٠٠	٣٠٠	–
زمبابوى	١٠،٨٩٨،٠٠٠	١،٠٠٠	٠،١
مصر	٥٦،٠٦٠،٠٠٠	٢٠٠	–
بلاد أخرى	٤٢٧،٩٩٠،٠٠٠	٢٠٠	–
المجموع	٦٦،٨٥٧،٠٠٠	١٠٦،٧٠٠	١،٦

أوربا

الجماعة الأوربية:

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
اسبانيا	٣٩,١٥٣,٠٠٠	١٢,٠٠٠	٠,٣
ألمانيا	٨٠,٦٠٦,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٠,٦
أيرلندا	٣,٤٨١,٠٠٠	١,٨٠٠	٠,٥
ايطاليا	٥٧,٨٢٦,٠٠٠	٣١,٠٠٠	٠,٥
البرتغال	٩,٨٧٠,٠٠٠	٣٠٠	–
بلجيكا	١٠,٠١٠,٠٠٠	٣١,٨٠٠	٣,٢
الدنمارك	٥,١٦٩,٠٠٠	٦,٤٠٠	١,٢
فرنسا	٥٧,٣٧٩,٠٠٠	٥٣٠,٠٠٠	٩,٢
لكسمبورج	٣٨٠,٠٠٠	٦٠٠	١,٦
المملكة المتحدة	٥٨,٠٣٩,٠٠٠	٢٩٨,٠٠٠	٥,١
هولندا	١٥,٣٧٠,٠٠٠	٢٥,٦٠٠	١,٧
اليونان	١٠,٢٠٨,٠٠٠	٤,٨٠٠	٠,٥
المجموع	٣٤٧,٣٩١,٠٠٠	٩٩٢,٣٠٠	٢,٩

باقى دول أوربا الغربية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
جبل طارق	٣١,٠٠٠	٦٠٠	١٩,٤
السويد	٨,٦٩٢,٠٠٠	١٥,٠٠٠	١.٧
سويسرا	٦,٨٦٢,٠٠٠	١٩,٠٠٠	٢.٨
فنلندا	٥,٠٢٠,٠٠٠	١,٣٠٠	٠،٣
النرويج	٤,٣١٠,٠٠٠	١,٠٠٠	٠،٢
النمسا	٧,٨٠٥,٠٠٠	٧,٠٠٠	٠،٩
بلاد أخرى	٧٧١,٠٠٠	١٠٠,٠٠	٠.١
المجموع	٣٣,٤٩١,٠٠٠	٤٤,٠٠٠	١.٣

الدول الأوربية في الاتحاد السوفييتى «سابقا» :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
استونيا	١,٦٠٠,٠٠٠	٣,٤٠٠	٢.١
أوكرانيا	٥١,٩٠٠,٠٠٠	٢٧٦,٠٠٠	٥,٣
روسيا	١٤٩,٠٠٠,٠٠٠	٤١٥,٠٠٠	٢.٨
روسيا البيضاء	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٤٦,٠٠٠	٤.٥
لاتفيا	٢,٦٠٠,٠٠٠	١٣,٥٠٠	٥.٢
ليتوانيا	٣,٨٠٠,٠٠٠	٦,٥٠٠	١.٧
مولدافيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١٩,٤٠٠	٤,٤
المجموع	٢٢٣,٦٠٠,٠٠٠	٧٧٩,٨٠٠	٣.٥

أوربا الشرقية :

الدولة	عدد السكان	عدد اليهود	نسبة اليهود إلى نسبة السكان فى الألف
بلغاريا	٨,٩٢٦,٠٠٠	١,٩٠٠	٠,٢
البوسنة والهرسك	٤,٠٠٠,٠٠٠	٣٠٠	٠,١
بولندا	٣٨,٥١٨٠٠	٣,٦٠٠	٠,١
تريكا «بمافى ذلك المناطق الآسيوية»	٥٩,٥٧٧,٠٠٠	١٩,٥٠٠	٠,٣
تشيك	١٠,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٤
رومانيا	٢٣,٣٧٧,٠٠٠	١٦,٠٠٠	٠,٧
سلوفاكيا	٥,٣٠٠,٠٠٠	٣,٨٠٠	٠,٧
سلوفينيا	٢,٠٠٠,٠٠٠	١٠٠	–
كرواتيا	٤,٤٠٠,٠٠٠	١,٤٠٠	٠,٣
المجر	١٠,٤٩٣,٠٠٠	٥٦,٠٠٠	٥,٣
يوغسلافيا	٩,٨٠٠,٠٠٠	١,٧٠٠	٠,٢
المجموع	١٧٦,٦٩١,٠٠٠	١٠٨,١٠٠	٠,٦
المجموع الكلى لأوربا	٧٨١,١٧٣,٠٠٠	١,٩٢٤,٢٠٠	٢,٥

ويلاحظ أنه يوجد دولتان اثنتان «الولايات المتحدة وإسرائيل» تضمان الغالبية الساحقة ليهود العالم «٧٥٪» ولايزيد عدد اليهود عن نصف مليون إلا فى دولة واحدة «فرنسا» وينقص عن النصف مليون فى دولة أخرى «روسيا» وتوجد دولتان «جنوب أفريقيا والبرازيل» يزيد عدد اليهود فى كل منهما على مائة ألف .. وباستثناء المجر وفيها ٥٦ ألفا والمكسيك ويوجد فيها ٤٠ ألفا لاتوجد دولة واحدة أخرى يزيد فيها عدد اليهود على ٣٥ ألفا ففى بلچيكا يوجد ٣١,٨٠٠ وفى ايطاليا ٣١,٠٠٠ وفى أوروجواى ٢٣,٨٠٠ وفى رومانيا ١٦,٠٠٠ .

ويلاحظ أن جميع الدول السابقة تنتمى أيضا الى التشكيل العرقى الأبيض أو التشكيل الاستيطانى ذى الجذور الغربية .. البيضاء .. والواقع أن كل هذا يدعم رأينا الخاص بأن اليهود لايوجدون فى العالم بأسره وإنما ضمن تشكيل محدد ، وأن وجودهم فى بعض الدول أقرب الى الغياب ولايمكن أخذه فى الاعتبار من الناحية الاحصائية ، كما هو الشأن مع معظم الأقليات الدينية والاثنية فى العالم .فلايمكن أن نتحدث عن الوجود اليهودى فى الهند حيث لايوجد بها إلا نحو ٤,٥٠٠ يهودى ، أو الوجود اليهودى فى اليونان حيث يوجد ٤,٨٠٠ يهودى ، أو بولندا وفيها ٣,٦٠٠ يهودى ، أو النرويج التى فيها ألف يهودى ، أو زائير التى فيها ٤٠٠ يهودى أو الفلبين وفيها ١٠٠ يهودى أو بورما حيث يوجد عشرون يهوديا وحسب .

وتشكل الجماعات اليهودية قلة سكانية بالنسبة الى سكان العالم ، وهم كذلك أقلية صغيرة قياساً إلى حجم السكان فى الدول التى يوجدون فيها . فأكبر تجمع يهودى فى العالم فى الولايات المتحدة لايشكل سوى ٢,١٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٥٧,٨٤٠,٠٠٠ حسب إحصاءات عام ١٩٩٢ .. وثانى تجمع يهودى فى العالم كان يتركز فى الاتحاد السوفييتى «سابقا» وهو بدوره لايشكل سوى ١,٠٧٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦٧,٥١٦,٠٠٠ . أما فى كندا ، فإن النسبة هى ١,٢٨٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٢٦,٧٥٥,٠٠٠ . وتقل النسبة فى البلاد الأوربية الأخرى ، فهم فى فرنسا مثلا لايشكلون سوى ٩٢٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٧,٣٧٩,٠٠٠ أما فى انجلترا فإنها ٠,٥١٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٥٨,٠٣٩,٠٠٠ وفى روسيا ٠,٢٨٪ من من مجموع ١٤٩,٠٠٠,٠٠٠ ، وفى أوكرانيا ٠,٥٣٪ من مجموع ٥١,٩٠٠,٠٠٠ .

ولايشكل اليهود أغلبية إلا فى اسرائيل وحدها ، ومع هذا فإنهم يحسون باحساس الأقلية نظرا لوجودهم فى صورة مجتمع استيطانى منعزل داخل الكثافة السكانية العربية ولخوفهم الدائم من العرب الموجودين فى فلسطين ، وبعد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة .. وتكاثر العرب فى مقابل تناقص الهجرة ، وتزايد النزوح بين المستوطنين ، وعقم الأنثى اليهودية فى إسرائيل ، فإن

العرب سيصبحون هم الأغلبية العددية لا النفسية وحسب ، وهذا مايسمى «مشكلة إسرائيل السكانية» .

ومن الظواهر التى تستحق الإشارة ، تركز اليهود فى العواصم والمدن الكبرى ، فالواقع أن أكثر من نصف مجموع يهود أمريكا اللاتينية «٢٠٠ ألف» يوجدون فى بوينس أيريس ، وأكثر من نصف يهود جنوب أفريقيا «٦٣ ألفا» يوجدون فى جوهانسبرج، وأكثر من نصف يهود فرنسا «٣٥٠ ألفا» فى باريس، وأكثر من نصف يهود إنجلترا «٢٠٠ ألف» يوجدون فى منطقة لندن الكبرى ، وأكثر من نصف يهود هولندا «١٥ ألفا» فى أمستردام ، وأكثر من نصف يهود كندا فى مونتريال «١٠٠ ألف» وتورنتو «١٧٥ ألفا» وثلث يهود روسيا «٢٠٠ ألف» يوجد فى موسكو . أما فى الولايات المتحدة فهناك خمس مدن تضم أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة إذ تضم نيويورك «الكبرى» ٤٥٠,٠٠٠ ولوس أنجلوس ٤٩٠,٠٠٠ وفيلادلفيا ٢٥٤,٠٠٠ وشيكاغو «الكبرى» ٢٤٨,٠٠٠ وبوسطن ٢٠٨,٠٠٠ وواشنطن «الكبرى» ١٦٥,٠٠٠ وميامى ١٩٩,٠٠٠ والواقع أن توزعهم على كل هذه المدن بدلا من تركزهم فى العاصمة هو انعكاس للتركيبة الفيدرالية للولايات المتحدة . وإذا كان نصف الجماعات اليهودية يتركز فى كثير من البلاد فى العاصمة ، فإن النصف الثانى يوجد موزعا على مدن كبرى أخرى ، أى أن الأغلبية العظمى من الجماعات اليهوية توجد فى مراكز حضرية . وهذا أمر متوقع

باعتبار أنهم عملوا كجماعة وظيفية وسيطة فى الحضارة الغربية ومهاجرون الى البلاد التى يوجدون فيها . والمهاجرون يتركزون عادة في المدن حيث توجد فرص أكبر للعمل ، وحيث توجد مراكز التجارة والمال .ولم يكن الحال مختلفا فى العالم العربى ، فقد تركزت أغلبية يهود لبنان في بيروت كما تركز يهود مصر فى القاهرة بحى المعادى وحى الظاهر وتتركز المعابد اليهودية بشكل ملحوظ في العواصم ، فمثلا يوجد فى القاهرة والاسكندرية عدة معابد ، ويقع أحد معابد القاهرة فى شارع عدلى على مقربة من البنوك ومراكز التجارة . كما يوجد معبد يهودى فى الاسكندرية فى شارع النبى دانيال على مقربة أيضا من بنوك الاسكندرية وعلى بعد خطوات من الغرفة التجارية ومن المعروف أن ٩٨٪ من العاملين بالبورصة فى مصر كانوا من أعضاء الجماعة اليهودية . وفى تصورنا أن هذا الوضع هو نتيجة للاستعمار الغربي وللهجرة الاشكنازية الى العالم العربى فى أواخر القرن الماضى والتى وسمت معظم الجماعات اليهودية العربية فى بلاد المتوسط «مصر والجزائر والمغرب ولبنان وسوريا» بميسمها بحيث تحول أعضاء الجماعات الى جماعات وسيطة للاستعمار الغربى .. كما يلاحظ «مثلا» أن يهود اليمن الذين ظلوا بمنأى عن الهجرة الاشكنازية ، ظلوا محتفظين ببنائهم الطبقى القبلى وبوجودهم فى الجبال . أما فى العراق فإن يهود كردستان الذين ظلوا بمنأى عن هذه التحولات لم يستقروا فى المدن على خلاف بقية أعضاء الجماعة الذين تحولوا إلى جماعة وظيفية وسيطة وتركزوا فى العاصمة وفى أعمال التجارة والمال بالذات .

ولم يشذ سكان التجمع الاستيطانى الصهيونى عن هذا الاتجاه . ففى إسرائيل يتكدس ٧٥٪ من المواطنين فى المدن .. ويلاحظ أن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لايزال آخذا فى التناقص وهو مايطلق عليه ظاهرة «موت الشعب اليهودى» .

وحينما وصلت الإحصائيات بتعداد اليهود فى العالم عام ١٩٩٥ وجدنا أن الصورة العامة لم تختلف كثيرا عنها عام ١٩٩٢.

وفيما يلى بعض التغيرات الأساسية :

الدولة	عام ١٩٩٢	عام ١٩٩٥
الولايات المتحدة	٥,٦٢٠,٠٠٠	٥.٨٠٠,٠٠٠
إسرائيل	٤,٢٤٢,٥٠٠	٤,٤٢٠,٠٠٠
فرنسا	٥٣٠,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
روسيا	٤١٥,٠٠٠	٦٠٠,٠٠٠
أوكرانيا	٢٧٦,٠٠٠	٤٤٦,٠٠٠
الارجنتين	٢أ١,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠
جنوب أفريقيا	١٠٠,٠٠٠	١١٤,٠٠٠
المجر	٥٦,٠٠٠	٨٠,٠٠٠
مولدافيا	١٩,٤٠٠	٤٠,٠٠٠
روسيا البيضاء	٤٦,٠٠٠	٣٤,٠٠٠
أوروجواى	٢٣,٨٠٠	٣٠,٠٠٠
إيران	١٦,٠٠٠	٢٥,٠٠٠
أذربيجان	١٢,٠٠٠	٢٥,٠٠٠

ويمكن القول أن التغيرات فى الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل لايعتد بها ، ولكن الزيادات في البلاد الأخرى تحتاج إلى وقفة ، فزيادة ٧٠ ألفا فى فرنسا «أى بنسبة ١٣,٢٪» و ٤٠ ألفا في الارجنتين «بنسبة ١٨,٤٨٪» و ٢٣ ألفا في المجر «بنسبة ٤٢,٩٪» و ١٤ ألفا في جنوب أفريقيا «بنسبة ١٤٪» وتسعة آلاف في إيران «بنسبة ٥٦٪» ليس لها سبب واضح ، فالاتجاه العام فى هذه البلاد في السنين السابقة كان نحو النقصان لا الزيادة ولعل الزيادات هنا راجعة لاختلاف النماذج الإحصائية بين المصدر الذى استخدمه الكتاب السنوى الأمريكى اليهودى «وهو من إصدار البعثة اليهودية الأمريكية» ومصدر تعداد عام ١٩٩٥ وهو تقرير أصدره المؤتمر اليهودى العالمى .

ولاندرى هل ينطبق نفس التفسير على الزيادة المحلوظة فى دول الاتحاد السوفييتى سابقا «دول الكومنولث المستقلة وغيرها من الدول» إذ نلاحظ أن يهود روسيا زادوا زيادة كبيرة ١٨٥ ألفا «حوالى ٤٤٪» وزاد يهود أوكرانيا ١٧٠ ألفا «حوالى ٦١٪» وزاد يهود مولدوفا ٢١ ألفا «أكثر من ١٠٦٪» بينما زاد يهود روسيا البيضاء ١٢ألفاً «أى بنسبة ٢٦٪» .

وهناك احتمال أن تكون قد بدأت حركة عودة من الدولة الصهيونية كما أن أعدادا كبيرة من يهود لاتفيا واستوانيا وليتوانيا والجمهوريات الإسلامية السابقة وطنوا فيها باعتبارهم

عنصرا روسيا استيطانيا ، ولعل أعداداً منهم بدأت هى الأخرى فى العودة ـ وهناك بطبيعة الحال مشكلة من هو اليهودى ومن يضم فى التعداد ومن يستبعد .

وعلى كل فإن هذه القضايا ليست جوهرية ولاتغير من الأنماط العامة التى درسناها .

هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث

Migration of Memebers of the Jewosh Communities in Moden Times

تغير اتجاه هجرة أعضاء الجماعات اليهودية مع بداية عصر النهضة فى أوربا لثلاثة أسباب أساسية :

١ ـ شهد عصر النهضة البدايات الحقيقية للانقلاب التجارى الرأسمالى بما تبعه من اكتشافات جغرافية ومشاريع استعمارية غربية : اسبانية وبرتغالية ثم هولندية وانجليزية . وكانت اسبانيا والبرتغال قد طردتا اليهود من أراضيهما أما هولندا وانجلترا فقد فتحتا أبوابهما لهجرة اليهود نظرا لحاجتهما الى أيد عاملة ورءوس أموال وخبرات تجارية ، ثم تبعتهما فرنسا .. وقد أدى هذا الوضع الى تدفق المهاجرين اليهود الى هذه البلاد وإلى مستعمراتها فيما بعد .

٢ ـ كانت الدولة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الجمود التى أدت الى سقوطها فى نهاية الأمر ، ولم تعد قادرة على استيعاب المزيد من اليهود .

٣ ـ وفى تلك المرحلة ، كان معظم يهود أوربا مركزين فى بولندا التى شهدت ثورة الزعيم الشعبى الأوكرانى بوجدان شميلنكى عام ١٦٤٨ والذى قاد ثورة الفلاحين الأوكرانيين ضد

الاحتلال البولندى ، وضد النبلاء البولنديين «الشلاختا» المستفيدين من هذا الاحتلال وضد عمال النبلاء وممثليهم من يهود الأرندا الذين كانوا يقومون بجمع الضرائب وتوقيع العقوبات على الفلاحين . وقد هزت هذه الثورة جذور الدولة البولندية على وجه الخصوص ثم تبع ذلك غزو السويد وروسيا لها .

وقد أدى تزامن هذه الأحداث «طرد اليهود السفارد من شبه جزيرة أيبريا، ثم اهتزاز الأساس الاقتصادى والسياسى لليهود الأشكناز فى بولندا مع فتح أبواب الهجرة الى أوربا الغربية ، ودخول الدولة العثمانية فى طور الجمود» الى تغيير مسار هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى أوربا ، وظهور النمط الحديث أى هجرة الهيود من البلاد المتخلفة فى شرق أوربا إلى البلاد المتقدمة فى وسطها وغربها وإلى العالم الجديد . والهجرة اليهودية فى العصر الحديث هى أساسا جزء من حركة الاستعمار الاستيطانى التى بدأت فى القرن السادس عشر ، خصوصا التشكيل الأنجلوساكسونى «بعد بداية قصيرة مع الاستعمار الاسبانى ثم الهولندى» وما الهجرة الصهيونية إلا تعبير عن هذا النمط العام . ومع هذا ظلت الولايات المتحدة هى نقطة الجاذبية الأساسية للهجرة اليهودية من البداية حتى الوقت الراهن للأسباب التالية :

١ ــ تشكل الولايات المتحدة أهم وأنجح تجربة استيطانية غربية . وقد اجتذبت ثم استوعبت أعدادا كبيرة من المهاجرين من أوربا بلغت أكثر من ٨٠٪ .

٢ ـ الولايات المتحدة دولة علمانية لم تعرف أية تقاليد أو حتى أية رموز دينية إلا لفترة وجيزة للغاية من تاريخها ، كما أنها نجحت فى إقامة مؤسسات علمانية لاستيعاب وصهر المهاجرين و«أمركتهم» وفتحت أمامهم فرصة الانتماء الثقافى الكامل لوطنهم الجديد مما زاد من جاذبيتها وذلك على عكس أمريكا اللاتينية التى احتفظت بكاثوليكيتها وبالتالى استبعدت البروتستانت واليهود .

٣ ـ كان اليهود يشكلون جماعة وظيفة مالية تعمل بالتجارة والمال ، وبالتالى لم تكن بينهم أعداد كبيرة من العمال أو الفلاحين، والمجتمع الأمريكى هو مجتمع الاقتصاد الحر الذى يشكل القطاع التجارى والمالى أكبر قطاعاته والذى سادت فيه القيم التجارية الموضوعية ومن ثم فهو مجتمع له جاذبية خاصة بالنسبة إلى المهاجر اليهودى .

وقد تنبأ المؤرخ الروسى اليهودى دبنوف بأن مسار الهجرة اليهودية سيكون الى الولايات المتحدة ، وطالب بأن يتم تقنين العملية وتنظيمها .

ويمكن القول بقدر من التبسيط غير المخل أن هجرة أعضاء الجماعات اليهودية تدور حول قطبين أساسيين هما : شرق أوربا «روسيا ـ بولندا» كقوة طاردة وكمصدر للمادة البشرية ، والولايات المتحدة كقوة جاذبة ، وقد كان النمط الأساسى القديم للهجرة اليهودية هو تحرك أعضاء الجماعات داخل أطر الإمبراطوريات

الكبرى «الفارسية أو الرومانية أو الإسلامية» أما في العصر الحديث فقد كانت هناك إمبراطوريتان أو قوتان عظميان تحددان من خلال سياستهما حركة هجرة أعضاء الجماعة اليهودية ، وقد تطور الأمر بعض الشيء بعد ذلك في منتصف القرن العشرين .

ولكن هناك مصادر أخرى ثانوية طاردة للمادة البشرية مثل أوربا الشرقية أو أمريكا اللاتينية أو جنوب أفريقيا أو بقايا يهود الشرق والعالم الإسلامي ، كما أن هناك مناطق جذب ثانوية أخرى مثل كندا واستراليا ونيوزيلندا وبعض بلاد أوربا إلا أن النمط الأساسي الذي اشرنا إليه ظل سائداً وتمثل اسرائيل نقطة مبهمة فهي مصدر طرد حيث يبلغ عدد النازحين منها بين ٧٠٠ ألف ومليون ، كما أنها مصدر جذب ليهود البلاد العربية والشرق حيث إنها تحقق حراكا اجتماعيا كما تمثل محطة انتقال لهؤلاء اليهود الذين لايمكنهم الوصول الى الولايات المتحدة أو أولئك الذين لاتوجد عندهم الكفاءات المطلوبة للعمل فيها .

ويمكن تقسيم هجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث الى المراحل التالية :

أ ـ المرحلة الأولى : ابتداء من القرن السادس عشر حتى بداية القرن التاسع عشر .

وهي مرحلة البدايات الأولى للثورة التجارية الرأسمالية الصناعية في أوربا ، وهذه هي الفترة التي شهدت توطين السفارد

من يهود المارانو فى هولندا وفرنسا ، وانجلترا ، كما شهدت بدايات الهجرة الاستيطانية اليهودية الى العالم الجديد . وكانت الهجرة تتبع النمط التالى : تهاجر مجموعة صغيرة من السفارد «عادة من كبار المولين وعائلاتهم» تلحق بهم أعداد ضخمة من الاشكناز ، كما حدث فى أمستردام بعد استقلالها عن اسبانيا وكما حدث فى انجلترا وفرنسا وبعض مدن ألمانيا ، وقد زاد عدد أعضاء الجماعة اليهودية فى أمستردام من ٢٠٠ سفاردى فى عام ١٦٩٠ الى ٢٤٠٠ سفاردى و ٢١ ألف اشكنازى فى عام ١٧٩٥ . أما لندن ، فقد كان يوجد فيها فى عام ١٦٩٥ نحو ٤٥٨ سفارديا و ٢٠٣ من الاشكناز ، ومع حلول عام ١٧٢٠ زاد عدد الاشكناز على عدد السفارد وفى عام ١٨٠٠ كان يوجد ألفا سفاردى ، وحسب بين العشرين ألف يهودى . ولم يستوطن أى عدد يذكر من اليهود فى فلسطين فى تلك المرحلة .

ب ـ المرحلة الثانية : من القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠ .

وهى المرحلة التى وقعت فيها الحرب النابليونية والاضطرابات السياسية التى أعقبتها الأمر الذى تسبب فى هجرة بعض الجماعات اليهودية من ألمانيا وبوهيميا والنمسا الى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة واستراليا وغيرها . ولم يزد عدد المهاجرين اليهود الى خارج القارة الأوربية على ٢٠٠,٠٠٠ ويمكن تفسير ذلك بعدة أسباب من بينها أن الانفجارة السكانية التى حدثت بين يهود اليديشية فى شرق أوربا ، والتى أدت الى تزايد

أعدادهم بين عامى ١٨٠٠ و ١٩٣٣ بنحو ستة أضعاف ، لم يكن قد ظهر أثرها بعد ، كما أنها وصلت الى ذروتها ، بعد عام ١٨٨٠، وفضلا عن ذلك كان معظم يهود العالم مركزين فى شرق أوربا وروسيا وبولندا التى كان قد تم ضمها الى روسيا ، ولم تكن معدلات العلمنة والتحديث قد ازدادت بينهم بعد ، مما كان يعنى أنهم لايزالون جماعة متماسكة تصعب على أعضائها الحركة ، كما كان كثير من اليهود لايزالون يلعبون دورهم الاقتصادى التقليدى كجماعة وظيفية. وحتى عندما تزايدت عمليات التحديث والعلمنة فى روسيا ، وتركت تلك العملية أثرها على الجماعة اليهودية التى بدأت تفقد شيئا من تماسكها وبدأ يختفى كثير من مؤسساتها التقليدية التى تربط بين الفرد والجماعة مثل الأسرة والدين فإن هذا لم يتسبب فى أى هجرة خارج أوربا إذ لم تكن محاولات التحديث فى الإمبراطورية الروسية قد كابدت من التعثر بعد ـ وقد كان الاقتصاد الروسى قادرا على استيعاب اليهود الذين كانوا يتزايدون ويتركون قراهم وأماكن إقامتهم الأصلية ، ولذا ، فقد كانت هجرة اليهود داخلية ، من المناطق الكثيفة سكانيا ، فى منطقة الاستيطان الى روسيا الجديدة على شواطىء البحر الأسود كما هاجرت أعداد صغيرة الى بعض الدول الأوربية والولايات المتحدة .

وشهدت هذه المرحلة هجرة يهود المناطق البولندية التى ضمتها ألمانيا «١٧٧٢ ـ ١٨١٥» وفى بروسيا بالذات ، كان يوجد فى عام

١٨٣٧ نحو ٣٦٤، ١٤٥ يهوديا ٧٠٪ منهم حوالى «١٠١,١٥٢» كانوا فى المناطق البولندية ، أى أن أغلبية يهود بروسيا كانوا مركزين هناك . ولكن مع عام ١٨٧١ ، تناقص عددهم عن طريق الهجرة الى ألمانيا ذاتها ، وأصبحت نسبة اليهود فى المناطق البولندية ٣١,٨٪ ثم انخفضت فى عام ١٨٩٠ إلى ٢٤,٨٪ وإلى ١٧,٤٪ فى عام ١٩١٠ . وقد اتجه هؤلاء اليهود الى برلين التى ارتفع عدد اليهود فيها من ٤٧,٤٨٩ فى عام ١٨٧١ الى ١٤١,١٨١ فى عام ١٩٢٥ ، وقد ساهم هذا الارتفاع فى تغذية الدعاية العنصرية النازية بشأن تكاثر اليهود والخطر اليهودى ومحاولة سيطرة اليهود على كل شىء .

جـ - المرحلة الثالثة : من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٣٩ .

وهى مرحلة الهجرة الكبرى اليهودية وغير اليهودية ، والتى بدأت فى عام ١٨٨١ مع تعثر التحديث فى روسيا وتزايد العنصرية فى كل أوربا وانتهت فى عام ١٩٣٩ بصدور قوانين عام ١٩٢٤ ، التى حدث من هجرة يهود شرق أوربا ، ثم بالكساد الاقتصادى وإغلاق أبواب الهجرة من روسيا تماما .

ووفقاً لإحصائيات الموسوعة اليهودية ، بلغ عدد المهاجرين فى هذه الفترة أربعة ملايين ، فى حين يذهب آرثر روبين إلى أن العدد أكبر من ذلك ، فهو يرى أنه فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٢٠ هاجر نحو ٣,٩٧٥,٠٠٠ فإذا أضفنا إلى ذلك وفقا لليستشنكى الرقم ٥٠٧,٨٤٥ وهو عدد الذين هاجروا من عام

١٩٣١ الى عام ١٩٣٩ ، فإن العدد الكلى يصبح ٤.٤٨٢.٨٤٥ ويجب أن نضيف إلى هذه الهجرة حركة اليهود داخل الامبراطوريات العظمى فى أوربا ، الأمر الذى قد يصل بالعدد إلى خمسة ملايين وقد أخذت الحركة داخل الإمبراطورية النمساوية اتجاهها من الشرق «جاليشيا وبكوفينا وبوزنان» الى الغرب وحدث نفس الشيء فى ألمانيا ، أما فى روسيا فقد اتجهت الهجرة نحو الجنوب إلى أوديسا ومناطق البحر الأسود ، وكان عدد اليهود الذين انتقلوا فى هذه الفترة من بلد أوربى إلى آخر هو ٣٥٠ ألفا ، ويرى روبين أنهم ٤٩٠ ألفا .

كما شارك فى حركة الهجرة من القرية إلى المدينة ، فزاد عدد يهود فيينا «بلدة تيودور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية» على سبيل المثال من ستة آلاف فى عام ١٨٥٧ إلى ٩٩ ألفا فى عام ١٨٩٠ وإلى ١٧٥ فى عام ١٩١٠ ، وهى زيادة تمت أساسا عن طريق الهجرة حيث أن معدلات الزيادة الطبيعية كانت آخذة آنذاك فى التناقص .

وربما يكون الدافع الأكبر وراء الهجرة فى هذه الفترة هو تعثر محاولات التحديث فى روسيا ثم توقفها تقريبا ، وهو ما انعكس فى شكل الاضطهاد الروسى القيصرى ضد جميع الاقليات فى الإمبراطورية . لذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود الإمبراطورية الروسية إلى خارجها بحثا عن مجالات جديدة للحراك الاجتماعى وللحصول على الحقوق المدنية والسياسية ، وكانت الأغلبية العظمى

من المهاجرين اليهود من بين يهود اليديشية ، ويهود روسيا على وجه الخصوص حيث كانوا يشكلون ما بين ٧٠٪ و ٨٠٪ من جملة يهود العالم ، وقد كان عددهم نحو عشرة ملايين ، وهو مايعنى أن نصفهم تقريبا ، أى واحد من كل اثنين ، كان فى حالة حركة وهجرة وانتقال فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، وهذه نسبة عالية للغاية ولاشك أنها اسهمت في تفتيت كثير من المؤسسات والروابط والأواصر ، ومع أن نسبة الهجرة بين يهود اليديشية كانت أعلى من نسبتها بين الإيطاليين فإنها كانت أقل من نسبتها بين الأيرلنديين وقد كان عدد الأيرلنديين فى عام ١٨٣٠ ثمانية ملايين يشكلون نصف سكان انجلترا ، وقد هاجر منهم أربعة ملايين بين عامى ١٨٣٠ ، ١٩٠٠ .

وهاجر معظم اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ ، إلى عام ١٩١٤ ، خصوصا الأربعة عشر عاما الأخيرة منها . وتذكر الموسوعة اليهودية أن عدد المهاجرين بلغ ٢.٧٥٠.٠٠٠ فإذا انقصنا من هذا العدد حوالى ٢٥٠ ألفا هاجروا داخل أوربا ، وذلك على اعتبار أن عدد المهاجرين فى الفترة من ١٨٨١ حتى ١٩٣٥ هو حوالى ٤٩٠ ألفا ، يكون عدد المهاجرين الى خارج القارة هو ٢.٥٥٠.٠٠٠ بمعدل هجرة سنوية تصل إلى ١٣٥ ألفا وتعد سنة الذروة هى ١٩٠٥ ـ ١٩٠٦ حيث هاجر ما بين ٢٠٠ و٢٥٠ ألفا فى ذلك العام وحده . لكن الهجرة توقفت فى أثناء

الحرب . وعند فتحها فى عام ١٩٠٧ تدفق السيل مرة أخرى إذ هاجر فى ذلك العام وحده ١٤١ ألفا .. ثم صدر أول قانون لتحديد الهجرة فى العام التالى ، الأمر الذى أدى إلى تغيير الصورة .

وإذا كانت روسيا هى نقطة الطرد الكبرى فقد كانت الولايات المتحدة نقطة الجذب الكبرى فى أواخر القرن التاسع عشر ، وهى الفترة التى أحرزت فيها الرأسمالية الأمريكية تقدمها الضخم بعد أن هزمت الجنوب وفتحت أسواقه ، وفى هذه الفترة ، بدأت الرأسمالية الأمريكية تجربتها الإمبريالية فى أمريكا اللاتينية والفلبين حيث كانت فى حاجة ماسة الى الأيدى العاملة التى لم يكن من الممكن تجنيدها من خلال الزيادة الطبيعية وقد استوعبت الولايات المتحدة بنحو ٨٥٪ من المهاجرين اليهود بل واستوعبت نفس النسبة تقريبا من جملة المهاجرين فى العالم . ولاتوجد سجلات بأعداد المهاجرين اليهود إلى الولايات المتحدة إلا ابتداء من عام ١٨٩٩ .

وقد هاجر من روسيا فى خلال ستة عشر عاما «١٨٩٩ ـ ١٩٢٤» نحو مليون ونصف المليون يهودى . وفيمايلى جدول بأعداد اليهود الذين هاجروا الى الولايات المتحدة من روسيا وغيرها فى الفترة من عام ١٨٩٩ إلى عام ١٩١٤ :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٨٩٩	٣٧.٤١٥	١٩٠٧	١٤٩.١٨٢
١٩٠٠	٦٠.٧٦٤	١٩٠٨	١٠٣.٣٨٧
١٩٠١	٨٥.٩٨	١٩٠٩	٥٧.٥٥١
١٩٠٢	٥٧.٦٨٨	١٩١٠	٨٤.٢٦٠
١٩٠٣	٧٦.٢٠٣	١٩١١	٩١.٢٢٣
١٩٠٤	١٠٦.٢٣٦	١٩١٢	٨٠.٥٩٥
١٩٠٥	١٢٩.٩٠٠	١٩١٣	١٠١.٣٣٠
١٩٠٦	١٥٣.٧٤٨	١٩١٤	١٣٨.٠٥١

ليكون إجمالى عدد المهاجرين هو ١.٥١٢.٦٣١ .

ويعد عام ١٩٠٦ عام الذروة بالنسبة الى الهجرة الى الولايات المتحدة ويبلغ متوسط عدد المهاجرين سنويا ٩٣ ألفا وقد استقر كل هؤلاء المهاجرين فى الولايات المتحدة بشكل دائم ، ولم يهاجر منهم سوى نسبة ضئيلة تبلغ ٨٪ فى مقابل ٣٠.٧٦٪ من بقية الجماعات المهاجرة ، وكانت نسبة الأيرلنديين العائدين أقل إذ كانت لاتزيد على ٧٪ وكان المهاجر اليهودى يصل الى الولايات المتحدة ولديه النية فى الاستقرار الدائم ، وليس ادخال بعض الأمور ثم العودة الى الوطن الأم ، ومن ثم فقد كان يحضر معه أسرته ، وكانت توجد نسبة عالية من النساء والأطفال فكانت نحو ٤٤٪ من جملة المهاجرين اليهود من الاناث فى مقابل ٣١.٧٪

بالنسبة الى الجماعات المهاجرة الأخرى . وكان ٢٤٪ من المهاجرين اليهود أطفالا تحت سن الثالثة عشرة أما فى الجماعات الأخرى فكانت النسبة ١٢.٤٪ وكان يوجد بين المهاجرين اليهود نسبة عالية من العمال الصناعيين تصل الى ٦٦٪ من الأجراء ، على عكس الإيطاليين، والأيرلنديين الذين كانوا من أصول فلاحية ، وبحسب إحصائيات الهجرة الأمريكية «١٨٩٩ ـ ١٩١٤» كان المهاجرون اليهود يشكلون ٣١٪ من جملة العمال الصناعيين ، وكانوا يشكلون أحيانا الأغلبية المطلقة فى بعض الفروع مثل صناعة الملابس .. وكان عدد العمال الزراعيين بين اليهود هو ٢.٦ مقابل ٢٨.١٪ بالنسبة الى جملة المهاجرين وكان عدد العاملين فى صناعة الملابس ٣٩.٦٪ وفى الصناعات الأخرى ٢٦٪ «أى ٦٥.٦٪ من الأجراء» فى مقابل ١٧.٨٪ بين غير اليهود . كما أن ٩.٢٪ من المهاجرين اليهود كانوا يعملون فى التجارة والنقل مقابل ٦.٧٪ من جملة المهاجرين وقد ساهم ذلك فى سرعة اندماجهم فى المجتمع وتحقيقهم حراكا اجتماعيا أعلى مماحققته كثير من جماعات المهاجرين الأخرى ، وهذا هو الذى ساهم فى نهاية الأمر فى «أمركتهم» الكاملة وفى تركزهم فى صناعات بعينها دون غيرها . وكان التركيب الاثنى للمهاجرين اليهود فى خلال الفترة بين عامى ١٨٩٩ و ١٩١٤ كما يلى حسب بلد الأصل:

روسيا	٧١.٧٪	بريطانيا العظمى	٤.٠٪
الإمبراطورية النمساوية والمجرية	١٦.٢٪	كندا	١.٢٪
		ألمانيا	٠.٧٪
رومانيا	٤.٢٪	بلاد أخرى	٢.٠٪

ولكن معظم اليهود الذين جاءوا من خارج روسيا هم من يهود اليديشية أيضا . وقد توقفت الهجرة فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولكنها فتحت أبوابها مرة أخرى فى عام ١٩١٤ ، وكان عدد المهاجرين فى البداية ضئيلاً ثم اخذ فى الازدياد الى أن وصل الى الذروة فى عام ١٩٢١ ثم انخفض فى أعوام ١٩٢٢ و ١٩٢٣ و ١٩٢٤ بسبب نظام النصاب ، وفيمايلى بيان بأعداد المهاجرين :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩١٥	٢٦.٤٩٧	١٩٢٠	١٤.٢٩٢
١٩١٦	١٥.١٠٨	١٩٢١	١١٩.٠٣٦
١٩١٧	١٧.٣٤٢	١٩٢٢	٥٣.٥٢٤
١٩١٨	٣.٧٦٢	١٩٢٣	٤٩.٧١٩
١٩١٩	٣.٠٥٥	١٩٢٤	٤٩.٩٨٩

ليكون إجمالى عدد المهاجرين هو ٣٥٢.٣٢٤ .

ولنا أن نلاحظ أن هذه الفترة الثانية هى فترة ظهور

الصهيونية ونشاطها أيضا . ولابد أن ندرك أن حركة اعضاء الجماعات اليهودية الضخمة كانت مصدر قلق الدول الغربية ، لخوفها على أمنها الداخلى ، وليهود الغرب المندمجين ، الذين كان وصول يهود الشرق يهدد مكانتهم الاجتماعية .

وينبع تأييد الدول الغربية وأثرياء اليهود المندمجين للمشروع الصهيونى من مخاوفهم هذه . ومن هنا كان تبنيهم لما نسميه «الصهيونية التوطنية» ويمكن أن نضرب مثلا علي ذلك بانجلترا التى اتجه اليها نحو ٢١٠ آلاف من المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩٣٥ . وقد كان لوصولهم أثره فى إثارة قلق السلطات البريطانية . وظهرت المحاولات الرامية إلى تحويل تيار الهجرة اليهودية بعيداً عن إنجلترا ابتداءً بمشروع شرق افريقيا لإنشاء دولة صهيونية هناك ، مروراً بقانون الأجانب فى عام ١٩٠٦ للحد من دخول اليهود إلى إنجلترا (وهو المشروع الذى كان بلفور من أكبر المدافعين عنه» ، وانتهاء بوعد بلفور الذى حول فلسطين إلى أرض يلقى فيها الفائض البشرى اليهودى - كما كان يطلق على المهاجرين اليهود آنذاك .

ولم يتجه إلى ألمانيا فى نفس الفترة سوى مائة ألف يهودى ، ولكن هذالايتضمن اليهود الذين هاجروا من المقاطعات البولندية وهم من يهود اليديشية غيرالمندمجين وبالتالى ، قام النازيون بالدعاية ضد اليهود وببث السموم عن خطر التكاثر اليهودى والهيمنة اليهودية فى وقت كانت أعداد اليهود آخذة فى التناقص

الفعلى ، وإذا كان بلفور قد حل المسألة اليهودية فى انجلترا بالتخلص من اليهود عن طريق إرسالهم إلى فلسطين ، فإن هذا الحل لم يكن متاحاً لهتلر لعدم وجود مستعمرات لدى ألمانيا ، ولهذا تخلص منهم بإبادتهم .

ونلاحظ أن عدد المهاجرين إلى فلسطين كان فى بداية الفترة ١,٨٠٦ ، وبلغ ٨,١٧٥ فى عام ١٩٢٣ ، أى بعد فتح أبواب الهجرة وإنشاء المؤسسات الصهيونية الاستيطانية ، ثم قفز العدد إلى ١٣,٨٩٢ فى عام ١٩٢٤ ، وشهدت الفترة من عام ١٩٢٥ إلى عام ١٩٣٣ احتدام الأزمة الاقتصادية الرأسمالية العالمية ، وهو أدى إلى خوف كثير من الدول من الأيدى العاملة المهاجرة لأنها قد تفاقم من ظروف البطالة فيها ، فأخذت الدول تغلق أبواب الهجرة وتسمح بدخول المهاجرين بمقدار ماتسمح به مقدرتها الاستيعابية، ومن هذه البلاد كندا والأرجنتين والبرازيل وجنوب أفريقيا واستراليا ، وقد أدى تصاعد المقاومة العربية فى فلسطين إلى الحد من الهجرة الاستيطانية ، ولكن فلسطين ظلت مع هذا مفتوحة الأبواب أمام الهجرة ، ولعل أكبر مثل على محاولة الدول الغربية للحد من الهجرة الأجنبية هو الولايات المتحدة التى أصدرت أولاً قانون النصاب فى عام ١٩٢٣ وأعقبته بقانون جونسون فى عام ١٩٢٤ ، حيث لم يكن يسمح - بحسب هذا القانون - إلا بهجرة ما يساوى نسبة ٢٪ من عدد أعضاء كل جماعة قومية تعيش فى الولايات المتحدة وفق إحصاء عام ١٨٩٠

وقد عرفت المجموعة القومية بنسبتها إلى البلد الأم وليس بنسبتها إلى الأنتماء الديني أو الإثنى . وكان العدد المسموح له بالهجرة من شرق أوربا وروسيا هو ١٠,٣٤١ فى مقابل نحو ٥٠ ألفاً فى عام ١٩٢٤، و١٥٣,٧٤٨ فى عام ١٩٠٦ ،وكانت أعداد المهاجرين فى تلك الفترة كما يلى :

السنة	عدد المهاجرين	السنة	عدد المهاجرين
١٩٢٥	١٠,٢٩٢	١٩٣٠	١١,٥٢٦
١٩٢٦	١٠,٢٦٨	١٩٣١	١١٩,٦٩٢
١٩٢٧	١١,٤٨٣	١٩٣٢	٢,٧٧٥
١٩٢٨	١١,٦٣٩	١٩٣٣	٢,٣٧٢
١٩٢٩	١٢,٤٧٩		

أى أن الهجرة بلغت الحد الأقصى المسموح به حتى عام ١٩٣٠ وهكذا فبعد أن كانت الولايات المتحدة تستوعب ٨٥٪ من جملة المهاجرين اليهود فى الفترة من عام ١٨٨١ إلى عام ١٩١٤ ، انخفضت النسبة إلى ٢٥٪ فى الفترة من عام ١٩٢٦ إلى ١٩٣٠ ، وقد أغلقت كثير من البلاد أبوابها ، وكما يقول روبين ، أصبحت معظم البلاد مغلقة أمام المهاجرين فى عام ١٩٣٣ ، ولم يبق أمامهم سوى فلسطين (المستعمرة) ، بمعنى أن الدول الغربية خلقت صهيونية بنيوية أى بيئة قانونية وظروفاً موضوعية تفرض

على اليهود الهجرة إلى فلسطين شاءوا أم أبوا . وبالفعل ، قفز عدد المهاجرين الاستيطانيين من ٤٠٠٠ في عام ١٩٣١ إلى ١٢.٥٥٣ في عام ١٩٣٢ وإلى ٣٧,٣٣٧ في عام ١٩٣٣ ولذا يمكننا القول إن عنصر الطرد من الولايات المتحدة وليس الجذب إلى أرض الميعاد هو الذي حدد مسار الهجرة ومع هذا يلاحظ أنه في الفترة من عام ١٩٢٦ إلى عام ١٩٣٠ ، حيث كانت أبواب أمريكا اللاتينية أكثر انفتاحاً ، هاجر إليها ٧٢,٣٨٧ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ١٧٢.٩٠٨ (أي ٤٢٪) ولم يهاجر في نفس الفترة سوى ١٠.١٧٩ إلى فلسطين .

وعلى الرغم من تباكي الدول الغربية على مصير اليهود ، فإن معظمها أوصدت أبوابها دونهم . كما أن المنظمات الصهيونية كانت تؤيد هذا الموقف انطلاقا من العقيدة الصهيونية التي تدعو إلى توطين اليهود في فلسطين – وفلسطين فقط ومن هنا ، كانت الجهود المكثفة للصهاينة من أجل إفشال مؤتمر إفيان لحل مشكلة اللاجئين والمهاجرين وفض أية عروض لتوطين اليهود خارج فلسطين.لخلق ماسميناه «الصهيونية البنيوية» وفي الفترة من عام ١٩٣٣ حتى عام ١٩٤٨ ، والتي يمكن أن تسمى المرحلة النازية ، بلغ عدد المهاجرين من ألمانيا والبلاد التي يهيمن عليها النازيون ، والمهاجرون من كل أوربا ٥٤٠ ألفاً ، خلاف عشرات الألوف من اليهود الذين هجرهم الاتحاد السوفيتي إبان الحرب لإنقاذهم ،

وعشرات الألوف الذين لجأوا إلى الاتحاد السوفييتى فراراً من النازى وقد هاجر ٢٥٠ ألفاً (أى ٤٦٪) منهم إلى فلسطين بسبب سياسة إغلاق الأبواب ، وهاجر الباقون وهم ٢٩٠ ألفاً إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التى هاجر إليها ١١٠ آلاف (أى ٢٠٪) وهاجر فى الفترة من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٤٨ نحو ٣٠٠ ألف يهودى ، منهم ١٢٠ ألفاً (أى ٤٠٪) إلى فلسطين والباقون ، وهم ١٨٠ ألفاً (أى ٦٠٪) ،هاجروا إلى بلاد أخرى أهمها الولايات المتحدة التى هاجر إليها ١٢٥ ألفاً (أى ٤٢٪) وهكذا أصبحت الولايات المتحدة ، مرة أخرى ، بلد الجذب الأكثر ، حتى فى أثناء سنى الحرب والإبادة النازية ويمكننا أن نقول أن المستوطن الصهيونى لم يشكل ملجأ ليهود أوربا ، فمن مجموع ٧٥٠ألف مهاجر (ويمكن أن نضيف إليهم مئات الألوف من المهاجرين إلى الاتحاد السوفييتى) لم يهاجر إلى فلسطين سوى ٣٧٠ ألفاً أى أنه على الرغم من شراسة الصهيونية البنيوية ولا إنسانيتها ، فإن مسار الهجرة لم يتجه إلى فلسطين .

وفيما يلى جدول بعدد المهاجرين ونسبهم المئوية - حسب الموسوعة اليهودية - بين عامى ١٨٨١ و١٩٤٨ .

جهة الهجرة	عدد المهاجرين ١٨٨١-١٩١٤	النسبة ٪	عدد المهاجرين ١٩١٥ - ١٩٤٨	النسبة ٪
الولايات المتحدة	٢,٠٤٠,٠٠٠	٪٨٥	٦٥٠,٠٠٠	٪٤١
كندا	١٠٥,٠٠٠	٪٤	٦٠,٠٠٠	٪٤
الأرجنتين	١١٣,٠٠٠	٪٥	١١٥,٠٠٠	٪٧
بقية أمريكا اللاتينية	١٤,٠٠٠	٪٠,٦	١٤٠,٠٠٠	٪٩
جنوب أفريقيا	٤٣,٠٠٠	٪٢	٢٥,٠٠٠	٪١,٦
فسلطين	٧٠,٠٠٠	٪٣	٤٨٥,٠٠٠	٪٣٠
بلاد أخرى	١٥,٠٠٠	٪٠,٦	١٢٥,٠٠٠	٪٨
المجموع	٢,٤٠٠,٠٠٠		١,٦٠٠,٠٠٠	

والجدول هنا يبين أن الولايات المتحدة هى بلد الهجرة بلا منازع أو منافس وتشغل الأرجنتين وكندا المرتبتين الثانية والثالثة، ولا تأتى فلسطين إلا فى المرتبة الثالثة – وهى مرتبة ثالثة تجاوزاً لأن مجموع عدد المهاجرين إليها أقل بكثير من مجموع عدد المهاجرين إلى بلاد الاستيطان الأخرى . أما فى الفترة من ١٩١٥ إلى ١٩٤٨ ، فإن الولايات المتحدة كانت لاتزال تشغل المرتبة

الأولى وكانت فلسطين تشغل مرتبة ثانية قريبة من المرتبة الأولى ومن الطريف أن مجموع عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وكندا في خلال الفترتين هو تقريباً نفس عدد المهاجرين إلى فلسطين - ولكن أحد المصادر الأخرى يذهب إلى أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية وحدها ، من عام ١٨٨١ حتى عام ١٩٤٨ ، يعادل مجموع عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين في ذات الفترة وإذا استبعدنا الولايات المتحدة ، وعقدنا مقارنة بين عدد المهاجرين إلى فلسطين من جهة وبقية بلاد العالم من جهة أخرى ، لوجدنا أن عدد المهاجرين إلى فلسطين هو ٥٥٥ ألفاً في مقابل ٦٨٢ ألفاً هاجروا إلى بقية بلاد العالم ، أي أن عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين أقل من عدد المهاجرين إلى بقية البلاد وحتى في الفترة من عام ١٩١٥ إلى عام ١٩٤٨ ، وهي الفترة التي شهدت قمة النشاط الصهيوني ، حيث فتحت حكومة الانتداب أبواب فلسطين للهجرة الاستيطانية ، وحيث أغلقت بلاد العالم الحر أبوابها دون المهاجرين اليهود وغير اليهود ، كان عدد المهاجرين إلى فلسطين ٤٨٥ ألفاً في مقابل ٤٦٥ ألفاً للبلاد الأخرى فيما عدا الولايات المتحدة . وكل هذه الإحصائيات تبين أن فلسطين ليست نقطة الجذب اليهودي كما تدعي الأدبيات الصهيونية وأن الحركة الصهيونية لم تحرز نجاحاً فيما كانت تهدف إليه ويلاحظ أن كافة البلاد التي يهاجر إليها اليهود هي بلاد شهدت تجارب استعمارية استيطانية أسسها الرجل الأبيض ومن ثم ، فإن الهجرة اليهودية

ليست ظاهرة يهودية بمقدار ماهى جزء من الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية الغربية .

د) المرحلة الرابعة : منذ عام ١٩٤٨ حتى الوقت الحاضر .

وبانتهاء الأربعينيات ، أصبحت الكتلة اليهودية الكبرى ، موجودة فى الولايات المتحدة ، مع وجود كتلة أخرى فى أوربا آخذة فى التناقص ، ومع وجود أقليات متناثرة فى أنحاء العالم وقد ظهرت الكتلة اليهودية الاستيطانية فى فلسطين ، فأصبح هناك قضبان أساسيان يتنازعان هجرة اليهود هما الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ، وكلاهما بلد استيطانى يمكن للمهاجر اليهودى أن يحقق فيه الحراك الاجتماعى الذى فشل فى تحقيقه فى بلده ومع هذا ، تشكل دول أخرى مثل استراليا وفرنسا جاذبية خاصة بالنسبة إلى بعض المهاجرين اليهود .

ويمكن أن نضيف بعداً آخر يساعد فى توجه أعضاء الجماعات اليهودية إلى الولايات المتحدة وإسرائيل (فلسطين) ألا وهو الميراث الاقتصادى للجماعات اليهودية كجماعة وظيفية تركز أعضاؤها فى قطاعات المال والتجارة . والواقع أن هذا يعنى تأثرهم السلبى بالثورات القومية أو الاشتراكية التى تستولى على هذه القطاعات فتؤممها ، أو تحاول صبغها بصبغة قومية ، أو تتدخل فيها بما يقلل من فرص الحراك أمام أعضاء الجماعة اليهودية . ويمكننا فى واقع الأمر أن نفسر حركة هجرة أعضاء الجماعات اليهودية فى العصر الحديث بكل تناقضاتها من منظور هذين العنصرين

(الحراك الاجتماعي وميراث الجماعة الوظيفية الوسيطة) باعتبارها هجرة إلى بلاد الوفرة والاقتصاد الحر والاستقرار السياسى من بلاد الاقتصاد الاشتراكي والفقر والثورات القومية الاشتراكية .

١ - فمثلا يمكن تفسير الهجرة من الاتحاد السوفيتي على أنها تعبير عن ضيق يهود الاتحاد السوفيتي بالنظام الاشتراكى الذى يضيق الخناق على القطاع التجارى وفى نفس الإطار يمكن تفسير الظاهرة التى تسمى فى المصطلح الصهيونى «التساقط» أى خروج اليهود من الاتحاد السوفيتى بزعم الهجرة إلى إسرائيل ثم تغيير الاتجاه والذهاب إلى بلد آخر هو الولايات المتحدة فى العادة . فهم يفضلون الهجرة إلى الولايات المتحدة حيث يمكنهم تحقيق معدلات عالية من الحراك الاجتماعى ، فى حين لاتشكل إسرائيل أية جاذبية بالنسبة إليهم وقد هاجر يهود جورجيا بأعداد كبيرة إلى إسرائيل فحققت مثل هذه الهجرة لهم قسطا من الحراك الاجتماعى ، خصوصاً وأن مؤهلاتهم لم تكن عالية ، بينما نجد أن نسبة التساقط بين يهود أوكرانيا تصل إلى ٩٠٪ لأن مستواهم المعيشى مرتفع . وإذا نجح يلتسين فى تحقيق الاصلاحات الاقتصادية والانفتاح التجارى الذى يطمح إليه ، فإننا نتصور أن أعداد المهاجرين ستتناقص لأن فرص الحراك الاجتماعى ستتزايد أمامهم .

وبعد الانتفاضة الفلسطينية التى تخلق جواً من عدم الاستقرار السياسى ، وصلت نسبة التساقط بين اليهود السوفييت إلى ٩٠٪

من جملة المهاجرين ، ومع هذا ، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية وإغلاق الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت إلى زيادة خروجهم من الاتحاد السوفيتي واستيطانهم في فلسطين ولكنهم على أية حال ، يذهبون إلى إسرائيل بنية التوجه إلى بلد آخر يحقق لهم طموحهم فى الحراك الاجتماعى ، وذلك عندما تسنح الفرصة .

٢ - وقد ظل يهود ايران يمارسون نشاطهم تحت حكم الشاه ثم خرجوا من إيران بأعداد هائلة بعد قيام الثورة الإيرانية لأنها حاولت أن توجه الاقتصاد وجهة لاتتفق مع معايير الاقتصاد الحر وفى كوبا ، كانت هناك جماعة يهودية ، ولكن حينما حدثت الثورة الاشتراكية انخفض العدد إلى العشر ، وذلك على الرغم من أن الثورة الكوبية كانت تتبادل العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل ولم تقف فى طريق النشاط الصهيونى ولم تسىء معاملة اليهود على الإطلاق باعتراف المراجع الصهيونية . ونفس الشىء يقال بالنسبة إلى يهود شيلى الذين تركوها حينما وصل أليندى بتوجهه الاشتراكى إلى الحكم ، وعادوا إليها مع بينوشيه ممثل الفاشية العسكرية ، فأرتباط أعضاء الجماعات اليهودية فى كثير من بلاد العالم بنمط إنتاجى معين وبعقلية تجارية محددة ، وامتلاكهم لخبرات إدارية ومهنية معينة ، جعل من العسير عليهم الاستمرار فى المجتمع الجديد ، فهم «ضحايا التأميم» كما يقول أحد المراجع الإسرائيلية ومع تزايد الثورات وعدم الاستقرار السياسى فى

أمريكا اللاتينية ، يلاحظ زيادة هجرة أعضاء الجماعات ونفس الوضع ينطبق على يهود جنوب أفريقيا ، فمع تزايد ثورات السود يتجه أعضاء الجماعة إلى الولايات المتحدة .

٣ – وربما تعود هجرة اليهود من البلاد العربية فى الخمسينيات إلى مركب من الأسباب ،منها قيام الدولة الصهيونية وما خلفته من مشاكل لليهود العرب ، ومنها ارتباط عدد كبير من أعضاء الجماعات اليهودية بالدول الاستعمارية ومما لاشك فيه أن التحول البنيوى الذى خاضته بعض المجتمعات العربية ، مثل المجتمعين المصرى والسورى ، وقيام تجارب تنموية تحت إشراف الدولة ، قد ساهما بشكل عميق فى عملية خروج اليهود ، التى لايمكن رءيتها كظاهرة منفصلة عن خروج جماعات تجارية وسيطة أخرى مثل الإيطاليين واليونانيين من مصر ممن لم يستطيعوا التلاؤم مع إجراءات التمصير والتعريب والتأميم وإلى جانب هذا ، حققت إسرائيل ليهود البلاد العربية المهاجرين قسطاً من الحراك الاجتماعى باعتبار أن المستوى المعيشى فى البلاد العربية أقل منه فى إسرائيل كما ان يهود البلاد العربية لم يكن لديهم الخبرات الكافية المطلوبة فى الولايات المتحدة . ويلاحظ أن عدداً كبيراً من أعضاء نخبتهم الاقتصادية والثقافية هاجرت إلى فرنسا وغيرها من البلاد ذات المستوى المعيشى المرتفع الذى يفوق نظيره فى إسرائيل والتى تتميز باقتصاد متقدم ومن ثم تحتاج إلى خبراتهم ورأسمالهم ومن ناحية أخرى ، هاجرت جماهير يهودية إلى فرنسا

حينما سنحت لها الفرصة ، فقد هاجر إليها معظم يهود الجزائر وأعداد كبيرة من يهود المغرب .

٤ – وفى هذا الاطار ، يمكن تفسير ظاهرة هجرة يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا إلى الولايات المتحدة ، فالهجرة إلى إسرائيل لن تؤدى إلى أى تحسن فى مستوى معيشتهم كما أن التجمع الصهيونى لن يمكنه استيعابهم بخبراتهم المهنية والإدارية المتقدمة .

٥ – ويلاحظ أن يهود البلاد الغربية (أوربا والولايات المتحدة وكندا) لايهاجرون مطلقاً إلى إسرائيل أو غيرها من البلاد الاستيطانية ، فمثل هذه الهجرة ليس لها ما يبررها وفق نموذجنا التفسيرى –وإن كان يلاحظ أن يهود انجلترا يهاجرون بأعداد متزايدة إلى الولايات المتحدة ، ربما لتفاقم الأزمة الاقتصادية فى انجلترا ، فهى بلد ذات مستقبل اقتصادى مظلم على حد قول أحد المهاجرين البريطانيين اليهود إلى الولايات المتحدة .

٦ – بل ويلاحظ أن هناك هجرة إسرائيلية متزايدة إلى الولايات المتحدة شكلت ما يسمى «الدياسبورا الإسرائيلية» يبلغ عددها فى بعض الإحصائيات نصف مليون ومنهم عدد كبير من جيل الصابرا .

٧ – وفى نفس الاطار أيضاً ، يمكن تفسير هجرة أو تهجير يهود الفلاشا تحت ظروف المجاعة ، فهى هجرة سيحققون من خلالها حراكا اجتماعيا كبيراً .

ويمكن القول إن مصادر المهاجرين إلى الدولة الصهيونية أخذة في النضوب ، فأعضاء أكبر جماعة يهودية فى العالم (فى الولايات المتحدة) لايهاجرون ، ويهود العالم الغربى إن هاجروا يتجهون إلى الولايات المتحدة ويتبع يهود أمريكا اللاتينية وغيرهم نفس النمط وقد تم تصفية يهود العالم الشرقي والإسلامى ، فلم يبق سوى أفراد قلائل وتساهم معدلات الاندماج والزواج المختلط ، وكذلك عزوف اليهود عن الانجاب ، فى تناقص العدد الكلى لليهود وبالتالى فى تناقص العدد المحتمل للمهاجرين ، وهو مايعنى أن الوقود البشرى للكيان الصهيونى لم يعد متوافراً بنفس الكثافة ولم يبق سوى الأحتياطى البشرى الوحيد للكيان الصهيونى فى الاتحاد السوفيتى إلا أن خروج اليهود السوفييت وتوجههم إلى إسرائيل يخضع لنفس النمط الذى اقترحناه : شرق أوربا كمصدر للمادة البشرية ، والولايات المتحدة كمستورد لها.ولكن ، كما أسلفنا ، أدى انهيار الدولة الاشتراكية السوفيتية ، وإغلاق باب الهجرة إلى أمريكا ، إلى تحويل هذه الاعداد إلى إسرائيل .

وفيمايلى جدول الهجرات اليهودية منذ عام ١٨٨٢ وحتى عام ١٩٩٣ :

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوربا	أمريكا	غير معروف
١٨٨٢-١٩٠٣	٢٠,٠٠٠-٣٠,٠٠٠					
١٩٠٤-١٩١٤	٣٥,٠٠٠-٤٠,٠٠٠					
١٩١٩-١٩٤٨	٤٨٢,٨٥٧	٤٠,٨٩٥	٤,٠٤١	٣٧٧,٣٨١	٧,٧٥٤	٥٢,٧٨٦
١٩١٩-١٩٢٣	٣٥,١٨٣	١,١٨١	٢٣٠	٢٧,٨٧٢	٦٧٨	٥,٢٢٢
١٩٢٤-١٩٣١	٨١,٦١٣	٩,١٨٢	٦٢١	٦٦,٩١٧	٢,٢٤١	٢,٦٥٢
١٩٣٢-١٩٣٨	١٩٧,٢٣٥	١٦,٢٧٢	١,٢١٢	١٧١,١٧٣	٤,٥٨٩	٣,٩٨٩
١٩٣٩-١٩٤٥	٨١,٨٠٨	١٣,١١٦	١,٠٧٢	٦٢,٩٦٨	١٠٨	٤,٥٤٤
١٩٤٦-١٩٤٨	٥٦,٤٦٧	١,١٤٤	٩٠٦	٤٨,٤٥١	١٣٨	٥,٨٢٨
١٩٤٨	١٠١,٨٢٨	٤,٧٣٩	٨,١٩٢	٧٦,٥٥٤	٤٧٨	١١,٨٦٥
١٩٤٩	٢٣٩,٩٥٤	٧١,٦٥٢	٣٩,٢١٥	١٢١,٩٦٣	١,٤٢٢	٥,٧٠٢
١٩٥٠	١٧٠,٥٦٣	٥٧,٥٦٥	٢٦,١٦٢	٨١,١٩٥	١,٩٥٤	٣,٦٨٧
١٩٥١	١٧٥,٢٧٩	١٠٣,٣٩٦	٢٠,٢٨٢	٤٧,٠٧٤	١,٢٨٦	٣,١٤١
١٩٥٢	٢٤,٦١٠	٦,٨٦٧	١٠,٢٨٦	٦,٢٣٢	٩٥٠	٢٧٥
١٩٥٣	١١,٥٧٥	٣,٠١٤	٥,١٠٢	٢,١٤٧	٩٣٠	٢٨٢
١٩٥٤	١٨,٤٩١	٣,٣٥٧	١٢,٥٠٩	١,٣٦٩	١,٠٩١	١٦٥
١٩٥٥	٣٧,٥٢٨	١,٤٣٢	٣٢,٨١٥	٢,٠٦٥	١,١٥٥	٦١
١٩٥٦	٥٦,٣٣٠	٣,١٣٩	٤٥,٢٨٤	٦,٧٣٩	١,٠٦٧	١٠١
١٩٥٧	٧٢,٦٣٤	٤,٢٣٠	٢٥,٧٤٧	٣٩,٨١٢	١,٤١٠	١,٤٣٥
١٩٥٨	٢٧,٢٠٠	٧,٩٢١	٤,١١٣	١٣,٦٩٥	١,٣٢٠	٢٤١
١٩٥٩	٢٣,٠٠٠	٣,٥٤٤	٤,٤٢٩	١٤,٧٣١	١,١٤٧	١٣٧
١٩٦٠	٢٤,٠٠٠	١,٧٨٢	٥,٣٧٩	١٦,١٦٩	١,١٥٨	٢٠٤
١٩٦١	٤٧,٧٣٥	٤,١٤٩	١٨,٠٤٨	٢٣,٣٧٥	١,٩٦٩	١٩٤
١٩٦٢	٦١,٥٣٣	٥,٣٥٥	٤١,٨١٦	١١,٨٢٥	٢,١٨٧	٣٥٠
١٩٦٣	٦٤,٤٨٩	٤,٩٦٤	٣٨,٦٧٢	١٤,٢١٣	٦,٤٩٧	١٤٣
١٩٦٤	٥٥,٠٣٦	٥,٠٥٧	١٧,٣٤٠	٢٨,١٢٤	٤,١٨٨	٣٢٧
١٩٦٥	٣١,١١٥	٥,٢٢٣	٨,٥٣٥	١٣,٨٧٩	٣,٠٩٦	٢٨٢
١٩٦٦	١٥,٩٥٧	٣,١٣٧	٣,٠٢٤	٧,٤٣٥	٢,١٣٢	٢٢٩

فترة الهجرة	مجموع المهاجرين	آسيا	أفريقيا	أوربا	أمريكا	غير معروف
١٩٦٧	١١٤,٤٦٩	١,٩٨٧	٦,٢٦٨	٤,٢٩٥	١,٧٧١	١٤٨
١٩٦٨	٢٠,٧٠٣	٤,٦٧١	٧,٥٦٧	٦,٠٢٩	٢,٢٧٥	١٦١
١٩٦٩	٣٨,١١١	٧,٠١٨	٥,٩٢٦	١٥,٢٣٦	٩,٦٠١	٣٣٠
١٩٧٠	٣٦,٧٥٠	٦,٩٠٤	٣,٧٨٥	١٤,٤٣٤	١١,٤٠٥	٢٢٢
١٩٧١	٤١,٩٣٠	٥,٧٧٨	٢,٣٥٤	٢٠,٨٨٨	١٢,٨٨٥	٢٥
١٩٧٢	٥٥,٨٨٨	٣,١٤٣	٢,٧٦٦	٣٩,١٤٥	١٠,٨١٤	٢٠
١٩٧٣	٥٤,٨٨٦	٢,٠٢٥	٢,٨٣٩	٤٠,٤٩٢	٩,٥٢٢	٨
١٩٧٤	٣١,٩٨١	١,١٧٩	١,٢١٦	٢٣,١٢٦	٦,٤٣٩	٢١
١٩٧٥	٢٠,٠٢٨	٩٢٧	٦٨٩	١٣,٤١٧	٤,٩٨٩	٦
١٩٧٦	١٩,٧٥٤	١,١٣٥	٦٩٧	١٢,١٣٧	٥,٧٧٤	١١
١٩٧٧	٢١,٤٢٩	٩٠٨	١,٦٢٠	١٢,٦٦٠	٦,٢٠١	٤٠
١٩٧٨	٢٦,٣٩٤	١,٧٣٦	١,٦٨٣	١٦,٥٤٩	٦,٣٠٥	١٢١
١٩٧٩	٣٧,٢٢٢	٧,٠٨٧	١,٣٤٠	٢٢,٤٠٤	٦,٠٢٤	٣٦٧
١٩٨٠	٢٠,٤٢٨	٣,٢٠٢	١,٠٠٧	١١,٧٩٢	٤,٣٥٠	٧٧
١٩٨١	١٢,٥٩٩	١,٢١٥	١,١٧٠	٥,٩٠١	٤,٢٤٣	٦٢
١٩٨٢	١٣,٧٢٣	٩٥١	١,٥٥٥	٦,١٦٨	٥,٠٠٣	٤٦
١٩٨٣	١٦,٩٠٦	٨٤٤	٣,٠٩٤	٦,١٥٤	٦,٧٥٨	٥٦
١٩٨٤	١٩,٩٨١	٧٠٠	٨,٨٨٥	٥,٤٨٥	٤,٨٧٦	٣٥
١٩٨٥	١٠,٦٤٢	٦٠٧	٢,٣١٨	٣,٩٦٤	٣,٧٣٩	١٤
١٩٨٦	٩,٥٠٥	١,١٨٣	٩٨٢	٣,٦٧٥	٣,٦٣٤	٣١
١٩٨٧	١٢,٩٦٥	١,٨٨٨	١,٢٠٥	٦,٠٤٤	٣,٨١٢	١٦
١٩٨٨	٢٤,٠٥٠	١,٧٠٠	١,٣٣٤	٦,٠١٢	٣,٩٦٩	١٩
١٩٨٩	٢٤,٠٥٠	١٨٥	١,٨٦١	١٦,٧٦٦	٤,١٤٧	٩١
١٩٩٠	١٩٩,٥١٦	٩٤٠	٤,٤٧٢	١٨٩,٦٥٠	٤,٣١٥	١٣٩
١٩٩١	١٧٦,١٠٠	٦٢٢	٢٠,٢٥١	١٥٢,١٤٢	٣,٠٢٣	٦٢
١٩٩٢	٧٧,٠٥٧	٨٩١	٤,٠٧٥	٦٨,٩٦٢	٣,٠٠٦	١٢٣
١٩٩٣	٧٦,٨٠٥	١,٧٢٨	١,٤٣١	٧٠,٣١٥	٣,٢٨٣	٤٨

ويمكننا الآن أن نتناول الهجرة اليهودية فى إطار الادعاءات الصهيونية التى هيمنت علي العقل العربى والتى تذهب الى أن اليهود يتوجهون إلى فلسطين كلما سنحت لهم الفرصة ، وأن بلاد العالم تمثل بالنسبة لهم أرض الشتات والمنفى ، أما فلسطين فهى أرض الميعاد والعودة .. ولندع الأرقام تتحدث والجدول التالى يتناول هجرة أعضاء الجماعات اليهودية الى فلسطين وغيرها فى كل أرجاء العالم فى الفترة من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ .

السنة	الولايات المتحدة	كندا	الارجنتين	البرازيل	أورجواى	الدول الأخرى فى الأمريكتين	جنوب أفريقيا	فلسطين	الدول الأخرى	الاجمالى
١٨٤٠ـ١٨٨٠	٢٠٠,٠٠٠	١,٦٠٠	٢,٠٠٠	٥٠٠	ـ	١,٠٠٠	٤,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٢١,١٠٠
١٨٨١ـ١٩٠٠	٦٧٥,٠٠٠	١٠,٥٠٠	٢٥,٠٠٠	١,٠٠٠	ـ	١,٠٠٠	٢٣,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٤,٠٠٠	٧٦٤,٥٠٠
١٩٠١ـ١٩١٤	١,٣٤٦,٤٠٠	٩٥,٣٠٠	٨٧,٦١٤	٨,٧٥٠	ـ	٣,٠٠٠	٢١,٣٧٧	٣٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١,٦٠٢,٤٤١
١٩١٥ـ١٩٢٠	٧٦,٤٥٠	١٠,٤٥٠	٣,٥٠٣	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٥,٠٠٠	٩٠٧	١٥,٠٠٠	٥,٠٠٠	٨٩,٣١٠
١٩٢١ـ١٩٢٥	٢٨٠,٢٨٣	١٤,٤٠٠	٣٩,٧١٣	٧,١٣٩	٣,٠٠٠	٧,٠٠٠	٤,٦٣٠	٦٠,٧٦٥	١٠,٠٠٠	٤٢٦,٩٣٠
١٩٢٦ـ١٩٣٠	٥٤,٩٩٨	١٥,٣٠٠	٣٣,٧٢١	٢٢,٢٩٦	٦,٣٧٠	١٠,٠٠٠	١٠,٠٤٤	١٥,١٧٩	١٠,٠٠٠	١٧٢,٩٠٨
١٩٣١ـ١٩٣٥	١٧,٩٨٦	٤,٢٠٠	١٢,٧٠٠	١٣,٠٧٥	٣,٢٨٠	١٥,٠٠٠	٤,٥٠٧	١٤٧,٥٠٢	٢٠,٠٠٠	٢٣٨,٢٥٠
١٩٣٦ـ١٩٣٩	٧٩,٨١٩	٩٠٠	١٤,٧٨٩	١٠,٦٠٠	٧,٦٧٧	١٥,٠٠٠	٥,٣٠٠	٧٥,٥١٠	٦٠,٠٠٠	٢٦٩,٥٩٥
١٩٤٠ـ١٩٤٢	٧٠,٩٥٤	٨٠٠	٤,٥٠٠	٦,٠٠٠	١,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥,٠٠٠	١٠,٠٠٠	١٣٢,٢٥٤
المجموع	٢,٨٠١,٨٩٠	١٥٣,٤٥٠	٢٢٣,٥٤٠	٧١,٣٦٠	٢٢,٣٢٧	٥٩,٠٠٠	٧٥,٧٦٥	٣٧٨,٩٥٦	١٣١,٠٠٠	٣,٩١٧,٣٨٨

يلاحظ من الجدول السابق أنه من مجموع ٣.٩١٧,٣٨٨ من المهاجرين لم يتجه سوى ٣٧٨.٩٥٦ إلى فلسطين فى فترة مائة عام تمتد من ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٢ وذلك برغم كل النشاط الاستعماري والصهيوني المكثف ، ومن الطريف أن هذا العدد مساو تقريبا لعدد اليهود الذين اتجهوا إلى أمريكا اللاتينية فى نفس الفترة «٣٧٦.٢٢٧» بفارق ٢.٦٢٩ يهوديا . ولو استبعدنا الهجرة فيما بعد عام ١٩٣١ حيث أغلقت أمريكا اللاتينية أبوابها ، فسنكشتف أن عدد المهاجرين إلى أمريكا اللاتينية كان ٢٧٠.٦٠١ فى مقابل ١٢٥,٩٤٤ إلى فلسطين . بل إن بلدا واحدا مثل الارجنتين هاجر اليه ١٩١.٥٥١ أى أكثر من كل الذين هاجروا إلى فلسطين فى نفس الفترة «وبحسب احصائيات روبين، كان يوجد فى الارجنتين فى عام ١٩٣٠ نحو ٢٢٠ ألفا و ٢٩١ ألفا فى أمريكا اللاتينية كلها» كما أن بلدا مثل كندا كان يضم ١٥٠ ألف يهودى فى عام ١٩٣٠ بينما كانت فلسطين لاتضم سوى ١٧٠ ألفا . ولكن التحدى الأكبر لأرض الميعاد كان يأتى من البلد الذهبى أو «الجولدن مدينا» أى الولايات المتحدة . ففى الفترة التى نشير اليها، هاجر الى الولايات المتحدة ٢.٨٠١.٨٩٠ فى مقابل ٣٧٨.٩٥٦ هاجروا إلى فلسطين .

عدد المهاجرين اليهود إلى كل من الولايات المتحدة وفلسطين فى الفترة ١٩١٥ ـ مايو ١٩٤٨

السنة	الولايات المتحدة	فلسطين	السنة	الولايات المتحدة	فلسطين
١٩١٥	٢٦,٤٩٧	ـ	١٩٣٢	٢,٧٥٥	١٢,٥٥٣
١٩١٦	١٥,١٠٨	ـ	١٩٣٣	٢,٣٧٢	٣٧,٣٣٧
١٩١٧	١٧,٣٤٢	ـ	١٩٣٤	٤,١٣٤	٤٥,٢٦٧
١٩١٨	٣,٦٧٢	ـ	١٩٣٥	٤,٨٣٧	٦٦,٤٧٢
١٩١٩	٣,٠٥٥	١,٨٠٦	١٩٣٦	٦,٢٥٢	٢٩,٥٩٥
١٩٢٠	١٤,٢٩٢	٨,٢٢٣	١٩٣٧	١١,٣٥٢	١٠,٦٢٩
١٩٢١	١١٩,٠٣٦	٨,٢٩٤	١٩٣٨	١٩,٧٣٦	١٤,٦٧٥
١٩٢٢	٥٣,٥٢٤	٨,٦٨٥	١٩٣٩	٤٣,٤٥٠	٣١,١٩٥
١٩٢٣	٤٩,٧١٩	٨,١٧٥	١٩٤٠	٣٦,٩٤٥	١٠,٦٤٣
١٩٢٤	٤٩,٩٨٩	١٣,٨٩٢	١٩٤١	٢٣,٧٣٧	٤,٥٩٢
١٩٢٥	١٠,٢٩٢	٣٤,٣٨٦	١٩٤٢	١٠,٦٠٨	٤,٢٠٦
١٩٢٦	١٠,٢٦٧	١٣,٨٥٥	١٩٤٣	٤,٧٠٥	١٠,٠٦٣
١٩٢٧	١١,٤٨٣	٣,٠٣٤	١٩٤٤	١٥,٥٥٢	
١٩٢٨	١١,٦٣٩	٢,١٧٨	١٩٤٥	١٥,٢٥٩	
١٩٢٩	١٢,٤٧٩	٥,٢٤٩	١٩٤٦	١٨,٧٦٠	
١٩٣٠	١١,٥٢٦	٤,٩٤٤	١٩٤٧	٢٢,٠٩٨	
١٩٣١	٥,٦٩٢	٤,٠٧٥	١٩٤٨	١٧,١٦٥	

ويلاحظ من الجدول السابق أن الولايات المتحدة استوعبت نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ مهاجر يهودى من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٢,٦٥٠,٠٠٠ والذين أتوا أساسا من أوربا الشرقية ثم الوسطى ، أى أنها استوعبت حوالى ٨٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود . وقد استقر نحو ٣٥٠ ألف مهاجر يهودى فى أوربا الغربية، ونحو ٣٠٠ ألف فى باقى بلدان العالم، واستوعبت كندا نحو ٤٪ والارجنتين ٥٪ وجنوب أفريقيا ٢٪ . ولم يستوطن فى فلسطين سوى ٥٠ ألفا ، أى حوالى ٢٪ من مجموع المهاجرين.
وقد استمر الوضع على ذلك فى الفترة ١٩١٥ - ١٩٣١ ، أى قبل ظهور هتلر ، إذ استوعبت الولايات المتحدة ٥٥٪ من مجموع ٧٦٠ ألف مهاجر يهودى واستوعبت كندا ٦٪ ، والارجنتين ١٠٪ ، واستوعبت بلدان امريكا اللاتينية الأخرى ٩٪ ، وجنوب افريقيا ٢٪، والبلاد الأخرى ٣٪. ولم يستوطن فى فلسطين سوى ١٥٪ على الرغم من أنه لم تكن توجد آنذاك قيود على الاستيطان فيها .

ولم يحدث أى تغيير إلا بعد إغلاق أبواب الهجرة إلى الولايات تحدة ثم إلى بلاد الاستيطان الأخرى فى أوربا وامريكا اللاتينية وجنوب افريقيا .

وقد بلغ الاستيطان اليهودى فى فلسطين ذروته فى الفترة بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٩ ، حيث استوطن فى فلسطين حوالى ٤٦٪ من مجموع المهاجرين اليهود البالغ عددهم ٥٤٠ ألفا ، ولم يستوطن فى الولايات المتحدة سوى ٢٠٪ وقد بلغ عدد المستوطنين

الصهاينة فى الفترة ١٩٣١ - ١٩٣٥ ، أى فى أربعة أعوام ، حوالى ١٤٧,٥٠٢ (١٦٥,٧٠٤ بحسب تقديرات الموسوعة اليهودية) وهو عدد يساوى عدد كل المستوطنين الموجودين بالفعل والذين كانوا قد استوطنوا فى فلسطين فى خلال الفترة من عام ١٨٨٢ إلى عام ١٩٣٠ . وفى الفترة من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ ، هاجر ٧٥,٥١٠ (تذكر الموسوعة اليهودية هذا الرقم على أنه ٨٦,٠٩٤). وشهدت الفترة بين عامى ١٩٤٠ و١٩٤٨ تحولا طفيفا فى نمط الهجرة إذ اتجه ١٢٥ ألف مهاجر يهودى من مجموع ٣٠٠ ألف ، أى ٤٢٪ من مجموع المهاجرين ، إلى الولايات المتحدة، واتجه الى فلسطين ١٢٠ ألفا أى ٤٠٪ فقط. وقد أدى هذا إلى ظهور كثافة سكانية يهودية فى فلسطين لم تكن موجودة قبل وصول هتلر الى الحكم، فكأن الفوهرر نجح فى خلال ثمانية أعوام ، عن طريق خلق الظروف الموضوعية لهجرة اليهود من أوربا ، فى إنجاز ما لم تنجح الحركة الصهيونية والاستعمار العالمى فى إنجازه فى نصف قرن (١٨٨٢ - ١٩٣١) ، أى أن الصهيونية الموضوعية البنيوية أكثر كفاءة وفعالية من الصهيونية العقائدية . فقد هاجر فى تلك الفترة نحو ثلاثة ملايين يهودى من وطنهم الأصلى ولم تتجه سوى قلة منهم إلى فلسطين . ومع هذا ، لا يمكن انكاردور الصهيونية والاستعمار فى خلق هذا الموقف الصهيونى البنيوى، والواقع أن الدول الغربية، بما فى ذلك الولايات المتحدة، أوصدت بابها دون اللاجئين اليهود وغير اليهود بسبب ظروف الكساد الاقتصادى.

أما الصهاينة ، فقد أبرموا مع النازيين معاهدة الهعفراه التي ساهمت في توجيه هجرة يهود ألمانيا إلى فلسطين بحيث يتحولون إلى مستوطنين . وقد سمحت لهم السلطات الألمانية بأخذ جزء كبير من ثرواتهم معهم .

ويمكننا أن نخلص من ذلك إلى أن فلسطين لا تمثل أي نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم، وإلى أن اليهود هاجروا إليها بسبب عوامل الطرد الحادة في أوربا وعدم وجود منافذ أخرى لا بسبب عوامل الجذب فيها .

ولعل الاستثناء الأساسي الآخر للنمط العام لهجرة أعضاء الجماعات اليهودية في العصر الحديث هو الفترة الممتدة من ١٩٤٨ حتى أواخر الخمسينيات ، حيث قامت الحركة الصهيونية بحركة ضغط هائلة لنقل اللاجئين اليهود من ضحايا الحرب العالمية الثانية إلى فلسطين . وفي نفس الفترة ، أدى إعلان الدولة اليهودية، ونشاط العملاء الصهاينة، وجهل بعض الحكومات العربية، إلى خلق وضع متوتر بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي الإسلامي ، فهاجرت أعداد كبيرة منهم واستوطنت في فلسطين . وعلى أية حال ، يمكن رؤية حركة الهجرة اليهودية من البلاد العربية إلى فلسطين على أنها أيضاً حركة هجرة إلى فلسطين باعتبارها البلدة الذهبية اليهودية وليس باعتبارها أرض الميعاد . والهدف ليس خلاص الروح، بطبيعة الحال، وإنما تحقيق الحراك الاجتماعي . فالعرب اليهود لم تمكنهم

ظروفهم الحضارية والاقتصادية ، ولا خبراتهم ، من الهجرة الى أوربا والولايات المتحدة، فهاجروا إلى إسرائيل لتحقيق الحراك الاجتماعي الذى فشلوا فى تحقيقه بالدرجة التى يطمحون إليها داخل مجتمعاتهم العربية. ويُلاحظ أن عدداً كبيراً من أعضاء النخبة الاقتصادية والثقافية هاجروا إلى فرنسا وإنجلترا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية، كما هاجر يهود الجزائر إلى فرنسا لأن ظروفهم سمحت بذلك .

وبعد تصفية هذه الكتلة البشرية اليهودية، يعود نمط الهجرة بين أعضاء الجماعات اليهودية إلى سابق عهده ، أى يتجه اليهود مرة أخرى إلى الولايات المتحدة التى أصبحت نقطة جذب كما كانت من قبل . ومن ثم ، نجد أن الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتى تواجه مشاكل عميقة – من المنظور الصهيونى – لأن المهاجرين يغيرون اتجاههم فى النمسا أو فى أية محطات انتقالية أخرى، وبدلا من أن يتوجهوا إلى فلسطين المحتلة ليصبحوا مستوطنين صهاينة يتجهون إلى الولايات المتحدة ليصبحوا مهاجرين وحينما هاجر يهود الجزائر فى عام ١٩٦٥ ، ويهود أمريكا اللاتينية منذ الستينيات وحتى الآن ، ثم يهود إيران ، فإنهم لم يتجهوا إلى فلسطين وإنما إلى فرنسا والولايات المتحدة ؛ ويلاحظ أن يهود جنوب أفريقيا يتجهون أيضاً إلى الولايات المتحدة، وربما إلى جيوب استيطانية أخرى مثل أستراليا – ولقد بدأ المستوطنون الصهاينة أنفسهم يتبعون هذا النمط ويبلغ أعضاء

الدياسبورا الإسرائيلية فى الولايات المتحدة نحو ٧٥٠ ألفاً ، حيث يزيد عدد النازحين من إسرائيل إلى الولايات المتحدة على عدد اليهود الذين يذهبون إلى الدولة الصهيونية للاستيطان .

ويدل تدفق الهجرة اليهودية على وطن الاقتصاد الحر والفرص الاقتصادية بعيداً عن «أرض الميعاد» على أن حركيات التاريخ وتركيبية النفس البشرية تؤكد نفسها على الدوام وتكتسح فى طريقها كثيراً من التحيزات العقائدية الاختزالية ولتزويد الكيان الصهيونى بالمادة القتالية اللازمة لاستمرار اضطلاعه بدوره القتالى ، أغلقت الولايات المتحدة أبوابها أمام المهاجرين السوفييت حتى يضطروا إلى التدفق صاغرين إلى الدولة الصهيونية كما تمارس المنظمة الصهيونية شتى أنواع الضغط على ألمانيا لكيلا تفتح أبوابها أمام المهاجرين السوفييت الذين يقرعون أبوابها كما أنها تعلن عن شتى المغريات المالية للمهاجرين الجدد . وعلى كل بعد تدفق نصف مليون يهودى روسى على إسرائيل وليس الملايين التى تحدث عن الاعلام العالمى أى الغربى والعربى على مدار عشرة أعوامٍ تقريبا ، نضبت منابع المادة البشرية الاستيطانية فى شرق أوربا خاصة العناصر الشابة الراغبة فى الهجرة والقادرة عليها وسيعود النمط القديم ليؤكل نفسه ، أى تدفق اليهود على أرض الميعاد الذهبية الأمريكية، إلى أو أى أرض ميعاد أخرى تحقق لهم الحراك الاجتماعى .

وبدلاً من تسمية الظواهر بأسمائها ، تشير الأدبيات

الصهيونية إلى الهجرة اليهودية إلى الولايات المتحدة أو إلى العالم المتقدم أو الحر بما يسمونه «الشتات الجديد» ونشير إلى ذلك بأنه «الدياسبورا الدائمة» .

الدياسبورا الدائمة
Permament

«الدياسبورا الدائمة» مصطلح قمنا بصكه لنصف وضع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ، إذ أنه على الرغم من كل الادعاءات الصهيونية ورغم استخدام مصطلح «الدياسبورا» لوصف وضعهم ، فإن غالبيتهم تؤثر البقاء خارج فلسطين في المنفى . فالدياسبورا أو الشتات اليهودى مسألة طوعية وليست مسألة مرتبطة بعملية قسر خارجية . وحالة الدياسبورا أو الانتشار هي حالة دائمة بغض النظر عما يحدث في فلسطين بل إن اتجاه بعض اعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها ، أحيانا ينبع من حركيات لاعلاقة لها بصهيون .

وفيما يلي جدول باعداد أعضاء الجماعات اليهودية ، في فلسطين المحتلة والعالم يدل على أن الدياسبورا حالة دائمة نهائية بالفعل .

اعداد اليهود في فلسطين المحتلة والعالم

سنة	عددهم فى فلسطين	نسبتهم ليهود العالم
١٨٨٢	٢٤,٠٠٠	٪٠.٣
١٩٠٠	٥٠,٠٠٠	٪٠.٥
١٩٢٥	١٢٢,٠٠٠	٪٠.٨
١٩٤٠	٤٦٧,٠٠٠	٪٢.٨
١٩٤٨/١٠/٥	٦٥٠,٠٠٠	٪٥.٧
١٩٥١	١,٤٠٤,٠٠٠	٪١٢.٢
١٩٦٥	٢,٢٩٩,٠٠٠	٪١٧.١
١٩٧٥	٢,٩٥٩,٠٠٠	٪٢٠.٩
١٩٨٠	٣,٢٨٢,٧٠٠	٪٢٥
١٩٨٥	٣,٥١٠,٠٠٠	٪٢٧

أى أن ربع الشعب اليهودى وحسب قد قرر الاستيطان فى فلسطين مما يعنى أن أغلبيته الساحقة قد آثرت العيش فى «المنفى» على الرغم من أن الدولة الصهيونية قد فتحت أبوبها على مصراعيها أمامهم كل هذا يعنى فى واقع الأمر أن المنفى ليس بمنفى ، وأن ارض الميعاد والعودة ليست أرضا للميعاد أو للعودة رغم كل الادعاءات الصهيونية .

رقم الايداع
٩٦/١٦٢٢٦
I. S. B. N.
977-07-0450-4

الفهـــرس

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

عدد خاص .. فبراير ١٩٩٦

القدس .. صراع أم لقاء

جزء خاص

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس تحرير
مصطفى نبيل

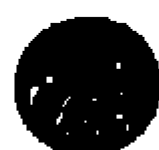
الثمن ١٥٠ قرشا

روايات الهلال تقدم

حكايات المدندش
فى كفر عسكر

بقلم

أحمد الشيخ



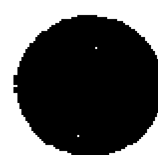
تصدر ١٥ فبراير ١٩٩٦

كتاب الهــــلال القــادم

ما بعـــد عــام ٢٠٠٠

بقـــلم

د . ميلاد حنـــــا



يصدر ٥ مارس ١٩٩٦

هذا الكتاب

صدر هذا الكتاب في منتصف الستينيات ، وهو كتاب بالغ الأهمية يعالج جذور القضية الفلسطينية ، ويتعامل مع الثابت والمتغير ، كتبه الزاحل الدكتور جمال حمدان الذى أصبحت كتبه هاديا لمشروع النهضة ونبراساً لأصحاب الوطنية الصادقة .

فمشروع جمال حمدان الفكرى محوره مصر ، وتكتسب فلسطين عنده أهمية خاصة ، وبالتالى اليهود باعتبارهم المادة البشرية الوافدة إلى فلسطين .

فما يجرى على الساحة السياسية اليوم فى حقيقته هو اعتراف بواقع سياسى فرضته موازين قوى إقليمية وعالمية ، وليس اعترافا قائما على أسس تاريخية أو وعود توراتية أو أوامر ربانية .

ولا يجوز بأى حال أن يحمل أية شبهة تنازل تاريخى من جانب الشعب العربى الفلسطينى . ويؤكد جمال حمدان عن طريق الدراسة العلمية الموثقة إن اليهود ليسوا شعبا واحدا ، ويتحرك مسلحاً بعقل ثابت وخيال خصب ومعرفة عميقة ، ويتابع قضية من التاريخ القديم إلى العصر الحديث .

وقام الدكتور عبد الوهاب المسيرى بتقديم الكتاب ، برؤية حديثة شاملة ، وعالج الفجوة الزمنية بين تاريخ صدور الكتاب وهذه الطبعة بملحق يتناول المعلومات الجديدة .

إنه كتاب لابد أن يقرأ ، وأن يكون له مكانة خاصة فى مكتبتك .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

ما بعد عام ٢٠٠٠

د. ميلاد حنا



كتاب الهلال
KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مركز الإدارة

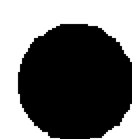
دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب . تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٣ ـ شوال ـ مارس ١٩٩٦ No-543-MA-1996

فاكس FAX-3625469

ما بعد
عام ٢٠٠٠

بقلم
د. ميلاد حنا



دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

الجزء الأول

ما بعد عام ٢٠٠٠

العالم والمنطقة ومصر

إلى أين ؟

مقدمة

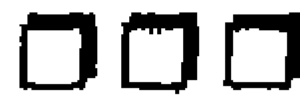
يولد البشر مختلفون فى الشكل والعقلية والطباع ، ويظل هذا الأمر مثيرا لخيال الناس وتساؤلاتهم لماذا هذا ذكى وذلك غبى ولماذا هذه السيدة جميلة وشقيقتها ليست على ذات الدرجة من الجمال وهكذا ، غير أن كل ذلك - فى التحليل النهائى - يؤكد على أن التنوع ظاهرة كونية ومن ثم قبول الآخر.

بعض البشر يحركهم الماضى فيتخلفون، وآخرون يتطلعون إلى المستقبل وعادة يتقدمون، ولا يوجد من هو سلفى بالتمام والكمال وإلا انعزل عن العالم وصار كأنه من أهل الكهف، وإن كان مستقبليا فقط يصبح حالما واهما وكأنه فاقد الذاكرة، ولذا فإن أغلب البشر «بين بين» وأنا شخصيا ممن يدرسون التاريخ بهدف رؤية المستقبل ... وكان هذا - وسيظل - توجهى فى الكتابة والفكر.

وبعض البشر متشائمون ويتوقعون - من خلال خيال مريض - العديد من الأحداث المؤسفة قبل أن تقع، والبعض الآخر أميل إلى التسامح والتفاؤل، وفى اعتقادى أن التفاؤل أو التشاؤم هى توجهات وخصائص غالبا ما تولد مع الإنسان، وبعض البشر

قادر على تعديلها فى حدود ضيقة لقناعاته التى يكتسبها فى رحلة الحياة.

وفى هذا الإطار – ومن منطلق ذاتى متفائل ولأن رؤيتى مستقبلية – لذلك رغبت فى أن يكون عنوان هذا الكتاب عما يمكن أن يحدث فى المستقبل القريب أى «مابعد عام ٢٠٠٠» وهو ما يسمونه باختصار «٢٠٠٠ + ».



ولدت عام ١٩٢٤، فعشت حتي الآن معظم أحقاب القرن العشرين من العشرينات حتى منتصف التسعينات وأتمنى أن يمتد بى العمر – والأعمار بيد الله وفى علمه وحده – أن أعيش لأرى فجر القرن القادم أى أن أحتفل بمقدم أول يناير عام ٢٠٠٠ لأنه سيكون يوماً فاصلاً أو يوماً مفصلياً بين عصر وعصر، فهو علاوة – على كونه بداية للقرن ٢١ أيضا بداية لألفية ميلادية ثالثة تبدأ من عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٩٩٩ وهو مدى هائل من التاريخ، لابد وأن سيشهد أحداثا عالمية هائلة لايمكن التنبؤ بها، لأن التقدم العلمى وتداعياته يسير بمعدلات متسارعة، وسيتغير نوع الحياة والحضارات على سطح الأرض، ونتوقع خلال هذه الألفية الميلادية عالما جديداً تماما. حتى توجد تنبؤات بأن الأحوال المناخية قد تواجه بعض التغيير.

خلال القرن العشرين – وفي الحقبة التي عشتها فيه وكأنها قطرة في بحر الألفية الميلادية الثانية – عاصرت الحركة الوطنية المصرية، وتوهمت – كما توهم معظم جيلي – أن حصول مصر على استقلالها – أي أن يحكمها أهلها – سيكون بداية لعصر جديد تزدهر فيه مصر وتقل الفجوة الحضارية بين مصر والعالم المتقدم. ولعل كثيرين مثلي – في دول أخرى مثل الهند أو الجزائر أو المكسيك أو غيرها – قد توهموا مثلما توهمت ، وإذ بنا جميعا نخرج – لا أقول من حلم إلى آخر – بل من إحباط إلى إحباط.

ثم تصادف أن حلمت – مثل غيري – بأن العدالة الاجتماعية أو «الاشتراكية» ستحقق حلم البشرية وتقرب الفوارق بين الطبقات وربما كان تعاطفي وانتمائي إلى الاشتراكية انعكاسا لمودتي وانحيازي لبسطاء الناس أي «المستضعفين في الأرض»، وفي حدود الحقبة الزمنية التي عشتها، تصاعدت أسهم الأفكار الاشتراكية حتى طرحت عبارة «حتمية الحل الاشتراكي» ولكنها هوت مع تفكك الاتحاد السوفييتي في أواخر الثمانينات، غير أن تعاطفي مع بسطاء الناس لم يتغير بل لعله يتعاظم مع الزمن.

وهكذا تولد لي احساس داخلي – قد يكون أقرب للحدس – بأن عام ٢٠٠٠ أو أي وقت قريب منه، قد يكون ١٩٩٨ أو ٢٠٠٥ وحتى ٢٠٢٠ «وهو مدى لن أراه» ستحدث تغيرات هائلة في المجتمع في مواقع كثيرة من العالم لأن ثورة المعلومات ستفرض

«الشفافية» وسيكون حجب الأسرار محدودا، فتاريخ العالم «ما قبل عام ٢٠٠٠» فى معظمه مزيف لأن معظم أسراره قد ماتت فى صدور أصحابها، ولا يروى التاريخ الصادق إلا النقوش التى حفرها الإنسان علي الحجارة أو الأسطر القليلة التى لم تحرق أو تبلى فى شكل ابتهال أو تأملات كانت مسجلة علي ورق البردى أو ألواح الطين أو الكتب المنسوخة أو المطبوعة.

ومن ثم فإننى أتوقع للألفية الميلادية الثالثة تاريخا هائلا على الرغم من الظلام الثقافى والتفكك الاجتماعى داخل كثير من الدول وتعاظم الصراعات بين الأعراف والأديان والمذاهب.

وفى التاريخ القديم، كان ظهور المسيح علامة مهمة على طريق التطور الإنسانى، فجعلوا من هذا الحدث علامة على الطريق، ففى هذه الحقبة حدثت تغيرات هائلة فى منطقة البحر المتوسط وكان مركز العالم القديم ثقافيا وحضاريا .

إن أحدا لايعرف متى ولد المسيح بالضبط ، ولكن المسيحية انتشرت وفرضت أوضاعا جديدة فى العالم القديم وفى هذه المنطقة بالذات كمفاهيم ومبادىء ودين، وبالفعل صرنا نؤرخ السنوات ونسميها « ما قبل الميلاد » ونشير إليها "Before Christ" ثم «ما بعد الميلاد» A.D, «من الأصل اللتينى» "Anno Domini" والتى ترجمتها بالانجليزية "In the year of our Lord" .

وينطبق ذات النهج على سنة هجرة الرسول من مكة إلى المدينة حتى يطلق على السنوات السابقة لها عصر «الجاهلية»، أما الحقبة والسنوات التى تلتها فقد صارت تقويما جديدا متبعا فى كل أنحاء العالم الإسلامى ويعرف بالتقويم الهجرى وها نحن نعيش عام ١٤١٦ هـ .

وربما يتفق - فيما بعد - على أنه فى تاريخ ما قرب عام ٢٠٠٠ ستختلف القيم والمفاهيم لتنقل البشرية من حقبة إلى أخرى، «أو هذا ما أتمناه على أى حال» ولذلك أتوقع أن ترقم السنوات بأرقام «٢٠٠٠ +» للتعبير عن حقبة «ما بعد عام ٢٠٠٠» وأتوقع أن أحوال العالم ستتحسن حقبة بعد أخرى وقرنا بعد قرن، ولكننى لست واهما فأتصور اننا على عتبة مجتمع مختلف عن عالمنا يوم أول يناير عام ٢٠٠٠ أو بمعنى أدق مع بداية الألفية الميلادية الثالثة فى أول يناير عام ٢٠٠١ لأننا أمام سنوات قليلة جدا لنصل إلى هذا اليوم، ولكنى أتوقع انه كلما ذهبنا عمقا فى الألفية الثالثة ستتغير أمور كثيرة، وأكاد أكون على يقين أن عام ٢٠٥٠ سيكون العالم مختلفاً - ولو قليلا - عن واقعنا اليوم، وأما ما ستصير عليه الأحوال عام ٢٢٠٠ أو ٢٤٠٠ فهذا أمره عند ربى لأن التغييرات التى سيشهدها هذا العصر ستفرض عالماً مختلفاً تماماً ربما يصل إلى التغيرات فى الظروف المناخية والبيئية والتى

ستؤثر بالتبعية على الإنسان، فتختفى الفوارق العرقية والدينية والمذهبية وربما تدخل متاحف التاريخ وقتها.

ولابد لى فى هذا الإطار أن أسجل أننى لست فخورا من خلال ما قرأت - بتاريخ البشرية فى حقبة ٢٠٠٠ - «أى ما قبل عام ٢٠٠٠» فهى - من وجهة نظرى - كانت حقبة غير متحضرة، لأنها مملوءة بالحروب والصراعات والتعصب على الرغم من التقدم الفكرى فى عالم الأدب والفلسفة منذ الحضارة اليونانية إلى الآن، وعلى الرغم من التقدم العلمى الملحوظ منذ الثورة الصناعية فى أوربا فى القرن السابع عشر.

فى مرحلة «٢٠٠٠ -» كانت البداية مأساوية، فمع ظهور المسيحية قامت الإمبراطورية الرومانية القديمة باضطهاد كل من اعتنق الديانة الجديدة لأنها جذبت الملايين والذين شعروا أن هذا العقد الجديد قد حررهم من قيد وعبودية وتمايز أهل روما عاصمة الإمبراطورية، وكان القتل على الهوية جماعيا بطرق وحشية إلى أن أصدر الملك تيودوسيوس مرسومه الشهير عام ٣٨٩م بإغلاق المعابد الوثنية وإعلان أن المسيحية هى الدين الرسمى للدولة، ومع انتشار المسيحية - وحتى قبل أن يعلن انتهاء عهد الوثنية - دخلت حضارات ذلك الزمان القديم فى صراعات فقهية. كانت تسمى وقتها «لاهوتية» تمثلت فى المجامع المسكونية «أى المؤتمرات الدينية الدولية بلغة عصرنا الآن» أشهرها وربما أولها كان فى مدينة نيقية

عـام ٣٢٥م ثـم فى القسطنطينيـة عـام ٣٨١م ثم فى أفـسس عـام ٤٣١م ثم كان الانقسام الكبير عام ٤٥١ فى مجمع خلقيدونية.

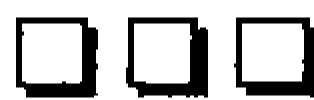
واضطهـد المسيحـيون بعضـهم بعضـا وتحـولت الديانة إلى صراع سياسى بين أتباع عقيدة الملك ولذلك سموا بالملكانيين وتم تعبئة الجيوش للحرب والغزو لقهر الدول التى تمسكت بالعقيدة القديمة المسماة بالأرثوذكسية واستمرت هذه الحروب المذهبية إلى أن ظهر الإسلام قبل منتصف القرن السابع الميلادى بقليل وعاصر العـالم كيف كانت تشن حـروب بسبب الاختـلاف المذهبى لقـهر الكنائس أو الشعوب التى لاتدين بمذهب الملك البيزنطى، وفى هذا المناخ التـاريخى تم فـتح مـصـر - بالتـراضى - لأن قبط مـصر رحبوا بالغزاة العرب لأن الحكم الجديد سيخفف عنهم عصر «هرقل» الذى أسموه «عصر الاضطهاد العظيم».

وفى منتصف القرن السابع ظهر الإسلام فكان نقطة تحول جديدة فى تاريخ تلك الحقبة، ولكنه عانى - مثل المسيحية - من صراعات مذهبية بين السنة والشيعة مع انتهاء فترة الخلفاء الراشدين، فتوسع من خلال الغزوات والفتوحات إلى أقطار كثيرة حتى أصبح دولة أو امبراطورية واسعة الانتشار حتى وأن كانت تحت مسمى «الخلافة» وصارت فى مواجهة المملكة أو الإمبراطورية المسيحية المقابلة على الجانب الشمالى من البحر الأبيض المتوسط، وظل الصـراع بين المملكتين - ولا أقـول بين الديانتين - مـحـتـداً

وبالذات عند الأطراف أي عند دول التماس، في اسبانيا غربا وفي تركيا شرقا، وكان الارتداد في اسبانيا حيث عادت إلى المسيحية بعد أن كانت تدين بالإسلام، وفي الجهة المقابلة الشرقية تحولت تركيا «أو آسيا الصغرى كما كانت تسمى بلغة هذا العصر» من المسيحية حيث كانت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية لتكون الاستانة مقر الخلافة أو الإمبراطورية العثمانية، بعد أن ظل الصراع بين الامبراطوريتين نحو خمسة قرون هي طول الحرب الصليبية.

وبعدها دخلت أوروبا بدايات عصر النهضة والثورة الصناعية، عندئذ بزغ صراع اصلاحي جديد في أوروبا، فظهرت «البروتستانية» في مواجهة «الكثلكة» ثم تلى حركة الإصلاح الديني حركة جديدة تدعو لفصل الدين عن الدولة – على الأقل في أوروبا – وهو ما صار يشار إليها «العلمانية» .

وبعدها دخل العالم عصر «الأيدولوجيات» المواكبة لعصر الاستعمار الأوروبي لدول آسيا وأفريقيا وحتى أمريكا اللاتينية، فكان طبيعيا كرد فعل للقهر الاستعماري أن تولد حركة الاستقلال الوطني ومقرونا بها الأفكار الاشتراكية في القرن العشرين وهي الأمور التي أشرت إليها في بداية هذه المقدمة.

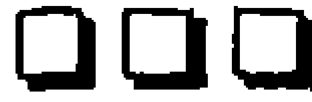


ما رغبت أن أصل إليه – من كل هذا السرد السريع – هو أن حقبة «٢٠٠٠ –» كانت حقبة حزينة بائسة من تاريخ البشرية معظمها صراعات دينية أو مذهبية بين أجنحة الدين الواحد، فكما حدث انشقاق وحرب بين السنة والشيعة حدث انشقاق وحرب بين الأرثوذكس والملكانيين ثم بين الكاثوليك والبروتستانت وأخيرا فى القرن العشرين كان الصراع بين الأيدولوجيات، وربما كان أعظمها وأكثرها أهمية هو المواجهة بكل الوسائل الإعلامية والتكنولوجية – بما فيها حرب النجوم والأسلحة النووية – بين الرأسمالية والشيوعية. وبانتهاء الحرب الباردة بينهما، إذ بالعالم يتحول إلى صراعات قديمة عرقية ودينية ومذهبية وحتى قبلية، وهى حقبة أكثر بؤسا وتعاسة، ولكننى أراها مؤقتة لن تمتد إلى ما بعد عام ٢٠٠٠ بكثير.

أعود فأقول – لأننى أميل إلى التفاؤل ولأن محركى فى الحياة هو المستقبل – لذلك آثرت فى هذا الكتاب أن أجمع بعض كتاباتى – بعد تطويرها وربطها ببعض – على قدر المستطاع – لتكون مثل «حبات المسبحة» – لكى استشرف المستقبل أى حقبة عام ٢٠٠٠ والبعض كتبته خصيصا لهذا الكتاب، ولأنها فى معظمها تستشرف المستقبل – آثرت أن يكون عنوان الكتاب «ماذا بعد عام ٢٠٠٠» أو «٢٠٠٠ +».

ولقد حاولت – كما سبق أن قلت – أن أجد نوعاً من الربط بين

بعض الموضوعات لتكون مسلسلة، ولكن القارىء حر فى أن يبدأ بأى عنوان يستهويه – فلكل منا مذاقه الخاص للكلمة المطبوعة – ولكنها على أى حال موضوعات يمكن قراءتها منفصلة أو متصلة، وهو أمر يفضل التسلسل الروائى الملزم فى القصص القصيرة أو الروايات الطويلة. وفى تصورى فإن القارىء فى مرحلة عام ٢٠٠٠ + سيهرب من نمط القصص المدونة فى الكتب كما سجلها نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس ليهربوا إلى ما يناسب ٢٠٠٠ + فيما يعرضه أسامة أنور عكاشة أو وحيد حامد واللذان يستشرفان الأدب فى مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠ .

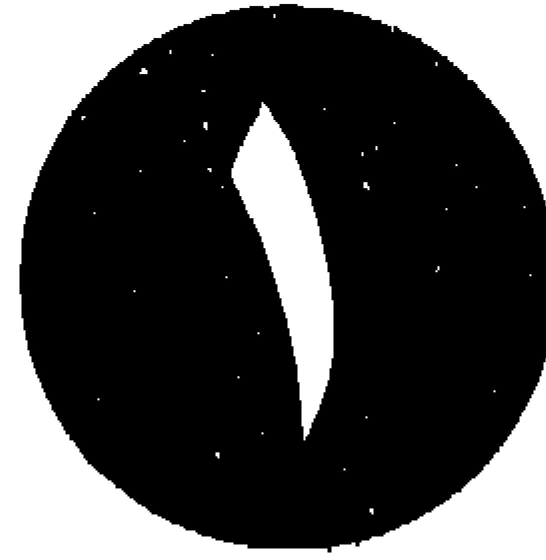


هذا وقد قسمت موضوعات الكتاب إلى قسمين كلاهما حول ما بعد عام ٢٠٠٠، غير أن مواضيع الجزء الأول حول ما أتوقعه لأن يحدث – أو بمعنى أصح – ما أتمناه فى حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠، فى العالم وفى المنطقة العربية وفى مصر .

أما الجزء الثانى فهى مجمل ما أراه قيماً ومفاهيم وأخلاقيات تناسب الفرد والوطن فى تلك الحقبة ٢٠٠٠ + والتى أراها بداية لغد أكثر اشراقا .

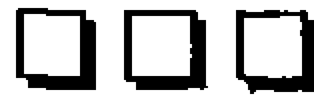
د . ميلاد حنا

مارينا ١٦ أغسطس ١٩٩٥



تغيرات هيكلية في البناء العالمى

شهد عام ١٩٩٥ مسلسل الاحتفالات بمضى خمسين عاما على إنشاء الأمم المتحدة، أتصور أن العديد من الكتاب والمفكرين سوف يعالجون «مستقبل» الأمم المتحدة، لأن متطلبات الحقبة القادمة ستفرض على إنشاء الأمم المتحدة أن تلعب دورا أكبر فى شئون العالم، ليس فقط فى القضايا السياسية والعسكرية الكبرى «كما هو الحال فى البوسنة والهرسك حاليا» وإنما سيمتد نشاطها إلى القضايا الاقتصادية، وينتظر أن ينشأ «مجلس أمن للقضايا الاقتصادية» ثم نشاط أوسع فى مجالات العلوم والثقافة وحقوق الإنسان وتقييم أداء الدول فى مجال «التنمية البشرية» والأطفال والصحة وما إليها.



غير أن ما رغبت فى أن أعرضه اليوم، ليس «مستقبل» الأمم المتحدة فمستقبل أى أمر لا يمكن فحصه دون معرفة «ماضيه» أى تاريخية ولذا رغبت فى هذا الموضوع الأول لشرح «ما بعد عام ٢٠٠٠» أن ألقى الأضواء على المتغيرات الهيكلية والرئيسية التى عاصرها جيلى طوال النصف قرن الماضى فى بنية العالم فى مختلف النواحى، فالظروف التى تم فى ظلها توقيع ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ «وهو العام الذى تخرجت فيه وصرت مهندسا» قد تغيرت كثيرا، لذلك – ولفائدة الأجيال الأصغر سنا – والتى لم

تعاصر التاريخ القريب آثرت أن أطرح بعض المعالم الأساسية لهذه المتغيرات الهيكلية :

(١) - نشطت حركة التحرر الوطنى واستقلت دول كثيرة كانت قبل ذلك مستعمرات ربما فى موقع ما خلال القرن التاسع عشر، فتغير بذلك المناخ السياسى العام فى العالم، وأصبحت حكومات ورؤساء الدول المستقلة حديثا لهم رأى وقول فى شئون العالم بل كانوا من نجوم العالم - من غاندى إلى مانديلا - بعد أن احتكر الحياة السياسية العالمية زعماء وقادة ومفكرو الدول الأوروبية وأمريكا وحدهم فقد وقع ميثاق الأمم المتحدة ٥١ دولة فقط عام ١٩٤٥، زادت لتصبح ١٢٥ دولة عام ١٩٧٠ وصارت الآن ١٨٤ دولة تمثل كل العالم تقريبا. وصارت الأمم المتحدة منظمة ذات فاعلية، فمن خلال ميثاقها - وبما لمجلس الأمن من سلطة، وبما للدول الخمس الكبرى من حق الفيتو - أمكن بالفعل تحاشى قيام حرب عالمية ثالثة بين دول العالم الأول وصارت أحوال العالم عام ١٩٩٥ غير أحواله عام ١٩٤٥.

(٢) - تبلور الصراع العالمى السياسى - فى تلك الحقبة - فى طور كتلتين رئيسيتين : يقود الأولى أمريكا وأوروبا الغربية حاملة لمبادىء الليبرالية وآليات السوق غير أنها مغلفة بمفاهيم العدالة الاجتماعية مع تطبيق قواعد التصحيح الذاتى من خلال تداول السلطة، والكتلة الرئيسية الأخرى يقودها الاتحاد السوفيتى

وتحمل نظرية أيديولوجية مثيرة لخيال وحلم المثقفين غير أنها لاتحمل داخلها آليات التصحيح الذاتى بالديمقراطية فكان أن تحللت، فاختل توازن العالم، لأن وجود المنافسة بين الكتلتين - كان لنحو ٤٠ عاما - مخرجا وملاذا للدول المستقلة حديثا فانحازت إلى أى من الكتلتين وحصلت على الدعم السياسى والمادى، ولذا أصبح بعض الدول الفقيرة - فى المرحلة الحالية - فى مأزق بل وتحللت بعضها من الداخل لعدم وجود المنافس القوى للقطب الأوحد وأصبح العالم بعد نصف قرن فى حالة ميوعة أى أسوأ من أحواله عام ١٩٤٥ .

(٣)- نتيجة استقلال الدول التى كانت تابعة من قبل إلى دول كبرى عتيدة، ظهرت تكتلات عالمية شتى، أخذت فى الأغلب الأعم شكل كتل جغرافية أو أيديولوجية، كان أقدمها هو «الجامعة العربية» والذى جاء تأسيسها عام ١٩٤٥ قبل الأمم المتحدة بشهور، ولكن التكتل العربى لم يحقق ما كان منتظرا منه من تقارب اقتصادى أو سياسى، ثم كانت «منظمة الوحدة الأفريقية»، وهى أيضا لم تحقق الكثير ولكنها حافظت على استقرار وضع الحدود والفواصل بين الدول التى استقلت حديثا وثبتتها، ولكن ذلك لم يمنع من تفكك دول بأسرها من الداخل بانهيار سلطة الدولة أو بالحرب الأهلية مثل الصومال ورواندا وأنجولا وغيرها، ثم كانت

كتلة الدول المسماة «مجموعة الـ ٧٧»، ثم محاولات «السوق الأوروبية المشتركة» والتى تحولت مع الوقت إلى «اتحاد أوروبى»، ولعلنا نحن شعب مصر نذكر دور الرئيس عبدالناصر فى تأسيس «مجموعة دول عدم الانحياز»، والتى تصارع حاليا من أجل البقاء لانتفاء النظام المرتكز على قطبين فقد كان ذلك هو سبب وجودها - كما سبق التوضيح - ولذا فإننا على عتبة تكتلات متعددة جديدة هى سمة القرن القادم وهو أمر سنعالجه تفصيلا فى مواضيع قادمة .

(٤) - لعل أهم انجازات البشرية فى النصف قرن الماضى، هو ما تم فى ميدان العلم والتكنولوجيا فى مجالات عديدة لا حصر لها من الطب إلى الهندسة الوراثية والتى كان من أولى ثمارها، ثورة الاتصالات وسرعة نقل المعلومات، فعندما اجتمع ممثلو الدول عام ١٩٤٥ فى سان فرانسيسكو، لم يكن التليفزيون إلا حلما يداعب خيال وفكر بعض العلماء على الورق وفى شكل معادلات رياضية ولذا لم يعرف وقتها معظم البشر فى أربعة أركان الأرض أهمية ما جرى فى سان فرانسيسكو إلا عدد محدود من رجال الدبلوماسية والصحافة، بينما أى حدث أو مؤتمر أو كارثة تقع الآن - فى أى موقع من العالم - تنتشر أخبارها بالخبر والصورة فى التو واللحظة بشكل مثير للخيال، لعل أبرزها ما تم من احتفال توقيع إتفاق طابا بين زعماء وقادة الشرق الأوسط فى البيت

الأبيض فى واشنطن يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥ فقد أذيع بالصوت والصورة وفى ذات اللحظة فى كل أنحاء العالم وفرض كل ذلك على الحكومات «الشفافية»، لأن الأقمار الصناعية قد حطمت الحدود الجغرافية التى صارت «مخترقة»، فقل التعتيم الإعلامى بعد أن كان مسيطرا عليه عام ١٩٤٥.

(٥) - تم فى تلك الحقبة كل ما عرفته البشرية من انجاز فى مجال «غزو الفضاء»، فقد كان التصور قبل نصف قرن أن المعجزة الكبرى هى، تحقيق فكرة «الطيران» فى الجو مثل «النسور»، فإذ بالإنسان يصبح قادرا على الخروج من سيطرة وقهر الجاذبية الأرضية ويحلق فى الفضاء ويرسو بقدميه على سطح القمر ثم ينشىء محطات فضائية «يسافر» ويحج إليها ويعيش الإنسان داخلها أو خارجها ولمدد طويلة وصار الإنسان قادرا على أن يرسل الأقمار إلى مسافات خيالية، لتأتى إليه بصور وبمعلومات عن هذا «المجهول» المترامى اللانهائى، ويسبح خيال الإنسان خارج المجموعة الشمسية وتزداد المعرفة العلمية ، ورغم كل ذلك فإننا لازلنا على عتبة شاطىء المعرفة وسنسبح داخل «الكون» فى القرن القادم بما يتجاوز خيال الأدباء والحالمين، وفى ذلك إدراك لجبروت العقل البشرى وإبداعاته اللانهائية. ورغم كل ذلك فإن الفكر الدينى يزداد قوة ويتحول من صلوات داخل أماكن العبادة ليكون حركات عالمية..!

(٦) - نتيجة لثورة الاتصالات والتقدم العلمى وغزو الفضاء، ضمرت أهمية الحدود بين الدول فقد صرنا جميعا «بشر» نعيش على ظهر «كوكب» واحد، وكنا فى سابق الزمان مدركين التوازن فى الحياة الطبيعية من خلال الدين والفلسفة وعلوم الحياة ولكننا لم نكن ندرك أن الإنسان قادر أيضا على «تخريب» التوازن البيئى، فإن أحد أفضال الأمم المتحدة، أن طرحت قضايا البيئة على البشرية كلها فى مؤتمرات دولية كان آخرها فى البرازيل فى يونيو عام ١٩٩٢، واكتشفنا أنه لو لم يتعاون البشر على إقلال أو منع تلوث البيئة فإن الحياة ذاتها قد تتأثر وتخرب، وتضاءلت الخلافات الجزئية حول حدود الدول الهشة من صنع السياسة وأصبح الإنسان أكثر إحساسا «بالعالمية» «والكوكبية» وهى مصطلحات جديدة تماما فى قاموس اللغات فى كل أنحاء الأرض، فتجاوز الإنسان مرحلة «الوطنية» كحد أقصى لطموح جيلنا ودخل بُعد جديد سيغزو فكر أجيال قادمة هو الانتماء إلى كوكب الأرض أى إلى «الإنسانية» جمعاء. وهو أمر سنطرحه بالتفصيل فيما بعد.

(٧) - قبل نصف قرن كانت أمانى جيلى - كما فى أقطار وأوطان عديدة من العالم - هو حصول الوطن على الاستقلال، وكأنه نهاية المطاف لحل مشكلات «المواطنين» من فقر وجهل ومرض، ثم تحقق الاستقلال بالفعل وإذ بنا نكتشف أن ما تحقق هو النذر اليسير، وأن هناك مشكلات من نوع جديد لم نكن ندرك

أبعادها ، وها هى ذى الأمم المتحدة تعقد مؤتمرات دولية تجعلنا نشعر ونعى أن هناك مشكلات مشتركة بين البشر فى مواقع مختلفة من العالم، فأدركنا أن هناك مشكلة «التفجر السكانى» وعقد لذلك مؤتمر فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩٤ ثم مؤتمر يبحث قضايا المرأة، عقد فى بكين فى سبتمبر ١٩٩٥ من خلال التجهيز والاستعداد له ثم جلساته تنشر قضايا المرأة من رؤى حضارات مختلفة لتوجد تقارباً فى وجهات النظر فيعم التفاهم مع الزمن، وفى العام القادم سيعقد فى مدينة اسطنبول بتركيا المؤتمر الدولى الثانى لبحث مشكلات الإسكان فى يونيو ١٩٩٦، وكان المؤتمر الأول فى مدينة فان كوفر بكندا عام ١٩٧٦، ولسوف تستمر المؤتمرات الدولية لإثارة وفتح شهية المفكرين ومتخذى القرار حول قضايا العصر والتى تبدو بلا شاطىء أو نهاية، ذلك أن طموحات البشر فى بحر النصف قرن الماضى قد تفجرت وربما فجرت بما يزيد على قدرة البشر والموارد المتاحة .

(٨) – فى عام ١٩٤٥ خرجت كل من ألمانيا واليابان كيانات محطمة عمرانيا واقتصاديا وإنسانيا، وفى أقل من نصف قرن أصبحتا من أكبر قوى العالم، وصار كل من المارك الألمانى والين اليابانى من أقوى العملات، وتغيرت مفاهيم وقيم اقتصادية كثيرة، فبعد أن كان الهدف من الاستقلال الوطنى هو إعطاء فرصة

للرأسمال الوطنى ليؤدى دوره فى التنمية الوطنية - ولذا كانت الممارسة فى النصف الأول من القرن العشرين أن تقيم الدول متاريسها من خلال الحواجز الجمركية - إذ بالحدود الاقتصادية تضمر حتى كادت تتلاشى تدريجيا ثم يصبح رأس المال عالميا، وتختفى «وطنية رأس المال»، ويصبح جذب رءوس الأموال «العالمية» الشغل الشاغل للحكومات التى استقلت ويزداد عدد الشركات متعددة الجنسية ويصبح تأثيره الاقتصادى وبالتالى السياسى هائلا وضاغطا وتتكون أكبر رابطة - خارج نطاق الأمم المتحدة - ممثلة فى الدول السبع الصناعية الكبرى التى يجتمع رؤساؤها كل نحو ستة أشهر فى أحد أركان العالم، لكى يتخذوا قرارات «بعضها نعرفه ومعظمها نرى تأثيراته» ومن خلال أجهزة اقتصادية عالمية ممثلة فى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، فيصير التحكم فى العالم اقتصاديا، وكلها أمور ومظاهر جديدة على خريطة العالم الاقتصادية، وأصبح التنافس على التجارة «عالميا»، فزاد ثراء الأغنياء وانطلقوا للاستزادة من البحوث العلمية وتطبيقاتها، وهبط الفقراء فازدادوا فقرا، ولم يعد الصراع بين الأثرياء والفقراء داخل الدولة الواحدة «على الرغم من ازدياد الهوة داخليا» وإنما أصبح الصراع بين مجمل الدول الصناعية الثرية «والتى يقع معظمها فى الشمال» وبين جملة الدول الفقيرة «والتى يقع معظمها فى الجنوب» حتى فاقت الصراعات الاقتصادية

وطغت أحيانا على الصراعات السياسية والعسكرية، فكان أن طرح المفكرون (والذين صاروا أيضا «عالميين») فكرة إنشاء «مجلس أمنى اقتصادى» مناظرا وموازيا لمجلس الأمن السياسى والعسكرى ..!

(٩) – على أن أخطر ما تم فى نصف قرن هو أن الدول الكبرى التى تناحرت فى القرن الماضى ثم خاضت حربين عالميتين، فى هذا القرن قد استطاعت بالفعل أن تتحاشى – ربما رغما عنها – قيام حرب عالمية ثالثة تهدد أمنها واقتصادها، ومن سخريات القدر أنها نجحت فى أن تنقل ساحات القتال إلى أماكن كثيرة فى العالم الثالث، فقد أحصت معاهد الاختصاص ١٣٨ حربا فى الفترة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٨٩ «عندما انتهت الحرب الباردة» ونتج عنها قتلى «أى خسائر بشرية» قدرت بنحو ٢٣ مليون نسمة، واستهلك فى الفترة من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٨٩ أسلحة تقليدية «على جميع أنواعها» قدرت بنحو ٣٨٨ مليار دولار، كان معظمها من إنتاج دول العالم الصناعى الأول، وهو أمر سنعالجه بالتفصيل فى موقف آخر.

ترى ماذا كان لو انفقنا جزءاً من هذه المليارات فى تنمية الدول الفقيرة، ألم يكن فى العالم أفضل..!

(١٠)– منذ أن أنشىء كل من حلفى وارسو والناتو، ولمدة نحو ٤٠ عاما غرق العالم فى متابعة الصراع الرئيسى بين الأيديولوجية

الرأسمالية الليبرالية وآليات السوق مع التصحيح الذاتي من جانب، وبين الأيدلوجية الماركسية - اللينينية كما طبقت في الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية وغيرها من جانب آخر - وانقسم العالم - كما يحدث عادة في مباراة الكرة «حيث يوجد أيضا فريقان» إلى كتلتين، وكان الأمل معقودا على انتصار أحد هذه الأيديولوجيات، فيرتاح العالم ويصبح خاليا من الصراعات ويشهد تنمية وإنسانية نقية وتعلقت الآمال بخيوط أوهام، وما أن رفع «غطاء الصراع الأيديولوجي» مع انتهاء الحرب الباردة، إلا واتضح أنه كان يغطي عشرات «وربما مئات» الصراعات التي كانت موجودة في كتب التاريخ فقط، منها حروب دينية ومذهبية وعرقية وقبلية، عادت إلى السطح بشكل أو بآخر، ولعلها أبرزها مآسي التطهير العرقي في يوغوسلافيا السابقة وعشرات الصراعات في أفريقيا ولم يخل عالمنا العربي من حروب أهلية في لبنان ثم حاليا في السودان والعراق والجزائر واليمن وغيرها. وسنعود لذلك في موقع آخر.

مجمل القول ، هو أن العالم قد شاهد تغييرات مهمة ورئيسية في جميع مجالات الحياة العلمية والسياسية والمجتمعية والفكرية، يصعب حصرها في موضوع من هذا الحجم، وإنما رغبت أن أطرح بعض رءوس موضوعات ، ليدرك القارىء معطيات السنوات الأخيرة من القرن العشرين وكيف أننا مقبلون على عالم مختلف

تماما مع بداية الألفية الميلادية الثالثة، ويتوقف اتجاه الريح على فاعلية أهل الرأى والفكر فى العالم، فإذا سارت الأفكار المنحازة إلى العرق والدين والمذهب سيدخل العالم صراعات مُرة لسنوات طويلة، وإذا بحثنا عن الأرضية المشتركة ونشرنا أفكار «ثقافة الموزاييك» بين الحكام ومتخذى القرار فإن العالم سيجتاز الحقبة «الشريرة» الحالية إلى عالم أكثر رحابة ولسوف نلقى الضوء على التغييرات فى القيم والمفاهيم في حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب، إن إحدى سمات ما بعد عام ٢٠٠٠ هى أن أمن الانسان قد أخذ موقعا متقدما عن أمن الدول والحكومات وهى قضية عصرية نناقشها فى الموضوع التالى .



أمن البشر والشعوب يسبق أمن الدول والحكومات !

فى حياة الأفراد والشعوب تجيء الأيام والسنوات حاملة لمناسبات ، يقف عندها المرء أو الشعب ، أو حتى الانسانية ، لتدارس ما فات والتكهن بما يأتى فى اتجاه تصحيح المسار ، لأنه من خلال كل تلك التفاعلات يتقدم (أو يتخلف) الإنسان أو الشعب أو حتى الحضارة فى مجملها ، فى قطر أو منطقة أو العالم .

منذ أن أنشئت هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ وصيغ ميثاقها فى سان فرانسيسكو ، كان السياسيون والمفكرون أسري ما عايشوه من أهوال حرب عالمية ضروس راح ضحيتها كما يقال نحو ٢٥ مليون انسان فقد عم الخراب فى كل مجال من مجالات العمران والاقتصاد ، دولا شتى ، ولذا كان التوجه العام فى صياغة مواد الميثاق يهدف - أول ما يهدف - إلى عدم نشوب حرب عالمية ثالثة، أى أن الأمم المتحدة، ومن خلال مجلس الأمن ، كانت معنية أساسا بأمن وسيادة الدول والحكومات ، وهو ما تم بالفعل إلى حد كبير وأمكن تحاشى وقوع حرب عالمية كما سبق الذكر فى الفصل الأول .

وها هى ذى الأيام والسنوات تمضى وصار الاحتفال بمضى ٥٠ عاما على إنشاء الأمم المتحدة فرصة مواتية للمثقفين والكتاب لطرح وتقييم ما جرى ولوضع تصورات المرحلة المقبلة إذ نتوقع أن يتغير اتجاه ريح التوازنات من تقنين المحافظة على سلامة الدول

والحكومات رغم أهمية ذلك إلي قضية أهم وأشمل هى أمن البشر والشعوب .

ونعود إلى الوراء قليلا لنرى تسلسل المفاهيم والاستراتيجيات والحروب ، أى الأمن العسكرى فى العالم خلال نصف قرن على النحو التالى :

* منذ أنشئت الأمم المتحدة فى ١٩٤٥ وحتى ١٩٨٩ (عندما انتهت الحرب الباردة) ، قامت ١٣٨ حربا ونتج عنها خسائر بشرية قدرت بنحو ٢٣ مليون قتيل ، وذلك بخلاف الصراعات الدامية التى لم يُعترف بها كحروب نظامية ، مثلما حدث فى المجر عام ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وجرانادا عام ١٩٨٣ من صراعات وقتل اعتبرت وقتها من الشئون الداخلية لدول ذات سيادة ! وقد يفزع القاريء من ضخامة عدد القتلى وإليك تفاصيل مأساوية :

– عدد القتلى فى الحرب الكورية وحدها وصل إلى ٣ ملايين ، وفى حرب فيتنام كان مليونين .

– معظم هذه الحروب التى رصدت فى تلك الحقبة ، إن لم تكن كلها ، كانت فى دول العالم الثالث ، غير ان التسليح كان يورد من القوى العظمى ، أى من كل من الولايات المتحدة الامريكية أو الاتحاد السوفيتى السابق أو عن طريق بعض من يدور فى فلكهما،

وذلك بسبب الصراع الايديولوجي الذى ساد فى تلك الحقبة بين الليبرالية الغربية والماركسية السوفيتية ، وكنا واهمين بأننا سندخل حقبة أفضل مع انتهاء هذا الصراع .

* الخسائر المادية التى انفقت على الأسلحة أمكن تقديرها - وفق التقارير المتخصصة - فى الفترة من عام ١٩٧٠ حتي عام ١٩٨٩ ، كانت مبلغا رهيبا وخياليا ، لو أنفق جزء منه على التنمية لكان حال هذه الدول غير ما هو الآن إذ قدرت بنحو ٣٨٨ بليون دولار كان توزيعها جغرافيا كالأتى :

- فى منطقة الشرق الاوسط ١٦٨ بليون دولار .
- فى افريقيا ٦٥ بليون دولار .
- فى الشرق الأقصى : ٦١ بليون دولار .
- فى جنوب آسيا : ٥٠ بليون دولار .
- فى أمريكا اللاتينية : ٤٤ بليون دولار .

وعلى الرغم من انتهاء الحرب البادرة ، وعلى الرغم من الصعوبات الاقتصادية الفائقة التى تواجهها العديد من دول العالم الثالث ، فإن تجارة السلاح لازالت مستمرة إلي حد أن الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن (أمريكا وروسيا وانجلترا وفرنسا والصين) توفر ٨٦ في المائة من السلاح الذى تستورده دول العالم النامى . وفى ١٩٩٢ - على سبيل المثال - كانت

امريكا وحدها المصدر لنحو ٤٦ فى المائة من جملة سلاح العالم النامى . ومن عجب أن يكون الدافع الأنسانى وراء هذا التدفق هو توفير العمل فى معظم هذه الدول المتقدمة ، والتى دخلت إليها ألمانيا أخيرا . وكان أن استمر تدفق الأسلحة إلى الدول الفقيرة فالاثرياء ينتجون السلاح لوقف نزيف البطالة فى بلادهم والفقراء يقعون فى مصيدة وهم أن السلاح يوفر الأمن .

ومن الأمور المقلقة حاليا ما يمكن أن يشار إليه باحتمالات الحرب التى تحدث مفاجأة وكأنها حوادث تصادم السيارات لمجرد أن هناك أسلحة متوافرة لدى العديد من الدول . وصار ذلك مصدرا أساسيا للخطر ويعرض أمن البشر لمجرد أن بعض الحكومات تملك سلاحا مغريا لها باستخدامه .

ويزداد الامر عجبا ، فالمبالغ الهائلة - التى ذكرناها استنزفتها الاسلحة التقليدية وحدها - كانت هزيلة اذا ما قورنت بالترليونات التى انفقت - ولم يمكن حصرها بعد - فى مجال الأسلحة النووية على أنواعها وأشكالها ، حين كان السباق على أشده بين امريكا والاتحاد السوفيتى بما فى ذلك برنامج غزو الفضاء وقد يقال ، ذرا للرماد فى العيون ولايجاد مبرر يقبله العقل، انه بسبب هذا السباق فى التسلح النووى ، لم تلجأ الدول الكبرى إلى حرب عالمية ثالثة ساخنة ! ولكنه - على أى حال - ثمن باهظ جدا . واذا تصورنا ، بالخيال ، ان هذه المبالغ الخرافية

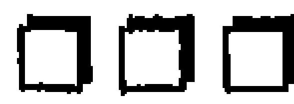
كانت قد انفقت في تنمية العالم الثالث فربما ما كانت الظروف الموضوعية في الدول الفقيرة الآن بهذه المأساة الدامية . ومن الأمور التي لم تطرح بعد للمناقشة كيف كان سباق التسلح بما فيها النفقات الباهظة التي تحملتها أمريكا في برنامج حرب النجوم ربما كانت أحد أسباب تفكك الاتحاد السوفيتي والذي كان يلهث في تحمل الأعباء حتى يستمر قوة عظمى في مجال التسليح وغزو الفضاء على الأقل إلى أن إنهار من فرط اللهث الذي أرهق اقتصادياته ولكنه أيضا ثمن باهظ خصوصا أن تفكك الاتحاد السوفيتي قد أوجد حالة من الخلل في التوازن السياسي العالمي وكانت دول العالم الثالث أول الضحايا لهذا الخلل .

والامر الجدير بالذكر ان الرغبة في امتلاك اسلحة نووية لم تكن مقصورة علي الدول الكبرى وانما وقعت في فخ الاحساس بالامان و «الوجاهة» و «المباهاة» من خلال مجرد امتلاك اسلحة نووية . دول كثيرة مثل اسرائيل والهند وكوريا الشمالية والبرازيل والارجنتين وباكستان ، وحتى جنوب افريقيا ، ولكل منها مبرراته المحلية . ولكن الانفاق على هذه الاسلحة باهظ التكلفة ، لن يوفر الامان للحكومات الا لفترات وجيزة جدا من الزمن .

والآن وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي هناك بعض الدول تتبارى من أجل الحصول على المواد أو الاسلحة النووية والتي كانت لديها هذه المواد إما مخزونة أو تنتج في هذه الدول والمناطق وقت أن

كانت جزءا من الاتحاد السوفيتى مثل اوكرانيا والدول الاسلامية الآسيوية وغيرها ، وهو امر تتوهم الدول الكبري انها قادرة على السيطرة عليه .

وهكذا انتهت حقبة الحرب الباردة ، بعد أن انهكت عشرات الدول النامية باستنزاف مواردها فى اسلحة تقليدية من اجل حصول تلك الدول والحكومات على الأمن لمجرد إحساسها بالقلق من دول مجاورة أو احتمال التعرض لهجوم لم يتم .



وإذا قارنا كل ذلك بما يحدث حاليا ، ومنذ سنوات قليلة نجد أن الوضع قد أصبح أكثر مأساوية . إن حلم «نظام عالمي جديد» خاليا من الحرب كان وهما ، فقد شاهد العالم نحو ثلاثين صراعا مسلحا خلال السنوات من عام ١٩٨٩ حتى الآن، بعضها انتهى والبعض الاخر مازال مستمرا . ولكل من هذه الصراعات المسلحة ظروفه التاريخية والمحلية ، فهناك فى أفريقيا الملايين الذين قتلوا ثم مئات الالوف المعذبة المشردة فى العراء أو فى السجون . واتضح لمعظم الحكومات والدول ، التى لاتزال تعتمد فى وهم أمنها أن شعوبها والمحكومين في كنفها لايشعرون بأمان مقابل . فمعطيات العصر قد أوجدت ظروفا جديدة تماما فرضت على البشر حالة من القلق العام ، نذكر منها :

(١)- منذ انعـقـاد المؤتمرالدولى الأول حـول البـيـئـة فى استوكهولم عام ١٩٧٢ زاد إحساس البشر بخطورة تلوث البيئة لأسباب محلية تؤثر بالفعل على انتشار مرض السرطان وغيره . وهناك ظروف أخرى غير محلية بل صارت عالمية بدرجة أكبر ، مرتبطة بثقب الاوزون وارتفاع درجات الحرارة وزيادة نسبة ثانى أوكسيد الكربون وقطع الغابات وارتفاع منسوب المياه فى البحر وما إليها فكلها قضايا جديدة تعكر صفو الأمن الذى كان يتمتع به جلودنا .

(٢)- أصبح العالم - ومن خلال ثورة انتقال المعلومات - قرية صغيرة ، حيث أخذت اجهزة الاعلام تتناقل أخبار الكوارث الطبيعية والاقتصادية حول العالم فى ثوان . ويزداد قلق الناس ، بالتالى ، علي الاوضاع الاقتصادية بالذات التى تتدهور فى اماكن كثيرة . فهناك خطر كساد عام يمكن أن يفقد الملايين قيمة مدخراتهم الكبيرة أو الصغيرة . وهناك أخبار سعر الصرف والتضخم وأسعار الفائدة وما إليها ، وهى تخلق مناخا عاما من التوتر والقلق الحالى والمستقبلى . ثم هناك أخبار البطالة الصريحة والبطالة المقنعة والتى سيترتب عليها حالة من القلق العام على مصير الجيل الصاعد من اولاد الاسر الحالية والتى تنفق وتستثمر من أجل تأمين المستقبل بتعليمهم ، وغير ذلك من أمور أصبحت مطروحة وعامة فى معظم الدول النامية وبين غالبية

الطبقات الاجتماعية بمن فيهم بسطاء البشر نتيجة طموحات مشروعة لم تكن ظاهرة على السطح قبل نصف قرن . وفي مصر مثلا كانت القرى تنام مع الغروب وتستيقظ فى الفجر . وطموحات سكان الريف كانت محدودة فإذا بأبنائهم يحلمون بنماذج الحياة فى هوليوود وميامى ولندن وباريس وغيرها .

(٣) – مع انتشار المعرفة والوعى بحقوق الانسان والمواثيق الدولية الخاصة بذلك ، ظهرت حالة من القلق العام نتيجة تجاوزات الحكومات لمواثيق حقوق الانسان على أنواعها ، وصارت مشكلات التعذيب وتقييد الحريات والقتل بدون محاكمات والاختفاء القسرى كما فى حالة د. منصور الكخيا الليبى والإمام الصدر الشيعى حالات ليست نادرة وما اليها من القضايا اليومية التى تسلب البشر حقهم فى مناخ آمن ومستقر .

(٤) – كان التصور أن الصراع الرئيسى بين الايديولوجية الليبرالية – ممثلة فى نظام رأسمالى متطور – وبين الماركسية على أنواعها شرقا وغربا – والتى كان البعض يصورها وكأنها حلم الانسان فى مجتمع تتساوي أو تتقارب فيه الفئات الاجتماعية من خلال ما قدمته الايديولوجية من «صراع الطبقات» – عبر نصف قرن قد طغى وغطى حتى طمس صراعات قديمة استمرت لقرون مضت . وتوهم البعض أننا فى الطريق إلى مجتمع لاطبقى أو تتقارب فيه الفروق الاجتماعية . وإذ بنا – عقب انهيار الاتحاد

السوفيتي - نكتشف أن معظم الصراعات القديمة يعود للظهور على السطح ، وأننا كنا نغطى كل تلك الاحقاد القديمة المدفونة بغلالة من الصراع الايديولوجى والذى ما ان رفع أو تحطم بانتهاء الحرب الباردة حتى ظهرت كل «العورات» القديمة وعادت الخلافات الدموية حول الاعراق واحيانا بين القبائل من عرق واحد كما فى أفريقيا ، ثم الخلافات والنعرات القديمة الدينية والمذهبية كما فى العراق وتركيا وأفغانستان والسودان .

ثم اشتدت حدة الصراعات فى اماكن عدة لكى تحمل السلاح وحتى الاديان التى كانت سمتها السماحة والحب ، اذا بها تجمع الناس على كراهية الآخر . ويظهر العنف والارهاب والتعصب بصور مختلفة فكل ذلك أوجد حالة من القلق العام ، مما أدى إلي هجرة ملايين البشر إما إلى دول اوروبية ، أو هربا من الجوع وفقد البشر والمواطنون العاديون حالة الامن التى كان يتمتع بها أجدادهم على الرغم من ارتفاع مستوى المعيشة والتعلم والوعى . وبعد أن كان الدين عامل طمأنينة داخلية ، صار حركات سياسية منظمة تتطلع للحكم وتحارب فى سبيل ذلك ولها مواردها المالية بعضها معلن ومعظمها خفى .

ولعل ابرز هذه الصراعات قاطبة - فى المرحلة الحالية - تلك المأساة الدموية التى تعيشها يوغوسلافيا السابقة ، فبعد أن كانت تنعم باستقرار ظاهرى لنحو ٤٠ عاما ، أى طوال فترة حكم

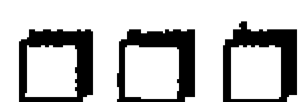
الرئيس تيتو، وما بعدها بقليل ، حتى كنا نحن زوار تلك الدولة نجد صعوبة حقيقة فى اكتشاف الفروق بين اهالى المناطق المختلفة ولكن ما ان رحل تيتو وسقط النظام الاشتراكى حتي فتحت كل الجروح والاحقاد والثارات القديمة ، وبدأ العالم يتعرف على اعراق وديانات مزقت يوغوسلافيا إربا ، ثم سيطرت ثلاثة عناصر رئيسية وهى : الصرب (وهم اساسا مسيحيون ارثوذكس وبالتالى مؤيدون من الجبهة الشرقية الارثوذكسية بزعامة روسيا) ثم الكروات (وهم الكاثوليك حيث لديهم تأييد ودعم من العالم الكاثوليكى فى الغرب) ثم المسلمون (ولديهم تأييد واسع من كل أنحاء العالم الاسلامى) . ولذلك فإن هذا الصراع لن ينتهى بسهولة لكثرة المتداخلين والمؤيدين .

وهكذا سيطرت قضية البوسنة والهرسك ، على كل وسائل الاعلام وصارت خبرا اول فى معظم دول العالم بسبب انتمائها إلى أحد هذه الكتل الرئيسية بشكل أو بآخر وتشعر اوروبا والدول الاسلامية بالقلق بسبب احداث التطهير العرقى واغتصاب النساء ولكن الكل يده مغلولة لأنه غير قادر على انهاء هذه المأساة البشعة.

ويضاف إلى كل تلك العوامل ، الموقع الجغرافى للبوسنة والهرسك فى قلب اوروبا وخشية كل الاطراف من ان يمتد لهيب الصراع إليها ، خصوصا ان سراييفو كانت الموقع الذى تفجرت

منه الشرارة التى اشعلت الحرب العالمية الاولى ولذلك ظهر منذ العشرينات مصطلح «البلقنة» ليعبر على الصراعات الداخلية فى منطقة البلقان كنقطة فاصلة لالتقاء الحضارات وبالتالى الصراعات . ولكن «البلقنة» اصبحت مرضا واسع الانتشار ، فى مواقع كثيرة .

ولعل هذه الحرب بالذات هى التى عززت نظرية «حتمية الصراع بين الحضارات» التى طرحها صموئيل هانتجتون كما سبق أن أوضحت فى دراسة سابقة ان اقدم «البديل الانساني» النابع من «الشرق العربى» الذى يعتمد على الحوار بين الحضارات ومولد «ثقافة الموزاييك» اى قبول الآخر ، ويتضمن ذلك المنافسة الصحية والمعايشة بين المجموعات البشرية المختلفة ، لأن التنوع ظاهرة كونية .



ولم يخل عالمنا العربى من هذه الحروب والصراعات الداخلية ، مثل تلك الحرب الدائرة بين شمال وجنوب السودان منذ سنوات ، وهى تحمل ملامح عرقية ودينية معا ، ولذلك تراجع السودان الذى كنا نعتبره «سلة القمح والغذاء» للعالم العربى لوجود نحو ٢٠٠ مليون فدان يمكن أن تستزرع باستثمارات وتكنولوجيا متوافرة فى المنطقة العربية وإذا بنا نجد ملايين اللاجئين من السودانيين

فى مصر وغيرها من كبار الأثرياء والزعماء إلى ابسط البسطاء من البشر ، فعم القلق داخل السودان وخارجه وتبخرت احلام التنمية ، واحتمالات وجود البترول .

والجزائر التى خاض شعبها حربا تحريرية شرسة فى النصف الاول من الستينات ، وقبل ان يزدهر لينعم بما يتوافر له من ثروات طبيعية ممثلة فى البترول والمناظر الخلابة للوديان والجبال ، والتى كان من الممكن ان توفر سياحة عربية وفرنسية وعالمية ، ثم ازدهارا وتبادلا ثقافيا من خلال قبول الآخر والتنوع ، اذا بها تصبح مرتعا للاغتيالات والدماء ، وكم حزنت لرحيل يوسف فتح الله نقيب المحامين وزميلى فى حركة حقوق الانسان . فقد كان دائم الدفاع عن حق الاسلاميين فى التعبير الهادىء والمحاكمات العادلة العلنية ، فإذا به يغتال بيد من حاول الدفاع عنهم ، وغيره مئات وآلاف فأين أمان الافراد والبشر والمثقفين وبالذات النساء واهل البربر وغيرهم ممن لايحملون إلا سلاح الكلمة والفكر والقلم..!

ثم كان ما تبقى من جروح وآثار حرب الخليج التى تركت كل شعوب المنطقة عموما والجزيرة العربية خصوصا قلقة مضطربة ، فلا أهل الكويت - الذين يفترض ان يكونوا سعداء بالعودة إلى ديارهم - صاروا آمنين ، ولا أهل العراق الذين ناصروا غزو الكويت قد جنوا ثمار المغامرة بل صار العراق خراباً واهله مثالا

للبؤس البشرى فى كل صوره ، وتعمل الدول الكبرى على استمرار حالة القلق والبؤس داخل العراق حتى يكون عبرة عالمية لمن يفكر فى مواجهة ومصارعة الحكامْ الكبار لعالم ما بعد عام ١٩٩٠ .

وحتى لبنان الذى عانى من الحرب الاهلية نحو ١٥ عاما ، أمكنه تجاوز الحرب الساخنة ولكن أمامه مشوارا طويلا لكى يعود إلى الرقص والاغنية فى القرى المتناثرة كالنجوم واللآلىء على الجبل الشهير ، ثم التمتع بشعر نزار قبانى وغناء فيروز والرحبانية ، لكى يبدع من جديد جيل شاب قادر على تقديم امكان المعايشة بين المذاهب والاديان ، كما كان لمئات السنين .

واليمن المسمى بالسعيد ، وبعد أن فرح وتغنى بالوحدة وتطلع للتنمية والتخلص من التخلف إذ به يقع فريسة صراعات قبلية قديمة وايديولوجية حديثة ، أدت إلى حرب أهلية دامية ، ويعلم الله وحده كم سيأخذ اليمن من الوقت حتى يعود كما كان من سنوات، وكثيرا ما أسأل نفسى ، لماذا نجحت المانيا الغربية الرأسمالية فى بناء وحدة مع المانيا الشرقية الماركسية . وهما معاً الآن على طريق النماء والتقدم ، ولماذا لم ننجح نحن فى الوحدة بين اليمن الشمالى القومى واليمنى الجنوبى الماركسى ؟ ترى هل هى لعنة ثقافية أو عيوب ذاتية أم ماذا ؟ سؤال مطروح على المفكرين والمثقفين العرب.

ولا أود أن أعدد الصراعات الداخلية في معظم دول المنطقة ، ولكن ما رغبت ان اصل إليه هو اننا أمام ظاهرة عالمية قلقة ، لاتستطيع فيها الدول والحكومات ان تعتمد علي الجيوش والتسليح لتوفر أمنها ، لانها أمام ظاهرة أقوى ، وهي ان البشر والشعوب قد صارت قلقة ، وما لم توفر الحكومات الظروف الموضوعية من خلال قنوات ديموقراطية وضمانات لحقوق الانسان ، وايجاد مناخ ثقافي لقبول الآخر ، خصوصا انه لا فضل لانسان على آخر بسبب الانتماء إلي العرق أو الدين أو المذهب ، فإن أمن الحكومات والدول سيهتز وقد تتوهم الحكومات أن في تعزيزها للقوات المسلحة والشرطة ما يوفر لها ولشعبها الأمن ، ولكنها ستجد نفسها في نهاية المطاف قد قبضت على الهواء وستفتح كفها لتجد خواء داخله .

وإذا كنا في الموضوعات السابقة قد عالجنا مسائل تخص العالم في مجمله ، فإن عيوننا - بالضرورة - مركزة على المنطقة العربية ولذلك نطرح في الدراسة القادمة أهمية أن تتحول الجامعة العربية من كيان استنفد أغراضه وثبت أن فاعليته محدودة وأن الخلل ينبع في ألياته وميثاقه لأنه لا يحمل مفاهيم التصحيح والتطور ولذا فإن التصحيح يكمن في إنشاء كتلة رابحة تقيم التوازن العالمي مع كل من الكتل الثلاث القائمة في أمريكا وأوروبا والشرق الأقصى وتكون الجامعة العربية نواة لتلك الكتلة .



الجامعة العربية نواة كتلة اقتصادية رابعة

قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بعدة أشهر أنشئت الجامعة العربية ، وبعد الحرب ذاتها بعدة أشهر أنشئت هيئة الأمم المتحدة، وها هى ذى عجلة الزمان تدور ، وتم الاحتفال أخيراً بمضى ٥٠ عاما على إنشاء الجامعة العربية ، فاذا به احتفال «تشريفاتى» ليس له مضمون بل لعله احتفال حزين لأن الحلم الذى صاحب إنشاءَ الجامعة العربية لم يتحقق ، فقد كان التصور وقتها أن الجامعة العربية سوف ترفع مع الزمن علم الوحدة العربية أو على الأقل نوعا من التعاون فى جميع المجالات وإذ بمجموعة الدول أعضاء الجامعة فى حالة خصومة وتمزق ، وكل التمنى هو فى نوع من «المصالحة».

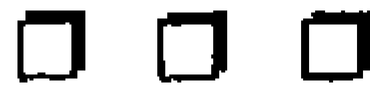
وعلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية تم الاحتفال بمضى ٥٠ عاما على إنشاء الأمم المتحدة وقد عهد بذلك للجنة خاصة تعمل على محاور متعددة وتطلع العالم لهذه السلسلة من الاحتفالات لكى تحدد مسار هذه المنظمة فى الحقبة القادمة بعد أن تقدم انجازاتها فى بحر نصف قرن ، ولعل أول وأهم ما حققته هيئة الأمم المتحدة من خلال آليتها ممثلة فى مجلس الأمن والجمعية العامة أنها تحاشت قيام حرب عالمية لظروف وملابسات كثيرة ، بينما قامت حروب عديدة فى المنطقة العربية بعضها بين العرب وإسرائيل والبعض الآخر بين العرب والعرب وهى أمور اشرنا إليها من قبل .

وفى بحر نصف القرن الماضى أصدرت الأمم المتحدة عشرات من مواثيق وعهود حقوق الانسان والأقليات وجهزت لمؤتمرات دولية حول عشرات القضايا ، إبتداء من قضايا وحقوق المرأة إلى مؤتمرات البيئة والاسكان والتنمية الاجتماعية والسكان وغيرها ، ومن خلال تلك المؤتمرات تكون رأى عام عالمي يقرب بين البشر ويحدد البوصلة للأرضية المشتركة للانسانية ، وستحاول الأمم المتحدة فى السنوات القليلة القادمة أن تغير من هياكلها التنظيمية لزيادة فاعليتها ومواجهة متطلبات التغير .

تصادف أن يكون الأمين العام للجامعة العربية الذى جرى فى عهده الاحتفال باليوبيل الذهبى لها ، أحد العمالقة الدبلوماسية المصرية ، وهو د. عصمت عبدالمجيد ، ويتصادف أيضا أن يكون من يطفىء الـ ٥٠ شمعة من عمر هيئة الأمم المتحدة هو أستاذ مصرى فى العلوم السياسية مشهود له من زملائه وطلابه ثم من كل من عمل معه فى الخارجية المصرية – على الرغم من أنه لم يتربع على قمة هذا الهرم – وهو د. بطرس غالي ، ولمصر أن تعتز وتفخر فى أنها قدمت من يحتل المقعد الأول فى كل من أكبر منظمة سياسية فى العالم العربى وأكبر مؤسسة سياسية على ظهر البسيطة .

ومن هنا تبدو المفارقة فى أن احتفال الأمم المتحدة يقدم انجازات عظيمة مقرونة ببرنامج طموح مدروس لتغيير بنية الأمم

المتحدة لكى تناسب المتغيرات الدولية التى ستظهر مع مطلع الألفية الثالثة ، بينما تبدو احتفالات الجامعة العربية حزينة ألمسها فى النغم الرتيب لأمينها العام ، فالعيب إذن ليس فى الرجل الذى يحتل الموقع الأول هنا وهناك ، وإنما فى الهياكل التنظيمية والقانونية التى تنبع من مفاهيم وقيم ثقافية تبلورت فى الصياغة لكل من المواثيق التى تحكم كلا من التنظيمين العالميين .



وعلى الرغم من إننى لست من المتخصصين فى القانون الدولى ولا فى تحليل التشريعات والنصوص التى تحكم المؤسسات العالمية، ولكن الصياغة العامة لميثاق الأمم المتحدة كانت تحمل بين طياتها قواعد التطوير والتصحيح الذاتى فضلا عن سبل فك المنازعات من خلال إدراك وفهم للقوى السياسية القابضة على مفاتيح اتخاذ القرارات الكبرى ثم كونت عشرات الهيئات والتنظيمات الدولية فى جميع المجالات ، ولعل أبرزها مجال البيئة ، وقد تربع على قمته مصرى بارع هو الأخ العزيز د. مصطفى كمال طلبه ثم فى مجال التنمية الصناعية وتربع على قمته (وربما كان من منشئيها) أستاذنا د. إبراهيم حلمى عبدالرحمن ، ثم كانت المنظمة العظيمة للتربية والثقافة العلوم التى اشتهرت اختصارا باسم «اليونسكو» والتى لاننسى أفضالها علينا فى مصر ، ومساهمتها المالية والفنية فى إنقاذ المعابد التى كانت ستغرق مع

انشاء مشروع السد العالى، وعلى قمتها اشهر معبد فى العالم قاطبة تلك الدرة الفريدة المحفورة فى قلب الجبل وتعرف باسم معبد أبوسمبل وبفضل المثابرة والمبادرة من منشىء وزارة الثقافة فى مصر المفكر المبدع د. ثروت عكاشة .

وفى ذات الحقبة تمت صياغة ميثاق الجامعة العربية من عشرين مادة تتضمن الأمانى الطيبة لتؤكد أن لا قرارات إلا بالإجماع وكأننا نبنى تنظيما رومانسيا عاطفيا ، ولذلك لم نتوقع تضارب المصالح فصار حتما أن آليات الخلاف لاتحل إلا بالحرب أو بتجميد نشاط الجامعة العربية وهو ماتم بالفعل عدة مرات كما لو كانت مصالح الشعوب المتضاربة هى خصومات بين أفراد عائلة واحدة ، وتحل بالطابع القبلى ، وعلى الرغم من اقرار معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى عام ١٩٥٠ أصبحت هذه النصوص مجرد عبارات جوفاء غير قابلة للتطبيق ونتغنى بها وقت اللزوم ومن ثم أصبح الهيكل التنظيمى والفكرى فى حاجة إلى إعادة النظر أو ما يسمونه بالعمرة الجسمية .

ولعل الاحتفالية التى تأثرت بها - وكانت الدافع لأن أكتب هذه الخواطر - هى تلك التى قامت بها جامعة القاهرة تحية للجامعة العربية ، ومن عجب أن رئيس جامعة القاهرة - وهو أستاذ فاضل ومتخصص فى القانون الدولى وهو د. مفيد شهاب - أدرك بحسه الداخلى أن الجامعة العربية (وكل منهما تصادف أن يحمل اسم

الجامعة بمفاهيم مختلفة) فى حاجة إلى حماية ، فكان أن أهدى الجامعة العربية «درع» جامعة القاهرة ، لأنها أقدم وأعرق وربما أكثر فاعلية وتأثيرا فى كل من المجتمع المصرى والعالم العربى علي حد سواء، فكثير من قيادات العالم العربى تلقوا العلم والمعرفة فى جامعة القاهرة وياليتهم حملوا قيما ومفاهيم أكثر فاعلية .

ومن ثم فرضت القضية نفسها على الواقع المعاش لمناقشة مستقبل ومصير الجامعة العربية ، وهو أمر تناقشه على استحياء كواليس الجامعة العربية ذاتها ، مما يحمل معنى أن فاعلية الجامعة العربية فى ٥٠ عاما كانت محدودة للغاية ، لأن المنطقة العربية قد مرت بحروب رئيسة ثلاثة جاءت لتحمل معها شروخا عميقة – وكأنها زلازل – تصدعت من خلالها بنية الجامعة العربية حتى النخاع . ففى حرب عام١٩٦٧ ، لم تستطع الجامعة العربية أن تكون آلية التنسيق بين الدول العربية المختلفة والتى كان يتظاهر بعضها بالسعى نحو الوحدة ، بينما كانت هناك محاولات تآمرية تحتية تهدف لتفجير النظم التى كانت مؤهلة للقيام بالوحدة.

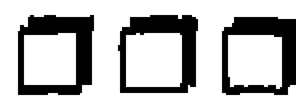
ثم جاء الانتصار فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان من أهم نتائجة تغيير الموازين العسكرية فى المنطقة ثم البدء في مسلسل المفاوضات المضنية الطويلة ابتداء من اتفاق فك الاشتباك عند الكيلو ١٠١ على الطريق بين القاهرة والسويس عام ١٩٧٣ إلى

المفاوضات بين سوريا وإسرائيل في أمريكا والتى تجرى حتى الآن عام ١٩٩٥ .

علي أن أهم آثار حرب ١٩٧٣ الاقتصادية والاجتماعية كان ارتفاع أسعار البترول بشكل مجنون غير متوقع وغير مسبوق زاد من ارباح ومدخرات العرب فخطط بذكاء لضرب العرب بالعرب عندما اتضح أن العالم العربى قد انقسم إلى مجموعتين من الدول: الأولى هي دول قليلة العدد واسعة الثراء من خلال عوائد البترول ، ويقابلها مجموعة ثانية العدد محدودة أو معدومة الموارد ، وهو خلل استراتيجى غير موجود فى مجموعة الدول الأوروبية مثلا ولم تستطع الجامعة من خلال آلياتها ومواثيقها العاطفية الرومانسية أن تجد حلا يحقق التوازن السياسى والاقتصادى الذى كرس الشرخ نتيجة هذه التفرقة ، ولو وجدت آلية التنمية الشاملة فى المنطقة بدلا من اهدار الموارد المالية البترولية التى رحلت إلى استثمار فى أوروبا وأمريكا - وفى البذخ لخفت حدة الصراعات فى المنطقة .

ولعل أخطر هذه الشروخ فى الجدار العربى ما جرى عام ١٩٩٠ عندما اجتاح صدام حسين دولة الكويت دون إدراك لعواقب الأمور ، فاكتشفت دول الجزيرة العربية أن حمايتها هى عند الغرب، وليست فى مواثيق الجامعة العربية ، ومن هنا كان حتما أن يظهر من ينادى بإعادة النظر فى دور الجامعة العربية فى ضوء

إمكاناتهـا ومـواثيـقـهـا وانه لامناص من البـحث عن أهداف استراتيجية تناسب العصر لتجعل مما تبقى من الجامعة (بما تحمل على أكتافها من خمسين عاما هو عبء عليها أكثر منه تاج يوضع على رأسـها) ، قـادرة على أن يكون بيدها المبـادرة وتقـود هذه المنطقة ويكون لها دور جديد فى العالم ، وألا يقتصر دورها - كما يحاول أمينها العام - على دعوة الدول الأعضاء «للمصالحة وتنقية الأجواء» أو إنشـاء محكمـة عربية تفض المنازعات فـهذه أهداف تصلح لعلاقات أسرية وعائلية وعلى أكثر تقدير قبلية ولذلك فى اجتماع وزراء خارجية الدول العربية الذى انعقد فى أواخر سبتمبر ١٩٩٥ أوجد حالة عامة من الاحباط .



إن العالم كله يجرى ولن ينتظرنا حتى تلتئم الجروح وتتقارب المشاعر فتتم المصالحة وإنما الدول كلها - بعلم وتخطيط - تسعى لتكوين كتل اقتصادية كبرى تمثل الكيانات التى ستحكم العالم فى القرن القادم .

وعلى كثرة ما يظهر على السطح من اتفاقات لمجموعات مختلفة فإن أهمها ثلاثة تكون بالفعل مجموعة النافتا والتى تضم الولايات المتحدة وتحت إبطيها كندا شمالا والمكسيك جنوبا ، وعندما تعرض الاقتصاد المكسيكى أوائل عام ١٩٩٥ إلى أزمة

كادت تعصف به ، اضطرت الولايات المتحدة أن تقف إلى جواره وإلا انهارت الكتلة الاقتصادية الأولى والتى تسعى أمريكا لتكوينها تدريجيا لتحتوى فى نهاية المطاف على الأمريكتين شمالا وجنوبا حتى وإن أدى ذلك – ولو لفترة محدودة – إلى الاهتزاز الشديد فى قيمة الدولار الأمريكى .

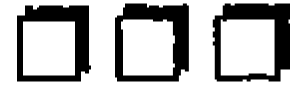
ثم هناك المثال العظيم للوحدة الأوروبية ، والذى بدأ حثيثا منذ أواخر الأربعينات وتم نضجه خلال مراحل مدروسة عبر ما يزيد على ثلاثين عاما ، خطوة خطوة باتقان شديد ، على الرغم من أنهم بالفعل شعوب مختلفة تتحدث لغات متباينة ، وكان بينها دم وثأر عبر حروب قديمة كان آخرها الحرب العالمية الأولى والثانية ، حول ما كان يسمى بالعداوة «التقليدية» بين المانيا وفرنسا ، وإذ بهما معا يصبحان الركائز الاساسية للوحدة الأوروبية ، والمتوقع انها ستحتوى دول أوروبا الشرقية تدريجيا ، ولا أجد أفضل من الخطوات المتتالية التى قامت بها مجموعة دول أوروبا الغربية لكى تكون هاديا ونموذجا تدرسه الجامعة العربية بدقة واتقان تحاول أن تحتذى به ، ليس بالنقل الميكانيكى لخطواته ، وإنما بتحويرها وما يناسب الثقافة والتقاليد والاعراف فى العالم العربى أى أن يكون الاساس فى التعاون هو المصالح الاقتصادية وتوسيع أرضية المناخ العلمى والتكنولوجى .

وهناك الكتلة الثالثة الأعظم التى تكونت في هدوء أيضا ودون ضجيج في الشرق الأقصى فهى لا تلوح أو تطرح شعارات الوحدة أو التباهى بالتراث ، حيث يرقد هذا التمساح الكنفوشى العظيم فى أقصى الشرق فرأسه فى اليابان والجسم فى الصين والأطراف فى الدول الناهضة والتى سميت «بالنمور» ممثلة فى كوريا وهونج كونج وتايوان وغيرها وحيث الذيل فى الجنوب مع أندونسيا وماليزيا وسنغافورة وكل منها نموذج فريد يحسن دراسته فريما نبتكر نحن أيضا نماذج جديدة للنمو الاقتصادى .

وفى اعتقادى - كما ناديت منذ سنوات - فان التوازن العالمى لن يتحقق مالم تكّون مجموعة اقتصادية رابعة وهى كتلة هائلة لها أهمية عظمى من خلال الموارد البشرية والمقومات المالية والاقتصادية وغير أنها للأسف كتلة مفككة حضاريا إذ تشمل مجموعة الدول التى تمتد من مجموعة الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى ثم تمتد جنوبا لتشمل إيران وأفغانستان وباكستان وشبه الجزيرة الهندية ، ثم تتوسع غربا لتشمل العالم العربى كله ثم افريقيا بأسرها .

وأتصور أن نواة هذا المشروع العظيم هى الجامعة العربية بالتعاون مع منظمة الوحدة الافريقية ومع ما تبقى من مجموعة دول عدم الانحياز ومجموعة السبعة والسبعين وغيرها . وفى كل

تلك المجموعات تقع مصر فى موقع القلب وهى ميزة كبرى لديها يمكن أن تستفيد منها.



إننى أدرك أنها مهمة شاقة بل لعلها عسيرة ولكنها ليست مستحيلة ، وربما تأخذ مراحل طويلة متعددة ومتعاقبة ولكن النواة والبداية تتكون من خلال الجامعة العربية ، فهناك مجموعة دول مجلس التعاون الخليجى وهى تمثل مصالح مشتركة وتركيبة ثقافية متقاربة إن لم تكن متطابقة . ثم هناك مجموعة دول الاتحاد المغاربى العربى وهى مجموعة مفككة لن يكون لها ثقلها إلا بانضمام مصر ، ثم لابد من استقطاب باقى دول الوسط (قلب الأمة العربية) والتى تفكك تنظيمها مع حرب الخليج عام ١٩٩١ ، وفى هذا الأمر - ليس من منطلق إننى مصرى - فان لمصر دورا خاصا فى تكوين هذه الكتلة الرابعة ، لما لها من موقع فى كل من مؤتمر الدول الاسلامية وعدم الانحياز ومنظمة الوحدة الافريقية ولكن يسبق كل ذلك موقعها - الخاص من الأمة العربية - كما هو معروف ومؤكد - وأتصور العالم العربى وكأنه خيمة كبيرة تقوم على عامود خشبى واحد أو أكثر يحمل قماش الخيمة فى مجملها ، فبدون العامود أو الأعمدة الخشبية تصبح قطعة القماش ملقى بها على ظهر سطح الكرة الأرضية ، كما أن الأعمدة الحاملة للقماش ستكون فى مهب الريح ان هى لم تحتم بقماش الخيمة .

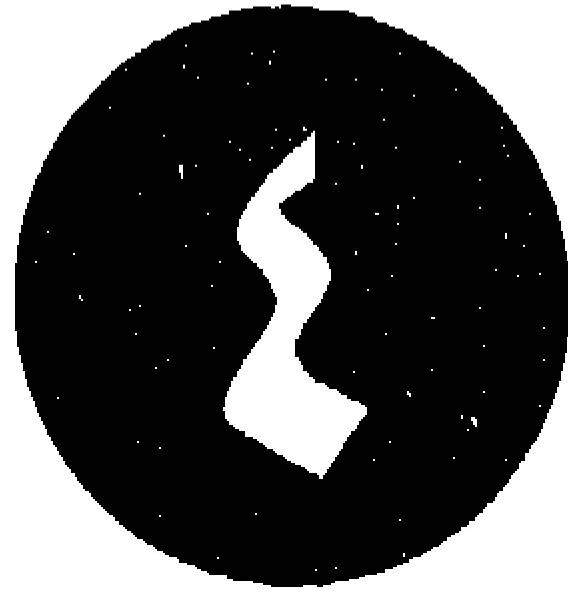
إن الجامعة العربية فى حاجة إلى وقفة طويلة تدرس ما فات لتشكيل خطة المستقبل ، ولتكن البداية فى شكل التعاون الثنائى المبنى على المصلحة الاقتصادية المشتركة وتبادل المنافع المحدودة والضيق والذى سيتسع مع الممارسة ثم فلنوحد الأرضية فى مجال الأمور العلمية والفنية مثل مجال المواصفات والمعايير القياسية حتى نتحدث فنيا وهندسيا بلغة العصر ، ولننقل من التباهى بلغة الشعر والخيال التى كانت أهم معالم الثقافة العربية حتى مطلع القرن العشرين ، وإنما نتحدث ونفكر بلغة الرياضيات والعلوم الفيزيائية والتقدم التكنولوجى فهذه كلها مفردات المعاملة فى القرن الواحد والعشرين.

إن قلبى مع الأخ العزيز د. عصمت عبدالمجيد فقد تبوأ موقع الربان فى وقت الأعاصير العاتية والرياح العاصفة من كل اتجاه ولكن غدنا سيكون أكثر إشراقا ، إذا وضعنا الخطط والمفاهيم التى تطور الجامعة العربية على نسق ما قامت به أوروبا فى المرحلة السابقة ، وها هى ذى تقرع بعنف أبواب الوحدة وتفتح الحدود بين بعض دولها ، بينما نحن نقاسى من الحصول على تأشيرات الدخول والخروج بسبب الجراح والخلافات الأيديولوجية فى وقت ندعى فيه أننا نتمتع بمقومات الأمة الواحدة المتماسكة .

دعنا نتـعلم من الصـين من أن رحلة الألف مـيل تبـدأ بخطوة واحدة ولكنها خطوة مدروسة تتلوها خطوات فى اتجاه تكوين كتلة رابعة عالمية تقيم التوازن وقد يكون ذلك عام ٢٠٢٠ .

ولأهمية دور مصر فى خلق الكتلة الرابعة - كما سبق القول - لذلك أفردنا لها دراسة خاصة تحت عنوان «خصوصية مصر».

دعنا نقطع هذا التسلسل الفكرى للأحداث بنقد نظرية غربية خبيثة كان لها مفعول السحر فى إفساد حلم العالم العربى ما بعد عـام ٢٠٠٠ وهى نظرية صـمـوئيل هـانتـجـتـون والتى طرح مـقـولة «حتمية صراع الحضـارات» وصـدامـهـا فـى المرحلة القـادمـة بعـد تفكك الاتحاد السوفيتى ، ثم نقدم بدلا منها نظرية أو مقولة لكاتب هذه السطور مبنية على خبرة مـصـر فى العـلاقـة الحـمـيـمـة بين المسلمين والأقباط فيما اسميته فى دراساتى السابقة وأكدته فى هذه الدراسة تحت مسمى «ثقافة الموازييك» وهو الطرح النظرى الوارد فى الفصل القادم .



من نظرية «صراع الحضارات» الغربية إلى مفاهيم «ثقافة الموزاييك» العربية

يعج العالم بمئات الألوف من العلماء والمفكرين والمبدعين فى جميع التخصصات، وينتشرون من خلال قدراتهم على صياغة بحوثهم وأفكارهم فى شكل «أوراق» تقدم وتنشر - من خلال تحكيم وتقويم - فى مجلات محلية أو إقليمية أو عالمية متخصصة.

وبين الحين والآخر يستوقف نظر وسائل الإعلام بعض البحوث العلمية أو الفكرية التى تهم قطاعات أوسع من البشر. فنعرف مثلا أخبار «غزو الفضاء» أو الجديد فى مجال الهندسة الوراثية أو الانجازات الطبية مثل احتمالات السيطرة على السرطان أو الإيدز وما أشبه.

وفى هذا الصدد، تختلف بحوث ودراسات العلوم الفيزيائية أى الخاصة بالطبيعة والكيمياء والأحياء والرياضيات وما إليها ثم كل تطبيقاتها فى الزراعة والطب والهندسة أى «التكنولوجيا»، نقول، تختلف كل تلك المجموعة عمّا يقابلها مما أصبح يشار إليه «بالعلوم الإنسانية» أى المرتبطة بالإنسان من الأدب والفن والتاريخ والقانون والفلسفة والاجتماع والعلوم السياسية وما إليها، فى أن مجمل المجموعة الأولى يناقش بشكل موضوعى مجرد ومحايد لأنه يبدع ويدرس قضايا علمية - وأحيانا معملية - بعيدة عن الذات،

* الدراسة التفصيلية موضحة بالكراسة الاستراتيجية رقم ٣٠ والصادرة عن مركز الدراسات السياسية «بجريدة الأهرام» بعنوان «صراع الحضارات والبديل الإنسانى» فى يونيو ١٩٩٥

لذلك لانسمع عن خلافات حادة داخل هذه المؤتمرات أو من خلال الحوارات المكتوبة عبر المجلات المتخصصة إلا نادرا، بينما الخلافات في الرؤى والبحوث يمكن أن تكون حادة في مجالات العلوم الإنسانية لأن جزءا منها ينبع من «الذات» أي يحمل الفكر «الشخصي» لصاحب الدراسة أو البحث، لذلك نجد المناقشات والحوارات في المؤتمرات أو التجمعات أو المجلات التي تبحث هذه القضايا في العلوم الإنسانية قد تكون حادة وربما صدامية، ولأن معظم العلوم الإنسانية تكون في متناول وقدرات المثقف العادي لذلك تتحول الخلافات حولها لتكون موضع اهتمام عام.

ومنذ أن عرفنا الأسماء اللامعة في القرن الثامن عشر ومابعده مثل باستير وفاراداي ونيوتن وداروين وانشتين وقبلهم جاليليو وغيرهم كثيرون في مجال العلوم الفيزيائية ثم جان جاك روسو وفولتير وتولوستوي وديكارت وبرنارد شو وآدم سميث وإليوت وفرويد وفيبر وغيرهم، لا أعتقد أن أحدا من علماء الإنسانيات عموما وقضايا فلسفة الفكر السياسي خصوصا - وفي إطار العقود الأخيرة من القرن العشرين - قد اشتهر عالميا مثلما اشتهر د. صموئيل هانتجتون استاذ الفكر السياسي في جامعة هارفرد بسبب نشره مقالا أو «بحثا» جاء بشكل هادئ وبسيط في مجلة تخصصية أمريكية اسمها «فورن أفيرز» أي «الشئون الخارجية» وذلك في صيف عام ١٩٩٣ واختار لها عنوان «صراع

الحضارات» فصارت هذه العبارة وكأنها شعاراً لمرحلة مابعد الحرب الباردة.

فمنذ أن طرح داروين نظرية «البقاء للأصلح» من خلال الصراع بين الكائنات الحية وعوامل البيئة والظروف المناخية وما إليها، حاول علماء الإنسانيات اكتشاف نظريات مماثلة تفسر أسباب تطور المجتمع من خلال أنواع «الصراعات» المختلفة إذ أكد هيجل أولا أن «الحياة صراع بين أضداد» ومن خلال ذلك تتحرك وتتطور المجتمعات البشرية ولعل الأديان - فى مجملها - تنادى بأن الصراع الرئيسى هو بين الخير والشر ثم تقدم قيما ومفاهيم تسلح الفرد والجماعة لمقاومة الشر بالخير.

وخلال القرن التاسع عشر حاول كارل ماركس أن يقدم تفسيره بأن محرك التاريخ هو «صراع الطبقات» وتحول الفكر النظرى إلى واقع معاش وجسدت الحركة النقابية للعمال هذا المفهوم فى الصراع مع الطبقات البرجوازية الثرية فى انتخابات مثيرة فى أوربا الغربية ثم حولها لينين من خلال تطوير النظرية فحولها إلى حركة ثورية كان نموذجها الأقوى فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩١٧.

واستمر الصراع بين الايديولوجيتين، أعنى الليبرالية الغربية والشيوعية السوفييتية حتى حسم الصراع عام ١٩٨٩ بسقوط حائط برلين ثم تفكك الاتحاد السوفيتى، وبعدها اتضح أن هناك

فراغاً فكرياً وأيديولوجياً، فبادر فرانسيس فوكوياما بسرعة وعلى عجل بنشر كتابه «نهاية التاريخ» كتطوير لفكرة أقدم طرحها عالم أعمق وأسماها «نهاية الأيديولوجيات» اذ كانت نظرية فوكوياما مجرد بهجة واحتفال ليؤكد أن السيطرة كانت وستستمر للفكرة الليبرالية والديمقراطية وآليات السوق، وستظل كذلك إلى «نهاية التاريخ» فإنطفأ وهج فوكوياما بسرعة.

وفى تلك اللحظة «المناسبة تاريخيا» طرح أو «فجّر» هانتجتون مقالا يحمل نظرية فى برشامة بعنوان «صراع الحضارات».

ونظر المفكرون والمنظرون حولهم وإذ بالصراع الدامى فى يوجوسلافيا بالذات يؤكد النظرية، فهى نقطة تلاقى ثلاث حضارات هى: الحضارة الغربية ذات الجذور الكاثوليكية البروتستانتية مع الحضارة المسيحية الشرقية ذات المفاهيم الأرثوذكسية مع الحضارة الإسلامية، فاكتسبت نظريته شهرة عالمية وبالذات فى العالم العربى والإسلامى لاستفزاز مفاهيم هذه النظرية ومعاداتها للإسلام.

وتتلخص أطروحة صموئيل هانتجتون فى أفكار رئيسية كثيرة - يحسن أن نلخص أفكارها الرئيسية فى أسطر قليلة حتى يمكن طرح «مسودة» لأطروحة بديلة نابعة من عالمنا العربى:

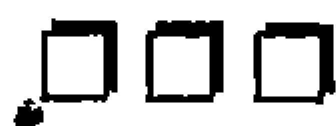
● تتمايز الحضارات واحدة عن الأخرى فى التاريخ والمفاهيم والثقافة والقيم والدين واللغة. وهذه الفروق كلها أو بعضها أقوى من الاختلافات السياسية أو الايديولوجية.

● إن الانقسامات الكبرى سوف تكون ثقافية وستتحول النزاعات الأساسية لتكون بين أمم (أو مجموعات من الأمم) ذات حضارات مختلفة، ومن ثم سيسيطر على العالم «صراع بين الحضارات» وأن خطوط المعارك ستكون عند الحدود أو خطوط التماس بين هذه الحضارات، وأن التفاعل الرئيسى سيكون بين سبع أو ثمان حضارات هى: الغربية، والكنفوشية، واليابانية، والإسلامية، والهندية، والسلافية الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية وربما الأفريقية.

● سيضعف دور الدولة كمصدر للهوية وسيحتل ويستغل الدين هذا الضعف لتظهر وتنمو حركات توصف بـ «الأصولية»، فيصبح الدين عاملا أكثر أهمية من الإحساس بالهوية أى أن الدين سيتجاوز الوطنية ليكون أحد عوامل تجميع الحضارات.

● لقد أصبح الغرب فى أوج عظمته وقوته ، مما سيدفع الحضارات غير الغربية للبحث عن جذورها الحضارية، وصار هناك تبديل وتعديل للمواقف، فقد كانت الفئات الشعبية متشبثة بجذورها الثقافية، فإذا بالموقف يتبدل ويتحول من نقيض إلى آخر، فتصبح النخبة أكثر تشبثا بجذورها الثقافية وتصبح الممارسات والعادات الغربيـــة أكـثر قبولا وربما انبهارا فى أوساط العامة، وتحـــول الدين لكى يكـون فاصـــلا بين الأفراد بصورة أكثر من أى فروق أخرى، بما فى ذلك الانتماء العرقى.

ويخلص هانتجتون من كل ذلك إلى أن خطوط التماس بين الحضارات ستحل محل الحدود السياسية أو الايديولوجية التى كانت قائمة خلال حقبة الحرب الباردة وأن أخطر هذه الصراعات بين الحضارات هو ما بين الاسلام والغرب . ثم يركز هانتجتون على أن أكثر النزاعات توترا وعنفا تتمثل فى الخطوط الفاصلة مع الحضارة الإسلامية ممثلة فى شكل الهلال الممتد فى الدول الإسلامية من أفريقيا حتى آسيا الوسطى وكذا يمتد الصراع ليشمل الحرب بين المسلمين من ناحية وبين الصرب الأرثوزكس فى البلقان ثم مع اليهود فى إسرائيل ومع الهندوس فى الهند والبوذيين فى بورما ومع الكاثوليك فى الفلبين، وفى النهاية يلقى هانتجتون بالقفاز فيختم ذلك الفصل بمقولة: حقا إن للإسلام حدودا دموية!!



ومنذ أن فجر هانتجتون نظرية «صراع الحضارات» بدا الأمر وكأن هناك إتفاقاً مسبقاً فى دول الغرب وبأن هذه النظرية بمثابة الصفارة التى تعلن البدء بالتحرك وتم بالفعل بعدها مسلسل هائل من المنظرين الأقل أهمية، ومن خلال وسائل الاعلام المختلفة، تثير نزعات ونعرات الكراهية للإسلام. ففى فرنسا هناك مثلا ملايين من المواطنين الذين تعود جذورهم إلى تونس والجزائر والمغرب، وقد عاشوا هناك لعشرات السنين وحصلوا بالفعل على الجنسية

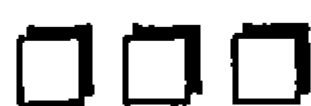
الفرنسية ويشاركون فى الانتخابات على أنواعها ولرأيهم وزن يعمل له المرشحون ألف حساب.

وكان من نتيجة ذلك أن حركات وأحزاباً سياسية تحمل قيما فاشية تثير الكراهية ضد المسلمين. وتحصل هذه الأحزاب نتيجة لذلك على نسبة ليست قليلة من الأصوات مما يعنى أن لها تأثيراً فى المجتمع الفرنسى.

ويحدث ذات الشىء فى ألمانيا ضد الأتراك، وفى معظم دول أوربا الغربية توجد حملات فى كل وسائل الاعلام تبث الكراهية ضد المسلمين والإسلام مستفيدة من أخطاء حركات التطرف والإرهاب ومن ينشرون قيما سلفية لاتتفق مع العصر. ولكنهم فى مجملهم يعرضون وجها واحدا من الاسلام على الرغم من ثراء التاريخ الاسلامى بنقط مضيئة كثيرة.

ومن عجب أن ذات الدول الغربية - وبزعامة الولايات المتحدة الأمريكية - كانت - ومنذ منتصف الخمسينيات - قد تحالفت وشجعت الحركات والأفكار الأصولية الإسلامية (وكذلك المسيحية واليهودية) كجزء من مخطط جون فوستر دالاس عندما كان وزير خارجية أمريكا والذى ابتكر مبدأ أن الأديان - فى مجملها - هى التى ستقاوم «الإلحاد» الشيوعى ثم أكد مفهوم أن الإسلام بالذات يحمل أفكار «الجهاد ضد الشيوعية»، وهو الأمر الذى تم تنفيذه بتجنيد آلاف المتطوعين المسلمين المتعصبين ورتب لهم السفر

والتدريب والتمويل لكى ينضموا إلى مجاهدى أفغانستان فى حربهم «المقدسة» ضد السوفييت «الملاحدة»، ومن عجب أيضا أن يكون هؤلاء المجاهدون المتطوعون من جميع أرجاء العالم العربى، هم مصدر المتاعب - حاليا ومن سنوات - لأنهم صاروا نواة التطرف والإرهاب فى معظم أرجاء العالم العربى من الجزائر غربا إلى الأردن والجزيرة العربية شرقا. ومن ثم صار الصراع «عربيا - عربيا» أو إسلاميا - إسلاميا كما فى أفغانستان، مما يعنى أن نظرية «صراع الحضارات» ليست بالضرورة صحيحة أو تستند إلى أساس واقعى ومنطقى سليم.



ومن هنا ظهرت - من وجهة نظرى - الحاجة لنقد ومواجهة نظرية هانتجتون، والتى تبدو أنها تحقق غايات وطموحات السياسة الأمريكية والتى تعتمد - أول ماتعتمد - على ضرورة خلق و«ابتداع» عدو خارجى يهدد «الحضارة» والقيم الأمريكية عموما والغربية خصوصا، ولذا طرح هانتجتون نظريته أو رؤيته - وفى ضوء معطيات الصراعات الحالية - فى أن يرشح الإسلام ليكون العدو المنتظر للغرب، ثم ذهب إلى مدى أبعد - كعقلية فلسفية استراتيجية - فى أن يتنبأ بتحالف بين الإسلام والكنفوشية مجتمعين ومتعاونين فى مواجهة الغرب حتى كتب كثيرون وقعوا فخ رؤيته أن العالم سيتحول إلى صراع بين الغرب واللاغرب..!

وتشاء الظروف أن تظهر وجهات نظر فكرية ناقدة لنظرية هانتجتون وأن يكون معظمها من مفكرين لهم جذور عربية وينتمون إلى ديانات ومذاهب مختلفة فيقدمون فكرا ناقدا يهدف إلى نزع فتيل العداوة التى يشتد لهيبها يوما بعد يوم. ولهذا الأمر دلالته التى لاتخفى على أحد، ويبدو أنه كما ظهرت الأديان الرئيسية الثلاث من الشرق العربى ربما ينجح الفكر العربى فى نزع فتيل الكراهية والحقد والتى ربما تقود إلى حروب وفق نظريات صادرة من الغرب!

يذهب عبدالله العروى إلى أن كل المفاهيم التى يمكن أن تفجر الصراع قد استهلكت مثل اللغة والدولة والقومية والامبراطورية والايديولوجية، ولذا لم يعد أمام هانتجتون إلا مفهوم الثقافة كمصدر للصراع، ويستطرد عبدالله العروى نقده على أن مفهوم الثقافة غير واضح وان هانتجتون قد اعتمد على ارنولد توينبى وأن توينبى ذاته قد اعتمد على شبينجلر، فقد عجز توينبى عن تعريف «الحضارة الإسلامية» لكى يميزها عمّا سبقها من حضارات فارسية وبيزنطية. ومن ثم فإن هانتجتون ينطلق من مفهوم غامض غير ملموس عن الحضارة والثقافة لبناء تحليلات سياسية يفترض أنها وصفية ومطابقة للواقع، فقد اعتمد هانتجتون على أمثلة ونماذج انتقائية للغاية، ثم تخلص عبدالله العروى إلى أن «هذا الضعف النظرى فى أطروحة هانتجتون يؤثر بعد ذلك على كافة الخطوات التى سار عليها».

أما المفكر ادوارد سعيد (وهو أمريكي له جذور عربية قوية مع انتماء مسيحي) فيرى ان هانتجتون قد استخدم مفاهيم مطاطة ذات حدود شاسعة مثل «الحضارة» و«الغرب»، وكأن الحضارة الغربية كيان واحد، فهناك بالفعل عدد من الحضارات الغربية وينطبق نفس المقولة على الاسلام. فهناك حوار واسع حول معنى الإسلام بين فئات دينية وسياسية مختلفة، وأن حصر الثقافات في مفاهيم ضيقة يعتبر من الأخطاء الكبيرة التي ارتكبت في فكر القرن التاسع عشر وأدت إلى مواقف سياسية قوية عنصرية. ان هانتجتون يعتمد على آراء ومصادر ثانوية وصحفية وسطحية، وليس على دراسة دقيقة لواقع الحضارات والثقافات، ويدعو هانتجتون إلى هيمنة حضارة واحدة محددة على الحضارات الأخرى ويرسم في هذا الإطار خريطة مبسطة للواقع. فيعقد الخلافات الحضارية بدلا من أن يخففها.

والمنظر السياسي د. فؤاد عجمي (وهو أمريكي من أصل عربي شيعي) يطرح رؤيته الخاصة بظاهرة الأصولية - وبالذات الأصولية الإسلامية - وكيف أنها تعبير عن الذعر والارتباك والاحساس «بالذنب» من أن الحدود مع «الآخرين» قد تم عبورها، كما انها تمثل ردا على أخطاء وتجاوزات الغرب وقد لاتكون الأصولية هنا علامة على الانبعاث. فقد تمثل الأصولية ردا على أن العادات القديمة قد فقدت قدرتها على البقاء. ولذا فإن التقاليد قد

تصبح أكثر إلحاحا وأعلى صوتا عندما تتحطم وحينما لايعود الأفراد يؤمنون بها حقا».

ومن كل هذا، فإن ما يطرحه هانتجتون من حتمية الصدام والصراع بين الحضارات عموما، وبين الغرب والإسلام خصوصا. لايعدو أن تكون فكرة تود أن تتبناها الجهات صاحبة القرار فى المجتمع الأمريكى بهدف إذكاء روح العداء بين الغرب والإسلام وكأن الحضارة الغربية غير قادرة على التقدم والإنجاز إلا فى ظل الإحساس بوجود عدو ما ، وتتجاهل هذه النظرية تلك العداوة التقليدية بين ألمانيا وفرنسا والتى أمكن التغلب عليها مما ساعد على انشاء «الاتحاد الأوروبى» فأمكن احتواء الصراعات التقليدية بين معظم دول أوربا الغربية وهو الأمر الذى نسعى إليه بتقديم البديل الإنسانى من خلال مفهوم وممارسات «ثقافة الموزاييك».

ولماذا أذهب بعيدا واتجه فى التنظير عند علماء الغرب، إننى انظر حولى فأجد كيف استطاع الأقباط والمسلمون فى مصر، أن يوجدوا الصياغة الثقافية المناسبة للمعايشة السلمية وبحيث أصبحت من المقومات الرئيسية للتقدم والحضارة فى مصر فى العصور الحديثة استطرادا لحضارة قديمة تمتد إلى آلاف السنين استطاعت خلالها مصر أن تستوعب كل الحضارات التى تفاعلت وتعاملت معها لتكون بوتقة من الأجناس فى حضارة واحدة

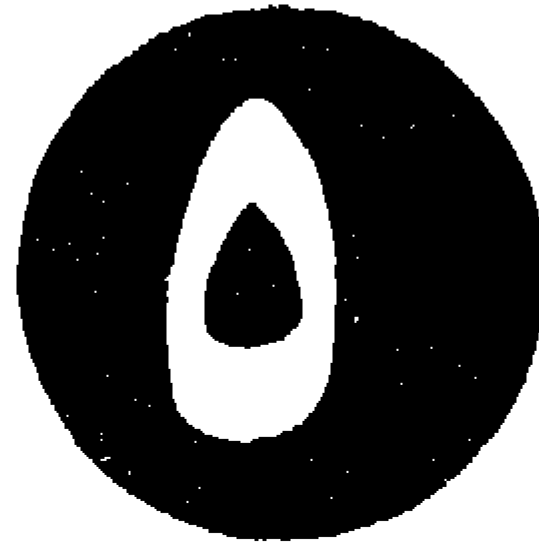
مازالت تلعب - رغم كل الصعوبات - دورا فى العالم الحديث من خلال التعددية الدينية بتقديم نموذج «ثقافة الموزاييك».

إن للأقباط خصوصيتهم والتى يستمدونها من تمسكهم بالتراث الفرعونى والعقيدة المسيحية التى تحمل عقائد وتراثا وفكرا مركبا وليس مسطحا فانعكس ذلك على شخصية قادرة على التحليل ومعالجة قضايا العصر المركبة والمعقدة أيضا. وفى ذات الوقت هناك معايشة كاملة مع المسلمين حيث التمسك بالعقيدة الإسلامية ولكن من منظور مصرى استوعب الفرعونية والقبطية من ناحية التراث والقيم، إذ استطاع المسلمون فى مصر أن يستوعبوا المذاهب المختلفة من سنة وشيعة فسوف تتكون من ذلك سبيكة اسلامية فريدة. مقبولة. - وليس من الأقباط فحسب - ولكنه مقبول من الفكر العالمى المتوازن وذلك بشهادة كل الأجانب والعرب الذين أقاموا فى مصر ووجدوا إسلاما مختلفا فهو مرحب وقابل لمبدأ المعايشة مع التنوع الحضارى والإنسانى كظاهرة طبيعية كونية.

مجمل القول ، هو أن حالة القلق والتشرذم مقرونة والتى تسود عالم مابعد تفكك الاتحاد السوفييتى، فى حاجة إلى جهد نظرى وفلسفى وفكرى، أراه يتمثل فى مجموعة نظريات تعج فى العالم الغربى معظمها يهدف إلى سيادة الحضارة الغربية، ولعل صموئيل هانتجتون بأفكاره يمثل بوضوح وصراحة أحد النماذج

الفجـــة لذلك، بينما أرى ان العديد من المفكرين من أصل عربى (ومن مخـــتلف الأديان والمذاهب) ربما يكونـــون فى مجملهم وعلـــى شتى مشاريبهم حاملين لأفكار أكثر انســـانية وأكثر تفهما لطبيعة البشر ومعطيات الحياة، فيقدمون وجبـــات فكرية من مفاهيم مختلفة، كلها تحـــمل خبرات انسانية لإمكانية المعايشـــة والتعـــاون بين البشر بالتعرف على الأرضية المشتركة والبعد عن نقط الخلاف لأن احدا مـــنا لم يختر وطـــنه أو لون بشرته أو ديانته أو مذهبه أو حتى ذكائه أو ثرائـــه ولذلك فإن اثارة النعرات الموروثة لاتقـــدم إلا كراهيـــة وحقدا ينتهـــى إن عاجلا أو آجلا إلى الحرب والقتال. بينما المفاهيم الإنسانية تكتشـــف الخواص الحضارية المشـــتركة فتقدم كل مجـــموعة بشـــرية ما لديها من خبرات وقيم ومفاهيم فتكـــون فى مجموعـــها «ثقافة الموزاييك».

ولن تجد أفضل من توضيح « نظرية الموزاييك» إلا فى مصر والتى لها خصوصيتها التى نطرحها فى الدراسة القادمة حيث يجد القارىء المصل الواقى لمصر من خلال هذه الخصوصية التى تحميها من الأعاصير والرياح القادمة من حولها.



خصوصية مصر

الإنسان - فى أى موقع من العالم - كائن مجتمعى لايستطيع أن يعيش طويلا بمفرده - ولابد له أن ينتمى إلى جماعة تمارس حرفته أو مهنته. وعندما يتعلم ويعى قد ينتمى إلى حزب أو ايديولوجية وفق ذلك كله وقبله فإن كلاً منا «يرضع» لبن الانتماء الدينى فى مرحلة الطفولة. وقد تنمو أو تضمر وفق الظروف المحيطة او التركيبة النفسية والتى تختلف من فترة إلى أخرى ومن قطر إلى آخر ومن شخص إلى شخص.

ومن الناحية الجغرافية، ينتمى الإنسان الريفى إلى قريته ثم «يتضخم» الانتماء فيصبح عضوا فى رابطة أبناء المحافظة ولكن الغالبية تعبر هذه الانتماءات الجغرافية الصغيرة لكى يكون انتماؤها إلى الوطن كله وهو عادة أقوى الانتماءات.

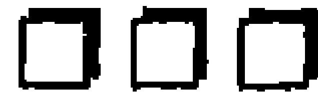
ويسجل التاريخ كيف أن معظم الصراعات السياسية - وأحيانا الحروب - تبدأ بخلافات قبلية عرقية أو دينية أو مذهبية.

وعندما ظهرت الماركسية فى منتصف القرن الماضى. أرادت أن تقدم «الانتماء الطبقى» على كل الانتماءات الأخرى لذا طرحت فكرة أن الصراع الطبقى هو محرك التاريخ. وبعدها تأسس الاتحاد السوفييتى عام ١٩٢٢ ليربط جميع الولايات التابعة لقيصر روسيا . فدعا المواطنين السوفييت لكى يتجاوزوا الانتماءات السابقة والتى كانت تشمل قوميات وأجناسا مختلفة وصاروا جميعا - من الناحية الدستورية - كأسنان المشط متساوين فى

الحقوق والواجبات لافرق بين أرثوذكسى وشيعى أو بين أوكرانى وأذربيجانى.

ولسنا بصدد فحص الأسباب والمبررات والظروف التى أدت إلى تفكك الاتحاد السوفييتى فهذه قضية تتردد بين صفحات الكتاب فى مواقع كثيرة نظرا لأهميتها فى تشكيل مابعد عام ٢٠٠٠، ولكن مايعنينا فى هذا المقام هو فحص كيف أن الزلزال الذى حدث هناك، قد أعاد إلى الأذهان قوة وعمق الانتماءات القديمة أى تلك التى كانت موجودة فى القرن الماضى، وإذ بها تعود وكأنها كانت طاقات مكبوتة فانطلقت إلى السطح وتحولت الى صراعات وأحقاد مثلما حدث بين أذربيجان وارمينيا كامتداد لمذابح الأرمن فى تركيا ثم القتال بين روسيا الدولة الكبيرة والشيشان الدولة الصغيرة والتى كانت تابعة لها فإذ بالصراع يبدو وكأنه يحمل رائحة القهر الدينى وكنا قد تصورناه من مخلفات العصور الوسطى، ثم ظهرت مشكلات الأقليات التى كان من المتصور أيضا أنها قد ذابت واختفت خلال الحقبة التى سيطر فيها الفكر الماركسى، وإذا بنا نسمع عن أقليات من أصل ينتمى إلى رومانيا فى روسيا، ويقابلها أقليات روسية فى لتوانيا وما إلى ذلك حتى اضطرت الأمم المتحدة لإقرار ميثاق حقوق الأقليات فى ديسمبر عام ١٩٩٢.

وكانت قمة المأساة هو مايجرى من صراعات «دموية» فى يوجوسلافيا حيث امتزجت الصراعات العرقية مع الخلافات الدينية وحتى المذهبية أى بين الكاثوليك والارثوذكس، ثم ما تم من تفكك «سلمى» فى تشيكوسلوفاكيا وأصبحت أوروبا - وكما كان حالها فى القرن الماضى - تعج بكل أنواع التناقضات فهناك الوحدة فى غربها وتفجرات التفكك فى شرقها.



دعنا نتجاوز بسرعة مايجرى فى العالم من صراعات بين الانتماءات عرقية ودينية ومذهبية فقد زاد عددها حتى أصبح لايعد ولايحصى، لكى نعود إلى مصرنا الحبيبة، لنتدارس التساؤل المطروح الآن على كل لسان: هل من الممكن لمصر أن تعبر هذه الحقبة - وإلى أن يستقر العالم فى أوضاع جديدة مع بداية الألفية الميلادية الثالثة - هل ستؤثر التفجرات العرقية أو المذهبية على الاستقرار والأمان الاجتماعى، خصوصا بعد أن طرح على الرأى العام كل مايتعلق بالإرهاب والعنف حتى تناولت بعض الأقلام مخططات وهمية تقسم مصر إلى أربع دويلات. نقول : إن الاجابة عن هذا التساؤل المحورى تكمن فى أن لمصر خصوصيتها التى تنفرد بها على معظم الحضارات والأمم والقوميات الأخرى.

وفى هذا الشأن هناك معالم كثيرة لخصوصية مصر. نلقى الضوء فى عجالة على بعضها:

① - إن مصر - منذ أن وحدها الملك مينا نحو عام ٣١٠٠ قبل الميلاد - كيان مجتمعي واحد بحدوده الجغرافية الحالية. ومن ثم فهي - كما هو معروف ومؤكد - أقدم دولة في العالم، وتوافرت لها ظروف تاريخية جغرافية غير متكررة * .

وهي - في هذا الأمر - تختلف عن الكثير من الكيانات الأخرى المجاورة، فاستمرت مصر - حتى في عصور القهر والغزو - ولاية لها كيانها الواحد دون تجزئة سواء أكانت تابعة لامبراطوريات قديمة مثل الامبراطورية الرومانية أو البيزنطية أو حديثة مثل الامبراطورية العثمانية أو البريطانية. إذ لم تنقسم أو تنشطر ولم تتداخل أو تمتزج مع غيرها - كما حدث في بلاد الشام او ليبيا أو العراق أو دول الجزيرة العربية أو معظم دول أوربا او أواسط افريقيا السوداء فمعظمها لم تأخذ شكل الدول المستقلة ذات الحدود الثابتة إلاّ في القرن العشرين. ومن النادر وجود دول ذات حدود ثابتة ومستقرة مثل مصر على الرغم من وجود خلافات غير جذرية مثل الحدود عند الخط ٢٢ ومشكلة حلايب أو عند طابا أو غيرها.

② - إن مصر ليست وحدة جغرافية فحسب، وانما هي ايضا وحدة تاريخية وعريقة بمعنى ان شعب مصر هو شعب واحد بكل

---

* لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتاب المؤلف «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» إصدار دار الهلال - القاهرة.

المقاييس، على الرغم من ،انه - بحكم الموقع الجغرافى - قد امتزج مع أجناس وشعوب أخرى كثيرة، فعبر الزمان واختلط مع الهكسوس واليونان والرومان والعرب والنوبيين والفرس والشركس والاتراك وغيرهم، وقد استطاع الشعب المصرى أن يستوعب كل من استوطنها فيما لايزيد على جيلين أو ثلاثة وبعدها صاروا مصريين بالامتزاج والمصاهرة وهذه ميزة كبرى توضح قدرة الأرض المصرية على أن من يحبها يستوطنها فيصير منها ولذلك فإن مصر بالفعل هى أقدم بوتقة انصهار فى العالم، إذ استعرنا هذه العبارة التى يطلقها الأمريكان على بلادهم باعتبارهم بالفعل من أجناس وشعوب مختلفة يحاول المجتمع الأمريكى أن يجعل منها بوتقة انصهار .

ولايستطيع أن يقدر هذه الميزة أو الخصوصية المصرية - فى هذا الأمر إلاّ من عايش الخلافات العرقية فى أمريكا بين السود والبيض أو من عايش الفروق العرقية بين العرب والبربر فى الجزائر او الاكراد والعرب فى كل من العراق وتركيا او الفروق بين الزنوج «المتعربين» فى السودان.

(٣)- كان المصريون أول من تعرفوا على أن هناك «حياة أخرى» بعد هذه الحياة، وادركوا أن هناك محاسبة فى الآخرة عن أفعال وتصرفات الإنسان فى هذه الحياة، وسجلوا ذلك أولا من تشييد الأهرامات وفنون التحنيط فى الدولة القديمة، ثم سجلوا

محاسبة الإنسان بعد الممات فى «كتاب الموتى» وصوروه من خلال ميزان القلب بالريشة وغير ذلك فى ترنيمات وابتهالات اخناتون وغيرها.

ومن ثم فإن للمصريين دوراً معترفاً به فى صياغة الكثير من العادات والأفكار فى الديانة اليهودية كما يذكر ذلك جيمس هنرى بريستد فى كتابه الشهير «فجر الضمير» وقد أكد ذلك ما جاء فى نصوص سفر التكوين من أن «موسى تعلم بكل حكمة المصريين». وفى المسيحية صاغ القديس اثناسيوس الملقب بالرسولى «قانون الايمان» فى القرن الرابع ثم للأزهر بصمة معترف ومشهود بها فى الفقه والفتاوى والاجتهادات الإسلامية حتى الآن.

ومن ثم فالمصريون شعب متدين منذ فجر التاريخ حتى الآن، وساهموا بشكل أو بآخر وبقدر أو بآخر فى صياغة فكر الديانات السماوية الثلاث التى ظهرت فى شرقنا العربى، ولكن من خصوصيته أيضا - أى شعب مصر - ان تدينه كان بقدر ولم تمنعه الديانات المصرية القديمة من ابتكار كل أساليب الزراعة وجميع ألوان الفن والنحت والعمارة، فضلا عن الطب والرياضة والفلك والفلسفة، كذلك فإن حالة - التدين بقدر - فى حقبتى المسيحية والإسلام لم تمنعه من المشاركة فى كل ألوان النشاط الانسانى. وحقق فى ذلك انجازات تاريخية تشهد بها الحضارة الانسانية فى مراحلها المختلفة وفنون العمارة القبطية والإسلامية فى متاحفها المتخصصة فى القاهرة.

والملاحظ أن من كان يود الاستزادة من الدين بالتعمق فى الدراسة أو التأمل ثم التفرغ، كان يتجه الى «الرهبنة» فى المسيحية، و«التصوف» في الإسلام. ولكن الأمر المؤكد هو أن كل من الرهبنة والتصوف بعيدة كل البعد عن العنف بل لعلها تقاوم كل أشكال الحدة من خلال تقليم أظافر الشهوات الإنسانية.

(٤) - غيرت مصر الديانة واللغة ثلاث مرات، وتراكمت لدى المصريين رقائق حضارية متصلة فوق بعضها البعض ذكرتها تفصيلا فى كتابى المشار إليه «الأعمدة السبعة».. تفاعل معها الإنسان المصرى وتركت فى عقله ووجدانه بصمات تلك الحضارات الشفافة والمتصلة، ولكن فى كل تلك المراحل كان للمصريين لغة واحدة نطقا وكتابة كجزء من «وحدة» الثقافة المصرية. فقد استمر المصريون متمسكين باللغة والديانات القديمة الموروثة الى أن انتقلوا إلى المسيحية فكتبوا لغتهم بالقبطية. وصارعوا من أجل «خصوصية العقيدة» وامسكوا بأنهم «اورثوذكس» أى القيم الموروثة القديمة دون تعديل أو تبديل، رغم اضطهاد الامبراطورية البيزنطية المسيحية التى كانت تود قهر الاقباط ليتحولوا الى المذهب المسيحى الملكانى اى الذى كان «الملك» منحازا اليه، فاختلفوا عقائديا من وقتها عن «الروم» او أى أن لمصر خصوصية مسيحية ومن ثم فكنيستها قبطية اى مصرية اورثوذكسية.

وعندما دخل العرب مصر كان التحول تدريجيا الى الإسلام، ولكن هذا التحول فى مصر - خلافا لبلاد أخرى كثيرة - أخذ عدة قرون، وكان ذلك أحد الأسباب لاستمرار وجود المسيحية حتى الآن (وكما سيأتى ذكره فى خصوصية أخرى).

ولقد ظهرت خلافات مذهبية حادة فى الجزيرة العربية والعراق والشام قبل وبعد العصر الأموى وانقسم المسلمون فى تلك الأقطار - ومن وقتها وحتى الآن - إلى سنة وشيعة، ولكن مصر - من وقتها وحتى الآن - كانت بعيدة عن هذه الصراعات المذهبية، وعندما صارت الأغلبية فى مصر مسلمة فى القرن العاشر كانت «كلها» شيعة مع الفاطميين ثم تحولت «كلها» إلى سنة مع دخول صلاح الدين الايوبى، واستمرت مصر لها خصوصيتها الإسلامية - مثل خصوصيتها القبطية - «كلها» مذهب واحد أى أن بها إسلاماً مصريا واحداً ومسيحية قبطية أى مصرية واحدة.

وطوال هذه القرون تغيرت الديانات لكثير من الدول واختفت المسيحية من بعض الدول وحل محلها الإسلام وحده، و استمرت المسيحية فيها، ووجد الأقباط فى كل قرية ونجع دون عوائق تذكر، وهو أمر تنفرد به مصر وتزهو ويعود ذلك إلى أن تحول مصر من المسيحية إلى الاسلام قد أخذ فترة طويلة - كما سبق القول - وكان تحولا تدريجيا من خلال تفاعل انسانى عجيب داخل العائلات والأسر المصرية، اذ كان الأب يغير ديانته ويتحول الى

الإسلام لسبب أو لآخر وبالتالى يتحول الأطفال وفق الشريعة إلى الإسلام فكان الأطفال منطقيا - وفى كثير من الحالات - يمارسون كلا من العبادات والطقوس فى الديانتين، فكانوا مثلا يؤدون صلاة الجمعة فى الجامع مع الأب وربما كانوا يحضرون القداس فى الكنيسة مع الأم، ولعلهم كانوا يصومون شهر رمضان مع الأب على الطريقة الإسلامية. وكانوا يصومون بعض أو كل الصيامات المسيحية وفق العوائد القبطية مع الأم. وقد أدى كل ذلك الى هذه الصياغة المصرية التى تبحث عن «الأرضية المشتركة» فى الديانتين وتتحاشى الخوض فيما يثير الخلاف والفرقة، وقد أدى ذلك بالفعل إلى ان عرف المصريون جميعا النصوص والأحاديث التى تبعث على الرحمة والتعاطف والحسنى. ولم تنتشر لدى الكافة - الا أخيراً - الأفكار التى تثير الخلاف والبغضاء والكراهية.. وربما كان ذلك - نتيجة رياح ثقافية مخططة منذ السبعينات وقادمة من الشرق - أحد أسباب الفتن - ولكنها غريبة عن التراث المصرى الحضارى ونأمل ألا تستمر هذه الحقبة القلقة طويلا حتى تعود مصر إلى سابق عهدها من قبول الآخر والمعايشة معه أى «ثقافة الموازييك» وهو أمر خصصنا له دراسات فى هذا الكتاب.

إن خاصية «التعددية الدينية» فى مصر تعود إلى هذا السهل أو الوادى المنبسط والذى أدى إلى بساطة ورحابة النفس والمعايشة بين الأديان وهو الذى أدى لأن تكون مصر من أولى

البلدان فى العالم التى قبلت التعددية - اى الحوار والخلاف فى الرأى فى المجالس النيابية المتعاقبة ومنذ أن أنشىء مجلس شورى القوانين عام ١٨٦٦ ولذا فمن حقنا أن نتطلع لمزيد من الديمقراطية.

(٥)- منذ أن اتضح للأقباط أن الإسلام قد صار دين الأغلبية وانتشرت اللغة العربية لتأخذ مكان اللغة القبطية. اتخذ احد البطاركة العظام غبريال بن تريك فى القرن الثانى عشر قرارا تاريخيا - له أثاره على البنية الثقافية - بأن تتقهقر اللغة القبطية الى الأديرة والكنائس، فأصبحت اللغة العربية هى اللغة الشعبية لجميع المصريين واشترك بعض افراد النخبة من الاقباط مثل أولاد العسال وغيرهم فى ترجمة الكثير من التراث والأدب القبطى إلى العربية، ولذلك تراكمت مع الزمن ثقافة عربية لها نكهة إسلامية لدى جميع المصريين. ويتضح ذلك بفحص بعض القطع الفنية الموجودة بالمتحفين القبطى والإسلامى إذ يتداخل الفن والخط والعبارات والأمثال السائدة فى تلك المرحلة، إلى أن تكونت هذه «السبيكة» المصرية من رقائق الحضارات، وأصبح انتماء مصر إلى العروبة جزءا من المقومات الثقافية لشعب مصر كله أقباطه ومسلميه على حد سواء، فاللغة هى الوعاء الثقافى للأمة وبدونه لايتوحد الشعب وتبدو المفارقة فى أن أقباط مصر قد تحولوا إلى اللغة العربية منذ نحو ثمانية قرون ولكنهم احتفظوا بالديانة

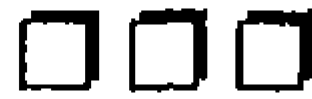
المسيحية، بينما تحول البربر فى الجزائر إلى الاسلام ولكنهم احتفظوا بلغتهم الأصلية ولذا فهنا «بوتقة» انصهار ثقافى وهناك أدى الشرخ الثقافى الى متاعب وصراعات مازالت موضع فحص من أهل الثقافة والسياسة.

٦- ان اطلالة مصر على البحر الابيض المتوسط. تاريخيا وجغرافيا وحضاريا تعطى لمصر خصوصية تشاركها فيها بعض الدول العربية الشقيقة غير اننى أجد أحيانا حساسيات عند بعض اصدقائنا فى العروبة وبالذات فى دول الخليج عن طرح انتماء مصر إلى البحر المتوسط، كما لو كان الانتماء إلى البحر أوسطية مناقضا لانتماء مصر العربى.

إن هناك صلات بين مصر وباقى دول البحر المتوسط ترجع للعصور التاريخية القديمة اذ كانت مصر فى البداية هى المعطاءة.. اعقبتها حقبة أخرى أخذت فيها مصر عن اليونان بعض أفكارهم الفلسفية، حتى استهواهم أن يكتبوا لغتهم الفرعونية المنطوقة بحروف الأبجدية اليونانية (بعد أن اضافوا اليها سبعة حروف من الكتابة الديموطيقية) فنشأت من هذا التفاعل اللغة القبطية حتى صارت العربية هى اللغة الشعبية لجميع المصريين واشترك بعض أفراد النخبة من الأقباط مثل أولاد العسال وغيرهم فى ترجمة الكثير من التراث والأدب القبطى إلى العربية. وبذلك تراكمت مع الزمن ثقافة عربية لها نكهة اسلامية لدى جميع

المصريين. وفى هذا الأمر يمكن الرجوع للعديد من القطع الفنية الموجودة بالمتحفين القبطى والاسلامى. فتداخل الفن والخط والعبارات والأمثال السائدة بين التراث الثقافى القبطى مع الوافد العربى الإسلامى إلى أن تكونت هذه السبيكة المصرية من رقائق الحضارات وأصبح انتماء مصر إلى العروبة جزءا من المقومات الثقافية لشعب مصر كله أقباطه ومسلميه على حد سواء. فاللغة هى الوعاء الثقافى للأمة وبدون توحد اللغة لايتوحد الشعب.

وفى العصور الحديثة - ومنذ الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ - تجددت الصلات مع الحضارات البحر أوسطية ثم أرسل محمد على البعثات إلى أوربا كبداية للنهضة الصناعية والعمران وساهم الفرنسيون فى إنشاء القناطر الخيرية وبعدها رغب الخديو إسماعيل فى أن تكون «مصر قطعة من أوربا» وكان للاحتكاك المباشر مع الثقافة الغربية اثره على رفاعه الطهطاوى ثم جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى جميع التطورات للإصلاح الدينى فى مصر.



إن هذه النماذج من «الخصوصية المصرية» قد أفرزت انسانا له خصوصية أيضا. تتمثل فى تطلعه للعلم والحضارة والعمل على إقلال الفجوة الحضارية بينه وبين الغرب ولكنه بجوار ذلك يود أن يحتفظ بذلك القدر من التدين فى وجدانه الداخلى لأن يدرك أن

هذا ما يعطيه الأمان في مواجهة صعاب الحياة وتقبل الكوارث، ومن منا – على كل درجاتنا الثقافية – لايصرخ فى وقت الضيق ويقول «يارب» ، وكل مصرى – عندما يقدم على فعل شيء معين – يقول «إن شاء الله» حتى استخدمها بعض الأجانب المقيمين فى مصر ثم يهمس «ربنا يستر» اذا شعر بأن هناك احتمال خطر. ولأن الحضارة زراعية وليس لها الدقة والانتظام والتخطيط ومراعاة الوقت بالدقيقة والثانية مثل الصناعات، لذلك أصبح لفظ «معلهش» من مفردات اللغة فى مصر. ويعود ذلك إلى ممارسة «الاستقراب» أى أن يكون ظاهر الشيء مقبولا دون أن يكون مطابقا للمواصفات او الاشتراطات الدقيقة وعندئذ يقول: «ماشى حالك» والمصرى له قدرة خرافية على الصبر وتحمل الصعاب، ولكنه ذكى فطن «يفهمها وهى طائرة» وغالبا مايتخابث ويخفى انه قد فهم. ويردد مايتصوره مرضيا لمن يسمعه بهذه فى مجملها مظاهر لخصوصية الشعب المصرى حلوها ومرها على حد سواء.

غير أن الملاحظ للأسف أن إعجاب الغرب بحضارة الفراعنة يفوق اعجاب المصريين، وهو أمر قد يبدو عجيبا لأول وهلة .



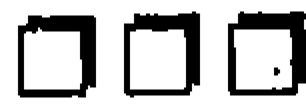
«الايجيبتو - مانيا» أو «الوله بحضارة الفراعنة» من اللوفر إلى الانتيكخانة

تنقل إلينا الجرائد ووكالات الأنباء ، الحمى التى تجتاح أوروبا بـ «الوله والشغف والغرام بالحضارة الفرعونية القديمة» إلى الحد الذى تصفه الجرائد الفرنسية الشهيرة بالجنون المصرى أو «الايجيبتو مانيا» ولا أستطيع أن أجد لذلك تعليلاً واضحا ، لأن «الغرام» بحضارتنا الفرعونية فى الغرب غرام قديم يعود للعصور الوسطى ، حتى اعتقدت - خطأ أو صوابا - أن الغرب هو الذى اكتشف لنا آثارنا القديمة ، وأن الأمر فى حاجة ماسة لأن نعيد - نحن المصريين - اكتشاف حضارتنا القديمة ، لأن معرفتنا بها - فى الأغلب الأعم - ضئيلة سطحية غير متعمقة إلاّ لدى علماء الآثار المتخصصين ، ولولا أن أهرامات الجيزة كانت من الفخامة بحيث لم يمكن للبشر أو للعواصف الرملية أن تغطيها ، لكنا قد تنكرنا لأهرامات الجيزة شمالا قرب القاهرة إلى هرم سنفرو قرب دهشور جنوبا مرورا بهرم سقارة المدرج والشهير وهى المنطقة الممتدة من ابو رواش شمالا الى دهشور جنوبا ولمسافة نحو ٢٣ كيلو مترا والمسماة «جبانة منف» .

لقد أقام متحف اللوفر - فى عاصمة النور «باريس» والتى أخذت اسمها - فيما يقال - من خلال عبارة «فاريا ايزيس» أى إيزيس بنت فرعون والتى تحولت لتكون «باريس» - معرضا ضخما أقيم خلال عام ١٩٩٤ يقدم رؤية أوروبا لمصر الفرعونية ، والتى جمعت مادتها العلمية من الدول الأوروبية الاربع والاكثر

اهتماما وارتباطا بتاريخ مصر القديم وهى فرنسا - ايطاليا - بريطانيا - هولندا ، فجاء هذا المعرض صيحة فى صحراء مصر أن ننتبه إلى تراثنا والتى اهتم به الغرب مقرونا بعصر النهضة والعلمانية الأوروبية .

وكم كنت أود أن تهتم مصر - بما فيها أجهزة وزارة الثقافة - لكى تنتقل لنا هذه المعلومات والبيانات وكم كنت أتوقع أن يثير هذا المعرض عن تاريخ مصر - شهية وزارة الإعلام وأجهزة التليفزيون المصرى - والذى وقع تحت تأثير أجهزة وفكر الإعلام فى دول قريبة تفرض علينا قيمها وفكرها حتى تخلفنا وأصبحنا مثلها - نقول ، كنت أود أن تسافر بعثة من التليفزيون المصرى لكى «تحج» لهذا المعرض الفريد من نوعه فتنقل لنا ليس فقط المعرض والتاريخ - ولكن مشاعر البشر الذين يتوافدون على المعرض فيقعون أسرى الحب والشغف بهذا التراث وهو الأمر الذى عبروا عنه بعبارة بـ «الايجيبتو مانيا» ، لعل وعسى تنتقل عدوى هذا الشغف بمصر الفرعونية إلى شعب مصر ذاته سلالة الفراعنة .



جاء فى التقارير الصحفية التى أذيعت لتسجيل تاريخ ارتباط الغرب بحضارة الفراعنة بعض العبارات والمعلومات والتى لا أجد بأسا من تكرارها لقراء العربية :

إن البداية كانت فى القرن السابع عشر عندما وضع الفرنسى بنوا دى مايـيه أول خريطة لمصر بعد زياراته لها ، حيث سجل مجرى النيل وعليه مواقع أماكن الآثار فى الأقصر ووادى الملوك ومعابد الكرنك وأبو سمبل واسوان ، ثم اصدر ميشيل ديفاختر موسوعة سجل فيها جرد لآثار المصرية عام ١٦٨٤ .

وجاء القرن الثامن عشر فاتحة لاكتشافات متعددة للآثار الفرعونية يذكر منها «وثائق آثار طيبة» لفريدريك نوروون ثم كتب الرحالة البريطانى «القس جان ريتشارد بوكوك» ثم الفرنسى كلود لوى فورمون والقس تيراسون وغيرهم حيث انتقلت عدوى الشغف لتراث الفراعنة الى تخصصات أخرى بخلاف علماء الآثار ، وظهرت اهتمامات مماثلة فى مجالات الموسيقى والفلك وعلم الاجتماع والشعر وغيرها ، وكان كل ذلك أحد أسباب المناخ العام الذى دفع نابليون بونابرت لغزو مصر .

ومن هنا فإن الرأى عندى هو أن الحملة الفرنسية كانت ذات أهداف ثقافية أكثر منها لأغراض الاستعمار او استغلال الثروات المصرية ، غير ان هذا الرأى قد يثير جدلا سياسيا - ليس هذا موضوعه ولابد من أن تتعرض له المؤسسات الثقافية من الآن وحتى عام ١٩٩٨ عندما يصير الاحتفال المشترك بين فرنسا ومصر حول مارغبوا فى ان يسموه الرحلة الثقافية لنابليون عام ١٧٩٨ بدلا من عبارة «الحملة الفرنسية» والتى قد تحمل بين طياتها معنى «الغزو».

ومما يؤيد وجهة نظرى ان نابليون قد استقدم معه مجموعة من العلماء والفنانين الذين سجلوا مشاهداتهم فى كتب « وصف مصر» والتى ستظل وثيقة تاريخية مهمة لتلك الحقبة التى كانت مصر تعيش فيها كولاية تابعة للدولة العثمانية ، غير واعية بما يحمله جوف مصر من كنوز ثقافية قديمة ادركها الغرب ونحن نيام..!!

وفى وسط كل ذاك الزخم لاهتمام الغرب الأوروبى بحضارة الفراعنة، يقف «شامبليون» شامخا لأن معاناته واجتهاداته لفك رموز رشيد يعتبر نقطة تحول أساسية فى كل مايتعلق بحضارة الفراعنة – ويرجع تاريخ هذا الحجر إلى عام ١٩٦ ق . م ليسجل مناسبة تتويج بطليموس الخامس فقبل فك رموز حجر رشيد كانت آثار الفراعنة مجرد حجارة تبهر الالباب بضخامتها ودقة نحتها وبقاء أصباغها اى كانت أحجار غير ناطقة ، اما الجهد العلمى الضخم الذى بذله شامبليون فقد فتح الباب واسعا لإمكان قراءة وفك رموز الكتابة الهيروغليفية من خلال مقارنته ومضاهاته بذات النص المكتوب على الحجر بكل من الكتابة الديموطيقية وهى الكتابة لذات اللغة المصرية القديمة والتى تطورت لتكتب بحروف ابسط من الرموز والحروف الهيروغليفية ثم بالمقارنة بالترجمة المكتوبة باللغة اليونانية القديمة وكانت لغة معروفة لدى شامبليون (١٧٩٠ – ١٨٣٢) .

وهكذا جاءت دراسات وقدرات وبحوث شامبليون لتكون ميلادا جديدا لعلم المصريات Egyptology والذى بدأ باهتمام به في الجامعات الأوروبية ، وأنشىء بالفعل عدة كراسى استاذية للتعمق فى دراسة التراث الفرعونى ، وقد تم ذلك فى اوروبا قبل ان تدرك مصر ذلك بسنوات طويلة وظل علم المصريات (واحيانا القبطيات) موضوع اهتمام الغرب الى ان تم فتح شهية الجامعة المصرية ، فتم انشاء كلية الآداب واقسام التاريخ بها ثم كلية خاصة بعلوم الآثار .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر زحف الى مصر عشرات المهتمين بآثار الفراعنة ، وحمل الأفراد والبعثات العلمية مئات وربما آلاف القطع من الآثار بعضها ضخم وكبير مثل المسلات الموجودة إحداها فى وسط ميدان كونكورد فى باريس وأخرى على شاطىء نهر التيمس فى لندن ، وكذلك رأس نفرتيتى فى برلين ، وغيرها صغير الحجم الذى يحمل مع الباحث نفسه وبصحبته بالبواخر، فقد انتشرت فى كل انحاء العالم ويبدو ان مسلسل سرقة الاثار مازال مستمرا ومن ثم فإننى لست من أنصار التنقيب بل من أنصار الترميم والابقاء على ما هو بين أيدينا ولنترك لأيال قادمة لديها ادوات واجهزة تنقيب حديثة حق الاكتشاف لتراث هائل مازلنا عند شواطئه .

وأذكر – عندما كنت طالبا للدكتوراه فى الهندسة بجامعة سانت اندروز فى اسكتلندا – ان زرت متحفاً فى

مـدينة بيـرث Perth المجاورة للمدينة الجـامـعيـة ودهشت - كمصرى - كيف ان هذا المتحف الصغير فى مدينة غير مشهورة فى اسكتلندا كان يحتوى قسمـا خاصـا بالمصريات ، فشـعرت بالزهو والاعتـزاز ، وكانت مـشـاعرى من وقـتـها - وحـتى الآن - متضاربة ، فيمـا اذا كان «تهريبـها» من مصر كان خيرا لمصر (وللبشرية والثقافة الانسـانية) ام كـان الواجب عدم خروجـها، فوقتـها لم نكن نملك القـدرة على منع خـروجـهـا اذ لم تكن لديهـا سيادة كاملة على أحوالها ، فضلا عن أننا ، لم نكن ندرك اهمية مالدينا من كنوز ممثلة فى هذه الاحجار بما تحمل من نقوش غير مقروءة من المصريين وبالتالى غير مقدرة أو مثمنة .

ولكننى أدرك الآن أن هذه الحـقبة من عـصـر «النهب العظيم» لآثارنا المصرية لم يكن شرا كـامـلا ، فوجود هذا الكم الهائل من الآثار فى كل متاحف الغرب وحتـى فى ميادينها العامة لهو دعاية ثقافية لمصر وعلينا ان نستثمره فى كل النواحى .

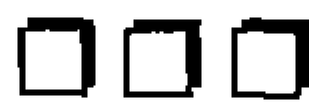
ومرة أخرى يعود الفضل لعالم مـصـريات غربى وهو أوجوست ماريت والذى نبـه الخديو سـعيد باشا واقنعه بأن الآثار تسـرق ولابد من حـفظهـا وتقـرر إنشـاء المتحف المصرى لأول مـرة لحـفظ الآثار الفرعونية فى بولاق ، ولولا ذلك لاستمر تدفق الآثار الملقى بها فى الصحراء دون حفظ أو حراسة جادة أو تسجيل نهبا لمزيد من السرقة والبيع والتجارة وظل اهتمام فرنسا بالتراث الفرعونى

مستمرا ، ففى عام ١٨٦٧ أقيم المعرض الدولى فى باريس ، وقد عرض فى هذا المعرض الدولى المهم العديد من آثار الفراعنة والتى نقلت من المتحف المصرى ولكنها للأسف لم تعد لمصر بل ظلت فى فرنسا . وبعد مارييت جاء ماسبيرو وهو المتيم بالتراث الفرعونى اذ هو الذى أنشأ المتحف المصرى فى موقعه الحالى بميدان التحرير بالقاهرة ،وهو الذى نسقه فى وضعه الحالى وبعده جاء دريتون وغيره الى ان دخل المصريون الميدان الى التفكير فى انشاء مجموعة المتاحف الجديدة قرب أهرامات الجيزة ربما فى القرن ٢١ فيما يبدو .

إن كل هذا الاهتمام فى الغرب بمصر الفرعونية بعد نحو ثلاثة قرون لا أجد له صدى بذات القدر من الهوس أو الفخر داخل مصر ، ليس فى الطبقات الشعبية فحسب وانما فى مجال المثقفين والمتعلمين والجامعيين وبالذات بالنسبة للشباب وقد آثار هذا الأمر اهتمامى وجعلنى أحاول فحص اسبابه وتذكرت كيف أننى فى مقابلة خاصة رتبتها بين قداسة البابا شنودة الثالث بطريرك الاقباط وبين الاستاذ الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل ، عقب أن عاد البابا من الاعتقال فى احد اديرة وادى النطرون من سبتمبر ١٩٨١ الى ممارسة سلطاته فى قصره بالقاهرة فى يناير ١٩٨٥ ، فكان ان تطرق الحديث عن الاسباب والظروف التاريخية التى ادت الى اغفال ذكر وتحديد فرعون مصر وقت خروج اليهود من مصر .

فكان ان اجاب البابا بذكاء وفى ضوء تراثه المصرى وقال : «إننا فى مصر عندما نكره شخصاً فإننا عادة نذكره بعبارة «فلان اللى مايتساماشى» اى الذى لايذكر اسمه كناية عن عدم الحب أو التقدير وربما تحاشيا من بطشه ، ولذلك فالمشاهد ان كل من التوراة (أى العهد القديم) اى كتاب اليهود ثم الانجيل (كتاب المسيحيين) ثم القرآن (كتاب المسلمين) ، لم يذكر اسم فرعون المرتبط بواقعة خروج اليهود من مصر .

واذكر ايضا انه فى حوار خاص مع المرشد العام الاستاذ حامد ابو النصر حول الشخصية المصرية وكيف جاء تعليقه على ان ذكرت كيف ان المصرى متأثر بالرقائق الحضارية الاربع التى مرت بتاريخ مصر وهى الحقبة الفرعونية تعلوها الحقبة الهيلينية والمسماة «اليونانية - الرومانية» وهى متداخلة تاريخيا مع الحقبة المسيحية القبطية ثم تأتى الحقبة الرابعة الاسلامية بكل ماتحمل من رقائق جزئية ، فكان أن استوقفنى المرشد العام للاخوان المسلمين قائلا : نحن نحبك يادكتور ميلاد ، ونعترف معك بكل من الحقبتين القبطية والاسلامية فقط اما الحديث عن الحقبة الفرعونية أو اليونانية الرومانية ، فهى مراحل لا نعتز بها لأنها تذكرنا بعبادة الاوثان والعصر الجاهلى ولذلك نحن «كتابيون» نعتز بالمسيحية والاسلام اما ماقبل ذلك فلا .



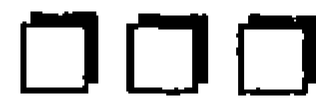
هذه القصص قد فكت الالغاز امامي ، وكما جاءت المقارنة بين الكتابات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية لكي تفك لنا - من خلال عبقرية شامبليون - اسرار الكتابات الفرعونية القديمة ، هكذا جاءت تلك القصص لتفك لي اسرار عدم اقبال المصريين على تراثهم الفرعوني ، ثم الابتعاد تماما عن الحقبة المسماة بـ «اليونانية - الرومانية» .

وأتصور ان نقطة البداية كان في ان تراث المصريين القدماء نظرا لقمته وعمقه التاريخي قد اندثر تماما وانتقلت البشرية بعده إلى حقبة حضارات البحر المتوسط او مايمكن ان نسميه حقبة «الديانات السماوية» والتي بدأت ولاشك مع اليهودية وقد استطاع الشعب اليهودي ان يجمع تراثه في الكتب أو الاسفار التي تكون في مجملها وتراكمها العهد القديم والتي تشمل عدة أجزاء تبدو مختلفة ، ومتباينة فيها قصة الخلق في سفر «التكوين» وتبعه سفر «الخروج» من وجهة نظر اليهود الذين اضطهدهم المصريون. وهناك ايضا تاريخ اليهود تفصيلا فيما يسمى سفر صموئيل الاول والثاني ثم الملوك الاول ، والثاني ثم اخبار الايام الاول والثاني وهي ستة اسفار تروي تاريخ اليهود وحروبهم وقضاتهم وانبيائهم وحكمائهم موثقة ومرتبة ويحتوي العهد القديم (التوراة) كذلك على الشعر والأدب والفكر .

والحكم فيما يعرف بسفر المزامير والأمثال الجامعة ونشيد الإنشاد وهناك عشرات الكتب والاسفار التي كتبت بالانبياء

المتتاليين احد القيادات الشعبية والحربية والنضالية والادبية للشعب اليهودى عبر تاريخه الطويل ، ولعل اشهرهم نحميا ، وارمياء ، وحزقيال ، ودانيال ، ويوناثان ، وناحوم وغيرهم .

ومن هنا فإن المعلومات أو بلغة العصر «المادة الخام العلمية» التى استقى منها الآخرون رواية وتفاصيل ومشاعر خروج بنى إسرائيل من مصر كانت هى أساسا سفر «الخروج» والتى وصف فرعون بالقسوة والجحود لأنه اضطهد بنى اسرائيل وهو الامر الذى دفعهم بزعامة موسى النبى للخروج من مصر . ولسنا بصدد تحقيق تاريخى عما جاء فى النصوص الفرعونية اى مايسجل على الاثار المصرية القديمة لواقعة خروج بنى اسرائيل ، فلا زال هذا الامر يكتنفه غموض شديد وموضع اجتهادات علمية لم تستقر بعد ، وغالبا مايكون تداولها أو نشرها فى مجلات علمية صعبا نظرا لحساسيتها للجميع غير ان مارغبت فى طرحه هو ان الصورة الذهنية لنا عن الفراعنة قد اخذناها من كتبنا المقدسة وهو الامر الذى يوفر لنا الرغبة فى تثقيف انفسنا عن جدودنا الفراعنة من خلال المستندات التاريخية الفعلية اى من خلال الآثار وأوراق البردى ذاتها .

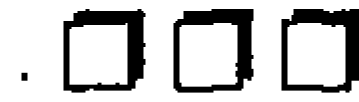


وبعد هذه المقدمة – والتى أتصورها طويلة نسبيا – نأتى الى التساؤل : ولماذا الاهتمام بطرح التعمق فى تاريخ الفراعنة الآن

فإذا كان موضع اهتمام الغرب – منذ نحو ثلاثة قرون على الاقل – فهذا شأنهم ، وقد يكون ذلك مجرد معرفة لتقييم الحضارات القديمة التي اندثرت لأن عددت اوروبا وامريكا هى انها لاتتمتع بهذا العمق التاريخى الذى لدينا، فلماذا نهتم نحن – ابناء واحفاد الفراعنة – بتاريخ الجدود الاقدميين ، وهو الامر الذى اود ان اطرحه للحوار ، هناك نظريات لاتستند الى اى دليل علمى يطرحها بعض الجيران تقول: إن الفراعنة بكل عظمتهم وانجازاتهم قد اختفوا واننا نحن المصريين المعاصرين لانمت بصلة اليهم ، ومن ثم فإن اهتمامنا بجذورنا سوف نكتشف [illegible]مرارية ممثلة في العادات والتقاليد والامثال الشعبية والموسيقى و[illegible] اى في التركيبة النفسية ، وسيكون ذلك حافزا لنا لبلوغ ما وصلوا اليه .

وفى هذا الامر ، لابد من وجود استمرارية بين الماضى والحاضر عبر الرقائق الحضارية التى مرت بها مصر حساسية فى فحص الاساطير الدينية عند الفراعنة فالعقل والمنطق لن يستطيعا إلاّ ان يقارنا بين علامة عنخ عند الفراعنة وعلامة الصليب عند المسيحيين او ان يربط بين ثالوث طيبة والثالوث المقدس ، وقد عالج الغرب هذه الامور وكتب عنها كثيراً دون حساسية غير ان تراث الفراعنة اكبر وأشمل من المعتقد الدينى ، فهناك مجموعة العلوم الطبيعية والكيمياء والفلك والرياضة

والهندســة Geometry وتطبيقاتها فى الطب وهندسة التشييد وغيرها وكلها علوم فيزيائية بديعة وملهمة ، ولكن بجوار ذلك يوجد الشعر والادب والقصة والفن والنحت وغيرها أى كل ما يسمى الآن بالعلوم الانسانية ، وهى فى مجملها كم هائل لم يستكمل اكتشافه بعد ، وهناك مجال الاجتهاد لمزيد من المعرفة لدراسة الطب والتحنيط والعقاقير عند الفراعنة ومن المفروض ان يسيل لعاب اساتذة الطب الوطنى ، واذا كان هناك مجموعة بشرية تتحمس لهذه القضية ، فمن المنطقى ان يكون ذلك من نصيب المصريين وليس الغرب وقديما قالوا «جحا أولى بلحم ثوره» .



ويدفعنى هذا الامر لأروى وأسجل ماهو معروف من «البهدلة» التى تعانيها «أجساد» المصريين القدماء من ملوك وأمراء وأميرات» ، فقد بذل الفراعنة جهدا علميا مضنيا - بل لعله خارق ومعجز بكل المقاييس - لامكان تحنيط هذه الاجساد اى حفظها آلاف السنين دون تلف ، وكنا متصورين انها اسرار الفراعنة الى ان تم فك الغاز التحنيط شيئا فشيئا واتضح انها كانت عمليات معقدة لها متخصصون فى التشريح وكيفية استخراج المخ من الانف واخراج الاحشاء وتجفيف جوف الانسان مع الابقاء على القلب (لاسباب دينية وهى فى اعتقادهم انه مكان الضمير الذى يوزن عند المحاسبة حسبما جاء فى اسطورة انى الشهيرة فى كتاب الموتى) .

وقد نهب الأربيون عشرات بل مئات من المومياث المنتشرة في كل أنحاء العالم الأن ، الى ان جاء ماسبيرو وجمعها ونقلها الى المتحف المصرى مع مطلع هذا القرن ، ولكن اسماعيل صدقى باشا (وامعانا فى السخرية بكل من الفراعنة الاقدمين والمحدثين ونكاية فى حزب الوفد) قرر نقلها الى المدفن الذى كان قد أعد لنقل رفات زعيم الحركة الوطنية سعد زغلول فنقلت هذه المومياث الى هذا المدفن بالفعل عام ١٩٢٩ وهو على اى حال مبنى على الطراز الفرعونى ربطا بين الحركة الوطنية والفراعنة وعندما عاد حزب الوفد الى الحكم وتقرر نقل رفات زعيم الوفد سعد زغلول فى هذا المدفن الحالى والموجود بمنطقة السيدة زينب قرب دواوين الوزارات وميدان لاظوغلى ، اضطروا لاعادة المومياث الى المتحف المصرى ، وظلت محجوبة عن نظر الزوار سنوات الى ان تقرر عام ١٩٥٩ السماح بزيارتها على نطاق ضيق ثم كان ان زارها الرئيس السادات عام ١٩٨٠ وطالب بدفن هذه المومياث فى البر الغربى بالاقصر أى مقابرها الاصلية ، واتصور ان الرئيس السادات - كان كأى مصرى - متأثر ان «كرامة الميت دفنه» وكما كان يعتقد انه أخر الفراعنة ، ولم يكن يتصور ان يمثل بجسده كما مثل بهذه المومياث .

والجدير بالذكر ان الاقباط يقدسون ويتبركون باجساد القديسين ، كما وان المسلمين يتبركون بالاضرحة التى تحتوى

اجساد آل البيت والمشايخ واصحاب الكرامات استمراراً لذات العقائد الفرعونية المتوارثة.

واخيرا وفي اوائل شهر مارس عام ١٩٩٤ ، تم فتح قاعة بالمتحف المصرى الموجود بميدان التحرير ليزورها الناس مرة اخرى ، وربما كان الهدف هو احياء الاهتمام بحضارات الفراعنة كجزء من «الشغف بمصر».

يرحمه الله ان رحل الرئيس السادات عام ١٩٨١ قبل ان يصر على تنفيذ وصيته وتوجيهاته بدفن الموميات حفظا لكرامتها .

إن نشر التراث الفرعونى سوف يخدم قضية الوحدة الوطنية لأن المصريين ، علاوة على الفوائد الاقتصادية التى يمكن ان تعود على مصر من خلال عرض ونشر افلام وصور البرديات وغيرها من جميع ألوان الحضارة المصرية واستكمالا لقضايا مصر ، الثقافية وخصوصيتها فإننا نعرض في الموضوع القادم كيف ان لمصر ثقافة واحدة لها ساقان، هما الاسلام المصرى والمسيحية القبطية أى المصرية ، وهى إحدى ركائز الممارسات فى مصر عبر الف سنة ولعلها أحد الأسباب التى تحصن مصر ضد هبات العنف والتطرف لان فيها قبولاً لمبدأ التعددية وهو مفتاح تعميق الديمقراطية وقبول الآخر .



الثقافة المصرية لها ساقان

كل منا ابن تاريخه وارتباطاته وانتماءاته ، وفي هذه المرحلة من العمر استرجع كيف نشأت في مناخ الحركة الوطنية المصرية واستمعت من والدي لما جرى من قطع السكك الحديدية بين سنورس والفيوم عندما اندلعت الثورة المصرية في مارس عام ١٩١٩ .

وترعرت في بيت جدي لوالدتي الخواجا جرجس (*) مترى وكان تاجرا في حي الحمزاوي بمنطقة الحسين قرب الأزهر وفي أجازة الصيف كنت أحمل مفاتيح المحل ليقوم العمال بالنظافة ويأتي من يحمل المبخرة وتتصاعد منها رائحة المسك والجاوي ليطوف المحل ويصلي على الرسول ثم أعطيه نصف قرش لكي يدور بالمبخرة عدة مرات طالبا أن يفتح الله في وجهنا ليوفر عددا أكبر من الزبائن للمحل التجاري ، وأتذكر الآن كيف إن هذا الموقع الفريد كانت تفوح منه رائحة التاريخ وعصور الحقبة الإسلامية في القاهرة فعلى بعد خطوات كان جامع الحسين والأزهر ، وخلف المحل توجد الصاغة وخان الخليلي وفي الجهة الأخرى من شارع الأزهر توجد الغورية وكانت عربة «السوارس» التي يجرها

---

* الخواجا جرس :سألت صديقي الناقد والأديب رجاء النقاش عن أصل كلمة خواجا فقال لي : إن أصلها فارسي وتعني «السيد» وهي تتفق مع ذات العبارة اليونانية التي يشار بها إلى علية القوم عند الأقباط وهي الأراخنة ومفردها أرثي وتعني «الرئيس » .

حصانان تتمهل أمام الناصية لكى يركب «كعب عالى» والنساء يتمخطرن فى الملاية اللف وأستشف ملامح الوجه الجميل من خلف البرقع المثير لخيال المراهق .

وفى الوقت ذاته كان جدى الخواجا جرجس من أصول تعود إلى قرية شنرى مركز الفشن فى بطن الجبل فى الغرب ، حيث كان الحاج الشيخ عبدالعظيم الرفاعى يحضر فى المواسم حاملا ما لذ وطاب من لحم ماعز أو الضأن ، وكان مقدمة حاملا هذه «الزيارة» بما تحمل من مأكولات نتيجة مشاركة لجدى فى زراعة الأرض ، فيعم الخير على الجميع ، وينفحنى جدى ريالا كاملا وكان أكبر عملة فضية ، ولم أكن أحصل على هذا الكنز إلا بعد أن أقبل يده ، وأدعو له بطول العمر ، ثم أجرى مسرعا إلى جدتى «أجيه» لكى أخفى عندها هذا الريال وكأنه البنك ثم أسحب من هذه «الوديعة» قرشا قرشا ..

هكذا نشأت فى هذا المناخ الثقافى الذى يحمل كل عادات هذا العصر وهى أنه رغم أن كلا منا يمارس شعائره فلم نكن نفرق بين قبطى ومسلم بل كان التمييز على أساس الدين أو حتى الانتباه إلى اختلاف الدين عيبا ، وإن تم فلابد أن يكون همسا ، فمن غير اللائق أن تسأل أو تستفسر عن ديانة الفرد أو الأسرة أو الجماعة ولكنها «تستشف برقة وفى نعومة غرستها فينا مفاهيم وشعارات

ثورة ١٩١٩ أن الدين لله والوطن للجميع» وصار هذا الشعار جزءاً من الوجدان الوطني المعاش.

وكان تأثرى بجدى لامى الخواجا جرجس مترى من خلال تجارته التى تجاور الأزهر ثم امتدت لأتعرف على زبائنه من عمد وأعيان محافظتى بنى سويف والمنيا من المسلمين والأقباط على حد سواء فقد كانت تجارته هى بيع الصوف والجوخ ولديه مصنع صغير لاقمشة «الشاهى اللامع» وقد تأثرت به أيضا كواحد من القيادات للكنيسة التى تقع خلف العمارة التي بناها لكى نكون بجوار «الست العذراء» كما كان يكرر ولا يمل أن يقص علينا كيف رتبت الإرادة الإلهية هذه الجيرة التى أعتبرها مصدر توفيقه ورزقه وحماية له ولأولاده .

ففى ذات يوم عام ١٩٢٤ ، كان يمر بشارع «مسرة» المتفرع من شارع شبرا حيث خط الترام ثم يسير مرتجلا ليصل إلى «حارة النصارى» بمنطقة «الحلّى» وهى منطقة شعبية ذات نكهة إسلامية ، فوجد قسيسا عرفت فيما بعد أنه أبونا سيداروس - يتحدث مع آخرين ويتشاورون فى جدية ظاهرة ، وعندما سأل أجابوا بأنهم سيبنون كنيسة باسم «السيدة العذراء» فى هذا التقسيم من الأراضى والذى يبدو انه من أملاك بعض الشوام (مسرة - خلاط - نشاطى) فعرض أن ينضم إليهم فوافقوا ، وفورا اشترى قطعة أرض خلف الكنيسة مباشرة ولا يفصلها عن

حوش الكنيسة إلا حارة ضيقة مازالت معروفة حتى الآن بحارة الأقباط ، ووقتها لم نكن نعرف الخط الهيمايونى ولا الحاجة لقرار ملكي لبناء كنيسة ولا حتى ترخيصا من التنظيم (ففى ذلك الوقت لم تكن توجد إدارة إسكان بالمحافظة أو وزارة الاسكان) وهكذا نشأت فى هذا المناخ حيث يمارس الأقباط عباداتهم بحرية كاملة وبدون عائق ، كان هذا مناخ الحركة الوطنية المصرية وكان بالفعل شهر عسل فى العلاقات القبطية الإسلامية دون الحاجة إلى تنظير..!

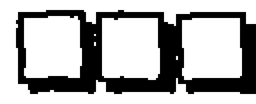
ورغب جدى فى تهذيبى دينيا فأحضر المعلم عريان (وكان عريف الكنيسة وهو رجل ضرير يحفظ الأصوات والأنغام ويسمونها «ألحان الكنيسة» عن ظهر قلب دون الحاجة إلى قراءة أو نوتة موسيقية) وبدأ المعلم عريان بتلقينى مبادىء الدين ويعلمنى ألحان وصلوات القداس «والمردات» لكى يؤهلنى لأن أكون «شماسا» وبالفعل أذكر فرحتي يوم أن جاء أسقف الغربية (وقتها كان اللقب الغالب هو المطران) ولازلت أذكر اسمه الأنبا «توماس» وكنا ندلعه باسم «الأنبا توتو» فقد كان جميل الصوت والصورة يتمازج وهو يصلى بتنغيم صلوات القداس بصوت أقرب للطرب منه للعبادة والخشوع وكان معجبا بنفسه وزيه ولازلت أتذكر كمية الذهب والمجوهرات التى يحملها فى شكل «صلبان وايقونات» ، واثناء صلاة القداس قام بقص شعرى (ضمن عشرة آخرين)

تدشيناً لى ، فقد صرت بهذه الحركة السريعة «شماسا» وقد سعدت بهذه الرتبة الدينية وبالملابس البيضاء التى ارتديتها على الرغم من حزنى على خصلة الشعر التى قصها حتى أفسدت ما تصورته زينتى الوحيدة كولد فى سن الصبا .

كان والدى مولعا بالقرآن ويحفظ منه سورا وآيات كثيرة ، وعندما يزوره أحد زملائه ، لم يكن السمر يتعدى متابعة صراعات أو انتصارات حزب الوفد بما فيها من خلافات غير المعلنة بين النحاس باشا والقصر والنميمة حول الأعيب الانجليز للمحافظة على سيطرتهم على الحكم وكنت أستشف سعادة أبى وأصدقائه وجيراننا لنجاح الأقباط والمسلمين فى الالتفاف حول الحركة الوطنية حتى لاينفذ منها الاستعمار ، وكيف أن مصر قد نجحت فى التماسك الوطنى وأدى ذلك لأن حصلت مصر عام ١٩٢٢ على شىء من الاستقلال المشروط ثم زاد الاستقلال خطوة أخرى مع «المعاهدة» على يد النحاس باشا عام ١٩٣٦ ، وكنت ألاحظ أن العديد من أصدقاء والدى مسلمون وأن حواراتهم - عندما يمتد السمر - تشمل أمور الدين ، وأعود الآن لاتذكر أن السجال كان راقيا ودودا باختيار الآيات التى تدعو للألفة والمحبة ، وعندما كبرت وتعرفت على نصوص أكثر فاكتشفت الحكمة التى كان يتمتع بها جيل أبى وجدى وكيف أنهم يعرفون معظم النصوص ، ولكنهم بذكاء وفطنة وفهم يختارون من بينها ما يدعم الوحدة

الوطنية ، وعلى سبيل المثال كان الحديث عن قصص خروج بنى إسرائيل من مصر فى كل من التوراة والقرآن ثم يتبارون فى سيرة سيدنا يوسف ونقائه حسبما جاء فى نصوص الإنجيل والقرآن ثم تكون المقارنة بين الوصايا العشر وما يقابلها من نصوص قرآنية وكيف أن القيم الأخلاقية واحدة أو متقاربة ، وعندما كانت تأتى سيرة السيدة العذراء مريم كنت أحس بكل منهم يحاول أن يُعلى من قدرها وكيف أنها أفضل نساء العالمين .

وأتذكر الآن كيف أنهم كانوا يتحاشون الحديث عن «التثليث والتوحيد» أو ، عن «صلب المسيح» وما إذا كان حقيقة أو خيالا أو غير ذلك من القضايا العقائدية الحساسة والتى يدرك المصرى - دون أن يفصح - أنها موضع خلاف .



وهكذا عشت حياة - ما أسميته فيما بعد عندما كبرت - البحث عن «الأرضية المشتركة» والبعد عن القضايا الخلافية والتى تتحول إلى صدام أو خصام وهذه خاصية مصرية أصيلة قد لا يكون لها نظير فى معظم البلدان العربية المجاورة .

ولم يقتصر أمر هذا التداخل فى النسيج الثقافى المصرى بساقية المسلم والقبطى على المجالات السياسية فى حزب الوفد أو بين مثقفى الطبقة المتوسطة أو بحماس كبار ملاك الأرض فى بناء المساجد والكنائس معا مثلما تم بالفعل فى عشرات القرى المصرية

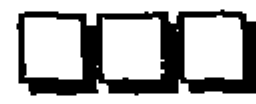
ولكنه امتد للعلاقات الداخلية بين الأسرة من خلال النساء والأطفال ، فقد كان لأمي نشاط اجتماعي واسع ، ولها موقع الريادة بين الجيران فى المنطقة إذ كانوا يستشرونها فى القضايا المهمة مثل الزواج أو الطلاق وكنت أشعر وكأنها موضع أسرارهم الدقيقة .

ومن بين ذلك أن جارة لنا أذكر إننى كنت أناديها «تيزة أم حسين» كانت تشكو لأمي من احتمالات أن زوجها قد يتزوج عليها وكيف السبيل لـ «قصقصة ريشه» وكانت أمي تنصحها – على قدر ما كنت أستوعب من فهم فى هذه السن المبكرة – بأن تغرقه بحنانها وأن تجعل أولاده وبناته حوله باستمرار .

وعندما تقدم السن بالسيدة «أم حسين» كانت تخشى أن توافيها منيتها فجأة دون أن يتوافر لزوجها ما يكفى لمواجهة مصاريف هذا اليوم العصيب ، فقد كانت لا تذكر اسم زوجها «عم حسين» إلا مقرونا بأن «يده مخرومة» .

وكنت ألاحظ أن «أم حسين» تدخر لدى أمي بعض المال والذى تزيده أو تأخذ منه حسب حاجتها بين الحين والآخر وكأن والدتى «بنك ملاكى» سهل المنال ، وفى أحد الأيام جاءنا من يقول أن «أم حسين» قد ماتت ، وحزنت أمي وبكت ، وفى هدوء أعطتنى منديلا ملفوفا يحمل داخله عملات مالية من فئة الجنيهات العشر ، وقالت

«اعط هذا المنديل إلى عمك أبو حسين فهذه أمانة تخص أم حسين لمصاريف جنازتها» .

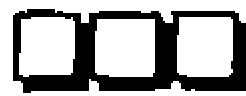


وفي كل مرة كنت أسرد هذه القصة على أصدقائي وزملائي ، كانوا يرددون روايات مماثلة ، ولكن تغير المناخ الثقافي والفكري هو الذي يضطرنا لأن نستشهد بما كنا نعده في الماضي أمورا عادية لتداخل العلاقات الحميمة بين المسلمين والأقباط .

ولذلك ومواصلة للعمل من أجل ثقافة مصرية متكاملة رغبت في أن ألقي الأضواء على «الثقافة القبطية» ، ومن هنا كانت هذه الخواطر الشخصية - التي أعتذر للقراء في أنها جاءت طويلة ، ولكنني أرجو ألاّ تكون مملة - لكي أبرز كيف انفعل جيلي بهذا المناخ الخاص الذي تولد عبر التاريخ - عبر قرون طويلة تزيد عن ألف عام - وزادته الحركة الوطنية قوة وتماسكا وتأكيدا ، وأدى بالفعل إلى تحقيق مكاسب وطنية وإعلان تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ كما سبق القول في وقت مبكر قبل أي مستعمرة بريطانية أخرى .

وعقب حرب ١٩٧٣ رغب الرئيس السادات أن يبني دولته بطريقة تخالف ما كان يجري في أيام الرئيس عبدالناصر ، وكان أن استفاد من وجود تيار ديني كان قد ضمر نفوذه في مصر وهاجر إلى دولة عربية مجاورة ، فنما هناك وعاد متعاونا مع

السادات ليساعده في قهر الحركة اليسارية في مجملها ، فتدفق تمويل مباشر وغير مباشر من دول عربية كانت معادية لنظام عبدالناصر ، وبينها وبين مصر ثأر تاريخى ، فوجدتها فرصة لأن تجعل مصر تابعة لها من خلال العواطف الدينية ، فانتشر التطرف لكى يطمس ملامح «الخصوصية المصرية» ، حيث للثقافة ساقان أو جناحان هما الاسلام كما فهمه المصريون أى ما يمكن أن نسميه الاسلام المصرى والمسيحية كما فهمها المصريون أى المسيحية القبطية ، فالقبطية صفة قومية وليست دينية ، وعندما تقول مسيحية قبطية فمعناها مسيحية مصرية ، ويلمس كل محايد منصف كيف أن الثقافة المصرية - بركائزها العربية الإسلامية - تختلف بشكل واضح عن جميع الثقافات العربية الإسلامية المجاورة ، وأتصور أن كل منصف يقر بأن أحد أسباب تسامح المصريين ورحابة صدرهم يعود إلى وجود هذه الساق الأخرى وهى الثقافة القبطية.



دخل الإسلام مصر عام ٦٤١م . كما هو معروف ، لكن عمرو ابن العاص كان سياسيا بارعا لم يضغط على «القبط» أى المصريين ليتحولوا إلى الاسلام . وهكذا تحاشى الدخول في حرب معهم من خلال تعهداته والتزاماته الأدبية مع الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط الشعبى المختار من اراخنة الأقباط (أى رؤساء

الشعب وليس من رجال الدين وحدهم) وكان هاريا من طغيان الامبراطور البيزنطى «هرقل» الذى كان يود أن يفرض على المصريين العقيدة «الملكانية» (أى المرتبطة بالملك ولذلك يسمون المسيحيين فى لبنان وسوريا حتى الآن طائفة الروم أو الأروام أو الملكانيين) وفى تقديرى المتواضع - وأنا لست متخصصا فى علوم التاريخ - أن مصر لم تتحول بأغلبيتها إلى الاسلام إلا فى القرن العاشر مع دخول الفاطميين إلى مصر ولذلك ظلت الأمور «بين بين» من منتصف القرن السابع حتى منتصف القرن العاشر ، وبعدها انتشر الاسلام على نطاق واسع .

وفى الأغلب الأعم كان الرجل يتحول إلى الدين الجديد - لسبب أو لآخر - ويترك زوجته على دينها أى مسيحية قبطية ، وكان على الأولاد التحول إلى دين الأب وفق قواعد الشريعة ، ولذلك تعايشت فى كثير من البيوت ديانتان حيث الأم قبطية والأب (وبالتالى الأولاد) مسلمون ، ولذلك - ولسنوات طويلة - كانت هناك ممارسات ثقافية (وربما دينية) متنوعة فى البيت الواحد ، حيث يذهب الأطفال مع الأب لصلاة الجمعة ، ومع الأم لصلاة القداس يوم الأحد .

وفى كثير من البيوت فى عمق الصعيد وحتى سنوات قليلة كان الاحتفال بعمل الكعك وتكحيل العيون للنساء والبنات يوم سبت النور السابق مباشرة لعيد القيامة ثم احتفال الجميع بتلوين

البيض وأكل الفسيخ وشم البصل يوم الأثنين فى عيد شم النسيم واللاحق لعيد القيامة مباشرة ثم كانت ممارسات «الغطسة» فى الترع يوم عيد الغطاس (وهو المناسبة الدينية للاحتفال بعيد تعميد المسيح بعد الميلاد بنحو ١٢ يوما فى ١٩ يناير من كل عام) ولعله عيد فرعوني قديم .

وأتصور أن هذا التداخل الحضارى - الذى عاشه جيلى بين الأقباط والمسلمين يعود لقرون مضت وقد كان الأطفال المسلمون يؤدون بعض صيامات الأقباط وبالذات صوم عيد السيدة العذراء (ويأتى من ٧ إلى ٢١ أغسطس من كل عام) ومن المؤكد أنهم كانوا يصومون مع آبائهم شهر رمضان ، ولذلك فان الأقباط يشار إليهم فى الريف المصرى حتى الآن بأنهم «اخوالنا» من منطلق أن أخوال هؤلاء الأطفال - الذى تحول أباؤهم إلى الاسلام وظلت أمهاتهم مسيحيات - كانوا بالفعل اقباطا .

واعتقد أن كل من الإسلام والمسيحية فى مصرى يرتكزان ثقافيا على أرضية مشتركة هى ممارسات الحضارة الفرعونية القديمة ، ومن هنا فإن هذه المساحة المشتركة بين المسيحية والإسلام هى خصوصية مصرية لأن كلا منها يشترك مع الآخر فى جانب كبير من مفاهيم الحضارة الفرعونية وتقاليدها .

ويبدو ذلك واضحا فى كثير من الممارسات داخل الكنيسة القبطية التى توجد لها جذور وامتداد فى الحضارة الفرعونية ،

فالموسيقى والألحان لابد وأن تكون محصلة الموسيقى فى الحقبة الفرعونية ثم الحقبة «اليونانية - الرومانية» ، ولذلك لا استغرب هذا التشابه الواضح بين ألحان الأذان وقراءات القرآن وبين ألحان القداس القبطى . وقد كنت ألمس - عندما كنت أذهب للعزاء فى السودان (ويسمونه هناك البكا) أنهم يحضرون اسطوانات لمقرئين مصريين ، ربما لارتباطاتهم التاريخية بتراث مصر من خلال بلاد النوبة فالعالم الاسلامى يستمتع بقراءات القرآن التى تتلى بواسطة المقرئين المصريين .

وأتصور أن الرداء الأسود الذى يلبسه الكهنة المصريون لابد أن تكون له علاقة برداء الكهنة لدى الفراعنة ، بل ربما تكون فكرة وجود أكليروس أى رجال دين استمراراً لمفاهيم الكهنوت لدى الفراعنة ، وكذلك صحن الكنيسة وتقسيماتها الداخلية وما يسمى الهيكل وصولا لـ «قدس الأقداس» الذى «يدخله الكهنة مرة كل سنة ليكفر عن نفسه وعن كل الشعب» ، وكذلك المذبح والبخور وما إلى ذلك ، وكمهندس معمارى لا أتصور المنارة أو المئذنة إلا تطوير لفكرة المسلة (أو المسلتين) فى مدخل معبد الأقصر تأكيدا لوجود المعبد ودعوة الناس للدخول إلى رحابه .

وقد استوقف نظرى فقرة جاءت فى الجزء الأول من كتاب «أصوامنا العامة السبعة» لنيافة الأنبا اغريغورس أسقف عام البحث العلمى والثقافة القبطية إذ يقول «وفى مصر القديمة

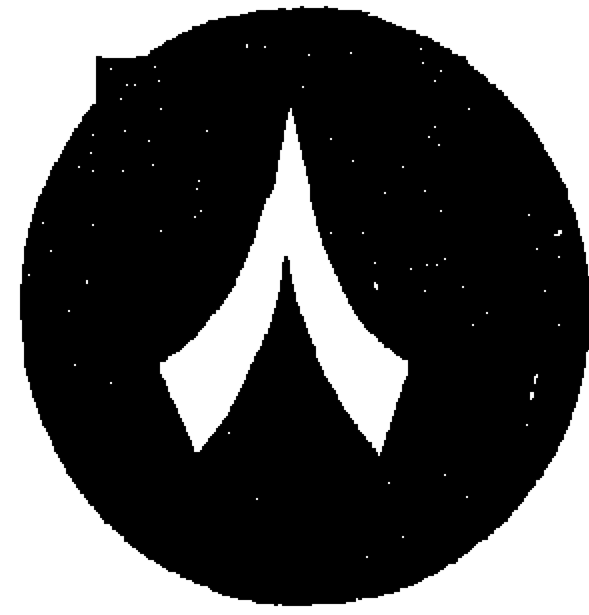
هيرودوت تبين أن المصريين القدماء كانوا يصومون ثلاثة أيام من كل شهر ولاحظ هيرودوت أنهم كانوا - أيامها ، وربما بسبب ذلك الصوم - من أكثر الشعوب صحة» .

وتوجد شواهد كثيرة على تأثر الاسلام في مصر بكل ما سبقه من حضارات - وهى الفرعونية واليونانية - الرومانية والقبطية ، بل يتميز الاسلام فى مصر - من وجهة نظرى- بأنه استوعب وتجاوز الخلافات المذهبية داخل الاسلام ذاته ، ولذلك فان لمصر أن تفخر بأن بها اسلاما واحداً بخلاف كل الدول الإسلامية الأخرى حيث التناحر - ظاهر وخفى - بين الفرق والمذاهب المختلفة ، ذلك أن مصر صارت شيعية مع دخول الفاطميين إلى مصر ولذلك أنشأوا الجامع الأزهر نسبة إلى «فاطمة الزهراء» ، وقد قبل الأقباط المذهب الشيعى بترحاب لوجود بعض الشبه بينهما ، ولكن مع دخول «صلا ح » الدين الأيوبى» إلى مصر تحول شعب مصر كله إلى السنة ، ولكنه - منطقيا وطبيعيا - احتفظ بالكثير من العادات والممارسات الشيعية، ولعل أبرزها هو الاحتفالات بيوم «عاشوراء» والاهتمام بزيارة الأضرحة وبالذات التبرك بزيارة جامع «سيدنا الحسين» و«السيدة زينب» .

ثم يأتى موضوع «شفاعة المشايخ» وأضرحتهم مناظره بل امتداد طبيعى لما هو موجود عند الأقباط من «شفاعة القديسين» حتى لاتكاد تخلو محافظة - أو مدينة - ومن شيخ شفيع حيث

يقـام له «مـولد» كل عـام فـهناك «أبوالعـبـاس» فـى الاسكندرية و«سيدى إبراهيم الدسوقى» فى دسـوق و«السيد البدوى» فى طنطا وسيدى عبدالرحيم فى قنا وهى تناظر موالد للشهيد العظيم مار جرجس فى كنيسة ميت رمسيس قرب ميت غمر ثم مولد العريان فى المعصرة قرب حلوان ثم مولد الشـهيدة الست جميانة فى بلقاس بكفر الشيخ وغيرها كثير وأعتقد أن لهذا الأمر علاقة بذات التراث عند الفراعنة الأقدميين وهو أمر يحتاج لتحقيق تاريخى عند فحص أساليب المصريين فى احتفالات مولد النبى والتى لاتقتصر على عمل الحلوى وإنما فى عمل عروسة المولد من السكر، ويقال إن لها أيضا جذورا فرعونية وربما قبطية ان أحوال مصر لن تستقر ثقافيا إلا بوجود الساق الثقافية الأخرى وهى ساق الثقافة القبطية والتى قد طمست فصارت الثقافة فى مجملها عرجاء أو تشكو من شلل الأطفال.

امتدادا لتوفير التوازن اللازم للثقافة والمفاهيم فى مصر ، ينبغى أن نقيم الثقة بين الدولة والشعب وهى الركيزة لأى تقدم وإنجاز ، ولذا فإن لبناء الثقة جناحين هما المعلومات والشفافية .



الشفافية والمعلومات
هما
جناحا «بناء الثقة» ..!!

تفضلت الخارجية ، بدعوتي لحضور ندوة تقوم بها «منظمة الأمن والتعاون الأوروبى» وتستضيفها الخارجية المصرية ، حول قضية أعجبت كثيرا بموضوعها وهو «اجراءات بناء الثقة» وقد شدنى أكثر عناوين الدراسات والجلسات ، فكلها تبغى الوصول إلى «الشفافية» وهو مصطلح جديد أصبح شائعا فى عالم السياسة بعد أن كسرت تكنولوجيا وثورة المعلومات والاتصالات حواجز «السرية» التقليدية التى كانت تقيمها كل الدول كالمتاريس، وستخف حدتها شيئا شيئا مع الزمن ومع التقدم العلمى الذى ينشر المعرفة والمعلومات .

ومن هنا فإن القضية ليست مجرد حرية نقل المعلومات بالكمبيوتر أو تخزينها أو تشفيرها (أى عمل شفرات حتى لايتمكن الآخرون من الوصول إليها) وإنما هى قضية حرية نقل المعلومات وتداولها من منظور مفهومنا الثقافى أى الباطنى الداخلى وليس الخارجى المظهرى ، والذى لايزال مؤمنا بفوائد «السرية» لأن من «يدارى على شمعته تنور» حتى أصبحنا كشعب مصابين بمرض الشيزوفرينيا أى إنفصام الشخصية : الأولى صريحة فى الجلسات الخاصة والأخرى حذره مرتبطة فى العلن أو منافقة فى وسائل الاعلام من خلال خطب تقليدية رنانة الخطب الرنانة .

أخذت أفحص الأسباب التى تدعو «منظمة الأمن والتعاون الأوروبى» لكى تناقش - بوضوح وفى العلن - بل وفى ضيافة دولة

لا تنتمى إلى اتحاد أوروبا ، قضايا دقيقة وحساسة مثل التسليح فضلا عن الأمور التى تتعلق بالجيوش والمخابرات وغيرهما ، ذلك أن دول أوروبا - وهى تنتمى إلى لغات وربما لثقافات مختلفة - وكانت لسنوات طويلة بينها وبين بعض حروب طويلة كان آخرها وأكثرها تدميرا الحرب العالمية الثانية والتى مازال من خاضوها على قيد الحياة .

إن أوروبا - شرقا وغربا - وهى تتطلع لدعم «الاتحاد» وصولا إلى «الوحدة» تود أن تخطط لتبنى مستقبلها على أساسات «بناء الثقة» وليس على الشعر والعواطف والكلام المرسل ، ولذا تبحث وتتمحص قبل أن تتخذ القرار مؤمنين بالمثل الذى يقول «النجار الشاطر يقيس عشر مرات قبل أن يستخدم المنشار فى قطع الأخشاب» وهذا فى المقام الأول مفهوم ثقافى ينتجه المجتمع فى مجمله شاملا التراث وغالبا ما يسود هذا المفهوم من الوزير إلى الغفير .

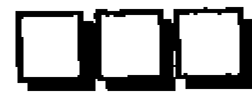
ولا أستطيع أن أقاوم طرح المقارنة بين هذا المفهوم الثقافى لما يجرى فى أوروبا وبين أمور عاصرها جيلى فى مصر من ممارسات الوحدة ، مرة كانت مع سوريا عام ١٩٥٨ وانتهت بالفشل ، ثم مرة مع ليبيا وسوريا فى أوائل السبعينات ثم مات «الاتحاد» فى هدوء دون اعلان.

ثم جاءتنا أخبار أفراح ومهرجانات الوحدة التى أعلنت – فى أيام وبدون دراسة – بين اليمن الشمالى «القومى» واليمن الجنوبى «الماركسى» فى أوائل التسعينات وفى وقت متزامن مع الوحدة بين ألمانيا الغربية الرأسمالية وبين ألمانيا الشرقية «الشيوعية» وها نحن نجد الفارق الشديد بين كل من الوحدتين ..! الأولى انتهت بحرب أهلية ، والأخرى تخطو لتكون أكبر دولة موحدة فى أوروبا .

هم – فى أوروبا وأمريكا – برجماتيون يدرسون ويحللون بمفهوم الواقع والممكن والمصلحة وسيادة وتحكيم العقل وبنظرة مستقبلية ثم يخططون لأى عمل على مراحل فى إطار البدائل والاحتمالات والتى صاروا يسمونها بـ «السيناريوهات المختلفة» ، ونحن نتحمس بالعواطف فى لحظة ونخرج كشعب له موروث ثقافى فى مظاهرات رومانسية يؤيد الوحدة ، ولكن – فى الخفاء وداخل الصدور – لكل فريق حساباته الداخلية للخروج من مأزق ، فتتم الوحدة دون طرح ومناقشة «إجراءات بناء الثقة» .. فلذا فهو مفهوم ثقافى عام قبل أن يكون قدرة وذكاء فى اتخاذ القرار ، لأننا نحمل فى داخلنا مفاهيم «التقية» أى نعلن خلاف ما نبطن إتقاء لغة الصراحة ، ولذا نجح أخرون فى تكوين «كتل اقتصادية أو سوق مشتركة» بينما لدينا نحن العرب كل معطيات ومقومات التعاون – ولا أقول الوحدة – ولكننا لم نتوقف ونتريث لكى نفحص «إجراءات بناء الثقة» وكنا باستمرار متعجلين الأمور ، وننعت من

طلب التـانى بأنه طابور خـامس يعـيق التـقـدم الذى تنادى به الجماهير ..!!

تأملت هذه المفارقات وأنا أفحص الحالة التي وصلت إليها العلاقة بين الحكومة والصحافة ، وعندما حضرت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الثالث لنقابة الصحفيين ، وجدت همهمة بين كبار المدعوين عن أسباب اعتذار رئيس الحكومة عن حضور حفل افتتاح المؤتمر بعد أن كان قد أعلن عن ذلك ، ولما عرفت أن الرئيس قد دعا حفنة من الوزراء لاجتماعات عاجلة تبحث أمور الدولة وجدت في عدم حضور الوزراء سببا معقولا ، ولكن الهمهمة والهمس لم تكن تعنى إلا حاجتنا «لبناء الثقة» وهو أمر لا يأتى بقرار سلطوى بل من خلال ممارسات فكرية وثقافية تتراكم من خلال أحوال الأسرة الداخلية ثم التعليم ثم أجهزة الاعلام وبالذات التليفزيونى ثم أماكن العبادة وغيرها وصولا إلى بناء الثقة بين الحاكم والمحكومين فلذا فهى مسألة حضارة ووقت وتعميق لآليات الديمقراطية والمشاركة الشعبية وانتخابات نزيهة وصولا إلى تداول السلطة وعندئذ نكون قد اقتربنا من «الشفافية» .



مع حضور حفل افتتاح المؤتمر ، أخذت أتصفح ملف الأوراق الذى أعده مجلس النقابة لطرحه على الصحفيين فى مؤتمرهم فأدركت سر نجاح نقابة الصحفيين وكيف أنها أخذت بالأسلوب

المتحضر فأعدت دراسات قدمت للجان المختلفة تناقش فى ضوء «معلومات» ومعطيات وبدائل وليس بطريقة «سوق عكاظ» أو منطق «هايد بارك» ، أى استعراض «كلام دون معرفة» وهى أيضا ممارسات ثقافية نراها فى معظم إجتماعاتنا على أعلى المستويات حيث يتحول الجوار إلى «مكلمة» فتطول المناقشات ولا تصل إلى قرار .

من بين القضايا والبحوث المختلفة ، استوقف نظرى الورقة ، بعنوان «حق إصدار الصحف وحق الحصول على المعلومات وتأثيرهما على حق الجماهير فى المعرفة» .

ثم كان منطقيا أن تتم المقارنة بين القوانين فى مصر والمقابل لها فى الغرب ، وكيف أن فرنسا قد أصدرت منذ ١٧ عاما تشريعا يعطى «كل مواطن حق الاطلاع على الوثائق الإدارية الصادرة من وحدات الجهاز الإدارى بالدولة أو الوحدات المحلية أو الهيئات الخاصة ذات النفع العام » أى أن الأمر لا يتعلق فقط بالدولة وإنما يمتد ليشمل الجمعيات الأهلية غيرالحكومية والمؤسسات الدينية حيث الملاحظ أن معظم المؤسسات الدينية ليس لها ميزانية معلنة ولا توجد أى شفافية فى قراراتها أو أموالها وهى أمور تثير حوارا صاخبا لأنها معتمة ولا تتمشى مع العصر وكذلك الأمر فى بعض الجمعيات الأهلية حيث تسيطر عليها مفاهيم «الشلليه» .



وجاءت هذه العبارات الواضحة والمحددة ، لكى تدفع إلى وجدانى قصة مختزنة منذ سنوات ، ومن منطلق الشفافية ، فإننى لا أتحرج عند طرحها ، ذلك أنه كانت بعض الجامعات الأمريكية قد دعتنى لزيارتها - ربما عام ١٩٨٣ أو ١٩٨٤ - وبهدف إلقاء بعض المحاضرات ، وكان أن تم هذا الأمر - وفق الاعراف والتقاليد - من خلال المستشار الثقافى للسفارة ، والذى تفضل فأنهى كل الأمور والترتيبات ، وإذ به يفاجأ - وأنا أكثر منه دهشة - بأن القسم القنصلى قد رفض منحى تأشيرة دخول فانهار البرنامج المعد مسبقا ، وغضب من هذا الأمر عدة أساتذة أمريكيين وأرسل أحدهم - وهو د. جون ميريام أستاذ العلوم السياسية بجامعة بولنجرين بولاية أوهايو ، مستفسرا من الجهات المعنية عندهم وجاءه الرد المكتوب - والذى أرسل إلىّ صورة منه - بأن سبب حجب تأشيرة الدخول هو أن اسمي مدرج ضمن قوائم حركة السلام المصرية ، وأعتقد أن هذا الأمر قد اختفى وصار من تراث وممارسات وبقايا حقبة الحرب الباردة ..!

وليس هدفى من سرد هذه القصة - والتى صارت تاريخا لمرحلة عتيقة مظلمة - هو طرح قضية شخصية انتهت من سنوات بأن منحت تأشيرة خاصة شبه مفتوحة كاعتذار ورد اعتبار - وربما استرضاء - وإنما رغبت أن أؤكد للقارىء المصرى أن حق

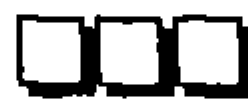
معرفة أسباب اتخاذ القرار ، أمر يتم كل يوم وبشكل طبيعى فى كل دول العالم الديمقراطى ولا يجد فيه موظف الحكومة - حتى وإن كان منتميا لوزارة الخارجية - أى غضاضة أو تململ بل هو ينفذ القانون والذى صار مقبولا بالأعراف العامة من خلال الممارسة ، فحق سؤال الدولة لم يعد مقصورا على أعضاء مجلس الشعب - وهو حق دستورى ولكنه لا يمارس كاملا وبشفافية لأن الحكومة بالاتفاق مع البرلمان تؤجل السؤال شهرا بشهر حتى يسقط بانتهاء الدورة البرلمانية - وإنما صار حق سؤال الدولة حقا عاما لكل مواطن وهو أمر أراه بعيد المنال ولا أعتقد أنه سيتم فى السنوات الأولى لحقبة «ما بعد عام ٢٠٠٠» .

فإذا ما امتنعت الإدارة الحكومية عندهم - فى الدول الديمقراطية عن تقديم الاجابة ، فإن الأمر يرفع إلى جهة «محايدة» ويمكن أن تحجب البيانات أو المعلومات بتقديم المبررات، إذا اقتنعت هذه اللجنة المحايدة بأن للحجب وجاهته لأنه يمس أمن الوطن أو خصوصية وأسرار آخرين ، حجبت المعلومات وفى هذه الحالة يطعن المواطن فى قرار تلك اللجنة أمام القضاء .

أن حق المواطن فى الحصول على المعلومات لهو تأكيد لمفاهيم الديمقراطية وتجسيد لكرامة المواطن وإبراز لعدالة ونزاهة وموضوعية وحياد الدولة ، ومن هنا هو سبيل «بناء الثقة» ويا حبذا

لو كان المؤتمر الثالث للصحفيين نقطة البداية فى هذا الطريق الطويل .

ولمقارنة ذلك بما يحدث فى مصر ، كان أن حقق معى لدى المدعى العام الاشتراكى كجزء من استكمال التحقيقات مع من شملهم قرارات الاعتقال فى سبتمبر ١٩٨١ ثم كان أن رغبت أن أسجل هذا التحقيق - أو جزءا منه - كملحق لكتاب (*) سجلت فيه ما جرى معى فى هذه الحقبة التاريخية والتى لها أهمية عامة فضلا عن الأهمية الشخصية ، وحاولت من خلال اتصالات كثيرة وعلى مستويات رفيعة أن أحصل على صورة من هذا التحقيق الذى تم معى ، والذى لم أرغب أن أكتبه من الذاكرة ، ولكننى لم أنجح ،لأن مفاهيم الشفافية وتداول المعلومات - ومن المفروض أننى طرف فيها - لم تستقر بعد أو تصبح من المقبولات الثقافية.!



لقد عشنا لسنوات طويلة مناخ الحروب منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٧٣ ثم مع صدور قرارات التأميمات المفاجئة والمتتالية خلال حقبة الثورة ، مناخ «السرية» فى كل موقع ، وتوهمنا أن من ينقل أخبار مرت عليه بحكم عمله يكون بمثابة «الجاسوس» أو

* سجلت من الذاكرة ما شاهدته خلال حقبة الاعتقال من سبتمبر إلى نوفمبر ١٩٨١ فى كتاب بعنوان «ذكريات سبتمبرية»

«الخائن للأمانة» ولكن عندما علقت فى السماء أقمار صناعية تدور حول الأرض «تتجسس» وتعرف « دبة النملة» وعندما علق فوق معظم العمارات طبق يلف ، فينقل إذاعات الأرض بالصورة من كل موقع ، عندئذ تكون قد دخلنا عصرا جديدا يحمل قيما ومفاهيم جديدة ولذلك لم يكن أمام الاذاعات المحلية - فى مصر وفي غير مصر - إلا أن تذيع الأخبار التى كانت لها صبغة السرية حتى سنوات قليلة مضت ، لأن الأخبار ستنقل على أى حال من خلال إذاعات أخرى وتصل للداخل ولأن الانسان عدو ما يجهل لذلك فإنه عندما يتم التعتيم الاعلامى على الأخبار يتناقلها الناس من خلال الاشاعات وغالبا ما يكون مبالغا فيها ، فلذا فإن الوزراء يفرضون سرية شديدة على ما لديهم من تقارير ومعلومات حتى فى المشاريع الهندسية وتقسيمات الأراضى وتوزيع أو تخصيص الشقق والفيلات وما أشبه وهى ممارسات تتم كل عام دون إحتجاج من احد بل الخل يدخل فى ذات ،لنهج ويلتف حول الشفافية بالوصول إلى شخص يتشفع لدى السلطات الظالمة والمجحفة الواسطة وهو أول الطريق إلى الفساد .

وقد نجح البعض فى إخفاء أخطائه أو خطاياه لسنوات ولكن فى نهاية المطاف تعرف الحقائق ويكون الرأى العام صورة حقيقية عن كل شخصية عامة على الرغم من مقالات التصفيق أو عبارات المجاملة أو النفاق التى لم تعد تنطلى على أحد .

إن اعتقادى الشخصى أن الوقت ناضج ومناسب وكبداية متواضعة في طريق الشفافية ونشر المعلومات المتاحة والجاهزة لكي يصدر د. فتحي سرور قرارا بان تحول كل التقارير الصادرة من الجهاز المركزى للمحاسبات ، من المكتبة المحظور نشرها فى ديوانه ومكتبه الخاص بالمجلس لكي تودع فى المكتبة «العامة» لمجلس الشعب ، وهى من أحسن المكتبات التى بها مراجع تحكى تاريخ مصر لما يجرى فى اللجان أو تحت قبة البرلمان .

إن الجهاز المركزى للمحاسبات من أحسن وأفضل أجهزة الدولة التى لها مصداقية لدى الشعب المصرى وتعتبر تقاريره ومراجعة محاسبيه من أفضل أدوات «التصحيح الذاتى للنظام» ويدل على ذلك ما يجرى من مناقشات فى الجمعيات العمومية لشركات القطاع العام ، غير أن التقارير التى تخص نشاط الوزارات مازالت سرية وترسل نسخ منها إلى مكتب رئيس مجلس الشعب ، وهو وحده صاحب الاختصاص فى التحويل إلى رؤساء اللجان أو مناقشتها ، وأعتقد أن رفوف المكتبة لهذه التقارير والتى تتراكم عاما بعد عاما ، قد صارت تئن ليس فقط من ثقل أوراق التقارير ، ولكن لما بها من مآسى وتجاوزات قد دخلت عالم النسيان .

ولما كانت مصداقية المجلس قد أصابها كثير من الرزاز لامرار

القانون ٩٥/٩٣ فى ظروف يشوبها الغموض (*) ، فإن من حسن السياسة أن نعيد للمجلس مصداقيته وكيف انه لايتستر على فساد أو أخطاء الوزراء لأن اختصاصه الأصلى هو أن يراقبهم أو انه قد صار أداه فى يد السلطة التنفيذية ، ولذلك فإن الإفراج عن سرية تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات ووضعها فى مكتبة المجلس العامة ستكون لفتة كريمة تقابل بالترحاب داخل وخارج مصر لتكون عربونا لسياسة الشفافية الجديدة وستصبح مادة هذه التقارير المتراكمة لسنوات شيقة لمئات الصحفيين الدارسين الجادين فى تحقيقاتهم وكتاباتهم ، وعندئذ ستظهر عشرات القصص والحكايات والتى ستدخل الأوكسجين إلى جو الحياة السياسية فى مصر التى تشكو من الاختناق. وفى تقديرى فإن الدكتور عاطف صدقى سيرحب بهذه الخطوة خصوصا وأنه قد أكتسب سمعته فى الدقة والأنصاف والجدية من خلال عمله الدوب

---

* كان مجلس الشعب وفى ليلة كالحة قد خطط فى سريه تامه لكى يمرر تعديلات تحد من جرية الصحافة فى قانون أخذ رقم ٩٣ لعام ١٩٩٥ وكان المخطط أن يناقش فى جلسة مسائية أمتدت إلى ما بعد منتصف الليل وفى ذات الجلسة أعلن عن فض الدورة البرلمانية ، ولكن الصحفيين أدركوا الملعوب وعقدوا جلسة تاريخية فى ١٠ يونيوة ١٩٩٥ ، واضطرت الحكومة ومجلس الشعب للتقهقر وكان القانون وكأنه جرية كل يحاول التنصل من المشاركة فى اصداره وفقد مجلس الشعب مصداقيته ويحتاج لجهد مضاعف حتى يسترد قدر من مصداقيته .

فى الفحص والدراسة قبل التصديق على تقارير الجهاز المركزى للمحسبات ، وكان ذلك هو ذخيرته فى معرفة المعلومات والبيانات عن الأفراد من واقع كشف بأشعة إكس على ما فى «كرش» الدولة من الداخل .

إن حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ لها معايير جديدة تتبعها الحضارة الغربية التى ننتقدها ، إن الكثير من هذه المعايير جيدة وعلينا أن نتدارسها ونتبعها ، لأنه ليس من سبيل لبناء الثقة بين الدولة والشعب إلا من خلال نهج جديد * تتوافر فيه المعلومات - بقدر الامكان - لكل إنسان وصولا إلى الشفافية ، عندئذ سنكون على عتبة مجتمع أرقى واستكمالا لقضية بناء الثقة ودعم الديمقراطية الشعبية من خلال الجمعيات الأهلية - المسماة عادة - الجمعيات غير الحكومية أو القطاع الثالث .

* يمكن الرجوع إلى الجزء الثانى من هذا الكتاب لتفاصيل «القيم والمفاهيم لمرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠» .



من «ضمور الدولة»
إلى «المشاركة الشعبية»

من أدبيات الفكر الماركسي كتاب مشهور ألفه لينين بعنوان «ذبول أو ضمور الدولة» تنبأ فيه بأنه مع انتصار الثورة الإشتراكية سيضطر الحكم الجديد أول الأمر لأن يمارس اسلوب «القبضة الحديدية» لخصها في عبارة «ديكتاتورية البروليتاريا» ، ولكن مع استقرار الحكم ستعطى «كل» السلطة لمندوبى الشعب أى «السوفييت» وقد تنبأ بأنه مع استقرار الأوضاع واختفاء الطبقات ستضمر قبضة الدولة رويدا رويدا حتى «تذبل» ويكون عندئذ الحكم بالشعب للشعب مباشرة ويتحقق حلم البشرية فى اختفاء الحكومة والتى تحكم باسم طبقة ويكون الحكم مباشرة للناس .

وفور تفكك الإتحاد السوفييتى انطلقت قوى فكرية من كل توجه واتجاه وظهرت رؤى متباينة بل لعلها متناقضة ، ففي أمريكا كان الحديث عن «نهاية التاريخ» ، وكأن البشرية تتحرك دون بوصلة أو أيدولوجية تحدد إتجاه الحركة ، وفى مواقع أخرى إلتف البشر حول الجذور والسلفية الدينية أو المذهبية أو العرقية فى نظرية صموئيل هانتجتون عن صراع الحضارات وقد حللناها ونقدناه وقدمنا البديل الانسانى عنها من قبل برز تيار قوى آخر يدعو إلى «المجتمع المدنى» والذى يدور حول فكرة محورية هى «المشاركة الشعبية» وكيف ان الحكومة غير قادرة على الوفاء بكل متطلبات البشر ، ومن ثم تأكدت الحاجة إلى حق المواطنين فى تكوين جمعيات أو هيئات أو تنظيمات أهلية بناء على مبادرة من أفراد عاديين ووفق طموحاتهم ورؤيتهم المتجددة والمتغيرة .

وفى هذا الأمر تلاحظ أن الناس تتحرك لتحقيق أهدافا فى كل أنواع النشاط الانسانى من فعل الخير ورعاية الضعفاء فى المجتمع إلى منظمات حقوق الإنسان ومناصرة المرأة ورعاية الطفولة وصولا إلى التشكيلات غير الحكومية ومن بينها تلك التى تحافظ على البيئة أو تدعو لفكرة ثقافية أو إنسانية يمكن أن يتجمع حولها أفراد لتحقيقها وقد يمتد الطموح لتشكيل أحزاب سياسية تسعى للوصول إلى الحكم بطرق شرعية أى من خلال الناس أنفسهم .

وربما كانت البداية هنا فى القاهرة حين دعى الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود لعقد «مؤتمر التنظيمات الأهلية العربية» من ٣١ أكتوبر إلى ٣ نوفمبر ١٩٨٩ تحت شعار «مشاركة عطاء وإنماء» وبالفعل اجتمع المختصون مع مئات من مندوبى الهيئات غير الحكومية من جميع أرجاء العالم العربى ليناقشوا السبل التى تجمع صفوفهم وتدعم كل اشكال العمل الأهلى أو الخيرى أو التطوعى ، وقد أصدر هذا المؤتمر مجلدا ضخما وفريدا يحتوى على «بحوث ودراسات» تقدم أوضاع التنظيمات الأهلية فى بلدان العالم العربى ، ولعل هذا المجلد هو فى حد ذاته إنجاز فريد لأنه يسجل بين دفتيه بيانات مهمة ربما تكون قد تجمعت لتنشر لأول مرة عن هذا النوع من نشاط الهيئات غير الحكومية ، حيث اتضح أن هناك تفاوتا شديدا فى مستويات الأداء فى الدول العربية

المختلفة وفق ظروفها المتباينة ، وربما كانت مصر أقدم البلدان العربية التى عرفت النشاط الأهلى فى العصر الحديث وفق بيانات جاءت فى بحث قدمه أحد الخبراء المصريين ، فعرفنا من خلال هذه الدراسة معلومات تاريخية جديرة بالتسجيل ، فقد تكونت بالاسكندرية الجمعية الخيرية اليونانية عام ١٨٢١ ثم الجمعية الجغرافية عام ١٨٧٥ ثم جمعية التوفيق القبطية عام ١٨٩١ لرعاية الفقراء ونشر التعليم ثم الجمعية الخيرية الإسلامية عام ١٨٩٢ لذات الأهداف الخيرية والتعليمية ، وكان هذا النشاط الأهلى هو التمهيد الثقافى للحركة الوطنية عام ١٩١٩ .

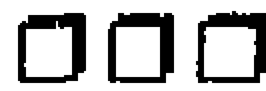
ومن منطلق موقعى كرئيس لجمعية التوفيق القبطية كنت تواقا لأن ينظم احتفال قومى مشترك لمناسبة مرور نحو مائة عام على تأسيس أقدم مؤسستين أهليتين خيريتين مصريتين هما الجمعية الخيرية الإسلامية، جمعية التوفيق القبطية وكنت متطلعا لأن ينال هذا الأمر رعاية القيادة السياسية لأنه يندر وجود دولة أخرى فى العالم الثالث (وربما فى كثير من دول أوروبا وأمريكا) لديها مؤسسات أهلية خيرية تطوعية بهذا العمق التاريخى .

وفى ذات الوقت الذى عقد فيه مؤتمر القاهرة هذا العام ١٩٨٩ كانت هناك اهتمامات مماثلة فى مواقع أخرى من العالم ، قد أثمرت هذه الاتصالات والجهود عن تشكيل لجنة دولية عام ١٩٩١ وأعلن المؤسسون عن رغبتهم فى إنشاء ما أسموه «الرابطة العالمية

للمشاركة الشعبية» -"WORLD ALLIANCE 'FOR CITIZEN PA
TICIPATION" ولكي يلتف الناس حول كلمة واحدة بدلا من هذا العنوان الرسمي المطول ، إتفقوا على أن يطلقوا على هذه المؤسسة الأهلية العالمية الكلمة اللاتينية «سيفكس»"CIVICUS" والتي لا تعني في واقع الأمر أكثر مما أصبحنا نسميه «المجتمع المدني»، أي تلك التنظيمات المبنية علي المبادرات الشخصية الفردية والتي تلتف حول قبول مبادىء «التعددية» والتطوع لكل أوجه الخير والبر وقضايا البشر من خلال مشاركة المواطنين العاديين في مؤسسات أو تنظيمات غير حكومية -"NON- GOV
ERNMENTAL ORGANIZATIONS" والمعروف الآن عالميا بالحروف "NGO`S"، وقد تصادف ان لاقت هذه الدعوة قبولا في أوروبا وأمريكا حيث كانت قد تكونت تنظيمات مماثلة تنسق أعمال المنظمات التطوعية "CEDAG"ومركز المنظمة الأوروبية EGC وبرنامج أوروبا الجديدة NEPوغيرها فضلا عن المنظمة الضخمة المسماة «القطاع المستقل» "INDEPENDANT SECTOR" في الولايات المتحدة الأمريكية وكانت ذروة هذا النشاط الدولي عندما عقد الاجتماع الأول التأسيسي لهذه الرابطة الدولية لمشاركة المواطن "CIVICUS" في مدينة برشلونة بأسبانيا في الفترة من ٢٩ إلى ٣١ مايو ١٩٩٣ ، حيث تم اعلان تأسيس هذه الجماعة

وتشكيل أول مجلس للمديرين "BOARD OF DIRECTORS"، والذى يتكون حاليا من عشرين عضوا يمثلون ست مناطق تغطى كل بلدان العالم هى: أمريكا الشمالية - أمريكا اللاتينية ودول الكاريبى - أوروبا (شرقا وغربا) - الشرق الأوسط - آسيا - أفريقيا .

وقد مهد كل ذلك لعقد اول اجتماع لهذا التنظيم الدولى الوليد فى المكسيك فى يناير ١٩٩٥ حيث انعقدت أول جمعية عمومية لأعضاء من مختلف دول العالم ممثلين ومؤيدين لجمعيات أهلية في بلادهم وكان من نصيبى وسعادتى ان اكون عضو مجلس المديرين عن المنطقة العربية وساهمت بمشاركة فعالة وبحماس في تكوين هذه الهيئة العالمية والتى اتوقع ان تلعب دورا فى تنشيط القطاع الاهلى في البلدان العربية .



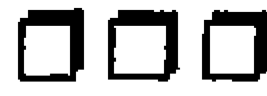
إن «سيفكس» وليد جديد لفكرة قديمة كثيرا ما حلم بها الإنسان وهى أن ينشط الفرد بارادته الحرة مع أقرانه لتحقيق هدف معين دون الحاجة لتدخل الدولة وكان ذلك قبل الميلاد ممثلا فى حلم «أفلاطون» لمدينة فاضلة تحكم نفسها بنفسها ، وفى القرن الماضى بشرت الماركسية بذبول واضمحلال قبضة الدولة وهو حلم لم يتم لاسباب كثيرة ألمحنا لها فى هذا الكتاب في مواقع مختلفة وربما تحقق الآمال من خلال هذه الرابطة الدولية التى تدعو

للمشاركة الشعبية وقبول مبدأ التعددية واحياء تراث المجتمع المدنى .

أما نحن المصريين فليس من سبيل أمامنا إلا أن ندعو لتطوير وربما تحطيم هذا «الصنم» المسمى بالقانون رقم ٣٢ لعام ١٩٦٤ ، والذى وقف ويقف حتى الآن حجر عثرة فى سبيل حرية البشر فى مصر لممارسة حقهم الدستورى والإنسانى فى تكوين جمعياتهم الأهلية والتطوعية والخيرية ، لأن ذلك هو سبيل دعم المجتمع المدنى ونشر مبادىء الديمقراطية فى ممارسة يومية فعالة ومؤثرة مثل تنشيط حركة المرأة ومن أجل المحافظة على البيئة ودعم جمعيات حقوق الإنسان وربما يكون ذلك هو الدواء الناجع - ولو جزئياً - فى حل مشكلة البطالة عن طريق توظيف بعض الشباب المتعلم والعاطل في أنشطة الجمعيات الاهلية ، فيشعر بتحقيق الذات ويحصل على أجر مهما كان متواضعا .

ولو كانت وزارة الشئون قد استمعت إلي أصواتنا منذ عشر سنوات فقط لكانت أحوالنا الآن مختلفة ولما استفحل خطر التطرف ، وقد شعرت أثناء هذا الاجتماع مع هذه المجموعة الفريدة من البشر والذين نذروا أنفسهم لتنشيط مناخ المشاركة الشعبية فى كل أنحاء العالم بصدق المقولة التي تم صياغتها وهى أن أحد المعايير لقياس درجة رقى وتقدم الدول والشعوب ، بمدى

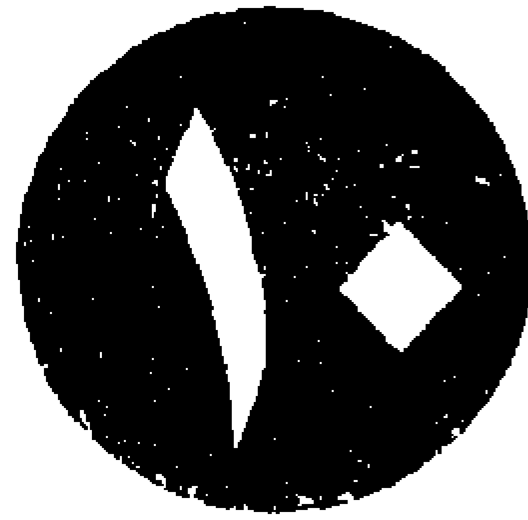
ما يتوافر لديها من قنوات شرعية لمشاركة المواطنين العاديين فى نشاط أهلى تطوعى يؤدى إلى تفاعل حى.



وإذا كنا قد بدأنا هذا الجزء بدراسة مايجرى في العالم ثم انتقلنا الى المنطقة العربية وأهمية ان تتحول الجامعة العربية لتكون نواة لكتلة اقتصادية رابعة تقييم التوازن بين الكتل الثلاثة التى تكونت بالفعل ، ثم لاحظنا ان مصر في موقع القلب من كتل ومجمعات دول ولذلك فان نجاح وتنمية مصر فى الحقبة القادمة هو مفتاح قضايا كثيرة لذلك كانت الدراسة على خصوصية مصر لكل تفريعاتها ، بما فيها الجذور الفرعونية والقبطية ، لذلك كان مهماً ان نتناول قضية بناء الثقة بين الدولة والشعب وكيف ان هذا الامر في حاجة الي واجبات وسياسة تقوم بها الدولة عمادها توفير المعلومات والثقافة ثم بفتح قنوات انشاء الجمعيات الاهلية لانها هي التجسيد الحى للمشاركة الشعبية .

ومجمل القول ، فى نهاية هذا الجزء هو ان الهدف من كل ذلك هو الانسان ، وفي مصر الشكوي واللوم كله موجه الى المواطن البسيط الذى يتزوج ولا يجد سبيلا - للامان - وفق مفاهيم ثقافية - الا بمزيد من الانجاب فكان الحديث عن الانفجار السكانى وكيف انه معين للتنمية ، لذلك رغبت في ان اختم الجزء الاول من الكتاب بدراسة عن البشر هم اللغم وربما

سبب الفقر إذا تركوا كما هم بهذا التخلف . ولكنهم يتحولون الى منجم اذا احسن تدريبهم فيتحولون الي مصدر دخل وخير ورفاهية وتقدم وهو الامر الذي نناقشه في الموضوع الاخير من الجزء الاول .



البشر هم اللغم والفقر وهم أيضا المنجم والرخاء

إبان حرب الخليج طفت على السطح كلمات وعبارات عسكرية كنا قد نسيناها من سنوات، ومن بينها أن ساحات القتال كانت تتحول إلى حقول للألغام فتنفجر فى كل مقتحم معتد.

وكلمة «لغم» بالانجليزية أو الفرنسية تكتب "MINE" وهى تعنى بذات الحروف كلمة «منجم»، ولا يمكن التفرقة بين هذا المعنى أو ذاك إلا من سياق الموضوع ذاته، ومن هنا قفز إلى فكرى كيف أننا نتحدث عن الزيادة فى عدد السكان بعبارة الانفجار وكأنه «لغم» حتى أن البعض يراها سبب وأس المشاكل لأنها معيقة للتنمية، بينما يراها آخرون وكأنها العزوة ومصدر الخير والرخاء والأبهة ومن ثم فهى «منجم»، ومن هذا المنطلق فإن الأمم المتحدة ترفع شعار «التنمية البشرية» أى رفع مستوى معيشة الناس بالتعليم والرعاية الصحية وزيادة الدخل أى بتعدد الفرص أمام البشر وعندئذ يتحول اللغم إلى منجم.

وعندما قررت الأمم المتحدة - من سنوات - أن يكون انعقاد المؤتمر الدولى للسكان والتنمية فى القاهرة، (*) فرحنا ورحبنا، بإعتبار أن هذا الحدث هو «منجم» لأنه سيعود على مصر بالخير، وفى مقدمتها البرهان والدليل على أن موجة الارهاب قد انحسرت وبذا نكسر «النحس» الذى جعل السياحة تضمر حتى كادت تختنق واختنق من خلال ذلك آلاف وربما ملايين من البشر .

(*) انعقد المؤتمر بالفعل فى ٤ سبتمبر ١٩٩٤.

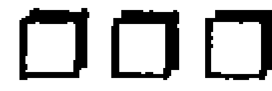
وفيما نحن مبتهجون متفائلون بهذا «المنجم» الذى حشدت له الدولة كل الامكانات لنبهر هذا التجمع الفريد من القيادات من كل أركان الأرض، إذ بالبعض يحاول تحويله إلى «لغم» بطرح قضايا فقهية تتعلق بالشرائع والقيم الدينية، وهى مسائل دقيقة تخرج الحوار عن موضوعيته وتحوله إلى «دوجما» أى «تجهض» الحوار قبل أن يبدأ بدعوى أنه ضد «الإجهاض» وفى هذا الإطار بدى الأمر وكأن فى العالم «شرخاً فكرياً» بين بشر يُعمِلون العقل ويناقشون مستقبل البشر فى موضوعية وحياد وعلم، وبين جهة أخرى يتزعمها الفاتيكان وتحالف معها رجال الدين فى كل مكان، وكأن زيادة عدد السكان ضرورة لتقف فى وجه الإلحاد أو التسيب الأخلاقى أو إنحلال القيم بل وصل الأمر وكأنه صراع بين الحضارات أو بين الأديان وهى أمور ألقينا عليها الضوء فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

ولكننى - على أى حال - كنت سعيدا بهذا الحوار المفتوح والجاد لأننا من خلاله قد أدركنا بالفعل أن «التنوع ظاهرة كونية» وإن الخلاف فى الرأى والرؤى مسألة طبيعية، ولسوف تستمر دوما، لأن هذا الاختلاف هو المحرك والدافع لشحذ الذهن ودعوة للابتكار، ومن ثم لايستوجب فتح النيران أو يقودنا إلى القتال أو الخصام أو القطيعة - وأن تطابق الآراء والفكر يجعلنا قوالب جامدة ونتحول إلى قطيع فنتخلف ونعود إلى الوراء.

فقد اجتمعت وفود المؤتمر ، وأصبحت القاهرة مركزا للأخبار وأصدرت قرارات وتوصيات وهى فى التحليل النهائى تعبر عن وجهات

النظر المختلفة وسجل أمين للصراع الفكرى حول عدد من القضايا فى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ العلم حيث أرست قواعد وأسس القيم والمفاهيم للقرن القادم فنتعرف على «الأرضية المشتركة» المتفق عليها وهذه ستتسع مع الزمن فيتكون الأسمنت الرابط للبشر.

ولابد لى أن أكون صريحا فى أننى - فى لحظة - تمنيت لو أن مؤتمر القاهرة الدولى كان حول قضية ليس لها هذه الحساسية كأن لا تكون حول قضايا غير مرتبطة بالوجدان والقيم الدينية مثلما فى مؤتمرات سابقة حول البيئة أو الاسكان أو غيرها.



دعنا إذن نتجاوز الشكل وندخل فى الموضوع ولتكن البداية بأن نُغلب الجوانب الايجابية على السلبية ونرى نصف الكوب الملآن ونغفل نصف الكوب الفاضى، ونرى كيف أن هذا المؤتمر - ومن خلال الاعداد له - قد أثار حوارا غير مسبوق لطرح وتحليل مشكلة السكان وعلاقتها بالتنمية من جميع نواحيها، فقد ركزت الحكومة على مبدأ أن أحد أسباب تخلفنا هو زيادة السكان وكيف أنه أمر معيق للتطور والتقدم والتنمية - وقد يكون هذا الفهم صحيحا فى المدى القصير ولكننا من خلال الدراسات والبحوث المقدمة اتضح أن هذا الفهم ليس كل الحقيقة، فقد عرفنا - من خلال الاعداد للمؤتمر أيضا - أن خطط ومفاهيم دول وشعوب أخرى ليست متطابقة فى هذا الأمر، فما يصلح لفرنسا ومعظم دول أوروبا - حيث التشجيع والحوافز على زيادة السكان يختلف عن

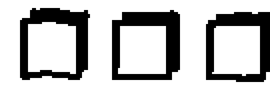
الهند ومعظم دول آسيا وأفريقيا حيث مشاكلهم قريبة من مشاكلنا، ولكن اليابان قد تجاوزت الوقوف عند مشكلة زيادة عدد السكان وحولت اللغم إلى منجم بأن ركزت على نوعية البشر من خلال خطة للتنمية البشرية فكان أن كسرت حاجز التفوق الأوروبى والحضارة الغربية، وأصبحت اليابان نموذجا فريدا فى التقدم العلمى والرفاهية الاقتصادية والثقافية معا.

ومن جهة أخرى طبقت الصين نهجا مغايرا يتفق مع ظروفها وفرضت سياسة صارمة فى الحد من الانجاب وبحيث لايسمح إجتماعيا - وأحيانا بضبط قانونى - بإنجاب أكثر من طفل واحد فى الأسرة الواحدة، ورغم الحد من الانجاب فإن التعداد الكلى يزداد لأسباب كثيرة فى مقدمتها تقديم الخدمات الصحية وطول العمر، ولكن المفاجأة الكبرى التى أزهلتنا جميعا هى معدلات النمو الاقتصادى الذى حققه الصين وبالذات مع التحدى الهائل بأنها لا يعمل - ولو نظريا - بآليات السوق ولا يخضع لمفاهيم تداول السلطة، فصمتت الأفواه التى حجبت الاعتراف بالصين الشيوعية عشرات السنوات وتلك التى طالبت بمقاطعة الصين بسبب تجاوزها لمواثيق حقوق الإنسان، وركزت الصين على صناعات بعينها غزت بها العالم كله حتى يقال بأن الصين تنتج معظم الملبوسات للقارة الأمريكية وأصبح الشرق الأقصى بفلسفته وحضارته وإنتاجه شيئا مذهلا.

وأصبحنا نحن فى العالم العربى أمام تحدٍ حضارى من أوروبا غربا ومن اليابان والصين شرقا.

ولم يطالب أحد أن نأخذ نموذج الصين أو الهند، فلنا قيمنا الدينية وعاداتنا الاجتماعية التى لا تمكّن الحكومة من فرض قيود على الانجاب مثلما تفرضه حكومة الصين مثلا.

وقد يتوهم البعض أن الحل هو فى الهجرة إن كان ذلك متاحا أو ممكنا ولكن الهجرة فى ظروف العالم الحديث غير ممكنة إلا لأفراد مدربين بمهارات عالية لكل من القدرات العقلية واليدوية بما تسمح لهم بفرص العمل وأن يكونوا مطلوبين إما فى الدول الفقيرة إن كانت لهم مهارات يدوية أو فى الدول الصناعية إن كان لهم مهارات علمية فائقة.



ولن يفرض هذا المؤتمر علينا - أو على غيرنا - أى قرارات ولكنها دعوة لحضور مائدة مفتوحة تقدم كل ألوان الطعام من لحوم وأسماك وخضراوات وفاكهة مطهية بطرق مختلفة بعضها مسلوق بسرعة أو مسبّك على نار هادئة وهى منتجات وحصيلة خبرة دول وحضارات وقيم ورؤى كل شعوب العالم فى قضية الاسكان والتنمية، وعلى كل مدعو إلى «وليمة» المؤتمر أن يختار الوجبة التى تتناسب مع ذوقه وطبيعته، وله لو أراد أن يتمسك بالطبق المحلى فقط مثلما يحدث بالفعل مع بعض المصريين الزائرين إلى أوروبا إذ يفضلون الفول المدمس والطعمية وتعف شهيتهم عن الكفيار والسيمون فيمى والاستاكوزا وعش الغراب والأكل الروستو لأنها تلبك المعدة.

دعنا إذن نركز على واقع المشكلة عندنا فى مصر، حيث الموارد

الطبيعية محدودة، وزاد عدد السكان زيادة خرافية خلال القرن العشرين وحده.

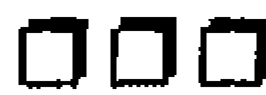
من قراءاتى فى «التاريخ» – وهى هوايتى المفضلة الآن – استوقف نظرى عبارة جاءت فى مقدمة مؤلف جيمس هنرى بريستد عالم المصريات الشهير فى مطلع هذا القرن عام ١٩٠٥ إذ قال : «أما مزروعات هذا القطر فكافية لتغذية سكانه العديدين والذين بلغوا أيام الرومان سبعة ملايين نسمة..» مما يكشف عن أن تعداد مصر – عبر تاريخها الطويل – لم يزد على ١٠ ملايين نسمة وهو تعداد عام ١٩٠٠ ويتناسب مع موارد مصر الطبيعية من مياه وزراعة وغيرهما.

ويحضرنى فى هذا الأمر مقارنة وتشبيه حالتنا بحافلة أى أوتوبيس حمولة ٥٠ مقعدا مثلا وظل لسنوات مريحا ينقل الناس فى يسر وسهولة وراحة لأن عددهم يقل عن ذلك، ولكن بدأ تدفق البشر فى ذات الحافلة، وظل فى زيادة مضطردة فانحشر الناس، وعندما صاروا نحو مائة لم يعد المكان كافيا بل صار خانقا، وتذكرت أوتوبيسات القاهرة بالفعل وقد خرج الركاب من الشبابيك ووقفوا على السطح ولم يعد على سلم الأوتوبيس موضعا لطرف قدم وباقى الجسد معلق فى الهواء كالبهلوان وهو منظر تعودناه وألفناه فى شوارع القاهرة لمدة طويلة ولازلنا نشكو منه فى ساعات الذروة تعبيرا عن أن سكان مصر قد زادوا كثيرا عن مواردها وقدرتها الطبيعية وأصبحت الحياة فى وادي النيل غير ممكنة.

وفى سابق الزمان كان الحكام يحلون مشاكل شعوبهم من خلال الغزوات والفتوحات بالعدوان على شعوب أخرى مجاورة، وتوسعت دول صغيرة حتى صارت امبراطوريات، ولكن هذا الأمر ووفق قيم المجتمع الدولى – وبعد حرب الخليج – لم يعد ممكنا.

ومن هنا نادت الدولة بالحد من الانجاب، وفى تقديرى، تجاوب الناس مع نداءات الجكومة على قدر ما تسمح به معطيات وقيم ومفاهيم المجتمع ولكن للأسف استجابت الأسر ذات المستوى الثقافى والاقتصادى الأعلى، لأنها أدركت أن العبرة بالنوع والكيف وليس بالعدد والكمية حتى يقال أن «العدد فى الليمون» بينما استمرت الأسر ذات القدرة الاقتصادية الأقل والضحالة الفكرية فى الانجاب وزيادة النسل لأن جهل المرأة، وقناعتها بأن «تقصقص» ريش الرجل بإغراقه فى «كوم» من الأطفال هو سبيلها الأكيد للإحتفاظ به، ولأنه لاتوجد متع أخرى فى حياتهما، فالأسرة المثقفة لديها ما تستمتع به من احتفالات بالترقية والحصول على الشهادات أو الأوسمة لأن حياتها مملوءة بانجازات لتحقيق الذات أما الأسر الأفقر فإن الانجاز الوحيد المثير فى الحياة فى مزيد من الانجاب.

وهكذا فإن المشكلة معقدة وكبيرة، ووجه التعقيد فيها هو أنها ثمرة لعلاقة دقيقة وخاصة جدا بين الرجل والمرأة وتحتاج فى المقام الأول إلى قناعة شخصية وهذه محصلة عوامل متعددة بعضها دينى وقيمى وأغلبها رؤية وفهم فضلا أن بها مصالح وآمالاً .



ولأولئك المتشنجين الذين لايرون إلا الجوانب السلبية فى الحياة، أقول إن انعقاد المؤتمر فى القاهرة قد أدى إلي فوائد متعددة، أذكر منها الطريقة التى اتبعتها الحكومة فى إنشاء المجلس الأعلى للسكان وتحويله قبل المؤتمر إلى وزارة ليكون واجهة «شياكة» تتفق علي ما تردده الحكومة من اهتمامها بقضية تحجيم الانفجار السكاني - وهو الجزء السلبي فى القضية - ولكن هناك جزءاً آخر إيجابياً وهو التنمية البشرية لأنه المفتاح - الذى سيجعل غدنا أكثر إشراقا.

وكم سعدت فى أن اضطرت الدولة - رغم أنف المعوقين فى وزارة الشئون الاجتماعية - لقبول تشكيل «اللجنة القومية التنفيذية للهيئات غير الحكومية»، وذلك استيفاءً للشكل لأن المؤتمر الدولى - حسبما أصبح ممارسة أساسية لقواعد عقد المؤتمرات الدولية للأمم المتحدة - يشترط عقد منتدى للجمعيات الأهلية غير الحكومية ليكون اجتماعا أو مؤتمرا موازيا للاجتماع الرسمى لممثلي الدول والحكومات، ولولا هذا المؤتمر ما تم تشكيل هذا التنظيم الشعبى المهم والذى عهدت الدولة بتكوينه إلى مجموعة من القيادات التى لها مصداقية وتتمتع برصيد شعبى داخل مصر وخارجها، وكم كنت أتمنى أن كانت هدية الحكومة لهذا المؤتمر بتعديل هذا القانون المتحجر والذى يقف سدا منيعا ضد تكوين الجمعيات الأهلية . وأتصور أن الحكومة وفى المناخ العام الذى ولده المؤتمر الدولى ستدرك أن تنشيط الجمعيات الأهلية بتعديل القانون

٣٢ لعام ١٩٦٤ سيكون الدم الجديد الذي يسرى فى عروق مصر لمزيد من الديمقراطية والمشاركة الشعبية.

وسنكون سائرين على الطريق الصحيح لحقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ إذا ابتكرنا ما يحول اللغم إلى منجم ولاتوجد صياغة جاهزة فلكل شعب حضارته وقيمه بعضها يدفع إلى هذا التحول وبعضها معوق، وسنظل نفحص سر تقدم اليابان وندرس خبرة النمور الآسيوية ولكن مصر تركيبة حضارية مركبة، وعلى مفكريها أن يتمحصوا سرها وفك طلاسمها لكى ننطلق من خلال تنمية قدرات الإنسان المصرى والذى يحمل بذور حضارات ولكنها تحتاج إلى صقل من خلال التعليم والتدريب وشحذ العقول .

ولكى نصل إلى طموحات حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ علينا أن نطرح فى الجزء الثانى من هذا الكتاب جملة مفاهيم وقيم نراها أساسية لتواكب الألفية الميلادية الثالثة ، غير أن تعديل وتطوير المفاهيم والقيم عملية طويلة معقدة تحتاج إلى قناعة عامة لا تتوافر وتتدعم إلا مع الوقت.

الجزء الثانى

حاجتنا لقيم ومفاهيم جديدة تناسب العصر

ما بعد عام ٢٠٠٠

مقدمة

قد يكون من الصعب ـ وربما من المستحيل ـ التنبؤ بدقة عما يمكن أن تكون عليه الأحوال ـ فيما بعد عام ٢٠٠٠ ـ على مستوى العالم أو المنطقة العربية أو مصر ، وهو الأمر الذى حاولت أن أطرحه بطريقة عامة فقد صار للتنبؤ بالمستقبل قواعد وأصولاً تدرس فى معاهد ، وإنما رغبت من خلال دراسات ومقالات متفرقة كنت قد كتبت بعضها عبر سنوات حقبة التسعينات ، لعلها ـ فى مجملها ـ تقدم للقارىء «وجبة» وكأنها «بوفيه مفتوح» تلقى الضوء على مابعد عام ٢٠٠٠ .

وتفتح شهية العقل لما يمكن أن يحدث فى غضون ٢٠ أو ٣٠ سنة قادمة مما يجعل بوصلتنا مستقبلية .

وفى هذا الجزء الثانى ، سأحاول أن أطرح ما أتصوره قيما وليست ماضوية ومفاهيم سائدة بالفعل الآن ، ولكنها فى حاجة إلى صقل وتعميق ، لعلها ـ إذا تطورت ـ وترسخت تجعلنا أكثر قدرة على الولوج إلى مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠ ، بحيث تؤهل مصر لموقع أكثر تقدما فى ريادة المنطقة ومن ثم تشارك بشكل أكثر فاعلية فى صياغة توجهات العالم ، فقد أثبتت الأحداث فى الفترة الأخيرة ، أن الدول الكبرى لابد أن تأخذ فى الاعتبار

طموحات وتوجهات دول أصغر ، وكما أن التقدم والازدهار والتنمية والرقي ـ داخل أي وطن ـ هو نتيجة تفاعلات أفراده ، وجماعاته من خلال قدراتهم وانتاجهم ومفاهيمهم كذلك سيكون توجه العالم هو محصلة مايجرى فى الدول والأقطار والحضارات والأديان السائدة فى أربعة أركان الأرض ، لدى كل دولة وكذلك لدى كل بشرية فى اطار الدولة ، جملة قيم ومفاهيم هى حصيلة تراث وتاريخ هذه المجموعة البشرية أى أن هذه القيم متأثرة بالتاريخ والأديان والعادات والخبرة البشرية السابقة ، وغيرها وفى مصر ـ على سبيل المثال ـ زخم هائل من القيم والمفاهيم ـ وهى ليست متجانسة كما قد يبدو لأول وهلة ـ فأهل الريف لديهم قيمهم التى تتفق مع الواقع الاجتماعى والاقتصادى الذى يعيشونه فضلا عن التراث الحضارى بما فى ذلك الدين ، لذلك يقولون إن الفلاح المصرى البسيط حذر أو «حويط» أى يتأمل ويستمع قبل أن يتكلم حتى شاعت عبارة «الخبث الفلاحى» وتتكون مفاهيم أخرى لدى فئة العمال فى المدينة أو الموظفين فى إدارات الحكومة أو فى العمد وملاك الأراضى الزراعية أو أساتذة الجامعات أو لواءات الجيش أو الشرطة وغيرها كثير ، كذلك لأهل قرى الصعيد فى جنوب مصر مفاهيم تختلف عن أهل قرى وجه بحرى ، بل وتتغير القيم مع التغيرات الاجتماعية والحضارية التى يمر بها المجتمع ، فمصر التى تبلورت شخصيتها ـ فى العصر الحديث ـ مع الحركة

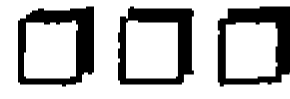
العرابية ورفع شعار «مصر للمصريين» تختلف عن مصر التى سيطرت عليها مفاهيم القهر والمذلة طوال حكم المماليك والحقبة العثمانية لنحو خمسة قرون أدت الى التخلف والقهر والتآكل من الداخل ، وفقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم بل ووجود شرخ بين الحالى وحضارة الفراعنة وهو أمر عالجناه من قبل .

ومن ثم فان القيم والمفاهيم التى تحكم أى مجتمع متأثرة بالزمان والمكان ، فعبر الزمان تتغير القيم من حقبة الى أخرى كما سبق القول ثم هى متغيرة فى المكان أى من الريف والحضر وحتى من حى الى حى فى ذات المدينة الواحدة أو مع تغير الفئة الاجتماعية ولذا فالقيم متغيرة ـ وهو مفهوم علمى ـ بخلاف المفهوم الأخلاقى للقيم والذى يجعلها مطلقة أى ثابتة وليست بسيطة .

وفى جزء المعطيات والتغيرات المتوقعة فى القرن القادم ـ والتى أشرنا الى بعضها فى الجزء الأول ـ ستحدث بالفعل تغيرات متوقعة فى المفاهيم والقيم فى المجتمع المصرى فى السنوات القليلة القادمة وبمعدل سريع ومتدفق وسيتنازعها تياران رئيسيان أولهما مستقبلى والآخر ماضوى أو سلفى .

وما الديمقراطية وحق الاتصال بالناس من خلال الكتابة فى الصحف إلا محاولة لتعديل مفاهيم الناس ، وما السيطرة من الدولة على وسائل الاعلام الجماهيرية الشعبية ـ فى الاذاعة

والتليفزيون ـ إلا محاولة لأن يكون تغيير المفاهيم والقيم للقواعد الشعبية العريضة التى لا تلم بالقراءة والكتابة فى حدود مقبولة لاتهز المجتمع أو تؤدى الى زعزعة استقرار الحكم .



ومن بين المسائل التى استوقفتنى برنامج اذاعى استحدثته الاستاذة نادية صالح رئيس اذاعة الشرق الأوسط أخيرا حول فتح مناقشة مع جمهور المستمعين ـ تصلها من خلال الهاتف ـ حول بعض أمثالها الشعبية ورأى الناس فيها وعلى سبيل المثال ، أخذت رأيى فى المثل القائل : «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب»

ولست ـ راغبا فى تحليل هذا المثل ـ وقد اعترضت عليه على أى حال لأنه يؤكد مفهوما منحازا بشكل مسبق ومنه الانتماء للأسرة وحدها فتتولد مفاهيم غير منصفة وغير متجردة ولكن هدفى هو أننا بالفعل أمام عملية المفاهيم والقيم القديمة وهى أمور موروثة يعود بعضها لمئات وربما آلاف السنين ، وهذه العملية التى تتم الآن مطلوبة لتحريك مياه تجعل الناس تفكر فى الأمثال والقيم القديمة .

لقد مرت مصر بعصور حضارة وازدهار ، ولدت مفاهيم وقيما طيبة تمثلت فى بعض ما وصلنا من خلال البرديات والآثار الفرعونية لعل أشهرها ابتهالات اخناتون ومعاناة «الفلاح المصرى

الفصيح» وغيرهما كثير بعضها ولاشك اندثر والبعض الآخر مازال كامنا ، في ضمير الناس حتى البسطاء منهم ، ثم جاءت رقائق الحضارات الأخرى – وهي كما ذكرتها في كتابي «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» إذ تلي الحضارة الفرعونية الطويلة ممثلة في الحقبة المسماة اليونانية ـ الرومانية ثم الحقبة القبطية المسيحية وتليها الحقبة الإسلامية برقائقها الجزئية المختلفة.

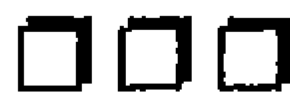
ولذا فإنه يندر أن تتوافر لدى شعب هذا الكم من القيم والمفاهيم الموروثة ، بعضها يحث على الطموح والرؤى المتحضرة مثل :

«صوابعك مش زى بعضها» أو «ما خاب من استشار» و «إن كبر ابنك خاويه» و «لسانك حصانك إن صنته صانك» وغيرها بالمئات تقدم مفاهيم متحضرة وراقية ،.كانت مناسبة في السابق ولابأس أن تستثمر ، وهي تحمل ذات المفاهيم التي طرحناها خلال عرضنا للجزء الأول والتي سنعرض لها في شيء من التفاصيل في هذا الجزء ولعله السبب في أنني كثير الاشارة الى هذه الأمثال القديمة لأنها أكثر رسوخا من القيم الجديدة المستحدثة، كذلك فإننا في حاجة الى تقنين مفاهيمنا القديمة مما تبقى من موروثات عصور القهر مثل : «اللى يتجوز أمي أقوله ياعمى» أو «إن عبدوا العجل احش وارميله » ثم «المية ماتجريش في العالى» وهناك مئات من الأمثال الكثيرة التي تمت على النفاق والتخلف والدوجما وهو

الأمـر الذى دفـعنا فـى صـيـاغـة هذا المؤلف بهـذه الطريقـة لكى نستشرف المستقبل بقيم ومفـاهيم أفضل ترفـع المجتمع المصـرى التقدم والحضـارة فضـلا عن المشـاركة ـ بالكلمة المطبـوعة ـ فى تشكيل مستقبل أفضل لشعب جدير بذلك .

وسنحـاول فى هـذا الجزء الثـانـى ، تقـديم بعض المفـاهيـم التى نراها أساسية فى صياغة مرحلة «مابعد عام ٢٠٠٠» معظمها قد تم ذكره ـ صراحة أو ضمنيا ـ فى الجزء الأول ، ولكننا سنحـاول أن نلقى أضواء عليها لتـأكيد معانيها ، وهـى مذكورة تباعا فى هذه المقدمة للجزء الثانى ثم خصصنا بعدها ، عدة مقالات تقدم مفاهيم أخرى نراها مناسبة للعصر .

وليس معنى هذا أن هذه هى مـجمل قيـم ومـفـاهيم مـصـر أو المنطقة أو العالم فى حقبة مـابعد عـام ٢٠٠٠ ، وإنمـا هـى نماذج أو «مفاتيح» هذه المرحلة ولكن باب الاجتهاد واسع ومتجدد ومفتوح !



لقـد اثبـتت التـغـيرات الكبـرى فى النصف الثـانى من القـرن العشـرين أن النظم* السـيـاسـيـة التى تنمو ولاتنـهار هى تلك التى تحمل داخلـها مـقومـات أو نـهج أو آليات Or Medchansims التصـحيح الذاتى Seef Correcting Syskem فقد سـقطت الفاشية من خلال أتون الصـراعـات العسكرية أدت إلى تضـحيات هائلة تحملتـها البشـرية جمعاء خلال الحرب العالمية الثانيـة وانتهت

الفاشية بالفعل عام ١٩٤٥ وبعد ذلك بنحو نصف قرن تفكك الاتحاد السوفييتي واهتزت كل دول أوربا الشرقية بأشكال ودرجات متفاوتة وقد عكف المحللون لتعليل الظاهرة ونحن نراها فى أنه كنظام سياسى لم يكن يحمل آليات التصحيح الذاتى ، وهو أمر قد أشرنا اليه كثيرا فى سياق ما قدمناه فى الجزء الأول لذلك آثرنا فى بداية الجزء الثانى ـ والذى يتعلق بالقيم والمفاهيم أن نعالج هذا المفهوم بشكل أوضح حتى تكون القناعة به أكثر وأوفى وقد سعدت أن هذا المفهوم ـ ومنذ أن كتبت عنه ـ قد صار يتردد فى مصر ، وأراه نقطة البداية لأى اصلاح ثقافى أو سياسى للإنسان الفرد والجماعة .

إن الطبيعة هى معلمة الإنسان ، وظاهرة التصحيح الذاتى أمام أعيننا فى التوازن البيئى والطبيعى ، ولعلها أوضح إذا تأملنا أنفسنا وكيف تعمل وظائف أعضاء ومكونات الجسم ، وكيف أن الخالق الأعظم قد سخر آليات التصحيح الذاتى للمحافظة على الحياة ذاتها ، فالاحساس بالألم هو أول المؤشرات التى تضغط على عقل الإنسان فيشعر ويعى أن هناك خللاً ما داخل جسمه ينبغى الاهتمام به وعلاجه أى تصحيح أحواله ، ولذلك فإن خطورة أمراض القلب على الرغم من أنها مصاحبة بآلام حادة فى الصدر ولكنها لاتعطى ـ فى بعض الأحيان ـ الوقت الكافى للعلاج ، فيقال إنه «مات بالسكتة القلبية» أى دون انذار كاف وكلنا نكره ان نذكر

اسم المرض الخبيث على مسامعنا على الرغم من أن أمره معروف من القدم ويطلق اسمه على أحد الأبراج المتعلقة بالغيب «السرطان» لأنه ينتشر داخل جسم الإنسان ، وتنشطر الخلايا دون أن تفصح عن ذلك عن طريق الاحساس بنوع من الألم ينبه الى خطورة مايجرى فى أحد أعضاء جسم الإنسان إلى أن يستشرى المرض ، ويصبح العلاج أكثر صعوبة ولذلك أسميناه بالمرض «الخبيث» .

ويوجد لدى الإنسان جهاز للمناعة ، ولولاه لما استمرت الحياة، ولذلك تكاتف العلماء فى أماكن كثيرة للبحث عن علاج لمرض «الايدز» لأنه يقضى على أجهزة المناعة فى جسم الإنسان ، فتكون النهاية المحتومة ، ولعل التشبيه المطروح الآن هو أن تسلسل قيم ومفاهيم «الانحلال» فى المجتمع يعبر عنها بمرض «الايدز الاجتماعى» لأنها تفقد المجتمع أجهزة المناعة الأخلاقية والقيمية !

ويفرز الجسم كل من كرات الدم الحمراء والبيضاء على حد سواء ولكن عدد كرات الدم الحمراء هائل وضخم ويفوق كثيرا عدد كرات الدم البيضاء فهى أقل عددا غير أنها وهى التى تهب لمقاومة الجراثيم ، وعندما تتراكم فى موقع ما ـ فى شكل صديد ـ يكون ذلك دليلاً على أن مقاومة الجسم الطبيعية نجحت فخيرا وبركة من خلال آليات التصحيح الذاتى للجسم ذاته ، وإن لم تنجح ، فإنها تولد الألم والمظهر البين فى القروح والتقيح والخراريج التى تدفعنا

الى تناول «المضادات الحيوية» أو اللجوء الى الجراحة وهى كلها آليات طبيعية أو صناعية للتصحيح الذاتى .

وينطبق ذات الشيء على الاجهزة الكهربائية الدقيقة مثل الترموستات لضبط الحرارة وقطع الكهرباء عن الموتور وإلا قضى على الموتور والمعدة كلها .

ومن هنا فإن مفاهيم التصحيح الذاتى وسيادتها من خلال آليات دستورية وقانونية وقضائية لهى السبل الرئيسية للتقدم ، وحماية المجتمع من الانهيار أو التحلل ولذلك فإننى لا أتوقع لمصر أن تدخل أى عمق يذكر لمراحل «تداول السلطة» من خلال السبل الديمقراطية المتعارف عليها والموجودة بالفعل فى الغرب لأن مفاهيم "التصحيح الذاتى ليست متعمقة بقدر كاف ، فى عقول الشعب بكل فئاته أو عقول الحكام على جميع مستوياتهم .

كما وأن مفاهيم التصحيح الذاتى وفاعلية آلياته هى أحد الخطوات المهمة فى اقلال مسطح الفساد .

وبجوار هذا المفهوم الرئيسى وهو وجود آليات التصحيح الذاتى داخل أى منظومة اجتماعية أو سياسية ـ من الأمم المتحدة الى أى جمعية أهلية صغيرة مرورا بأجهزة وكيانات الدولة ـ فإن هناك مفهوماً آخر ـ ورد كثيرا فى الجزء الأول ـ وهو أن التنوع ظاهرة كونية Diversily is a Universal Phenomena وهو أيضا مفهوم تقدمه الطبيعة وظاهرة أمام أعيننا فى كل

مظاهر الحياة من حولنا لعل أبرزها هذه الزهور متنوعة الألوان والاشكال والرائحة وكذلك النباتات والاشجار وثمار الحقل والفواكه وغيرها ، وكذلك مؤكد فى عالم الحيوان بما فيها الحفريات التى اختفت كالديناصورات التى لم تستطع أن تتواءم وتكيف نفسها فى ظروف البيئة المناخية المتغيرة .

فلماذا يختلف الإنسان عن هذه وتلك فالتباين واضح فى أشكال الناس ، ذلك أن مكونات جسم الإنسان البيولوجية واحدة تقريبا ، ولكن هيئة ومنظر الناس مختلف فى الطول والعرض والبيئة والمشية ونغمات الصوت حتى صاروا يتحدثون على أن الصوت بصمة ، مثل التباين فى بصمات اليد ، بما فيها بصمة الابهام فهى تعتبر دليلاً جنائياً على شخصية الجانى فكلها تأكيد بيّن أن التنوع ظاهرة كونية لأنه لا توجد بصمتان متطابقتان على حد قول خبراء الجريمة .

ثم إن مكونات الوجه واحدة للبشر ، من عينين وأنف وفم وأذنين ولكن التركيبة والتنسيق لهذه المكونات على شكل الجمجمة ونوع ولون البشرة والشعر وطول الرقبة وقطرها وغيرها ، تجعل من صورة الوجه أو «سحنته» نسقا مختلفا من إنسان إلى آخر وفى العصر الحديث صارت صورة الشخص مطبوعة فى جوازات السفر والبطاقات الشخصية كدليل اثبات للشخصية وقلت عبارات جميل الصورة ، وغليظ الرقبة ، وعريض القفا ، وأن تقاسيم الوجه وسمنته كثيرا ماتفصح عن أسرار النفس الداخلية .

وقديما قالوا في الأمثال : إن الله قد وزع الأرزاق في وضح النهار فرأى كل منا رزقه ورزق غيره ، فلم يقنع أى منا برزقه ويطلب المزيد مثلما رزق الله صاحبه أو قريبه أو جاره ، ويقال ، ولكنه وزع العقول والأفئدة والمشاعر في عمق الليل ، فلم يشاهد أى منا عقل غيره ، لذلك قنع كل منا بعقله ويرى أن رأيه هو الأصح .

فإذا كان هناك تباين واختلاف في وجوه البشر لماذا لايكون هناك اختلاف مقابل في رؤى وعقول ومفاهيم ومنطق الافراد ، وهو أمر معترف به من قرون وورد في نصوص دينية متعاقبة وكل منا مقتنع بهذه المعلومة المتفق عليها ، ولكن الصعوبة تكمن في أن كلاً منا له رأى في قضية عامة أو خاصة كثيرا ما يتوهم أن رأيه أو رؤيته هي وحدها الصحيحة وأن وجهة نظرة الآخر ، خاطئة وقد يشتعل الغيظ في النفس الداخلية وقد تمتد الكراهية الى الآخرين ويتجمع ذوو الرؤى المتقاربة ويصبح الحقد جماعيا حتى يصل أحيانا الى صراع بالايدى وفي أحيان نادرة تتطور الأمور وصولاً الى الحرب الأهلية أو بين الشعوب ولذا فنقطة البداية هي قبول الاختلاف في الرأى أى الاقتناع الداخلى بأن التنوع ظاهرة كونية.

وإذا كنا في عالم مابعد عام ٢٠٠٠ نتمنى أن تقل فيه الصراعات والعنف والحدة ـ وهى أمور عالجناها مرارا في الجزء

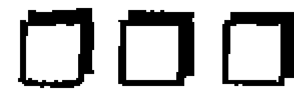
الأول ـ فإن نشر مفاهيم التنوع ظاهرة كونية وطبيعية ، يجعلنا قابلين لوجود وجهات نظر مختلفة وأن تعدد الآراء مسألة طبيعية وعلينا أن نتعايش معها ومن ثم تسود القيم التى تدعم الديمقراطية وحق الجماعات فى تشكيل جمعيات أهلية ومفاهيم ثقافة السلام والموازييك .

وليس معنى ذلك هو الميوعة فى المواقف ، وفى تقديم الأفكار ، فالتمسك بالرأى مهم ومطلوب ثم البحث والمناقشة فى المواقف بهدف تعديل الرأى ليصل الإنسان لما يعتقده الصواب أمر وارد ، ولكن فى ذات الوقت أعطى مكانا للرأى المخالف ، فقد تغير أنت رأيك مع الزمن ومن خلال عرض الآراء المختلفة أمامك، فالإنسان العنيد غير مؤهل لقبول التباين ، والإنسان الذى يفتخر بأنه لم يغير موقفه فى قضية بذاتها عشرات السنين ، لايحمل قيم التفاهم والسماحة بل قيم الصدام .

إن صلب مبادىء الليبرالية والديمقراطية يكمن فى القناعة بأن التنوع ظاهرة كونية موجودة فى الحياة الطبيعية ومن ثم فهى موجودة فى الحياة الفكرية والثقافية وإلا ماتقدمت البشرية ، فالتنوع ميزة كبرى للإنسان وهى المحرك وأحد أسباب التقدم والازدهار .

ولسوف يجد القارىء ـ فى الجزء الأول ـ ترديداً لنغم يحمل كل من القيمتين الأساسيتين وهما ضرورة وجود آليات التصحيح

الذاتى فى كل موقع فى المجتمع ، ثم أهمية قبول مبدأ وجود الرؤى والايديولوجيات ـ وحتى الأديان ـ المختلفة لأن بدون ذلك ستتجمد المفاهيم وسيكون دخول المجتمعات عالم مابعد عام ٢٠٠٠ أمرا صعبا .



ومن القيم والمفاهيم التى أود طرحها كذلك ـ على المثقفين والمفكرين فى مصر ـ وربما فى مواقع كثيرة أخرى ـ هو التناقض الذى يعيشه الإنسان كفرد بين «الذاتية والموضوعية» .

فالإنسان كائن يحمل داخله الإحساس بذاته وأهميته ـ ثم الاحساس بمصالحه الذاتية ـ وهو أمر طبيعى ، فبدون أنانية الإنسان ـ أى احساسه بـ «الأنا» لن يحدث طموح داخلى ـ وهو أحد محركات الحياة وتقدمها .

ولكن «الذاتية» وحدها ـ إذا سادت وعمت ـ تحول المجتمع الى جملة صراعات قاتلة من خلال اختلاف وتضارب طموحات ورؤى الافراد وتتحول الجماعة الى غاية ولما تكونت أسرة لأنها تتفكك اذا تضاربت المصالح بين الرجل وزوجته وقد تحتدم الصراعات وتهدم علاقات بين أشقاء ـ وهو أمر كثيراً مايحدث نتيجة اختلاف المصالح وحب الذات بين أبناء الأب الواحد على كيفية تقسيم الميراث وما أشبه ولذا وفى هذه الجزئية فان التماسك الأسرى بين الفقراء أقوى من بين الأثرياء ، لعدم وجود ثروة يختلفون عليها فيتجاوزون الذات ويتضامنون .

والوجه الآخر من الحياة يتوازن مع وجود قضايا «موضوعية» أى مسائل لا تحركها المصالح أو الطموحات الذاتية الشخصية وحدها ، فهناك قيم مجردة ، غالبا ماتكون ثابتة عبر الأديان ، وقد تكون متحركة لتناسب طموحات العصر مقابل مادى أو معنوى ، وما الى ذلك من قيم ومفاهيم عامة متفق عليها بين البشر وأحيانا على مستوى العالم كله .

ثم هناك مفاهيم وقيم موضوعية عامة يلتف حولها عدد أكبر من البشر تخص مثل حب الوطن والنضال من أجل رفيعته وتقدمه ثم مفاهيم العدالة الاجتماعية. ان درجاتها المتفاوتة ومن منطلقاتها المتباينة فهذه كلها أمور يلتف حولها البشر فى مجموعات ومن ثم يكونون أحزابا سياسية ، أو جمعيات أهلية ومع انتشارها تتحول الى ايديولوجيات يكون لها مفكروها ومنظروها وهى فى مجملها قيم «موضوعية محببة» الى النفس البشرية .

ويتحرك معظم الناس إما لأسباب ذاتية أو لأسباب موضوعية ، وهذه وتلك هى محركات الحياة الثقافية ، والفكرية وتكون مجالات طموحات البشر ، ولايوجد إنسان ذاتى فقط، وإلا أصبح «أنانيا» ينفض من حوله الناس إلا فى النادر القليل ، كما أن لايوجد إنسان موضوعى بحت ، أى تحركه القضايا العامة التى لاتعود عليه بأى نفع إلا فى النذر القليل أيضا ، ولكن أغلب البشر «بين ـ بين» ويتحركون بين الذاتية والموضوعية وكلها أمور جاءت بين

السطور بشكل مباشر مرات وبشكل خفى باطنى مرات أكثر وستأتى مرة أخرى خلال عرض موضوعات هذا الجزء الثانى مثل موضوع «كل ميسر لما خلق له» وأن «الحياة ... خيارات وتوازنات» على أن مايكره الناس هو «خلط الأوراق» أى استغلال الموضوعية لأسباب ذاتية أى أن يركب فرد موجة حركة إنسانية راقية مثل حركة حقوق الإنسان أو مناصرة المرأة أو حماية البيئة ثم يستغلها لتحقيق مآرب ذاتية تعود عليه بالنفع الشخصى ، وكل ذلك يدخل فى إطار المعايير والقيم والمفاهيم التى ستسود فى القرن القادم حيث يزداد الاحساس بأهمية «الموضوعية» والتجرد حتى وأن كان على حساب المصالح الذاتية الأنانية الضيقة والموقوتة وكلما نحونا الى التجرد والموضوعية كلما كنا شعبا أرقى وأكثر احتراما بين الأمم .

ولايسعنى بعد هذه المقدمة للجزء الثانى ـ وقد تضمنت استعراضا سريعا لبعض المفاهيم الرئيسية والتى أوجزتها ضمن المقدمة ، أترك القارىء يستمتع باختيار وقراءة موضوعات تدخل فى اطار المفاهيم والقيم السائدة والتى تتطور لندخل بها مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠ ، وهى باقة من الافكار تناسب أذواقاً كثيرة وتؤكد معنى أن التنوع ظاهرة كونية وأن القضية التى تروق البعض ، ليس بالضرورة تروق كل الأمزجة والأذواق والثقافات .



كل ميسر لما خلق له

يحتاج المرء منا – بين الحين والآخر – لأن يقف ويتأمل حوله ثم يزداد التأمل ، فيغوص داخل نفسه ، ويراجع نجاحاته وربما إخفاقاته ويتذكر مسار حياته وأحيانا قيمه لأنه – بدون تلك الوقفة – يظل المرء يجرى ويسعى ويلهث بقوة الدفع الذاتى دون أن يكون له هدف أو مسار .

وتأتى مناسبات الصيام لتخلق مناخا عاما يستظل بظله كل من يعيش على أرض مصر مسلمون وأقباط فيوقف كل منا عجلة السير – ولو قليلا – وكأنه بالصيام يضغط على «فرملة» أنشطة الحياة فيتوقف اندفاعها وتقل سرعتها وعندئذ يلتقط الأنفاس ، فيتأمل الطريق حوله وغالبا ما يكتشف إنه كان مسرعا – دون أن يدرى – إلى حتفه أو أنه قد نسى مكان الوصول بالضبط ولكنه مندفع بحكم حركة السيارة أى «رحلة الحياة» التى تكونت حوله وحاصرته فى العمل والأسرة والأولاد أو من خلال طموحه (المدمر أحيانا) لتحقيق الذات أو بممارسته للحرفة التى أتقنها ، ولعله لم يدرك كيف أنه قد انصرف عن تجديد معلوماته أو نسى بعض صداقاته أو غاب عنه الاهتمام بروحانياته أو أنه قد غرق فى لعبة جمع المال حتى «همس» الناس مستفسرين على سبب هذه الثروة الهابطة دون مقدمات وأحيانا يقلق كل ذلك (أو بعضه) ضميره الذى لم يتحجر بعد . وباختصار تأتى مناسبات الصيام لتكون فترة تأمل وتعمق ومراجعة النفس ، ولكن كثرة تستمر في

طريقها ، حتى فى مناسبات الصيام .. فتغرق نفسها فى قضايا صغيرة جزئية قد تكون متصلة بفروض الصيام وممارسته أى التجهيز لموائد الإفطار وقائمة المدعوين والإعداد للسحور وتوقيتاته فتتسرب المناسبة الكريمة دون أن يحققوا شيئا إلا طقوسها الشكلية أى المظهرية التى يمارسها الكافة ، بمعنى آخر فإن البعض يتأملون الحياة بفهم وعمق وفلسفة ، وآخرون بتسطيح ولهث وتقليد للآخرين .

وهنا يطرح السؤال التقليدى الأزلى نفسه : لماذا يكون ذلك هكذا متفلسفا متعمقا مناقشا ، ومن ثم مصححا لمسار حياته فينجح ويتقدم وتعلو قامته ويسعد هو ومن حوله ، بينما الآخر يلهث ويجرى وفوق ذلك ممزق من الداخل ، على الرغم من ترديده لنفسه وللآخرين أنه يمارس كل العبادات ولكنها فروض يقبلها على مضض ، ثم تأتينى الإجابة فى الأثر الصالح المحقق «كل ميسر لما خلق له» وأتأمل حولى فأجد نوعيات متباينة من البشر «ما أنزل الله بها من سلطان» .

فكلنا أولاد آدم وحواء أو هكذا أفهمونا وقبلناها بالمفهوم الفيزيائى أو المجازى وكلنا لا نختلف كثيرا فى الشكل أو القامة ، فمكوناتنا البيولوچية وأجهزة الجسم واحدة أو متقاربة، ورغم ذلك لا تجد إلا فى أحوالٍ نادرة شخصيتين لهم ذات الملامح ، بل قد تجد اختلافات شديدة فى الشكل والعقلية والمزاج

والمشارب وأسلوب التفكير حتى بين الأشقاء الذين لهم ذات الأب والأم ونشأوا فى مجتمع واحد وظروف بيئية متقاربة وتأتى الإجابة «كل ميسر لما خلق لـه» ، كلنا نلهث وراء قدر أكبر من الرزق هنـاك من يضعـون أيديهم فى التراب فيتحول إلى تبر وآخرون يولدون وفى أفـواههم مـلاعق من ذهب ، ومع الزمن ووفق تصرفاتهم فى الأمور المالية وعلاقـاتهم الإنسانية يفقدون معظم ما كان لديهـم من ثروات .

ولماذا يولد ذلك فى أسرة فقيرة ويولد ذاك غنيا ، ويمتد الخيال بالسؤال ولماذا يولد ذلك ذكيا فذا ناجحا ويولد الآخر متعثرا فاشلا وما أن يحاول الفاشل أن يقلد طريق زميله الناجح حتى يجد أن المسار ليس بهذه السهولة وهذا اليسر : هل هو الحظ والتوفيق ، أم أنه سوء الطالع ، وهل الحظ هو فى الحقيقة مسألة عشوائية ومجرد مصادفة أم أن أمام كل منا فرصا تمر أمام البعض فيدرك مدلولها وينتهزها ويأخذ قرارا مناسبا ، وآخرون يتركونها تمر من تحت ذقونهم دون أن يدركوا أنها فرص تحقق النجاح ولماذا هذا له القدرة فيولد النجاح مزيدا من نجاحات ، ولماذا يتعثر آخر ويؤدى فشله مرة إلى مزيد من الفشل فيلجأ إلى القنوط والتقوقع . وهذا الشخص منفرج السريرة مقبل على الحياة يردد أن «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» فيستمتع بالحياة ويرتفع مستوى معيشته ويشار له بالبنان ويلتف حوله الناس ، وآخر يصر على أن

المال «أصل كل الشــرور» ويؤثر القناعــة بما قــسم الله له ، وأن مسارات الحياة ليست كلها فى خط مستقيم ، وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فقد تتطور أمور ذاك الأول المقبل على الحياة. فتصيبه حالة من الجشع فيندفع فى تصرفات مشبوهة فيصبح «حوتا» ويجد نفسه فى أعماق السجون وقد تتغير رؤية الثانى فى – لحظة صدق مع النفس ومراجعة لمسار الحياة – فيعود ليرتقع فى هدوء وبخطوات ثابتــة ويتــساءل الناس لماذا انتكست أحــوال الأول وكيف تغيرت أحــوال الثانى ولا يجدون إجابة إلا فى الأثر الصالح «كل ميسر لما خلق له» .

ولماذا تقــتــصـــر رؤيتنا على أمـور الدنيـا ، فـإن ذات المنطق ينطبق على مجال الروحــانيات فقـواعد الدين ونصـوصـه واحدة والكل يقرؤها ويتعرف عليها ولكن كلا منا يفهمها ويصيغها وفق رؤيته وشخصيته، فتؤثر علينا بمفاهيم وأشكال مختلفة البعض يراها بسيطة سهلة وكيف انها «يســر لا عسر» فيأخذ لبها وقيمها «فيعقلها ويتوكل» ولا يعيقه التــدين عن الإبـداع والإنطـــلاق بالعلم والعمل فى كل ألوان الحياة ، أما البعض الآخر فيتعمق ويتعمق حتى يتصوف وتشده «الحياة الآخرة» للإنصـراف عن «الحيـاة الدنيـا» ، ونوع ثالث يأخـذ ذات النصـوص فى تزمت ويعيش حرفيتها ويجد نفســه وقد تطرف ، ولأن له مشـاكلات شخصية (بعضـها عائلى عاطفى وبعضـها مادى اقتصادى

وبعضها ضياع فى مجتمع لم يقدم له بديلا مقنعا) يجد نفسه مسوقا لجماعة تسخره باسم الدين والجهاد وتغير المنكر باليد وينتهى به الأمر بالانفصال عن أسرته ومجتمعه ويهاجر إلى مجتمع آخر من صنعه هو وأقرانه .

ويظل السؤال مطروحا لماذا يتدين ذلك تدينا لينا بسيطا على «قده» حتى يتهم أنه «علمانى» ورغم ذلك فهو محبوب وناجح وسعيد بينما آخر متزمت وقلق ومكروه ، وثالث ثائر وعنيف وعنيد ، ولا تجد إجابة شافية إلا فى الأثر الصالح وأن «كل ميسر لما خلق له» .

ولأنى مشتغل بالسياسة أرى نماذج متباينة حولي كثيرة تلهث وراء السلطة والحصول على مقعد فى مجلس الشعب أو كرسى وزارة سيادية باعتبارها قمة العمل السياسى ، والبعض يلهث ويلهث ولكنه لا يصل إلى شئ وهو الأمر الذى طرح وفرض شخصية «عبده مشتاق» الشهيرة التى ابتدعها الكاتب الساخر أحمد رجب وآخرون ساروا فى طريقهم دون أن يؤهلوا أنفسهم لمنصب وزارى وإذا بالمنصب يهبط عليهم فى حجرهم حتى يبدو الأمر وكأنه خبطة حظ ، وقد يوفقون ، وقد لا يوفقون فهذه مسألة ظروف وملابسات ، وآخرون متمسكون بمواقعهم فى عالم المعارضة يسارا أو يمينا ولا يتصورون أنفسهم خارج هذا الإطار ويشكون كثيرا من أن تداول السلطة غير متاح ولكنهم

يؤثرون الإستمرار فى مواقعهم لأنهم بذلك يدفعون - أو يتوهمون أن يدفعوا - الأمور إلى طريق تداول السلطة فالبعض يجد نفسه فى موقع السلطة وربما فى قمتها ويعمل فى دأب وصبر وبنفس راضية ويواجه أزمات وأزمات ويستمر فى الحكم سنوات وسنوات ويواجه بكمية من التهكمات من صحف المعارضة والموافقة وبعضها فى شكل رسومات كاريكاتيرية جارحة أحيانا ، ويقابلها بابتسامة دون تزمت ولا أجد تفسيرا أفضل من أنه «كل ميسر لما خلق له» .

ولماذا أذهب بعيدا وقد كنت فى موقع متقدم فى حزب التجمع ثم صرت فى ظروف معينة قريبا من السلطة عندما صرت رئيسا للجنة الإسكان فى مجلس الشعب ، ومع الممارسة أدركت أنه «غير ميسر» لى أن أستمر فى موقع السلطة آثرت أن أحقق ذاتى فى عالم الفكر والثقافة والكتابة ، ولم أحاول أن أقلد غيرى أو أسير فى المسار الذى توقعه الناس لى واتجهت إلى نفسى الداخلية وتعرفت على مزاجي وقدراتى ونفسيتى وقارنت بين كل ذلك والواقع الذى أعيشه والظروف السياسية لما هو متاح وممكن ومن كل ذلك خططت لما أنا فيه ، وشعرت عندئذ أننى ميسر لما خلقت له أى بما يناسب المرحلة المصرية الحالية وهكذا أقنعت نفسى بأن «السياسة فن الممكن» ، وما يناسب طموحات وحماس وجهد الشباب لا يناسب الظروف الصحية في عمر الشيوخ وحكمتهم فالحياة توازنات وخيارات .

على أنني أرجو ألا يولد للقارئ إحساس بأنني «قدرى» ، أو أن الإنسان «ميسر» وليس «مخيرا» لأن محور فلسفتي فى الحياة يدور حول أن قدر الإنسان الفرد وقدر الشعوب والجماعات هو فى قراراتها وتوجهاتها وإرادتها .

ولذا فعلى كل منا أن يدرس ذاته ويتعرف على قدراته أى ما «خلق له» ثم يرسم طموحاته بما يتفق مع خواصه وقدراته وشخصيته وهذا هو سر النجاح والتوفيق وهو التطبيق لأن كلاً منا «ميسر» وليس «مسيرا» لما خلق له .

وفى حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ ، ستتغير الحياة فى مصر الى الافضل إذا وجدنا النسق العام فى مفاهيم المجتمع والدولة ونظام الحكم الذى يوفر لكل منا الفرص التى تتفق مع ما هو ميسر لكل منا فيكون العالم مثلا هو من يولد ليكون كذلك بقدراته الذهنية الطبيعية ، وتحاول الدولة الراقية إكتشاف مواهب أبنائها فى بدارى الوقت لتتفجر مواهبهم بسرعة ، حتى لتقاس درجة نجاح الأنظمة فى الدول المختلفة بقدر ما تسمح بتوافر قنوات تعليمية وإجتماعية لتمكن الأفراد من اكتشاف قدراتهم وتحقيق طموحاتهم وفق مالديهم من مهارات وامكانات أى بتيسير ما خلق لكل منهم .

مجمل القول ، هو أن أحد أسرار الكون هو تباين قدرات البشر والتى تولد معهم ، وقد تنمى هذه القدرات وقد تختفى دون

أن يكتشفها المرء ذاته أو يتعرف عليها الأهل ومن حوله ، ولكن المجتمعات الراقية - فى السابق - وفى ما بعد عام ٢٠٠٠ ، ستقاس درجة رقيها بقدر ما لديها من قنوات طبيعية فى مجالات التعليم وفرص العمل والترقى لكى يأخذ كل منا موقعه حسب القدرات التى وفرتها له الطبيعة ، ولذا فإن المجتمعات ترتقى إذا أعتلى موقع القياده فيها من هو مؤهل لذلك ، ليس فقط فى المجال السياسى ، وإنما فى جميع مجالات العلم والصناعة وغيرها ، فإذا وجد النظام السياسى الديمقراطى الذى يوفر ذلك تقدمت الشعوب والأمم وستكون أحد أهم القيم والمعايير لحقبة ما بعد ٢٠٠٠ هى اختفاء الوساطات وأن لا يحصل على الوظيفة إلا من هو أهل لها ، وأن تكون الشفافية هى الدرع الذى لا يسمح بأن يستمر فى موقع المسئولية إلا من هو أهل لها .



الحياة .. توازنات . وخـــــيـــــارات

يتصل بى بعض الأصدقاء الذين تخصصوا فى مداعبتى حول أن بعض التشبيهات البلاغية التى استخدمها فى كتاباتى تنم وتفصح عن مهنتى الأساسية فى «الهندسة الإنشائية» حيث قضيت سنوات العمر الخصبة فى تدريسها وممارستها، فكان طبيعيا أن تترك بصمتها على مفاهيمى، فالإنسان هو محصلة أمور كثيرة متباينة تبدأ من عوامل الوراثة، ثم الثقافة ، ثم المهنة وغيرها وهذا هو سر التباين والاختلاف بين شخصية وأخرى.

وتقوم الركيزة النظرية والمحورية لكل علوم وفروع «الهندسة الإنشائية» ولها تطبيقات كثيرة فى عالم المنشآت الخرسانية أو الحديدية أو غيرها - على دراسة وتحقيق قوانين الاتزان «الإتزان» EQUILIBRIUM ، ومن هنا كانت إسقاطاتى على مفاهيم «التوازنات» فى جميع صورها، فلا استقرار بدون «توازنات» سياسية (تفحص وتوازن بين قوى المجتمع فى الداخل عن قوى أخرى فى الخارج) ثم مع التوازن الاقتصادى وله محاور كثيرة يعرفها المتخصصون وكالتوازن بين العرض والطلب أو بين الصادرات والواردات والتى يعبر عنها «الميزان التجارى» أو ميزان المدفوعات وغيرها.

وليس هدفى من هذه التأملات هو الحديث عن التوازنات فى القضايا المجتمعية فهذا أمر يطول شرحه ، ولكننى آثرت أن أطرح التوازنات الشخصية، فالحياة ماهى إلا سلسلة متعاقبة من

التوازنات من يدرك قواعدها ويتعمق فى أصولها يسعد ويستمر فى إطارها العام المقبول، ومن يعرف حيلها التى تتفق مع قدراته يتقدم ويحقق اللمعان، أما من يخرج على قواعدها المعروفة والتى حددها المجتمع (الخارجة عنه لأنها أقوى منه) فإنه يواجه صعوبات وغالبا مايشكو أن الآخرين لايفهمونه وأن العيب فى المجتمع نفسه وليس فى تركيبته الذاتية ذلك فإن الحياة أيضا «خيارات» فالإنسان يختار قراراته بل غالبا مايخطط كل منا لحياته غير أن البعض يخطط ليومه بينما آخر ينظر الى المستقبل فيخطط لمرحلة مرئية وقليل من الناس يخطط للحياة كلها فهذا أمر صعب لأن لكل مرحلة من العمر خصائصها التى تفرض متطلباتها وطموحاتها خصوصا أن ظروف المجتمع أى القوة الخارجية لايتحكم فيها الإنسان وهنا يظهر الإبداع وحسن التصرف ثم الاختيار فيظهر الاختلاف بين إنسان وإنسان.

وتختلف قواعد وقوانين التوازنات فى الحياة عن تلك التى تطبق فى عالم المنشآت الهندسية (من برج القاهرة وكوبرى النيل إلى السد العالى) فى أن قواعد «حساب الإنشاءات» مجردة ومطلقة أى مقننة بقواعد رياضية منضبطة حتى أصبح استخدامها من خلال برامج معدة مسبقا ليعمل وفقها الحاسب الاليكترونى «الكمبيوتر» أمرا عاديا يمارسه كل مهندس مبتدىء، ومن ثم فهى توازنات موضوعية مبنية على أسس علمية ثابتة.

بينما التوازنات فى الحياة تعتمد على الرؤى والمفاهيم والقيم وأسلوب التفكير بل يصل الامر في اعتمادها على الانفعالات والنوازع الشخصية والنفسية، ولذلك فاننى قد تعودت - بعد أن ابيض شعر رأسى - أن لا اتخذ قراراً وقت الغضب بل أؤجل الأمر حتى صباح اليوم التالى وخلال النوم يعمل اللاوعى، فاقلب الامر على وجوهه الكثيرة ليأتى القرار «متوازنا» ولكنه ولاشك يحمل طابعا «ذاتيا» وهذا مايجعله قرارا - أكثر صوابا أو خطأ - من قرارات آخرين يتعرضون لخيارات مماثلة، ومن هنا كانت أهمية الخيارات لإيجاد توازن بين الذاتية والموضوعية، فالبشر عموما تحركهم دوافع «ذاتية» ومن هنا كان الحديث عن «الآنا» ولكن من النادر أن تجد انساناً ذاتيا أنانيا بمعنى أنه لايتحرك أو ينفعل إلا للأمور التى تتعلق بشخصه فقط (أو قد تتسع دائرة الآنا لتشمل أولاده أو أسرته) ذلك لأن مثل هذه الشخصيات الذاتية أى المتمحورة حول الذات تصبح أنانية قبيحة يكرهها الناس فينفرون منها «لأن المرء باخوانه» ولذا فلابد لهم من تبنى قضايا «موضوعية» أى الاهتمام بمشاكل عامة قد تخص بعض قطاعات المجتمع مثل الالتفاف حول التنظيمات الدينية أو الخيرية المحلية وهو أمر شائع فى المرحلة الحالية، وقد تتسع لرؤية قضايا الوطن أو الانسانية، ولكنها على أى حال قضايا تخرج عن دائرة «الذات».

وما تقدم البشرية فى مجال العلم والفكر والفلسفة والدين (فى أى موقع من العالم) إلا من خلال أشخاص قد تجردوا عن ذواتهم وتفرغوا لقضية أو موضوع، فالأنبياء بشر نذروا أنفسهم لرسالات غيرت وجه الحياة، والفلاسفة الأقدمون فى اليونان وغيرهم أبدعوا حتى صارت أسماؤهم أعلاما عبر التاريخ كله.

وفى العصور الحديثة نذكر باستير ومدام كورى ونيوتن وأنشتين فى مجال العلم والرياضة، وفى القضايا الوطنية الحديثة نذكر سعد زغلول وتضحياته ونفيه ونضاله ليس من أجل نفسه ولكن من أجل استقلال مصر ويقابله غاندى ونهرو فى الهند وأخيراً مانديلا فى جنوب افريقيا، ولابد لى هنا أن أذكر جمال حمدان راهب الفكر والابداع فى موسوعته الرائعة «شخصية مصر» .

هؤلاء ومئات غيرهم فى كل بقاع الارض أغفلوا ذواتهم وعاشوا لقضية وضحوا من أجلها بأساليب مختلفة فصاروا من الخالدين وتجاوزت أسماؤهم الحكام والرؤساء والملوك فى كل موقع على الرغم من شراسة وقوة السلطة الزمنية والأضواء التى يعيشونها طوال وجودهم فى السلطة ولكن ما أن يرحلوا حتى ترحل معهم أضواؤهم وأهميتهم ولا يتبقى منهم إلا النذر القليل، أما الخلود هو أن يذكر الانسان بعد الممات وبعد السلطة، فمن ينكفىء على ذاته يموت قبل أن يموت أما من يتبنى قضية أو فكرة

علمية أو انسانية أو عمرانية فغالبا مايكتب له الخلود بالقدر الذى أثر به فى المجتمع.

وهؤلاء فى مجملهم اطلق عليهم عبارة «كرات الدم البيضاء» ذلك أن جسم الانسان يجرى فى دمائه كثرة من كرات الدم الحمراء حاملة الأوكسچين والتغذية لكل خلايا الجسم وهى الكثرة العددية أى المواطن المتوازن العادى، ولكن كرات الدم البيضاء (وحمدا لله أنها قلة وإلا اختل التوازن البيولوچى للجسم) فهى الحامية للجسم من المخاطر اذ تهب وتتجمع ضد العدو والجراثيم التى تهدد سلامة الجسم ولذا فهى جزء من جهاز المناعة وكل مجتمع يفرز عددا معقولا من الأفراد أو الجماعات التى تعمل لحماية ووقاية المجموع.

إن الشخصيات التى تتجاوز ذاتها لفكرة أو مبدأ أو قضية أو بحث علمى هى الدروع الواقية للمجتمع وفى هذا الامر على كل منا أن يوازن بين ان يحقق ذاته من خلال تحقيق المطامع والطموحات الشخصية. وهى أمور طبيعية ومشروعة وبين أن يتجاوز ذاته ويصبح أكثر موضوعية بالتمسك بالقيم المجردة، وبين هذا وذلك يتحرك البشر وفق رؤيتهم وخياراتهم.

إن أحد ملامح حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ هو أن الانسان يخرج عن ذاته فيتأمل القوى الخارجية التى يعيش ثم يعود إلى ذاته «لأنه لايعرف الإنسان وأعماقه إلا ذاته» ليرى هل يستطيع أن يوازن

بين متغيرات وخيارات كثيرة تتفق مع قدراته وإمكانياته فالتوازن بين الذاتية والموضوعية من التوازنات الرئيسية ولكنه ليس هو التوازن الوحيد فهناك توازن آخر دقيق الثروة والشهرة والسلطة .

فمن منا لا يسعى لمزيد من الثروة على الرغم من أن مستويات الطموح فى المال متباينة، ولكنها - على أى حال - أحد المحركات الاساسية للحياة، ثم يليها الرغبة فى الحصول على قدر من السلطة، وليست السلطة فى المناصب السياسية وحدها، فإن غفير الدرك فى القرية أو عسكرى المرور الذى يسجل المخالفات يعتبر نفسه «سلطة» وصراف القرية الجابى لمستحقات الدولة هو ممثل للسلطة وضابط النقطة أو مساعد وكيل النيابة فى الاقليم يتصرف وكأنه صاحب سلطان، ومن ثم فالسلطة مطمع لكثرة من البشر، ولكن طموحات السلطة تختلف من إنسان لآخر، وفق القدرات والطموحات، كما أننا جميعا نطمع فى قدر من «الشهرة»، فهى تجسيد رئيسى لتحقيق الذات، ولها أيضا مستوياتها، فكل منا يعمل لأن يكون له سمعة طيبة بين أفراد أسرته أو قريته، وفى المدن يعمل الموظف فى مصلحة حكومية أو العامل فى مصنع لأن يكون معروفا بين أقرانه حتى يؤهل نفسه لدخول الانتخابات النقابية مثلا، والبعض الآخر يتمنى أن ينجح فى الانتخابات المحلية أو مجلس الشعب أو اتحاد البرلمانات العالمى، فكلها شهرة بمستوياتها المختلفة.

وهذا الثلاثى والذى يحسن أن يكون متناغما - يجسد طموحات البشر ويمثل تطلعات مشروعة، ومن ثم فالمال والسلطة والشهرة أمور طبيعية اذا كانت فى حجمها الذى يتفق مع شخصية الانسان، ولذا فهى ليست شرا أو خيراً فى حد ذاتها لو كان الوصول إليها بشكل تدريجى وعلى مراحل إذ يراقبها من هم حولنا حتى يكون نموها مقبولا ودون طفرات، فالثروة التى تهبط بغير تدرج تثير الشكوك والتساؤلات فضلا عن أنها تنمى الحسد والغيرة حتى من أقرب المقربين، كما أن القفز أو الوصول إلى السلطة - وكأنه هبوط عليها بالباراشوت - يفقد المرء التوازن وغالبا ماينتهى إلى الفشل، لأن السلطة مسئولية ولن تكتسب إلا بالمران فتصقل صاحبها وتكسبه من الداخل ثقة فى النفس فيتأنى ويحسب قبل اتخاذ القرار.

والشهرة أيضا فى حاجة إلى التدرج، ومن يحصل عليها دفعة واحدة يصيبه «الدوار» خصوصا اذا جاء ذلك بعد الحصول على كل من المال والسلطة، وعندئذ تتولد «النرجسية» ويسود الغرور وتوجد حالات لأفراد ظهروا الى السطح بسرعة، وبالذات فى حقبة الانفتاح فى مرحلة السبعينات، فحصلت على هذا الثلاثى المال والسلطة والشهرة فى وقت وجيز، ولقد هوى معظمهم بذات السرعة التى تسلقوا أو صعدوا بها، ومن هنا فإن الجمع بين المال والسلطة والشهرة دون تخطيط - واحيانا توفيق - أمر بالغ الصعوبة.

ويندر من فى قدرته التوجه الى السلطة فى بداية رحلة الحياة، كما أن الشهرة - كما يقولون - غالبا ما تأتى مع ظهور الشعر الابيض أى مع تقدم السن والخبرة أى النضوج.

إننا جميعا نسعى فى السنوات الأولى من رحلة الحياة - بعد حقبة التعليم إلى توفير قدر من المال فهو - فى الأغلب الأعم - الدافع لمعظم البشر فى الحركة والعمل والنشاط وحتى التقدم والتفوق العلمى لأن المال عصب الحياة وتوفير قدر معقول منه هو الضمان لتوفير الاحتياجات الاساسية للإنسان، وبعدها تبدأ رحلة الادخار، **«فالقرش الابيض ينفع في اليوم الاسود»** وقد يتحول الادخار إلى «الاكتناز» ويزداد الطموح ليصبح زيادة الرصيد فى البنك هدفا فى حد ذاته وهو أمر غير مستحب، وقد تتولد الرغبة فى تحويل الاموال الى عقارات أو ملكية لارض زراعية، وفى العصر الحديث تتجه الطموحات إلى المضاربة فى البورصة للحصول على مكسب سريع وكثيرا ما تأكل المغامرات - لغير الخبير - رأس المال ذاته وهو أمر شائع فى أمريكا حتى اصبحت اخبار المال تنافس أخبار السياسة وقد يتجه آخر إلى الاستثمار فى مجال الصناعة أو السياحة أو التجارة وقديما قالوا **«لله في خلقه شئون»** فقد يتحول الطمع الى نهم لسرعة الثراء، ولو بطرق غير شريفة فتصدق المقولة بأن **«المال أصل لكل الشرور»**.

والانسان الفطن هو الذى ينمى قدراته المالية تدريجيا دون شح أو تقطير لكى يكفل لنفسه ولاسرته معيشة مستقرة حسب احتياجات كل مرحلة مع إحتياطى يضمن الامان ضد الكوارث والمجهول، وعندئذ يتجه الى غرض ونشاط آخر فى الحياة لايتعلق بجمع أو تنمية الثروة وحدها، فالبعض يلتحق بجمعية خيرية أهلية أو منتدى ثقافى أو حزب سياسى، أو ناد رياضى أو حركة دينية، فيجد هناك – وفق ميوله ومواهبه وقدراته وارتباطاته – ما يحقق ذاته فتكون هذه الخطوة هى بداية الطريق الى السلطة أو الشهرة.

وهناك علاقة أكيدة بين السلطة والثروة، فعندما تتحقق الثروة يتجه المرء غالبا للتفكير فى السلطة، وهناك أمثلة كثيرة لافراد وصلوا الى السلطة من خلال الثروة، ولعل أبرز مثال على ذلك الملياردير رجل الاعمال سيلفيو بيرلسكونى والذى سخر أمواله فى الانتخابات فوصل لأن يكون رئيس وزراء ايطاليا، واعتقد كثيرون أنه سيدير الدولة بذات الكفاءة التى ادار بها شركاته، ولكن النجاح فى ادارة الاموال والشركات يختلف عن ادارة الدولة، فإدارة الشركات لها اخلاقيات مرنة ومطاطة واذ يمكن عقد صفقات متبادلة قد لا تكون نقية تماما وقديما قالوا «**التجارة شطارة**» أما القرارات السياسية – وبالذات فى الديمقراطيات الغربية فهى موضع نقد وفحص ورقابة من خلال الصحافة والاحزاب السياسية فى معمعان تداول السلطة، وخصوصا فى

عهد «المعلوماتية» والتى تقود الى «الشفافية» وبحيث يصعب التعتيم على كل الصفقات والحوارات، ولذلك عندما أدار بيرلسكونى الامور السياسية بطريقة ادارة الشركات وقع فى مطبات برلمانية اضطرته الى الاستقالة.

وفى مصر نجح عبود باشا - قبل ثورة ١٩٥٢ فى إدارة شركات وظلت ثروته تتضخم حتى شبع من كثرة المال فتطلع الى اختراق حاجز السلطة فاخترقت أصابعه حتى أصابته بكل أنواع الاتهامات والتى عبر عنها إحسان عبدالقدوس ببراعة فى روايته **«شيء في صدري»**.

فالوصول الى السلطة من خلال الثروة ممكن ومشروع وبالذات فى المجتمعات الرأسمالية وعلى قمتها أمريكا، على أن العكس صحيح وغير أخلاقى فالوصول الى الثروة من خلال السلطة أمر غير مقبول وهو مايعبر عنه **«بالفساد»** حتى وإن اتخذ طرقا وسبلا مختلفة للتعمية أو التمويه، وكثير من أهل السلطة يتمسكون بها حتى تختفى أخطاؤهم معهم، ومن هنا الحكمة فى تداول السلطة.

وعلى كل منا أن يدرس تركيبته الانسانية ليختار ما يناسبه أى مايتفق مع قدراته وطموحه، ولعل أبلغ مثال يجسد هذه الحقيقة هو الاختيار بين عمل القاضى ومهنة المحاماة، وأشعر بالاختلاف الشديد بينهما من خلال بعض أصدقائى من كبار رجال القضاء

اذ هم يعملون ويكدحون ويسهرون الليالى لكى يدرسوا الأوراق ويفحصوا المستندات قبل أن يصدروا الاحكام فيقيموا العدل، فالقاضى يدرك أن زميله المحامى (والذى يلقبونه بالقضاء الواقف تعويضا لعدم تمتعه بسلطة إصدار الأحكام) يحصل على عائد مادى يقدر – فى القضايا الكبرى – بعشرات وأحيانا مئات المرات لما يتقاضاه القاضى فى سنوات، ولأن القاضى قد اختار مساره فى اتجاه السلطة وآثر أن يقوم بعمل يرضيه ويتفق مع تركيبته الإنسانية والتى تتجه الى الإنصاف والعدالة ثم يقوم بعمله باستمتاع وفى كبرياء، بينما يقف المحامى امامه مترافعا **(وليس بالضرورة مترفعا)** ويحاول جاهدا أن يكسب القضية ، ولذا فمن يكون طموحه زيادة الثروة فى القطاع الخاص أو المهنة عليه إن يكون لديه مواهب وقدرات فى هذا الأمر، أما دون ذلك فخلط للأوراق بين السلطة لأن هناك إجماعاً قيميا عالميا بأن اتخاذ السلطة وصولا للثروة أمر مرفوض من الكافة ولكن للأسف أمر وارد وموجود بل لعله منتشر.

أما الشهرة فقد صارت ادواتها مختلفة عن السابق وحتى منذ نصف قرن مضى، لعل أهم وسائلها المبهرة هو التليفزيون والاذاعة حتى صارت أحد اسباب إحتراق الفراشات التى تقترب منها أكثر من اللازم، لأنها فاضحة للنفس الداخلية مع تعدد الظهور وذلات اللسان، واصبحت صناعة النجوم فى كل مجال من

الفن والرياضة الى الثقافة والسياسة، من أهم أدوات الحكومات، بتركيز الاضواء على المريدين والاتباع وحجبها عن الخصوم والمعارضة، ولسوف تتحرر الجماعات والافراد من الاحتكار الحكومى للتليفزيون مع انتشار استخدام الاطباق المستقبلة للارسال من الاقمار الصناعية.

وكان من نتيجة هذه الادوات الحديثة، أن ضمر تكوين الشخصيات العلمية والادبية ذات الانتاج الرفيع، اكتسب المثقفون سمات أقرب الى السطحية والانتهازية.

وغالبا ما تأتى الشهرة مقرونة بالسلطة، وقليلون يخترقون حاجز الشهرة دون المرور بمرحلة السلطة، ويدحض هذه الظاهرة مسار كاتبنا الشيخ الوقور نجيب محفوظ والذى وصل الى الشهرة العالمية دون المرور بالسلطة، وعندما غمرته الشهرة الفائقة حتى صار ضمير الأمة، لم يصبه الغرور كما يحدث عادة.. بل زادته تواضعا وبساطة فأصبح فى قلب ووجدان كل مصرى وعربى، وعندما حصل على جائزة نوبل كان طلبه من الثروة «**كيس من السوداني**» فأكد على أن المال لم يفسده من الداخل، فأصبح وكأنه من الملائكة وتجاوز البشر.

على أن من يكتسب الشهرة من خلال السلطة دون مقومات ذاتية، غالبا مايتحول الى انسان مغمور بمجرد أن يترك أو يطرد من السلطة، وربما كان ذلك أحد أسباب تمسك بعض الوزراء

بالسلطة الى الحد الذى لايتفق مع الكرامة، لأنهم لايحملون قدرات تمكنهم من استمرار الاستمتاع بالشهرة دون سلطة.

وفى مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠ ستتغير السبل والموازين للحصول على كل من الثروة والسلطة والشهرة فالثروات والأموال لم تعد وطنية محلية بل صارت عالمية تهرب تحت جناح الليل وعن طريق الفاكس من طوكيو إلى نيويورك ، ومن ثم تفقد بريقها ، وستلقى بالشكوك حول الثروات الزائدة، بل لعل أصحابها سيكونون موضع اتهام بدلا من أن يكونوا موضع اهتمام أما السلطة فإنها ستحتاج إلى مقومات ذاتية عالية، فلن يصبح الوصول إلى السلطة من خلال الباراشوت أو من خلال شلة أو بالتقرب إلى الجالس على العرش بل ستحتاج إلى كاريزما لأن السلطة سبيلها هو الديمقراطية وهى فى حاجة إلى شفافية وإبداع.

أما الشهرة فستكون من خلال أعمال فكرية إبداعية عن طريق الفن أو العلم ، ولن تكون قاصرة على السياسة أو السلطة أو اتخاذ القرار ولذلك فإن التوازنات والخيارات فى رحلة الألفية الميلادية الثالثة سيكون لها معايير ومفاهيم غير تلك التى تتعارف عليها القيم الحالية التى تحمل معانى الانتهازية وقنص الفرص .



اكتشاف الأرضية المشتركة وتوسيعها بدلا من استنفار العداء والتباين

كان المؤتمر السابع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى عقد فى الاسكندرية ، ومن خلال ما قدم من كلمات وشعارات، وما خلقه من مناخ عام بين القيادات الدينية فى العالم الإسلامى، نقطة تحول فى الفكر الدينى. وسيكون لذلك انعكاساته على صورة الإسلام فى العالم الغربى ، ومن ثم تحاشى امتداد وتوسع الصراعات الساخنة فى يوغوسلافيا السابقة وحصرها فى أضيق الحدود. ولكن الأهم من ذلك هو نزع فتيل الكراهية للإسلام والمسلمين فى معظم انحاء أمريكا وأوروبا، ما يخفف من تصاعد «الصراع بين الحضارات» وهى النظرية التى ابتدعها صموئيل هانتجتون وتبناها مفكرون وسياسيون كثيرون يصبون الزيت على النار، بينما آخرون يعملون على إيقاف امتداد ألسنة اللهب بل ربما اطفاء النيران المشتعلة حاليا .

هناك أولا ملاحظات من ناحية الشكل لعل ابرزها اختيار الشعار الذى كان عنوانا للمؤتمر وهو «عطاء الاديان لخدمة الإنسان» . ففى هذا الشعار وربما لأول مرة لا يورد عنوان المؤتمر اسم دين من الأديان، لكى يحل كلمة «الأديان» ثم يضيف أن ما تعطيه هذه الأديان فى مجملها، هو لخدمة الانسان ، أى خدمة البشرية جمعاء، وليس لخدمة المسلمين وحدهم. فكانت هذه البداية مشجعة ومختلفة عن الشعارات فى سنوات سابقة.

ومن ناحية الشكل أيضا لاحظنا أن الرئيس مبارك لم يحضر بنفسه الجلسة الافتتاحية وعهد الى وزير الأوقاف بقراءة كلمته-

المعدة بإتقان مسبقا . ولهذا الأمر دلالته المحلية والاقليمية والعالمية، وهى أن الدولة لم تعد طرفا فى دعم التوجهات الدينية – سواء كانت معتدلة أو غير معتدلة، وان رؤيتها فى هذا الأمر لا تختلف عن إنابة وزير الخارجية أو الزراعة أو الصناعة فى مؤتمرات مماثلة ، فضلا عن أن الدولة منحازة إلى التوجه العالمى وتقدم الوجه الآخر للاسلام، وهذا ما يؤكد عبارات ومفاهيم خطاب الرئيس ذاتها، وسنشير الى ذلك فيما بعد. وليس معنى هذا أن مصر كدولة وحكومة قد صارت توجهاتها «علمانية » أو أنها صارت محايدة بالنسبة للدين عموما والاسلام خصوصا ، مثلما هى الحال وفق الدساتير والممارسات فى معظم دول أوربا الغربية بدرجات متفاوتة فذلك أمر غير ممكن فى إطار المفهوم الثقافى العام فى مصر وفى المنطقة . ولكن هذا يعنى ان الدول بدأت تمسك «العصا من المنتصف» ، كما كانت تفعل منذ ١٩٧٥ . فقد صبرت أو غضت النظر بنفس طويل على حوادث العنف لسنوات طويلة الى ان كانت محاولات الاعتداء على وزيرى الاعلام والداخلية ثم رئيس الوزراء . فشعرت اجهزة الدولة ان التطرف يمسك برموزها القيادية بعد أن أمسك بجمهور الشعب العادى فى قرى ومدن الصعيد ، فضلا عن محاولات قتل السياح الاجانب فى احداث متتالية لايفوت مدلولها أى متابع للامور بعمق .

ومن المؤكد ان حادث الاعتداء على الرئيس مبارك نفسه فى ٢٦ حزيران (يونيو) فى اديس ابابا ومن منطلق ذاتى وموضوعى

معا ، قد ادى الى استقطاب ووضوح رؤية فى سياسة الحكومة واصبحت توجيهاتها الفكرية والايديولوجية اكثر تحديدا ، وهو الامر الذى سلكه الحوار والتوجه فى هذا المؤتمر المهم . ومن المتوقع ان تستمر الحكومة فى هذا التوجه الجديد من اجل سلامتها .

وما استوقف نظرى فى الخطاب الافتتاحى للرئيس ، والذى لم يلقه الرئيس كما سبق الذكر عبارات واضحة تربط الحضارة الفرعونية بالفكرة الدينية الحديثة ، وهو توجه جديد تماما - ولطالما ناديت به - وكان يقاوم بشدة من التيار الاصولى الذى كان يتوهم ان الحضارة الواردة من الحقبة الفرعونية تناظر ما كان فى الجزيرة العربية فى حقبة الجاهلية ، أى انها تناظر عبادة الاوثان ، بينما ترى غالبية من المثقفين ان مصر بحضارتها وتراثها اول من نادى بوجود الثواب والعقاب من خلال آثار كثيرة لعل أبرزها صورة الميزان وجلسة المحاسبة بخصوص الآلهة فى وثيقة كتاب «كتاب الموتى» الشهيرة ، وكيف ان هناك حياة أخرى بعد الموت ، ومن ثم كان التحنيط وحفظ الاطعمة فى المقابر ، كما هو معروف ، احدى سمات الحضارة الفرعونية . ويذهب كثيرون بمن فيهم جيمس هنرى بريستد الى ان الفراعنة كانوا الاساس الاخلاقى فى الوعى الدينى الذى ما لبث ان ساد الشرق الاوسط .

قال الرئيس : كانت مصر أول مكان فى ارض الله انتمى اهلها الى الله وعرفوا الاديان قبل الزمان بزمان ، واقام فراعنتها

الاهرام كى تحفظ فيها اجسادهم فى انتظار البعث والحساب بين يدى الله بل هى الدولة الاولى في تاريخ البشرية التى أعلنت التوحيد على يد اخناتون. وهذه العبارات بإلقائها فى «المؤتمر السابع للمجلس الاعلى للشئون الاسلامية» مسألة لها مدلولتها الثقافية وتعبر عن دخول الدولة فى الصراع الفكرى الدينى من منطلق جديد .

ومن دون ان يكون هناك أى اتفاق مسبق فيما اتصور ، وردت فى خطاب الانبا شنودة هذه العبارات «ان علاقات المسلمين بالاقباط متعاضدة وليست متعارضة ، متعاونة وليست متفرقة ، متساندة وليست متباعدة ، لاننا لو ركزنا على خلافاتنا العقائدية لضعفت علاقاتنا بانفسنا وبالله ، ولو ركزنا على نقاط التلاقى لتعاوننا جميعا لصالح ألبشرية ولصالح بلادنا» .

وهكذا يتضح أن هذا المؤتمر فيه طرح ثقافي جديد لان الاسلام - كدين - يحمل قيما انسانية رفيعة ، ولديه كم من النصوص والتاريخ والتراث عبر أربعة عشر قرنا طويلة شاهدت - كأي حضارة وتراث - مراحل تقدم وانتشار. كما شاهدت مراحل ضمور ورجوع الى الوراء ..ومن أبرز عناصر قوته فى مصر ، مثل اديان أخرى مرت بها، امتزاجه بالحضارات التى اختلط بها أو حتى قهرها فالمسيحية مثلا، لها نماذج أصبحت معروفة بالنمط الغربى ممثلا فى الكاثوليكية والبروتستانتية ، ثم النمط الشرقى،

ثم فرق أخرى امتزجت بآسيا وحتى بافريقيا ، وكذلك الاسلام قدم ألوانا من الثقافة من خلال الاجتهادات لمواجهة مشاكل العصر ، وهى متغيرات لها محدداتها التى تختلف بحكم المكان والزمان.

فى هذا الاطار استطيع كمصرى منتم الى التراث القبطى أن أقر بان فى مصر اسلاما متأثرا بكل الحضارات السابقة التى مرت بمصر ، ويمكن أن يلمس ذلك أى دارس لتاريخها وللممارسات الجنائزية واحتفالات اعياد الميلاد وحفلة السبوع (أى مضى سبعة أيام على وصول المولود الرضيع) وعوائد احتفالات الزواج ورش الملح والشمع وربط رداء العروسين بخيط رفيع، وصولا الى الأعياد الدينية ذاتها حيث يشترك كل من المسلمين والاقباط فى الاحتفال بصلاة العيد فى الليل أو فى الفجر بتقديم «الكعك» والذى يبدو أنه - وفق ما اكتشف فى مقابر الفراعنة - من ممارسات قدماء المصريين ، والمسلمون فى الاحتفالات (بالموالد) بكل من مشايخ الإسلام وربما قديسى المسيحية (وكلهم شهداء من أجل الديانة) بالطريقة ذاتها، ويعود ذلك فيما أعتقد الى أيام قدماء المصريين والذين كان لديهم إله لكل اقليم يتشفعون له. وحتى احتفال المولد النبوى يتم الاحتفال به فى مصر بطبخ الحلوى والتى يصبغونها على شكل «عروسة المولد» وهو مطلب كل فتاة صغيرة، من فقراء الريف الى أثرياء المدينة، كل حسب ثرائه

ومقدرته المالية. ثم هناك الفوانيس فى رمضان وغير ذلك من أمور تتطابق أو تتشابه بين كل أفراد الشعب المصرى من الديانتين .

ان هذا النموذج المصرى - الذى عاش وقاوم قرون التخلف فى العصور الوسطى - ليدل على أن الإسلام فى مصر ثقافيا وحضاريا يقف مع المسيحية القبطية ، أى المصرية ، على أساسات واحدة هى الحضارة الفرعونية القديمة التى تمتد لنحو ثلاثة آلاف سنة من التاريخ المكتوب قبل الميلاد .

وهكذا بمجئ هذا الاحتفال السنوى المهم لمؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - وهو هيئة دينية فى المقام الأول - يتقدم فكر دينى اسلامى مقبول من الكل لأنه مصرى يواجه الحجج المستفزة التى بثها الدكتور صموئيل هانتجتون حيث أشاع فكرة الصراع بين الإسلام والغرب، وهى الفكرة التى تتبناها هيئات غربية عديدة، وفى ضوئها يتم اضطهاد المسلمين والعرب المقيمين فى بلدان أوروبا وأمريكا ، وهذا أمر لابد لنا من التصدى له ليس دفاعا عن الاسلام ولكن حماية للإنسانية ونزعا لفتيل الكراهية والتعصب .

ولقد حاولت منظمة اليونسكو أن تجعل من عام ١٩٩٥ عاما للتسامح ونشر قيم «قبول الآخر» من منطلق أن أحداً منا لم يختر لون بشرته أو العقيدة الدينية أو المذهب الذى ينتمى إليه ، وهذه مفاهيم بسيطة مبدئية تقتنع بها ملايين من البشر من كل الحضارات، ومن ثم فان الغرب ليس كله ضد الاسلام كما يتوهم

ويدعو البعض، بل هناك قوى متوارثة (فى عالم السياسة والثقافة) تنشر فكرة قبول الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا خير مثال واضح، وعلينا نحن فى العالم العربى والاسلامى أن نكون فكرا مستنيرا جديدا لنكشف أننا والغرب وكل الحضارات ، تقف على أرضية مشتركة هى الإنسانية والتقدم، وأن يكون السباق وهو فى المباراة فى مجال العلوم والتكنولوچيا وما إليها .

إن التراث المصرى فى هذه الخصوصية له ابعاده التاريخية ومرتكزاته الفكرية والثقافية الشرقية. بجوار الإسلام المصرى الوطنى طوال هذه القرون دون صعوبات تذكر، وذلك قبل أن تكتشف أمريكا أو تظهر للوجود مواثيق وعهود حقوق الإنسان أو قضايا الاقليات . والفكرة المحورية لهذه المعايشة تكمن فى البحث عن الارضية المشتركة واجتناب نقط الخلاف والصراع .



من ثقافة «التلقين»
إلى ثقافة «الحوار»

إن الأمر يستدعى أن نخطط برفق وإصرار ومثابرة لتحويل ثقافة «التلقين» التى سادت مصر - ربما لآلاف السنين - لننتقل بها تدريجيا وفى رفعة إلى ثقافة «الحوار» لأن ذلك هو الركيزة الفكرية لممارسات المشاركة من خلال قبول الآخر، وبعدها ستفرض «الديمقراطية» نفسها كاملة ، ومن خلال هذه الآلية ستنطلق الطاقات الخلاقة الكامنة عبر تراث «رقائق الحضارات» التى تراكمت عبر التاريخ وتجد القنوات الطبيعية للتعبير عن نفسها ثم تنميتها فكلنا يشكو من أن كبتها قد أوصلنا إلى «بثور» التطرف تعبيرا غير صحى عن طاقات مكبوتة ترغب فى الانطلاق.

فالمكون الثقافى المصرى ومنذ عصور الفراعنة - يعتمد أكثر ما يعتمد - على التلقين أى «المنولوج» وليس «الديالوج» فالفكر والعقيدة والقرارات وحتى التشريعات تأتى دائما من اتجاه واحد من أعلى إلى أسفل، من كبير السن إلى صغير السن ، ومن العمدة إلى الفلاح ، ومن الوزير إلى الموظف والغفير ، فعندما يقرر «فرعون» «يتحرك الكهنة» وهم مثقفو الأزمنة القديمة ولهم ما يناظرهم ليقننوا ويشرحوا ويقنعوا الصناع والعمال والشعب، وعندئذ تظهر الإبداعات والمهارات الفنية للحرفيين لتصنيع كل رغبات وتوجهات فرعون فى شكل هرم أو معبد أو تمثال أو تنظيم حشد لمقاومة فيضان أو شق ترعة أو بناء قنطرة أو تحنيط جسد لعظيم أو إمرار قانون فى منتصف الليل .

ودون الخوض فى تاريخ مصر كله عبر عصوره المتباينة الطويلة ، فإن ثقافة التلقين تبدأ داخل الأسرة الصغيرة أو الممتدة الكبيرة فلا مازلنا نعيش ثقافة «المجتمع الأبوى» وقد صيغت فى مقولة «واللى مالوش كبير يشترى له كبير» وقد استفاد السادات من هذا المفهوم الثقافى المصرى ، فنصب نفسه - دون قرار - رب العائلة المصرية وكان يشعر أنه شخصيا كبير العائلة المصرية ومن عارضه فقد خرج على إجماع الأسرة المصرية وهو مفهوم ينحو إلى الفاشية وقد أوصلنا وأوصله إلى ما حدث فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ .

فالأب داخل الاسرة يتصور أنه هو وحده صاحب القرار وأدرى بمصالح الأسرة وغالبا ما يتخذ القرار بعد أن يخلو لنفسه وقد يتحاور مع أقرانه ولكنه نادرا ما يشارك زوجته ويكتفى بأن يعطيها الحق في أن تكون «وزيرة المالية» لتصرف شئون الحياة اليومية ، وهكذا حفرت شخصية «سى السيد» والتى رسمها بإتقان وإقتدار الكاتب العملاق نجيب محفوظ وجسدها الفنان الراحل يحيى شاهين لكى تعبر عن واقع الحياة الأسرية فى الحضر للطبقات الثرية والمتوسطة ، ولعل الطبقات الفقيرة تحذو حذوها .

ومع التقدم الثقافى ورقى المعارف والانفتاح على حضارات أخرى أخذت بعض العائلات بأساليب الحوار فى اتخاذ القرار ومع تعليم

المرأة أصبحت الزوجة مشاركة للرجل فى تصريف أمور الأسرة واتجه كثيرون لفتح الحوار مع الأبناء والبنات وقديما قال الجدود «إن كبر ابنك خاويه» أى ، اتخذه أخا صديقا ومحاورا ، وفى بحر النصف الأخير من القرن العشرين زادت فكرة الحوار والمشاركة فى اتخاذ القرار داخل الأسرة ولم يعد الأب قادرا على أن يفرض رأيه فى قضايا زواج أولاده وبناته كما كان الحال سابقا واتجهت بعض العائلات المتحضرة إلى فكرة عقد اجتماع للأسرة عند كل منعطف مهم لاتخاذ قرارات تؤثر على كيان الأسرة كلها وهذا المناخ الجديد يدعو للتفاؤل من ثم فليس من سبيل لتنمية ثقافة الحوار على مستوى الوطن ما لم تنم وتتدعم مفاهيم وممارسات الحوار والمشاركة داخل الأسرة أولا .

ثم تؤثر مرحلة التعليم على التكوين النفسى للفرد ، فالتعليم يرتكز - وبدرجات متفاوتة - على التلقين ، وأن العلم والمعرفة والحكمة كلها فى حوزة المدرس وأن الطالب ما هو إلا متلق فقط ثم انتشرت عبارات دينية كهنوتية لتتحول إلى قيم ومفاهيم تحمل مقولات شهيرة وهى أنه : «على أن ابن الطاعة تحل البركة» ثم تتحول الطاعة إلى خضوع ويتحول الخضوع فى أحوال كثيرة إلى خنوع ، ولا عجب إن سادت السلبية فى انتظار التوجيهـا ـ من أعلى

إن الطفــل قــد تعـود التلقين والتوجيـه من المدرس ، وبذات الفــهم تعـود المدرس أن ينتظر النصــائح من «الموجـه» ثم ينتظر «الموجــه» تعليـمــات «مـدير المنطقـة» والذى يتلقى المنشـورات والتعليمــات من الوزارة ...

ومن المؤثرات على الفرد العادى المصرى ما يصـغى إليه من خلال الوعظ والارشـاد فى دور العبادة – على أنواعـها – فمعظمـها يعتمد على التلقين وبالتالى فان المناخ الدينى السائد هو تجسيد لثقافة التلقين بل لعله فى معظم الاحيان يقاوم ثقافة الحوار وهو أمر عانيت منه شخصيا ، فما أن ناقشت رأيا سياسيا لقيادة دينية حتى فتحت تلك القيادة نيرانها وأذنابها لأن تلك القيادة لا تعرف ثقافة الحوار بل تتعايش مع سياسة التلقين وتدعمها لأنها مصدر قوتها ونفوذها .

كلها مسلسل التلقين من أعلى إلى أسفل وتنتقل ذات المفاهيم إلى مواقع مختلفة ، ويفقد المجتمع آلية «التصحيح الذاتى» لأن القرارات ليست نتيجة حوار أو مشاركة وهو أمر في حاجة إلى تغيير فى المفاهيم الثقافية ، ولذا «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

وبذات المفهوم لثقافة التلقين فى الأسرة ، نجد الأب أو الأم تلاحق الطفل والصبى والشاب وتضغط عليه بالمذاكرة أى حشد «الذاكرة» أو الحـفظ عن ظهـر قلب لكل مـا يتلقنه عن طريق كـتب الوزارة

«المقررة» ، وأصبح أهم ما فى تعليم اللغة العربية هو «المحفوظات» وليس تذوق القيم البلاغية لهذه اللغة الثرية فى الألفاظ والمعانى والمفاهيم ، وكانت نتيجة كل ذلك هى سيادة الموروث والنصوص ومن ثم كان الطريق ممهداً للفكر السلفى لأننا كمجتمع لم نعمل على تنمية ملكات الإبداع والنقد والتطور من خلال الثقافة العامة والفكر العلمى .

ويحاول الصديق د. حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم جاهدا تغيير هذه المفاهيم ، بتعديل مناهج التعليم وإدخال نشاط «المناظرات» تجسيدا لمبدأ «الحوارات» وكيف أن العديد من القضايا تتحمل الخلاف فى الرأى ، لأن أحدا لا يحتكر الحكمة وحده وأن التنوع ظاهرة كونية وأن الجمال هو فى تباين .

ومن أهم الكيانات التى كان ينبغى أن تبنى على أساس «الحوار» هى الأحزاب السياسية والمؤسسات الدينية والجمعيات الأهلية غير الحكومية والجامعات وما إليها وإذا بها تتحول فى مجملها إلى تنظيمات للتلقين بدعوى الانضباط الداخلى لأنها تأثرت بالمناخ الحضارى العام للمجتمع .

إن الأحزاب السياسية فى كل بلدان العالم الديمقراطى هى «المفرخة» الطبيعية للقيادات السياسية للمجتمع ، ويتم التعرف على الشخصيات القيادية من جيل أكبر إلى جيل أصغر سنا من خلال الجلسات الخاصة والعامة داخل حركة الحزب أى

من خلال الحوار الذى يظهر الملكات والقدرات، وهو أمر نلمسه فى التغيرات المتعاقبة فى الأحزاب من أمريكا وإنجلترا غربا إلى اليابان والهند شرقا بينما تستمر ذات الوحدة الكالحة فى مواقعها جيلا بعد جيل دون تغيير إلا بالرحيل الأخير المحتوم وهى ظاهرة مصرية ليست قاصرة على حزب الحكومة وحده .

وفى مصر لدينا عدد من الأحزاب السياسية تحولت إلى كيانات ديكورية وكأنها أجساد بلا روح ، فقد صارت بالفعل تنظيمات وهياكل فوقية دون تفاعل إنسانى من خلال الحوارات وتبادل الرأى داخل اللجان ، وما ينطبق على الاحزاب السياسية ينطبق على كل مؤسساتنا الأخرى .

إننا نتحدث كثيرا عن الديمقراطية ، وتعديل الدستور ومنح فرص أوسع لقيام الأحزاب دون التقيد بأحكام قانون إنشاء الأحزاب ، ثم نطالب كثيرا بأن تكون مواقع القيادات فى المحافظات والمدن عن طريق الانتخابات مثلما هو الحال – وكما نسمع كل يوم – فى كل أقاليم أوروبا وأمريكا وحتى الهند وقبرص ومالطا ، ولكن كل ذلك لا أراه قريب الحدوث فى مصر ، لأننا كشعب لم نطالب ونمارس بثقافة الحوار بدلا من ثقافة التلقين والتى أراها للأسف الشديد مقبولة وسائدة إلى ما بعد عام ٢٠٠٠ .



وأخيرا التقى الغرب بالشرق

منذ أن أطلق الكاتب والمفكر الإنجليزى جوزيف دورياد كيبلنج (Kipling) (١٨٦٥ - ١٩٣٦) بيت الشعر المعروف الذى يحمل معنى أن «الشرق شرق والغرب غرب ، وهما ثقافتان ومفاهيم لن يلتقيا» نقول أخذت هذه العبارة مصداقية شهرة فاقت حجم مؤلفها ، وذلك فى كل من الشرق والغرب على حد سواء .

ولم تأت هذه المقولة من فراغ ، فقد ولد كيبلنج فى بومباى فى الهند من أسرة إنجليزية ، لكنه تعلم وتربى فى انجلترا ، ثم ظل يتنقل بين انجلترا غربا والهند شرقاً فكتب إبداعاته التى استحق عليها جائزة نوبل عام ١٩٠٧ ، ونشرت أعماله الكاملة فى ٣٥ مجلدا عام ١٩٤١ لتحمل بين دفتيها تراث الشعر والقصة القصيرة والأدب ، وذهب كل ذلك فى جوف الزمن وبقيت مقولته الشهيرة تتناقلها الأجيال .

منذ منتصف القرن الماضى ، استمر مفكرو الغرب فى ذات التوجهات السياسية التى تحكمها المصالح الاقتصادية بعقلية باردة ، لذا كان مبدأ وتكريس فصل شئون الدين عن الدنيا ، وأزاحوا الروحانيات جانبا وتحجم أو ضمر دور الكنائس وصار روادها من كبار السن ، وتحولت المؤسسات الدينية لتؤدى أساسا وظيفتها الرسمية كجزء من أجهزة الدولة وتراث المجتمع .

وفى الوقت ذاته استمر الغرب فى التقدم العلمى وطور الصناعات من خلال التطبيقات التكنولوجية ، واتجه رأس المال

الذى تراكم من خيرات الشرق إلى الإنتاج الوفير الذى يغذى طموحات وتطلعات البشر ، ليس فى سوق الغرب وحدها وإنما أقبل على منتجات الغرب أهل الشرق ، فاقروا بذلك ضمنيا بتفوق الغرب فى الأمور المادية ، وفى المقابل عزوا أنفسهم بأنهم (أى أهل الشرق) لديهم راحة البال والاستمتاع بالدفء الأسرى والمظلة الروحية الدينية وتوجوا ذلك كله بأن القناعة كنز لا يفنى .

ولأن الغرب يحمل قيم الديمقراطية التى تقود إلى «الشفافية» ، فقد اعترف وشكى فى العلن أن مجتمعه قد أصابته أمراض اجتماعية نتيجة اختلال التوازن الداخلى للإنسان ، لأنه فقد الاهتمام بالجانب الوجدانى أى الروحى معتمدا فقط على سيادة العقل ، لذا ضاع الشباب والأبناء نتيجة قيم الزيجات غير الشرعية ، بل وصل الأمر إلى حد الإعلان أخيراً عن زيجات شرعية قانونية وأحيانا كنسية ، لكنها من ذات الجنس ، أى بين ذكرين أو انثيين ، ثم تعرضت فوق كل ذلك لمشكلات انتشار المخدرات وأمراض الايدز نتيجة الانغماس فى الشهوات الجسدية وحدها . وصرنا نتساءل أيهما أسعد للإنسان ونقارن بين طاحونة الحياة المادية فى الغرب أن ينعم الانسان بالاسترخاء ومظلة الروحانيات فى الشرق ؟



وعاش العالم مرحلة الاستقلال الوطنى لنحو قرن أو يزيد .

وكانت كل الدول المستعمرة (بكسر الميم) في أوروبا الغربية ، وكانت معظم الدول المستعمرة (بفتح الميم) منتمية للشرق ، الذى أطلقوا هم عليه الشرق الأقصى أو الأوسط أو الأدنى ، لكنه كله شرق من فيتنام إلى الهند إلى مصر إلى الجزائر ، وتصادف فى حركة الدول والشعوب من أجل الاستقلال أن جاءها الدعم من القصب المقابل فى الاتحاد السوفيتى ، ولعل أبرز مثال لذلك ما نعرفه وعشناه من هذه العلاقة الحميمة بين مصر والاتحاد السوفيتى فى حقبة الخمسينات وما بعدها ، ولم نكن ندرى - وقتها - أن هذا الانحياز يتضمن اتفاقا مع مقولة كيبلنج ، فتجمعت الانتماءات الأيدلوجية مع الانتماءات الجغرافية وكرست الحرب الباردة وحركة عدم الانحياز هذا الشرخ بين الشرق والغرب وكان هذا الفاصل الذى أسموه فى الغرب بالستار الحديدى ، وتجسد ذلك فى تحطيم حائط برلين عام ١٩٨٩ بين الشرق والغرب فى أوروبا ، ثم جاءت زيارة كبير أساقفة «كنتربيرى» لتعبر عن إمكانية التواصل بين الشرق العربى الإسلامى وبين الغرب الانجلوساكسونى المسيحى فى خلال الأسبوع الأول من اكتوبر ١٩٩٥ ، بزيارته لمصر وإلقائه محاضرة فى الأزهر ، ثم زيارته التى تلتها إلى السودان ومقابلة للشيخ الترابى على الرغم من الفارق الكبير بين الزيارتين .

على أن هذه الفرقة بين الشرق والغرب ، ليست وليدة القرن التاسع عشر وحقبة التوسع الاستعمارى وإنما هى أمر يعود إلى صراعات متتالية ظهرت خلال الالفية الميلادية الأولى ، أى مع ظهور المسيحية إلى أن كان الانشقاق فى العقيدة بين مجمل الكنائس الشرقية المسماة بالارثوذكسية ثم الكنيسة الغربية ممثلة أول الأمر فى الامبراطورية البيزنطية ثم مع الكنيسة الكاثوليكية فى روما فيما بعد .

وفى القرن السابع ومع ظهور الإسلام ، بدأ الصراع بين الشرق والغرب ، ومع الألفية الميلادية الثانية شن الغرب «المسيحى» حربه «الصليبية» ضد «الشرق» .

وطوال هذه القرون كان ميدان الصراعات والحروب والغزوات فى مجمل الدول المطلة علي البحر المتوسط ثم كان أن حقق «الغرب» انتصاره على الشرق فعادت اسبانيا (وهى فى أقصى الغرب أيضا) لتكون معقل الكثلكة ، وفى المقابل حقق «الشرق» انتصارا ضخما فى قلعة الامبراطورية البيزنطية القديمة فى آسيا الصغرى ، وتحولت لتكون مركز الخلافة العثمانية .

وهكذا جاءت مقولة كيبلنج لتؤكد أن الفرقة والصراع بين الشرق والغرب ليست وليدة اليوم ، لكن لها عمقها التاريخى ، فهل يا ترى يمكن أن تتغير هذه المفاهيم لمناسبة أننا قرب نهاية عام

١٩٩٥ الذى أعلنته هيئة اليونسكو ليكون عام التسامح الدولى عن طريق قبول الآخر .



أصل من كل هذا إلى مربط الفرس ، لكى أطرح مقولات مختارة جاءت فى خطاب رئيس أو كبير أساقفة «كنتربيرى» ، (وهى الكنيسة الانجليكانية ذات النفوذ التاريخى فى انجلترا بالتحديد ، وهى تختلف عن كل من الكنيسة الكاثوليكية ذات النفوذ العالمى ومركزها روما كما هو معروف أو عن كنيسة اسكتلندا) ، لذا فلها موقع خاص فى العالم المسيحى ، ومن ثم فهى مؤهلة ثقافيا وعقائديا للحوار مع المؤسسة المقابلة فى مصر وهى جامعة الأزهر ، ذات الانفتاح «الوسطى» فى العالم الإسلامى ، لذا فإن لهذا اللقاء أهميته الخاصة إذا كانت رؤية المثقفين له كأنه جسر ولقاء بين الشرق والغرب ، وإذا تمت متابعته بلقاءات وتنظيمات تستمر فى فتح قنوات الحوار بين الشرق والغرب ، والذى يمكن أن يكون دينيا أول الأمر ثم يتطور ليكون ثقافياً وإنسانيا وفق معطيات العصر . كان خطاب د . جورج كيرى - كرأس للكنيسة الانجليكانية - دسما وعميقا ، اكتفى أن أعرض بعضا من فقراته المهمة التى تتسم بالصراحة وفتح قنوات التواصل ، قال :

أولا : عبارات تقيم جسور الحوار

* إن إتاحة الفرصة لى لإلقاء محاضرة مهمة فى جامعة الأزهر لشرف كبير يعتز به كل مسيحى .

* لقد أدى كل من الإسلام والمسيحية مآثر جليلة للمجتمعات الإنسانية عن طريق التعليم والتكافل الاجتماعى وزرع القيم الأخلاقية السامية من أجل خير البشرية .

* بدون سلام بين الأديان ستكون هناك حرب بين الحضارات.

* لا سلام بين الأديان بدون حوار بينها .

* لا حوار بين الأديان بدون البحث فى أسسها .

ثانيا : الأرضية المشتركة.

* إن الأديان عامة ورجال الدين خاصة يحملون على عاتقهم مسئولية عظيمة تجاه هذا العالم ، نحن فى حاجة إلى رسم طرق جديدة للتعاون والسلام المبنيين على الفهم والنوايا الصادقة ، فهناك اختلافات بين الأديان يجب عدم إنكارها ، ولكن هناك تفاهماً واتفاقاً أكبر مما نعتقد فى بعض الأحيان ، فهناك إلتزام مشترك نحو صراع الإنسانية ضد قوى الشر والفقر والمرض . فكل من المسيحية والإسلام يحث اتباعه على أن يكونوا أعضاء نافعين وجيرانا متعاونين والالتزام بعدم إيذاء مشاعر الود والاهتمام تجاه الآخرين .

* إننى سعيد بتعاون وكالة الإغاثة الإسلامية مع المعونة المسيحية بمجهود مشترك فى البوسنة .

* إن المشاكل الإنسانية مثل الفقر والشقاء الإنسانى ، تقف قدراتنا الفردية عاجزة عن حلها لكن لكل من عقيدتينا تراثا طويلا فى التكامل الاجتماعى .

ثالثا : تجاوز الماضى والاعتذار عنه

* لا يشعر أى مسيحى فى الوقت الحاضر بالرضا عن الطريقة التى اتبعها أسلافنا فى حسم الصراعات ، فقد تسبب الصليبيون فى إحداث آثار جسيمة فى علاقات المسيحيين ببعضهم وعلاقاتهم بالمسلمين ، وهناك الكثير الذى ينبغى أن نعتذر عنه .

رابعا : تشخيص الأزمة الراهنة

* إن مسائل الفقر واليأس يتم إقحامها فى مسائل العقيدة ، فيظهر الوجه القاتم فى تلك المناطق من العالم (لم يحدد تلك المناطق لأنه يود أن يبنى جسور الحوار والسماحة) التى يتم فيها إخراس صوت الإيمان العقلانى الهادئ (ولعله يجد فى مشيخة الأزهر ودار الافتاء هذا الصوت) لتعلو عليه صرخات التعصب والجهل ، فيحدث أحيانا أن تستغل فئة من المضللين عدم فهم أو تخوف تجمعات عقائدية معينة عن سوء قصد ليحل العنف والقتل محل الحوار الصريح والسلوك الحضارى (أعتقد أنها عبارات منتقاة بعناية شديدة للتفرقة بين صحيح الدين وبين التعصب الذى يقود إلى العنف والقتل ، لذا جاءت تصريحاته أثناء زيارته للسودان مختلفة تماماً فى ألفاظها وروحها ومضمونها عن هذه المحاضرة التى ألقيت فى الأزهر حيث السماحة المقابلة) .

* لقد تكلمت كداعية مسيحى مخلص لدعوة المسيح ، ولكننى تكلمت أيضا كإنسان ، تعلم على مدار السنين أن يقدر ويشعر

بالإكبار نحـو الكثير من معتقدات المجتمعات الدينية المخالفة له في العقيدة.

* إنني مقتنع تماما بحيوية دور الدين كجزء أساسى فى السعى نحو السلام والنظام والتآلف بين الأمم .

* نحن مطالبون بوضع أسس الحوار بين الأديان والعمل المشترك من أجل الأجيال التى لم تولد بعد لكى تعيش يوما ما (أى أنه واقعى لا يشعر أن الحوار سيحل المشاكل العام القادم أو فى غضون سنوات قليلة) فى عالم يسوده السلام والتسامح الحقيقى والفهم المتبادل والتعاون فيتعايش من خلال كل ذلك الإسلام والمسيحية .



إن العالم يمر الآن بمرحلة دقيقة من تاريخه ، حيث أوجدت ثورة الاتصالات بما تشمل من اعلام وتنقلات وزخم من المؤتمرات والندوات والمقابلات ، لكى تبنى جسور الاتصال بين الثقافات والحضارات فى جميع المجالات السياسية والفكرية والعلمية والتكنولوجية وغيرها .

وفى ضوء اختفاء الأيديولوجية الماركسية ووجود فراغ فكرى ، وفى ضوء أن آليات السوق وحدها لا تشفى غليل الإنسان ولا تقدم الوجبات الروحية والوجدانية التى توفر للإنسان استقراره النفسى وتوازنه العقلى ، لذلك برز دور المؤسسات الدينية على مستوى

العالم بعد أن كان قد ضمر فى حقبة الحرب الباردة ، وفى هذا الإطار ينقسم الفكر الدينى إلى نوعين رئيسيين ، الأول يسعى إلى التعرف على الأرضية المشتركة وينسى الجروح التاريخية التى تمت بالفعل نتيجة أخطاء أجيال مضت وانتهت وصارت تاريخاً ، ليس من مصلحة أحد إثارتها بفتح جروح قد اندملت ، فمن المؤكد أنه يوجد لدى كل بشر عواطف خيرة يمكن أن تجمع فيلتف الناس حول أغراض نبيلة مقرونة بقيم أخلاقية راقية مستمدة من النصوص الدينية وهى جزء من التراث الإنسانى كله .

وهناك جزء آخر من البشر ليس لديه اتساع فى المفهوم الثقافى فيزكى نار الأحقاد القديمة ، وهو قادر على أن يستثير حماس الشباب مستغلا وجود بعض أمراض اجتماعية ليست لها علاقة بالدين ، بل هى من أخطاء التخطيط الاقتصادى مثل البطالة والفقر والتشرد والضياع وما إليها .

وفى هذا الإطار تجئ معظم العبارات التى وردت فى خطاب د.جورج كيرى مملوءة بالحكمة والتعقل والفهم ومعبرة – بصراحة ودون مواربة – عن روح الفريق الأول الذى يبغى الخير العام ويعترف بأخطاء الماضى ويدرك معطيات العصر ويستشرف المستقبل .

وأجد فى خطاب فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر ذات المعانى والمفاهيم إذ يقول : إن الإسلام هو أكبر دعوة

للسلم والأمن : سلام الإنسان مع الله وسلامه مع نفسه ومجتمعه ، وأن الأديان السماوية كلها تدعو إلى تحقيق السلام والأمن بين أبناء الأسرة البشرية كلها



وفى زيارتى الأخيرة إلى لندن - بترتيب من الخارجية البريطانية - تقابلت مع كل من الكانون كولن فلتشر سكرتير الكنيسة الانجليكانية للشئون المسكونية (وهى وظيفة تناظر مسئول الشئون الخارجية) وبرفقته مساعده الدكتور ريتشارد مارش ، وكان حوارا مثمرا صريحا عن الأوضاع والصراعات الدينية فى العالم ، شعرت خلاله بذات التوجهات والمفاهيم بالفعل التى وردت فى خطاب رئيس الكنيسة د . كيرى ، كما لاحظت أن العالم صار بالفعل كرة صغيرة ، حيث يتم تبادل المعلومات والبيانات بسرعة وبشفافية لم تكن متاحة منذ سنوات قليلة مضت .

دعنا نأمل أن تكون هذه الزيارة السريعة الخاطفة لرئيس أساقفة انجلترا وخطابه الجيد فى جامعة الأزهر ، سبيلا لبناء جسور تزداد قوة ومتانة مع الزمن ، وتكون رصيدا من الصداقة والفهم بين الشرق والغرب ، يتراكم مع زيارة سابقة قام بها د. محمد سيد طنطاوى مفتى الديار المصرية وبرفقته د . صموئيل حبيب رئيس الأقباط الانجيليين ، فكلها رحلات خير تقرب بين الأديان ، ومن ثم نتحاشى الصدام بين الحضارات إلى أن نبنى الود والفهم فى مرحلة قادمة بإذن الله .



التسامح وقبول الآخر
قضية ثقافية تنويرية

عندما انعقدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى دورة عام ١٩٩٣ لاحظ ممثلو الدول الأعضاء ان الصورة الوردية التى رسمها الرئيس بوش عن الرخاء والسلام الذى سيعم العالم فيما أسماه «النظام العالمى الجديد» قد تبخرت وحل بدلا منها حالة عامة سادت العالم كآبة وإحباط نتيجة للصراعات والحروب الأهلية بحيث تراجع كثيرون وأعتقد ان شرور الحرب الباردة كانت أهون وأخف ..!!

وهكذا قررت الجمعية العمومية أن يكون عام ١٩٩٥ مخصص ليكون «عام التسامح الدولى» ، YEAR OF (*)TOLERANCE ولكن فى تسارع الأحداث والحروب الأهلية وزحمة المؤتمرات الدولية والاقليمية والمحلية ، غفل الناس عن قرار الامم المتحدة وقد دهشت ان الصحافة المصرية - وحتى العربية - لم تبرز هذه القضية بالقدر المطلوب ومات عام التسامح الدولى قبل ان يعطى فرحة الانتشار .

ومع تزايد القتال فى البوسنة والهرسك من سنوات كان ان قتل عدد من الصحفيين والمصوريين الذين كانوا يتابعون هذه الأحداث ، وهم ليسوا طرفا في هذا النزاع - فقام مسيو فيديريكو ماير المدير العام لمنظمة اليونسكو فى ٣ مايو عام ١٩٩٤ ، بزيارة سراييفو وازاح

* وجدت صعوبة فى إيجاد كلمة عربية واحدة تناظر كلمة Tolerance ، وكلمة التسامح وحدها لا تعطى ذات المعنى ، والكلمة الانجليزية مستخدمة وشائعة بين المهندسين وتعنى حدود الخطأ المسموح به فى التصنيع ، وأفضل عليها بالعربية كلمتى «قبول الآخر كما هو» ..!

الســتــار عن النصب التــذكــارى الذى أنشىء تخليـدا لذكــرى هؤلاء الصـحـفيين وأعلن أن يوم ٣ مايو من كل عـام سيكون يوم الاحـتـفـال بحرية الصحافة فى كل العالم .

هذا وقد عهدت الجمعية العامة للأمم المتحدة الى منظمة اليونسكو (باعتبارها الهيئة المسئولة عن الثقافة والتربية والتعليم) لكى تقوم بالحملة العالمية لسنة التسامح ، فقررت بالفعل ان تخصص يوم ٣ مايو ١٩٩٥ ليكون يوم الدعوة العالمية للتسامح من خلال كل وسائل الاعلام من صحافة وغيرها فى مصر ولكل شعوب المنطقة العربية ، ليس فقط لكى ندفع عن أنفسنا شبهة التطرف والعنف والتعصب ، ولكن لأن يقينى أن هذه المنطقة – والتى كانت مهد الأديان الرئيسية فى العالم – كانت وستظل حاملة لواء التسامح والحب والرحمة والتعاطف .



لقد أثبتت الأحداث التى ارتبطت بالانفجار البشع فى مدينة أوكلاهوما ، أن الرأى العام الأمريكى مسمم ومشبع بالكراهية للعرب الى الحد أنه بمجرد أن اعلن عن وقوع الحادث ، زعموا أن الفاعل يبدو أنه من «الشرق الأوسط» ، واذ بالتحقيقات تثبت بعد ذلك ان مصدر الارهاب قابع فى عقر دار أمريكا ذاتها ومن ثم فإن العنف والتطرف ليس ظاهرة عربية بل إن الارهاب صار ظاهرة عالمية ، وما تم مؤخرا فى اسرائيل حيث اهتز جميع الشعب اليهودى فى كل أنحاء العالم ، لأن رئيس وزراء اسرائيل قد تم اغتياله بواسطة شاب متطرفا دينيا ،

ومن ثم فقد اليهود ما كانوا يصورونه بانهم شعب الله المختار ، فهم فى التحليل النهائى بشر ومجتمع مثل سائر المجتمعات يفرز التطرف إذا توافرت له الظروف الاجتماعية . لذا فتشت لأعرف مصادر هذه المقولات غير الصحيحة .

وهكذا اتجه فكرى الى الدراسات والنظريات التى يطرحها بعض كبار علماء فلسفة العلوم السياسية فى أمريكا ، وكيف ان تتالى هذه الأفكار كان البداية التى افرزت هذه الكراهية والتطرف والتى أدت - فى نهاية المطاف - الى مثل حادثة أوكلاهوما .

ولسنا فى هذا الأمر نتشفى فيما حدث من فجيعة انسانية قتل فيها اطفال ابرياء أمريكيون بل نزيد على ذلك فنقول ان التطرف فى الشرق الأوسط وغيره من انحاء العالم هو فى الأساس صناعة وتخطيط أمريكى بحت ، ونذكر كيف كانت البداية فى منتصف الخمسينات عندما ابتكر جون فوستر دالاس وزير خارجيتها فى تلك الحقبة أن مقاومة الفكر الماركسى تكون من خلال تقوية الأديان وتحجيمها فيما أسماه «مؤسسة التفاهم» The Temple of Understanding.

وبادرت أمريكا بإنشاء مجلس الكنائس العالمى وتشكيل مجموعة من التنظيمات لفتح الحوارات بين الإسلام والمسيحية وكانت معاهد الدراسات العربية فى جامعات أمريكا هى صاحبة النظرية بأن الإسلام هو الدين الذى يقاوم الشيوعية بطبيعته.

ومن عجب أن الكثير مما نشكو منه فى منطقتنا العربية يعود إلى التشكيلات التى اسستها وجندتها ومولتها المخابرات الأمريكية CIA عندما جمعت المتطوعين من كل ارجاء الوطن العربى لمقاومة النظام الشيوعى فى افغانستان، ونظمت تدريباتهم فى معسكرات جهزت خصيصا فى باكستان قرب حدود افغانستان ولم تكن تدرى - لا هم ولا الحكومات العربية التى باركت هذه التوجيهات - إن ذات المواطنين المتطوعين قد عادوا إليها بعد أن اندحرت الشيوعية فى افغانستان مزودين بالفكر والتدريب الذى كان المصدر الرئيسى للمنظمات الأرهابية.

واختفت اليد الخفية الأمريكية لكى تتفجر الصراعات والإرهاب فى كثير من الدول العربية وفى داخل افغانستان نفسها..»



وفى مناخ هذه الصراعات الطائفية والعرقية والمذهبية، يأتى معهد بحوث السلام فى جامعة اوبسلا الشهيرة بالسويد ليسجل أن عدد الصراعات أو المصادمات المسلحة فى العالم من عام ١٩٨٩ حتى عام ١٩٩٤ قد زاد عن ٩٠ صداما مسلحا منها ٤ مصدامات بين دول وأخرى مثل حالة الغزو التركى لارض العراق بهدف تأديب الأكراد وهو أمر قبيح غير مبرر اما الباقى وقدره ٨٦ صداما كان داخل حدود الدول ذاتها أى نوع من الحرب الأهلية.

وهكذا يأتى العام الدولى للتسامح فى جو سياسى غير مواتى، ولذلك لم نسمع له حسا ولا خبراً ، فى وقت كان المنتظر أن يكون الإعلام بكل صوره ناشرا لأفكار التسامح فى مواجهة الكراهية والتعصب لأن الواقع المرير أقوى من كل قلم.

وكم كنت أتمنى أن يحظى عام التسامح الدولى بالإعلام قريباً مما حدث لمؤتمر السكان فى القاهرة أو القمة الإجتماعية فى كوبنهاجن. او المؤتمر الدولى فى بكين عن المرأة

ورغم ذلك – ووسط هذا الظلام الثقافى الدامس – أجد فى نفسى الرغبة فى أن احيى فكرة ومبدأ يوم التسامح العالمى ولو بإضاءة شمعة تشع بضوئها الخافت من مصر التى قدمت عبر العصور نماذج حية ومستمرة للتسامح فى كل صوره، لأن التسامح واحتمال قبول الآخر هو – فى التحليل النهائى حالة ذهنية واقتناع عقلى نتيجة التعليم والتربية والثقافة ومرتبطة أساسا بالمناخ التنويرى العام.



وهكذا طرحت منظمة اليونسكو برامج تفصيلية للتعليم ، وكلها تهدف الي خلق مناخ التسامح وقبول الآخر فى جميع المجالات ، ففى فرنسا – وكثير من دول أوروبا الآن – يوجد فى الفصل الدراسى الواحد بيض ملونون بكافة درجاته ، كما يوجد المتدينون من المسيحية والاسلام واليهود بل حتى غير المتدينين وكل طفل أو شاب جامعى يحمل تراث ثقافته وديانته وجذوره ولا سبيل لاستمرار الحياة دون صراعات الا خلق تعاليم التسامح والمعايشة وقبول الآخر وهو امر صار حتميا

لاستمرار الحياة في العواصم الكبرى ومعظم اوروبا حيث صارت خليطا من الاجناس والحضارات والاديان .

أننى أحيى هيئة اليونسكو على مبادرتها ولسوف تجد فى مصر - أرض التسامح موطنا صالحا لقبول افكارها ومبادئها كما اتوقع ان تتم مبادرات أخرى فى دول أخرى كما اننى على يقين أن د . حسين كامل بهاء الدين - ومن خلال تطويره للمناهج الدراسية - قادر على خلق جيل جديد متسامح ، امتدادا لجيلنا الذى يسلم العلم لجيل جديد أقوى اذا تسلح بالعلم والتسامح معا .



حوار الأديان له أصول مرعية

أود – دون أن أكون من أهل الاختصاص – أن ادلى بدلوى كمفكر وإنسان ، ما اتصوره ملاحظات – وليست شروطا واجبة – تكون تحت نظر أهل الاختصاص لفتح حوار بين الأديان – كل الأديان – من أجل الإنسان – أى إنسان – لأن الحقبة القادمة ستكون حافلة بالصراعات الدامية من البوسنة والهرسك إلى أفغانستان والأكراد والتأمل وغيرها الم تسد مفاهيم قبول الآخر Tolerance بوضع المعايير الأكثر ملاءمة للعصر.

وتتلخص – من وجهة نظرى – فى الآتى:

اولا : كل دين لديه عقيدة ومسلمات ثابتة ترسخت مع الزمن وهى ماتسمي في الغرب «الدوجما » فبدون «دوجما» يكون الدين فكرا وفلسفة ، ولما كانت العقائد والمسلمات ذات حساسية خاصة، ومحفورة في وجدان كل من القيادات الدينية والشعوب المؤمنة بهذا الدين فإن فتحها للحوار محفوف بالمخاطر وقد يضر أكثر مما يفيد ، ولا طائل من مناقشته ، لان أحدا لن يغير ديانته او مذهبه لمجرد ان الحجج أقوى أو اكثر إقناعا ، لان «الدوجما» لاتستند إلى منطق عقلى مجرد ، وهذا ما اتضح من مناقشات المؤتمرات الدينية من أن الدين واحد وليس متعددا او مناقشة قضايا التثليث وعلاقتها بوحدانية الخالق فقد كان من الممكن ان تفجرالمؤتمرات كلها .. !

ثانيا : تختلف العلوم الطبيعية عن العلوم الانسانية ، فى ان النظريات لمجمع العلوم Sciencesوتطبيقاتها في الزراعة

والهندسة وما إليها تستند الى «حسابات» بين العلماء المتخصصين في الرياضيات والطبيعة والكيمياء وما إليها ، وتنتهي المناقشات الي نفوس صافية دون رواسب داخلية او تخزين الاحقاد تتفجر في شكل كتب ومقالات تستفز الآخر ، بينما تكون المناقشات والحوارات وحتى النظريات في العلوم الانسانية محفوفة بتداخل العناصر الذاتية مع الموضوعية ، ولذلك فالمناقشات لابد من ان تكون من خلال كلمات منتقاة بدقة بعيدة عن إثارة الحفيظة حتى بين العلماء لان الانتماءات الموروثة في العقيدة الدينية في حاجة الي تفهم خاص ومن هنا فإن علماء الانسانيات عموما والدين خصوصا عليهم الحذر في وضع مفاهيم من اجل الحوار .

ثالثا : ان النصوص الدينية – في الأغلب الأعم – لابد ان توفر للمنتمين اليها درجة من «التفاخر» أو «الاستعلاء» وإلاَّ ماضحى الناس بأنفسهم من أجل العقيدة الدينية بالاستشهاد أو بالمال أو بتحمل الضيم من أجل الدين الموعود ويبرز ذلك فى الأديان السماوية التى نشأت في منطقتنا العربية ، فاليهودية تردد ان اليهود هم شعب الله المختار» ثم تجيء المسيحية فتبشر بالمسيح ابن الله والذي جاء ليوجد المصالحة بين الله والناس وبذلك صار المسيحيون هم «ابناء الله» وتعطى هذه الميزة الاحساس بالمظلة الالهية العلوية للبشر ، ثم يجيء الاسلام فيؤكد ان المسلمين «خير امة اخرجت للناس » وان رسالته هى الأخيرة ومن

ثم تجب ماسبقها . ومن ثم فإن فتح الحوار بهذه الخلفية لن يكون له نتيجة الا اثارة مزيد من الكراهية للآخر ، خصوصا وانه توجد نصوص واحيانا تفسيرات ظهرت في مراحل التاريخ السابقة ، يمكن احياؤها في اتجاه يكرس النفور والتباعد ولا يؤدى الي التقارب والسماحة ، وهذه الامور في مجملها يمكن ان تثار داخل أماكن العبادة للرب الواحد ، وينبغى تحاشيها فى موائد «الحوار بين الاديان» .

رابعا : ارتبطت الأديان السماوية الثلاثة ببعضها البعض ، فالتوراة كانت بأسفارها المتتالية هى البداية ويصير رجوع المسيحية الى التوراة في مواقع كثيرة لان المسيح «ماجاء لينقض بل ليكمل » ثم جاء الاسلام فأشار الي اهل الكتاب «موسى وعيسى والانبياء» ومن المؤكد ان هذه النصوص متطابقة في بعض الامور ومتقاربة في أمور أخرى وربما كانت متضادة في أمور كثيرة ، فظروف الوحى والتنزيل مختلفة زمنيا وبيئيا اى مجتمعيا ولذلك فالمناقشة على أرضية الأجزاء المشتركة هى التى تقرب بين البشر ، والبعد عن نقاط الخلاف امر مستحب وذلك ان كان هدفنا هو الحوار بين الاديان من أجل الانسان» .

خامسا : في كل دين توجد نصوص تدعو الى التسامح والمعايشة وقبول الآخر ، والا ماصار الدين دينا ، وهذه النصوص معروفة في كل الاديان فالركيزة الاولى جاءت فى الوصايا العشر بعبارة «تحب قريبك كنفسك» والقريب هو الانسان في اي مكان

ففي المسيحية جاءت عبارات كثيرة حول قبول الآخر اهمها ان «الله محبة » ...وأحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم» .. الخ في الاسلام توجد عشرات الايات التي تحض على قبول الاخر ، لعل اكثرها شيوعا «وجادلهم بالتى هي أحسن...» ثم «وان جنحوا للسلم فاجنح لها...» وغيرها كثير .

إن مثل هذه النصوص التي تدعو لقبول الآخر هي الاسمنت الذي يربط حبيبات الزلط والرمل ، اى تجعل من المجتمعات متعددة الاديان نسيجا متماسكا ، وهي تمثل خبرة مصر الطويلة والتى ادت لاستمرار المسيحية القبطية في التآخي نادر المثال بين المسلمين والاقباط .

ولكن هذا النموذج يتآكل بسرعة لاستبعاد الاقباط من الحملات الثقافية والسياسية ، وسيؤدى هذا الأمر اذا استمر لعدة سنوات قادمة الى ضمور النموذج المصرى للمعايشة وسيحل التطرف والعنف مكان الوفاق والسماحة ولذلك فان هذه القضية يجب ان تشغل فكر المثقفين المصريين ليس لمصلحة الاقباط - ولكن من أجل مصر وسلامتها .

سادسا : منذ ان اختفى الاتحاد السوفييتى ظهرت نظريات سياسية وفكرية جديدة لعل اهمها هي نظرية «حتمية الصراع بين الحضارات » والتى قدمها صموئيل هانتجتون استاذ النظريات السياسية بجامعة هارفرد بأمريكا والتى دعت الغرب لتوقع أن يكون الصراع القادم بين مجمل الحضارة الغربية المسيحية

والحضارة الاسلامية الاصولية ، ويضع رجال السياسة والحرب الزيت فوق اللهب ويشعلون نار الكراهية للاسلام وهو امر لن ينتهي بالحرب ، فالصراع الفكري بالكلمة والمقال لن يقود الي صراع ساخن بالمدافع لان الغرب غير قادر علي قهر الاسلام والذى سيمتد ليشمل شعوبا يفوق عددها المليار ، كما ان الاسلام مهما عبأ شعوبه ووحد صفوفه ، لن يمكنه القضاء علي الغرب ومن ثم فلا سبيل الا بالمعايشة وقبول الآخر ، وعلينا كشعوب عربية (مسلمين ومسيحيين) ان نعمل معا علي نزع فتيل الكراهية التى يثيرها الغرب مستفيدا من التصرفات غير المسئولة لبعض الفرق الدينية ، والتى تقدم الدليل للغرب علي نظرياته .

وفي هذا الاطار فان مثل هذه المؤتمرات للحوار بين الاديان من اجل الانسان ، ستكون خطوة مهمة في الكشف عن ان الاسلام متحضر وراق لانه متعايش مع الاقليات المسيحية التي عاشت في كنفه لقرون طويلة ، ولن يكون بالقهر او النفاق وانما بالاقناع والاقتناع وعلينا ان نؤكد ذلك من خلال الانتخابات والحوار والاتصال مع القوي المتعاطفة في اوروبا وامريكا .

فى تقديرى علينا ان نرسم في هدوء خططا مصرية وعربية تقدم النماذج الناجحة للمعايشة السليمة لقرون في البلدان العربية فان في ذلك خير دليل على إبراز وجه الاسلام الحضارى في مواجهة حملات ونظريات الفكر الغربية .



الخيط الرفيع بين التدين والتعصب

الأديان السماوية الثلاثة - والتي نشأت وسادت في منطقة الشرق الاوسط - تتفق فى أنها تبدأ وتلتقي عند سيدنا ابراهيم خليل الله : فاليهودية بدأت منذ نحو ألفى سنة قبل الميلاد وهى ديانة - مغلقة - لأنها تدعى اليهود - شعب الله المختار - ولذلك فإن فكرة - البشارة - أو الدعوة للدخول في الديانة امر مرفوض، وذلك بخلاف كل من المسيحية والاسلام حيث يقومان علي اساس التوسع والانتشار، ولذلك فواجب المسيحية نشر رسالة المسيح الى كل انسان، وواجب الاسلام توسيع دائرة نفوذه ليشمل العالم كله لو امكن.

ورغم ذلك فان العرف العام فى بلدان الشرق

الاوسط هو تمسك كل منا بالديانة التى ولد ونشأ عليها ، ويتولد لدى كل منا إحساس بالاعتزاز بديانته بل وحتى بالمذهب الذى ينتمى إليه داخل هذه الديانة أو تلك، وهذه المشاعر قوة وشديدة حتى صارت أحد الاسباب الرئيسية فى تماسك المجموعات الدينية فى جميع بلدان العالم العربى وربما غيرها من البلدان المتدينة.

وقلة قليلة منا هى التى تدرس الأديان والمذاهب الأخرى ، وإذا درستها فيكون ذلك بوجهة نظر - نقدية - أكثر منها نظرة - حيادية - ولأن لكل دين مسلمات ثابتة ، لذلك فهو لايخضع كله للمنطق وسيادة العقل والاديان والمعتقدات يختلف فى هذا الامر

عن الدراسات للعلوم الطبيعية ، مثل الفيزياء والكيمياء و الميكانيكا وما إليها ، والتى يمكن التحدث عنها بتجرد وحياد ، وغالبا ماتخضع ككل تلك العلوم للتجربة المعملية وليس لذاتية الانسان اى انفعاله وانحيازه العاطفى والوجدانى ، ولذلك فهذه الباقة من العلوم المجردة لا تثير الحماس أو الغضب .

وتزداد موجة التعصب أو تقل حسب العصر الذى يحياه الانسان ، والدولة من خلال التعليم والاعلام والممارسات هى التى تقوم بصياغة الوجدان الوطنى الفكرى فإما ان تجعله متجها إلى - المواطنة - اى الانتماء الى الوطن كما فى حالة كل دول العالم المتقدم ، أو ان تثير النعرة الوطنية بتعبئة الناس الى الحرب كما فى حالة العراق ، وإما أن تزيد روح الانتماء إلى الدين أو المذهب أو الطائفة حسب الأحوال ووفق الضغوط المحلية أو الاقليمية او العالمية .

ومن يدرس تاريخ الاديان فى منطقتنا - عبر القرون الطويلة - يجد انه فى حالة حركة مستمرة وتطور دائم مرتبط بنفوذ الاديان بشكل عام وكذلك فالخلافات والصراعات حولها مستمرة ودائمة ، حتى يبدو كان تاريخ المنطقة هو جملة هذا المسلسل من الانتصارات والهزائم فى هذه القضايا الدينية المتعاقبة .

نشأت المسيحية فى احضان اليهودية ، - والى خاصته جاء ولكن خاصعة لم تقبله - وعندئذ توجهت المسيحية الى - الامم - ،

وانتشرت المسيحية فى كل البلدان المطلة على البحر المتوسط حتى القرن السادس تقريبا . ولكن اليهودية استمرت ولم تنته إلى يومنا هذا ، ومن ثم تعايشت المسيحية مع اليهودية فى مناطق ومؤسسات ثقافية كثيرة مدونة فى كتب التاريخ .

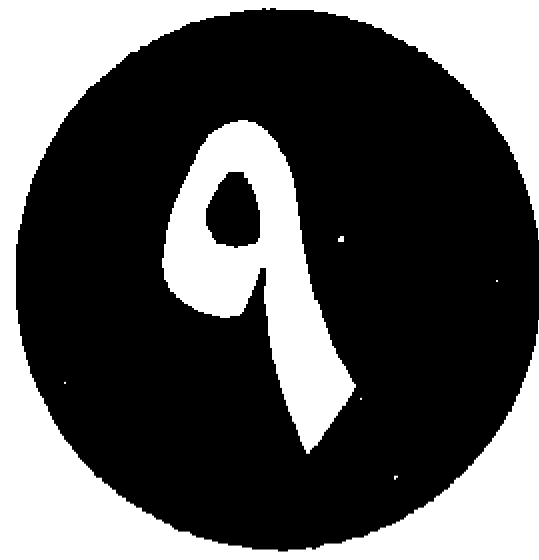
وحدثت شقاقات عنيفة فى داخل الفكر واللاهوت المسيحى ، وانعقدت كذلك مجامع مسكونية ومحلية كثيرة ، ولكنها لم تحسم الخلاف ، وبالفعل ظهرت مذاهب مختلفة ، وتشهد بعض الدول العربية – والتى إستمرت فيها الديانتان المسيحية والاسلام – مثل العراق ولبنان وفلسطين وسوريا – أى بلاد الشام والهلال الخصيب – ، والجماعات المسيحيه يصعب حصرها ، ويوجد عدم فهم لدى البعض من كثرة التفريعات المذهبية والعرقية للتجمعات المسيحية ، وقد عرفنا من خلال الحرب الاهلية فى لبنان مدى التشرزم المسيحى والاسلامى . من الموارنة الكاثوليك إلى عدة طوائف من الارثوذكس ونظيراتها من البروتستانت وهنا كالسنة والشيعة والد روز وغيرهم وفى منتصف القرن السابع الميلادى ، ظهر الاسلام وانتشر بسرعة هائلة ، ومثلما حدث للمسيحية فى القرون الاولى لها ، حدث للإسلام ، فكان الخوارج ثم الانقسام الرئيسى الشهير إلى السنة والشيعة ، وحدثت تفريعات لكل منهما ، وتوجد مذاهب اثنى عشر للشيعة وحدها ، ورغم انتشار الاسلام فى بلدان الشرق الاوسط وغيرها ، ولكن المسيحية بتفريعاتها

استمرت كذلك ، مما يؤكد أنه لابد من تعايش الاديان وان يتفهم كل منا دين الآخر دون كرهية او ازدراء وتعال . وفى القرن السادس عشر ، ونتيجة لطغيان ونفوذ الكنيسة الكاثوليكية ثم مأساة اصدار - صكوك الغفران - ، خرج مارتن لوثر - محتجا - على هذه الممارسات وانشأ الكنيسة - البروتستانتية - وانتشرت فى معظم دول اوربا الغربية ، ثم عبرت المحيط الاطلسى مع اكتشاف امريكا وتحولت إلى عشرات الفرق والمذاهب والاسماء المتباينة ، ولكن بقيت الكثلكة فى اوروبا الوسطى وانتشرت فى امريكا اللاتينية ، واستمرت الارثوذكسية هى المذهب السائد فى روسيا وأوروبا الشرقية .

ولكن فى كل تلك الصراعات الفكرية - وحتى العسكرية أبان فترة الحرب الصليبية - استمرت اليهودية والمسيحية والاسلام ، وبقيت الكثلكة لتكون اكبر تجمع ينتمى اليه اى دين او مذهب ، وستظل كل تلك الاديان - وغيرها - مذاهبها ، وكل منه - يتصور - انه افضل الاديان وانقى المذاهب ، مما يؤكد ان - لا أحد يحمل الحكمة بمفرده - وان الحماس للدين الذى يولد مع كل منا اى التدين مطلوب ولابأس به فهو الاسمنت الذى يبقى الافراد متماسكين متضامنين ولكنها شعرة عندما يزداد التدين ينقلب الى تعصب وربما كراهية للآخرين وهو أمر غير مستحب ، لانه لن

يغير من الواقع كثيراً ، وستظل الخلافات والتباينات الى نهاية العالم .

ولسوف تمر الحقبة حالية – التى يسودها التعصب – ليس فى مصر وحدها وانما فى بلدان كثيرة – ولسوف تعود مصر – ربما فى الألفية الميلادية الثالثة – كما كانت لقرون موطنا للتسامح الدينى ، حيث يعيش القبطى محترما الممارسات الاسلامية كما تراكمت فى مصر حضاريا ، ويشعر المسلم أن القبطى هو أخوه وجاره وان مصر تتباهى بهذه التعددية الدينية التى أثرت على كل من الممارسات والتقاليد فى الدينين .



الالتفاف حول الشرق أوسطية أمام المثقفين المصريين

أمـام المثقفين المصريين تحد هائل، فالحوار الذى يتم كل يوم فى القاهرة حيث عشرات الندوات حول قضايا ومفاهيم متعددة لابد أن يوصلنا إلى مسار يحدد مكاننا فى القرن القادم.

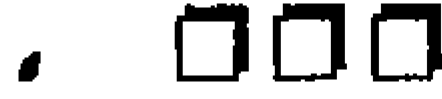
هناك كتل اقتصادية تشكلت معالمها بالفعل، «فالنافتا» فى أمريكا الشمالية ثم الكتلة الأوروبية، ورغم تنافسهما ولكن توجههما العام متقارب فيما يسمى «بالحضارة الغربية» ثم هناك ذاك التمساح الهائل فى الشرق الأقصى حيث الرأس فى اليابان والجسد فى الصين والاطراف فى عدد يتنامى من النمور، وترتكز على حضارة مختلفة تماما عن الغرب وعن مجمل الحضارات التى نشأت حول حوض البحر المتوسط قديما وحديثا.

ويظل التحدى: أين نحن فى هذه الكتل الاقتصادية الثلاث؟

وهل نترك أمرنا لغيرنا يحدد موقعنا وإلى أى كتلة ينبغى أن ننضم، كما يحدث فى كل مرة وكان آخرها حين شجعت بريطانيا على انشاء الجامعة العربية بعد حرب العالمية الثانية.

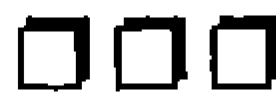
وهل نستنزف جهدنا فى الجدل الدائر الآن، فيما إذا كان موقعنا مع مجموعة دول الشرق الأوسط حيث يرغب ويخطط الغرب أم يكون بالعودة إلى الحظيرة العربية حيث الصراعات والمحاور والخلافات. والرأى عندى أن الخيار صعب وفى وقت دقيق، ولن يمكن الفكاك من هذه الكماشة إلا باستخدام كل ما لدى مصر من مميزات وارتباطات

وانتماءات تراكمت لديها عبر تاريخها الطويل، وقديما قالوا: الحكيم من لايضع كل البيض فى سلة واحدة.



سيظل انتماء مصر الأول هو مع العالم العربى، فمن المؤكد أن هذه الدائرة الأولى - رغم كل ما تحتوى عليه من صراعات واحيانا مؤامرات هى الحلقة الرئيسية والأولى فى اهتمامات مصر، وفى هذا الأمر لا أمل من تكرار التشبيه بأن العالم العربى وكأنه خيمة هائلة من القماش المتين وأن مصر أحد الاعمدة الرئيسية الحاملة لهذه الخيمة، فإذا كسر هذا العمود بدون القماش أى الكسوة الخارجية يتحول إلى قائم خشبى معرض لكل أنواع الرياح والانواء ويتحول من دولة فاعلة إلى كيان مغمور.

على اننا قد أعدنا النظر بعد الخبرات المرة لحرب يونيو ١٩٦٧ ثم الصراعات من خلال المفاوضات «الثنائية» مع إسرائيل ثم ألتمزق نتيجة حرب الخليج وشماعة اتفاقية دمشق، ولذا فقد أحسنت مصر صنعا بالتركيز على العلاقات «الثنائية» بين الدول العربية بدلا من الشعار الفضفاض من المحيط إلى الخليج، واتخذت من البحث عن المصالح الاقتصادية المحددة بين مصر وسوريا - والتى تنمو باطراد وفى هدوء - نموذجا للعلاقات التى تتفق مع مقتضيات الحال فى المنطقة ومع مفاهيم العصر.



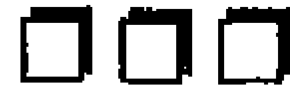
ومن المؤكد أن الدائرة الثانية والمهمة والتى ينبغى أن تهتم بها مصر هى وجودها فى «المؤتمر الاسلامى» وهى مجموعة هائلة من الدول، وينبغى أن يكون التحرك والفاعلية - على أساس المصالح الاقتصادية المشتركة فى المقام الأول مع توسيع العلاقات الثقافية التى تنشر الوجه المشرق للحضارة الاسلامية.

أما الدائرة الثالثة بالمهمة فهى الدائرة الافريقية، ونظرا لاهميتها لمستقبلنا فإننى أكرر ما كنت قد طرحته - من أهمية أن يتفرغ وزير أو نائب وزير لشئون افريقيا.

وقد لفت نظرى بعض رجال الخارجية إلى أن لدينا مساعد أمين عام منظمة الوحدة الافريقية مؤهلا لتولى هذا الموقع بجدارة وعن خبرة ودون إثارة مشاكل أو حساسيات داخل الوزارة، وكم سعدت، فى زيارة أخيرة للمعهد الدبلوماسى المصرى - أن وجدت باقة من الشباب الافريقى يؤهل بالتعليم والتدريب ليأخذ مكانه فى العمل الدبلوماسى لدولة جنوب أفريقيا عقب الانتخابات فى ابريل ١٩٩٤، حيث تولد «جنوب أفريقيا جديدة» بعد المشاركة فى الحكم بين البيض والسود.

كما سعدت لأخبار وجود اتصالات بين رجال الاعمال في كل من مصر فى أقصى الشمال ودولة جنوب أفريقيا فى أقصى الجنوب، فالكل يعلم أن مركزى الثقل الحضارى والاقتصادى هو فى هاتين الدولتين الكبيرتين، ولذا فإن العمل بهمة ومن الآن، لبناء كبارى وجسور فى كل المجالات، مسألة حيوية لابد من استثمارها حتى يكون لمصر دور أهم

وأقوى فى أفريقيا، لأن ذلك هو ما يزيد من قيمة مصر لدى كل من العرب والمؤتمر الاسلامى.



وألمس فى الحقبة الأخيرة حركة واسعة مع دول البحر المتوسط.

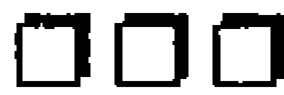
وهى نقطة سياسية وثقافية مهمة ، فإن مصر لعبت - وستظل تلعب - دورا رئيسيا فى هذه الدائرة المهمة ، ليس فقط على المستوى الاقتصادى والتبادل التجارى، وإنما لان هذه الدائرة هى همزة الاتصال بيننا وبين مجموعة الدول الاوروبية والتى يزداد نفوذها عالميا سنة بعد أخرى، خصوصا أن لمصر رصيدا حضاريا غير منكور عندما أثرت الحضارة الفرعونية القديمة فى الحضارة الاغريقية، وتلك الاخيرة أثرت على الحضارة العربية الاسلامية والتى أخذ منها الغرب فى العصور الحديثة أى أنه قد تراكم لديهم مجمل حضارات الإنسان، فكأن هذه بضاعتنا ردت إلينا، ويؤكد هذه الصلة بالبحر المتوسط تلك الحقبة التاريخية المسماة «اليونانية - الرومانية» والتى امتدت من دخول الاسكندر الاكبر مصر عام ٣٣٢ق.م إلى دخول العرب عام ٦٤١ ميلادية أى أن مصر قد ارتبطت بحضارات البحر المتوسط ارتباطا عضويا منفردا لمدة تصل إلى نحو ١٠٠٠ عام.

وفى هذا الاطار استوقف نظرى تحقيق صحفى نشرته مجلة «المصور» أخيراً من خلال رسالة الاستاذة فريدة الشوباشى عن معرض اقامه باحث فرنسى مقيم بمصر هو «جان مارسيل هومبير» مدير قسم

الآثار المصرية بمتحف اللوفر، والذى كانت دراسته للدكتوراه مثيرة لطرح «الهوس بحب مصر» ويبدو أن هذا الغرام بمصر وحضاراتها الفرعونية أمر ليس بجديد فهناك شامبليون ثم مريت ثم ماسبيور وغيرهم أو ما أصبح يعرف حاليا بالفرنسية أو بالانجليزية بـ «الايجيبتو - مانيا» إذ قد عرض هومبير اللوحات والاعمال الفنية الاوروبية التى ترجع إلى ما قبل الحملة الفرنسية، وكيف أن الغرام الثقافى والحضارى بإعجاز رقائق الحضارات المصرية قد أوجد حالة من الحب تصل إلى حد «الهوس» بالآثار الفرعونيـة بالذات، مما يدفعنى لان اطرح أن حضارتنا القديمة قد اكتشفها الغرب منذ قرنين من الزمان، وآن الأوان لان نعيد اكتشافها ونتعرف عليها حتى نقع نحن فى غرامها، واتصور أن أبرزنا لرقائق الحضارات فى مصر سيكون إحدى المميزات التى دعم وجودنا ثقافيا وحضاريا فى العالم ومن هذا الفهم، فإن أحد الأبعاد الجديدة التى أدعو الدبلوماسية المصرية إلى الاهتمام بها هو نشر الابعاد الثقافية والتاريخية لمصر، ليس فقط لان في ذلك دعما للنفوذ السياسى، ولكنه أيضا اقتصادى مهم لدعم السياحة المصرية فى كل عصورها القديمة (وهم كثرة هائلة فى كل انحاء العالم) وان بجانب ذاك هناك من يهوى الحقبة «اليونانية - ألرومانية» والتى تركت آثارها فى مدينة الاسكندرية وعلى طول الساحل الشمالى الغربى، وما مواقع مراقيا - مارابيلا - مارينا بهذه المسميات إلا تأكيدا على الروابط بين مصر والامبراطورية الرومانية القديمة، ثم هناك الحقبة القبطية المسيحية

والتى لها أيضا عشاقها فى أوروبا المسيحية وفوق كل ذلك هناك مجالات الثقافة العربية والاسلامية والتى لمصر موقع الريادة فيها.

وفى حوار حضرته مصادفة فى مكتب الصديق الدكتور حازم الببلاوى للإعداد لمعرض المنتجات المصرية الذى اقيم بمدينة كازبلانكا بالمغرب ، وجدت الدكتور حازم ينبه إلى أهمية تصدير المنتجات الثقافية المصرية من كتب وكاسيتات وأشرطة فيديو لانها سلع مطلوبة بشدة فى المغرب، واتصور أننا لم نسخر بعد الثقافة كمورد اقتصادى للتصدير وهو أمر لايغيب عن اهتمامات وزارة الثقافة، لكى نعبر الحقبة الحالية الحرجة حيث فرضت حوادث الارهاب ضمور تدفق السياح لمصر وعلينا أن نفكر فى تصدير مصر الثقافية من خلال افلام الفيديو التسجيلية للمواقع السياحية المتباينة وكذلك تصدير المسرحيات والافلام السينمائية والمسلسلات والفوازير وكل ألوان الفن بعد تسجيلها على الفيديو لملايين الراغبين فى اقتنائها فى العالم العربى فهذا كنز هائل لم نستثمره بعد بالقدر الكافى.



إن ما رغبت أن اطرحه للحوار أمام كل المثقفين وواضعى استراتيجيات السياسة الخارجية، هو أنه إذا كان مقدرا لنا - برغبتنا أو بظروف عالمنا - أن نشارك فى أن نكثف النشاط الدبلوماسى فيما هو متوافر لدينا من دوائر - اكتشف بعضها عبدالناصر وسجلها فى كتابه «فلسفة الثورة» - وزادت عليها الظروف دوائر ومناطق انتشار

جديدة، وقد نختلف فى ترتيب أولويتها وأهميتها ولكن المجالات العربية والاسلامية والافريقية أساسية ومهمة وقائمة من خلال تنظيمات موروثة، ثم هناك دوائر البحر المتوسط ومجموعة دول حوض النيل وما تبقى من مجمل دول عدم الانحياز، فكلها مجالات لمصر فيها رصيد ودور يمكن تنشيطه فورا ومن الآن، وبحيث ستكون مشاركتنا فى السوق الشرق أوسطية من واقع نشيط يمكننا فيه أن نكسب أرضا فى مواجهة دول أخرى ربما يكون لها مميزات نسبية أفضل فى مجالات أخرى أو تطلعات لكسب رقعة أوسع من السوق.

أما القضية الأخرى.. ربما الأهم – فهى أن ما يتوافر لمصر من تاريخ خارج الدوائر الجغرافية المشار إليها – فهو كنز اكتشفه فينا الغرب، ولم نستثمره بعد بالقدر الكافى فانتماءات مصر إلى الفرعونية والقبطية والاسلام ثم بما لدينا من تراث فنى حديث فى السينما والمسرح والكتاب وغيرها، لهى كنوز لانلجأ إليها إلا من باب الوجاهة والتباهى التراثى ، وأن الأوان لوزارة الثقافة لان تتحول من عبء انفاق على الخزانة العامة إلى مصدر دخل بخطط مدروسة للتصدير، ولتساهم فى ذلك كل من أجهزة الدولة والقطاع الخاص على حد سواء .

إننى متفائل بأن غدنا سيكون بالفعل أكثر اشراقا، ولنتناسى ولو مؤقتا ما لدينا من مميزات وكنوز فهذا على الأقل يبعث الامل والاشراق.



تجديد فكر القومية العربية وفق المتغيرات الإقليمية والدولية

كانت إرهاصات أيديولوچية القومية العربية، فى نهاية القرن التاسع عشر، مبشرة بإمكان تحقيق مبكر لوحدة عربية بشكل أو بآخر، وتجسدت الفكرة، مع بطء حركة التاريخ فى تلك الحقبة - فى المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس فى حزيران (يونيو) عام ١٩١٣ أى قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وتصارعت فيها دول أوروبية ، ثم تلتها حرب عالمية ثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ، وتكاد تكون بين الكتل المتناحرة الاوروبية ذاتها وبعد مضى قرن من الزمان، إذ بالدول والشعوب الاوروبية ألتى تقاتلت فى حربين مدمرتين، تتخذ من «السوق المشتركة» طريقا الى «الاتحاد» ثم « الوحدة» ربما فى غضون أعوام قليلة، فى حين أن الدول والشعوب العربية التى استشرفت الوحدة قبل مائة عام، مجموعة من الكتل أو الدول المتناحرة أو المتحاربة على رغم رفعها شعار الوحدة بين الحين والآخر .

هذه مفارقة أولى كبيرة ! أما المفارقة الأخرى الأصغر فهى كيف ان الهمهمة العالمية فى العشرينات من هذا القرن قد رشحت كلا من اليابان ومصر لتدخل العصر والحضارة والتقدم على الطريقة الأوربية . وكان سبب هذه الهمهمة ان كلا من مصر واليابان كان لديها وقتها تجربة سابقة فى التاريخ ، فضلا عن مقومات الحضارة ، وقد خاضت كل منهما إرهاصات توحى باحتمالات مستقبل أفضل ففى اليابان كانت حركة إصلاح شامل

للتعليم والبنية الثقافية التى قامت بها عائلة ميجى الحاكمة فى القرن الماضى ، وفى مصر كانت التجارب التى خاضها كل من محمد على باشا فى إنشاء حركة صناعية وعمرانية أوائل القرن التاسع عشر ، ثم حركة العمران والثقافة واسعة النطاق التى خاضها الخديو اسماعيل فى حقبة إنشاء قناة السويس وافتتاحها عام ١٨٦٩ مع وجود مجالس نيابة تشريعية وقد طرح فى تلك الحقبة شعار «مصر قطعة من أوربا» .

وها هى ذى الأيام والأعوام والأحداث تمر ، وتصبح اليابان من أكبر القلاع الاقتصادية فى العالم وتحتل الموقع الأول فى قائمة ترتيب الدول وفق تقارير «التنمية البشرية» التى تصدرها الأمم المتحدة بينما صارت مصر من أفقر الدول ويتأرجح ترتيبها عند الرقم ١١٠ تنازليا فى التقارير المحايدة التى تصدرها سنويا الأمم المتحدة .

ولا أحد يستطيع أن يفسر المفارقة الأولى حين تشرذم العرب بينما اتجهت أوربا نحو الوحدة ، ولا أن يفسر المفارقة الثانية حين صعدت اليابان إلى القمة وهبطت مصر إلى عداد الدول متوسطة أو محدودة النمو.

جاءتنى هذه الخواطر وأنا استعرض التقارير الصحفية التى وصلتنا قبل اسابيع قليلة عن مؤتمر وزراء الخارجية لدول إعلان دمشق الذى عقد فى تموز (يوليو) ١٩٩٥ فى دولة البحرين

وتنخفض عن ورقة منشورة تحمل عنوان ، وثيقة العمل العربى المشترك . وربما تثبت الايام ان العرب - فى هذه الساعة المتأخرة من العمل المشترك - قد أدركوا أن تحقيق الوحدة أو التعاون لن يكون برفع الشعارات الرومانسية التى وضعها الاجداد فى نهاية القرن الماضى بالتغنى بالوحدة أو بالمبارزة والتنظير الشاعرى عن القومية العربية وإنما أدركوا واقع السياسة الاقليمية والعالمية ومعطياتها فى نهاية القرن العشرين، إذ أصبحنا على عتبة عالم جديد لم تتحدد معالمه بعد، ولكن الدول والشعوب - فى كل أرجاء الأرض - تدرك أن العالم صار قرية صغيرة ، وأن المستقبل هو للكيانات الاقتصادية الكبرى، ولا سبيل إلا أن نراجع أفكارنا فى حلم الوحدة لأنها لم تكن واقعية مدركة - حتى فى وقتها لمعطيات الزمن وناظرة للمستقبل ، بل ظلت تتغنى بالماضى فسقطت فى مستنقع السلفية ودخلت الكهوف المظلمة التى تتجه الى أسفل وبدلا من الانطلاق عبر الصواريخ الى الفضاء اللانهائى .

ها نحن نجد الولايات المتحدة الامريكية وهى بلا منازع أكبر دولة وكيان مفرد فى العالم من وجوه كثيره، - مدركة لمعطيات العصر، وتعمل على ايجاد صياغة للتعاون الإقتصادى مع كندا شمالا ثم مع المكسيك جنوبا، فيما يعرف بمجموعة دول «النافتا» ثم تبنى جسورا اقتصادية وثقافية مع دول أمريكا الجنوبية ، والكل يتوقع ان تكون القارتان الأميريكيتان قوة اقتصادية ضخمة فى

الألفية الميلادية الثالثة، لها ارتباطاتها وفاعليتها مع كتل اقتصادية أخر تتبلور حاليا .

ثم ها هي ذى أوروبا – التى مزقتها الحروب العالمية مرتين فى قرن واحد تنفض التراب والانقاض عن كاهلها ، وتتناسى العداوات والجروح التاريخية من بقايا قرون مضت لتبنى صرحا هائلا من التعاون الاقتصادى لمرحلة السوق الأوروبية المشتركة فى اتجاه الاتحاد الأوروبى، ثم تتطلع لأن تكون هيكلا ونسقا يشمل أيضا مجموعة دول أوروبا الشرقية التى كانت حتى أعوام قليلة مضت فى قائمة الدول المعادية فى حلف وارسو ، لكى تفرقها أوروبا الغربية بالمعونات والاصلاحات الاقتصادية، لأن لها نظرة مستقبلية – وليست سلفية – وتتطلع لأن تتوحد معها وصولا إلى روسيا ذاتها فى إطار «البيت الأوروبى المشترك» .

ومن عجب أن مجموعة الدول الرابضة فى الشرق الأقصى ، قد تناست عداوتها المذهبية الحديثة بين دول شيوعية ممثلة فى الصين ودول رأسمالية ممثلة فى اليابان، ثم تناست العداوات والحروب التاريخية بين اليابان وكوريا والصين وغيرها لتكون «تمساح» اقتصادياً سيكتسح العالم – وفق تقدير بعض المحللين الاقتصاديين – فى غضون ٢٠ أو ٣٠ عاما ، إذ يقع «رأس» هذا التمساح فى اليابان شمالا، ويقع جسمه فى الصين بتعدادها وإمكاناتها ، ثم هناك «الأطراف» ممثلة بالنمور الأربعة : كوريا

وتايوان وهونج كونج وسنغافورة، ثم يمتد النجاح والرقى والنمو إلى «الذيل» ممثلا بأندونيسيا وتايلاند وماليزيا وفيتنام وغيرها كل ذلك يتم أمام أعيننا نحن العرب ، وإذ بنا في الحقبة ذاتها نتشرذم ، فبعد حقبة عبد الناصر وما حملت من محاولات لم تكتمل للوحدة مع سورية ، ثم شهدت مشاعر متدفقة بأهمية «القومية العربية» التى سرت حرارتها وامتد نفوذها بالفعل « من المحيط إلى الخليج» إذ بنا ننتكس في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، وتحتل اسرائيل «أراضى » في مصر وسورية والاردن وفلسطين ولبنان ، ولا نزال نصارع لنحصل على ما فقدناه في أيام ستة كالحة السواد.

ثم نجمع الشمل ونخوض معركة حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ ونحقق انتصارا «محددا » كان من نتائجه ان ارتفع سعر البترول بشكل مفاجئ وهائل ، أدى - من جانب ايجابى - إلى تدفق مدخرات هائلة لدى الدول البترولية، ولكنه أدى - من جانب سلبى - الى انزعاج الغرب فخطط حتى يفرقنا، لأنه أدرك خطورة وحدتنا عليه فكان أن وقعنا في «مصيدة التشرذم والتفرق» وانقسم العرب الى مجموعة دول أو دويلات قليلة العدد أو واسعة الثراء، تقابلها مجموعة أخرى على النقيض منها- وفيرة العدد من السكان بل لعلها متضخمة أو متفجرة بسبب الزيادة الرهيبة فى السكان، ولكنها قليلة أو محدودة الموارد ، وأدى هذا التقسيم إلى فرقة وحسد فبدل ان يساعد الغنى الفقير، إذا بالغنى يخاف من الفقير ، وإذا بالفقير يحسد الغنى على ما هبط عليه من ثروة.

ثم لعبت اسرائيل بذكاء لعبتها السياسية وطبقت مفاهيم السياسة الاستعمارية القديمة «فرق تسد» وتركت الدول العربية مصر يعانى اقتصادها من الشح والفقر بعدما انهكته الحروب المتتالية ، وخططت اسرائيل لاخراج مصر عن الاجماع العربى، وتمت الزيارة «التاريخية» التى قام بها السادات للقدس، فدخلت المنطقة مرحلة «جديدة» وبدلا من أن يلتف العرب بثرائهم حول مصر لدعم اقتصادها (كما فعل الأمريكان مع أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية بمشروع مارشال، وكما تفعل الآن المانيا وفرنسا وحتى أمريكا والبنك الدولى مع دول أوروبا الشرقية) خاصم العرب مصر وقرروا فصلها عن الجامعة العربية ، ولكن مصر لم تسقط بل قبلت العزلة أعواما إلى أن عادت جامعة هرمة قد شاخت وانفض الحماس من حولها فصارت شبحا فى حاجة الى دم جديد.

ومن الطبيعى أن تنتهز اسرائيل الفرصة، فتعزل حركة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها التى وقعت فى المصيدة نفسها وصارت تحارب بعضها بعضا وتتهم فرقها بالخيانة فهربت قيادة المنظمة من بيروت إلى تونس، ووقع لبنان «العربى» فى مصيدة الحرب الأهلية، ولولا صلابة أهله وإدراكهم أهمية عروبتهم لانقسم الى «كانتونات» وكان المخطط جاهزا .

وعادت مصر - بعد أعوام من العذاب - الى الصف العربى ، وبدا ان التقارب العربى يمكن أن يتحقق، ثم قسم العالم العربى

إلى ثلاث مـجموعـات أولاها وأقواها وأكثـرها تماسكا هو مـجلس التعاون الخليجى، فقد تبلورت شخصيته ومصالحه ثم تجمعت دول المغرب العربى فى اتحاد مفكك، له فاعلية محدودة لأنه يحمل داخله مظاهر وأمراض الاختلاف فى الثروة والتراث . فهناك ليبيا ذات الكتاب الاخضر والمواجهة لامريكا والغرب ، ثم تونس التى تحاول ان تكون «قطعة من أوربا» ثم الجزائر الغارقة فى الحرب الاهلية من اجل «الهوية» ثم المغرب الذى لديه نوع من الاستقرار النسبى على الرغم من المناوشات مع «البوليساريو» فضلا عن الغزل المتبادل مع أوربا واسرائيل.

تجمعت دول القلب فى اتحاد او تجمع يشمل مصر والعراق كدعامتين رئيسيتين وكان من الممكن ان تلتف الاطراف فى الغرب والشرق حول القلب لكن جاء القرار الأرعن بغزو الكويت عام ١٩٩٠ كجزء من مخطط تقليب فقراء العرب على اثريائهم . ووقع العرب الرافعون شعاراتهم أمه واحدة فى مصيدة التفرق والتحزب و الكراهية العربية - العربية» واشتعلت حرب الخليج التى لاتزال آثارها المدمرة باقية حتى الآن وبعدها - ووفق المخطط العالمى - صارت الأمة العربية جثة مقطعة اشلاء فكان مؤتمر مدريد وما اعقبه من مخططات الصلح المنفرد بين اسرائيل من جانب والدول العربية حولها منفردة واحدة واحدة من جانب آخر .

واجتمعت دول مجلس التعاون الخليجى الست مع كل من مصر وسورية ، فيما يمكن ان نسميه بلغة هذا العصر «اتفاقية ٦+٢»

ووقع اتفاق دمشق فى السادس من اذار (مارس) عام ١٩٩١ لامتصاص غضب الحالمين بالوحدة العربية من بقايا القومية العربية وللايحاء بأن الحلم لم يمت وأن حماية الثروة البترولية ليست احتكاراً للدول الغربية ، وأن للدول «الصديقة» العربية التى وقفت فى صف الكويت نصيبا فى «الكحكة» ولكن – على الطريقة العربية – وضع الإعلان فى الادراج أو فى البراد «الفريزر» يخرج للحياة بين الحين والاخر ليعبر عن انه كان اجتماع وزراء الاموات بعد ان كان اجتماع وزراء الخارجية العرب فى البحرين فى تموز (يوليو) ١٩٩٥ اخيرا وهو ما اشرنا اليه فى صدر هذا المقال وكان المحرك الاول لتفجير الحماسة التى نرجو ان تصل بنا الى تجديد القومية العربية عبر ادراك المتغيرات فى المنطقة وفى العالم خصوصا بعدما تفكك الاتحاد السوفييتي وظهرت الاصولية الدينية فى العالم وفى المنطقة كبديل للفكر العقلانى العلمانى وهو احدى السمات الرئيسية للمفكرين الاوائل المنشئين لايديولوجية القومية العربية .

حاولت وثيقة العمل العربى المشترك (الصادرة عن اجتماع وزراء خارجية دول اعلان دمشق فى البحرين) وضع مبادئ مهمة وجديرة بالتذكر والتحليل وهى :

١ – أنها حاولت حقن دماء جديدة فيما تبقى من الجامعة العربية ، فأشارت إلى المادة الثانية من «معاهدة الدفاع المشترك»

ولكنها أدركت منطقيا ان هذا الميثاق قد مات ، ولم يعد له فاعلية ، لأنه لن يستخدم عند غزو العراق للكويت ، فاضافت أنه من حق الدولة المعتدى عليها اتخاذ ما تراه من اجراءات ووسائل أخرى - غير ما نصت عليه هذه المادة - للدفاع عن نفسها وازالة العدوان عنها ، وفى ذلك اشارة واضحة الى ان ما تم من تدخل دولى فى حرب الخليج يمكن أن يتكرر إذا تكررت المأساة وهذه رسالة واضحة للجميع ، لأن الأمن العسكرى ليس فيه شعر أو رومانسية.

٢ - أما فى مجال التنسيق والتعاون الاقتصادى فجاءت الوثيقة أكثر تفهما لمعطيات العصر والمرحلة ، وأدركت أن التناقض بين الأثرياء والفقراء لا يزال قائما ، فاتفقت على مراعاة مبدأ سيادة كل دولة عربية على مواردها الطبيعية والاقتصادية ، وعلى الرغم أن هذا أمر مسلم به دوليا وعالميا ، فإنه كرس ما هو قائم من تفاوت وصراعات علما بأن الميثاق أقر اقامة «منطقة تجارة حرة عربية » وصولا إلى قيام « سوق عربية مشتركة» . وهو أمر بالغ الأهمية وعلى الطريق الصحيح .

فمثل هذه الخطوة البسيطة والمتواضعة قد تكون نقطة بداية لو تحول إلى واقع، وبشكل سريع، لأنه يعنى بداية إدراك لمعطيات العصر، وكيف أن الأمور السياسية الكبرى تبدأ من أسفل إلى أعلى ، خطوة خطوة ، وليس بأحلام رومانسية ، أى بإعلانات الوحدة التى صدرت فى بداية القرن ثم تحطمت فى الواقع المعاش الذى فرض علينا افكارا ورؤى مختلفة .

لقد تأخرنا كثيرا عن أحلامنا لأننا كنا نود أن نقفز على الواقع، ولكن أمامنا خبرة أوروبا فى «السوق المشتركة» وصولا إلى «الاتحاد» ثم أمامنا خبرة الشرق الاقصى الذى يسير وفق تراثه وفلسفته ولكنه فى الاتجاه الصحيح . ومن غير الممكن أن نسير على «النص» ذاته أو على ما يسمونه الآن «السيناريو » هنا أو هناك لأن لكل منطقة ظروفها ومعطياتها ، ولذلك فإن التحدى أمام المثقفين والمبدعين العرب هو اكتشاف قواعد «نظرية» لتجديد القومية العربية على خطوات ومراحل كى تناسب المعطيات والمتغيرات فى المنطقة والعالم .

رقم الإيداع
٩٥ / ٩٢٦٤
I. S. B .N

977- 07- 0422 - 9

الفهرس

الجزء الأول : ما بعد عام ٢٠٠٠
العالم والمنطقة ومصر إلي أين؟

الجـــزء الثانى

حاجتنا لقيم ومفاهيم تناسب العصر

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

.. تقرأ فيها :

- الأدب والعلم والثقافة الثالثة .... د. أحمد مستجير
- تعطيل الإبداع .... د. مصطفى سويف
- القفز على الأشواك «ملحمة الضياع» .... د. شكرى عياد
- الاسلام والتقدم .... د. محمد عمارة
- جمال عبد الناصر .. مؤسس مصر المعاصرة .... د. عاصم الدسوقى
- باولو فريرى .. أهم مفكر تربوى فى القرن العشرين .... د. حامد عمار
- عرض نقدى لكتاب هيكل « القنوات السرية » .... د. رءوف عباس
- المصريون يعطرون العالم .... چانيت ديون ايروت
- محمد حجى ودواوينه المرئية .... محمود بقشيش
- سينما الهند والصين .... مصطفى درويش
- قراءة فى إبداعات عراقية معاصرة - الرواية - القصة القصيرة .... حسين عبد العليم
- العالم المجهول لأليفة رفعت .... د. عبد العزيز الدسوقى
- تعليم اليوم هو قضية القرن الـ ٢١ .... محمد فتحى
- نحن أهم وأعظم جيل أنجبته مصر الحديثة .... محمد عودة

القصـــة والشـــعر

- رحلة فى مخ السيدة ن.ع (قصة) .... محمد مستجاب
- صلاة الى الكلمة .... «شعر» جليلة رضا
- لا فــرق .... «شعر» أحمد سويلم

عشوائية الجوائز - جزء خاص

- الجوائز الأدبية العربية السلطان والفنان ....
.... د. عبد المنعم تليمة
- جوائز الأدب العربية : وجهان للعملة ....
.... د. ماهر شفيق فريد
- التقدير همّ الكاتب الأصيل ....
.... د. عبد اللطيف عبد الحليم
- آلية الجوائز الأدبية .. «مسابقات» .. أم تشجيع .. أم تكريم ؟ ......
.... محمود قاسم

واقرأ الأبواب الثابتة :

عزيزى القارىء - أقوال معاصرة - من الهلال الى الهلال - أنت والهلال - الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

روايات الهلال تقدم :

قنبلة فى نيويورك

الرواية التى تنبأت بانفجار المركز التجارى

تأليف

مارى هيجنز كلارك

ترجمة

محمد عبدالمنعم جلال

تصدر ١٥ مارس ١٩٩٦

كتاب الهلال القادم

(الجزء الثانى)

حول العالم
مع دبلوماسى مصرى

بقلم السفير

د. محمود سمير أحمد

يصدر ٥ ابريل ١ ٩ ٩ ٦

هذا الكتاب

كل منا يود أن يعرف المستقبل ، والمستقبل تتضح معالمه من اليوم وهذا الكتاب محاولة لقراءة المستقبل من رؤية موضوعية علمية عرّف بها الكاتب .

الجزء الأول من الكتاب يحتوى عدة موضوعات عن التغيرات المتوقعة فى العالم والمنطقة العربية ومصر ومن بينها قضايا مثل الايجثومانيا ولماذا وقع الغرب فى وله مصر وتوقعات المؤلف أن المصريين سيهتمون فى الحقبة القادمة بتراثهم الفرعونى وكيف أن خصوصية مصر ستحميها من رياح التطرف .

أما الجزء الثانى فيركز على القيم والمفاهيم التى تتناسب ما بعد عام ٢٠٠٠ ، وبالذات ما نحتاج إليه منها لكى يناسب التغيرات المتوقعة فى الألفية الميلادية الثانية .

سيجد القارىء عبارات تتردد بين الحين والآخر مثل التنوع ظاهرة كونية وأن التصحيح الذاتى للفرد والشعوب هو سر التقدم والفلاح ترى هل تقدم رؤية المؤلف فى تصويره لعالم ما بعد عام ٢٠٠٠ ولننتظر ونرى فالكتاب سيعيش إلى ما بعد عام ٢٠٠٠ .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

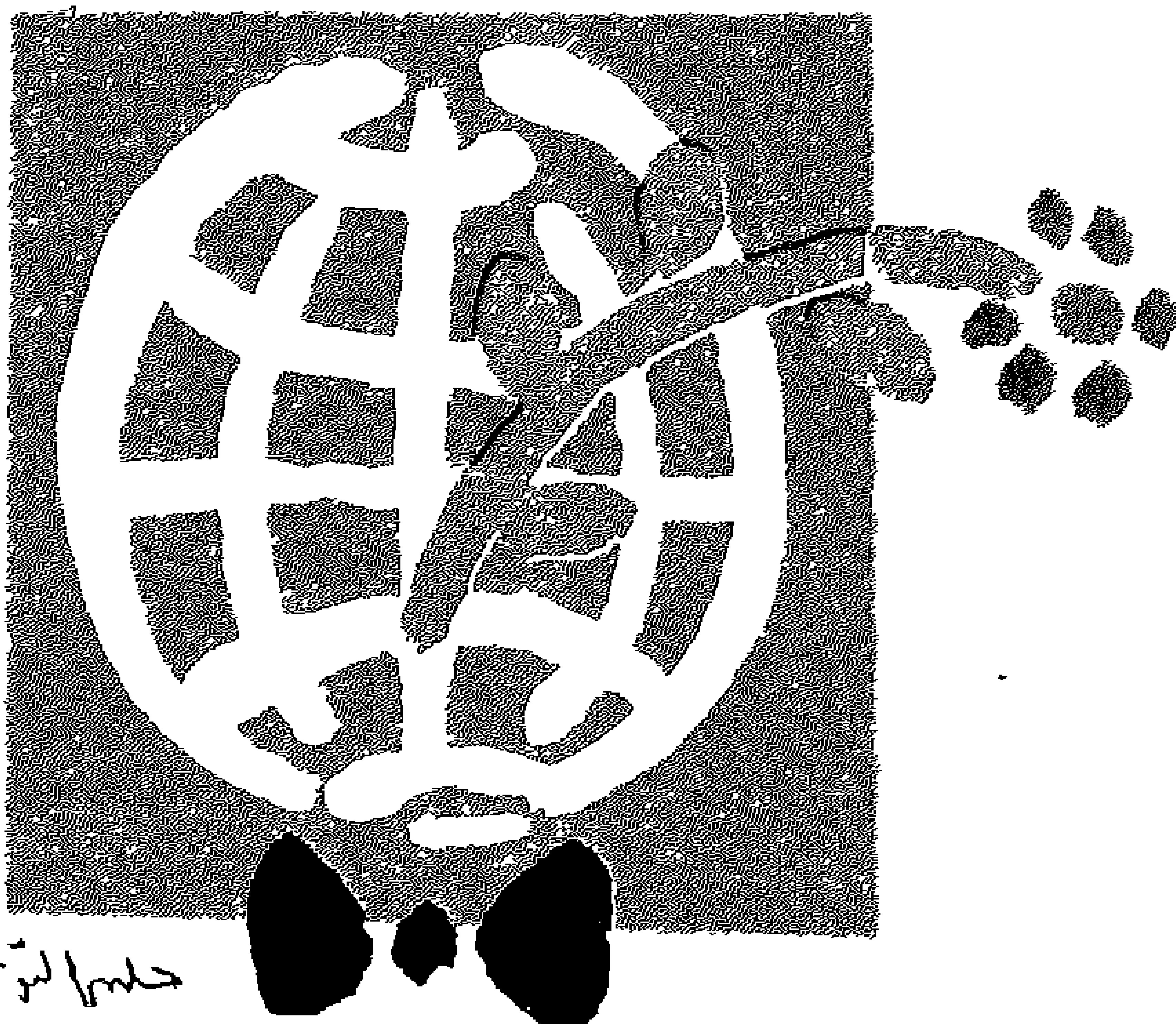
● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

العالم بعيون دبلوماسي

السفير
د. محمود سمير أحمد





KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكـرم محمـد أحمـد رئيـس مجلـس الإدارة

عبدالحميـد حمـروش نائب رئيـس مجلس الإدارة

مركـز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العـدد ٥٤٤ ـ ذوالقعدة ـ ابريل ١٩٩٦ No-544-AP-1996

فاكس FAX-3625469

مصطفـى نبيـل رئيـس التحـرير

عـادل عبدالصمد سكرتير التحـرير

أسعار بيع العدد فئة ٤٠٠ قرش

سوريا ١٣٠ ليرة ـ لبنان ٨٠٠٠ ليرة ـ الأردن ٣٠٠٠ فلس ـ الكويت ١٥٠٠ فلس ـ السعودية ١٥ ريالا

العالم بعيون دبلوماسى

بقلم السفير

د . محمود سمير أحمد

دار الهلال

الغــــلاف للفنـــــان
حلمــــى التـــــونى

مقـــدمة

قدمت دار الهلال للجزء الأول من «حول العالم مع دبلوماسي مصرى»[1] فوصفت هذا العمل بأنه فريد فى بابه، طموح فى مقصده وغنى فى مادته مثلما هو طريف ومفيد فى قراءته .. وانه جمع ما بين أدب الرحلات وأدب السياسة فى أسلوب رشيق شيق مما اتاح للكاتب الدبلوماسى الأديب أن يغلف ملاحظاته وتقييمه وتأملاته لحضارات وثقافات وسياسات البلاد التى زارها فى غلاف أدبى سياحى وسياسى ممتع ولئن صح هذا الوصف بالنسبة للجزء الأول فقد تأكد وتعزز أكثر بالنسبة للجزء الثانى من كتابه وهو الذى نقدم له حاليا.

أما الجزء الأول فقد صحب القارىء عبر أسبانيا وتركيا وبعض بلدان البحر الأبيض المتوسط ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية ثم إلى تونس . ثم منها إلى كولومبيا فالمكسيك من بلاد أمريكا الجنوبية.

ثم عاد منها إلى نيويورك ومنظمة الأمم المتحدة ثم إلى سويسرا حيث المقر الأوروبى للأمم المتحدة فى چنيف لمناقشة مشكلة نزع السلاح على ضفاف بحيرة ليمان .. خاتمة الجزء الأول.

(١) أنظر كتاب الهلال سبتمبر ١٩٩٣ .

ولقد اتاح الجزء الأول من الكتاب للقارىء متعة فكرية فريدة في تمعن مقارنات الكاتب بين تركيا واسبانيا وعلاقة كل منها بالعرب وبالعروبة ، ومقارناته بين المكسيك ومصر، وتأملاته الدقيقة الفاحصة عن الحياة في أمريكا وسياسات الولايات المتحدة الداخلية والخارجية وعلاقاتها بمصر خاصة .. كما جاءت الفصول الفريدة الخاصة بتونس وكولومبيا والمكسيك من أمتع وأحدث ماكتب في أدب الرحلات وادب السياسة عن تلك البلاد . أما الفصلان الخاصان بدبلوماسية التنظيم الدولي والأمم المتحدة ودبلوماسية نزع السلاح فقلَّ أن يجد القارىء في المكتبة العربية مثيلا لهما ، متعة وثقافة وفكرا .. وكانا خير خاتمة للجزء الأول .

ويسر دار الهلال أن تستكمل الجزء الثاني والأخير من «حول العالم مع دبلوماسي مصري» وتستأنف رحلة القارىء في صحبة كاتبنا الدبلوماسي الأديب . أولاً عبر تجربة مصر السياسية والدبلوماسية سنة ١٩٦٧ ثم عبر تجاربه السياحية والسياسية في «بلاد الانجليز» ثم فوق قمم جبال الانديز الشاهقة وحضارة الاينكا في بيرو بأمريكا الجنوبية ثم مرة أخرى إلى رحاب منظمة الأمم المتحدة في نيويورك . ثم ينتقل القارىء إلى زيارة «الايطاليين في بلادهم» . ثم يصطحب الكاتب القارىء عبر تجربته الفنية كوكيل لوزارة الخارجية المصرية في القاهرة حين تولى مسئولية الاشراف على سياسات مصر الافريقية وفي جولاته

فى القارة الافريقية الواسعة الممتدة وتأملاته فى شتى أحوالها المختلفة .. كما أن هناك فصلاً شيقا ومفيداً يشمل تجربة الكاتب كسفير لمصر فى أثيوبيا وكممثل دائم لدى منظمة الوحدة الافريقية ولدى اللجنة الاقتصادية لأفريقيا التابعة للأمم المتحدة ومقرها أديس ابابا (نيويورك افريقيا) ..

ثم يلى ذلك فصل شيق وممتع عن جولات الكاتب فى جزر فيجى ثم فى نيوزلانده وهونولولو وطوكيو وهونج كونج ومانيلا وبانكوك وسنغافورة أهم لآلئ الشرق الأقصى .. ويختتم الجزء الثانى فى استراليا .. «البلد السعيد» مثلما يلقبها الاستراليون .. بلد المستقبل .. حيث يختتم الكاتب رحلاته وتأملاته مع حياته الرسمية الدبلوماسية لبلوغه سن التقاعد فى نوفمبر ١٩٨٦ .

وسوف يجد القارىء فى فصول هذا الجزء الثاني والأخير متعة لا تعدلها سوى متعته من قراءة الجزء الأول .. وسوف يحتفظ القارىء فى مخيلته ، ردحاً طويلا بحصيلة تأملات الكاتب لا سيما فى الفصول الخاصة بانجلترا وايطاليا وأمريكا الجنوبية وافريقيا وأخيرا اثيوبيا واستراليا وطوكيو : فقد حوت الكثير من النواحى الانسانية ومن الجديد والفريد فى بابه : أدبا وثقافة وسياحة وسياسة.

★★★

التحقت بالسلك الدبلوماسي المصرى في مايو ١٩٤٨ من أول الدرج: أى في وظيفة ملحق دبلوماسى . وكانت تقاليد وزارة الخارجية المصرية تقضى – ومازالت – بضرورة اجتياز المتقدمين لوظيفة ملحق دبلوماسى لامتحان مسابقة كتابى وشفوى . ولقد شرفت بانى كنت أول الناجحين فى امتحان مسابقة سنة ١٩٤٧ وتم تعيينى وتسلمت عملى فى مايو ١٩٤٨ فى ديوان عام وزارة الخارجية فى ميدان «الاسماعيلية» (التحرير حاليا) .. وقد عينت أول مرة فى الخارج ملحقا فى سفارة مصر فى أنقرة عاصمة تركيا ومكثت بها من نوفمبر ١٩٤٨ حتى نوفمبر ١٩٥٠ . ثم نقلت بعد ذلك ملحقا فى سفارة مصر فى واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية ومارست عملى بها من مارس ١٩٥١ حتى يوليو ١٩٥٦ . وإلى جانب عملى الرسمى بالسفارة من التاسعة صباحا وحتى الرابعة والنصف بعد الظهر استطعت قيد اسمى للدراسة للحصول على الماجستير فى العلوم السياسية من الجامعة الامريكية فى واشنطن وحصلت فعلاً على هذه الدرجة العلمية سنة ١٩٥٥ . وكان موضوع رسالة الماجستير العلاقات المصرية الامريكية ما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٥ . وفى تلك الاثناء كنت رقيت سكرتيرا ثالثا ثم ثانيا .. ومن ثم عملت سكرتيرا ثانيا فى سفارة مصر فى تونس من يوليو سنة ١٩٥٦ وحتى نهاية ١٩٥٧ وكنت مكلفا بالشئون القنصلية والصحافة والشئون الاقتصادية بالسفارة .. وكان هذا أول عهد تونس بالسفارات الاجنبية

بعد أن نالت الاستقلال .. وبعد تمضيتي ردحا من الوقت بديوان عام وزارة الخارجية بالقاهرة كلفت بالتوجه إلى بوجوتا عاصمة جمهورية كولومبيا بأمريكا الجنوبية لافتتاح أول سفارة للجمهورية العربية المتحدة في بوجوتا ..

وأمضيت ببوجوتا الفترة ما بين يوليو ١٩٥٨ ويوليو ١٩٥٩ ثم نقلتني الوزارة سكرتيرا أول بسفارة مصر في مدينة المكسيك عاصمة الجمهورية المعروفة بنفس الاسم وأمضيت بالمكسيك عاما أو أقل قليلا حين فوجئت بنقلي مستشاراً ببعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة في نيويورك .. وذلك في صيف سنة ١٩٦٠ ..

وقد انتهزت هذه الفرصة فقيدت اسمي لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم السياسية في جامعة كولومبيا الشهيرة في نيويورك .وإلى جانب عبء العمل الثقيل بالأمم المتحدة كنت أجلس إلى اساتذتي بالجامعة في ساعات الغذاء التي يبطل فيها العمل بالأمم المتحدة .. إلى أن تمكنت من اتمام مستلزمات التقدم لكتابة رسالة الدكتوراه ..

وقد أمضيت الفترة ما بين يوليو عام ١٩٦٠ ونهاية عام ١٩٦٣ وهي مدة عملي مستشاراً لوفد مصر الدائم لدى الأمم المتحدة بنيويورك امضيتها موزعا ما بين نيويورك وجنيف حيث انتدبتني الوزارة مستشاراً لوفد مصر لدى مؤتمر نزع السلاح (لجنة الثمانية عشر) في جنيف بسويسرا .. واستمرت اقامتي في جنيف لمدة ستة

شهور ذات مرة ، ولمدة تسعة شهور مرة أخرى .. ثم نقلت إلى ديوان عام وزارة الخارجية فى القاهرة مرة أخرى ..

وأمضيت الفترة من ديسمبر ١٩٦٣ إلى يونيو ١٩٦٥ بالقاهرة .. وتوليت فيها على التوالى منصب المستشار بادارة الهيئات الدولية، ثم مديراً لإدارة المعلومات ثم رئيساً لقسم الحصانات والامتيازات بالإدارة العامة للمراسم ، ثم مديراً لمكتب وكيل الوزارة المرحوم د . محمد حسن الزيات.

وهنـا وصلتنى دعـوة شـخصية من مركـز الشئون الدولية بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة لكى امضى سنة دراسية كاملة بالمركز المذكور بوصفى أحد الزملاء Fellows بالمركز .. وكانت هذه الدعـوة الشخصية مكافأة لى على حسن بلائى كمستشار وفد مصر لدى مؤتمر نزع السـلاح سالف الذكر .. وقد وافقت الخارجية على قبولى هذه الدعوة الشخصية وأضافت مكرمة أخـرى فانتدبتنى فى نفس الآونة مسـتشاراً لبعثة مصر الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك للمرة الثانية وكانت المرة الأولى مابين سنة ٦٠ و١٩٦٢ كما أسلفت .

وأثناء اقامتى فى مركز الشئون الدولية بجامعة هارفارد من سبتمبر ٦٥ إلى يونيو ٦٦ تمكنت من كتابة مؤلفين بالانجليزية : الدول غير المنحازة ومعاهدة وقف التجارب الذرية The non - oligned

and the test Ban Treaty . وكان يقع فى أكثر من ٢٥٠ صفحة واعتبرته ادارة المركز بمثابة رسالة للدكتوراه وأوصت بنشره .

وقد نشرته لي مؤسسة كارنيجى الدولية للسلام فى نيويورك بالاتفاق مع المركز The cornegie Endaument for peac .

والثاني : اشتراكية عبدالناصر العربية ومكانتها بين الايدلوجيات العالمية ويقع في حوالى ثلاثمائة صفحة -Nossen's asale souia lion to ploce in uorld saledages. وقد نشرته دار نشر بلاندفورد في بريطانيا تحت اسم الاشتراكية العربية بعد سنوات من ذلك كما نشرته دار نشر باربرا ediciones Barboro في فنزويلا بالاسبانية فى أوائل السبعينات .

★★★

التحقت بالسلك الدبلوماسى سنة ١٩٤٨ كما سلفت الاشارة فى بداية الدرج .. ولم أصل إلى درجة «وزير مفوض» وهى التى تؤهل لرياسة بعثة دبلوماسية فى الخارج الا سنة ١٩٧٠ أى بعد اثنين وعشرين عاما متواصلة من العمل الدبلوماسى الدءوب ومن السفر والترحال (١) . وهنا بيت القصيد ففى فترة الاثنين والعشرين عاما هذه

(١) إذا أراد القارىء الاطلاع على تفاصيل هذه الفترة من حياتى الدبلوماسية، وهى الأولى من حياة السفير المتجول ، فيلتزم القارىء بالرجوع إلى مؤلفى «حول العالم مع دبلوماسى مصرى» : تأملات فى حضارات وسياسات بعض الدول «دار الهلال» كتاب الهلال فى سبتمبر ١٩٩٣ ، وهو يحوى تفاصيل فترة النضج والعطاء التالية، والاكثر أهمية، عند تولىّ رئاسة ست سفارات متتالية هى موضوع هذا المؤلف الحالى بين يدى القارىء .

تنقلت مثل السندباد البحرى ما بين عشر عواصم عالمية ودرست للماجستير والدكتوراه فى العلوم السياسية وتعلمت الاسبانية إلى جانب إلمامى السابق بالانجليزية والفرنسية وقليل من التركية ! وزرت عددا غفيرا من المدن والبلدان غير التى كانت مواقع عملى الدبلوماسى .. وليس هذا حالى وحدى إنما هو النموذج الشائع للكثرة الغالبة من السندباديين الدبلوماسيين .. وليست مرحلة الاعداد والتكوين الأولية سالفة الذكر هى موضوع هذا المؤلف وإن كانت مقدمة ضرورية لتقديم تجربتى كسفير متجول أو سندباد دبلوماسى بدرجة السفير وهو موضوع المؤلف الحالى .

وقد بدأت هذه التجربة القيمة بتولىّ منصب الوزير المفوض فى سفارة لندن من عام ٧٠ إلى عام ٧٣ ثم تولىّ منصب سفير مصر فى ليما عاصمة بيرو بأمريكا الجنوبية من ٧٣ - ١٩٧٥ ثم منصب السفير المندوب الدائم المناوب لدى الأمم المتحدة فى نيويورك ٧٥ - ١٩٧٦ .

ثم منصب سفير مصر فى ايطاليا وممثل مصر الدائم لدى منظمة الاغذية والزراعة فى روما من ١٩٧٦ - إلى ١٩٧٩ .

ثم منصب السفير / وكيل وزارة الخارجية المصرية ١٩٧٩ - ١٩٨١ ومشرفا على الشئون الافريقية ضمن مواضيع أخرى ثم منصب سفير مصر فى اثيوبيا وممثل مصر الدائم لدى منظمة الوحدة الافريقية

واللجنة الاقتصادية التابعة للأمم المتحدة والمعنية بشئون افريقيا ومقرها اديس ابابا ٨٢ - ١٩٨٤ .

ثم منصب سفير مصر فى استراليا وجزر فيجى من ١٩٨٤ - ١٩٨٦ حين بلغت سن التقاعد .

وفى المدة من ١٩٦٨ إلى ١٩٨٦ ، مثلها مثل فترة الاعداد والتكوين الأولية ، زرت عددا غفيرا من مدن وبلاد العالم بخلاف مقار مناصبى الدبلوماسية وجمعت حصادا يكاد يقارب حصاد السندباد البحرى الشهير لذة وطرافة وفائدة ..

ونلت قدرا وفيرا من الراحة النفسية ومن المكاسب والمنافع والفوائد: «سافر ففى الاسفار خمس فوائد» : على رأى المثل العربى الشهير . وددت هنا لو أمكننى مشاطرتها كلها مع القارىء العزيز .. فليس هناك أمتع من مغامرات وتجارب السندباد الدبلوماسى أو السفير المتجول ! ليس هناك امتع من خوض تجربة «السيد السفير» ربما سوى سرد وقائعها وتأمل وتحليل عواقبها .. والاستمتاع بذكرياتها.»

د . محمود سمير أحمد

الفصـــل الأول

مصر .. وفوهة البركان !

ها قد أمضيت ثمانية عشر عاما في السلك الدبلوماسي المصرى ، متنقلا ما بين أنقره وواشنطن وتونس وبوجوتا ومدينة المكسيك وأخيرا نيويورك .. ثم بعد إتمامى لمدة خدمتى كمستشار لبعثتنا الدائمة فى نيويورك وفى الوقت نفسه كمستشار لوفد مصر فى مؤتمر نزع السلاح في جنيف نقلت إلى القاهرة ووصلتها فى ديسمبر ١٩٦٣ . وأمضيت بالديوان العام لوزارة الخارجية كل عام ١٩٦٤ وحتى سبتمبر ١٩٦٥ . وقد أوكلت إلى المهام التالية على التوالى : مستشار بإدارة الهيئات الدولية وكنت مكلفا بمتابعة شئون نزع السلاح ضمن المســائل الأخرى ثم مدير لإدارة المعلومات والتقديرات التابعة للإدارة العامة للأبحاث بوزارة الخارجية ، ثم رئيس لقسم المزايا والحصانات بإدارة المراسم ، ثم مدير لمكتب الوكيل السفير د . محمد حسن الزيات حتى سبتمبر ١٩٦٥ حين سافرت إلى جامعة هارفارد كما سبقت (رحمه الله) الاشارة حيث أمضيت السنة الدراسية ٦٥/٦٦ كزميل Fellow بمركز الدراسات الدولية بجامعة هارفارد .. وكان هذا مدعاة لفخرى وسرورى فقد كنت أول مصرى ينال هذا التقدير والتشريف .

وقبل انتهـاء فتـرة هارفارد أى فى أبريل ٦٦ تلقيت برقية مفادها أنه تم تعييني مستشارا لسفارة مصر في نيودلهى عاصمة الهند .. لكنى فضلت البقـاء بالقاهرة حين عودتى إليها فى يوليو ١٩٦٦ إذ كانت هناك دواعى عائلية وشخصية تمنـع سـفرى إلى الهنـد .. ومن ثم أوكلت إلىّ الوزارة وظيفة نائب مدير المعهد الدبلوماسى لوزارة الخارجية وكان مديره فى تلك الفترة السفير (المرحوم) حافظ أبو الشـهود .. وكانت مهمتنـا اقامة المعهد وتأسيسه فلم يكن موجودا قبل ذلك .. وأصبح المعهد الدبلوماسى اليـوم مؤسسـة علمية وسياسية مهمة ونشطة تشـرف على اعداد وتدريب الدبلوماسيين المبتدئين لمدة سنتين ، وكذلك على اعداد دراسات عالية متقدمة للدبلوماسيين الأقدم الآخرين فضلا عن اقامة المعهد لندوات دولية حول مختلف الموضوعات الدولية بالاشتراك مع المعاهد العلمية الشبيهة فى الدول الأخرى ..

وبعد مدة وجيزة قضيتها فى المعهد الدبلوماسى اتصل بى تليفونيا ذات يوم الوزير (السابق) الاستاذ محمد فائق وكان وقتها مديرا للشئون الافريقية برئاسة الجمهورية وعرض علىّ أن أعمل مساعدا له بطريق الندب من وزارة الخارجية فقبلت .

قبلت شاكرا لأنى سبق أن زاملت محمد فائق وعرفت أخلاقه وعهدته انسانا رقيقا دمثا ومهذبا للغاية واسع الاطلاع بعيد النظرة ملما كل الالمام بدواعى وتطورات سياسات مصر الخارجية وبخاصة كل ما يعنى

أفريقيا . وقد جمعتني به مصادفة سعيدة في ابريل سنة ١٩٥٨ حينما كنت أعمل بالوزارة مديرا لمكتب وكيل الخارجية السفير (المرحوم) صالح خليل فحين انعقد أول مؤتمر للدول الافريقية المستقلة في اكرا عاصمة غانا بحضور مصر والسودان والمغرب وتونس واثيوبيا وليبريا وغانا طبعا ، رأس وفد مصر إلى ذلك المؤتمر المرحوم الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية حينذاك .. وقد اختارني د . محمود فوزي لكي آكون سكرتيره الفني في ذلك المؤتمر الذى انعقد لمدة سبعة أيام في اكرا .. وكانت أكرا حديثة الاستقلال ولم يكن بها من فنادق مناسبة سوى فندق أمباسادور وعدد غرفه محدود ومن هنا فان الخارجية الغانية قررت اقامة كل عضوين اثنين من أعضاء الوفود في غرفة واحدة .. وكانت درجتي متقاربة حينذاك مع درجة محمد فائق فانزلونا نحن الاثنين في غرفة واحدة في فندق امباسادور طوال مدة المؤتمر .. ومن هنا بدأت صداقتنا وامتد بنا حبل الود والاعجاب المتبادل بل وزاد قوة حين أصبحت مستشار وفدنا في نيويورك (٠) وكان محمد فائق يحضر جزءا من دورة الأمم المتحدة في نيويورك بصفته مسئول الشئون الافريقية في رياسة الجمهورية .. وكان عبد الناصر كما هو معلوم شديد الاهتمام بافريقيا وكان نصير كل حركات التحرير بها ... ومازال أغلب زعماء افريقيا الذين عرفتهم يتحدثون بحب وولاء حتى اليوم عن عبد الناصر وعن محمد فائق اليد اليمنى لسياسة عبد الناصر الافريقية !!

إلا أنه بعد ذلك بأقل من أسبوعين عين محمد فائق وزيرا للارشاد القومى (الاعلام) .. فقلت لنفسى إن عرضه السابق بالعمل معه فى رياسة الجمهورية أصبح غير ذى موضوع .. إلا أنه أعاد الاتصال بى بعد تعيينه وزير الارشاد قائلا إن حاجته إلىّ أصبحت أشد وأقوى وعرض علىّ أن اكون المستشار السياسى لوزير الارشاد ندبا من وزارة الخارجية فقبلت ، وما لبثت وزارة الخارجية أن قبلت هى الأخرى وصدر قرار ندبى مستشارا لوزير الارشاد وعملت معه اذن لمدة عام أو أكثر قليلا من سبتمبر ٦٦ إلى ١٢ ديسمبر ١٩٦٧ ..

كان عملى فى البداية منصبا على جانب السياسة الخارجية أو السياسات الخارجية التى تعنى وزارة الإرشاد القومى إلا أن تطورات الأحداث داخل جهاز وزارة الارشاد وداخل الأجهزة الفنية الأخرى التى كان وزير الارشاد يشرف عليها مثل الاذاعة والتليفزيون ومصلحة الاستعلامات ، جعلت محمد فائق يضطر إلى الاستعانة بكل من وجده أهلا لثقته وجديرا بحمل الامانة وكنت واحدا منهم . فما لبث أن عهد إلىّ بالاشراف الكلى على جهاز الرقابة على المطبوعات من كتب إلى الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية .. كان هناك جهاز يتكون من أربعة أو خمسة جامعيين مهمتهم الاطلاع على كل المطبوعات قبل اجازة نشرها وصدورها .. وكانت تعليماتى إليهم ألاّ يلجئوا إلىّ طالبين رأيى الا فى القضايا المهمة أو المستعصية عليهم التى يرونها جديرة بالعرض على الوزير .. ولم أكن الجأ إلى ازعاج الوزير

الا فيما ندر وحين يتعذر علىّ أنا أيضا اتخاذ القرار المناسب .. وكان هذا الوضع يستلزم بقائى بالمكتب فى وزارة الارشاد إلى ساعات متقدمة من الصباح (الواحدة أو الثانية صباحا أحيانا أى إلى ما بعد موعد مثول الصحف للطبع) .. وأحيانا كان مكتب الرقابة يضطر إلى ازعاج أهــل منزلى تليفونيا حتى بعد مغادرتى المكتب وعودتى إلى المنزل .

كذلك وجدت نفسى منساقا رويدا رويدا من أجل ارضاء محمد فائق وعدم الاعتذار عن تلبية أى رجاء له اذ أنه يحتل منزلة خاصة فى قلبى ، وجدت نفسى منساقا الى حــل أو محــاولة حل مشاكل وخلافات موظفى الاذاعة والتليفــزيون والاستعلامات .. وباختصار انيطت الىّ - فعليـا - إلى جانب مهــام مستشار الوزير للشئون السياسية الخارجية مهام مدير مكتــب الوزير فعليــا ... وكان ذراعى اليمين الاستاذ ابراهيم علام (السفير فى السويد ثم تونس) كما كان معنا أيضا الاستاذ بهجت الدسوقى (السفير فيما بعد فى كوريا الشمالية) وكان معنيا بالشئون الافريقية وبعض الشئون الادارية الأخرى فى مكتب الوزير .

كانت تجربة جديدة تماما بالنسبة إلىّ فهى بعيدة كل البعد عن جو وزارة الخارجية والسفارات والأمم المتحدة وعالم الدبلوماسيين ورجال السياسة .. وتعلمت فيها الكثير بل والكثير جدا .. لكنها كانت مهمة قاسية وصعبة للغاية .. لست أقصد مجرد السهر المتوالى ليلا للاشراف

على مكتب الرقابة وإنما عملية الرقابة ذاتها ومشاكل الصحفيين وعلاقاتهم بأجهزة الدولة المختلفة - بوليس ومباحث ومخابرات ورقابة ووزراء وأحزاب واتحاد اشتراكى وما إلى ذلك . هذا الجانب من العمل لم أكن قد اعتدته ولا ارتضيته لنفسى من قبل ولا يتفق بحال من الأحوال مع الاعداد الذهنى والنفسى لدبلوماسى مر بالتجارب والخبرات التى اكتسبتها .. ناهيك بالمشاكل الخاصة الحساسة أو العائلية الدقيقة التى ظهرت ولابد أن تظهر كل يوم فى أجهزة شبيهة بأجهزة الإذاعة والتليفزيون أو هيئة الاستعلامات بما فيها من آلاف السيدات والفتيات والرجال ..

كنت أرثى للوزير محمد فائق لضرورة خضوعه لكل تلك المؤثرات ولتحمله لكل هذه الأعباء أو أكثر .. كما إنه فيما يبدو بدأ يرثى لى ولحالى هو الآخر .. ورغم أنى لم أشكُ إليه مرة من المرات فإنه أراد أن يخفف عن نفسى قليلا فما أن لاحت فرصة ظهور ندوة وحلقة دراسية دولية فى المعهد العالى للدراسات الصحفية فى جامعة ستراسبورج بفرنسا لمدة شهرين أو ثلاثة فى مايو يونية يوليو ١٩٦٧ الا وأوفدنى إليها . خاصة وأنى كنت قد تلقيت دعوة شخصية لحضور مؤتمر للدبلوماسيين كان سيعقد فى مدينة Pisek قرب براج بتشيكو سلوفاكيا يناقش قضايا نزع السلاح فى نفس الآونة .. وقد طلب إلىّ المؤتمر القاء محاضرات أمام الحضور عن تجاربى الشخصية فى مؤتمرات نزع السلاح وآرائى بشأنها فقبلت .

سافرت فى مايو ١٩٦٧ وحدى علي أن تلحق بى زوجتى فيما بعد .

حضرت ندوات جامعة ستراسبورج في المعهد العالى للصحافة ردحاً من الوقت إلى أن حان موعد لحاق زوجتى بي فاتجهت إلي باريس لانتظارها ..

وكان ذلك أول يونيو ١٩٦٧ .. كان الموقف يتطور بسرعة شديدة بين مصر واسرائيل وكان الشعور القومى معبئا إلى أقصى درجة .. حتى أن زوجتى اتصلت بزميلى ومساعدى فى مكتب الوزير محمد فائق : (السفير حاليا) الاستاذ ابراهيم علام تسأله إن كانت تسافر أم لا ؟ فأجابها بأنه سأل الوزير فقال إنه ليس هناك ما يمنع سفرها للحاق بى .. فاستقبلتها فى باريس فى ٢ يونيو ١٩٦٧ .. وأنبأتنى بأن الشعور العام فى مصر أصبح مهيئا ومعبئا استعدادا للحرب إن وقعت .. فأجبتها على الفور «فال الله ولا فالك .. وأضفت أن رأيى أننا لسنا مستعدين للحرب وأنها ستكون مجازفة أو مخاطرة لا موجب لها .. وفى صبيحة يوم ٥ يونيو بينما كنا نتناول الافطار فى غرفتنا بالفندق فى باريس استمعنا لنشرة الأنباء الصحفية على الراديو التى أذاعت نبأ بدء المعارك بين مصر واسرائيل والغارات على القاهرة وما إلى ذلك مما يعلمه جيدا كل المصريين .. كنا نستعد للسفر إلى تشيكوسلوفاكيا حيث كنت قد دعيت لأحاضر أمام الدبلوماسيين من مختلف الدول فى مؤتمر عن مباحثات نزع السلاح نظمته إحدي الهيئات العالمية .. وحرت فى أمرى هل أعود إلى القاهرة أم أمضى إلى المؤتمر ؟ .. فاتصلت بمصر

بزميلى الاستاذ ابراهيم علام أرجوه أن يسأل الوزير محمد فائق ماذا أفعل .. وكان رد محمد فائق أن مطار القاهرة مغلق على أى حال ولا يستطيع أحد العودة ويجب أن استمر فيما كنت بصدده ..

.. وما أن وصلنا إلى مقر المؤتمر في قرب Pisck قرب مدينة براج إلاّ وكانت المعارك قد أسفرت عن النتائج المعروفة لحرب الأيام الستة . كان أعضاء المؤتمر كلهم يقيمون بفندق ريفي واحد حيث يعقد المؤتمر .. وكان علينا أن نجلس معهم سويا حول مائدة الافطار ومائدة الغداء ومائدة العشاء ، ولم تكن زوجتى وأنا فى حالة تتقبل بسهولة جو مؤتمر يسوده المرح والألفة .. فرأيت زوجتى والدموع تتساقط من عينيها فى غرفتنا بالفندق تخبرنى أنها سوف تبقى حبيسة غرفتنا ولا تشارك زوجات الدبلوماسيين جلساتهن أو برامجهن ولا تشهد أعمال المؤتمر .. لكنى اقنعتها وبلهجة حازمة أن مصر لم تكن أول أو آخر دولة هزمت فى الحرب . أنظرى إلى ألمانيا وإيطاليا واليابان إلى هزيمتهم فى الحرب وإلى ما صاروا إليه الآن (سنة ١٩٦٧) وهل لم تهزم بريطانيا وفرنسا وفقدتا معارك كثيرة من قبل ؟! بالعكس أن الواجب علينا أن نظهر أمامهم فى أبهى صورة رافعى الرأس وموفورى الكرامة وأن نشرح لهم قضيتنا ونقنعهم بوجهات نظرنا ..

فاقتنعت زوجتى .. وصرنا نشارك أعضاء المؤتمر جلساتهم ومآدبهم .. وكانت زوجات بعض الدبلوماسيين وبخاصة زوجة الدبلوماسى البريطانى أكثر السيدات رقة ورفقا بزوجتى ورافقت زوجتى فى جولات

ريفية وكان همها الواضح التسرية عنها .. وكان الكثيرون من أعضاء المؤتمر فى منتهى الرقة والأدب والتعاطف الواضح معنا وإن كانت هناك اقلية متعاطفة مع سرائيل .. لكن الفارق الكبير أو التغيير الأهم الذى طرأ على المؤتمر كان انتقال الحديث بأكمله من مشاكل «نزع السلاح» النظرية والبعيدة الأجل «إلى مشكلة الشرق الأوسط » الحقيقية الواقعة والحالية والماثلة أمام الجميع .. التف الجميع حولى «يسألوننى» عن دواعى المشكلة وأصولها وتطوراتها ومستقبل الحل» .. وبدلا من أن أحاضرهم فى نزع السلاح «ألقيت سلسلة من الأحاديث والمحاضرات عن قضيتنا وقضايا الشرق الأوسط .. وكانت وجهة نظرى التى شرحتها حينذاك - ومازالت حاليا وجهة نظرى - هى ضرورة الوصول إلى حل واحد شامل لجميع قضايا الشرق الأوسط دفعة واحدة اذ انه لن يمكن حل واحدة دون الأخريات .. والسلام الحقيقى هو نهاية الطريق فى ذلك الحل الشامل الموحد Packare .. أى فى مجموعة مترابطة .

... ولما انتهى المؤتمر عدنا إلى ستراسبورج لاستكمال مدة الحلقة الدراسية فى المعهد العالى للصحافة بجامعة ستراسبورج وكنا نقيم فى غرفة فى فندق سوفيتيل فى ميدان لطيف فى ستراسبورج التاريخية وكنت اركب الاتوبيس الى الجامعة صباحا ثم نتنزه فى شوارع ستراسبورج التاريخية الجميلة عصرا أو مساء.. وفى يوليو ١٩٦٧ وقبل انتهاء الندوة بأسابيع وبمجرد اعادة فتح مطار القاهرة وهدوء الحالة عدنا الى القاهرة فلم يكن مزاجنا يسمح بالمضى بالاستمتاع بجمال ستراسبورج .

واستأنفت عملى مع الوزير محمد فائق .. كنت اتابع تطورات عرض قضيتنا أمام مجلس الأمن فى نيويورك بصبر نافد وكنت أسارع باطلاع الوزير على آخر الأنباء الواردة على ماكينة التيكر أولا بأول .. وذات يوم دخلت عليه مهللا مستبشرا حاملا فى يدى ورقة التيكر الصفيرة ورحت أزف اليه بنبأ تقدم المجموعة اللاتينية بمشروع قرار مقتضب ومحدد - أمام مجلس الأمن - يقضى بانسحاب قوات المتحاربين (مصر واسرائيل) إلى الخطوط السابقة ليوم ٥ يونيو ١٩٦٧ فى مقابل انهاء حالة الحرب بينهما ، وكنت أتوقع أن يتهلل محمد فائق هو الآخر اذ أن ذلك كان يعنى الغاء اثار هزيمة قواتنا فى سيناء ، وحرمان اسرائيل من نتيجة غزوها لسيناء فى مقابل انهاء حالة الحرب بيننا كان هذا فى نظرى ثمنا زهيدا لاستعادتنا لسيناء لثانى مرة (الأولى كانت سنة ٥٦) دون عناء إلا أنى دهشت لرد محمد فائق إذ أخبرنى بأنه يعلم أن رئاسات مصر لا تقبل بتاتا بانهاء حالة الحرب مع اسرائيل فى تلك الظروف اذ سيعنى ذلك تمتعها بحق المرور فى قناة السويس وهو ما لن يرضاه عبد الناصر ومضى يقول فى حماس واننا لابد أن نستمر فى كفاحنا حتى لو أدى إلى انسحاب قواتنا إلى الجبل فى أقاصى الصعيد، حتى لو اضطررنا للقتال بالعصى (النبابيت) .وهكذا رفضت مصر مشروع القرار اللاتينى .. وهكذا جمد الموقف وما لبثنا فى نهاية المطاف أن قبلنا مضطرين بعد ذلك بالقرار - ٢٤٢ الشهير الذى طالب اسرائيل بالانسحاب من «أراضى احتلتها » وليس

من «الأراضى التى احتلتها(١) (٠) وداخت مصر وداخ العالم معها الى سنة ١٩٧٩ بعد ذلك فى محاولة لتفسير ذلك القرار بما يعنى الانسحاب الكامل من سيناء وليس الانسحاب من بعض الأراضى التى احتلتها اسرائيل .. وأصرت الولايات المتحدة على أن يكون ذلك نتيجة المفاوضات المباشرة مع اسرائيل ، وانهاء حالة الحرب معها .. وطبعا تمتعها بحق المرور فى قناة السويس .. ولكن بعد أن انتظرنا اثنتى عشرة سنة كاملة واسرائيل جاثمة فى سيناء !!

ظللت مع الوزير محمد فائق حتى ديسمبر ١٩٦٧ .. حين قررت مصر وبريطانيا اعادة العلاقات الدبلوماسية التى كانت قد قطعتها مصر منذ سنة ١٩٦٥ هى وثمانى دول افريقية أخرى احتجاجا على تخاذل موقف بريطانيا ازاء الـ UDI أى ازاء اعلان الأقلية العنصرية البيضاء استقلال روديسيا تحت قيادة تلك الأقلية العنصرية أى من جانب واحد !

وحين رأت مصر بعد احتلال اسرائيل لسيناء ومماطلتها فى الانسحاب وبممالأة الولايات المتحدة لها ، إنها فى حاجة لمساعدة بريطانيا وهى صاحبة مشروع القرار الذى أقره مجلس الأمن (٢٤٢) والذى وضعه مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة لورد كارادون ويطالب أسرائيل فيه بالانسحاب من «أراضى احتلتها» الخ .. حين رأت مصر

(١) الفقرة الأولى تعنى الانسحاب من بعض الأراضى فقط أما الثانية فتعنى الانسحاب من كل الأراضى التى احتلتها إسرائيل .

حاجتها إلى مساعدة بريطانيا وتأييدها قررت اعادة العلاقات الدبلوماسية معها .

وقد تم اختيار أعضاء سفارتنا في لندن على الوجه التالى : (المرحوم) السفير أحمد حسن الفقى وكيل أول وزارة الخارجية سفيرا أما الرجل الثانى فكان الوزير المفوض صلاح الدين حسن زميلى السابق في واشنطن وأما مستشار السفارة فكان محمود سمير أحمد أى كاتب هذه السطور .

كان محمد فائق لاشك قد أحس بغربتى فى ذلك الموقع الغريب عن شخصيتى وطموحاتى ويحنينى إلى العودة إلى الجو الذى اعتدت العمل والتنفس فيه ، وحيث استطيع أن أضع كل كفاءاتى وتجاربى فى خدمة قضيتنا فى تلك الساعات العصيبة .. فلم يحاول اثنائى عن مقصدى الجديد بل سألنى أن أرشح له(١) من يخلفنى من دبلوماسى وزارة الخارجية فى المنصب الذى سيخلو بتعيينى فى لندن .. وقد رشحت له اسم الزميل المستشار (السفير الحالى) د . سمير صفوت سفير مصر فى باريس فيما بعد وهكذا بدأت استعداداتى للرحيل إلى لندن .

(١) كذلك سألنى محمد فائق أن أرشح له بعض الأسماء من دبلوماسى وزارة الخارجية لشغل منصب رئيس هيئة الاستعلامات والمتحدث الرسمى .. وكان على رأس الأسماء التى رشحتها له اسم المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات الذى اختاره محمد فائق فعلا لذلك المنصب أيضا .. مثلما اختار د . سمير صفوت خلفا لى .

الفصل الثانى

الانجليز فى بلادهم (١)

هذا العرش المبجل عرش الملوك of kings, This Royal throne

هذه الجزيرة التى تحمل عصا الملكية ـ This sce aceptred ,isle

أرض الجلالة مقر الإله مارس ، This earth of majesty,

إلـه الحـــرب !! This seat of Mars

جنة عدن الثانية أو شبيهة الجنة. This other eden, demi paradise

هذا الحصن الذى أقامته الطبيعية This fortsress built Py Na- ture for herself

لتتحصن فيه ضد العدوى وآثار الحروب Against in Fection and the hand of war

---

(١) عنوان كتاب أصدره المغفور له حافظ عفيفى باشا بعد تجربته الخاصة كسفير لمصر فى لندن .

هذه السلالة السعيدة من الرجال This happy breed of men, this little world,

التى تمثل عالما صغيرا بأكمله !!

هذه الجوهرة الكريمة المصاغة داخل بحر من الفضة This.. معها Precious stone set in a silver

هذه المملكة ، انجلترا هذه الأرض . This blessed plot, this earth, this

هذه المملكة انجلترا هذه (١) !! realm, This england

★★★

ما اكثر ما كتب عن بريطانيا والبريطانيين وما اكثر ما يمكن أن يكتب عنهم ! لكنى لست بمعرض تقديم كتاب كامل عنهم وإنما مجرد لمحات وبعض التأملات عنهم وعن بلادهم - لقد زرتها أول مرة عام ١٩٥٣ بعد زيارتى للولايات المتحدة وكم هالتنى مظاهر فقر بريطانيا وتعاستها بمقارنتها بالولايات المتحدة حينذاك ! ثم عدت للأقامة فيها ابتداء من ١٢ ديسمبر ١٩٦٧ حين أوفدتنى الوزارة للاسهام فى إعادة افتتاح سفارتنا بلندن ولم أكن أعلم ولا أتصور أنى سأبقى بها حتى سبتمبر ١٩٧٣ لكن هذا ما حدث .

كان أول انطباعى عند دخولى لندن قادما من مطـــار هيثرو Heathrow فى ديسمبر ١٩٦٧ نوعا من الاحباط لرؤية الصفوف

(١) من مسرحية ريتشارد الثانى لوليام شكسبير الفصل الثانى (ترجمة كاتب هذه السطور)

المتراصة المملة من المنازل القديمة الملتصقة الواحد منها بالآخر وكلها تتشابه في اللون والهيكل الخارجي .. أحياء طويلة ليس بها من مظاهر الغنى شيء وقديمة ليس بها شيء من التجديد أو الابداع الهندسي أو الجمال أو التنسيق .. ثم لماذا تكون لندن هي المخالفة لمعظم بلاد العالم في إصرارها حتى الآن على القيادة على يسار الطريق وليس على يمينه؟! ومع ذلك فلون الحافلات (الأتوبيسات) الأحمر الفاقع اختيار مناسب بعض الشيء للتخفيف من وطأة كآبة وملل صفوف المنازل القديمة المتراصة وألوانها القاتمة وجو لندن المكفهر المظلم !

لكن سرعان ما تتبين العين أحياء أخرى جميلة منسقة عليها سمات الكبرياء والاصالة القديمة والعز التليد : في كينسيجتون ونايتس بريدج وبارك لين وما يفير .. ثم يالجمال تلك الحدائق العامة : هايد بارك ، جرين بارك ، سانت جيمس بارك وخضرتها الجميلة النضرة من كثرة المطر ورطوبة الجو . يا لجمال تلك الاحياء السكنية الهادئة كيو جاردن - هامبستيد - سان جونزوود - سويس كوتيج الخ .. وسرعان ما تتحول كآبتي واحباطي بعد أسبوع من الزمن إلى الاستسلام رويدا رويدا لتأثير لندن النفسي المهدئ على الزائر . ولا يهم غياب الرشاقة والأناقة والتبرج في تصميم وتخطيط المدن الانجليزية القديمة لا علينا أن لم تكن لندن مشابهة لباريس في اناقتها وبهائها هناك شيء آخر بدلا من كل ذلك .. هناك مظاهر الكبرياء والأصالة والنبل التي تكسو بعض الأحياء الراقية في المدينة .. حقا هناك احياء مملة كئيبة قديمة

تحف باطارات المدينة (لندن) وبخاصة احيائها الشرقية والجنوبية .. لكنها كبرياء الانجليز وتمسكهم بالقديم وعدم هرولتهم وراء كل ما هو جديد سواء فى ملبسهم أو سياراتهم .. ولماذا لا يكون ذلك أيضا فى تخطيطهم السابق للاحياء القديمة من مدنهم ؟!

ثم هناك ذلك الاطمئنان أو الاحساس بالأمن والراحة التى يشعر بها الغريب فى لندن ومدن بريطانيا .. يداخله إحساس غريب بالأمن والاطمئنان إلى قوة القانون The rule of law (رغم أن جنود البوليس فى لندن لا يحملون أسلحة) وإلى احترام الانجليز للنظام والقانون وللغريب .. (فيما عدا مظاهر التبدل التى طرأت على فئات من شباب بريطانيا وأوروبا كلها) (١) وهناك فيما عدا ذلك الاعجاب بما جمعت لندن من مظاهر الحضارة القديمة المتأصلة والثقافة الضاربة بجذورها إلى أعماق التاريخ .. كل تلك المتاحف والمكتبات العامة الضخمة (تضم أكبر مجموعة من الآثار المصرية القديمة وبها مكتبة من أكبر مكاتب العالم . (مكتبة المتحف البريطانى) والقصور النبيلة الرائعة ، والكاتدرائيات والكنائس ومبنى البرلمان وساعة بيج بن والمسارح وقاعات الموسيقى والمتاجر ذات الشهرة الضخمة أمثال محلات (هارودز ليبرتى

---

(١) فى زياراتى اللاحقة لبريطانيا ساءنى أن أجد بعض التغيرات التى تسيىء إلى الصورة السابقة لانجلترا : مستوى النظافة قد قل عما قبل ، والتزاحم على ركوب المترو لم يكن موجودا من قبل واحترام السيارات لمناطق عبور المشاه لم يعد التزاما لا يحيد عنه السائق مثلما فى (القديم وأصبح المجتمع أكثر مادية وقسوة ..)

- ودافيد جونز - هارفى نيكولز - سيلفر يدج) مما جعل لندن مهبط ملايين السياح من شتى أركان العالم سنويا .. وإن ننسى فلا يجب أن ننسى انتظام المرور واحترام البريطانيين لقواعده فى الغالب الأعم . ومترو الأنفاق فى لندن قديم ولاشك ، أقدم من مترو باريس ونيويورك ولكنه منتظم ورخيص وآمن ويحملك من أدنى أرجاء لندن إلى أقصى أركانها أى مسافة خمسين أو ستين كيلو مترا فى نصف ساعة على الأكثر ..

إلى جانب أصالة ونبل مدن بريطانيا الكبرى مثل لندن وادنبره ومانشستر وليفربول هناك مدنها التاريخية القديمة رائعة الجمال شديدة الأصالة أمثال كمبردج وأوكسفورد وواريك وبات واكستر وستراتفورد على نهر الأفون (مدينة شكسبير) .. وهناك الريف البريطانى المهدئ للأعصاب بوفرة خضرته ونضارتها وبعده عن التطرف والأناقة المصطنعة وقربه إلى الطبيعة أو الطبيعية كما يفهمها الانجليز ..

لاشك لدىَّ أن لبريطانيا - مدنها وريفها - طابعها المميز والذى يخالف كل ما رأيته فى أوروبا وهذا الطابع البريطانى المميز قد لا يستهويك أو يؤثر فيك لأول وهلة ولكنه ينفذ إلى أعماقك رويدا رويدا ويستولى على قلبك فى النهاية بما يحويه من صفات الهدوء والصفاء والراحة النفسية والاطمئنان ..

بريطانيا ، هذه الجوهرة الكريمة المصاغة فى بحر من الفضة ، هذه الجزيرة التى حملت عصا الملكية (١) تقع فى الشمال الغربى للقارة الأوروبية ويفصلها عن تلك القارة بحر الشمال ، (يفصلها عن النرويج والدانمارك وهولندا وبلجيكا) كما يفصلها القنال البريطانى عن سواحل فرنسا الشمالية الغربية . وتتكون تلك الجزر من الجزيرة الكبرى التى تضم اسكتلندا فى الشمال وجوها بارد وريحها كثيرة ويليها جنوبا منطقة شمال انجلترا ثم وسطها The Midlands ومنطقة البحيرات الجميلة The Lake District ثم انجلترا جنوبا وهى أكثر دفئا لاسيما على الساحل الغربى والجنوبى (٠) وتقع ويلز فى غرب انجلترا على بحر ايرلندا وهى أكثر دفئا من انجلترا وهناك الجزيرة الأصغر غرب الأولى، ويفصلها عنها بحر ايرلندا التى تضم جمهورية ايرلندا فى الجنوب ، ومنطقة ايرلندا الشمالية التى هى جزء من المملكة المتحدة بريطانيا وايرلندا الشمالية .. (وكانت كل ايرلندا تابعة لبريطانيا إلى حين نوال جمهورية ايرلندا لاستقلالها بعد حرب تحرير عنيفة انتهت بالاستقلال سنة ١٩٢٢) .

وبريطانيا ليست غنية زراعيا مثل فرنسا مثلا ، بل هى تستورد ستين بالمائة من احتياجاتها من الخارج وربما كان هذا أحد دوافع توسعها الاستعمارى فى الماضى .. كما كان أحد دوافعها وحوافزها

(١) شكسبير ، ريتشارد الثانى ، الفصل الثانى .

على سرعة التصنيع فان الثورة الصناعية الأوربية بدأت فى بريطانيا فى القرن الثامن عشر قبل أى دولة أوروبية أخرى ..

وكان من فوائد موقع بريطانيا الجزرى إنـه حماها مـن عدوان نابليون فى مطلع القرن التاسع عشر رغم إنه اكتسح كل أوروبا فيما عدا بريطانيا - كما حماها من اكتساح جيوش ودبابات هتلر لبريطانيا مثلما فعلت فى بقية أوروبا فى الحـرب العالمية الثانية سنة ٣٩ - ١٩٤٥ .. وكذلك الحال منذ أيام شكسبير (القرن السادس عشر) فقد رأى شاعر الانجليز الأشهر أن فى موقـع بلاده الجـزرى «هذا الحصن الذى أقامته الطبيعة لنفسها لتتحصن فيه ضد العدوى وأثار الحروب (١) !!

لكن الواقع أن موقع بريطانيا الجزرى لم يمنع السلاسل المتصلة من الغزاة عن اجتياحها قبل نابليون وقبل هتلر .. وتاريخ بريطانيا المضطرب بل الدموى لأبلغ دليل على ذلك .. فقد سكنها من القرن الثلاثين قبل الميلاد قوم من الكلت Celts لا يعرف أصلهم على وجه الدقة وإن كانت بعض النظريات تقول بهجرتهم من شمال أفريقيا عبر أسبانيا ومازالت لغتهم تحمل آثارا لها فى لغة اسكتلندا وويلز وفى يرلندا .. ثم غزتها جحافل يوليوس قيصر الرومانية ما بين ٤٢ - ٨٣

(١) شكسبير ريتشارد الثانى ، الفصل الثانى .

قبل الميلاد ومازالت ببريطانيا بعض الآثار الرومانية : كبارى وطرق وحمامات وبخاصة فى مدينة Bath غرب لندن وانحسر الغزو الرومانى فى القرن الخامس الميلادى للدفاع عن روما ذاتها ضد البرابرة من شعوب الجرمانيين وتلا ذلك فى القرنين السابع والثامن الميلاديين وقوع بريطانيا فريسة لغزو القبائل الجرمانية : السكسون والانجلز والقوط . وانتشرت المسيحية فى بريطانيا فى القرن الثامن الميلادى على أيدى الرهبان البندكتيين ,Bendict .

ثم ما لبث الدانمركيون أن غزوا انجلترا ووصلوا لندن فى القرن التاسع بعد الميلاد واستتب لهم المقام (بعد قرن من القتال المستمر) فى القرن الحادى عشر ، لكن ما لبث أن غزى وليام الفاتح ومعه جيش من النورمانديين «Normans» بريطانيا (من فرنسا) سنة ١٠٦٦ وضم انجلترا إلى فرنسا وأصبحتا دولة واحدة .. وما لبث أن أخضع أيضا ويلز وايرلندا فى مملكة واحدة ضمت كل ما سلف ذكره .



ومع ذلك لم يستمتع شعب انجلترا بالاستقرار حتى بعد ذلك - فقد حاولت الممتلكات الفرنسية الانفصال عن الملك ريتشارد قلب الأسد - ١١٨٩ - ١١٩٩ - وقامت ثورة النبلاء ضد الملك المستبد سنة ١٢١٥ وحصلوا منه على الميثاق الأعظم Magna Carta والذى حد

كثيرا من سلطة الملك . ثم قامت حرب المائة عام ما بين الملك فى انجلترا والثائرين عليه فى ممتلكاته بفرنسا واستمرت من ١٣٣٧ ولمدة قرن كامل..

وتبع ذلك ثورة الفلاحين (بزعامة دات تايلر) وانتشار الطاعون وحدوث ردة دينية بزعامة Wycliffe ثم حدثت ثورة فى ايرلنده كل ذلك أثناء حكم ريتشارد الثانى الذى قال شكسبير فى مسرحيته سالفة الذكر أن الانجليز (فى عهده) كانوا سلالة سعيدة من الرجال !! ورغم بلاغة وجمال شعر شكسبير فإنى لم أر فى هذا السرد عن أحداث البريطانيين ما يدل على سعادتهم . !!

واستمرت الحرب سجالا بين انجلترا وفرنسا .. فبعد معركة ازينكور سنة ١٤١٥ استعاد ملك انجلترا هنرى الخامس سيطرته على نصف مساحة فرنسا .. لكن هنرى السادس فقدها من جديد .. ثم قامت حرب أهلية فى بريطانيا : «حرب الوردتين» ما بين عائلة لانكاستر وعائلة يورك من ١٤٥٠ إلى ١٤٨٥ واختلف الملك هنرى الثامن مع بابا روما وانفصل ببريطانيا عن الكاثوليكية وأعلن نفسه رئيسا للكنيسة الانجليكية سنة ١٥٣٤ وهكذا انتشرت البروتستانتية فى بريطانيا .. وحققت وريثته اليزابث الأولى انتصارا بحريا حاسما على أسبانيا سنة ١٥٨٨ بتدميرها الارمادا الأسبانية التى قيل إنها لا تهزم قط ومن هذه السنة تأكدت سيطرة بريطانيا البحرية واستمرت سيدة البحار بلا

منازع حتى نهاية الحرب العالمية الثانية !! أى طوال أربعة قرون عززت من سيادة بريطانيا الاقتصادية والتجارية فى العالم وجعلت لها أمبراطورية لا تغرب عنها الشمس أبدا .. ولكن هذا لم يمنع من استمرار الغليان والثورات والحروب الأهلية داخليا .. فقد قامت ثورة البرلمانيين ضد استبداد الملك وتم إعدام الملك شارل الأول سنة ١٦٤٩ على يد كروموريل الرجل الحديدى الذى أخضع الكاثوليك فى ايرلندا واسكتلندا لحكمه بالنار والحديد .. وتبع ذلك نصف قرن من الشد والجذب بين الملوك والبرلمانيين إلى أن نال الأخيرون «إعلان الحقوق» سنة ١٦٨٩ الذى ضمن الحريات المعتادة وقوى من شوكة البرلمان ومن نفوذ البروتستانتيين .. ورأى مطلع القرن الثامن عشر الحرب مرة أخرى بين انجلترا وأسبانيا (حرب الوراثة الأسبانية) والتى انتقلت فيها السيطرة على جبل طارق من اسبانيا إلى بريطانيا ..

وتبعتها حرب الأعوام السبعة مع فرنسا وبمقتضاها نالت انجلترا السيطرة على كندا والهند سنة ١٧٦٣ وأصبحت بريطانيا بفضل سبقها العالم إلى الثورة الصناعية الدولة صاحبة السيادة العالمية المطلقة عسكريا واقتصاديا . وتأكد ذلك بعد انتصارها على نابليون فى واترلو سنة ١٨١٥ (٠) وتأكدت الاصلاحات الاجتماعية فى قوانين سنة ١٨٣٢ - ١٨٣٧ الاصلاحية الاجتماعية . وفى عهد الملكة فكتوريا أكدت

بريطانيا سيطرتها العالمية من جديد بعد حروب القرم (١) ١٨٥٤ – ١٨٥٦ في حين بدأت تظهر قوة الطبقة المتوسطة في بريطانيا وبعد ١٨٣١ بدأت تظهر أول بوادر قوة النقابات العمالية . وأصبحت فكتوريا امبراطورة الهند سنة ١٨٧٦ .

وغزت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ ثم غزت السودان ودخلت حرب البوير في جنوب افريقيا سنة ١٨٩٩ – سنة ١٩٠٢ ثم فاجأتها الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ – ١٩١٨ وخرجت منها بريطانيا منهكة القوى اقتصاديا فانتهزت ايرلندا الفرصة لتنسلخ ايرلندا الجنوبية عن بريطانيا .. ولتنال كل من مصر والعراق استقلالهما .

ولم تكد بريطانيا تلتقط أنفاسها حتى بدأ نجم هتلر في الظهور إلى أن قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ .. ولم ينقذ بريطانيا فيها من الهزيمة سوى «سنوات العرق والدم والدموع» (٢) ودخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانبها فقد فقدت بريطانيا هيبتها الامبراطورية في آسيا على يد اليابان التي انتزعت منها كل ممتلكاتها الأسيوية شرقي الهند وخرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية منهكة مثخنة بالجراح

---

(١) حروب القرم Crimean War في شبه جزيرة القرم في روسيا .
(٢) اقتباس من إحدى خطب تشرشل الشهيرة في مطلع الحرب العالمية الثانية والتي وعد فيها البريطانيين بالنصر لكن بعد سنوات من العرق والدماء والدموع

قد فقدت أيضا إلى جانب هذا مكانتها كالدولة الأقوى والأكثر نفوذا وكان هذا ايذانا بتفكك امبراطوريتها باستقلال الهند وباكستان وبورما ثم ممتلكاتها الافريقية ..

إلا أن بريطانيا ارتكبت بعد ذلك سنة ١٩٥٦ حماقة «حرب السويس» التى كشفت للعالم أجمع عن ضعفها وتبعيتها للولايات المتحدة فى عالم السياسة الخارجية ودقت آخر مسمار فى نعش امبراطوريتها .. ومع ذلك لم تكن هذه آخر الحروب التى اشتركت فيها بريطانيا فقد اضطرت لاثبات مكانتها كدولة من دول الصدارة للدفاع عن ممتلكاتها فى جزر فوكلاند ازاء هجمة الارجنتين واستيلائها عليها سنة ١٩٨٣ .. لكن انتصار بريطانيا فى فوكلاند كان بفضل تأييد الولايات المتحدة ومساعدتها لها وإلا لما تمكنت من هزيمة الارجنتين فى ميدان قتال يبعد عن بريطانيا عشرة آلاف من الأميال ..

هذه لمحات سريعة جدا عن تاريخ بريطانيا أو البريطانيين ، وهو أبعد ما يكون التاريخ عن خلق «سلالة سعيدة من الرجال» (١) بل أنه

(١) فى استفتاء عقدته هيئة هاريس Harris لسنة ١٩٨٨ أجمع معظم البريطانيين أن بلدهم أصبحت أكثر ثراء عن ذى قبل لكن الغالبية (أربعة ضد واحد) تعتقد أن بريطانيا أصبحت أكثر أنانية عن ذى قبل وأجمع ثلثا المستفتين على أن بريطانيا أصبحت أكثر تعاسة وأقل سعادة عن ذى قبل !!

تاريخ أمة طحنتها الحروب وعركتها المعارك والتجارب والمحن .. لكنه أيضا ذلك النوع من التجارب والمعارك والمحن التى قد تصهر الشعوب وقد تظهر أحسن معادنها وتقوى من عزيمتها ..

يتردد دائما مثل شائع يقول أن الانجليز أمة من التجار ولعل أصحاب هذه المقولة كانوا من شعوب أخرى كانت تحسد البريطانيين على تفوقهم وسيطرتهم فى ميدان التجارة العالمية فقد دفعتهم طبوغرافيتهم إلى السعى وراء التجارة الخارجية لاستكمال النقص (٦٠ - ٧٠٪) فيما يستهلكون من الغذاء محليا ومما ساعدهم على بسط نفوذهم التجارى هو تأكيد سيادتهم البحرية فى وقت لم يكن هناك فيه منافس بحرى فى نفس قوة بريطانيا .. لكن إذا شئنا الدقة فاننا نقول بأن الجو الرطب البارد إلى جانب الطبيعة جعلتا من بريطانيا فى أغلب مناطقها وبخاصة شمال انجلترا واسكتلندا سلسلة من المراعى الصالحة لرعى الأبقار والأغنام أكثر من صلاحيتها للزراعة .. ومن هنا فان البريطانيين كانوا بصفة عامة قوما رعاة أكثر منهم تجارا أو مزارعين ..

ومع ذلك فان الكثافة السكانية فى بريطانيا - والتى تبلغ أكثر من ضعف مثيلتها فى فرنسا - دفعت نسبة كبيرة من البريطانيين إلى سكنى المدن وهجران الريف .. كذلك كانت قسوة الطبيعة والمناخ سببا

كبيرا فى خلق سلاسل متصلة من الهجرات من بريطانيا وايرلندا ابتداء من القرن السادس عشر إلى أمريكا وكندا واستراليا ونيوزيلاندا .. الأسس التاريخية للامبراطورية ..

كذلك هناك مقولة أخرى شائعة تتحدث عن برود أعصاب الانجليز .. British Phlegm وهى مقولة صحيحة إلى حد كبير ولعل سببها أيضا برود الجو ورطوبته مما جعلت الانجليزى العادى لا يرى أية غرابة فى تقبل المكاره ومنها سوء الجو والمطر المتساقط المستمر ، وكل ما هناك أنه اعتاد أن يفتح شمسيته عندما يتساقط المطر ، كما اعتاد أن يحمل شمسيته معه باستمرار استعدادا للطوارئ .. والواقع أن برود أعصاب الانجليزى يخفى وراءه أو إلى جانبه أيضا نوعا من الخجل والتردد والحذر هو أيضا نتاج تلك الطبيعة .. وقد أدت تلك الصفات إلى مقولة ثالثة .. صحيحة هى الأخرى - تقول بأن الانجليزى لا يتدخل فى مالا يعنيه ولا ينظر بعينيه أو يستمع بأذنيه إلى ما يدور داخل جدران منزل جاره أو جيرانه وهو أيضا سبب المقولة الرابعة بأن منزل الرجل البريطانى هو حصنه الحصين يحميه من غائلة التنصت أو التطفل أو اجتراء الغير An Englishman's home is his castle .

وتجمع تجاربى الشخصية وتجارب زوجتى على أن البريطانى مهذب (فيما عدا ما أفسدته السنوات الأخيرة فى أخلاق بعض الشبان) رقيق

الشعور يمد يده لمساعدة الغرباء .. أذكر أنه فى الخمسينات كنا نزور سفيرنا فى لندن ولم نكن ملمين بتفاصيل شوارعها جيدا بعد - وعند خروجنا من السفارة وقفنا فى أحد الشوارع نفتح خريطة لندن لنستدل على الاتجاه الصحيح فإذا بسيد بريطانى وقور يتوقف أمامنا دون أن نسأله شيئا ويعرض خدماته ليدلنا على الاتجاه المطلوب .. وذات مرة كانت زوجتى على موعد وخرجت تبحث عن سيارة أجرة تأخذها إلى موعدها فوجدت تاكسيا واقفا على ناصية أحد الشوارع فلما همت بركوب التاكسى قال لها بأدب أنا فى انتظار جماعة بهذا المنزل .. إذا كنت تريدين سيارة أجرة فانى سأطلب لك واحدة .. وهرع إلى ناصية الشارع واستوقف سيارة أجرة كانت مارة وأتى بها إلى حيث زوجتى ..

وذات مرة كنا نركب القطار من مطار جاتويك إلى لندن وكنا نتحدث أنا وزوجتى بصوت خافت باللغة العربية ، وكان معنا فى المقصورة رجل بريطانى وقور ومهذب فلما وصلنا محطة لندن سارع بانزال إحدى حقائبنا من على الرف مساعدة لى ، كما فتح باب المقصورة لزوجتى وسألها بأدب إن كانت تريد تاكسيا فانه مستعد ليسبقنا ويأتى به .. كل ذلك دون أن نعرفه ودون أن نتبادل كلمة واحدة أثناء سير القطار ودون أن يعرف جنسيتنا ولا شخصيتنا .

الأكثر من ذلك أننا عندما وصلنا لندن في ديسمبر ١٩٦٧ لإعادة افتتاح سفارتنا بها وكانت مصر قد اقفلتها عند قطعها العلاقات مع بريطانيا سنة ١٩٦٥ ، كنا قد وصلنا لندن بعد حرب الأيام الستة وفي ظروف قاسية للغاية فعبدالناصر لم يكن صديقا لبريطانيا ولا الغرب .. كان قد قطع العلاقات مع بريطانيا سنة ٦٥ وتحدى الغرب عدة مرات في مواقف كثيرة معروفة ، ثم حلت به الهزيمة في سنة ١٩٦٧ واحتلت سيناء المصرية نتيجة اقفال عبدالناصر المضايق .. ووصلنا لندن - وافتتحنا سفارتنا بها وبدأنا اتصالاتنا برجالات وزارة الخارجية البريطانية والشعب البريطاني ورجال البرلمان والصحفيين .. ذهبنا إليهم نطلب مساعدتهم لمصر لزحزحة اسرائيل عن سيناء ولزحزحة الولايات المتحدة عن عنادها وإصرارها على قيام المفاوضات المباشرة مع اسرائيل .. وطوال مدة اقامتي في بريطانيا لم أسمع كلمة شماتة أو تشفي واحدة من بريطاني أو بريطانية من مختلف الأحزاب بل وجدت منهم أدبا ومودة وتعاطفا من الكثيرين .. اللهم إلا مثلا واحدا سيأتي ذكره .. ولا أنسى يوم وصل السفير أحمد حسن الفقي بعدنا وذهب لمقابلة لورد جورج براون وزير الخارجية لحكومة العمال لتقديم صورة من أوراق اعتماده إليه ولم يكن أحمد حسن الفقي يعرفه من قبل .. فقد كنت معه في المقابلة .. لقد خرج جورج براون وزير خارجية بريطانيا عشرة أمتار خارج جناحه في الوزارة ليستقبل أحمد حسن الفقي في

الممر الخارجي واستقبله بالعناق الحار والترحاب وصحبه إلي غرفته وهو يحتضن كتفيه صائحا أهلا بك يا جنرال أهلا بك يا سيادة السفير !

ولكي أكون صادقا فإن المرة الوحيدة التى سمعنا فيها ما قد يظهر شيئا من التشفى أو النقد كانت فى قصر باكنجهام مقر ملكة بريطانيا .. ففى إحدى الاحتفالات الرسمية التى تقام للسلك الدبلوماسى الأجنبى وحضرها كل السفراء وسبعة أعضاء من كل سفارة لتقديمهم إلى أفراد العائلة المالكة البريطانية، اصطففنا وراء المرحوم السفير أحمد حسن الفقى وزوجته ، ومرت الملكة اليزابث ومدت يدها إلى السفير وزوجته محية إياهم بأدبها ولطفها ورقتها المعهودة أما زوجها الأمير فيليب فمعروف عنه صراحته وحدة لسانه وميله للنقد اللاذع مع كل الناس فلما وصل أمام أحمد حسن الفقى مد يده مصافحا وسأله أين كنت قبل لندن فأجابه السفير كنت وكيلا لوزارة الخارجية، فسأله الأمير فيليب وقبل ذلك؟ ثم وقبل ذلك؟ ثم وقبل ذلك؟ إلى أن أضطر أحمد حسن الفقى إلى القول أخيرا بأنه كان «جنرالا فى الجيش».. ومن الواضح أن الأمير فيليب كان يعلم ذلك وكل ما أراده من وراء استفساراته الكثيرة هو أن يعترف له السفير بأنه كان ضابطا فى الجيش قبل أن يدخل الدبلوماسية فلما أخبره أحمد حسن الفقى بذلك ابتسم الأمير فيليب مرتاحا آخر الأمر وسأل أحمد حسن الفقى: وهل تعامل سفارتك على أنها أورطة من الجيش ?! D you keep them well dis ciplined

سأله هذا السؤال الأخير وهو يؤدى التحية العسكرية !! وانصرف الأمير ليحيى السفارة الأخرى التالية وهو يتضاحك ، وترك أحمد حسن الفقى وقد عقدت الدهشة لسانه ..

وذات مرة كنت أنا قائما بالأعمال للسفارة (سفارة الجمهورية العربية المتحدة) فى لندن أثناء غياب السفير سنة ١٩٧١ وكنت قد رقيت إلى درجة وزير مفوض وأصبحت الرجل الثانى بالسفارة ورأست أنا هيئة سفارتنا عند تقديمها إلى الملكة والأمير فيليب فى إحدى احتفالات القصر أيضا .. فلما وصل إلى حيث وقفت هيئة سفارتنا قدمنا إليه أحد موظفى المراسم سفارة .ج .م .ع والسيد القائم بأعمالها .. فتقدم إلى الأمير فيليب مصافحا وسألنى مرة أخرى عن اسم سفارتنا فأجبته سفارة الجمهورية العربية المتحدة .. فسألنى على الفور «متحدة مع من ؟ وكانت سوريا قد انفصلت عن الوحدة .. فلم أجد جوابا .. وقدمت إليه بقية أعضاء السفارة ومنهم قنصلها وكان السيد د. حمدى الطاهرى .. فسأله الأمير فيليب أنت القنصل ؟ (وهل تتعامل مع السكان الأصليين من البريطانيين ؟!) .

Do you deal with the Natives ?

Do the Natives treat your well ?!!

وكلمة Natives لا تقال إلا عن السكان المحليين فى المستعمرات

أى الشعوب المغلوبة على أمرها .. ومن ثم فإن فى استعمال الأمير فيليب لهذه الكلمة للاشارة إلى البريطانيين منتهى السخرية إذ أنه يقصد قلب الأوضاع !!

كان هذا كما أسلفت ، الاستثناء الوحيد بين مئات الأدلة الأخرى الدالة على صحة تصرفات الانجليز معنا ورقة شعورهم وارتفاعهم عن التشفى الرخيص . كذلك تحضرنى أسماء مئات من البريطانيين (١) الذين أبدوا لنا فى كل مناسبة الصداقة الحقة ونبل الشعور وكرم المعاملة .. ولعلك تذكر أيها القارئ تجربتى وزوجتى فى مؤتمر بيسك .. فى تشيكوسلوفاكيا فى يونيو ١٩٦٧ حين كانت زوجة الدبلوماسى البريطانى أكثر السيدات رقة وتعاطفا ونبلا تجاه زوجتى فى نفس أسبوع النكسة والمحنة ..

---

(١) من بين الدبلوماسيين البريطانيين الذين تعاملت معهم على مدى السنوات الخمس سير هارولد بيلى سفير بريطانيا السابق فى مصر وسير فيليب آدامز وكيل الخارجية المساعد وانتونى بارسونز وكيل الخارجية المساعد للشرق الأوسط ودوجلاس هيرد مدير مكتب وزير الخارجية ، (اصبح هو نفسه وزير الخارجية) وانتونى آكلاند مدير مكتب وزير الخارجية . وجيمس كريج Craig مدير إدارة الشرق الأدنى وهوب جونس مدير إدارة الشرق الأدنى وجونى جراى وهوكى ووكر المسئولين عن القسم المصرى .. وقد أصبحوا كلهم سفراء فيما بعد .. أما من بين البرلمانيين أصدقاء مصر أو المتعاطفين معها فقد تعاملنا مع النواب دينس وولترز وكريستوفر ماهيووايان جيلمور وسير انتونى ناتنج ولورد تريفليان وكانت سفارتنا على اتصال دائم بالصحفيين المهتمين بمتابعة أزمة الشرق الأوسط فى صحف لندن تايمز والاوبزرفر والجرديان والفينانشيال تايمز ومجلة الأيكونومست ، وكذا أعضاء هيئة مجلس تنمية التفاهم العربى البريطانى ومن بينهم جرانيا بيركيت ومنويلاسايكس وغيرهم كثيرون !!

وقد عشت فى سفارتنا بلندن زهاء السنوات الخمس حضرت فيها الكثير من مقابلات سفيرنا مع كبار المسئولين كما أجريت أنا نفسى بصفتى الرجل الثانى فى السفارة أو بصفتى قائم بأعمال السفارة مئات الأحاديث مع المسئولين البريطانيين (١) وحضرت فى لندن محادثات دكتور محمود فوزى والسيد محمود رياض ودكتور مراد غالب ودكتور محمد حسن الزيات وزراء خارجيتنا وكذلك السيد / محمد حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومى، حضرت محادثاتهم مع وزراء خارجية بريطانيا الآتين على التوالى جورج براون ومايكل ستيورات ولورد أليك دوجلاس هيوم: ومع الايجاز الشديد لوصف مواقف المسئولين البريطانيين فقد كان .. كما كانوا يرددونه باستمرار يتلخص فى :

إن بريطانيا لا تدعى إنها تملك التأثير على اسرائيل إلا قليلا، كذلك فإن تأثيرها محدود على غيرها من دول أوروبا الغربية التى تتعاطف مع اسرائيل، إن الولايات المتحدة هى التى تملك إن إرادات التأثير على اسرائيل وحفزها على الانسحاب من سيناء ومن هنا يجدر بمصر أن تحسن من علاقاتها مع واشنطن بدلا من زيادة الإساءة إليها (وكانت

---

(١) كما هى عادة الانجليز فإن الدبلوماسيين ورجال الأعمال ينجزون أعمالهم حول مائدة الغداء في أحد النوادى الاجتماعية فى وسط البلد وكنت عضوا فى نادى Travellers' Club

مقطوعة من ٦٧ إلى أوائل عهد السادات أى بعد زيارة نيكسون لمصر) .. وانه فى تقدير بريطانيا ليست هناك ضرورة عاجلة إلى إجراء حوار مباشر بين مصر واسرائيل فى المرحلة الأولى لكن فى المراحل اللاحقة لا مفر من إجراء محادثات ثنائية مباشرة بين الطرفين لا بد منها لتفسير تفاصيل قرار مجلس الأمن ٢٤٢(١) والاتفاق على خطوات تنفيذه وانه مهما حاولت بريطانيا وفرنسا تسهيل مهمة يارنج كوسيط بين أطراف النزاع فلا مناص عن المباحثات المباشرة فى النهاية ... وأن رأى بريطانيا هو أن القرار ٢٤٢ يعنى بالنسبة لمصر انسحاب اسرائيل التام عن كل سيناء ربما مع الاتفاق على نزع السلاح او تحديد السلاح فى أجزاء معينة من الحدود لفترة محددة .. ولكن بالنسبة لبقية الأراضى المحتلة قد يعنى القرار انسحاب اسرائيل مع بعض تعديلات فى الحدود تتوقف على طبيعة السلام الذى يتفق عليه فى مباحثات مباشرة .

كان هذا ما سمعناه من البريطانيين من سنة ١٩٦٧ وحتى زيارة الرئيس السادات للقدس .. ولم يحاول المسئولون البريطانيون فى يوم من الأيام خداع سفارتنا أو مسئولينا باسماعهم ما كانوا يودون سماعه

---

(١) هل يتم الانسحاب من أراضٍ احتلتها اسرائيل أو من «الاراضى التى احتلتها»؟

وكان البريطانيون يتوخون عرض آرائهم ومعتقداتهم بصدق وصراحة مع الحرص على عدم احراجنا أو خدش شعورنا فى الوقت نفسه .. ومع هذا فقد تحقق كل ما أوصى به البريطانيون بالنسبة للشق المصرى - الاسرائيلى من النزاع ..

وقد كانت السنوات الخمس التى قضيتها على صلة مباشرة مع وزارة الخارجية البريطانية وكبار المسئولين ورجال الصحافة والبرلمان البريطانى تجربة غنية بالفائدة الدبلوماسية المحققة .. ولئن كنت أمضيت سنوات تكوينى الثقافى Formative Years فى الولايات المتحدة دارسا أوزميلا بجامعاتها فان سنوات لندن كانت بمثابة سنوات الصقل النهائى ishpol فان لندن مدرسة طيبة للدبلوماسيين الشغوفين بحرفتهم .

ورغم تقديرى لمهارة الدبلوماسية البريطانية بصفة عامة فإننى آخذ عليها مأخذين أو ثلاثة على الأقل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . أولهما حماقة السويس ١٩٥٦ وقد كلفت هذه الحماقة بريطانيا غاليا ونبهتها إلى «انكماش» حجمها وانها لم تعد الامبراطورية التى يمكنها التصرف فى العالم كما تشاء . أما ثانيهما فهى تخبطها أو ترددها بين الاعتماد على علاقة خاصة تربطها بالولايات المتحدة سياسيا واقتصاديا وبين الانتماء الكامل نفسيا وفعليا للسوق الأوربية المشتركة

أى لاوروبا الغربية .. ويعنى ذلك تذبذبها ما بين انجلو سكسونيتها وأوروبيتها ومحاولتها المتأخرة الانتماء للاثنتين . وقد دفع هذا التردد حزب المحافظين إلى اساءة الاختيار فى البداية سنة ١٩٥٨ - حينما رفض الانتماء إلى معاهدة روما ودخول السوق الأوروبية المشتركة منذ البداية وفضل عليها اقامة مجموعة EFTA (رابطة التجارة الحرة الأوروبية) في منافسة صريحة للسوق المشتركة .. وتبع ذلك اتجاه بريطانى عمالى شديد نحو الاشتراكية وسيطرة الدولة الاقتصادية على وسائل الانتاج والخدمات الاجتماعية ، ونتج عن كل ماسبق تدهور صناعات الصلب والترسانات البحرية والمنسوجات والتكرير وحتى الطاقة الذرية التى كانت بريطانيا متقدمة فيها عن بقية أوروبا (وذلك رغم اكتشاف البترول فى بحر الشمال وهو من أهم العوامل التى تساعد بريطانيا على التغلب على العجز فى ميزان مدفوعاتها ولم تعد بريطانيا اليوم سوى دولة من دول المرتبة الثانية ، تقف بعد فرنسا وألمانيا الغربية من حيث القوة الاقتصادية) وفشلت تجربة بريطانيا فى تحدى دول السوق الأوربية المشتركة ومحاولة تطويقها والتغلب عليها باقامة الحلقة الخارجية Outer Seven واضطر ادوارد هيث زعيم حكومة المحافظين سنة ١٩٧٢ إلى قبول شروط دول السوق الأوروبية لانضمام بريطانيا ..إليها فى «عربة من عربات الدرجة الثانية وليس الأولى» لكن لاتزال بريطانيا إلى اليوم .فى عهد حكومة محافظة أخرى

هى حكومة جون ماجور تختلف عن حكومة مارجريت تاتشر (١) لكنها تقف مترددة مرة أخرى بين علاقتها الخاصة مع بقية الانجلوسكسون (الولايات المتحدة - كندا - استراليا - نيوزيلانده ودول الكومونولث) وبين الانتماء قلبا وقالبا للسوق الأوروبية .. وكما وضعت مارجريت تاتشر العقبات تلو العقبات أمام اقامة نظام مصرفى أوروبى غربى موحد وعملة واحدة فان حكومة ماجور هى الأخرى تحاول عرقلة تقدم اوروبا الغربية نحو الوحدة الاقتصادية الكاملة التى لاتثق فيها ثقة كبيرة وذلك رغم معارضة جناح من المحافظين بزعامة ادوارد هيث لسياستها.. وموقف التاتشارية هذا يضع بريطانيا فى مقام الرجل الغريب بالنسبة لبقية أوروبا mon-out odd وينذر بتكرار غلطتها سنة ١٩٥٨ حينما ابدت احتقارها لمعاهدة روما التى انشأت السوق الأوروبية المشتركة ثم سعت حثيثا بعد ذلك إلى الانضمام اليها سنة ١٩٧٢ بقيادة هيث ..

أما المأخذ الثالث الذى كنت آخذه على سياسة بريطانيا أو دبلوماسيتها أثناء السبعينات فهو الوقوف فى وجه جميع أعضاء الكومونولث وجميع دول العالم الثالث وكثير من الدول الليبرالية الغربية فى محاولتها العديدة فرض العقوبات على حكومة جنوب افريقيا

---

(١) اضطرت تاتشر للاستقالة بسبب ثورة حزبها ضدها بعد ذلك وخلفها جون ماجور.

العنصرية للضغط عليها للتخلي عن الابارثايد .. وقد اختارت تاتشر المغنم الاقتصادى على المثل والمبادىء الانسانية وعادت ففعلت نفس الشىء مرة أخرى فى اصرارها على إعادة اللاجئين الفيتناميين من هونج كونج إلى بلادهم عنوة بالقوة الغاشمة ..

وأسارع إلى القول بأن المآخذ الثلاثة التى أخذتها على دبلوماسية وسياسة بريطانيا كانت من صنع حكومات محافظة يمينية سواء أكان ذلك تحت حكم انطونى إيدن أو مارجريت تاتشر واخيرا أيضا إلى حد ما جون ماجور وهى مواقف تزيد من عزلة بريطانيا «وجزريتها» وانكماشها على نفسها فى الوقت الذى انكمشت فيه بريطانيا من امبراطورية إلى دولة من المرتبة الثانية دون أن تفقد توازنها أو مكانتها كلية!!

فما هى ، بصفة عامة «دبلوماسية بريطانيا» فى عهد الأنكماش ؟ أنها حقا جديرة بالدراسة والتحليل لأنها قد تفيد كمثل أو نموذج يحتذى لمحاولة الانتقال من امبراطورية إلى دولة متوسطة أو دولة من دول المرتبة الثانيةدون أن تفقد توازنها أو مكانتها كلية !

خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الثانية فى عداد «المنتصرين» بفضل انضمام الولايات المتحدة للحلفاء ومساندتها الفعالة لهم لكن بريطانيا خرجت من الحرب مثخنة بالجراح وقد نزفت أغلب قواها وفقدت مكانتها كدولة عظمى وحل محلها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ثم بدأت هبوب رياح الوطنية العارمة فى أعقاب

الحرب الثانية فمزقت الامبراطورية شر ممزق ونالت استقلالها الواحدة تلو الأخرى الهند وباكستان وبروما وسيلان ونيجيريا وغانا ثم كشفت حرب السويس ١٩٥٦ القناع تماما عن اضمحلال قوة بريطانيا كدولة ذات امكانيات عالمية واعلنت الحدود الضيقة الاقتصادية والدبلوماسية والاستراتيجية البريطانية في عهد الانكماش الجديد .

وظهر أن بريطانيا لم تعد قادرة على اتخاذ سياسيات واستراتيجيات عالمية ناجحة بمعزل عن ارادة الولايات المتحدة ومساندتها .. ومن ثم ظهر لبريطانيا حاجتها إلى اقامة «علاقة خاصة» مع الولايات المتحدة سياسيا واستراتيجيا واقتصاديا وقد تم ذلك سنة ٦٣ وظهرت أيضا مجموعة جديدة من الدول القادرة على منافسة بريطانيا بل سبقتها اقتصاديا وتجاريا ومنها فرنسا وإيطاليا والمانيا [الغربية](١) واليابان وكندا .. وأخيرا النمور الاسيوية «كوريا الجنوبية وتايوان وسنغافورة وتايلاند وهونج كونج» ..

نتيجة لكل هذا كان طبيعيا أن تنكمش الامبراطورية البريطانية وأن تختار بريطانيا لنفسها دورا جديدا ودائرة جديدة (دبلوماسية واستراتيجية) تتفق وامكانياتها المتقلصة الجديدة وإلا عرضت نفسها للسخرية بل وللدمار والفناء .

---

(١) بعد توحيد المانيا صارت أكبر قوة اقتصادية فى أوربا .

إلا أن عملية الانكماش هــذه لم تكن أبدا من السهولة بمكان .. وقليل من الامبراطوريات استطاع اجراء هذا التحول الصعب من امبراطورية إلى دولة متوسطة – دون فقدان كامل توازنها أو كل مقوماتها بل أن كثيرا من الامبراطوريات زال واضمحل أثناء محاولة اجراء هذا الانكماش لما يتخلله من آلام نفسية ومصاعب حقيقية وتناقضات كثيرة .. ومن هنــا يمكننا تقــدير ما فعلته بريطانيا حق قدره .

وسواء أحسنت الدبلوماسية البريطانية بأهدافها الجديدة فى فترة ما بعد ١٩٤٥ – وسارت فى سبيل تنفيذها واعية عالمة أم أنها لم تخطط لهذه الأهداف صراحة أو بهدوء وتعقل (مغامرة ١٩٥٦) وانما اتبعت سياسات سد الفراغات تقوم على الارتجال والانفعال أكثر من التخطيط الهادىء بعيد المدى ، إلا أنه تتضح عدة انماط وعناصر بارزة فى دبلوماسية بريطانيا فى فتـرة الانكمــاش نحــاول ايجـاز أهمها فيما يلى:

أ – محاولة بريطانيا استغلال مكانتها التاريخية ونفوذها التقليدى كدولة ذات خبرات خاصة أو امكانيات أو علاقات خاصة سواء مع الولايات المتحدة أو غيرها من الدول أو مناطق النفوذ السابق ، لدعم كيان بريطانيا السياسى والعسكرى بصفتها الجديدة كدولة صاحبة الصدارة بين دول المرتبة الثانية ، دولة تستحق معاملة خاصة أو

امتيازات خاصة سياسية وتجارية واقتصادية بحكم مكانتها التاريخية وخبراتها وإمكانياتها التقليدية ..

ب - محاولة استغلال هذه المكانة الخاصة لتأكيد دور بريطانيا وقدرتها على دعم مكانة العالم الغربي وسياسات حليفتها الكبرى الولايات المتحدة خاصة حامية ذلك العالم والحليفة الأولى لبريطانيا .

ج - محاولتها اجراء الانكماش اللازم من الأمبراطورية وتصفية أثار العلاقات القديمة المتهاوية إلى الدائرة الضيقة الجديدة بأقل قدر من التضحيات والصعوبات في ظل حماية السياسات والتكتيكات سابقة الذكر ، أي محاولة تصفية المشاكل التي خلفتها سياستها الامبراطورية البائدة بأقل قدر من الخسارة أو المشاكل الجديدة (النزاع العربي الاسرائيلي - الأقلية العنصرية في روديسيا وجنوب افريقيا - الخلاف مع الارجنتين حول جزر فوكلاند ومع جواتيمالا حول بليس أو هندورس البريطانية والخلاف مع اسبانيا حول جبل طارق - مكانة بريطانيا من السوق الأوروبية المشتركة وعلاقاتها الحساسة مع فرنسا وألمانيا) .

ومحاولتها الخروج من تلك المشاكل بمواقف تعزز مكانة بريطانيا الدولية الجديدة وما تدعيه لنفسها من امكانيات وتجارب خاصة في ميادين التوفيق والوساطة وحل المنازعات .

د - محاولة بريطانيا احراز انتصارات دبلوماسية لامعة عالمية تعزز

مكانتها كدولة ذات أهمية وامكانيات خاصة (ومن أمثلة محاولاتها التوفيق والوساطة واحراز مكانة دولية فى هذا المجال ماتقوم به من وساطات بين العرب واسرائيل وبين العرب والولايات المتحدة بل محاولتها فى الماضى القيام بدور الجسر مابين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أو بين الهند وباكستان وبين العرب وايران وبين نيجيريا وفيافرا وبين الهند والصين وهذا .. وتراعى الدبلوماسية البريطانية فى وساطتها عدم الزج بنفسها بين الأطراف بشكل غير مقبول لأخذها وأنها تراعى أن تأخذ وساطتها الشكل الهادىء المستتر لعدم تعريض دبلوماسيتها للفشل حيث ان الغرض الاساسى وراء هذه المساعى هو تحقيق انتصارات للدبلوماسيين البريطانيين)

هـ - محاولة استخلاص دور لبريطانيا كدولة ذات امكانيات خاصة وفهم خاص مبنى على الواقعية والاعتدال ومن ذلك الشواهد والأمثلة التالية: كان موقف بريطانيا منذ البداية وجوب الاعتراف بالصين الشيوعية وقبولها داخل الأمم المتحدة فى الوقت الذى كان ذلك يخالف موقف واشنطن تماما - وكانت بريطانيا تسبق موقف الولايات المتحدة احيانا كثيرة فى مباحثات نزع السلاح إلى اتخاذ مواقف أكثر اعتدالا وواقعية وتقاربا مع الاتحاد السوفييتى كذلك احسنت بريطانيا لمدة طويلة استغلال علاقتها الخاصة بالولايات المتحدة، سياسيا واقتصاديا، من أجل الظهور أمام العالم بمظهر الشريكة للشريك الكبير (امريكا)

فى ادارة الحلف الغربى (النــاتو) والعــالم الغربى بصفة عامة اعتمــادا على تاريخها وخبراتها ودبلوماسيتها واعتمادا على كونها الدولة الذرية الثالثــة فى العــالم. وكان اتفــاق نـاســاو ســنة ١٩٦٢ بين واشنطن ولندن والذى سمح بامداد الولايات المتحدة لبريطانيا وحـدهـــا من دون كل شــركـاء أمريكا الآخرين بالمعـلومـات والمواد اللازمـة لبنـــاء الغواصات الذرية البولاريس معــززا لهذا الدور فى الوقت الذى يحرم فيه القانون الامـريكى مـد أى دولة أخـرى بهذه المساعدات.

و - لاشـك أن من أهــم أهــداف الدبلوماســية البريطـانيـة فى فتـــرة الانكماش هـــذه وبخاصة فى ضـــوء قـرب انهاء بريطانيا لتصفية آثار مشاكلها الامبراطـورية الســياسية السالفة تعزيز امكانيـات بريطـانيا العالميــة الاقتصـــادية والتجارية والمالية. لقد تعرضت بريطـانيا بعد ١٩٤٥ لضـغوط ومـؤثرات اقتصــادية عنيفة من جــراء حرمانها من المستعمرات التى كانت تحت حكمها وكانت تعتبـــر ســوقا صالحة لمد بريطـــانيا بالمــواد الخـــام وكســوق لتصريف منتجات بريطـانيا تقليـديا، ومن أشـد أخطـــاء بريطانيا كان رفضها الانضمام إلى معاهدة روما لاقامة السوق الاوروبية المشـتركة لاعتمادهـــا اعتمــادا زائدا على علاقتها الخاصـــة مع الولايات المتحـدة والكومونولث حتى لقــد اعماها ذلك عن استشفاف

أهمية العمل الأوروبى المشترك ومدى حاجة بريطانيا كدولة غربية أوروبية إلى التعاون معه..

لكن ادوارد هيث زعيم حزب المحافظين تدارك هذا الخطأ سنة ١٩٧٢ وقاد بريطانيا إلى داخل السوق رغم خطأ حزبه فيما سبق لكن بريطانيا دفعت ثمنا غاليا لتأخرها فى اللحاق بذلك القطار ومازالت إلى اليوم قليلة الثقة فى بقية الاوروبيين وتقف حائرة معذبة منذ عهد تاتشر والى اليوم ما بين استكمال مسيرة الانضمام إلى السوق قلبا وقالبا، وبين مكانتها كالمصرف العالمى للدائرة الاسترلينى وصاحبة المكانة الخاصة فى الكومونولث وصاحبة العلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة.. وقد يكلفها ذلك غاليا أيضا.. لكن مما يخفف من ضائقة بريطانيا الاقتصادية تملكها لبترول بحر الشمال واستمرارها كمنطقة جذب شديدة للسياحة العالمية.. واستمرار تأييد الولايات المتحدة لها بفضل تلك العلاقة الخاصة.

★ ★ ★

استمرت اقامتنا فى لندن من ديسمبر ١٩٦٧ إلى يوليو - أغسطس ١٩٧٣. وكانت وازرة الخارجية المصرية منذ أوائل الستينات قد حددت سلفا مدة اقامة الدبلوماسى فى الخارج باربع سنوات. لكن وزير الخارجية د. مراد غالب فى أواخر عام ١٩٧١ طلب منى شخصيا قبول الاستمرار فى لندن سنة أخرى أو سنتين فقبلت. وهكذا عملت كوزير

مفوض للسفارة تحت إمرة سفيرين هما أحمد حسن الفقى إلى أن بلغ سن التقاعد، ثم من بعده، المرحوم كمال الدين رفعت إلي أن عينت سفيرا لمصر فى ليما عاصمة بيرو بامريكا الجنوبية فى حركة ابريل / مايو١٩٧٣..

كانت سنوات لندن حافلة بالعمل الجاد المفيد من كل ناحية.. ويحضرنى فى هذه المناسبة المثال التالى فقد شرفتنى بلادى فى ابريل ١٩٧٣ بأن استدعاني من لندن إلي القاهرة السيد / محمد حافظ اسماعيل مستشار الرئيس السادات للأمن القومي وقتئذ ضمن فريق من الدبلوماسيين تكون من الزملاء السفراء دكتور عبد الله العريان رحمه الله وكان وقتئذ سفيرا لمصر فى باريس ود. أحمد عثمان وكان وقتئذ مندوبا دائما مناوبا فى نيويورك والسفير طاهر شاش وكان وقتئذ وزيرا مفوضا فى موسكو.. ومنى كنت مازلت وزيرا مفوضا فى لندن استدعانا مستشار الأمن القومي لكى نضع دراسات فردية وجماعية - قدمناها إلي سيادته في حينه بعد فترة دراسات امضيناها فى قصر عابدين استغرقت الشهرين الكاملين وقد ضمنها كل منا تصوره لكيفية ايجاد الحلول المناسبة للنزاع المصرى الاسرائيلى - والاسرائيلى الفلسطينى و العربى - وذلك قبل حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ بستة شهور كاملة..

. وكان من نصيبى أن قدمت للسيد / مستشار الرئيس للأمن

القومى في تلك المناسبة بعض الدراسات الفردية التى تحوى تصورى لتلك المشاكل وابعادها وطرق الحل السلمى المتاحة. ودون الدخول في تفصيلات تلك الدراسات فقد ضمنتها التساؤل «أفلا يحق لمصر أن تفصل ما بين الشقين (المصرى والعربى للنزاع مع اسرائيل) - على الاقل تكتيكيا - بمعنى أن تتكفل مصر وحدها بحل الشق المصرى / الاسرائيلى أى بتحرير سيناء» دون أن تنتظر مساعدة عربية لن تأتى غالبا وذلك لتسهيل حل هذا الشق وحده.. على أن تظل مصر وفية وحريصة على التزاماتها العربية ضمن الاطار العربى العام، وحسب قدراته، لحل الشق الأصلى العربى / الفلسطينى كمرحلة لاحقة ومتصلة بالحل المصرى المرحلى الأولى.؟»

كما طرحت التساؤل «كيف يمكن لمصر أن تعالج المشاكل (التى قد تنجم عن أو المصاحبة لظاهرة فصل الشقين الشق المصرى عن الشق العربى (السورى أو الاردنى أو الفلسطينى) للمشكلة، بأقل قدر من الاضرار بوضع مصر وسياستها العربية وبمركزها العالمى.. كذلك قدمت تصورى الشخصى للاجابة على ذلك التساؤل!

وفى ديسمبر ١٩٧٧ بعد أربع سنوات كاملة عادت وزارة الخارجية تطرح على سفرائها موضوع التقدم بدراسات أخرى استعدادا

للتفاوض مع اسرائيل، وكنت حينها سفيرا لمصر في روما فرفعت إلى السيد / الوزير د. بطرس غالي وزير الخارجية بالنيابة جملة أفكاري وتصوراتي وفقا للنهج السابق مؤكدا استحساني وتحبيذي الشخصي لفصل الشق المصري من القضية مرحليا - عن الشق الفلسطيني السوري الأردني، وتحبيذي لمضي مصر إلى التفاوض مع اسرائيل حول تسوية النزاع المصري الاسرائيلي سلميا كخطوة أولى مرحلية - سابقة لتسوية باقي القطاعات وإن كانت مرحلة أولى فحسب، متصلة بالتسوية وشاملة ومؤدية إليها وجزءا لا ينفصل عنها ..(١).

أما بالنسبة لعلاقة مصر في ذلك الحين بالولايات المتحدة فقد ذكرت فيما رفعته إلى المسئولين حينئذ بالحرف الواحد .. «الولايات المتحدة طرف اساسي في معركتنا ومن هنا لا نملك أن نتجاهلها بقطع الحوار معها .. بل قد يكون حوارنا معها بديلا عن حوارنا مع اسرائيل في المرحلة الأولى وقد يمهد له فيما بعد ».

هذا ولا أدعي لنفسي شرفاً أو مسئولية قرار السادات باختيار سبيل الحل السلمي المرحلي المنفرد مع اسرائيل.. كل ما أردت قوله اني كنت أشاطر السادات نفس الأفكار ربما في نفس الوقت الذي غمرته نفس الآراء ودون ان يدري احدنا بآراء الآخر.. بل إنه كان يصعب عليّ تصور أن أجد صدى لافكاري لدى بقية زملائي من الباحثين

(١) من مذكرات الكاتب الشخصية والتي لم تنشر بعد.

الدبلوماسيين.. لكن شاءت الظروف والمصادفات أن أكون قدمت تلك الآراء معززة بالدراسات التفصيلية إلى المسئولين فى ابريل ٧٣ ثم فى ديسمبر ٧٧ وتشاء المصادفات أن يزور السادات القدس بادئا رحلة السلام المرحلية المنفردة سنة ١٩٧٨..

وهكذا استطيع أن أعود لاذكر أنى مطمئن بينى وبين نفسى تمام الاطمئنان والحمد لله إلى أن سنوات عملى فى لندن (وما جاء بعدها) كانت حافلة بالعمل الجاد المثمر.. وما التوفيق إلا بالله.. وقد تعلمت فيها الكثير فان لندن مدرسة للدبلوماسيين وللدبلوماسية الراقية لمن شاء التزود بهذا الغنى ولم أجد صعوبة أو مشقة فى يوم من الأيام من جانب معاملاتى مع البريطانيين. لكن كانت أغلب صعوباتنا ومشقتنا ترجع إلى اعداد المصريين الهائلة التى كانت تتوافد على لندن صيفا وشتاء ولكن صيفا أكثر من شتاء..

كان المصريون يفدون إلى لندن للعلاج فى «الحالات المتأخرة» وهم فى النزع الأخير أو بعد فوات كثير من الوقت.. وجريا على عادة المصريين فما من أحد يفد إلى لندن إلا حاملا توصية أو خطابا أو رجاء من أحد الأصدقاء أو أحدالأقارب للاهتمام بالزائر الوافد..

وأصبح كثير من وقتنا ومن عطلات نهاية الاسبوع تقضى فى زيارة منى ومن زوجتى للمرضى من المصريين.. وهو واجب انسانى حقا لكن سرعان ما ذهبت زوجتى إلى الاخصائيين تشكو من تقلصات فى معدتها وآلام لا نجد لها مبررا.. وبعد الكشف عليها لم يجد الاخصائى

شيئا فسألها عن نظام حياتها فأجابته.. فنصحها بالاقلال من زيارة المستشفيات وبخاصة الحالات المتأخرة لأن الأعراض التى تشكو منها كانت آلاما عصبية..

كان عدد المصريين المتوافدين على لندن كل صيف يزيد عن الخمسين ألفا، الكثير منهم أصدقاء أو أقارب أو أصدقاء للاصدقاء.. وكان بعضهم يتصل بنا تليفونيا فى منزلى دون أن يذكر اسمى أو يعلن عن معرفته لاسمى، ليقول أن أحد أصدقائه اوصاه بالاتصال «بوزير مفوض السفارة» فى هذا الرقم.. وذات مرة اتصل بى شاب فى الحادية عشرة مساء فى منزلى ليعلن لى أنه ابن فلان وانه يتمنى رؤيتى تلك الليلة نفسها لأنه «ملخوم» شوية ولايدرى ماذا يفعل.. فلما عرضت عليه أن أراه غدا صباحا قال مسافر خارج انجلترا غدا صباحا وكان يريدنى أن أريه معالم لندن!! هذا إلى جانب طلبات «السلفيات» من أشخاص لم يسبق لى رؤيتهم إو التعرف بهم.. هذا إلى جانب مشاكل المصريين ذات الطابع القنصلى أو ذات الحساسية السياسية الطابع!. فلم أكن أنا القنصل طبعا ولم أكن معنيا بالمشاكل القنصلية مثل اتهام بعض المصريين بمحاولة الخروج من محاولات مركس آند سبنسر فى لندن دون سداد قيمة البضائع التى يحملونها فى أيديهم.. لكن ما الحل اذا كان الشخص المتهم ابن أو ابنة أو زوجة أحد كبار المصريين؟! وماذا نفعل حيال الابنة المصرية أو الزوجة التى تختفى فى لندن اسبوعا أو شهرا بعيدة عن زوجها أو أبيها دون أن تخطره بعنوانها؟ وإذا كان

هــذا الزوج أو الأب شـخصـيـة كبيرة مـعروفة للسـفـارة؟ وهكذا دون نهاية..

خلاصة القول أنه لما تولى المرحوم الدكتور مـحـمـد حسن الزيات منصب وزير الخارجية أواخر ١٩٧٢ فيما أذكر وحل على الدور لأرقى لدرجة سفير ١٩٧٣ رجوته إن امكن تعييني سفيرا في ليما عاصمة بيرو في امريكا الجنوبية وكان المنصب شاغرا بنقل السفير السابق إلى القاهرة.. والحق أن الدكتور الزيات تمنع في بداية الأمر واجابني بأن تجاربي وتكويني السابق من شأنها ترشيحي للعمل في موقع أكثر قربا إلى مركز الاحداث أما في القاهرة أو في الخارج.. لكن أقنعته بأني احتاج بعد مجهود لندن إلى فترة راحة قصيرة.. وليما عاصمة بيرو قدر علمي ليس بها مصريون زائرون أو مقيمون وسوف تهيئ لي جو الراحة الذي انشده ردحا من الوقت.. كما أني ولوع بدراسة الحضارات القديمة وبيرو مهد حضارة الانكا وسوف تتيح زيادة تحسين لغتي الاسبانية التي بدأت دراستها منذ سنة ١٩٥٨ قبل عملي في كولومبيا ثم المكسيك فوافق الدكتور الزيات بعد لأي ربما على اساس معرفته بأن انظمة بعض وزارات الخارجية ذات التقاليد العريقة تفضل اسناد احـد المناصب المريحـة إلى دبلوماسييها فيما بين كل منصبين مهمين أو حساسين.. وهكـذا عينت سـفيرا لمصر في بيرو وبدأت استعداداتي للسفر من لنـدن إلى بلد من أبعـد بـلاد العالم.. باختياري بل وبالحاحي .

الفصل الثالث

أولا : جمهورية بيرو Peru وحضارة Inca

ثانيا : جولة فى دول أمريكا اللاتينية .. بنما - اكوادور - بوليفيا - الارجنتين - أوروجواي - فنزويلا .

أولا : بيرو وحضارة الأنكا .

تقع بيرو Peru فى نصف العالم الجنوبى ، وهو وحده سبب كاف لكى يجعلها بعيدة عنا تماما، لكنها تقع أيضا على الساحل الغربى (المطل على المحيط الهادى) لأمريكا الجنوبية - وهو مما يزيد فى بعدها عنا . ولا يبعد أكثر منها عن مصر سوى شيلى التى تقع على نفس الساحل الغربى المطل على المحيط الهادى جنوبى بيرو . ويحد بيرو شمالا جمهورية الاكوادور التى يقسمها تماما خط الاستواء، ويحدها شرقا البرازيل وبوليفيا . والصفة الغالبة على بيرو أنها تمتد رأسيا مسافة طويلة جدا فى شكل شريط ساحلى صحراوى يتراوح عرضه ما بين ١٦٠ كيلو مترا و ١٦ كيلو مترا يمتد من اكوادور شمالا حتى حدود شيلى جنوبا ويحده شرقا سلسلة جبال الانديز التى يصل ارتفاعها إلى أكثر من ثلاثة آلاف متر فى مواقع كثيرة .. وتقع الغابات الأمازونية

البيرونية شمال وشرقى جبال الأنديز هذه أى أن بيرو تنقسم جغرافيا إلى : الشريط الصحراوى الساحلى الذى يسكنه أغلب أهالى بيرو وعددهم عشرون مليون نسمة، ثم إلى جبال الأنديز التى يسكنها ١٥ - ٢٠٪ من السكان ثم إلى الغابات الأمازونية قليلة السكان اللهم فيما عدا بعض قبائل هندية متأخرة، وهى التى تفصل بيرو عن البرازيل .. ومساحة بيرو تفوق مساحة القطر المصرى بأكمله ..

ويشكل الهنود «الحمر» الذين يقطن أغلبهم في الأراضى المرتفعة (هضاب ووديان جبال الانديز) ٤٥ فى المائة من السكان فى حين أن الجنس الأبيض الخالص سلالة الغزاة الاسبان لا يزيد تعداده عن ١٥٪ من السكان (أما البيروانيون المخلطون Mestizos نتيجة اختلاط البيض بالهنود أو بالأقلية الافريقية السوداء فهم يمثلون ٣٧٪ من الشعب، والبقية الباقية أى ٣٪ تمثل الأقلية الافريقية السوداء .. ويزيد من غرابة بيرو وصعوبة وضعها الاجتماعى أن ثلث سكانها لا يعرفون اللغة الاسبانية وإنما يتكلمون لغة هندية قديمة اسمها كيتشوا Quechua ، وكلا اللغتين الاسبانية والكتيشوا تعتبر لغة رسمية ، كما توجد لغة هندية أخرى اسمها ايمارا Imara أقل انتشارا من الكيتشوا ....

أما الشريط الساحلى الصحراوى فيشابه إلى حد كبير طبيعة التربة المصرية من حيث قلة هطول الأمطار على تلك الصحارى الا أنه

يتميز بوجود عدة أنهار صغيرة تستمد مياهها من جبال الانديز العالية وتصب فى المحيط الهادى وقد قامت حولها زراعات كثيفة تماثل كثافة الزراعة فى وادى النيل مع الفارق الضخم بين حجم النيل العظيم وصغر تلك الانهار البيروانية .. الا أن التشابه المناخى وتشابه التربة أدى إلى قيام تشابه فى محاصيل البلدين .. فقد أدى نظام الرى البيروانى حول تلك الأنهار في الشريط الساحلى إلى ازدهار زراعة القطن وهو يشابه القطن المصرى طويل التيلة Pima cotton إلى حد ما . كذلك تقوم فى ذلك الشريط الساحلى الصحراوى زراعة بعض ألوان الفاكهة التى يشتهر بها وادى النيل لتشابه الظروف المناخية والتربوية ومنها الموالح والبطيخ وقصب السكر . ولا يقف التشابه بين البلدين عند هذا الحد ، فان الأراضى الزراعية فى مصر والتى تتمثل فى وادى النيل ٤٪ من مساحة مصر فقط وفى مقابل ذلك فان الاراضى الزراعية فى بيرو تمثل ٣٪ من رقعة بيرو . لكن فى حين تمثل الصحراء ٩٦٪ من مساحة مصر لباقية فان الغابات الأمازونية تمثل نصف مساحة بيرو (والباقى تحتله جبال الانديز) وهو ما يجعلها دولة ذات امكانيات زراعية واقتصادية كبيرة .. فهى تنتج من المعادن النحاس والرصاص والفضة والزنك والحديد والبترول (وتصدر البترول أيضا) والتى توجد بكثرة فى باطن الأرض إما فى جبال الانديز أو فى الغابات الامازونية، وذلك إلى جانب البن الذى تشتهر به بيرو وكولومبيا والبرازيل من دول امريكا اللاتينية.

كذلك تشتهر بيرو بتصدير مخلفات الطيور البحرية Guano Fish-meal التى تستخدم كسماد قوى والتى توجد بكثرة فوق جزر بيرو القريبة من الساحل فى المحيط الهادى، وتعيش تلك الطيور البحرية على الأسماك الكثيرة التى يحملها إلى سواحل بيرو تياران بحريان هما تيار همبولت البارد القادم من القطب الجنوبى وتيار Nino نينيو الحار القادم من خط الاستواء .. ويصطدم التياران البارد والساخن أمام سواحل بيرو مما يؤدى إلى توافر الأسماك والطيور من ناحية ومن ناحية أخرى إلى ازدياد الرطوبة فى الجو زيادة تجعل مناخ قطاعات ساحلية منها ليما عاصمة بيرو أقرب إلى مناخ اسكتلندا والجزر البريطانية.. فتتكاثر السحب المنخفضة وتحجب الشمس شهور الشتاء بأكملها لكن لا ينزل المطر الا الخفيف أحيانا بالليل أو بالاحرى تظل ذرات المياه عالقة فى الهواء لا تستطيع الهطول لخفتها ويسمونها بالاسبانية llovisna

لكن الأمطار الغزيرة تهطل بالذات على جبال الانديز وفوق الغابات الامازونية .. وعلى منحدرات جبل الانديز الشرقية المؤدية إلى الامازون حيث تكثر زراعة البن والغلال إلى جانب المراعى الوفيرة وتؤدى كثرة تلك الأمطار بالاضافة إلى ذوبان الثلوج من فوق جبال الانديز وإلى توافر مساقط المياه بدورها إلى انتاج ١١ بليون كيلو وات من الكهرباء.

انتاج مصر من الكهرباء حوالى ١٧ بليون كيلو وات ساعة من

الكهرباء بما فيها كهرباء السد العالي – وفي حين تنتج بيرو ٤٠٠ ألف طن متري من الصلب سنويا فإن إنتاج مضرفيه يبلغ ٩٠٠ ألف طن متري وفي حين يبلغ جملة الناتج الاجمالي الداخلي في بيرو .G.D.P ١٦ بليون دولار سنويا فإن الناتج الاجمالي في مصر في مقابل ذلك ٢٣ بليون دولار سنويا .. ويتفق تفاوت هذه النسب إلى حد كبير مع نسبة تعداد بيرو إلى تعداد مصر ٢٠ : ٥٥ مليونا – لكن يبلغ متوسط الدخل للفرد في بيرو ٧٠٠ دولارا سنويا ويبلغ متوسط دخل الفرد في مصر ٦٨٦ دولارا سنويا. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن نصف سكان بيرو من الهنود الحمر يعيشون على هامش المجتمع والاقتصاد البيرواني فان معنى ذلك أن الفارق الطبقي والاقتصادي بين أفراد الطبقة الثرية المنعمة في بيرو وبين السواد الأعظم من الأهالي الهنود أوسع كثيرا من مثيله في مصر .. فأغنياء ليما وبقية المدن الكبرى يعيشون عيشة شديدة الترف ينعمون بالسكن والرياش الفاخر وتكاد حمامات السباحة الخاصة توجد إلى جانب كل فيلا في ليما العاصمة بالاضافة إلى سيارتين أو ثلاث تزين الحدائق الغناء حول الفيلات ..

وهنا تكمن أهم أسباب القلق وعدم الاستقرار والعنف السياسي والاجتماعي المتفشي في بيرو (١) هذه الأيام ومنذ السنوات القليلة الماضية . وإذا أردنا تبسيط هذه الظاهرة لأمكننا أن نقول أن بيرو

---

(١) هذه ليست ظاهرة بيروانية فقط وإنما هي شديدة الانتشار في شتى أنحاء أمريكا اللاتينية .

اجتازت أولى ثوراتها «السياسية» ونالت استقلالها من أسبانيا منذ مائة وسبعين عاما .. لكن مازالت تعانى مخاض ولادة ثورتها الاصلاحية الاجتماعية ومازالت تلك «الثورة الاجتماعية» أبعد ما تكون عن التحقيق .. أما إذا أردنا تحليلا أكثر شاعرية وورومانسية لما حدث ويحدث فى بيرو (وغيرها من جمهوريات أمريكا اللاتينية) فيمكننا القول بأنه مازال على المستعمرين الأسبان البيض أو بالأحرى على سلالتهم أن يدفعوا ثمن ما أتاه أسلافهم فى حق الهنود الحمر منذ الفتح الأسبانى لبيرو سنة ١٥٣٢ وحتى الآن من ظلم واستبداد واهمال .

فعندما غزا فرنسيسكو بيزارو بيرو سنة ١٥٣٢ ، كانت امبراطورية الانكا قد جاوزت قمة مجدها وبدأت عهد الاضمحلال بعد ثمانمائة عام من العزة والمجد. كانت امبراطورية الاينكا (وعاصمتها مدينة كوسكو Cusco جنوبى بيرو وهى حاليا من أهم مدن بيرو) قد اتسعت لتشمل كل بيرو وبوليفيا والاكوادور وأجزاء من كولومبيا وشيلى والارجنتين !! وكانت الامبراطورية ذات تنظيم اجتماعى راق ، وكانت تتفوق فى صناعات المنسوجات وفنون البناء .. وقد شيدت عمائر راقية فى كوسكو، وحصون ومدن قوية فى ماتشوبتشو Machu Pichu المدينة التاريخية الشهيرة فى أمريكا الجنوبية .. وعندما بدأ بيزارو غزوه لبيرو باسم ملوك أسبانيا كانت الحروب الأهلية قد اضعفت من أمبراطورية الإنكا والشعوب الأخرى الخاضعة لها (ومنها شعوب

بيروانية هى Chavin - Moche - Chimu- Paracas – Nazca والتى ازدهرت حضاراتها فى بيرو منذ القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر عندما وطئت أقدام الأسبان أرض بيرو) .

وقد فتك الأسبان فتكا سريعا بأعداد هائلة من الهنود من تلك الشعوب بفضل تفوق أسلحتهم .. وأعاد بيزارو ما سبق لزملائه من الغزاة أن فعلوه في المكسيك ، فقد أعدم آخر ملوك الإنكا رغم أنه افتدى نفسه بملء غرفة بأكملها بالمصاغ الذهبى والفضى وسبائك الفضة والذهب ، وانتهت تماما امبراطورية الإنكا ومقاومتها للأسبان سنة ١٥٣٧ . وأقام الأسبان الغزاة جسرا من الذهب والفضة امتد من بيرو والمكسيك إلى مدريد ، حيث كان قد تم اكتشاف مناجم غنية بالفضة(١) فى Potosi بيرو ، وفى كولومبيا وفى المكسيك . وقد ثارت شعوب الهنود الحمر أنفة الذكر فى بيرو ضد طغيان واستبداد الغزاة الأسبان مرارا أهمها كانت ثورتهم خلال عامى ١٧٨٠ – ١٧٨١ لكن الغزاة الاسبان سادة بيرو وسلالتهم قضوا على تلك الثورات بقسوة ووحشية اضعفت من عزيمة الهنود الحمر وجعلتهم أكثر استكانة واستسلاما لقضاء الله وجبروت الأسبان بعد ذلك..

وقد ثار الرجل الأبيض فى أمريكا اللاتينية الخاضعة لحكم الأسبان بعد ذلك ضد نظام الحكم الأسبانى نفسه .. فقد استولى الجنرال سان

---

(١) مازالت بيرو إلى يومنا هذا تشتهر بانتاج الفضة وصناعتها وهناك مصانع كاموسو Camuso الشهيرة فى ليما التى تنتج أجود المصنوعات الفضية .

مارتين محرر الارجنتين ، على ليما عاصمة بيرو وهزم الجيش الاسبانى وأعلن استقلال بيرو سنة ١٨٢١ .

لكن لم يستتب الأمر لبيرو المستقلة إلا سنة ١٨٢٤ بعد سلسلة أخرى من الهزائم التى منيت بها اسبانيا على يد رفاق سان مارتين، أى الجنرالين سيمون بوليفار وسوكرى Sucre (١) . وبهذا أتمت بيرو أولى مراحل ثورتها السياسية .. لكنها لم تستكمل تلك الثورة السياسية حتى بعد قيام سلسلة متواصلة من الانقلابات العسكرية قام بها جنرالات الجيش البيروانى الواحد تلو الآخر .. إلى أن قامت حرب الباسيفيكى سنة ١٨٧٩ - سنة ١٨٨٣ ما بين بيرو وبوليفيا من ناحية ضد شيلى من ناحية أخرى بسبب الخلاف على الحدود وانتصرت شيلى انتصارا ساحقا على بيرو وبوليفيا (شيلى دولة بيضاء ٩٧٪ فى حين أن بيرو بيضاء ١٥٪ وبوليفيا ١٠٪ فقط) واستولت شيلى على مناطق من جنوب بيرو (غنية بنترات الجير «الشيلى» الطبيعى) كما انتزعت من بوليفيا ممرها الوحيد إلى المحيط الهادى وجعلت منها دولة مقفلة، مازالت تطالب شيلى حتى اليوم بمنحها ممرا إلى المحيط ..

لكن كانت عيون البيروان الاذكياء الليبراليين مثبتة منذ سنة ١٩٢٤ على وجوب ولوج باب الاصلاحات الأجتماعية سريعا درءا لأخطار

(١) سيمون بوليفار محرر بيرو وكولومبيا وفنزويلا . أما سوكرى فهو محرر اكوادور ومازالت عملة الاكوادور تلقب بالسوكرى . أما بوليفيا فهى نسبة إلى الجنرال سيمون بوليفار .

التفاوت الشاسع بين مجتمع بيرو الابيض الصغير والمجتمعات البيروانية الأخرى فى القاعدة العريضة هندية كانت أو مختلطة .. ففى بيرو إلى يومنا هذا أكثر من مجتمع واحد ، بل مجتمعات ثلاثة يعيش كل منها فى عزلة عن الآخرين ، ويفرق بينها الهوة الاقتصادية أولا ، ثم الهوة الثقافية والاجتماعية والهوة اللغوية . ولم تحسم ثوراتها أو انقلاباتها السياسية هذه الأوضاع اذ لم تسفر إلا عن استقلال طبقة بيضاء صغيرة منعمة بحكم بيرو مع استمرار أحوال الهنود والمخلطين على ما كانت عليه من فقر وجهل ومرض وانعدام فرص التقدم والترقى...

ومن هنا كان راؤول هايادى لاتورى Raul Haya de la Torre من أوائل المفكرين اللاتينيين عامة والبيروانيين خاصة الذين تقدموا ببرنامج اصلاحى اجتماعى واسع المدى ، اشتراكى المضمون ، منذ سنة ١٩٢٤ لمحاولة درء أخطار استمرار تلك الهوة السحيقة سالفة الذكر . وقد كان هايادى لا تورى مؤسس Alianza Popul Rev-olucionaria Americana : (A.P.R.A.) حزب الابرا أى الاتحاد الشعبى الثورى الامريكى : من أوائل المفكرين الاشتراكيين فى أمريكا اللاتينية فى وقت لم تكن دعوته للاشتراكية تثير إلا الشك والريبة ومخاوف الحكام الرجعيين فى بلده والبلاد المحيطة .

ومن ثم فقد نال هايادى لاتورى الكثير من ألوان الاضطهاد والتشريد والتصفية . واستمرت سيطرة الطبقات الرجعية الغنية والحكومات التى تمثل الاقلية البيضاء البيروانية الثرية الحاكمة إلى أن

قام انقلاب عسكرى سنة ١٩٦٨ - ضد حكومة الرئيس فرناندو بيلاوند تيرى - أدى إلى قيام أول ثورة عسكرية اشتراكية بقيادة الجنرال خوان فيلاسكو الفارادو Juan Velasco Alvarado ومن حوله من كبار الضباط فى بيرو .

وهنا يبرز وجه شبه جديد بين بيرو ومصر عبد الناصر .. فقد أدخلت تلك الحكومة الاشتراكية العسكرية اصلاحات زراعية واسعة تضمنت توزيع بعض الملكيات على المزارعين المعدمين وانشاء مؤسسات زراعية تعاونية، كما تضمنت تأميم البنوك وصناعة البترول والمناجم وصناعة صيد الأسماك وجمع وتسويق مخلفات الطيور البحرية .

وكانت تلك الحكومة الاشتراكية الاتجاهات أول حكومة لاتينية تأخذ بمبدأ عدم الانحياز من دول أمريكا اللاتينية فانضمت إلى حركة عدم الانحياز وعقد فى ليما عاصمة بيرو أول مؤتمر لعدم الانحياز فوق أرض أمريكا اللاتينية سنة ١٩٧٥ .

لكن لم تتح الفرصة لأعضاء حزب الأبرا .A.P.R.A للمشاركة فى تلك الحكومة «العسكرية» بغض النظر عن ميولها واتجاهاتها الاشتراكية .

وما لبث أن أصيبت تلك الثورة الاشتراكية الفتية بنكسة طارئة سببها انفجار العنف العمالى وانتشار الاضطرابات بسبب زيادة

الأسعار ونقص الطعام مع زيادة التضخم وحجم الديون الخارجية.. وقد أدى ذلك إلى قيام حركة عسكرية مضادة يمينية الاتجاهات فى ١٩٧٦/٨/٢٩ بقيادة أحد معاونى الجنرال الفارادو .. وفي عهده خفتت أصوات الاشتراكية وغض النظر عن كثير من البرامج الاصلاحية الاشتراكية السابقة .. قد يذكرنا هذا بعهد أنور السادات بعد وفاة عبد الناصر ..

واستمرت الحكومات العسكرية أذن منذ سنة ١٩٦٨ إلى سنة ١٩٨٠ بشقيها الأول الاشتراكى ثم الثانى اليمينى أو يمين الوسط المعتدل إلى أن سلم الضابط الزمام إلى المدنيين الذين أعادوا «هيكل» الحكم الديمقراطى الخارجى سنة١٩٨٠ .

وقد جاءت محاولات الاصلاح الاجتماعى الاشتراكى متأخرة كثيرا ولم تتح لها فرصة تعميق جذور الاصلاحات فحدثت الردة اليمينية وعادت البلاد إلى ممارسة الشكل الخارجى أو الهيكل الخارجى للحكم الديمقراطى دون المضمون الديمقراطى وكفالة العدالة الاجتماعية . فبدأت موجات العنف الثورى منذ سنة ١٩٨١ واستمرت خلال السنوات اللاحقة على يد جماعات ثورية ماوية Maoist (متطرفة) الميول .. وقد شجع ذلك على فوز حزب الابرا APRA فى الانتخابات الرئاسية والبرلمانية سنة ١٩٨٥ ففاز الاشتراكى الشاب آلان جارسيا برئاسة الجمهورية فى وقت كانت بيرو فيه تواجه أشد الأزمات الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية .. وسمع العالم لأول مرة عن ثوار حركة El Sendero Luminoso أى الطريق المنير أو الدرب المنير الذى لم يكن فى نظر أعضاء تلك الحركة سوى أقصى اليسار الماركسى .. وسيلة إلى إصلاح ما أفسدته أجيال طويلة من الإهمال والقهر والظلم .

هذه هى جمهورية بيرو التى قصدناها - زوجتى وأنا - نقلا من لندن فى يوليو ١٩٧٣ .. أقلتنا الباخرة الايطالية من ميناء برشلونة فى أسبانيا مرورا بفونشال عاصمة جزر الازوريز البرتغالية ثم ميناء لاجوايرا فى فنزويلا ثم مروراً بقناة بنما التى قادتنا من المحيط الاطلسى إلى المحيط الهادى وسط ادغال وأحراش مدارية كثيفة . وبعد أن عبرنا عدة أهوسة بسبب تفاوت الارتفاع بين جبال ووديان المنطقة رست باخرتنا بعض يوم فى ميناء بوينا فنتورا فى كولومبيا على المحيط الهادى ثم أخيرا فى ميناء كاياو Callao وهو ميناء مدينة ليما عاصمة بيرو (رغم أن ليما تقع على البحر إلا أن ميناءها هو كاياو ويفصلهما مسافة خمسة عشر كيلومترا تقريبا).. وكان أعضاء سفارتنا فى ليما فى انتظارنا فى الميناء وبصحبتهم المرحوم محمد جابر ، المصرى الوحيد فى بيرو وكان يملك إحدى وكالات الشحن والتفريغ فى الميناء .

كانت أولى المهام التى واجهتنا بعد وصولنا البحث عن مسكن جديد للسفير حيث أن المسكن القديم المخصص للسفير لم يعد مناسبا فقد كان يطل على جانب من كورنيش ليما فى حى ميرافلوريس لكن ذلك الحى لم يعد فى السنين الحديثة مقر السفارات ومساكن السفراء وافتتح مطعم كبابجى أمام دار سفارتنا .. وقد استمر بحثنا شهورا عديدة إلى أن وفقنا إلى سكن آخر مخصص للسفير فى حى السفارات الأنيق SAN Isidro .. وبمجرد انتهاء عقد الدار القديمة انتقلت دار سكن السفير المصرى إلى العنوان الجديد ..

وصلنا ليما أواخر يوليو ١٩٧٣ .. وقمت بزيارة مدير المراسم فى الخارجية البيروانية مثلما جرت العادة فى مقر وزارة الخارجية فى قصر اسبانى قديم يسمى La Torre Tagle فى ليما القديمة ، وهو قصر صغير يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر .. ثم حدد لى موعد الزيارة وزيرالخارجية الجنرال فيجيل انخيل لافلور بالى Miguel Angel dela Flor Valle ثم وكيـــل الـــوزارة الأول Carlos Qarria Bedoya وبقية كبار موظفى الوزارة .. كذلك زرت عميد السلك الدبلوماسى زيارة المجاملة التقليدية وكان - كما هى العادة فى البلاد الكاثوليكية - مندوب الكرسى البابوى .. وقد جرت العادة على عدم زيارة بقية السفراء الاجانب إلا بعد تقديم السفير الجديد لأوراق اعتماده

إلى رئيس الدولة .. ومن ثم يمكنه مزاولة أعماله الرسمية ومنها بدء الزيارات إلى أعضاء السلك الدبلوماسى وبقية الوزراء وكبار المسئولين .

وقد حدد لى موعد فى أغسطس لتقديم أوراق اعتمادى إلى رئيس الجمهورية الجنرال خوان فيلاسكو الفارادو قائد ثورة الجيش (الاشتراكية) ، منذ سنة ١٩٦٨ . ويشبهه البيروان «بعبد الناصر بيرو».

وصلت إلى قصر رئاسة الجمهورية فى ليما التاريخية وهو قصر قديم منيف شامخ فى الميدان الرئيسى المتسع Plaza Major فى ليما التاريخية أى ليما التى بناها المستعمرون الاسبان الأول على الطراز الكلاسيكى القديم Stilo Colonial وتجاوره كاتدرائية ليما الرئيسية أيضا والتى شيدت على نفس طراز المشربيات .. وكما جرت العادة فقد وصلت وأعضاء سفارتى إلى ذلك القصر فى سيارات رئاسة الجمهورية التى تقل السفراء يوم تقديمهم لأوراق اعتمادهم من مقر سكنهم إلى القصر الجمهورى ثم تعود بهم فى نفس مظاهر الحفاوة والأبهة الرسمية إلى مقر سفارتهم .. وكان يصحبنى كما جرت العادة هيئة السفارة وكانت مكونة من مستشار وسكرتير ثان وسكرتير ثالث وملحق ادارى أى أنها كانت سفارة «متوسطة الحجم» ..

وكانت هذه أول مرة أقدم فيها أوراق اعتمادى كسفير لمصر .. ومن ثم فقد كانت تجربة جديدة بالنسبة لى ..

حقا لقد سبق لى أن شاركت - باعتبارى عضو هيئة سفارات مصرية - فى تقديم بعض سفراء مصر لأوراق اعتمادهم وكنت بطبيعة الحال فى موقف المشاهد لكن هذه المرة كنت ألعب الدور الرئيسي .. والمشاعر التى تصحب كلاً من الدورين مخالفة تماما .. فعند وصولنا صحبنى مدير المراسم لتفقد حرس الشرف من الحرس الجمهورى الذى اصطف تحية لى .. أما زملائى باقى أعضاء السفارة فقد وقفوا بعيدا فى انتظار انتهائى من تفقد حرس الشرف .. وعزفت موسيقى الحرس الجمهورى البيروانى السلامين الوطنيين المصرى والبيروانى.. وأثناء عزف السلام المصرى كنت ارتجف من فرط التأثر وهو شعور لم يسبق لى أن عهدته من قبل فقد كانت تجربة جديدة تماما بالنسبة لى .. وقد تكررت هذه التجربة بعد ذلك عند تقديمى لأوراق اعتمادى سفيرا لمصر فى ايطاليا ثم اثيوبيا ثم استراليا ثم فيجى (١) ، وعزفت موسيقى الحرس فى كل تلك العواصم السلام الجمهورى المصرى تحية لسفير مصر لكن تأثرى بها أول مرة فى ليما كان بطبيعة الحال أقوى وأشد من المرات اللاحقة ..

---

(١) هذه التجربة تطبق فى مراسم تقديم السفراء لأوراق اعتمادهم لدى جميع الدول المستقلة ، فيما عدا عند تقديم أوراق اعتماد السفراء فى الأمم المتحدة لسكرتير عام الأمم المتحدة فهذه المراسم محدودة ولايتخللها عزف السلام الوطنى ولا حرس الشرف الخ...

ثم صحبنى مدير المراسم داخل أبهاء القصر الرخامية الأنيقة، يتبعنا على بعد عدة خطوات منا موظفو المراسم البيروانية وأعضاء السفارة المصرية، متجهين إلى مكتب الرئيس الجنرال خوان فيلاسكو الفارادوا ، قائد ثورة بيرو العسكرية ورجلها القوى .. والمرادف للرئيس عبد الناصر بالنسبة للبيروانيين .. ودعانى مدير المراسم وحدى إلى دخول مكتب الرئيس وأغلق الباب ورائى من الخارج ..

ولما ولجت مكتب الرئيس وجدته جالسا إلى مكتبه . مكتب صغير أو متوسط الحجم فى حجرة عادية متوسطة الحجم جدرانها مبطنة بالأخشاب – اذ لم يستقبلنى فى إحدى قاعات الضيافة الكبرى الرسمية التي يحفل بها القصر .. لكنه كان يفضل استقبال السفراء فى غرفة عمله اليومية، أى غرفة مكتبه .. وقد استقبلنى باسما وقد هم بالنهوض ومعتذرا ، بالاسبانية، عن عدم قيامه لاستقبالى بسبب حالته الصحية (إذ كان قد فقد إحدى رجليه فى حادثة منذ سنوات واستبدلها برجل خشبية صناعية مما جعل حركته صعبة وثقيلة) ...

كنت فى تلك الأثناء أحاول أن اتفقد ما حولى بسرعة وانطبع فى ذهنى وجود لوحة خشبية بنية اللون كانت على مكتب الرئيس وقد كتب عليها بالأسبانية «الرئيس الجنرال قائد الفرقة خوان فيلاسكو الفارادوا». وكان الرئيس مرتديا زيه العسكرى كعهده أبدا .. وما أن انتهيت من قراءة تلك اللوحة إلا ووجدت الرئيس يرحب بى ويدعونى إلى

الجلوس قرب المكتب قائلا باسما : «لاتهاب الموقف يا سيادة السفير فأنا صديق لبلدك وكنت معجبا بمبادىء وسياسات الرئيس ناصر».. والواقع أن تلك الكلمات جاءت فى محلها فقد كانت تلك أول مرة أقدم فيها أوراق اعتمادى سفيرا لبلادى إلى رئيس دولة أجنبية ولا أنكر أنى كنت مازلت متأثرا من جراء عزف السلام الوطنى المصرى تكريما لوفادتى ومن رهبة الموقف ..

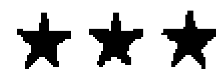
وقد استمر حديثى مع الرئيس خوان فيلاسكو الفارادوا أكثر من عشرين دقيقة، بالأسبانية بطبيعة الحال ، قدمت إليه فيها خطاب اعتمادى وأكدت له عزمى على بذل قصارى جهدى لتعزيز العلاقات الطيبة بين بلدينا .. وسألنى فيها عن تاريخ حياتى وأحوال مصر وسياساتها وعن أحوال سفارتى متمنيا لى التوفيق فى مهمتى الجديدة مؤكدا تعاطفه وتعاطف حكومته مع سياسات مصر وأمانيها .. وقد وجدته لطيفا رقيقا عطوفا عكس سمعته الخارجية فى بيرو كالرجل القوى الذى قاد ثورة الجنرالات والذى يسيطر على مقادير عشرين مليون بيروانى .. لكنى لم أدهش لذلك فإن تجاربى الشخصية تشير كلها إلى أن لكل منا أكثر من «شخصية واحدة» وأن الظروف والمناسبات هى التى تظهر جانبا معينا من جوانب شخصياتنا المركبة ..

بعد ذلك بدأت زياراتى التقليدية إلى أهم الوزراء البيروانيين، وزراء الدفاع والداخلية والتجارة الخارجية إلى جانب وزير الخارجية بطبيعة الحال وكانوا كلهم من العسكريين ثم سفراء الدول الاجنبية حسب ترتيب

أقدمياتهم .. ولم يكن فى بيرو أى سفير دولة عربية أخرى إنما كان هناك «قنصل فخرى» لبنانى ، وبعد ستة شهور وصل أول قائم بأعمال لسفارة الجزائر لافتتاح سفارة للجزائر فى بيرو اذ أن الدولتين أصبحتا وثيقتى الصلة فى حركة عدم الانحياز .. وقد خرجت من زياراتى لسفراء الدول الاجنبية الاقدم منى عهدا فى بيرو بحصيلة طيبة من المعلومات عن ثورة الجيش الاشتراكية فى بيرو وعن رجالها الأقوياء وعن اتجاهاتها ومشاكلها وعلاقاتها الصعبة مع الولايات المتحدة بسبب انضمامها إلى حركة عدم الانحياز كأول دولة لاتينية تجرؤ على الخروج على سياسة الولايات المتحدة التقليدية .. وقد ضمنت تلك الحصيلة تقارير عديدة إلى وزارة خارجيتنا بدلا من أن اكتفى بجعل تلك الزيارات مجرد زيارات مجاملة شكلية . وقد كررت هذه التجربة بعد ذلك فى روما وأديس ابابا وكانبرا ..

كنت ادرك بطبيعة الحال أن اهتمامات مصر ببيرو ليست كبيرة الحجم فإن بيرو دولة تبعد عن مصر كثيرا جغرافيا وسياسيا وتجاريا ولا يجمعها بمصر سوى انتماءاتنا إلى حركة عدم الانحياز وما تردد عن تأثر حركة الجيش الاشتراكية البيروانية ببعض سياسات واتجاهات عبد الناصر .. لكنى ركزت فى تقاريرى على عدة محاور أساسية ومهمة فى سياسات بيرو الخارجية منها علاقات بيرو بالعملاقين أو الدولتين العظميين ، ومدى نفوذ كل منهما فى بيرو ومدى انتشار أفكار عدم الانحياز فى بيرو وجيرانها ، ومستقبل الاصلاحات الاجتماعية

الاشتراكية في بيرو والقارة اللاتينية التى تتقاسم هى وبيرو نفس المشاكل تقريبا . وإلي جانب ذلك اهتممت كثيرا بتوطيد علاقاتى وعلاقات سفارتى بالجاليات العربية فى بيرو . حقا لم يكن بها سوي مصرى واحد .. لكن كان بها آلاف بل عشرات الآلاف من اللبنانيين والسوريين .. وكانوا متعطشين لوجود سفارة عربية يلتفون حولها وترعى شئونهم ومصالحهم حتى لو لم تكن سفارة لسوريا أو لبنان .. وجاءت حرب أكتوبر ٧٣ فزادت من روابطهم والتفافهم وتأييدهم لسفارة مصر ولسفيرها ..



قدمت أوراق اعتمادى إلى رئيس بيرو مثلما سبق القول فى أغسطس ١٩٧٣ .. وما لبثت أن فاجأتنا حرب ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فقد تلقت سفارتنا فى بيرو يوم ٧ - ٨ أكتوبر برقية من وزارة الخارجية تفيد باستدعائى للقاهرة وندبى بها مدة شهرين والتصريح لى باصطحاب زوجتى معى أثناء تلك المدة ..

انقسم أعضاء سفارتى ما بين قائل بأن قيام حرب أكتوبر قد ألغى تعليمات الوزارة باستدعائى أى أن الاستدعاء حدث قبل قيام الحرب وأن من شأن قيامها ابقاء كل السفراء فى مواقعهم ، وما بين قائل بأن استدعائى إنما تم في ضوء قيام الحرب أو بسببها .. ومن ثم يجب تنفيذ الاستدعاء ..

اتصلت بوزير خارجيتنا المرحوم الدكتور محمد حسن الزيات وكان وقتئذ في نيويورك لحضور جلسات الجمعية العامة ومجلس الأمن.. فاخبرني الوزير بأنه لا يعلم شيئا عن ذلك الموضوع .. لكن ما دامت الوزارة قد استدعتني فلابد من التنفيذ .. وعلى بركة الله ..

لكن فى تلك الأثناء أى يوم ٨ أكتوبر نفسه اتصل بنا مدير التليفزيون البيروانى قائلا أن بلاده وكل الشعب مهتم أشد الاهتمام بمتابعة الحرب بين مصر واسرائيل ومعرفة دوافعها وأهدافها ومن ثم فان التليفزيون قرر تقديم برنامج تليفزيونى يتيح لكل من سفير مصر وسفير اسرائيل ايضاح وشرح وجهات نظر بلديهما أمام الشعب والحكومة البيروانية على شاشة التليفزيون وذلك يوم ١٢ أكتوبر ١٩٧٣.. وبعد مشاورة زملائى أعضاء السفارة قررنا ضرورة قبولنا لتلك الدعوة بشريطة ألا نجلس سويا - سفير إسرائيل وسفير مصر - فى غرفة واحدة وإنما فى غرفتين منفصلتين فى مبنى التليفزيون البيروانى أثناء تقديم ذلك البرنامج .. وقد وافق مقدمو البرنامج على ذلك كما وافق سفير اسرائيل .. واتفق على أن يوجه عدد من كبار الصحفيين البيروانيين اسئلتهم إلى كل منا على حدة وأن يجيب عليها كل منا لمدة ٤٥ دقيقة .. وباللغة الاسبانية بطبيعة الحال ..

كان سفير اسرائيل يجيد الحديث بالأسبانية ولعله كان من أصل أرجنتيني كما كنت قد أصبحت بعد فترة عملي فى كولومبيا وتليها المكسيك قادرا على الحديث بطلاقة بالاسبانية بالمثل.. ولم يكن برنامجا

سهلا فقد كان على كل منا أن يواجه الصحافة قرابة ٤٥ دقيقة. وعلى أى حال فقد قررت وزملائى ارجاء سفرى إلى القاهرة إلى ما بعد ذلك البرنامج التليفزيونى يوم ١٢/١٠/١٩٧٣ مقدرين أن ذلك البرنامج كان من الأهمية السياسية والإعلامية لسفارتنا ولمصر بل وللعالم العربى بأكمله بحيث يستأهل تأجيل السفر أربعة أيام .

وقد تم البرنامج وفقا للنظام الذى اقترحناه .. وبدأوا بتوجيه الأسئلة إلى سفير اسرائيل الذى أجاب عليها على مدى خمس وأربعين دقيقة .. فبكى وتباكى شارحا كيف أنه فقد ابنه أول يوم من أيام المعارك وألقى اللوم على مصر لبدئها «العدوان» على اسرائيل وطالبها بوقف القتال والانسحاب إلى المواقع الأولى قبل يوم ٦/١٠ مؤكدا رغبة اسرائيل فى السلام مع مصر وقبولها للتفاوض معها .. إلى آخر حجج اسرائيل المعروفة عن رفض مصر والعرب للتفاوض والسلام مع اسرائيل منذ ١٩٤٨ ..

لكن موقف مصر كان أكثر قوة وعدالة وأشد اقناعا.. وكان سهلا على أى مصرى يجيد الحديث بالاسبانية أن يسفه حجج سفير اسرائيل ويرد سلاحه إلى نحره ! فقد كان يكفينى أن ابرز أن المعارك الدائرة فى تلك الاثناء إنما تدور على أرض مصرية (وليست اسرائيل) أرض تحتلها اسرائيل قسرا وعدوانا منذ سنة ١٩٦٧ .. وكيف أن اسرائيل لم تستجب لقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة بالانسحاب من الأراضى العربية التى تحتلها سواء فى مصر أو فلسطين أو سوريا

فى ضوء قرار مجلس الأمن القاضى بعدم شرعية احتلال الأراضى بالقوة وكيف أن اسرائيل افشلت مهمة يارنج وغيره من الوسطاء وأنها تحدت قرارات الأمم المتحدة واقفلت الباب أمام الحل السلمى كما أوصى به المجتمع الدولى متمثلا فى الأمم المتحدة بحيث لم يعد أمام مصر من سبيل سوى اللجوء إلى «حرب تحريرية» غرضها تحرير التراب المصري من احتلال اسرائيلى غير مشروع دام ست سنوات .. وإذا كانت اسرائيل قد استجابت لتوصيات الأمم المتحدة لما كان هناك ضرورة لحرب تحريرية ، ولما كانت اسرائيل تقف اليوم ذلك الموقف . «بسبب عدوانها وتحديها للمجتمع الدولى» أما مصر فليست بمعتدية لأن المعارك إنما تدور على أرضها ضد قوات احتلال اسرائيلية .. وإذا ما انسحبت اسرائيل من سيناء المصرية لكفت المصريين القتال .. ولكفت نفسها مشقة البكاء والتباكى ..

واستعرضت عدوان اسرائيل وظلمها الصارخ للفلسطينيين الذين طردتهم اسرائيل من أراضيهم وأراضى أجدادهم وأسلافهم كيف أنها تعامل من بقى منهم تحت احتلالها معاملة المواطنين من الدرجة الثانية وأنه طالما استمرت سياسة اسرائيل العدوانية هذه فانها لن تظفر إلا بعداء الشعوب العربية بطبيعة الحال .

أحسست بنهاية البرنامج انى قد أديت دورى بما أرضى ضميرى .. لكنى لم أكن أتوقع عند خروجى من مبنى التليفزيون أن ألقى عشرات

من البيروانيين من أصل سوري ولبناني وفلسطيني كانوا ينتظرون خروجي ليحتفوا بي وليهنئونني على حسن أدائي .. واحتشدوا من حولي مصافحين أو معانقين.. ورافقني جمع كبير منهم إلى دار سفارتي في موكب ضم عدة سيارات . وقد زادت هذه المناظرة التليفزيونية من التفاف الجاليات العربية في بيرو حول السفارة المصرية وحول سفير مصر . واستمر الحال على هذا المنوال إلى ما بعد نقلي من بيرو ووصول خلفي .. إلى أن تم توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ففتر حماس الجاليات العربية أو انقلب إلى نقد صريح لسفارتنا هناك ..

ولاحظت بالمثل أن رجال وزارة الخارجية البيروانية قد تأثروا من مشاهدتهم لتلك المناظرة التليفزيونية وهنأني عليها وكيل الخارجية كارلوس جارسيا بيدويا عندما زرته مستأذنا فى السفر إلى مصر بسبب استدعائي . كما زرت وزير الخارجية ورئيس الوزراء مستأذنا فى السفر بسبب استدعاء حكومتي لي .. وقد تمنوا جميعا لمصر ولي حظا سعيدا .

إلا أنه عندما التفتنا إلى حجز تذاكر السفر وتحديد طريق العودة فوجئنا بمن يخبرنا بأن مطار القاهرة مقفل أو قد يكون مقفلا بعض أوقات النهار، فقررنا التوجه أولا إلى لندن ومتابعة الموقف من هناك..

وعندما وصلنا لندن فوجئنا بوقوع غارات جوية على مطار القاهرة

.. ثم بحدوث «الثغرة» والتطورات اللاحقة .. ومن ثم فان سفارتنا فى لندن أوصت بسفرنا إلى طرابلس وبنغازى فى ليبيا وترقب الأحداث من هناك .. فقد يمكن قيام طائرات من بنغازى أو طرابلس إلى القاهرة .. أما إذا لم يمكن فقد يستدعى الحال السفر من بنغازى إلى مصر بالطريق البرى بالسيارات .

وكنا عدة سفراء مصريين وعائلاتهم فى الطائرة من لندن إلى طرابلس يوم ٢٠/١٠/١٩٧٣ بعضنا عائد من الاجازة إلى مصر ، أما أنا فقد كنت الوحيد المسافر فى مهمة رسمية . ويبدو أن الليبيين لم يكونوا راضيين عن توقف القتال فى جبهة قناة السويس وحدوث الثغرة إلخ فلم يحسنوا استقبالنا فى طرابلس أو بنغازى فبقينا فى المطارات عدة ساعات وقوفا لم نجد مقعدا نجلس عليه نحن وزوجاتنا كما لم نجد وسيلة إلى شراء فنجان قهوة أو فنجان شاى أو شطيرة جبن .. إلا أنه لحسن حظنا لم تطل إقامتنا فى ليبيا سوى ساعات معدودة .

وقبل منتصف الليل بقليل أعلن عن افتتاح مطار القاهرة والسماح بهبوط طائرات ركاب بها فركبناها وهبطت بنا فى مطار القاهرة المظلم تماما بسبب ظروف الحرب ، بعد منتصف الليل بساعة أو بساعتين صبيحة يوم ٢١/١٠/١٩٧٣ .

توجهت صباح اليوم التالى إلى وزارة الخارجية ، كان السيد اسماعيل فهمى وزير السياحة قائما بأعمال وزير الخارجية المتغيب فى

نيويورك .. وكان من المتوقع والشائع أن يتولى منصب وزير الخارجية قريبا جدا ولعله كان يعلم ذلك ويستعد له .. وقد اذن لى بمقابلته بمجرد أن طلبت المقابلة .. رحب بى قائلا أنه لم يطلب حضورى لكنه يعتقد أن رياسة الجمهورية هى التى استدعتنى حسبما سمع لتولى منصب رئيس هيئة الاستعلامات بدرجة نائب وزير ونصحنى بالتوجه إلى الرئاسة .. اخبرته بدهشتى الشديدة لهذا النبأ . ولما كنت أعلمه عن اسماعيل فهمى من شغف وحب بالدبلوماسية - فهو دبلوماسى محنك منذ سنة ١٩٤٦ - فقد أسررت إليه بعدم سرورى لسماع ذلك النبأ حيث أنى من هواة الدبلوماسية ومتمسك بالبقاء فى السلك الدبلوماسى الذى أحببته واندمجت فيه منذ سنة ١٩٤٨ .

وأضفت أنى كنت أفضل لو كانوا قد سألونى رأيى قبل استدعائى من بيرو اذن لأخبرتهم بتفضيلى لمنصب السفير ..

فنصحنى اسماعيل فهمى بالتوجه إلى الرياسة لمعرفة حقيقة الأمر .. على أن أعود لزيارته قبل سفرى إلى بيرو . وأضاف أنه لا يؤمن بانتداب السفراء من الخارج لتولى مهام طويلة الاجل فى مصر مع احتفاظهم بمهامهم فى الخارج . وأنه علىَّ أن أختار ما بين منصب السفير فى الخارج أو أى منصب آخر فى مصر ولو كان بدرجة نائب وزير .. توجهت إلى مكتب السيد / محمد حافظ اسماعيل مستشار الأمن القومى للرئيس وكان مقره فى سراى عبد المنعم فى مصر

الجديدة واجتمعت بمساعدى السيد حافظ اسماعيل . وكانوا أكثر علما بتفاصيل موضوعي واشاروا عليّ بالتوجه إلى مبنى التليفزيون لمقابلة الدكتور أشرف غربال المستشار الصحفي للرئيس السادات (١) والدكتور أشرف غربال مثله مثل السيد / اسماعيل فهمي دبلوماسي قديم محنك منذ سنة ١٩٤٦ وتجمعني به زمالة قديمة واعجاب متبادل . وكان حينئذ يشغل منصب المستشار الصحفي للرئيس بدرجة وزير .

استقبلني د. أشرف غربال – المستشار الصحفي لرئيس الجمهورية في مكتبه المؤقت بمبني التليفزيون بوابل من العتاب الأخوى ..

أهكذا تأخرت في العودة إلى مصر منذ ٧ اكتوبر إلى ٢١ منه ؟ أهكذا تركته يعمل وحيدا في ظروف الحرب الاعلامية الصعبة وكان أمله أن أشد أزره ونعمل سويا ؟ واضاف أن السيد الرئيس السادات (رحمه الله) كان قد وافق على أن يتولى د. أشرف غربال مهام وزير الاعلام بمجرد نشوب حرب اكتوبر وأن يوجد من حوله كل من السفير سمير أحمد كرئيس لهيئة الاستعلامات وان يعود الاستاذ محمد عبد الجواد من جديد لرئاسة وكالة أنباء الشرق الأوسط (كان محمد عبد الجواد قد ترك الوكالة ثم عاد إليها فعلا) .

شرحت له أسباب تأخيرى في العودة مثلما سبق القول . لكنى

(١) السفير د. أشرف غربال كان يشغل منصب المستشار الصحفي للرئيس السادات بدرجة وزير ثم عين بعد ذلك سفيرا لمصر فى واشنطن وظل بها إلى سن التقاعد وهو من ألمع سفراء الخارجية .

اضفت بأنى لم أكن أعلم بسبب استدعائى فلم يذكر فى البرقية .. وأنه لو كانوا سألونى رأيى لاخبرتهم بتفضيلى البقاء فى منصبى بالخارج بالسلك الدبلوماسى اجابنى د. غربال بأن الأمور قد حلت نفسها بنفسها على أى حال وسيبقى هو فى منصبه كسفير بالخارجية ومنتدب كمستشار صحفى للسيد الرئيس كما سأظل أنا فى موقعى اذا شئت .. لكنى ما دمت قد حضرت إلى مصر فلا أقل من أن أمضى شهرى الانتداب فى العمل فى نفس الفريق برفقته (وتحت أشراف د. عبد القادر حاتم) فى مقابلة الصحفيين الاجانب وتزويدهم بالانباء وتحديد خطوط السياسة الاعلامية اليومية فى ظل الحرب القائمة وقد كان وهكذا أمضيت شهرى الانتداب من ٢١ اكتوبر إلى ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ . وما أن انتهت مهلة الشهرين الا وبدأت استعدداتى للعودة لتولى سفارتى فى ليما ببيرو وتذكرت تعليمات السيد / اسماعيل فهمى (الذى أصبح وزيرا للخارجية فى تلك الاثناء بعد تعيين المرحوم / الدكتور محمد حسن الزيات مستشارا للرئيس للشئون الخارجية) بالمرور عليه قبل مغادرتى إلى ليما وبمجرد نهاية الشهرين فقعلت .

استقبلنى وزير الخارجية الجديد باسما وسألنى لم العجلة فى السفر إلى ليما ؟

فذكرته بتعليماته السابقة بأنه لا يرضى عن انتداب السفراء بالخارج فى مهام طويلة بمصر وأن عليهم أن يختاروا ما بين البقاء فى رياسة سفارتهم وبين المناصب الرفيعة فى مصر ، فلا يمكن الجمع بين

الاثنين وهأنذا الآن انفذ تعلمياته بالعودة إلى منصبى بالخارج بمجرد نهاية مدة الانتداب وأنى كما اخبرته لا أرضى عن منصبى بالسلك الدبلوماسى بديلا ..

انفرجت أسارير وجه السيد أسماعيل فهمى وأخبرنى وهو يودعنى ويأذن لى بالسفر بأنه ينوى عدم تركى فى ليما طويلا وأنه ينوى نقلى سفيرا فى بلد «أكثر أهمية لمصر وأكثر جدارة بى» . شكرته بطبيعة الحال لكنى ذكرته بانى لم أكد أمضى شهرين فى ليما ورجوته أن يتركنى بها لأكمل السنة على الاقل مراعاة لشعور المسئولين البيروانيين لكن آخر كلماته لى قبل سفرى كانت العودة لتأكيد نيته على نقلى من بيرو للاستفادة منى فى موقع آخر فى قلب الأحداث .

عدنا إلى بيرو بالطائرة فوصلناها أواخر ديسمبر ١٩٧٣ لكن كلمات إسماعيل فهمى جعلتنا وكأننا سائحون فى ليما بيرو وادركنا أنه لن يكتب لنا الاستمرار فيها طويلا .

ورغم ذلك مرت الشهور الواحد تلو الآخر وليس هناك ماينبىء بقرب النقل فلما جاء ديسمبر ١٩٧٤ أى بعد مرور عام كامل على ذلك الحديث ولم ننقل من بيرو ظننا بأن السيد وزير الخارجية قد غير رأيه أو أنه اقتنع برجائى بتركى أمضى مدتى بأكملها فى بيرو مراعاة لشعوره المسئولين بها ..

وهكذا طلبنا من وزارة الخارجية المصرية السماح لنا باجازة

نمضيها بالقاهرة .. وتأكد ظننا بشأن الغاء أو تأخير النقل حين وافقت الوزارة على طلب الاجازة . لكن عند وصولنا للقاهرة استقبلنا بالمطار أحد زملائنا بوزارة الخارجية (١) ليزف إلينا - في المطار - نبأ صدور القرار الجمهوري بتعييني سفيرا ومندوبا مناوبا لدى الأمم المتحدة في نيويورك .. وكأن السيد / إسماعيل فهمي أراد أن تكون زيارتي للقاهرة هذه المرة زيارة تشاور وتزود بتعليماته قبل التحاقي بوظيفتي الجديدة في نيويورك ..

أمضينا أجازتنا بالقاهرة ثم عدنا إلى ليما بيرو للاستعداد لتنفيذ النقل إلى نيويورك بعد شهرين أو ثلاثة .. كانت شهور الاستعداد للسفر من أصعب المهام . كنا قد اقمنا صلات صداقة وطيدة بكثير من أفراد الجاليات اللبنانية والفلسطينية والسورية في بيرو وبينهم عائلات جحا وديدوب وبرهومي وغيرهم كثيرون.. وكان فراقهم بهذه السرعة مدعاة لأسفي وأسفهم .. وقد أرسل بعضهم برقيات وخطابات للقاهرة لمحاولة التمسك بي سفيرا لمصر في ليما لكن دون فائدة .

أمضينا هذه الشهور القليلة في حضور حفلات الوداع التي أقيمت لتكريمنا في منازل السفراء الأجانب وكبار الجاليات العربية وأصدقائنا من البيروان وقد أقام لنا وزير الخارجية ميجيل انخيل دى لافلور باللى مأدبة عشاء كبيرة في مقر وزارة الخارجية في قصر تورى تاجلى بمناسبة تسلمي أحد الاوسمة البيروانية الراقية وقد انعموا به على

(١) السفير الاستاذ محمد سعيد البنهاوى سفير مصر حاليا فى سريلانكا .

استثناء من القاعدة التى تقضى بعدم تسليم نياشين بروانية الا لمن أمضى من السفراء الأجانب سنتين على الأقل فى بيرو . أما وكيل الخارجية الدائم أى السفير جارسيا بدويا فقد أبدى «شكره لوزارة الخارجية المصرية لتعيينها لسفير من طبقتى سفيرا لمصر فى بيرو ولو لمدة وجيزة» .

أمـا الأخـوة Giha (حـجا) فـقد أقـامـوا تكريما لنا حـفل غداء Pachamanca"س فى عزبتهم التى تقع مائة كيلو متر جنوبى ليما قرب مدينة بيسكو ودعوا إليها أصدقائى من السفراء الأجانب وأعضاء السفارة المصرية والأصدقاء من الجاليات العربية وبصفة خاصة أعضاء البرنامج العربى فى إحدى محطات ليما الاذاعية .

أما الـ Pachamanca هذه فلم تكن الا «المسقوف» الذى تعرفه العراق وبعض البلاد العربية جيداً وهو يستلزم حفر حفرة عمقها متر وأكثر ويضع فى أسفلها الفحم والأخشاب الموقدة شديدة الحرارة وفوقها طبقة من ورق بعض الاشجار العريضة كالموز مثلا ويضع فوقها الخروف قطع اللحم والدجاج وتغطى هذه بطبقة أخرى من أوراق الاشجار العريضة وتهال فوقها طبقة من الحجارة والرمال لسد الحفرة تماما وكأنك بهذا تطهو الخروف واللحم والدجاج فى حلة بخار Pres-sure Cooker فينضج بعد ساعتين أو اكثر وعلى مهل وتصبح اللحوم والدجاج طرية حسنة الطهى لذيذة المذاق . وقد أعجب السفراء الأجانب كثيرا بهذا الطريقة العربية البيروانية .

وفى انتظار تنفيذ النقل فى الموعد المحدد زرنا معالم ليما الشهيرة كلها ومنها متحف الذهب Museo de Oro (١) فى إحدى ضواحى ليما وقصورها التاريخية وكاتدرائيتها رائيتها وبقية احيائها التى لم نكن قد عرفناها .. وكنا نمضى عطلات نهاية الاسبوع سعيا وراء الشمس . فعندما تغطى ليما بطبقة سميكة من السحاب المنخفض بفعل اصطدام التيارين البارد (همبولت) والدافىء (نينو) أمام سواحلها - فى شهر يوليو عز الشتاء - ليس أمام الراغبين فى الاستمتاع بالشمس سوى تسلق سفوح الجبال أو التلال التي تقع خلف ليما والتى تؤدى إلى مرتفعات جبال الانديز وبعد نصف ساعة (بالسيارة) على الاكثر من تسلق تلك المرتفعات خلف ليما وعلى ارتفاع ٨٠٠ متر تقريبا عن سطح البحر - توجد سلسلة من الاحياء السكنية الجبلية الراقية أهمها حى كاليفورنيا . وهنا فى كاليفورنيا يوجد عدة نوادٍ رياضية واجتماعية أهمها نادى لوس كوندوريز نادى النسور الجبلية وهو نادٍ راقٍ يضم خلاصة أو صفوة المجتمع البيروانى فى ليما وأعضاء السلك الدبلوماسى ، وبه ملاعب تنس وجولف وحمام سباحة وحدائق غناء ومطعم راق يتميز بخدمة راقية ويتيح للاجانب تذوق أهم ألوان الطعام البيروانى . ومن هذه الاطعمة اللذيذة طبق الـ سفيتشى وهو عبارة عن قطع من لحم

---

(١) يضم هذا المتحف قطعا ذهبية أثرية من عهد الإنك تذكرنا بالتحف الفرعونية النادرة.

الاسماك النيئة وتترك فى عصير الليمون عدة ساعات حتي يتم نضجها بفعل عصير الليمون وتؤكل مع شرائح البصل .

ومن محاسن نادى النسور هو إنه بعد نصف ساعة من ترك مدينة ليما تحت غطاء كثيف من السحب المنخفضة ، تكون قد اخترقت هذا الحاجز الذى يحجب شمسا مدارية محرقة تدعوك إلى الاستمتاع بمياه حمام السباحة ، وبعد تمضية سحابة النهار تحت هذه الشمس الساطعة يمكنك العودة إلى شتاء ليما ورطوبتها المعتادة فى فصل الشتاء .. وتجدر التذكرة بأن شتاء ليما هو فى المدة من يونيو إلى سبتمبر أو أكتوبر لأنها فى النصف الجنوبى من الكرة الأرضية وشتاء ليما بارد رطب لكن صيفها حار جاف .

ولما كنت محبا للحضارات القديمة ، وكان هذا أحد أسباب سعيى وراء ليما منذ البداية ، فكان لزاما علينا قبل مغادرتها نهائيا أن نزور مدنها القديمة التاريخية .. اركيبا المدينة الثانية فى بيرو - وكوسكو عاصمة الانكا وماتشوبتشو التاريخية الشهيرة وكلها تقع فوق جبال الانديز جنوب ليما وقرب حدود بيرو مع شيلى وبوليفيا ..

تقع اركيبا - وأصلها كلمة من لغة الـ Quechua الهندية معناها «لنقف هنا لنستريح برهة» ويقال أن أحد ملوك الانكا قالها فى إحدى تنقلاته من كوسكو إلى الساحل فحط عصا الترحال عند البقعة التى

اسميت مدينة اركيبا Arequipa ثاني مدن بيرو حاليا وهى تقع فوق جبال الانديز على بعد ثلاثمائة كيلو متر تقريبا جنوبى ليما - وقد اتجهنا جنوبا فى الطريق السريع الساحلى وهو جزء من شبكة الطريق Pan American Highway الذى يوصل مدن أمريكا اللاتينية بعضها بالبعض الآخر (وهذا الطريق السريع الدولى حسن فى بعض البلاد وسيئ فى مواضع أخرى . لكنه فى بيرو يمتد بحذاء الشريط الساحلى) إلى نقطة لا تبعد كثيرا عن حدود شيلى ثم بدأنا الصعود فوق جبال الانديز مسافة مائة كيلو متر أخرى إلى أن وصلنا اركيبا وهى مدينة متوسطة الحجم (٣٠٠ ألف - ٤٠٠ ألف نسمة) بها أحياء قديمة من عهد الحكم الاسبانى وعدة كنائس وكاتدرائية ، مبنية من الحجارة البركانية وعلى أى حال فلم تستوقفنى كثيرا ..

لكن أهمية اركيبا تكمن فى قربها من كوسكو التى تقع على ارتفاع ٣٥٠٠ متر عن سطح البحر فوق اركيبا فى اتجاه شمال شرق تعدادها حاليا حوالى ٢٠٠ ألف نسمة لكنها تعتبر متحفا مفتوحا . يكفيك التجوال فى شوارعها لتذوق رشفات الجمال والابداع الفنى والمعمارى . إذ كانت كوسكو عاصمة الإنكا ثم مركزا مهما فى عهد الحكم الاسبانى للقارة اللاتينية . وأقام فيها الاسبان الأوائل عديدا من الكاتدرائيات والكنائس والقصور الفخمة فيما يسمى Stilo Colonial كلها من

الحجارة البيضاء الوردية أو الوردية البيضاء المأخوذة من الجبال المحيطة وترجع كاتدرائية كوسكو إلى القرن السادس عشر والسابع عشر ، وكذا متحفها الفخم قلعة ساكسا هوامان فإنها تعود إلى عهد امبراطورية الانكا قبل الفتح الاسباني فى القرن السادس عشر بقرن كامل . وتشتهر كوسكو بكرنفالها الفريد اللون الذى يسبق فترة الصيام إذ يجمع ما بين الطقوس الدينية الهندية الحمراء التقليدية والطقوس الاسبانية البدائية الكاثوليكية (١) ، وفى فترة الكارنفال تغص المدينة بالسائحين الاجانب (أمريكيين وكنديين ولاتنيين) وسكان اركيبا وكوسكو وليما ..

يشعر الضيف الغريب عند وصوله كوسكو بشعور غريب أيضا .. بسبب شدة الارتفاع وشحة الأوكسجين فى الهواء الذى نستنشقه .. كثيرا ما يشعر الزائر باشتداد خفقان القلب وبالتعب السريع أو بالصداع الذى يسمونه هناك صداع الارتفاع Sa-roche .. وعلاج أهل كوسكو لهذه الظاهرة هو الراحة فى السرير عدة ساعات بعد الوصول مباشرة وتناول فنجان أو أكثر

---

(١) جدير بالذكر أن الهنود الحمر فى أمريكا اللاتينية بعد أن اضطرتهم أسبانيا إلى التحول إلى الكاثوليكية مازالوا متمسكين بطقوسهم الهندية وأصبحت عباداتهم تحوى خليطا من الطقوس الكاثوليكية والهندية الأصلية .

من شـــراب أوراق الكوكا الساخن مثل الشاى فتأثيره مهدى للأعصاب ..

ومن كوسكو فإن أهم وسيلة لزيارة مدينة متشويتشو التاريخية هى ركوب قطار صغير مثل قطارات مدن الدلتا الصغيرة يتسلق بك الجبال من ماتسويتشو إلى كوسكو أو بالأحرى يهبط بك من كوسكو على ارتفاع ٣٥٠٠ متر إلى مدينة ماتشويتشو على ارتفاع ٢٠٤٥ مترا فوق سطح البحر وتقع ١٣٠ كيلو مترا شمال كوسكو وسط جبال الأنديز ولم تكتشف الا سنة ١٩١١ إذ لم يحفل بها الغزاة الاسبان وأهملوا ذكرها رغم أنها كانت من أهم مدن امبراطورية الانكا بل لعلها تعتبر مدينة الانكا المقدسة لما بها من آثار وحصون مهمة صنعت كلها من قطع من الحجارة البركانية متوسطة الحجم الواحدة منها ٢ - ٢,٥ متر مكعب وقد تفوق فى الحجم قطع الجرانيت التى صنع منها الهرم الأكبر فى الجيزة .. كانت مدينة مثالية وحصينة من مدن الأنكا ويقدر عدد سكانها فى أزهى عصورها بما لا يقل عن عشرين ألف نسمة أو أكثر وهى حاليا غير مسكونة إذ تعتبر متحفا فى الهواء الطلق ويؤمها آلاف السياح يوميا .

ومن أطرف ما يحكى عن تاريخ الأنكا والحضارات الهندية الشبيهة ما يتردد حول منطقة ناسكا التى تقع فوق سفوح الانديز قريبا من

الشريط الساحلى فى القطاع الجنوبى من بيرو ما بين ليما واركيبا .
فقد اكتشفت فى العشرينات من هذا القرن آثار حضارة ناسكا ويعود تاريخها إلى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد وامتد حتى سنة ٦٠٠ بعد الميلاد .
وبطريق الصدفة المحضة اكتشفت إحدى الطائرات المحلقة فوق تلك المنطقة خطوطا هندسية منتظمة تمتد فى بعض المواضع لمسافة خمسمائة متر وفي بعض المواضع الأخرى إلي مسافة ثمانية كيلو مترات ظنها الطيار أول الأمر ممرات جوية Runway لمطار قديم تم إهماله وإغلاقه .. وقد أبلغ المسئولين بما رآه فارسلوا فريقا من رجال الآثار والكشافين تسلقوا الجبال ووصلوا إلى ذلك الموقع .. ولشد ما كانت دهشتهم أن وجدوا أن علامات تلك الممرات تحددها صفوف من تماثيل حجرية قديمة لعديد من الحيوانات مثل القردة أو الخراف أو بعض الطيور والنسور . ولم تكن تلك الخطوط الهندسية الممتدة ولثمانية كيلو مترات لتعنى الكثير بل كانت صعبة الفهم اللهم إلا إذا قبلنا بالنظرية القائلة بأنها فعلا كانت حدود ممرات جوية لارشاد الطيارين ..
لكن أية طائرات وأى طيارين ؟ تقول تلك النظرية بأن آثار ناسكا إنما كانت ممرات لهبوط سفن فضائية تحمل زوارا من الفضاء الخارجى اختاروا تلك البقعة السحيقة لهبوطهم لزيارة أرضنا فيما بين القرن الثانى قبل الميلاد والقرن السادس بعد الميلاد . وليس هناك من تفسير

مقنع آخر لتلك الخطوط التي هي في الواقع أقرب شيئ إلى حدود مهابط الطائرات في عصرنا هذا (١) .

وإلى جانب تلك الممرات الجوية وجدت في ناسكا «جبانات» (مدافن) لموميات تحللت وأقمشة ملونة زاهية .. ومازال سرناسكا إلى اليوم يثير الكثير من الجدل والتكهنات وقد قامت نظريات كثيرة تضمنتها كتب عديدة تحاول اقامة الدليل على زيادة رواد من الفضاء الخارجي لعالمنا هذا عبر عدة عصور وفي مواقع مختلفة من الكرة الأرضية منها مصر (عصر بناة الأهرام) وبدليل علماء الفلك والكيمياء والطب والزراعة ورواد التقدم العلمي المدهش في مصر في عالم كان مازال يغط في ظلمات الليل .. - فما عدا مصر - وظلت بقية العالم تسبح في الظلام ومنها ناسكا وربما المكسيك في عصور لاحقة وتحاول بعض هذه النظريات

---

(١) اقرأ كتاب The chariots of the gods by Erich von Daniken .

وكتاب Los Secretos de la Gran Pyramide de Guiza لمؤلفه رودلفو بنافيديس وكلاهما يذهب إلى أن بناة الاهرام جاءوا من الفضاء الخارجي وأن قدماء المصريين اكتشفوا امريكا الجنوبية وهم أصل السلالات والحضارات القديمة بها .

وجدير بالذكر أن العالم البريطاني الشهير سير ايزاك نيوتون (مكتشف الجاذبية الأرضية الخ) يؤمن هو الاخر بأن الحضارة المصرية القديمة أتت من الفضاء الخارجي قبل عهد الطوفان .

اقامة الدليل على وجود عدة عوامل أو صفات مشتركة ما بين قدماء المصريين أو بالأحرى كهنة قدماء المصريين وزوار الفضاء الخارجى الذين أورثوهم العلوم والمعرفة ، وامتدت آثارهم من بعد مصر إلى المكسيك وبيرو (١) .

خلاصة القول إن هناك الكثير من عناصر الشبه ما بين مصر وبيرو (والمكسيك أيضا) مما قد يثير الدهشة حقا . فإلى جانب تشابه الحضارات القديمة : عبادة الشمس «رع» (الأله أتون والأله أمون) وبناء الاهرام في مصر والمكسيك و (ماتشوبيتشو) وتقدم فنون صياغة الذهب ونسج وتطريز الأقمشة تذهب بعض النظريات إلى أن لغات بعض القبائل الهندية الامريكية مأخوذة أصلا من الهيروغلوفية مما قد يدل على وصول المصريين القدماء إلى امريكا الجنوبية قبل البرتغاليين والاسبان فى سفن مصنوعة من الغاب أو البوص وهو ما أثبت تور هايردال إمكان حدوثه وفعله حقا على سفينته المسماة RAA المصنوعة من البوص (الغاب) وعبر بها المحيط الهادى (٢) .

وقد ضمن كتابه عن رحلات المركب دراسة تفصيلية لأوجه التشابه ولتأثير مصر على حضارات أمريكا الوسطى والجنوبية إلى جانب ذلك

---

(١) اقرأ اسرار هرم الجيزة الأكبر بالاسبانية وترجمة إلى لغات أخرى لمؤلفه رودلفو بنافيديس وكتاب chariots of the Gods لمؤلفه اريك فون دانيكين .

(٢) The Raa Expechition لمؤلفه النرويجى تور هايردال .

فإن مناخ ونبات الشريط الصحراوى الساحلى فى بيرو يشابه وادى النيل تربة ومناخا وانتاجا .. حتى القطن طويل التيلة فإن بيرو مشهورة بانتاج نوع من القطن طويل التيلة اسمه PIMA .

ثم انظر إلى ثورة العسكريين الاشتراكية بقيادة الجنرال خوان فيلاسكو الفارادو سنة ١٩٦٨ (عبد الناصر بيرو) ذات الاصلاحات الاجتماعية والاشتراكية الطابع ، والتى تبعتها فترة اتجاهات يمينية معتدلة بقيادة الرجل الثانى فى ثورة بيرو العسكرية الجنرال فرانسيسكو موراليس برموديز (أنور السادات بيرو) بعد وفاة خوان فيلاسكو الفارادو !!

ولئن كانت هناك أوجه تشابه - حقيقية كانت أو مصادفة - ما بين البلدين فان التشابه يقف عند حد كثرة الزلازل فى المكسيك وبيرو وخلو مصر من هذه الظاهرة وضعفها النسبى والحمد لله .. فقد شاءت الاقدار أن نشهد ونحضر زلزالين كبيرين وقعا فى بيرو واهتزت لهما ليما كثيرا أثناء اقامتنا القصيرة بها .

كانت المرة الأولى ليلا .. فى وسط الليل وظلمته .. كنا نياما .. واستيقظنا مروعين على صوت قطار أو عدة قطارات تسير من تحت حجرة نومنا بدأت أصوات القطارات بعيدة أولا ثم اقتربت منا كثيرا ثم مرت من تحتنا تماما وزاد صوتها وضوحا وزادت الحجرة بما فيها اهتزازا وتأرجحا حتى السرير نفسه .. ثم بعدت القطارات

تدريجيا وخفضت معها الأصـــوات إلى أن تلاشت تماما بعد دقيقة أو أكثــر .

كانت قوة هذا الزلزال قريبة من الثمانية درجات على مقياس ريختر أى أنه كان زلزالا شديدا بكل المقاييس .. ومروعا حقا لمن لم يعتد هذه الظاهرة .. وقد فكرنا أول الأمر فى مغادرة السرير مهرولين . لكن إلى أين ؟ فبقينا فى أماكننا ولم تحدث اضرار هامة فى سفارتنا لكن حدثت اضرار كثيرة فى أحياء ليما الفقيرة .

أما المرة الثانية فكنت قد تناولت طعام إفطارى وتهيأت للذهاب إلى مكتبى بدار مكاتب السفارة .. وفى الطريق إلى المكتب كانت اهتزازات السيارة المعتادة تغطى ما يحدث من هزة أرضية أخرى .. ولم نحسها (السائق وأنا) إلا بعد توقف السيارة فى أحد مفارق الطرق . وكان سبب توقف السائق البيروانى أنه رأى بعض المارة يجثو على ركبتيه وسط الطريق ويصلى ويدعو الله أن تمر تلك الهزة دون أضرار كثيرة .. وما أن توقف السائق إلا وأخذت السيارة البويك الكبيرة تهتز وترتجف وكأن عشرات من الرجال يتبادلون هز السيارة .. بقيت فى السيارة لا أحير حراكا فى حين كان البيروان فى الطريق يخرون على ركبهم فى الشارع من حولى مصلين وداعين .. وما أن انتهت الهزات العنيفة إلا وعاد بنا السائق إلى دار السكن .. كان الخدم البيروان يرتجفون من فرط التأثر بعضهم يبكى ويطلب منى الاذن بمغادرة الدار للتوجه إلى مساكنهم لتفقد حالتها وما صارت إليه حال زوجاتهم وأولادهم ..

والبعض الآخر يجمع قطع الزجاج أو الكريستال نتيجة لوقوع الكوبات والفازات من أماكنها إلى الأرض بفعل الهزات الأرضية .. وبعضهم يعتذر على نسيانهم ما آلت إليه حال زوجتى (السيدة السفيرة) فقد نسوها فى غمرة تأثرهم وانشغالهم بأمورهم .. كانت زوجتى تأخذ «دوشا» وأخبرتنى أنها رأت المناشف تسقط على الأرض من مشاجبها ثم رأت النجف الكريستال المعلق فى حجرة النوم يهتز يمينا ويسارا والأرض تميد من تحتها فادركت ما يحدث فأسرعت بارتداء ملابسها ونزلت إلى الدور الأرضى لتجد بعض التحف واقعا أو مكسورا على الأرض .. غادر السفارة معظم الشغالين عائدين إلى بيوتهم لتفقد أمورهم .. أقفلت جميع المحال التجارية لنفس السبب .. لم يعد للناس حديث شاغل إلا تقدير اضرار الزلزال الرهيب الذى هدم بيوتا عديدة فى الاحياء القديمة وأدى إلى أضرار مادية ليست بالقليلة ..

وعندما نقلت إلى نيويورك ألح علىّ طاهى السفارة المصرى (الحاج محمود) بأن يصحبنى إلى نيويورك ويعمل طاهيا فى دار سكنى هناك .. حاولت اقناعه بأن ظروف المعيشة فى ليما أكثر مناسبة له من نيويورك حيث الغلاء الشديد وصعوبة السكن فضلا عن أنه اعتاد الحياة في ليما ولم يسبق له معرفة نيويورك . لكنه ألح علىّ أن أصحبه قائلا إنه لا يود تكرار تجربة الزلازل مرة أخرى ..

ولم يكن أمامى إلا أن أصحبه معى إلى نيويورك حيث استمر معى طيلة مدة بقائى هناك .

زيارة إلى كل من :
«بنما - اكوادور - شيلى - بوليفيا - الأرجنتين - أورجواى - البرازيل - فنزويلا»

ثانيا : كان من حظنا العمل فى ثلاث سفارات فى أمريكا اللاتينية : بوجوتا (كولومبيا) من ٥٨ - ١٩٥٩ والمكسيك من ٥٩ - ١٩٦٠ وليما (بيرو) ٧٣ - ١٩٧٥ .

وقد انتهزنا فرصة وجودنا فى القارة اللاتينية فى تلك المناسبات الثلاث لنزداد تعارفا ومعرفة بهذه القارة الفاتنة ، الغنية الفقيرة ، المتقدمة المتأخرة المستنيرة والغاشمة .. الحاوية لكل شئ ..

وقد قمنا بجولتين فى القارة زرنا فيها عدا البلاد التى كنا نعمل بها: بنما - أكوادور - شيلى - بوليفيا - الأرجنتين - أوروجواى - البرازيل - وفنزويلا .

ولا أزعم أن زيارة لبلد ما أو لعاصمة ما تكفى للادعاء بمعرفة هذا البلد معرفة وثيقة ، لكنها تكفى للخروج «بانطباعات» عن تلك العاصمة

وعن الحياة فيهـــا والانطباعات تكون عـــادة نتيجة لتجارب شخصية ومشـــاهدات وتـأمـلات أثارتها تلك الزيارة .. وقد تكون الانطباعات صادقة تماما كمـا قـــد تكون فيها درجـــة من التجنى أو المبالغة أو ســـوء التقدير .. لكنهـــا انطبـاعـات تصـــدر عـــادة عن حسن نية وصورة صادقة لا سيمـا إذا صحبتها قراءات ودراسات لأحوال تلك البلاد !

(١) بنما : Panama

تقع جمهـــورية بنمـا فى جنوب برزخ أمـريكا الوسطى (البرزخ شريط أرضى ضيق تحده المياه شرقـا وغربا يفصل مـا بين أمـريكا الجنوبية والوسطى) وتقع على خط عرض عشرة شمـالا (أى ما يماثل خط عرض جيبوتى أو نيجيريا) فهى منطقة شديدة الحرارة وشديدة الرطوبة ، تنمو بها الغابات القريبة من الاستوائية وتكثر مستنقعاتها وأمراضهـا مثل الحمى الصـــفراء والملاريا التـى عـانـى منها ومات بسببهـا الآلاف من العمـال الذين شقوا قناة بنمـا فـى مطلع القرن العشرين لتوصل ما بين البحر الكاريبى «المحيط الأطلسى» من ناحية والمحيط الهادى من ناحية أخرى وهمـا يحدان بنما شرقا وغربا على التوالى ..

وقصة شق قناة بنمـا تستحق التنويه .. فإن شقهـا كان لخدمة

مصلحة التجارة الامريكية (أقصد الولايات المتحدة الأمريكية) خاصة والتجارة الدولية عامة .. لكن تم ذلك بتدبير ومخطط من الولايات المتحدة التى شجعت على انفصال إقليم بنما عن جمهورية كولومبيا سنة ١٩٠٣. ولما تم لبنما استقلالها منحت امتياز شق القناة للولايات المتحدة التى أبرمت مع بنما اتفاقا يخولها إدارة القناة وحمايتها بابقاء قوات أمريكية مرابطة حول القناة فى ثكنات وقواعد مازالت تحتلها الولايات المتحدة إلى اليوم ولعل القارئ يذكر قصة صدام رئيس بنما الجنرال نورييجا مع الولايات المتحدة وغزو الأخيرة لبنما ١٩٨٩ والقاءها القبض على نورييجا وحمله إلى الولايات المتحدة لمحاكمته بتهمة تهريب المخدرات إلى الولايات المتحدة . وكان قبل ذلك عميلا للمخابرات الأمريكية!!

إنى أذكر للقارئ تلك القصة من أجل الوصول إلى هذه النتيجة وهذا الاستخلاص : إن شعب بنما حديث العهد وليس له تقاليد وأصالة، شعوب دول أخرى فى أمريكا اللاتينية . فقصة دولة بنما إنما تعود إلى سنة ١٩٠٢ ومازال الشعب البنامى ينشد هويته ويحاول تكوين شخصيته وتقاليده ، فهو أبعد ما يكون عن العراقة بعد .. ولم يمر بعد بأى تجربة ديمقراطية حقيقية .. وهو خليط من الزنوج الافارقة الذين سيقوا إلى الأمريكتين زمن العبودية والرقيق وتعج بهم الدول المحيطة بالبحر الكاريبى بالذات كما هو خليط من سلالات الأسبان والهنود

الحمر والسود .. وأجناس أخرى .. لكن يغلب عليه الدم الأفريقى والهندى ..

ودولة بنما إذن عبارة عن قناة بنما التى تسير بين الأدغال والأحراش والتلال الخضراء والوديان الغائرة . فالأرض ليست مستوية مثل الحال حول قناة السويس ومن ثم فإن السفن العابرة فى قناة بنما يجب عليها المرور فى عدة أهوسة .. وقناة بنما أضيق كثيرا من قناة السويس ، وتحيط بالقناة فى بنما بعض المناطق المرتفعة والجبال متوسطة الارتفاع التى تمثل مراكز سياحية يهرع إليها الأمريكيون المقيمون فى بنما بين الحين والآخر هربا من الرطوبة والحرارة الشديدة فى الأراضى الواطئة ..

أما الحياة فى دولة بنما فتتركز في مدينتين : كولون (اسم كريستوفر كولومبوس بالأسبانية) عند المدخل الشرقى للقناة ، ومدينة بنما عند المدخل الغربى لها .. وكولون ميناء «حر» FREE Port لكن التجارة فى أيدي التجار الهنود (١) بصفة عامة ، وقد اكتسبوا الجنسية البنمية . ويصل بين المدينتين قطار يقطع المسافة فى حوالى الساعة .. وقد ذكرتنى مدينة كولون ببورسعيد قديما منذ أكثر من خمسين عاما .. أما مدينة بنما قد زرتها مرتين مرة سنة ٥٩ وأخرى سنة ١٩٧٣ .

(١) أقصد المهاجرين من الهند وليس الهنود الحمر .

ووجدت أنها نهضت نهضة سياحية كبيرة وبدأت المدينة تتخذ طابعا ما بعد أن كانت أقرب إلى العشوائية . وأهم ما يميزها حاليا العمارات الحديثة العالية والمراكز التجـارية الحديثة والمطاعم ودور اللهو وغيرها من مستلزمات المـــدن السياحية ومـــدن تجارة الترانزيت وخدمة الجنـــود الأمريكيين .. وترتبط بنما برابطـــة فريدة هـــى مزيج من الحـــب والكراهية للـــولايـــات المتحدة الأمريكية ولعل أسباب ذلك تبدو واضحة .

(٢) كيتو عاصمة اكوادور :

تقع جمهورية اكوادور على ساحل المحيط الهادى وتحدها كولومبيا شمالا وشرقا ، وبيرو جنوبا ، وعاصمتها كيتو فى النصف الشمالى من الدولة تقع تماما على خط الاستواء بينما تقع جوايا كيل أهم ميناء على المحيط الهادى جنوب خط الاستواء بقليل .. ومن ثم فإن الدولة كلها تقع فى المنطقة الاستوائية الحارة الرطبة .. إلا أن كيتو العاصمة تقع على هضبة أعلى جبال الانديز وعلى ارتفاع ٩٥٠٠ قدم - (كما هو منتظر - فجوها معتدل لطيف بسبب الارتفاع وشمسها استوائية قوية لكن أمطارها كثيرة طبعا والخضرة يانعة والأشجار والأدغال الاستوائية فى كل مكان .

تتميز كيتو بمناظرها الطبيعية الخلابة لأنها مقامة على عديد من

التلال الخضراء والوديان العميقة والمدينة الحديثة أمريكية الطابع عليها آثار النعمة الحديثة لأن الاكوادور من دول الأوبيك المصدرة للبترول مصدر ثروتها الحديثة لكنها كانت تعتمد أيضا فيما مضى علي تصدير الموز والبن والدخان والسكر والكاكاو والفضة وصناعات الفضة والنحاس والقصدير .. وتشتهر كيتو بصناعات الفضة ذات الطابع التاريخى ..

أما المدينة القديمة : كيتو التاريخية فعليها آثار الأصالة والنعمة التاريخية إذ كانت مقرا مهما للاستعمار الأسبانى لأمريكا الجنوبية وبها كنائس وكاتدرائية فخمة من الطراز «الكولونيال» وعدة أبنية تاريخية جميلة .. وهى مدينة جذابة «خفيفة الدم» .

وقريبا من مدينة كيتو أقامت الدولة نصبا تذكاريا على هضبة عالية يذكر السائحين أنهم يقفون تماما على خط الاستواء وإن كانوا لا يشعرون بحرارته بسبب الارتفاع الملطف للجو .

(٣) سانتياجو عاصمة شيلى :

تقع جمهورية شيلى على ساحل المحيط الهادى أقصى جنوب القارة اللاتينية وهى عبارة عن شريط طويل جدا وضيق يمتد من خط ٢٠ جنوبا (ما يماثل أسوان) إلى المنطقة القطبية الجنوبية (ما يماثل شمال السويد!!) ...

ومن هنا فإن التغير الشديد فى المناخ من أقصى الشمال إلي أقصى الجنوب فى شيلى يصحبه تفاوت عظيم فى النباتات من أشواك المناطق الصحراوية فى شمال شيلى إلى نباتات المناطق الباردة وفواكه المناطق الباردة جنوبا . أما المناطق الصحراوية الشمالية فتشتهر بثرائها فى مادة نترات الجير الشيلى الطبيعى التى تستخدم كسماد للأراضى ..

أما سانتياجو العاصمة فتقع على سفوح جبال الانديز على خط عرض ٣٣ جنوبا (خط عرض تونس أو طنجة أى منطقة معتدلة) ويزيد الارتفاع من اعتدال مناخها فهى إذن من ألطف عواصم أمريكا الجنوبية جوا ومن أخفها دما ومن أكثرها نظافة وأصالة وأهلها خليط من السلالات الأسبانية والألمانية والايرلندية ويشتهرون بجمال البشرة .. ويكثر الشعر الأبيض بين رجال شيلى (والأرجنتين) الذين تشتعل شعورهم مبكرا !!

وأسماء السكان نفسها مازالت تدل على أصولهم الألمانية أو الايرلندية إلى جانب الأصول الأسبانية .. لكن الجميع طبعا يتكلم نوعا من الاسبانية بلهجة مختلفة ربما فيها اثار هاتين اللغتين الأجنبيتين ..

وهناك فى سانتياجو يوجد تمثال كبير جدا للعذراء مريم يطل على

المدينة من فوق سفح أحد الجبال المشرفة على سانتياجو ويشير أهل سانتياجو إلى تمثال العذراء ضاحكين وقائلين : «إنها العذراء الوحيدة فى سانتياجو» .

La Unica Virgin de Santiago

هذا وتعتبر شيلى وسانتياجو بالذات من مراكز الصناعة المهمة فى أمريكا الجنوبية بسبب تقدم أهلها ونشاطهم واعتدال المناخ وانتشار التعليم وارتفاع مستوى المعيشة نسبياً .. ومن أهم الصناعات : المنسوجات والملابس والمأكولات والأسلحة والمصاغ وخلافه . أما مصايف مدينة سانتياجو «فتقع على البحر حول الميناء المهم فالبارايزو» Valparaiso (ومعناه وادى الجنة) والذى يقع على بعد مائة وخمسين كيلو مترا من سانتياجو ويربطهما خط سكة حديد إلى جانب طريق سريع يهبط بك من الانديز إلى الشاطئ .. وحول ميناء فالبارايزو تقع سلسلة من الشواطئ الجميلة ومراكز السياحة مثل Vina del Mar حيث أقام الأغنياء «شاليهات» لهم .

لكن جنوب شيلى حافل بالبحيرات الرائعة الجمال والجبال العالية التى تكسوها الثلوج فى شتاء النصف الجنوبى (مايو - سبتمبر) وهناك مراكز للتزحلق على الجليد ورياضيات الشتاء وركوب الزوارق إلى جانب مراكز الاستشفاء فى الفنادق المهمة ..

وسانتياجو من ألطف مدن أمريكا الجنوبية جوا وأخفها ظلا لكنها أيضا أبعدها عن بقية العالم جغرافيا !!

(٤) لاباز La Paz عاصمة بوليفيا : ومعناها «السلام»

أما بوليفيا فمعناها دولة «بوليفار» (سيمون بوليفار محرر أمريكا الجنوبية من الاستعمار الأسباني) .

وبوليفيا دولة مغلقة لا تطل على البحر منذ أن فقدت منفذها فى حرب الباسيفيكي ضد شيلى . وتقع كلها إذن فوق جبال الانديز الشاهقة حول خط عرض ١٨ - ٢٠ جنوبا (مثل أسوان وادى حلفا) . إلا أن لاباز العاصمة تقع فوق القمة على ارتفاع ١٢٠٠٠ قدم على خط عرض ١٨ .. ويلطف الارتفاع الشديد من الحرارة بل أنها تميل للبرودة ليلا وكذا فى الأيام غير المشمسة لكن شمسها عمودية محرقة .

ولما كان ارتفاع المدينة شاهقا فإن الطائرة تنزل بك فى مطار لاباز على ارتفاع ١١٠٠٠ قدم ثم تصعد بك السيارة من المطار إلى لاباز حيث تجد الأوكسجين شحيحا طبعا .. ويتعين عليك بمجرد وصولك إلى الفندق أن تمضى ساعتين أو ثلاث فى السرير للراحة والاستعداد للحياة على هذا الارتفاع الشاهق .. وسوف ينصحونك بعدم الإسراع فى

المشى أو تسلق السلالم .. وبعدم الإسراف فى تناول المشروبات الكحولية لأن تأثيرها أقوى جدا من تأثيرها على مستوى سطح البحر ! وقد تحتاج إلى أن تطلب من الفندق تزويدك بشراب «الكوكا» مثل الشاى لكنه مهدئ للأعصاب ولضربات القلب .. وقد تأخذ اسبرينه مع «الكوكا» للشفاء من الصداع Saroche الذى سببه لك الارتفاع !

أما بعد ذلك عند نزولك إلى المدينة فسوف تلاحظ أن مركز المدينة أو الحى التجارى بها قديم وغير أنيق ورواده يغلب عليهم الطابع الهندى الأحمر وازياء شبيهة بأزياء الهنود الحمر «المسالمين» ! قبعات سوداء أو بنية اللون يلبسها الرجال منهم والنساء ، المتشحون والمتشحات «ببطاطين» فاقعة الألوان يغلب عليها اللون الأحمر ، فوق ظهورهم لحمايتهم من برد الجبال .. هندسة المبانى نفسها تعكس الطابع الاسبانى «الكولونيال» القديم .. والمختلط مع الهندسة البوليفية الهندية .. حتى الدين الكاثوليكى الذى يمارسه هنود بوليفيا يختلط بكثير من الشعائر والتقاليد الهندية القديمة .

وفى الحى التجارى : وسط البلد .. تجد دكاكين أو أركان صغيرة افترشها الرجال والنساء الهنود الحمر يبيعون فيها صناعاتهم من الأوانى «الفضية» المطروقة باليد .. لكن حذار فإن كمية الفضة فيها

قليلة ، ربما فوق السطح ، مصنوعة غالبا من النحاس أو الرصاص المطلبين بالفضة .. وبوليفيا على أى حال بها أغنى مناجم الفضة والرصاص والزنك والقصدير والنحاس .. هذا ما وهبتها الطبيعة لتعويضها عن فقرها فيما عدا ذلك .

لكن لاباز بها أحياء سكنية للأغنياء لا تقل جمالا عن مثيلاتها فى بوجوتا أو كيتو مع الفارق أن بوليفيا فى مجملها أقل تقدما .. ولعلها واحدة من أقل بلاد أمريكا الجنوبية تقدما .

وعند عودتك إلى الفندق سوف تجد الزهور التى أرسلها إليك أصدقاؤك فى الصباح لتحيتك قد ذبلت تماما وكادت تموت من جراء قلة الأوكسجين فى الجو فلم تستطع العيش سحابة نهار واحد .. فلماذا إذن إرسال الزهور ؟!

بعد أن زرنا لاباز فى يوم واحد ماذا نستطيع عمله فى اليوم التالى ، هناك زيارة ممكنة إلى بحيرة «تيتى كاكا» Titi Kaka واسمها هندى أحمر كما هو واضح .. الطريق إليها شاق بعض الشئ وطويل والبحيرة خالية من كل شئ إلا من بعض قوارب صيادى الأسماك من الهنود الحمر يرمون بشباكهم .. لكن زيارتى كانت بسبب حرصى على رؤية القوارب التى يستعملها هؤلاء الهنود فهى مصنوعة

من الخوص أو البوص Rceds وهو نفس البوص الذى استعمله قدماء المصريين فى صنع قواربهم .. بل إن الرحالة العالمى تور هايردال Thor Hayerdal قد أثبت (١) نظريته القائلة بأن قدماء المصريين بقواربهم أو سفنهم المصنوعة بطريقة معينة من البوص استطاعوا اجتياز المحيطات وهم أول من نزل فى أمريكا الجنوبية وعلموا أهلها صناعة السفن من البوص من ضمن ما علموه لأهل أمريكا .. أثبتها هايردال بأن صنع قاربا مشابها من البوص فى مصر على طريقة قدماء المصريين وسافر بالقارب من المغرب إلى أمريكا الجنوبية معتمدا على التيارات المائية والقلاع البدائية ..

وحول بحيرة تيتى كاكا سوف تجد نفس البوص ينمو «شيطانيا» وسوف تجد سفن الصيد من البوص بنفس طريقة المصريين القدماء ؟ هل أسطورة أم حقيقة ؟

وهل بعض هؤلاء الهنود الحمر حقا من سلالة المصريين القدماء؟ .

(٥) بوينس آيرس Buenos Aires : عاصمة الأرجنتين :

تقع الأرجنتين فى الجهة المقابلة تماما لشيلى وتطل على المحيط

(١) Thor Hayerdal تورهايردال وهو نورويجى الجنسية The Raa Expedition .

الأطلسى لكنها أكبر كثيرا من شيلى فى المساحة كما أنها أكثر غنى وثراء وتقدما صناعيا .. وهى من أكبر مصدرى القمح واللحوم والصوف التقليديين منذ القرن التاسع عشر ومطلع العشرين حيث جمعت ثروات طائلة من وراء هذه الصناعات . وأهلها مزيج من سلالات الأسبان والايطاليين والبريطانيين . لكن بصفة خاصة فى العاصمة بوينس إيرس يكثر الايطاليو الأصل .. ويطلقون على سكان بوينس إيرس اسم سكان الثغر Los Portenos .

ومعنى بوينس إيرس الهواء الطيب لكنها أكذوبة كبيرة فالعاصمة تقع على خليج مائى داخلى شديد الرطوبة يصب فيه نهر لابلاتا مما يجعلها حارة جدا صيفا وباردة شتاء .. أما أثرياء المدينة وأثرياء الأرجنتين وهم بالآلاف من أصحاب الضياع الشاسعة التى تنتج القمح أو تستخدم كمراعى لتربية الحيوانات يقضون أجازات الصيف أما فى أوروبا ، وأما في شواطئ دولة أوروجواى القريبة من شاطئ يونتادل إستى القريب من العاصمة مونتفيديو punta del este .

حيث يفصل بوينس إيرس عن مونتفيديو عاصمة أوروجواى رحلة بحرية تستغرق سبع ساعات .

وإما فى شواطئ الأرجنتين نفسها جنوبى العاصمة على المحيط

حيث الهـــواء الطيب حقا Mar del Plata وكازينوهات القمار واللهو واللعب ..

★★★

أما مدينة بوينس إيرس فهي أعظم مدن أمريكا الجنوبية وأكثرها أصالة وفخامة ويسمونها باريس أمريكا اللاتينية من حيث أناقتها وجمال تخطيطها ورقيها وامكانيات اللهو فيها .

فيها شوارع طويلة فسيحة فخمة تحاكى الشانزليزيه فى باريس أهمها Nueve de Julio وبها مبنى البرلمان المستوحى من مبنى الكونجرس الأمريكى وبها حى تجارى ملئ بالحركة والحياة حول Via Florida طريق فلوريدا .. كما أن بها متجرا شهيرا اسمه Harrods لا يمت بصلة القربى لهارودز الشهير فى لندن لكنه أن دل على شئ فعلى أن أهل بوينس إيرس يحاولون محاكاة أوروبا (باريس ولندن) فى كل شئ ويحـــاولون إيهـــام أنفســهم أنهم أوروبيون أكثر منهم لاتينيون . والمعلوم أن الأرجنتين وشيلى وأوروجـــواى وكوستاريكا هى أهـــم دول أمريكا اللاتينية التى خلت تقريبا من الجنس الهندى أو الأفريقى ..

بماذا تشتهر بوينس إيرس؟.. فى مطاعمها تقدم أكبر وأشهى بوفتيك Steaks حيث أن لحم عجول الأرجنتين له شهرة خاصة وهى

من أكبر مصدرى اللحوم فى العالم . ويقدمون البوفتيك أحيانا على قطعة من الخشب السميك بدلا من الاطباق المعتادة .. ولكن صادفت إحدى زياراتنا لبوينس ايرس فترة منعت فيها الحكومة ذبح العجول وبيع اللحوم أسبوعين من كل شهر من باب الاقتصاد !!

كذلك تشتهر بالمنتديات أو الكازينوهات التى تقدم عروضا طويلة على يد محترفى رقصة التانجو التى اختلقها ايطاليو بوينس إيرس فى مطلع القرن العشرين .. ويحسن أهل بوينس إيرس هذه الرقصة كما لا يحسنها غيرهم .

وتشتهر بوينس إيرس بالمثل بصناعات جلود التماسيح Croco-dile (حقائب وأحزمة ومحافظ وأحذية .. إلخ) وبالمنسوجات الرقيقة حسنة الذوق فالطبقات الراقية هناك تتشبه بأهل باريس ولندن .

وقصة الأرجنتين قصة نجاح وفشل ، قصة صعود وهبوط مستمر ، فقد سبقت كل دول أمريكا اللاتينية فى التنمية والتطوير بفضل التركيبة السكانية أولا والثروة الطارئة القديمة التى صاحبت صعود الأرجنتين على رأس قائمة مصدرى اللحوم والجلود والصوف والقمح أثناء الأزمات الدولية العالمية مثل الحربين الأولى والثانية .. لكن كان يصاحب تلك الفترات فترات اسراف وتبذير أرجنتينى كانت تنتهى دائما بالكساد والضيق والبطالة والأزمات الاجتماعية الداخلية التى أدت إلى قيام البيرونية Peronism :

(ظاهرة الجنرال بيرون وتحالف الجيش مع العمال ضد أصحاب العمل) .. وقد أدى تكرار حدوث هذه الدورات Cycles إلى تكرار تدخل الجيش وتململ العمال وإيقاف مسيرة التقدم الاقتصادى والعمرانى والسياسى .

أما حاليا فالأرجنتين من الدول التى ترزح تحت هم الديون الأجنبية الثقيلة (١٠٠ مليار دولار) ورغم عودة الديمقراطية فإن البلاد أبعد ما تكون عن الاستقرار السياسى والاقتصادى بعد ..

كانت دول A. B. C. (وهى ترمز إلى الأرجنتين - البرازيل وشيلى(١)) قائدة مسيرة دول أمريكا اللاتينية سياسيا واقتصاديا وعمرانيا وانضمت إليها المكسيك أيضا .. ومازال التنافس على قيادة أمريكا اللاتينية بين الأرجنتين والبرازيل مستمرا وكلاهما دولة متقدمة فى أبحاث الذرة وإن كانتا على شفا الافلاس أيضا .. أما شيلى فقد خرجت بالكاد من عقدين من الحكم العسكرى الدكتاتورى ومازالت تتلمس طريقها إلى الحياة الديمقراطية من جديد ..

(٦) مونتيفديو عاصمة الاوروجواى (٢) :

تقع شمال مدينة بوينس إيرس مباشرة ولا يفصل بينهما إلا الخليج

---

(١) Argentina, Brazil, Chile

(٢) مونتفيديو Nontevideo معناها الحرفى «أرى جبلاً» وهى عبارة نطق بها أحد المستكشفين الأول لهذه المنطقة .

«فم نهر لابلاتا» الذى يعبره السائحون الأرجنتينيون فى سبع ساعات للاصطياف على شواطئ الاوروجواى المفتوحة على الأطلس .. والاوروجواى أصغر دول أمريكا اللاتينية حجما لكنها من أكثرها ديمقراطية وتقدما من الوجهة السياسية والانسانية وأهلها كلهم من الجنس الابيض .. وكان لها تاريخ مشرف فى نواحى التعليم وممارسة الديمقراطية الغربية حتى بدأت الثورة الاجتماعية العنيفة فى أواخر الستينات ومطلع السبعينات «ثورة المدن» أو ثورة Tupamaros (نسبة إلى اسم زعيم هندى قديم) وتميزت بأعمال التخريب داخل المدن وكانت أول ظاهرة من نوعها قبل انتشار موجات العنف المماثلة فى مدن العالم الأخرى (بيرو – كولومبيا – ايطاليا – اليابان – المانيا .. الخ) وقد اضطر ذلك الجيش الأوروجواى إلى إمساك مقاليد الحكم بيده فترة من الزمن ضحى فيها بالحريات وبأساليب الديمقراطية التى اعتادتها الاوروجواى .. لكن بعد القضاء على ثورة التوباماروس عاد الجيش إلى ثكناته من تلقاء نفسه وسلم مقاليد الحكم إلى الحزبين السياسيين التقليديين الحزب الليبرالى والحزب المحافظ اللذين يتبادلان فترات الحكم ..

وأوروجواى حديثة العهد بالاستقلال نسبيا عن جيرانها فقد اتفق على اقامتها فى القرن التاسع عشر كحاجز أو حائط أمان يفصل ما بين الأرجنتين والبرازيل ليمنع المنافسة على امتلاك منطقة أوروجواى والمواجهة والاصطدامات فيما بينهما ..

وأوروجواى أرضها مراعي معتدلة المناخ واقتصادها يقوم على نتاج المراعي وتصدير الصوف واللحوم هو الآخر .. وأهلها تغلب عليهم صفات الاقتصاد والحرص وعدم الاسراف ربما بسبب أصولهم البريطانية والاسكتلندية بما يتضح فى حياتهم اليومية وفى عاصمتهم مونتى فيديو Monte Video .

فهى عاصمة أوروبية نظيفة لكن دون مبالغة فى الفخامة أو الأناقة أو مظاهر الثراء .. لكن ما يجذب السائحين إلى المنطقة هو الشواطئ الرملية الممتدة على طول مائتى كيلو متر بحذاء المحيط الأطلسى مباشرة فى Punta Del Este (١) والتى تنعم بنسمات البحر بعيدا عن حرارة ورطوبة بوينس إيرس صيفا .. فالاوروجواى تعيش فى ظل وفي كنف بوينس إيرس التى حمتها من ابتلاع البرازيل لها وتورد لها السائحين صيفا .

(٧) ريودى جانيرو عاصمة البرازيل السابقة :

البرازيل كبرى دول أمريكا اللاتينية وعملاق القارة الجنوبية حاليا ومستقبلا

تمتد من خط الاستواء جنوبا حتى خط عرض ٣٠ جنوبا (وهو ما يماثل المسافة من بحيرة فكتوريا فى هضبة البحيرات وسط أفريقيا إلى

---

(١) معناها اللسان (أو الشريط) الشرقى .

مدينة القاهرة ، وتكاد تصل من المحيط الأطلسى شرقا حتى قرب المحيط الهادى غربا لا يفصلها عن الأخير إلا شريط دولة بيرو الساحلى ، وتشتهر البرازيل بغابات نهر الأمازون الشهيرة .. الغنية بالأشجار والمعادن ..

وتتميز البرازيل أيضا بأنها الدولة الوحيدة فى أمريكا اللاتينية التى تتكلم البرتغالية وليست الأسبانية ، فقد كانت مستعمرة برتغالية فى حين أن بقية دول أمريكا اللاتينية خضعت للحكم الأسبانى .. ومرت البرازيل بعد ذلك بمرحلة تجربة «امبراطورية» فقد نصب أحد الأمراء البرتغاليين نفسه امبراطورا على البرازيل لكن انتهت التجربة سريعا بالفشل وبإعلان الجمهورية . وكانت العاصمة فى ريودى جانيرو (معناها نهر شهر يناير : لأن المنطقة اكتشفت فى شهر يناير) ولكن قررت حكومة البرازيل من خمس عشرة سنة الانتقال إلى عاصمة جديدة داخل القارة هى برازيليا وتبعد عن ريودى جانيرو ألفى كيلو متر تقريبا من أجل تشجيع اكتشاف وتنمية المناطق الداخلية وتعميرها ، ولأن ريودى جانيرو كانت ، أو قد أصبحت ، مدينة يغلب عليها طابع اللهو والمرح وجو «المصيف» طوال العام مما لا يشجع العمل المثمر !!

فمدينة ريودى جانيرو تقع على خط عرض مدار الجدى (مايوازى مدينة أسوان) فمناخها حار ورطب طوال العام بسبب وقوعها على

المحيط الأطلسى ، لكن ما يعوض ذلك هو تمتعها بسلسلة طويلة من الشواطئ الرملية الجميلة والمتسعة . إما حول الخليج (شواطئ بوتافاجو - وفلامنجو - وايكاراى - وساكودى سان فرانسيسكو) أو على المحيط مباشرة (شواطئ كوبا كايانا - فيرميلا - ايبانيما - ليبلون - جلنفيا) وكلها أصبحت مرتعا للفتيات الكاريوكاس Cariocas (أى أهل ريودى جانيرو) .. وفتيات البرازيل عامة وريودى جانيرو خاصة لهن شهرة طبقت الآفاق فهن يتميزن بالرشاقة التامة وكمال الأجسام وخفة الظل والسمرة الخفيفة وبكثير من الخلاعة .. ويتفنن فى تصغير حجم «بذلة البحر» أو «المـــايوه» حتى وصل أو كاد إلى حجم ورقة التوت ولا عجب فهـن فتيات كارنفـــال ريـودى جانيرو الشهير الـذى يجرى لمدة ثلاثة أيام قبل فترة الصيام Lent فى شهر فبراير ويظل أهل ريودى جـــانيرو يرقصـون ويمــرحـون ويعربدون ثلاثة أيـــام بلياليـها يغسلون فيها همـومهم وآلامهم ويبدءون بعدها سنة جديدة بقلب خال على حد قولهم !!

وأهل البرازيل خليط غريب من سلالات البرتغاليين والعبيد الافارقة الذين جئ بهم للعمل فى المزارع .. ولا تفوق نسبة الجنس الأبيض الخالص فى البرازيل عشرة فى المائة من مجموع السكان البالغ عددهم أكثر من مائة وخمسين مليونا ، وأما البقية فأغلبها من الـ Mulattos نتيجة الاختلاط والامتزاج بين السود والبيض .. ومن هنا فسوف يجد

الزائر البرازيليات (والبرازيليين) الشقراوات (نسبة قليلة) والخمريات وما هن أقرب إلى الزنجيات (نسبة كبيرة) وتسكن نسبة كبيرة من الطبقات الارستقراطية البيضاء القديمة ريودى جانيرو - وسان باولو - والأخيرة تقع على هضبة مرتفعة فجوها معتدل يشجع على النشاط والعمل الجاد .. ومن هنا فإنها المدينة التجارية الصناعية الكبرى فى البرازيل .. مدينة أصحاب الأعمال وأصحاب المصانع ورجال التجارة والبنوك .. يبدأ بها تجربة كل جديد لكنها لا تهمل التقاليد .. ويسمونها بالقاطرة التى تجر وراءها أعباء وثقل البرازيل (مثلما يقال عن ميلانو فى ايطاليا أيضا) .. وساوباولو هى أقرب إلى المدن الامريكية فى الولايات المتحدة وهى مزدحمة بناطحات السحاب .. ولئن تحدثنا عن المرح واللهو فى ريو فيجب ألا ننسى أن البرازيل أصبحت قلعة صناعية ضخمة تصدر السيارات والطائرات والأسلحة وتلهو بتجارب الذرة وآخر المستحدثات العلمية والألكترونية .

لكن البرازيل هى ريودى جانيرو : حيث الحرارة والدفء واللهو والمرح والكارنفال فريودى جانيرو هى قلب البرازيل النابض ولشد ما استناء الدبلوماسيون الأجانب المعينون فى البرازيل عندما قررت حكومتها نقل العاصمة إلى مدينة «برازيليا» الجديدة فى أعماق البرازيل، واضطروا إلى أن يتركوا خلفهم كل هذا الرصيد من المرح والفتنة .. والجمال الخلاب أقصد جمال الطبيعة .

فمدينة ريودى جانيرو تحتل منطقة من أجمل مناطق العالم قاطبة فقد بنيت على الشاطئ الجميل الملتف حول خليج رائع ثم على سفوح وفى أحضان جبلين اشمين من الصخر وراء المدينة الـ Pano de Qzucat (قمع السكر) Corcovado وممكن للسائح تسلقهما بالفنوكلير لمشاهدة منظر من أروع مناظر العالم .

وبالإضافة إلى جمال الطبيعة الخارق استطاع الكاريوكاس (أهل ريو) اضفاء لمسات جمال تدل على فن وخيال البرازيليين الخصب .. وهناك عدد من الطرق الساحلية الأنيقة Corniches تلتف حول كل ما سبق ذكره من شواطئ ريودى جانيرو ولكن أشهرها -Copa Caba na الشاطئ الرائع الجمال حقا .. وقد اصطفت عليه سلسلة لا تنقطع من العمارات والفنادق العالية الفاخرة .. إنها حقا مدينة جميلة ساحرة.. لكن ؟ هل يستطيع المرء تمضية أكثر من أيام معدودة فى اللهو والمرح؟ إن اللهو والمرح إذا استمرا طوال العام لفقدا طعمهما ولذتهما !!

ويؤكد الكاريوكاس أنهم قوم جادون ويعملون طوال النهار لكسب عيشهم بسبب ارتفاع تكاليف المعيشة .. ومعظم سكان ريو ليسوا أغنياء طبعا لكن .. الواقع أن جو «ريودى جانيرو» جو الاصطياف المستمر واللهو المستمر أيضا ..

فقد قال لى زميل دبلوماسى يقيم فى ريو عندما كنت أزور ريودى جانيرو لأول مرة قادما من لندن للسياحة: قال لى ألا يدفع المرء القادم من لندن مثلك عشر سنوات من عمره ليقضى بقية حياته فى ريودى جانيرو؟! «وقد أجبته فى نفسى فى التو واللحظة بكلا ثم كلا.. كفى المرء يومين أو ثلاثة فى ريو للاستمتاع بها.. فهو الحد الأقصى.. ولا يستطيع المرء أن يأكل إلا كميات محدودة من العسل أو من البقلاوة ! فان الجو السائد فى ريودى جانيرو رغم كونها مدينة ضخمة تعدادها حوالى ٥ ملايين وبها طبعا مجالات للعمل الجاد لمن شاء العمل - لكن الجو السائد بها هو جو الصيف وجو اللهو والمرح على البلاجات.. فهى إذن قلب البرازيل الحقيقى أو هى العاصمة الروحية للبرازيل بأكملها - حتى مفارقاتها ومتناقضاتها (الفقر والثراء) إن هما إلا مرآة حقيقية للحياة فى البرازيل.. تزامل ناطحات السحاب الضخمة والاحياء الحديثة الثرية مع أحياء العشش والاكواخ Las Fave llas بريودى جانيرو والحاوية لمئات الآلاف من البرازيليين السود الفقراء.. عشاق السامبا ودعامة الكرنفال.. أهل الفقر والموسيقى والرقص..

أما أين تقضى سهرتك هذا المساء فى ريو؟ ليس هناك طبعا إلا مدارس السامبا Escolas de Samba وهناك عشرات بل مئات الكازينوهات المسماة «مدارس السامبا» حيث يتمثل العرض فى أستاد

أو أساتذة - يمسكون بالعصا فى يدهم - يعلمون الفتيات الكاريوكات الجميلات جدا والرشيقات جدا السمراوات جدا أصول هز الأرداف على أنغام السامبا، وفى النهاية تتفوق التلميذات على الأستاذ فى هز الأرداف.

لكن.. هل يستطيع المرء أن يراقب هذا المشهد، نفس المشهد المتكرر طوال الليل؟!

وعندما كنت سفيرا فى استراليا تصادقت مع زميلى سفير البرازيل بها وكان دبلوماسيا قديرا محنكا ذا خبرة طويلة ونظرة ثاقبة وقد اعتاد أن يدعو سفراء المجموعة الافريقية فى كانبرا إلى حفلات غداء فى منزله بين الحين والآخر.. وكان يحاول جدا التقرب إليهم قائلا لهم إن البرازيل بلد أفريقى!!

ولما دهش بعضهم وسأله مزيدا من الايضاح أجابه سفير البرازيل مؤكدا أن غالبية البرازيليين من أصل افريقى زنجى وأن تقاطيعهم وأخلاقهم وطريقة حياتهم افريقية بل أن مستوى معيشتهم والمشاكل التى تواجههم كلها مشاكل افريقية الطابع ورغم امكانيات البرازيل الطائلة فى الثروات الطبيعية والمعدنية والزراعية ورغم تقدمها العلمى والذرى والصناعى فمازالت فى جوانب كثيرة من حياتها دولة ينقصها توسيع رقعة التنمية لتشمل أغلب السكان.. أما حاليا فهى دولة نامية فى كثير من مناحى حياتها وحياة الغالبية من سكانها وهى دولة افريقية

أكثر منها برتغالية.. ومازالت طبقات الشعب الفقيرة ـ السوداء ـ تعتقد في سحر الفودو Voodoo الأفريقي وتمارسه!! لكن حجم ديون البرازيل الخارجية يفوق حجم ديون أفريقيا السوداء مجتمعه فهو أكثر من مائة وعشرين بليونا من الدولارات.. وأن ننسى لا ننسى أن السامبا نفسها رقصة البرازيل المفضلة رقصة أفريقية حملها معهم إلى البرازيل البرازيليون الأفارقة الوافدون من غرب أفريقيا.. وانتقلت بعد ذلك من مقاطعة باهيا.. Bahia في شمال البرازيل حيث يكثر الزنوج انتقلت بعد ذلك.. إلى ريودى جانيرو.. فكل العالم..

(٨) كاراكاس عاصمة.. فنزويلا Caracas :

تتوسط فنزويلا أقصى شمال أمريكا الجنوبية وتطل على البحر الكاريبى جزء من (المحيط الأطلسى) من خط الاستواء جنوبا إلى خط عرض ١٠ شمالا: فتقع إذن فى المنطقة الاستوائية الحارة الرطبة.. لكن بها بعض المرتفعات التى تلطف حيثما وجدت ـ من حرارة الجو.. مثال ذلك في كاراكاس العاصمة.. وميناؤها لاجوايرا La Guaira.

فالميناء ـ على البحر طبعا ـ شديد الحرارة والرطوبة.. لكن يأخذك الطريق إلى أعلى رويدا رويدا حتى يرتفع بك إلى قرابة خمسمائة متر أو أكثر فتبدأ الاحساس بالراحة والنشاط من جديد.. بعد نصف ساعة من مغادرتك للاجوايرا .

وقد وصفت كاراكاس فنزويلا بأنها تذكرنى ببعض دول الخليج البترولية.. فقد كانت حياتهم تقوم على المراعى وثمرة المراعى فقط

وأهلها رعاة يعيشون على الفطرة.. وكانت تمثلهم اجمل واصدق تمثيل الاغنية الفنزويلية الجميلة المفضلة والمسماة «روح المراعى»(١) Alma Lianera أى المراعى.. ولم تكن حياتها الاجتماعية والثقافية أو الفكرية تبدى سوى روح المراعى هذه هى الاخرى، وكانت مدينة كاراكاس تبدى هى الاخرى طابع وروح عاصمة دولة من أصحاب المراعى البعيدين عن الانغماس في نفحات العراقة أو لمسات الجمال أو الاصالة أو الثقافة.

ثم مالبث البترول أن اكتشف بكثرة شديدة ووفرة.. فقلب كل شيء بفنزويلا رأسا على عقب.. وأصبحت من أكثر مصدرى الأوبك.. وبدأ اقتصادها كما بدأت مدينة كاراكاس تتخذ الطابع المصاحب لطفرات وثروات البترول الطارئة.. وامتلأت كاراكاس بالمراكز التجارية الحديثة البراقة اللامعة وامتلأت بناطحات السحاب والعمارات الفخمة والسيارات الامريكية الفارهة.. وأخذ الفنزويليون يقودون سيارات الكاديلاك والبويك وهم ينفثون دخان. السيجار الهافانا الفاخر، ويجلسون فى بارات الفنادق الكبرى يرشفون أقداح الويسكى منذ الصباح أو الظهيرة ومع ذلك فقد بقيت كاراكاس دون طابع مميز لها فى نظرى سوى نفحات الدولارات البترولية .. رغم حسن نيتي ومحاولاتى الجادة لرؤية مناحى الجمال الجديدة أو الفن أو الذوق فقد خرجت بنتيجة أنه يحسن انتظار الاجيال القادمة التى سوف تكون بلا شك أكثر أصالة ونبلا وعراقة.

★★★

---

(١) وتنطق «آلما يانيرا» - و «لوس يانوس».

الفصل الرابع

سفير لدى الأمم المتحدة

وصلنا نيويورك قادمين من ليما بالطائرة فى يوليو ١٩٧٥ أى فى الوقت المناسب للإعداد لدورة الجمعية العامة السنوية التى تبدأ فى يوم الثلاثاء الثالث من سبتمبر من كل عام.. كانت هذه هى المرة الثالثة التى عملت بها بالبعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة إذ كانت المرة الأولى من ٦٠ ـ ١٩٦٣ إذ عملت بها كمستشار للبعثة، أما المرة الثانية فعندما نلت زمالة Fellow Ship مركز الشئون الدولية بجامعة هارفارد ٦٥ ـ ١٩٦٦ فقد كنت رسميا مقيدا على بعثتنا فى نيويورك كمستشار للبعثة وكنت كثير التردد على بعثتنا فى نيويورك بين الحين والحين، أما المرة الثالثة فكانت عند تعيينى هذه المرة فى البعثة كسفير ومندوب دائم مناوب لدى الأمم المتحدة . ومن هنا لم تكن الأمم المتحدة أو نيويورك تمثل فى مخيلتى رهبة أن طرافة المجهول بل كانت أعلم مقدما بما ينتظرنى سواء من ناحية نوعية العمل فى البعثة أو فى الأمم المتحدة أو من ناحية حياتى الخاصة وسكنى ومعيشتى.. إلا أن وجه الخلاف

الأكبر(١) كان يمكن فى اختلاف وظيفتى ودرجتى عن المرتين السابقتين ففى هذه المرة كنت «سفيرا» وقد سبق لى رئاسة سفارتنا فى ليما ببيرو وكنت سأعمل كالرجل الثانى فى البعثة كمندوب دائم مناوب أى المعاون الأول لمندوبنا الدائم لدى الأمم المتحدة، وكان (السفير) د. عصمت عبدالمجيد (نائب رئيس الوزراء ووزير خارجيتنا بعد ذلك)(٢) وهو صديق قديم لى وزميل عزيز يتمتع بحب وتقدير جميع أعضاء السلك الدبلوماسى وجميع من اتصل به لأدبه المفرط ودماثته وحكمته ورجاحة عقله وخبرته الطويلة بالعمل الدبلوماسى منذ سنة ١٩٤٦ فى أهم المواقع.

وتجدر الاشارة إلى أن معظم بعثات الدول إلى الأمم المتحدة يرأسها سفير واحد هو المندوب الدائم وتعاونه هيئة قد تتكون من وزير مفوض أو مستشار كالرجل الثانى وبعض المستشارين والسكرتيريين. لكن عددا صغيرا من الدول منها الدول العظمى (الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا على سبيل المثال) جعلت الرجل الثانى فى بعثتها لدى الامم المتحدة بدرجة سفير.. بل إن وفد الولايات المتحدة يرأسه

---

(١) كانت زوجتى ومازالت شديدة التعلق بنيويورك مثلها فى ذلك مثل كل زوجات الدبلوماسيين الذين عملوا بالمدينة أما أنا فرغم تقديرى لأهمية الموقع ولثراء التجربة فقد كنت شديد الأسف لتركى ليما بتلك السرعة.

(٢) حاليا أمين عام جامعة الدولة العربية

سفير يعاونه أربعة أو خمسة سفراء آخرون فضلا عن عدد كبير من الوزراء المفوضين والمستشارين . ولم يكن نظام السفير / المندوب المناوب لوفد مصر لدى الامم المتحدة معمولا به قبل سنة ١٩٥٨ إذ كان الرجل الثانى فى وفد مصر بدرجة وزير مفوض إلا إنه بعد تمام الوحدة مع سوريا ١٩٥٨ أصبح السفير المندوب الدائم السورى سفيرا ومندوبا دائما مناويا لوفد الجمهورية العربية المتحدة، واستمر هذا النظام معمولا به حتى بعد انفراط الوحدة واستمر حتى سنة ١٩٨٨ ولم يكن ذلك بفعل ما اعتاده وفدنا منذ ايام الوحدة فقط بل لعل السبب أيضا كان يكمن فى أهمية العمل الدبلوماسى بالنسبة لمصر فى ميدان الأمم المتحدة فقد كانت السنوات من ١٩٥٨ وحتى أوائل الثمانينات سنوات حافلة بالمشاكل والقضايا السياسية الهامة المطروحة أمام الأمم المتحدة ومنها قضايا تأميم القنال والعدوان الثلاثى ومحاولة ازالة آثاره وقوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة التى اوفدت إلى سيناء (ومازالت قوات الطوارىء التابعة للأمم المتحدة فى لبنان والجولان وهناك قوات طوارىء دولية فى سيناء إلى يومنا هذا) ثم قضايا الكونغو وبيافرا وتصفية الاستعمار والابارتايد وناميبيا ثم حرب الأيام الستة ١٩٦٧ وما تبعها من آثار ومنها إعادة إرسال قوات الطوارىء الدولية الى سيناء ثم قضية احتلال اسرائيل لسيناء من ١٩٦٧ وحتى انسحابها النهائى ١٩٧٩ وهناك قضية حرب العبور سنة ١٩٧٣ وما

تلاها من دبلوماسية مصرية مكثفة لم تنته إلا بعد سنة ١٩٧٩ إن صح أنها انتهت حقا.. كل ذلك وضع عبئا دبلوماسيا ثقيلا جدا على كاهل السفير المندوب الدائم استلزم في رأى وزارة خارجيتنا ان يكون المعاون الاول للسفير المندوب الدائم هو الآخر بدرجة سفير حتى يستمر تمثيلنا على نفس المستوى في حالة غياب المندوب الدائم أو انشغاله بأعمال أخرى.

وفي أيام الوحدة مع سوريا كان السفير المندوب الدائم المناوب دبلوماسيا سوريا وكان السفير رفيق العشا ثم يليه السفير فريد الشحلاوى إلا انه بعد أن صفيت الوحدة صار المندوب «المناوب» دبلوماسيا مصريا.. وقد تبوأ هذا المنصب دبلوماسيون مصريون على جانب كبير من المقدرة منهم على سبيل المثال لا الحصر السفراء الدكتور محمد حسن الزيات والمرحوم الدكتور عبد الله العريان ود. أحمد عثمان ثم كاتب هذه السطور ومن بعدى السفير عبدالحليم بدوى ود. نبيل العربى والسفير عمرو موسى والسفير محمد شاكر، ثم عاد بعضهم مثل د. نبيل العربى والسفير عمرو موسى لتولى رئاسة البعثة كسفير ومندوب دائم(١)، وقد رأس هذه البعثة باستمرار ايضا سفراء على درجة كبيرة من المقدرة الدبلوماسية منهم أيضا على سبيل المثال

---

(١) عمرو موسى حاليا وزير الخارجية .

لا الحصر الدكتور محمود فوزى، والسفراء عمر لطفى ومحمد عوض القونى ومحمود رياض ومحمد حسن الزيات وأحمد توفيق خليل وعبدالحليم بدوى وعمرو موسى .. ود. نبيل العربى فقد اخرجت مدرسة الأمم المتحدة بعض مشاهير الدبلوماسية المصرية وأسمائها اللامعة يحضرنى منها على سبيل المثال لا الحصر أسماء السادة/ اسماعيل فهمى والمرحوم محمد رياض وعبد الحميد عبدالغنى (عبد الحميد الكاتب) ود. أشرف غربال وعمر سرى وعمران الشافعى وعبدالرؤوف الريدى وسعد الفرارجى ووفيق حسنى وأحمد صدقى ومحمد شاكر وأحمد حجاج ومحمد الذئيبى. وهكذا وكلهم أصبحوا من أساطين الدبلوماسية المصرية ومن أعلامها.. فالأمم المتحدة مدرسة أى مدرسة لمن شاء الاستزادة والاستفادة من مناهلها ولمن كان يملك الاستعداد الكافى.

ولكن كما سلفت الاشارة فإن أهمية القضايا المطروحة أمام الأمم المتحدة تختلف من سنة إلى أخرى أو من فترة إلى أخرى صعودا أو هبوطا سواء أكان ذلك بالنسبة إلى دولة معينة (كمصر مثلا) أو لمجموع أعضاء الأمم المتحدة. فقد كانت السنوات من الستينات الى اوائل الثمانينات حافلة بشتى القضايا السياسية المطروحة أمام الأمم المتحدة هذا بالاضافة الى قضايا الحرب الباردة والمواجهات العنيفة بين الدولتين العظميين أو بين حلفى الأطلنطى ووارسو،

ولكن تبع ذلك فترة شلل أو وهن أصاب الامم المتحدة وأضعف من مكانتها بسبب تفضيل الدولتين العظميين عدم طرح قضاياهما السياسية والساخنة أمام الأمم المتحدة وإنما تفضيل محاولة حلها بالطرق الدبلوماسية التقليدية خارج دائرة الأنوار بعيدا عن المواجهة الصريحة فى الأمم المتحدة.. ومن ناحية أخرى فإن مصر بعد توقيع معاهدة السلام مع اسرائيل لم تعد فى حاجة إلى الأمم المتحدة لتصفية قضية مصيرية مثل احتلال اسرائيل لسيناء وايجاد حل سلمى للشق المصرى من النزاع العربى الإسرائيلى وقد تم تصفية هاتين القضيتين بالمثل بالمفاوضات المباشرة خارج الأمم المتحدة..

ومن ثم فقد قررت وزارة خارجيتنا منذ سنة ١٩٨٨ العودة إلى النظام السابق لقيام الوحدة مع سوريا وجعل منصب الرجل الثانى فى البعثة الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك بدرجة وزير مفوض (١) وليس درجة سفير مناوب.

وليس معنى هذا الانتقاص من أهمية الأمم المتحدة أو من قدر حاجة المجموعة العربية إلى وساطة الأمم المتحدة واستمرار مسئولياتها لتصفية الشق الآخر من النزاع العربى الاسرائيلى وإحقاق حقوق الشعب الفلسطينى.. لكن الملاحظ أن التركيز فى الآونة الاخيرة أصبح

(١) درجات السلك الدبلوماسي من أسفل السلم تبدأ بملحق ثم سكرتير ثالث فسكرتير ثان فسكرتير أول فمستشار فوزير مفوض ثم سفير وأخيرا أعلي السلم سفير ممتاز (الدرجة الممتازة).

على ضرورة قيام مفاوضات مباشرة بين اسرائيل وممثلى الشعب الفلسطينى وكل من سوريا ولبنان فى نطاق مؤتمر دولى عن الشرق الاوسط وهو ما أقرته مؤتمرات القمة العربية ويسعى اليه المجتمع الدولى حاليا..

ورغم استمرار مسئولية الأمم المتحدة عن تصفية قضايا الابارتيد والتفرقة العنصرية فى جنوب افريقيا واتمام تحرير إقليم ناميبيا تحت اشراف الأمم المتحدة ، فإن الجديد فى هذه القضايا كان بدء الاعتماد على المفاوضات المباشرة ما بين جنوب افريقيا ودول المواجهة الست ، ومابين جنوب افريقيا وكل من انجولا أو موازمبيق ليس داخل نطاق الأمم المتحدة وإنما خارجها وعن طريق وساطة دول مثل الولايات المتحدة.

حتى فى قضايا المواجهة السافرة مابين العملاقين حول التسلح النووى ونزع السلاح وحرب الكواكب وافغانستان وجرينادا وما إلى ذلك فإن تفضيل العملاقين كان ولا يزال إتمام مفاوضات سرية مباشرة بينهما وبعيدا عن الضوضاء والأضواء ضمانا لحسن سير المفاوضات وعدم افشالها أما باستعمال أحد الطرفين حق الفيتو أو بسبب بعد جو الأمم المتحدة البعيد عن الدبلوماسية السرية.

ومن ثم فإن السنوات الاولى لقيام الأمم المتحدة بل وفى خلال الحقب الثلاث الاولى منها شهدت الامم المتحدة ذروة الاهتمام بالقضايا السياسية الساخنة والتى سبقت الاشارة اليها، ثم ما لبث أن ظهر

تفضيل الدول الكبرى لحل قضاياها السياسية الساخنة بالطرق الدبلوماسية التقليدية بعيدا عن أضواء الامم المتحدة، وضجيجها، بعيدا عن تأثير سيطرة الغالبية العددية الهائلة لدول العالم الثالث، والتى نتج عن استغلالها وانضمامها لعضوية الامم المتحدة اختلال الموازين الدقيقة وحسابات الدول العظمى القديمة داخل تلك المنظمة. لكن بدأت منذ ٩١ ـ ٩٢ تعود للأمم المتحدة بعض أهميتها بتفكك امبراطورية الاتحاد السوفييتى واحتمال اختفاء الحرب الباردة وآثارها القديمة.

إلا أن قلة المسائل السياسية الشائكة المطروحة أمام الأمم المتحدة فى نفس الآونة قد صاحبها زيادة ضخمة فى المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والفنية والادارية التى ظهرت اهميتها وطغت على اهتمامات دول العالم الثالث بل والعالم اجمع داخل نطاق الأمم المتحدة، بمعنى انه بعد أن نالت أغلب دول العالم الثالث استقلالها وتم تصفية قضايا الاستعمار (باستقلال ناميبيا أخيرا) فقد فرضت الظروف الأقتصادية والاجتماعية على دول العالم الثالث المطالبة بضرورة قيام نظام اقتصادى عالمى جديد أكثر عدالة وبضرورة تصفية قضايا مديونية العالم الثالث بشكل واقعى لا يهدد أقتصاديات تلك الدول ويدمر حياتها السياسية والاجتماعية وبضرورة نقل التكنولوجيا الحديثة مع رءوس الأموال الاجنبية اللازمة وهكذا طغى على اهتمامات الأمم المتحدة السياسية (كما حدث فى الحقب الثلاث الاولى) طغى عليها الآن اهتمامات فنية جديدة مما زاد من نشاط الوكالات المتخصصة التابعة

للامم المتحدة مثل منظمة الاغذية والزراعة FAO والصندوق الدولى للتنمية الزراعية IFAD منظمة التنمية الصناعية Unido والبنك الدولى، وصندوق النقد الدولى وبرنامج الامم المتحدة للتنمية UNDP كما زاد نشاط منظمات الامم المتحدة الاجتماعية المهتمة بحقوق الانسان وحقوق الانسان الافريقى ECOSOC الخ.. وبعض هذه الوكالات المتخصصة يقع فى جنيف أو فيينا أو واشنطن أو روما وقليل منها فى نيويورك ومن ثم فقد توزع أيضا جانب كبير من هذه الانشطة خارج مدينة نيويورك.

وهـذا لا ينفى استمرار أهمية منظمة الأمم المتحدة حتى فى الجانب الاصلى السياسى منهـا كمحفل دولى ممثل فى الجمعية العامة للامم المتحدة التى حتى وان كانت قراراتها تعتبر مجرد توصيات (ليست ملزمة مثل قرارات مجلس الامن) فإنها مازالت تمثل الضمير العالمى.

ومع ذلك فإن الأمل معقود على انه مع الاتجاهات الحديثة الحالية نحو كسر حدة أو إنهاء الحرب الباردة والاتجاه إلى المهادنة ومزيد من التعاون ما بين الدولتين العظميين.. بعد ازالة الستار الحديدى والتغيرات الجذرية المهمة التى حدثت فى دول شرق اوروبا فإن ذلك قد ينعكس بالتالى على اجواء الامم المتحدة.. والمنتظر والمأمول ان تعود اجهزة الامم المتحدة السياسية (مجلس الامن ـ الجمعية العامة) الى سابق نشاطها والى بعض فعاليتها السياسية السابقة.. وقد لا تكون هناك ضرورة فى المستقبل الى لجوء واحد من المعسكرين الشرقى أو الغربى الى استعمال الفيتو العتيد لشل نشاط مجلس الامن؟

تلك هى اذن الأمم المتحدة التى قدمت اليها فى يوليو ١٩٧٥ كسفير وممثل دائم مناوب لمصر كان لى هذه المرة حق الاستمتاع بسكن حكومى يعمل به طاهى وعامل آخر (جرسون) لزوم المآدب الرسمية.. وكان السكن يقع فى حى انيق أى فى بارك افينو مع تقاطعه مع شارع ٧٢ فى حين كانت مكاتب البعثة فى شارع ٦٧ أى انه كان يمكننى قطع المسافة بينهما على الاقدام في مسيرة خمس دقائق..

من أهم ذكرياتى فى هذه السنوات استمتاعى بالعمل فى رفقة الزميل والصديق د. عصمت عبد المجيد والافادة من عظيم خبرته وحنكته السياسية(١) كما سعدت برفقة فريق من المع واكفأ دبلوماسى مصر سبقت الإشارة إلى أسماء بعضهم كما أتيحت لى فرصة الاجتماع مع د. كورت فالدهايم سكرتير عام الامم المتحدة فى ذلك الحين والذى انتخب بعد ذلك رئيسا لجمهورية النمسا، كما سعدت بلقاء خافيير بيريز دى كويللار سفير بيرو ومندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة والذى انتخب بعد ذلك خلفا للدكتور - فالدهايم - سكرتيرا عاما للأمم المتحدة..

---

(١) مما هو جدير بالذكر أن السفراء فى الامم المتحدة يقدمون أوراق اعتمادهم بامضاء من وزير الخارجية وليس رئيس الدولة وتقدم الى سكرتير عام الأمم المتحدة كذلك تقدم اسماء الوفود اثناء دورات الجمعية العامة الى سكرتير عام الأمم المتحدة ويمكن فى حالة العجلة ارسال أوراق الاعتماد أو أسماء الوفود بطريق البرق الى السكرتير العام.

ومما يذكر ان خافيير بيريز دى كويللار يتمتع بذاكرة فذة حقا فضلا عن فضيلة التواضع والدماثة. فبعد تركى منصبى فى نيويورك سنة ٧٦ لم تتح لى فرصة العودة لرؤية بيريز دى كويللار لسنوات طويلة فى سنة ١٩٨٦ أى بعد عشر سنوات كاملة جاء بيريز دى كويللار يزور استراليا فى زيارة رسمية بصفته سكرتير عام الأمم المتحدة.. واقيم حفل غذاء على شرفه فى نادى الصحافة فى كانبرا عاصمة استراليا شهده السلك الدبلوماسى الاجنبى فضلا عن جيش من الصحفيين وفى وسط هذا الجمع الحاشد لمحنى بيريز دى كويللار من على بعد فتذكر اسمى وتهلل ووجهه بشراً وهو يرحب بى أمام هذا الجمع بحرارة ادهشت الكثيرين كما ادهشنى شخصيا.. ولاشك ان مثل هذه الذاكرة الفذة القادرة على الاحتفاظ بصورة واسم الصديق حتى بعد عشر سنوات لهما من أهم الصفات ذات الفائدة الكبرى للدبلوماسيين ورجال السياسة والصحافة.

وذات يوم خلال سنة ١٩٧٦ اثناء تغيب الدكتور عصمت عبد المجيد خارج نيويورك وصلتنى رسالة رسمية مهمة من رئاسة الجمهورية بالقاهرة لابلاغها الى دكتور هنرى كيسنجر وزير الخارجية الامريكى و«صديق» الرئيس الراحل انور السادات.. وقد أفادنى وفد الولايات المتحدة فى نيويورك بان د. كيسنجر كان يقيم فى الجناح المخصص لوزير خارجية أمريكا فى فندق والدورف استوريا الشهير فى نيويورك وتحدد لى موعد للالتقاء به فى فندقه صعدت الى الطابق الذى يقيم به فى أحد ابراج الوالدورف

أستوريا ومررت بعدد من رجال ادارة التحقيقات الفيدرالية FBI المكلفين بحراسة الجناح.. والمشهور عن دكتور هنرى كيسنجر انه شديد الاعتزاز بنفسه وانه جاف فى تعامله مع مرءوسيه أحيانا أو إذا شئنا الاختصار فانه ليس شخصية ظريفة ناعمة أو هكذا سمعت أو قرأت عنه فيما سبق.. ومع ذلك فقد استقبلنى بلطف وترحاب شديد واصر على تقديمى الى السيدة زوجته التى كانت فى حجرة مجاورة لصالون الضيوف فإذا به يطلب اليها الحضور للتعرف على سفير مصر.. وادار الحديث بلباقة وظرف شديدين عن مصر وعن شدة اعجابهما بآثارها الخالدة وبجوها واعتزامهما العودة لزيارتها قريبا.. وقد أكدت هـذه الواقعة ايمانى بان الانسان مخلوق شديد التعقيد وانه مكون من عدة شخصيات وأن الظروف والملابسات هى التى تظهر جانبا معينا من شخصية الانسان ومن هنا فقد لايتفق اثنان فى الرأى حول شخصية رجل معين فى حين قد يكون الاثنان على حق فى تقديرهما.. فكل منهما قد يكون إنما رأى جانبا واحدا بعينه من شخصية ذلك الرجل! وسواء كان د. كيسنجر ظريفا حقا أم لا فقد خرجت بانطباع اكيد عنه انه رجل شديد الذكاء يتمتع بشخصية جد قوية ولم اعد أدهش بسبب اختيار الرئيس الراحل له كالصديق هنرى!!

من ميزات العمل فى وفد من وفود الدول لدى الامم المتحدة إمكان

التردد على الأمم المتحدة : اقصد مبانى السكرتارية وبها مكتبة الأمم المتحدة فضلا عن المبانى الملاصقة التى تضم قاعات الجمعية العامة ومجلس الأمن ومجلس الوصاية وقاعات اللجان المختلفة، والاستماع الى أعظم خطباء العالم (١) المفوهين . ومنهم احيانا رؤساء الدول ووزراء الخارجية والسفراء ومعاونوهم.. كذلك الاستمتاع باستراحة المندوبين Delgates lounge وهى أقرب الى منتدى المندوبين بما تضمه من بوفيه يقدم بعض الشطائر والمشروبات وهى تتيح ايضا الفرصة لاجتماع المندوبين بعضهم ببعض فى اوقات الفراغ فيما بين انعقاد الجلسات.. وهذه القاعة بالذات، فضلا عن قاعات اللجان سالفة الذكر، من أهم مميزات العمل بالأمم المتحدة إذ تمكن المندوبين من التحادث والتشاور وقضاء كثير من الاعمال الموكلة اليهم دونما حاجة إلى تحديد مواعيد رسمية لاجتماعاتهم خارج مبانى الامم المتحدة.

والعمل فى المؤتمرات الدولية يتطلب هذا النوع من سرعة الاتصالات ومن التمكن من اجراء المشاورات دون مواعيد رسمية.

كذلك يوجد فى مبانى الامم المتحدة اكثر من مطعم وكافتيريا

---

(١) تترجم الخطب فوريا إلى واحدة من اللغات الرسمية للأمم المتحدة وهى الانجليزية والفرنسية والاسبانية والروسية والصينية والعربية بالنسبة لاهم الاجتماعات أى فى الجمعية العامة ومجلس الامن الخ.. أما فى الاجتماعات الاقل رسمية فلغات العمل عادة هى الانجليزية والفرنسية.

لموظفى سكرتارية الامم المتحدة وللمندوبين.. اما المطعم الرسمى الانيق فهو مخصص للمندوبين وحدهم ولمدعويهم.. ويعتبر أيضا مكانا ووسيلة لاجراء الاتصالات والمشاورات اليومية حول مائدة الغذاء (فهو مقفل فى العشاء).. ويحاول مطعم المندوبين أحيانا تقديم ألوان مختلفة تمثل بعض مناطق العالم المختلفة.

من ميزات العمل بالمثل فى الأمم المتحدة بنيويورك الاستمتاع بما تتيحه رابطة الامم المتحدة من تسهيلات . وهى جماعة مكونة من فضليات سيدات المجتمع الراقى فى نيويورك وازواجهن تكونت بغرض اقامة صلات الصداقة والتعاون مع دبلوماسيى الامم المتحدة أعضاء وفود الدول الاجنبية وتقديم جميع التسهيلات الممكنة لهم وتعريفهم بالولايات المتحدة وبأعضاء المجتمع البارز النيويوركى.. فضلا عن كل التسهيلات والميزات سالفة الذكر.. وهى ليست بالقليلة .. فإن الرابطة كثيرا ما تدعو اعضاء الوفود وبخاصة رؤساء الوفود إلى رحلات جماعية برفقة بعض أعضاء الرابطة لزيارة معالم نيويورك بالاضافة إلى أماكن أخرى أو مدن قصية فى امريكا مثل سان فرنسيسكو والساحل الغربى أو فلوريدا أو نيواروليانز وهكذا..

وكان من حسن حظى أن الرابطة دعتنى ذات مرة أنا وزوجتى فى رحلة نظمتها لسفراء الدول العربية المعتمدين لدى الأمم المتحدة الى

مدينة نيواورليانز فى ولاية لويزيانا فى أقصى جنوب الولايات المتحدة على خليج مكسيكو.. ومدينة نيواورليانز مدينة امريكية ذات طابع خاص إذ إنها كانت تقع فى اقليم لويزيانا الذى كان خاضعا للحكم الفرنسى وظلت مدينة نيواورليانز محتفظة بطابعها الاستعمارى الفرنسى وكثير من أهلها من سلالة فرنسية وتقدم مطاعمها وجبات فرنسية قديمة الطابع وتشتهر بالاسماك والجمبرى المطهى بطريقة خاصة.. كذلك تقام فى نيواورليانز مهرجانات وهى كرنفال مثل كرنفال ريو دى جانيرو تجىء ثلاثة أيام قبل بدء فترة الصيام عند المسيحيين فى شهر فبراير من كل عام Mardi yras .

وقد تضمنت تلك الرحلة زيارات إلى بعض المزارع القديمة ذات السرايات منذ العهد السابق لالغاء الرق وهى المزارع التى كانت تشتهر بزراعة القطن وكان تستخدم الزنوج العبيد فى جمع القطن الخ.. وبعض تلك السرايات مازال قائما ويوحى بثراء وجاه قديمين منذ القرن الثامن عشر لكن كان بعض السفراء العرب المرافقين لنا يبدون تململهم من زياراتنا لتلك القصور وكانوا يبدون الضجر والسأم ويصرحون برأيهم أن هذه القصور لا تعنى شيئا ذا اهمية بالنسبة لما يوجد فى العالم العربى.. سواء من ناحية الفخامة والقدم ولم يكن هذا ليرضى مضيفينا من الامريكيين الذين يعتزون بآثارهم التاريخية التى لا يتجاوز عمرها مائة وخمسين أو مائتى عام..

ومن أهم ذكرياتي في هذه الفترة في الأمم المتحدة (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) زيارة الرئيس الراحل أنور السادات للأمم المتحدة والقائه لخطاب مهم أمام الجمعية العامة هذا ويجمع السفراء لمختلف الدول على أن زيارة «رئيس الدولة» لمقر عمل سفير دولته قد تقفز بذلك السفير الى أعلى كما قد تعصف به..

A visit by the head of state Can make or break an AmPa ssador

وذلك إنما يتوقف على انطباعات رئيس الدولة حول نشاط سفيره في الخارج ومدى قدرته على انجاح تلك الزيارة من عدمه.

وهناك أمثلة كثيرة – لدى مختلف البلاد ـ لزيارة رئيس دولة اعقبها إما نجاح سفيره وتبوؤه لمناصب أعلى أو على العكس اعقبها انزال السفير من عليائه والحاق بعض الضرر به(١).

---

(١) اثناء زيارة احد رؤساء فرنسا إلى احدى الجمهوريات الناطقة بالفرنسية في افريقيا اعجب الرئيس بدبلوماسي شاب فرنسي كان يعمل رئيسا لبرامج المعونة فانتقاه ليرأس ادارة المراسم في رياسة الجمهورية ووزارة الخارجية في باريس لمدة سنتين أو ثلاث ثم اوكل اليه سفارة من اكبر سفارات فرنسا في الخارج بعد ذلك ومازال هذا الدبلوماسي الشاب في مقتبل العمر.. لكن يحدث احيانا ان يتسبب السفير أو قرينته في اغضاب رئيس الدولة أو ة. بنته.. فيحدث عكس ماحدث للدبلوماسي الفرنسي الشاب تماما..

وقد سبق وصول السادات الى نيويورك وصول رجال الامن والمراسم الرئاسية وكبار رجال الصحافة والاعلام وقد سمح رجال الامن والمراسم الامريكيين للسفير د. عصمت عبد المجيد وقرينته ولى وقرينتى وللقنصل العام المصرى فى نيويورك وقرينته بانتظار السيد الرئيس عند مهبط الطائرة.. واصطف بقية اعضاء الوفد الدائم والمصريون مسافة أخرى بعيدا .. وتوجه ركب الرئيس سريعا إلى نيويورك بمرافقة المندوب الدائم.. وكان خطاب الرئيس السادات أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة خطابا تاريخيا نظرا لما احاط عملية السلام في الشرق الاوسط من اهتمام وضجة.. وقد تسابق اصدقاء مصر من بين وفود الدول الاخرى والامريكيون بل والمصريون لرجائنا تدبير التصريحات الخاصة بالجلوس فى قاعة الجمعية العامة للاستماع الى الخطاب .. وقد غصت القاعة على سعتها ولم تعد هناك أماكن للجميع.. وكان هذا مدعاة لاسف او غضب الكثيرين من الاصدقاء أما لعدم حصولهم على تذاكر للدخول وأما لجلوسهم فى أماكن خلفية بعيدا عن الصفوف الأولى ورغم محاولات وفدنا لارضاء الجميع فلم يكن ذلك فى وسعنا على الاطلاق، وقد آثرت زوجتى اختيار مقعد خلفى لجلوسها وتنازلت عن المقعد الامامي لغيرها من الضيوف .. ووجدت نفسها جليسة الى جوار هيرمان آيلتس سفير أمريكا بالقاهرة وقتئذ الذى طار الى نيويورك لنفس المناسبة لكن هذا لم يمنع زوجة احدى مساعدى سكرتير عام

الامم المتحدة سيدة عربية من معاتبتها على عدم اهتمام وفدنا باجلاسها فى الصفوف الامامية والمهم ان وفدنا خرج من هذه التجربة مرفوع الرأس مستمتعا برضاء الرئيس فقد تمت جميع مراسم وتفاصيل الزيارة الرسمية على أتم مايرام . لكن ارضاء جميع من وفد الى نيويورك من القاهرة مرافقا للسيد الرئيس أمر شاق بل مستحيل ولاشك ان بعضهم أو بعضهن عاد الى القاهرة ولم ينل ما كان يطمع فيه من اهتمام او لطلبات خاصة.

نعود الى «عم محمود» طاهى سفارتنا فى ليما بيرو والذى ألح علىَّ لمرافقتى الى نيويورك لقد تعلم بسرعة اين يحصل على أجود المشتروات باقل الاسعار.. لكنه ظل يردد الى نهاية المدة دهشته لارتفاع اسعار المأكل فى نيويورك عنها فى بيرو وكان يسكن مع بعض العمال المصريين الآخرين العاملين فى بعثتنا فى الطابق الاسفل (البدروم) لمكاتبنا وذات يوم جاء الىَّ هاشا باشا يزف إلىَّ نبأ عثوره على ثلاجة كهربائية نقلها الى غرفته.. سألته عن ثمنها راجيا الا يكون قد دفع ثمنا اكثر مما يطيق راتبه.. فاجابنى ضاحكا لقد عثرت عليها مهجورة على الرصيف قرب بعثتنا فنقلناها الى حيث نسكن وجربناها فوجدناها تعمل بكفاءة.. أهكذا ؟ وقد تأكدت من صدق كلامه.. فقد جرت عادة الامريكيين على ترك مالا ينفعهم (ثلاجات أو أفران أو مايشبه) على الرصيف وكثيرا ما كان هذا الذى لم ينفعهم ذا نفع

لغيرهم من محدودى الدخل.. وقد نعم عم محمود بهذه الثلاجة طوال مدة اقامته فى نيويورك .. مجانا..

أما نحن زوجتى وأنا فقد انتقلنا من «شقتنا» القديمة التى ورثناها عن سلفي الى شقة اكثر اتساعا في نفس المبنى، كانت اكثر مناسبة لنا فى اقامة المآدب الرسمية، لكن لم نكد نمضى فى نيويورك ١٤ شهرا إلا ووصلنا نبأ تعيينى سفيرا لمصر فى روما عاصمة إيطاليا!! مرة أخرى تمكن اسماعيل فهمي من مفاجأتنا مفاجأة تامة!!

مرة أخرى ذلك الشعور المزدوج بالاسف لمغادرة المكان الذى ألفناه وأحببناه ولترك أصدقائنا ومعارفنا بهذه السرعة الى مكان آخر.. أقل ما يقال عنه إنه لا يمكن رفضه أو الاسف على الذهاب اليه؟! لكن لماذا كل هذه العجلة؟ كثيرا ما تساءلت عما إذا لم يكن أحد الاسباب هو علم وزارتنا بأني وزوجتى «دون أولاد» وأن تنقلنا اسهل من نقل ذوى الاولاد المرتبطين بالمدارس وخلافه، أم لعل وزارتنا قد أحست بأنى من محبى كثرة السفر والترحال واني إنما دخلت السلك الدبلوماسى لكى ارى العالم أم أن السيد اسماعيل فهمي يرى فيّ اصلح سفراء مصر للخدمة فى روما عاصمة ايطاليا؟!

لكن لماذا «روما بالذات» إنى لا اتكلم الايطالية بعد! فى حين أنى أجيد الاسبانية. لماذا لم يرسلونى الى مدريد حتى استطيع مزاولة

عملى فورا لاجادتى لغة البلد وطالما اشتقت الى العمل فى مدريد لكن دون فائدة ! إذن فلتكن روما على بركة الله.

لكن لابد أن اتعلم الايطالية قبل ذهابى الى روما! وقد التحقت فعلا بمدرسة برليتز للغات فى نيويورك ورجوتهم اعطائى برنامجا مركزا شديد السرعة لمدة شهر او اكثر بدلا من ثلاثة أشهر أو ستة شهور إذ كانت الفسحة أمامى لتنفيذ النقل عبارة عن شهرين وبعد أول يومين من بدئى دروس الايطالية على يد استاذة ايطالية ذهبت الى مدير مدرسة برليتز شاكيا شرحت له أننى ذاهب الى روما كسفير لمصر وإن حاجتى الى الكلمات الايطالية هى ما يحتاجه الدبلوماسى فى أحاديثه مع الساسة الايطاليين والدبلوماسيين وليس حاجة التلميذ الصغير الى معرفة اسماء القلم والنافذة والاستيكة!! بعد ذلك استبدلوا استاذتى باستاذ واستبدلوا المنهاج القديم بآخر أكثر ملاءمة لاحتياجاتى.. وبعد شهر من ذلك المنهاج المركز اصبحت قادرا على التفاهم بالايطالية.

وقد أقام لنا سفير ايطاليا ومندوبها الدائم فى نيويورك حفل عشاء تكريما ووداعا لنا قبل الذهاب الى بلده.. وتبادلنا فيه الخطب والانخاب وتمنى لى التوفيق فى روما كما تمنيت له استمرار التوفيق فى نيويورك.. وكان قد شغل منصب المندوب الدائم فى نيويورك مرة قبل

تلك المرة، ثم نقل سفيرا لايطاليا فى موسكو، ثم عاد بطريقة أو اخرى سفيرا لبلاده فى الامم المتحدة!! إذ لم يكن يرضى عنها بديلا..

واثناء حفل العشاء في داره قالت زوجته موجهة حديثها الى زوجتى سوف تجدين الايطاليين شعبا صعب الارضاء فقد رأوا كل شيء من قبل .. !! Ils Ont tout vu

تقصد أنّ الشعب الايطالى شعب نو تاريخ وحضارة طويلة وقد مرت عليه كل التجارب.. فأجابتها زوجتى ضاحكة: لا عليك فإن المصريين أيضا اكثر قدما من الشعب الايطالى.

فاستدركت سفيرة أيطاليا ووافقت زوجتى على أن المصريين أقدم من الايطاليين حضارة!! وفى نوفمبر ١٩٧٦ طرنا الى روما لنبدأ عهدا جديدا أو قل حلقة جديدة من تلك السلسلة الطويلة من الترحال والتجوال.

الفصل الخامس

« الايطاليون[1] وسفير مصر فى إيطاليا

حقا أنا مدين للسيد/ اسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الاسبق اذ انه هو الذى اختارنى لملء منصب سفير مصر فى روما وهو المنصب الذى اصبح شاغرا فى سبتمبر ١٩٧٦ بنقل السيد السفير محمود صلاح الدين حسن الى منصب وكيل وزارة الخارجية بالقاهرة.. ويبدو ان السيد/ اسماعيل فهمى كان يختارنى لملء كل منصب شاغر يشعر إنه يحتاج إلى شخص سريع الحركة لا يعترض على كثرة التنقل.. فقد اختارنى أيضا فيما سبق لملء منصب السفير او المندوب المناوب فى نيويورك بعد بقائى فى بيرو حوالى ١٤ شهرا ، ثم نقلنى الى روما بعد ١٤ شهرا من بقائى فى نيويورك ولا يسعنى إلا شكره فكلا المنصبين ذو أهمية ومكانة بارزة..

أما منصب سفير مصر فى إيطاليا فكان قد شغله من قبلى سفراء

(١) «الإيطاليون» عنوان أحسن كتاب عن ايطاليا كتب بقلم: إيطالى / امريكى اسمه لويجى بارزينى The italians

متميزون حقا منهم السادة عبد العزيز بدر ود. نجيب هاشم، ود. ثروت عكاشة.. والسيد/ محمد حافظ اسماعيل والسيد محمود صلاح الدين حسن.. وكفاني فخراً إني خلفتهم في تلك السفارة وفي هذا البلد.. إيطاليا .. مهد الرومان القدامى.. والامبراطورية الرومانية.

وإيطاليا ليست غريبة على مصر ، فقد اقترن تاريخ البلدين منذ عهد كليوباترا وكل من يوليوس قيصر، ومارك انطونيو ثم عندما أصبحت مصر مستعمرة رومانية ابتداء من سنة ٣٤ قبل الميلاد ولمدة ستة قرون من الزمان انتهت بالفتح العربي لمصر سنة ٦٤٠ بعد الميلاد وفي العصور الوسطى قامت علاقات تجارية وقنصلية بين مصر (تحت حكم المماليك) وبعض المدن الايطالية المستقلة مثل أمالفي والبندقية (فينيسيا) وجنوا.. أما في السنين القريبة الماضية فمن منّا لايتذكر مئات الآلاف من الايطاليين المصريين الذين استوطنوا القاهرة والاسكندرية وبورسعيد وكانوا يتكلمون العربية بلهجتنا المصرية ولم يهاجروا من مصر إلا بعد التأميمات والتمصيرات سنة ١٩٦١!

وكان الملك فؤاد قد أتم تعليمه في إيطاليا ويجيد التحدث بالايطالية وله فيها صداقات وطيدة حتى ان ملك إيطاليا الراحل «فيكتور عمانويل» لجأ الى مصر اثناء الحرب العالمية الثانية ومنحته مصر قصرا يعيش فيه في الاسكندرية طوال مدة منفاه في عاصمتنا الثانية.. أما فاروق فقد اختار هو الاخر ان يعيش منفيا في روما عاصمة ايطاليا بعد خلعه

عن العرش سنة ١٩٥٢ وذلك لانه كان يتكلم الايطالية وكانت له صداقات وميول ايطالية ليس اقلها ولعه بعيشة الترف الرغدة التى يعشقها الشعب الايطالى هو الاخر La dolce vita.

وإيطاليا - بعد اليونان - أقرب دول أوروبا الى مصر جغرافيا لكنها ربما كانت أقرب شعوب أوروبا إلى مصر روحيا وخلقيا.

والمسافة بين مصر وصقلية أقرب الجزر الايطالية الى مصر تقطعها السفن فى يومين كما تقطع الطائرات الحديثة المسافة بين القاهرة وروما فى أقل من ساعتين ونصف لكن أوجه الشبه بين الايطاليين والمصريين كثيرة حقا فإن الحضارة المصرية القديمة الفرعونية أقدم حضارات حوض البحر الابيض المتوسط كان لها تأثيرها على حضارة الاغريق (اليونان القديمة) ومن ثم على حضارة الرومان (الذين سكنوا ايطاليا من قبل الميلاد الى القرن السادس الميلادى).. ويحب الايطاليون المزاح والفكاهة مثلما يجيدهما المصريون ويعبرون عن مشاعرهم بتحريك الايدى تماما كما نفعل وهم كثيرو الصخب والضوضاء.. كما هو حالنا، وهم أهل الفنون إذ برعوا فى فنون النحت والرسم والبناء والتشييد والموسيقى والغناء مثل حال المصريين قدامى كانوا أو معاصرين ، ويفضل الايطاليون المعاصرون السلام والمسالمة والحياة الناعمة على قسوة الحروب وجبروتها رغم أن المصريين الفراعنة والايطاليين الرومان كانوا فيما سلف من أكبر الغزاة الفاتحين فى

العصور الخوالى ودانت لهم أركان العالم القديم.. كذلك فمن صفات الايطاليين الكرم وسعة العيش وحسن وفادة الغريب..

والمجتمع الايطالى مفتوح تماما للسلك الدبلوماسى الاجنبى كحال مجتمع القاهرة بالنسبة للسلك الدبلوماسى الاجنبى فى مصر الذى يشيد هو الآخر بكرم وانفتاح العائلات المصرية الراقية وإن ننسى لا ننسى صفة أخرى مشتركة بين الايطاليين والمصريين ألا وهى حب كليهما للالقاب و«التفخيم» فكل الناس فى مصر أما دكتور أو باشمهندس (حتى السباك وعامل التليفزيون وميكانيكى السيارات) أو بك أو باشا، اما فى ايطاليا فكل متعلم منهم اسمه دكتور وكل رجل محترم(١) Commandatore وكل رجل ثرى أو قوى(٢) صاحب سعادة Eccelenza وهكذا..

والشعب الايطالى ، مثله مثل الشعب المصرى، خليط من عدة أجناس ولعل اكبر آثار اختلاط الايطاليين «بالجنس العربى» تبدو فى جزيرة صقلية التى خضعت لحكم العرب طيلة ثلاثة قرون تقريبا من القرن التاسع الى الثالث عشر وفى جزيرة سارديينيا.

أما فى إيطاليا نفسها فقد امتدت آثار هذا الاختلاط شمالا عبر كالابريا ـ پوليا حتى منطقة مدينة نابولى ، ففى الجزء الجنوبى من شبه

---

(١) كوماندا تورى : الذى يأمر .

(٢) اتشيلنز أى صاحب السعادة .

الجزيرة الايطالية وتسمى أيضا الحذاء الايطالى يبدو السكان اكثر سمرة وهم أقصر قامة من أهل الشمال ويميل شعرهم إلى الخشونة أما شمال روما فإن الايطاليين أكثر بياضا وطولا وشعورهم أكثر نعومة وقد تكون عيونهم زرقاء أو ملونة ويقال على سبيل الفكاهة فى ايطاليا ذاتها أن أوروبا تبدأ أو تنتهى عند مدينة روما.. جنوبها تبدأ افريقيا وشمالها أوروبا! هذا وتختلف لهجات اللغة الايطالية كثيرا من منطقة إلى أخرى وبصفة عامة فإن لغات أهل الجنوب (نابولى وساردينيا وصقلية) صعبة الفهم حتى بالنسبة لايطالى الشمال إذا تدخلها كلمات كثيرة عربية الاصل أو كلمات مشتقة من لغات أخرى فى البحر الابيض كالفينيقية مثلا.. ومع ذلك فهناك بعض أهل صقلية مما يبدون وكأنهم من أهل السويد والنرويج مثلا وذلك حق إذ أن الحملات الصليبية مرت ونزلت بصقلية ذهابا وإيابا وكان كثير من قوات الصليبيين من أهل ألمانيا وانجلترا وفرنسا وشمال ايطاليا فضلا عن أن صقلية خضعت لحكم الاسبان والفرنسيين.

ويمكننا القول بصفة عامة بالمثل أن التشابه بين سكان الجنوب الايطالى وبين عرب حوض البحر الابيض لم يقف عند حد الشكل أو الخلقة بل تعداه الى الخلق أيضا فإن سكان الجنوب الايطالى مازالوا يحملون كثيرا من صفات المجتمعات العربية القديمة مثل الكرم والشهامة والنخوة والدم الحار «والشرف» أو الغيرة على الشرف والثأر والانتقام والتماسك العائلى الشديد والولاء للاسرة والعشيرة.

وكتمان السر أو تكتم أنباء العشيرة والأسرة.. وكان من آثار تلك العادات المتأصلة قيام المافيا ويقال في إيطاليا ربما على سبيل الفكاهة أن اصل الكلمة عربي «مافي» لا يوجد! وصارت «مافيا» فعند سؤال رجال البوليس لسكان موقع ما عن المسئول عن ارتكاب حادثة ما تكون إجابة السكان «مافي» - لا يوجد - لا نعرف .. وصارت «مافيا» .

ويقال إنه بعد زوال الحكم العربي من صقلية وبعض مناطق جنوب ايطاليا خضع أهلها بطبيعة الحال لحكم غير عربي. حكم الصليبيين المسيحي ثم الايطاليين أو الاجنبي (اسبانيا - فرنسا-الخ) .. ومن هنا ظهر تماسك اهل الجنوب بما يجري في عروقهم من دم عربي حار وعادات عربية ضد المحتل الاجنبي وبالتدريج تحول هذا الشعور الى شعور عام شمل الاهالي كلهم يعبر عن عدم ثقتهم وعدم احترامهم للحكومة. أيا كانت.. وعدم التعاون معها في دفع الضرائب المستحقة أو الكشف عن الجرائم.. فعند محاولة الحكومة جباية الضرائب كان رد الاهالي «مافي» وعند الاستفهام عن اية معلومات عن مرتكبي مخالفات او الجرائم يكون الرد ايضا مافي !! الصمت التام.. وتشكو الحكومة الايطالية الى يومنا هذا من مخالفة كثير من الايطاليين وتهربهم المستمر من دفع الضرائب حتى إنه قد قدر أن ما يضيع على الحكومة الايطالية سنويا من ضرائب مستحقة لا يقل عن الاربعة بلايين من الدولارات !! «مافي» !!

وللمرأة مكانة فريدة فى المجتمع الايطالى سواء أكانت زوجة أو صديقة أو خليلة فلها كل الرعاية والاعجاب إلا أن للأم مكانة وسلطة حقيقية فوق أفراد العائلة وهى مصدر الالهام والدافع والحافز وهى المسيرة لحياتهم اليومية ولكن ذلك لا يمنع أن رب الاسرة مازال حتى فى ظل هذا النظام يتمتع بمكانة رب العائلة بما تحمل من احترام ومهابة.. ولكل مجتمع صغير فى جنوب ايطاليا زعيم أو أب روحى الـ IL Padrino يسيطر على مصائر عدة عائلات أو عشائر بفضل شخصيته وعمره ومكانته وقد كان هذا أساس ظاهرة العصابات المنظمة سواء فى ايطاليا أو فى الولايات المتحدة التى هاجر اليها الآلاف المؤلفة من أهل جنوب ايطاليا اذ اشتهر منهم آل كابونى وغيرهم من زعماء الجريمة المنظمة فى أمريكا وبخاصة فى عهد تحريم صناعات الخمور حتى الثلاثينات ومازالت هذه الاخلاقيات اساس ظاهرة اختطاف الاغنياء وبخاصة فى جنوب ايطاليا - واطلاق سراحهم نظير فدية تدفع الى هذه العصابات.. ومازالت الحكومة الايطالية تجد أن أهم الموانع والعراقيل لكسر شوكة المافيا هى ظاهرة الصمت والكتمان والتكتل العائلى.. والخوف من انتقام وثأر La Mafia La camorra فلكل منها منطقة نفوذه .

تلك الصفات الغالبة على أهل جنوب ايطاليا بالاضافة إلى تأخر

الجنوب اقتصاديا وعمرانيا عن الشمال الايطالى جعل أهل الشمال يطلقون على الجنوب الايطالى (من روما جنوبا Mezzo Giorno ويعنى ذلك منتصف النهار) بمعنى أنه لم يستكمل تقدمه بعد وما زال فى ظلمات الليل !! كذلك يصف أهل الشمال أنفسهم بأنهم مثل قاطرة السكة الحديد تجر وراءها ثقل ايطاليا وهى المسئولة عن تقدمها.. والواقع أن هذا صحيح الى حد كبير فان الحكومات الايطالية المتعاقبة أقامت مؤسسة خاصة بتنمية الجنوب الايطالى(١) وخصصت مبالغ طائلة من الميزانيات المتعاقبة للاسراع بتنمية الجنوب لكى يلحق بالشمال.. ومع ذلك ورغم التقدم الذى طرأ على الجنوب الايطالى ورغم إقامة كثير من الصناعات الحديثة به ومنها فروع لمصانع فيات للسيارات وما أشبه، إلا أن الشمال مازال هو مقر أغلب الصناعات .

ورغم كل ذلك فقد حققت ايطاليا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تقدما هائلا نحو مجتمع الكفاية والصناعات الحديثة.. فقد كانت ايطاليا قبل الحرب الثانية دولة زراعية بل زراعية أقل تقدما بكثير عن فرنسا وألمانيا فى ميدان الزراعة لكنها الآن أصبحت واحدة من أغنى سبع دول فى العالم.. أى عضو منتدى الدول الصناعية والمتقدمة وهى الولايات

---

(١) Casa Del Mezzo giorno

المتحدة واليابان وألمانيا وبريطانيا وكندا وايطاليا وفرنسا وذلك بفضل ذكاء الايطاليين ومقدرتهم على العمل الشاق وتصميمهم على اللحاق بركب الدول المتقدمة فزاد الانتاج الصناعي ثلاثة أمثال ما كان عليه قبل الحرب ورغم أن الأراضي الصالحة للزراعة بايطاليا ٤١٪ فقط من المساحة الكلية فإنها أصبحت دولة مصدرة للمأكولات ومنها القمح والدقيق والارز والعنب والنبيذ والزيتون والحمضيات والخضراوات.. رغم هجرة عمال الزراعة من الريف.. ويعمل حاليا ٣٠٪ من مجموع القوى العاملة في الصناعات والتجارة في حين تعمل نسبة كبيرة من القوى العاملة في خدمة الحكومة والخدمات الأخرى المصرفية والسياحية.. وقد بلغ دخل إيطاليا من السياحة سنة ٨٩ عشرة بلايين من الدولارات (خمسة أمثال دخل مصر من السياحة سنة ١٩٨٩) ويبلغ انتاج ايطاليا من الكهرباء ١٨٠ بليون كيلو وات/ساعة سنويا وهو يمثل ١٢ مثلا لانتاج مصر من الكهرباء.. وكان إنتاج إيطاليا للصلب الخام ٢٥ بليون طن متري وهو ما يعادل ٢٦ مثلا للانتاج المصري من الصلب. كما يبلغ الناتج القومي السنوى ١٩٨٩، ٣٥٠ بليون دولار سنويا احد عشر مثلا للانتاج المصري لكنه ثلث الناتج القومي الفرنسي .. هذا وكان متوسط دخل الفرد في ايطاليا سنة ٨٩ سبعة آلاف دولار سنويا وهو ايضا يماثل عشرة أمثاله في مصر.. فالنسبة محفوظة ومتكررة إيطاليا أغنى من

مصر عشر مرات فى حين أن عدد السكان فى البلدين واحد ٥٥ مليون نسمة .

ورغم هذا فكانت السنوات من ١٩٧٠ - ١٩٨٠ سنوات عنف سياسى يساري شهدت اغتيال رئيس الوزراء ألدو مورو ونشاط الألوية الحمراء الثورية وجماعة النضال المستمر وذلك بسبب تفاقم ظروف المعيشة بالنسبة للطبقات الكادحة نتيجة لارتفاع اسعار البترول العالمية وتضخم الغلاء فى ايطاليا تبعا لذلك ومن مظاهر الاتجاه نحو اليسار فى ايطاليا فوز الحزب الشيوعى فى انتخابات سنة ٧٨ باربعة وثلاثين فى المائة من الأصوات وكان هذا أوج قوته التى أخذت بعد ذلك فى التقلص فى حين فاز الحزب الديموقراطى المسيحى بثمانية وثلاثين فى المائة منها فقط . كذلك من مظاهر الانحراف نحو اليسار انه فى سنة ١٩٧٦ تم تعديل الكونكوردات أى المعاهدة بين الدولة الايطالية والفاتيكان بحيث لم تعد الكاثوليكية دين الدولة الرسمى كما صوت الايطاليون بنسبة ٣ إلى ٢ من أجل اقرار حق الطلاق وبنسبة مرتفعة أيضاً من أجل الابقاء على حق الاجهاض مما يعنى ان تأثير الدين فى ايطاليا لم يعد بنفس قوته كالماضى .. رغم أن روما كانت فى الماضى المدينة الكاثوليكية المثالية بحكم وقوع مدينة الفاتيكان (مقر البابا) وسط روما ذاتها أى أنه توجد دولتان ممثلتان فى روما هما إيطاليا والفاتيكان .

والفارق كبير ما بين شمال ايطاليا وجنوبها حقا .. إن شمال ايطاليا يعتبر ثقافيا وحضاريا قطعة من وسط اوروبا ينتمي إلى سويسرا والمانيا والنمسا اكثر من انتمائه إلى البحر الابيض .. وأهل الشمال مختلفون عن أهل الجنوب فأهل الشمال اكثر برودة وجدية ونشاطا والتزاما ويعملون أكثر من أهل الجنوب كما أنهم اكثر ليبيرالية ومدن الشمال الصناعية معقل اليسار الشيوعي ميلانو وتورينو وجنوا لكن أهل الجنوب أقرب إلى شعوب البحر الأبيض ومنهم العرب بطبيعة الحال حتى ماكل أهل الجنوب يعتمد كثيرا على التوابل الشرقية الثوم والبصل «والصلصات الفنية والطعم الحاد الواضح» (١) لكن المأكل أو المطبخ الايطالى بأكمله شماله وجنوبه اكثر مطابخ اوروبا قربا إلى ذوقنا الشرقى (ربما فيما عدا المطبخ اليونانى المتأثر بالتركى) وقد أصبحت أنواع المكرونة وهي كثيرة جدا في ايطاليا وأنواع البيتزا اطعمة عالمية طبقت شهرتها جميع الآفاق ..

وبمناسبة الحديث عن المكرونة فمن صفات الايطاليين الطريفة إنه فى البيوتات الكبيرة وبعد حفلات العشاء الفاخرة التى تحفل بما لذ وطاب واذ تمتد السهرة إلى منتصف الليل يقدم الداعى عند بلوغ

(١) صدق أو لا تصدق .. لقد اكتشفنا أن الفلاحين فى منطقة بوليا Puglia بجنوب ايطاليا يصنعون «المش» ويأكلونه .. لكن مع بعض الفارق طبعاً!!

منتصف الليل مائدة أخرى جديدة يسمونها «مائدة سباجيتى» (١) مخصصة لأنواع الاسباجتى فقط وغالبا ما يصنعها المضيف بنفسه !!

ويتفنن طهاة ايطاليا فى تنويع طبق الاسباجيتى : بالصلصة الـ Bolognesi نسبة إلى مدينة بولونيا أى بصلصة اللحم المفروم .. واسباجيتى Alla Carbonara بالكريمة وقطع الجامبون الصغيرة واسباجيتى Mare Monte «البحر والجبل (بها قطع ثمرات البحر وعش الغراب) واسباجيتى بصلصة الشيطان أى حريفة (فلفل أحمر) - اسباجيتى alle Vongole مع أم الخلول - هذا فضلا عن أنواع كثيرة جدا من المكرونات ذات الحشو الخاص .. كذلك فإن البيتزا أنواع كثيرة تنسب إلى المدن وطرقها المختلفة أشهرها بيتزا نابولى نابوليتانا، أما البيتزا الريفية فهى تتميز عن البيتزا الأخرى بأنها أكثر سُمكا وأنها أكثر رخاوة .. كذلك تشتهر ايطاليا بأنواع السلامى Salami والمورتاديللا و الجامبون دى بارما Iambon di Parma إلخ ... ومئات أنواع الجبن التى تتفق مع الذوق المصرى مما جعل المطبخ الايطالى من أهم المطابخ العالمية .. ولما كانت شهرة الإيطاليين أنهم يجيدون الأكل الطيب ، والحياة الرغدة الناعمة وأنهم أهل طرب ومزاح

La Spage tta ta (١)

وفكاهة فإن تلك الشهرة قد جذبت إلى إيطاليا عشرات الملايين من السائحين سنويا (٤٠ مليون سائح سنة ١٩٨٩) كما جعلت سفن الركاب الايطالية التى تقوم بنزهات معينة فى البحر الأبيض أو الكاريبى محل إقبال الطبقات الثرية المنعمة إلى اليوم .

أما السائحون الأجانب فيحجون إلى ايطاليا سعيا وراء مشاهدة آثارها القيمة التاريخية الرومانية أو التى تعود أيضا إلى القرون الوسطى أو عصور النهضة فضلا عن مدنها وقراها التاريخية والحديثة على حد سواء .

ومن مدن ايطاليا التاريخية القديمة التي تعتبر تحفا فنية كاملة والتى تعود بك الى القرون الوسطى مدن فلورانسا بها ٢٢ متحفا وفينسيا ٢٦ متحفا وسيينا Sienna وبيزا Piza ذات البرج الشهير المائل - وسبوليتو Spolelto - Todi واورفيتو وجوبيو واسيس Assissi وبادوا Padua

أما مدينة فلورانسا فهى مهد عصر النهضة والثورة الفنية والثقافية فى العالم وبها الـ Duomo أى القبة بمعنى الكاتدرائية وقصر السنيوريا وجاليريا اوفيزى وقصر Pitti والجسر القديم وبها ٢٢ متحفا اما مدينة پيزا فيها ميدان الكاتدرائية والبرج المائل الشهير.

وسيينا من اروع مدن العصور الوسطى بكاتدرائيتها الشهيرة ويقام فيها سنويا سباق الخيل بالملابس التقليدية القديمة Il Paleo di Sienna ومدينة بيروجيا على ارتفاع ١٥٠٠ قدم تطل على نهر التيبر وهى من أجمل مدن العصور الوسطى وبها جامعة بيروجيا الشهيرة ومنذ سنة ١٣٢٠ وبها قسم خاص بالأجانب .. كما أنها مشهورة بالشوكولاتة التى تحمل نفس اسم بروجيا . ومدينة Assissi مسقط رأس سان فرنسيس وهى لؤلؤة بيضاء على تل عال اخضر اللون وبها بازيليكا سان فرانسيسكو الشهيرة والمدينة كلها تحفة من العصور الوسطى أما Gubbio فهى ايضا مدينة من العصور الوسطى وتقع على تل ١٧٠٠ قدم وبها قصر الدوق الشهير وكاتدرائية شهيرة . Orvieto مثلها مثل أغلب مدن العصور الوسطى فى ايطاليا تقع على صخرة عالية حصينة بها كاتدرائية شهيرة من أجمل التحف الهندسية القوطية في ايطاليا وقصر الشعب من القرن ١٢ .

أما Spletto فهى مدينة من العصور الوسطى ايضا وتشتهر بمهرجان التمثيل الدولى من نصف يونيو الى نصف يوليو وبعروض الاوبرا والتمثيليات .

وTodi مدينة قديمة على أعلى التل محاطة بسور قديم لحمايتها وبها ميدان الشعب بمبانيه من عصر النهضة والكاتدرائية من القرن

الثاني عشر .. وهناك أيضا مدينة البندقية أو فينسيا Venizzia ملكة بحر الادرياتيكى المبنية على ١١٨ جزيرة ويربط بينها ٣٧٨ جسرا أهمها جسر ريالتو وجسر التنهدات وتشتهر بميدان سان ماركو وما حواه من مبانٍ تاريخية رائعة الجمال .



وفيرونا Verona (مهد روميو وجولييت) وغيرها كثيرة جدا .. وتتميز كلها بأيات الفن الجميل ، فن العصور الوسطى وعصر النهضة مع العناية الفائقة بالترميم السليم والنظافة المستمرة .

والمدن فى حد ذاتها متاحف مفتوحة. أى أنها تحفة للناظرين خاصة وأن الايطاليين برعوا فى فن الصيانة والترميم والمحافظة على جمال ونظافة المدن القديمة وكأنها بنيت بالأمس.. والواقع أن السائح يحار «أى المدن التاريخية يرى وأيها يؤجل رؤيته الى الزيارة القادمة؟ من كثرة عدد تلك المدن أو التحف التاريخية .. ومن كثر ة عدد المتاحف المغلقة التى تعج بها تلك المدن.. اما المدن والاثار الرومانية التى ترجع الى سنة ٧٥٣ ق.م مثل مدينة روما Roma على سبيل المثال فهى ايضا اكثر مما يستطيع الزائر أن يستوعبه فى زيارة او زيارتين لايطاليا.. فمدينة روما Roma عاصمة ايطاليا – وتعدادها ٤ ملايين وحدها تستغرق زيارتها ومشاهدة معالمها السياحية الرائعة اسابيع

طويلة.. وفى هذا يقول الايطاليون Per Roma non Basta una Vita لا تكفى حيــاة واحدة للاستمتاع بروما انــها متحف مفتـوح.. لا داعى لزيارة المتاحف المغلقة فى روما وعددها ثلاثة وعشرون متحفا يكفى التجوال فى شوارعها وميادينها .. ستجد الآثار والمبانى الفنية الرائعة على يمينك وعلى يسارك وامامك وخلفك وكلها فى احسن حالات الترميم والنظافة مهما بلغ بها القدم ألف أو الفى سنة ثم هناك من تلك الاثار الرومانية الكوليزيوم والساحة الرومانية وبها تياترو كاراكالا حاليا - سور المدينة (سور أدريان) البوابات القديمة السور المعوج وبوابته قرب نهاية شارع فنيتو Via Veneto الشهير هذا فضلا عن المبانى وآثار العهود المسيحية فى مدينة الفاتيكان نصف كيلو متر مربع وخارجها.. ميدان سان بيترو San Pietro كنيسة سيستين Sistine Chapel وروائع مايكل انجلو وليوناردو دا فينشى وعشرات غيرها من أعمال كبار النحاتين والرسامين بل إن روما بها ٦٤ كنيسة وكاتدرائية جديرة بالزيارة!! كل هذا دون الدخول الى متحف واحد حتى الآن رغم أن روما بها ٢٣ متحفا مغلقا فضلا عن الميادين والمبانى الشهيرة(١).

---

(١) Piazza Venezzia - piazza Navona-Piazza di Spagna
Piazz del Poplo-Il Panthione Castel San't Angelo Fontana
فضلا عن عديد من المسلات المصرية القديمة منها واحدة من القرن السادس قبل الميلاد فى بياتزا - مينيرفا تقوم على قاعدة رخامية على شكل فيل.

ولما كانت ايطاليا مشهورة بأنها بلد الموسيقى او الأوبرا الايطالية فإن الزيارة الى ايطاليا لا تكتمل دون زيارة اوبرا ميلانو La Scala di Milano واوبرا نابولى San Carlo وكلاهما من أشهر اوبرات روما كاراكالا بروما واوبرا جنوا وفنيسيا وغيرها .. لكن أروع ما رأيت كان أوبرا فيرونا الصيفية (يوليو واغسطس) إذ أنها تقام فىLArena حلبة فيرونا المفتوحة فهى تياترو رومانى من القرن الأول بعد الميلاد وكانت تقام فيها احتفالات المصارعة الخ.. فى عهد الرومان وهى مازالت فى حالة جيدة جدا إذ أنها تناولتها ايضا يد الترميم الايطالى المستمر.. وتتسع لخمسة آلاف متفرج وعند بدء الاوبرا (وقد شاهدت فيها اوبرا لاترافياتا) تطفأ جميع الأنوار ما عدا خمسة آلاف شمعة كهربائية خافتة تضاء خلف كل متفرج.. ومع أصداء الموسيقى الايطالية الرائعة وسط أنسمة الليل الرطب فى ذلك الجو الشاعرى يقضى السائح أجمل تجربة له فى ايطاليا .. بعد أن يكون قد أمضى النهار فى مشاهدة منزل جوليت والشرفة التى كان روميو يقف تحتها يتناجيان ومدينة فيرونا أجمل مدن ايطاليا التاريخية حقا .. وقد أحسن شكسبير صنعا باختيارها مهدا لقصة حب روميو وجولييت .

لكن جاذبية ايطاليا لملايين بل لعشرات ملايين السائحين لا تعتمد على آثارها التاريخية الخالدة فحسب وانما ايضا وبنفس القدر على جمال الطبيعة وتنوعها فضلا عن جمال مدنها الحديثة وشواطئها

وبحيراتها وجبالها.. فالجبال في ايطاليا تحتل ثلث مساحة البلد الكلية وتضفي عليها الكثير من جمالها ومظاهر تنوعها.. فهناك جبال الألب في الشمال والتي تتيح رياضات التزحلق على الجليد في كورتينا دامبتزو مثلا.. لكن تمتد سلسلة جبال الابنين كعامود فقري وسط ايطاليا من شمالها الى أقصى جنوبها .. حتى في صقلية.. اما بحيرات ايطاليا فتعد بالعشرات وتوجد حول شمال روما حتى أقصى الشمال الى حدود فرنسا وسويسرا والنمسا.. وبالشمال توجد اجمل بحيرات ايطاليا واكبرها بحيرات جاردا وماجيوري وكومو.. وتقع حولها سلسلة من أجمل مصايف العالم منها مدينتا بلاجيو وملاجيو وتشرنوبيو على بحيرة كومو وستريزا على بحيرة ماجيوري وهكذا أما عن شواطىء إيطاليا فهي من التنوع والثراء بحيث يحار السائح في الاختيار فيما بينها .

وهناك على سبيل المثال الرفييرا الايطالية Riviera Italiana التي تمتد من مائة كيلو متر جنوب شرقي جنوا حتى حدود فرنسا غرب جنوا وأهم مصايفها رايالو وسانتا مارجريتا وبورتوفينو .. وألاسيو - بورديجيرا - سان ريمو . وإذا شاء السائح اختيار شاطئ أكثر دفئا وأقل تكلفة فهناك ساحل أما لفي La Costa Amalfitana جنوبي نابولي ويشتهر أيضا بالجمال الخلاب والدفء والتقادم التاريخي، ومن

أهم مصايفها مدن أمالفى وبوزيتانو وسورينتو وإن ننسى لا ننسى جزيرة كابرى نفسها وما يحوطها من شهرة رومانتيكية عالمية ثم هناك شواطئ بحر الادرياتيكى ابتداء من ليدو فنيسيا قرب مدينة فينسيا وحول تريستا ثم جنوبا حتى مدينتى ريمينى وكاتوليكا وفى أقصى الجنوب برينديزى وبارى الخ .. وهى أرخص المصايف ..

إن السائح ليحار ماذا يختار ليملأ أجازته القصيرة فى ايطاليا وماذا يترك ؟ إن سلسلة الطرق الحديثة السريعة (أوتوستراد) كفيلة بنقل السائح من أقصى شمال ايطاليا إلى أقصى جنوبها فى سهولة وراحة ويسر وأمان تام .. ثم أن الطرق الجيدة الأخرى تتيح له أن يمر في عديد من المدن الصغرى حتى دون أن تكون فى برنامج رحلته فإذا به يدهش لما يراه من جمالها وألوان الفن الحديث والقديم بها وقد كان لنا حظ السفر بالسيارة عبر كل ايطاليا تقريبا واكتشفنا مدنا صغيرة ذات جمال أخاذ وتاريخ رائع مثل Padova - modena - Marostica – فى شمال ايطاليا بل Faenza و Bologna (مركز صناعات الفخار) و Ravenna و Clrbino .

وربما لم يسمع عن هذه المدن أغلب السائحين الأجانب لكن وجدنا في اكتشافها بطريق المصادفة لذة أى لذة ! ففى مدينة ماروستيكا سالفة الذكر استوقف نظرنا أثناء عبورنا وسط المدينة فى أحد ميادينها الرئيسية الحافلة بالأبنية التاريخية التفاف الناس حول اثنين من «الفرسان» المرتدين ملابس العصور الوسطى يلعبان الشطرنج على رقعة قد تبلغ سبعة امتار مربعة رسمت على أرض الميدان .. أما قطع الشطرنج فكانت أيضا من الفرسان المرتدين نفس الملابس التاريخية ! ويجيد الأيطاليون تماما فن استحضار الذوق والطعم التاريخي القديم لمدنهم التاريخية حتى أنهم عند إتمام الترميمات والصيانة الدورية يحافظون على مظهر القدم والأصالة ، ومن لم يتذكر ذلك من السائحين سوف يتساءل لماذا يترك الايطاليون مدنهم وأبنيتهم بهذا القدم ؟ .. أو قد يظن البعض أنها تحتاج إلى طلاء جديد فى حين أنها أعيد طلاؤها بالأمس ؟!

كانت تجربتنا كسفير مصر فى روما من أروع تجاربى فى الحياة الدبلوماسية قاطبة وذلك بسبب نوعية الشعب الايطالى من جهة وبسبب نوعية السفارة المصرية فى روما من جهة أخرى .. والمعلوم أن ايطاليا لم «تصبح دولة واحدة متحدة إلا فى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٦٠ - ١٨٧٠) على يد جاريبا لدى وكافور garbaldi / Cavour وكانت

ايطاليا قبل ذلك ، ومنذ سقوط الامبراطورية الرومانية ممزقة إلى دويلات وأمارات ودوقيات بعضها يخضع لحكم البابا الذى كان فى العصور الغابرة يتمتع بالسلطة الدنيوية والدينية على حد سواء . ومن ثم فإن ايطاليا ، بأكملها وروما على وجه الخصوص ، تحوى نوعين مختلفين من النبلاء أو الطبقات الارستقراطية : نبلاء الدولة أى النبلاء المدنيون ونبلاء البلاط البابوى ويطلق على الاخيرين «الارستقراطية السوداء» لأن نبلاء البلاط البابوى كانوا يتشحون بالسواد فى المناسبات الرسمية .. وقد اجتمع فى روما فريقا النبلاء الايطاليين : النبلاء المدنيون والنبلاء الدينيون وكلاهما يحمل ألقابا متشابهة : برنس (أمير) ودوق – مركيز – كونت – بارون الخ .. والغريب فى الأمر أنه حتى بعد إلغاء الملكية عقب استفتاء جرى بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٧ وصوتت فيه غالبية الشعب فى صالح الجمهورية فإن الألقاب مازالت تستعمل ولو بشكل غير رسمى ويفخر بها أصحابها ويفخر أصحابهم بدعوتهم إلى حفلاتهم ومنازلهم . وهذا جانب من أخلاق الايطاليين يكاد يفوق ما يحدث فى انجلترا ذاتها حيث الملكية والارستقراطية مازالتا فى عنفوانهما (١) ..

---

(١) فى ايطاليا لا يمكن توجيه الحديث إلى السفراء إلاّ بكلمة Eccelenza أى صاحب السعادة فى حين أنه فى بريطانيا حيث الملكية مازالت متأصلة ينادون السفراء بكلمة Ambassador مجردة من لفظة صاحب السعادة !

هذا وقد دهشنا حقا لما وجدناه فى مظاهر الثراء الفاحش والجاه العريض التى تجسمت فى أناقة بعض المنازل أو السرايات التى دعينا إليها فى روما وجنوا وغيرهما من المدن (ومن أهمها قصر الأميرة Pavellecini فى روما الذى يفوق أناقة بعض القصور الملكية فى بلدان أخرى .. بل إن كثيرا من هذه القصور مازال يحفل بالخدم والحشم الذين يرتدون أزياء العصور القديمة التاريخية Liveries أثناء الاحتفالات الكبيرة .

ولقد أثلج صدورنا وكان مصدر عون لنا فى مهمتنا فى ايطاليا ما شهدناه من انفتاح المجتمع الايطالى وتقديره وحبه لمصر وحضارتها وتاريخها ومجدها القديم .. كل ذلك ممثل فى شخص سفير مصر .. فإن الايطاليين وإن كانوا يحسون بفقرهم النسبى أو تأخرهم النسبى عن انجلترا أو فرنسا وألمانيا الحديثة فإنهم يعوضون ذلك بافتخارهم بحضارتهم الرومانية القديمة بل الأقدم كثيرا والأرسخ قدما من حضارات تلك الدول الأخرى الأوروبية التى كانت جزءا من امبراطورية الرومان !! وإذا كان الايطاليون يجدون فى التاريخ القديم ملاذا وعونا لهم فى التغلب على ما يعانونه من نقص أو قلق إزاء تلك البلاد الأوروبية الأكثر ثراء وتقدما فمن باب أولى يقف الايطاليون احتراما واعجابا امام الحضارة المصرية الأقدم عهدا من اليونانية والرومانية !

ومن هنا فان مصر تحتل منزلة في ايطاليا لاتعادلها منزلة دولة عربية أخرى أو أى دولة فى العالم الثالث ..

كذلك كانت منزلة دار السفارة المصرية في روما عونا كبيرا لنا فى اداء مهمتنا .. فقد سبقت الاشارة إلى أن الملك فاروق قد أحسن وفادة الملك الايطالى فيكتوريو ايمانويل أثناء إقامته كلاجىء إلى الاسكندرية ووضع قصرا صغيرا تحت تصرفه في الاسكندرية طوال مدة إقامته بها .. وما ان انتهت الحرب وعاد الملك الايطالى إلى بلاده وتم افتتاح سفارة مصرية فى روما إلا ووضع الملك ايمانويل قصرا صغيرا من قصوره تحت تصرف سفارة مصر فى روما يحتل جزءاً من الحديقة العامة المسماة فيلا أدا الشهيرة Villa Ada (الحديقة العامة حوالى ٣٠٠ - ٤٠٠ فدان فى وسط روما) ومازالت السفارة المصرية تقيم فى فيلا أدا ويطلق عليها أيضا اسم فيلا سافويا نسبة إلى عائلة سافويا العائلة المالكة الايطالية السابقة [(١)] .. وقد ساعد إلى اتساع صالونات هذا القصر الملكي ومكانته التاريخية على إضفاء مكانة بارزة على سفارة

(١) لم تكن فيلا سافويا ملكا لمصر بل إن السفارة كانت تستأجرها من العائلة المالكة وتقوم بتسديد إيجارها شهريا وهو عدة آلاف من الدولارات لكنه سعر بخس بالنسبة لمكانة ذلك القصر واتساعه ومكانته التاريخية ففيه ألقى القبض على موسولينى فى ١٩٤٣/٧/٢٦ بأمر الملك فيكتوريو إيمانويل الثالث وانتهى عهد الفاشية فى إيطاليا .. لكن تمكنت مصر أخيراً من شراء فيلا سافويا بعد مفاوضات استمرت سنين طويلة مع عائلة سافويا.

مصر فى روما وعلى سفيرها وبالتبعية على مكانته ومكانة مصر فى المجتمع الايطالى فى روما .. وهذا وتقع بعض سفارات الدول الكبرى فى روما فى قصور تاريخية ذات مكانة وشهرة ، ومن حسن الحظ أن السفارة المصرية من ضمن هذه السفارات القليلة العدد .. وكان يمكننى بفضل اتساع صالوناتها وحجرات المائدة بها أن أدعو إلى العشاء (جالسين) أربعين مدعوا ومدعوة .. أما حفلات الاستقبال (الكوكتيل) فكنا ندعو قرابة الثلاثمائة مدعو .. ولحسن الحظ فقد كانت السفارة مزودة بعدد مناسب من العاملين ومن التسهيلات لمجابهة مثل تلك الالتزامات الرسمية .. كذلك زارتنا وفود رسمية مصرية متعددة من الوزراء (الاعلام - الرى - الاسكان - المواصلات - الخ ..) ومن كبار الكتاب (الأساتذة ثروت أباظة ويحيى حقى ود . يوسف إدريس) وذلك لإجراء حوار مع بعض المستشرقين والمستعربين الايطاليين المهتمين بالأدب العربى والأدب المصرى خاصة ..

كما نجحنا فى تأسيس جمعية صداقة ايطالية/ مصرية مقرها ايطاليا ، وتأسست بالمثل جمعية صداقة مصرية/ ايطالية مقرها القاهرة برئاسة الدكتور عادل جزارين باعتباره رئيساً وقتئذ لشركة النصر (فيات) لصناعة السيارات .. والمعلوم أن أول انتاج للسيارات فى مصر كان بمساعدة شركة فيات الايطالية ومازلنا وثيقى الصلة بها .

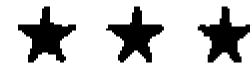
هـذا وقـد دعت جمعية الصـداقة الايطـالية / المصرية فى صقلية د . عـادل جزارين وقـرينته ولفيفـا من أعضـاء الجـمـعيـة فى مـصـر وقريناتهم لزيارة صقلية في ضيافة الجمعية الايطالية لمدة عشرة أيام .. وقد تكفلت الجمعية الايطالية فى صقلية بكل نفقات الاقامة والمأكل والتنقلات فى صقلية طيلة الأيام العشرة .. منذ وصولنا إلى باليرمو عاصمة صقلية إلى حين مغادرتها فى طريق العودة .. وكانت حفاوة الجمعية الايطالية بنا وبالوفد المصرى جديرة حقا بما هو معروف عن كرم الضيافة الايطالية وحسن التنظيم والاهتمام على المستوى الرسمى فى كل المدن فى صقلية بتوثيق الصلات مع مصر سياسيا وثقافيا وتجاريا .

هذا وقد تضمنت تلك الرحلة إلى صقلية زيارة كل معالم مدينة باليرمو (العاصمة) الثقافية والسياحية ومنها كاتدرائية باليرمو التى اقامها النورمنديون سنة ١١٨٥ وتم استكمالها فى القرنين ١٤ ،١٥ وبها صالة أعمدة مأخوذة من المسجد الاسلامى القديم المقام - أسفلها - كذلك كنيسة Cappella Palatina (١١٣٢ - ١١٤٠) المنشأة فى عهد النورماندبين أيضا وبها جدران محلاه بالموزايكو فى قصر النورماندبين الذى كان أصلا قصرا عربيا .. هذا وبأسفل الكاتدرائية دور كامل (بدروم) كان أساس الجامع القديم وتم اقامة الكاتدرائية فوقه وبقى الجزء العربى محتفظا بنقوشه العربية!!

وإلى جانب تلك الآثار العربية الحية فهناك ظاهرة الاسماء العربية الباقية أو التى كانت أساس تسمية بعض البلدان الحالية فى صقلية ومنها مدينة Marsala جنوب غرب صقلية وكان أصل هذه الكلمة «مرسى الله» ومدينة..Mazara وكان أصلها «مزارة» أو مزرعة «الوادى .. كذلك هناك مدينتان فى وسط صقلية هما (قلعة النساء) Calta nissetta و(قلعة جعرانى) . والبعض يعتقد أن مدينة Cifa-lu وتنطلق شيفاللو أصلها «شفاء الله» بسبب جوها الصحى.. وهكذا .

وقد زارت بعثة جمعية الصداقة المصرية مدن باليرمو وكالتانيسيتا وأجريجنتو والأخيرة بها آثار إغريقية ومعابد إغريقية فى حالة طيبة جدا وكانت اجريجنتو مقرا لحضارة إغريقية راقية وكان الإغريق القدماء يلقبون ممتلكاتهم فى ايطاليا وآسيا الصغرى Magna Grecia (اليونان الكبرى) . وبعد ذلك زارت سيراكوزا (وهى من الأماكن القليلة جدا فى العالم خارج مصر التى تنتج نبات البوص Reeds الذى يستخرج منه أوراق البردى Papyrus وصناعة أوراق البردى فى سيراكوزا متقدمة جدا) !!.ثم كاقانيا وأخيرا مدينة تاورمينا Taormi-na التى تطل على منظر من أجمل مناظر العالم السياحية: من ناحية على شاطىء البحر من ارتفاع ١٥٠٠ قدم وتطل على مدن ساحلية كثيرة وشواطىء للاستحمام وخلافه .. ومن ناحية أخرى تتطلع إلى أعلى لتجد قمة بركان Etna الشهير تطل على مدينة تاورمينا من ارتفاع

ثلاثة آلاف متر تقريبا .. وأنتنا أكبر بركان فى أوروبا ومازال حيا نشطا فى فترات متقطعة .



شرفت أثناء رئاستى لسفارة مصر فى روما بزيارتين مهمتين إلى روما أولهما كانت زيارة السيد/ حسنى مبارك نائب رئيس الجمهورية حينئذ إلى روما وبرفقته السيدة قرينته سنة ١٩٧٨ وقد أجرى سيادته محادثات مهمة مع رئيس وزراء ايطاليا السنيور اندريوتى كان لى شرف حضورها ، تناولت فيما تناولت العلاقات الممتازة القائمة بين مصر وايطاليا وقضية الشرق الأوسط - وكانت سائرة فى طريق الحل - والعلاقات بين ايطاليا وبعض الدول العربية مثل ليبيا والعراق ، وقد وصف الايطاليون السيد حسنى مبارك بعد المباحثات بأنهم وجدوه « شديد الصراحة » فى التعبير عن آرائه دونما لف أو دوران ، وبأنها طريقة مريحة لمن يتعامل مع سيادته حتى وإن أدهشته فى البداية!!

أما الزيارة الثانية فكانت زيارة الرئيس الراحل أنور السادات إلى روما فى طريق عودته من زيارة لبريطانيا وفرنسا ولعلها كانت أواخر سنة ١٩٧٨ أو مطلع ١٩٧٩ . ولهذه الزيارة ذكريات حية فى مخيلتى لما صاحبها من أهمية بالغة ومن بعض الجوانب الشخصية المثيرة! وذلك رغم إنها استغرقت سحابة نهار واحد ..

فقبل وصول الرئيس إلى ايطاليا أنبأتنا السلطات الايطالية بأنه نما إلى علمها وجود مؤامرة تستهدف حياة الرئيس وأفراد عائلته الذين يصحبونه فى الزيارة وانه لهذا قررت الحكومة الايطالية أن تكون تنقلات السيد الرئيس من المطار الحربى تشامبينو Ciampino إلى مدينة الفاتيكان حيث كان سيقابل البابا، بالهيلوكوبتر ثم من الفاتيكان إلى قصر ريفى قرب البحر Ostia حيث سيقابل الرئيس جيوفانى ليونى رئيس جمهورية ايطاليا ووزراءه، بالهيلوكوبتر أيضا ومن القصر إلى المطار الحربى بالهيلوكوبتر وذلك منعا لمرور موكب السيد الرئيس بالسيارات فى طرق روما المزدحمة .. كذلك قررت السلطات الايطالية عدم خروج أبناء السيد الرئيس وكانوا بصحبته فى زيارتيه فى بريطانيا وفرنسا، عدم خروجهم من المطار الحربى، بل أن السلطات الايطالية سوف تقدم إليهم ضيافتها فى استراحة المطار وسوف تعد لهم غداء ايطاليا فاخرا بدلا من خروجهم للغداء فى روما ..

وعلى الفور أبلغت مسئولى الأمن بالسفارة هذه التعليمات ، كما ابلغتها إلى رؤساء المكاتب الفنية التابعة للسفارة (مكتب السادة الملحق الحربى والمستشار الاعلامى والمستشار الثقافى والوزير المفوض التجارى ورئيس أكاديمية الفنون والسيد القنصل العام وهكذا) واتفقنا كلنا فى اجتماع نظمته بالسفارة على وجوب اتباع تلك التعليمات بمنتهى الدقة. وكنا جد شاكرين للسلطات الايطالية على يقظتها ودقة

تنظيمها .. لكن .. ما كنت أجهله حتى ساعة وصول السيد الرئيس إلى روما أن أحد رؤساء تلك المكاتب الفنية بالسفارة كان على اتصال مسبق بأبناء السيد الرئيس تليفونيا فى باريس ووعدهم بدعوتهم إلى حفل غداء فى مطعم الفريدو الشهير فى روما وانه اتفق مع المطعم فعلا على جميع الاستعدادات اللائقة بأبناء رئيس جمهورية مصر الرئيس السادات!! حتى أننا سمعنا بعد ذلك من مدير مراسم إيطاليا بأن كل أبناء الحى الذى يوجد به المطعم كانوا على علم بزيارة أبناء الرئيس السادات للمطعم!!

كنت على رأس المستقبلين المصريين فى المطار العسكرى «تشامبينو» وبعد أن تمت مراسم الاستقبال الرسمية بحضور الرئيس جيوفانى ليونى شخصيا فى المطار قدمت أعضاء الجالية المصرية الرسمية إلى سيادته ثم دعا السيد الرئيس لركوب هليوكوبتر حربى ايطالى نقله إلى الفاتيكان لمقابلة البابا، وتشرفت بمرافقة سيادته فى الهليوكوبتر .. وكان لقاء البابا والرئيس السادات بالفاتيكان عاطفيا وحارا وعبر عن تأييد البابا وسلطات الفاتيكان لسياسة السادات السلمية .. وكان لى شرف مصافحة البابا وتلقى هدية تذكارية صغيرة من قداسته .. وكانت المرة الأولى والأخيرة التى أتيحت لى أثناء اقامتى فى روما الفرصة لدخول قصر البابا بالفاتيكان وجناحه الخاص والتعرف إلى رئيس وزراء الفاتيكان ووزير خارجيته .. وقد تمت المقابلة

طبعا بحضور زميلي السيد سفير مصر بالفاتيكان وقتئذ وكان السفير الشافعي عبد الحميد. لكن في تلك الاثناء .. بمجرد مغادرتي للمطار برفقة السيد الرئيس بالهليوكوبتر حاول الزميل سالف الذكر (رئيس أحد المكاتب الفنية بالسفارة) بكل وسيلة ممكنة أن يخرج أبناء الرئيس من المطار الحربي بسيارات السفارة حتى يتناولوا الغداء الموعود في مطعم ألفريدو الشهير .. لكن زوجتي الموجودة بالمطار برفقة زوجة نائب مدير المراسم الايطالية منعتا حدوث هذا الخلل .. كذلك رفض سائق سيارة السفارة الامتثال لرجاء وإلحاح رئيس ذلك المكتب الفني وذلك تنفيذاً لتعليماتي المشددة المسبقة اليهم قبل مغادرتي المطار .. ومن هنا فقد غضب الابناء وأصروا على عدم مغادرة الطائرة والنزول إلى الاستراحة المعدة لهم بالمطار! وقد صعدت زوجتي إلى الطائرة وشرحت لهم الموقف وحاولت جاهدة انقاذ الموقف وعدم إحراج موقف مصر ازاء السلطات الايطالية وأمام زوجة نائب مدير المراسم التي وقفت تنتظر هبوطهم من الطائرة مدة نصف ساعة أو أكثر دون جدوى!! وأخيرا تمكنت زوجتي من اقناعهم فنزلوا من الطائرة إلى الاستراحة على مضض ظاهر وتناولوا طعام الغداء الذي أعدته لهم السلطات الايطالية في الاستراحة وهم يتندرون فيما بينهم ويتبادلون النكات المصرية على ايطاليا وعلي سفارتنا في روما لخوفها ومبالغتها في الحذر!

بعد زيارة السادات للفاتيكان انتقلنا إلى القصر الرئاسى فى Os-tia والقائم وسط حدائق غناء متسعة أمنة حيث جرت المباحثات حول مائدة متسعة ضمت إلى جانب الرئيس السادات السيد حسن كامل رئيس الديوان والسفير اسامة الباز كما ضمتنى ، ومن الجانب الايطالى ضمت الرئيس جيوفانى ليونى ورئيس الوزراء اندريوتى وكبار رجال الخارجية الايطالية وقد سيطر السادات تماما على جو المباحثات بشخصيته الدرامية الجذابة وبتأكيده لسياسته السلمية وصداقته لايطاليا ولعزمه على كسب معركة البناء والتعمير بمساعدة الاصدقاء فى أوروبا وأمريكا وايطاليا .. وكان الايطاليون شديدى التجاوب لكل هذا الانفتاح ولمظاهر الصداقة والود من جانب السادات .. كانت الزيارة ناجحة تماما بكل المقاييس واستطاع السادات كسب الايطاليين إلى صفه تماما ولم يكن ذلك عسيرا منذ ان كان قد أعلن عن سياسته السلمية قبل ذلك بسنوات ..

لما عدنا إلى المطار مستقلين الهليوكوبتر وأطلعنى أعضاء السفارة على محاولات اخراج أبناء الرئيس خارج المطار تحديا لتعليمات مضيفينا الايطاليين قمت بعتاب الزميل المسئول رئيس ذلك المكتب الفنى بالسفارة كما قمت بإبلاغ السيد/ حسن كامل رئيس الديوان فقد كان على صلة طيبة بذلك الرجل .. لكنى فوجئت بالسيد/ حسن كامل يحاول أن يخفف من أسفى أو غضبى بتفسير ما حدث بأنه إنما تم عن حسن نية وعن رغبته فى إكرام أبناء السادات .. ليس إلا !!

لكن لم تمض شهور على ما حدث إلا وكان السيد وزير .. المسئول عن ذلك المكتب الفنى أو الذى يتبعه ذلك المكتب الفنى قد قام بإنهاء إعارة ذلك الموظف المسئول وإعادته إلى القاهرة ..

لكن تحضرنى ذكرى أخرى طيبة عن زيارة السنيور اندريوتى رئيس وزراء ايطاليا إلى مصر بدعوة من الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء ووزير الخارجية .. فقد صحبت السنيور اندريوتى إلى مصر كما جرت العادة وحضرت جلسات المباحثات فى مبنى وزارة الخارجية بميدان التحرير .. وحضر المباحثات بالمثل . د بطرس غالى وزير الدولة للشئون الخارجية وكبار المسئولين .. والواقع أنى دهشت لحسن عرض الدكتور مصطفى خليل لمواقف مصر وآمالها وتطلعاتها سواء بالنسبة لقضايا السياسة الخارجية أو الداخلية فقد كان واضحا كل الوضوح وأفكاره مرتبة ترتيبا موفقا للغاية .. وكان واضحا بالمثل تجاوب السنيور اندريوتى التام مع طلبات مصر ولمواقفها . وكان السنيور اندريوتى يصحبه مترجم وزارة الخارجية الايطالية وكان يجيد الحديث بالعربية الفصحى إلى جانب الايطالية طبعا لغته الأصلية .. إلا أنه عند وداع د . مصطفى خليل لسنيور اندريوتى فى مطار القاهرة قرر الرئيسان فى آخر لحظة وفى المطار - اقامة مؤتمر صحفى بحضور الرئيسين يجيبان فيه على أسئلة الصحفيين .. ولم يكن المترجم الايطالى موجودا فى المطار .. فبأى لغة يعقد المؤتمر؟ وبأى لغة يتكلمان؟ لأنه أثناء

المباحثات كان كل طرف يستعمل لغته الاصلية أى العربية أو الايطالية .. لكن فى المطار كان يوجد صحفيون مصريون وايطاليون وأوروبيون أيضا ..

ولم ينقذ الموقف إلا تبرعى بالقيام بالترجمة الفورية أثناء المؤتمر الصحفى .. ولحسن الحظ كنت على المام كاف بالايطالية إلى جانب الانجليزية أو الفرنسية .. ومن ثم فقد قمت بترجمة أسئلة الصحفيين وغيرهم إلى العربية أو الايطالية ثم بترجمة اجابات د . مصطفى خليل إلى الايطالية ، كما قمت بترجمة اسئلة الصحفيين المصريين وغيرهم إلى الايطالية وقمت بترجمة اجابات اندريوتى إلى العربية أو الانجليزية وقد كان جزائى أو مكافأتى ابتسامة عريضة من د . مصطفى خليل وشكرا لى على جهدى .. أما عند عودتى إلى روما بعد ذلك فقد كان لهذه الزيارة ولذلك المؤتمر الصحفى ، إلى جانب الزيارتين سالفتى الذكر إلى روما ، كان لها جميعا تأثيرها الطيب على رجال الخارجية الايطالية إذ ضمنت صداقتهم وتشجيعهم لى وتأييدهم لمهمتى فى ايطاليا ..

كانت ، ومازالت العلاقات بين مصر وايطاليا على أحسن ما تكون . وإن كانت فى حاجة إلى شيء ما فانما إلى مزيد من الفهم المتبادل لدواعى أو لحدود الطرف الأخر ، ومزيد من التعاون التجارى والاقتصادى والثقافى .. فى حدود امكانيات الطرفين ..

فان ايطاليا راغبة حقا وترى فائدة محققة فى مساعدة مصر على تأمين سلامتها ووحدة أراضيها ورخائها وكانت ايطاليا بلا شك واحدة من عناصر الضغط ومن دائرة الاصدقاء الذين ضغطوا على إسرائيل للانسحاب من سيناء فان ايطاليا حكومة وساسة وشعبا تؤمن بأن مصر دولة عريقة الحضارة وإنها تتبع حاليا سياسة مسالمة عاقلة تقوم على الحوار المتحضر والتفاوض وسيلة لبلوغ أهدافها وإنها لذلك جديرة بتأييد ايطاليا السياسى والاقتصادى فى حدود امكانيات ايطاليا .. كذلك تدرك ايطاليا أن لمصر مكانة فريدة فى العالم العربى والافريقى والاسلامى وبين دول عدم الانحياز والعالم الثالث .. وكلها تهم ايطاليا وحلفاءها الغربيين أيضا أنه من صالح ايطاليا ودول الغرب منع مصر من المساعدات المادية والسياسية ما كان يقلل من اعتماد مصر على «الاتحاد السوفيتى» وحده ومما يمنع مصر من الانحياز لأحد المعسكرين، بل ان تظل صديقة لكليهما ، وان كانت مصر كما تدرك ايطاليا جيدا جزءاً من العالم العربى قلبا ووجدانا بحكم حضارة مصر ودياناتها وثقافتها ومزاجها العام هذا وتدرك ايطاليا ان مصر ليست دولة بترولية ضخمة مثل السعودية أو دول الخليج لكن ايطاليا تدرك جيدا أيضا ان إحتلال مصر لمكانتها الحالية الفريدة الحضارية والثقافية بين كل دول العالم العربى لا تتوقف على مدى ثراء مصر أو امتلاكها للدولارات البترولية ، بل ان قوامها حضارة مصر ووزنها الثقافى

والتاريخي القديم ودورها السياسي الراهن وهو ما يؤهل مصر لاحترام شعب عريق هو الآخر انحدر من سلالة الرومان القدماء .. ومن هنا فان ايطاليا إذ تمد . كما تمد دائماً - يدها لتأييد مصر سياسيا واقتصاديا إنما تفعل ذلك لتقديرها لمصر الحضارة والثقافة والاشعاع الفكرى والحضارى والتأثير السياسي في منطقتها وإنها مازالت مفتاح العالم العربي وإنها ملكت وتملك مفتاح السلام ومفتاح القلاقل والحروب .. ومفتاح قنال السويس الذى يهم ايطاليا كثيرا وكان إغلاقه فى الماضى ذا تأثير اقتصادى سيئ على ايطاليا ..

لكن كان السياسيون الايطاليون شديدى الالحاح علينا أثناء تولّى سفارتنا فى روما لكى تقدر مصر انه رغم تأييدهم الواضح لحقوق الشعب المصرى وحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وإنه رغم إدانة ايطاليا لمواقف إسرائيل المتعنتة فان ايطاليا ليست قادرة - وحدها على ممارسة الضغط الكافى على إسرائيل وإنما كانت ايطاليا ومازالت تحاول استعمال دورها وسط المجموعة الأوروبية للتأثير على المتنعين أو المتقاعسين من بينها من أجل اتخاذ المجموعة لمواقف معلنة قوية تعتبر فى حد ذاتها عناصر ضغط على واشنطن وتل أبيب فصوت ايطاليا وحدهـــا وإن كان يسرنا إلا أنه ليس مؤثرا بالقدر الكافى ..

كذلك يحاول ساسة إيطاليا إفهامنا وافهام جميع أصدقاء إيطاليا أن ايطاليا لا تحدوها أية أطماع سياسية خاصة فى صداقتها مع مصر أو بقية العالم العربى .. أو الافريقى أو العالم الثالث .. فايطاليا ليست لها من سياسة خارجية سوى انتمائها إلى التحالف الاطلسى والسوق المشتركة إنما ايطاليا لا تبغى من مصر سوى التبادل التجارى والفنى الحر الشريف لمنفعة الجانبين .. ومن هنا ترجو ايطاليا أن تكون هى أيضا جديرة بتأييد مصر لها وإن أيطاليا محتاجة أيضا إلى تفضيل مصر للتعامل التجارى مع أيطاليا أحيانا (حتى على حساب فرنسا أو المانيا أو بريطانيا) فايطاليا نفسها فى حاجة اقتصادية لتأييد دول العالم الثالث لها ولتعاونها مع ايطاليا اقتصاديا وثقافيا وفنيا !!

ولإيطاليا شكوى مستديمة من تفضيل مصر (وبعض الدول العربية الأخرى) للتعامل الاقتصادى والفنى مع فرنسا والمانيا وبريطانيا على حساب ايطاليا أو بدلا من إيطاليا : (صفقات الاسلحة والمعدات والتعاون التكنولوجى) .. وتود ايطاليا الا تنسى مصر صداقة ايطاليا بدورها لتستحق بعض التأييد والفهم من الدول العربية .

هذا وأثناء تولّى سفارتنا فى روما سنة ١٩٧٨ تقدمت شركة فيات الايطالية للسيارات عن طريق وزارة خارجية ايطاليا إلى السفارة المصرية ومنها إلى الحكومة المصرية بمشروع لاقامة ايطاليا لشبكة

أوتوستراد (طرق سريعة) تصل مابين الاسكندرية والخرطوم مرورا بالقاهرة وعواصم الصعيد والمراكز السياحية المهمة فى الصعيد ، وتتفرع من الصعيد إلى موانىء البحر الأحمر ومنها إلى السعودية بطريق خط ملاحى للعبارات بمعنى وصل إيطاليا بمصر بشبكة من العبارات والطرق السريعة ومن مصر إلى السعودية والسودان بروابط اقتصادية وثقافية متينة . وكان العرض يتضمن قيام ايطاليا بتوريد الشطر الاجنبى (العملات الحرة) من قيمة تمويل المشروع على أن تجد مصر الشطر المحلى بالعملة المصرية الا أن أزمة مصر الاقتصادية فى ذلك الوقت لم تساعد مصر على قبول ذلك العرض . رغم أن مصر مازالت أحوج ما تكون إلى مثل هذا المشروع الذى من شأنه ليس مجرد تشجيع السياحة والتنمية العمرانية والحضارية فى مصر والسودان وإنما أيضاً ربط مصر بأيطاليا (والسعودية) بروابط ثابتة قوية تضمن استمرار حسن العلاقات وقوتها للحقبات القادمة .

هذا ولا يسعنى أن اختتم هذا الفصل عن إيطاليا دون أن اسجل شعورى بأن الأبواب فى ايطاليا كانت ومازالت مفتوحة أمام مصر وأمام «سفير مصر بروما» .. فان الشعب الايطالى وساسته يكنون احتراما تاريخيا كبيرا لاسم مصر ولحضارتها بل ولمكانتها السياسية الحاضرة فى العالم العربى والاسلامى والعالم الثالث وفى البحر الأبيض والمتوسط .. ومنذ عهد الرئيس السادات أصبحت إيطاليا تؤيد سياسة

مصر تأييدا يكاد يكون مطلقا ، كما أن إيطاليا من الدول التى تؤيد حق الشعب الفلسطيني فى تقرير مصيره وتنتقد مواقف إسرائيل وتشجبها علانية ابدا ..

وواضح اذن أن ايطاليا سوف تكون جد سعيدة بأية فرصة تتيحها لها مصر لتعزيز أواصر الصداقة والتعاون الفني والتجارى والاقتصادى معها لأنه ليس لايطاليا حاليا من سياسة فى واقع الأمر سوى سعيها وراء مزيد من الأسواق ومن سبل التبادل التجارى والاقتصادى .

وأرى أن أمر تعزيز وتوثيق علاقات مصر مع إيطاليا أمر هين ومرده رغبة مصر ومدى حاجتها ودرجة سعيها وراءه وحسب وأى جهد سوف تبذله مصر فى هذا السبيل لابد وأن يؤتى ثماره فى ايطاليا فانها أرض خصبة سهلة بالنسبة لنا ، خاصة اذا ما استمرت مصر فى سياستها السليمة العاقلة الحكيمة الحالية وجعلت منها نورا ونبراسا وهو ما ارجوه وادعو له ..

هناك جانب آخر لعملى كسفير لمصر فى إيطاليا أحب أن اشير إليه قبل أن نغادر ايطاليا نهائيا .. فان سفير مصر فى روما بحكم منصبه هو أيضا مندوب مصر الدائم لدى منظمة الاغذية والزراعة F.A.O إحدى الوكالات المتخصصة التابعة للامم المتحدة ومقرها فى

روما وبهذا أمضيت فترة السنوات الثلاث فى روما اعمل ايضا كممثل دائم لمصر فى مكتب المنظمة يعاوننى السيد المستشار / الزراعى بالسفارة وكان وقتئذ د . فؤاد رضا وكان زميلا يتمتع الى جانب الكفاءة والمقدرة الفنية بالدماثة ولطف المعشر .. وكان مسئولا عن الجوانب الفنية فى عمل منظمة الاغذية والزراعة فى حين كنت انا مسئولا عن الجانب السياسى والتمثيلى فى المنظمة .. ومن ذلك على سبيل المثال الاتصال المستمر والمنتظم مع د . ادوارد صاوما المدير التنفيذى للمنظمة وقتئذ وهو لبنانى ويشغل منصبه بالانتخاب لمدة ست سنوات وقد أعيد انتخابه ثلاث مرات لما يتمتع به من كفاءة نادرة وقدرة إدارية عظيمة وملكة الاتصالات وحسن التنظيم .. كذلك يتمتع بشخصية شديدة القوة الى حد الاعتزاز الزائد بالنفس .. لكننا كنا أصدقاء وجمعتنا أواصر التقدير المتبادل والتعاون المثمر .. وكان من نصيبى الدفاع عن مصالح مصر فى تلك المنظمة سواء فى شكل البرامج اللازمة المخصصة لمصر أو عدد الموظفين بتلك المنظمة وضمان حقوقهم اذ أن «الوظائف الدولية» فى منظمة الامم المتحدة وبعض وكالاتها المتخصصة تحتاج الى مساندة الحكومات بين الحين والاخر من أجل عدم ضياع تلك الحقوق فى غمرة التزاحم والتنافس بين الدول على تلك الوظائف .

وتشاء الظروف أن أختتم مدة عملى فى روما بحضور جلسات عمل

صاخبة فى الجمعية العامة (مؤتمر) لمنظمة الاغذية والزراعة فى روما .. فإن الدول العربية أعضاء المنظمة كانت قد قطعت علاقتها بمصر السادات بعد توقيعه معاهدة السلام مع اسرائيل وطالبت تلك الدول العربية منظمة الاغذية والزراعة F.A.O بنقل مقرها الاقليمى من مصر الى دولة عربية اخرى لعلها كانت سوريا أو الاردن .. وقد اتصل بى ادوارد صاوما شارحا لى طبيعة الطلب المقدم من الدول العربية قائلا . إن مصر لا تملك الوقوف فى وجه تلك الرغبة المقدمة من غالبية الدول التى تتمتع بخدمات ذلك المكتب الاقليمى وأن مؤتمر المنظمة سوف يستجيب لطلبات الدول العربية فى مدى خمس دقائق فى الجلسة القادمة ، ولهذا فيجدر بمصر ألا تعارض ذلك الطلب ..

لكن قرار السلطات المصرية كان يقضى بالوقوف أمام تلك الرغبة بأى شكل .. ومن ثم فانى أخطرت صاوما بذلك القرار فأعاد تأكيد رأيه بان اقرار طلب الدول العربية لن يستغرق أكثر من خمس دقائق فى الجلسة ولن يضيع وقت المؤتمر فى المهاترات .. لكنى استعملت تجاربى السابقة فى الامم المتحدة ومعرفتى الطيبة بمناورات الامم المتحدة اعتمادا على اجادة استخدام لائحة الاجراءات التى درستها جيدا فى منع تصويت المؤتمر على طلب الدول العربية نقل المقر الاقليمى من القاهرة وقد اعتمدت على نص لائحة الاجراءات التى تقضى بوجوب

اخطار المنظمة للدول مقر المكتب الاقليمى (أى مصر) قبل سنة كاملة سابقة بقرار نقل المكتب منها وهو مالم يحدث ومن هنا يجب تأجيل البت سنة كاملة .. كذلك بعد شرحى الوافى لاعضاء الجمعية العامة للمنظمة عن ظروف وملابسات القضية وجدت أغلب الدول الغربية تؤيد مصر فى تأجيل البت فى هذا الموضوع سنة كاملة وخلال تلك السنة كنت قد نقلت الى مصر واوفدت وزارة الخارجية السفير عمرو موسى مدير ادارة الهيئات(١) بها الى المؤتمر التالى حيث تمكن هو أيضا من اقناع الدول والمنظمة بالاكتفاء بتجميد مكتب المنظمة الاقليمى فى مصر مؤقتا ونقل اختصاصاته وأعماله الى مقر المنظمة الاقليمى فى روما وهى التى سوف تقوم - من روما - بتقديم الخدمات العربية بدلا من تقديمها من مصر .. وهكذا لم يتم نقل المكتب الاقليمى الى عاصمة عربية أخرى .

وظلت الحال هكذا الى أن تقرر اعادة المكتب الاقليمى الى مصر ثانية .

---

(١) السفير عمرو موسى تولى بعد ذلك منصب مندوب مصر الدائم لدى الأمم المتحدة فى نيويورك وهو حاليا وزير خارجية مصر .

الفصل السادس

مصر وافريقيا :
بين سفارة وسفارة : وكالة الوزارة

عندما يرقى أحد كبار الموظفين ليتولى منصب «وكيل الوزارة» فى كل الوزارات الأخرى ما عدا وزارة الخارجية ، فإنه يعلم أن وظيفة «وكيل الوزارة» هى نهاية السلم الوظيفى أو نهاية الطريق بالنسبة إليه . وقد يظل وكيلا للوزارة إلى حين بلوغه سن المعاش . أما فى وزارة الخارجية فإن من يتولى منصب وكيل الوزارة من بين قدامى سفراء وزارة الخارجية يعلم منذ البداية أنه إنما يتولى هذا المنصب إلى حين يأتيه الدور من جديد ليعود ليرأس سفارة مصرية فى الخارج (وهو ما يرحب به كل السفراء) اللهم إلا إذا بلغ سن التقاعد أولا بطبيعة الحال . (١)

(١) وفقا للأنظمة الجديدة لم يعد للخارجية سوى وكيل وزارة واحد (وكيل أول) هو د. أسامة الباز (بقرار جمهورى) ويليه فى الأقدمية عدد من «مساعدي وزير الخارجية» يصدر تعيينهم قرار وزارى فقط .

وهذا ما حدث لى أيضا (١) .. فقد تسلمت عملى كوكيل لوزارة الخارجية فى أكتوبر ١٩٧٩ نقلاً من روما بعد أن فرغت من تأجيل النظر فى نقل المكتب الاقليمى لمنظمة الأغذية والزراعة من مصر إلى عاصمة عربية أخرى .. ونجحت مصر فى عدم نقل المكتب إلى دولة عربية أخرى .. وكنت إذن واحدا من أربع سفراء مثلى يتولون فيما بينهم ملء اختصاصات وكلاء الوزارة أما أنا فقد أوكل إلى الاشراف على قطاع مهم من قطاعات وزارة الخارجية يشمل الاشراف على الادارات الخمسة التالية :

(١) الهيئات الدولية (ومنها منظمة الأمم المتحدة).

(٢) الادارة القانونية والمعاهدات.

(٣) إدارة المؤتمرات.

(٤) إدارة المعلومات والتقديرات.

(٥) الادارة الافريقية.

أما ادارة الهيئات الدولية فيتضمن اختصاصها متابعة أعمال الهيئات والمنظمات الدولية ومنها الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وموافاة بعثاتنا لدى مقار الأمم المتحدة فى نيويورك وجنيف وفيينا

---

(١) ظللت وكيلا للوزارة من ١٩٧٩ إلى ١٩٨١ ثم عينت سفيرا لمصر فى أديس أبابا بعد ذلك .

وغيرها حيثما توجد مقار الوكالات المتخصصة ، مؤافاتها بتعليمات وزارة الخارجية بالنسبة للموضوعات الهامة التى تتطلب تعليمات خاصة من القاهرة .. وكان على رأس ادارة الهيئات فى تلك الآونة سفير قدير ذو خبرة طويلة بهذا المجال هو السفير / عمرو موسى (ممثل مصر الدائم لدى الأمم المتحدة بعد ذلك) (١) .. وقد اشتركنا سويا فى تمثيل مصر فى أحد مؤتمرات حركة عدم الانحياز بنيودلهى فى فبراير ١٩٨١ (وكان وفدنا برئاسة الوزير بطرس غالى) كما اشتركنا سويا فى حضور احدى دورات الأمم المتحدة فى نيويورك سبتمبر / أكتوبر ١٩٨١ وفى هذين المجالين كما حدث فى غيرهما شهدت هذه الفترة حملات هجوم شرسة ضد مصر من بعض الدول العربية الشقيقة وغيرها من دول افريقيا اليسارية وبعض دول امريكا اللاتينية بسبب خلافنا حول عملية السلام فى الشرق الأوسط .. وكان من نصيبى ونصيب السفير عمرو موسى فى تلك المؤتمرات التصدى لتلك الحملات الشرسة .. وقد اظهر عمرو موسى مقدرة ومواهب دبلوماسية فذة منذ ذلك الحين .

أما فى مؤتمر عدم الانحياز فى نيودلهى فقد كانت بعض الدول العربية تحاول تجميد عضوية مصر فى حركة عدم الانحياز (سوريا ،

(١) حاليا وزير خارجية مصر .

ليبيا - الجزائر - العراق .. الخ) وتصدى لها عمرو موسى بمنتهى المهارة والحزم .

أما الادارة القانونية والمعاهدات فكان يديرها الزميل السفير طاهر شاش وكان قد خلفني كسفير لمصر في ليما بيرو وأصبح أيضا فيما بعد مساعدا لوزير الخارجية.. ومهمة هذه الادارة متابعة ودراسة جميع المسائل القانونية الدولية التي تهم مصر أو تدخل فيها كطرف «مثال ذلك قضية طابا» والمسائل القانونية التي تطرح أمام اللجنة السادسة (القانونية) التابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة وتحديد مواقفنا فيها.. كما تعني هذه الادارة بالمثل باعداد مشروعات المعاهدات التي أبرمتها مصر وحفظها والرجوع اليها، أو الرجوع الى جميع السوابق القانونية المهمة بغية الاسترشاد بها في اتخاذ مصر لمواقف معينة من القضايا المطروحة.

أما ادارة المؤتمرات فكان يديرها السفير أحمد عبد الوهاب سليم سفير مصر في الصين فيما بعد، ومهمة هذه الادارة الاعداد الفني والاداري لكافة المؤتمرات الدولية التي تعقد في مصر تحت اشراف وزارة الخارجية بما في ذلك اعداد المكان المناسب والسكرتارية والمترجمين والأجهزة الفنية وطبع وتوزيع الوثائق وما الى ذلك.

أما ادارة المعلومات والتقديرات فكان يرأسها السفير حسن شاش (سفير مصر في سنغافورة ثم في لبنان) ومن بعده السفير صلاح الدين بسيوني (سفير مصر في موسكو فيما بعد ثم مساعد وزير الخارجية).. وتعنى هذه الادارة بجمع ودراسة وتحليل وتبادل أهم الانباء والمعلومات والتقديرات حول السياسات الخارجية لأهم الدول التي تعنى مصر، سواء عن طريق سفاراتنا في الخارج أو عن طريق غيرها من مصادر الانباء والمعلومات والتقديرات ومنها هيئة الأمن القومي وأجهزة المخابرات المدنية والحربية وتقوم هذه الادارة بتزويد القيادات السياسية وبعثات مصر في الخارج بحصيلة معلوماتها ونتائج تحليلاتها أولا بأول في تقاريرها الدورية بصفة منتظمة.. ويذكر القارىء أنى كنت قد توليت هذه الادارة سنة ١٩٦٤.

مصر وافريقيا (١):

أما الادارة الافريقية فهي الادارة التي كانت تهيمن بصفة مباشرة على منطقة جغرافية محددة، ولكن شديدة الاتساع هي أفريقيا بأكملها وذلك الى جانب عنايتها واختصاصها بمتابعة أعمال منظمة الوحدة الافريقية (وهي بمثابة هيئة الامم المتحدة الافريقية) وحضور جلساتها

---

(١) وفقا لآخر التنظيمات في وزارة الخارجية فقد انقسمت الادارة الأفريقية حاليا إلى عدة ادارات افريقية ومنها ادارة مختصة بمنظمة الوحدة الافريقية.

الدورية والسنوية فى أديس أبابا مقر المنظمة، واقتراح وتنفيذ سياسات مصر ومواقفها بصدد جميع المشاكل والقضايا الافريقية سواء تلك التى أمام منظمة الوحدة الافريقية أو خارجها. هذا ويمثل مصر بصفة دائمة فى المنظمة باديس أبابا السيد/ سفير مصر فى أثيوبيا الى جانب توليه مهام سفارة مصر لدى أثيوبيا. وكان يدير ادارة افريقيا بوزارة الخارجية فى ذلك الحين السفير/ أحمد جتانة سفير مصر فى تنزانيا سابقا ومساعد وزير الخارجية فيما بعد. ثم من بعده السفير/ سامى ثابت سفير مصر فى اليابان ثم مدير ادارة المراسم بعد ذلك. وقد اشتركنا سويا فى حضور جلسات المؤتمرات الوزارية الدورية ومؤتمرات القمة السنوية فى منظمة الوحدة الافريقية بأديس أبابا. كما سعدت بمشاركتهما لى فى بعض زياراتى الرسمية بصفتى وكيل الوزارة المسئول عن افريقيا الى بعض دول أفريقيا المستقلة والتى سيأتى ذكرها ومنها السنغال وجامبيا، ونيجيريا، وتوجو وسيراليون وغيرها كثير.

لم تكن تجربتى الشخصية المباشرة الوحيدة مع أفريقيا حين توليت وكالة وزارة الخارجية وأوكلت الى الشئون الافريقية مقصورة على حضورى أول مؤتمر قمة للدول الافريقية المستقلة فى إكرا عاصمة غانا فى ابريل ١٩٥٨ ضمن وفد مصر الذى رأسه المرحوم د. محمود فوزى. لكن مالبثت بعد تولى منصب وكيل الوزارة المسئول عن أفريقيا أن

وجدت نفسى فى مواجهة عدد لايستهان به من القضايا الأفريقية الساخنة ومنها على سبيل المثال الحرب والنزاع ما بين تشاد وليبيا ، والعداء القديم بين الصومال من ناحية والأثيوبيا وكينيا وجيبوتى من ناحية أخرى حول مطالب الصومال الاقليمية فى هذه الدول المجاورة، والحرب الاهلية الدائرة فى أثيوبيا بسبب محاولات أقاليم اريتريا وتجرى وأورمو الانفصال عن أثيوبيا واتهام اثيوبيا لدول مجاورة بمساعدة هؤلاء الثوار. كذلك الحرب الأهلية الدائرة فى جنوب السودان ومحاولات الجنوب الانفصال عن شماله ، واتهام السودان لبعض جيرانها بمساعدة ثوار الجنوب.. وهكذا.

كذلك كانت هناك مشكلة النزاع حول الصحراء الغربية ما بين المغرب من ناحية والبوليساريو تساندها الجزائر من ناحية أخرى والخلاف حول ناميبيا وكيفية استقلالها عن جنوب افريقيا والمواجهات العسكرية ما بين جنوب أفريقيا وكل من انجولا وموزامبيق. بل دول المواجهة الافريقية بأكملها ومما كان يزيد من هذه الخلافات السياسية بين دول أفريقيا الشقيقة الخلافات الايديولوجية (١) التى عادت الى الظهور فيما بينها من جديد واستغلتها واشعلت نيرانها بعض الدول

(١) الخلافات الايديولوجية ما بين التقدميين «الاشتراكيين من ناحية والمحافظين او التقليديين من ناحية أخرى».

الأجنبية مما كان يهدد بانقسام خطير ومواجهات غير حميدة العواقب فيما بين الدول الأفريقية .

وأثناء توليّ منصب وكيل الوزارة للشئون الأفريقية أمكن للوزارة بلورة اهتمامات مصر الافريقية وفقا للأولويات التالية :

أولا : ضرورة اهتمام مصر بتوثيق علاقاتها مع دول حوض النيل الثماني الأخرى (١) بسبب اعتماد مصر الكلى على مياه النيل حاليا وتزايد حاجتها من هذه المياه مستقبلا وهو ما يدعو إلى إيجاد أوثق الصلات العضوية مع هذه الدول ضمانا لأمن المياه ولترشيد استخدامها والمعلوم أن ٨٤ ٪ من مياه النيل التى تصل إلى مصر تاتينا من أثيوبيا ، ومن ثم يتعين على مصر اقامة أطيب علاقات التعاون مع اثيوبيا .

ثانيا : ضرورة توثيق علاقات مصر بالدول المطلة على البحر الأحمر (خارج حوض النيل وهى الصومال ، وجيبوتى) ، كذلك التى توجد قريبا من مداخله فى المحيط الهندى مثل تنزانيا وسيشل ومدغشقر وموريشيوس وجزر القمر بالنسبة لأهمية البحر الأحمر الاستراتيجية لمصر .

ثالثا : وجوب إقامة أطيب علاقات التفاهم والتعاون مع جميع دول افريقيا بغض النظر عن أنظمتها المختلفة ، وبصفة خاصة مع بعض

(١) السودان - اثيوبيا - كينيا - اوغندا - رواندا - بوروندى - زائير - تنزانيا .

دول افريقيا القيادية والتى تربطها مع مصر روابط خاصة سياسية أو اقتصادية أو تاريخية .

كذلك تبلورت المبادىء الأساسية التى تحدد سياسات مصر فى أفريقيا فيما يلى :

(أولا) العمل على تأكيد استقلال واستقرار الدول الافريقية ووحدتها الاقليمية وسلامتها .

(ثانيا) تشجيع التقدم والتنمية والتغيير نحو الأفضل بالطرق السلمية التدريجية واستبعاد العنف فى تصرفات وأعمال الدول الافريقية سواء داخليا أو فيما بينها .

(ثالثا) تشجيع حل المنازعات بين الدول الافريقية بالطرق السلمية وتفضيل حلها فى اطار منظمة الوحدة الافريقية قبل الى اللجوء إلى الأمم المتحدة .

(رابعا) اقصاء النفوذ والتدخل الأجنبى لا سيما أنواع التدخل التى تستهدف خدمة المصالح الأجنبية أو الأهداف البعيدة عن مصالح أفريقيا الحقيقية .

(خامسا) تشجيع احترام ميثاق الوحدة الأفريقية فى المعاملات ما بين الدول الأفريقية ، وتعضيد مصر للتيارات المعتدلة فى أفريقيا ولمبادىء عدم الانحياز والبعد عن المعسكرات المتقاتلة أو المتناحرة فى أفريقيا .

(سادسا) تشجيع محاولات التعاون الاقتصادي والفني والثقافي مع استهداف اقامة تجمعات افريقية اقتصادية وفنية وتشجيع مبادىء الاعتماد المتبادل فيما بين دول أفريقيا اقتصاديا والاعتماد على النفس مع إقلال اعتماد افريقيا تدريجيا على المساعدات الخارجية كلما أمكن ذلك .

أما الأخطار التى تهدد أفريقيا منذ تلك الحقبة فكنا نراها متمثلة في التغلغل الأجنبي الايديولوجي والاقتصادي والعسكري الى حد الوجود العسكري الأجنبي المتمثل في وجود قوات أجنبية كبيرة العدد أحيانا .. وأخطار المواجهات الايديولوجية والعسكرية ما بين الصومال وأثيوبيا ، وما بين الجزائر والبوليساريو من ناحية والمغرب من ناحية أخرى وما بين ليبيا وتشاد وما بين أنجولا (وكوبا) وجنوب أفريقيا وما بين الأخيرة وموزمبيق وتحول المواجهة والحروب الأهلية في أثيوبيا وجنوب السودان ، ناهيك بالمجاعات والأوبئة التى تفتك بمئات الآلاف من الأفارقة ... من الأفارقة من الفارين من المجاعات المتكررة ، ومن الحروب بين القبائل المتناحرة أو من الحروب الأهلية والدائرة في بلادهم خمسة ملايين أفريقي في ١٩٨٩ مما يضع أفريقيا على رأس القارات التي تواجه أكبر مشاكل لأكبر عدد من اللاجئين في العالم أجمع (١)

(١) من إحصائيات الوكالة الدولية لاغاثة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة.

والمجتمعات الأفريقية بصفة عامة في أغلبها مجتمعات قبلية تلعب فيها القبيلة دورا شديد الأهمية شبيها بدور الدولة في المجتمعات الحديثة .. فولاء الفرد في أفريقيا لقبيلته قبل أن يكون لدولته فالقبيلة هي مقر ومرجع وأساس اللغة والدين والمعتقدات (وبقية العائلة) وكلها تتفاوت تفاوتا واضحا ما بين قبيلة وأخرى في نفس المنطقة ونفس الدولة ومن هنا ساد التشرذم وسادت الفرقة والخلافات وأحيانا كثيرة الحروب الدامية والمجاعات وسلاسل الهجرات .. ومن ثم مازال الجهل والمرض والفقر من أهم أسباب الفساد وضعف بعض مجتمعات افريقيا المعاصرة

يبقى أن أذكر لك أيها القارئ انطباعاتي عن عدد من المدن والأماكن التي زرتها في أفريقيا وبعض الذكريات التي ما برحت تطوف بمخيلتي ولكنني سأبقي ذكرياتي في أثيوبيا إلى الفصل القادم المخصص لهذا البلد والذي رحلت إليه كسفير لمصر في أديس أبابا وكممثل لمصر في منظمة الوحدة الأفريقية ـ مايو ١٩٨١ ـ ١٩٨٤

أول انطباع اذكره عن أفريقيا هو بشأن جغرافيتها وأحوالها العامة .. فمساحاتها شاسعة حقا والمسافات فيما بين دولها ومدنها ـ ما بين شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ـ اكبر مما يتصور المرء من دراسته للخريطة .

أكبر مما يتصور المرء من دراسته للخريطة.. ثم ما كل هذا التباين الشاسع فى أحوالها الطبوغرافية! افريقيا بها مناطق شديدة الاتساع تكسوها الغابات الكثيفة الاستوائية، وأخرى تكسوها الأعشاب الصالحة للمراعي. كما أن بها مساحات شاسعة بالمثل تغطيها الصحارى الجرداء والمقفرة.

بعض افريقيا فقير معدم تقريبا وبعضها الآخر فى بحبوحة نسبية وبعضها يعيش فى ثراء ظاهر على ثمرة موارده البترولية الوفيرة ومن هنا لايمكن التعميم بشأن دول افريقيا من هذه الناحية ولا من ناحية التقدم العمراني والحضارى كذلك. وبصفة عامة فإن بعض مدن افريقيا حتى الفقيرة منها أكثر نظافة ونظاما من القاهرة، ومما قد يظن الغريب عن هذه المدن حتى وإن كان بعضها ينقصه الأناقة أو العظمة، لكن بافريقيا بعض مدن غاية فى الجدة والأناقة وحسن النظام وعلى رأسها هرارى عاصمة زيمبابوى وتليها نيروبى عاصمة كينيا ثم لوساكا «زامبيا» وداكار «السنغال» وأبيدجان «كوت دى فوار» وليبرفيل «جابون» وقد زرتها كلها «ماعدا هرارى فمعلوماتى عنها وعن فنادقها نقلا عن زملائى بها» ووجدتها كلها أكثر نظاما ونظافة من القاهرة وبها مطاعم وفنادق وأحياء أكثر أناقة وجدة. وقد قصرت حديثى حتى الآن عن افريقيا «جنوب الصحراء» حيث أن افريقيا شمال الصحراء. المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا» معروفة نسبيا لنا وبها مدن الدار البيضاء

والرباط والجزائر وتونس وطرابلس وكلها مدن نظيفة وجميلة وحديثة وبخاصة الدار البيضاء فإنها تضارع بعض العواصم الأوروبية كما تماثل هرارى ونيروبى وداكار وأبيدجان إن لم تفقها جمالا وأناقة، أما مدينة لاجوس عاصمة نيجيريا فهى مدينة ضخمة تعدادها خمسة ملايين وبها مراكز تجارية وصناعية مهمة لكنها تعانى من فوضى ازدحام المرور فضلا عن شدة الحرارة والرطوبة ومن هنا فإنه من ناحية المناخ أيضا لايمكن التعميم عن افريقيا ومدنها. وأحسن مدن افريقيا جوا هرارى ونيروبى ولوساكا وأديس أبابا وكيجالى وتناناريف « مدغشقر » وكلها مقامة علي ارتفاعات تلطف من حرارة الجو ومن تاثير الرطوبة الاستوائية لكن أديس أبابا وارتفاعها ٨٥٠٠ قدم لا تناسب الكثيرين الذين يعانون من ضغط الدم أو أمراض القلب. والسفر والتنقل بين مدن افريقيا ليس أمرا سهلا بل قد يكون نوعا من المغامرة أحيانا كثيرة فهناك كما ذكرت اتساع المسافات من شرق افريقيا إلي غربها ومن شمالها إلى جنوبها لايتصوره إلا من قطع هذه المسافات.

ثم هناك قلة عدد الرحلات الجوية بين كثير من هذه المدن بحيث أنه إذا فاتتك بسبب أو لآخر رحلة جوية كان عليك انتظار الرحلة التالية. وقد تكون بعدها بأسبوع كامل ويحدث كثيرا أن يذهب المسافر إلى المطار ومعه تذكرته وعليها الحجز مؤكدا O. K فيجد الطائرة وقد

ألعميت أو لا يجد مكانا في الطائرة لأن بعض شركات افريقيا تبيع أعدادا من التذاكر أكثر من عدد مقاعد الطائرة اعتمادا على أن البعض سوف يلغى رحلته فى آخر لحظة(١).

وهنا تحضرنى واقعة طريفة للدلالة على المقولة سالفة الذكر. فقد كنت متوجها إلى تناناريف عاصمة مدغشقر لإلقاء سلسلة من المحاضرات بالمعاهد السياسية بها وذلك سنة ١٩٨٧ بعد تقاعدي بالمعاش وقضيت ليلة فى نيروبى على أن أتوجه فجر اليوم التالى الى مطار نيروبى لاستقل طائرة الخطوط الكينية إلى تناناريف وكانت معى تذكرة سياحية وحجز مؤكد ولما توجهت إلى المطار فجر ذلك اليوم فوجئت بوجود عشرين مسافرا متكدسين أمام شباك التذاكر ووزن الأمتعة فى حالة هياج وسخط فلم تكن لهم أماكن رغم أنهم كلهم كانوا يحملون تذاكر وحجز مؤكد وكان منهم سفير مصر الجديد في مدغشقر السيد حسين الخازندار وزوجته وثلاثة من أولاده وكانوا قاصدين مدغشقر لأول مرة لتقديم أوراق اعتماده كسفير لمصر هناك. وقد استطاع هو وعائلته بعد لأى التغلب على الموقف بحكم مكانته السياسية كسفير معتمد فى مهمة رسمية وكانت الخارجية المدغشقرية في

(١) من أفضل شركات الطيران الافريقية وأكثرها نظاما ودقة شركة الطيران الأثيوبية.

انتظار وصوله كما كان يحمل خمسة تذاكر درجة أولى مؤكدة.
أما أنا فقد ظللت متأرجحا بين الأمل فى السفر واللحاق بالطائرة وبين اليأس من أن يدركنى الدور إلى خمس دقائق قبيل إقلاع الطائرة.

وبعد وصولى مع السيد السفير إلى تنانازيف تبين لى أوله أن الخارجية المدغشقرية قد عدلت عن اتفاقها مع السفارة بشأن تنظيم محاضراتى فى تنانازيف فى آخر لحظة بدعوى أنها كانت تفضل أن يفتتح موسم المحاضرات بها السيد وزير الخارجية المصرية أو السيد وزير الدولة للشئون الخارجية د. بطرس غالى أما أنا فقد كنت وكيلا للوزارة فقط. أما الاتفاق السابق والدعوة السابق توجيهها لى فلا بأس من تأجيلها لمناسبة قادمة وقد تكررت الظاهرة نفسها مرة أخرى بعد سنة كاملة فى ياوندى عاصمة الكاميرون بسبب إجازات طارئة. لابأس ولا علينا!! أما سفيرنا فى الكاميرون صديقى السيد/ محمد الخازندار وهو أخو حسين الخازندار سفيرنا فى مدغشقر فقد تمكن من ترتيب محاضرات بديلة عن المحاضرات التى كانت سوف تنظمها وزارة خارجية الكاميرون فالغريب يتعين عليه أن يتقبل مثل هذه الأمور فى إفريقيا بروح الدعابة وابتسامة فلسفية، وبصفة عامة فإن الرجل الإفريقى مفتوح السريرة لطيف المعشر عاطفى إلى حد كبير سريع الإرضاء (وسريع الغضب أحيانا) ولكن يصعب

التعميم أيضا فإن هناك أنواعا كثيرة من أمزجة متناقضة أحيانا .. ما بين الحاد المزاج عنيف الطباع والهادىء المتزن الوقور.. وذلك وفقا لنوع القبيلة والعشيرة وحضاراتها.

كذلك يبدو لي أن الشعوب التي خضعت للحكم الفرنسي في غرب إفريقيا قد تأثرت بطباع الفرنسيين وعاداتهم أكثر من تأثر الشعوب التي خضعت للحكم البريطاني بطباع وعادات الانجليز. ربما لأن الانجليز كانوا «باردين» ولا يخالطون الشعوب المستعمرة كثيرا بل كانوا يقتصرون في معيشتهم على مخالطة أنفسهم وحسب في «نوادي» مغلقة ومخصصة للبريطانيين وحدهم ، وتجد ناديا فخما أو اثنين على الأقل من مخلفات البريطانيين في العواصم التي خضعت لبريطانيا « هراري ـ لوساكا ـ نيروبي... إلخ » في حين لانجد هذه الظاهرة في العواصم الناطقة بالفرنسية ! أما في الأخيرة فنجد صفوة المجتمع الافريقي في تلك العواصم يتشبهون إلى حد كبير بالرجل الفرنسي حتى في عادة شرب النبيذ مع الطعام على المائدة رغم حرارة الجو وتفضيل شرب الشمبانيا الفرنسية الفاخرة وأحيانا كثيرة قرض الشعر بالفرنسية وملكة التأليف والخطابة بالفرنسية وكل هذا شائع في السنغال وكوت دي فوار وجابون وغيرها ولا غرو فقد كانت فرنسا تعتبر كثيرا من تلك البلاد امتدادا جغرافيا لفرنسا وكانت تعامل المتعلمين فيها وكأنهم فرنسيون لهم حق تمثيل شعوبهم

ومدنهم فى البرلمانات الفرنسية فى باريس أمثال الرؤساء سنغور وهوفوى بوانييه وهكذا.

★★★

أما المرأة الإفريقية فتحتل مكانا مهما وتلعب دورا بارزا فى المجتمعات الإفريقية بل وفى النشاط التجارى فى الأسواق اليومية والأسبوعية فى افريقيا كلها شرقا وغربا وهى تملك زمام حريتها الاجتماعية والجنسية، وهذا الكلام ينطبق على أغلب إفريقيا السوداء فيما عدا بعض المجتمعات الإسلامية المحافظة بطبيعة الحال مثلما فى النيجر وشمال نيجيريا ومالى والسنغال، وفى بلاد المغرب العربى بطبيعة الحال، ولاحظت كما لاحظ الكثيرون غيرى أن فى البلاد التى ينقسم أهلها إلى من يدين بالإسلام وإلى من يدين بالمسيحية أو الوثنية فإن العائلة الواحدة قد تنقسم أيضا إلى نفس الأقسام.. كما أن الفوارق بين الديانات تكاد تكون مطموسة غير واضحة المعالم بسبب انتقال بعض الأفراد من دين إلى أخر عدة مرات وفقا لمقتضيات الموقف. وبعض من يحمل أسماء مسلمة قد يكون مسيحيا فى تلك الآونة أو العكس. والزواج المختلط بين الديانات شائع سواء بين الرجال والنساء.. ويقص على دبلوماسى صديق هذه القصة الظريفة:

إنه عند وجوده فى نيروبى عاصمة كينيا بعد الاستقلال مباشرة

كانت عمدة مدينة نيروبي هي مس كينياتا (Miss Kenyata) الآنسة كينياتا إبنة الزعيم الكيني بطل الاستقلال جومو كينياتا.. إلى هنا وليس هناك في الأمر ماهو غير طبيعي.. إلا أنه في بعض الاحتفالات كانت الانسة كينياتا تدخل ووراءها خمسة من أبنائها (١).

كذلك فإن الرجل الإفريقي «والمرأة الإفريقية» مولع إلي درجة لا تألفها في أي الشعوب الأخري بالرقص.. فإن حب الرقص يجري في دم الافريقي حقاً. وما من حفل أقامه أفريقي وحضره عدد من الأفارقة إلا وانقلب حفلاً راقصاً وامتدت السهرة إلي مطلع الفجر. ولكل منطقة أو بلد في افريقيا رقصتها المفضلة.. وبعضها يحمل أسماء غربية حديثة مثل الهاي لايف High- Life في غانا. لكن الأفارقة كلهم يجيدون أداء جميع حركات الرقص ويمتازون بخفة غريبة وهم في هذا أساتذة الأمريكيين والأوروبيين.. وأوضح دليل على هذا أن أساتذة السامبا والرقص في البرازيل، كلهم من أصل إفريقي فضلا عن السامبا نفسها.

ومازال بعض الأفارقة متأثرين بالدعايات الأوروبية المسمومة التي حاولت وتحاول اقناع الإفريقيين بأن العرب هم المسئولون عن تجارة العبيد تاريخيا وعن تهجير مئات الآلاف من أهل افريقيا إلى العبودية

---

(١) [illegible]

في الأمريكتين من العالم القديم، ومن هنا فإن الدول العربية وبخاصة دول افريقيا العربية الخمس مطالبة حقا بمضاعفة جهودها لإزالة هذه النظرة وهذه الصورة من مخيلة جيراننا الافريقيين وتصحيحها وذلك بإثبات إفريقيتنا وحرصنا على المصالح المشتركة التي تربط أهل افريقيا شمال الصحراء وجنوبها على حد سواء.. وقد نجحت كل من مصر والجزائر إلي حد بعيد في إصلاح هذه الصورة وفي إثبات غيرتنا وحرصنا على مصالحنا المشتركة.. إلا أن مشكلة «الصحراء الغربية» قد فرقت مابين المغرب وكثير من دول افريقيا التي ترى في موقف المغرب عودة إلى الاستعمار القديم، وإلى فرض العبودية من جديد على شعوب سوداء.. وقد سبقت هذه المشكلة أيضا مشكلة مطالبة المغرب بضم موريتانيا.. وإذا كانت مشكلة موريتانيا قد انتهت باستقلالها إلا أن استمرار الخلاف بين المغرب والبوليساريو قد أثار المواجع القديمة من جديد.. ومازالت تلك المشكلة دون حل.

كذلك فإن غزو ليبيا لتشاد وضمها لإقليم Aouzo في شمال تشاد أضر بقضية العرب في افريقيا.. وقد حاولت كل من مصر والجزائر حلها سلميا والتغلب على ما أثارته من شعور العداء.. وكنت في أحاديثي ومحاضراتي في افريقيا أؤكد باستمرار صفة مصر الافريقية قائلا إنه إذا كانت مصر قد أصبحت عربية منذ ألف وربعمائة عام (بعد الفتح العربي) فإنها مازالت افريقية وكانت افريقية منذ سبعة آلاف عام

وستظل افريقية بحكم جغرافيتها واعتمادها المطلق على أهم أنهار افريقيا والعالم وهو نهر النيل. كذلك كنت أحاول دائما تذكير الأفارقة بقول الرئيس السنغالي السابق سنغور وهو فيلسوف افريقيا السوداء وصاحب نظرية «الزنجية» La Negritude قوله بأنه يفخر بأن أقدم حضارة قامت في العالم كانت حضارة مصر الافريقية!!

ومع اتفاقي من حيث المبدأ مع سياسة الحلول السلمية التي أسسها وطبقها الرئيس السادات واستعاد بها سيناء إلى مصر، فإني اختلفت معه حول سياسته الافريقية.. والواقع أنه في غمرة سعيه وراء السلام في الشرق الأوسط لم يجد الوقت الكافي لرسم سياسة افريقية بناءة ولم يعط لافريقيا وقتا ولا جهدا ولاتفكيرا صائبا.. بل لقد تميزت فترة حكمه بهبوط اهتمامات مصر بمصالحها الافريقية إلى الدرك الأسفل وبتكدير علاقاتنا باثيوبيا..

ففي ابريل ١٩٨٠ عقد في لاجوس نيجيريا أول مؤتمر قمة افريقية لبحث المسائل الاقتصادية ولم يتسع وقت السادات لحضورها فأوفد بدلا منه نائبه السيد/ حسني مبارك.. وقد رافقت هذا الوفد إلى لاجوس باعتباري وكيل الخارجية المسئول عن سياستنا في افريقيا في ذلك الحين.. ولم يغب عن الزعماء الافارقة عدم وجود الرئيس المصري كما لم يفتهم تكرار غيابه في مناسبات لاحقة، وحتى إذا حضر فلم

يكن يمكث إلا يوما واحدا ويرحل في حين بقي أمام المؤتمر ثلاثة أيام.. وهكذا.

ويحضرني بمناسبة الحديث عن لاجوس «وكانت هذه أولي زياراتي لها» إننا والوفود الأخرى اكتشفنا لأول مرة أنه يمكن اختطاف حقائب أعضاء الوفود التي يحملونها في أيديهم عقب خروجهم من قاعة المؤتمر، يمكن لبعض مغامري لاجوس اختطافها والفرار بها علي بعد خطوات من قاعة مؤتمر القمة الافريقي الاقتصادي الأول، وقد حدث ذلك لبعض الوفود ومنهم «السفير» أحمد سمير مختار عضو وفدنا سالف الذكر سنة ١٩٨٠.

وإذا ماخرجت ليلا بسيارتك مدعوا للعشاء في لاجوس فلا يروعك أن تجد حملات البوليس التفتيشية واقفة علي نواصي كثير من الشوارع والأحياء.. وهم هناك لحمايتك من قراصنة الليل الذين قد يوقفون سيارتك بوسيلة أو بأخرى ليطالبونك بحافظة نقودك أو بسيارتك ذاتها إذا ما أعجبتهم.. وقد اكتشفت بنفسي هذه الظاهرة في نيروبي أيضا في زياراتي لها.. فقد كان السفير أحمد حجاج ومن بعده محمود عثمان شديدي الحذر والاحتياط إزاء هذه الأحداث.. وتكرر الموقف نفسه في الكاميرون للسفير جمال بيومي فحاولوا اختطاف سيارته في الطريق..

أما زيارتي الثانية إلى لاجوس فقد كانت سنة ١٩٨١ برفقة السيد/

المرحوم ممدوح سالم مساعد الرئيس أنور السادات والذى أوفده حاملا رسالة سياسية إلى رئيس نيجيريا وإلى وزير خارجيتها وتضمنت شرح والدفاع عن سياسة مصر السلمية فى الشرق الأوسط. ولا أعتقد أن هذه الزيارة أتت ثمرتها وكان لقاء السيد ممدوح سالم مع وزير الخارجية النيجيرى الذى حضرته غير مثمر تماما.. وتبين هذا فى لقاء السيد/ ممدوح سالم مع وفود الصحافة النيجيرية فى دار السفير المصرى بعد ذلك. فالصحافة فى نيجيريا شديدة الصراحة إلى حد الإيلام، والصحفيون النيجيريون Very Aggressive واعتادوا التلذذ فى إحراج خصومهم أو من يظنونهم خصومهم خاصة إذا ما كانوا فى مثل سماحة ودماثة وخجل المرحوم ممدوح سالم، طيب الله ثراه.

أما مناسبة زيارتى الثالثة إلى لاجوس فكنت موفداً بصفتى وكيلا للخارجية لشئون أفريقيا فى مهمة عاجلة فى يناير ١٩٨١ لمقابلة وزير خارجية نيجيريا وعدد آخر من وزراء الخارجية فى المنطقة «منهم وزراء خارجية السنغال وجامبيا وكوت دى فوار وجابون وتوجو والنيجر وجمهورية وسط أفريقيا» وذلك لشرح ضرورة الضغط على ليبيا للإنسحاب من تشاد.. وقد تأخرت الخارجية فى لاجوس فى تحديد موعد لى مع وزير الخارجية بدعوى مشغوليته التامة. ثم قبلت أخيراً منحى «خمس عشرة دقيقة فقط لمقابلة الوزير».. وقد رافقنى فى تلك الزيارة فى

لإجوس صديقي وزميلي المرحوم السفير السيد/ عاطف النواوي طيب الله ثراه.

وشرحت للوزير النيجيري وجهة نظر مصر في شأن الخلاف التشادي الليبي، وضرورة انسحاب قوات ليبيا من تشاد. فإذا بالوزير يقاطعني وسألني أن كانت مصر دولة غير منحازة حقا؟ فأكدت له عدم انحيازها بل إننا من مؤسسي الحركة ومن زعمائها. فأجابني إننا فى نيجيريا كلما أردنا معرفة اتجاهات السياسة الأمريكية نحاول متابعة اتجاهات الدبلوماسية المصرية!! فأخذت بهذه الحجة لكنى تمالكت نفسى ومضيت أشرح للوزير دور مصر التاريخي في عدم الانحياز ومعنى عدم الانحياز خاصة أننا من مؤسسيه.. وقلت إن معنى عدم الإنحياز هو ألا نتخذ موقف تأييد أوتوماتيكيا وتلقائيا لسياسة روسيا أو لسياسة أمريكا. بل، يمكن لدول عدم الانحياز، أحيانا تأييد ما تراه صالحا من إتجاهات روسيا أو أمريكا أحيانا أخرى وفقا لعدالة ورجاحة كل قضية Occording to the merit of each case وإن تتمكن أيضا من نقد سياسة الشرق أو الغرب أحيانا وفقا لما تراه سيئا فى مواقف هذا أو ذاك.. وهذا ماتفعله مصر.. وليست جريمة أن تتفق سياسة القاهرة وواشنطن أحيانا كما تتفق سياسة مصر وموسكو أحيانا أخرى، بل هذا هو معنى عدم الانحياز.

وقد استمرت مناقشاتنا مع وزير الخارجية خمسا وخمسين دقيقة

بدلا من الخمس عشرة دقيقة المسموح بها من قبل.. ويبدو أن وقت الوزير قد اتسع لهذه المناقشة.. على غير انتظار.

وبعد خروجنا من حضرة الوزير مال عليّ المرحوم السفير عاطف النواوى قائلا: «ياللك من صبور متسامح، لو كنت مكانك لقلبت المكتب على الوزير وخرجت»!!

أما زيارتى الرابعة والأخيرة إلى لاجوس فكانت سنة ١٩٨٧ بعد تقاعدى بالمعاش فقد نظم لى معهد الشئون الدولية فى لاجوس «وهو معهد سياسى محترم جدا، وأحيانا يعين مديره وزيرا لخارجية نيجيريا» نظم لى سلسلة محاضرات بالمعهد (١) وكانت محاضرات ناجحة وحضرها لفيف من الدبلوماسيين والأكاديميين وأبدوا مستوى راقيا من المعرفة والمجادلة، والمعروف أن نيجيريا هى أكبر دول افريقيا عددا (١٢٠ مليون نسمة) ويحلو لها أن تلعب دور الأخت الافريقية الكبرى.. «القادرة والعاقلة» وكنت أنا بدورى أشيد بحجمهم وأهمية دورهم وأضيف أن مصر هى التى تلى نيجيريا من حيث الكثافة السكانية وأن البلدين معا قادران على لعب دور مهم فى الحفاظ على أمن وسلامة افريقيا.

ولما كان الشىء بالشىء يذكر فقد قمت بعدة جولات فى افريقيا

---

(١) بفضل الزميل السفير د. محمد عثمان سفير مصر فى نيجيريا والذى حضر المحاضرات.

خلال تلك المدة بعضها وأنا وكيل للوزارة، والبعض الآخر بعد تقاعدى إلى المعاش بدءا في نوفمبر ١٩٨٦ عندما أوفدتنى وزارة الخارجية لإلقاء سلسلة من المحاضرات فى البلاد الناطقة بالانجليزية وبالفرنسية فى شرق وغرب افريقيا.

ومن ذلك أني حضرت مؤتمر قمة إفريقيا سنة ١٩٨٠ عقد فى سيراليون «وعاصمتها فريتاون» وهى مشهورة بتعدين وتصدير الماس - وكان الوفد برئاسة الوزير د. بطرس بطرس غالى نظرا لتغيب الرئيس السادات.. ومن أهم المشكلات التي أثيرت فى هذا المؤتمر مسألة النظر فى قرارات المنظمة بشأن إنشاء قوة عسكرية إفريقية للأمن الجماعي المشترك، لكن حال دون ذلك قصور موارد منظمة الوحدة الافريقية المالية فقد سبق ذلك ايفاد قوة مماثلة مكثت شهرين فقط في تشاد وبلغت تكاليفها ثمانين مليون دولار.

والمعلوم أن ميزانية منظمة الوحدة الافريقية تعاني عجزا خطيرا باستمرار بسبب تقاعس عدد كبير من أعضائها عن سداد حصص اشتراكاتهم السنوية.. وتبلغ الميزانية السنوية حوالى ٤٠ مليون دولار(١) لكن المنظمة تطالب بمتأخرات قدرها أربعون مليون دولار أخرى لم يتم سدادها من قبل.. فكيف يمكن لافريقيا مجرد التفكير في إنشاء قوات طوارىء وتحمل نفقات إقامتها في بلد غريب؟

---

(١) سنة ١٩٨٢ .

ثم اقترحت سيراليون تعديل ميثاق المنظمة وانشاء جهاز مجلس أمن في أفريقيا تابع للمنظمة تكون مهمته الأساسية مثل مجلس الأمن الدولي - المحافظة على الأمن والسلام «لكن في افريقيا طبعا».. وكان نصيب مصر كما كان من نصيبي أنا أعداد رد أعضاء المنظمة التصدي لهذا الاقتراح غير العملي، فتعديل ميثاق المنظمة يستلزم أولا حسب الميثاق، النظر في أي اقتراح مشابه لمدة عام كامل للدراسة قبل البت فيه، ويحتاج الأمر لإقرار التعديل ثلثي الأصوات.

ومن ناحية أخرى فإن جهاز الأمن الافريقي المقترح سوف يكون جهازا شرفيا وغير ذي فاعلية حقيقية إلا إذا زود بالاعتمادات اللازمة وبالقوات العسكرية غير المتوافرة، ناهيك بأن ميثاق الوحدة الافريقية يقوم أساسا على نظرية سيطرة أو سلطة جهاز رؤساء الدول بأكملهم وأن في اختيار عدد صغير محدود من بينهم ليتولى سلطات مجلس الأمن الواسعة ما قد يثير من الفرقة والخلافات بينهم أكثر مما يفيد..

ومن ثم فقد هزم اقتراح سيراليون ولم ير النور بعد ذلك.. لكن القيت مهمة إلقاء «الدش البارد» على الصديق وزير خارجية سيراليون الصديقة بالمثل.. على أنا..

وأثناء جولتي في غرب إفريقيا في يناير ١٩٨١ بشأن قضية تشاد مررت على لومي Lome عاصمة توجو مرتين: الأولى لحضور احتفالاتها بعيد استقلالها وتسليم توجو سبع دبابات مصرية مستعملة

قامت مصر بإهدائها إلى توجو بعد أن تولت مصر صيانتها وما أن وصلت Lome إلا وقد فوجئت بسفير مصر بها الصديق السيد مجدي خفاجة يخبرني بأن الدبابات أنزلت من الباخرة إلى رصيف الميناء لكنها أثناء توجهها من الميناء إلى معسكر الجيش في المدينة تعطلت منها أربع دبابات مرة واحدة ولم يمكن تسييرها، ولن تشترك الدبابات في العرض العسكري بمناسبة يوم الاستقلال - بعد أيام قليلة إلا إذا أرسلت مصر فورا من يقوم بإصلاحها..

قمنا بالإبراق إلى مصر بالمعنى السابق، لكن لم تصل الطائرة المصرية الحربية المقلة لطاقم الصيانة إلا بعد انتهاء العرض العسكرى الذي تم دون اشتراك الدبابات طبعا.

وكنت قد سافرت لإتمام مهمتي في نيجيريا وجابون وعدت إلى لومى لحضور اجتماع لجنة رئيسية من رؤساء سبع دول افريقية اجتمعت في فندق ٢٢ فبراير الشهير والحديث - في لومى لبحث مشكلة ليبيا وتشاد في حضور «التريكى» وزير خارجية ليبيا حينئذ. وكان قد دعاني الرئيس أياديما رئيس جمهورية توجو لحضور اجتماعات تلك اللجنة كمراقب وممثل لرئيس جمهورية مصر، كضيف على اللجنة، وكان غرض تلك اللجنة مواجهة التريكى وإحراجه واضطراره إلى إعلان موقف ليبيا صراحة هل تنوى الإنسحاب - ومتى؟ لكن ما أن رآني التريكى إلا وأعلن احتجاجه على حضور ممثل مصر وهو ليس عضوا باللجنة، وأعلن انسحابه منها.

وهكذا أراد التخلص من ذلك المأزق.. بهذه الحيلة المكشوفة.. لكنى سارعت فطلبت الكلمة وشرحت أن وفد مصر تعاطفا منه مع قضية تشاد ومع مواقف الرؤساء السبعة وتأييدا لمهمتهم يسره أن «ينسحب طواعية» من الجلسة ليسمح للرؤساء بإعادة استدعاء السيد التريكى ومواجهته.. ولا يسوءه مصر أن تتغيب عن تلك الجلسة فهى على ثقة من أن السادة الرؤساء سيتخذون المواقف نفسها التي ترضي عنها مصر.. إلخ...

وهكذا تم استدعاء السيد التريكى من جديد لمواجهة العاصفة!

كذلك كان لى حظ الاشتراك في الوفد الوزارى برئاسة السيد منصور حسن وزير الإعلام المصرى فى ذلك الحين، والذى اشترك فى مؤتمر وزراء الإعلام بإفريقيا في ياوندى عاصمة الكاميرون، وبحضور السيد/ أحمد مختار أمبو مدير منظمة اليونسكو حينئذ أى سنة ١٩٨١.

ضم الوفد بخلاف السيد منصور حسن وبخلافى السيد يحيى أبوبكر رئيس هيئة الاستعلامات والأساتذة مكرم محمد أحمد ومحمد طنطاوى وغيرهم...

أقلتنا الطائرة من القاهرة إلى باريس حيث أمضي الوفد ليلة واحدة انتظارا لطائرة «ايرافريك Air Afriqut إلى ميناء دوالا فى الكاميرون

الذى يطل على الأطلسى ـ وهو أيضا المطار الدولى للكاميرون ـ ومن دوالا بطائرة صغيرة على الخطوط الداخلية إلى ياوندى العاصمة إذ هى مدينة صغيرة على هضبة مرتفعة وسط الكاميرون وجوها لطيف يمتاز كثيرا عن حرارة ورطوبة دوالا الشديدة.. الاستوائية..

وقد توجه عدد من أعضاء سفارتنا فى باريس بسياراتهم إلى الفندق الذى كنا نقيم فيه فى باريس لنقل السيد الوزير وأعضاء الوفد إلى المطار.. قبل موعد إقلاع الطائرة بساعتين.. وقد حضر ضمن من حضروا الزميل الأستاذ/ فتحى دراز الوزير المفوض لسفارتنا فى باريس فى ذلك الحين (سفير مصر فى مالى فيما بعد) وعرض على أن يصحبنى فى سيارته إلى المطار فقبلت بسرور فهو صديق عزيز قديم ولم أرغب فى تركه يذهب للمطار وحيدا.. وكان الأستاذ فتحى دراز من المخضرمين العارفين تماما لباريس فقد أمضى فيها سنوات طويلة.. كطالب وكدبلوماسى إلا أنه أمضى أكثر من ساعة ونصف يحاول الخروج من وسط باريس إلى الطريق الدائرى المؤدى إلى المطار دون فائدة.

وقد لاحظت ازدياد عصبيته وحرجه وخجله لعدم معرفته الطريق ولاحتمال تسببه فى فقدانى الطائرة وعدم لحاقى بالوفد إلى الكاميرون فلم أشأ أن أزيد من عصبيته وحرجه وضبطت أعصابى رغم ازدياد قلقى بطبيعة الحال كلما تقدمت الساعة! واقترحت عليه ـ مرارا ـ إيقاف

سيارة أجرة «تاكسي» لتدلنا على الطريق لكنه إعتبر ذلك إهانة له فيما يبدو ورفض عرضي كل مرة! وأخيرا وبعد أن طاف بي كل باريس تقريبا تمكن من الخروج إلى الطريق الدائري، طريق المطار فوصلناه قبل خمس دقائق من مغادرة الطائرة، وكان الجميع في إنتظاري في شدة القلق والحيرة لما أصابنا وكانوا قد أتموا إجراءات وزن أمتعتي وتم شحنها إلى الطائرة لحسن الحظ فما أن وصلت المطار إلا وأدخلوني إلى الطائرة فورا.. وتنفست الصعداء وقصصت على السيد الوزير تجربتي العصيبة وتجوالي في باريس مدة ساعة ونصف لم أر فيها شيئا من معالم باريس رغم ذلك!

وبعد أن بلغت سن التقاعد في نوفمبر ١٩٨٦ دعاني السيد الوزير د. بطرس غالي للإسهام في برنامج المحاضرات السياسية التي تنظمها مصر عن طريق وزارة الخارجية المصرية في عواصم بعض الدول الصديقة التي أبرمت مع مصر اتفاقات تعاون فني، وقد أقامت مصر سنة ١٩٨٠ صندوق المعونة الفنية لإفريقيا ويتبع وزارة الخارجية المصرية ويستهدف مد الدول الإفريقية الصديقة بالخبراء الفنيين في جميع الميادين والمحاضرين، وتدريب كوادر افريقية في مصر بالمثل. وقد أبرم صندوق المعونة اتفاقات مع أربعين دولة إفريقية إلى الآن، وكانت زياراتي إلى عدد من العواصم الإفريقية لإلقاء سلسلة محاضرات سياسية عن طريق هذا

الصندوق إذن..

أوفدنى الصندوق وكان يرأسه السفير أحمد طه فى ذلك الوقت فى مهمتين: إحداهما تناولت إلقاء محاضرات فى لاجوس عاصمة نيجيريا، وكوتونو عاصمة بنين، وياوندى عاصمة الكاميرون، ولومى عاصمة توجو، وأكرا عاصمة غانا، وقد سبق الحديث عن لاجوس أما كوتونو فقد أدهشنى نظافتها وحسن نظامها وتوافر الحاجات المعيشية بها ورغم ماسمعته عن شدة نظام الحكم فى بنين الاشتراكى الطابع وليس بالمدينة سمات الغنى أو الثراء لكن بها فندق شيراتون من أفخم فنادق شيراتون فى كل افريقيا ويطل على البلاج مباشرة!! وقد أقر مجلس الوزراء بنفسه عناوين المحاضرات التى ألقيتها ووافق على دعوتى وأشرفت وزارة الخارجية فى كوتونو على تنظيم المحاضرات بالاتفاق مع السيد سفيرنا حسن غازى الذى أبدى جهدا مشكورا ملحوظا.. فتمت على أكمل وجه وفى جو من الترحاب والود مما يدل على أن مصر قد استعادت مكانتها فى افريقيا حتى فى البلاد اليسارية وأنها على الطريق السليم. أما لومى فهى عاصمة صغيرة مثل كوتونو تطل على المحيط الأطلسى أيضا ومقامة على سلسلة من التلال وجوها يميل إلى الانفتاح الاقتصادى وبها اثنان من الـ Super-Marches فرنسية تحوى كل المنتجات الفرنسية لكن بأسعار تكاد تكون ضعف أسعارها فى باريس، وقد تولى صديقى وزميلى السفير عمرو هاشم استضافتى

فى سفارته وترتيب إلقائى لأربع محاضرات تحت إشراف وزارة الخارجية التوجولية فى جو من الود والترحاب بالمثل، فصداقة مصر وتوجو قديمة العهد.. كما أن معرفتى بتوجو ترجع بالمثل إلى ١٩٨١ وكانت مناسبة سارة أن جددت أواصر صداقتى مع الزميل السفير عمرو هاشم وكان قد عمل معى فى روما أثناء تولىّ مهام سفارتنا بها..

أما أكرا عاصمة غانا فقد سبق لى زيارتها للمرة الأولى فى ابريل ١٩٥٨ ضمن الوفد برئاسة المرحوم د. محمود فوزى لحضور أول مؤتمر قمة للدول الافريقية المستقلة كما سبق أن شرحت.

كانت أكرا عاصمة مزدهرة سنة ١٩٥٨.. ونزلنا فى فندق امباسادور حينئذ وكان فندقا طيبا واتسمت خدماته بالجودة.. أما سنة ١٩٨٠ فكانت الحالة تنبىء بفعل السنين الثلاثين الماضية، ثلاثون سنة فى ظل حكم اشتراكى متطرف ثم عسكرى يمينى.. لقد تدهورت عملتها المسماة «سيدى» وأحوالها العامة.. لكن صداقة مصر وغانا قديمة فهما بلدان صديقان ومتصاهران من قديم الزمان (١).

ورغم تغيب سفيرنا بالإجازة فإن السكرتير الثالث بالسفارة وكان شابا حديث الخبرة قام بواجبه على أكمل وجه واستطاع مع وزارة خارجية غانا تنظيم إحدى المحاضرات فى وزارة

---

(١) تزوج الرئيس الغانى انكروما بسيدة مصرية قبطية اسمها فتحية

الخارجية لكبــار الدبلوماسيين وأخرى فى معهــد الصحافة العــالى فى أكرا.

وقد أثارت زيارتى الأخيرة إلى أكرا ذكريات زيارتى لها فى المرة الأولى سنة ١٩٥٨ كانت غانا حديثة الاستقلال وتزهو بعنفوان شبابها ويفرط حماس أنكروما وبتقديس الشعب له.. وتذكرت حفلاته فى القصر أو القلعة القديمة التى تعود إلى عهد البرتغاليين! كما تذكرت كيف كان الفتيان والفتيات الغانيات يرقصون «الهاى لايف» فى مرح وسرور فى حدائق حانات البيرة المنتشرة فى أكرا.. وتذكرت مشاطرتى نفس الغرفة مع الصديق الوزير محمد فائق أثناء مؤتمر سنة ١٩٥٨ كما تذكرت زميلنا الراحل السفير عماد البط الذى كان معارا لمنظمة الوحدة الافريقية وكان يرأس مكتبها فى أكرا ووافته المنية فى إحدى المرات والطائرة تتهيأ للهبوط فى مطار أكرا حقا لقد أثارت زيارتى الثانية لأكرا ذكريات حزينة وحركت المواجع..

أما ياوندى عاصمة الكاميرون فبعد أن رتبت محاضراتى مع صديقى وزميلى السفير/ محمد الخازندار «شقيق حسين الخازندار سفيرنا فى مدغشقر الذى سبق ذكر اسمه» عادت حكومة الكاميرون فاعتذرت لتغيير البرنامج بسبب الإجازات الطارئة فى عاصمة ياوندى.. هكذا تمكن السفير محمد الخازندار من ترتيب محاضراتى عن طريق نادى الروتارى فى ياوندى. كما أصر مشكورا على استضافتى فى

سفارته.

وياوندى جوها لطيف مريح لأنها تقع على هضبة مرتفعة وسط الكاميرون.. ومناظرها جميلة، أعادت إلى ذاكرتى مناظر تتاناريف حيث يقيم أيضا حسين الخازندار.. لكن سفارتنا فى ياوندى ملك للدولة المصرية وحديثة البناء وكان لى شرف النزول فيها فى ضيافة صديقى محمد الخازندار وهى فخر لصندوق مبانى وزارة الخارجية المصرية الذى يحاول إقامة سفارات مصرية تملكها الدولة فى مختلف العواصم بدلا من استئجار تلك الدور.

فالإيجار المدفوع.. مفقود.. فى حين أن امتلاك الدولة لدور سفاراتنا فى الخارج سوف يوفر الإيجار تماما بعد عشر سنوات من بناء تلك السفارات..

وياوندى بها فندق واحد مريح اسمه مونت فيبى يؤمه جميع الأجانب والدبلوماسيون فى عطلات نهاية الأسبوع فليس هناك مكان غيره. أما دوالا الميناء التجارى الأول على المحيط الأطلسى فيها عدد أكبر من الفنادق الصالحة لكن مدينة دوالا شديدة الرطوبة والحرارة وهى لهذا أسوأ حالا من ياوندى التى تتفوق عليها أولا من حيث المناخ وثانيا من حيث خفة الدم والمنظر العام ومحاولات التحديث والإصلاح.

أما المهمة الثانية التي أوفدني فيها الصندوق لإلقاء المحاضرات فكانت إلى شرق افريقيا.. إلى نيروبى «كينيا» ثم تناناريف «مدغشقر» ثم جزيرة موريشيوس.

فنيروبى مدينة رصينة أصيلة ومحترمة ووسط المدينة بها أنيق تفخر به أى عاصمة حديثة وبها أحياء سكنية راقية جدا.. ڤيللات فاخرة وحدائق غناء وطرق نظيفة معبدة.. وجو نيروبى جميل طوال العام وهو ربيع دائم بسبب ارتفاعها ٥٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

وقد أقمت لدى زميلي السفير محمود عثمان في دار سكن السفير وهى تدل على انتشار الذوق السليم والمبانى الراقية فى نيروبى.. وكان قد سبق لنا أنا وزوجتي زيارة نيروبى من قبل(١) وقمنا برحلة إلى قرب جبل كينيا Mount Kanya Safari park وارتفاع هذا الـ Park ٧٠٠٠ قدم وهو مثال الأناقة وحسن خدمة مراكز السياحة فى كينيا.

وقد نظم لى السيد السفير/ محمود عثمان بالاتفاق مع وزارة الخارجية وجامعة نيروبى وبعض أساتذتها عدة محاضرات.. وأوصلنى إلى مطار نيروبى حيث فوجئنا باحتمال عدم سفرى إلى تناناريف سبب ازدحام الطائرة! لكن الله سلم!!

---

(١) ونزلنا أيضا فى ضيافة الزميل والصديق السفير أحمد حجاج وهو حاليا معار لمنظمة الوحدة الافريقية كأمين عام مساعد للمنظمة.

وفى تناناريف عاصمة مدغشقر (٦٠٠ كيلومتر مربع وهى من أكبر جزر العالم) نزلت فى أطيب فنادقها.. فندق هيلتون لكنه هو الآخر تأثر بالجو العام والمحيط به فى تناناريف،... ويعكس هذا الجو تأثير نوع من الرياح الاشتراكية اليسارية التى غمرت البلاد منذ استقلالها وأوقفت تقدم السياحة إليها وفيها ورغم جمال المناظر الطبيعية فى تناناريف بل ورغم ثراء الطبيعة فى كل جزيرة مدغشقر فإن السائح لا يجد بها مايشده إلى زيارتها ثانية، ولم أستطع إلقاء أى محاضرة بها لأن الحكومة رأت ـ بعد وصولى إليها ـ أن يبدأ موسم المحاضرات المصرية بها وزير أو وزير دولة وليس وكيل وزارة الخارجية السابق.. وذلك رغم سبق قبولها لدعوتى!

إلى هذا الحد وصلت البيروقراطية والـ Snobis Hness فى بعض بلاد افريقيا!!

ومن هنا كانت مشكلتى فى تناناريف هى كيف أقضى الأيام الثلاثة الباقية على موعد الطائرة المقبلة إلى موريشيوس؟ أمضيتها فى رياضة المشى وزيارة البازارات أى الأسواق وأهمها سوق الجمعة حيث تتفوق النساء فى فنون البيع والإدارة فهى أفضل وسيلة لدراسة أحوال الشعب المادية والمعنوية.. والشعب هناك لطيف مستكين هادىء الطباع، ونسبة المسلمين فى الشعب مرتفعة لكن قل أن تجد رجلا أو امرأة يبتسم أو يضحك؟ وليس فى الحياة الجافة القاسية ما يضحك.. ولم أجد أنا سببا لكى يبتسم أهل تناناريف على أى حال. ولعل الحال قد تبدل الآن.

أما جزيرة موريشيوس فهي رغم صغر حجمها جزيرة سياحية مفتوحة تماما بخلاف مدغشقر.. ورغم كونها على مسافة أبعد كثيرا من مدغشقر عن ساحل افريقيا (٥٠٠ ميل شرقى مدغشقر) فهى تعج بالسائحين من جنوب افريقيا بل من آسيا ومن أوروبا أيضا.. وبها عشرات المراكز السياحية الجميلة وشواطئها من أجمل شواطىء الدنيا من حيث وفرة الرمال البيضاء الناعمة والمياه الزرقاء البللورية كل ذلك فى جو من الخضرة الغنية الوارفة وسط حدائق الماجنوليا والجازوارينا وأشجار النخيل ونخيل جوز الهند التى تملأ الشواطىء بظلالها الوارفة ومنظرها الخلاب.. والشواطىء تزخر بالسائحين والسائحات الأجانب. جو كله سعادة ومرح وحبور وانتعاش اقتصادى وانفتاح فكرى.. رغم أن السواحل حارة بطبيعة الحال فجوها مدارى.

لكن وسط الجزيرة مرتفع - ويضم أربع مدن صغيرة هى كوريب ويوفالون وتامارين وروزبيل ويسكن أغلب السفراء وسط الجزيرة فى كوريب ويوفالون لأنه يتميز بلطف مناخه وقلة رطوبته ووفره زرعه وظلاله والمسافة من وسط الجزيرة إلى العاصمة Port Louis على الشاطىء وهى مركز الحكومة ووزارة الخارجية لاتتعدى نصف الساعة بالطرق السريعة الجيدة. ويوسط الجزيرة فنادق مريحة لكنها لاتضارع فنادق المراكز السياحية الفاخرة على السواحل حسنا وبهاء وأناقة.

وقد نظم لى سفيرنا وائل فهمى محاضراتى فى جامعة «غاندى» حيث يكثر الهنود الوافدون من الهند فى موريشيوس ويمسكون بزمام

التجارة والأعمال. والجامعة مقامة وسط الجزيرة كما نظم لنا مقابلات مع بعض الوزراء والمسئولين ومنهم رئيس الوزراء نفسه.. فالشعور العام هناك موات لمصر تماما..

وبموريشيوس صناعات النسيج شديدة التقدم وتصدر منتجاتها إلى دول أوروبا التى تقبل على شرائها لجودتها ورخص أسعارها كذلك فإن الصناعات الصوفية «بول أوفرات إلخ» متوفرة ورخيصة وغزت أسواق العالم.. رغم أن موريشيوس تستورد القطن والصوف من الخارج..

لكن موريشيوس هى جزيرة قصب السكر وتصدر منه كميات إلى الخارج وكذا شاى موريشيوس الشهير وهو طيب المذاق والشعب فى موريشيوس مليون نسمة - خليط من سلالات البرتغاليين والهولنديين ومن الهند الوافدين من الهند مع الانجليز «هنود مسلمون وهنود هندوس» ومن الأفارقة الأصليين ومن سكان جزر المحيط الهندى.. لكن يغلب الجنس الهندى ويسيطر تماما على التجارة.. ويتكلمون هناك الانجليزية إلى جانب الفرنسية فقد كانت موريشيوس مستعمرة هولندية ثم فرنسية وأسموها L,isle maurice قبل أن تصبح مستعمرة بريطانية باسمها الحالى (١) وهى تبعد عن سواحل افريقيا ثلاث ساعات بالطائرة ورغم ذلك اشتد إقبال السائحين عليها لجمالها وبسبب سياستها الانفتاحية الحكيمة. ورخص أسعارها.

(١) موريشيوس حاليا دولة مستقلة وعضو بالأمم المتحدة وبمنظمة الوحدة الافريقية.

الفصل السابع

الدبلوماسية المصرية فى أعالى النيل:
سفير مصرى فى أديس أبابا!!

تقع أثيوبيا (واسمها القديم الحبشة) شرق وجنوب شرق السودان، وتشترك مع السودان فى حدود مشتركة قد تبلغ الألفى كيلو متر، وتطل من جهة الشرق على البحر الأحمر (١) وكان يمكنها التحكم فى مضيق باب المندب لقربها الشديد من مداخله كما كان لها مجموعة جزر داهليك القريبة من مداخل باب المندب. ولها من الجنوب الشرقى حدود مشتركة مع جمهورية جيبوتى ومع كينيا . وتقع بحيرة تانا وسط الهضبة الأثيوبية ويجرى النيل الأزرق من بحيرة تانا عبر أثيوبيا ثم إلى السودان إلى أن يلتقى مع النيل الأبيض قرب الخرطوم، ومن الأنهار الأخرى المهمة التى تغذى النيل الأبيض السوباط والعطبرة وينبعان من الحبشة بالمثل ومساحة أثيوبيا تفوق مساحة مصر الكلية (٤٧٢٠٠٠ ميل مربع لأثيوبيا و٣٨٦٠٠٠ مربع لمصر).

(١) أصبحت أثيوبيا تطل على البحر بحكم امتلاكها لاريتريا بدءاً من سنة ١٩٥٢ بناء على قرار الحلفاء بعد الحرب، لكن استقلت اريتريا سنة ١٩٩٢/ ١٩٩٣.

وتعداد أثيوبيا يزيد على ٣٦ مليون نسمة من عدة أجناس منها الأمهرى والتجرى وتسكن أعلى الهضبة المرتفعة والجالا والدناكيل والأوروموو وسط الهضبة ولكل منها لغته الخاصة.. والأمهريون والتجريون من الجنس السامى لكن الجالا من الجنس الحامى.. كذلك فإن المسيحية دخلت أثيوبيا سنة ٣٣٠ بعد الميلاد عن طريق مصر وكان تأثير الكنيسة القبطية المصرية شديدا وكانت الكنيسة الأثيوبية تتبع للكنيسة القبطية فى مصر حتى سنة ١٩٥٠ حين استقلت عنها «إداريا».. لكنها مازالت تتبع الطقوس نفسها القبطية.

وكانت مصر القديمة، تليها اليونان القديمة صاحبتى أكبر نفوذ ثقافى وحضارى على الحبشة ويتضح ذلك فى الآثار والكنائس فى لاليبلا وجوندار واكسوم.. ورغم أن الكنيسة الأثيوبية استقلت أخيرا سنة ١٩٥٠ عن الكنيسة القبطية المصرية إداريا فإن الدين المسيحى «القبطى» مازال مسيطرا على أربعين فى المائة من الشعب الأثيوبى وذلك رغم قيام نظام اشتراكى ماركسى فى البلاد بدءا من ١٩٧٤(١). ويدين أربعون فى المائة من الشعب بالإسلام والباقى وثنيون وتوجد قلة لا تجاوز ثلاثين ألفا أو أقل من اليهود «الفلاشا»، هاجر الكثيرون منها إلى إسرائيل فى الحقبة الأخيرة.

وأثيوبيا معظمها دولة جبلية وعرة بل شديدة الوعورة ويبلغ ارتفاع بعض القمم أربعة آلاف متر لكن أديس أبابا العاصمة التى تتوسط

---

(١) أسقط النظام الماركسى سنة ١٩٩١.

الهضبة تقع على ارتفاع ٢٨٠٠ متر (٨٠٠٠ قدم) تقريبا وقد بدأت مظاهر التحديث تبدو واضحة فى قطاعات من مدينة أديس أبابا التى تسبق بقية مدن وقرى أثيوبيا بمسافات طويلة.

ويتحكم نظام المرتفعات فى نوعية المناخ وكمية سقوط الأمطار الموسمية ونوعية النباتات فهناك مناطق شديدة الخصوبة أما لتلقيها كميات مناسبة من الأمطار التى لها موسمان موسم الأمطار الغزيرة وموسم الأمطار القليلة وأما بسبب قربها من مياه النيل وفروعه أنهار عطبرة وسوباط وبارو لكن ظروف الرى مازالت بدائية ويمكن تحسينها عن طريق بناء السدود (١) وهناك مناطق جفاف بل شديدة الجفاف قرب صحارى السودان والصومال..

ومما يزيد من صعوبة المشكلات التى تواجه أثيوبيا انعدام أو عدم كفاءة وسائل النقل الحديثة كلية لتوزيع المحاصيل الزراعية من المناطق الخصبة المثمرة إلى المناطق الجدباء بالإضافة إلى ضعف أو سوء وسائل الإنتاج الزراعى ووسائل الرى وعدم تحديثها مما يؤدى إلى تكرار وقوع القحط والمجاعة فى مناطق متباينة من أثيوبيا وإن لم يكن فى مجموعها وقد احتاج ٣ ملايين أثيوبى أو أكثر إلى المعونات الدولية عام ١٩٩٠ استمراراً لما حدث فى السنوات القليلة السابقة أيضا.

وتشتهر أثيوبيا بزراعة البن على سفوح الجبال متوسطة الارتفاع ويمثل البن ٦١٪ من صادراتها كذلك تزرع الحبوب والغلال.

(١) قبل سقوط الامبراطور قامت الولايات المتحدة سنة ١٩٥٨ بدراسة وافية وتقدمت بمشروع إقامة أربعة سدود مهمة على النيل الأزرق لكن لم ينفذ شىء للآن.

لكنها تحتاج حاليا إلى مساعدات العالم الخارجى لسد رمق الشعب فى مناطق القحط منذ عدة سنوات وأرض أثيوبيا الزراعية البركانية خصبة لكنها لا تمثل إلا ١٢٪ من المساحة الكلية .

وتمثل الجبال والصحارى باقى المساحة لكن الثروة المعدنية تشمل مناجم الفحم والبلاتين والذهب والنحاس (كان المصريون القدماء يستغلون مناجم الذهب فى أثيوبيا فى فترات متقطعة) والاسبستوس والبوتاس كما أن الثروة الحيوانية فى المناطق النائية تشمل الأبقار والخراف : وتصدر أثيوبيا كميات من اللحوم إلى ايطاليا وغيرها .. وثمانون فى المائة من اليد العاملة فى أثيوبيا تشتغل بالزراعة .. وطرقها ووسائل مواصلاتها بدائية كما هو متوقع ، رغم وجود تجمعات مساقط مياه كثيرة بسبب هطول الأمطار الموسمية الغزيرة وتدفق النيل الأزرق والسوباط والعطبرة من فوق منحدرات وعرة فإن انتاج أثيوبيا من الكهرباء لا يتعدى ٧٠ مليون كيلو وات كهرباء سنويا (مصر ١٧ بليون وايطاليا ١٨٠ بليون) .

ويبلغ إجمالى الناتج القومى فى أثيوبيا ٧ أو ٨ بلايين دولار سنويا (مصر ٣٣ بليوناً وايطاليا ٣٥٠) كما يبلغ متوسط دخل الفرد فى أثيوبيا ١٢٢ دولارا سنويا (مصر ٦٨٦ دولارا وايطاليا ٧٠٠٠ دولار سنويا) فأثيوبيا تعتبر إذن دولة من الثلاثين دولة الأكثر احتياجا فى العالم .

وتبلغ الأمية بها ٨٠٪ من مجموع السكان ومتوسط عمر الفرد ٤٠ سنة فقط ..

إلى جانب المشاكل والصعوبات الناجمة عن الطبيعة وعن إهمال واجبات وإمكانات التنمية الزراعية والصناعية والفنية والاجتماعية الحديثة فقد أضافت « السياسة » سلسلة أخرى من المشاكل التى تنوء أثيوبيا بحملها . منها المشاكل الاثنية أو العرقية الأصل ومنها الأيديولوجية الطابع .

أما مجموعة المشاكل الأولى أى الاثنية أو العرقية فتتمثل فى حروب وخلافات أثيوبيا مع الصومال ومع حركات تحرير أقاليم اريتريا وتيجرى وأورمو أما خلافات أثيوبيا مع الصومال فتعود تاريخيا إلى القرن السادس عشر منذ غزو الصوماليين المسلمين للحبشة المسيحية ثم نجاح الأحباش فى طردهم بمساعدة البرتغاليين أما فى الأزمنة الحديثة فإن الدول الغربية هى المسئولة عن منح الامبراطور هيلاسيلاسى بعد الحرب العالمية الثانية السيادة والسيطرة على إقليم الأوجادين [1] .

وإقليم الأوجادين متاخم للصومال والذى تسكنه قبائل صومالية مسلمة وتطالب الصومال باستعادة هذا الإقليم من أثيوبيا ، وما يكمله من أقاليم مشابهة تقع حاليا فى كينيا وجيبوتى .. وقد دارت معارك

---

(١) نال الامبراطور السيطرة على الأوجادين وعلى اريتريا وهما اقليمان يسكنهما المسلمون من أصل غير أثيوبى بل من أصول قريبة للصومال .

حامية بين الصومال وأثيوبيا تفوقت فيها أثيوبيا حينا ثم الصومال حينا آخر حتى كادت أن تنتصر ثم استعادت أثيوبيا السيطرة على الموقف عسكريا بمساعدة السوفيت وقوات من كوبا . ومازال الموقف غير مستقر لكنه بعيد عن احتمالات الحل السريع رغم مظاهر إنهاك الطرفين واستعدادهما أخيرا لاستبدال حديث المدافع بحديث الموائد المستديرة ورغم العودة أخيرا إلى تبادل التمثيل الدبلوماسى الذى كان قد قطع فيما سبق ..

أما مشكلة أثيوبيا مع اريتريا فترجع إلى نهاية الحرب العالمية الثانية . كان إقليم اريتريا (وسكانه مسلمون أقرب إلى الصوماليين منهم إلى الأثيوبيين) تحت حكم ايطاليا وعاصمته أسمرة وهى مدينة ايطالية الطابع كما أن به ميناءى عصب ومصوع وبعد هزيمة ايطاليا قرر الحلفاء سنة ١٩٥٢ وضع إقليم اريتريا (١) فى كنف الامبراطور هيلاسيلاسى (مكافأة له) فى شكل اتحاد كونفيدرالى مع أثيوبيا بشريطة الاحتفاظ بشكل الوحدة الفيدرالية لكن مالبث الامبراطور أن ضم اريتريا إلى أثيوبيا ولئن كان الامبراطور قد فعل ذلك إلا أنه تميز بأسلوب حكيم وكريم فى معاملته لأهل اريتريا بحيث ارتضوا ما حدث ولم يثوروا ضد أثيوبيا إلا بعد وقوع الثورة العسكرية الماركسية فى سنة ١٩٧٤ التى أطاحت بالامبراطور .. ولم يعرف قادة الثورة الأثيوبية لغة

(١) دون اريتريا تفقد أثيوبيا منفذها إلى البحر الأحمر . .

الامبراطور الدبلوماسية فما لبث الاريتريون تحت قيادة جبهة التحرير الشعبية وجبهة تحرير الصومال أن شقوا عصا الطاعة وحققوا انتصارات غير قليلة على أثيوبيا ونجحوا فى الحصول على الاستقلال عن أثيوبيا بعد أن دارت المعارك سجالا بين الطرفين لمدة خمسة عشر عاما أو يزيد .

كذلك الحال بالنسبة لأقاليم تيجرى وجالا حيث تتسبب الخلافات الأثنية والعرقية واللغوية فى زيادة إحساس أهل تيجرى وجالا وأوررمو بإهمال السادة الأمهرية [1] سكان الهضبة الوسطى لشئونهم ومن ثم فى نشاط حركات التحرير .

وقد نشطت حركات التحرير فى تيجرى وجالا نشاطا ظاهرا وحققت انتصارات عسكرية ملحوظة فى الشهور الأخيرة من سنة ١٩٨٩ خاصة وأن الجيش الأثيوبى تعب ومل سلسلة المعارك الطويلة كما وأن الجيش الأثيوبى حارب فى جبهات متعددة فى اريتريا وتيجرى وجالا وأوررمو فى الوقت الذى يحتفظ فيه بجزء غير قليل من الجيش والمعدات فى إقليم الأوجادين فى مواجهة الصومال وكذلك خاصة بعد إتمام انسحاب معظم القوات الوبية التى كانت تساند أثيوبيا منذ عشرة أعوام ويبلغ قوامها فى مطلع الثمانينات قرابة عشرين ألف جندى كوبى أو أكثر .

والمعلوم أن أثيوبيا اتهمت بعض الأنظمة العربية - الثرية -

---

(١) الطبقة الحاكمة الثرية فى أثيوبيا كانت غالبا من الأمهرية .

بمســــاعدة ثوار اريتــريا المســلمين مــاديا وعسكريا ، وأن الثــوار حسـبمـا يؤكـد الأثيـوبيون اسـتعـملوا أراضـى الســـودان المتاخـمة لأقاليمـهم ، كمـراكز انطلاق وكمـهرب من الحـرب اذا مـا دارت عليـهم الدائرة .

وتؤكد أثيوبيـا أنها حاولت مرارا ومنذ سنوات طويلة إقناع السودان بغلق حدوده وعدم السمـاح باستـعمـال أراضيه على هـذا النحو ، لكن السودان كان يقول دائما باستحالة إغلاق حدوده الشاسـعة وأنه يصعب التحكم والسيطرة على تلك المناطق غير المأهولة وضـمان عدم استعمال الثوار لها .. كذلك ينفي السودان نفيا قاطعا سمـاحه باستـعمـال الثوار الأثيوبيين لأراضيه .. لكن الحكومة الأثيوبية تشك كثيرا فى أن السودان غير قادر أو غير راغب فى منع استعمال الثوار لأراضيه بحجة أنه ينال مساعدات مـالية وعينية من الدول العربية الثرية نظير سماحه باستـعمال أراضيه فى ذلك الغرض أو أن السـودان يسـاعد ثـوار أثيوبيا لأسبـاب دينية أو أيديولوجية .

ومن هنا فـقد نشطت حركة ثوار جنوب السـودان بزعـامـة جـون جـارانج (قـرنق) وهـو ضـابط سـودانى مـسـيـحى من إقليم جنوب السـودان ضـد حكومة الخـرطوم فـى السـنوات الأخيـرة .. وتمكن جون جارانج من إحراز سلسلة انتصـارات عسكرية مـازالت مـستمـرة ضد الجيش السـودانى واسـتولى على عدة مـدن مـهـمـة تقطـع الطريق إلى

السودان الشمالي (العربي) ثم استطاع إقفال مديريات الجنوب الثلاث في وجه أهل شمال السودان وفي وجه الجيش السوداني .

وهنا يشير السودانيون بدورهم بإصبع الشك أو الاتهام إلى أثيوبيا، وكينيا وأوغندة متهمين إياها بمساعدة جون جارانج وبالسماح له باستعمال أراضيها كمراكز انطلاق وتموين لقواته .

وتجدرَ الإشارة إلى أن مصر والسودان وبرنامج الأمم المتحدة UNDP للتنمية كان قد بدأ منذ قرابة عشر سنوات [1] في شق قناة جونجلي (قناة بور) في منطقة السدود في جنوب السودان وكان هذا المشروع سيوفر قرابة ١١ بليون متر مكعب من المياه الإضافية التي تحتاجها مصر والسودان للري (٧ بلايين لمصر و ٤ بلايين للسودان) لكن انتصارات جون جارانج قد أوقفت تماما العمل في مشروع قناة جونجلي وذلك منذ ١٩٨٧ تقريبا وإلىَ الآن .

ويشير العارفون إلى أن أصول ثورة جنوب السودان قديمة الجذور .. فقد حاول الاستعمار البريطاني منذ ١٨٨٩ التفرقة ما بين السودان وجنوبه وحاول تنمية الخلافات بين الإقليمين وتم فعلا عزل الشمال إداريا وواقعيا عن جنوبه . والشمال يغلب فيه العنصر العربي الإسلامي أما الجنوب فتغلب عليه الوثنية أو المسيحية والعنصر الزنجي .. وأهل الجنوب لا يتكلمون العربية .

---

(١) منذ ١٩٧٨ على وجه التحديد .

إلا أن أصول الثورة حديثا ترجع إلى عهد النميرى .. فبجرة قلم واحدة منه ألغى العمل باتفاق أديس أبابا لسنة ١٩٧٢ وهو الاتفاق الذى كان قد تم بين حكومة السودان وممثلى جنوب السودان تحت إشراف ووساطة الامبراطور هيلاسيلاسى فى أديس أبابا سنة ١٩٧٢ وفيه تعهـــدت حكومة الســـودان باحترام الادارة الذاتية SELF GOV-ERNMENT (AUTONOMY) لأقاليم جنوب السودان الثلاثة، وباحترام ذاتية الإدارات الثلاث سالفة الذكر وباحترام علاقاتها الإدارية المستقلة بحكومة الخرطوم ، وظلت حكومات الخرطوم تحترم هذا الاتفاق وتعمل به لحقبة كاملة إلى أن ألغاه النميرى بجرة قلم وأعلن تبعية المديريات الثلاث إلى حكومة الخرطوم المركزية مباشرة كما أعلن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية على كل السودان شمالا وجنوبا .. ولم يرض أهل جنوب السودان المسيحيون أو الوثنيون على هذا الإجراء .. وكان سهلا على القوى الخارجية بعد ذلك تحريك أهل الجنوب وإثارتهم بل مساعدتهم ضد حكومة الخرطوم .

كانت الصورة القاتمة سالفة الذكر هى ما طالعنى حينما توليت مسئولية وكالة الوزارة للشئون الافريقية من أكتوبر ١٩٧٩ إلى أواخر ١٩٨٢ وعندما وقع الاختيار علىّ سفيراً لمصر فى اثيوبيا .

كانت علاقة مصر بأثيوبيا يشوبها الكثير من سوء التفاهم والكدر بل والشد والجذب أحيانا .. وكانت أثيوبيا تشك فى نوايا مصر حيال نظام الحكم العسكرى الماركسى الذى قام بها منذ ١٩٧٤ .. فقد كانت

ميول الرئيس الراحل السادات معروفة واضحة وأعلن عنها مرارا فى أحاديثه .. بل وذهب إلى حد تهديد أثيوبيا باحتمال قيام مصر بعمليات «بوليسية» ضد من تساوره نفسه المساس بمياه النيل ! يقصد فى حالة قيام أثيوبيا بإقامة السدود على النيل الأزرق ..

كذلك رأى السادات أن يزيد من مساعداته العسكرية إلى الصومال من مبيعات الأسلحة إلى الخبراء العسكريين – وكان الصومال مازال في حالة حرب مستمرة ضد أثيوبيا وله فيها مطالب إقليمية لم يقلع عنها.

وكانت أثيوبيا ترى إصبعا مصريا خفيا وراء قيام السودان بمساعدة جبهات التحرير فى أثيوبيا .. وعلى الأقل كانت أثيوبيا تظن أن مصر تمد كلا من السودان والصومال بالعون الدبلوماسى والسياسى والأدبى وأخطر منه بالعون العسكرى .. والمادى أحيانا .. كذلك كانت القاهرة تستضيف مكاتب لجبهات تحرير اريتريا .

ومن هنا فقد كانت العلاقات المصرية الأثيوبية تجتاز فترة من أسوأ فتراتها بعد أن كانت علاقات مصر مع الامبراطور هيلاسيلاسى طيبة متينة .

وقد حاول الوزير د. بطرس غالى بما هو معروف عنه من اهتمام واضح بافريقيا وبتحسين علاقات مصر مع الدول الافريقية وتحسين صورة مصر بها ، حاول زيارة أثيوبيا ومقابلة المسئولين بها قبل مطلع الثمانينات لشرح حقيقة موقف مصر وكيف أنها لا تضمر شرا ولا تلعب

أى دور فى الخفاء ضد مصالح أثيوبيا .. لكن لم يستجب قادة أثيوبيا لهذه الرغبة ورفضوا استقباله .

بعد دراستى للموقف قمت بإعداد مذكرة تحليلية قدمتها إلى الوزير د. بطرس غالي كما رفعت إلى مكتب الرئيس السادات وإلى سلطات الدولة المسئولة .

كان المحور الأساسى للمذكرة يزكى بشدة إجراء تغيير جذرى فى سياستنا الافريقية فى شرق افريقيا والقرن الافريقى ، ويستهدف فى المقام الأول إصلاح علاقتنا مع أثيوبيا والسعي لكسب صداقتها ومعاونتها بغض النظر عن نظامها السياسى الداخلى ، وذلك لأهمية أثيوبيا البالغة بالنسبة لأمن مصر والسودان وأمن مياه النيل والبحر الأحمر .

وتمضى المذكرة إلى القول بأن إصلاح علاقاتنا مع أثيوبيا لا ولن يستتبعه بالضرورة إهمال علاقاتنا بالصومال عضو جامعة الدول العربية وصديقة مصر (كانت إحدى دولتين عربيتين لم تقطع علاقاتها مع مصر بعد اتفاقية كامب ديفيد) بل كل ما يستوجبه ذلك هو استمرار منح مصر للصومال المساعدات اللازمة للدفاع عن نفسها فقط فى حالة وقوع هجوم عليها وليس للأغراض الهجومية ، وبالقدر الذى لايشجع الصوماليين على التفكير فى معاودة الهجوم على الأوجادين .. كذلك تؤكد المذكرة وجوب اثناء الصومال عن اطماعه الاقليمية فى جيرانه وهى اطماع ادانتها منظمة الوحدة الافريقية مرارا .. وأخيرا

وجوب توضيح هذه الصورة وهذه الأهداف لحكام أثيوبيا الجدد وبناء جسور التعاون والتفاهم معهم .

وبمعنى آخر فلم يكن المجال مجال الاختيار ما بين صداقة أثيوبيا أو صداقة الصومال ، بل كان المستحسن والمطروح هو العمل على كسب صداقة أثيوبيا والتعاون معها ، مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بصداقة الصومال ومساعدتها بالقدر الذى لا يسمح لها بالعدوان على أثيوبيا بل ويثنيها عن مطامعها الاقليمية التى لا تقرها منظمة الوحدة الافريقية بل ونددت بها مرارا ..

ومضت المذكرة إلى المقارنة بين أهمية الدولتين أثيوبيا والصومال بالنسبة لمصر والسودان وافريقيا :

١ - فأثيوبيا تعدادها ٣٦ مليونا والصومال ٧ ملايين فقط .

٢ - وأثيوبيا تمدنا بأكثر من ثمانين فى المائة من مياه النيل .. ومن هنا يتعين على مصر الاحتفاظ بأوثق العلاقات معها من أجل التعاون معها فى ترشيد استخدام مياه النيل أما الصومال فهى دولة غير نيلية بالمرة .

٣ - لأثيوبيا حدود مشتركة شاسعة مع السودان وتستطيع أن تساعد الحركات الإنفصالية فى الجنوب أو تمنع هذه المساعدات .

- أما الصومال فليس لها حدود مشتركة مع السودان .

٤ - كانت أثيوبيا (قبل انفصال اريتريا عنها سنة ٩٢/٩١) تتحكم

فى مضيق باب المندب وبخاصة لتملكها مجموعة جزر داهلك قرب البوغاز .

ويقال أنه كانت بها قواعد بحرية سوفييتية ، وكانت بها قواعد إسرائيلية من قبل وقد تعود إسرائيل إليها من جديد ..

- أما الصومال فلا تتحكم فى باب المندب بنفس القدر .. وهى صديقتنا على أى حال ولا تتعاون مع القوى المعادية لمصر أو المعادية للعرب .

٥ - ما يحدث فى أثيوبيا من تجربة اشتراكية ماركسية ، والوجود السوفييتى والكوبى بها له تأثير قوى على مجريات الأمور فى افريقيا .. ويهم جميع دول افريقيا المساعدة على عدم انزلاق أثيوبيا أكثر فأكثر فى أحضان المعسكر الشرقى ، ويجب الاحتفاظ لها بصداقات خارج المعسكر الشرقى وتشجيعها على ايجاد صداقات بديلة وعلاقات متوازنة.

٦ - من الممكن لاسرائيل أن تستعمل أثيوبيا كمركز انطلاق لنشاطها ونفوذها ليس فى أثيوبيا وحدها وإنما فى عدد من الدول الافريقية الصديقة لأثيوبيا والمحيطة بالسودان ومن مصلحة مصر إغلاق أبواب أثيوبيا فى وجه أى نشاط معادى محتمل لاسيما أن مركز أثيوبيا الاستراتيجى فى حوض النيل والبحر الأحمر يهم مصر أهمية مطلقة .

- أما الصومال فهى دولة عربية وليست معرضة لمثل هذا التغلغل وستظل صديقتنا وفقا لمخططنا هذا ..

٧ - أديس أبابا مقر منظمة الوحدة الافريقية وأثيوبيا دولة افريقية مؤثرة وهى من الأسباب التى تدعونا إلى صداقتها وكسب تأييدها لنا فى المحافل الافريقية وبخاصة بين الدول التقدمية التى كانت تناصبنا العداء بعد كامب ديفيد . أما الصومال فإنها فى حالة عزلة تامة بين دول افريقيا لأنها تطالب بمطالب إقليمية وبتغيير الحدود مع جيرانها عنوة وهو ما حرمه ميثاق الوحدة الافريقية تماما وأدانه مرارا ..

★★★

نالت هذه المذكرة حسبما أعلم استحسان الوزير د. بطرس غالى وقد تم رفعها إلى الرئيس الراحل السادات فلم تلق منه قبولا حيث انه كان غير مستعد بتاتا للتعاون مع أى نظام « ماركسى » صديق للاتحاد السوفييتى .. ولم يكن مستعدا لتغيير سياسته تجاه الصومال أيضا .. واستمرت حملات الصحافة المصرية ضد أثيوبيا واستمرت حملات التأييد للصومال .

ثم مضت الأيام ومضى معها السادات ، وخلفه الرئيس حسنى مبارك الذى أعاد التفكير فى سياستنا فى شرق افريقيا والقرن الافريقى .. فى ضوء الواقع الملموس .

وبالاتفاق مع الوزير د. بطرس غالى اختارنى الرئيس حسنى مبارك لأكون سفيرا لمصر فى أثيوبيا ومندوبا دائما لدى منظمة الوحدة الافريقية واللجنة الاقتصادية لافريقيا التابعة للأمم المتحدة ومقرهما فى

أديس أبابا .. وبمعنى آخر أتاح لى الفرصة وأعطاني الضوء الأخضر ، فقد آن الأوان لوضع السياسة الجديدة التى أقرها الرئيس مبارك سالفة الذكر موضع التنفيذ .. وقد تكرم الرئيس حسنى مبارك باستقبالى قبل سفرى إلى أديس أبابا وأبدى سروره لقبولى منصب سفير مصر فى أديس أبابا متمنيا لى التوفيق .

قدمت أوراق اعتمادى فى أديس أبابا فى النصف الثانى من سنة ١٩٨٢ إلى السيد فكرى سلاسى الرجل الثانى فى أثيوبيا وعضو مجلس قيادة الثورة العسكرية وذلك لتغيب الرئيس منجستو هيلا ماريام خارج أديس أبابا فى جولة تفقدية .. وحضر مقابلتى مع فكرى سلاسى السيد / برهانو بابيه عضو مجلس الثورة العسكرى والمسئول عن السياسة الخارجية فى المجلس .. (وأصبح وزير خارجية بعد ذلك) .. وفى حديثى الذى استغرق زهاء النصف ساعة معهما أوضحت أن مهمتى الجديدة فى أثيوبيا هى العمل على تنقية جو العلاقات التاريخية بين الشعبين والبلدين وإزالة أسباب سوء التفاهم الحالى والعمل على تدعيم روابط التعاون المشترك بينهما باعتبارهما دولتين افريقيتين مهمتين وشريكتين فى حوض النيل ومياه النيل .. وقدمت إلى السيد / فكرى سلاسى مذكرة ضافية(١) شرحت فيها سياسة مصر الجديدة تجاه أثيوبيا وأكدت فيها حرص مصر على احترام استقلال وسيادة

---

(١) رغم انه لم يجر العرف على ذلك لكنى رأيت فائدة محققة فى اتباع هذا الاسلوب.

أثيوبيا ووحدة أراضيها وأن مصر لا تساعد أى قوي خارجية على تقويض دعائم وحدة أراضى أثيوبيا وأن مساعدات مصر إلى الصومال سوف تكون بالقدر اللازم للدفاع عن الصومال ضد أى هجوم خارجى دون أن تقوى من ساعد الصومال على الاتيان بأية مغامرات خارجية بل أن سياسة مصر الجديدة هى اقناع الصومال بعبث تلك المحاولات التى يدينها ميثاق الوحدة الافريقية بشدة (ومصر بدورها تؤمن بما يؤكده الميثاق من ضرورة احترام قدسية الحدود الموروثة عند الاستقلال بين الدول الافريقية الشقيقة) .

وقد تلقى فكرى سلاسى وبرهانو بابيه هذه المذكرة ووعدا بدراستها على مهل . كانت هذه أول مرة يتولى فيها سفارة مصر فى أديس أبابا وكيل لوزارة الخارجية المصرية وكانت أول مرة فى تقديرى يتبع سفير دولة أجنبية هذا الأسلوب الصريح والمباشر .

وفى مناسبات لاحقة أضفت إلى تلك المذكرة مذكرات أخرى مؤكدا المعانى السابقة من جديد وشارحا الحاجة لكل من مصر وأثيوبيا والسودان إلى بدء صفحة جديدة من التعاون الأمنى والاقتصادى والفنى وبخاصة فى مجال ترشيد استخدام مياه النيل وغيره من الميادين الفنية الأخرى .

وقد استغرقت دراسة السلطات الأثيوبية الموقف فى ضوء تأكيداتى السابقة بعض الوقت قبل أن تؤتى ثمرتها .

وأردت اختبار رد فعل السلطات الأثيوبية فطلبت السماح لى بزيارة

بعض الأقاليم ومنها أسمرة عاصمة اريتريا وكان غير مسموح للمصريين بزيارتها من قبل بسبب نشاط الثوار الاريتريين وكانت لهم مكاتب في القاهرة كما طلبت السماح لي بإلقاء محاضرات في قسم العلوم السياسية بجامعة أديس أبابا عن افريقيا والعلاقات الافريقية والمصرية الأثيوبية .

وقد سمحت لي السلطات بإلقاء بعض المحاضرات فعلا لكنها لم تسمح بقيامي بزيارة أسمرة حتى مغادرتي النهائية لأثيوبيا في حين سمحت لسفير ايطاليا فعلا بزيارتها عدة مرات .

ثم تغير اتجاه الريح .. وتسلم مقاليد وزارة الخارجية وزير أثيوبي جديد هو جوشو وولدي وكان أكثر انفتاحا وتعاطفا .. وهنا بدأت ثمرات السياسة المصرية الجديدة في الظهور الواحدة تلو الأخرى .

فسمحت أثيوبيا بزيارة السيد الوزير د. بطرس غالي لأديس أبابا في زيارة رسمية إلى أثيوبيا وليس كرئيس لوفد مصر إلى اجتماعات منظمة الوحدة الافريقية .. وشتان الفارق بين الوضعين ..

وقد اجتمع السيد د. بطرس غالي مع الرئيس منجستو هيلا ماريام وبحضوري من التاسعة صباحا إلى الواحدة ظهرا حيث تم استعراض كافة أوجه العلاقات المصرية الأثيوبية ومشاكل القرن الافريقي وعلاقات أثيوبيا بالسودان ودور مصر في إصلاح ذات البين ما بين أثيوبيا وجيرانها .. وكانت تلك المقابلة ودية وشديدة النفع وفاتحة للقاءات أخرى بين الرئيس مانجستو والوزير د. بطرس غالي ، وبين الأخير ووزير الخارجية جوشو وولدي وبين وزيري الري في البلدين .

وبدأت اثيوبيا ترتاح تدريجيا الى جدية مصر وحقيقة اتجاهاتها الجديدة نحو دول المنطقة. وفى احتفالات السفارة المصرية بالعيد القومى يوم ٢٣ يوليو كان وزير الخارجية الاثيوبى سباقا الى تاكيد حضوره بدار السفارة والبقاء بها أطول مدة ممكنة بعد أن كان وزراء اثيوبيا لا يجرؤون على دخول سفارتنا .. كذلك بدأت أثيوبيا تحضر اجتماعات دول حوض النيل بصفة مراقب بعد أن كانت تقاطع مثل هذه الاجتماعات وتتهم مصر والسودان باهدار حقوق اثيوبيا فى مياه النيل..

ثم حاولت القاهرة إثبات جدية محاولاتها للوساطة والتوفيق بين اثيوبيا والصومال من ناحية وأثيوبيا والسودان من ناحية أخرى وقدمت وساطتها لقيام مباحثات صريحة بين أطراف النزاع .. واستمرت المباحثات بين أثيوبيا والسودان فى صعود ونزول، وتتقدم وتتعثر ثم تتوقف وهكذا .. وفقا للجو السائد فى ميادين القتال ومن بعدها فى الخرطوم وفى أديس أبابا.. ومازال هذا حالها الى نهاية ١٩٩٥.. ومازالت قوات الثوار فى جنوب السودان تعمل دون انقطاع فى عملياتها التخريبية..

أما فيما بين أديس أبابا ومقديشيو فقد تلقيت سنة ١٩٨٣ تعليمات القاهرة بالاتصال بالسلطات الاثيوبية ثم السفر إلى مقديشيو (١) لتقديم

---

(١) لم يعد هذا الموضوع سرا فقد عرف به جميع السفراء الأجانب فى مقديشيو بعد مدة وجيزة من زيارتى لها كما ورد شرح لمحاولات مصر للوساطة وزيارتى لمقديشيو فى كتاب مستر دافيد كورن Korn القائم بأعمال سفارة الولايات المتحدة فى أديس أبابا عن مهمته فى أثيوبيا وعن العلاقات الأثيوبية الأمريكية وتم نشر الكتاب فى بريطانيا ١٩٨٧ واسمه Croom Helm Beckenham, Kent England.

كل ما تستطيعه الدبلوماسية المصرية من اسهام في عملية الوساطة وإزالة سوء الفهم والجفوة بين العاصمتين أديس أبابا ومقديشيو..

وقد وجدت المسئولين الاثيوبيين على استعداد للاستماع الى وجهات نظرنا بل والتمشى مع محاولاتنا لكن مع حرصهم على ابداء الشك فى امكان نجاح مساعى مصر فى مقديشيو وقالوا فى ذلك الصدد ان أحد رؤساء الصومال السابقين وهو شارماركى كان قد بدأ فى سنة ١٩٦٩ حوارا دبلوماسيا هادئا مع اثيوبيا من اجل التقارب السلمى بينهما وان ذلك كان سبب اغتياله وقيام الثورة العسكرية برياسة الرئيس سياد برى ومن ثم يستبعدون ان يلين موقفه خاصة وقد قام نظامه على ضرورة استعادة الاوجادين بالقوة..

على أى حال لم يروا بأسا فى محاولتى .. ومن ثم طرت إلى نيروبى ومنها الى مقديشيو حيث لم توجد خطوط طيران مباشرة بين العاصمتين المتخاصمتين اديس ابابا ومقديشيو فى ذلك الحين.

شرحت اهداف مهمتى لزميلى السفير المصرى فى مقديشيو الاستاذ سامى هيبة (سفير مصر فى باكستان بعد ذلك ثم مساعد وزير الخارجية) وكان قد تلقى من القاهرة تعليمات شبيهة لتعليماتى بشأن الوساطة. ولما كان الرئيس سياد برى خارج مقديشيو فقد حُدد لنا موعد لمقابلة السيد/ محمد على سمنتر وزير الدفاع ونائب الرئيس/ وحضر المقابلات نائب وزير الخارجية فى ذلك الحين.

عكفت أنا والسيد السفير سامى هيبة على اعداد مذكرة رسمية مكتوبة ضمناها خلاصة أفكار الدبلوماسية المصرية لمعالجة الموقف .. اساسها ضرورة نبذ العنف كوسيلة لحل النزاع بين الدولتين على مشاكل الحدود وذلك فى ضوء ما يقرره ميثاق منظمة الوحدة الافريقية صراحة من قدسية الحدود الحالية الموروثة فى زمن الاستقلال ووجوب عدم المساس بها، كذلك مايقره الميثاق من ضرورة حل جميع النزاعات بين الأشقاء فى افريقيا بالحوار والدبلوماسية الهادئة وقدمت المذكرة تصورا لما يمكن أن يأخذه طريق الحل الدبلوماسى بادئ ذى بدء من خطوات تمهيدية تشمل وجوب وقف الدعايات المعادية فى صحافة البلدين وعلى لسان زعمائها ، لمدة حددتها المذكرة، لاصلاح الجو العام، ثم امكان قيام مباحثات سرية استطلاعية وتمهيدية بين مندوبى الطرفين فى عاصمة محايدة ثالثة قد تكون القاهرة أو نيروبى أو غيرهما وفقا لاختيار الطرفين فاذا ما نجحت تلك المباحثات الاستطلاعية مبدئيا فى تصفية ما فى النفوس فقد تتبعها بعد فترة معينة محادثات سرية بين وزيرى خارجية البلدين فى عاصمة محايدة أيضا قد تكون فى أثناء إحدى دورات الأمم المتحدة فى نيويورك أو إحدى دورات منظمة الوحدة الافريقية فى أديس أبابا وهكذا..

ولن تبدأ مباحثات رسمية معلنة بين الطرفين إلا بعد التأكد من نجاح المباحثات التمهيدية السرية وقبول الطرفين لنتائجها الأولية ..

وقد ينتهى الأمر بتوقيع معاهدة صداقة وعدم اعتداء بين الطرفين تتويجا لجهود السلام ..

وقد وعدنى السيد سمنتر والسيد نائب وزير الخارجية الصومالى بدراسة هذه المذكرة وبرفعها الى الرئيس سياد برى وابلاغ القاهرة بنتيجة تلك الدراسة فى حينه .

عدت بعد ذلك إلى أديس أبابا لاواجه مع مضى الوقت نظرات الاثيوبيين المتسائلة أو ابتسامتهم ذات الدلالة .. والى حين مغادرتى لاثيوبيا نهائيا بعد حوالى السنة الكاملة لم تكن القاهرة ولا سفارتنا فى مقديشيو قد تلقت أى رد أو رد فعل من مقديشيو . إلا أنه بعد ذلك بسنوات طويلة تنفست الصعداء وارتاح فكرى وضميرى لسماعى لانباء بوادر تهدئة العلاقات قليلا قليلا وتدريجيا بين مقديشيو وأديس أبابا بعد قيام محادثات استطلاعية بينهما .. كان من نتيجتها تهدئة النفوس بعض الشئ .. واعادة العلاقات الدبلوماسية بينهما إلى أن إنهار هذا الصرح مرة أخرى بتفكك أوصال الصومال ومحنتها الحالية .

كانت تجربتى فى أديس أبابا - إذن - على قصرها - غنية حافلة بالاحداث المهمة وإن لم امكث باديس أبابا سوى من أواخر عام ١٩٨٢ إلى مايو ١٩٨٤ وقد اضطررت لطلب مغادرتها لدواعى صحية .. فقد تأثرت صحتى من الارتفاع الشاهق وقلة الاوكسچين بالجو مما أدى إلى معاناتى من ارتفاع ضغط الدم وباصابتى بنوبات من دوار الرأس

المصحوبة بطنين فى الاذنين (١) وقد أدى ارتفاع الضغط ذات يوم إلى انفجار بعض الشعيرات الدموية فى إحدى عينى وقد عرضت نفسى على الاطباء المختصين فى أديس أبابا التابعين لمنظمة الأمم المتحدة بها، ثم على الاخصائيين فى القاهرة ثم فى المانيا وبرشلونة وقد أشار علىّ الاخيرون فى برشلونة والمانيا بضرورة انتقالى إلى ارتفاع سطح البحر حيث لم يتمكنوا من ضبط ارتفاع ضغط الدم مع استمرارى فى ارتفاع جو أديس أبابا ..

وليس هذا حال جميع الأجانب والأغراب فى أديس أبابا فقد كان كثير منهم ومن الزملاء والاصدقاء كانوا فى أحسن حال وكانوا يلعبون التنس وأنواع الرياضات الأخرى دون ارهاق أو تعب . وذلك لأن تاثير الارتفاع على الإنسان يختلف من شخص لأخر . وقد سبقنى إلى أديس أبابا سفراء مصريون لم يتأثروا من جراء الارتفاع .. لكن خلفى فى أديس أبابا تاثر من الارتفاع أكثر من تاثرى إنابه واضطر لطلب النقل هو الآخر .

ورغم أن صحتى لم تتحمل جو أديس أبابا فقد قضينا بها وقتا من أهنأ أوقاتنا بالخارج فإن جو أديس أبابا لطيف منعش وشمسها ساطعة قوية، وسماؤها صافية إلاّ فى أيام الأمطار الموسمية ..

---

(١) لم تكن هذه المرة الأولى فقد كانت تجربتى الأولى بالعمل على هذا الارتفاع الشاهق فى بوجوتا كولومبيا وكنت قد اضطررت إلى طلب نقلى من بوجوتا لنفس السبب!

وكانت دار سكن السفير مريحة ومناسبة لغرض الاحتفالات الرسمية التى يجب على السفراء القيام بها كان طاقم الخدمة فى السفارة والمكاتب ممتازا حقا .. وكان افراد الجالية المصرية فى أديس أبابا من صفوة المصريين المثقفين ثقافة عالية إذ كانوا موظفين دوليين يعملون أما بمنظمة الوحدة الافريقية أو باللجنة الاقتصادية لأفريقيا التابعة للأمم المتحدة .. وكانت علاقتنا بهم جميعا متميزة وجمعت بيننا أواصر صداقة وتعاون متين فى شتى الميادين .. وكنا نقيم احتفالات وتجمعات خلوية فى لانجانو Langano على ضفاف إحدى بحيرات أثيوبيا أو فى حديقة دار المكاتب أو دار سكن السفير احيانا .. وكانت حديقة دار سكن السفير المصرى بأديس أبابا تتسع لاقامة حفلات غذاء لأكثر من مائة شخص على مناضد صغيرة وتتسع لاكثر من هذا كثيرا فى حفلات الاستقبال ..

لكن مبعث سعادتى الأكبر أثناء عملى فى أديس أبابا كان الاحساس بجدوى وبفائدة الدبلوماسية المصرية الجديدة تجاه أثيوبيا وبرؤية نتائج التقدم وتحسين العلاقات بين البلدين فى شتى الميادين رؤية العين يوما بعد يوم إلى أن انتهى الأمر بتبادل الزيارات الرسمية على أعلى مستوى ما بين الرئيسين .

لكن بقى مع ذلك أن تتخذ كل من الحكومات المعنية : السودانية والاثيوبية والصومالية الخطوات الجدية الحاسمة لتصفية جو علاقاتها بما يسمح بقلب صفحة جديدة ..

كذلك فإن العمل المثمر فى اطار الدبلوماسية المتعددة الأطراف أى داخل منظمة الوحدة الافريقية واجتماعات اللجنة الاقتصادية لافريقيا كانت بمثابة عودتى للعمل بالأمم المتحدة من جديد إذ أن أديس أبابا لاتعدو أن تكون مدينة نيويورك الافريقية !!

أما الشعب الاثيوبى نفسه فهو شعب نو حضارة قديمة وثقافة تليدة وتاريخية تقارب ثقافة قدماء المصريين ، ورغم بعض مظاهر الفقر البادية على بعض الأحياء فى أديس أبابا وعلى رجل الشارع فى أديس أبابا إلا أن الاثيوبى يتمتع بمظهر الكرامة وعزة النفس ورفعة الرأس والهدوء والصفاء وتمالك الأعصاب وحسن المعشر وقد نكرنى ذلك بمقولة سمعتها أو قرأتها إن الاثيوبيين هم بريطانيو افريقيا » فهم أقرب الناس فى افريقيا شبها الى الانجليز فى هدوئهم وتمالكهم التام لاعصابهم ولأدبهم المفرط . إن الاثيوبى إذا ما قابل اثيوبيا صديقا له فى الطريق حيّاه بأدب بانحناءة شديدة ويضم اليدين فى مقدمة الجسم .. لاتوجد مصافحة يدوية أو تقبيل الخدين مثلما يحدث فى بقية افريقيا مثلا ..

ورغم أن النظام الماركسى لا يشجع الاديان ولا التدين فقد كان الاثيوبيون الاقباط المارون أمام الكناس فى أديس أبابا ينحنون أمام أبوابها حتى اليوم .. ويؤدون علامة الصليب التقليدية .. فهو شعب تقليدى شديد المحافظة على التقاليد الموروثة .. وشديد التدين !

زد على ذلك أن الاثيوبيين رغم لون بشرتهم الداكنة Cafeau lait

فإنهم يتميزون بتقاطيع الوجه الدقيقة السوية ولا غرو فهم من سلالة الجنس السامى (الملك سليمان وملكة سبأ) وهم فى هذا يشابهون الصوماليين خصومهم التقليديين ، وكلاهما لاينتمى إلى الجنس الزنجى ويتميز بالتقاطيع الدقيقة الجميلة التى تنتمى إلى آسيا أكثر منها إلى أفريقيا .

ومن سخرية الاقدار إذن أن يكون أولاد العمومة الصوماليون والاثيوبيون والاريتريون فى خصام مستمر .

لكنى أرى أنه متى سكت حديث المدافع فإن الدبلوماسية لن تعدم الوسيلة لايجاد واحد من الكثير من الحلول الممكنة لازالة رواسب الماضى لكن الدبلوماسية المصرية خاصة مطالبة ببذل كل جهودها ومحاولة كافة السبل من أجل وقف نزيف الحروب بين الاشقاء وأولاد العمومة فى وادى النيل وهى المنطقة شديدة الحيوية لأمن مصر والسودان وأثيوبيا .

لقد صدق من قال أن النيل نجاشى (أى حبشى) ومصر هبة النيل ومن ثم ولابد لها من أن تكون على أوثق العلاقات وأطيبها مع دول حوض النيل .. وأولها السودان وأثيوبيا .

الفصل الثامن

« جزر فيجى FIJI وما حولها » !!
« جولة فى المحيط الهادى »

فى أكتوبر ١٩٨٤ تم تعيينى سفيرا لمصر فى استراليا .. وقد جرت عادة الحكومة المصرية على اختيار سفير مصر فى استراليا ليقوم الى جانب عمله بتمثيل مصر كسفير غير مقيم فى سوفا Suva عاصمة دولة فيجى .. والأخيرة مجموعة جزر على خط عرض ٢٠ جنوبا (مثل اسوان) وعددها أكثر من ثلاثمائة وخمسين جزيرة متقاربة تسيطر عليها جزيرتان كبيرتان Vitilevu Vanua levuوتقع العاصمة فى وسط أكبرها ويقع هذا الارخبيل شرقى سيدنى استراليا بقرابة ثلاثة الاف كيلومتر تقطعها الطائرات العملاقة فى ثلاث ساعات ونصف الساعة. ومطار فيجى الدولى يقع فى مدينةناندى الصغيرة Nandi فى غرب الجزيرة الكبرى وهى منطقة تتميز بانبساط أرضها وبعدها عن الجبال المرتفعة التى تقسم الجزيرة السهلة المنبسطة حول ناندى وتفصل تماما بين منطقتين مناخيتين متباينتين فالمنطقة السهلة المنبسطة حول ناندى شمسها ساطعة أغلب الوقت أما منطقة العاصمة سوفا وسط الجبال

فمطرها غزير كثير الهطول ومن هنا فقد تركزت الحركة السياحية حول ناندى وحول المطار الدولى .

وتعداد جزر فيجى يقارب النصف المليون نسمة وأصل سكانها من الأجناس البولينيزية والملينيزية أى سكان المحيط الهادى وجنوب شرقى آسيا .. وهم يميلون الى طول القامة ولونهم أسمر Café aulait وشعرهم خشن لكن تقاطيعهم غير زنجية .. لكن مع وصول الاستعمار البريطانى إلى فيجى وفدت معه افواج المهاجرين من الهند – من طوائف الهندوس والمسلمين والسيخ .. وتزيدات اعدادهم حتى كادت تغلب أو غلبت على اعداد السكان الفيجيين الاصليين . وكما هو الحال دائما تمكن الهنود من الاستيلاء على التجارة المحلية والدولية لفيجى (فيجى من أكبر مصدرى السكر وقصب السكر) إلا أن الطوائف الهندية المسلمة والهندوكية لم تختلط مع سكان فيجى الاصليين .. ربما لم يحاولوا وربما لم يسمح لهم الاصليون بذلك فعاشوا متفرقين .

ويلى هذا النشاط التجارى ازدهار حركة السياحة الدولية إلى فيجى (وبخاصة من استراليا ونيوزيلانده أقرب دولتين كبيرتين) فجوها حار لكن نسيم المحيط الهادى يلطف من الشعور بالحرارة ومناظر فيجى خلابة رائعة .. سلسلة من الجزر التى تتوسطها الجبال الخضراء (الغابات المدارية الخضراء الكثيفة) والتى تنعم بسلسلة لاتنقطع من الشواطئ الرملية البيضاء الناعمة وتصل اشجار جوز الهند الى حافة

الشاطئ .. تماما مثلما رأينا فى الأفلام .. ولما كانت هذه الجزر نتيجة تفجر البراكين وسط مياه المحيط الهادى فتحيط بالجزر عادة سلسلة من الصخور المرجانية وتحميها مغمورة تحت سطح المياه الفيروزية الضحلة مكونة بذلك بحيرات ضحلة مقفولة أو شبه مقفولة Lagoons تحيط بها الصخور المرجانية وتحميهامن سمك القرش الذى يخاف أن يغشى هذه الصخور المرجانية الضحلة خشية اصابته بالقطوع والجروح منها .. وهكذا نشطت حركة السياحة الدولية إلى فيجى وشواطئها وقامت استثمارات ضخمة بأموال خارجية وانشئت الفنادق والقرى السياحية الضخمة لا لخدمة أهل فيجى ولكن لخدمة السائحين الاستراليين، والنيوزيلانديين وامثالهم إلا أن أهل فيجى يعملون فى خدمة هذه المؤسسات السياحية التى فتحت أبواب الرزق لآلاف من أبناء فيجى .

وتربط مصر بفيجى عوامل سياسية حديثة العهد منذ اشتراك فيجى بكتيبة فى قوات الطوارئ الدولية فى سيناء . ومازالت فى سيناء تخدم نفس الغرض . كما أن سكان فيجى من الهنود المسلمين يتطلعون لمصر والسعودية طبعا باعتبارهما مركزين مهمين للاشعاع الإسلامى (١) وقد أكرمت هذه الجاليات الإسلامية وفادتنا واحاطتنا بمظاهر التكريم .

وعند وصولنا الى فيجى لتقديم أوراق اعتمادى إلى الحاكم العام

---

(١) هناك مدرسان مصريان موفدان من الأزهر لتعليم العربية والثقافة الإسلامية وهما يتكلمان الانجليزية طبعا ومتزوجان من سيدتين مصريتين ويعيشان وسط الجالية الهندية المسلمة عيشة كريمة محترمة...

لفيجى كانت حينئذ عضوا بالكومونولث وكانت الملكة اليزابث هى التى تعين حاكما عاما على فيجى من أهلها - أما الآن فقد انفصلت فيجى عن الكومونولث واختارت النظام الجمهورى .

عند وصولنا إلى فيجى كان علينا أن نختار ما بين ركوب طائرة صغيرة محلية من مطار ناندى الدولى إلى مطار سوفا المحلى أو قطع الطريق بين المدينتين بسيارة أجرة والمسافة بينهما مائة وعشرون كيلومترا تقريبا .. .

وقد قررنا الذهاب بالطائرة والعودة بالسيارة لرؤية معالم الجزيرة ..

وكانت الطائرة صغيرة لا تتسع إلا لعشرة أشخاص .. وكان الطيار يجلس بين الركاب أى أن الصفوف الامامية من الركاب كانت تجلس وراءه مباشرة وتراقب كل حركة من حركاته إذ لم يكن هناك أى فاصل بينه وبيننا .. ومثل هذا النوع من الطائرات لا يرتفع عن الأرض كثيرا ومن ثم اتاح لنا مشاهدة معالم الجزيرة جيدا طرقها وقراها وجبالها وغاباتها وشواطئها .. لكن بدأت الطائرة فى الاهتزاز الشديد عندما شارفت على سلسلة الجبال التى تفصل ما بين المنطقتين الجافة والمطرة.. ثم اختفت الشمس الساطعة تماما وصرنا نطير وسط السحب الكثيفة .. المطرة .. وتركنا ناندى تحت الشمس الساطعة لنصل سوفا والمطر ينهمر مدرارا .. وكانت ادارة المراسم فى انتظارنا فاقلتنا إلى الفندق فى سيارة رسمية .

أما سوفا Suva فتعدادها سبعون ألفا فقط لكنها مدينة صغيرة منظمة ونظيفة مبنية على كثير من التلال الخضراء التى تطل على البحر هى الأخرى .. وبها كثير من المتاجر الصغيرة التى يديرها الهنود لكن بها متجراً واحداً كبيراً تديره احدى الشركات الأجنبية لكن العاملين به أغلبهم من الهنود ..

وليس بها من ابنية فخمة إلا مبنى رئاسة الحكومة وقصر الحاكم العام الذى كان قد بنى أصلا زمن الاستعمار البريطانى لسكن الحاكم العام البريطانى أما الآن فيسكنه خليفته الفيجى ..

كانت إدارة المراسم قد ذكرت لى أن مراسم تقديم أوراق اعتمادى تقتضى أن يرتدى السفير حلة البونجور Bonjour أى Morning Coat وهى عبارة عن بنطلون صوف أسود به أقلام - رمادية - بيضاء ، وجاكتة صوف طويلة ذات ذيل يصل إلى ما قبل الركبتين وصديرى أسود صوف (ورباط عنق) رمادى اللون ..

أما إذا ما شاء السفير وسمحت تقاليد بلاده فيستطيع السفير ارتداء الزى الوطنى فى بلده الذى جرت العادة على ارتدائه فى مثل هذه المناسبات الرسمية ولما كان الطقس شديد الحرارة فى فيجى بل وشديد الرطوبة فقد فضلت ارتداء حلة صيفية داكنة اللون وذكرت أن مراسم بلادنا لا تستعمل البونجور Bonjour أو ما يشابهها وأن رئيس جمهوريتنا يستقبل السفراء فى الصيف بالحلة الصيفية الداكنة .. وقد كان ..

أما الحاكم العام نفسه فكان عملاقا تفوق قامته الستة أقدام بكثير ربع القامة قوى الجسم .. فى الخامسة والستين من عمره .. ذو شعر خشن قصير وخطه الشيب وعليه سيمات الوقار .. لكنه كان يرتدى الزى الرسمى الفيجى لهذه المناسبات : جاكتة بونجور بالصديرى والرباط للعنق مثلما اسلفت ، لكن بدلا من البنطلون كان يرتدى جونلة Jupe صوف سمراء إذ أن زى أهل فيجى الرسمى لا يقر البنطلونات حتى للرجال وإنما جونلات مختلفة الألوان : وقد تذكرت أننا فى وسط المحيط الهادى .. وإن رجال جزر المحيط الهادى ومنهم أهل تاهيتى التى طالما شهدناها فى السينما يرتدون هم أيضا الجونلات !! وكان يرتدى صندلا (نصف مفتوح) فوق الجوارب ..

وقد قدم الينا الشاى فى قصر الحاكم العام، على الطريقة الانجليزية مع سندويتشات مفتوحة بالخيار Open Cucumber Sandwiches على عادة الانجليز ثم Scones بالمربى .. وكانت سكرتيرته الانجليزية تشاطرنا حفل الشاى بمناسبة وجود زوجتى .. إذ أن الحاكم العام أرمل .

كذلك أقام لنا وكيل وزارة الخارجية الدائم حفل غداء رسمى على شرفى فى قصر الضيافة وهو مجرد Bungalow (أى فيلا صيفية) نظيفة وسط الحدائق ودعا إليه بعض كبار موظفى الدولة ومنهم قائد الجيش وذلك بمناسبة وجود كتيبة فيجية فى سيناء .

وقد ساد جميع هذه المقابلات جو من الصداقة والود والشعور الطيب المتبادل فأهل فيجى قوم طيبون وعاطفيون ..

كان فندقنا فى سوفا مريحا وبنى على الطراز الحديث لكنه لم يكن فى نفس مستوى الفخامة والضخامة التى تميز فنادق المنطقة السياحية حول نـاندى أو فى الطريق إليهـا كما أن فيجى لم يدخلها التليفزيون بعد ! ومن هنا فلا توجد وسائل التسلية المعتادة للأجانب .

وفى طريق العودة اخترنا الطريق البرى .. ونصحنا أصدقاؤنا فى سوفا بعدم استئجار سيارة أجرة لنا خصيصا بل بركوب الحافلة أى الاتوبيس العام من سوفا إلى ناندى وذلك لدراسة أحوال وأخلاق أهل فيجى !! وقد اتبعنا النصيحة ولم نندم على ذلك رغم أن الاتوبيس كان قديما وغير مكيف الهواء .. فإن جمهور المسافرين كان يمثل قطاعا واسعا لأهل فيجى وأمكننا التعرف على الكثير من أحواله .. وكان معنا عمال وفلاحون ومزارعون يحملون ادواتهم وأغراضهم الخاصة المعتادة .

إلا أن التجربة الفريدة حقا التى أتاحها لنا ذلك الاتوبيس كانت التالية .. فقد ركب معنا جندى شرطة (بوليس) ومعه شاب فى منتصف العمر يرتدى قميصا وبنطلونا .. لكن الغريب فى الأمر أن الشرطى قد

ربط نفسه بالشاب بقيود حديدية من التى نراها فى أيدى المقبوض عليهم ! وظلت هذه القيود تربط بينهما طوال الطريق من سوفا إلى ناندى وقد استغرق الطريق حوالى ساعتين ونصف إذ أن الحافلة كانت تتوقف فى القرى لانزال أو ركوب بعض الركاب ، ثم فى بعض الفنادق والمراكز السياحية على الطريق ..

وقد أبدى بعض الركاب نوعا من العطف على الشاب الفيجى المقبوض عليه فقدموا له بعض الشطائر (سندويتشات) أما نحن فلم يكن معنا شئ مناسب للمقام فانتهزت فرصة توقفنا فى أحد الفنادق لكى اشترى علبة سجائر قدمتها هدية إلى ذلك الشاب ففرح بها وشكرنا كثيرا بالكلمتين الانجليزتين اللتين كان يعرفهما .. لكن كان سلوك الجميع مثاليا .. حتى ذلك المقبوض عليه . مما دل على حسن معشر أهل فيجى وحسن نظامهم ..

ولم يكن معنا أى أجانب سوانا .. لكنا رأينا الكثير منهم فى المراكز السياحية التى توقفت بها الحافلة .. وقد سررنا إذ اخترنا الطريق البرى الذى اتاح لنا رؤية بعض تلك المراكز السياحية فى الطريق وكلها كانت جميلة حقا ومزدحمة جدا بالسائحين ..

إلا أن أفضل كل تلك المراكز قاطبة هو فندق Regency القريب من نـــاندى حيث اقمنا ثلاث ليـــال مـــازلنا نذكرها بشغف .. وهو

فندق مناسب تماما للذين ينشدون الهدوء والسكينة أما الفنادق الأخرى التي قابلناها في الطريق فكان يؤمها كثير من الشباب فيما يبدو .. وقد رأينا فيها أنشطة رياضية واجتماعية كثيرة .. وهي على كل حال أرخص سعرا من فندق ريجنسي الذي يعتبر أفضل فنادق فيجي قاطبة .. ومع هذا فهناك حول مطار ناندي عدد محترم من الفنادق الجيدة الأخرى إذ أن مطار ناندي من المطارات المهمة في المنطقة من حيث حركة الترانزيت ما بين استراليا وهونولولو وسان فرنسيسكو وعدد آخر من جزر المحيط الهادي .

مما استلفت نظرنا في سوفا وناندي وجود عدد كبير من الكنائس والمساجد ومعابد الهندوس .. فهذه الطوائف التي تكون المجتمع في فيجي تعيش جنبا إلى جنب منذ زمن بعيد وطالما عاشت في وئام وسلام منذ بدء هجرة الهنود إلى فيجي أي منذ أكثر من مائة عام .. إلا أن دخول السياسة فيما بين هذه الطوائف أخيرا قد أفسد ذلك الجو بعض الشيء منذ خمس سنوات أي حوالي ١٩٨٧ - ١٩٨٨ .

فقد سبقت الاشارة إلى أن طائفة الهنود في فيجي احتكرت التجارة بها .. أما طائفة أهل البلد الأصليين أي الماليينيزيين والبولنيزيين فقد احتكرت العمل السياسي والسلطة ، وعاشت الطائفتان في ضوء هذا

التفاهم وتوزيع الادوار جنبا إلى جنب فى وئام وسلام . إلا أن طائفة الهنود أحست أخيرا بتفوقها العددي وبحرمانها من السلطة السياسية فقررت دخـــول ميدان السياسة الداخلية .. ولم لا ؟ ألم تكتسب الجنسية الفيجية وأصبح لهـــا جميع الحقـــوق والواجبات للمواطنين الفيجيين ؟! وفى أحد الانتخابات العامة التى جرت فى فيجى سنة ١٩٨٧ نال الحزب الجديد حزب العمال الذى يسيطر عليه الهنود الاغلبية البرلمانية لأول مرة وبهذا نال حق اختيار رئيس هندى للوزارة لأول مرة أيضا !! وشكلت فعلا وزارة تسيطر عليها الطائفة الهندية الأصل .

فزع أهل فيجى الأصليون لهذا الانقلاب الدستورى والقانونى ، ورغم دستورية وقانونيته فإنه كان كفيلا بقلب موازين القوى ما بين سكان فيجى لأول مرة تلك الموازين التى استمرت اجيالاً قديمة واعتادها السكان الاصليون ..

ولما كان جيش فيجى مكونا - تقليديا - من السكان الأصليين وحدهم ويقوده ضباط من نفس فئة السكان الأصليين فقد قام الجيش بانقلاب عسكرى ضد الحكومة الجديدة التى ســيطرت عليها الطــائفة الهنـدية وفرض حكومة «وطنية عسكرية من السكان الأصليين» !!

ولم ترض حكومات الكومونولث وعلى رأسها بريطانيا واستراليا بهذا الانقلاب غير الدستورى وهددت بفرض عقوبات اقتصادية على

فيجى التى تنال فعلا مساعدات ومعونات جسيمة من أهم دول الكومونولث .. لكن رد فعل حكومة الجيش كان إعلان انسحاب فيجى من الكومونولث وإعلان الجمهورية بفيجى .

وبعد مدة قصيرة – عدة أشهر – تم الاتفاق بين قادة الانقلاب والحاكم العام السابق بفيجى (تحت نظام الكومونولث) تم الاتفاق معه على تولية رئاسة الجمهورية الجديدة فهو شخصية معروفة ومحترمة عالميا وموضع ثقة الحكومات الأجنبية ..

وهكـذا فرض الجيش الأمر الواقع .. وأعلن بهـذه الطريقة عن عدم رضائه حاليا أو مستقبلا عن انتقال زمام السلطة السياسية فى البلاد من أيدى أصحابها الأصليين .. مع استمرار سـماحه للفيجيين من أصل «هندى» باستمرار عملهم بميدان التجارة .. .

ولا شك أن الكومونولث واستراليا وغيرها سوف تعود أو قد عـادت كلها تدريجـيا إلى الاعتراف بالأمـر الواقع الجديد وبجمهورية فيجى واستئناف المساعدات لها حتى لا تقع فريسة تيارات متطرفة أخرى ..

ثم عاد الهدوء إلى جنة المحيط الباسيفكى !

★★★

عندما حان موعد مغادرتى النهائية لاستراليا فى أكتوبر ١٩٨٦ عدنا إلى فيجى لـوداع الحـاكم العـام ووزير خارجيتها وزعماء الجـاليات

الاسلامية بها .. وانتهزنا الفرصة – آخر فرصة – للتوقف فى طريق الذهاب والاياب فى بعض البلدان المحيطة بفيجى خاصة وأنه من الطبيعى أن يتوقع المرء أن تكون هـذه آخر مرة نشاهد فيها تلك المنطقة التي تبعد عن مصر ٢٤ ساعة طيران متواصل !!

ومن هنا فقد زرنا الجزيرة الشمالية لنيوزيلانده (١) زرنا وولنجتون العاصمة ثم المدينة الثانية أوكلاند .. أما أوكلاند فهى تقع على أرض منبسطة شمال الجزيرة ولم نر فيها ما يثير العجب أو الدهشة .. مجرد مدينة متوسطة الحجم انجليزية الطابع .. انجلترا منذ خمسين سنة مثلا .. أما وولنجتون عاصمة نيوزيلانده فهى تقع على خط عرض ٤٠ جنوبا وعلى الشاطئ الجبلى ومناظرها الطبيعية ساحرة حقا .. الجبل الأشم المطل على الخليج .. المنازل والأحياء العالية المعلقة فوق الجبل وبعض الأحياء الأخرى التي تلامس الشاطئ مدينة بيضاء لامعة متوسطة الحجم لكن براقة لامعة ! والشواطئ حول وولنجتون كثيرة وجميلة بالمثل لكن مياهها مثلجة بالنسبة لنا نحن المصريين !! لكن نيوزيلاند، بصفة عامة «بلد كثير الريح وكثير البرد شتاء» فهى لا يفصلها عن القطب الجنوبى إلا قطعة من المحيط الهادى .. والمحيط المتجمد الجنوبى !!

---

(١) نيوزيلانده تتكون من جزيرتين كبيرتين جبليتين وتشتهر بنافورات المياه الساخنة التى تخرج من باطن الأرض Geysers .

أقصى أنحاء المعمورة .. وطابع نيوزيلاند، هو الانجليزى القديم .. انجلترا منذ خمسين عاما أو أكثر وهى فى نفس خضرة بريطانيا إذ تقع على نفس خطوط العرض كبريطانيا وشتان الفارق ما بين استراليا ونيوزيلانده .. فاستراليا تتطلع إلى أمريكا وبها صحارى مثلما فى الولايات المتحدة . أما نيوزيلانده فيربطها رباط قوى من وشائج العاطفة والحنين إلى الوطن الأم .. بريطانيا وهى شبيهة لها حتى جغرافيا ومناخيا .. فيما عدا نافورات المياه الساخنة الكثيرة المتفجرة من باطن الأرض فى نيوزيلانده !!

وعند زيارتنا لنيوزيلانده كان بها تمثيل دبلوماسى مصرى .. كان السفير الصديق الاستاذ محمود جمعه ومعه المستشار الاستاذ / يسرى القويضى (وأصبح سنة ٩٢ وزيراً مفوضاً فى طوكيو) أما الآن فقد قررت حكومتنا اغلاق تلك السفارة وإضافة تبعيتها إلى استراليا حيث سيكون سفيرنا فى استراليا سفيرا غير مقيم فى نيوزيلانده وقد يتساءل القارى عن سبب فتح سفارتنا فى نيوزيلانده أصلا وسبب اغلاقها ثانيا ؟.

افتتحت مصر سلسلة من السفارات فى أمريكا الجنوبية وفى نيوزيلانده فى الفترة الحرجة التى كانت مصر تخوض فيها حربا ضارية فى الأمم المتحدة لاجلاء اسرائيل عن سيناء وللدفاع عن قضية

فلسطين .. وكانت مصر في حاجة إلى كل صوت يمكنها كسبه من أصوات أعضاء الأمم المتحدة .. ومنها نيوزيلانده .

أما سبب قرار غلق سفارتنا في نيوزيلانده حاليا فلأن مصر اكتشفت أخيرا أن نيوزيلانده نفسها ليس لها سفير مقيم في مصر وإنما يمثلها في مصر سفير نيوزيلانده في روما !!

لكن رجال الخارجية المصرية لديهم حجة أقوى لاستمرار تمثيلنا المقيم في وولنجتون ! فإن السفارة المصرية بها كانت السفارة العربية الوحيدة في نيوزيلانده .. وبهذه الصفة كانت جميع الدول العربية تعهد إلى السفارة المصرية بأعمالها القنصلية واعتماد شهادات المنشأ وما إلى ذلك .. وكان إيراد سفارة مصر في وولنجتون من هذه الاعمال القنصلية سنويا ثلاثة عشر مليون دولار : يفوق أكثر من عشرين مرة مصاريف السفارة ويدر على وزارة الخارجية وعلى مصر ربحا حلالا .. أين هو الآن ؟.

بعد نيوزيلانده زرنا فيجي للمرة الأخيرة ثم طرنا إلى جزر هاواى(١) مجموعة جزر من جزر المجموعة البولينزية والمالينزينية تقع على خط عرض ٢٠ شمالا (مثل اسوان) وسكانها اشبه بأهل الفليبين أو اندونيسيا .. لكنها مجموعة جزر امريكية خالصة : إذ أنها خضعت

---

(١) عاصمتها هونولولو .

لحكم الولايات المتحدة منذ ١٨٩٨ - ١٩٩٢ بعد طرد امريكا لاسبانيا من هاواى ومن كوبا والفليبين ..

ومجموعة جزر هاواى تتوسط المسافة بين فيجى وسان فرنسيسكو أى تقع على مسافة أربع ساعات بالطائرة من الشاطئ الامريكى الغربى . هى مجموعة جزر بركانية جبلية هى الأخرى .. خضراء شديدة لخضرة كثيرة الامطار .. شواطئها جميلة رملية ناعمة وتحف بها أشجار جوز الهند وما يشابهها .. بعض تلك الجزر مازال مجهولا لم تكتشفه أو تدنسه أقدام السائحين بما تجره وراءها من روح وصفة تجارية رخيصة ..

أما مدينة هونولولو فهى كعبة أغلب السائحين الأجانب إلى هونولولو بسبب شهرة شاطئ وايكيكى الذى حببته هوليوود إلى جمهور السائحين من الامريكيين إلى الأجانب . ومن هنا فقد أصبحت وايكيكى قطعة من ولايات المتحدة .. وفقدت الكثير من طابع جزر المحيط الباسفيكى الأصلى رغم جمال الطبيعة .. الجبال الخضراء وأشجار جوز الهند والشواطئ الرملية الناعمة ..

أما العارفون ببواطن الأمور فلا يقصدون هونولولو وإنما غيرها من الاماكن المنعزلة فى نفس الجزيرة الكبرى أو فى غيرها من جزر المجموعة التى مازالت تحتفظ بطابعها الأصلى ويربطها ببعضها البعض خطوط طيران داخلية طيبة .

وعلى العموم فإن بمدينة هونولولو سلسلة لا تنتهى من فنادق هيلتون وشيراتون وكل مجموعة أمريكية أخرى ومع الأسف فإن الفنادق احتلت أغلب الشاطئ بحيث لا يراه ولا يستمتع به إلا نزلاء الفنادق ذاتها تماما مثل شاطئ ميامى فى فلوريدا .. إلى هذا الحد وصل الاستغلال التجارى .. ولم تتح لنا الفرصة لزيارة المدن الداخلية واكتفينا بهونولولو وشاطئ وايكيكى ..

والحق إننا لم نستمتع باقامتنا فى هونولولو كثيراً فقد وجدناها أكثر «تجارية» مما كنا ننتظر وأكثر غلاء من الولايات المتحدة ذاتها ومن استراليا أيضا !! على العموم فقد زرنا هونولولو وشفينا منها ومن الرغبة والحنين الأعمى لرؤية شاطئ وايكيكى !!

ومما يجدر ذكره أننا اثناء طيراننا من فيجى إلى هونولولو عبر المحيط الباسفيكى ، اجتزنا خط التوقيت الدولى The Internat Ional Date Line وهو خط وهمى متفق عليه يقع على خط طول ١٨٠ درجة شرق فيجى وغرب هونولولو ويقسم العالم من ناحية التوقيت قسمين .. ومن يعبره من الشرق إلى الغرب يكسب يوما بأكمله يعبره من الغرب إلى الشرق يخسر يوما بأكمله .. لا أدرى لماذا ؟.

وقد اجتزنا هذا الخط مرتين ، مرة فى طريق ذهابنا إلى هونولولو ومرة أخرى فى طريق عودتنا من هونولولو إلى طوكيو

عاصمة اليــابان .. وقــد كــانت هـــذه أول زيارة لنا إلى اليابان وإلى طوكيو .. ونظرا لأهـمية اليــابان المتزايدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ونظرا لوجودنا قربها فقد رأينا ضرورة الانتفاع من وجودنا بالمنطقة .

أول ما يقابل عينيك في اليابان وأنت تصلها بالطائرة هو مطار طوكيو الجديد في ناريــتا Narita وهــى قرية على بعد ستين كيلو مترا من طوكيو .. ورغم اتساع الطريق فإنه شديد الازدحام وقد يستغرق قطع تلك المسافة ساعتين أو أكثر أحيانا .. ومن هنا فإن اليابان اقــامت خط مترو - قطــار ســريع من طوكيو إلى مطار ناريتا لمن شاء ضمان عدم ضياع الطائرة منه ! ولكن الكثير من المسافرين يخصصون ثلاث ساعات لقطع هذه المسافة بالسيارة من باب الاحتياط .

ثم عند دخولك مدينة طوكيو لأول مرة قادما من ناريتا سوف يروعك عدد الطرق العلوية والكبارى (أمثال كوبرى ٦ أكتوبر) .. فهى فى طوكيو أكثر عددا بل وتعرجا أحيانا !! ثم ما يستوقف نظرك بعد ذلك هو كثرة الاعلانات الكهربائية على أغلب العمارات وأسطحها .. كثرة محيرة وكلها باللغة اليابانية طبعا ! وطوكيو مدينة ضخمة قوية ولا شك وبها بعض المبانى العالية والفخمة لكنها ليست من المدن الجميلة أو الأنيقة ..

وحالة المرور بها فى غاية الصعوبة رغم النظام الشديد واتباع الجميع لقواعد المرور ..

المنطقة التى اعجبتنا حقا فى طوكيو هى حى القصر الامبراطورى وبعض الضواحى الهادئة ذات الحدائق والشوارع الواسعة كذلك مما أثار اعجابنا حقا ذلك العدد الضخم من المتاجر الكبرى الانيقة فى طريق جينزا الشهير ووجود فتيات مرتديات الازياء الخاصة بالمضيفات والجوانتيات البيضاء للترحيب بالزوار إلى المحال الكبرى وارشادهم لكن أشك كثيرا فى أن عددا كبيرا منهن يتكلمن الانجليزية ! ومما آثار اعجابنا حقا أقسام لعب الأطفال فى تلك المتاجر الكبرى فاليابان حقا هى بلد لعب الأطفال .. والذى آثار انتباهنا هو إنك سوف تجد كل الألعاب تتحرك وتلعب باستمرار لكى تعلن عن نفسها عمليا - أى أن أصحاب المتاجر لا يكتفون بعرض اللعب - ساكنة - وإنما يقومون بتشغيلها باستمرار !! وأنى اشفق على الصغار وذويهم من هذا المنظر الذى لابد وأن يضطر الأهل لشراء ما يعلق به الطفل ..

كذلك استرعى انتباهنا وجود حى بأكمله به أكثر من خمسمائة متجر لبيع الأدوات الكهربائية فقط : تليفزيونات وراديوهات وأجهزة تسجيل وغسالات وثلاجات وخلافه .. لكن أسعارها فى هونج كونج أرخص منها فى اليابان .. لا أدرى لماذا ؟ نفس البضاعة اليابانية

تباع في هـونج كونج أرخص من اليابان ؟! سألت زملاء مصريين عن السبب فقيل لى أن نظام المبيعات في اليابان ووجود أكثر من وسـيط بل سلسـلة من الوسـطاء بين المصـنع والمستهلك هو السبب ربما !

ويجب أن احذر القارئ العزيز من شدة غلاء طوكيو .. فهى أغلى من الولايات المتـحدة ومن هـونولولو ومن أوروبا كثـيرا .. وأسـعار الفنـادق والمطاعم الجيدة لا يقدر عليها سوى الأغنياء .. ويبدو أن طبقة رجـال الأعمـال في اليـابان تكسب مكاسب باهظة وأن مستوى دخولهم يسمح بهذا القدر من الغلاء .. كذلك يشكو أخواننا المصريون في طوكيو وكل رجال السلك الدبلوماسى بها من ارتفا ع ايجارات المساكن الغربية الطـابع ارتفـاعـا مـخـيفـا ربما كانت ايجارات المسـاكن اليابانيـة معقـولة لأنها متـوافرة لكن المسـاكن الغربية الطابع قليلة والاقبال عليها أكبر من عددها ومن هنا ارتفع سعرها ارتفاعا جنونيا ..

أما طبق كوبى ستيك(١) (بوفتيك لحم كوبى الشهير) ففى المطاعم الجيدة فقد يصل ثمنه إلى ثمانين أو مائة دولار للفرد الواحد .

وراءنا ما شاهدناه من رخاء اليابان اليوم ومظاهر الرخاء في كل ناحية يوجد مثلا جميع أنواع المطاعم : الفرنسية والايطالية والصينية

---

(١) يؤخـذ من عجـول تربى على مشـروب البيـرة والتـدليل المستمر لتليين لحمها .

والهندية والاسبانية وهكذا كما يوجد أفخر أنواع الحلويات الفرنسية والخبز الفرنسى والكرواسان الخ ..

ومع ذلك فإنى وزوجتى قنعنا بزيارتنا لطوكيو لمدة ثلاثة أيام فقد عرفناها واكتفينا بذلك .. ولا نظن أننا نود العودة إلى اليابان أو العيش فيها فقد كان احساسنا فى شوارع طوكيو احساس الطفل الضال الذى يبحث عن أهله .. كل شئ باللغة اليابانية عناوين الشوارع والاتجاهات واللافتات على المحال وعلى الاتوبيس وكل شئ باليابانية وقليل من اليابانيين على مستوى رجل الشارع هو الذى يتحدث لغة أجنبية .. وأما سائقو التاكسى فقد نصحنا بأن تكتب عنوان فندقنا أو مقصدنا على ورقة باللغة اليابانية وأن نبرزها لسائق التاكسى لكى يفهم مقصدنا وينقلنا إليه .. والتعرف على أسماء الشوارع والمنازل صعب جدا حتى على سائقى التاكسى لأن المنازل لا تحمل أرقاما وبعض الشوارع لا تحمل اسماء ..

إلا أننا نذكر تجربة غنية مررنا بها عند زيارتنا إلى اليابان .والفضل فيها يرجع إلى الصديق السفير الاستاذ / سامى ثابت سفيرنا باليابان فى ذلك الحين وهو حاليا مدير المراسم بالجامعة العربية فقد نصحنا بالا نفوت زيارة إلى مدينة كيوتو Kyoto المقدسة وبها أهم معابد اليابان كما أنها عاصمة قديمة وتبعد كيوتو ثلاث ساعات بالقطار السريع . اشترينا تذاكر رحلة جماعية طبعا ..

فقد كان ذلك السبيل الوحيد لزيـــارة كيوتو أو غيرها بالنظر إلى جهلنا التام باللغة اليابانية .. وقد تضمنت الرحلة الجماعية نقلنا فى تاكسيات من الفندق الذى كما نقيم فيه إلى محطة السكة الحديد بطوكيو ثم ركوب القطار الى كيوتو وجولة فى أهم المعابد كيوتو ومعالمها السياحية ثم العودة إلى طوكيو وإلى الفندق . وقيل لنا أن مرشدين يجيدون الانجليزية سوف يصحبوننا كل الطريق ..

وفعلا مر علينا مرشد يتكلم بعض الانجليزية وأخذنا بسيارة تاكسى مع بعض السائحين الآخرين إلي حطة القطار .. وهناك انضم إلينا عدد أخر من السائحين اليابانيين ..

وسلمنا المرشد تذكرتين محجوزتين بالقطار وعليها رقم العربة ورقم المقعدين ثم انسحب !! ولم نره ثانية إلا عند عودتنا إلى محطة قطار طوكيو من جديد .. لكنه أخبرنا أن مرشدا آخر سوف يكون فى انتظارنا على رصيف القطار فى كيوتو ! وهناك فعلا كان المرشد فى انتظارنا وأخذنا فى جولة لرؤية معالم كيوتو .. وكانت خيبة أملنا شديدة حقا لما اخبرنا أن المعبد الكبير الشهير الذى قدمنا خصيصا لزيارته مغلق بسبب الاصلاحات وأخذنا إلى معبد آخر .. كان بديلا طيبا لكنه لم يكن هدفنا الأصلى فقد وجدنا مثله فى طوكيو بعد ذلك .. وعند الغداء أخذونا إلى فندق للسائحين الاجانب وتناولنا فيه غداء سريعا غير شهى ثم أخذنا قطار العودة ..

والواقع أن مدينة كيوتو لم ترق إلى مستوى الآمال التى كنا عقدناها عليها فليس بها من طابع مدينة قديمة مقدسة كما كنا ننتظر وحرمنا من رؤية المعبد الشهير . لكن التجربة الفريدة التى أعجبتنا واتتنا بطريق الصدفة المحضة دون أن نتوقعها .. فقد كانت رحلة القطار نفسها هى أهم معالم رحلتنا إلى اليابان وإلى كيوتو .

فقد عشـنا ثلاث سـاعات ذهابا وثلاثاً إيابا بين اليابانيين ! لم يكن معنا فى عربة القطار أى أجنبى بل كان جميع من حولنا من اليابانيين ..

رأينا حسن نظام اليابانيين وأدبهم الجم فى معاملاتهم وفى جلوسهم وصعودهم وهبوطهم .. ومعاملتهم لنا نحن الاجانب ..

ورأينا كيف يسافر اليابانيون وكيف يأكلون فى عربات القطار ..

تمر عليك فتيات أو فتية مرتدين ملابس خاصة نظيفة جدا وعلى رأسهم غطاء رأس مميز يدفعون عربات صغيرة نظيفة تجرى فى سكون على عجل وسط عربة القطار .. وينادون على سلعهم بما يشبه الغناء باللغة اليابانية بالطبع .. وهنا يقبل الركاب على استيقافهم وعلى شراء ما يحتاجونه .. فى علب من الكارتون نظيفة ومغلقة .. ويفتح الراكب الجالس أمامك وإلى جوارك علبته ويتناول ما بداخلها قطعة قطعة وإذا بها تشبه قطع الجاتوه الصغير المحمول على ورق جاتوه

أيضا .. وشكل قطع الجاتوه هذه مربع صغير أو مستطيل صغير ومتعدد الألوان .. لكن عرفنا فيما بعد أنها قطع من الاسماك أو من الفطائر المملحة التى تشبه الجاتوه .. وبعد ان يفرغ الراكب من محتويات الصندوق يغلقه بهدوء ويقوم إلى نهاية العربة حيث يضع الصندوق الخالى فى سلة خاصة للمهملات .. ويعود إلى مقعد ثم يمر فتى آخر يدفع عربة أخرى وينادى على سلعه بما يشبه الغناء أيضا .. فاذا به يبيع بعض المشروبات ، وهكذا ..

نظام رائع .. نظافة تامة .. هدوء وخلو من الضوضاء .. أدب جم فى كل المعاملات مثلما تبين لنا من حركاتهم طبعا اذ لم نفهم ما كانوا يقولون ..

أضف إلى تلك التجربة الفذة ما رأيناه وشاهدناه من نافذة القطار السريع والمسمى الرصاصة اذ كان ينساب بين الحقول فى سرعة لاتقل عن مائتى كيلو متر (١) فى المتوسط أو يزيد فى ثبات ودون اهتزاز أو ضوضاء أو ضجيج .. وقطع المسافة التى تصل إلى أربعمائة وخمسين كيلو مترا فى ثلاث ساعات ومر بنا على مزارع وحقول صغيرة منمقة ، وحدائق وعزب وقرى نظيفة، وكبار وطرق سريعة وأخرى بطيئة..

---

(١) أسرع القطارات فى العالم حاليا توجد فى فرنسا وتسمى TG.Vtrain Grande Vitesse وتصل سرعته فى المعدل إلى ثلاثمائة كيلو متر فى الساعة لكنه يستطيع فى بعض المسافات بلوغ سرعة أربعمائة كيلو متر.

ريف أخضر جميل متحضر ينبىء بالنعمة وبالاستقرار وبشدة الرخاء والنظام ..

★★★

من طوكيو طرنا إلى هونج كونج تلك المستعمرة البريطانية التى سوف تئول إلى الصين قبل نهاية هذا القرن سنة ١٩٩٧ كانت زيارتنا الثانية إليها فقد سبق لنا زيارتها من قبل لكن هونج كونج من الاماكن التي يود المرء العودة لزيارتها .. ان جمال الطبيعة فى هونج كونج شيء معروف ومسلم به .. فهى مكونة من جزئين : شبه جزيرة أو لسان ممتد فى البحر يخرج من جسم الصين الجنوبية وتسمى كاولون Kawlon ..

وأمامها جزيرة صغيرة هي هونج كونج يفصل بينهما قطعة من بحر الصين عرضها حوالى كيلو متر تقطعها السفن والمعديات وتحيط الجبال الشامخة بميناء كاولون بحيث يرى الناظر إلى كاولون من جزيرة هونج كونج يرى الجبال المحيطة وقد علتها احياء كاملة من المدينة المتلألئة الانوار ليلا .. كما يرى عشرات من ناطحات السحاب المطلة على الميناء سواء من طرف كاولون أو هونج كونج منظر فريد أجمل ربما من منظر مدينة نيويورك أو غيرها من المدن الأمريكية الساحلية بسبب ارتفاع الجبال المحيطة بالمدينة .

وبهونج كونج مظاهر الثراء الفاحش : ناطحات سحاب أنيقة

عمارات وفنادق فى منتهى الفخامة والاناقة وبعض فنادق هونج كونج تعتبر أفخم فنادق العالم قاطبة مثل فندق ماندارين وفندق Pennin-sula ونوادى بريطانية الطابع لكبار رجال الاعمال .. مطاعم تضارع أو تفوق مطاعم اوروبا وامريكا بعضها عائم على ذهبيات - كلها حافلة بكل مالذ وطاب من مأكولات العالم أجمع وبخاصة نتاج البحر .. وسيارات رولزرويس ومرسيدس بالمئات الا ان هونج كونج بها أيضا الكثير بل الكثير جدا من مظاهر الفقر المدقع وخاصة بسبب ازدحامها اخيرا بملايين المهاجرين من الصين الشيوعية فرارا من نظامها الشيوعى (تعداد هونج كونج ٥ ملايين) وبها احياء فقيرة لاينصح للغريب بدخولها بتاتا وتكون تلك الاحياء المكتظة ضحية وفريسة سيول الامطار الموسمية الجارفة كل سنة التى تشرد المئات المؤلفة من فقراء هونج كونج عندما تهطل الامطار الموسمية .. فهونج كونج تقع على خط ٢٠ شمالا (مثل أسوان أيضا) وهى مدينة جمعت المتناقضات الغنى الطائل والفقر المدقع ، الجمال والقبح ، الحدائق الغناء والقصور المنيفة إلى جانب الازدحام الشديد ورائحة الفقر والحاجة .

لكن هونج كونج هى إحدى جنات المشتروات الحديثة فى آسيا فهى ميناء حرة - ضرائبها تكاد لاتوجد .. وقد نهضت بها صناعات حديثة متقدمة وبخاصة فى الالكترونيات وبها كل ما تشتهى الانفس ، بأسعار لا تبارى .. حتى البضاعة اليابانية تجدها ارخص فى هونج كونج منها

فى اليابان وتجد جميع ألوان البضائع الصينية المعروفة ويمكنك أن تأكل أفضل واشهى الاطباق الصينية فى هونج كونج وليس فى الصين .. واشهى الفطائر والحلويات الفرنسية كذلك تجدها فى هونج كونج .

وكانت هونج كونج أول من ادخل فى غرف الفنادق الكبرى بها أجهزة تجفيف شعر السيدات Hair dryers والتليفزيونات والفيديو وخزائن صغيرة لحفظ النقود والاوراق والمستندات (١) ولكن كل هذا سيذهب إلى الصين الشيوعية بموجب اتفاق بريطانيا والصينيين بتسليم هونج كونج سنة ١٩٩٧ .

بانكوك (تايلاند) - سنغافورة - مانيلا (الفلبين)

فى طريق ذهابنا من القاهرة إلى سيدنى باستراليا تتوقف الطائرات عادة أما فى بانكوك عاصمة تايلاند أو فى سنغافورة أو فى مانيلا عاصمة الفلبين .. وقد رسمنا خططنا فى الذهاب والاياب بالاجازة أو تنفيذاً للنقل ، بحيث زرنا ثلاثتها .. بانكوك وسنغافورة ، ومانيلا ..

---

(١) فنادق استراليا ونيوزيلانده الراقية قد ادخلت مثل هذه الاشياء الجديدة فى غرفها هى الاخرى بالاضافة إلى أدوات صنع الشاى والقهوة فضلا عن أكياس القهوة والبن والسكر واللبن المجفف..

وقد أضافت فنادق نيوزيلانده إلى كل ما سبق أيضا قطع البسكويت الملح Sal-tines - Crackers وقطع الجبن النيوزيلاندى !!

وتلك وأيم الحق من محاسن السفر إلى استراليا فإنها بسبب بعدها تتيح لك فرصة التوقف والراحة واستكشاف هذه المدن الجميلة .

عاصمة تايلاند ، ومملكة سيام القديمة !! مدينة تعدادها أكثر من مليوني نسمة حافلة بالتاريخ وبالحاضر ، بالمعابد الذهبية الرائعة وبالانهار والقنوات حتى لقد لقبت فنيسيا (البندقية) الشرق ..

وأهلها أهل كرم وسماحة وبشاشة وطيبة .. مازالت دولة ملكية بل هى من أقدم الملكيات ولم يحتلها أجنبى سوي اليابان فترة الحرب العالمية الثانية .. وما زالت دولة بوذية متدينة بها مئات المعابد الذهبية الجميلة وتحفل باعداد هائلة من رجال الدين البوذيين بأزيائهم البرتقالية الفاتحة ، وبرءوسهم الحليقة تماما . (حليقة الشعر) ..

وهى ليست من المدن التى توحى بثراء الدولة ثراء واضحا لكن ليس بها مظاهر الفقر المدقع أيضا بل أنه بها الكثير من الشوارع والميادين الفسيحة ، وسلاسل المتاجر الغنية بألوان البضاعة الشرقية والغربية ، كما أن بها بعضا من أرقى وأغنى الفنادق مثال Orient Palace وعديد من المطاعم التى تمتاز بتقديم طيبات البحر (مثلها فى ذلك مثل هونغ كونج وسنغافورة ، ومانيلا !!) .

وتبدى بانكوك جميع مظاهر المدينة السياحية الناجحة بدءاً بخط طيرانها المزود بأحدث الطائرات والمشهور بالخدمة الرائعة وبانتظام

المواعيد ولطف وأدب المضيفات ثم أنها أقامت مطارا جديدا حديثا يماثل مطارات أوروبا فخامة وحداثة ، ونظاما لسيارات الاجرة من المطار إلى المدينة والعكس يكفل راحة السائحين وأمنهم ويضمن عدم التلاعب في الاسعار كما أن الخدمة الفندقية رخيصة نسبيا ومتقدمة .. وتشتهر المدينة بصناعات محلية متخصصة ورخيصة نسبيا وجيدة أيضا .. وبوفرة الطعام وبرخص اثمانه نسبيا ..

لكن شهرتها في المنطقة كمدينة من مدن اللهو واللعب حتى أن بعض شركات السياحة اليابانية نظمت سياحات جماعية لرجال الاعمال اليابانيين (للرجال فقط) إلى بانكوك مدينة السحر والجمال .. فان فتيات تايلاند لهن شهرة خاصة في المنطقة لما يتميزن به من جمال ورقة .

كذلك تشتهر المدينة بعدة قصور ملكية مفتوحة للزوار .. إلى جانب مئات المعابد البوذية المذهبية الفخمة .. تتخصص كل منها فى عرض تمثال أو اكثر لبوذا فى أوضاع مختلفة ..

هى باختصار مدينة كبيرة مزدحمة بكل شيء .. وبها أيضا كل شيء .. خير وفير .. حتى الفقراء يأكلون اللحم المشوى والاسماك المشوية على قارعة الطريق فى واحدة من مئات العربات الصغيرة أو الدكاكين الصغيرة المعدة لذلك .. لكن بها أيضا أربعة من المتاجر الكبرى الحديثة الفخمة والحافلة بكل شيء بعضها تايلاندى وبعضها

الآخر فروع لمتاجر يابانية .. وأسعارها رخيصة نسبيا .. أرخص كثيرا عن اليابان .. والملابس والمنسوجات أرخص من هونج كونج أو فى نفس أسعارها .. أما الادوات الكهربائية فيستحسن شراؤها من هونج كونج.

لكن بانكوك شديدة الحرارة وشديدة الرطوبة فهى على خط عرض ١٢ شمالا .. وقد اكتفينا بزيارتها مرتين فى طريق الذهاب والاياب .. لكن حولها شواطىء (بلاجات) جميلة وساحرة لمن يملك الوقت الكافى والمزاج الملائم ..

أما سنغافورة:

فقد زرناها أيضا مرتين .. وهى جزيرة صغيرة جدا تقع أمام الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الملايو ، أى انها تقع على خط الاستواء تماما .. ومع ذلك بسبب كونها جزيرة تتلقى نسمات البحر التي تخفف قليلا من الحرارة .. ويربطها بشبه جزيرة الملايو جسر برى بنى حديثا يصلح للسيارات والقطارات ..

وكانت مستعمرة بريطانية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية عندما استقلت هى ومالازيا ثم قررت مالايزيا الانفصال عن سنغافورة وسلكت طريقا منفصلاً .. فإن تكوين سنغافورة من حيث أهلها وطبيعتهم يختلف بعض الشىء عن أصل أهل مالازيا الذين يغلب عليهم العنصر

الاسلامى المحافظ .. فى حين ان أهل سنغافورة يغلب عليهم العنصر الصينى والتقاليد الصينية والقدرة على تنظيم الاعمال حتى وأن كان بين سكانها بعض المسلمين والهنود ..

ومن حسن حظ سنغافورة أن يتولى مستر لى كوان يو رئاسة وزارتها (١) منذ زمن طويل وهو من أصل صينى .. فهو الرجل القوى فى سنغافورة .. هو الاب الروحى والموجه والمسير الحقيقى لها .. هو صاحب الفضل فى نهضتها الصناعية والعمرانية والاقتصادية الهائلة.. وهو الذى يضرب المثل لبقية شعبه فى الجدية والالتزام وكثرة العمل .

الواقع إن السائح يدهش عند زيارته لسنغافورة لاول مرة .. إنها نيويورك أخرى .. نيويورك الشرق الاقصى بل أنظف من نيويورك.. ناطحات السحاب .. وعمارات ضخمة شوارع فسيحة منظمة وشديدة النظافة ، الزهور فى كل مكان.. على نواصى الشوارع .. فى الحدائق العامة .. فى وسط الطريق ..

متاجر صغيرة وكبيرة حافلة بكل ما يشتهى المرء أو السائح أو الزائر .. من صناعة سنغافورة ذاتها أو مستوردة من شتى أنحاء العالم حيث أن سنغافورة تمارس فى تجارتها الاقتصاد الرأسمالى

(١) ظل لى كوان يو رئيسا للوزارة فى سنغافورة إلى نوفمبر ١٩٩٠ حين تخلى طواعية عن منصبه لأحد مساعديه لكنه مازال عضوا بالوزارة .

المفتوح وفى ادارتها الداخلية – نظاما اجتماعياكريماً Social Wel-fare

أما عن فنادقها فحدث عنها ولا حرج .. عشرات الفنادق الكبرى التى تضارع افخم وارقى فنادق العالم .. يديرها صينيون من أهل سنغافورة المشهورين بالجد والنظام وكثرة العمل.. والابتسامة اللائقة عند استقبال السائح الأجنبي .. ولاترى متسكعين أو شحاذين فى شوارع سنغافورة .. اما مطار سنغافورة وأما خط طيران سنغافورة فقد بلغا مستوى دوليا راقيا للغاية .. وشركة طيران سنغافورة أصبحت على رأس شركات الطيران العالمية .. وشعب سنغافورة – واغلبه من الصينيين – مشهور بالاقبال على العمل والجدية والانتظام تراه يسير فى الطرقات على الارصفة ، بهمة ونشاط تماما مثل جماهير المارة فى الشارع الخامس فى نيويوك ، وبلغ حدا فائقا فى النظام والانتظام، فهم لايعبرون الشوارع الا فى الأماكن المخصصة للعبور، وسائقو السيارات يحترمون اشارات المرور وأماكن عبور المشاه .. وهكذا .

ولا يعيب سنغافورة إلاّ صغر حجمها فان السيارة تدور بك حولها كلها فى ساعتين على الأكثر .. لكن صغر حجمها وحجم شعبها ربما كان نعمة الطبيعة أهدتها لهذا الشعب .. فقد جعل التغلب على مشاكل الفقر والمرض التى واجهته ممكنا .. جعل التقدم السريع جدا متاحا ..

أكثر مما لو كانت البلد مثقلة بحمل ملايين وعشرات الملايين من السكان . وزيارة واحدة إلى سنغافورة تثبت لك أن مستوى معيشة أهلها (١) يفوق بكثير مثيله فى الدول الاسيوية المحيطة فيما عدا اليابان طبعا .

هذا ويلقبون كوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة والفلبين بانها النمور الخمسة الاسيوية وذلك لقفزتها الهائلة نحو التصنيع والتحديث والتصدير ولم ار جنوب كوريا ولا تايوان لكن زرت الثلاثة الباقية .. وتأكدت من طفرتها الهائلة نحو التقدم .

أما مانيلا :

عاصمة الفلبين فهى أبطأ النمور الخمسة لكنها بالنسبة لغيرها من أهل الغاب المستأنسين تعتبر نمرا على أي حال .. وزيارة واحدة إلى مانيلا تثبت للزائر مدى القفزة الهائلة ومدى المسافة التي قطعتها الفلبين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وإلى الآن رغم متاعبها وعدم استقرارها السياسى .

فمانيلا مدينتان متلاصقتان : المدينة القديمة نائمة حالمة حول الحصن الاسبانى القديم ويلاصقها بعض الاحياء القديمة .. وكانت

(١) متوسط دخل الفرد فى سنغافورة بلغ ثلاثة آلاف دولار سنويا (مصر ٦٨٦ دولاراً سنويا) .

المدينة قد دمرت تماما اثناء الحرب العالمية الثانية .. لكن يزين المدينة القديمة وجود فندق «مانيلا» الفخم الاصيل الذى كان مقرا للجنرال ماكارثر محرر الفلبين والشرق الاقصى من الغزو اليابانى .. وما زال جو هذا الفندق يمثل جو الفنادق الفاخرة فى القرن التاسع عشر ومطلع العشرين ..

أما المدينة الحديثة فقد بنيت على مبعدة أربعة أو خمسة كيلو مترات من المدينة القديمة .. وشتان الفارق .. كلها ناطحات سحاب وأبنية حديثة فخمة وميادين وشوارع فسيحة .. وعدد من المتاجر الكبرى الغاصة بصناعات الفلبين المحلية المتطورة والمعتدلة الاسعار نسبيا .. من الملابس إلى الادوات الجلدية والتحف وأصداف البحر والمنسوجات والاحذية وغيره مما يتهافت السائحون الاجانب على شرائه لاعتدال الاسعار بالنسبة لبلادهم سواء أكانت اليابان أو أمريكا أو استراليا أو أوروبا .

كذلك مانيلا مجتمعان متناقضان .

فهناك احياء كاملة جميلة جدا وحديثة جدا محاطة باسوار أو اسلاك شائكة وبوابات يحرسها حرس مدججون بالسلاح .. مثل الحى الذى يقطنه أغلب الدبلوماسيين والسفارات وكبار القوم فى الفلبين .. لماذا؟ لانتشار رجال العصابات والسرقات المسلحة .

ثم هناك مجتمع الفقر والمرض والجهل فى الاكواخ المحيطة بالمدينة القديمة وبينها وبين المدينة الحديثة ..

فمانيلا بلد اللهو والمرح مثلها فى ذلك مثل بانكوك ولنفس الاسباب أيضا لكنها أيضا تعكس آثار استمرار الحرب الاهلية فى ادغال الفلبين الجنوبية (جزيرة مانديناو وغيرها) مابين قوات الجيش والثوار المسلمين والشيوعيين على حد سواء .. ولما كانت الحرب سجالا منذ عقدين من الزمان فقد انتشرت الأسلحة، ومن ثم السرقات المسلحة فى أنحاء الفلبين كما فى مانيلا ..

وأخيرا زاد على هذا الخلاف حول فرديناند ماركوس الدكتاتور السابق ، والسيدة اكينو رئيسة الجمهورية السابقة واتباعها، ومحاولات فريق من الجيش الاطاحة بها عدة مرات ..

الفلبين اذن فى رأيى مزيج غريب من الرغبة فى الاستمتاع بالحياة وملاذها ومتعها ، وبين الميل إلى استمرار العنف والمشاكسة والحروب الأهلية التي يشنها مسلمو الفلبين وشيوعيوها على حد سواء ضد «الانظمة الفاسدة» فى مانيلا ..

وعلى أى حال فقد زرناها واعجبنا بها ولا أظننى قادراً على زيارتها ثانية فهى بعيدة جدا عن كل شىء حتى عن آسيا فهى آخر محطة قبل استراليا ! ويفصلها عن سيدنى أربع ساعات من الطيران .. فقط!!

الفصل التاسع

استراليا أو نهاية المطاف

لما ألححت على وزارة الخارجية بطلب نقلي من أديس ابابا بسبب تدهور حالتي الصحية نقلتني الوزارة إلى ديوان عام وزارة الخارجية في مايو ١٩٨٤ انتظارا لما يجد .. وبعد شهور من الانتظار والترقب تولى وزارة الخارجية د. عصمت عبد المجيد زميلي وصديقي القديم ورئيسي في وفد مصر الدائم لدى الامم المتحدة في نيويورك .. وفي أول حركة دبلوماسية للسفراء بعد تولية الوزارة عينت سفيرا لمصر في استراليا وفيجي Figi (١) ووصلت استراليا في نوفمبر ١٩٨٤ .

والسفر إلى استراليا يقتضي ركوب الطائرات النفاثة العملاقة من القاهرة ولمدة اكثر من ثماني عشرة أو عشرين ساعة متصلة مع الهبوط في الطريق في واحدة من مدن الخليج العربي ثم بانكوك عاصمة تايلاند

(١) دولة فيجي كما سبق القول مجموعة جزر في المحيط الهادى شرقي استراليا وهي عضو الأمم المتحدة وكانت عضوا في الكومنولث.

أو سنغافورة ثم سيدنى اكبر مدن استراليا . ومن سيدنى طائرة أخرى أقل حجما إلى كانبرا Canberra عاصمة استراليا .

واستراليا هى سادسة القارات فى العالم وأصغرها وآخر القارات التى اكتشفت فى أواخر القرن ١٨ (١) لكنها أيضا «دولة استراليا» وبمعنى آخر فانها الدولة الوحيدة التى تحتل قارة كاملة، أو القارة الوحيدة التى يقتصر شاغلها على دولة واحدة !! تقع استراليا فى أقصى الجنوب الشرقى لقارة آسيا فى المحيط الهادى جنوب الفلبين واندونيسيا ويفصلها عنهما رقعة من المحيط قد تصل إلى ألفى كيلو متر تقطعها الطائرات فى ساعتين أو ثلاث ولا يقع أى جزء من العالم جنوب استراليا سوى نيوزيلانده التى يفصلها عن استراليا أيضا ألفا كيلو متر .. فاستراليا ونيوزيلانده هما فى الواقع أقصى جنوب العالم أجمع ولهذا أطلق عليهما كلمة بالانجليزية ومعناها «الكتلة المقابلة» لشمال العالم The Antipodes كتلة الجنوب ولا يقع بينهما وبين القطب الجنوبى سوى المحيط المتجمد الجنوبى .. ولهذا تتلقى نيوزيلانده ريحا جنوبية باردة فى أغلب فصول العام .

ومساحة قارة استراليا تبلغ ستة أمثال بريطانيا وفرنسا مجتمعة

---

(١) القارات وفقا لحجمها هى آسيا وافريقيا واوروبا وامريكا الشمالية وامريكا الجنوبية ثم استراليا أصغر القارات .

أى ثلاثة ملايين ميل مربع !! وثلاثة أمثال حجم السودان أكبر دولة أفريقية ..

اكتشف كابتن كوك البريطانى استراليا ١٧٧٠ وأصبحت استراليا مستعمرة بريطانية يحكمها حاكم عام بريطانى وبدأت هجرة الانجليز والايرلنديين إليها تتوالى حتى قامت ست ولايات استرالية .. والإقليم السابع بها هو The Northern Territory وسيأتى ذكرها تفصيلا ..

وقد أباد المستعمر الأبيض غالبية سكان استراليا الأصليين ولم يبق منهم سوى مائة ألف تقريبا وكانوا شعبا شديد البدائية The Aborigines (١) .

ثم تحولت استراليا إلى واحدة ممتلكات التاج البريطانى British Dominion يحكمها حاكم بريطانى يعينه ملك بريطانيا ويمثل التاج البريطانى فيها .

أما حاليا فاستراليا دولة ملكية ترأسها الملكة اليزابيث كما أنها عضو الكومونولث وما زالت تدين بالولاء للملكة اليزابيث التى تعين شخصا استراليا حاكما عاما Governor general على استراليا

---

(١) تعنى الأصليين بالانجليزية Aborigines.

وممثلا لها فى غيابها - لمدة خمس سنوات بناء على توصية مجلس الوزراء الاسترالى ..

والواقع أنه فيما عدا هذه الصفة الرمزية للملكية ومن ينوب عن التاج فى غياب صاحبه - فإن استراليا دولة غربية ديمقراطية تسير على نهج حكومة وستمنستر فى بريطانيا من حيث الاساليب البرلمانية لكن نظامها به الكثير المستورد من أمريكا ..

ورئيس الوزراء الاسترالى هو الذى يمسك بالسلطة الفعلية باسم حزب الأغلبية المنتخب : الحزب الحاكم ، وهو حاليا سنة ١٩٩٥ حزب العمال الاشتراكي وكان عند وصولنا هو مستر بوب (روبرت) هوك (١).

وتبلغ المسافة من شمالها إلى أقصى جنوبها حوالى أربعة آلاف كيلو متر ومن شرقها إلى غربها أربعة آلاف وخمسمائة كيلو متر .. ومنذ أن يعلن الطيار وصول طائرتنا إلى المجال الجوى لاستراليا إلى حين وصول طائرتنا إلى مدينة سيدنى أكبر مدن استراليا تمر أربع ساعات كاملة . كما تمر خمس ساعات طيران كاملة للطيران من سيدنى فى شرق استراليا إلى مدينة ببرث Perth فى أقصى غربها !!

---

(١) حاليا بول كيتنج Keating . - لكن فى ١٩٩٦ خسر حزب العمال الانتخابات لأول مرة منذ عقد كامل من الزمان .

ولهذا كان من الطبيعى أن تجد جميع الأجواء والنباتات فى استراليا . ليس لمجرد أنها قارة وحسب ولكن لأنها قارة يقع طرفها الشمالى فى المناطق المدارية الحارة (مدينة داروين) والتى تكاد تقرب فى مناخها من المنطقة الاستوائية القريبة ، ويقع طرفها الجنوبى (مدينة ملبورن – وجزيرة تسمانيا) فى المنطقة الجنوبية المعتدلة (٤٠ْ – ٤٥ْ جنوبا) .. وبمعنى آخر فلو وضعت استراليا على الخريطة لأفريقيا وأوروبا لامتدت من الخرطوم مثلا إلى لندن شمالا .. ومن هنا سوف تجد بها زراعات التفاح الاسترالى والكمثرى والشعير والشوفان والاعناب ثم فواكه المناطق الحارة كالأناناس والبابايا وفاكهة القشطة التى تنمو إلى حجم يماثل حجم البطيخ !! والبطيخ طبعا .

والمناطق الشرقية والجنوبية من قارة استراليا أكثر مطراً وأنهارا (١) ومياه من الوسط والغرب حيث تكثر مناطق الجفاف والصحارى ..

أما أقصى الشمال فتوجد غابات مدارية واستوائية وأنهارها مليئة بالتماسيح !!

وكان وجود الجبال والمرتفعات فى المناطق الشرقية والجنوبية مع اعتدال مناخها وقربه إلى مناخ انجلترا سببا فى تركز أفواج الهجرات

---

(١) أهم أنهار المناطق الشرقية والجنوبية نهرا Darling Murray .

الأولى فى هاتين المنطقتين فأطلق عليها اسماء «كوينزلاند» – وعاصمتها وأهم مدنها بريزبين Brisbane (مليون نسمة) و «نيوساوث ويلز» وعاصمتها وأهم مدن استراليا قاطبة هى سيدنى ٣,٥ ملايين نسمة وانشئت سنة ١٨٨٣ – و «فيكتوريا» وعاصمتها ملبورن Melborne التى أنشئت سنة ١٨٣٨ ثانية مدن استراليا ٣ ملايين نسمة .. ويليها ولاية (جزيرة تسمانيا) وعاصمتها هوبارت ثم انشئت جنوب استراليا وعاصمتها ادلايد (مليون نسمة) ثم غرب استراليا وعاصمتها Perth (٢٠٠ ألف نسمة) وشمال استراليا وعاصمتها داروين (٦٠ ألف نسمة) ووسط استراليا وعاصمتها أليس سبرينجز .

وتعداد استراليا حاليا أكثر من عشرين مليون نسمة يقطن أكثر من ثلثيهم فى الولايات والمدن الساحلية الشرقية والجنوبية – ولاية (نيوساوث ويلز – ومدينة (سيدنى) – ثم ولاية (فيكتوريا) – ومدينة (ملبورن) ثم – ولاية (كوينز لاند) – ومدينة (بريزبين) ثم جنوب استراليا ومدينة (ادلايد) وأخيرا مدينة (بيرث) فى غرب استراليا ..

أما الأقليم الشمالي وعاصمته داروين فتعداده لا يتعدى مائة ألف.

ووسط استراليا شديد الجفاف وبه صحارى شاسعة ومناطق من أشد مناطق العالم جفافا .

ورغم ذلك فإن استراليا بها مناطق من أكثر مناطق العالم خصوبة

وتنمية وتنتج القمح بوفرة (واستراليا من أكبر مصدرى القمح فى العالم) والشعير والذرة وقصب السكر والاعناب وجميع أنواع الفاكهة والخضر . وتبلغ مساحة الأراضى الزراعية حاليا ١٠ ٪ من مساحة القارة الكلية وهو ما يعادل مجموعة مساحة القطر المصرى بأكمله بصحاريه ومزارعه !! ومازالت عملية استصلاح الأراضى واقتطاعها من الصحارى جارية كلما وجد الاستراليون مصادر أضافية للمياه وهى من أهم المشاكل التى تجابه استراليا ..

ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية قفزت استراليا قفزات نشطة إلى الأمام من ناحية التصنيع وتحسين وتطوير منتجاتها الصناعية وأصبح يعمل فى الصناعة ثلاثون فى المائة من القوة العاملة فى استراليا فى حين يعمل سبعة فى المائة منها فقط فى الزراعة (الميكنة الزراعية متقدمة جدا) ويعمل اثنان وثلاثون فى المائة من القوى العاملة فى باقى الخدمات السياحية والمصرفية والحكومية .. الخ

وتنتج استراليا الحديد والصلب والمنسوجات والأدوات الكهربائية والكيمائية كما تنتج سيارات استرالية متميزة والطائرات والسفن وذلك اعتمادا على خاماتها المتوافرة من البوكسايت والفحم (١) والنحاس

---

(١) تصدر استراليا إلى اليابان الحديد والفحم وخامات أخرى قيمتها ١١ بليون دولار .سنة ١٩٨٧ سنويا واليابان عميل استراليا الأول لكنها أيضا منافسها الأول على زعامة أسيا اقتصاديا وسياسيا ..

والمنجنيز والحديد والرصاص والنيكل والفضة والتونجستن واليورانيوم (بها مناجم مهمة لليورانيوم فى الأقليم الشمالى قريبا من داروين واستراليا من أكبر موردى اليورانيوم إلى أمريكا وبريطانيا) ..

كما تنتج الزنك والبترول . وبها مخزون احتياطى من البترول يبلغ ثلاثة بلايين برميل ;

والمراعى الاسترالية مشهورة باتساع رقعتها ووفرة انتاجها من لحوم الابقار والخراف (١) والأصواف .. واستراليا تنتج ثلاثين فى المائة من انتاج العالم كله من الصوف .. ومن أجود أنواعه . وقد دعيت وزوجتى عند زيارتنا لجزيرة تسمانيا وهى ولاية استرالية Tasmania لزيارة عزبة أحد كبار أصحاب المراعى وكانت ابنته وزوجها موجودين معنا يرحبان بنا وقالت الأبنة فى معرض حديثها أن أباها أهداها بمناسبة زواجها ١٠ عشرة (هكتار من المراعى) وقد تبين لنا بعد ذلك ومع دهشتنا الشديدة أنها تقصد أن تقول عشرة آلاف هكتار أما والدها فيملك مليون هتكار من أراضى المراعى (الهتكار hectar يعادل فدانين ونصف) وهناك فى استراليا كثيرون أمثاله ممن يملكون «ملايين

---

(١) تستورد السعودية ما يفوق مائة ألف من الخراف من استراليا سنويا بمناسبة الحج .

الهتكارات» من الأراضي الزراعية أو أراضي المراعي .. اعتمادا على أحدث أساليب الميكنة الزراعية وفي صناعات الصوف ..

وانتاج استراليا من الكهرباء ١٠٦ بلايين كيلو وات ساعة سنويا (مصر ١٧ بليون وايطاليا ١٨٠ بليون) وتنتج خمسين مليون طن مترى من الصلب (مصر ٩٠٠ ألف طن مترى وايطاليا ٢٥ مليون) ..

إما إجمالى الناتج القومى الاسترالى سنة ١٩٨٣ فقد بلغ ١٥١ بليون دولار (مصر ٣٣ بليون وايطاليا ٣٥٠ بليون) (١) .

أما متوسط دخل الفرد فى استراليا سنويا فهو عشرة آلاف دولار (مصر ٦٨٦ دولارا وايطاليا سبعة آلاف دولارا سنة ١٩٨٧) .

فاستراليا إذن تعتبر من دول العالم الثرية «وافرة الحظ» ويتمتع أبناؤها بمستوى معيشة أشد ارتفاعا من بريطانيا وفرنسا وايطاليا ويكاد يقارب مستوى معيشة سويسرا وأمريكا .. ومن ثم أطلق على استراليا اسم البلد السعيد الحظ !!

لكن سعادة هذا الشعب لم تأت عفوا ولم تكن ثروتها ثروة موروثة ولم تكن سعادتها مصادفة أو نالها الاستراليون دون عناء ! والعكس هو الصحيح .

---

(١) يلاحظ أن تعداد الستراليا هو عشرون مليون نسمة فقط !!

فقد كادت أفواج المهاجرين الأول إلى أستراليا أن تهلك فى فصول الشتاء بسبب عدم وفرة الغذاء .. وقاسى آلاف من العمال فى الأفواج الأولي للهجرة من قسوة ظروف العمل والحياة .. ويمثل البريطانيون (الأنجليز والاسكتلدنديون والايرلنديون أى الناطقون بالانجليزية) ٩٥ ٪ فى المائة من سكان استراليا الحاليين كما يمثل الأوروبيون من الأجناس الأخرى ٣ ٪ من السكان وأما البقية الباقية فمن الجنس الأصفر وشعوب البحر الأبيض من عرب ولاتينيين ..

ولقد تخلل تاريخ استراليا منذ ١٨٠٠ سلسلة طويلة من المصادمات والاضطهادات ما بين الأجناس والطبقات . ومعروف أن بريطانيا كانت تنفى إلى نيوساوث ويلز فى استراليا فى القرن الثامن عشر ذوى الأحكام القضائية Convicts (المحكوم عليهم باحكام قضائية) كبديل عن سجنهم فى وطنهم الأصلى .. لكن هذا لا يعنى أن كل مواطنى استراليا من أصل بريطانى كانوا من المساجين فإن تلك الفترة سرعان ما انقضت وأصبحت جموع المهاجرين إلى استراليا من أصحاب الحرف والعمال الزراعيين .. ولما كثر الاستيطان بدأت حملات البيض لابادة السكان الأصليين Aborigines أو إخضاعهم لاحتلال أراضيهم .. ثم شاهدت سنوات ١٨٤٠ التفرقة والحملات ضد الايرلنديين الكاثوليك على يد الانجليز البروتستانت . ثم رأت سنوات ١٨٥٧ التفرقة

وألوان التعصب ضد الصينيين الوافدين لأستراليا لعمل الخطوط الحديدية وخاصة في ولاية فيكتوريا . وتم اقرار «قانون حماية استراليا البيضاء» سنة ١٩٠١ حين أعادت استراليا ترحيل كل مهاجرى جزر المحيط الهادى إلى جزرهم الأصلية .. وتخللت هذه السنوات عمليات كبت واضطهاد ضد المهاجرين الايطاليين الجدد ، ثم ضد طبقات العمال على يد أصحاب الأعمال والحكومات المحافظة حين بدأ العمال يطالبون بمزيد من الحقوق وبزيادة الاجور انتهت بتكوين حزب العمال الاسترالى AL .P ليمثل مصالح العمال ضد أصحاب الأعمال والحكومات المحافظة .. وحزب العمال كان الحزب الحاكم حاليا استراليا (١٩٩٢ / ١٩٩٤) .

ومن هنا فقد شهد المجتمع الاسترالى كثيرا من ألوان العنف والشد والجذب قبل أن يستقر إلى أوضاعه الحالية من الرخاء والثراء والسكينة .

لكن يتمثل الخطر على الأمن الاجتماعى فى استراليا فى مصدرين محتملين هما إعادة إثارة النزاع العرقى ما بين الاستراليين البيض وبين أفواج المهاجرين الجدد وبخاصة من آسيا أو الشرق الأوسط أو في تفجير النزاع ما بين العمال الاستراليين وأصحاب العمل أو الحكومة إذا ما اضيرت مصالح العمال بسبب الضائقة الاقتصادية أو تفاقم المشاكل الاقتصادية أو تولى الحكم وزارات يمينية محافظة .

وقد انتهت الاحزاب الاسترالية سنة ١٩٨٥ إلى اقرار سياسة جديدة رسمية اقترحها أصلا حزب العمال سنة ٧٢ - ١٩٧٥ أى سنوات تسليط الأضــواء علـى فـرار آلالف من الفـتناميين من الهند الصـينيـة إلى استراليا، تقوم على تصور إقامة دولة استرالية متعددة الأجناس Multiracial .

ومن ثـم رأت سنوات ١٩٧٥ - ١٩٨٣ ذروة فتح اسـتراليا لأبوابها للجنـس الأصفر فقبلت ٧٨ ألف مهـاجر من الهنـد الصينية وحدها كل عام ..

لكن مع عودة الكساد إلي الاقـتصاد الاسترالى وارتفاع معدلات البطالة بين العـمـال (٨,٥ - ٩ ٪ حـاليـا) وظـهـور منافـسين أقـوياء لأستراليا فى ميادين الصناعة بل وتصدير الخامات أيضا (اليابان والنمور الاسيوية والسوق المشتركة) بدأت ترتفع من جديد أصوات كثيرة تشير إلى مغبة وأخطار فتح أبواب الهجرة أمام الجنس الأصفر أو الملونين إلى استراليا .

وقـــد تسـاءل أحد كـبـــار المفكـرين الاجـتمـاعيين الاسـتـراليين «جوفـرى بلانى» Blaney فى أحـد كتاباته الشـهيرة قائلا « هـل يود الاسـتـراليـون أن تسـتـمـر إسـتـراليـا «دولة تغلب فـيـهـا الثـقـافـة الانجلوسكسونية وتنطـق بالانجليزية أم يجب أن تتحول استراليا إلى

خليط من الشعوب الأوروبية والآسيوية ؟» ويضيف بلانى أن «الحريات المكفولة في استراليا مثل حرية الكلام والعبادة والديمقراطية ليست صفات آسيوية أو من صفات شعوب العالم الثالث .. وهناك إذن خطر انهيار هذه القيم فى استراليا إذا ما سمح للأجناس الآسيوية بالهجرة الواسعة ؟!

هذا ويدعى المسئولون الاستراليون أنه ليست هناك حصص محددة لمهاجرى كل دولة وإنما يقوم نظام الهجرة على أسس وأولويات ترتيبها كالآتى :

أ – المهاجرون بسبب الاضطهاد فى بلادهم فيقبلون لأسباب انسانية .

ب – ويليهم المهاجرون تحت بند لم شمل الأسر والعائلات .

جـ – وأخيرا المهاجرون المطلوبون فى استراليا لصفقاتهم المرغوبة وفقا لاحتياجات الأقتصاد الاسترالى .

(ومن ذلك أن كل ممول يمكنه تحويل نصف مليون دولار استرالى إلى استراليا لاستغلالها يسمح له بالهجرة إليها) .

ولقد بدأت استراليا فعلا تحد من اعداد المهاجرين إليها تدريجيا ففي سنة ٨١ – ٨٢ سمحت بهجرة ١١٨,٧٠٠ منهم الثلث من بريطانيا وايرلنده و ٢٢ ٪ من أوروبا و ٢٢ ٪ من آسيا و ١٢ ٪ من جزر المحيط

الهادى و ٤ ٪ من افريقيا و ٣ ٪ من أمريكا الشمالية و ٢ ٪ من الشرق الأوسط و ١ ٪ من أمريكا الجنوبية)

وانخفض عدد المهاجرين حاليا إلى ثمانين ألفا فقط سنويا .

وإذا جاز لى الاقتصار على وصف شخصية استراليا في بوتقة صغيرة موجزة لأمكنني القول بأن استراليا بريطانية المنشأ والتاريخ واللغة والدين ، لكنها منذ نهاية الحرب الثانية أصبحت أمريكية الاتجاه (١) وأمريكية التوجه الحالى والمستقبلى والاعتماد الكلى على الولايات المتحدة . أمنيا ودفاعيا ..

ويوسط استراليا واحدة من أحدث قواعد أمريكا الالكترونية للمراقبة والتصنت الالكترونى ..

كما أن استراليا فى سبيلها إلى أن تصبح مجتمعا تختلط فيه الأصول البريطانية العرقية واللغوية بأفواج المهاجرين الايطاليين اليونانيين والأسبان والألمان واليوغوسلاف واللبنانيين

---

(١) زاد توجه استراليا إلى أمريكا منذ الحرب العالمية الثانية حين فشلت بريطانيا فى الدفاع عن استراليا ولم ينقذها من الغزو اليابانى إلا الولايات المتحدة .. ومنذ بعد الحرب ألغت أستراليا التعامل بالاسترلينى وأصبحت العملة الاسترالية هى الدولار الاسترالى مقوماً بالنسبة إلى الدولار الأمريكى .

والمصريين (١) وبأفــواج المهـــاجرين الجــدد من فـيتنــاميين وكمبوديين وفلبينيين وهكذا ..

ونمط الحياة اليومى فى استراليا أصبح أقرب الانماط إلى النمط الأمريكى وإلى مستوى المعيشة فى الولايات المتحدة بل أن مستوى بعض الأجـــور والأسعـار فى استراليا قد فاق مستواها فى أمريكا ذاتها ، أما مدن استراليا الكبيرة : سيدنى - بريسباين - ادلايد - بيرت ، فهى أقرب إلى مدن أمريكا منها إلى مدن بريطانيا وأوروبا ومنطقة Gold Coast فى كوينزلاند محاكاة لشاطئ ميامى فى فلوريدا (٢) ..

ومع هذا تحاول استراليا أن تلعب دورا سياسيا آسيويا متزايد الأهمية أدراكا منها لما يفرضه عليها واقعها الجغرافى وقربها إلى اندونيسيا والفلبين وبقية جنوب شرقى اسيا وبعدها الشديد عن أوروبا من ناحية ومن ناحية أخرى لاسترضاء وكسب ثقة دول آسيا التى تحسد استراليا لثرائها وفرصها غير المحدودة ولا تشعر بالثقة نحو ها ولا تتقبلها كدولة أسيوية بطبيعة الحال .. أو حتى كدولة نصف أسيوية

---

(١) استراليا بها أكثر من أربعين ألف مصرى أغلبهم مازال يحمل الجنسية المصرية إلى جانب الاسترالية حيث تسمح مصر بازدواج الجنسية وبدأت هجرات المصريين الجماعية إلى استراليا من أوائل الستينات سنة ١٩٦٠.

(٢) أما مدينة ملبورن ثانى مدن استراليا فهى بريطانية الطابع وأكثر «محافظة» من الأخريات .

.. ومع ذلك فكل هذه الدول تحاول الاستفادة مما توفره استراليا لها ولابنائها من مزايا وامكانيات تعليمية وثقافية وحضارية فى مجتمع ثرى يقوم على الخدمات الحكومية Social Welfare المتوافرة (١) .

ومن أمثلة محاولات استراليا التقرب إلى دول جنوب شرق اسيا أنها تقدم ٤٠٠ مليون دولار سنويا كمنحة إلى حكومة بابوا نيوغينى Papua New Guinee كما كانت تقدم إلى الفليبين قروضا متجددة كل ٦ أشهر قدرها خمسون مليون دولار وتقدم منحا سنويا إلي جزر فيجي والجزر الأخرى المحيطة بالاضافة إلى آلاف المنح الدراسية إلى شباب تلك المنطقة . ويبلغ مجموع مساعدات استراليا إلى دول العالم الثالث بليون وثلاثمائة مليون دولار (سنة ١٩٨٦) منها ٤٥ مليون دولار معونات غذائية إلى أثيوبيا مثلا رغم اختلاف الانظمة !!

وباختصار فإن هناك اتفاقا حديث العهد بين ساسة استراليا من جميع الاحزاب على وجوب تأكيد وتعميق انتمائها إلى جنوب شرق اسيا وعلى أن مستقبل استراليا «السياسى والاقتصادى وأمنها مرتبطة كلها بهذه المنطقة لكن يستلزم ذلك» اقناع دول المنطقة لقبول استراليا بهذه الصفة الآسيوية المستقلة عن الولايات المتحدة أو عن الغرب .. إلى جانب

---

(١) التعليم ، والعلاج مجانيان فى استراليا كما أن الاسترالى العاطل ينال مساعدات حكومية قد تصل إلى سبعمائة دولار استرالى شهريا – الدولار الاسترالى يوازى $\frac{3}{4}$ دولار امريكى حاليا ١٩٩٥ .

وجوب التغلب على المقاومة الداخلية فى استراليا نفسها لاستيراد المزيد من العمالة الآسيوية الأرخص من العمالة الاسترالية .. لكن وجه الصعوبة هو أن استراليا تعتمد على الولايات المتحدة اعتمادا يكاد يكون كليا فى الدفاع عن استراليا (١) ناهيك باعتمادها عليها تجاريا واقتصاديا وتكنولوجيا .. ولا يعادل ذلك سوى اعتماد استراليا على اليابان بالمثل تجاريا واقتصاديا وتكنولوجيا .

والخلاصة أذن أنه يحق للمراقب السياسى أن يتساءل بل أن يضع سلسلة من التساؤلات التى تثيرها دراسته لأحوال استراليا الحالية ولاحتمالاتها المستقبلية :

(١) أو ليست استراليا أذن دولة (أو بالأحرى قارة) حضارتها وثقافتها أنجلوسكسونية أصبحت حاليا فى توجهها واعتمادها الأمنى والتجارى والتكنولوجى أمريكية ، لكنها مع ذلك تريد أو تحاول أن تتبنى تحالفات ومصالح سياسية وتجارية واقتصادية آسيوية مع دول جنوبى شرق اسيا وعلى رأسها اليابان ؟ (٢) .

(٢) أو ليست اذن استراليا دولة أوروبية الأصل ، مجتمعها

---

(١) الجيش الاسترالى لا يتجاوز سبعين ألفا وهو لا يكفى للحفاظ على قارة شاسعة ومن هنا جاء اعتماد استراليا على تحالفها الوثيق مع الولايات المتحدة ضد أى عدو محتمل .

(٢) اليابان أكبر عميل لاستراليا وأكبر قدوة لها من حيث التنمية الصناعية والتكنولوجية الراقية لكنها أيضا أكبر منافس لاستراليا فى أسواق الشرق الأوسط ومن حيث امكانيات الزعامة فى المنطقة.

ديمقراطي غربي اشتراكي الاتجاه - ونظـام نقاباتها العمـالية ونمـط علاقاتهـا مـوروث عن بريطانيا بكل حسناته وسيئاته . واتجاهات استراليا الفكرية والثقافية انجلو سكسونية بالمثل لكن أصبحت طريقة معيشتها وتوجهاتها امريكية يغلب عليها الطابع الكاليفورني !!

(٣) هل تستطيع استراليا مع ذلك - ومتى تستطيع استراليا أذن - لما تراه من مصلحتها الجغرافية وضروريات الحياة من حولها - الانصهار تدريجيا في بوتقة آسيا وجنوب شرقي اسيا !!

(٤) أولا يكتنف ذلك مواجهة الكثير من الصعاب والتناقضات كما يستلزم وقتا وجهدا طويلين

(٥) وهلا يستلزم ذلك من استراليا ومن سكانها الكثير من الجهد وشيئا من التضحيات في ثرائها ومستوى معيشتها المرتفع وليس مجرد الرغبة السياسية أو التصريحات الدبلوماسية !!؟

وصلنا استراليا اذن في نوفمبر ١٩٨٤ وهو بداية الصيف في نصف الكرة الجنوبي وقدمت أوراق اعتمادى الى سيرنينيان ستيفنز الحاكم العام لا ستراليا في ذلك الوقت (١) في مقر الحاكم العام في كانبرا عاصمة استراليا .

---

(١) الحاكم العام سنة ١٩٩٣ حين كتابة هذه السطور هو بيل هايدن وزير خارجية استراليا عند تقديمي لأوراق اعتمادى وهو من أقطاب حزب العمال الاشتراكي وتم تعيينه حاكما عاماً بناء على توصية مجلس الوزراء الاسترالي وباختيار الملكة اليزابيث ملكة (بريطانيا) واستراليا .

وقد تم اختيار كانبرا عاصمة لاستراليا سنة ١٩١٣ فى منطقة جبلية تتوسط الحدود بين ولايتى نيوساوث ويلز وفيكتوريا كبرى ولايات استراليا كحل وسط لمنافستهما حول أية عاصمة سيدنى أم ملبورن تكون عاصمة للحكومة الفيدرالية الاسترالية .. ولما كان موقع كانبرا بعيدا عن البحر (عكس سيدنى وملبورن) وفوق هضبة متوسط ارتفاعها ٧٠٠ - ٨٠٠ متر عن سطح البحر فان مناخها قارى « حار صيفا بارد شتاء » وإن كانت أمطارها أقل من سيدنى ومن ملبورن . وتعداد كانبرا حاليا لا يتجاز ربع مليون نسمة أغلبهم من موظفى الحكومة الفيدرالية وأعضاء البرلمان الفيدرالى والسلك الدبلوماسى واعضاء هيئات التدريس فى جامعة كانبرا ومدارسها .. ومن هنا فهى مدينة مثالية غير مزدحمة - دون أى ضوضاء - خضراء ونظيفة جدا أغلب منازلها فيلات او عمارات قصيرة ذات حدائق من حولها وليس للحدائق اسوار تحيط بها وذلك دليل على توفر الامن والطمأنينة .. ومستشفياتها ومدارسها وكل وسائل خدماتها لا تعانى أى زحام أو إرهاق وبها مراكز تجارية Shopping Centres فى غاية الاناقة والغنى والجدة .

وقد انعكس ذلك على طبائع وأخلاق سكانها فلا يبدون علامات قلة

الصبر أو قلة اهتمام سكان المدن الكبرى بجيرانهم .. بل إننا لا حظنا بسرور بالغ أن جيراننا فى حى O`Malley حيث مسكن سفير مصر فى ذلك الحين) كانوا زائدى اللطف والكرم نحونا .. ولاتسير فى شوارع أومالى هــذه دون أن تنال تحية وابتسامة ترحيب من الجيران حتى دون سـابق معـرفة . وهــذا حال أغلب الاستراليين فيما عدا فى مدنها الكبرى سـيدنى وملبورن مثلا اللتين لا تختلفان عن مـدن أوروبا وأمريكا كثيرا ..

ومع ذلك فيعيب أهل سيدنى أو ملبورن على كانبرا أنه ينقصها «الروح» بمعنى أن جسدها جميل كما سبق شرح شكلها العام – لكن تنقصها الحياة فأهلها أقل من أن يملئوا شوارعها وحدائقها وتسهيلاتها لاترى أناسا يسيرون فى الشارع التى تبدو أنها خالية مهجورة معظم الوقت الا من السيارات فقد بنيت كانبرا ووضعت كل تسهيلاتها وخططت شوارعها وميادينها وأحياؤها بعين الاعتبار إلى المائة سنة القادمة .. – وفى هذه الاثناء – وفى انتظار السنين أو الحقب القادمة تبدو كانبرا وكأنها تنتظر هى الأخرى من يملأ فراغاتها ويجعل «الحياة تدب فى أوصالها الجميلة».

ورغم أن كانبرا جميلة حقا ونظيفة جدا وشديدة النظام إلى حد الكمال فإن سيدنى وملبورن بل وكل مدن استراليا الأخرى لا تقل عنها جمالا وحسنا وثراء .

واعتقد أن سيدنى من أجمل مدن العالم فقد أقيمت حول سلسلة لاتنتهى من الخلجان وهى تذكرنى بمدينة سان فرنسيسكو فى كاليفورنيا بالولايات المتحدة .. فى حين تذكرنى ملبورن باحياء لندن إلى حد كبير .. وقد اكتمل نمو سيدنى وملبورن منذ مائة وخمسين عاما .. أما أدلايد وبرزبين وبيرث فهى مدن حديثة أمريكية الطابع .. ومازالت فى طور النمو .

والاسترالى العادى تلقائى مفتوح السريرة Spontaneous سهل المعشر بسيط غير معقد كريم فى غير سفه دءوب كثير الاحتمال للمشاق - وهو يحب جميع أنواع الرياضة ومنها السباحة والغطس والتنس والكريكيت والبيسبول (الامريكية) والتزحلق على الماء والجليد كما يحب المعيشة فى الهواء الطلق أو الخلاء . وحين يأتى موسم الصيف تجد الناس جميعا زرافات ووحدانا فى البلاجات أو الحدائق العامة وقد دهشنا إذ رأينا كثيراً من الناس فى كانبرا (وغيرها من المدن) يمشون «حفاة الاقدام» - صيفا - فى الشوارع وفى المراكز التجارية كنوع من أنواع التحرر أو عبادة الطبيعة .. كما أن الرجال والنساء الاستراليين مولعون جدا بارتداء البنطلونات القصيرة (جداً) ويسمونها Stubbies «المقطوشة» وهى أقصر كثيراً من البنطلون القصير ..

هذا ويولى الاستراليون اهتماماً بالغا بصحة قارتهم الجديدة ولا يألون جهدا فى سبيل منع دخول الأمراض «والأوبئة» إلى استراليا من

بقية انحاء العالم وهكذا فقد دهشنا عند وصول طائراتنا إلى سيدنى (أو إلى ملبورن) قادمة من خارج استراليا ، فقد ابقوا جميع المسافرين فى الطائرة انتظاراً لوصول رجال الحجر الصحى ، وجاء هؤلاء .. عمالقة استراليون مثلما عرفهم الشعب المصرى زمن الحربين العالميتين الأولى والثانية .. يرتدون الشورتات Stubbies وقمصانا باكمام قصيرة فقد كان الوقت صيفا في نوفمبر .. وإذا بهم «يرشون» داخل الطائرة Spray بمادة كيمائية مثل الـ D.D.T. قوية نفاذة الرائحة لقتل الذباب أو الجراثيم أو كليهما .. ويظل المسافرون هكذا خمس دقائق أخرى بعد زيارة رجال الحجر الصحى حتى يسمح لهم بمغادرة الطائرة (١).

ومن مظاهر ديمقراطية الاستراليين الشديدة أن ملكتهم - ملكة استراليا وبريطانيا عوملت نفس المعاملة عند زيارتها لاستراليا .. كذلك من مظاهر ديمقراطية الاستراليين وبساطتهم الشديدة أن وزراء الدولة بل ورئيس الوزارة (٢) نفسه يركب سيارته الحكومية إلى جوار السائق

---

(١) عند الانتقال من ولاية استرالية إلى أخرى غير مسموح للافراد بنقل الفاكهة والمأكولات منعا لانتقال الامراض التى تهاجم الفاكهة والخضر وعند دخول استراليا من الخارج لا يسمح بتاتا بحمل المأكولات مع المسافرين القادمين من الخارج ..

(٢) أثناء وجودى فى استراليا كان حزب العمال هو الذى يتولى الحكم ورئيس الوزراء هو بوب هوك .

باستمرار ..فيما عدا الحاكم العام لاستراليا فهو يركب سيارته الحكومية في الخلف باعتباره ممثلا للملكة .. وهو الوحيد الذي يركب سيارة رولزرويس .. اما بقية الوزراء فيركبون سيارات صنعت في استراليا .. وليس هناك أي استثناء لهذه القاعدة .

وأثناء اقامتنا في استراليا ترددت الانباء وتناقلتها ألسنة الناس بأن ابنة رئيس الوزراء بوب هوك كانت تتعاطى المخدرات وأنها عولجت في إحدى المصحات حتى تقلع عن الادمان .. ومن شأن الانفتاح الشديد في المجتمع الاسترالي - مثله مثل أي مجتمع غربي حديث - أن يحدث هذا الأمر خاصة في الآونة الأخيرة لكن من شأنه أيضاً أن يظهر - وظهر فعلا - بوب هوك رئيس الوزراء على شاشة التليفزيون وهو يبكي ودموعه تسيل على وجنتيه ولم ينف الشائعات بل أكدها ونال عطف وتعاطف الاستراليين بصراحته وبمنظره كأب يجتاز تلك المحنة.

والواقع أن الاستراليين حكومة وشعبا يولون أشد الاهتمام إلى تربية وتنشئة أطفالهم .. فالتعليم مجاني حقا وكذلك العلاج في ارقى المستشفيات لكن الأطفال ينالون الوجبات في المدارس مجانا ولهم برامج تليفزيونية خاصة كما أنه لا يعدم مركز تجاري أو وسط المدينة أو أي حي من أحياء المدن من حديقة للاطفال تحوي ألعابهم ومراجيحهم واسباب تسليتهم .. مجانا وعلى نفقة الحكومة!

وإلى عهد ليس ببعيد كانت الحكومة الاسترالية توزع زجاجات اللبن الحليب على كل المنازل مجانا .. لكن تم الاستغناء عن هذا الكرم أخيرا بسبب «الضائقة الاقتصادية» ..

ولما كانت استراليا قد استقبلت - ومازالت تستقبل - آلاف المهاجرين سنويا من شتى انحاء العالم ومن أغلب الاجناس ولما كانت سياستها الرسمية هى العمل على انصهار كل هذه الاجناس تدريجيا فى بوتقة استراليا الحية ، فانها أى الحكومة الاسترالية - تعمل على جذب وربط اهتمام جميع الاجناس الوافدة وغير الناطقة بالانجليزية إلى برامج التليفزيون الاسترالى . ولأجل أن تكون هذه البرامج جذابة ومقبولة فإن لكل طائفة ولكل لغة من لغات الاجناس الوافدة برنامجا اسبوعيا بتلك اللغة ، يقدم أفلاما حقيقية مستوردة بنفس اللغة الاصلية وعليها الترجمة الانجليزية أما أغلبية البرامج اليومية فهى بالانجليزية بطبيعة الحال .. وجلوس أصحاب اللغات الأجنبية إلى التليفزيون لمشاهدة أفلامهم كفيل بأن يشدهم تدريجيا إلى مشاهدة بقية الافلام والبرامج الأخرى بلغات مختلفة أو مدبلجة بالانجليزية أو بالانجليزية.

كذلك هناك مدارس وكليات حكومية Colleyes مجانية لتدريس الطهى والتفصيل وعمل الفطائر والحلويات بالانجليزية لكن الاهم من هذا كله تدريس اللغة الانجليزية للمبتدئين من الاجانب .. وسوف يقبل

هؤلاء على تعلم الانجليزية تلقائيا ليستطيعوا تلقى وفهم بقية الدروس فى الطهى والتفصيل .. الخ بالانجليزية وكلها تدرس بالمجان وتتكفل الحكومة الاسترالية بجميع النفقات بما فى ذلك أصناف الطعام وأدوات الطهى والتفصيل فى تلك الدروس .. وقد لاحظت سيدات السفارة المصرية اللاتى حضرن بعض تلك الدروس أن عددا كبيرا من الحاضرات كن استراليات وسيدات من نيوزلاندة .. والأخيرات يتكلمن الانجليزية كلغتهن الاصلية طبعا لكنهن يحاولن الاستفادة من كرم الحكومة الاسترالية وسياستها الاجتماعية الكريمة .

ومما هو جدير بالتسجيل أن الشخص النيوزلاندى له حق دخول استراليا والعمل بها دون تصريح حكومى من استراليا وذلك للصداقة الشديدة والتعاون بين البلدين .. لكن استراليا أغنى من نيوزلاندة وأكثر كرما .. ومن هنا وجود عشرات آلاف النيوزلانديين فى استراليا .. قارة المستقبل !

جرت العادة فى كانبرا على أن يقوم السفير الاجنبى الوافد حديثا إلى استراليا بعد فراغه من زيارة رئيس الوزراء الفيدرالى وأهم الوزراء وكبار رجال الدولة – بسلسلة من الزيارات إلى الولايات الاسترالية الست (١) والاقليم الشمالى ، للتعرف إلى حكامه Governor فكل

---

(١) نيوساوث ويلز – فيكتوريا – تسمانيا – جنوب استراليا – غرب استراليا – وسط استراليا.

ولاية لها حاكم منتخب ونائب للحاكم منتخبا أيضا فضلا عن برلمان محلى منتخب هو الآخر .. ولكل ولاية قوانينها الخاصة وانظمتها الخاصة - مثلما فى أمريكا - أما الحكومة الفيدرالية فى كانبرا فهى مسئولة عن السياسة الخارجية والتجارة الخارجية وبمعنى آخر العلاقات الرسمية مع الدول تجارية وسياسية فضلا عن الاقتصاد الوطنى والدفاع .. ويحدث أحياناً كثيرة أن تكون الحكومة الفيدرالية فى كانبرا تمثل مثلا حزب العمال كما كان الحال فى حين قد تكون حكومة كونيرلاند مثلا تمثل الحزب الليبرالى (المحافظ) وهكذا ..

ومن هنا فقد زرت أنا وزوجتى جميع الولايات فى عواصم ولاياتهم .. وتشمل الزيارة الالتقاء بالحاكم فى مكتبه ثم زيارة رئيس البرلمان المحلى Speakser وبعض الوزراء المحليين وفقا لرغبة السفير الزائر وبما يتفق أيضا مع وقت كبار المحليين وتشمل الزيارات بالمثل جولات فى أهم معالم المدينة ومنشآتها الصناعية والاقتصادية والعمرانية .. وبديهى أنى اعجبت أشد الأعجاب بمدن استراليا الحديثة والجميلة وعلى رأسها سيدنى التى تشبه سان فرانسيسكو من حيث أنها بنيت على تلال وعلى شاطىء أو مجموعة من الخلجان تمتد أكثر من ثلاثمائة وخمسين كيلو متراً لأن شاطىء سيدنى شديد التعرج . وبها أحياء سكنية راقية شديدة الجمال كما أن بها ناطحات سحاب حديثة ، ومترو الانفاق . أما ملبورن فهى أشبه بلندن وتنقصها ناطحات السحاب

والروح الامريكية لكنها تستبدلها بالروح البريطانية فهى أشبه بلندن وبها الكثير من الحدائق وحلبات سباق الخيل والنوادى مهبط الطبقات الارستقراطية التى تلبس الأزياء الرسمية البريطانية مثلما فى تلك المناسبات (١) وفى ملبورن قابلت مدير الميناء وهو يونانى من مصر يتكلم العربية وقد احتفى بنا أشد حفاوة ..(٢)

إلا أن جميع مدن استراليا الباقية بريزبين وادلايد وبيرث وداروين وان كانت أقل من السابقتين فإنها جميعها تبدى مظاهر الثراء والنعمة الحديثة والنظام والنظافة وكل مدن استراليا الهامة سالفة الذكر تقع على الشواطىء .. فقد بدأ الاستراليون الاستيطان وتنمية القارة من الشواطىء أولا فى اتجاه وسط القارة (شديد الجفاف) ثانيا .

وتحضرنى لهذه المناسبة ذكرى زيارتنا إلى ولايات ثلاث أو أربع بسبب ملابسات خاصة .. ففى ولاية (جزيرة) تسمانيا اتسمت زيارتنا بطابع عائلى وجزيرة تسمانيا تقع جنوب شرقى استراليا ويربطها بملبورن وادلايد خط ملاحة، كما يربطها ببعض مدن استراليا خطوط طيران داخلى والمسافة حوالى الف كيلو متر تقطعها الطائرات فى حوالى الساعة من ملبورن أو سيدنى.

---

(١) محاكاة لسباق الخيل فى انجلترا .

(٢) كما توجد فى سيدنى جالية كبيرة ومنظمة لليونانيين من مصر يضمهم النادى اليونانى المصرى.

وكان حاكم تسمانيا SirJames Plimsol مندوبا دائما لاستراليا (سفيرا) فى الأمم المتحدة بنيويورك وكان لى شرف معرفته منذ تلك الايام .. فلما حانت فرصة زيارتى لتسمانيا كسفير لمصر وعرف سير جيمس بشخصيتى أصر على أن تنزل زوجتى وأنا فى ضيافته فى قصره الحكومى. وقد بنى القصر على الطراز الانجليزى القديم فى شكل قلعة Castle لكن ادخلت عليه من التحسينات من الداخل ما جعلته كقصر حديث به وسائل التدفئة الحديثة واسباب الراحة (١).. وكان الحاكم انسانا متواضعا كريما غير متزوج.. وطاف بنا بنفسه انحاء القصر والحدائق بل واخذنا فى سيارته الحكومية لنزهات فى جزيرة تسمانيا فزرنا مدنا صغيرة اخرى ومزارع لتربية الاغنام – ومزرعة منها حجمها مليون هتكار – ومصانع الصوف . وتتميز جزيرة تسمانيا عن كل استراليا بأنها تحتفظ للآن بالطابع البريطانى القديم .. منازلها من الحجارة الجيرية البيضاء Lime-stone مثل بعض الريف البريطانى تغطيها الاسقف الحمراء وريفها انجليزى الطابع هو الاخر .. اما مدينة هوبارت عاصمة تسمانيا فهى ميناء مهم ايضا وهى من اجمل مدن استراليا إذ انها بنيت على سفوح جبل مرتفع يطل على البحر وعلى خليج متسع فهى اذن من اكثر مدن

---

(١) عند وصولنا استقبلنا رئيس الخدم Dutlr وقادنا إلى غرفتنا ثم جاءت سيدة Roomuaid وعرضت على زوجتى فتح حقائبها واخراج ملابسنا وكيها .

استراليا «خفة دم» كما أن مناخها بحرى لطيف بعيد تماما عن حرارة سيدنى أو بريزبين صيفا أو قيظ داروين طوال العام.. وبهوبارت واحدة من اكبر مصانع شكولاته كادبورى فى استراليا والعالم .. كما أن بها جامعة قديمة محترمة..

ولما كنا فى ضيافة الحاكم سير جيمس فكنا نشاطره مائدة الافطار والغداء والعشاء .. الا أنه ذات يوم اقام لنا مأدبة غداء «رسمية» أو شبه رسمية واراد أن يكرمنا فقرر دعوة المصرى الوحيد المقيم فى هوبارت هو وزوجته .. ولم نكن نعرفه بل لم تكن سفارتنا تعرف بوجود مصرى فى هوبارت أصلا ولما حان وقت الغداء فوجئنا بدخول شاب مصرى ملتحٍ ويلبس حلة غربية لكنه يلبس ايضا لباس رأس «اسلاميا» .. أما زوجته فكانت ترتدى زيا اسلاميا طويلا محتشما وان كانت لم تغط وجهها .. لم يكونا يعرفان الا قليلا جدا من الانجليزية.. لا يكفى للحديث مع الحاكم الاسترالى ولا مع ضيوفه الاستراليين.. فكان لزاما علىّ أنا وعلى زوجتى القيام بالترجمة .. ولما دار علينا الخدم باطباق الطعام لنغرف منها فى اطباقنا نحن على الطريقة الغربية مثلما يحدث فى الحفلات الرسمية لم تكن السيدة على علم بمثل هذا الاتيكيت.. وكانت تسأل زوجتى بدهشة أو خوف عن كل الاصناف المقدمة اليها خشية ان يكون احدها غير محلل للمسلمين والواضح ان أصناف الطعام الغربية لم تعجبها أو لم تعتدها من قبل ويبدو لنا مع الأسف أن الحاكم

نفسه احرج بسبب تسرعه بدعوة هذا الضيف المصرى دون سابق معرفة به .

أما ماذا كان يفعل هذا المصرى فى هوبارت فهى قصة جديرة بالتسجيل .. لقد نال الثانوية العامة من مصر ثم نال منحة دراسية اسلامية إلى السعودية حيث درس الفقه وآداب الاسلام وتعاليمه .. ثم أوفدته السعودية إلي هوبارت ليشرف على شراء وشحن آلاف الخراف - حية - من تسمانيا إلى السعودية قبل موسم الحج طوال العام أما الخراف المذبوحة المرسلة إلى السعودية فكانت مهمته أن يشرف على ذبحها «بالطريقة الاسلامية» وشحنها على البواخر الثلاجات إلى جدة . فكان اذن موظفا سعوديا موفدا فى تلك المهمة .. لكنه احتفظ بجنسيته المصرية ومن ثم دعى إلى قصر الحاكم!!

أما الزيارة الثانية التى مازالت تطوف بخاطرى أحياناً فكانت بريزبين عاصمة كوينزلاند حيث قابلت الحاكم وكان من الحزب المعارض الليبرالى أى المحافظ Sir Joh Bielkc Petersen وهو من أصل اسكندناوى كما يدل اسمه .. وهو من الشخصيات السياسية الاسترالية المعروفة بشدة الذكاء وطول البقاء فى مراكز سياسية حساسة وقد ظل حاكما لكوينزلاند جيلين كاملين وشاهدنا فى مدينته الاستعداد لاقامة معرض بريزبين الدولى وهو إن دل على شيء فعلى ثراء ولاية كوينزلاند وسرعة تقدمها .. ثم اقرضنا سيارة حكومية من الولاية طافت بنا فى

الساحل الذهبى The Gola Coast الذى بنى ليشابه أو ليحاكى ساحل ميامى فى فلوريدا .. من حيث الفخامة والجمال وعدد ناطحات السحاب المطلة على الشاطىء وروعة الاستعدادات والمطاعم والفنادق .. انها قطعة من الولايات المتحدة فى استراليا .. وهى ظاهرة لاحظنا تكرارها كثيرا ..

وزرنا مزرعة يملكها أحد وزراء ولاية كوينز لاند لزراعة الفاكهة وأبدينا دهشتنا لكبر حجم الفاكهة «القشطة» فما كان من الوزير إلا أن وعدنا بارسال كمية منها إلى منزلنا فى كانبرا حين يتم نضج الفاكهة . وفعلا تلقينا كمية من القشطة بعد شهر أو أكثر .. الواحدة منها فى حجم البطيخة !! وهى قليلة البذور من الداخل كثيرة «اللحم» حلوة المذاق .. بل رائعة المذاق!

ومن زياراتنا التى مازلنا نحتفظ بذكراها زيارتنا إلى ولاية جنوب استراليا ومدينة ادلايد . وهناك شاهدنا عددا كبيرا من الاستراليين الاصليين (١) Aborigines وهم مع الأسف يعيشون عيشة كسل وضياع على هامش المجتمعات الاسترالية ويدعو منظرهم للشفقة والاسف حقا .. كما زرنا وادى Barrossa Vallev وهو شديد

---

(١) انقرض عددهم ولم يبق منهم سوى مائة وخمسين ألفا تقريبا فى كل استراليا وتدل الاحصاءات الاسترالية الرسمية أن متوسط عمر الواحد منهم يقل بمعدل ٢٢ عاما عن متوسط عمر الاسترالى الأبيض وانهم جميعا يعيشون فى مستوى أقل من الحد الرسمى للفقر فى استراليا .

الخصب ويشتهر بالاعناب من مختلف الأصناف وأثناء تجوالنا بالسيارة لم نشاهد سوى حقول العنب لمدة ساعات طويلة .. ولذا قامت به صناعة الانبذة الاسترالية الفاخرة التي ادخل انتاجها فى استراليا اساتذة وخبراء ألمان وإيطاليون .

ومن ثم تنتج استراليا أنواعا من خيرة الانبذة البيضاء والحمراء .. بل ومن الشمبانيا أيضا .. وقد نشطت فى استراليا «صناعة البيرة والانبذة والشمبانيا» «خالية الكحول» .. وقد أمكن الاحتفاظ بمذاق الشراب الأصل رغم خلوه تماما من الكحول .. وقد اقام أحد المهاجرين الالمان صناعة انبذة باتت من أشهر وانجح الانبذة الاسترالية والعالمية اسمها «قصر يلدرا» Chateau Yldara وبنى قصرا قديما ومتحفا اثريا ملأه بالاثار والتحف النادرة حتى يصبح قصرا Chateau جديرا حقا بالتسمية !!

وإلى جانب تلك المنطقة توجد صناعات انبذة استرالية جيدة بيضاء وحمراء فى نيوساوث ويلز وغرب استراليا بالمثل .

وقد تناولنا طعام الغداء ذات مرة فى عزبة نائب حاكم جنوب استراليا وكان يزرع الأعناب هو أيضا .. وكان متزوجا من سيدة لبنانية مازالت تتكلم العربية وإن كان هو ألمانى الأصل .

ويقودنا هذا الحديث عن الجاليات العربية .

فأكبر الجاليات العربية فى استراليا هى الجالية اللبنانية ويقدر عددها بأكثر من مائتى ألف شخص وتليها الجالية المصرية وتعداد المصريين في استراليا حوالي الخمسة والأربعين ألف مواطن معظمهم من اخواننا الاقباط .. ومعظمهم يعيش أما فى منطقة سدنى أو ملبورن وان كان البعض القليل أيضا فى مدن أخرى منها كانبرا .. وهم موضع رضاء واحترام السلطات الاسترالية لجديتهم ونشاطهم ولبعدهم عن السياسة!! وليس بينهم مليونيرات ولا تجار كبار .. بعضهم نجح فى عالم الطب واشتهر .. فى سيدنى وكانبرا .. أتوا جميعا حاملين حقائبهم فقط إلى جانب شهادتهم العلمية والعزيمة الصادقة والجلد والصبر امام المكاره وكثير من امتحانات المعادلة!! وفى بحر عشر سنوات اشتروا منازلهم التى يقيمون فيها وسياراتهم .. واصبحوا فى عداد المنعمين .. لكن غالبية المصريين يعملون كموظفين أما فى الحكومة الاسترالية (التعليم أو البريد - أو النقل والمواصلات) أو فى الشركات .

وقد زرت الجاليات المصرية فى سيدنى وملبورن (١) أما فى سيدنى فقد اقامت جالياتنا القبطية بها أربع أو خمس كنائس فى أحياء مختلفة زرت بعضها وكم كانت سعادتى برؤية مظاهر الوئام والسعادة

---

(١) افتتحت مصر قنصلية عامة مصرية فى كل من سيدنى وملبورن لرعاية شئون الجاليات المصرية بهما .

والانتعاش وحسن النظام .. كما زرت ناديا لجماعة أخرى من المصريين المسلمين فى سيدنى ..

أما فى كانبرا فتوجد حوالى عشرين أو ثلاثين عائلة مصرية أغلبها مرة أخرى من اخواننا الاقباط ونسبة كبيرة من رجالاتها من الاطباء الناجحين ورجال الأعمال وكنا نخرج فى رحلات خلوية تضم كل المصريين مسلمين واقباطاً فى العطلات الرسمية فى احدى حدائق كانبرا العامة المطلة على بحيرة كانبرا ..

بقى أن أصف للقارىء زيارتى إلى شمال استراليا وهى ليست ولاية لكن يسمونها الاقليم الشمالى باعتبارها لم تنضج بعد النضج الكافى لكى تصبح ولاية .. فمجموع سكانها حوالى مائة ألف فقط أغلبهم يعيش فى داروين (٦٠ الفا) .. ورأينا بها عددا كبيرا من السكان الاصليين أيضا .. فى حالة من الضياع (١) وتقع داروين فى المنطقة المدارية الحارة، وبها غابات كثيفة مدارية وانهارها مليئة بالتماسيح الضخمة (كما ان شواطىء استراليا على المحيط الهادىء مليئة بسمك القرش الضخم ومن هنا تقيم الحكومة شبكات من الفولاذ – داخل الماء – حول الشواطىء لحماية المستحمين فى الشواطىء الرسمية أما من

---

(١) قررت الحكومة الاسترالية تعويض بعض السكان الاصليين عن الاراضى التى انتزعت من قبائلهم لفرض استخراج اليورانيوم .. هكذا اصبحوا من الأغنياء لكنهم ينفقون كل نقودهم على الخمر والعربدة .. فلا يوجد شىء أخر يفعلونه .

يجازف بالنزول إلى الماء للسباحة فى شواطىء غير مؤهلة فهو المسئول عن نفسه . وقد حدث ذات مرة ان نزل أحد رؤساء وزراء استراليا داخل الماء ليلا ولم يبد له أى أثر..

ورغم أن مدينة داروين صغيرة فإنها خفيفة الدم وحديثة ونامية وتبدى مظاهر اهتمام السلطات بتنميتها .. واهم ذكرياتنا بها اننا اكتشفنا وجود رجل أعمال مصرى بها متزوج من سيدة يابانية واسمه ماجد أبو طالب .. وقد دعانا إلى منزله للعشاء عندما علم بوجودنا من الصحف .. وتناولنا فى منزل هذا الصديق المصرى طعاما يابانيا رائعا!!

وفى داروين وقريبا منها Cackadoo National Park زرنا اثار استرالية قديمة بدائية يعتز بها الاستراليون البيض كما زرنا متحفا بحريا واقليميا محترما بالنسبة لهذه المدينة الصغيرة .. ونادبا ومطعما ملاصقا للمتحف أودلو وجد مثلهما فى القاهرة !!

لكن أكثر ما تميزت به هذه الزيارة جولتنا فى احراش مدارية من أجل رؤية بعض الطيور الغريبة Gibbarroo والنباتات والتماسيح فيها ..

ثم دعينا لزيارة مناجم ومعامل تنقية اليورانيوم .. ووضعت الحكومة تحت تصرفنا طائرة صغيرة تتسع لخمسة أفراد فقط طارت بنا من

داروين إلى المناجم لمدة نصف ساعة وكانت تهتز بنا اهتزازا عنيفا .. ومخيفا .. ولم نجرؤ على الاعتذار عن ركوب هذه الطائرة .

ثم جاءت زيارتنا لمناجم اليورانيوم فكشفت لنا عن مدى التحام مصالح استراليا بالولايات المتحدة والغرب إذ أن كل ناتجها من اليورانيوم يعد للتصدير اليها .. ثم ركبنا نفس الطائرة فى رحلة العودة إلى داروين وكنا ندعو الله ألا تسقط بنا تلك اللعبة فى إحدى الغابات المخيفة كما أسلفنا !!

ومن داروين إلى كانبرا أربع ساعات كاملة بالطائرات مع التوقف فى مطار مدينة أليس سبرنجز وسط استراليا .

ومن أهم معالم هذه الرحلة الطيران فوق Ayers Rock الشهيرة وهى عبارة عن صخرة هائلة الحجم - كيلو مربع - من الحجر الصلد ومتوسطة الارتفاع - ٢٠٠ متر تقريبا - وسط الصحراء الجرداء المنبسطة تحت الصخرة الهائلة .. لكن أجمل مافي الأمر هو رؤية الصخرة فى ضوء شمس الشروق أو شمس الغروب .. عندئذ يكون لونها أحمر برتقاليا قانيا شديد الجمال حقا ..

ويحج كثير من الاستراليين اليها ويتسلقها بعض الرياضيين منهم وهى عملية شاقة تكتنفها بعض المخاطر لأنها صخرة ملساء عمودية الارتفاع .. أما نحن الأجانب فقد اكتفينا برؤيتها من الطائرة .

من المعالم التى تستحق حقا المشاهدة والزيارة عن كثب أوبرا سيدنى واوبرا ملبورن بل اوبرا أدلايد أيضا . وقد تناولت زيارتى اليها بحث امكانية عرض التحف المصرية القديمة بها وهو ماحدث فعلا وان كان بعد مغادرتى .. والأولى فى سيدنى على حافة مياه ميناء سيدنى الشهير ومن حولها ومن ورائها ناطحات السحاب والمياه الزرقاء .. لكن تصميمها على يد أحد كبار المعماريين العالميين هو الذى اجتذب ويجتذب اليها جميع الانظار .. فانها تبدو من البحر وكأنها سرب من سمك القرش يسبح فى المياه وقد ظهرت أطراف ذيول سمك القرش زعانفه بيضاء ناصعة تضوى تحت الانوار بشكلها المعروف وسط المياه .. أما من الداخل فهى تحفة فى الاناقة والجدة وقد حضرنا فيها عرضا لأوبرا نورما Norma لبللينى .. ومن محاسن هذه الدار أن خشبة المسرح تعلوها شاشة كبيرة الكترونية تظهر عليها بالاضواء ترجمة إلى الانجليزية الاغنيات الايطالية التى يترنم بها مغنو الاوبرا الايطالية – أولا بأول – من أجل تقريبها إلى اذهان الجمهور الاسترالى .. ومن هنا جاء استمتاعى بهذه الاوبرا مضاعفا لهذا السبب ..

كذلك فان دار أوبرا مدينة ملبورن أكثر من دار أوبرا .. أنها مركز للفنون به دار أوبرا فسيحة ، صالتان اخرتان للعروض الاصغر حجما، كما أنه يجاورها متحف ملاصق لفنون الرسم والتصوير .. وكما هو الحال فى سيدنى ، أو كما هو حال المنافسة الدائرة على أشدها ما بين

سيدنى وملبورن فان مركز الفنون فى ملبورن لايقل روعة وفخامة وحداثة عن مثيله في سيدني .. وقد أبدى نفس اهتمام سيدني بعرض تجف توت عنخ أمون بهذا المركز ..

أما مدينة أدلايد فهى أصغر حجما من المدينتين السالفتى الذكر كما أنها أحدث عهدا ومع ذلك فقد اقامت هى الأخرى مركزاً للفنون تفخر به أى مدينة أوروبية ثرية ..

حتى كانبرا – العاصمة – وتعدادها لا يتجاوز مائتى ألف أو ربع مليون نسمة فقد أقيمت فيها أيضاً دار لعروض الاوبرا والسيمفونيات الموسيقية تشجيعا لجمهور كانبرا على الاستمتاع بهذه الفنون التى يقبل عليها الجمهور الاسترالى بشغف شديد .. فرغم ولع الاستراليين الواضح بالرياضة والحياة الخلوية والبساطة فى المعيشة فإن اقبالهم على القراءة والاستمتاع بالفنون يعادل حبهم للرياضة والمعيشة الخلوية .. ومن هنا فقد وجدنا كثيرين من جمهور كانبرا يحضرون حفلات الاوبرا والسمفونيات بلباس الرياضة أو بالبنطلونات الشورت والقميص ذى الاكمام القصيرة ايضا !! إلا أن البعض الآخر يميل إلى محاكاة البريطانيين في زيهم الرسمى !! لكن من صفات المجتمعات الاسترالية البساطة وعدم التكلف .

والواقع أنه اثناء جولاتى الرسمية فى ولايات استراليا كانت الولايات تضع سيارة حكومية تحت تصرفنا يقودها سائق من أهل

الولاية .. وكنت أجد في حديثي مع هؤلاء السائقين مصدرا مفيدا لمعلوماتي عن الولايات وحكوماتها واهلها وعن استراليا بصفة عامة .. فكنت اشجعهم على الاسترسال في الحديث طوال رحلاتنا ونزهاتنا. وقد دهشت كما دهشت زوجتي لعمق معرفة هؤلاء السائقين البسطاء لأدق تفاصيل الحياة في استراليا .. كانوا مثقفين ثقافة عالية كما كانوا على دراية بنمط الحياة الغربية الراقية .. وعندما كنا ندخل أحد المطاعم للغداء كنا نجلس معهم – ومع الحاكم أو نائب الحاكم – أحياناً على مائدة واحدة أو على موائد متقاربة لأن الاستراليين شديدو البساطة والديمقراطية .. وكان السائقون يتصرفون ويأكلون ويشربون كأحسن رجال الدبلوماسية .. ولا عجب إذن أن الوزراء الفيدراليين في كانبرا بل ورئيس الوزراء نفسه درجوا على الجلوس إلى جانب سائقيهم في السيارات الحكومية !!

استراليا ومصر:

بدأ التعارف بين الشعبين المصرى والاسترالى في الحرب العالمية الأولى حين شارك الآلاف من الاستراليين في الجيوش البريطانية المرابطة في مصر .. وتكررت هذه الظاهرة أيضا في الحرب العالمية الثانية ولم تكن هاتان المناسبتان اسعد أو أفضل المناسبات لتعريف شعبينا أو لتقاربهما .

وبنهاية الحرب العالمية الثانية ثم بتأميم مصر لقناة السويس كان

من المنتظر حدوث بعض سوء الفهم بين البلدين خاصة وانه كان يحكم استراليا حينذاك حكومة محافظة شديدة الولاء لبريطانيا وكان على رأسها روبرت منزيس الذى أبدى كثيرا من التعاطف مع انتونى ايدن فى لندن ..

بعد ذلك فبزوال اسباب سوء الفهم بين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وروبرت منزيس سنة ١٩٥٦ تطورت العلاقات السياسية بين البلدين إلى الأحسن وذلك تبعا لزيادة مظاهر استقلالية استراليا عن بريطانيا من ناحية ولاتباع الرئيس الراحل أنور السادات لسياسته السلمية الواقعية من ناحية أخرى .

وأصبحت استراليا من أشد المؤيدين لموقف مصر من كامب دافيد ، كما وجدت الحكومتان نفسهما فى مركز اتفاق تام على أغلب المشاكل العالمية الأخرى ومنها مشاكل نزع السلاح وغزو السوفيت لافغانستان وضرورة تصفية الاستعمار والابارتايد (واستراليا من اشد انصار تصفية الاستعمار والتفرقة العنصرية وتختلف تماما مع بريطانيا فى هاتين المسألتين) كما لم توافق استراليا الولايات المتحدة على غزوها لجرينادا .. وهكذا ..

ورغم تأييد استراليا لسياسة مصر تجاه أزمة الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية فإنها تحتفظ بعلاقات طيبة مع اسرائيل بحكم

الصلات الوثيقة التى تربط حزب العمال الاسترالى بالحركة العمالية الاشتراكية (الهستادروت) فى اسرائيل .. ومع ذلك فان استراليا تدين ممارسات اسرائيل القمعية ضد الفلسطينيين وتعترف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وسمحت لاستراليا من أصل فلسطينى بافتتاح مكتب إعلام فلسطينى فى استراليا !!

وقد ابدت استراليا استعدادا رسميا للتعاون النووى مع مصر فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة النووية ونقل المواد النووية الى مصر خاصة أن استراليا تملك اكبر احتياطى من مادة اليورانيوم فى العالم .. لكن مصر ابدت وتبدى الى الآن الكثير من التردد فى الاقدام على انشاء المحطات النووية لما يكتنفها من مخاطر ويبدو أنه قد فتر حماسها الأولى بسبب مخاطر تلك المحطات ..

واذا كانت العلاقات السياسية بين البلدين إذن طيبة للغاية فإن علاقاتهما الاقتصادية والتجارية ممتازة حقا .. فمصر ثانية اكبر عملاء استراليا فى الشرق الأوسط (بعد السعودية) وهى بلا منازع اكبر عملائها من حيث صفقات القمح اذ تستورد مصر منه ماقيمته ٤٠٠ مليون دولار من القمح سنويا وقد تعاقدت بصفة مستمرة معها منذ عشرين عاما على شراء عشرة ملايين طن من القمح فى كل صفقة - فى بحر مدة خمس سنوات محددة تتكرر منذ السبعينات .. كما تستورد مصر من استراليا ماقيمته مائة مليون دولار من الصوف واللحوم

والفحم والألومنيا .. سنويا .. أما صادرات مصر إلى استراليا فلا يؤبه بها كثيرا إذ تكاد تكون منعدمة ، والعبء يقع على مصر لاصلاح هذا الخلل طبعا ..

كانت مهمتى كسفير لمصر فى استراليا ذات شقين ، شق سياسى والآخر اقتصادى ولم تكن بالمهمة السهلة مثلما تصورت أول الأمر .. ،

فكان الشق السياسى يقتضى اقناع المسئولين الاستراليين بابقاء الكتيبة الاسترالية التى شاركت فى القوة المتعددة الجنسيات، ابقائها فى سيناء بعد اتفاقية السلام مع اسرائيل وكان الحزب الليبرالى (أى المحافظ) هو الحزب الذى أوفد الكتيبة الاسترالية للاشتراك فى القوة متعددة الجنسيات وهى وإن كانت قوة سلام دولية الا انها اوفدت خارج نطاق الأمم المتحدة وذلك لمعارضة الاتحاد السوفيتى اقامة قوة سلام دولية تابعة للأمم المتحدة لهذا الغرض بالذات ..

ومن هنا فقد اتخذ الحزب العمالى الاسترالى موقف المعارضة لاشتراك استراليا فى هذه القوة باعتبارها خارجة عن نطاق الأمم المتحدة ومن جهة أخرى كان هذا الحزب يخشى أن يؤدى اشتراك استراليا فيها الى عدم رضاء الدول العربية التى كانت تعارض اتفاق السلام المصرى الاسرائيلى ، عدم رضائها عن اشتراك استراليا فى هذه العملية . فى حين أن عددا من هذه الدول العربية (السعودية - العراق - ليبيا) من اكبر عملاء استراليا اقتصاديا ..

ومن هنا فعندما تولى حزب العمال الاسترالى زمام الحكم أعلن انه سيسحب الكتيبة الاسترالية ولن يجدد مدة بقائها بعد انقضاء تلك السنة .

لكن أمكن لمصر اقناع حزب العمال الاسترالى بتجديد مدة بقاء الكتيبة الاسترالية لفترة سنة جديدة .. وحاولت أنا دون جدوى - اقناعهم بمد مدة بقائها فترة ثالثة بعد ابريل ١٩٨٦ لكن كانت الحكومة الاسترالية العمالية قد وعدت البرلمان رسميا بسحبها بعد ابريل ١٩٨٦ ومن هنا لم نتمكن من زحزحة الحكومة عن قرارها المعلن رغم محاولاتنا المضنية لكن سحب تلك الكتيبة كان مرسوما ومعلنا ولم يكن له أثر فى واقع الأمر على حسن علاقات مصر باستراليا بل ان استراليا شجعت حكومة فيجى الصديقة على استمرار ابقائها للكتيبة الفيجية فى سيناء وحتى الآن .

أما الشق الاقتصادى لمهمة سفير مصر فى استراليا فكان أبعد أثرا وأكثر صعوبة عن الشق السياسى وعما تصورت أول الأمر كان الميزان التجارى كما هو واضح فى صالح استراليا - ٤٠٠ إلى ١ - لكن عبء اصلاح ذلك الخلل كان يقع على مصر فلابد أن تجد مصر أولا ما يمكنها تصديره الى استراليا ثم العمل بعد ذلك على اقناع استراليا بشرائه .

ومن هنا حاولت جهدى تخفيف وطأة ذلك الخلل الاقتصادى بتشجيع

سياحة الاستراليين الى مصر. وكان يقف حجر عثرة دون ذلك بعد الشقة وانعدام خطوط الطيران المباشرة من استراليا الى مصر على الطائرات المصرية او الاسترالية . حاولت اقناع شركة كوانتاس Qan-tas الاسترالية بتسيير خط طيرانها عبر القاهرة ولو مرة واحدة اسبوعيا لكن قالوا ان دراسات الجدوى اثبتت عدم فائدة ذلك تجاريا . ثم حاولت اقناع شركة مصر للطيران بتسيير إحدى طائراتها الى سيدني مرة اسبوعيا لخدمة المصريين فى استراليا وعددهم حوالى ٤٠ ألف مواطن ولخدمة السياحة الاسترالية الى مصر ولم تنجح محاولاتى منذ سنة ١٩٨٥ إلا فى الآونة الاخيرة فقد قرأت بمزيد من السرور اخيرا ان مصر للطيران قررت تسيير احدى طائراتها الى سيدني اسبوعيا بدءاً من منتصف التسعينيات..

ومع ذلك فإن العبء الاكبر فى ذلك الشق الاقتصادى كان يكمن فى مناسبات تجديد عقود صفقات القمح الاسترالي الى مصر.. وآية ذلك ان مصر تعتمد ـ من أجل عقد صفقات القمح مع استراليا ـ على قبول استراليا منح مصر «تسهيلات ائتمانية» او باللغة الدارجة منح مصر قروضا تقدر فى المتوسط فى الصفقة الواحدة بحوالى ٢٥٠ مليون دولار تتمكن مصر بموجبها من شراء القمح الاسترالى وتسدد مصر هذه القروض الى استراليا على خمس سنوات فى المتوسط بفائدة معقولة ومعتدلة..

وعند وصول وزير التموين المصرى الى استراليا سنة ١٩٨٥ لتجديد صفقة القمح وكان الوزير د.ناجى شتلة لم تكن مصر قد سددت بعد دينها السابق على استراليا بل كان لايزال على مصر سداد بعض الاقساط المتأخرة .

ومن ثم توجه الوزير ناجى شتلة برفقتى لمقابلة مستر بل هايدن وزير خارجية استراليا فى ذلك الحين ، وقد اصبح حاليا الحاكم العام لاستراليا - فى مكتبه بمبنى البرلمان (١).

وقد شرح د . شتلة لبل هايدن مدى حاجة مصر لمساعدة استراليا من أجل اتمام صفقة القمح الجديدة وذلك لما هو معروف من صداقة وتعاون البلدين ولأن مصر من عملاء استراليا التقليدين .. فإننا فوجئنا برد بل هايدن على حديث الوزير د . شتلة رداً باردا مقتضبا فيه لهجة القطع بأن استراليا قد اتخذت سياسة تقشف هى الاخرى بسبب الكساد الاقتصادى وانها لا يمكنها تحسين معاملتها لمصر أو معاملتها معاملة استثنائية بزيادة مساعداتها .

وكاد الجو يتكهرب وكادت المقابلة تنتهى على هذا النحو فقد ساد القاعة صمت ثقيل من وقع هذه الكلمات واللهجة الباردة القاطعة التى صاحبتها الا أنه كان على الدبلوماسية ان تسارع الى مد يد المساعدة

---

(١) وفقا للنظام البرلمانى البريطانى والاسترالى فإن جميع الوزراء يختارون من بين اعضاء البرلمان أصلا .

للسياسة . كان لزاما على سفيرْ مصر أن يعزز محاولة الوزير د . شتلة وان يتجاوز لهجة هايدن الباردة فتدخلت فى الحديث موجها كلامى الى بل هايدن قلت ان المسألة لها وجهان فقد شرح الوزير د . شتلة الوجه الاقتصادى والتجارى لعلاقات مصر واستراليا وكان المفروض أن يكون سببا كافيا بسبب قوة واستمرارية علاقاتنا التجارية لكن للمسألة وجها سياسيا آخر .. وقد يفوق الوجه الاقتصادى أهمية فى اللحظات الحالية.. إن مصر قد اتخذت سياسة السلام مع اسرائيل فى وجه مقاومة عنيفة جدا من بعض اخواتها الدول العربية وان المتربصين بمصر كثيرون ويريدون لها الفشل كما يريدون لتجربة السلام الرائدة ان تتحطم لكن استراليا من أصدقاء مصر ومن الدول المحبة للسلام والمساندة لتجربة السلام المصرية فى الشرق الأوسط .. وإذا أرادت استراليا لمصر ان تستمر فى سياستها السلمية وإذا أرادت لتجربتها أن تنجح فلابد أن تبذل استراليا جهدا استثنائيا هى الاخرى لمساعدة مصر على التغلب على العقبات السياسية والاقتصادية التى تواجهها حاليا والا كانت العاقبة وخيمة فى الشرق الأوسط .. وإلا انتكست تجربة السلام والحلول التفاوضية فى العالم اجمع .

ثم مضيت أقول .. إن مصر اليوم فى حاجة الى مساندة جميع اصدقائها وعند الشدائد يعرف الاصدقاء .. سوف تحكم مصر على استراليا ان كانت صديقة حقا لمصر أم لا من المواقف التى سوف

تتخذها استراليا لمساعدة مصر من الآن فصاعدا من أجل اجتياز ضائقتها الاقتصادية الملحة .. وتأمل مصـــر الا تخيب استراليا رجاءها ؟!!

وكان بل هايدن ود . شتلة يستمعان الى كلماتي بانتباه شديد وعيونهما مركزة عليّ .وما أن انهيت هذا الحديث الا وقد احسست بتغيير جو المقابلة توا وتماما ، فتبدل من البرودة والجفاف الى الحرارة بعد أن لاحت الابتسامة على وجه وزير استراليا ومن بعده على وجه د . شتلة ووعدنا بل هايدن بان يعيد عرض الأمر على مجلس الوزراء .. فى النهار نفسه .. وسوف يخطرنا بقرار المجلس فور اتخاذه .

ولم تلبث النتيجة أن ظهرت قبل انصرام ذلك اليوم نفسه فى شكل التعليمات التى تلقاها وفد استراليا فى مباحثات الصفقة الجديدة للقمح، وقد أحس د . شتلة نفسه بتحسن جو المفاوضات مع الوفد الاسترالى .

وجاءت النتيجة لتعزز ذلك فقد تميزت صفقة سنة ١٩٨٥ التى نجح الوزير د . شتلة فى ابرامها بزيادة مساعدات استراليا الى مصر زيادة واضحة عن السنوات الماضية رغم سياسة التقشف الاسترالية الجديدة .. وتعاقد د . شتلة على شراء ٢ مليون طن سنويا على مدى خمس سنوات ووافقت استراليا على منح مصر قرضا جديدا قدره ٢٥٧ مليون دولار لشراء صفقة القمح الجديدة رغم أن مصر لم تكن قد سددت

بعض اقساط القرض الماضى !! بل أن مصر نالت القرض الجديد بشروط ميسرة افضل من اسعار السوق العالمية وحددت استراليا سعر القمح ذلك العام بثمن يقل عن سعر السوق العالمية بحوالى اربعين دولاراً للطن الواحد .

كما وافقت استراليا على بناء ثلاث صوامع لحفظ الغلال فى مصر كهدية من استراليا خلال الاعوام الخمسة التالية بتكاليف قيمتها ١٥ مليون دولار اضافية على نفقة استراليا !

أى ان مجموع التسهيلات والمساعدات (بخلاف القرض) بلغت ٥ر٥٧ مليون دولار ثم وافقت استراليا فوق ذلك على زيادة منحتها من القمح لمصر (كهدية) الى خمسين الف طن (١) من القمح تنالها مصر كهدية مع صفقة القمح التالية أى سنة ١٩٩٠ .

هذا ولا يفوتنى أن اسجل أن جانبا لا يقل اهمية عن الشقين الاقتصادى والسياسى من مهمة سفير مصر فى استراليا هو رعاية شئون الجالية المصرية الكبيرة فى استراليا وتوثيق روابطها بالسفارة المصرية وبالقنصليتين المصريتين فى سيدنى وملبورن وعن طريقهما بالوطن الأم ، وضمان استمرار اهتمام ابناء مصر باستراليا بشئون ورفاهية الوطن الأم وضمان استمرار حسن العلاقات والروابط فيما بين ابنـاء وطوائف الجالية المصرية نفسها ..

---

(١) بدلا من اربعين الفا فى الصفقات السابقة .

وقد سبق التنويه الى أن غالبية المهاجرين المصريين الى استراليا من الاخوان الاقباط .. وقد صادف وصولى الى استراليا استفحال الازمة ما بين السادات وغبطة البطريك ومن ثم كان الشعور السائد بين ابناء الطائفة القبطية فى استراليا غير موات لمصر ولا لإقامة علاقة الالفة والصداقة مع السفارة المصرية .

لكنى استطيع أن اؤكد بعيدا عن الافتخار والزهو وانما بكل امانة أني وفقت رغم ذلك لاقامة احسن الصلات واوثقها مع زعماء وافراد الجاليات القبطية فى استراليا حتى فى هذه الفترة الحرجة فزرت كنائسهم فى سيدنى وملبورن واستقبلت فى منزلى الكثيرين منهم ، وخرجت معهم فى رحلات خلوية فى كانبرا وسيدنى وتبادلنا الدعوات للغداء أو العشاء فى منازلهم .. وكنت همزة الوصل بين زعماء الطائفة والرئيس السادات إذ انى أوصلت اليه (١) رجواتهم المتكررة بان يترك البطريك يزاول مهام الكرازة المرقسية من جديد وتشاء المصادفات ان لم يمض شهر واحد على ذلك الا وقد عاد البطريك الى مزاولة مهام كرازته، وقد زاد هذا من التفاف الجاليات القبطية والمسلمة حول السفارة

---

(١) كنت أنا وزميلى قنصل مصر العام فى سيدنى السفير سمير كامل فى حفل غداء مع ابناء الطائفة القبطية فى سيدنى حينما تسلمت رجاءهم فى شكل مذكرة مرفوعة الى الرئيس السادات وقمت بالابراق بها الى رئاسة الجمهورية فى مصر نفس النهار .. ولم يمض شهر واحد على ذلك إلا وقد حقق السادات امانى الطائفة القبطية فى استراليا .

المصرية والحمد لله ومازالت تجمعنى بالكثيرين منهم علاقات الأخوة والصداقة بعد مفارقتى لاستراليا !

وعند مغادرتى لاستراليا بسبب بلوغى سن التقاعد فى نوفمبر ١٩٨٦ كانت احسن هدية نلتها جزاء خدمتى فى استراليا الى جانب الذكريات الجميلة عن تلك الاقامة الرائعة هى احتفال الجاليات المصرية بوداعى وزوجتى - فكرمتنى الجاليات المصرية فى سلسلة من الحفلات فى بعض فنادق كانبرا حضرها كل افراد الجالية المصرية فى العاصمة واعضاء سفارتنا . كما ودعتنى الجالية المصرية فى سيدنى فى حفل آخر . وكان اعضاء الجالية اليونانية من مصر قد سبق ان شرفونى باقامة حفل تكريم لى فى ناديهم فى سيدنى القيت فيه خطب من افراد يونانيين باللغة العربية !

ومحصلة القول انه يحق لى أن احتفظ باجمل الذكريات عن استراليا وانى مازلت افعل والحمد لله !

الفصل العاشر

حصاد السنين : خواطر وتأملات

ليعذرني القارىء لئن كنت جرأت على كتابة هذه المذكرات وتقديمها للقارىء رغم عدم توافر «شرطين تقليديين» لكتابة المذكرات السياسية :

أولهما أن يكون الكاتب قد شارك أو أسهم في أحداث جليلة «أو احداث تاريخية » كان للكاتب فيها القدح المعلى أو النصيب الاوفر، واما الثاني أن تكون كتابة مذكراته مستندة إلى وثائق رسمية أو مفكرات خطها وسجلها الكاتب أولا باول عبر سنوات تجاربه .

ولست أدعي أن احد هذين الشرطين ينطبق على هذه المذكرات أو التأملات التي اضعها بين يدي القارىء .

ومع ذلك فان ماجرأت حاليا على وضعه تحت انظار جمهور قرائي هو حصيلة تجارب العمر ، تجارب تسع وثلاثين سنة في السفر والتجوال وفي التفكير والتأمل نتيجة العمل الدبلوماسي عبر سنوات امتلأت بكثير جدا من الاحداث الجسام من ١٩٤٨ وحتى ١٩٨٦ كما أن هذه الصفحات وان لم تحو تسجيل اسهامي أو مشاركتي في «أعمال

جسام واحداث تاريخية» - فإنها تحوى حصيلة تجاربي ونبضات قلبي وخلجات فكرى وحصيلة زياراتي لثلثي العالم ومشاهداتي وتأملاتي عن كل هذه الشعوب وتلك الاماكن ، وعن تقاليدها وعاداتها ، واحوالها وسياساتها عبر تلك السنين وتلك تجربة قلّ أن تتاح إلا لنفر قليل من المحظوظين .

ناهيك بانها في مجموعها تشكل ثقلا وعبئا أو حملا ذهنيا ونفسيا ظل يطالبني ويلح عليّ أن أنفض عني هذا الحمل الذهني .. وأن اشرك معي أصدقائي وقرائي في التزود عن الآخرين ببعض هذا «الزاد والزواد» ودعوتهم لحمل بعضه الى جانبي .. حتى يستريح خاطرى !

إن فرصة زيارة ومشاهدة وتأمل ثلثي العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه ، أقصاه وادناه - لا تتاح الا لجمهور قليل من الاثرياء القادرين على تحمل نفقات السفر الباهظة والمعيشة في الخارج والتي تكلف غاليا وقد تتاح فرصة السفر والتجوال لفئات مهنية معدودة مثل فئة الطيارين والعاملين في شركات الطيران والسياحة والبحارة وما يشابههم ، لكن الفرق بين هذه الفئات وطائفة الدبلوماسيين أن الأخيرين يقضون شهورا بل سنوات إقامة طويلة في البلد المضيف وينمون بحكم عملهم موهبة دقة الملاحظة و المراقبة والتسجيل والتأمل والتحليل .. بحكم تدريبهم ووظيفتهم.. ومن ثم فإن مذكرات الدبلوماسي وتأملاته وحصيلة مشاهداته سوف تكون مخالفة لرؤية وقصص وطرائف الفئات الاخرى

ومن هنا حرصى على مشاركة قرائى فى هذه التجربة ومن هنا ايضا فان هذه الصفحات ليست من قبيل أدب الرحلات «وحسب» كما انها ليست مجرد تأملات فى السياسة الدولية وانما هى محاولة للجمع بين الاثنين ارجو ان تكون قد صادفت هوى فى نفس القارئ وقد امضيت تسعاً وثلاثين سنة فى السفر و الترحال والمشاهدة والتحليل والتأمل .. لم أمض منها فى القاهرة سوى ست سنوات أو سبع سنوات فى حين قضيت البقية الباقية رحالا وجوالا لا استقر على حال ولا يهدأ لى بال إلا وقد تلقيت الأمر بالسفر من جديد.

هل ندمت يوما على اختيارى لهذا الطريق الصعب هل حزنت يوما لفراق صديق أو قريب فى مصر واشتد بى الحنين الى الأهل والخلان؟ نعم ولا شك!

فقد كانت أسفارى وتجاربى على حساب بعض التضحيات فى الصلات العائلية والصداقات القديمة ، وازدياد الشعور بالغربة وعدم الانتماء. ثم تلك الرغبة الدفينة «الآثمة» التى نمت فى قلبى ووجدانى فى استمرار الحركة وضرورة التنقل بين الحين والحين وهو الشعور الذى يسيطر على أغلب الدبلوماسيين بعد سنوات من تجارب السفر ومازالت تلك الرغبة الدفينة الآثمة تدفعنى الى السفر والتنقل فى انحاء العالم حتى بعد تقاعدى بالمعاش !!

ناهيك بالتضحية المحتمة أو المفروضة فرضا على أبناء

الدبلوماسيين من حيث الاستقرار والترابط العائلي ومشاكل الدراسة ! وأحمد الله إن لم يضف الى مشاكلي مشكلة « أبناء الدبلوماسيين»!!

ومع ذلك فإذا كان عليَّ ان اختار من جديد لاخترت نفس مهنتي الدبلوماسية التي عشقتها قبل الالتحاق بها ومازلت اعشقها . فبعد تجارب سنوات السفر والترحال والمشاهدة والدرس والتأمل، أشعر انى رجل «سعيد الحظ» واتاه الله بنعمه كل تلك التجارب والرؤى والمتعه وانى قد اصبحت «رجلا أفضل» فليس من مدرسة افضل من المشاهدة والدراسة والمقارنة والتأمل لأحوال الشعوب ولتقاليدها والإفادة من ثقافاتها المختلفة ولغاتها وتجاربها ومكاسبها.

والمقارنة .. المقارنة بين مختلف الثقافات والتجارب والعادات والتقاليد من أمضى اسلحة الفكر وأعمدة الحكمة.

.. أود في نهاية المطاف أن أسجل وأؤكد ودى وتقديرى إلى جانب شكرى وعرفانى للسادة زملائى فى العمل الدبلوماسى الذين وردت الإشارة اليهم ضمنا أو الى اسمائهم صراحة اثناء سردى ورواياتى في اسفارى وترحالى لما قدموه الى فى شتى المناسبات من النصيحة الخالصة والصداقة والمحبة الحقة والود واسباب الكرم والضيافة.

ومن محاسن العمل الدبلوماسى أن العاملين فى هذا الحقل يشكلون ناديا أو منتديا مترامى الاطراف يتسع للعالم كله وان العضو فيه لن يشكو الغربة أو الوحدة اينما حل وحيثما وجد زميلا من زملائه .

واحمد الله على نعمة الزمالة والصداقة التى آنست وحدتى وبددت غربتى حيثما وجد هؤلاء الزملاء الدبلوماسيون.

واشكر لوطنى العزيز أن اتاح لى شرف تمثيله بالسلك الدبلوماسى المصرى طوال هذه المدة الحافلة بالتجارب وبالذكريات.

.. ولن أكون دبلوماسيا بل سوف أخون مهنتى اذا انهيت حديثى دون تسجيل شكرى وامتنانى للقارئ الذى تفضل مشكورا فانهى قراءة كتابى حتى هذه السطور وأرجو أن يكون قد وجد شيئا من المتعة والطرافة فى مشاطرتى فى حمل جزء من تلك الحصيلة بل من تلك الأمانة التى رأيت لزاما علىَّ أن أؤديها..

محمود سمير أحمد

ابريل ١٩٩٦

الفهرس

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

أبريل ١٩٩٦ (عدد خاص) .. تقرأ فيها :

- البحث العلمى الأكاديمى فى مصر .. هل له مستقبل ؟ .... د. أحمد أبو زيد
- النوافذ المفتوحة مذكرات رسمها فنان موهوب ... د. الطاهر مكى
- فجر الفكر الاقتصادى المصرى .... د. جلال أمين
- رسالة سنغافورة :

سنغافورة بعد لى كوان يو .... مجدى نصيف

- عالم جديد .. عصر جديد .. حضارة جديدة .... مصطفى نبيل
- ثقافتى والبحث عن تكوين مصر «التكوين» .... محمد عوده
- خالد محمد خالد : التحدى والصمود .... د. حامد طاهر
- الفكر والمادة فى الإسلام .... د. محمد عمارة
- الرجل الذى أحب مصر .... د. السيد أمين شلبى
- دور مجلة المنار فى النهضة العربية الحديثة .... د. سعيد اسماعيل على
- التراث المستعار وصدام الحضارات « دائرة الضوء » .... د. صلاح قنصوة
- انتهى عصر مرجريت دوراس .... محمود قاسم
- دفاع حار عن القاهرة العثمانية « ملزمة ألوان » .... د. أيمن فؤاد سيد
- عدلى رزق الله : ثلاثية الفن والمرأة والإبداع .... نجوى صالح

● عجز الرجال .. نغم سائد فى الأفلام .... مصطفى درويش

نداء شكرى عياد (جزء خاص)

- شكرى عياد أستاذا ومفكرا وصديقا ....
.... د. محمود فهمى حجازى
- د. شكرى عياد والمقال الأدبى .... اعتدال عثمان
- أوراقى حياتى « القفز على الأشواك » .... د. شكرى عياد

من الهلال إلى الهلال

- مجالدة حتى الشهادة .... د. عبد المنعم تليمة
- هذا هو فؤاد دواره .... د. على الراعى

● مسرح : الساحرة بعيدا عن الواقع – أزمة دراما الساحرة ....

● شعر : كتابة محمد صالح الزكية – البحث عن السعادة ....

● فن تشكيلى : المعنى فى بطن التونى – حلمى التونى « برضك » متشابه وممتع ....

واقرأ الأبواب الثابتة :

عزيزى القارىء – أقوال معاصرة – المكتبة – أنت والهلال – الكلمة الأخيرة

رئيس مجلس الإدارة — رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد — **مصطفى نبيل**

كتـــاب الهـــلال القـــادم

كتابة القصة القصيرة

بقـــلم

هـــالى بيــــــرنت

ترجمة

أحـــمـــد عـمـــر شـــاهين

تصـــدر : ٥ مـــايو ١٩٩٦

رقم الإيداع ٤٠٥٧ / ٩٦
I.S.B.N
977-07-0470-9

هذا الكتاب

السياحة الثقافية والفكرية والسياسية عبر الزمان والمكان عبر الحضارات والشعوب.. سياحة ثرية.. متعددة الابعاد، والخبرات.. تلبى وتخاطب، مستويات متعددة، من الاهتمامات والأذواق، تخاطب القارىء الذى يريد أن يتعرف على بلدان عديدة، تعكس حضارات وثقافات العالم.. كما تخاطب القارىء الذى يرغب فى التعرف على الملامح الثقافية المميزة لهذه البيئات المختلفة، من ثقافة، وفنون، وأغان ولغات ولهجات وأساطير وعادات.

والكتاب الذى بين أيدينا من أمتع وأحدث ما كتب فى أدب الرحلات وأدب السياسة حيث يقدم لنا الأديب الدبلوماسى الدكتور محمود سمير أحمد زادا جديدا من الفكر والثقافة عبر تجربة مصر السياسية والدبلوماسية سنة ١٩٦٧، ثم عبر تجاربه السياحية والسياسية فى بلاد الانجليز.. قمم جبال الانديز، بيرو بأمريكا الجنوبية.. ثم مرة أخرى الى رحاب منظمة الأمم المتحدة فى نيويورك.. ثم ينتقل بالقارىء الى زيارة الايطاليين فى بلادهم، وفى جولاته فى القارة الإفريقية الواسعة.

كما أن هناك فصلا شيقا ومفيداً يشمل تجربة الكاتب كسفير لمصر فى اثيوبيا.. كممثل دائم لدى منظمة الوحدة الافريقية ولدى اللجنة الاقتصادية لأفريقيا التابعة للأمم المتحدة، ومقرها أديس أبابا، ثم يلى ذلك فصل شيق وممتع عن جولات الكاتب فى جزر فيجى، نيوزلاند، طوكيو، هونج كونج، مانيلا، بانكوك، سنغافورة، ثم استراليا.

هذا الكتاب يعتبر بحق التتويج الطبيعى والعقلانى لجهد وامكانيات كاتب له تاريخ دبلوماسى عريض، اتيحت له هذه الرؤية والخبرة المباشرة، بهذا العدد من دول العالم وعواصمها وحضاراتها، ويقترن بذلك ثقافة تمكنه من تأصيل كل ما شاهد وسمع ورأى، فضلا عن حس فنى وجمالى يرصد ويلتقط تفاصيل الحياة الطبيعية والبشرية والحضارية لهذه المناطق.

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

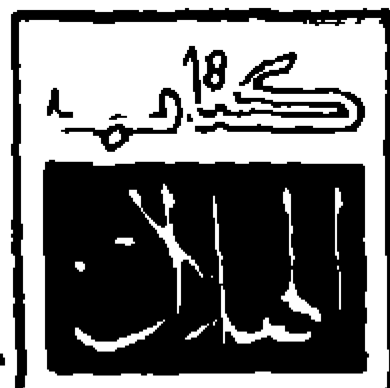
الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

مشايخ جبل البدارى

(الجزء الثانى من مذكرات قرية)

يرويها : د. عصمت سيف الدولة





KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٥ - ذو الحجة - مايو ١٩٩٦ No- 545-MA- 1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرشا

سوريا ١١٥ ليرة - لبنان ٧٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٧٠٠ فلس - الكويت ١٧٥٠ فلسًا - السعودية ١٥ ريالا

مشايخ
جبل البدارى

الجزء الثانى من مذكرات قرية

يرويها

د . عصمت سيف الدولة

دار الهلال

الغـلاف للفـنان

حلمى التونى

مقدمة

بقلم .. مصطفى نبيل

● طلبت من د. عصمت سيف الدولة أن يكتب سيرته الذاتية فآثر كتابة السيرة الذاتية لقريته «الهمامية»، فلقد توحد مع أهلها، وكان على أكثر أحداثها شاهدا، فهو ابن القرية التى تسربت حكاياتها إلى مسامعه.

ومن يقرأ «مذكرات قرية» يدرك كيف يعيش الكاتب معاناة وحياة أهله، وكيف يعبر عن مشاعرهم بدقة وإيجاز، وكيف خسره عالم الأدب وكسبه عالم السياسة والقانون .

يقول في مقدمة كتابه : «تلقيت من كل مجتمع حكايته فاجتمع لي منها خليط من الخبرات الفائقة لو أردت لأنشأت منها مذكرات شائقة ، إلا أني لا أريد، فقد تعلمت من علم النفس وعلمائه أن السير الذاتية لايمكن أن تكون صادقة ولو كان أصحابها من الصادقين، لأنها استجابة لغريزة إنسانية مسيطرة، النزوع إلي البقاء بعد الفناء، خوفا دفينا من الموت فحرصا متينا علي الخلود، إنها ذات الغريزة التي تولد في الإنسان نوازع عاطفية غير عقلانية، يحب أولاده أكثر من ذاته حتي ولو كانوا مارقين؟!» .

ورغم أنه كتب مذكرات قريته ولم يكتب سيرته، فإن هذا الكتاب يجعله من الخالدين بجدارة، ويكاد يكون أهم ماكتب عن

الصعيد، وهو عمل غير مسبوق، قدم فيه رؤية صادقة تتجاوز كتابات وأبحاث الأنثروبولوجيين، ذلك أن نشأته ورهافة حسه ويقظة نفسه علمته أن يحيط إحاطة واسعة بحياة أبناء قريته، يعرف العادات والأمثال والحكايات والفنون والألعاب، فرسم ذلك كله في لوحات معبرة، واستطاع بنفسه الحساسة وإخلاصه لقريته اختراق ما حوله بقدرة عالية علي صياغة عبارات رائقة هذا بعد أن أعد نفسه إعدادا كبيرا بكثرة الخبرة وسعة التجربة.

ومن النماذج الدالة علي ما أقول: الصورة التي رسمها للمرأة الصعيدية والتي قدمها بقوله: «تملك الزوجة، ربة البيت، وحدها كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية علي أسئلة الرجل، الزوج، وهي بعد التي قدمت حجر الأساس الاقتصادي لبيت الزوجية الذي تديره، ولها فيه فضلان، فضل الادارة وفضل التمويل، ولزوجها فضل العمل، فلا ينكر عليها أحد بعد هذا أنها ملكة البيت وما فيه.. إنها لاتخدم أحدا، ولا زوجها، وإنما تدير مملكتها في بيتها وتعد فيه كل الأجوبة الروحية والعاطفية والمادية علي أسئلة الرجل الزوج، والأولاد من بنين وبنات.

الزوجة في القرية لا «تحب» ولا «تعشق» زوجها، تلك وأمثالها أوصاف أدلي بكثير من تلك العلاقة بين الزوجين، أدني وصف الي حقيقتها إنها وحدة مصير. لا بل وحدة وجود. فهما لايلتقيان منفردين إلا نادرا، وإن تحادثا فلا يهزران، ولايتلامسان غزلا، ولايتغازلان حديثا، ولايعرفان عادة القبل علي الشفاه، ولايتعانقان اذا تقابلا بعد غياب، ولايفقدان في كل الظروف الوقار والتوقير والحياء، ولاتنادي المرأة زوجها باسمه

ولايناديها باسمها إلا اذا كانا منفردين، وإن تجادلا فصيغة النداء تدل على مدي الاتفاق والاختلاف والتودد. إن قالت له «ياخوي» فهي متفقة، وإن نادته «ياولد عمي» فهي تتودد.. وإن قالت له «ياولد الناس» فهي غاضبة. فالزوجة تعرف وزوجها يعرف إنها إن غضبت فسيشقي. ستظل اسئلة في بيته بدون أجوبة.. يخسر هو كل شيء ولا تخسر هي شيئا.

ولايعني هذا أن المرأة في القرية لاتعرف الحب، بالعكس إنها تعرفه عاطفة متأججة منذ أن بلغت مبلغ النساء، كل ما في الأمر إنها أحبت حتي الوله، وعشقت بكل كيانها الزوج بصفته وليس شخصا بعينه».

وهكذا ينتقل الكاتب واصفا كل مناحي الحياة في الهمامية.

وما بين نشر الجزء الأول في كتاب الهلال في أغسطس ١٩٩٥، وبين نشر الجزء الثاني الذي سيصدر خلال شهر مايو ١٩٩٦، رحل عنا د. عصمت سيف الدولة والكتاب بين يديه يراجعه، وتركه لنا وكأنه ترك لنا وصيته وهي خلاصة حكاية قريته التي تقدم نموذجا لكل قري مصر وإن اختلفت بعض القسمات من قرية لأخري، وتؤكد تجربة قرية «الهمامية» علي المساواة بين جميع أهل القرية، فسكان القرية جميعا يعودون إلي أصل واحد، ومن عائلة واحدة، وعانت القرية طويلا من فساد السلطة وتحيزها أحيانا للمستعمر البريطاني وأحيانا أخري للإقطاع الذي انتزع أرض الجزيرة من أصحابها، ورغم شيوع الخوف من السلطة الي حد فرار شباب القرية الي الجبل أو حقول الذرة أو القصب بمجرد اقتراب رجل بملابس رسمية من

القرية فإن المقاومة الذكية التي قادها الشيخ عباس نجحت في حماية شباب القرية من اصطيادهم وترحيلهم لخدمة المجهود الحربي البريطاني خلال الحرب العالمية الأولي. ونجحت القرية مرة أخري مع قيام ثورة ١٩١٩ في استرداد أرض الجزيرة، ويقي الصراع مع الطبيعة، الفيضان والجفاف ورمال الجبل، وفي مواجهة الفقر والظلم. وتقدم تجربة «الهمامية» التي نقلها د. عصمت سيف الدولة وسائل كسب هذا الصراع.

عندما طلبت من الكاتب سيرته الذاتية، كنت انتظر قصة وظروف جيل بأكمله، وأعرف أن مفتاح شخصية الكاتب تتمثل في نبعين لعبا أهم الأدوار في حياته، أحدهما الصعيد والثاني تيار الوطنية الصادقة، خرج الكاتب من أعماق الصعيد، وترك الصعيد بصمات واضحة علي تكوينه، الصلابة التي لاتعرف المساومة، الشجاعة في التمسك بالحق كالقابض علي جمرة، وقصة الكاتب تقدم رؤية جديدة علي أن الوجه البحري يستقبل الموجات الوافدة علي مصر. ويأتي من الصعيد رياح تأكيد الهوية ومقاومة المؤثرات الأجنبية، ومن تفاعلهما تتشكل البوتقة المتوازنة التي تصنع السبيكة المصرية..

ويصدق هنا قول د. حسين مؤنس في كتابه مصر ورسالتها .. «لايزال الصعيد وأهله موضع فخار مصر ومصدر قوتها وحصنها التي تركن إليه.» وما من شيء تراه في مصر إلا ولأهل الصعيد فيه الأثر البعيد.

يقدمون لهذا البلد أجيالا من خيرة رجاله الذين قادوا أموره ووجهوا سياسته ورفعوا رأسه في كل ميدان.

أما النبع الثاني الذي استمد منه الكاتب مواقفه وتكوينه فهو تيار الوطنية الصادقة التي أثرت في جيل بكامله، يتمثل فيه أصل من أصول فكره في الوطنية المثالية الثابتة والمناضلة، بعد أن دخل هذا الجيل مرحلة نضال وطني ضد الاحتلال البريطاني، وأدرك أهمية الاستقلال وأهمية تحرير الاقتصاد المصري من سيطرة الأجانب.

وتفتحت عينا كاتبنا للحياة في الثلث الأول من هذا القرن، أي أنه عاش طفولته في فترة غنية بالتحولات الفكرية، كما أن خروجه من أعماق الصعيد، دفعت - بالضرورة - إلي الأمام الصراع بين القديم والجديد، وشهدت الساحة الفكرية ألوانا من النقاش حول شروط وكيفية اللحاق بالغرب، مع وعي كامل بالتمايز بين الغرب التقدم والغرب الظاهرة الاستعمارية، وتولدت شخصية المفكر الذي يبحث عن أجوبة في مواجهة اسئلة شديدة التعقيد..

وأعرف بعض تجاريه الأولي فقد كان ضمن التنظيم السري للحزب الوطني، حزب مصطفي كامل ومحمد فريد، بما يمثله هذا الحزب في السياسة المصرية من الطهر والبراءة والمثالية، والتمسك الشديد بالمباديء، والتعامل مع النظرة التاريخية لا النظرة الآنية، وهم أصحاب شعار «لا مفاوضة إلا بعد الجلاء» والذي يعبر عن رفضهم للمفاوضات مع بريطانيا، وعمل الكاتب بعد تخرجه في كلية الحقوق في مكتب أحد أقطاب الحزب الوطني وهو مكتب زكي علي باشا والذي تشرب منه مهنة المحاماة هي مهنة «إغاثة الملهوف والوقوف إلي جانب المظلوم».

وانتهي بكاتبنا الحال إلي أن أصبح محاميا في معظم القضايا السياسية والوطنية، يصول ويجول في ساحات المحاكم مدافعا عن حق جميع القوي السياسية في التعبير عن نفسها، وحقها في تنظيم صفوفها، وحمل رسالتها، وكان شرطه الرئيسي الذي يردده.. «إنه يتبرع ولكنه لايتطوع» كما قدم خبرته السياسية الي كل من يطلبها سواء الأحزاب السياسية أو النقابات العمالية أو المهنية.

وربما كان أعظم ما في د. عصمت سيف الدولة ثباته علي مبدئه، باع نفسه لأمته ولم يتحول عن ذلك قط، وظل يجاهد علي الدرب حتي لقي ربه.

وما أحوجنا إلي تسجيله لتجربته عندما كان ضمن كتائب الفدائيين الذي قاتلوا الانجليز في القناة عام ١٩٥١ . بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ ، كنا ننتظر روايته وأن يقدمها للأجيال الجديدة، خاصة وهو من القلائل الذين يقفون الي جانب الشباب بلا تحفظ ويؤمن بقدرته علي صنع المستقبل، ولايري كما هو شائع إنه لايوجد أفضل من أيام شبابه. يقول.. «الذين غادروا مرحلة الشباب يفتقدونها ويتمنون لو عادت إليهم أو عادوا اليها اكثرهم شعورا بافتقادها أولئك الذين لايكفون عن إدانة الشباب، إنها حيلة نفسية يعرفها علماء النفس، وموضوع الاحتيال إنهم يحاولون علنا استرجاع شبابهم في شباب غيرهم بأن يعظوه لعله يسلك ما كانوا هم سالكيه لو كانوا شبابا» .

وياليته سجل قصته مع الرئيس السادات، الذي بدأ حكمه بسجنه وانتهي حكمه بسجنه ثانية، فكان من أوائل المسجونين

بتهمة تشكيل تنظيم عربي في مصر، وفي آخر عهده أودع السجن في اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ مع عدد من السياسيين، كان نزيلا في الزنزانة رقم ١٦ في ملحق ليمان طره.

انتقل د. عصمت سيف الدولة من الثورة المصرية الي الثورة العربية. فمن الطبيعي أن تكون الخطوة التالية لأبناء الوطنية الصادقة والقادمين من أعماق الصعيد، أن يقودهم الدرب إلي الفكرة العربية.

كان مكتبه في وسط القاهرة ملتقي العرب ، لا يكاد يصل زائر عربي إلي القاهرة إلا ويسرع الي مكتبه يشهد ندوة دائمة تضم الكثير من المفكرين، تناقش خلالها العديد من القضايا العربية.

وكان الدكتور عصمت من النوع الذي تزداد حبا له كلما ازددت معرفة به، وبقدر ما كان تفكيره مثيرا للإعجاب، كان في مناقشاته يعبر عن أعصاب هادئة وعقل منظم، ويستعمل أسلوب الاقناع الهادىء.

وهو من أوائل المبشرين بالفكرة العربية، والباحث عن طرق ملائمة لتحقيق أحد صور الوحدة، مع الاستفادة من تجارب الماضي، لذا اهتم بكبريات القضايا التي كانت تشد اهتمام الانسان العربي، ومن هنا كان تفهمه وتفتحه علي التيارات الفكرية المختلفة في كل انحاء العالم.

وبعيدا عن أي انغلاق في اطار الوطنية الضيقة، يبحث دائما علي وسائل عملية وخطط وبرامج محددة لتحقيق الأهداف العربية.، ولايكتفي بالعواطف والمشاعر المشتركة، ولايركن

للتراث الثقافي المشترك وحده، ومن كلماته المأثورة «أن قابيل قتل هابيل، رغم الأخوة التي بينهما، فلا يكفي مجرد الانتماء، إنما المهم هو خلق المصالح المشتركة والعمل المشترك .

اشترك في كل التحركات العربية أيام ازدهار الفكر القومي، أو في زمن التراجع والضعف، يبحث وينقب عن وسائل تحقيق مشروع النهضة العربية، والفكرة العربية عنده محورها القاهرة، التي لها دور حيوي في حياة العرب، تجددهم وتوحدهم وتقود نهضتهم.

وأجمل أيام حياته هي تلك الأيام التي كانت القاهرة فيها مركزا للثوار العرب من كل الأقطار العربية، وبعدها وضع اهتمامه في دعم الثورة الفلسطينية يتشاور مع قادتها، ويرجع بعضهم اليه فيما يعترضهم من مشاكل، ويؤمن أن جوهر القضية الفلسطينية ومكانتها تقع في قلب القضية العربية يقول في كتابه الاعتراف المستحيل .. «لانملك الا أن نقول كيف تغرق الهزائم أفئدة الناس، فيجزعون وتثير الاضطراب في عقولهم فلا يعقلون وتعمي أبصارهم فلا يبصرون حتي مايقبضون عليه بأيديهم من أسباب النجاة، إن المرحلة المقبلة مرحلة الثورة العربية.. إن مسئولية هذا الميلاد التاريخي لاتقع علي الثورة الفلسطينية وحدها، وإن كانت تتحمل قدرا من المسئولية، أما باقي المسئولية فيقع علي أولئك الذين يطيب لنا الحديث عنهم تحت عنوان القوي القومية» .

ويرتبط بعلاقات وثيقة بالقادة العرب، وعندما أتجول في العواصم العربية، التقي بالعديد من تلاميذه ومحبيه، وكنت

أدهش لشعبيته في البلاد العربية التي تزيد كثيرا عن شعبيته في مصر!

وعندما سألت أحد الرؤساء العرب عن المفكر الذي تأثر بأفكاره أجاب علي الفور إنــه. د. عصمت سيف الدولة، وقد نشر الحديث في حينها في مجلة المصور.

ولم يجف قلم عصمت سيف الدولة طوال عقود أربعة، وتوزعت كتاباته في موضوعات شتي وفي كتب متعددة، كان آخرها «مذكرات قرية» ويتميز الكثير من كتبه، «الشباب العربي» ، و«ما العمل» و«النظام النيابي» ، و«مشكلة الديمقراطية» و«الطريق إلى الوحدة العربية» و«بيان طارق» والطريق الي الاشتراكية العربية الذي أكد فيه امكانية قيام الاشتراكية بدون تأثيرات أجنبية ، وغيرها بتقديم افكار حية تساهم في إحياء الشعور بحق الشعب العربي في أن يحكم نفسه بنفسه وتجعل العدل رسالة خالدة.

وكما يكتب بقلمه يرسم بريشته فهو فنان متعدد المواهب، في مكتبه تمثال جميل لإنسان يتخلص من قيوده ويتوق إلي الحرية، ولايعرف أحد إنه صنع هذا التمثال عندما كان معتقلا، ولا تقتصر كتبه علي القضايا العامة وحدها بل تشمل أعمالا درامية مثل بيرون وحريق روما.

وبعد.. نتساءل.. هل يغادر كاتبنا دنيانا، وهو يري أحلامه تبعد، وآماله لاتتحقق؟ ولكنه ترك لنا أعماله حية بيننا. كمن زرع الشجرة وسوف يحين يوما نضج الثمار.

فهل تحل العبرات محل الكلمات؟!

قال الراوى :

ياسادة ياكرام سئل أهل الذكر عما يتذكرون من تطور الحياة فى القرية .

فقال فلان ، وتذكر علان ، وذكر ترتان ، وكثير غيرهم مالا يخرج عما قاله آخرون ، كل منهم، وقد أوهنته الشيخوخة، يجهده اعتصار الماضى من ذاكرة ضامرة ، يستبدل بمذكرات القرية جمعا ذكرياته عن ذاته فردا . لم يجب أحد على سؤال صريح عن تاريخ القرية جوابا صريحا . أهملوه . وتحدث كل من سئل عن أكثر ما يعرفه واقعية ، ذاته والدور الذى أداه ومع الصبر الطويل على الاستماع طالت وعرضت وتفرعت الروايات فكشفت ، وهى لا تجيب على سؤال محدد ، عن مفردات من مذكرات القرية غير محددة. قد نجد من يريد فى تلافيف الروايات المائعة اجابة على السؤال الأصيل حتى لو لم تكن قاطعة فننتقى من ركام ما رواه أصحاب ألحكايات ما قد يفيد من يريد ويكفينا ما كشفت عنه الروايات من وقائع أولى بها المذكرات ، ولكن ليس قبل أن نرجع إلى أهم المراجع لعلنا أن نعرف منه ما أخفاه الآخرون من تاريخ القرية وعلة الاخفاء .

هز رأسه مرات ومسح على لحيته البيضاء ثم قال : إن بعض ماتريد ان تعرفه ، ياولدى، ثم ابتسم والتفت وقال : ياأستاذ قد بقى

مستورا فلم يعد مذكورا . تلاشى فى ظلام الستر ..

لا تؤخذنى ياعم الشيخ إن قاطعتك . إنما هو الحرص على أن أروى عنك من مذكرات القرية ما قد لا يعرفه سواك . فقد كنت وكيل شيخ الخفراء ، ثم شيخهم ، والخفراء هم مثقفو القرية ، فما الذى تعنيه «بالستر»، أو ما الذى كان «يعنيه» الستر وقد وصفته بأنه كان ظلاما .

آه . أصل المسألة أو الأصول التى نشأنا عليها فاتبعناها منذ قديم الزمان أن لا أحد فى القرية أفضل من أحد من أسرته ولا أسرة أفضل من أى بيت . ولا بيت أفضل من بيت فى عائلة . ولا عائلة أفضل من عائلة فى القرية . بصرف النظر عن العدد والثروة . كلنا أولاد فرج قداح. وهكذا ترى أن «الستر» هو الاخفاء . ليس اخفاء أى شىء أو أى موقف بل اخفاء ما يعتبر عيبا أو عورة ، ومع أن ناس «الهمامية» مثل كل الناس يختلفون فيما بينهم حول مايهم الافراد والأسر والبيوت والعائلات أو القرية جميعا فقد كان الإختلاف يتوقف عند حدود «الستر» الذى يحول بين أى فرد و«فضح» ما يدور فى الأسر والبيوت والعائلات، فحين تسأل أى واحد منهم عن شىء مما مضى يروى لك مامضى من تاريخه شخصياً ، لايستطرد إلى غيره خشية أن يهتك أسرار غيره وهذه فضيلة أم أنك لا تراها كذلك .

كيف تراها أنت فضيلة ؟..

لست أنا فقط . القرية تراها فضيلة . ألا ترى ياولدى كيف تنشىء كل عائلة منضرة مزوقة تنبىء عن أسرة مالكة ميسرة لاستقبال واكرام أضياف الفقراء من الأسرة سترا لفقرهم . أوَ لاَ ترى كيف يكفلون فى أفراحهم نفقة الفرح لصاحبه سترا لعجزه عن نفقاته ويسمونها نقوطا . ويتكلفون فى الجنائز والمآتم سترا لعجز أهل المتوفى عن نفقاتها . كذلك يفعلون حين يسألون عن أمر القرية فيجيبون بأمرهم . انهم يتسترون على ماقد يعيب قريتهم بما يجيبون به عن أنفسهم ومع ذلك إن سألت صغيرهم عن «الغارة» التى سبقت مولده بخمسين عاما أو أكثر لروى لك تفاصيلها ، لأن المصائب العامة شائعة فهى فى غير حاجة إلى الستر ولا تقبله وهى وحدها التى «يجوز» أن تنسب إلى القرية جملة بدون فضح فرد أو أسرة أو عائلة.. فاسألهم إن شئت أو إسأل من تشاء عما مر بقريتهم من مصائب عامة فتسمع منهم جميعا ما يتذكرون فيذكره كل واحد منهم لايختلفون فيه ولا يخفون منه ثم اجمع ما يقوله كل واحد إلى ما يقول غيره ، تعرف ما تقوله القرية .

مثلا ياعم عزيز؟.

إسألهم عن أيام السلطة . أو عن كوارث الفيضان . أو اسألهم عن اغتصاب أرضهمْ فى الجزيرة ..

نفعل بإذن الله .

الفصـــل الأول :

الســلطـة

قال الراوى ..

(١)

منذ أن شاع أن يونس عبد الله قد عاد من «السلطة» قبل أن يعود غيره، وهو جالس في مقعد داره يحكي ويعيد لاينقص ولا يزيد لمن يحيط به من رجال وشباب وصبية بصوت تسمعه في فناء الدار أمه ومن يتوافدن اليها مهنئات بسلامة عودة ولدها من حيث لم يكن أحد يعرف قبل أن يحكى يونس عبد الله .

استطرد قائلا : وبعد خمسة وأربعين يوماً في «الغليون» وسط البحور، رسونا عند بلد من بلاد الفرنساوية اسمها «كالى» . عرفنا اسمها فيما بعد حين كانوا يسمحون لنا بأن نذهب إلى تلك البلد كل يوم أحد «قال عشان إيه قال عشان تتفسحوا» . نزل الخلق إلى الرصيف قبل غياب الشمس . أكثر من خمسمائة من جميع البلاد لكن أغلبهم صعايدة . قسمونا فرقا كل فرقة من خمسة وعشرين نفرا من ضمنهم الريس . يعني الفرقة أربعة وعشرين نفرا وفوقهم الريس . وكان من حظى أن فرقتنا فيها أنا من الهمامية وسبعة من الرياينة وستة عشر من قاو العتمانية . يعني بلديات ، وهذا من ستر الله . لأن «اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش» . وعينوا ريسا علينا ثابت

نصار ولد نصار معوض من العتمانية . ولد ولا كل الرجالة . واستلمنا واحد مغربى اسمه خليفة لابس ضابط فرنساوى ويتكلم عربى «مكسر» ليتفاهم معنا، حطوا كل فرقة فى عربية «كمبيل» كبيرة وساقوا بنا مسافة كمثل المسافة بين بلدنا والبدارى . دخلنا فى المزارع . مزارع لا لها أول ولا لها آخر ، ولا فيها جبل ولا بحر ، بعد حوالى ثلاث ساعات وصلنا منطقة المعسكرات. خيام وعساكر وعربيات ومدافع بالألوف . أدخلوا فرقتنا خيمة كبيرة ، وسلموا كل واحد ثلاثة ألواح من الخشب يرصها على الأرض وينام عليها . وثلاث بطاطين صوف يفرش واحدة ويتغطى بواحدة والثالثة يفرشها أو يتغطى بها أو يعمل منها مخدة «هو حر» . وأعطوا كل واحد خد جزمة جلد برقبة طويلة لحد الركبة منها فيها . كنا ميتين من التعب وجعانين . الريس ثابت كلم خليفة المغربى فى مسألة الاكل . قال الاكل بالميعاد و«لسه فاضل على العشا ساعة وربع».. ناس تعبانة نامت من غير أكل والجعان انتظر . فى الميعاد جاءت عربية طويلة تجرها أربعة خيول فوقها «قازانات» مثل البراميل . وقفنا قدام الخيمة طابورا وكل واحد صحنه فى ايده . واحد فرنساوى صب فى صحن كل واحد مغرفة سليقة فيها « حاجة » زى قرى العصيرة . وأعطاه باكو ورق ملفوف ورغيف عيش طويل «ومبروم» وملأنا الجرادل ماء . كانت السليقة ساخنة حين غرفوها ولكنها بردت

بسرعة وظهرت عليها طبقة سميكة من الدهان الأصفر «زى الزبدة» . شربناها . فتحنا «البواكى» لقينا فيها لحم ورز . اللحم أغلبه دهن «زى لية الخروف» . والرز أصفر «زى الكركم» . رائحة الاكل زفرة . ولكنا «جعانين يابوى» فأكلناه ونمنا...

بعد نصف ساعة الولد قبيصى ولد سالم من «أولاد مصبح» من الريواينة «عيط على الريس ثابت» ياريس ثابت . ياريس ثابت . صحونا على صوته . ما الذى بك ياقبيصى أقلقت نومنا الله يخرب بيت أبوك. قال وهو يتلوى : ياريس ثابت «عاوز أعمل زى الناس بطنى وجعانى . فالى أين أذهب». أخذه الريس ثابت ليذهب إلى بيت الراحة وهو خيمة صغيرة قريبة . ولكن ما أن خرجا حتى سمعنا صوت قبيصى وهو يستفرغ ويتأوه . عاد . فسألنا قبيصى مم يشكو . فقال «والله العظيم، والله العظيم ، تلاتة بالله العظيم أن أولاد .. الكلب الكفار دول شربونا سليقة خنزير ووكلونا لحم خنزير .. يعنى قرفان ياقبيصى قال : آى . قلنا طيب نم والصباح رباح ونشوف شغلنا معاهم . فسكت ونام . لكن احنا توغوشنا ومصارينا كركبت . انما «برضه» نمنا من التعب .

أيقظونا فى الفجر . كل واحد يطبق البطاطين ويضعها على الألواح. وأعطونا صابونة بريحة . غسلنا وجوهنا وتوضأنا وصلينا الصبح بعد أن سألنا المغربى عن القبلة . وفطرنا عيش من المبروم

«أصله مافيش غيره» ولبن بارد وجبنة ملفوفة في ورقة وشربنا قهوة خفيفة «زي الشاي الخفيف». وأخذتنا العربيات ومشيت بنا ساعتين أو أكثر وسط الخيام، وساعة في المزارع بعد أن فارقنا المعسكر .. وقفت بنا عند جمع من الضباط والمهندسين في أيديهم خرائط وقد رسموا الأرض بالجير الأبيض خطوطا ممتدة إلى مالا نهاية وقالوا لنا احفروا ابتداء من هنا ما بين الخطين على عمق متر .. أما الرديم فيلقى بالجرادل في الجهة الشرقية مثل الجسر ..

كان ذلك هو عملنا من الصبح إلى الليل كل يوم ماعدا ساعة في الظهر للغداء ويوم الأحد . يوم الأحد تأخذنا العربيات ومعنا المغربي خليفة وتودي بنا إلى كالي «علشان ايه قال عشان تتفسحوا» . نمشي في الشوارع الفرنساوية وأغلبهم رجال «عواجيز» وحريم وعيال يشيرون إلينا ويضحكن . خليفة المغربي تركنا ودخل أحد البيوت «قال إيه قال عشان نبقى على راحتنا» . لما نتعب من المشي ونحب نقعد على قهوة الأهالي يمنعونا . مرة بعد مرة «معدناش نروح لا كالي ولا بالي» .. وقعدنا في المعسكر .

بعد شهرين كنا قد حفرنا ثلاثة كيلو . «زي من هنا للريانة». والريس ثابت عرف يتعامل مع الفرنساوية . مسك عليهم مسكة وعلمنا حيلة. حيلة ولكن نفعت . أهم ما يهمهم هو الا نتوقف عن العمل . فكلما

أردنا شيئا نتأخر فى النوم فيأتى الفرنساوية ويرطنون بلسانهم فيقول المغربى أننا لا نريد أن نشتغل لأن الجراية قليلة فيعطونا المزيد . كل ما نريد حتى الشاى الثقيل حتى الدخان حتى اللحم الأحمر لا نطلبه . تعلمنا أننا إذا طلبنا لا نحصل على مانطلب، وأن «الناس تخاف وماتختشيش» . وسلاحنا جاهز . نتوقف عن العمل وثابت يقول : «أصل الرجالة عاوزين كذا» فيحضرونه على طول». وانبسطنا آخر انبساط .. إلى أن جاء الشتاء ..

المطر مثل السيل ينحط من أفواه قرب مفتوحة فى السماء . الأرض برك صغيرة وطين . ألواح الخشب تغرز فى الأرض . الوحل يتجمع داخل رقبة الحذاء فتثقل أقدامنا . ماحفرناه أصبح مثل الترع أيام الفيضان . ننزح المياه بدلا من الحفر فيدفع المطر طين الجسر إلى ماحفر . وجبات الاكل تتأخر لانقطاع الطرق . أشنع من هذا أن مياه المطر الجارفة تملأ حفر المراحيض فتفيض «الوساخة» وتسيل حتى تدخل الخيام وترى الفضلات عائمة فى برك المياه كالضفادع . ثم البرد، البرد . أعوذ بالله من الزمهرير . هم يتقونه «بالخمرة» ليل نهار يشربون خمرا . أما نحن فنعوذ بالله من «الخمرة». يلف الواحد بطانية صوف حول رأسه لا يترك مكشوفا منها إلا أنفه . يخرج من الخيمة فيشعر أن أنفه وقع . غير موجود . يتحسسه بيده ليطمئن فلا يحسه لأن أصابع

يده لم تعد تحس من البرد . وفي ليلة سوداء ، وبالمناسبة حتى النهار هناك أسود لأن الشمس لا تطلع طوال الشتاء ، أقول في ليلة سوداء ، نزل الثلج بدلا من المطر ونحن نيام. وكان الولد قبيصي «عيان» منذ ثلاثة أيام ولم يحضر له دكتور لأن السيول قطعت الطرق . كان نائما بجوار طرف الخيمة . الريح قلعت الوتد فدخل الثلج في الخيمة وردم قبيصى. استيقظنا فى الصباح وجدنا أنه مات وجسمه أزرق «زى النيلة». أول واحد مننا يموت فى الغربة . طلبنا ماء ساخنا لنغسله ثم نصلى عليه وندفنه بأيدينا . لا .. قالوا لا . أخذوه منا ولفوه فى بطانية ورموه فى صندوق عربية خشبية يجرها بغل أخذته إلى حيث لا ندرى . يومها لم نذهب إلى العمل . عملنا جنازة فى الخيمة وجاء خليفة المغربى ومعه مصحف قرآن وبقى الريس ثابت طول النهار يقرأ قرآن ونحن صامتون لا نتكلم . لم نأكل . رفضنا الاكل . كان كل واحد منا يفكر أن عليه الدور وأنه سيموت كما مات قبيصى فى الغربة من غير غسيل ومن غير صلاة . فى العشاء قال الريس ثابت «كلوا يارجالة عشان عايزين نتكلم» أكلنا وتكلمنا واتفقنا على ألا نعمل ووضعنا أيدينا على المصحف وتعاهدنا على أن نبقى يدا واحدة حتى نعود إلى بلادنا . فى اليوم التالى أحضروا الافطار فأوصانا الريس ثابت أن نأخذ منه كثيرا «احتياطى» ربما لا يدوم . أخذنا ورفضنا الذهاب إلى العمل . قال لهم

خليفة المغربي أنهم يقولون أنهم لن يعملوا أبداً ، وقد ألقوا العهدة خارج الخيمة ، وأنهم يريدون العودة إلى بلادهم . فى اليوم الثالث قطعوا عنا الاكل إلا الافطار . رابع يوم دعونا فى الصباح إلى الخروج من الخيمة، أمرونا بأن نلتقط العهدة . الريس ثابت قال : «كل واحد ياخد كريك وبلاش الجردل ». لم نفهم ماذا يريد ولكن نفذنا ما أراد . أخذونا وراء صف الخيام ، ووقفونا صفين وأمامنا الريس ثابت المطر نازل فوق رءوسنا . وأمامنا صف عساكر « ماسكين سلاح » . قال خليفة المغربى أنه ذاهب ليرى حتى متى ذاك الوقوف . ثم حذرنا من أن نقعد وأنذرنا بأن العساكر ستطلق النار على من يخالف الانذار . طالت غيبة خليفة . قال لنا الريس ثابت وهو غضبان : « انتم رجالة ولا حريم » . قلنا : «رجالة» . قال : «الرجل من ظهر أبوه وشارب من بز أمه يقعد» .. قعدنا كلنا مرة واحدة . العسكر استغربوا الحركة . ولم يطلقوا « لا نار ولا حاجة زى مقال خليفة» . لقد ذهب «ولد الكلب» ليحتمى من المطر . فلما توقف المطر عاد ومعه خمسة ضبا ط ومعهم «جن النار» (جنرال) . ووقفنا ووقف قدامنا الريس ثابت . أنا كنت واقفا فى الصف الخلفى . أخذ «جن النار» يتكلم بلسانهم وخليفة يترجم بالعربى . أول الكلام حلو أنا زرت مصر وأحب مصر وأنتم مثل أولادى وأنا عارف ظروفكم لكن نحن فى حرب ، وأولادنا يموتون كل يوم ، وليس فى الحرب «حكاية أشتغل وما اشتغلش» ، لابد لكم من أن تشتغلوا ولو بالقوة . «لازم

تعرفوا كده كويس» . وارتفع صوته وهو يقول : ثم أنى أعرف حالتكم قبل أن تحضروا إلى هنا . انكم متعبون ولكنكم تعيشون حياة الآدميين بدلا من حياة الكلاب التى كنتم تعيشونها فى بلادكم .

ما أن قال هذا حتى سمعنا الريس ثابت يصرخ ويقول : «يوه. عيشة كلاب ياولد الكلب» . وطخ ضرب «جن النار» الواقف قدامه بالكريك في صدره شقه وقع «مانطقش». والعساكر والضباط ضربونا بالنار «طوالى» وقعنا كلنا . بعد أن توقف اطلاق النار بصيت بعينى وأنا نايم فوجدت الرجال كلهم «غرقانين فى دمهم». ماتوا كلهم وأولهم الريس ثابت ضربوا فيه الرصاص فتتوا جسمه. لمحنى خليفة فجاء ووقف فوق رأسى وقال لى لا تتحرك. بعد نصف ساعة جاءت العربة الخشبية التى يجرها البغل. لا. جاءت عربتان يجرهما بغلان ، وبعد أن يتأكد العساكر من موت الواحد يلقوه فى العربة كما هو . وصلوا عندى فقال لهم خليفة كما قال لى بعد ذلك أنه جريح ولا يجوز قتل الجرحى . والآن سأحملك إلى المستشفى. وحملنى على ظهره وأنا «عامل نفسى ميت» حتى خيمة المستشفى . هناك قال لى خليفة هامسا تحرك حتى لا يظنوك ميت فحركت رأسى وفحصونى وانتهوا إلى أننى غير مصاب بل أغمى علىّ . حبسونى فى خيمة صغيرة وعينوا لى حارسا . وبعد أسبوع أخذونى إلى كالى . ومنها إلى «غليون» وصلت بورسعيد بعد خمسة وأربعين يوما ، وهناك تركونى على الرصيف . مشيت لغاية الاسماعيلية وسألت عن محمد سلمان . رحب بى وأعطانى جنيها و«نص» . وهنا أنذا عدت .. والحمد لله ..»

قال شيخ جالس : حمد الله على سلامتك . شوف حكمة الله.

«ماحدش راح السلطة من الهمامية غيرك . وما حدش رجع من السلطة حي غيرك . نجاك الله وجزاك خيرا على ما عملته .. قال يونس : الحمد لله . والله تعبت وتعذبت كثيرا ولكنى ، ويعلم الله ، غير نادم على ماعملته..

ما الذى عمله يونس ؟..

(٢)

أصل الحكاية وفصلها أنه فى صيف عام ١٩١٤ اندلعت حرب مجنونة بين دول أوروبا . حرب مثل المعارك التى تنشب بين رواد المقاهى فى المولد . تبدأ بضربة تطفىء النور « وتخليها ضلمة » ثم يتعارك الجميع . يضرب كل واحد القريب منه قبل أن يضربه بدون أن يكون ثمة سبب إلا أن المعركة بدأت . وهى فرصة للهرب من دفع اثمان المشروبات على الاقل . كذلك فعلت دول أوروبا المتجاورة فى قارتها . ضرب شخص مجهول من الصرب الارشيدوق فرديناند بالرصاص فى سراييفو فقتله . فضربت النمسا الصرب . فضربت المانيا فرنسا . وبالمرة ضربت بلچيكا . فضربت روسيا هنغاريا . فضربت تركيا روسيا . فضربت انجلترا المانيا . فضربت ايطاليا النمسا .. الخ وانداحت أمواج العنف المجنون من أوروبا حتى اجتاحت الكرة الأرضية فأسموها الحرب العالمية وهى حربهم . المهم أن أمواجها قد أغرقت مصر واندفع منها تيار من الاثار هز الحياة فى مركز البدارى . وامتد إلى الهمامية فدخلت الهمامية الحرب العالمية .

أما بالنسبة إلى مصر فقد كانت تحت الاحتلال الانجليزى،

والانجليـز طرف فـي الحـرب ، وكـانت في الوقت ذاته تابعـة لتـركـيـا (العثمانية) وهذه دخلت الحرب ضد انجلترا وحليفتها روسيا وبالتالي باقي حلفائها . فقطعت انجلترا خيط العنكبوت الرسمي الذي كان يربط مصر بتركيا ، وفرضت الحماية على مصر فأصبحت مصر تابعة لها . واكتمل الاحتلال الانجليزي شكلا بعد أن كان موضوعا . كان الجنرال كتشنر الحاكم الفعلي لمصر ، قبل الحرب في لندن عاصمة انجلترا حين اندلعت الحرب . وكان الخديو عباس الثاني ، الحاكم الصوري لمصر ، قبل الحرب في الاستانة عاصمة الدولة العثمانية حين اندلعت الحرب . لم يعد أيهما إلى القاهرة مقر سلطاته الفعلية أو الصورية . أصبح كتشنر وزير الحربية في الحكومة الانجليزية فلم يعد ومنع الانجليز عباس الثاني من العودة وعزلوه فلم يعد . وفرض الانجليز الاحكام العسكرية على مصر ووضعوا أرضها وشعبها تحت تصرف قادة الحرب التي لا يعلم سببها أهل مصر .

أما بالنسبة إلى مركز البداري خاصة فقد كان الانجليز يفتشون عمن يلي العرش الخديوي بعد عزل عباس الثاني . كان أمراء ونبلاء أسرة محمد علي قد رفضوا توليه فشاع في القاهرة همسا وأشيع في مركز البداري جهرا أن الانجليز قد اختاروا محمود باشا سليمان ليكون ملكا على مصر . محمود باشا سليمان هو عميد «بيت الباشا» وكبير عائلة السلينية التي مركز تجمعها قرية ساحل سليم التابعة لمركز البداري . فاعتبر أهل مركز البداري جمعا أن قد آل إليهم الملك جميعا .

فتقاطر أعيان القرى وعمدها ومشايخها وكل ذى رداء لائق مملوك أو مستعار، على «سراى» بيت الباشا فى ساحل سليم . عشرات أو مئات يفدون يوميا راجلين أو راكبين ليقدموا التهنئة على الملك مصحوبة بفروض الطاعة مقدما . وهناك يجدون أن الحكومة كلها هناك . المدير ووكيل المديرية والحكمدار من أسيوط، يحييهم تحية عسكرية المأمورون وضباط الشرطة من مراكز مديرية أسيوط . البدارى وصدفا وأبو تيج . بعض الوافدين يحمدون الله على أن عاشوا حتى دخلوا سرايات الملوك وصافحوا، بأيديهم ، الامراء . وبعضهم يحلم بمستقبل مثل ما كان للاغوات والحجاب وابناء الجوارى فى سراى عابدين . يزكى أحلامهم مايلمسونه من تواضع رجال الحكومة أمام الامراء الجدد اذن، اشارة من الامير ويحقق «بلدياته» حلمه، ويزكيها من كان يستقبلهم ويصافحهم ويوحى إليهم بما يحلمون، أذكى أبناء محمود باشا سليمان وأظرفهم وأكثرهم سخرية وعبثا بأحلام الناس ، حفنى محمود ، ولقد أوحى حفنى بك إلى الملك إلى من يستحقه . فأقام العمد الأفراح الشعبية . واقترح عليهم أن يمنعوا الفتيات من الاستمرار فى ترديد تلك الأغنية المعبرة عن حب عباس الثانى.

«بَحرً بابور عباس . قَبلً بابور عباس. واسق دهابية. من مصر لاسطنبول . شبك الهوى فيه» ، والاعلان عن جائزة لمن يؤلف من مدرسى المدارس أغنية بديلة تعبر عن «حب» محمود . وحين أعلن أنه قد قبل الامير حسين كامل ، عم عباس، أن يكون سلطانا على مصر لم

يصدق أهالى البدارى الخبر الا بعد أن اختفى من ساحل سليم «الامير حفنى» . ولقد عاد الحديث والحلم مرة أخرى حين رفض الأمير كمال الدين حسين ابن السلطان أن يكون ولى عهد سلطان ولاه الانجليز . ثم تبدد الحلم نهائيا حين قبل الأمير فؤاد الابن السادس للخديوى اسماعيل مارفضه الأمير كمال الدين حسين . المهم أن أهالى مركز البدارى قد عاشوا شهوراً فى حالة هياج عاطفى وأحلام خيالية واهتمام منفعل «بالسياسة العليا» منحازين افتعالا ثم فعلا إلى استحقاق «بيت الباشا» للملك . ولقد بقوا على هذا الانحياز حتى بعد أن انحسرت أمواج الحرب التى لم يكسب منها إلا «بيت الباشا» .. كسبوا الولاء غير المحدود وارتفعوا عند الشعب إلى منزلة ملوك الاقطاع فى أوروبا . نقصد شعب مركز البدارى . وستبقى لهم تلك المنزلة أمدا طويلا حتى بعد أن ساعدوا السماسرة المحترفين على دفع الشعب إلى أتون الحرب.

فقد حصل رجل من مصر اسمه الشيخ الدمرداش على «امتياز» امداد جيوش الانجليز وحلفائهم «بمتطوعين» من أبناء مصر يعملون وراء خطوط القتال فى الجبهة الغربية من أوروبا وفى الجبهة الشرقية من سيناء وما يليها شمالا ، وله عن كل رأس «متطوعة» قرش . لم يتطوع إلا قليل من المعدمين . فانهى الدمرداش إلى رجال السلطة الانجليز أن رجال الادارة المصرية يحرضون الناس على عدم التطوع . فصدر الأمر من رجال السلطة الانجليز إلى رجال الحكومة المصرية الذين أبلغوه إلى رجال الادارات المحلية بأن يساعد هؤلاء ممثل الدمرداش على جمع «المتطوعين» من القرى . فوضعوا لذلك نظاما

عاما . يحضر العمد والمشايخ والخفراء الرجال ما بين سن العشرين وسن الأربعين من غير المتزوجين والذين لا يعولون فى كل قرية أمام لجنة «تطوع» يرأسها المأمور . يعرض عليهم المأمور التطوع ويغريهم به ويشجعهم عليه ويحصل على قبولهم توقيعا أو بصما على اقرار بالتطوع والتزام بالحضور يوم استدعائه . يتم كل هذا فى القرية تحت رقابة مندوب الدمرداش وحراسة رجال البوليس . يطلب العدد الذى يختاره مندوب الدمرداش فى الوقت الذى يحدده . من يحضر يرحل إلى حيث لا يدرى أحد . ومن لا يحضر يضبط «لاخلاله بالتزامه اضرارا بالمجهود الحربى» لا يفلت أحد منهم إلا إذا أحضر متطوعا بدلا منه .

ولما كان هذا لا يمكن أن يحدث فى مركز البدارى إلا إذا صادق عليه «بيت الباشا» مثل أى شىء آخر فقد صادقوا عليه . فبدأ التنفيذ مطاردة للشباب بدون نظام و«تطويعهم» كرها ثم ترحيلهم إلى حيث لا يدرى أحد . ومع ذلك لم يخطر على بال أحد من الفلاحين فى قرى مركز البدارى أن لبيت الباشا يدا فيما اكتوت به قراهم وعائلاتهم وبيوتهم وأسرهم من نيران الحرب ونسبوه إلى نير الحكومة . فعادوا يطلبون الغوث من بيت الباشا . والواقع أن قد أغاثهم بعض «النبلاء» أو من دونهم من أطراف العائلة العتيدة ووسطاؤهم من العمد والمشايخ . من يطلب للجندية فى جيش الحكومة يعفى منها إذا ما افتدى نفسه بعشرين جنيها . والجندية لمدة محدودة وداخل الحدود ، ولما كان «المتطوع» للخدمة لدى «السلطة» يعتبر كالمفقود كان عدلا ألا يعفى منها

إلا إذا افتدته عائلته بأربعين جنيها يقبضها وسطاء النبلاء من العمد ويقتسمونها مع مندوب الدمرداش فيعود المتطوع إلى أسرته ، ويعبر أهله عن الولاء لبيت الباشا بمزيد من الدعاء، وأصبحت تجارة ، ومهما يكن في التجارة من خسارة فإن البقاء فى القرية ودروبها خير من الفناء فى أوروبا وحروبها ، ومع ذلك فإن أحدا من قرية الهمامية لم يذهب إلى السلطة إلا واحدا هو يونس عبد الله . ذهب متطوعا فعلا أما الباقون فلم يتطوعوا ولم يطوعوا ولم يدفعوا .

(٣)

فقد صحب الشيخ عباس صديقه يونس عبد الله يوما الى البدارى، وقدمه إلى مكتب البريد «لاعتماده» نائبا عنه فى استلام ما يرد إليه من صحف ورسائل إذا لم يحضر بذاته ، ثم دعاه إلى «البورصة» التى اعتاد أن يجلس فيها كلما ذهب إلى البدارى ، بورصة الخواجة كوستا. كان يونس يعرفها كما يعرفها كل الذين يترددون على البدارى يوم سوق الاثنين . إنها في زاوية من الدروب التي تقاطع شارع المركز . يتأملها الفلاحون ويتهيبون دخول أبوابها الزجاجية اللامعة . على واجهتها لافتات ملونة عليها كتابات وصور زجاجات ، يتردد عليها الحكام والاعيان ، يعلوها مسكن من طابق واحد له شرفة بارزة تطل على الدرب وشارع المركز . يحملق فيها بعض الناس حين يرون زوجة الخواجا كوستا البدينة تقرأ «الجرنان» واضعة فخذا ملفوفة على ساق مكشوفة فيستعيذون بالله من الشيطان الرجيم . ويتناقلون من أخبار كوستا أنه قد اشترى وارتهن كثيرا من أطيان الأعيان فى البدارى ، ويقولون أن أمواله حرام لأن بورصته خمارة . لم تكن أمثال تلك

البورصة غريبة علي الشيخ عباس ، أنها مرصوصة في شارع القاهرة وقد ارتادها كثيرا ، فهي مقاه لمن لا يشربون الخمر وخمارة لمن لا يشرب القهوة ، وهي مطعم لمن يلتمسون الطعام . فما أن وقع نظره عليها فى البدارى حتى دخلها مغتبطا بدخوله قطعة من القاهرة . استقبله الخواجا كوستا لا مباليا ثم مباليا حين وجده يطلب قائمة الطعام ويتحدث بلهجة شبه قاهرية . فاعتذر له بأن ليس عنده قائمة طعام فلا أحد فى هذا البلد يحتاج إلى ما يرشده إلى ماذا يأكل . أنهم يطلبون ما يعرفون . قال وماذا تفعل مع من لا يعرف . قال نختار له ، هل تشرب شيئا . قال لا . عاد كوستا ووضع أمامه خبزا وشريحة من اللحم بجوارها خضر مسلوقة وملعقة وسكين ثم وقف وسأل مبتسما : فيه خاجة ناقصة ؟ أهو اختبار يا خواجة . ناقص الشوكة . فضحك كوستا وأخرجها من جيب ردائه الأبيض وقال : فعلا «خذ يا خبيبى السوكة» .

جلس إلى جوار الشيخ فى انتظار توافد «الزبائن» بعد انتهاء عمل الموظفين فى المركز والمحكمة وتعارفا . وأصبحت بورصة الخواجة كوستا مقره كلما وفد إلى البدارى . عرف من أمرها أنها ليست مجرد مقهى أو مطعم أو خمارة ، أنها قبل كل هذا وفوقه ناد للقمار ذو باب خفى وراء «البار» يفتح على حديقة خلفية أعدت للاعبين من كبار رجال الادارة والأمن وصغار الاعيان والعمد وأبناء كبار المالكين . يتسللون إليها كل مساء يشربون وهم يتناولون العشاء ثم يلعبون مقامرين ببعض ما يملكون أو بكل ما يملكون ، ويقوم كوستا منهم مقام البنك . يقدم القروض ، ويقتضى العمولات ، يعتمد الرهونات ، ويتسلم

«الكمبيالات» .. ويضاعف أثمان المأكولات والمشروبات . فى منتصف الليل يغادرون البورصة تسللا من بابها الخلفى ، باب الحديقة .

كان لابد له من أن ينتظر كل يوم فى البدارى حتى الساعة الثالثة مساء ليتسلم الصحف ثم ليعود مع من يكون عائدا من المركز أو المحكمة أو السوق تبديدا للملل السفر الطويل على حمار مطهم ولكن رتيب الخطوات ، فلاحظ أنه فى تمام الساعة الثانية وعشر دقائق بالضبط من كل يوم يدخل من الباب الرئيسى للبورصة رجل فى نحو الثلاثين من عمره ، محكم الاناقة يلبس طربوشا طويلا مائلا على رأسه ، وحول رقبته «ياقة» منشاة معقوفة يتدلى منها رباط عنق يحمل مشبكا مذهبا يثبته فى القميص ، وتبين من جيب السترة الأعلى أطراف حريرية بيضاء على شكل ثلاثة أهرامات متجاورة متدرجة الحجم . له شارب طويل رقيق دقيق . كأنه صورة من المرحوم مصطفى كامل باشا أو لعله كان يجتهد فى أن يكون كصورته . يتقدم إلى مائدة معينة فى ركن قصى من أركان البورصة ، يرفع عن رأسه طربوشة بيده اليمنى ويضعه على مقعد على يمينه . ثم يجلس . ويلقى بمذبة سوداء الشعر بيضاء المقبض على مقعد على يساره . فيكون كوستا قد انتهى من الترحيب به ترحيبا كبيرا ، وأحضر له طعاما لا يتغير أبداً يحضره بدون أن يطلبه . فيأكله صامتا . ثم ينطق فيطلب قهوة بصيغة ثابتة : «أهوه سادة يا خواجة» . حتى إذا ما انتهى من طعامه وشرابه ، تناول طربوشه ووضعه باحكام على رأسه مستعملا كلتا يديه ثم رفع مذبته من مقعدها ، وانصرف كما جاء .

لفته انضباط ذاك «الزبون» على مواعيده وحركاته ومائدته وطعامه

وشرابه وحضوره وانصرافه قبل أن يحضر آخرون ، انضباطاً لا يتفق مع شبابه . عرف من كوستا أن حسين أفندى فريد ، باشكاتب المركز ، وأنه من عائلة محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى ، كان موظفا فى وزارة الحقانية بالقاهرة ، فجنت عليه قرابته فنقلوه إلى مركز البدارى . أنه لا يخالط أحدا ، فشاع أنه «متكبر» فى حين أن المخالطين له فى المركز من صغار الكتبة والعمال والفراشين يذكرونه بكل خير ، وأن بينه وبين المأمور مودة مفقودة . يقال لأنه فى عمله لا يراعى تقاليد وظيفته فيتبسط مع أصحاب المصالح البسطاء من الأهلين إلى درجة أنه قد أعد فى حجرته «الميرى» أريكة طويلة يجلس عليها صاحب المصلحة بدلا من الوقوف انتظارا للبت فيما يعرضه .

فصمم على أن يتعارفا .

ما أن أهل حسين أفندى فريد من باب البورصة يوما حتى دعاه الشيخ بلهجة واثقة : تفضل يا حسين أفندى ، وقف حسين أفندى مندهشا ولم يتقدم ملبيا . فتقدم إليه مبتسما وقال : لماذا أنت مندهش . ألا تريد أن تسمع أخبار القاهرة من وافد جديدٍ منّها . أجاب بابتسامة فيها فضول وهم بأن يسير معه فى اتجاه مائدته ، قال الشيخ: لا . لا أحرمك من مائدتك المفضلة فلا تغير عادتك واتجها إلى حيث اعتاد الباشكاتب قضاء وقته . جلس على المقعد الرابع المقابل لمقعده وترك للباشكاتب مقعدى الطربوش والمذبة ، فأدرك هذا دلالة الاختيار وضحك ضحكة محسوبة الجرس ومع ذلك كانت بداية موفقة إلى ألفة موثقة . اعتذر الشيخ فتحدث طويلا . تحدثا طويلا ، حديثا بعضه جاد وبعضه مرح . تنبئ نهايته بأن ألفة سريعة قد جمعت بينهما . فقد تصافحا يدا

فى اليد ، واليد الأخرى قابضة على أعلى الذراع إلى أن فرغت كلمات الوداع والتواعد . ولقد تكررت المقابلات ، وفيها عرف الشيخ من الباشكاتب قصص الحديقة الخلفية ، وكيف يفسد ما يدور فيها مناخ الادارة ، ويعوق ما يجرى فيها مجرى العدالة حين يخسر أصحاب المصالح عامدين ليكسب أصحاب القرار فى تلك المصالح ، فتنعقد الصفقات بالاشارات وتنقضى الحاجات بالتأشيرات ، وقصصا أخرى كثيرة مما يجرى للمخمورين .

ولقد سأله عما يقال عن ود مفقود بينه وبين المأمور فأثنى على المأمور ثناء بليغا ، قال إنه رجل أمين وكفء و «وطنى» ولكن المشكلة هى أنه فى بلادكم هذه لا تريد العائلات المتصارعة أن تتركه يؤدى واجباته . كل منها يضغط عليه ويحاول أن يجرح ذمته أو يلين قناته ولهم فى هذا طرق متنوعة ، أهمها على الاطلاق واثقلها على «البيه المأمور» ما يأتى إليه من «ساحل سليم» من توصيات ورغبات لا تتفق دائما مع ما يراه عادلا . والرجل يعلم أن مصيره معلق بكلمة ضده تذهب من هناك إلى من فى أيديهم مصيره . ولقد استطاع حتى الآن أن يدافع عن نفسه ولا يغضب أحدا بطريقة لا يبررها إلا الدفاع عن النفس ، فهو يوافق على ما يأتيه من توصيات ورغبات بتأشيرات عامة تحتمل التأويل ، ثم يعرقل التنفيذ لمعرفته أن كل طلب غير عادل ينطوى فى جزئياته على ما يخالف القانون . ويغطى كل هذا بالمجاملات الكلامية . أما عن أعيان المركز ورؤساء العائلات فيه فقد رأى أن يفرض على نفسه وعليهم أيضا أسلوب التعامل الرسمى الجاف . ليس فى مكتب المأمور إلا مقعد واحد يجلس عليه الموظف الذى يعرض عليه الأوراق ، وعلى باب المركز

صندوق لتلقى الشكاوى أو الطلبات يحتفظ هو بمفتاحه ، ويحمل بنفسه كل ما فيه كل يوم إلى منزله ليدرسه ، وهو لا يغادر منزله . ولا يقبل «العزومات» إنما يحضر جنائز كبار القوم مجاملة . إنه مكروه ولكنه محترم . لا يعترض على أية أوامر تأتيه ولكنه لا ينفذ إلا ما يراه عادلا . هذا السلوك يتفق «طبعا» مع منصبه «كرئيس» للمركز . إذ لا يوجد «رئيس يقبل مختارا أن يصبح» «مرءوساً» لأشخاص لا يشاركونه مسئولية ادارة المركز ولا يكفون عن التدخل فى ادارته ، وهو يريدنى أن أحتذى حذوه بعد أن شرح لى الأوضاع وحذرنى من «رفع الكلفة» بينى وبين الأهالى . لم أوافقه لأننى لست رئيسا مثله ثم لأن الذي يترددون على مكتبى هم من بسطاء الناس ذوى المصالح البسيطة ، وهؤلاء لا أحب أن استعلى عليهم فى حين أننى فى خدمتهم أو المفروض أن أكون كذلك . هذه هى المسألة فلا تستمع إلى من يقول أن بيني وبينه ودا مفقودا ، ولا تستمع أيضا إلى من لا يعجبهم المأمور ، بالعكس من الممكن لأى مواطن أن يتكل على عدالته بدون أن يطلبها ، اللهم إلا إذا تدخل أولئك الذين لا طاقة له بيهم : بيت الباشا .

أصبحا صديقين جادين فيما يدور بينهما من حديث وهما يتناولان الطعام معا على مائدة واحدة كلما التقيا . فلما دخل الشيخ عباس البورصة ، جارا يونس عبد الله من كمه تشجيعا ، قدمه إلى حسين أفندى فريد بوصفه «صديقي وبلدياتي يونس عبد الله» ، فجلس يونس عبد الله على مقعد خامس مع باشكاتب المركز شخصيا على مائدة واحدة فى بورصة كوستا وتبادلا الحديث فى يوم من أيام عمره لا ينساه .

جاء يونس عبد الله مهرولا إلى أن انتهى إلى الشيخ عباس فى «منضرته» فأنهى إليه أنه كان فى سوق «الاثنين» فى البدارى ، وكان مارا بجوار المركز حين أدركه على فلفل الفراش وطلب إليه أن «يكلم البيه الباشكاتب» ، الذى لمحه من نافذة غرفته . فلما ذهب إليه قال : قل للشيخ عباس أننى أريد أن أراه غدا أو بعد غد على الأكثر فى البورصة كالمعتاد ، فلما ذهب إليه فى الغد تحدث إليه حديثا حميما .

قال : أنه فى نطاق إحكام الانجليز قبضتهم على الادارات المحلية قد صدرت التعليمات بإشغال وظائف العمد الشاغرة . وأنه قد وقع اختيار المديرية على من رشحه عبد الرحمن بك محمود ليكون عمدة الهمامية . أنه صديق محمود حماد . اندهش الشيخ وقال : كيف ؟ أنه كالغريب فهو من بيت ليس له عائلة فكيف يحكم العائلات . ضحك وقال : لقد رد المأمور علي ضابط المباحث حين قال ما قلت . قال المأمور : هذا اعتراض مرفوض مقدما لأننا لسنا فى وقت أهل الكفاءة بل وقت أهل الثقة ، ونعرف كلنا أن صديق كان من سنين طويلة أذن الادارة وعينها فى الهمامية والقرى المجاورة ، ولعب دورا مشهودا فى الارشاد عن مخبأ سند عثمان ، كما أنه أذن وعين وذراع عبد الرحمن بك محمود فى مراقبة حراس وزراع جزيرة الحكومة التى يستأجرها فى الهمامية ، وردعهم إذا اقتضى الأمر ، فهو يتردد كثيرا على «ساحل سليم» وله حظوة لدى من رشحه . فقال الشيخ : هل معنى هذا أن المأمور موافق . قال حسين أفندى : لا . هو غير معترض وغير موافق .

هذه هى طريقته . لقد أعد ردا على اخطار المديرية لا يتضمن اعتراضا إنما «يضع تحت نظر المديرية» أن المرشح أمى لا يقرأ ولا

يكتب ، «وحيث أننا فى حالة استثنائية دقيقة بالنظر لحالة الحرب والاحكام العسكرية وقد يلزم الأمور اطلاع العمد على بعض الاسرار أو الكتابة لهم بهذه الاسرار التى لا يجوز أن يطلع عليها أحد غيرهم» ، فيرى المأمور «تأجيل التعيين الرسمى لمدة شهرين وتكليف المرشح بأن يتعلم القراءة والكتابة» . و«المركز مستعد أن يخصص له مدرسا من مدرسة البدارى ليعلمه» . وفي آخر الرد : «ملحوظة : فاتنا أن نذكر أن المذكور لا يملك إلا فدانا ونصف وليس له مورد مالى آخر ولا صنعة فربما يضطر لتغطية تكاليف العمودية إلى ما لايليق بوظيفته خاصة وأن الشيخ محمود عبد اللطيف عيسى يقوم بمهام الوظيفة بكفاءة ونشاط كنائب عمدة هو رجل غني ولا يشتكى منه أحد منذ استقالة شيخ المشايخ السابق وتحويل المشيخة إلى عمدية . «متى سيرسل الرد ؟ بعد أن يستعجلوه مرتين على الأقل . هذا من ضمن طريقته . أى أن هنالك فرصة شهرين على الأقل قبل أن يبت فى أمره والبركة فيك . قال الشيخ : أية بركة ؟ لقد قلت لك من قبل أننى أفقر من أن أكون عمدة أمينا . قال : ليس هذا هو الموضوع . أنا أعرف . ولكن الموضوع أخطر من هذا . فقد تم وضع نظام عام «لتطويع» الناس للخدمة وراء جبهات القتال، خلاصته وشرح له خلاصته . قال الشيخ : كيف يوافق المأمور على مثل هذا النظام . قال : لا تخف فللمأمور طريقته فى عرقلة هذا النظام وهو على اتصال يومي تقريبا بمأمور مركز اسيوط . الحقيقة أن مجموعة من رجال الادارة الوطنيين على رأسهم مأمور مركز أسيوط يتداولون فى كيفية حماية الناس من هذا البلاء بدون الخروج الصريح على التعليمات . لست أعرف ما يفكرون فيه لأنهم يكتمون أمره وقد

خطر لى أن ألفتك إلى الخطر القادم لعلك تستطيع أن تفعل شيئا لحماية الناس .

ماذا أفعل ؟ للأسف أننى لا أعرف ما يفكر فيه المأمور ، ولكنى أعتقد أنه من المفيد أن يتمسك الأهالى بمبدأ التطوع منذ الآن قبل أن تداهمهم لجان التطوع ، وعلى أى حال ثقوا فى المأمور فإنه سيقود المعركة ضد سلطة الاحتلال ، وسيقودها بكفاءة بطريقته . ولكن لا يمكن الاتكال على مقدرته مائة فى المائة ، لابد أن يدافع الناس عن أنفسهم . أن يرفضوا التطوع . أن يخطروا كل السلطات بأنهم يرفضون التطوع. قال : سأتدبر الامر مع أهل البلد وأعود إليك . قال : لا تعد . لن تجدنى . لقد استعجلت حضورك لأودعك ، فقد كان أول ما رأى المأمور أن أكون بعيدا عن المركز في الفترة القادمة . لم يقل لى لماذا ولكنى فهمت أنه يرى ألا تنسب خطته الخفية إلى تأثير أحد أعوانه من عائلة فريد بك . ولثقتى فى وطنيته وكفاءته لم اعترض ، وقد طلبت فعلا أجازة مرضية ووافق عليها ، وسأغادر البدارى بعد غد الخميس فاستودعك الله. حرض الناس على المقاومة إنها فرصتهم فى البقاء وربما تكون فرصتك .. وافترقا ...

(٤)

عاد إلى منضرته مهموما ، فأرسل يستدعى الإمام الشيخ أحمد معتوق وحسين عيسى ومحمد عطية ، ودويب حسن ، وأحمد عبد اللطيف . كلهم من جيله وإن كانوا أكبر منه سنا وكل منهم ذو كلمة نافذة فى عائلته. سهروا معا حتى الصباح يتشاورون ويتداولون فى

كيفية وقاية القرية مما هو آت . ثم اتفقوا على أن يحصوا الرجال فى القرية عددا ، ويكتبوا بأسمائهم عريضة يوقعون عليها جميعا أو يختمون أو يبصمون ، يخطرون بها الحكومة وفروعها وكل مسئول فيها بأنهم ، أهل الهمامية ، قد بلغهم ما بلغهم وأنهم لا يقبلون التطوع ولا يريدون أن تحضر لجنة الدمرداش إلى قريتهم وإذا حضرت فإنهم لن يقبلوا فى «هذا أى كلام تانى» ، وإذا كان «لابد» من التطوع فهم مستعدون أن يتطوعوا فى «الجهادية المصرية» ، وأن يختموا العريضة بالتماس إلى الحكومة بحمايتهم من خطفهم «حتى لا يختل الأمن وتبور المزارع» واتفقوا على أن تكون من ست نسخ . واحدة للمأمور . وواحدة لمعاون البوليس . وواحدة لمدير المديرية . وواحدة لحكمدار المديرية . وواحدة لوزير الداخلية . وواحدة لرئيس الوزراء ، وأن يذكر فى أولها أنها موجهة إلى كل هؤلاء ليعرف كل واحد منهم أنها وصلت غيره . وأن تكتب أسماء الرجال فى آخرها ويبصم كل واحد منهم أو يختم أو يوقع أمام اسمه . تلزم كمية من الورق المسطر . خمسون فرخا . وتلزم ختامة سوداء مثل التى يستعملونها فى المركز . غدا الاربعاء سوق طما فيا ولد يا فوزى من الفجر تذهب إلى طما وتشترى ختامة وخمسين فرخاً أبيض مسطرا . وبالمرة «دواية» حبر وريشتين . «بسن حديد» ..

على بركة الله . الفاتحة يا رجالة وربنا ينصرنا على من يعادينا . أضاف الشيخ أحمد معتوق الذى اقترح فكرة التطوع فى الجهادية المصرية : وينجينا مما لا نطيق ، قرأوا الفاتحة جهرا وانصرفوا على موعد بعد ظهر غد .

بعد ظهر غد كان الشيخ عباس قد انتهى من «تحرير» العريضة .

فلما حضر الآخرون وقد جاء معهم غيرهم تداولوا فى كيفية كتابة الاسماء وانتهوا إلى أن تكتب تبعا لترتيب العائلات من «بحرى البلد» إلى آخرها جنوبيا . يكتب أولا اسم العائلة تتلوه أسماء «الرجالة» بيتا بيتا . هذه هى أسهل طريقة خوفا من «الغلط والنسيان» . وقال محمد عطية : أحسن تكتب أسماء «رجالة» كل عائلة على فرخ ورق منفرد حتى يمكن جمع الاختام بأسرع ما يكون . قال أحمد عبد اللطيف يلزم إذن لكل عائلة ستة فروخ للأسماء . فرخ لكل نسخة من العريضة . قال معوض الذى لم يقل شيئا من قبل ، يعنى تلزم ختامات بعدد العائلات . كل واحد منكم أنتم رؤساء العائلات سيأخذ «فروخ» أسماء رجال عائلته ويحصل على «أختامهم» فيلزم أن تكون معه ختامة مخصوص . قال الغلام فوزى : أذهب غدا إلى طما واشترى ختامات . نهره نويب حسن قائلا : «يا ولدى بكره الخميس مافيش سوق» . قال فوزى : «ما أنا اشتريتها من الدكان اللى قبلى السوق وده فاتح على طول» .

عقب على حامد حماد : ألا يلزم أن «تعمل» نسخة خاصة نقدمها إلى «بيت الباشا» صمت الجميع ، وتطلعوا إلى الشيخ عباس الذى تأمل على حامد ثم قال ببساطة : «مافيش داعى» . فبدأ الناس يؤيدون . قال على حامد : «طيب ألا ننتظر صديق ابن عمى» . قال أحمد عبد اللطيف بحدة : «صديق غايب له أسبوع ماحدش عارف هوه وين ولا هيجى ميته ، وهوه يعنى صديق اللى عيكمل العدد ..» فلم يعقب أحد .

يوم الجمعة اتفق إمام المسجد الشيخ أحمد معتوق والشيخ عباس على أن يلقى هذا الاخير خطبة الجمعة وعلى ما يعظ به الناس فيها . فلما صعد المنبر استغنى عن اللغة العربية الفصحى وعما تحمل لهجته

من كلمات قاهرية وتحدث إلى «بلدياته» بالأسلوب الذى يتحدث به إليهم فى «المنضرة» . شرح لهم الحرب وأهوالها ، والهلاك الذى ينتظر من يذهبون إليها أو يقتربون منها ، والنظام الذى سيصطادون به الشباب والرجال ، وركز على تفسير كلمة «التطوع» وأنه لا يلزم المسلمين حتى لو طلبه ولى الأمر مادام تطوعا فى حرب بين غير المسلمين . واستشهد بأن «لنا عارفين أن عمنا الأمام أحمد معتوق دايما يوصينا بطاعة ولى الأمر .وأحنا خدنا رأيه إذا غضبوا علينا فى التطوع هل نقبل أم لا . أفتى الأمام ، «وأهو حاضر فى المسجد» أن حكم الاسلام هو لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة لأن المتطوع يلقى بنفسه فى المهالك ، وألا طاعة فى معصية ، وخدمة غير المسلمين فى الحرب معصية ، فاعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا ، ووقعوا جميعا على العريضة ، وليبلغ الحاضر منكم الغائب . وأضاف من عنده إلى الدعاء بأن يحفظ المسلمين من مخاطر التطوع فقالوا آمين ، وختم بأن لعنة الله على من يتطوع بالخدمة فى حرب الكافرين .. فقالوا آمين ، وأقيمت الصلاة .

بعد أن قضيت الصلاة من يوم الجمعة دعا ممثلى عائلات القرية إلى الاجتماع بعد صلاة المغرب فى المنضرة للبدء فى كتابة قوائم المهددين بالتطوع . قائمة لكل عائلة . دعا حسين عيسى ، ودويب حسن، ومحمد عطية ، وأحمد عبد اللطيف ، ويونس رزق ، وعبد العزيز خزعل، والشيخ أحمد معتوق ممثل الاشراف . وقضى هو ما بعد صلاة الجمعة إلى ما قبل صلاة المغرب يسطر الأوراق ويكتب العناوين ، تمهيدا لكتابة الاسماء متتالية على الاسطر الافقية فيما بين الاسطر الرأسية تحت العناوين العائلية . كان يجيد الخط ومع ذلك فقد استنفد وقتا طويلا فى

تجويده . يرسم ويكتب ثم لا يعجبه ما كتب ورسم فيعيده . الحبر الاسود يزيد الخطوط ظهورا فإذا بها ملفتة . هو يريدها ملفتة . وليتسق لون الخط مع حبر الختامة . ولكن الحبر لا يجف سريعا فيستعجل الجفاف بأن يرش عليه ترابا ناعما . لكنه من فرط حماسه يستعجل التراب فينفضه قبل أن يمتص كل الحبر ، فيكتشف خروج بقايا الحبر على الخطوط ووصلها حروفا لم تكن فى الأصل متصلة ، فيعيد الكتابة والتسطير . الواقع أنه لم يضق بكل هذا ولم يتعب ولم يمل فقد كان يكتب ويسطر ويعيد وقد سيطرت عليه نشوة غامرة ، كما لو كان يكتب شهادة نجاحه ووثيقة تحرره . وأنه ، وهو يعمل بيده ، ليتذكر بسرعة مذهلة ما قاله لنفسه وهى تحاوره فى حديقة الازبكية . إنه منذ أن حضر إلى القاهرة لم يتحرر قط من الشعور بالغربة «إنى غريب عن الناس والاشياء والمعانى . إننى أنتمى إلى الهمامية فسأنقذ نفسى وأعود إلى هناك» .

ها هو أخيرا فى الهمامية يمر بتجربة فريدة . أوحى إليه حسين أفندى فريد بميدان معركة يخوضها دفاعا عن أهل قريته التى ينتمى إليها . دعاهم ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، فاجتمعوا إليه . حرضهم ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، فاستجابوا له . اقترح اسلوب المقاومة عريضة يوقعونها فقبل ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، اقتراحه . تكاثر حوله الناس ، أولئك الذين ينتمى إليهم ، شيوخا ورجالا وشبابا وغلمانا وأطفالا . يحيطون به عاطفين ، وينصتون إلى ما يقول معجبين ، وينفذون ما يريد طائعين ، ولا ينطقون إلا بما يرضيه منهم فيرضيه عن نفسه .

(٥)

انتهى ما أراد ثم قام ليؤدى صلاة المغرب فى المسجد على غير عادته . قيل له أن المسجد مغلق الناس لا يصلون المغرب فيه ولا العشاء. سأل مستنكرا : منذ متى ؟ وقيل : من زمان . قال : ولماذا ؟ قيل : «من يوم ما تكسر الفانوس السنة اللى فاتت وراح ولد فرغلى المزين يصلى المغرب في الضلمة وقرصته عقربة والناس ما عتروحش في الضلمة» . فاستشاط غضبا حقيقيا ، وأمر بأن يرافقه من يرافقه «بالكلوب» . فحمل واحد ممن يتبعونه الكلوب وسبقه . ينور له الطريق إلى المسجد . صلوا جميعا المغرب وأمهم فى الصلاة . ثم جاء غيرهم يصلون على نور بدون إمام فاقترح واحد من الشيوخ أن يبقوا يذكرون الله ، على النور ، حتى صلاة العشاء . .لم يعترض . لم يستطع أن يعترض . كان فرحا بأن يكون إماما ومنبرا للمصلين . ولكنه هرول بعد العشاء عائدا إلى منضرته ، يتبعه من يتبعه لعله يدرك صحبة الذين ينتظرون منذ المغرب هناك . سأل عما إذا كان قد حضر إليه أحد من الرجال : حسين عيسى أو دويب حسن .. إلى آخرهم . فقيل له لم يحضر غير أحمد عبد اللطيف منذ ربع ساعة ولما وجد أن المنضرة مغلقة إنصرف ولم يقل شيئا ، فأرسل إليه يونس عبد الله ، رفيقه الدائم يستدعيه .

إلى أن جاء أحمد عبد اللطيف كان قد استقر على ألا يستقبله مؤنبا أو عاتبا على أنه لم يحضر فى موعد المغرب ، فهو نفسه لم يكن حاضرا. ثم أن أحمد عبد اللطيف أكثر من الآخرين مودة ، ربما لأنه ابن خاله ، وربما لأنه أقربهم إليه سنا ، عليه إذن أن يبرر استدعاءه بما

يرضيه وأن يتجاهل ذكر الآخرين إلا إذا ذكرهم أحمد عبد اللطيف .

السلام عليكم ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . لم أطق صبرا حتى الصباح لاراك فلعلي لا أكون قد أزعجتك . دعوتك مجابة فى كل وقت . هكذا تكون الأصول بين الأقارب . والمعزة فوق القرابة يا أحمد وأنت عزيز . «الله يعز مقدارك» . الحقيقة أننى أشعر بالارهاق وأعتقد أننى أديت ما هو واجب علىّ ، ولابد من أن يتولى باقى الأمر من هو أقدر منى على مواصلة أدائه . أنت خير من يؤديه . ففكرت فى أن أنام مرتاحا بعد أن أنقل الأمانة إليك . فاحملها يا أحمد وتوكل على الله .

قال هذا ثم دفع إلى أحمد بالعريضة والختامات وكل الأوراق المسطرة والمكتوبة ، وقال له أن يتصرف فى الأمر كما يرى . يوزع قوائم العائلات على الأخوان أو لا يوزعها ، يجمع الاختام والبصمات أو لا يجمعها ، المهم أن تكون العريضة والاسماء والاختام جاهزة لنتوجه سويا إلى البدارى ونرسلها إلى من هى موجهة إليهم بالبريد «المسوكر» . نعم فلن أتحرك بعد اليوم إلا معك ولن أفعل شيئا إلا بمشورتك فانت «ولد خالى» وعزيز على .

لم ينطق أحمد عبد اللطيف كلمة . كان مشغولا وهو يستمع إليه باختبار مواطن الريبة فيما يستمع إليه . لماذا تغير الشيخ عباس فجأة فأصبح ودودا متواضعا وعهدى به أنه جاف المعاملة مستكبر . هل بلغ حديث القرية منذ ما بعد صلاة الجمعة وما يقال عنه وعن عريضته .

إن كان قد بلغه فقد بلغه كيف دافعت عنه وعن خطبته فى المسجد هو هذا . مد يده صامتا وحمل الأمانة ، و همهم ، توكلنا على الله .ثم

قال : امهلنى جمعتين وسأعود بكل شئ جاهزا لنذهب معا إلى البدارى . قال : ألا ترى أن جمعتين كتير. قال يا ولد عمتى لقد ارتفع منسوب المياه الحمراء فى الترعة وهى بشير الفيضان وانذار للناس بأن يسارعوا إلى قطع «القيضى» وجمع المحاصيل . فالناس متفرقة الآن فى الغيطان . والرجل الذى اسمه عبد المعز حسين وزع «عرابين» على الذين سيذهبون إلى الغرب لجمع القطن ، وهكذا ترى أن الناس مشغولون الآن بأرزاقهم فلا يمكن جمعهم أو اجتماعهم إلا بعد شهرين على الأقل . قال : لقد قلت إسبوعين . قال ضاحكا إنه القسط الأول . أنا أحاول ارضاءك فأتحدث إليك «بالقطاعى» . بعد أسبوعين كنت سأطلب إليك الانتظار «كمان جمعتين» وضحكا معا ...

قال : طيب يا ولد خالى . ولكنى كنت أريد أن أعرف منك الجواب على سؤال لا أعرف له جوابا . قال : خير . قال ضاحكا : «بس مرة واحدة مش بالقطاعى» . ثم جادا : ما هى حكاية ولد خالى الشيخ محمود عبد اللطيف . أنه نائب العمدة وعنده الخفراء وهو مسئول عما يجرى فى القرية ومع ذلك لم يحضر اجتماع الناس فى أى يوم ولا حتى فى صلاة الجمعة . ولم يظهر اهتماما بما يهم الناس . إننى فى دهشة من موقفه السلبى .

تأمله أحمد عبد اللطيف بعينين ضيقتين ولم يرد حتى استعجل رده . فقال بنبرة عتاب : «طيب يا عباس يا ولد عمتى لما أنت عارف أنه هو نائب العمدة المسئول عما يجرى فى القرية ، لماذا لم تجر إليه يوم حضرت من البدارى لتعرض عليه ما سمعت وتأخذ رأيه قبل أن تشيع رأيك فى الناس ، خاصة وأنه بحكم سنه فى منزلة الوالد» . هم بأن

يقاطعه ولكنه استرسل : إنك لا تعرف يا عباس ماذا يقال فى القرية لأنك لا تقابل إلا من يأتى إليك . وأغلب الذين يأتون إليك يحضرون مراقبين ومترقبين أن يعرفوا «أية آخرة الحكاية» . حماسك الشديد لما تقول أنه دفاع عنهم أعجبهم ولكن لم يصدقوه لانهم لا يتذكرون لاهم ولا اباؤهم أن أحداً دافع أو يدافع عن أحد من غير عائلته إلا «لمصلحتها» . والشائع فى القرية أنك تمهد بكل هذا لتكون عمدة .

وهذه الشائعة قديمة . فمنذ أن حضرت من مصر وهدمت البيت القديم وبعت نصف المواشى وبنيت هذا البيت والناس تقول أنك تجهز مقرا يليق بالعمدة ، وللكلام أصل ، فقبل أن تحضر قضى أخواك مرسى واسماعيل أكثر من سنة وهما يضربان الطين طوبا تمهيدا لحضورك ويرددان أن ذلك اعداد لمقر العمدية ، وعلى رأى المثل «مافيش دخان من غير نار» . وطبعا الشيخ محمود شعر بأنك تعد نفسك «لترثه وهو حى» لابد أن يكون قد تأثر بهذا الشعور فصدق أن حكاية لم الناس والاجتماعات والعريضة القصد منها العمدية .

قاطعه غاضبا : أعوذ بالله . الشيخ محمود يظن بى هذه الظنون ، يتناسى أنه ابن خالى والخال والد ، قم بنا نذهب إليه .

قال : لا . لا. طول بالك ودعنى أكمل حديثى حتى لا تقول أنه بالقطاعى .

أخى الشيخ محمود رجل طاعن فى السن كما تعرف ، وقد مل العمدية التى أفقرته بعد أن كان غنيا ومازال يتمنى أن يتركها ولو بالموت فقد مل الحياة ذاتها . سأل : أفقرته ؟ كيف ؟ قال : طلبات

الموظفين لا تنتهي . إنهم غرباء في بلاد لا توفر لهم ما تعودوا عليه من مسكن ومأكل وخدم فيطلبون ما يحتاجون إليه من العمد ، والعمد لا يطلبون له ثمنا وهم لا يلحون . أحكي لك آخر حكاية «عشان تضحك بدل ما أنت مكشر وعشان أن كنت بتفكر في العمدية تراجع روحك قبل الفاس ما تقع في الراس» . منذ شهرين استدعى معاون الادارة الشيخ محمود . فلما ذهب إليه في مكتبه استقبله واقفا وقال «تفضل يا عمدة» الشيخ محمود أخي قال لي أنه شعر مباشرة أن في هذا الترحيب الغريب ما يريب فقال لنفسه اللهم اجعله خيراً .. بعد السؤال عن الصحة والقهوة قال له بمودة بالغة «يا شيخ محمود أنت عارف طبعا أن لي ولدا في المدرسة الابتدائية . ألست أمه يا سيدي كانت قد نذرت أنه إن نجح هذا العام تدعو زملاءه في الفصل إلى وليمة تذبح فيها ثلاثة ديوك رومي بيضاء . يكون ريشها كله أبيض بدون أية علامة سوداء ، وقد بحثنا في البداري كلها عن ديوك رومي بيضاء فلم نجد . ففكرت أنه ربما يكون عندكم في الهمامية أو القرى المجاورة ، فارسلت إليك راجيا أن تبحث لي عن طلب الست حتى لا تزعل الست أو يحدث ما يسيئ إلى الولد نتيجة عدم الوفاء بالنذر» . قال له أخي الشيخ محمود : غالي وطلب رخيص . الديوك الرومي البيضاء موجودة بكثرة في جهتنا . وان شاء الله قبل نهاية الاسبوع أرسلها إليك مع أحد الخفراء أو أحضرها بنفسي . قال معاون الادارة : لكن بالثمن طبعا . قال أخي : طبعا طبعا . بعد أسبوع أرسل إليه ثلاثة «دكور مالطي» (ديوك رومي) .

قال الشيخ عباس مستغربا : بيضاء .

قال أحمد عبد اللطيف : «بيضاء إيه يا ولد عمتى هو فيه فى الصعيد دكور مالطى بيضاء أرسل إليه ديوكا سوداء مما هو موجود ..

قال الشيخ عباس : لكن الشيخ محمود قال أنها موجودة بكثرة وأنا استغربت . قال أحمد عبد اللطيف : لأنه من كثرة خبرته مع الموظفين فاهم كلامهم ، ففهم منذ البداية أن معاون الادارة يريد ديوكا رومية ، بيضاء أو سوداء لا يهم ، المهم أن تكون «هدية» بدون مقابل وهذا ما تم فعلا . أخذ المعاون الديوك السوداء وشكر الشيخ محمود ، ولم يهتم لا باللون ولا بالثمن .. وهذه هى العمدية . فهل تريد أن تكون عمدة . ؟

ضحك وقال : لا والله . ولكن ليس من أجل الديوك . مسألة الديوك بسيطة . ما علينا ، المهم الآن كيف نرضى الشيخ محمود .

قال أحمد عبد اللطيف : نأخذ رأيه . إنه طاعن فى السن ولكن «واعر ونابه أزرق» .

قال وما هو رأيه ؟

قال : أخشى أن أنقل إليك ما قال فتغضب .

قال : كيف أغضب منه وأنا أريد أن أرضيه .

قال : ذنبك على جنبك، على أى حال لقد غير اليوم رأيه . إنما فى البداية تحدث معى عن الموضوع منذ أول اجتماع لنا يوم الثلاثاء الذى فات . عدت الى المنزل فى الفجر فوجدته يصلى فى «منضرتنا» انتظرته. ختم الصلاة ثم سألنى أين كنت فحكيت له الحكاية . فقال : يا أحمد يا أخى أن عباس «ولد عمتنا» كبر سنا ولكن يبدو أنه لايزال طائشا كما كان وهو صغير . إن ما تدعون اليه وما ستفعلونه «كلام فاضى لا يودى ولا يجيب هلبت ما يضر ويكره تشوف » لو أن أحدا

هددك بالقتل يا أحمد فالى من تشتكيه ؟ قلت الى العمدة . وإذا سرقك أحد فالى من تشتكيه ؟ قلت الى العمدة . قال طيب افترض إن العمدة غائب واقترح عليك أحد أن تشتكي القاتل الى القاتل والسارق الى السارق ، فهل تفعل : طبعا لا . سأل : لماذا ؟ فلم أعرف الرد . قال لأنك إن تفعل تنبه الفاعل الى أنك عرفت أنه الفاعل وأنك ستشكوه الى الحكومة. فربما يقتلك فعلا حتى لاتشكو أو يجهز شهودا على أنه لم يكن موجودا في البلد يوم الحادث . صح . ؟ . قلت : صح . قال هذا بـ «الظبط» ما تريدون فعله تريدون أن تشتكوا الحكومة الى الحكومة . أن تطلبوا من الحكومة أن تحميكم من الحكومة . أكثر من هذا أن تقدموا الى الحكومة قائمة بأسماء غير المتزوجين من الرجال ما بين سن العشرين والأربعين ، مع أن الحكومة لاتعرف عددهم أو أسماءهم . لاتعرفهم يا أحمد إلا إذا سألتنى أنا لانى وحدى الذى يحتفظ بدفتر المواليد ودفتر الوفيات . ولو سألتنى وقلت لها الدفتر ضاع فلن تعرفهم أبدا وهذا خير للبلد . ربما تفصلنى من المصيبة التى أنا فيها «فيبقى خير وبركة» . أما ما تدعون إليه وتفعلونه فهو كلام فاضى .

هكذا تحدث أخي ثم تركنى إلى داخل الدار . بعد خطوتين التفت إليّ وقال : قل لعباس ولد عمتك « سيبك من العك فى بلاد أنت متعرفهاش» ، أما عنى أنا «فلا حضرت ولا سمعت ولا شفت ولا عرفت ولا عاوز نعرف لا أنا ولاخفرائي وأنتم حرين » .

صمت أحمد عبد اللطيف نادما على ما قال .

وصمت الشيخ عباس مغيظا مما سمع .

هم أحمد عبد اللطيف بالوقوف لينصرف فأوقفه الشيخ عباس

سائلا: هل لا يزال الشيخ محمود على رأيه هذا ، لقد سمعتك تقول فى البداية أنه غير رأيه . ارتاح أحمد عبد اللطيف للسؤال وقال : لا . أبدا . أبدا . لم أكن والله أعرف أنه يحبك وأن قلبه معك وخائف عليك إلى الدرجة التى عرفتها بعد ظهر اليوم .

قال بلهجة مستجدية : كيف كان ذلك يا ولد خالى .

ضحك أحمد عبد اللطيف فكشف عما تناثر فى فمه من زوائد عظيمة داكنة وقال سعيدا بلهفة صاحبه : هذا سر وافتعل ضحكة أخرى .

– وهل توجد بيننا أسرار يا أحمد . نحن أخان .

– طبعا . ولكنه سر بينى وبين أخى الأكبر . وأنت أخى الأصغر . والكبير مفضل أليس كذلك . وضحك مرة ثالثة ضحكة ساخرة .

– كما تشاء .

قال جادا ، يبدو أن لم يبلغك ما جرى منذ صلاة الجمعة .

– لم يبلغنى ، ما الذى جرى ؟ الواقع أن لا شىء يبلغنى مما يجرى فى البلد .

– إلا ما يسرك طبعا .

– وهل ما جرى منذ صلاة الجمعة لا يسرنى .

– أغضبت البلد كلها وهذا لايسرك .. وأرضيت أخى الشيخ محمود نائب العمدة وهذا يسرك طبعا . «مش إكُدِه» ؟ .

– لا أفهم .

سحب أحمد عبد اللطيف قدميه المتدليين من «المركوب» ، ورفعهما

الى «الدكة» واستدار فواجه جاره عليها ، وتململ ليتأكد أنه مستقر فى جلسته ثم قال واعظا : «شف يا عباس» ، بعد انقضاء صلاة الجمعة وتواعدنا على اللقاء فى المغرب حمل الشيخ أحمد معتوق المصحف الكبير وذهب مهرولا ، مغيظا ، إلى نائب العمدة ، أخى الشيخ محمود ، وصحبه آخرون طلب إليهم أن يصحبوه وأن يكونوا عليه شهودا . فصحبه كل الآخرين الذين اجتمعوا من قبل فى هذه المنضرة وكانوا من المصلين . وطبعا أنا كنت هناك . وبعد السلام فوجىء الشيخ محمود والجالسين بأن الشيخ أحمد معتوق الامام فتح المصحف على سورة النور ووضعه على عينيه وقال مضطربا حتى ليكاد يبكى : أشهد يا عمدة . اشهدوا يا ناس . وحق هذا المصحف الشريف أننى لم اتفق مع عباس ولد محمد اسماعيل على أن يغير خاتم الخطبة وبدلا من الدعاء لولى الأمر بالهداية والتوفيق يدعو باللعنة على من يتطوع للخدمة فى حرب الكافرين . هل سمع منكم أحد طوال عمره أننى ألعن أحدا على المنبر ؟ ده حرام .

قالوا له : ما سمعناش .

قال الامام وقد بلغ قمة الانفعال : طيب إذا كان المصحف لا يكفيكم فعلىّ الطلاق ثلاثة من بيتى أنى لم اتفق مع عباس ولد محمد اسماعيل على لعن اللى يتطوع أو كفر اللى يسمع كلام الحكومة .

قال على حامد حماد : صادق يا شريف . ثم وجه حديثه الى العمدة . أصل المسألة يا حضرة العمدة أن عباس ده ولد عمتك مشاغب وثورجى وعايز يعمل فتنة فى البلد بين الاهالى والحكومة ودى حاجات تعلمها فى مصر «مش كان عيقولوا انه من شغول الخديوى . ده حتى ولد عمى تصديق سمع الكلام ده فى مصر وشيع جواب » .

قاطعه أخي الشيخ محمود : هل ابن عمك صديق في مصر .. وماذا يفعل في مصر ؟

قال علي حامد : والله ما نعرف يا عمدة .

قال العمدة : « سيبنا من صديق . وأنتم يا رجالة كل واحد يروح لحاله وينتبه لمصالحه ويبعد عما يغضب الحكومة لأن ده حرام . مش إكده يا شريف ؟» .

قال الشيخ أحمد معتوق : يا حضرة العمدة ... « يا ناس يا مؤمنين. كلكم شهود على إني طول عمري أقول اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم وأن الحكومة هي ولي الأمر » تأمل العمدة ثم أضاف . « وطبعا رجال الحكومة وعمدها » .

قال الجميع : صح ، وانصرفوا وقد تداولت بينهم كلمات تقول «واحنا مالنا ياعم » .. « الحكومة غدارة» و «اللي خاف سلم» .

وقد حضرت اليك قبل صلاة العشاء لأبلغك ألا تنتظر أحدا ، لأن أحدا لن يحضر اليك في المغرب كما تواعدوا .. ولا في الصباح . «بصراحة يا ولد عمتي البلد كلها خايفة ومتشككة في اللي بتعمله . ومقلوبة عليك .. ما هو برضه ما كانشي صح تختم الخطبة بلعنة الله على المتطوعين » .

قال بابتسامة هافتة : وأنت خايف يا أحمد .

قال : أبدا والله . ما ياخد الروح إلا خالقها . « دانا حتى مبسوط لأن أخي الشيخ محمود راضي عليك وخايف عليك برضه » .

– لماذا هو راض عني ؟

– قال ضاحكا : لم يقل لى . ولكنى فاهم . قال كلمة واحدة قبل أن ينصرف . قال كما لو كان يحدث نفسه : على أى حال الخير فيما اختاره الله . « ده عباس حتى ولو كان عمدة فعلا كان اترفد » .

قلت له : يا خوى أنا قلت لك أن ولد عمتنا لا يفكر فى العمودية وأنت عايش .

– ولا وأنا ميت .

– اطمأنيت يعنى .

– له . أنا خايف عليه . لمونة فى بلد قرفانة وخايف يعصروه .

– ليه .

– علشان الكلام حيوصل المركز ..

قال عباس مقاطعا :

– كلام إيه ؟ ..

– كلام الخطبة .

– أخوك هو اللى حيوصلها ؟

– لا أعوذ بالله . دى شغلة وكيل شيخ الغفر ..

قال بحدة واثقة : لاتخف يا أحمد . وقل لاخيك : « الحذر لا يمنع القدر» .

ولقد هم أحمد عبد اللطيف أن ينصرف .

فقال له الشيخ عباس مجاملا : «لسه بدرى» .. فاستجاب سريعا .. ثم قال :

ألا ترغب عمتي من أن «تعشيني» . ضحك الشيخ وقال : طبعا . لقد أخذنا الكلام فنرجو ألا تكون قد نامت .. دعنا نرى . واتجه الى باب منضرته ليدعو مرسى أو اسماعيل أخويه المرابطين ليلا في الردهة التي تطل عليها المنضرة ليكونا قريبين من أخيهما العزيز إذا ما احتاج الى أحد منهما .

غير أنه حين فتح باب المنضرة فى تلك الليلة ونادى : يا مرسى ، يا اسماعيل . لم يجب إلا اسماعيل . كان مرسى نائما على احدى الدكتين ويغط غطيطا متقطعا ينزعج له اسماعيل . هب اسماعيل قائلا : نعم . قال له أخوه : انظر فيما إذا كان لدى والدتك شيء نتعشى به . قال حاضر ودخل الى الدار . لم يغب طويلا . عاد وأطل برأسه داخل المنضرة وقال أسفا : يا أحمد يا ولد خالى أمى نامت فهل أوقظها . قال أحمد : لا . لا . لاتزعجها أنى منصرف لادرك زوجتي قبل أن تنام . نهض وقال : نكمل الكلام بكره .. قال : احضر إليك أم تحضر أنت . قال : سأحضر غدا قبل الظهر . قال : عظيم وسنتغدى معا إن شاء الله.

بعد دقائق دخل اسماعيل يحمل طبقا فيه حمامة محشوة فريكا ورغيفا من العيش الأبيض وقال : عشاك يا شيخ عباس قال عباس: «إيه الحكاية يا اسماعيل» ألم تقل إن أمك قد نامت فمن أين جئت بما يؤكل، وحمام أيضا . قال : من صفية امرأة مرسى جهزت لك العشاء ونامت هى أيضا . قال : ولكن ولد خالك كان يريد أن يتعشى .. قال ضاحكا : طب العشا من عمته وعمته نامت . قال الآخر ضاحكا : يا بخيل . قال : بخيل بخيل . البخل أفضل من خراب البيوت . تفضل . قال : تعالى نأكل سويا . قال : سأقفل الباب أولا حتى لا يشاركنا أحد

بشرط، قال ماهو الشرط يا أخى . قال هناك موضوع يشغلنى وأريد أن أتحدث اليك بشأنه فهل يمكن أن أنفرد بك غدا ولو نصف ساعة . قال إن شاء الله.

تعشيا . فقال متظارفا : هذه الوجبة تحتاج يا اسماعيل الى كوب من الشاى الثقيل . قال : ألا تريد أن تنام . قال شاكيا : والله يا أخى لم أعد أنام ، على أى حال دعنا نشرب شايا سويا ونتحدث فى الموضوع الذى يشغلك .

قال اسماعيل : حاضر .. خرج الى الردهة وألقم الكانون حطبا وأشعله ، وملأ «البراد» ماء من القلة ، وألقى فيه نصف حفنة من الشاى، ووضعه على النار الى أن يغلى ثم غسل كوبين من الزجاج وانتظر ماذا تفعل النار بالماء . وبدأ فى صياغة واعادة صياغة الموضوع الذى سيتحدث فيه إلى أخيه . كان يخشى أن يخطىء . لو كان يعرف الكتابة لكتبه . فلابد له من أن يحفظ صيغته حتى لا يخطىء .

لقد كان اسماعيل منذ أن حضر أخوه يلوذ بالصمت ويتفادى المناقشات والحوارات والاجتماعات خشية أن يخطىء فى حق أخيه الشيخ . ذلك لأن اسماعيل الأصغر فلاح «قرارى» ولا يستطيع أن يتصور عملا فى الحياة ذا جدوى غير فلاحة الأرض . حرثها وبذرها ، وزراعتها ، وحصادها ، وجمع محاصيلها ، ولم يكن يرى أن ثمة من هو أخيب من أُخيه مرسى المشغول ابدا بما جرى فى بنى هلال ولم ينشغل بما يجرى فى الغيطان ابدا . وتلك خيبة يدركها . أما خيبة أخيه عباس فمعصية على الادراك . ذهب الى الأزهر يتعلم فضاعت عليه سنين يأكل من عائد عرق غيره . وها هو قد عاد . الأمر المعقول أن يعوض ما ضاع من سنين زرعا مثمرا فى الحقول . ولكنه شغل نفسه بقراءة

«الجرانين» والكتب واخترع لنفسه حكاية العريضة والاجتماعات التى تستنزف مافى الدار من محاصيل شقى اسماعيل وهو ينتزعها من الأرض ويصبها فى الحاصل وأخوه المتعلم لا يسأل نفسه لماذا لا «يكد على روحه» ولماذا يعيش على ثمار عمل أخيه الصغير ونصر الجمال الرجل الفقير . ومع ذلك فهو أخوه . فليفترض أنه لم يعد من مصر . وليحرص على ألا يعارضه أو يعترض عليه أو يخدش هيبته أمام الناس أو أمام نفسه . وليصبر فالصبر جميل ..

غلى الشاى . فقضم من «قمع» السكر قضمتين وألقى بهما فى الشاى وهو يغلى ثم حمل البراد والكبايتين الى داخل المنضرة . وصب الشاب وقدمه الى أخيه ثم صب وقدم الى نفسه .. تسلم ايدك يا اسماعيل .. «شاى مزبوط» .. هه .. ما هو الموضوع الذى تريد أن نتحدث فيه ..

قال اسماعيل : والله يا أخى أنى لا أعرف «بالزبط» من اين أبدا الكلام. أنت رجل متعلم وتفهم كل شىء وأنا فلاح « زى تور الله فى برسيمه » فاخاف أن تكلمت أن أغلط . ضحك أخوه وقال : لا عليك يا اسماعيل : فنحن أخوة. فنظر إليه وقال : قل لى يا شيخ عباس ألا تنوى الزواج. فضحك الشيخ عباس وقال : ماالذى جعلك تفكر فى أننى أتزوج . أى زواج يا إسماعيل . هناك ماهو أهم من الزواج . قال اسماعيل : «زى إيه» ... قال : هذه أمور عويصة يا أخى ربما لاتفهمها ولكنى أقول لك ببساطة أن أهم من الزواج خدمة الناس . معرفة مشاكل الناس . ومساعدتهم على حلها . فى الزواج أنت تسعد امرأتك وتسعد نفسك ، لكن بخدمة الناس تسعد كل الناس . ما الذى أفعله أنا الآن يا

اسماعيل . أحاول أن أحفظ الناس من الهلاك فماذا تكون النتيجة ؟ يسعد الآباء والأمهات والأخوات بسلامة أولادهم ويسعد الأولاد بسلامتهم ، فيتزوجون ، يا اسماعيل ، ويسعدون أنفسهم ويسعدون زوجاتهم . « إيه رأيك » .

رأيى إنى « مش فاهم» إلا الكلام الأخير ، وفاهم أيضا أنك لا تنوى الزواج .

قال : فعلا يا أخى . إننى لا أنوى الزواج قريبا .

قال اسماعيل : أما أنا فانى نويت الزواج قريبا .. وأنى لأطلب الإذن منك ، إذ المفروض أننى لا أتزوج قبلك .

ضحك الشيخ وقال : إذن هذا هو الموضوع . ألف مبروك مقدما يا أخى . ومن هى السعيدة التى اخترتها . قال : أنا لم أختر . أبوك وأمك وعمك مشهور وامراته عَلاَّيه هم الذين اختاروا . فمنذ أن كنا أطفالا ، وأنت تعرف هذا ، وهم يقولون : اسماعيل لبخيته.. وبخيته لاسماعيل وقد قرأوا الفاتحة . . والآن مادمت لاتنوى الزواج فانى قد انتويت الزواج من بخيتة بنت عمى مشهور . قال على بركة الله .. هل تحدثت الى والدتك . قال هى موافقة . قال : خلاص . قال : لا «ماخلصشى» . لماذا يا اسماعيل ما المانع .

رفع اسماعيل صوته قليلا وقال : المانع أنت يا خوى .

جزع وقال : ليه ؟

قال : أنت مانع الزواج فى كل البلد .

قال : كيف هذا يا اسماعيل .

قال : منذ أن عرف الناس في القرية أن غير المتزوجين مهددون بأن يؤخذوا الى السلطة ركب الشبان عفريت اسمه «الجواز» . كل واحد يريد أن يتزوج . الآباء مشغولون بتزويج أولادهم « بأية واحدة» والأولاد يلحون، وأمهاتهم يبعثن المراسيل الى أمهات البنات ، ولا حديث في القرية إلا عن الزواج .

قال مقاطعا : لكن يا أخي لقد كتبنا العريضة التي تحميهم فمم يخافون .

قال : لا أحد يعرف أو يفهم كيف تحمي ورقة مكتوبة الناس من السلطة ، ورقة الكتّاب أضمن ، إلا أن الأمهات والبنات لا يردن الزواج .

قال : لماذا ؟

قال : أول مرة «الوليه العبيطة مبروكة مرت حسنين راحت لمرت محمد رفاعي وقالت لها سلفيني بنتك مجلعة يتجوزها ولدى علشان ما يخدوهشي في السلطة » . من ساعتها والناس يطلقون على الزواج هذه الايام زواج «سلف» يعني شحاته . وتأكد هذا الوصف لأن الآباء لايعرضون مهورا مناسبة بحجة «الظروف» فالكلام كتير ، والاتصالات متواصلة ، والرجال راغبون والنساء ممتنعات ، حتى بخيتة بنت عمي ممتنعة لأنها لا تريد زواج « سلف» فأنا أريدك أن تقابل عمي مشهور وتقنعه بأنها «جوازة مش سلف» .

ضحك وقال : حاضر يا اسماعيل سأقابل عمي غدا واتفق معه على مهر يرضيه فلا تظن بخيتة وأمها أنها سلف . ومع ذلك قال لي : متى

خطر لك أن تتزوج ؟ قال وهو ينصرف من المنضرة : « من يوم مافهمتنا أن السلطة لا تأخذ المتزوجين » .

تصبح على خير ..

(٦)

استيقظ بعد أن كانت أشعة الشمس قد غمرت بيوت القرية القائمة على سفح الجبل الشرقي، أى فى نحو الساعة التاسعة صباحا . فتح باب منضرته وأطل على الردهة فلم يجد إلا يونس عبد الله وفوزى مرسى . هبا واقفين حين رأياه . صباح الخير يا يونس . خير صباحين يا شيخ عباس . أين اسماعيل . اسماعيل ذهب هو ونصر الجمال منذ الفجر إلى سوق الريانية وأخذا البقرة السوداء . «أصلها كارفة» لها عشرة أيام فأخذاها الى سوق الريانية ليطلقا عليها ثور أولاد مصبح .

وأين مرسى . تفضل أدخل . دخل يونس عبد الله . فقال فوزى متوقعا جوابا : صباح الخير ياعم الشيخ عباس . فخرج اليه ضاحكا وطوق كتفيه الصغيرتين بيده وقال : صباح الخير يا حبيبى ، تعال أدخل أقعد معنا ، فقفز فوزى الى الداخل سعيدا. جلسا وبقى فوزى واقفا قال له بحنان عميق : أقعد يا فوزى . قال الصغير : « له . عيب » فضحك مرة أخرى وقال : طيب خد نيكله (نصف قرش) واذهب اشترى لنفسك «فول سودانى » وحلاوة من الدكان . خطف الغلام نصف القرش وانطلق يجرى حافيا .

أين مرسى يا يونس . قال يونس عبدالله : لقد تعارك مرسى مع

محمد عبد الله وأحمد عبد الرحيم «علشان المنضرة الكبيرة». كان اسماعيل قد طلب اليه أن يبلغ عمك مشهور أنك ستزوره اليوم فى بيته . فقال له لا أستقبله فى بيتى ولكن فى المنضرة . منضرة العيلة . وطلب منه أن يفتحها وينظفها بعد أن هجرت فأصبحت كالخرائب . ذهب مرسى إلى محمد عبد الله يطلب المفتاح فرفض محمد عبدالله . قال له : «عاوز مفتاح المنضرة ليه . مادام أخوك عمل له منضرة مخصوص وعزل حاله عن العيلة فخليكم يا بيت محمد اسماعيل فى حالكم بعيد عن منضرتنا .. وخلى أخوك ينفعكم » .. مرسى غضب ورد عليه ردا «وحش» فأحمد عبد الرحيم «اللى كان قاعد وسامع الكلام دعى على مرسى وقال له : «كيه تكلم عمك أكده يا قليل الحيا» . كتر الكلام فتكاثر الناس وعابو على مرسى كلامه فانصرف « زعلان» وغادر القرية الى الغيط .

قال الشيخ : ما سبب كل هذا يا يونس ؟

ضحك يونس عبد الله وقال : ولى الأمن من غضبك ، والأرزاق على الله .

فضحك الشيخ عباس وقال : طيب يا يونس عليك الامان . ما سبب كل هذا الذى يجرى فى العائلة .

قال يونس : عائلتك ، أولاد مشهور ، عندهم حق يا شيخ عباس . أنك حتى لم تلاحظ أنهم قاطعوا الاجتماعات ولم يشتركوا فى مسألة العريضة . لا أحد من كبار السن فيهم دخل هذه المنضرة إلا مرة واحدة يوم أن تم بناؤها حسب العادة مهنئا .. البلد كلها تعرف هذا

وتعترف لهم بالحق . انت متعلم وكبير مقام أى نعم ولكن العائلات لها أصول . المنضرة منضرة العائلة روك (شركة) بين بيوتها ومع ذلك قمت أنت ببناء منضرة خاصة ولم تهتم حتى بأخذ رأى أعمامك. أكثر أعمامك غضبا هو عمك مشهور لأنه ، حسب الأصول ، هو كبير العائلة بعد وفاة المرحوم والدك ، لهذا لا يريد أن تحضر اليه د منزله ولا يريد أن يقابلك فى هذه المنضرة ويصر على أن تتم المقابلة فى منضرة العائلة التى لم يعد يتردد عليها أحد منذ أن فتحت منضرتك ..

اطمأن الى صمت الشيخ عباس فرفع صوته قائلا : «دا حتى الحريم زعلانة يا شيخ عباس ومعتد خلشي بيتكم » ..

قال بحدة : وما شأن الحريم يا يونس فى هذا الموضوع .

قال برقة ومودة رفيق الطفولة : « يا عباس يا خوى أنت عتتصرف من راسك ومعتخدشى رأى حد .. حد يا عباس فتح باب المنضرة على باب البيت . طول عمرك شفت حد عمل أكده .. طب والحريم تطلع وتدخل كيه .. أنت عملت أكده ولا له .. حبست حريمكم فى بيتكم وقطعت رجل حريم العيلة من كتر الناس اللى قاعدة فى المنضرة وقدام المنضرة « .. هل يصح هذا يا عباس لماذا لا تأخذ رأى الناس فيما لاتعرفه من أمورهم.

قال : ولماذا لم يقل أحد رأيه .

قال : لانهم غير فاهمين ماذا تريد مما تفعل سواء فى المنضرة أو حتى فى العريضة .. ولأنك ضيف ومتعلم لا يريدون مواجهتك بالسؤال أو الاعتراض . وأنا الذى نشأ معك ويحبك ويفديك بروحه ، والله والله

لولا أنك أعطيتنى الامان من غضبك علىّ لما قلت ما قلت . لكن الحمد لله «..ها أنت ذا قد عرفت سبب كل ما يجرى فى العائلة ، واجب عليك الآن أن «تسترضاهم » ..

قال مستنكرا : أسترضيهم ؟ .. قاتل الله الجهل . على أى حال أشكرك يا يونس على صراحتك . إن الذى يحيرني فى هؤلاء الناس أنهم يكتمون ما بأنفسهم وهم غاضبون .. هل ينتظرون أن يطلع أحد على سرائرهم ليعرف فيم يفكرون وهل هم راضون أو غير راضين .. لاتقل لى أنه الخوف .. مم يخافون . ثم أنهم يعبرون عن مواقفهم بالقطيعة الصامتة فلماذا لايعبرون عنها بالكلام الواضح . إنه الجهل يا يونس .. والظاهر من الأمر أنه لم يبق لى غيرك يا يونس .. فانت الوحيد الذى يصارحنى . أى أنت الوحيد الذى تقوم بينه وبينى صلة الادميين . تبادل الأفكار بالكلام .. أما المواقف الصامتة فتلك من خصائص البهائم .. يفرح الكلب فيهز ذيله ويغضب الحمار «فيحرن» . [illegible] حرك . تعرف يا يونس لماذا فضل الله الإنسان على الحيوان بالكلام؟ «عشان يقول لا مش عشان يقول نعم . نعم مش عايزة كلام» . فبلدياتنا الذين يغضبون ولا يتكلمون أنعام .

ثم بترت ضحكته حين اندفع فوزى داخلا يمد يده بقرطاس من الفول السودانى وأربعة مليمات حمراء . : «اشتريت بمليم وآدى الباقى»..

الفول لك .. والباقى لك يا فوزى . لكن قل لى . لماذا أنت مرابط فى البيت هذا اليوم ألا تلعب مع أترابك ؟ .

قال الغلام على حياء ، لقد طلبت منى أمى أن أذهب الى الغيط لاستدعى «أبوى مرسى» وماذا تنتظر . لماذا لم تذهب كما قالت لك أمك. قال الغلام : لأنها أوصتنى أن أقول لأبى أنك أنت الذى تريد أن يعود من الغيط لأنه ذهب اليه «زعلان علشان خاطرك» . حكيت الحكاية لعمى يونس فقال لى انتظر حتى يستيقظ عمك وخذ رأيه ، فانتظرت ، هل أذهب الى أبى ؟ .

قال الشيخ عباس : هل تعرف لماذا تريد أمك أن يعود أبوك ونحن بعد فى أول النهار .

قال الغلام : «اصله النهاردة السوق » .

فضحك يونس ..

وفهم عباس فضحك وقال : آه .. فهمت طيب يا فوزى . ثم التفت الى يونس .. من فضلك يا يونس تأخذ فوزى معك ، وتذهب الى حسن البِزْبِز الجزار وتطلب منه أن يحجز لنا نصف جدى ، وهذه عشرة قروش.

فصاح فوزى فرحا : نصف جدى ..

قال : عشان خاطرك يا فوزى .. ودس فى يد يونس عبدالله الذى نهض خمسة عشر قرشا . ثلاث قطع فضية . قال يونس : هذا أكثر مما قلت . قال بمودة وقد نهض يودع يونس ووضع يده على كتفه : هذا من أجل أمك وأخوتك الصغار .. وسلم لى عليهم . قال يونس عبدالله .. الله يسلمك ويخليك ويحط البركة فيك .. يا الله يا فوزى ..

انطلقا سعيدين ..

قال فوزى وهو يهرول ليبقى بجوار يونس : ياعم يونس هوه عمى عباس كان «عيضحك ليه» .

قال يونس : والله يا ولدى ما عارف . «إمكن كان زعلان» .. أذهب أنت سريعا إلى الغيط واستدع أباك حتى لا تزعل أمك .

(٧)

طرق الباب بقبضته فنادته من داخل الدار : من ؟ .. قال : أنا عباس افتحى يا صفية . استمهلته قليلا ثم فتحت الباب وتنحت ثم قالت : تفضل . خطوة عزيزة . لنا جمعة لم نرك وأمك «قلقانة» . «إيه يا سلفى بس اللى إنت شاغل بيه روحك . لا أنا عارفة ولا مرسى عارف . قلت له يا مرسى يا ولد عمى أخوك عيعمل إيه مع الناس دى كلها قال والله ما أنا عارف» . قال لها ضاحكا : وهل تعرف أمى ؟ .. قالت ضاحكة : «يوه . عمتى عتعرف كل حاجة بس أنا مسألتهاش» . قال : أين هى ؟ . قالت أمه من داخل الحجرة حجرتها : «أنا إهنه تعالى يا عباس يا ولدى .. بنت يا صفية هاتى حاجة لسلفك يبلع ريقه (يفطر)» . حاضر .

صباح الخير يا أمى .

صباح الخير يا ولدى .

لقد ترهلت أمه . جلس أمامها على حصيرة عليها فروة خروف تجلس عليها وقال : كيف أنت اليوم . قالت : «أهه . زى كل يوم .. الله حسن الختام» . قال : «ربنا يخليكى لينا» .

قالت : «ويخليك ويستـرك ويحميك من اللى يعاديك يا عباس يا ولدى».

جاء الإفطار . بيضتان غارقتان فى الدهان و«بتاوة» قيضى مقمرة .. نظر إلى صفيسة فقالت : هذه تصبيرة إلى أن يأتى العشاء بالفطير والمرق واللحم .. بعد عودة مرسى . قال لها : لقد حجزت لكم اللحم . نصف جدى . وأرسلت فوزى ليستدعى والده .. فقالت : «ربنا يخليك لينا» ، أذهب أنا إذن أجهز العجين والفرن والكانون .

قال : يا أمى أنى أريدك أن تصحبينى إلى بيت عمى مشهور نخطب بخيتة لاسماعيل . ولأن عمى مشهور غاضب منى فوجودك معى يخفف غضبه .

قالت بصرامة : «وهو مشهور زعلان ليه» .

قال : من أجل المنضرة . لابد أنك تعرفين . ثم أن بخيتة لا تريد أن يتم الزواج لأنها تعتقد أن هذا الزواج «سلف» كما يقولون .. وضحك .

قالت : يا ولدى .. «لاَ منضرة ولا سلفه ولا حاجة . يا ولدى أنهم يكذبون . المسألة قديمة منذ أن مات أبوك . وعمك مشهور «شايل مننا»..

لماذا ؟

قالت : حين اختير أبوك للعمودية كان ينقصه ستة قراريط . فأخذ القراريط الستة من عمك مشهور . بيع وشراء وكتبنا

ورقة . بعد وفاة المرحوم أبيك ، وسفرك بعد الأربعين ، جاء عمك مشهور وقال لى يا بخاتى أنا عايز أرضى . الستة قراريط . قلت له ألم تبعها للمرحوم . قال : لا . لقد كان ذلك من أجل إكمال نصاب العمودية . فأنا قلت له لا يا مشهور ، لو كان ذلك من أجل نصاب العمودية كنت بقيت «راكب الأرض» كما هى العادة . ولكن المرحوم «ركب الأرض» بعد البيع وأنت قبضت الثمن ٢٠٠ قرش . قام غاضبا وقال : «أنت عتكدبينى يا بخاتى».

قلت له غاضبة : «الورقة معايا وأنا ماعنكدبشي .. ومن ساعتها وهو شايل مننا» ..

قال : سأسوى هذا الموضوع ، أعطنى الورقة وأنا سأسوى الموضوع مع عمى . فدست يدها فى سحارة قديمة وأخرجتها ملفوفة فى منديل واعطتها له .. المهم أن نخطب بخيتة لاسماعيل قبل أن يعود اسماعيل من الرياينة . أنا وعدته بهذا فلا تكسفينى .. وهيا نذهب إلى عمى مشهور ..

قالت : يا ولدى أنا لم أخرج من الدار منذ مات المرحوم ابوك .. هذه عادتنا .. الأرملة لا تخرج من الدار بعد وفاة زوجها مادام عندها أولاد «عيب الناس يشوفوها ويقولوا رايحة وين المرة دى بعد ما جوزها راح».

ضحك وقال : لا عليك أنها خطوات قليلة إلى بيت عمى . ولا أحد سيعرف من أنت . ثم أنى معك ..

فجاءت صفية من حيث لا يدرى أحد تحمل «الشقة» . قالت بخاتى : هاتى .. إنشاالله تتقطع رقبتك . يا بت أنت كنت تتسنطى علينا .. فضحكت صفية .. وتزعنفت بخاتى . وذهبا إلى بيت مشهور ..

استقبلهما عجوز لا يكاد يرى . ورحب به ترحيبا باردا . فقال وهو يصافحه : أنا عباس يا عم مشهور . ثم همس فى أذنه : ورقة الأرض معي وسنسوى الموضوع معا . فرحب به ترحيبا منفعل الحرارة وأجلسه بجواره على المقعد . وجاءت امرأته علايه ورحبت ببخاتى التى تجاهلها مشهور . تحدثت بخاتى إلى علاية عن اسماعيل وبخيتة . فقالت علاية : «وماله يا ختى ولد العم أبدى من الغريب» . قالت بخاتى : «وماتنسيش يا علاية يا ختى إننا من يوم ما تولدوا وعنقولوا بخيتة لاسماعيل واسماعيل لبخيتة» . قال عباس : «على بركة الله . باقى الأمور أسويها أنا وعمى لأن اسماعيل مستعجل على «الدخلة» . فنطق عمه لأول مرة اثباتا لوجوده : «له . الدخلة بعد قطع القيضى» . قال عباس : إن شاء الله . الفاتحة . قالت علاية وقد انطلقت من فمها ضحكة لم تشذبها أسنان : «يوه ما قرينا الفاتحة أولت أولت عمنول» . قال مشهور بحماسة : «يوه ، يا مرة حد يعترض على الفاتحة . الفاتحة» . فصمتوا يتمتمون . ثم انصرفا بدون أن تظهر بخيتة من مكمنها خلف المقعد . ولم يقل أحد أو يسمع حكاية «جواز السلف» .

حينا عادا وجدا مرسى واسماعيل ونصر الجمال والبقرة

السوداء عائدين . لم يذهب مرسى إلى الغيط غاضبا . ما أن غادر القرية حتى هدأ فاتجه رأسا إلى الريانة حيث السوق ولكن ليس إلى السوق . وإنما إلى منزل محمد بدوى قبيل مدخل القرية . إذ محمد بدوى هو شاعر الربابة العظيم والراوية الأعظم ، على أنغام الربابة ، لقصة الهلالية ، فيما بين أيام السوق يحيى الأفراح فى القرى . أما يوم سوق قريته «الريانة» (العقال القبلى) فيستقبل فى منضرته الراغبين فى سماع بضاعته من رواد السوق . من يبكر منهم يسمع القصة من أولها . فبكر مرسى ليستمع إلى محمد بدوى . قابضا يده على «نيكلة» مقابل الاستماع . أما البقرة السوداء فقد عادت «كارفة» كما ذهبت . لم تسمح الظروف بأن تزف إلى ثور بيت مصبح .

يشرح الظروف اسماعيل بينما انصرف نصر والبقرة إلى مأواهما .

قال اسماعيل يائسا : كان يوما أزرق . لا سوق ولا موق . لقد كانوا يأخذون منا البقرة لولا أنى جريت بها . كل الناس كانوا يجرون ببهائم وبغير بهائم . من يتعطل يتلقى من الهجانة قسمته من الكرابيج . الحريم تصرخ . والعيال تبكى . والحرامية يخطفون . والهجانة يضربون . «تقولشى القيامة قامت» ..

لماذا يا أسماعيل . ماالذى جرى ..

مـا جـرى لا يحكى يا ولد أبوى . هـول . كنا ذاهبين ، أنا والبـقـرة ونصـر إلى بيت مـصـبح لنطلق ثورهم على بقـرتنا . أصـلـهـا كـارفـة منـذ عشـرة أيام . مـاشـيين فى الدرب «اللى غـرب الجـامع» سـمـعنا صراخا من شـرق الجامع . من جـهة السوق . قلت لنصـر «إيه ده يا نصر ؟» . قـال لى : «مالكش دعوة . جـر البقرة وأجرى وأنا وراك . ومسيرنا نعرف إيه ده . لازم مصيبة . هوه يعنى الناس عتصرخ من الفـرح سـحبت مقـود البـقـرة وشـددته ونصر ضـربهـا بالعكاز على بطنهـا لغـاية مـا وصـلنا رهبـة أولاد هـريدى . لقـينا الناس أمم . وجمـال الهجانة ناخـة . والهـجانة ماسـكين الكرابيج وبيجروا ورا الناس . نصـر قـال لى بيت مـحـمـد سـلمـان على يمينك . أدخل عند اختـك . دخلنا . أنا والبـقـرة ونصـر وغلقـنا البـاب . لقـيت أخـتى «وشار» تصرخ وهـى فى بيتـها . سـألتها إيه الحكـاية «يابت أبوى» . صرخت يا خـراب البيت يا اسمـاعين . خدوا الغلة وخدوا الحمير . الهـجانة «حـاوطـوا السـوق وخـدوا الغلـة من الناس ومن التـجـار وحطوها على الحـمـير اللى فى السـوق . سـوق الحـمـير اللى مـن بحـرى . واللى يقـول لَهَ يضـربوه بالكرابيـج «وكـان العـمـدة واقـفـا . والغـفـر واقـفـين . ومـعـهـم الحكام من المركـز» . ومـعـاهم واحـد ببـرنيطة وعسـاكر ببرانيط مـاسـكين سـلاح . لما شـافـهم ، أول مـا شـافـهم ، ولد غـانم مـحـمـود صـرخ وقـال أجـروا يا ناس هايخدوا البـهـايم . كل النـاس جـرت ومـعـاهم بـهـايمهم وصـرخت الحـريم فصعدت أختى وشـار على السـطح وشافت أنهم يأخذون الغلة والحمير بس . وصرخت ..

وهل أخذوا من بيت سلمان شيئا .

لَهْ . سألتها قالت له : «أنا عنصرخ مع أهل البلد . البلد كلها لازم تصرخ ، دى سرقة فى عز النهار والرجالة هربوا» .

جلس الشيخ عباس مغيظا حزينا يكاد يبكي وقال : ويعدين يا اسماعيل ..

قال اسماعيل : وبعدين إيه ؟ . ولا قابلين . بعد أن انصرف الهجانة تسللت أنا والبقرة ونصر وعدنا إلى هنا . مررنا على بيت محمد بدوى لقينا الفالح مرسى واقفا ومعه آخرون .

عرفنا منهم أن السلطة هى التى جمعت الحمير من السوق وحملت عليها الغلة وضربت الناس بالكرابيج . «وعيقولوا الدور الجاى على بلدنا» .. تمهل ليلتقط أنفاسه ثم قال لعباس : وأنت عملت إيه مع عمى مشهور ..

قال عباس : خلاص يا سيدى . مبروك . ذهبت إليه أنا وأمك واتفقنا على أن «الدخلة» بعد قطع القيضى . فصرخ اسماعيل : له . له . يا عباس . قلت لك الدور على بلدنا . النهاردة خدوا الحمير والغلة بكرة ياخدوا الرجالة . له . له . لازم الدخلة يوم الخميس بالكتير ..

حاضر يا اسماعيل ..

لم تنم القرية ولا نام أهل القرى المجاورة وهم يتناقلون أخبار الرياينة ، كانت بسيطة فأصبحت مركبة ، ويتدبرون

فرادى وجماعات كيف يخفون الحمير والغلال وكيف يختفون ..

ويستمع يونس عبدالله ، متنقلا بين أهل القرية ، منتهزا فرصة توقف الحديث الخائف ليبتسم شامتا ويقول لمن يستمع إليه : ألم يكن الشيخ عباس على حق ، فلا يرد عليه أحد .

(٨)

فجر اليوم التالى لم يرد إلى الترعة أحد من أفواج الرجال يتطهرون ، ولا صلى أحد من الشباب جنوبى الكوبرى الخشبى الركيك . ولا تحدثت الإناث فى الموردة شمالى الكوبرى عن شئ غير خطف الغلة والحمير فى الرياينة وأن «الدور جاى على بلدنا» . وسيخطفون الرجالة كما قال اسماعيل ولد المرحوم الشيخ محمد اسماعيل . ولم يذهب كثير من القرية إلى الغيطان . خيمت على القرية سحائب كئيبة من خوف المجهول وترقبه . فكثرت اللقاءات بين العائلات . يتداولون علهم يعرفون كيف يتقون مالا يعرفون . ذلك لأنه قبل أن ينتصف النهار نزلت رواية اسماعيل إلى هامش متن روايات أقسم مؤلفوها على صحتها أغلظ الإيمان .

قال حسن عبدالعزيز أن المصيبة في «الرياينة» لم تقتصر على أخذ الغلة والحمير والضرب بالكرابيج ، بل أن الخواجات فتشوا بيوت الأعيان واستولوا على كل خفيف ثمين من نقود

أو حلى .

وقال محمود موسى أنهم أخذوا من «الكوم الأحمر» مع الحمير الجمال . وقال حسان حسانين أنهم فى «بويط» هتكوا أعراض النسوان . وقال مصطفى أحمد مصطفى أنهم فى بلدة «طعمة» خطفوا العيال الصغيرين . فقال يونس عبدالله شامتا ألم يقل لكم الشيخ عباس أن السلطة ستأخذ الغلة والحمير والجمال والنقود والحلى وتخطف الأطفال وتهتك أعراض النسوان .. ألم يقرأ لكم ما فى «الجرنال» ..

اختار نفر من كل عائلة أن ينقلوا الرواية ويلتمسوا الرأى عند العمدة محمود عبداللطيف فنفروا إلى منضرته .

قال اسماعيل غاضبا : ما هذه الحكاية يا حضرة العمدة . ما الذى جرى لترسل الغفر يجروني إليك جرا .

قال محمود عبداللطيف : اهدأ يا اسماعيل يا ولد عمتى . أنا محتاج إليك وأرجو أن تكون معى من الصادقين . ولا تنسى أن الناس هنا شهود على ما تقول .

قال اسماعيل : ماذا أقول .

قال العمدة : اهدأ أولا وأجلس ثم أجب : «من الذى قال لك أو سمعت منه فى الريانة أن الدور جاى على بلدنا وأن السلطة بعد أن تأخذ الغلة والحمير ستخطف الرجالة» .. من بالظبط يا اسماعيل ؟ ..

قال اسماعيل : ما حدش ..

قال العمدة بحدة : من أين إذن أتيت بهذا الكلام .

قال اسماعيل : من مخي ..

قال العمدة : وما الذى أدخل هذا الكلام في مخك ؟

فسكت اسماعيل ..

قال العمدة يأمر خفراءه : اذهبوا فورا واحضروا لى هنا حسن عبدالعزيز ومحمود موسى وحسان حسانين ومصطفى أحمد مصطفى . حالا . فانطلقوا مسرعين .

يا حسن هل كنت فى «الريباينة» أمس ؟ – له . يا محمود موسى : هل ذهبت طول عمرك إلى «الكوم الأحمر» أو تعرف أحدا من أهله ؟ – له . يا حسان حسانين : هل قال لك أحد من «بويط» أن السلطة هتكوا أعراض النسوان ؟ – له . يا مصطفى أحمد : هل بلغك من أحد فى «طعمة» أن السلطة خطفوا ولده ؟ . له ..

صاح العمدة : أمال إيه الحكاية يا ولاد الكلب ..

قال حسن عبدالعزيز : مافيش داعى للإهانة يا عمدة . لم نقل نحن شيئا غير ما سمعنا ..

وممن سمعتم ؟ .

قال حسن : من البلد . كل البلد عتقول أن هذا حصل فى الريباينة والكوم الأحمر وبويط وطعمة . وفى البدارى وأسيوط كمان .

قال العمدة للخفراء : احبسوا هؤلاء الأربعة فى حجرة التليفون واحرسوهم . أما أنت يا اسماعيل فاذهب وابعث لى بأخيك عباس .. قل له العمدة يريد أن يراك الآن ..

تدخل أحمد عبد اللطيف بنبرة حازمة : يا شيخ محمود يا خوى ما فيش داعى . أنا أقول لك أصل الحكاية .. الكلمة لك .. نعم . ولكن بعد أن تسمعنى . وهؤلاء الناس يعرفون ما سأقوله ..

قل يا أحمد .. انتظر يا اسماعيل ..

قال أحمد : مشاغلك لم تسمح لك بأن تذهب إلى منضرة الشيخ عباس .. لكن كلنا رحنا بدل المرة مرات . وهو يقرأ الجرائد . وينقل إلينا أخبار الحرب والهلاك الذى تسببه ، وفهمنا ، وفهم كل الموجودين ، أن من يوم ما قامت الحرب أصبح الانجليز هم المسيطرين على بر مصر . وكان يسمى الانجليز السلطة . وفى البدارى وفى طما وفى أبو تيج . كانوا يسمونها السلطة «أى والله مش هوه بس» . بس هوه كان يتكلم كثيرا أمامنا عن إيه يعنى السلطة «اللى همه الانجليز» . وكان يصفهم بأنهم مجرمون ولصوص . وأنهم إذا دخلوا بلدا يأخذون الغلال والمواشى والأموال ويغتصبون النساء . «ماجبشى سيرة العيال» . وقال أنهم دخلوا بلادا كثيرة وفعلوا بها ما قال . فنحن جميعا ، عندما سمعنا أن السلطة وصلت الرياينة وأخذت الحمير والغلال فكرنا أن الدور سيأتى ويأخذون باقى المواشى والرجال والنساء . كل واحد منا ، ومن الحاضرين متوقع أن هذا سيحدث . فالذى حدث أن الشبان الصغار

قالوا أنه حدث فعلا وسرت الإشاعة وصدقها الناس . هذه هى الحكاية . صح يا رجالة ؟ ..

قالوا جميعا : صح ..

قال أحمد : والآن وقد عرفت الحقيقة فالأمر لك .

صمت الشيخ محمود عبداللطيف طويلا والناس صامتون ثم رفع رأسه ببطء وقال للخفراء : اطلقوا سراح الأولاد . وأنت يا اسماعيل عد إلى منزلك . لكن «ماحدش يتكلم عن حاجة إلا إذأ شافها بعينه أو سمعها بودنه وجه قال لى» وانى لذاهب صباح غد إلى المركز لاستقصى الاخبار من مصادرها الرسمية . ونتقابل غدا مساء ان شاء الله بعد المغرب » . «اللى فيه الخير يقدمه ربنا» ..

فانصرفوا وبقى أحمد ..

قال أحمد : يا شيخ محمود . اصطحب معك غدا الشيخ عباس ولد عمتك إلى المركز يساعدك إذا احتجت إلى من يقرأ لك ما هو مكتوب فى الأوراق الرسمية لأن الأوراق الرسمية كما تعرف وكما تقول دائما هى المصدر الموثوق للأخبار الصحيحة .. قال العمدة ضاحكا : أنت عفريت يا أحمد .. هذا ما كنت أفكر فيه . أخشى ألا يقبل المجئ معى ، قال أحمد : بل يقبل سعيدا إذ هو معتكف فى منضرته مغلقا عليه إلباب حزينا ، ولابد أنه يفكر فيما يجب عمله منذ أن استمع إلى رواية اسماعيل . وعلى أى حال ، أنا - بعد إذنك - أذهب إليه الآن وآتيك بالخبر اليقين .

قال : أذهب وعد بسرعة .

ذهب وعاد بسرعة .

قال طبعا يسرني أن أكون مع العمدة ولكن ليس غدا .

فقاطعه العمدة : لماذا . أنا وعدت البلد ..

قال أحمد : يرى الشيخ عباس أن غدا يوم الاثنين . يوم سوق البدارى . وهـ ... جال الإدارة «على رواقة» . إنهم سيكونون مش ... ى السوق . وسيكون هناك رجال ين السلطة ا ... في سوق البدارى ما فعلوه في سوق الريانية فلا نجد احدا «عاصى» يتحدث معنا . بعد غد الثلاثاء ان شاء الله نذهب إلى حيث يريد العمدة . هذا رأى عباس . ولكنه قال : أما إذا كان العمدة مصرا على غد فسأذهب معه ارضاء له ولكن أخشى أن مشوارنا لن يؤدى إلى ما يريد .

قال العمدة : عنده حق . غدا سأعتكف . وقل للناس أني مريض . وسأذهب يوم الثلاثاء ، والآن أذهب وأشكر الشيخ عباس وقل له أننا سنلتقي يوم الثلاثاء في الصباح الباكر عند الكوبرى كما لو كنا قد تقابلنا مصادفة .

ما أن برز أحمد عبداللطيف من «منضرتهم» مهرولا حتى أوقفه بغتة صوت صرخة قادمة من أقصى الدرب ثم صرخات متتابعات . فتاة سافرة الوجه على رأسها طرحة تنحنى كل بضع خطوات فتغرف من تراب الأرض ما تهيله على رأسها وهى تصرخ بصوت حاد : «يا كسرى ...... يا غووووورتى . يا كاااسرى . وين العمدة وين . قتلوه . مين ياخد تارى مين . يا كسرى .... يا غووووورتى» . ومازالت تجرى

وتصرخ وتغرف التراب وتهيله على رأسها فيتساقط على طرحتها حتى، أدركت أحمد واقفا أمام منضرتهم . قبل أن تدركه كانت قد رددت صرخاتها فى الدرب صرخات من داخل البيوت ومن فوق أسطمها . وتابعها جريا رهط من الأطفال . واجتمع حول أحمد عبداللطيف بعض الشباب والرجال . وبرز العمدة فوقف معهم . فلما وصلت إلى حيث تقف نائحة تنحى وعاد إلى مجلسه وقال لاخيه احضرها يا أحمد ، أما أنتم فانصرفوا إلى أعمالكم ، وليبق الخفراء فقط . يبقون هنا . لا يدخل أحد منهم إلا إذا طلبته .

عندما دخلت المنضرة يصحبها أحمد عبداللطيف صمتت . فتلاشى صراخ الأخريات واكتفى الرجال والشباب بالهمهمات . وجدت العمدة جالسا على دكته فجلست أمامه على الأرض وهى تبكى بحرقة ولكن بدون صوت ضاغطة بكفيها فى صدغيها ناظرة إلى الأرض . الأرض، أرض منضرة العمدة ، قد رشت بالماء منذ الصباح فاكتست بغلالة طينية . مدت الجالسة يدها بهدوء وجمعت من الطين ما يملأ كفها الصغير ووضعته برفق على رأسها ، ثم مسحت طين يدها فى صدر ثوبها ثم عادت تضم صدغيها بيديها . يد متربة ويد «متطينة» ..

اقفل الباب يا أحمد .

– آه . أنت مين .

– أنا امرأة محمد ظرظور .

– الخولى فى جنينة بيت ويصا فى الرياينة

– أى .. وصرخت صرخة مقتضبة : قتلوه يا عمدة ..

- من الذين قتلوه ..

- الخواجات فى الريابنة .

- طيب يا بنتى ما الذى حدث «بالظبط» . قولى ولا تنسى شيئا .

كفكفت دموعها ، ومسحت على أنفها بكم ثوبها . ونظرت إليه نظرة ثابتة وقال : «عشية (أمس) في الصبح بدرى ، شلت «البرمة» الكبيرة على راصى رايحة السوق أبيع الدهان اللى جمعته فيها طوال الجمعة . ، محمد كان «ماشى» قدامى وأنا وراه . وصلنا عند السحارة «لقينا كمبيل واقف وفيه اتنين خواجات ومعاهم بنادق وواحد هجان ماسك كرباج» . محمد .. بكت .. فقال لها أكملى..

«محمد كان شايل بندقيته أم روحين شغلة ويصا بيه . معلقها فى كتفه . خواجة وقف قدامه ووقفه وشاور على البندقية .. وأنا وقفت وراه . محمد قال : دى مرخصة يا خواجة وشالها من كتفه ومسكها بايديه علشان يوريها له . راح الخواجة ضربه بدبشك بندقيته فى رأسه على طول . وقع محمد وهو ماسك بندقيته . أنا صرخت . الهجان ضربنى بالكرباج في راصى . اتلف الكرباج على البرمة وقعها تكسرت والدهان سال فى التراب . وأنا صرخت . والخواجة قعد يضرب فى محمد ، فى راصه ، لغاية ما استخلص منه البندقية وخدها وهو يرطن . الهجان ضرب محمد وهو نايم بالجزمة فى صدره وقال له قومى «يا بنت الكلبة». محمد ماقمشى . جات الناس وعساكر ، وتكلموا مع بعض وشالوا محمد وحطوه فى الكمبيل . عسكرى قال : ياالله يا

وليـــة روحي مــع جوزك .. وحطــوني في الكمبيل معاه . ونا عنبكي لكن مـا قدراش نصرخ . أول صرخـة الهجـان ضربني على خـــدى بالكف. وقـال لي «أخرص» مشى الكمبيل بينا وسايقه الخواجة التاني اللي ماضربشي محمد . ودونا على المستشفى الميرى في البدارى . دخلنا وكشفوا على محمد وخدوه جوه أوضه وقفلوا عليه . بعد مسافة كتيرة طلع الدكتور . صرخت في وشه وقلت له وين جوزى . سايق عليك النبى تقول لي مات واللا عايش . قال – الله يستره – هدى روحك ياستى جوزك عايش وعملنا له عملية . وربنا يلطف بيه وبيكي . عايزة نشوفه . قال . له . مش دلوقيتى بكرة الصبح إن شاء الله تشوفيه . روحى روحى . صرخت وقلت أبدا . منروحش من غير جوزى . قال للتمـرجى ، اللى لابس أبيض ، خليهـا تنام أهنه لغاية الصبح لما نشوف النتيجة .. بيّت . في الصبح جه الدكتور في الضحا ودخل عند محمد . بعد ما طلع، قلت له عايزة نشوف جوزى . قال تشوفيه . وقال للتمرجى خليها تشوفه ، دخلونى عليه .

قطع حديثها نشيج البكاء المر فصبر عليها الشيخ محمود إلى أن أفرغت دموعها الغزيرة . وبعدين ؟

وبعدين . يا محمد . يا محمد : يا محمد ماردش عليَّ . قلت لروحي مات جوزى ... وصرخت وقعدت نصرخ . التمرجية اتلموا عليّ ، وطلعونى ورمونى بره المستشفى . جيت على أهنه . جيت

ماشية . و ...

استفرغت سائلا لاتخالطه إلا رغاو كالمخاط ..

قال العمدة : إهدى يا بنتى زوجك لم يمت . وإن شاء الله ربنا يشفيه . لو كان قد مات لتلقينا اشارة من المركز لاستلام الجثة ..

مات يا عمدة ..

لسه مماتشى ..

صرخت : ماااات يا عمدة .. يا قلة الرجالة .. مين ياخد تاره ..

قال العمدة زاجرا : إخرسى يا امرأة وكفى عن الصراخ .. خذها يا أحمد إلى بيت أهلها وقل لهم أنى سأذهب «مخصوص» صباح باكر إلى المركز لاعرف ما هى الحكاية ونطمئن على محمد طرطور . واذا كان منهم من يريد أن يطمئن فليقابلنى أمام المستشفى ظهرا ..

قال أحمد هامسا : بعد بكرة ..

قال ناهرا : يا أخى روح .. بكرة بعد بكرة «متفرقشى»..

(٩)

الليل مازال ليلا . يشهد بذلك النجم اللامع سهيل (الثريا) ،

وتألق النجمات الانيقات ، بنات الحور السبع (الدب الاكبر) ، اللاتى حين تغضبن على القمر تحجبن نوره فينخسف القمر ، فيخرج الصبية إلى الدروب يضربون على أوان أو صفائح وهم يتوسلون إليهن : «يا بنات الحور. سيبوا القمر . دا القمر مخنوق . ممعناش خبر» . فلا يلبثن أن يستجبن لدعاء الصبية الابرياء فيطلقن القمر من سجنه . لم تكن بنات الحور غاضبات فى تلك الليلة . فقد كانت شريحة هلالية من القمر المحتضر لا تزال طليقة الضوء فى رحاب السماء الداكنة . الذى غضب حتى ثار فى محبسه المختار هو الشيخ عباس حين أيقظته طرقات عنيفة على باب الدار . ولقد أيقظت أمه وأخويه وزوج أخيه وحتى نصر الجمال . كان عنف الطرقات يوحى بأنها نذير . فحال مرسى دون أن يتقدم أخوه الغالى ليفتح الباب ليرى الخبر . قال له أن الحذر لايمنع القدر . قال ليكن القدر من نصيبى فقد تزوجت وأنجبت . فتح مرسى الباب فوجد أمامه يونس عبد الله . «خير» ماذا تريد فى هذا الليل . قال أريد الشيخ عباس . قال من مكمنه ماذا هناك يا يونس أزعجتنا . دعه يدخل يا مرسى . وأضاء «اللمبة» الصغيرة . قال انى آسف ولكن للضرورة أحكام . فقد أرسل إلى العمدة وكيل شيخ الخفر عزيز حسين لأحضر إليك وأبلغك أن موعدكما الفجر أو قبل الفجر «ضرورى» . كان ذلك بعد العشاء ولكن «راحت علىّ نومه» فلما استيقظت تذكرت فخفت أن يفوت

الموعد فحضرت لاخبرك أن قد حلت ساعة الذهاب إلى البدارى، ولاستأذنك فى أن أذهب معك فنحن فى أيام خالية من الأمان . قال إجلس حتى استعد ويجهز نصر الركوبة وأنت يا اسماعيل أعمل لنا كوبين من الشاى . قال بل أنتظر مع حمارى خارج الدار .

حين أدركا الكوبرى وجدا الشيخ محمود عبد اللطيف يصلى الفجر فى المصلى جنوبيه ، ووجدا عزيز حسين يحمل على كتفه «بندقية» الحكومة التى تطلق رشا ويمسك بيده حمار العمدة إلى أن يقضى الصلاة امتطى كل من العمدة والشيخ ويونس عبدالله حماره وتبع وكيل شيخ الخفراء حمار العمدة مشيا على الاقدام . ركبوا جميعا جسر الترعة الترابى الغربى متجهين إلى البدارى يدبون دبا وئيدا صامتين .

قطع الصمت عزيز حسين حين التفت يمينا ثم قال مخاطبا لا أحد : الترعة «شيّمت» ، امتلات حتى قمة جسورها بماء الفيضان المتدفق شمالا بتيار جارف . ثم التفت يسارا وقال ومع هذا فإن «القيضى» لم ينضج بعد ليقطع . قال يونس عبدالله : البحر عالى هذه السنة والخوف من أن يتكرر ما حدث منذ سبع سنوات حين أغرق الفيضان المزارع فأكل الناس محصول القيضى «فراخ» (أخضر) . قال وكيل شيخ الخفر : ربنا يستر .. الظاهر إنك كنت نائما طوال الليل يا يونس فلم تر أو تسمع ما

جرى . قال : أى والله ، ماذا جرى يا عزيز . قال : بعد أن عاد من البدارى آخر النهار الذين ذهبوا إلى السوق ، قالوا أن السوق كان محاصرا بقوات الانجليز، وكذلك الطرق المؤدية إليه ، وكانوا يفتشون الناس بحثا عن «غلة» . لكن الغلة اختفت بقدرة قادر من السوق . الحقيقة كان السوق فارغا من أية محاصيل غلة أو غيرها، ومن البهائم وخاصة الحمير . وشاع فى المركز أنه بعد ماحدث فى الرياينة يوم السبت البيه المأمور أوفد المباحث سرا إلى عمدة البدارى وعمد البلاد المجاورة بأن ينبهوا الناس سرا أنه ممنوع بيع أو شراء الغلة والحمير يوم الاثنين ، يوم السوق فى البدارى ، ومن يخالف ستصادر غلته وحميره بأمر السلطة ، وفعلا قبل طلوع الشمس أمس حضرت إلى البدارى قوة كبيرة من الانجليز على رأسها ضابط وأحاطوا بالسوق . ولما لم يجدوا فيه غلة أو حميرا ذهب الضابط إلى المركز ودخل حجرة المأمور وسأله عن السبب فقال له : والله لا أعرف . ربما لأن أغلب أرض البدارى مزروعة حدائق فاكهة . وربما لأننا الآن فى موسم القيضى وليس القمح . ويجوز أيضا – والله أعلم – أن أخبار الرياينة وصلت إلى الناس فخافوا . وعلى أى حال أنهم لايستطيعون الامتناع عن التعامل فى الغلة اذا كان لديهم شىء منها إلى الأبد . واقترح على الخواجة أن تبقى القوة مرابطة فى السوق والطرقات حتى آخر النهار . وأنه سيزودهم من قوة المركز

بمن يساعدهم على كشف ألاعيب الفلاحين اذا كانوا يلعبون . كما اقترح عليه تأكيداً لمظهر التعاون بين ادارة السلطة وسلطة الادارة أن يعد له مكتبا في حجرته ليديرا الحملة معا .

هذا ما حكاه آخر النهار العائدون من البدارى . وقد أرادوا أن يقابلوا العمدة لأخذ رأيه ولكننا منعناهم لانه كان «بخير» (مريضا) ولا يريد أن يقابل أحدا كما نبه علينا يوم الأحد .

فما أن أضاء القمر بعد العشاء حتى ذهب كثير من أهل البلد ومعهم أولادهم وحريمهم وحميرهم وجمالهم إلى الغيطان وبدأوا في قطع قناديل القيضى ونقلها إلى بيوتهم وتركوا البوص واقفا، قناديل القيضى التى تصلح للاكل ولو «فراخ» وتركوا القناديل في الزراعة المتأخرة .

قال العمدة : ولماذا لم تمنعوهم ياعزيز. ولماذا لم تقل لى ماحدث حين قابلتنى أمس بعد العشاء.

قالت : والله ياعمدة... لم أعرف الا بعد أن تركتك وذهبت لمقابلة يونس عبدالله حسب أمرك . ولم استطع أن أمنع أحدا لانهم ذهبوا إلى غيطانهم ليلا ونحن الخفر لانستطيع حسب التعليمات أن نترك البلد ليلا . ومع ذلك فتلك أموالهم وهم خائفون عليها . وقال لى بعضهم اذا كانت السلطة وصلت إلى سوق البدارى ، بلد المركز والاعيان، «يبقى احنا ضايعين ضايعين» .

«وأهو ده اللى حصل» .. ولا يزال فى المزارع القيضى الأخضر وهو أكثر بكثير مما قطعوه .

قال عباس : لاحول ولاقوة الا بالله .

قال العمدة : «همه جرين» .. طيب يا عزيز هل هناك أخبار عن ولد ظرظور .

قال : إمرأته وعبد القوى على ظرظور ابن أخيه ذهبا إليه فى المستشفى . ولم يعودا مع العائدين . الظاهر أن حالته خطرة . لازم تزوره يا عمدة .

قال العمدة : «أمال أنا رايح ليه» ..

قال يونس : الناس يعتقدون أنك ذاهب كما وعدتهم لتعرف هل ستصل السلطة إلى بلدنا أو لا، كما وعدتهم .

قال : أو لم أعد أيضا امرأة محمد ظرظور .

قال : بلى .

قال : إذن فلا داعى للكلام الفارغ يا يونس .

قال : أمرك يا عمدة ..

وران صمت طويل ..

الطريق خال . وطويل . والهواء راكد رطب . والحمير بطيئة والصمت ثقيل لولا أصوات حوافر البهم فى الارض المتربة ،

وطنين متصاعد لهوام متزايدة من الذباب والناموس والزنابير تحتفى بأشعة الشمس التى بدأت فى طرد الظلمة . والعمدة على حماره يغط . يا عمدة ، يا عمدة . هل نمت . كيف تستطيع أن تنام وأنت فوق الحمار. لم أنم طوال الليل، والرطوبة خانقة وخطوة الحمار منتظمة والطريق مستقيم ، فحين أترك نفسى لكل هذا بدون مقاومة أو توجيه أندمج فيه فأشعر بالراحة فأنام .

ألا تخشى أن تقع .. ؟

ولماذا أقع ما دام الحمار لايتوقف ولاينحرف . انظر إلى تيار الماء فى الترعة . لماذا يغرق فيه غلمان كثير كل عام ،لانهم ، بسبب قلة خبرتهم ، لايتركون أنفسهم للتيار . ولو فعلوا لحملهم التيار إلى حيث النجاة ، ولكنهم يعاندون ويحاولون العوم ضد التيار فيغرقون .

ضحك ساخرا وقال : هذه حكمة يا ولد خالى .

قال : اذا لم تكن مصدقا فاسأل أمك . لقد رأت ما رأيت وكنت أكبر منها سنا . انظر إلى الجبل فيما يحازينا منه واسأله . من الذى مات على الخوازيق أيام الغارة ومن الذى نجا . مات آباؤنا وأعمامنا وأخوتنا ، الذين وقفوا ضد تيار فاضل باشا . ونجا من اندمج فى التيار أو هرب . ومن أجل ماذا ؟ من أجل امرأة زانية . والله والله ياولد ولد عمتى - وليس لك علىَّ يمين - لو مات رجل كلما زنت امرأة لانقرض الرجال .

قال يونس عبد الله : وتوقف الزنا يا عمدة ..

لاتضحك يا يونس يا ولد عبدالله . الكلام جد . انت رائق البال ، ولقيت لك صديقا فى الشيخ عباس ، لايهمك حتى لو «رحت فى داهية» من أجله . صح ؟ .. صح يا عمدة . أنت حر فى نفسك ولكن إفرض أن الشيخ عباس هو «اللى راح فى داهية» فماذا تفعل . «أروح معاه» . وما الذى يكسبه الشيخ عباس اذا «رحت معاه أو مرحتش» .

لم يرد يونس واستطرد العمدة . أنا لعلمكم لا أنام الليل منذ يوم الجمعة خوفا على عباس . عباس عايم ضد التيار وانى لأخاف أن يغرق وأنتما ، يا يونس ، يا عزيز تعرفان مالا يعرفه عباس من أمور البلد .

قال الشيخ عباس بتحد : لماذا يا عمدة كل هذا .

قال العمدة : اسأل أمك.

أنا أسأل أخاها الكبير .. يقتلوك . من ؟ الحكومة ..

قال وكيل شيخ الخفر : كلامك صح يا عمدة إنما ليس لهذه الدرجة . قال . إخرس أنت . قال : حاضر . قال مؤنبا : يا وكيل شيخ الغفر يافاهم . كلمة من الحكومة . أقل واحد فى الحكومة لفلان أو علان من الذين تعرفهم، يقتل عباس أم لا. قال : الاعمار بيد الله يا عمدة . قال : الاعمار بيد الله نعم ولكن ربنا يسبب

الاسباب .. «اللي يعوم ضد التيار يغرق .. واللى وقفوا ضد الحكومة علشان مَرَهْ ماتوا ..»..

قال الشيخ عباس : يا عمدة لقد قتلهم الخديوى ورجاله ولم تقتلهم شهامتهم .

قال العمدة : عال . اتفقنا . حين يختفى رجال الخديوى والخديوى والدمرداش والانجليز .. «إبقى أكتب عرايض»..

قال : أو قد عرفت ما فيها .

قال : خذ . هذه عرائضك كما كتبتها . فيها الاسماء التى أردتها . وأمامها بصمات أصحاب الاسماء . وها نحن ذاهبون إلى البدارى . قدمها إلى من تشاء بعيدا عنى . سنفترق عند «قلس على دلوكه» .. سأذهب أنا وعزيز إلى المستشفى لنطمئن على ولد ظرظور .

انتبه الشيخ عباس فجأة إلى غير المعقول من أمر العرائض . فسأل محمود عبد اللطيف كيف حدث أن أحدا لم يمتنع وأنهم جميعا حاضرون . قال العمدة بهدوء كأنه يجيب عن سؤال تافه الاهمية . وماذا كان علينا أن نفعل . «اللى قابلناه بصم واللى ما قابلنهشى بصمنا له» . انزعج الشيخ وقال : ولكن هذا تزوير وقد يؤدى إلى مسئولية اذا طعن أحد بأنه لم يبصم . قال العمدة : ستكون مسئوليتى وليست مسئوليتك ففى آخر كل صفحة ستجد

ختمى تحت شهادتى بأن قد بصموا أمامى . قال ومع ذلك فهى مسئولية قد تضرك. ضحك العمدة وقال : يا عباس يا ولد عمتى خليها على الله . «اللى عيطعن يبقى عايز يتطوع . يخدوه على طول . طيب مين عايز يتطوع . محدش . يبقى خلاص . لاتزوير ولا حاجة خليها على الله. سوق بينا خلينا نوصل بدرى » ..

تركوا الحمير عند قلس على دلوكة .

قبل أن يفترقوا قال العمدة : ينهى كل منا أمره ونلتقى إن شاء الله فى مقهى الاسمر ، ومن يحضر أولا ينتظر الآخر حتى الساعة الثالثة لنعود سويا ، وهم بأن يعبر كوبرى البدارى غربا إلى المستشفى فأسر إليه الشيخ عباس : «عايزك فى كلمة على جنب» . فاختليا . قال : ياشيخ محمود ، ماذا وراء كل ما قلت . هددتنى حتى خفت وظننت أنك تدعونى إلى النكوص ، ثم قدمت إلىَّ العرائض مبصومة مختومة واصطحبتنى إلى هنا لاقدمها . إنى فى حيرة من أمرك ..

قال : اسمعنى يا عباس . لقد أردت أن أنبهك إلى ما قد تلاقيه من مصاعب وما قد يعترضك من مخاطر فقلت لك ما قلت أولا . ولكنى أردت أن أحذرك من النكوص فأحضرت لك العرائض لتقدمها الآن ، ولكى أشجعك تحملت معك مسئولية أنا مقدرها . لابد من حماية القرية من مخاطر تشريد أبنائها. والقرية كلها غاضبة عليك لانك نبهتها إلى تلك المخاطر كما لو كنت قد اختلقتها

ولكنها في الوقت ذاته معولة على أن تفعل شيئا يحميها . فتوكل على الله . لقد بدأت فلا تخف . قد يكون الخوف قبل بداية المعارك حذرا محمودا ، ولكن الخوف بعد بدايتها جبن مذموم ، وأنا أعرف أنك لست جبانا، فاستمر ، وأنا معك «بس من بعيد لبعيد» قدم العرائض اليوم ولا تتأخر . ثم ضحك وقال :لعلمك لاتترك مصيرها للتيار الا الرمم .

قال : لماذا اليوم ؟

قال : السر أفشيه لك وحدك . قبل أن ينتهى الاسبوع القادم سيكون هناك عمدة للبلد . فقد اختاروا عمدة للقرية أخشى عليك وعلى القرية منه ، ونحن فى انتظار التعيين الرسمي .

قال : من ؟ ..

قال : صديق ولد محمود حماد .. اذهب وربنا يوفقك..

فى طريقهما إلى المركز لفته يونس عبدالله إلى أن ثمة جنودا انجليز غربى الكوبرى عند السوق . لم يرد . سار غاضبا . متحديا ، يضم يده على أوراق ملفوفة وهو يعد نفسه لما سيفعل اذا ما رفض المأمور أن يستقبله وطلب منه أحد أن يلقى بشكواه في صندوق الشكاوى . لن أقبل وسأقتحم مكتب المأمور وأواجهه . ولكن المكتب غير مقصور الآن على المأمور . هناك الانجليزى ممثل السلطة كما قيل . تردد. ما العمل حينئذ. شعر يونس بتردده.

سـألـه : «مـالك يا شـيـخ عبـاس إنت خـايف تقابل المأمـور ولا إيه» .. قـال بحـزم : لا أنا لا أخـاف أحـدا . قـال : «أيوه كده يا شـيخ دى البلد كلـهـا ناظرة لك» .. عند مـدخل المركز اعتـرضـه شـرطي يقف وقـفـة رخـوة . «عـايز مـين يا أسـتـاذ» ... «البـيـه المأمـور» . «البيـه المأمـور لسه مـجـاش . وماشـأن الداخلين والخـارجين من حجرته . ضـحك الشـرطى وقـال : دو عـايقـابلوا البـاشـا المأمـور . مـأمـور السلطة .. عـايز تقابله . قال : لا سـأنتظره فى قـهوة الاسـمر حتى يجىء .. وانطلق إلى قهوة الاسـمر المقابلة للمركز حيث وجد يونس عبـد الله منتظرا . شـربا شـايا ، ثم شـايا ، ثم شـايا ، بعد نـحو ساعة ظهر المأمور فاندفع وراءه إلى حجرته . وقال بتوتر متجاهلا الغريب . أنا الشـيخ عباس مـحـمـد اسماعيل من الـهمـامية . قال المأمـور بلطف غير منتظر : أهلا يا شـيخ عباس . تفضـل إجلس . مـلأنا الحـجـرة مقـاعد منذ أمس . مـا طلبك . لم يقـدم إليه صـورة العريضـة الخـاصـة به . ولايعرف كيف ولماذا وضـع العـريضـة وكل صـورها أمامه على مكتبه .

القى المأمـور نظرة على الصـفـحـة الأولى منها وقـال : تشـرب قـهوة يا شـيخ عباس .

قال : لا متشكر ..

قـال : ألم تصـلك أخـبـار من حـسـين أفندى فـريد . منذ أن غادرنا لم نسمع عنه . وقد عرفناك منه وكان يذكرك بالخير كثيرا .

قال عنك مرارا أنك شديد الذكاء في تقدير الظروف.

قال : نشكره في غيبته وأرجو أن تسمح لي بأن أشكرك في حضورك

قال : يا شيخ عباس عندما يكون الشكر واجبا فلا فرق بين الحضور والغياب المهم أن الظروف غير مواتية لاقبل منك عريضتك .

قال مستنكرا : إنها عريضة البلد .

قال بحدة : اسمعني يا أستاذ . قلت لك الظروف غير مواتية لأقبل منك عريضتك . أنا أعرف ما أقول . اذهب إلى المديرية وقدمها هناك أو ارسلها من هناك إلى من هي مرسلة إليهم وسيصلني ما هو خاص بي بالبريد .. مع السلامة يا شيخ عباس .. ووقف .

قال راجيا : ألا تقبل الصورة الخاصة بسعادتك ولو من أجل الاستعجال .

قال : ولم الاستعجال .

قال : قبل تعيين العمدة .

ضحك المأمور عاليا .. وقال : اذن لا وجه للاستعجال تفضل فنحن لسنا وحدنا كما ترى فلا تثير الانتباه ..

(١٠)

عاد إلى قهوة الاسمر فوجد يونس عبدالله منتظرا . قال خير ان شاء الله يا شيخ عباس البلد منتظراك . قال مبتسما : خير ان شاء الله . كله خير . انظر الشيخ محمود حسن هريدى عمدة الريانية داخلا المركز . فانظر من الجهة الأخرى إلى مكتب المأمور لترى هل يتحدث إلى المأمور أمام مكتبه أو إلى الرجل الجالس على المكتب المقابل . عاد يقول أنه جالس أمام الرجل الآخر والمأمور واقف بجواره . ثم سأل مستغربا : «إيه اللى جرى فى الدنيا . محمود حسن هريدى جالس والمأمور واقف ..» .

قال ستعرف عندما يخرج عمدة الريانية فسأنادى عليه ويحكى لنا ..

فارع الطول نحيف أنيق يلبس جلبابا من الصوف فوق «سكروته» من الحرير ويمسك بيده «خرزانة» رفيعة طويلة . تقدم إليهما بخطى واسعة وقال السلام عليكم . كيف أنت يا شيخ عباس . قالا السلام ورحمة الله وبركاته واقفين . جلسوا جميعا . قال الشيخ عباس ماذا تشرب .

قال : قهوة . قال : كنت أريد أن أسألك عما جرى فى بلدك يوم السبت . هل كتبتم محضرا بالواقعة . قال طبعا . طبعا انت يهمك ولد ظرظور بلدياتك . كتبنا يا سيدى محضرا بما حدث .

ولما عرضته على المأمور قطعه وأملانى محضرا آخر قال فيه أن الواقعة مشاجرة بين المدعو محمد ظرظور من ناحية الهمامية وآخرين مجهولين من رواد السوق . هربوا بعد الاعتداء عليه وجارى عمل التحريات .

قال عباس مقاطعا : ومضيت على المحضر يا عمدة .

التفت إليه بثقة وقال : طبعا مضيت . ثم بهدوء . بعد ما فهمنى المأمور الوضع .

قال عباس : وما هو الوضع الذى فهمته من المأمور .

قال : محضرك لافائدة منه . الجانى انجليزى . حماية . واذا كان لابد من التحقيق فسيتم فى مصر أمام النيابة المختلطة . والشهود الذين ذكرتهم فى المحضر ومن بينهم امرأة المجنى عليه لابد لها من أن «تحط» أقوالها فى مصر وكذلك زوجها . أما اذا توفى فلا بد من نقل الجثة إلى أسيوط، وانتظار الطبيب الانجليزى الذى سيحضر من مصر لتشريح الجثة ومعرفة سبب الوفاة. والله أعلم بعد كم يوم يحضر . هذا اذا حضر . فاذا حضر فليس من المستبعد أن يقول أن الوفاة سببها سكتة قلبية . يعنى المسألة كلها «بهدلة» بدون نتيجة .. فنترك الأمر لله المنتقم الجبار ونكتب أنها مشاجرة .. فوافقته ..

قال يونس عبدالله : لاحول ولاقوة إلا الله . «دى مصيبة».

قال محمود هريدى : قل له مما تعلمت فى الأزهر يا شيخ عباس .

قال : ماذا أقول .

قال : قل له ما قاله الله تعالى : «الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون».

قال الشيخ عباس منكسرا : «إنا لله وإنا إليه راجعون» . هل لديك أخبار عن حالته ..

قال : انى قادم من المستشفى . كنت خارجا منه حين صادفت الشيخ محمود عبد اللطيف داخلا . الولد «خسران» . قال لى الدكتور اذا لم يمت اليوم فقد ينجو ولكن الأمل ضعيف. ورأيت هناك ابن أخيه وزوجته . منذ أمس وهما نائمان على الارض . وامرأته حالتها «تصعب على الكافر» . كل فترة «تطرش» . رجوت الدكتور أن يعتنى بها . قال ليس بها شىء غير عادى . والمهم الآن ستر الاعراض واكرام المتوفى إذا توفى ..

قال يونس عبد الله : وماذا نفعل يا عمدة .

قال : ان شاء الله ينجو . أما اذا وقع قضاء الله فأنا المسئول اذ لاتنسوا أنه اعتدى عليه فى بلدى . من أجل هذا قابلت الآن الضابط المسئول فى مكتب المأمور الذى ترجم لى كلامه وترجم كلامى له وأخبرته أن المجنى عليه قد يتوفى هذا المساء .

وأن تقاليدنا لاتسمح بتأخير دفنه ولاتوجد امكانيات نقله إلى بلده وأنه يلزم تصريح منه لاحدى سياراتهم بنقل الجثة إلى الهمامية وتسليمها إلى أهل المتوفى اذا حدثت الوفاة قبل صباح غد . وقد أعطاني التصريح فعلا لاذهب به إلى «الكامب» بجوار السوق اذا احتجنا سيارة . وان شاء الله يلطف ولانحتاج . فقط لاداعى لازعاج أهله مادام حيا..

قال يونس عبدالله : الله يسترك يا عمدة .

قال الشيخ عباس : كيف أعطوك التصريح بهذه السهولة.

قال : ساعدتهم يوم السبت أو اعتقدوا أنى ساعدتهم .

قال : وهل من المعقول أنك تساعدهم يا عمدة على نهب الناس وضربهم .

قال بحدة : وهل من المعقول يا أستاذ أن عساكر الانجليز يأتون إلى الرياينة ليسرقوا حميرا .

«مافيش فى الأيام دى حاجة معقولة يا شيخ عباس» . نحن تحت الاحكام العرفية فلو اعترضت أو قاومت يحرقون البلد . أنا تظاهرت بأنى أساعدهم وأنا أضرب الاولاد بهذه الخرزانة بدل الكرابيج وأشتمهم علنا ثم أرشدهم همسا إلى ما يجب عليهم أن يفعلوه . فلم يستولوا من البلد كلها إلا على ١٢ أردبا وتسعة حمير أخذت منهم ورقة بأنهم استلموها للمطالبة بثمنها فيما بعد

وإن كنت أعرف أنهم لم يدفعوا شيئا لأحد فى البلاد التى سبقونا إليها مثل طعمة والكوم الاحمر وبويط ...

قال يونس عبدالله مقاطعا : وهل ذهبوا إلى هناك حقيقة..

قال العمدة : ذهبوا إلى طعمة يوم سوقها الاربعاء . والى بويط يوم سوقها الخميس . وإلى الكوم الاحمر يوم سوقها الجمعة وإلى بلدنا السبت . ولسه . ها هو الشيخ محمود عبد اللطيف قد هل ..

السلام عليكم . وقفوا جميعا . وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ..

قال : هل رأيت محمد ظرظور .

قال رأيته ، والدكتور طمأننى ولكن أمرأته تعبانة . لم يحن الظهر بعد فدعونا نصليه فى بلدنا ..

قال عمدة الرياينة : يا شيخ محمود ولدكم انضرب فى بلدى فأنا المسئول عنه . فأنتم تأخذون امرأته وابن أخيه معكم إلى الهمامية ليطمئن بقية أهله كما طمأنك الدكتور . وأرجو أن تسمح بأن يبقى معى وكيل شيخ «الغفر» ربما احتاجه . سأبيت أنا وهو فى دوار النواصر ويحضر إليكم صباحا ان شاء الله بآخر الاخبار. ما رأيك يا شيخ عباس . معقول . وبارك الله فيك .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : طيب. فلنتوكل على الله .

ولينتظر عزيز مع العمدة . خذ يا عزيز . وأعطاء مائة وخمسين قرشا . خذ ربما لاسمح الله يحدث مكروه فتتصرف في الكفن واحضار الجثة . قال العمدة : لا والله . «خليها عليّ دانا المسئول فأعادها الشيخ محمود إلى جيبه . وقال : يا عزيز اذهب سريعا إلى المستشفى واحضر معك المرأة وعبد القوى . قل لهما أن العمدة طالب حضوركما واحضر معهما قابلنا عند «قلس على دلوكة» وبعدها تعالى إلى هنا وقابل العمدة .

قال العمدة : بل يحضر لمقابلتي في دوار النواصر . إنى ذاهب لاهنىء الشيخ محمد عبدالله نصار مع المهنئين بنجاح ابنه «ممتاز» في الشهادة .

طيب : السلام عليكم .

ورحمة الله وبركاته ..

اتجه الشيخ محمود عبد اللطيف والشيخ عباس ويونس عبدالله إلى «قلس على دلوكة» جنوبي البدارى . وتخلف عزيز حسين مع عمدة الريانية . استأذن يا عمدة لأذهب إلى المستشفى . اسمع أولا يا عزيز . هناك تحت شجر السنط غربي سور المستشفى ستجد فكرى عبد النبي من بلدكم وحسين حماية من بلدنا نائمين منتظرين . قل لهما أن العمدة أرسلني إليكما لأكون معكما . هما يعرفان ما أريد فقد قضيا الليلة معى فى دوار «النفادية» . فان وافقت ، وأظن أنك ستوافق، فاذهب إلى

المستشفى واحضر امرأة محمد ظرظور فقط . أما عبد القوى فقل له عيب يترك عمه فى حالة خطرة ، وان امرأة عمه ستعود إلى البلد مع نائب العمدة ، واطلب منه أن ينتظر عودتك إليه . وقل لنائب العمدة أنه رفض العودة خوفا من أن يتوفى عمه ولا أحد من أهله موجود .. أما إذا لم تقبل «فاكفى على الخبر مجور» .

- أى خبر يا عمدة ..

ستعرف من فكرى عبد النبى وحسين حماية . وستوافق.. فاذا حدثت الوفاة قبل المغرب فأخروا نقل الجثة بأية طريقة إلى ما بعد المغرب . بالغسل ، والكفن ، والصلاة على الميت، وشهادة الوفاة . بأى طريقة . ثم تأتى لمقابلتى فى دوار النواصر . لن أنتقل من هناك إلى أن تأتى . وسأقول لك ماذا يجب عليكم عمله بعد ذلك . واحضر لكم السيارة التى ستنقل المتوفى إلى الهمامية . سيارة الانجليز «ولاد الكلب اللى موتوه» .

- ألا توضح لى الحكاية يا عمدة ..

قال غاضبا ، منفعلا ، مؤنبا بلهجة منكسرة : حكاية إيه يا عزيز . الحكاية حكاية ناس الهمامية . معقول يا عزيز إن ناس الهمامية بعد ما فاتت خمسين سنة على الغارة لسه خايفين وما يحسوش بالعار . حتى أنت يا عزيز اللى ادارة المركز عتقول عليك أجدع غفير من يوم ما دخلت المغارة على سند عصمان ومسكته بايديك فى الضلمة . شاطر تاخد تار الحكومة وماتخدش تار

بلدكم يا عزيز . الراجل «اتقتل» تسيبوه يروح فطيس . ايه ده يا عزيز . آمال رجاله بشناب ومتجوزين الحريم كيه . على أى حال محمد ظرظور كان عيشتغل فى بلدى . واتقتل فى بلدى . قدام عيني يا عزيز. اختنق صوته وكاد يبكى وهو يكمل : قدام عينى وأنا العمدة ماقدرتش نحميه . أنا المسئول عن تاره لو مات . بس الواد الخرع ولد أخوه هو اللى يضرب علشان هوه صاحب الدم . فلابد يكون حاضر ويقوم بدوره . والباقي عليكم . فكرى عبد النبى كان بايت مع صاحبه محمد ظرظور فى الجنينة واستناه يرجع بعد ما يوصل مرته السوق . مرجعش . عرف أنه انضرب . جه وراه البدارى . ومن يومها وهوه هنه . مستنى يايعيش يا يموت . قابلنى عشيه وقال لى يا عمدة إن مات محمد ظرظور دمه فى رقبتك . قلت له معاك حق بس ان كان وراه رجاله . قال أنا وراه يا عمدة وأنا راجل. قلت له طيب ماتنساش إنك قلت كده «وبكره الميه تكدب الغطاس». وقلت لحسين حماية الغفير اللى ماشى ورايه يا حسين خد فكرى عبد النبى واستنونى تحت السنط اللى غرب المستشفى . ناموا . ومتخلوش حد يشوفكم لحد ما أجيلكم . أو أبعث حد غيرى . وهمه الاتنين جاهزين .

إنت جاهز ؟ ..

– طبعا يا عمدة . وهيه دى عايزة قواله .

– طيب روح تفاهم معاهم وأنا مستنيك فى دوار النواصر .

في الطريق إلى «قلس على دلوكة» قال الشيخ محمود عبد اللطيف : ماذا فعلت يا شيخ عباس ؟ . قال : قابلت المأمور وأكرم وفادتي وسألني عن أخبار حسين أفندى فريد و ... قال: مقاطعا : ماذا فعلت بالعريضة التى أخذتها . قال : عرضتها عليه فنصحنى بأن أذهب إلى أسيوط وأرسلها من هناك . حتى الصورة الخاصة به قال أنها ترسل إليه من أسيوط . المهم أنه طمأننى وقال أنه سيعمل كل ما يستطيع لمساعدة الهمامية ..

– لماذا أنت عائد معنا إذن ؟

– وماذا أفعل ؟

– إذهب فورا إلى أسيوط وافعل ما أشار به المأمور.

– لم أعمل حسابى لهذا المشوار.

– خذ هذه مائة وخمسون قرشا تكمل ما معك فتكفى .

– لا . لاتكفى .

قال يونس عبدالله : أنا معى تسعون قرشا . أخرجها .

قال الشيخ عباس : الآن أذهب إلى أسيوط .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : إركب «الحلزونة» من البدارى حتى ساحل سليم وهناك عدى النيل إلى أبو تيج . ومن أبو تيج تأخذ القطر إلى أسيوط .

قال : طيب . يا يونس تحضر الحمار وتنتظرنى فى البدارى يوم الخميس . لاتتركه هنا . تركبه امرأة محمد ظرظور وعبد القوى عندما يحضران .

وتركهما عائدا . فقابل عزيز حسين وامرأة محمد ظرظور قادمين . وعرف منهما أن عبد القوى رفض العودة . فقال لها يا نعيمة على أى حال أنا تركت لك حمارى لتركبيه حتى البلد.

(١١)

وصل أسيوط عصرا وهو جائع . لمح فى أول شارع البوستة المتفرع من ميدان المحطة البورصة الشهيرة . بورصة النيل لصاحبها الخواجة الطليانى باولو الذى يتحدث اللغة العربية بلهجة أسيوط . دخلها وتناول غداءه . ثم تركها واتجه غربيا مارا بالبركة ذات المياه العطنة. بعدها دب على شارع المجدوب الصاعد . فرحب به رفيق الأزهر الذى لم يستطع على التعليم صبرا فعاد إلى أسيوط ليستأجر بناء من دورين . الارضى «قهوة الشرق» أعلاه «لوكاندة الشرق» . استقبله فى المقهى وحياه بكوب كبير من الشاى الثقيل . ودعاه إلى غرفة فى الفندق . قال ضاحكا : والوفاء بالاجرة عند الميسرة فضحك الشيخ عبد الجواد صاحب «لوكاندة الشرق» وقال: ولا عند الميسرة.. يكفى فيما بيننا الوفاء . قال : أرجو أن ترشدنى ؟ قال إلى ماذا ؟ قال عندى مشكلة وقد جئت إلى أسيوط «لاشد» لها «أبو كاتو» يكون على جرأة . قال :

لقـد هداك الله إلى حـيث يريد لك التـوفـيق . ارفـع رأسك واقـرأ اللافتة الكبيـرة المعلقة على «تراسينة الدور الثانى» . قرأ : مكتب الافوكاتو عبد الكريم أبو شقة . قال الشيخ عبد الجواد هذا أشطر وأنزه أبوكاتو فى أسيوط . سيفتح مكتبه «للزبائن» بعد المغرب فتذهب إليه . قال: ألا تستطيع أن تذهب معى إليه . ضحك وقال : طبعا ليكون الجار والوفاء والميسرة حاضرين . قال لا . معى ثلاثة جنيهات ولا أعتقد أن المسألة ستحتاج إلى أكثر من هذا قال عبد الجواد : هـذا كـان زمـان . قـبل الحـرب . ارتفـعت الاسـعـار منذ الحرب وهـى ترتفع كل يوم . هل تعرف كـما نتـقـاضى ثمنا لكوب الشـاى الذى شـربتـه . قـال : لقـد شـربت ثلاثة أكـواب شـاى فى البدارى بثلاثة تعريفة . سـأله متصنعا الاستغراب ، متى ؟ قبل الحرب أم بعد الحرب . قال ضـاحكا : صـباح اليوم يا عبد الجواد .. قال ربما الحـرب لم تصل البدارى بعد وضحكا . ثم قال جادا : اذا ذهبنا فلا تساوم الاستاذ . انه يكره هذا . مـا يطلبه اعطه له . واذا لم يكن معك ما يكفى سأكمل أنا ثم نتحاسب فيما بعد .

– هذا زميلى فى الأزهر الشيخ عباس من الهمامية مركز البدارى .

– أهلا وسهلا . ماذا تريد من خدمة يا شيخ عباس .

– أرجـو أولا أن تتـفـضـل وتلقى نظرة على هذه الاوراق . ووضـعها أمامه .

تصفحها سريعا ، ثم عاد فقرأ صورة منها قراءة متأنية.
رفع رأسه وهو يبتسم وقال «فكرة جهنمية» .. ليت الناس يفعلون مثل هذا . هل هي فكرتك يا شيخ عباس . قال : لا. ولست في حل فأذكر صاحبها . قال الاستاذ أبو شقة . لابد أن يكون انسانا مثقفا ووطنيا . هذه فكرة وطنية . الوطنيون لاتعوزهم الافكار العبقرية ، ألا تقول لي من ؟ .. قال انه حسين أفندي فريد الذي كان باشكاتبا في مركزنا البداري. فلمعت عينا الاستاذ أبو شقة وقال مهللا : أخي حسين فريد . طبعا الوطني وطني حتى لو (وضحك) القوة في البداري . خسارة أنه لن يعود إلى هناك . قال الشيخ عباس بلهفة : لماذا ؟ . قال : لقد فصلوه بحجة مغادرة مكان عمله بدون اذن . قال ولكنه ترك عمله في أجازة وافق عليها المأمور.. قال : لم تكن على ورق مكتوب فأنكر المأمور خوفا من أن يسأل عن سبب الموافقة . على أي حال أن مستقبل حسين في مصر وليس في البداري .. وماذا تريد أنت بعد أن أعددت كل هذه العرائض . قال : أريد أن أضمن وأتأكد أن كل صورة منها قد وصلت فعلا إلى من أرسلت إليه ولا آمن للبريد . فقد سمعت، أو ربما قرأت ، أن البريد مراقب من السلطة بحكم الاحكام العرفية . فجئت إليك لترى لي سبيلا إلى تحقيق ما أريد .

قال : دعك من وزير الداخلية ورئيس الوزراء . هذان لايملكان لاحد شيئا ولا يخافان إلا الانجليز . سأرسل لك الصور

الباقية غدا صباحا عن طريق الانذار القضائى . يقوم محضر من المحكمة ويسلم كل واحد الصورة الخاصة به ويحصل على توقيعه بالاستلام .

قال : عظيم وكم يكلفنى هذا ..

قال : رسوم كل إعلان عشرة قروش ، وسنرسل أربعة ، فالتكاليف أربعون قرشا . ثم عشرة قروش مواصلات من أسيوط إلى البدارى ذهابا وأيابا ، فتكون الجملة خمسين قرشا . بعد أربعة أيام تحضر إلى هنا وتستلم منى أصول الاعلانات موقعا على كل منها بالاستلام .

قال : وأتعاب المكتب .

قال : عيب يا شيخ عباس . إنت فى مكتب عبد الكريم أبو شقة . فهل يتقاضى أى وطنى أتعابا على أن ساهم فى عمل وطنى . أو أى صديق حميم فى أنه نفذ فكرة صديق حميم . أرجوك لاتتحدث عن الأتعاب .

قال : طيب عندى سؤال وسأدفع أتعاب المكتب عن جوابه .

قال (ضاحكا) : إسأل .

قال : اشتريت بعض الأراضى ، نصف فدان على ثلاث قطع ، فكيف «تنزل» فى التكليف علي اسمى .

قال : هل ينازعك أحد من البائعين.

قال : لا ..

قال : تأخذ العقود وتذهب الى مصر فى أى فرصة وهناك تتوجه الى المحكمة المختلطة فى قلم الرهونات العقارية . تحرر حافظة ايداع بالعقود وترفقها بها وتدفع الرسوم . يقوم قلم الرهونات بادراج البيع وبياناته فى النشرة التى يصدرها كل شهر . فاذا مضى شهر على النشر بدون أن يعترض أحد ، تأخذ شهادة بعدم الاعتراض وتقدمها هى وحافظة الابداع إلى وزارة المالية ـ فى مصر أيضا – فتقيد الارض باسمك ابتداء من العام التالى وتظهر فى التكليف ..

قال عبد الجواد : ياه .. دى لفة طويلة .

قال الاستاذ : أصلها مقررة لمصلحة الاجانب الذين يرتهنون أو يشترون العقارات وبالنسبة اليهم ليست طويلة لان كل الاجراءات تتم فى مصر . إنما نسيت أن أقول لك أن صورة من النشرة الشهرية تصل كل شهر الى المديرية ، فيمكن الاطلاع عليها هناك .

قال الشيخ عباس : والآن كم أتعاب الاستشارة الشخصية .

قال بجدية : جنيه .

دفعه وانصرفا شاكرين ..

صلى العشاء مع الشيخ عبدالجواد فى مسجد «سيدى جلال» (الامام جلال الدين السيوطى) وقضى نهاره «على القهوة» ، واستمع فيها الى الاحاديث التى تشغل أهل أسيوط . زيادة الاسعار زيادة فاحشة . زاد سعر القطن على ثلاثين ريالا للقنطار فارتفعت كل الاسعار حتى أسعار البصل . وتحولت قرية منقباد القريبة الى معسكر

للجيش الانجليزى . ومنذ المغرب من كل يوم يتجول جند الانجليز فى شوارع المدينة سكارى . وأشنع من هذا وأفظع أن قد أنشأوا «الوسعة» غربى أسيوط وخصصوا ذاك الحى الهادىء لايواء المومسات محترفات الدعارة .كان روادها فى البداية من الانجليز . ثم خالطهم فيها شباب من الأهلين . وقيل أن «وسعة» على أضيق قد افتتحت فى مدينة أبوتيج لا تبعد إلا خطوات عن مقام سيدى الفرغلى رضى الله عنه .

– إيه أخبار البلد يايونس ؟

أخبار البلد «وحشة خالص» . محمد ظرظور مات بعد المغرب يوم أن سافرت . فوجئنا فى البلد أن كمبيل انجليزى «جاى يجرى» ملىء بصناديق خشب وفوقها جثة محمد ظرظور ملفوفة فى فوطة يسندها عزيز حسين بذراعه ، ذهبت السيارة إلى المقابر رأسا ، والخفراء استدعوا العمدة ، وإمرأة محمد ظرظور والامام واللحاد ، وشاع الخبر وبدأ الصراخ ، ودفن ليلا . ولم يحضر عبدالقوى على ظرظور وسألنا عنه عزيز حسين قال أنه لم يره . الخواجة أضاء فوانيس الكمبيل على التربة ليسهل عملية الدفن . ولكن ابن الكلب كان كمن يتفرج ، ولما رأى الحريم تضع الطين على رءوسهن ضحك . عزيز حسين «فص ملح وداب» . لم يظهر بعد وصول الكمبيل . فى الصبح وفى منضرة أولاد عمران لقينا عبدالقوى على ظرظور «ناصب» الجنازة ويتقبل العزاء . قلنا غريبة . كيه يعنى يعمل جنازة لواحد مقتول قبل مايإخد تاره . قامت إشاعة فى الرياينة أن العمدة دبر لعبد القوى فرصة الثأر لعمه يوم وفاته وأن الكمبيل وهو عائد إلى البدارى اختفى ولم يصل . وقد جاءت فى الفجر قوة من الانجليز ومعهم مأمور المركز والضباط

والعساكر والهجانة وحاصروا البلد و«كبسوا» عليها فى الصبح وقد حسبهم الناس قادمين للقبض على الذين رفضوا التطوع وجاءت أسماؤهم فى العريضة فهرب أغلبهم إلى الجبل وانفجرت نساء القرية صراخا . وقال امام المسجد ماردده الناس من أنك أنت السبب فى تلك البهدلة لأنك أعطيت الحكومة أسماء الرافضين . وقد اتجهت القوة أولا إلى دوار العمدة فلم يخرج إليهم إلا بعد نصف ساعة مسنودا على أيدى اثنين من أولاده . «شخط فيه» المأمور وقال له : «إيه الاجرام ده اللى حصل إمبارح ياعمدة» . قال : أنا لاشفت حاجة ولاسمعت حاجة أنا كنت عيان ونايم جوه . قال المأمور : ألم تر السيارة التى أحضرت الجثة وهى تغادر الهمامية وهل كان بها أحد غير السائق الانجليزى ؟ . قال : أنا لا شفت سيارة ولا سمعت زمارة . أنا كنت عيان ونايم جوه . عزيز حسين «لقط الفولة» فتقدم إلى المأمور وضرب له سلام وقال تمام يافندم . أنا شفت الكمبيل . حضرت فيه الجثة وبعد استلامها غادر البلد وانشغلنا نحن بدفن الميت . فتحوا محضر . عزيز يتكلم «زى البريند» والمأمور يترجم وواحد انجليزى يكتب . عزيز كان يتكلم بصوت عال نسمعه نحن من الشباك الخلفى للمنضرة . فعرفت البلد كلها «إيه الحكاية» . سألوا ناس كتير وحريم كمان . فشهدوا جميعا حسب كلام عزيز حسين .

جاء غطاسون بسيارة أخرى . اتجهوا جميعا إلى الترعة ، ونبشوا قاع الترعة من أول الكوبرى شمالا حتى «الملص» آخر حدود زمام بلدنا . تركوا عمدتنا والخفر ودخلوا زمام العقال البحرى وهم يبحثون فى الترعة وفى الجبل وفى المزارع . بعد اثنين كيلو وجد الغطاسون

السيارة غارقة تحت قنطرة العقال البحرى . نشلوها . ولكنهم لم يجدوا لا الخواجة السواق ولا الصناديق التى كانت فيها . يقال أنها كانت مليئة ببنادق «رمنجتون» وذخيرة . لأن الخواجة غلط وهو يسأل شيخ خفر العقال البحري وسأله : ألم تشاهد أحد امن القرية يحمل بندقية رمنجتون . قال لا . ولا أعرف شكل الرمنجتون . قبضوا على شيخ الغفر وعلى حارس القناطر مع أنه ليس من العقال البحرى بل من الرياينة ويشتغل فى القناطر . قال أنه لم ير السيارة أصلا . وأن تيار الترعة ربما يكون قد جرفها من قبلى . وأوقفوا العمدة ولايزال التحقيق مستمرا . لقد كدنا نصل إلى قناطر العقال وسترى هناك السيارة فلا داعى للنظر إليها حتى لاتلفت انتباه الجراس .

قال : يايونس . السيارة مليئة بالطين فكيف يجرفها التيار من قبلى.

قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . وأنت ايش عرفك ياشيخ عباس أن التيار جرفها من قبلى ؟ هل تريد أن تشهد على البلد ، ألا يكفى ما حدث . دا أنا قلت للناس ياولاد الكلب هوه معقول أن الشيخ عباس اللى عايل همكم هو السبب فى الكبسة . قالوا : برضه مش معقول . فهل تريد أن تفتح بابا جديدا على نفسك .

ضحك وقال : ولماذا لم تهرب أنت يايونس .

قال : كيف أهرب وأتركك أو بدون أن أستشيرك . ثم أنى كنت أعرف أنك لم تقدم العرائض وسافرت بها إلى أسيوط فلايمكن أن تكون سبب «الكبسة» . الغريبة ياشيخ عباس أن ولد خالك الشيخ محمود

عبد اللطيف كان «عامل نفسه ميت». وأول ما عرف أن السؤال عن الكمبيل . قام زى الحصان وحط أقواله بأنه شاف بعينه الخواجة وهو ماشى بالكمبيل وحده على البدارى.. المأمور ضحك وقال له زى ماعتقولوا للى يكون عيان ويخف «أجر وعافية يا عمدة». الحريم بعد ماقعدت طول الصبح تصرخ قعدت آخر النهار تضحك على العمدة العيان. والعيال أولاد الحرام كل مايفوتوا قدام منضرة العمدة يقولوا: أجر وعافية يا عمدة ويجروا. وأنت ماذا فعلت فى أسيوط ؟ .

قال له : كل شىء خير . وصلت العرائض الى الحكام وأصبحت البلد آمنة .

قال : لا داعى لنشر هذا الخبر خوفا من أن «حرمة تزغرت» أو تحصل حالة فرح فى البلد وفيها جنازة . تكتم الخبر إلى ما بعد الأربعين احتراما لأولاد عمران .

قال : سأقول للعمدة فقط حتى يطمئن .

(١٢)

عند زاوية تقاطع جسرى «الصليبة» تقوم «تاية» فى ظل شجرات السنط الباسقات . و«التاية» مسكن من حوائط بوص «سابقة التجهيز». يحبك» بوص القيضى الجاف بأن تشد «حزم» منه بعضها إلى بعض بحبال الليف حتى تبدو كالحصير السميك العريض . فهى حينئذ «سباتة» .يحفر «للسبابيت» فى الأرض أساس مرسوم تصف فيه وتثبت بالطين فإذا بها حوائط من البوص . سباتة من البوص قائمة فى كل جهة تقصر إحداها لتترك مدخلا . وسباتة من البوص تكمل ضلعى زاوية داخلية فتصبح حجرة (خزانة) ، ثم سباته تلقى فوق الحجرة

فتسقفها . فيما بقي من مساحة «التاية» تقوم فرن وكانون ومرابط للبهائم . تتكاثر التوايا على رءوس الغيطان فى موسم الربيع . وموسم الربيع فى القرية ليس هو فصل الربيع بل هو موسم زراعة «البرسيم» اذ الربيع هو الاسم القروى لنبات البرسيم . وحين تنشأ التوايا على رؤوس مزارع البرسيم وتنقل إليها البهائم وأصحابها تاركين مساكنهم على سفح الجبل يقول أصحابها رايحين نربعو . ودلالته اقامة البهائم بجوار البرسيم تتغذى به وهى مشدودة إلى أوتاد لاتسمح لها بالغذاء إلا بقدر معلوم إلى أن ينفد الربيع . هذا بدلا من عناء «حش» البرسيم ونقله يوميا إلى المنازل الضيقة المعلقة . ولهم فيه مآرب أخرى أهمها أن البهائم تفرغ فضلات ماتأكله على أرض الغيط مباشرة فتخصبه كلما أكلت ، بدلا من عناء تجميع روثها فى المنازل الضيقة المعلقة ثم إعادة نقله إلى الأرض لتخصيبها . ثم أخيرا تتذوق الأسر حياة طليقة بدلا من كتل المبانى المتراصة الآسرة . وبانتهاء موسم الربيع ترفع التوايا ويعودون إلى حضن الجبل إلا «التاية» القائمة فى ظل شجرات السنط الباسقة عند زاوية تقاطع «الصليبة» غربى الكوبرى .

تلك أنشأها سطوحى عبدالمنعم بعد أن عاد من هجرته القصيرة إلى مصر يحمل موقد «جاز» (بريمس) وأفكارا ذكية لتؤدى وظيفة ممتدة على مدى أيام العام . يمكن أن يقال أنها «نادى» ويمكن أن يقال أنها «مقهى» ويمكن أن يقال أنها «غرزة» وأقرب مايمكن أن يقال عنها أنها «مهجر» يلوذ به شباب القرية خاصة لكسر طوق الحصار القبلى والأسرى والمادى الذى يحبسهم فى بيوت القرية . فيها يلتقون فى الشتاء حول نار موقده ، يمصون أعواد القصب التى جلبها إليهم

سطوحى عبدالمنعم من سوهاج . ويتبارون مباراة «اللوكامية» أو مباراة السيف . من يقطع حزمة محدودة العدد من أعواد القصب المضمومة بضربة واحدة من قبضة يده العارية يأخذ كل الأعواد ويخسرها الذين تحدوه . فان لم يستطع فقد خسر العود الذى أسهم به فى المباراة . أما السيف فهو جانب يد الضارب أصابعها منفردة . ومن لايراهن ، يشرب شتاء وصيفا ، نهارا وليلا ، الشاى المغلى على نار «وابور الغاز» الذى لايملكه إلا سطوحي عبدالمنعم . وذلك شاى أفضل مما يشربونه فى مناضرهم إذ أن هذا الأخير يلتقط رائحة دخان الكانون فيسوء طعمه . أما الوابور فلا يرون أدخنة تنبعث منه . ثم أن سطوحى عبدالمنعم يقدم الماء والجوزة والمعسل والسجائر وبعض الحلوى . وأهم منها «كوتشينة» لمن يريدون من المهاجرين إليه أن يلعبوا «الكومى» رهانا على المشاريب بعيدا عن الجدود والآباء والأعمام، وإن كان بعض الكهول يفدون إلى تلك التاية يوم السوق ، حيث يوافيهم كل سبت شداد القاوى بائع الأفيون الجائل يبيع لمن يريد منهم «هباية أفيون» . الهباية نصف «السمارة» والسمارة حجم رأس عود الكبريت ماركة المفتاح . يستحلبها صاحبها فى فمه وهو يعادل مرارتها بكوب حلو من الشاى الثقيل . لايتعاطى أحد فى القرية «الحشيش» لأنه مخدر ، ويتعاطى القادرون من الكهول والشيوخ الهبابات أو سمارات من الأفيون . يقولون لأنه منشط . الأول حرام والثانى حلال . فترى «التاية» ، تاية سطوحى عبدالمنعم ، عامرة بالناس داخلها ومن حولها فى أى يوم عبرت الصليبة طوال النهار وبعض الليل . شتاء وصيفا ، إلا أن تكون قد اجتذبت روادها «مصيبة عامة» .

حينما اقترب الشيخ عباس ويونس عبدالله من «الصليبة» عائدين من البداري ، لاحظا أن لا أحد يبين حول تاية سطوحي عبدالمنعم فتشاءم يونس عبدالله وتساءل الشيخ عباس عما يكون من سبب محتمل لهجر المهجر . اقتربا من مدخلها فبرز اليهما من داخلها عزيز حسين وكيل شيخ الخفراء ، تبعه خفيران ، ثم سطوحي عبدالمنعم شخصيا .. ترجل الراكبان ، عزيز حسين متجهم . ماذا هناك ياعزيز . أين الناس . لماذا تبدو البلدة خالية . البحر زاد وأصبح يهدد الجسور ، فذهب الناس للمرور على الجسور وتدعيم المواضع الضعيفة حتى لاتنقطع وتغرق الزراعة . وهل هذا يسبب لك ما هو ظاهر على وجهك من نكد .

تقدم إليه عزيز حسين وأخذ يده وابتعد به عن الآخرين .

ياشيخ عباس إحنا رجالة باشناب ومجوزين حريم . صح ولا له ، ضحك وقال صح .. بس .. أنا ياعزيز غير متزوج . ارتبك عزيز وقال : انت الله أكرمك فأعطاك بدلا من الزوجة مخا . وإني أريد أن تنقذنا من الورطة التي نحن فيها .

- قل . ثم قال لمحمود ولد مطاوع «صبي» سطوحي عبدالمنعم إذهب بسرعة وقل للعمدة اني وصلت وفي طريقي اليه .

- جاء صباح اليوم إلى دوار العمدة الشويش عتريس راكبا حصانه. أبلغ العمدة أمر المأمور بتكليف الخفراء بجمع عشرين رجلا من البلد بما يلزمهم من فئوس ومقاطف والتوجه بهم إلى العتمانية (قاو) للمعاونة في تدعيم جسر النيل وحراسته حتى لاينقطع نتيجة ضغط الفيضان ويغرق البيوت والمزارع .

ـ وهل ذهب الرجال .

ـ لا ..

ـ طبعا لأنهم مشغولون بتدعيم جسور الترع لحماية مزارع البلد كما قلت .

ـ ياريت ياشيخ عباس . حين رأى الناس حصان الشاويش عتريس داخلا البلد عرفوا أنه قادم ليأخذ الشباب والرجال إلى أى بلد كما يحدث كل عام يزيد فيه الفيضان . فهربوا .

ـ إلى أين .

ـ قلة اختبأت داخل مزارع القيضى والباقون هربوا إلى الجبل .

ـ وبعد ؟

ـ العمدة طلبنى فى المنضرة أنا والخفراء وبلغنى طلب المأمور وأمرنا بأن نحضر الرجال «من تحت الأرض».

ـ وهل أحضرت أحدا .

ـ أبدا ، ونحن مارون ، أنا والخفراء ، دخلنا مقام سيدى جابر ، وقرأنا الفاتحة على عهد بأننا لن نحضر أحدا من أولاد بلدنا مرة أخرى لحراسة بيوت البلاد الأخرى حتى لو عملوا لنا مجلس عسكرى .. وحضرنا إلى هنا وادى إحنا قاعدين .

ـ وماذا تنون عمله .

ـ لا نعرف . بدأنا فقط نخاف على العمدة ربما يحملونه المسئولية وهو رجل طيب ، الحمد لله أنك حضرت لتقول لنا رأيك فيما يجب أن

نعمله .

صمت قليلا ..

ثم قال : وأين الشويش عتريس الآن .

قال : مع العمدة فى المنضرة .. «ما هو لازم يستنى لغاية مايتغدى زى كل مرة» لكن موعد الغذاء قد انقضى ونحن مقدمون على العصر . فماذا نفعل ؟

قال : لا تقلق . المسألة محلولة . أنت أوجدت لها الحل ياعزيز ياحلال العقد . اسمع .. احفظ ما سأقوله لك ونفذه كما هو بدون تغيير ولاتهتم بأن يغضب العمدة أو يتظاهر بالغضب . سأسبقكم إلى منضرة العمدة أنا ويونس عبدالله لأن العمدة منتظرنى طبعا . بعد أن تتأكدوا من أننا قد وصلنا .. تأتى أنت والخفراء جريا . ينتظر الخفراء خارج المنضرة وتدخل أنت جريا إلى حجرة التليفون .. وتطلب المركز و و و ....

العمدة جالس ومن حين إلى حين يغط فيوقظه الشويش عتريس . والشويش عتريس جالس وراء كرشه المنتفخ وقد ألقى عنه طربوشه وسترته فكشف عن فانلة مبللة بالعرق داكنة بما جذبه العرق من تراب ، تعلوها حمالة تشد «البنطلون» إلى كتفيه وهو يجتذب الهواء إلى وجهه السمين بمنديل مخطط .. حين دخل الشيخ عباس انتظر يونس عبدالله فى الخارج . السلام عليكم . قالا السلام ورحمة الله وبركاته . وبادر العمدة بالقول : ياشيخ عباس الموضوع الذى بينك وبين أعمامك الذى تريد أن تتحدث عنه الآن سنتحدث عنه فيما بعد .. إحنا دلوقتى مش

فاضيين .. فهم عباس وقال : وهو كذلك .

اندفع عزيز حسين جريا إلى حجرة التليفون لم يلتفت .

صاح بأعلى صوته في بوق التليفون الذي تدفع الكهرباء إليه بطارية سوداء جسيمة مدفونة في أرض الحجرة : يامركز . يامركز . يامركز . رد يامركز . يامركز .. لم يجب أحد . فقد كان يضغط بيده الأخرى على حامل البوق . تظاهر باستغاثة المركز ليستفز العمدة أو عتريس .

قال العمدة صارخا : ياعزيز .. اترك التليفون وتعالى هنا .. ما الذي تريده من المركز . ولو لم يقلها لقالها الشيخ عباس كما كان متفقا عليه مع عزيز حسين .

ـ أريد أن أبلغ عن مصيبة .

ـ ولماذا المركز . أنا العمدة .. ومعنا الشويش عتريس رئيس النقطة. ما الأمر ؟

ـ الأمر أمر الله ياعمدة .. ذهبت أنا والخفراء لتحضر الرجال الذين طلبهم الشويش عتريس فلم نجد أحدا في البلد أو عند الصليبة .. وقيل لنا أن البلد كلها موجودة عند جسر «الصبخة» بحرى السحارة الغربية ليسدوا القطع الذى حدث هناك . ذهبنا جريا .. فوجدنا الرجال كلهم متكاتفين في القطع ليمنعوا الماء بأجسادهم من أن يخترق الجسر . والحريم تنقل الطين على رءوسهن وتصبه في القطع . ولكن كل هذا لن يجدى ياعمدة إلا إذا الحكومة ساعدتنا وأرسلت إلينا مساعدة من البلاد المجاورة . فجئت أجرى لأبلغ المركز ليرسل نجدة .

تمطى الشويش عتريس وقال : برضه كده ياوكيل شيخ الخفر . إنت

تبلغ المركز وأنا موجود . ما الذى أفعله اذن أنا فى الهمامية . الذى يبلغ ياشيخ الخفر هو أنا . أم تريد أن يقولوا أننى كنت نائما فى الهمامية . هات ورقة ياشيخ الخفر وسنكتب محضرا تشهد عليه أنت ياعمدة .

كتب : فى تاريخه وساعته بناحية الهمامية وبناء على تكليف المركز بمأمورية إحضار مساعدة لحراسة جسر النيل بناحية العتمانية المجاورة لناحية الهمامية حضرت أنا الشويش عتريس عبدالمحسن رئيس نقطة بوليس نجوع الجزيرة المكلف بالمأمورية وتقابلت مع نائب العمدة الشيخ محمود عبداللطيف الذى أرسل معى قوة البلدة وكيل شيخ الخفراء والخفراء للبحث عن أفراد المساعدة . وحالة مرورنا على جسر «الصبخة» بحرى السحارة الغربية وجدنا أهل البلدة جميعا يحاولون منذ فجر اليوم سد قطع جسيم فى الجسر والمياه تهدد الزرع . وأشرفنا على المقاومة وانتظرنا حتى العصر من أجل أخذ مساعدة معنا إلى العتمانية ولكن إلى ساعة كتابة هذا المحضر لاتزال المقاومة مستمرة وليس من المحتمل أن تنجح إلا بمساعدة أهل البلاد الأخرى وختم المحضر على ذلك وقائم به إلى نقطة بوليس نجوع الجزيرة لعمل اللازم .

وقع محرر المحضر . وبصم عزيز حسين .. وختم العمدة .

انصرف الشاويش عتريس بعد أن فرش المنديل على رأسه وثبته بطربوشه لبس سترته ، وتجشأ ريح البطة التى تغدى بها ، وركب حصانه ، وتوكل على الله ، يتابعه خطوة خطوة وكيل شيخ الخفراء حتى «الصليبة» فودعه . وتتابعه من فوق أسطح المنازل وشعاب الجبل عيون

قلقة . فما أن غادر القرية متجها من «الصليبة» الى «نجوع الجزيرة» حتى اطمأنت وخرجت من مكامنها الى الدروب هبطت اليها من الشعاب تتبادل الحمد لله ، وتتحرى أسباب مغادرة عتريس «التليس» كما يلقبونه لضخامته، فيروبها بصيغ شتى جادة أو مرحة يونس عبد الله ثم نقلا عنه وعن الناقلين حتى عرف أهل القرية أن في قريتهم قوة تغلب الحكومة بالجسارة والذكاء والحيلة يقودها عباس ولد محمد اسماعيل. فتبادلوا السخرية من الهرب والهاربين وعلى رأسهم يونس عبد الله أول الساخرين .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف : ها نحن منفردين معا فقل لي ما الذى فعلته فى أسيوط وماذا كانت النتيجة . قص عليه ماحدث تفصيلا. لم ينتبه محمود عبد اللطيف الى ما حدث بعد زيارة مكتب الابوكاتو أبو شقة وان كان القاص قد أكمل قصته . قال العمدة اذن فهذا هو السبب ؟ .. قال : ماذا تعنى ؟ أى سبب . لقد قلت لك أن العرائض قد سلمت فى أسيوط وفى البدارى . فهل كان ذلك سببا لأى نتيجة لا أعرفها .

قال الشيخ محمود عبد اللطيف . لا . لا . لا .. « مش قصدى» . لقد كنت مشغولا منذ مدة بمحاولة معرفة سبب اختفاء صديق محمود حماد من البلد ومن المركز . وعرفت صدفة من على حامد أنه فى مصر فازداد الأمر غموضا . ماذا يفعل فى مصر . وما علاقة هذا بالعمودية التى يسعى إليها . الآن عرفت السبب . لابد أن يكون قد استكتب أولاد عمه بيوعا صورية بأرضهم لتكمل له خمسة أفدنة فيوفى بشرط تولى العمودية فذهب الى مصر وقدم تلك العقود فى المختلط لتنزل على اسمه

فى سجل الأراضى المكلفة . إذا كان قد فعل هذا منذ أن اختفى فله الآن ثلاثة أسابيع . وتكون النشرة قد وصلت المديرية وباقى أسبوع . غدا سأذهب إلى أسيوط وأعرف ما اذا كانت النشرة قد وصلت أم لا ولا أعرف ماذا كان ما قاله لى معاون الادارة من أنه سيتولى العمودية الاسبوع القادم صحيحا أم أنه ابتزاز كعادته . المهم أبو شقة قال أن لابد من مرور شهر بعد وصول النشرة إلى المديرية . أليس كذلك . نعم ولقد سألت أبو شقة لأن موضوع الشراء الصورى كان قد بلغنى أن له علاقة بالعمودية ولم أكن أعرف كيف تم هذا .

– إذن غدا من الفجر سأذهب إلى أسيوط لاتأكد من التواريخ . هل تأتى معى .

– لا والله يا عمدة . أنا غائب منذ يومين . وكان المفروض أن يتزوج اسماعيل أخي اليوم الخميس وقد نسيت موضوعه تماما ، ولا أعرف كيف أقابله فضلا عن مشاغل أخرى .

– لا تشغل بالك بمسألة زواج اسماعيل . لا زواج فى البلد الا بعد أربعين المرحوم محمد ظرظور . ولا تنسى أن تذهب الى منضرة «أولاد عمران» للعزاء بعد المغرب . وستجدنى هناك . أما أنا فمن الفجر سأذهب إلى أسيوط . وإذا لم أعرف بنفسى فسأستعين بالابوكاتو أبو شقة يعرف لى هل وصلت النشرة أم لا . وأعطيه أتعابه . كم قلت لى أخذ منك .

– مائة وخمسين قرشا .

– كتير ..

– وبالمناسبة ، وقبل أن أنسى هذه المائة والخمسين قرشا التى أعطيتها لى فى البدارى .لا . لا . والله . عيب . نحن شركاء . وأنت قلت أنك لم تعمل حسابك .

– لا . «كتر خيرك» . لقد كنت أحسب أن المسألة ستتكلف أكثر مما تكلفت ، ولكنه ، الله يكرمه ، لم يأخذ أتعابا عن مسألة العرائض .

– اذن لماذا أخذ مائة وخمسين قرشا .

– خمسين قرشا رسوم ارسال العرائض ومائة قرش أتعاب الفتوى .

– طيب . سأطلب منه فتوى على الاكثر .

ومد يده فأخذ المائة والخمسين قرشا الممدودة بها يد الشيخ عباس . وقاما لينصرف عباس . لم يجد الحمار أمام المنضرة . قال أين الحمار فقال له محمود عبد اللطيف ضاحكا : لقد عاد إلى منزلكم لأنه حمار ، إذ من عادة الحمير، لأنها حمير ، أن تعود إلى المنازل التى اعتادت أن تحمل فيها الاثقال ، ويمتطيها الناس ، بدلا من أن تهرب ولا تعد ..

ضحك الآخر وانصرف عائدا إلى منزله مشيا على قدميه ..

هنالك لفته بقوة أن عمه الحاج مشهور وعمه مصبح ، وأخويه ، وكثيرا من أفراد عائلته بمن فيهم محمد عبد الله وأحمد عبد الرحيم ثم ولد خاله أحمد عبد اللطيف يستقبلونه واقفين مرحبين فى مدخل «المنضرة» الفسيح . «منضرة» العائلة هذه المرة وقد كنست أرضها ورشت بالماء ورصت فيها «الدكك» ، عليها «فرشيات» من الصوف الملون

ومساند من القطن . قال السلام عليكم وهو يصعد ثلاث درجات إلى ردهة المنضرة . قولوا : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فصافح أيديهم الممتدة ، واحتضنه عمه مشهور . ونادى محمد عبد الله على ولده على : شاى يا على لولد عمك الشيخ عباس . «بس تقيل» ..

خطر له أن كل هذا من تجهيزات عرس اسماعيل فالتفت إلى اسماعيل وقال « تأخرت عليك يا عريس فلا تؤاخذ أخاك» ..

قال مشهور ، كبير العائلة : «عريس إيه وشغل أيه» .. أنت عريسنا. . عريس عائلة «أولاد مشهور» رفعت راسنا فى البلد ..

قال محمد عبد الله : لا والله يا حاج مشهور . ليس فى بلدنا فقط . رفع رأسنا فى كل البلاد المجاورة . كلها تحكى عن عباس محمد اسماعيل «اللى من المشاهرة» وما فعله لمصلحة البلد فى ثلاثة أيام . طلعها براءة من حادث الكمبيل ، وزاح التهمة على أهل العقال البحرى ولاد الكلب ، جزاء على أن جدودهم نهبوا جدودنا ، وحمى البلد من السلطة «اللى عرابى نفسه ماقدرش يحمى روحه منها» . «وأول الشويش عتريس ما سمع أنه وصل البلد طلع منها طوالى» .. هل هناك من ينكر شيئا من هذا .

قال عبد الغنى عبد المغيث : « ينكر كيه » دا زى الشمس الطالعة . والناس كلها شاهدة «عمدة الريانية هو الذى شهد أن الشيخ عباس هو الذى نقل الكمبيل للعقال البحرى . وعمدة الريانية «ما يكدبش» .. قالوا جميعا : صح . وعزيز حسين كان فى البدارى ورأى الشيخ عباس يأخذ العرائض التى حمت البلد من السلطة ويذهب لمقابلة المدير فى أسيوط .

قالوا : صح .

ويونس عبد الله قال : أن ولد العمدة قال له أن الشويش عتريس لم يكن يريد أن يغادر البلد قبل أن يأخذ معه الانفار ، ولكن ولد مطاوع الصغير جاء يجرى وقال للعمدة أن الشيخ عباس وصل عند الصليبه وفى طريقه اليه ، فلما سمع الشويش عتريس «التليس» أن الشيخ عباس «جاى» قام طلع من البلد على طول . وكمان عيقولوا إنه سافر مصر فى قطر الليل يوم الثلاثاء وقابل الوزير وجاب منه أمر للسلطة إنها ما تقربشى من الهمامية سلمه للمدير فى أسيوط » .

جزع مما سمع ، وهم بأن يصحح ما يقولونه ، خاصة «تهمة الكمبيل» ولكنه لم يجرؤ على أن يبدد ما يغمرهم من بشر وفخر . ونظر إلى أحمد عبد اللطيف فوجده يتأمله بعينيه الضيقتين الثاقبتين كأنه يحذره ، وتذكر ما قال له يوما أن لا شيء يبلغه مما جرى فى البلد إلا ما يسره . فهدأ واقنع نفسه بأنهم لا ينقلون إليه ما وقع صدقا ولكن ما يتمنون أن لو كان قد وقع كأنه واقع فعلا . يسره فيسرهم ..

ثم جاءت «الصوانى» محمولة على الرءوس تحمل» «رغفان» ولواحيق ملوخية، وحماما محشوا بالفريك . جاءت من بيت مشهور وقد أعدت من الظهر احتفالا بعودة الوفاق إلى العائلة وعودة افتتاح منضرتها الكبيرة، ثم انتظرت الشيخ عباس فلما أن عاد عصرا قدمت غداء أو عشاء . حين فرغوا من الأكل ، كان قد آن موعد صلاة المغرب ، فتوضأ المصلون وذهبوا إلى المسجد القريب ومعهم الشيخ عباس ، و«الكلوب» الذى انتقل من منضرته إلى منضرتهم بدون اذن فاتخذوه إماما وصلوا المغرب جماعة . يعترف بأنه وهو يصلى ذاك المساء كادت صلاته تفسد

بسبب أفكار سوداء تعود إلى ذهنه حاملة شبح «الكمبيل» تارة وتشغله تارة أخرى بما آلت إليه منضرته وما فيها من دكك ومقاعد وكتب ، بعد الصلاة توجهوا ، من صلى ومن لم يصل ، إلى منضرة «أولاد عمران» كما فعلوا من قبل وهو غائب وكما سيفعلون حتى تنقضى الليالى الأربعين . عمه مشهور بجواره فى المقدمة والباقون لها تابعون ، حتى أدوا الواجب المتكرر وانصرفوا . فاتجه رأسا إلى منضرته . كانت صفية تنتظر فى الردهة . فلما هم بأن يدخل المنضرة ، نبهته إلى أن أمه قلقة عليه تريد أن تراه . لم يمكث طويلا مع أمه ، بل عاد الى منضرته فوجدها كما هى من أرض وحوائط وسقف وكتب ، وإن كانت خالية من المقاعد والدكك إلا دكتين ضمتا وفرشتا بزوج من الالحفة القطنية المزوقة والمساند الطويلة فكأنهما سرير نوم مريح . سأل مرسى : من فعل هذا التغيير وأنا غائب . قال مرسى : أمك . فلم ينطق . والواقع أنه ارتاح لذاك التغيير ، فامتطى سريره ، واستأذن أخويه لحاجته الملحة الى النوم .

قال مرسى ألا تريد أن نحضر اليك ماء ساخنا وطشتا «لتستحم» . قال غدا إن شاء الله .

قالا : تصبح على خير ..

لم تطل يقظته أكثر من دقائق استرجع فيها مالاحظه من أن كانون الردهة قد أزيل . ونام قبل أن يعرف الجواب على آخر سؤال : كيف أشرب الشاى صباح غدا .

الفصل الثانى

الدميرة

قال الراوى :

(١)

لقد أتى على النيل حين من الدهر كان طفلا يلعب فى أرض مصر لعبة الأطفال ، يبنون ثم يهدمون ما بنوه . فهو ورد معمر فى أشهر التحاريق . فينزل الناس من مرتفعات الهضبة إلى واديه يزرعون ويعمرون . ثم لا يلبث أن يتحول إلى مارد مدمر فى أشهر الفيضان فيسمونه «الدميرة» . يغرق ويهدم لا يترك على الأرض الخصبة نماء أو بناء . فكان لابد للناس من أن يروضوا طاقة النيل الذى لا غناء عنها . ففعلوا به ما يفعلونه بالدواب الوحشية . ألجموه ما يحد من جموحه ويقود حركته . جسرين من تراب يمتدان من أول جبال النوبة حتى مدخلا الدلتا . يحد أحدهما «مجال» حركة الفيضان من الغرب ، ويحده الثانى من الشرق ، وهكذا اصطنع الفراعنة للنيل مثل ما يصطنع الآن قفصا (بارك) يوضع فيه الطفل يلهو ما شاء بدون أن يعبث بما خارجه من أثاث المنزل . وعرف الجسران باسم المفرد فهما «جسر النيل» .

نزل الناس من الهضاب وأقاموا منازلهم فيما بينها وبين جسر النيل واستقر الانسان فاضطرد العمران . غير أن تلك الأرض المحمية من مخاطر الفيضان كانت فى حاجة دائمة إلى الماء ليستزرعها الانسان . فاخترعوا لريها أدوات التحاريق وسبل الفيضان .

فى أشهر التحاريق ترفع المياه إلى الأرض من الأرض ، تلك المياه من النيل التى تحتفظ بها فى جوفها ، «بالشواديف» . مفرده شادوف . ويسمى فى القرية «عود» . وهو رافعة من خشب السنط تبلغ القصبة

طولا محمولة بعارضة يرتكز طرفاها على كتفى دعامتين من الطوب اللبن . تحمل فى الطرف الاقصر الاسفل كتلة جسيمة من الطين . وتتدلى من طرفها أعلى الاطول « جريدة » من سعف النخل تنتهى بوعاء من جلد الماعز «الدلو» يقف الفلاح تحت مستوى الدعامتين «ويجذب» «العود » إلى أن يدرك «الدلو» ما تجمع من ماء جوفى أمامه فى بئر محفور . فاذا ما امتلأ «الدلو» ترك ثقل كتلة الطين ترفعه أو تساعد على رفعه حتى منبع قناة معدة فيما بين الدعامتين . يصب الفلاح فيها الماء وهى تحمله خلال قناة ترابية «فحل» إلى الغيط حيث الزرع ينتظر وروده، يستغرق ملىء الدلو وصبه نحو دقيقة ، ومازال الفلاح طوال النهار أو الليل اذا شاء ، جاذبا العود بذراعيه ، ثم منحنيا بجذعه ليدرك الدلو الماء، ثم رافعا الدلو بالماء ، ثم صابا الماء فى منبع القناة ، ثم عائدا لجذب العود ، فلا يروى فى يومه أكثر من ربع فدان (١٠٠٠ متر مربع) . وما دام يروى فان الماء يتناثر من الدلو وهو يقف على الطين فهو شبه عار وحاف ومبلل دائما وتلك نعمة فى وقت «القيظ» الذى يسمونه موسم القيضى وهذه يدركونها . أما النعمة التى لا يدركونها فهى اختفاء الكروش ونمو العضلات . ومع ذلك يضربون الرى بالعود مثلا للارهاق والشقاء ويتهمون فرعون الذى أنشـــأه أول مرة وأورثهم آلة شقائهم» .يغنى العواد :

صبحنّى العود .... خشب وجلود

والعـــود عايب .... بكّى الشايب

فرعـــون بناك ... هـــرب وخلاك

خذ حظه معاك ... وساب لى شقاك

أما القادرون فرادى أو شركاء فيرفعون الماء فى أشهر التحاريق بالساقية . والساقية آلة فظة من خشب يصنعونها بأنفسهم . بئر عميقة وعريضة مبنية بالاجر والجير فهى مليئة دائما بالمياه الجوفية . يرفع منها الماء بسلسلة من «قواديس» الصاج مترابطة بحبال ومعلقة على زوائد جانبية من عجلة جسيمة تدور رأسيا على محور خشبى مثبت فى أعلى البئر. العجلة ذات تروس خشب تتشابك مع تروس أخرى من خشب بارزة من محيط عجلة أكثر جسامة تدور أفقيا على محور خشبى مثبت فى قاعدة مبنية بالحجر بجوار البئر من أسفله، وفى كتلة خشبية تستند الى حائطين من أعلاه يبرز من هذا المحور ذراع خشبى طويل يتجاوز محيط العجلة الافقية بما يسمح بتثبيته على رقبة حمار أو جمل أو بقرة . تغطى عيون الحيوان بأغطية من الليف المبطن بالنسيج يسمونها «غَمَه» حتى لا يعرف الحيوان الى أين يسير ثم يستحثه «السائق» ضربا على السير . فيسير وئيدا بفعل ثقل الآلة المركبة التى يجرها . يسير دائريا فتدور العجلة الأفقية على محورها الرأسى . فتدير العجلة الرأسية على محورها الأفقى . فترتفع قواديس الماء المغمورة فى ماء البئر وقد امتلأت. حتى اذا ما أدركت قمة الدورة وبدأت فى الانحدار راجعة الى جوف البئر أفرغت ماءها فى حوض من الخشب متصل بقناة تحمله الى حيث الزرع وينتظر ، وتكون قواديس

أخرى قد امتلأت فارتفعت فصبت فانحدرت ... وهكذا دواليك كما يقولون . تروى الساقية نحو فدان فى اليوم . من المشرق الى قبيل المغرب .. ولا يتعذب فيها إلا الحيوان. أما الذى اختار أن يكون سائقا بدلا من أن يكون ساقيا ، فيركب العجلة الافقية يحث البهيم على السير اذا ما توقف البهيم . ثم يعزف على الناى ، بمصاحبة أزيز احتكاك خشب السنط الثقيل أو ما يقولون أنه «نواح الساقية» ألحانا تعجبه . وقد يغنى مواويل لا يسمعها أحد ، الى أن توشك الشمس على المغيب فيعودون ، الناس والبهائم ، الى المساكن، ويكملون فى اليوم التالى .

كل هذا لايجدى فى أشهر الفيضان فى ترويض النيل وقد ارتفعت قامة مائة ، سيدمر جسره لو ترك لذاته .. فقسم الناس ، منذ أيام الفراعنة ، الأرض الزراعية ما بين جسر النيل والهضبة ، مساحات مساحات أحاطوا كل مساحة منها بجسر سميك . فاذا فاض النيل فتحوا للفائض فتحات يندفع منها الى ما يليها من مساحات . وهكذا حتى تستوعب تلك المساحات تدريجيا ضغط فيضان النيل كلما فاض وبقدر ما يفيض . حينئذ يبدو النيل جاريا بين جسريه وتبدو تلك المساحات داخل جسورها كأحواض هائلة مليئة بالماء الساكن . يبقى الماء ساكنا نحو شهرين ثم يبدأ النيل فى «النزول» فتعود المياه اليه من خلال تلك الفتحات ذاتها تاركة على الأرض طبقة رقيقة من الغرين وكميات كبيرة من الاسماك الصغيرة . فاذا انتهى انسحاب الماء طمرت الفتحات فعادت الجسور سوية كما كانت ، وبدأ الزرع .

ذلك هو «نظام» رى الحياض الذى ابتكره الانسان ، منذ عهد

الفراعنة، لترويض فيضان النيل واخضاعه ، بارادته ، لغايته . لا يزال باقيا . كما لا تزال باقية الشواديف والسواقى أدوات الرى الفرعونية فى قت التحاريق . كل ما جد منذئذ إعادة تقسيم الأرض إلى «أحواض» اكثر ملاءمة لنشوء الملكية الخاصة للأرض التى لم تكن مصر تعرفها من قبل ولا من بعد حتى منتصف القرن الماضى . وهو تقسيم جرى على هوى كبار الملاك . وتحولت الفتحات الفرعونية فيما بين الأحواض إلى «سحاحير» مبنية ذوات أبواب من كتل خشبية يرص بعضها فوق بعض فتصبح سدا ويرفع منها ما يكفى لمرور ما يراد له من ماء الفيضان المحجوز خلفها . إلا أن تكون على مصارف فهى مفتوحة أبدا . أما الفتحات الفرعية فى جسر النيل ذاته فقد اندثرت . استبدلت بها «قناطر» تبدأ منها فروع صناعية من النيل من ترع و «رياحات» تمتد عشرات الكيلو مترات موازية مجراه تنقل الماء الى الاحواض . يتحكم الانسان فيما تنقله زمانا ومكانا «ببوابات» حديدية أو خشبية فى كل قنطرة ، إما جسر النيل ذاته فلا يزال باقيا يحرسه الناس أيام الفيضان ويدعمون المواقع الضعيفة منه إلى أن يزول خطر الفيضان .

وهكذا هجر الناس الهضبة ، وانتشرت القرى والمدن فى الوادى ، ولم تعد مياه الفيضان مهما علت قادرة على أن تطغى على المزارع بل تنساب اليها من القناطر الى الترع الى الأحواض انسيابا محكوما محسوبا . فأمن الانسان من بعد خوف من الفيضان ..

الا انسان الهمامية فصدق فيه قول أحمد شوقى :

جعل الأرض جمانا وحصى ..... خالق الارض من ماء وطين

فوليد تسجد الدنيا له .... ووليد فى زوايا المهملين

نعم ، لأمر ما انقرضت من «بر مصر» جميعه الفتحات الفرعونية فى جسر النيل الشرقى الذى يفصل النيل عن الحياض إلا فتحة فى الهمامية . انشئت مكانها أو فوقها سحارة ذات باب من كتل خشبية ، تصب ، كما كانت ، فى الأرض المزروعة صبا مباشرا بدون وسيط من ترعة . تلك السحارة الغربية التى خطرت على بال عزيز حسين وهو يؤلف قصة جسر الصبخة المقطوع والمقاومة الموهومة ليتخلص من الشويش عتريس . انه لم يؤلفها من فراغ ولكنه استعادها من ذكريات كوارث أصابت القرية من تلك السحارة ومن جسر الصبخة . إذ جسر الصبخة هو ذلك الموقع من الجسر الذى تخترقه السحارة الغربية . ولأنه من تراب ويلاصق مبانى السحارة الحجرية فان ماء الفيضان يتسرب فيتآكل التراب الملحى «سباخ» وينقطع الجسر فيطغى الماء «ماء الفيضان» على الأرض المزروعة . فاذا أريد تخفيف ضغط الماء على الجسر الضعيف فتحت السحارة قبل موعد فتحها ، فتتدفق مياه الفيضان منها الى ذات الأرض المزروعة التى أريدت حمايتها من الطغيان . يستبدل بفوضى طغيان الماء من الجسر المقطوع طغيان منظم من مياه السحارة .. ولا ينجو الزرع فى الحالتين .

وقد كان طبيعيا منذ أن لاحظ عزيز حسين وهو فى طريقه الى البدارى ماشيا على قدميه وراء حمار الشيخ محمود عبد اللطيف أن

«الترعة شيمت» ، ثم بعد أن عادوا جميعا، وغادر الشويش عتريس القرية ، أن تنسى القرية السلطة والحكومة والعمدة وحتى الشيخ عباس، وتنشغل انشغالا بدنيا وعصبيا بمواجهة مخاطر فيضان يبدو مبكرا مدمرا. العاطلون وأشباه العاطلين فى الرهبات يستعيدون وقائع الكوارث الماضية. والمصلون يدعون الله أن يرفع غضبه ومقته عنهم ويصون مزارعهم . والشباب يقضون الليل ساهرين فى «تاية» سطوحى عبد المنعم مسلحين بمقاطفهم وفئوسهم، وينظمون «ورديات» المرور على الجسور واستطلاع حالتها وخاصة جسر الصبخة. والرجال والنساء والأولاد والبنات يتفقدون «القيضى» طوال النهار ويقطعون كل قنديل أبيض ، ويحملون ما قطعوه الى المنازل حيث تحولت الأسطح الى مساطيح .

ذلك لأن الشيخ محمود عبد اللطيف الذى ركب حماره فى الفجر متجها الى البدارى قاصدا أسيوط ، قد عاد من البدارى قبل الظهر ونسى ما كان يريده من أسيوط . قابل المأمور فى البدارى فقال له حسنا فعلت إذ حضرت اليوم يا عمدة . كاد ينهار توقعا منه أن المأمور سيبلغه نبأ العمدة الجديد . قال وقد جلس بدون اذن : خير يا بيه . قال: ربنا يستر يا عمدة والبركة فى همتك . خير يا بيه . كنت سأبلغك بإشارة تليفونية ما أبلغنى به الرى إنه نظرا لارتفاع منسوب مياه النيل فقد تقرر فتح الحياض بعد عشرة أيام . قال : يا سعادة البيه القيضى لن يستوى قبل ثلاثة أسابيع أو أسبوعين. قال : يا شيخ محمود لا تتعب نفسك ، كلنا فى خدمة الحكومة ولكن إذا وصل الأمر إلى الفيضان فالحكومة نفسها فى خدمة ادارة الرى. فأسرع بالعودة الى بلدك وبلغ

الأهالى «ليعملوا حسابهم» على أن مياه الفيضـــان ســتغرق الحياض بعد عشرة أيام .

عاد العمدة سريعا وأبلغ الحاضرين ، وتولى الحاضرون ابلاغ الغائبين ، فنسى الجميع كل همومهم وانطلقوا الى الفيطان لانقاذ ما يمكن انقاذه.

.. منذ يومين وهو قابع فى حجرته ، منضرته سابقا ، يقرأ ما تجمع من صحف الأسابيع الماضية ويعيد قراءتها . فقد كان يتابع بلهفة معركة مستمرة منذ عام . يقول الراوى كان الانجليز قد بدأوا محاولة اقتحام الدردنيل فى طريقهم الى احتلال دار الخلافة : الاستانة . فاضطربت أفئدة كل المسلمين . لا أحد يقول لماذا . انهم لا يتعاطفون مع السلطان منذ أن أفتى بكفر عرابى ... ولا يحبون الاتراك المتغطرسين ولا يعرفون إلا أن استانبول مقر الخلافة . الخلافة عندهم غير الخليفة . الخليفة انسان فاسد أما الخلافة فرمز مقدس . وما يزال أولادهم وبناتهم منذ أن احتل الصربيون والبلغاريون (١٩١٣) أول مقر للخلافة مدينة أدرنة (١٣٦٥ - ١٤٥٣) يغنون لمقر الخلافة :

حلوة يا ادرنة ياللى احتلوكي

الصرب والبلغار ....

ضربوكى بالنار يا ادرنة ....

ترك تركوكى وعاودو خدوكى

حلوة يا ادرنة ياللى احتلوكى

فما هدأت أفئدتهم بعد اضطراب الا حين اندحر الانجليز فى

غاليبولى.. وكان عليه أن يتابع هذا كله ، وأن يحفظه ، ليتحدث به الى من يلتمسون لديه يوما بعد يوم أنباء «الخلافة» . وقد انقطع الحديث منذ أسابيع وتراكمت الصحف منطوية على أنباء لاشك متراكمة فقضى يومين ليعد نشرة الأنباء. يأتيه الافطار والغداء والعشاء يحمله اليه فوزى. ولا يرى أخويه إلا لماما فى المساء. وسمع أخبار القرية وصراعها ضد مخاطر الفيضان . الى أن دوت فى صباح اليوم الثالث صرخة امرأة رددتها نساء أخريات . فخرج الى الردهة ينادى يا مرسى ، يا اسماعيل ، يا نصر ، يا فوزى لا حياة لمن ينادى . خرجت اليه صفية تبكى . قال ما الخبر يا صفية . قالت وهى تعود الى داخل الدار : الجسر انقطع عند الصبخة «يا سلفى» والرجالة هناك كلهم فتراجع صامتا كالمذهول .. لا يعرف ماذا يفعل . توقف ثم عاد مندفعا الى باب الدار . فتحه . فإذ برجال ونساء يمرقون أمامه مسرعين ، يجرى بين أرجلهم ومن حولهم أطفال وصبية . ويسأل الى أين فلا يجيب أحد الا جواب صراخ النساء وعويل الصبية وهم يجرون . جرفه تيار البشر . فاذا به بجلباب نومه ، بدون عمامة ، يجرى حافيا ويسبق الكثيرين الى جسر الصبخة . أين القطع من غيطنا الكبير . لا حول ولا قوة إلا بالله . أن الماء يندفع من القطع الى غيطنا الكبير .. لافائدة فى النداء ، فكل قادر على النداء أو البكاء لا يكف فاختلطت الأصوات الرجال وبعض الشباب شبه عرايا يصطنعون من اجسادهم سدا ملتحمين . ورجال ونساء يثبتون اقدامهم بما يحملون اليهم من أتربة الغيطان . تتحول الاتربة سريعا إلى طين فيدفع الماء صف الرجال ويوقعهم فى الطين . خاض الماء والطين حتى اقترب من سد الاجساد العارية فتعرف فى

شبح من الطين على اسماعيل . يا اسماعيل لا يجدى ما تفعلون ، «اعملوا فى القطع لِبْشَةِ من بوص القيض » . نقلها اسماعيل الى الاخرين . قيل للنساء وبعض الشباب «هاتوا بوص نعمل لبشه» . فقطعت أطنان من أعواد القبض بقناديلها وألقيت أمام سد الرجال. وألقي عليها التراب فتماسكت عندما تحول التراب الى طين . وأضاء شعاع من أمل فى قهر النيل المتمرد . فما أن انتصف النهار حتى كان قد سد القطع بسد من البوص والطين فانقطع الماء ، تاركا كثيرين من أهل البلد ممددين على الجسر «بطينهم» لا يستطيعون حراكا من فرط الأعياء . وكان عباس ولد محمد اسماعيل قد أدمى يديه وهو ينتزع بها البوص من الأرض ويحمله مع الحاملات والحاملين . «زغرتت» امرأة ولم تستطع سواها إلا أن تبكين تعبا وقهرا . أقاموا على الجسر حراسة وانسحب كل عائد الى داره يتوكأ على من لا يزالون على السير قادرين . حتى اذا ما بلغ آل المرحوم محمد اسماعيل دارهم، تفقدت صفية ولدها فوزى فلم تجده فصرخت . فانطلق عباس ومرسى واسماعيل ونصر عائدين الى حيث كانوا عند جسر الصبخة . فوجدوا من سبقهم الى هناك يتفقدون أطفالا غائبين ، كان فوزى وولد زناتى يحملان البوص مع الحاملين . فتشوا الغيط وفتشوا الحفر التى رفع منها التراب فأصبحت بركا من طين . ولد زناتى ها هو جالس فى الطين مذهولا لا يتحرك ولا ينطق . أما فوزى العزيز فممدد فى بركة من الماء العكر وقد غاص رأسه فى الطين .. فحمله أبوه بين يديه وعادوا به الى الدار منكسى الرءوس صامتين غير قادرين حتى على البكاء . تلقتهم صفية بصراخ ينفطر له القلب وهى تحتضن ولدها حتى غاب وعيها

فتوقف دمعها وصراخها فنقلوها الى مسكنها . حين أفاقت كان فوزى قد دفن وامتلأ الدار بالندابات وامتلأ ت المنضرة بالمعزين . مأتم فوزى الذى مات صغيرا أسبوع ولا يتصل حتى الأربعين .

في المأتم تحبس الالسنة فتنطلق الافكار لا يحدها حتى حزن المكلومين . صرخة من امرأة فيجرى الرجال والنساء والشباب والاطفال الى حيث مصدر الخطر فيجرى بجلباب نومه ، بدون عمامته ، حافيا تاركا وقاره في عقر داره . حين بدأ يتعب من الجرى حافيا على حصى الجسر تساءل عن مصير غيطهم الكبير . فكاد يتوقف لولا أن شعر بخجل مرير . خليط من الناس من كل العائلات يجاهدون لانقاذ غيطهم الكبير . وهو معهم فى الماء والطين ويحمل ما تحمل النساء والصبية بوصا منزوعا من غيطهم الكبير لسد القطع اللعين . فرض الله على كل قادر من المسلمين الحج الى مكان واحد في يوم واحد بلباس واحد ذى لون واحد ليعلمهم بدون موعظة وحدة الانتماء الى جماعة المسلمين . ولقد كان القادرون من أهل الهمامية فى يوم واحد فى مكان واحد تغطى جسد كل واحد منهم طبقة من ذات الطين . فهل كانت وفاة فوزى العزيز الا آية تلفته بقوة وقسوة الى أن «الانتماء» الى الهمامية الذى رفعه عنوانا كبيرا على حياته قد تحول بالتكبر الى كبيرة . هذا هو الانتماء كما رآه وسمعه ولمسه وتنفسه عند الجسر المقطوع . انه الاندماج في الجماعة حتى الفناء . منذ اليوم لن أكون خارج من انتمى اليهم. لا فوقهم لا تحتهم ولا على يمينهم ولا على شمالهم سأندس فى جوفهم اتغذى منهم كما تتغدى الاجنة فى أرحام امهاتها ، وأمدهم بما أقوى عليه كما تفعل القلوب القوية فى الاجساد . تتلقى منها الدم وتعيد

اليها الدم ، لا تتوقف ولا تنفصل . لا انفصال بعد اليوم عن الناس ، مكانا، أو أفكارا ، أو كلاما ، أو غذاء ، أو كساء ، وليكن الله في عوني ليهديني.

ايقظه على ولد عمه مشهور وقد حمل اليه الافطار . قم يا شيخ عباس الدنيا أصبحت ضحى .. لقد أحضرت إليك الأفطار ، وحلة مياه ساخنة وطشت لتفطر وتغتسل . أتركك الآن .. لبس العمامة والحذاء وقفطانا من «الشاهى» يضمه حزام من الحرير وفوقه «كاكولة» . «طقم» الأزهر .. ذهب الى المنضرة فلم يجد إلا أحمد عبد اللطيف . جلس على دكة بجواره . تأخرت في النوم .. يبدو أنني كنت متعبا كما قلت بالأمس .. كيف يبدأ الحديث معه . لابد من طريقة يتقبل خلالها أفكاره بدون أن يشعر أنها مملاه عليه .

– باقى أسبوع وتطلق المياه .

– لا باقى ستة أيام .

– ماذا سيفعل الناس فى هذه الأيام الستة .

– ما كانوا يفعلونه كل مرة وما يفعلونه منذ أمس . لقد انتقل كل القادرين على العمل من الرجال والنساء الى الغيطان لجمع ما استوى من قناديل القيضى ونقلها فى «القفف» إلى البيوت .

– غريبة وواجبات العزاء لماذا يصرون عليها وهى تعطلهم .

– لا ، يا ولد عمتى، لاعزاء ولا مجاملات ولا عتاب فى هذه الحالة . لايذهب أحد منذ أمس إلى مأتم محمد ظرظور . وأعتقد أنه لن يحضر أحد هنا هذا اليوم أو بعده . ربما يحضر الشيوخ والذين لا يعملون أو

بعد صلاة العشاء . إنما فى النهار لا . الارزاق أولى . وهذه عاداتنا من زمان .

- لقد كانت عندى فكرة . أن يتعاون أهل البلد جميعا فى قطع القيضى حوضا حوضا ...

يبدأون من حوض «أمخلى» مثلا ثم «التلوت» وهكذا . لان المياه تصل كل حوض بعد السابق يومين فتكون لديهم فرصة أكبر .

- يا شيخ عباس لا تقل هذا الكلام أمام أحد غيرى حتى لا يسخرون منك ، ويقولون أنك نسيت الزرع والقلع.

- لا .. أنا لم أنس.. ولكنى وجدتهم كلهم يدا واحدة فى سد قطع جسر الصبخة. فلماذا لا يكونون يدا واحدة فى ضم المحصول .

- لا . قطع جسر الصبخة خطر على البلد . اذا اندفعت المياه من النيل الى الارض مباشرة فلن يوقفها شئ . ستغرق الزراعة وحتى الجسور وتدخل البيوت أيضا . ليست هذه أول مرة .. ولا تنسى الناس تجاربها المرة .

- أرسلت أخوتى الثلاثة وأنا «ضعفان» لا أقدر على هذا العمل الجسيم .. لم يرك أحد من أخوتى فلم يقولوا لى . عرفت من يونس عبد الله . قالوا فقط أن فوزى ولد مرسى «قرصه» ثعبان من الثعابين التى طرّدتها المياه من جحورها فى غيطكم الكبير.

- لا . توفى غرقا ..

- فى شبر ميه ؟ .. جائز .

– على أى حال نحن نشكرك على مشاركة إخوتك فى حماية غيطنا الكبير.

– لا شكر على الواجب . لكن انتبه حتى لا تشكر أحد غيرى . أنت ومرسى واسماعيل ونصر فقط الذين كانوا يردون الخطر عن غيطكم الكبير . باقى الناس كانوا يردون الخطر عن غيطانهم القريبة والبعيدة . وحدة المصير هى التى وحدتهم .

– عظيم . فلماذا لا يتوحدون فى جمع المحصول حوضا حوضا .

– ما الذى جرى لعقلك يا عباس . لأن الارض مقسمة بين الناس . كل واحد له زراعة . قيراطان . ربع فدان . أكبر غيط فدان . من أجل هذا أطلقوا على غيطكم اسم «الغيط الكبير» فكل واحد بعد زوال الخطر ينتبه لزرعته . ولو قلت لهم تعاونوا مع بعض يتمسك كل واحد بأن يكون غيطه أول غيط يجمع محصوله . وأن قلت حوضا حوضا فلابد أن تكون البداية من حوض «داير الناحية» لان القضى فيه استوى . وليس من المعقول أن يبدأوا من الآن فى قطع الاخضر ويتركوا المستوى.

وحتى فى كل حوض وفى كل زراعة ستجد قناديل استوت وقناديل لاتزال خضراء . فالطريقة المتبعة فى هذه الحالة منذ القدم قطع المستوى فى كل غيط. وبعد يومين يكون قد استوى غيره فيقطعونه وستجد انه حين تطلق المياه في الحيضان لاتجد الا البوص الاخضر ويكون أغلب المحصول قد تم جمعه . هذه أشياء تعلمها الفلاحون من جدود الجدود.

– أنا كنت أريد أن أؤدى خدمة للبلد.

- انت خدمت البلد على قدر علمك وإن شاء الله ربنا يوفقك وتتعلم في البلد ما فاتك وانت في الازهر.

- ما الذى يمكن أن أتعلمه فى البلد يا أحمد.

- أن تصبح فلاحا . فنحن بلد فلاحين.

- كيف ..

- والله لا أعرف الجواب . الفلاح يعرف أنه فلاح ولكن لا يعرف كيف هو فلاح. لكن مثلا منذ اليوم لن يساعد أحد احدا . كل فلاح مشغول بزرعه . وانت عددكم قليل . ثلاثة أخوة ونصر الجمال . فأخواك فى حاجة اليك . بقى أسبوع أو سته أيام لن تجد فيها من يجلس معك . اين يونس عبد الله الذى لم يكن يفارقك ليلا او نهارا . انه فى غيطه الذى لايزيد عن أربعة قراريط . أين مرسى وأين اسماعيل . مرسى ترك المأتم واسماعيل معه ومعهم نصر الجمال فى الغيطان يجمعون القيضى فلماذا لا تذهب ولو تقف معهم إذا كنت لا تستطيع أن تعمل بيديك.

- أذهب ان شاء الله .

- استأذن أنا.

- إلى أين ..

- الى الغيط .. غيطنا.

كمثل عصا موسى لقفت كلمات أحمد عبد اللطيف البسيطة أفكاره المركبة . فشعر باحباط ثم بهبوط ورغبة شديدة فى النوم . فدخل حجرته واستغرق فى نوم عميق كما لو كان يخشى اليقظة حتى صباح

اليوم التالى.

قالت له صفية : عمتى تريد أن تراك.

قالت له بمزيج من الحزن والغضب والجدية : خذ هذه «شمسية المرحوم أبوك» الشمس فى الغيطان حارقة وأنت غير متعود فلا تحتمل . احتمى بالشمسية وساعد أخويك بدلا من « القعدة هنه » .

لم ينطق ..

كغابة هائلة من أعواد « القيضى » الخضراء تحمل قناديلها ، أو كبحر أخضر هائل عليه طبقة من الزبد الأبيض ، غابة كانت أو كان بحرا فإن اضطراب سطحه المستوى ينبىء عن أن تحت السطح تجرى، أو تعمل ، أو تسبح كائنات حية لا تبين ، تجذب أطراف الأعواد فتحدث موجة سريعة تعود بعدها الأعواد قائمة ولكنها بدون قناديل ، وتنتقل الموجة من وضع إلى مواضع فيختفى اللون الأبيض من كل موضع مرت به تلك الكائنات الخفية التى قطعت القناديل أو لقفت الزبد ، إنما تكشف تلك الكائنات عن ذواتها عند أطراف الغيطان فيما يجاور الجسور ، أسراب من البشر ذوو حجوم متفاوتة ، شبه عراة إلا النساء، يندفعون خارجين من لجة الزرع إلى الجسور حاملين مقاطف مليئة بالقناديل يفرغونها على الجسر ثم يغيبون فى اللجة كأنهم نمل يحفر بيتًا ، ومن حين إلى حين ، ومن موضع إلى موضع ، يندفع من داخل الغيط من ضاقت نفسه وأغرقه عرقه ، ولسعت جلده تلك الشعيرات الرقيقة التى يلتقطها جسده العارى من « القناديل » ويسمونها« الغف»، يندفع جريا وهو يحك جلده ويلقى بنفسه فى المياه ، مياه الترعة أو مياه

النيل بعنف ، يتبرد من جحيم الحر ، أو يتحرر من لسعات الغف ، من الفجر حتى المغرب ، وفى المغرب تحمل القناديل على الرءوس وفى التلاليس على ظهور الحمير وفوق « شواغر » الجمال ويعودون إلى القرية ، يجمعهم وقت العودة ، ويجمعهم جسر الصليبة ، ولكنهم لا يتبادلون الحديث بل يسعون صامتين إلى منازلهم كسعى الجنائز إلى القبور .

لا يضاف إلى تلك الصورة ، ولا يخل باتساقها ، إلا حامل الشمسية ، الواقف على الجسر ، المتنقل من غيط لهم إلى غيط لهم ، يحرس القناديل المقطوعة التى لا تحتاج إلى حارس ولكنه ، على أى حال ، يعمل مع أخويه ، يعمل شيئا أو يعمل لا شىء لقد أصبح معهم ولو على شاطىء البحر الأخضر وهما ونصر الجمال فيه غارقون .

بعد ستة أيام تدفقت المياه إلى حوض ثم إلى حوض ، وتحولت أسطح المنازل إلى مساطيح للقناديل البيضاء ، وجمعت القناديل الخضراء لتكون غذاء للماشية ، وجمعت الهمامية من ناتج زرع أهلها فى ذاك العام محصولا ناقصا لا يكاد يفى بما سيحتاجه أهلها من خبز البتاو طوال العام .

(٢)

حاصر الفيضان القرية فاختلطت فيها الكائنات الحية جميعا حتى كادت تضيق بها كما يحدث كل عام ، تميز ذلك العام بهجوم الغربان وبشقاء النسوان ، أما الغربان فسرايا وفصائل وكتائب مرابطة حشدا فوق الأشجار والحيطان تنقض جماعة جماعة ، بجسارة الجماعة ، على قناديل القيضى التى افترشت أسطح المنازل ، لا تصدها مناوشات الصبية الحارسين بل تتحداهم وقد تعاقبهم نقرا فى أطراف أيديهم

وأرجلهم ، ولا يغرى الصبية بالصمود ما كان يغريهم فى مساطيح الغيطان ، فيتسللون هاربين إلى ملاعب الدروب ، أما النساء فقد أضيف إلى همومهن فى ذلك العام ما يضاف عادة إلى هموم الحكام إذا ما أعلنت حالة الطوارىء ، لم يعد بعد الذين غادروا القرية إلى الغرب لجنى القطن لأصحابه ، وليس من عادة الذين لا يغادرونها العمل داخل البيوت فلا يتدخلون فى شئونها الداخلية ، وقناديل القيضى حاملة الحب الذى ستودعه النساء فى الحواصل مهددة بغارات الغربان الشرهة ، فترى النساء على الأسطح جاثيات ضاربات بعصى رقيقات ما تيسر لجهدهن من القناديل ، ثم جامعات الحب نهارا ، بعد نهار ، بعد نهار ، وفى الليل حين يأتى القمر ، فتتحول القناديل ببطء شديد إلى الحواصل والصوامع على دفعات من الحب قليلة إذ المحصول فى الأصل قليل ، كل هذا قد يهون ، أما الإضافة غير الهينة فهى ما يفعله ذلك « الغف » الذى يتطاير من القناديل المضروبة فيلسع الجلود ، انه يتسلل كالهباء الخفى إلى أجساد الضاربات ذوات الملابس الفضفاضة من الجلاليب ، وهناك يلتصق بمواضع قريبة ومواضع غريبة من جلودهن الملساء الرقيقة ، وليس فى البيت ماء جار « تغطس » فيه المرأة من حين إلى حين كما يفعل الرجال فى الترعة ، قد تضم واحدة منهن أطراف ثوبها إلى قدميها وتربطها بحبل متين ، غير أن تلك حيلة تعوق حركة « دق القيضى » فلا يحتال بها إلا القليل ، فيتحملن طوال النهار على الأسطح المكشوفة لأشعة الشمس الحارقة ، ولا يشتكين ، لا يغيظهن إلا عودة الرجال إلى المصاطب والمناضر والرهبات يستهلكون من الدخان والشاى ما يتوقعون الوفاء بثمنه إلى أبو الحسن مما

يبيعونه من « قوت العيال » ، تتوقف النساء عما يشقيهن يوما في الأسبوع ، انه يوم السبت ، إنه يوم السوق ، إنه يوم اللحم والمرق والفطير ، غير أن أغلب الرجال يفسدون نهايته بما يدعونه من إرهاق أو يصطنعونه من أمراض ينسبونها إلى فيضان ذلك العام ، ومع ذلك فلكل شيء وجه آخر حتى الفيضان ، وقد بدأت رحلة المياه من الحيضان إلى النهر تاركة ما سيشغل النساء من أطنان السمك الصغير .

ولكل وجه وجه آخر ، فقد وجد أهل القرية في ذلك العام ، وفيما سبق أن وجدوه في مثله من أعوام ، مادة لا تنتهي من القصص المقارن، ولما ذكروا فوزي ولد مرسي تذكروا وأحصوا عشرات من الشهداء الذين أغرقهم الفيضان وهم يدافعون عن قريتهم ، واستجابت علاقاتهم القبلية المفرقة لمشاعر الوحدة ضد مخاطر المياه المغرقة فأصبحوا أكثر انسانية مما سبق من أعوام ، وانفكت حتى كادت تنفرط روابط التكتل القبلي ، وأخذ الناس ، زرافات ووحدانا ، يتزاورون ويتسامرون ويلهون ، مختلطين في الرهبات وفي المناضر وعلى المصاطب ، وفي الدروب ، وعند « تاية » سطوحي عبد المنعم ، لا اختلاط الأقارب ذرية فرج قداح ، بل اختلاط الذين يواجهون الخطر معا، يخسرون معا ما يخسرون ، ويكسبون معا ما يكسبون ، ويضربون مثلا فيضان ذلك العام ، ومايزالون راجعين أمثلة من القصص والحكايات حتى آباءهم وجدودهم حيث خسروا معا كل شيء ولم يكسب أحد منهم شيئا يوم تعرضوا معا لغارة الأمير فاضل باشا ، ويتبادلون تأكيد وحدة المصير مما صار أخيرا ، فيتحدثون بضمير الجمع ، فينسبون إلى أهل القرية جميعا ، دفع خطر السلطة عن أبناء القرية ،

وعرائض القرية إلى الحكام ، وثأر القرية من قتلة ابن القرية محمد ظرظور ، ووقوف القرية سدا بشريا فى قطع جسر الصبخة .

ويكون عباس ولد محمد اسماعيل ، وأخوه مرسي ، وولد عمه على مشهور ، ويونس عبد الله قد قدموا زائرين ، فيقول أحد المستقبلين : « دا حتى الشيخ عباس كان مع الرجالة وسط الميه والطين يوم قطع جسر الصبخة » . ويقول آخر مازحا : « أنا ريته وقلت فى عقل بالى الشيخ عباس حاطط على راصه طين عشان حزين على الغيط الكبير » . ويضحكون من نموذج « النكتة الصعيدية » التى تقوم على أساس التورية لا أساس المفارقة ، وهو سعيد بما يقولون ، انهم يحتضنونه بطريقتهم وكم تمنى أن يعرف الطريق إلى أحضانهم ، المهم أن قد سقط التكلف وعاد إلى القرية التى ينتمي إليها ولم يخسر التوقير بل كسب التقدير ، فمنذئذ سيذهبون إليه يستشيرونه فى مشكلاتهم الخاصة ويستكتبونه خطابات إلى أقارب أو أصحاب بعيدين ، وسيحرر لهم عقود الايجار و « حجج » البيع ، ويأتمنه عليها أطرافها فيودعونها لديه ، وسيشكو بعضهم بعضا لديه فيصلح بينهم ، ويستفتونه جادين فى المسائل الشرعية منذ أن عرفوا منه ما لم يكونوا يعرفون ، إن عدة الأرملة أربعة أشهر وعشرة أيام وليس ثلاثة أشهر ، لقد أصبح عندهم واحدا منهم موثوقا لديهم فاستبدلوا بانتمائه إلى عائلة « المشاهرة » (أولاد مشهور) انتماءه إلى الهمامية بكل عائلاتها وبيوتها .

ثم قطع ما تيسر من القيضي فانشغل بيت اسماعيل بالتحضير لزواج اسماعيل من بخيتة ، اجتمع الشيخ عباس وأخواه وعمه مشهور فى حجرته للاتفاق على موعد الفرح فاتفقوا أولا على تحقيق رغبة

اسماعيل في أن يكون فرحه أحسن فرح ، قال مرسى بعد أن نتفق على الموعد ، وقبله بأسبوع ، سأذهب إلى بلد الفراسية في سوهاج ، وأتفق مع المنشد أحمد الفراسى وبطانته على إحياء الفرح ، اعترض اسماعيل، قال أن الشيخ أحمد الفراسى قد أصبح عجوزا فيعجز صوته عن أن يصل إلى سمع البلد كلها ، أضاف أن حماد غندور المنيحى قد ذكر له أن في كوم أمبو ، الموطن الأصيل للغنادير ، شيخ مشهور يحيى الأفراح بإنشاد المدائح النبوية وأنه مستعد للذهاب مع اسماعيل لإحضاره هو وبطانته لإحياء الفرح ، اتفقوا ، قال الشيخ عباس أريد أن أضيف إلى فرح اسماعيل شيئا جديدا ، سأذهب إلى طما أو أسيوط وأحضر بطاقات معدة للدعوة إلى الأفراح تحمل اسمى اسماعيل وبخيتة وتاريخ الزواج ونرسل دعوة منها إلى كل من نريد في البلد ، قال الحاج مشهور لا يا ولدى أسماء النساء عورة فلا يجوز كتابتها في الأوراق ، ثم أن ليس في بلدنا أحد أفضل من أحد وسيعتبر الذين لا تكتب دعوات إليهم أننا قد فضلنا عليهم من كتبنا إليهم فيغضبون ويقاطعون الفرح ، قال مرسى نحن أصحاب الفرح فلا شأن لنا بترتيباته ، تلك مسئولية « العرّاسة » فلنرسل إلى كبيرهم مهنى نوح ليحضر ويرتب أموره .

أرسلوا نصر ليحضر مهنى نوح كبير بيت العرّاسة .

« العرّاسة » صفة تطلق على بيت من أفراد ميسورين مشهود لهم بالمعرفة والحكمة ودماثة الخلق ، يتولون إدارة أفراح الزواج لحساب أصحابها بدون مقابل ، كلماتهم نافذة وإرشاداتهم متبعة ، وغايتهم أن تمر ليلة الفرح بسلام بدون أن يشعر أى واحد حاضر أن قد حظى

بقدر أقل من غيره من الاحترام والإكرام ، فإن وقع خطأ غير مقصود يتحملون المسئولية ويعفى منها أصحاب الفرح فلا يغادره أحد غاضبا على أهله ، إنهم الحافظون على طقوس أفراح الزواج طبقا «لبروتوكول» يتوارثون حفظه أبا عن جد .

حضر مهنى نوح ، وسمع منهم ما اتفقوا عليه ، فاعترض مباشرة على صيغة الدعوات ، قال للعائلات شيوخ ، وللبيوت كبار ، تتم الدعوة من عائلة المشاهرة ممثلة في الحاج مشهور ، ومن بيت العريس ممثلة في أخيه الكبير ، يمران على المناضر ويقابلان كل كبير ويوجهان الدعوة إلى عائلته أو بيته ولا يسمون أشخاصا ، أضاف أنه نظرا للتقارب بين العائلات الذى حدث نتيجة تعرضهم لخطر الفيضان فأتوقع أن يكون الحاضرون الفرح كثيرا ، يلزم لهم طعام كاف ، ومقاعد خشبية (دكك) كفاية ، تستكملون ما ينقص من منضرتكم من مناضر العائلات الأخرى ، يلزم أربعة فوانيس اثنان فى الرهبة وواحد فى المنضرة وواحد احتياطى ، قاطعه الشيخ عباس قائلا سنعلق الكلوب في الرهبة ، قال مهنى نوح – بعد أن تأمل الشيخ – إنكم أحرار فيما تفعلون فهو فرحكم ولكن فى هذه الحالة لن يكون لنا شأن بالفرح ، قال الشيخ عباس مستنكرا : لماذا ؟ قال بغيظ : لأن الحريم ياشيخ عباس قد اعتدن حضور الأفراح والوقوف أو الجلوس خلف الدكك ، ضوء الكلوب القوى سيكشف وجوههن « فيتزغفن » حتى لا يراهن أحد فلا يرين شيئا ، لو كان القمر كافيا لاكتفينا بضوئه ، أما الكلوب وضوؤه القوى فسيفسد الرؤية اللائقة بالحريم حسب تقاليدنا ، على أى حال أمامكم وقت وسأدرس مع أخوتى كل ما يلزم وسنكون جاهزين لتولى المسئولية قبل

الفرح بثلاثة أيام ، حينئذ سنخبركم بالتفاصيل .

رُشت أرض الرهبة بالماء عدة مرات منذ الصباح حتى تماسك ترابها ، توافد كثيرون بعد صلاة العصر فرادى أو اثنين اثنين يدخلون المنضرة ثم ينصرفون ، من يدخل المنضرة يرشده أحد العرّاسة إلى حجرة فيرى اسماعيل واقفا عاريا فى طشت تحيط به مجموعة من العرّاسة ، يغرفون ماء دافئا من حلة ويصبونه عليه ويدعكون جسمه بقطعة ناعمة من ليف النخيل وصابون ، يبارك لاسماعيل ويلقى فى ماء الطشت العكر بالصابون قطعة معدنية من النقود ، قرشا ، أو قطعتين قرشين ، نقوطا ، فيقول واحد من العرّاسة بصوت جهير : « فلان ولد فلان نقط بالخير وسع الله عليه » ويكررها بعدد قطع النقود ، فيثبت واحد من العرّاسة خارج الحجرة الاسم ومقدار النقوط فى دفتر أعده من قبل ، فالنقوط مساهمة مقدمة فى تكاليف الفرح سترد إلى صاحبها فى فرحه، النقوط قليلة لقلة من يتوقعون أفراحا قريبة لهم أو لأبنائهم .

يترك العرّاسة اسماعيل لأقاربه وأصدقائه ليعدوه للدخلة ويصحبوه إلى باب الدار ، يتجهون إلى الرهبة يشرفون على رص الدكك حول السامر رصا معدا بحيث يجلس كل الحاضرين من كل عائلة متجاورين، بترتيب يحفظ لشيخ كل عائلة مكانا بارزا تتلوه أماكن لكبار البيوت ، بعد المغرب يتوافد المدعوون .. يستقبلهم الحاج مشهور ومرسى وقد انضم إليهم الشيخ عباس ، يقودهم العرّاسة إلى الأماكن المعدة لهم ، وتكون حلل الطبيخ وأرتال الخبز الأبيض والصوانى النحاسية وصحافها قد ملأت الردهة الداخلية فى المنضرة ، فى ركن الردهة قفة أو اثنتان مليئتان بقطع من اللحم المسلوق ، لحم عجل فى فرح

اسماعيل .

يتقدم العرّاسة إلى حيث يجلس الحاضرون من كل عائلة فيدعونهم إلى العشاء ويرشدونهم إلى حيث يتعشون ، أفراد كل عائلة يأكلون متجاورين ، يتولى مهنى نوح شخصيا إعطاء كل واحد منهم قطعة من اللحم ليختم بها الطعام ، يمرون وهم منصرفون على بضعة غلمان من العرّاسة يحمل كل منهم إبريقا نحاسيا ومعه طشت صغير خاص به ، و « محرمة » ، فيغسل يديه من يريد ويجففها بالمحرمة ، قبل صلاة العشاء ينتهى العشاء ، لا يتهافت رموز العائلات والبيوت على وليمة الفرح فلا يحضرون إلا بعد صلاة العشاء ، حينئذ يكون قد فاتتهم صرخة الدخلة المدوية وما زفها من زغاريد وما صاحبها لأول مرة فى فرح اسماعيل من إطلاق أعيرة نارية من بنادق خفية ، يستقبلهم العرّاسة مرحبين ويسبقونهم إلى أماكنهم المحجوزة لهم ، يرحب بهم فى مواقعهم الحاج مشهور ومرسى وعباس ، اسماعيل قد أخذ مكانه الذى اختاره له العرّاسة ومعه أنداده وأصدقاؤه ، غلمان العرّاسة يمرون على السامرين بأكواب الشاى الداكن .

فى ركن من الرهبة دكتان مضمومتان كأنهما مسرح صغير ، قدم إليه بعد صلاة العشاء من المسجد الشيخ النقشبندى وبطانته ، بعد أن شربوا جميعا أكوابا من « الينسون » ، وقف الشيخ النقشبندى وارتجل كلمة من كلمات مقعرة يهنىء فيها العريس وأهله وأهل قريته ويدعو لهم جميعا بالستر والسعادة ، ارتفع صوته منفعلا وقال : يا أهل الهمامية لقد حقق الله لى أملا كنت دائما أتمنى أن يتحقق ، أن أحضر إلى بلدكم وأراكم وأعرفكم ، أنتم لا تعرفون أننا فى بلدنا نعرفكم ونعرف

أسماء جدودكم كما نعرف الجدود من أهل قاو والريايتة ونشكر لكم دائما أنكم وقفتم وقفة الأبطال المجاهدين مع جدنا الشيخ أحمد الطيب ابن الشيخ أحمد عبيد الجعفرى النقشبندى رضى الله عنه ونفعنا الله به فى الدنيا والآخرة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

هاج الناس في السامر ، بكى بعض كبار السن ، زغردت النساء ، تعالت أصوات الآخرين واختلطت فلا يعرف أحد ما يقول الآخر، لا تظهر عالية إلا نداءات « الله أكبر » ، دعاهم الشيخ النقشبندى إلى الهدوء بحركة من يديه الاثنتين وترديده « صلوا على النبى » حتى هدأوا ، وتلاشت الأصوات .. قال بهدوء وهو منفعل : سأنشد لكم قصيدة من إنشاء الشيخ أحمد الطيب نفسه بعد أن نقرأ الفاتحة معا على روحه الطاهرة وروح أصحابه الذين استشهدوا معه ، قرأ الفاتحة جهراً ورددها الجميع بعده آية آية ثم أنشد يقول :

بدأت بسم الله ذي المثل الاسني

تبارك رحمانا رحيما ومحسنا

وأحمد ربى بالمحامد كلها

وأثني ثناء جامعا متضامنا

وصل على النور المجزأ إذ به

أقمت جميع الكائنات من الفنا

وآل بدور يستضاء بنورهم

وهم قدوة السادات فى الدين نجمنا

بأسمائك الحسنى أنيطت مقاصدى

وأنت جدير بالإجابة هننا

توسلت يا رباه فيها بسركن

وأسرار تنزيل كتب ورسلنا

ياهادى للخيرات اهد إرادتي

ومن ظلمة الأغيار والشك نجنا

قبيل صلاة الفجر كان قد أنشد ١٦٠ بيتا هى كامل أبيات المنظومة، وقد اجتمع حوله كل قادر على الانتقال من الشيوخ والكهول والرجال والشباب والنساء فقضت القرية ليلة من النشوة كأنهم سكارى ، لا يدركون من القصيدة ، ولا يحاولون إدراك ، إلا أنها كلمات الشيخ أحمد الطيب فكأنهم قد ارتدوا والتحموا بجدودهم يقاتلون تحت قيادته وهم يجهرون بنداء جدودهم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ..

حتى اسماعيل لم يذهب إلى عروسه إلا بعد أن ذهب الشيخ النقشبندى إلى المسجد يصلى الفجر .

هذه منظومة الشيخ أحمد الطيب ابن الشيخ

أحمد عبيد الجعفري النقشبندي

نفعنا الله به في الدنيا والآخرة

وصلى الله على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه

وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأت بسم الله ذي المثل الأسنى ... تبارك رحمانا رحيما ومحسنا

وأحمد ربي بالمحامد كلها ... وأثني ثناء جامعا متضمنا

وصل على النور المجتبى الذي به ... أقمت جميع الكائنات من الفنا

وآل بدور يستضاء بنورهم ... وهم قدوة السادات في الدين كلنا

بأسمائك الحسنى أنلت مقاصدي ... وأنت جدير بالإجابة هيننا

وتسبيح بأزهار فيها ببركتن ... وأسرار تنزيل وكتب ورسلنا

وحقق لذلك القلب والنفس للجلي ... وقوي انتباهتي فيك ولحل ظلامنا

وحلي جناني بالخصوصيات واسقنا ... جلا الإجمال في حضيرة قدسنا

وشنف ملاطفي بأعذب عذبهم ... وشوري وبالأعراف واحسن ذهننا

بأسرار لطف تنزهم تحكم بالجلال الهي بسرواح واشف غليلنا

بأسرار أسم العاشقا تجري بنا بعامن التنوير والسر الخفي ولمدد نا

وأهدي لنا مدد أهل ومددنا ... بسلك وخلع يمن وارفع لواءنا

ابن بمعانيها أرواحنا التي ... تقوم بها الأجساد فيها بحسننا

فنسألك اللهم علما وحكمة ... ونورا به تجلى عما هب تكلنا

تفوح كنوز النفس للعرش صاعدا ... ويسري بأجزاء بمركز عرشنا

(٣)

أما الشيخ عباس فقد قضى شهرى الفيضان ينتقل من منضرة إلى منضرة ويستقبل فى منضرتهم زائرين ، ويدخل مباريات السيجة جالسا على التراب ، واستعاد معرفته الوثيقة بفنون التحطيب التى تعلمها صغيرا فأخذ فى تعليمها الصغار ، وحضر زفة العرب بمناسبة ختان مجموعة من غلمان « أولاد دويب » ، ولعلعت الزغاريد له عدة مرات إعجابا من المحجبات حول السامر ببراعته فى « فك » رموز الشعر البدوى القديم الذى كان يتحدى عوض الله به أهل الهمامية ، بل لقد صحح لعوض الله نفسه أخطاء تأويله لما كان يروى من الشعر القديم .

قبل أن ينحسر الفيضان عن الأحواض تماما ، جاءت ذات يوم أخبار بأن لجنة الدمرداش قد تحركت ومعها قوة المركز وعساكر انجليز فى ثلاثة « كنابيل » واتجهت إلى قاو العثمانية عابرة الهمامية ، انتظرت القرية قلقة متوترة وقد حل الهمس محل الحديث الوضاح إلى أن عادت « الكنابيل » إلى البدارى مارة بالقرية بدون أن تتوقف عندها ، ثم جاءت أخبار من قاو العثمانية بأنهم قد أخذوا ستة عشر شابا من بينهم ثابت ولد نصار معوض الخليفة المرتقب لعمه ابن عم أبيه ، سند عثمان.

– ما العمل ؟

نسأل الشيخ عباس .

اجتمع عشرات من أهل القرية مساء ذلك اليوم فى منضرة « أولاد مشهور » .

قال : أين العمدة ؟

قال أحمد عبد اللطيف : أخي مريض منذ أسبوع ، وقد أوصانا أن نسألك الرأى ، وأن نسألك أيضا عما إذا كنت واثقا من أن العرائض ستمنع اللجنة من الحضور إلى البلد .

قال : أنا واثق من أن العرائض قد وصلت إلى من أرسلت إليهم فى المركز وفى المديرية وطبقا للقانون كما أكد لى الابوكاتو عبد الكريم أبو شقة بعد أن قرأ العرائض أنه لا يجوز أن تأخذ السلطة أى شخص يرفض التطوع .

قال يونس عبد الله : من أجل هذا عبرت الكنابيل بلدنا ولم تدخلها.

قال الشيخ عباس : لا يا يونس ، أنا أظن أن اللجنة رأت أن تداهم قاو العتمانية وهى ماتزال محاطة بمياه الأحواض قبل أن ينفتح الطريق إلى الجبل خوفا من أن يهرب الناس إلى الجبل ، أما بلدنا فهى فوق الجبل ، وهم يعرفون أننا جميعا نستطيع أن نتسلق الجبل ونختفى فى مغاراته بمجرد أن نراهم عند الكِبْرى ، إذا صدق ظنى فسنعرف الحقيقة غدا ، لأن وضع الرياينة مثل وضع قاو ، وموضع بلدنا بينهما ، فإذا داهمت اللجنة الرياينة غدا وأخذت أنفارا فسيكون معنى هذا أنهم لن يداهموا بلدنا ، إما لأن العرائض قد نفعت وإما لمعرفتهم أن طريق الهرب إلى الجبل مفتوح ، أما إذا لم يداهموا الرياينة فعلينا أن ننتظر ونترقب ما سيحدث ، وليكن كل من ذكر اسمه فى العرائض مستعدا للهرب إذا ما حدث مكروه ، أما أنا فسأذهب غدا صباحا إلى المديرية رأسا وأقابل المدير الجديد محمد مقبل باشا فهو صديق عبد الكريم أبو

شـــقة الابوكاتو الذى أرسل العرائض ، وأعرف مـا هى الحكاية ، إن شـاء الله لن أعـود إلا بكل خـيـر ، وأنتـم ، إذا بدأت اللجنة تذهب إلى الخط البحرى فاطمئنوا ، عزيز حسين يعرف لكم هذا الموضوع .

تبادلوا أحـاديث مختلطة بهمهمات فلا تبين ، غادر الوقوف المنضرة ، ويقى بعض الجـالسين هـمٌ من بين الجـالسين عـزيز حـسين يريد الاتصـراف ، قـال له : انتظر ياعـزيز إنى أريد أن أتحـدث مـعك فـغـادر البـاقون المنضـرة تلقـائيا ، إلا يونس عـبد الله ، قال : أذهب مـعك إلى أسيوط ، قال : لا داعى ، بعد يومين بالظبط انتظرنى فى البدارى ومعك الركوبة ، قال : إذن أوصلك غدا بالركوبة إلى البدارى وأعود بها ، قال عزيز حـسين : سـأوصله أنا فإنى ذاهب غـدا ان شـاء الله إلى البدارى فى مأمورية .. انصرف يونس عبد الله .

- أية مأمورية يا عزيز ؟

- « استلقط أخبارا » ..

- أية أخبار ، وكيف « تستلقطها » ؟

- من رشاد أفندى ضابط المباحث .

- هل تعرفه جيدا ؟

- أنا أعمل تابعا له ..

- حسبت أنك تابع للعمدة أو للمأمور .

- هذا عـمل آخـر ، كل مـشـايخ الخـفـراء ووكـلاؤهـم يؤدون عـمـلا لحساب المباحث التى تحاسبهم عليه .

– طيب .. ما هى آخر الأخبار ؟

– الراجل المأمور الذى كان « نص لبة » نقلوه بمجرد قفل التحقيق فى حادثة الكمبيل وأحضروا مأمور غيره متفرعن « تقولشى أنه انجليزية » .. يريد أن يعيد فتح التحقيق ليقدم إلى الانجليز متهمين بأية طريقة ، الضابط مغيظ من المأمور ، قال لشيخ خفراء العقال البحرى الموقوف : تصور ياشيخ « الغفر » ان الرجل الانجليزى يريد أن يعتبرها حادثة طريق ولكن المأمور الجديد « راصه وألف جزمة » أن يقبض على الفاعلين ، وعلى فكرة ، مسألة العتمانية واللجنة والسلطة والدمرداش كلها حركها المأمور القديم .

– ألم تسمع شيئا عن العرائض ؟

– وصلت أيام المأمور المنقول وأحدثت ارتباكا فى المركز ، قال لى شيخ خفراء العقال البحرى أن المأمور اجتمع ومعاون الادارة وضابط المباحث ، رشاد أفندى ، وقرأوها .. ثم ركنها المأمور فى درج مكتبه ، لكن بعد يومين أخذها شخصيا وذهب إلى بيت الباشا فى ساحل سليم وقضى هناك يوما كاملا ثم عاد .. فى اليوم التالى حضر إلى المركز مندوب الدمرداش وحده ، ولا أعرف ما الذى حدث بعد ذلك .

– لماذا لم تقل لى كل هذا فى وقته ياعزيز ؟

– والله ياشيخ عباس كل شىء بأوانه ، أنا حالف على الكتمان ، وما كنت لأقول لك لولا أننى كنت فى المركز منذ يومين وسمعت رشاد أفندى ضابط المباحث يقول عنك إنك « راجل متنور وجدع » .

– لمن قال هذا ؟

- لمعاون الادارة أمامى .. فأنا اطمئنيت .

بلعها ممتعضا وقال :

- طيب الآن ما رأيك وأنت مطمئن ؟

- فيم ؟

- فيما نتحدث عنه ..

- رأيى لن يعجبك ..

- لابأس .. قل لى ما رأيك ..

- ياشيخ عباس خسارة أن تفقدك البلد ، ولا أريد أن أشركك فى رأيى حتى لا تكون مسئولا ولكن لك علىّ ألا تدخل اللجنة البلد حتى لو وصلت إلى الكبْرى ، أنا عامل حسابى ، فأنت ثق بى ، وتوكل على الله.

حين عاد من أسيوط وجد عزيز حسين ويونس عبد الله منتظرين فى قهوة الأسمر .. استقبلاه باحترام كبير ، لم يسألاه عما فعل ، انتظرا أن يبدأ هو الحديث ، فبدأه سائلا :

- هيه . هل جرى شىء فى البلد ياعزيز ؟

- لا .. إنما ذهبت اللجنة إلى الرياينة (العقال القبلى) يوم أن سافرت وأخذت معها سبعة أشخاص من بينهم الولد العيان قبيصى ولد سالم من « أولاد مصبح » جايز يموت فى الطريق لأنه عيان خالص ، وهم موجودون الآن مع رجال العتمانية فى حجرة الحجز فى المركز ، سيرحلونهم غدا بعد الفجر فى « صندل » يرسى على شط البحر الشرقى غربى المستشفى .

– أليس غريبا ياعزيز ألا تجد اللجنة فى العتمانية إلا ستة عشر شابا ولا تأخذ من الرياينة إلا سبعة وكل منهما أكثر من عدد أهل بلدنا بعشرين مرة وأسماء أولاد بلدنا اثنان وستون ؟

قال عزيز حسين : شغل حكومة ياشيخ عباس .

قال : يعنى ايه ؟

قال : يعني طبيخ .. اسألني أنا عن الحكومة .. أكبر ضلالية .. حسان عتمان عمدة العتمانية خائف منذ مدة من ثابت ولد نصار والشبان الملتفين حوله لأنه يريد أن يعيد سيرة عمه سند عثمان ، فاتفق مع المأمور أن يطوعهم فى نظير ألا تأخذ اللجنة أحدا غيرهم من البلد ، فبدأوا منذ شهر يعملون لهم مخالفات .

قال : مخالفات .. أية مخالفات ؟

قال : مخالفات لا أول لها ولا آخر ، اصطياد أبو فصادة مخالفة ، غسل بقرة فى الطريق العام مخالفة ، الجرى بالحمير فى الدروب مخالفة ، من لا يمنع كلبه من النباح على شخص غريب مخالفة ، من يرفع صوته بالليل يكون قد عمل غاغة وهى مخالفة ، الصراخ فى الجنازات مخالفة ، من ينزل الترعة عريانا مخالفة ، وغيره وغيره كما علمونا أيام التدريب ، فيحرر الشويش عتريس محضر بأن فلان الفلانى ارتكب مخالفة كذا ويبلغها المركز ، المأمور يصدر أمرا بتغريم المتهم جنيها أو نصف جنيه ، يستدعونه إلى المركز .. يحبس هناك حبس مصاريف .. كل يوم مقابل عشرة قروش .

قال : ما علاقة هذا بمن أخذتهم اللجنة .

قال : عملوا لكل واحد منهم مخالفة ، وصدر أمر عليه بالغرامة ، ويلغوهم بالأوامر ، حسان عتمان قال لهم لا تدفعوا الغرامات ولا تذهبوا إلى المركز ، حين تعرفون أن المأمور سيمر ويحضر إلى الدوار تعالوا جميعا ومع كل منكم نصف مبلغ الغرامة ، وقولوا ليس لدينا أكثر من هذا ، أنا سأتوسط لدى المأمور فيقبل منكم « النص » فقط ، وفعلا جمعهم فى اليوم المتفق عليه مع المأمور وجمع منهم أنصاف الغرامات ، ثم حضر المأمور ومعه اللجنة ، وأخذوهم « بربطة المعلم » وكتبوا إنهم متطوعون ووقع الشيخ يونس .

قال : وماذا عن الريانية ؟

قال : طبيخ بيتى ، ضحك ثم استطرد : محمود هريدى العمدة غنى .. عمل مع المأذون مقاولة ، المأذون كتب كتاب كل من تجاوز سن العشرين على احدى البنات بدون علم الأزواج أو الزوجات ، العمدة أخذ من المأذون شهادة بأسماء غير المتزوجين ، المأذون كتب أسماء سبعة أغلبهم مرضى ليبدو الأمر جديا ، استدعاهم العمدة وحضر المأمور واللجنة فى اليوم المتفق عليه وأخذهم ، والمأذون أخذ الأجرة خمسة جنيهات عن كل عقد زواج قسمها مع شكرى منقريوس ، وهو عارف ، والعمدة عارف ، والمأمور عارف ، حتى ضابط المباحث عارف .

سأل : ألم تعرف شيئا عن اتجاه الحملة القادمة ؟

– عرفت من سائق « البوكس فورد » الخاص بالمركز أن حملتهم غدا إلى قرية « التناغة » على الشط البحرى .

– عظيم .. يعنى لن يذهبوا إلى الهمامية .

- الله أعلم .. وأنت ما أخبارك ؟

- أنا قابلت أبو شقة يوم أن وصلت .. حكيت له الحكاية .. صباح اليوم التالى أخذنى وذهبنا معا إلى المديرية ، وجدناها مليئة بالانجليز والحالة متوترة ، دخلنا حجرة الباشا المدير ، شرح له أبو شقة الموضوع فغضب ولعن أبا هذه الأيام السوداء ، استدعى شاويشا استدعى به الحكمدار .. جاء الأميرالاى الحكمدار وقعد ، قال له المدير : يازكى بك هذا الرجل من الهمامية وهى قرية صغيرة كما تعرف وسبق أن أنذر أهلها المديرية والمركز بأنهم لا يريدون التطوع فى السلطة ، وعبد الكريم بك أبو شقة حاضر معه ليحذر من أن محاولة لجنة التطويع دخولها قد يسبب إخلالا بالأمن ، فأرجو أن تطلب مأمور المركز من هذا التليفون وتنذره بأنه إذا حدث إخلال بالأمن فى الهمامية سيكون هو المسئول .

- حاضر يافندم ..

بينما كان الحكمدار ينذر المأمور فى التليفون ، أرسل المدير الشاويش لإحضار شكرى أفندى منقريوس وكيل الدمرداش ، قال له المدير : هل أنت ممثل الشيخ الدمرداش فى أسيوط . قال : نعم . قال : عليك إذن أن تبلغه على لسانى أن يمنع لجنة التطوع من الذهاب إلى قرية الهمامية مركز البدارى لأسباب أمنية .. مفهوم ؟ .. مفهوم ياباشا .

خرج الرجل .. وقف الباشا .. خرجنا نحن ..

بقيت أنا فى المديرية لآخر النهار لأعرف مسألة خاصة تهم الشيخ محمود عبد اللطيف ربنا يشفيه ..

قال عزيز : هل جاءت كشوف الأطيان من المختلط ؟

قال ضاحكا : لسه .. وكيف عرفت بأمرها ؟

فضحك عزيز حسين وقال : أولاد الحرام بلغوا المركز أربع مرات أن على حامد يصطاد أبو قردان صديق الفلاح ويأخذ دهنه ويبيعه بزعم أنه دهن « بلسان » الذى تداوى به البواسير ، فقبض عليه رشاد بيه ضابط المباحث ، بموافقة المأمور المنقول ، وبعد ثلاثة أيام حجز فى حجرة الحجز أقر بأسباب سفر صديق إلى مصر ، وتفاصيل الأسباب ، ولكنه أنكر علاقته بأبو قردان فوجدوا أنه مظلوم وتركوه .

فضحكوا جميعا ثم توقفوا بغتة .

وقف على رأسهم على فلفل فراش المركز وقال للشيخ عباس البك المأمور يريد أن يراك .

– لماذا ؟

– لا أعرف ..

– قام وقال لهما انتظرانى .. دخل على المأمور حجرته ، قال له تفضل إجلس ياشيخ عباس ولا تنسى أننا الآن وحدنا ، كلنا مصريون ، منذ أن جئت إلى هنا طردت الرجل الانجليزى إلى الحجرة التى كان يشغلها باشكاتب المركز ، لم يكن مقبولا أو معقولا أن يتصنت أجنبى على ما يدور بيننا خاصة وأن من تقاليدنا التى ربانا عليها ديننا الحنيف الصدق فى القول أليس كذلك ؟

قال : نعم .. والاخلاص فى العمل ..

ألقى أمامه أوراقا ثم سأل :

– ياشيخ عباس هل أنت محرر هذه العريضة .. أنظر فيها ؟

– نعم أنا محررها حسب رغبة أصحابها ..

– هذه فكرة عظيمة تشكر عليها فلولا هذه العريضة لكنا دخلنا الهمامية ونحن عائدون من العتمانية .

– التوفيق من عند الله .

– أنا أسألك وأنت تجيب بصراحة ، هل تنطوى هذه العريضة على محاولة إخفاء اسم أى شخص تنطبق عليه شروط التطوع التى تعرفها.

– لا .. أبدا ..

– ربما يكون قد امتنع أحد الأشخاص عن إدراج اسمه لأنه يرغب فى التطوع .

– لا .. أبدا .. لا أحد ..

– هذا مريح لنا كادارة .. ونحن نشكرك عليه .. نخشى فقط أن يظهر شخص غير المكتوبة أسماءهم فى العريضة لأننا حينئذ سنعتبره راغبا فى التطوع .

– طبعا .. إذا ظهر ..

– طيب .. ثم استدعى ضابط المباحث .. يارشاد أفندى خذ الشيخ عباس وقدم له قهوة فى مكتبك إلى أن أفرغ أنا من كتابة المحضر ، وعد إلىّ بعد عشر دقائق لتأخذه ..

بعد عشر دقائق عاد رشاد إلى مكتبه يحمل محضرا محررا بخط المأمور يتضمن استدعاءه المدعو عباس محمد اسماعيل من ناحية

الهمامية مركز البدارى وإقراره بأنه محرر عريضة برغبة مذكورين فيها من أهل الهمامية فى عدم التطوع لخدمة السلطة ، وبسؤاله عن التفاصيل أقر بأن الذين لم ترد أسماؤهم فى العريضة يرغبون فى التطوع ، واذا تبين لنا أن اسم المذكور غير وارد فى العريضة مع أن شروط التطوع تنطبق عليه فقد اعتبرنا إقراره أمامنا رغبة منه واستعدادا للتطوع فأصدرنا الأمر بتحقيق رغبته وحجزه بمقر المركز لترحيله مع باقى المحتجزين غدا .. المأمور (إمضاء) ..

قاده رشاد أفندى إلى مدخل حجرة وتركه واقفا مذهولا ، جاء شرطى جسيم البدن خشن اليد ، فتح بابها الحديدى ، وزج به فيها عنوة ، التف خلفه فلمح شكرى منقريوس على باب الحجرة التى كان يشغلها حسين أفندى فريد ، وقف داخل الحجرة مذهولا ، تأمله الآخرون ، قال واحد لا يعرفه : « وقعت ياشيخ عباس » ، فلم يرد .. قال ثابت نصار : « اللى وقع يسد » ، لم يرد ، بدأ ينتبه إلى ما هو فيه ومن حوله ، حوله أكثر من عشرين انسانا جالسين على أعقابهم متلاصقين زائغى الأبصار لا راضين ولا كارهين ، إنهم فقط مستسلمون ، لا تتسع الحجرة لأكثر من خمسة أشخاص نياما ومثلهم إن كانوا قاعدين ، وليس فى الحجرة من بعدهم إلا حيث وضع قدميه واقفا يلتصق ظهره بقوة بظهر الباب الحديدى خشية أن يقع ، أرضها قار وارتفاعها ستة أمتار ، تحت سقفها بنحو متر نافذة رأسية مستطيلة ، متر فى نصف متر ، تعترض فتحتها قضبان من الحديد ، تعربد حولها أسراب من أشباح الهوام ، الهواء ساخن عطن عفن ، تتساقط من سقفها قطرات مكثفة من بخر عرق بشرى فتتحول إلى حشرات من البق صاعدة على

الجدران الكالحة ، والرجال جالسون على أعقابهم متلاصقين زائغى الأبصار لا راضين ولا كارهين ، انهم فقط مستسلمون ، فليستسلم ، جلس هابطا ببطء على عقبيه ، وكأنما قد سمع أصواتا تتحدث إليه ، لم يرد ، تجمعت أطراف الكاكولة والقفطان خلف ظهره وهو يزحف هابطا فأصبحت كالوسادة ، شعر ببعض الراحة من ضغط حديد الباب ، ذبل الضوء المتسرب من النافذة إيذانا بمغيب الشمس ، حين غامت بدت السماء سوداء واختفت الهوام ، أحس بتيار هادىء من الهواء البارد ينفذ إلى رجليه من فرجة ضيقة أسفل الباب ، ود لو استأثر به حتى لا يختنق ، إنشغل وقتا وهو يتمايل ويجذب أطراف ملابسه المعلقة على ظهره خفية إلى مواضع خفية ، أخيرا اتخذ تيار الهواء الهادىء طريقه من بين رجليه مرتفعا داخل القفطان إلى أن خرج من فتحة تحت ذقنه ، أصبح يتنفس هواء قادما من خارج الزنزانة لا تخالطه إلا بقايا رائحة علقت به وهو قادم من « الاسطبل » حيث خيول الحكومة تخوض فى روثها ، أفضل بكثير من رائحة هؤلاء الآدميين ، أفاق تماما وبدأ عقله فى استئناف التفكير .

أراد أن يستجدى الحديث فحالت الظلمة المطبقة دون أن يعرف إلى من يتحدث فأطبق شفتيه واستسلم للنعاس ، أيقظه صوت ضربة مفتاح حديدى فى قفل الباب ، فتح عينيه فرأى السماء باهتة ، لم يستطع أن يتأمل لونها الغريب ، حال دون تأمله دفع قوى للباب من خلفه وصوت غاضب يأمر « أولاد الكلب » الذين يعترضون فتح الباب إلى الداخل ، أذهله أن يكون من المقصودين ، فلم يستجب ولم يجب ، فمازال الباب مدفوعا بقوة حتى دفعه بقوة فانكفأ على الجالس أمامه ، جرفه الباب

فأصبح خلفه ، لعن الشاويش أباء الجميع ثم نادى : عباس محمد اسماعيل .. قام فبرز فظهر فجره من كم الكاكولة وقال : تعال .. طرف العمامة محشور بين الباب والحائط ، لم تستجب لحركته فانفرطت فجذبها وحملها فى يده خارجا بطربوش بغير عمامة كأنه مغربى ، لا راضيا ولا كارها بل مستسلما .. أدخل حجرة فيها رشاد بيه ضابط المباحث وآخران .. قدم إليه الضابط ورقة مكتوبة وقال له وقع .. وقع .. لا عالما ولا جاهلا مافيها بل مستسلما .. نظر الى الآخرين فإذا هما عزيز حسين ويونس عبدالله.. يونس عبد الله ينتحب فسالت من عينيه الدموع.. قال الضابط متجهما: خذه ياعزيز.. فقال عزيز : تفضل ياشيخ عباس.. قال الى أين ياعزيز.. قال الى البلد .. قال: ويونس عبدالله.. فنهرهما رشاد أفندى وأمرهما بالخروج فورا فخرجا..

(٤)

ـ سأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق.. المهم الآن أن نسرع في العودة لندرك البلد قبل أن تحضر الينا.

ـ لماذا تحضر؟

ـ سأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق.. الى أين أنت ذاهب.. تعال من هنا.. الحماران فى بيت على دلوكه وراء بيت خليل بولس.. أودعناهما ، أنا ويونس، هناك بعد «فك القلس» وعودتى من البلد..

ـ وهل ذهبت الى البلد؟

ـ سـأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق. المهم الآن أن نأخذ الحمارين ونعود سريعا، لف الشملة على الطربوش حتى لايراك احد، «مبهدلا» هكذا.

ـ نحن الآن على الطريق.

لا تسألني عن شيء قبل أن تجيب عن سؤال.. لماذا لم تكتب اسمك في العريضة.. لم يجدوا اسمك بين المعترضين فاعتبروك راغبا في التطوع فأخذوك، فلماذا لم تكتب اسمك.

ـ أنا سطرت الأوراق وكتبت نص العريضة وأسماء العائلات وسلمتها إلى أحمد عبد اللطيف.. لم اكتب أنا أسماء، كتبت بمعرفة من كلفه العمدة بكتابتها ولا أعرف لماذا لم يكتب اسمي.. ربما سهوا من العمدة أو لم يكن يتصور ان يحدث لي ماحدث.

ـ ولماذا قلت للمأمور أن العريضة بخطك.

ـ لانها فعلا بخطي ولم أشأ أن أرشد عمن كتب الأسماء حتى لا أزج باسم العمدة في الموضوع.

ـ على أي حال الحمد لله..

ـ أعلى أن اسمي لم يرد بين المعترضين ياعزيز.

ـ لا.. الحمد لله على انك بريء. لقد قضيت ليلة سوداء وانا أغلي غيظا منك لانني حسبت انك لم تكتب اسمك مع باقي

الانفار معتقدا انك احسن منهم فلا يسرى عليك مايسرى على الآخرين.. كنت حزينا من أجلك ولكني شامت فيك.

ـ ولماذا تحسبني من هذا النوع المستعلي على أهله.

ـ لأن حكايتك كلها من أولها إلى آخرها توحي بانك منهم.

ـ إية حكاية ياعزيز؟

ـ حكاية العرائض.. انت الذى اقترحتها. وانت الذى سطرتها.. وانت الذى قدمتها.. فرحت بنفسك فأبرزتها ليعرف الناس انك انت من الناس صاحب الخطة وقائد تنفيذها.. فلم يبذل الطرف الاخر جهداً لمعرفة من وراء فكرة العرائض ومحررها وحاملها ومرسلها.. فركزوا اهتمامهم على التخلص منك..

ـ وما الذى يهمهم فى التخلص منى شخصيا مـاداموا قد صادقوا على رغبة الناس.

ـ لانهم ، ياشيخ عباس، يريدون أن يقضوا على الفكرة حتى لايجرؤ أحد بعد ذلك على تبنيها والا لكتبت كل القرى عرائض.

ـ سنتحدث معا مرة أخرى «على رواقة» اريد الآن ان اعرف ماحدث.

ـ سأقص عليك كل شيء ونحن على الطريق فمازال الطريق ممتدا. أما ونحن نتحدث عنك فهناك سؤال تتداوله البلد كلها وقد احترت فى معرفة جواب عليه. هل تسمح لى بأن اسأله وسأكتم

الجواب إذا أردت،

ـــ قل ياعزيز.

ـ ياشيخ عباس منذ حضورك من مصر وأنت مشغول بهموم البلد كما لو كنت المسئول عن أهلها.

ولقد احبك الناس واحترموك واستمعوا اليك واطاعوك من اجل اهتمامك بهمومهم.. غير انهم يتساءلون.. أليست الجزيرة من هموم البلد بل همها الأكبر فلماذا لم تشغل نفسك ولو بالحديث عنها.

ـ أية جزيرة؟

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. ألا تعرف الجزيرة.. جزيرة الهمامية.. «جزيرة «بيت الباشا»..

ألا تعرف حكاية البلد مع الجزيرة وكيف حرمت منها بعد أن كانت جزيرتها فافتقرت بعد غنى وجاعت بعد شبع.. رحم الله والدك.. ما أن تعين شيخ مشايخ حتى اراد ان يسترد الجزيرة لاهل البلد، فباع أغلب مايملك واشتراها، «بحجة» مكتوبة من وكيل لطيف باشا الذى كان يديرها.. وقد كان لطيف باشا قد تلقاها مكافأة على اشتراك قوات جرجا فى الغارة على بلدنا بعد أن طرد أهل بلدنا منها.. و ..و... ياشيخ عباس هل نمت ؟

ـ لا.. سمعتك تتحدث عن شراء والدى الجزيرة «بحجة»

مكتوبة.

ـ طبعا.. لابد أنها موجودة بين أوراقه لدى والدتك.

ـ سنتحدث معا مرة اخرى «على رواقه» عن هذا الذى قلته «أريد الآن أن أعرف ماحدث، لماذا لم يتركوا يونس عبد الله يعود معنا.. انى اركب حماره فكيف يعود حين يخرج.

ـ يونس عبدالله لن يعود الى البلد ياشيخ عباس.

ـ لماذا ياعزيز.. قل لى لماذا؟

ـ أقول لك من البداية لان يونس عبدالله هو النهاية.. كنت أنا وهو فى قهوة الاسمر حين تركتنا وذهبت الى المركز انتظرنا حوالى ساعتين وبدأنا نقلق.. ثم شاهدت المأمور ومعاون البوليس وشكرى منقريوس يخرجون ويركبون، «البوكس فورد» ويتجهون الى «بحرى» ، أما الى ساحل سليم وأما الى اسيوط.. فتشجعت بمعرفتى ان ليس باقيا فى المركز الا رشاد بك ضابط المباحث، ذهبت اليه ودخلت مكتبه فوجدته مغموما.. بدأت الحديث بأن سألته عن صحته.

ثم قلت له إننى رأيت البوكس متجها الى «التناغة» بدون قوة مع المأمور ومعاون البوليس.

والتناغة بلد شرسة.. ابتسم وهو يتأملنى ثم قال لا مبرر للمكر ياعزيز: حملة التناغة تأجلت.. والمأمور ومعاون البوليس ذاهبان

لحضور اجتماع فى المديرية. وشكرى منقريوس معهما «توصيلة» الى ساحل سليم. وانت تعرف كل هذا ولكن تريد ان تبدو ماكرا. والذى لاتعرفه ان المأمور ومعاون البوليس سيقضيان الليل فى اسيوط.. واننى منذ ان غادرا «النوباتشى» المسئول عن المركز. ومسئول أيضا ياوكيل شيخ الخفراء، عن ترحيل الانفار المحجوزين وتوصيلهم على مسئوليتى الى الصندل الذى سيرسو غربى المستشفى الساعة السابعة صباحا وهم خمسة وعشرون نفرا من بينهم، ياوكيل شيخ الخفراء، «بلديك» عباس محمد اسماعيل، أم أنك لتعرف هذا؟

ـ أخذتموه ؟

ـ أخذه المأمور.

ـ لماذا؟

ـ لانه تطوع كما يقول المحضر (وقرأ لى المحضر).

ـ هذا غير معقول «ياسعادة البيه».

ـ إجلس حتى لا تقع.

ـ ولماذا يفعل المأمور هذا الشيء غير المعقول؟

ـ سياسة.

ـ سياسة «إيه» يابك. الرجل لايعمل بالسياسة . وليس فى بلدنا سياسة. حتى الجرائد التى كانت تأتى اليه فى «البوسطة»

انقطعت.

ـ سياسة المأمور الجديد ياعزيز.

لا أفهم.

ـ كنت أظنك نبيها.

ـ نبهني يابك..

ـ البك المأمور.. هذا المأمور.. له رأى مخالف لرأى من سبقه، انه مثله يكره الانجليز ويكره الدمرداش ويكره السلطة ولكنه يرى أن المقاومة لا تجدى لانهم الاقوى.. وأن الطريقة الافضل للتعامل معهم هى تنفيذ رغباتهم، تنفيذها بمعرفتنا.. لاقناعهم بألا حاجة الى تدخلهم المباشر.. وأن هذه الطريقة ستؤدى الى مغادرة الانجليز المركز، وتوقف شكرى منقريوس عن التردد عليه.. «وحشر » أنفه فى شئونه.. وإذا كان لابد من التضحيات لكسب ثقتهم فلتكن فى اضيق الحدود أو فيما يعتبرونه ذا اهمية خاصة بالنسبة اليهم.

ـ وماذا نكسب يارشاد بك اذا كنا سننفذ مايريدون بدون ان «يتعبوا انفسهم»..

ـ الحقيقة اننا كسبنا.. داهموا «الريايينة» فى حملتهم الاولى وقتلوا واحدا من بلدكم واستولوا على الغلال والحمير فى عهد المأمور القديم، أما فى عهد المأمور الحالى، فبالاتفاق مع العمدة

ذهبت الحملة بقيادة المأمور شخصيا وعادت بسبعة أنفار بدلا من مائة وثلاثة وخمسين ، وبالاتفاق بين المأمور وعمدة العتمانية عادت بستة عشر من الاشقياء بدلا من مائتين وعشرة.

ـ لماذا اذن اخذ الشيخ عباس؟

ـ كان لابد له من ان يفعل شيئا يرضى السلطة والادارة ويؤكد ثقتهم به .. وكان المأمور القديم قد اكتشف خطأ الشيخ عباس فى انه لم يذكر اسمه فى العريضة مع انه اورد اسم اخيه الصغير .. فوضع امام اسم هذا الاخير علامة استفهام صغيرة . ثم ركن العريضة «وصهين» لفتت علامة الاستفهام تلك انتباه المأمور الجديد ولم يكن صعبا عليه ان يتبين انها «تساؤل» بالرمز عن سبب عدم ذكر الشيخ عباس اسمه مع اخيه. فلما تلقى طلبا جديدا متكررا بعمل شيء للحد من نشاط هذا الرجل قدمه عربونا وقبض الثمن ثقة شجعته على اقتراح التوصية بمغادرة من تبقى من الجند الانجليز فى المركز «اكتفاء» به. وقد انتظر حتى حضر الشيخ عباس الى المركز بقدميه.. فاستدعاه وبعد حجزه غادر المركز هو ومعاون البوليس لحضور «لجنة» رجال البوليس ليقدم من حجز الشيخ عباس دعما لاقتراحه إصدار التوصية.. هل فهمت الآن.

ـ فهمت.. هذا «لعب» كبير.. والآن ما العمل هل نترك الرجل يضيع هل يرضيك هذا يارشاد بيه.

ـ لا تضيع وقتا .. شكرى منقريوس في ساحل سليم اذهب اليه وتفاهم معه كما يفعل الآخرون.

وعد اليًّ بورقة منه تفيد الاستغناء عن عباس، وستجدني في أى وقت هنا حتى الصباح.

هكذا قال لى رشاد بك.. لم اذهب الى الساحل. بل جريت بالركوبة الى الهمامية.. هناك قابلت مرسي وقصصت عليه ماحدث.. فأخذ يبكي وكاد يصرخ كما تصرخ الحريم فطلبت منه أن يكتم الخبر .. ولكن اسماعيل «طب علينا» فعرف بالامر. وقال أنا كنت عارفا أن هذه نهايتنا. لا وقت نضيعه يامرسى.. لا أملك أنا شيئا ولابد من خمسين جنيها تدفعها الى شكرى ونسترد أخاك..

دخل الدار وطالت غيبته.. ذهب اليه اسماعيل ثم عاد.. لماذا التأخير يا اسماعيل.. «الفلوس» مع أمي وهى تبكي فى صمت ولكنها تسأل كيف لا تخسر فلوسها بعد أن خسرت ولدها. وما الذى يضمن أنك من الصادقين. ومرسى يحاول اقناعها فلم تقتنع الا بعد أن حلف لها .. «بالطلاق ثلاثة». من صفية بنت احمد على بأنه اذا لم يعد عباس في خلال يومين سيرد لها الخمسين جنيها.

فبكت صفية، وامي مشغولة الآن بتأنيبها لتغادر غرفتها حتى

لا ترى من أين تخرج الفلوس، ومرسى يستعجلها. وهذا هو سبب التأخير.. قبل أن ينهى اسماعيل كلامه حضر مرسى ومعه الفلوس.

ورفض أن يعطيها لى وقال انه سيذهب معى الى ساحل سليم.. حاولت ان افهمه ان هذا سيفضح الامر فلم يقتنع حتى بعد أن حلفت له يمينا كبيرا.. فذهبت الى بيتى جريا واحضرت له بندقية واعطيتها له رهنا الى حين أن أعود بك أو بالفلوس.

ـ بندقية الحكومة ياعزيز ، جزاء هذا السجن.

ـ لا .. بندقية رمنجتون . «خلينا فى موضوعنا» .. عدت جريا بالركوبة الى البدارى.. فوجدت يونس نائما تحت شجر السنط عند قلس على دلوكة.. سألنى بلهفة عما فعلت فقلت له احضرت الفلوس، وسأسوق طوالى الى الساحل».. وصلت ساحل سليم بعد المغرب بقليل. توجهت الى سراى عبدالرحمن بك محمود وسألت عما اذا كان شكرى افندى منقريوس فى السراى.. قيل لى لا.

سيتعشى اليوم فى سراى خليل بك.. ذهبت الى سراى خليل بك وسألت فقيل لى انه قد أخذ «كمبيل» البك وسافر الى أسيوط.. ضاقت بى الدنيا ولم اعرف ماذا أفعل فعدت الى البدارى ليلا.. قعدت انا ويونس عبدالله فى قهوة الاسمر.. لا نتكلم.. انا يائس فى صمت وهو يبكى فى صمت.. اخيرا توقف ونظر الىّ وقال: اسمع ياعزيز انا اثق فى رجولتك، ولكن لابد أن

تعرف ان البلد لن تصدق ماقلت . سيتهمونك ياعزيز بانك سلمت الشيخ عباس الى المباحث، فانفجرت فى صدرى بركان من الغضب والتحدى والخوف، قلت له انتظرنى حتى اعود ولو فى الصبح.

دخلت المركز.. اقتحمت حجرة رشاد بيه. قال لى : مابك. كيف تدخل هكذا بدون استئذان..

جلست بدون استئذان. وقلت له: اسمع يارشاد بك.. كل البلد تعرف اننى تبعك.. وانت لا تنسى كيف ضحيت من اجل تنفيذ تعليماتك . والآن انا مهدد بالقتل وأطلب منك حمايتى .. قال:

لا تخف سأحميك. قلت له احلف .. قال: والله سأفعل كل ما استطيع لاحميك.. قل لى من الذى يهددك.. قلت له: البلد. كل البلد ... وعائلاتها .. ورويت له رواية ذهابى الى البلد واخرجت له الفلوس وقلت له لقد جمعت البلد هذه الفلوس واعطتها لى واقسم رؤساء العائلات بأنى إذا لم اعد بالشيخ عباس فسيقتلوننى جزاء أننى سلمته الى سعادتك . لانهم يعتقدون جزما بأنى سلمته الى المباحث، وقد ذهبت الى الساحل ووجدت أن شكرى منقريوس سافر الى اسيوط.. والآن أنا امامك والفلوس امامك، والطبنجة فى جيبك وفى جيبى سكين، فاما تخرج لى الشيخ عباس أو تقتلنى او اقتل نفسى لاننى مقتول مقتول على اى حال. قال اهدأ ودعنى أفكر فى هدوء ..

ثم رفع رأسه وقال لي: اطمئن.. اترك لي وقتا كافيا لتدبير الامور.. قلت له هل ستؤخر الترحيلة.. قال إن شاء الله لا.. قلت له هل استطيع ان ارى الشيخ عباس.. قال: لا.. اذهب الى دوار النواصر ونم فأنت متعب، وسأستدعيك فى الوقت المناسب.. قلت له.. لن ابعد عن المركز سأذهب الى بيت على دلوكة انام بل سأنتظر.. وقمت فقام وصافحني.. فقبلت يده وقلت له انقذنى ربنا يحفظك من كل سوء.

ذهبت الى بيت على دلوكة فوجدت يونس عبدالله منتظرا مع الحمير.. قال بلهفة : خير إن شاء الله . قلت خير.. قال ماذا حدث.. قلت: اطمئن اترك لي وقتا كافيا لتدبير الأمور.. بعد ساعتين جاء عسكرى وطلب منى الذهاب الى المركز لمقابلة الضابط النوباتشى. ذهبت اجرى.. وطرقت الباب المفتوح استأذن في الدخول فأذن لي وقال لى اسمع ياعزيز.. بعد التفكير في الامر، واخذ رأى بعض الزملاء بالتليفون لايوجد الآن الا حل واحد. قلت ماهو؟ أن يتقدم شخص من بلدكم ليتطوع بدلا من الشيخ عباس.. فكاد يغمى عليَّ .. وقلت: أنا.. حتى لو كان التطوع موتا فالموت ولا العار.. قال: لا تتسرع أمامك ساعة لتفكر وتقرر وحدك بعيدا عن هنا فاذا قررت أن تكون بديلا احضر اليَّ مع آذان الفجر.. اذا لم تحضر فسأفهم وتتم اجراءات الترحيل.

لم أذهب مباشرة الى بيت على دلوكة. اخذت ألف وأدور فى

الشوارع والدروب.. وصلت الى غربى المستشفى وجلست على شاطىء الماء تحت المنطات، وتذكرت فكرى عبد النبى حين قابلته فى المكان ذاته.. كان مستعدا للموت انتقاما لمقتل صديقه.. وعدت الى المركز وقد قررت أن أفديك بروحي. بادرنى رشاد بيه بأنه كان يبحث عنى.. قلت خير.. قال زميلى فى مباحث اسيوط اتصل بى فذكرت له انك البديل فقال لى انك لا تصلح الا بعد فصلك من خدمة الحكومة ولا أعرف كيف فاتتنى هذه البدهية، إنى آسف.. فتركته بدون ان ارد.. ولم يستوقفنى وذهبت اجر قدمى يائسا، متهالكا الى يونس عبد الله وجدته لايزال منتظرا يقظا. وحكيت له الحكاية. «من طقطق لسلام عليكم».. ففوجئت به يعانقنى ويقفز واقفا ويجرنى من يدى.. ماهذا يا يونس.. قال وهو فى فرح «زى ما يكون لقى لقية». أنا البديل. أنا فداء الشيخ عباس . هذه إرادة الله.

والحمد لله.. وعدنا معا الى المركز فقدمته الى رشاد بيه وكتب على المحضر المقدم انه طبقا للتعليمات يعفى من التطوع نهائيا من يقدم بديلا عنه. وقد تقدم فى تاريخه وساعته المدعو يونس عبد الله زروق من الهمامية مركز البدارى متطوعا بدلا من المدعو عباس محمد اسماعيل فقررنا بحجز الاول الى أن يتم الترحيل ويخلى سبيل الثانى.. وقد كنت أنت حاضرا النهاية.. ووقعت على المحضر بعد أن كان يونس قد بصم قبل استدعائك..

وهكذا..

منذ أن شاع أن يونس عبد الله قد عاد من «السلطة» قبل أن يعود غيره وهو جالس في مقعد داره يحكي ويعيد لاينقص ولايزيد لمن يحيط به من رجال وشباب وصبية، بصوت تسمعه في فناء الدار أمه ومن يتوافدن اليها مهنئات بسلامة عودة ولدها من حيث لم يكن احد ليعرف قبل ان يحكي يونس عبد الله.

هذا هو أصل الحكاية وفصلها..

الفصــل الثــالث

الجــزيــرة

قال الراوى:

(١)

يشغل الحديث عن الجزيرة، ماضيا وحاضرا ومستقبلا قدرا كبيرا متصلا من مذكرات القرية، يكفى من يريد ان يقطع الصمت الرهيب الذى كثيرا مايرين على الجالسين على المصاطب أن يسأل شيخا منهم عن ماضى الجزيرة أو حاضرها أو مستقبلها ، حتى يستيقظ النيام وينتبه الغافلون، ويشارك القعود والقيام فى تلاوة مذكرات القرية والجزيرة منذ قديم الزمان.. تختلط الاصوات وتختلف الروايات تبعا للانتماء القبلى ،الى العائلات أو تبعا للمصالح والغايات.. فلقد أصبحت سيرة الجزيرة قصتهم الاثيرة لا تزاحمها حتى سيرة بنى هلال.

الاصل فى امر الجزيرة ان مجرى النيل يقع فيما بين جسريه الشرقى والغربى، وهو منخفض ضيق نسبيا تجرى فيه المياه هادئة رائقة أيام التحاريق، هادرة عكرة أيام الفيضان، وتحول فى الحالين دون أن يترسب فيه طمى أو طين.. انه مفروش بغطاء غير سميك من الحصى مختلف الالوان.. بالمجرى تتحدد «زمامات» القرى والمدن من الارض الخصيبة،، ما كان غربيه فلأهل الغرب. وما كان شرقيه فلاهل الشوق.. مع ذلك فإن النيل متصل الاستقرار فى مجراه لايدع مجراه متصل الاستقرار.. فمن عام الى عام، او كل بضعة اعوام، او مالا يحصى من الأيام يغير النيل مجراه منحرفا الى الشرق أو

منحرفا الى الغرب، فيما بين جسريه ، وهو متجه دائما الى الشمال.

حين يفيض النيل وفاء كل عام يفيء على ارض مصر بما يحمله، من منابعه وعلى امتداد مجراه، بآلاف الملايين من امتار الطمي المكعبة، لايعود بها ابدا من الشمال لانه ابدا لايعود الى الجنوب. يحملها بقوة اندفاع مائه المتدفق فلا يترسب منها على الارض، ويبقى، إلا حيث تسكن حركته أو تهدأ قوته.. وهى تسكن حيث تتوزع بإحكام مصنوع على الحياض وتغلق دونها أبواب السحاحير فلا تلبث ان تضع حملها من الطمي فى الحياض قبل ان يؤذن لها بأن تعود الى النيل فى أواخر موسم الفيضان فى توقيت موضوع.. ولما كان الماء العكر قد توزع وانتشر على حياض الوادى كلها قبل أن يسكن فهو ضحل فى كل حوض، فما يضع إلا ما حمله من الطمي وهو جد قليل، غلالة رقيقة من طين خصيب، أما بقية آلاف الملايين التى يحملها ماء النهر الدافق فلها مصير آخر. أقل القليل منها يبقى النيل المجهد من طول السفر ووعثاء الطريق قادرا على حمله الى ان يلقى بذاته وبما حمل فى احضان البحر.. اما اكثر الكثير فيترسب بهدوء التيار فى مواقع تحددها معوقات طبيعية ومعوقات صناعية. تصد تلك المعوقات قوة اندفاع الماء الحامل اذ تعترضه فإن غلبته اضعفته فيما يليها فحملته على ان يضع فوقها قدرا مما حمل. عرف الفلاحون منذ

إن كانوا فلاحين تلك الظاهرة فتعلموا كيف يحصلون من طمى النيل وهو فى فيضانه على رواسب طمى قبل أوانه، يختارون مواقع ناتئة من الشاطىء ويبنون فيها «أكتافا» من الحجارة فإذا مافاض النيل وادركها تياره صدت تياره فانحرف عنها شرقا او غربا ، تاركا جنوبها رواسب من الطمى لا تلبث بعد سنين أن تتراكم حتى تطمر الاكتاف أو تكاد.

كلما وأينما ترسب فى القاع طمى فقد ارتفع القاع.. والارتفاع عائق للتيار بقدر مايرتفع.. فيترسب عليه الطمى عاما بعد عام بعد اعوام الى ان ينحسر الفيضان ذات عام عن قمة سافرة فوق الماء تبشر الفلاحين بأن قد «طرح النهر جزيرة» ولن تنصرم أعوام كثيرة حتى تصبح «الجزيرة» مساحة فسيحة من الارض بالغة الخصوبة، ينتقل إليها الناس فيما بين مواسم الفيضان يزرعونها.

مايقرب من ربع الارض الزراعية المتاحة لجهد الصعايدة جزر متتابعة وقد تكون متجاورة فى سلسلة ممتدة من جزيرة الروضة الى جزيرة الدهب ثم جنوبا حتى اسوان.. يتلوى فيما بينها مجرى النيل تاركا بينها فواصل من ماء أيام التحاريق.. إنها «الاخوار» المجارى القديمة للنيل المصدر الاساسى فى الصعيد للاسماك مادامت محتفظة بماء النهر الذى هجرها.. أما الجزر فهى المجال الاول لزراعة البرسيم اكسير حياة الماشية، والقمح

عنوان الرخاء، ثم خضراوات وفاكهة من البطيخ والشمام والخيار ، تساوى ، عند فلاحى الصعيد، النقود ذاتها، لأنهم لايخزنونها فى الحواصل أو فى الصوامع ولا يأكلونها غذاء بل يبيعونها «لأهل البندر» فى أسواقهم نقدا. ولايخلو الأمر من افتتاحيةعذاب.. اذ حين تنحسر مياه الفيضان عن «جزيرة» لا تتركها خالية من كل نبات بل عن نبات مائى فى تجمعات متشابكة كثيفة الجذور قصيرة السوق طويلة الاوراق الشائكة.. انه نبات «الحلفاء» أو «سوت» رمز الوجه القبلى قبل توحيد الوجهين. ويكون على الفلاحين ان يخوضوا فى الطين قبل ان يجف ليجتثوها من أعماق جذورها الغائرة فى الطين.. أما اقتلاعها شدا من سوقها القصيرة أو أوراقها الطويلة فيدمى الأيدى ويخدش الاذرع والصدور..

ومع ذلك فإن الفلاحين ذوى الخبرة، مرها وحلوها، يراقبون انحسار الفيضان دائبين يستطلعون اطراف ذلك النبات الشائك كعلامات مأمولة عسى أن يكون النيل قد ترك لهم رزقا مباركا، كما يستطلع المسلمون ظهور هلال شهر رمضان المبارك، فإن ظهرت فهى بشرى للفقراء فى الأرض برزق وفير..

ولا يشغل الفلاحون أنفسهم بما يعرفونه من أن النيل الذى يغير اتجاه مجراه خفية إبان الفيضان ويرسى قواعد الجزر التى لم تلبث أعواما ثم تبين يطهر فى الوقت ذاته مجراه الجديد مما

يعترضه من أطراف ارض لا تقاوم هشاشتها تياره، «فينحرها» يجرفها خفية، فإذا ما انحسر الفيضان اختفت كأنها لم تكن قط.. ذلك هو «نحر النهر»، المقابل السلبى «لطرح النهر»، ولما كان وادى النيل كله يمد النهر عاما بعد عام بما يطرحه على ارض مصر القديمة من ارض جديدة.، وكان ماينحره النهر من موقع يطرحه فيما يطرح فى مواقع أخرى فإن «نحر النهر» ليس هلاكا للارض الخصبة بل هو تغيير لمواقعها بعد الاضافة إليها، ويبقى النهر مصدر خير كامل غير منقوص، متصل غير مقطوع، بما يطرح وبما ينحر.

لمن طرح النهر؟

ابتدع المشرعون ماظنوه جوابا فصاغوه نظاما فى قوانين مصر.. فقد اضافوا الى اسباب «الملكية» ملكية الارض الزراعية فى مصر، سببا اسموه «الالتصاق» مؤداه أن ما يطرحه النهر من ارض على جانبى مجراه يصبح «ملكا» لاصحاب الارض التى وقع عليها فالتصق بها، وأن ماينحره النهر من ارض يلقيه، افتراضا، على ارض القرية التى تليها شمالا، فيعوض الطرح «ملاك» النحر.

يبدو حلا منطقيا، ولكنه مثل كل الافكار المجردة القائمة على فروض غير واقعية ، ولو كانت منطقية، فشل فى حل مشكلات واقع حياة الفلاحين فى مصر.. اول اسباب الفشل ان احدا فى

مصر، منذ ان جرى النيل في مصر، لم يكن يدرك معنى «ملكية الارض» الزراعية، ولم يعرفها نظاما حتى منتصف القرن الماضى.. نعنى بالملكية الحق العينى الخاص على التربة ذاتها بمكوناتها المعدنية والكيماوية ، بما يتضمنه من سلطة التصرف (الرهن والبيع والهبة والايجار والاتلاف والترك)، كان الحق الممكن والمفهوم فى الارض الزراعية مقصورا على «الانتفاع» بما يتضمنه من زراعة أو مزارعة حتى عهد سعيد باشا والى مصر الذى اباح لنفسه ان يوزع ارض مصر على الامراء والاميرات والجوارى والباشوات والبكوات «أبعديات» مملوكة ملكية عينيه، أما الفلاحون فلم يفهموا ابدا كيف إذ يفيض النيل حاملا الطمى من منابع لايعرفها احد، ويضيف اليه ما ينحر من مواقع لايعرفها احد، ويضع حمله فى مواضع لايعرفها احد ، يأتى احد فيزعم ان الطمى قد التصق بالارض فاصبح ملكا لاصحاب الارض التى وقع عليها فالتصق بها، يبيعونه ويرهنونه ويهبونه ويؤجرونه، أو يتلفونه ويتركونه لايزرعون وهم لايعرفون حتى من اين جاء فوقع. ثم يسخر الفلاحون فيقولون من ذا الذى سيجرى على شاطىء النيل متتبعا ما نحر من ارضه فذاب فى الماء ليرى اين يطرحه النهر ليمتلكه تعويضا. ثم من ذا الذى ينتمى الى قرية قبلية سيهجر قبيلته الى قرية قبلية اخرى سعيا وراء قراريط معدودة قيل له إنها تعويض عن طرح النهر عما نحر النهر من قراريطه

المعدودة إن غامر فهاجر فسيقول له اهل القرية الشمالية إن ما طرحه النهر على ارضنا قد التصق بها فهو ملك لنا «حسب القانون»..

لم ينفذ القانون اذ فشل ..

أيا ما كان رأى واضعى القوانين، وايا ماكان الراوى فى ملكية الارض وعلاقتها بالنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فهو يروى مذكرات القرية.. ولقد كان لاهل القرية رأى فى طرح النهر (الجزيرة) ورؤية لعلاقتهم به او بها، صاغه مثلا الحاج سيد عبد النبى الذى تجاوز المائة عمرا فشاع إذ يأخذون الحكمة فى القرية من افواه الشيوخ.. قال رحمه الله : «اللى يحط الطين فى الميه يبقى هوه صاحبه، واللى يحط الطين على أرضه يبقى هوه رزقه».. أما رؤية أهل القرية لعلاقتهم بطرح النهر و «الجزيرة» فعقيدة موجزة التعبير فى غير حاجة الى تبرير مثل كل العقائد:

إنها رزقهم، كذلك أراد الله مالك الارض ومقسم الارزاق أن يستولد الماء طينا من اجلهم ، فالحمد لله.

(٢)

ولقد كانت للهمامية منذ ان كانت كفرين متجاورين «النطره» و«الشيخ جابر» تابعين لبلدة قاو الكبيرة (العتمانية)، جزيرة من طرح النهر أو أكثر من جزيرة لسبب طبيعي، ففي تاريخ غير معروف غير النيل اتجاه مجراه وانحرف شرقا بعيدا عن ارض مديرية جرجا فاصطدم تياره بجسر النيل الشرقى الذى يحرسه الرجال سخرة أو تطوعا وتسانده من خلفه كتلة مسطحة من الارض الصلبة تستمد صلابتها من اتكائها على سفح الجبل الشرقى ذاته.. انها وجسر النيل مستعصيان على النحر . فارتد عنهما النهر واتجه مجراه «غربا ـ شمالا» . وافرغ كثيرا مما يحمل من الطمي قبل ان يرتد ، وهو مرتد ومازال يصطدم فيرتد فيطرح عاما بعد عام حتى بانت فى تاريخ غير معروف ، ثم نمت ثم اتسعت جزيرة اسميت «قبالة الدير» اذ كانت مقابلة فى النهر «للمغارات» التى كان يسكنها رهبان النصارى فى الجبل الشرقى.. ثم اسميت «جزيرة نزلة همام» قبل ان تسمى القرية الهمامية إذ هى موازية ومحاذية لتلك القرية وواقعة فى زمامها . خرج إليها أهل «النطرة» وأهل «الشيخ جابر» مع أهل «قاو» التى أصبحت لكثرة أهلها واتساع أرض الجزيرة بالاضافة الى أرض حياضها عاصمة اقليم «رأس خط» كما جاء فى الخطط التوفيقية، قبل الغارة.

ويبدو مما تتداوله الاجيال من مذكرات القرية وذكرياتها ان

أهلها قد عاشوا حقبة طويلة من الزمان فى رخاء عميم مصدره الجزيرة، فمايزال المعاصرون ينقلون عن المعاصرين مكونات الرخاء وعلاماته . كانت «بوابات» البيوت الكبيرة ذات المطاحن الخاصة من حجر يكفى ارتفاعها واتساعها دخول الجمل بما حمل. مباريات التحطيب بعصى الشوم بين الافراد كانت تقوم بعصى طويلة من الخيزران بين فرسان على ظهور الخيل المطهمة.. شباب يمتطون الجمال «الهجن» في مواسم الفيضان ، حيث لا عمل يزورون قبائل عربية يزعمون أن بينهم وبينها قرابة عرقية فى الفيوم وفى الشرقية، ويستقبلون شبابا منها زائرين «الشيخ جابر» فى العام التالى.

ثم الغلال والماشية والانعام و «الذهب المشغول» خلاخيل واساور واقراطا واخزمة من حلقات فى أطراف أنوف الصبايا من الذهب الخالص . منها رمزها الذى انقرض. حليه تسميها الذكريات «لِبّة» وتنسبها الى اكثر النساء المحصنات من العائلات.. يصفها الرواة بإنها شبكة عريضة من الجنيهات الذهبية، «البنتو» المتلاصقة تعلقها المرأة فى رقبتها فتغطى صدرها من نحرها الى سرتها، تصدر «شخشخة» مسموعة كالوشوشة حتى لو سارت حاملتها مدثرة بشقتها.

أيما ما كان من مبالغة ذكريات القرية الفقيرة او من دقتها فإن ظهور الذهب فى مذكراتهم المروية يوحى بان قد فاض الثراء عن احتياجاتهم فادخروه زينة فى «الذهب المشغول» ففى سنين الرخاء الخوالى، والبيوت الكبيرة، والتفاخر القبلى، والجزيرة ،

كانت مهور الزواج مباريات بين الصبايا والشباب فيما يقدم إليهن منهم من ذهب مشغول ، ولم تكن أية عروس أو أى عريس فى حاجة الى بيع المهر لشراء بقرة، كانت الماشية كثيرة وفائضة العدد واللبن والجبن والدهان ظهور فيض، «الدهان» فى مذكرات القرية ينبيء عن صدق ما تضمنته ذكريات القرية من رخاء تلك الأيام، إذ الدهان هو الخلاصة القليلة للبن كثير.. ومع ذلك فما يزالون فى القرية يعتبرون أن شرب الرجل دهانا افطارا من مفاخر الرجال وغذاء للرجولة.. انهم لايشربونه اذ هو قليل ولكنهم يتفاخرون بان أباءهم وجدودهم كانوا يشربونه اذ هو كثير، ويصلون بينه وبين مواقف الرجولة فى معارك الغارة.. يحفظون رثاء أخ أخاه ممن اعدموا فريا على الخوازيق يقولون انه قال:

ياخسارة كان لى خَىْ وَلدْ ابويا شقيق..

يتغدا بخروف ويفطر دهان ع الريق

قعد اربعين يوم سادد لوحده طريق..

لحد ما تكسر السيف وخلصت المزاريق

فاضل عدو الله جاب ألف رجاله..

كتروع الجدع حطوه على الخوازيق

تحِْرم علىّ النسا لحد ما آخد تاره..

واشرب من دم فاضل باشا بريق .

ويذكرون مايتذكرونه نقلا عن ذاكريه من أن قد كان الذهب

المشغول الخاص بنساء كل عائلة يحفظ عند «كبيرة العائلة» زوجة كبيرها، في حرز واحد من جلد رقبة الجمل وبطولها، وديعة وكنزا للعائلة جميعا، ولكل عائلة كنزها، ، فرض عليهم الاكتناز أن أرض الجزيرة لم تكن في مذهبهم قابلة البيع او الشراء نقدا ولو كان النقد ذهبا، إنما يقسمونها زراعة وانتفاعا على امتداد الخطوط المفترضة التي تفصل مساكن العائلات ونخلها وارض حياضها ثم عابرة الخور الى ارض الجزيرة ذاتها.

ويقسم كثير من المعاصرين «بالله ثلاثة» على متى وكيف داهم أهل العقال البحرى بيوت النطرة والشيخ جابر وما نقلوه اغتصابا من رقاب الجمال المليئة بالذهب المشغول من بيوت العائلات وحملوه على ظهور الجمال الى بيوتهم، وقد تبالغ الذاكرة في دقتها فتذكر مفردات كل كنز منقول.. ولا عتب على الراوى.

أيا ما كان الحال فقد دك الكفران دكا ونهبت الاموال غصبا ، واعدم كثير من الرجال فريا ، وتشرد من بقي منهم والنساء والصبية والاطفال سنين طويلة الى حيث لايريدون ان يذكروا ولو تذكروا . فلما شملتهم «المراحم الخديوية» ، وعاد من عاد منهم يبنون بيوتا متحاضنة على سفح الجبل زالت بهجتهم وعمتهم الفاقة .

تخلو ذكريات القرية عما بعد العودة من ذكر الجزيرة . لايذكرون ولا ينكرون بل يصمتون كموقفهم من كل حدث يعتبرونه عارا . يتحدث السيد عبد النبي ، وله عذر من شيخوخته ، حديثا

خافتا متقطعا فيقول انهم حين عادوا بعد ست سنوات وجدوا ان الخديوى قد انعم بالجزيرة على لطيف باشا مدير جرجا وقائد يوم الغارة فتغير اسمها من قبالة الدير إلى "انعام لطيف باشا" . وأنه قد أوفد اليها من أقام فى "نزلة همام بك" شخصا تركيا غليظا اسمه محمد أغا شماشرجى لطيف باشا . جمعوا كل ما يملكون واشتروا الجزيرة . ولكن أية جزيرة ؟.. يضيف بعد صمت طويل . لقد غضب النيل من أجل أهل الشيخ جابر وانتقم من لطيف باشا فمازال يقضم كل عام اجزاء من غرب الجزيرة ويلقيها فى تيار الماء الى أن عاد المطرودون فتوقف وقد أبقى لهم أقل من خمس الجزيرة . الجزء الشرقى المرتفع ومافيه من شجيرات قليلة . ولقد عاد الى مابقى أهل الشيخ جابر رجالا ونساء وصبية وهم يدقون الطبول كالفاتحين يحملون "بيرق" الاشراف ، وهناك ذبحوا عجولا وأقاموا ذكرا وبشرهم الامام محمد معتوق بأن الله سيسخر البحر ليعيد لهم باقى الجزيرة كما سخره ليخفيه فى الماء انتقاما من الظالمين .. فاقتسمت العائلات الجزيرة شرائح ممتدة من الشرق الى الغرب على امتداد بيوتهم وغيطانهم القديمة . اقتسموها بالتساوى بين العائلات التى دافعت عن البلد فى الغارة وطردت منها ، مع أن عائلة المشاهرة (أولاد مشهور) قد دفعوا أغلب الثمن . اعترافا لهم بما قدموا كتبوا حجة شراء الجزيرة باسم كبيرهم الشيخ محمد اسماعيل الذى اختاروه شيخا

للمشايخ . عادت الحياة ولم تعد العافية فكفوا عن الحديث عن الجزيرة . غير أن الصمت لن يطول .

تستأنف الجزيرة عودتها الى مذكرات القرية بقوة متصاعدة يرويها جيل جديد لم يشهد الغارة ولكن نقلا عن آباء وأمهات وأعمام وجدود شهدوها وذلك على مدى الاعوام الاولى من القرن الحالى التى انشغلت مصر خلالها بمشروع بناء خزان أسوان . لقد كان من آثاره المبكرة ، المتوقعة ، ثبات أرض "الجزر" على امتداد صعيد الوادى فوق مستوى الفيضان العادى والتحكم فى مياهه فى غير موسم الفيضان على وجه قطع الاتصال بين مجرى النهر وبين كثير من الاخوار التى تفصل بين الجزر فجفت الاخوار وتحولت الى أرض زراعية طوال أشهر التحاريق أو أغلبها .

.فى تلك السنوات أجرى "فك الزمام" . حصر الارض الزراعية والقابلة للزراعة ووضع حدودها بواسطة لجان حكومية قررت فى النهاية أن جزر طرح النهر ، ومن بينها " جزيرة الهمامية" هى "ملك الحكومة" . وأن على من يريد أن ينتفع بأرضها أن يستأجرها من الحكومة بعقد مكتوب مساحة واحدة لمن يعرض أعلى ايجار فى يوم معلوم تجرى فيه المزايدة بين الراغبين بديوان المديرية .

فى اليوم المعلوم لم يتقدم أحد من أهل القرية "للتعامل" مع الحكومة . كانت القرية لا تزال تعيش مرحلة "الخائفين" منذ

الغارة، ولاسباب أخرى .

تقدم عبد الرحمن بك محمود ابن «الباشا» منفردا، أو هكذا قيل، فأجرت له مقابل مائتى قرش عن كل فدان سنويا لمدة أربع سنوات قابلة للتجديد مددا أخرى. لم تطأ قدم أحد من بيت الباشا أرض الجزيرة ولم ترها عينه، ولم تسلم الى مستأجرها، فأناب عبد الرحمن بك عنه شابا من الهمامية شديد الذكاء شديد القسوة اسمه صديق محمود حماد. زكته الادارة اعجابا وجزاء على دور مخادع وجسور فى الايقاع بسند عثمان وعصابته. وقد استطاع ذلك الشاب الذكى أن يشبع حنين أهل القرية إلى «رزقها» القديم بما أتاح لكثير من أهلها من رزق جديد مصدره الجزيرة. فقد استخدم من شبابها ورجالها القادرين القابلين، فى حفر بئر ارتوازية عميقة. ثم فى نقل عشرات من الصناديق التى جاءت اليها محمولة على صنادل عائمة فى النيل، ثم فى إفراغ مافى جوف الصناديق من حدائد منها الغليظ ومنها الدقيق، ثم فى مساعدة «خواجات جاءوا من مصر» وأقاموا حول البئر خياما أقاموا فيها وهم يركبون أجزاء ماحملت الصنادل فاذا هو «بابور» بخارى جسيم يلقمونه حطبا كثيرا وفحما وفيرا فينفث دخانا كثيفا، ويدير عجلات ثقيلة تمتد منها الى قاع البئر سيور طويلة فتدير عجلات أخرى تمتص الماء من جوف الأرض فيخرج الى سطحها دافقا رائقا ليروى ارض الجزيرة. ثم حملوا الطين على رءوسهم وضربوه طوبا، واستجلبوا الحجر من الجبل على ظهور رجالهم ثم على طوفات من البوص عبر الخور ثم على

اكتافهم الى حيث «البابور» فانشأوا حوله سورا عاليا من حجر وطين ومنازل لمن سيقيم .استغرق كل ذلك موسمين حابى فيهما النيل «بيت الباشا» فلم يدرك فيضانه موطىء البناء وإن كان قد اعاقه. وعوض اهله الهمامية أجورا من النقد عن محاصيل الارض فحمدوا الله على كل حال.

فلما أن استقر الوضع وبدأ تدبير استقرارالزرع قال صديق محمود حماد لعبد الرحمن بك محمود حسين قابله فى «السلاملك» ،أن الاصطفاء يستوجب الوفاء. وقد اصطفيتني سعادتك لأكون رجلك وخادمك في قريتى وأن اختار من بينها من يحتاج اليه الزرع. ولكن مع الوفاء اولى بالحق أن يقال. والحق يا باشا أن أهل الهمامية كما يؤمنون بالله يؤمنون بأن أرض الجزيرة أرضهم . فلو زرعوا فيها لانزرعوا فيها ولن نستطيع ان تقلعهم منها . لقد رضوا حتى الآن لانهم يتقاضون اجورا ولكنهم لن يرضوا أن يدفعوا ايجارا . فأرى ، والرأى لسعادتك، أن ننقل الى الهمامية من يحرس الجزيرة مسلحين، ومن يزرعها فلاحين من فائض ما أفاء الله على سعادتك من جزر وأرض وعاملين. وأنا قمين بأن أكون هناك عينك ويدك وحارس الحراس وألفلاحين اجمعين. بغير هذا لن نستطيع أن نحتفظ بالجزيرة. اللهم إلا فى حالة واحدة.

سكت صديق. وانتظر الباشا ذكر تلك الحالة الواحدة. فلما طال السكوت، قال : ما هى تلك الحالة ياصديق. أنت تعلم أن اقتراحك غير عملى ومفرط التكاليف .

قال : أعرف ياباشا ، ولكنى أخشى أن أذكر الحل الأخير فتتهم مقاصدى .

قال : قل ولا تخف من الاتهام .

قال : أهل القرية ، وأنا أعرفهم ، يخافون الحكومة ، ولا يخافون أحدا غير الحكومة، بل أنهم يجتنبون التعرض لكل من ينتمى الى الحكومة. ولايزالون يقفون احتراما لكل مايمت الى الحكومة بصلة ولو كان حصانا يمتطيه عسكرى ، وحتى لو لم يكن أحد يمتطيه ..

قال يستعجله : الحل يا صديق .. ماهو الحل .

قال : أن يصبح رجلك وخادمك من الحكومة . أن أعين عمدة . والعمودية شاغرة منذ «استعفى» محمد إسماعيل جودة ، ويقوم بأعبائها نائب شيخ ضعيف .

ضحك عبد الرحمن بك محمود ضحكا عاليا وقورا ثم قال : خلقت المشكلة يا صديق لتصل الى الحل. فليكن. مثل ذكائك يستحق المكافأة. ستكون عمدة الهمامية إن شاء الله. أول عمدة . اصبر فقط وانتظر . وقدم لى دليلا على كفاءتك فى الزراعة من محصول الجزيرة فى العام القادم. ولك أن تستخدم فيها من تشاء ولكن بأجر وليس ايجارا .

أجر أو ايجار فقد اعادت الحكومة وبيت الباشا وصديق محمود حماد، بدون قصد اتصال القرية بالجزيرة بعد انقطاع طويل. فعاد الحديث عنها ماضيا وحاضرا ومستقبلا يشغل قدرا كبيرا متصلا من مذكرات القرية.

ولما كان الحديث دائرا أبدا حول الجزيرة وعلاقتها برزق أهل القرية فقد كان الخلاف فيه خلافا عقائديا حقا . اذ يبين مما ترويه الذكريات وتذكره الروايات أنه كان مثل كل خلاف فى العقائد شديد الاضطراب

والغموض . لا تكاد تبين فيه المواقف الفعلية من المصالح الخفية تحت ركام من المجادلات اللفظية التى توهم، عمدا أو بغير عمد، بأن الخلاف دائر حول الحقيقة المجردة وليس الغايات الشخصية .

فثمة نظرية طاعة أولي الأمر غير المشروطة التى روج لها الامام محمد معتوق ويحتج بها ابنه وخليفته ، يسانده الشيخ شحاته الضرير قارىء القرآن على المقابر. والشيخ عبد الرازق مطهر الاجساد من الجان، وصراف القرية الذى يجمع ضرائب الاطيان. والشيخ محمود عبد اللطيف نائب العمدة وله فى الترويج لها رأيان ، ولكل رأى وجهان، ثم الذين يعدون أنفسهم لمغادرة الحياة الدنيا ونهرها فى انتظار جزاء الصبر والطاعة فى جنة الرحمن. أولئك جميعا يستنكرون مجرد استنكار أن يفعل أولياء الأمر مايشاءون بالجزيرة فينهون عن ذلك المنكر. وثمة نظرية ملك الله والاستخلاف فى الارض التى روجها فى القرى الشيخ احمد الطيب. أنهم يتذكرون جيدا أن قد قال لأبائهم وجدودهم وقد هموا بالاستيلاء على أراض من قرى أخرى وهم زاحفون تحت قيادته: أن مايفتح الله به عليكم من ارض هو« فيىء » تنتفعون بها زراعة ومزارعة ولكن رقبتها تبقي فى ملك الله الذى استخلف الانسان فيها لتعميرها وحرم ملكيتها.

يضرب لهم مثلا من موقف الصحابة حين فتح الله على المسلمين ارض العراق. أولئك يستنكرون من الحاكمين أن يمتلكوا الارض ولا يزرعونها بل يؤجرونها بمقابل لمن يزرعها كما لو كانوا لها مالكين من دون الله. يستنكرون ملكية ارض الجزيرة وتأجيرها ويبررون ملكيتهم أرض الحياض وتأجيرها بنظرية اولى الامر. فقد فرض اولو الامر نظام

الملكية والتأجير منذ قديم الزمان ولكن الحق أحق أن يتبع. وثمة نظرية تاريخية تستمد من أحداث الغارة ماتحوله الى قاعدة، تحذر الجيل الذى لم يقتل ولم يتشرد من شرور الغرور حتى لا يقتلوا أو يتشردوا كما وقع لآبائهم وجدودهم من قبل نتيجة عصيانهم الحاكمين واستخفافهم بما لإطاقة لهم به من قوة ، ولو كان بتحريض من أولياء الله الصالحين. إن قول الله تعالى أولى بأن يتبع . ولقد قال سبحانه وتعالى : «لايكلف الله نفسا الا وسعها». وقال جل جلاله: «لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة» وثمة نظرية «برجماتية» تقول : لقد عادت الينا الجزيرة اذ اتصل بنا رزقها الموفور بعد سنين طويلة فلنحمد الله على مانتقاضى من أجور ولو قليلة. فيقول من يقول ولماذا وقد عادت الينا الجزيرة يكون رزقنا منها قليلا وهي كلها رزقنا . يعقب آخر فيقول قائلا: كما لو كان رزقنا من جزيرتنا كرزق أولادنا وبناتنا وشبابنا من جمع قطن أهل الغرب. فيقول شيخ حكيم أو رجل يدعى الحكمة : ماهو البديل ، فتختلط الأصوات وتضطرب النظريات ولايكاد احد يعرف مايقول الآخرون. هكذا تقول مذكرات القرية نقلا عمن قالوا ومن يذكرون ماكان يقال .

لا خلاف بين أهل القرية فى أنهم يريدون أو يتمنون أو ينتظرون أن يستردوا رزقهم ، جزيرتهم المرتبطة فى مذكراتهم القديمة بالرخاء والرفاه أيام أن كانت علاقتهم بها بسيطة. علاقة الفلاحين بالارض. انما دب الخلاف بعد أن أصبحت علاقة مركبة متعددة الاطراف . ظهرت الحكومة وظهر بيت الباشا كل يزاحم أهل القرية فى رزقها اذ يحرمهم منه ويتخذه له رزقا. الحكومة تسميه «ملكية» وبيت الباشا يسمونه ايجارا وما اضطربت أراء أهل القرية إلا لأن مفهومهم «للحكومة»

ومفهومهم «لبيت الباشا» كانا مضطربين شديدى الاضطراب .

(٣)

يتضح بعد جهد غير يسير فى دراسة وتحليل ماصيغت به ذكريات القرية من ألفاظ وجمل وأساليب تعبير أن أهل القرية لم يكونوا يعرفون ماهى «الحكومة» على وجه التحديد . فالحكومة ، هذا اللفظ العام المجرد لم يكن يعنى عندهم نظاما عاما لادارة شئون الناس بما يحقق مصالحهم طبقا لقواعد عامة معروفة او قابلة للمعرفة. تخلو مذكرات القرية خلوا تاما من حضور «الحكومة» بهذه الدلالة. اذ تخلو خلوا تاما من «حضور الحكومة» إليهم لتطعمهم من جوع او تأمنهم من خوف او تقضى لهم امرا عرض او تشفى منهم انسانا مرض. الحكومة غير موجودة فى قريتهم فهى عندهم ذات دلالة لا غامضة فقط بل موهومة أيضا. الموجود ، المحسوس، الملموس، الثابت الوطيد كالجبل الشرقى ذاته هم «الحكام» اشخاص آدميون يحكمونهم فرادى ومجتمعين. وحين ترد «الحكومة» فى مذكراتهم أو ذكرياتهم ينسبون اليها افعالا لا تنسب إلا إلى أشخاص طبيعيين ، آدميين يعرفونهم بأسمائهم ووظائفهم معرفة المحسوس بالبصر والسمع واللمس. «الحكومة» أخذت الاولاد الى الجهادية يعنى أن الخفراء فلان وفلان والعمدة فلان ابن فلان اخذوا الاولاد الى المركز فى البدارى ليرسلهم المأمور الى الجهادية.ومابعد هذا غير معروف. ستحضر الحكومة غدا الى القرية لتحصل الاموال الاميرية يعنى أن الصراف احمد افندى شيخون سيحضر غدا من المركز الى القرية ليحصل الضريبة المفروضة على الاطيان . يحمل فى حقيبته ورقتين لكل ممول. الورقة الاولى محضر حجز على زراعة الممول أو

ماشيته وتعيينه حارسا عليها وتحديد تاريخ لبيعها فى المزاد العلنى للوفاء من ثمنها بما هو مستحق عليه من أموال. فى رأس الورقة تاريخ قديم وفى ذيلها ملحوظة : رفض الحراسة فكلفناه بها وتوقيع الصراف وشيخ القرية. الورقة الثانية محضر تبديد يتضمن حضور الصراف بصحبة شيخ القرية للشروع فى بيع المحجوزات فتبين أنها غير موجودة وأن الحارس بددها فتحرر هذا اثباتا لما تقدم ويحال الى السلطة المختصة لمحاكمته عن جريمة التبديد. ليس لهذه الورقة تاريخ فى رأسها ولا توقيع فى ذيلها. الحكومة تستدعى الممول، فأما السداد بما يترتب عليه من «تقطيع الورقتين» وأما وضع التاريخ والتوقيع على الورقة الثانية (محضر التبديد) واحالته الى المحاكمة حيث الحبس «مضمون» وتدور مساومة بين الحكومة والممول حول مسألة التاريخ. يستأجل فإن قبلت الحكومة اجلت تاريخ التبديد الى يوم متفق عليه واستحقت شكر الممول . والحكومة صادقة بشهادة ذاتها المدونة فى أوراقها . فبالرغم من أن أحمد أفندى شيخون لم يحضر ولم يحجز ولم يعين حارسا فان "الحكومة" قدرت المستحق فى دفتر تسميه الجريدة . وعاينت زراعة الممول وماشيته وحجزت على ما يوفى ثمنه بمستحقاتها وأكثر ضمانا ثم حضرت فاكتشفت جريمة التبديد ، أو لم تكتشفها بعد حسب ما يتم من مساومة حول المفاضلة بين "الحبس أو الدفع" . غير هذا غير معروف . حينما يحضر الشويش عتريس الى القرية راكبا حصانه لجمع رجال مطلوبين لحماية قرية أخرى من مخاطر الفيضان فقد حضرت الحكومة راكبة حصانها ، فوجب أن يقف أهل القرية للحصان وراكبه احتراما للحكومة .

هكذا تعنى كلمة "حكومة" فى مذكرات القرية "صفة" تطلق على أفراد معينين بأشخاصهم مختلفين أسماء وأدوارا ، ولكنهم متميزون عن باقى "خلق الله" بأن لهم ، ولكل واحد منهم "سلطة" الحكومة ، اذن ، فالحكومة وعلى وجه الدقة ، "سلطة" يمارسها متعددون فكل منهم حكومة . ماوراء ذلك غير معروف .

وتبرز بوضوح شديد هذه الدلالة السلبية لكلمة "الحكومة" فى ذكريات القرية من سير ابطالها ، الذين تغنى لهم البنات ويرسل اليهم الرجال أموالا قليلة من قليلة ، ويزعم بعض الشباب أنهم على علاقة بهم، ويحلم كثيرون بأن يكونوا مثلهم ، من أمثال سند عثمان بطل الشراقوة الشهير وخلفائه الاقل شهرة . محور بطولتهم أنهم "تحدوا الحكومة" ، تمردوا على طاعتها ، ورفضوا أوامرها وقاوموها وهزموها مع أن أحدا منهم لم يشعل ثورة ولا شارك فى انقلاب ولا حتى رأى مصر العاصمة . ولكنهم على وجه اليقين تحدوا مأمور وضباط وعساكر وعمد وخفراء مركز البدارى الذين كانوا "يطاردونهم" ويسمونهم "مطاريد" للقبض عليهم فلم يستطيعوا . أولئك الذين لم يستطيعوا هم "الحكومة" التى تحداها سند عثمان ومن جاء بعده . أما غيرهم فغير معروف .

ولما كانت تلك "الحكومة" كما يعرفونها فى القرية أفرادا كثيرين ، يمارس كل واحد منهم سلطته بطريقته فى دائرة عمله ، فان مذكرات القرية تكاد تخلو من أى ادراك واضح للعلاقات بين أولئك الكثيرين المتفردين . تتردد فيها مقارنات من واقع الخبرة - خبرتهم - بالمقدرة على ممارسة السلطة فيدركون ادراكا غامضا أن أولئك الافراد

الحكومات درجات بعضهم أقدر من بعض . هنا تكشف مذكرات القرية عن أغرب مفاهيمها . سلم التدرج الرئاسى عندهم مقلوب . أو ربما معدول . فالاكثر اقتدارا على ممارسة السلطة عليهم الأعلى اعتباراً . يعرفون أن فى البدارى مأمورا وفى أسيوط مديرا . وفى مصر وزيرا ، ولكن الف وزير لا يحركون شعرة من رأس أى قروى . أما الشويش عتريس رئيس نقطة نجوع الجزيرة فهو حاضر بكل سلطته فى وعيهم ولو كان غائبا . يضبط مسالكهم على ما يرضيه إذا ما طلب وتقشعر الابدان خشية غضبه إذا ما غضب . تماما كما لا ينسى الجزار وهو يقسم لحم الجدى يوم السوق ويوزعه بالقرعة بين المشترين ان يضم الى نصيب العمدة نصيبا خارج القرعة . ليس العمدة فى حاجة الى مزيد من اللحم ، ولكنها تذكرة ماضى سحيق لمن شاء ذكره بأن العمدة حكومة ذات سلطة ، والقرعة قاعدة مساواة ، والسلطة تنفى المساواة . لقد حصل العمدة على ما اشترى مقترعا كالآخرين ، اما ما اضيف فهو نصيب السلطة .. حتى الخفير هو حكومة ذو سلطة ولو لم تزد عن تزوير مخالفات صيد العصافير .. ولكل سلطة احترام وتقدير بقدر ماتتماس مع المسلطة عليهم ، فلا يستحق اى وزير من الاحترام او التقدير ما يستحقه أى خفير .

الآن، يقال لهم أن الجزيرة ملك الحكومة . فلا يعرفون من "هو" الحكومة الذى ملك الجزيرة وهى رزقهم . فتبدو المقولة غير معقولة فيضطربون فى تبريرها أو تفسيرها . لا تتعبوا أنفسكم فى جدل لا يفيد . حكومة أو لا حكومة انها "الغارة" عادت من جديد . والخبرة عبرة لكل رشيد. لا ينقذنا من أية حكومة الا من انقذونا من فاضل باشا .

فلنلتمس الضمان والامان من بيت الباشا، الذين ضمن جدهم جدودنا.

فيزداد الموضوع تعقيدا ..

ذلك لأن مفهوم القرية لتعبير "بيت الباشا" ليس أكثر وضوحا من مفهومها للحكومة . فأهل القرية يعرفون أن "بيت الباشا" اشارة الى عائلة عريقة كثيرة العدد يقيم أغلبهم فى موطنهم قرية ساحل سليم التى تبعد عن قريتهم بنحو ثلاثين كيلو مترا شمالا ، ويقيم كثير منهم فى مصر العاصمة اقامة دائمة . ويقال أنهم كلهم متعلمون ، وأن منهم باشوات وبكوات وأفندية . كل هذا لا يعنى شيئا خاصا بالنسبة الى القرية فلا تعنى مذكراتهم به كثيرا . "فبيت الباشا" فى ساحل سليم مثل "بيوت باشا" كثيرة يسمعون عنها فى أبوتيج وفى النخيلة وفى طما وفى طهطا وفى جرجا وبلاد أخرى كثيرة لا يذكرون أسماءها ، ولا يعنون بذكرها كثيرا . ولكنهم يعرفون ويذكرون أن بيت "الباشا" يمتلكون آلاف الافدنة من الارض الزراعية ، ومئات الافدنة من حدائق الفاكهة الغناء المحاطة بأسوار من الاحجار ، اقيمت داخلها سرايات تصل اليها الكهرباء "بسلك مخصوص" من ابوتيج عبر النيل ، وأن الطريق البرى اليها مرصوف من اسيوط حتى ساحل سليم ثم يتوقف عندها إذ لا يوجد جنوبى ساحل سليم على امتداد مركز البدارى بيت باشا آخر . حتى هذا لا يعنيهم كثيرا . فالله يرزق من يشاء بغير حساب . وهكذا تخلو مذكرات القرية خلوا تاما من أى لفظ صريح أو اشارة ضمنية الى معنى من المعانى المرتبطة بالعلاقات الاقطاعية بين ملاك الاراضى والفلاحين . فليس الفلاحون اقنانا ولا تابعين وليس بيت الباشا سادة ولا أصحاب سيادة على غيرهم من الفقراء. إنهم عائلة

مثل كل العائلات وإن كانت أكثر العائلات ثراء . والثراء رزق فلا اعتراض .

ثم أن أهل القرية لا يعرفون من "بيت الباشا" الا عبدالرحمن بك محمود . فمحمود باشا سليمان ليس الا والد عبدالرحمن بك . ومحمد باشا محمود ليس الا أخ عبدالرحمن بك . وكذلك حفنى . أما أولاد صالح ، عبدالمجيد وعبدالحميد وخليل فهم أولاد عم عبدالرحمن بك ليس الا . وإذ يتجسد "بيت الباشا" فى عبدالرحمن بك محمود ، فانهم ينسبون الى "بيت الباشا" ما يعرفونه عن عبدالرحمن بك .. وهم لا يعرفون عنه الا كل ماهو فاضل ونبيل فيجلونه فى مذكراتهم اجلالا كبيرا حين يذكرونه وهم يذكرونه كثيرا .

عبدالرحمن بك محمود رجل فارع الطول ، أبيض البشرة لا يحمل من مميزات بيت الباشا الا الشفاه الغليظة . يقيم اقامة دائمة فى دواره فى حديقته الشاسعة الواقعة غربى ترعة قاو . يلبس ملابس الميسورين من أعيان الريف. العمامة والكاكولة والقفطان الشاهى ذا الحزام الحريرى ، ويمسك عصاة من الابنوس الاسود ذات مقبض أبيض على شكل "فيل بزلومة" . فهو فيما بين أعيان البدارى لا يتميز مظهرا ولكنه يمتاز مخبرا . فهو يعرف أغلب الناس فى ثلاثة مراكز من مديرية أسيوط . البدارى وأبوتيج وصدفا . يعرفهم معرفة شخصية. لا يعرف أحد كيف تيسر له هذا ولكن مذكرات القرية تنسبه الى فرط محبة الناس. باب دواره مفتوح لكل من يريد . يستقبل الزائرين فى "السلاملك" المعد لاستقبال عشرات . تقودهم اليه مجموعة من الكتبة والاتباع ، الحافظين الاسماء العارفين الاحوال ، عبر ممرات طويلة بين أشجار البرتقال . يستقبلهم فى مضيفة مجاورة وكيل الدائرة ثم

يصحبهم فرادى أو جماعات فى ترتيب يختاره الى السلاملك . ما أن يدخل زائر أو زائرون حتى يقف عبدالرحمن بك محمود ويتقدم خطوة أو خطوات . يصافح كلا منهم . يناديه باسمه . لا يفلت يده الا بعد أن يسأله بتعاطف رقيق كأنه صديق ، عن حاله وعائلته وزراعته وما بلغه من حادث وقع له قريب . ثم يدعوه الى أن "يتفضل" بالجلوس على أقرب مقعد شاغر من مقعده . يكرر هذا مع الاخرين بينما لا يكف الخدم عن تقديم الشاى الى الوافدين . التدخين فقط ممنوع بأمر الاطباء المشرفين على صحة عبدالرحمن بك . ليس ثمة أية فرصة في مجلس عبدالرحمن بك لاى إنسان ولو كان من الاعيان فى أن يحظى بترحيب أكثر حرارة أو أن يسبق غيره الى مقعد أقرب الى جواره . إذا تحدث زائر فكل عبدالرحمن بك أذان صاغية . لا يقاطع المتحدث أحد فى مجلس عبدالرحمن بك أيا كان مضمون الحديث الا عبدالرحمن بك باستفسار يتحول الحديث به الى حوار يدعو عبدالرحمن بك الى المشاركة فيه من يختار . حين يحين موعد الغداء يفتح الخدم الكثير أبوابا جانبية كثيرة تؤدى الى مائدة عامرة يدعو اليها الزائرين ، وهنالك يتعرف الزائرون على نعيم الثراء حين يعم . من حين الى حين يأكل معهم بيديه مثلهم حتى يجنبهم حيرة اختيار أدوات الطعام المناسبة . ولكنه لا يأكل كثيرا .. يستأذنهم فى الانسحاب بأدب شديد معتذرا بأوامر الطبيب . ويتركهم وما يأكلون . لا يرونه بعد ذلك مجتمعين . فاذ ينسحب عبدالرحمن بك تاركا ضيوفه "على راحتهم "يأوى الى غرفة يصحبه فيها حفظة الاسماء وعارفو الاحوال ووكيل الدائرة فيعرف منهم أصحاب "المصالح" وافكارا مجملة عنها . بعد الغداء والشاى والسجائر لمن

يدخنون ، يستدعى وكيل الدائرة كل صاحب مصلحة وحده أو كل أصحاب مصلحة واحدة الى مقابلته . هنالك يطلبون منه ان يقضى لهم من المصالح ما يشاءون ولو كان محالا فلا يجادلهم فيه بل يأمر أحد الكتبة بان "يأخذ" مذكرة بالموضوع ، ويكلف آخر بأن يتذكر أن يذكروه به ، ثم يسأل الطالبين ان كان ثمة "خدمة" أخرى يسعده أن يؤديها فيتقبل الشكر والدعاء. يقف مصافحا مودعا حتى باب المكتب . تتكرر تلك الطقوس مع كل من لديه حاجة يريد أن تقضى ثم ينصرفون .

تتنوع المصالح وتختلف المطالب التى وعد عبدالرحمن بك بتحقيقها ولكنها تنطوى جميعها علي مطلب مشترك : الانصاف . من ظلم واقع أو موهوم. فوراء كل مطلب شكوى من ضياع مصلحة مادية أو أدبية صحت الشكوى أو لم تصح . والمشكو واحد دائما . انه "الحكومة" كما يعرفونها : عمدة أو ضابط أو مأمور أو صراف أو شويش . وهم يلجأون الى "بيت الباشا" متجسدا فى عبدالرحمن بك لانهم يعتقدون أن "بيت الباشا" هم الذين يتحكمون فى أداء هذه "الحكومة" التى لا يعرفون غيرها . وإذ لا يجادلهم عبدالرحمن بك فى صحة ما يشكون منه أو فيما يطلبون ، ثم يعد بالتحقيق فى الشكوى وتحقيق المطالب ، يؤكد يوما بعد يوم صحة اعتقادهم بأن "بيت الباشا" حاكمون فوق الحاكمين . عبدالرحمن محمود لا يفى بكل ما وعد به ولكنه يفى بكثير منه ويسعى فى ذلك جادا ولو استعان برءوس الاسرة فى القاهرة أو فروعها فى المديرية . ذلك لانه يعلم وهم يعلمون أن أحدا منهم لن يدخل مجلس شورى القوانين ، أو الجمعية التشريعية او مجلس المديرية، ممثلا للبدارى او ابو تيج او صدفا إلا إذا رشحه للناس عبد الرحمن

محمود. وهو يرشحهم فينجحون ، لا اصطفاء ولا شراء ولا رياء. ولكن رضاء من قوم يعتقدون أن «بيت الباشا» حاكمون فوق الحاكمين. فلا بد لبقاء العقيدة من الوفاء بما يطلبون. وهكذا يجد أهل القرية فى «بيت الباشا» ملاذا لهم من ظلم الحكومة، وإذ يلوذون به يجدون مالا يوجد فى «أى حكومة» المساواة فى الاهتمام والاحترام والاكرام. يجدونه فيمن يعرفونه من «بيت الباشا» أو فى «بيت الباشا» كما يعرفونه فيه ، عبد الرحمن بك محمود، فحمدوه وشاع حمده فى مذكراتهم .

الآن يقال لهم أن عبد الرحمن بك محمود ، وليس احد غيره ، هو الذى يزاحمهم فى رزقهم إذ ا استحوذ على جزيرتهم ويريد لهم أن يخدموا فيها اجراء وهم اصحابها. فهم هذه العلاقة الجديدة أو تفسيرها أو تبريرها يقتضى هدم تمثال «بيت الباشا» الذى نحتته سنوات طويلة فى رءوسهم على صورة عبد الرحمن محمود. والرءوس اكثر صلابة من أن تشق ليهدم فيها تمثال المساواة فى الاهتمام والاحترام والاكرام الذى أجلوه خبرة ولا يريدون أن يفقدوه طفرة .

فازدادت المشكلة تعقيدا والآراء اضطرابا .

وهكذا كان يكفى من يريد أن يقطع الصمت الرهيب الذى كثيرا مايرين على الجالسين على المصاطب ان يسأل شيخا منهم عن ماضى الجزيرة او حاضرها أو مستقبلها، حتى يستيقظ النيام، وينتبه الغافلون، ويشارك القعود والقيام فى تلاوة مذكرات القرية والجزيرة منذ قديم الزمان . تختلط الاصوات وتختلف الروايات ، تبعا للانتماء القبلى

الي العائلات أو تبعا للمصالح والغايات. لقد أصبحت سيرة الجزيرة قصتهم الاثيرة لا تزاحمها حتي سيرة بنى هلال ..

(٤)

قال عزيز حسين :

فى ذلك الوقت كان عبد الرحمن بك محمود قد استأجر الجزيرة وشاع الخبر. ولم يكن أحد يعرف كيف سيستلمها وكيف سيديرها بعد أن تنزل مياه النهر. كثر اللغط والخلاف بين الناس فى البلد . قال الشيخ احمد معتوق أنه لا ينقذ البلد من ضياع الجزيرة إلا من أنقذ جدهم جدودنا من التشرد. فاجتمع رؤساء العائلات وذهبوا، وعلى رأسهم الشيخ محمد اسماعيل، الى ساحل سليم ليتفاهموا مع عبد الرحمن بك لعله أن يقبل الاستغناء عن الجزيرة وتركها لأهل البلد. قابلهم الرجل مقابلة حسنة واستمع اليهم ووعدهم بأن يفكر فى الأمر. دخل عليهم صديق حين سمع آخر الكلام. كان مختبئا فى بيت الباشا. فلما سمع قول عبد الرحمن بك أنه سيفكر فى الأمر دخل وقال وهو واقف بجرأة . أى أمر ستفكر فيه يا باشا . هذه أمور صغيرة لا تشغل بال سعادتك بالتفكير فيها. انتم سادة الارض والناس. ندخركم للمسائل الكبيرة. وقد كان اولى ببلدياتى الحاضرين أن يلجأوا الىّ ليتفاهموا معى اذ أنا الوكيل والمدير. تبادلوا النظرات. ضحك عبد الرحمن بك وقال للشيخ محمد تفاهموا مع صديق يا شيخ محمد . قال الشيخ محمد ماهو مفهوم لا يحتاج الى تفاهم يا باشا. وانصرفوا إلا صديق .

فى طريق عودتهم قابل الشيخ محمد مأمور المركز . كنت أنتظره فكنت معه. قدم استقالته من منصبه . قال له المأمور هكذا بدون اسباب ياعمدة . قال ليس من المناسب ذكر الاسباب في ورقة رسمية. قال المأمور قل لى اذن لأعرف بصفة شخصية . قال لقد تعرضنا لاهانة لا نستحقها في سلاملك عبد الرحمن بك محمود. قال المأمور مندهشا، كيف هذا إن عبد الرحمن بك لا يهين احدا يا شيخ محمد . قال الشيخ محمد عليه رحمة الله ولكنه لم يمنع كلبه من أن ينهشنا . قال : من . قال : صديق ..

شاع ماحدث فى القرية فتحدث به الناس وتجادلوا كثيرا فى كيف يردون الاهانة وترددت فكرة استرداد الجزيرة تحت ضغط الشعور بوحدة الاعتبار ووحدة العار. ولكنه تردد بقى مستورا فلم يعد مذكورا. تلاشى فى ظلام الستر .

(٥)

بعد استعفاء المرحوم الشيخ محمد اسماعيل كان عدد سكان القرية قد زاد فاستحقت أن تتحول «مشيخة المشايخ» إلى عمدية . اختارت الحكومة الشيخ محمود عبداللطيف ، شيخ عائلة "أولاد عيسى" ليكون "نائب عمدة" . وأصبحت أنا وكيل شيخ الخفراء . اختارته لانه أكبر المشايخ سنا . الشيخ محمود عبداللطيف رجل طيب ولكنه ضعيف . يكفى أن تعرف أنه لم يمارس سلطته كقاض لا قبل انشاء محاكم الخط ولا بعده ، كان يفضل التراضى والتوفيق ولو بين المتناقضات فإذا لم يستطع لا يحسم الامر بل يمرض ويعتكف فى داره ويبقى مريضا، معتكفا حتى تحل المشكلة أو تتفاقم . أصبحت القرية فعليا بغير عمدة .

فظهر الخلاف وتفاقم بين المشايخ وعجز كل شيخ عن أن يحقق ارادة عائلته ، فتولى كبير كل بيت من عائلة الدور الذى كان يقوم به الشيخ كحكم في الخلاف بين الاسر . وشاع اختلاف كبار البيوت فاستقل كبير كل اسرة بالتعبير عنها . ولم تلبث الاسر نفسها ، كثير من الاسر ، أن شاع الخلاف بين أفرادها . فاضطربت الحياة فيها اضطرابا شديدا بسبب الجزيرة وصديق محمود حماد .

فقد اتخذ صديق من العمل فى الجزيرة كمورد للاجور وسيلة السيطرة على كثير من شباب القرية ورجالها . فاضت الاجور في ايديهم فجنح الشباب الى الاستئثار بأجورهم دون اسرهم وجنح الرجال الى الاستقلال بأموالهم عن زوجاتهم ، فجنحت العرائس الي الحرص علي مهورهن لانفسهن فلا يبعن "صيغتهن" من الذهب والفضة لشراء بقر كما كن يفعلن من قبل ، فاختفت البقرة كأساس لبناء بيت الزوجية ، فاختفى اللبن والجبن والدهان ، فأصبح على كل زوج ينشيء أسرة أن ينفق من "جيبه" نقدا علي بيته ولو اشترى "القيضى" من السوق. فارتفع ثمن "القيضى" فباعه كثيرون من غير المأجورين ففرغت قبل الأوان الصوامع والحواصل من المصدر الاساسى للغذاء ، فتهافت شباب ورجال وكهول آخرون على طلب العمل في الجزيرة مقابل أجور مضمونة فانخفضت الاجور ، فتنافسوا طلبا للعمل فأصبح منهم العاملون والعاطلون يتبادلون مواقع الشبع والجوع تبعا لاختيار صديق محمود حماد ، وقد أصبح له من كل أجر نصيب مدفوع . ولما كان كل ذلك نقضا لاركان "البيت" فقد كان حديث النساء فجر كل يوم فى اجتماع الموردة . فبدأ خراب البيوت حين بدأ رفض الزوجات مسئولية

إدارة بيوت فارغة من القوت ، فعرفت القرية "الغضب" الطويل الذى ينتهى غالبا بالطلاق. هكذا سقطت القرية رجالا ونساء فى جوف دوامة من الشقاء لا يعرفون منفذا منها الا استرداد الجزيرة ولكنهم لا يعرفون كيف يستربونها فيختلفون في هذا اختلافا ممزقا .

(٦)

وقد أصبحنا نحن الخفراء أكثر حرية في الاختلاط بالناس والمشاركة في مجالسهم والمساهمة في الحديث عن مشكلات الحياة التى يعانونها ونعانيها معهم . وكنا ، بفضل ما تعلمنا أثناء التدريب ، نعرف أن هناك قانونا وانه يساوى بين المواطنين . كما كنا نعرف أن طرح النهر يصبح ملكا لمن التصق بأرضهم وان اغتصاب الارض من مالكها جريمة . وكنا حينئذ "نذاكر" الدروس لنحفظها ونستعين على حفظها بما كنا نحفظه من الجزيرة وتاريخها منذ الغارة، ولكننا لا نتحدث به . استرجعنا كل ما تعلمناه . وخضنا به ، وبمثله ، فى الجدل القائم حول وسيلة استرداد الجزيرة . وكان أقصى ما بحنا به من رأى قربا الى ماكنا نفكر فيه ولا نجرؤ على الحديث عنه هو أن من يسترد ما اغتصب منه لا يرتكب جريمة . بدأت تتكون فى القرية شبكة من الجيل الجديد يعجبهم ما نقول وينقلون عنا ماقلنا الى غيرهم فى مركز تجمعهم "تاية" سطوحى عبدالمنعم عند الصليبة . ولكنهم يتوقفون حيث وقفنا نحن فلا يعرفون وسيلة واضحة محددة لاسترداد الجزيرة . ويسألنا بعضهم مستنكرا ، ألستم أنتم الحكومة ومعكم العمدة ، وحتى لو كان معكم رئيس النقطة ومأمور المركز فلماذا لا تردون الجزيرة الى أصحابها . لا نرد ..

(٧)

ثم عاد الشيخ عباس ولد محمد اسماعيل من مصر وبدأ يتحدث في "منضرته" الى من يحضر أحاديث غريبة في جرأتها عن الملوك والامراء والباشوات والبكوات ، وعن الانبياء والصحابة ، وعن الاغنياء والفقراء وعن "الحكومة والرعية" . يقرأ الجرائد ويحرض الناس على أن يأخذوا حقوقهم بأيديهم وأن يقاوموا الظلم ويروى لهم قصة الشيخ جمال الدين. قال لهم مرة الظالم مأواه جهنم ومعه المظلوم إذا رضى بالظلم . هذا في القرآن . وقرأ أية لا أذكرها . هل تتذكرها ياإمام ؟ قال محمد أحمد معتوق ولد الامام وخليفته ، أتذكرها ولو أنى كنت صغيرا حين سمعتها وأعرفها . إنها قوله تعالى : "الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها أولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا" . صدق الله العظيم .

قال عزيز حسين : تمام . هذه هى الآية التى قرأها الشيخ عباس فى منضرته . لا أنسى حكايتها . فقد جمعنا الشيخ محمود عبداللطيف يومها وحرم علينا الذهاب الى منضرته . قال لنا ان ابن عمته عباس ولد محمد اسماعيل "ثورجى" وربما يكون الخديوى عباس قد أرسله ليحدث فتنة فى البلاد وأمرنا بأن نتحاشاه فتحاشيناه. قامت الحرب وبدأت السلطة "تأخذ الانفار" تصدى الشيخ عباس لحماية البلد من السلطة فأعجب به الشيخ محمود نائب العمدة سرا وقال لنا ان الخديوى عباس الذى كان يعرفه الشيخ عباس قد طرده الانجليز فلا مانع من أن تحضروا مجالسه وتتحدثوا اليه وعنه فيما هو مشغول به من فعل

وحديث. فكنا نذهب مع الذاهبين . وفوجئنا بأن مسألة الجزيرة واغتصابها واستردادها لم تكن خاطرة علي باله . لم ينشغل بها فلم يتحدث عنها قط ولم يتحدث الناس عنها فى مجلسه . كان الناس قد اعتادوا الاستماع اليه ولا يسألونه حديثا .

مع ذلك .

فمن خلال ماكان يقول ويعيد ويزيد عرف الناس في القرية أن ليس أحد من الخفراء أو العمد أو العساكر أو الضباط أو المأمورين أو حتى المديرين ، حكومة . ولا هم كلهم بعضهم مع البعض الآخر ، حكومة ، وانما هم خدم الحكومة في مقابل أجور . أما الحكومة فهى مجموعة قليلة من الباشوات المقيمين في مصر يسمونهم وزراء . هؤلاء الوزراء أنفسهم ليسوا إلا خدما اذلاء للانجليز كشف لهم الصنم ثم حطمه حين كشف حقيقة الحكومة ثم حطم هيبتها. واضحكهم حين قال لهم أن جد السلطان كان بائع دخان مثل محمود أبو الحسن. ثم أنه كان يقرأ على الناس أخبار الحرب فى الجريدة، وكلما قرأ خبرا عن القتال فى دولة يقول للناس أن الوزراء لا يقاتلون ولا يموتون من أجل حماية الأرض أو العرض. الذين يقاتلون ويموتون هم الناس مثلكم . وهم يقاتلون ويموتون من أجل الدفاع عن أرضهم وأعراضهم واولادهم واموالهم . وهذا مايفعله الانجليز فى كل بلد يدخلوها لولا أن يقاتلهم

رجالها أن كانوا رجالا حقا. بمثل هذا الكلام كان يتحدث الشيخ عباس يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر والناس يستمعون ولا يتحدثون فى مجلسه ، ولكن خارجه يتحدثون وينقلون ماحدث الى من لم يسمع الحديث حتى النساء فى البيوت . ويصلون بين مايتحدثون عنه وبين استرداد الجزيرة فتتجه أفكارهم الى التقارب يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر .

لم تزدهم الحرب فقرا على فقر، ولكنها زادت من شعورهم بالفقر حين تجاوزت آثارها الاقتصادية حدود الحاجات المادية الأساسية فأشاعت الإضطراب فى علائقهم الاجتماعية المستقرة فتمردت النساء وخربت البيوت. كان لابد لهم من موارد مالية ليعود إليها الاستقرار فتطلعوا إلى الجزيرة التى خرجت من أحلامهم. اختلفوا أولا فى جدوى ذلك التطلع الذى يناقض واقع خوفهم المزمن من الحكومة، وقد عرفوا أن الحكومة سلطة عليا عليها سلطان هو خليفة الخديوى وليست أفرادا ذوى سلطة ممن كانوا يحسبون. يناقض الولاء الأدبى الموروث لبيت الباشا كما يعرفونه فى عبدالرحمن بك محمود، يناقض الموروث الفقهى الذى كان يردده أمامهم عن طاعة أولى الأمر. فما زالوا مختلفين. اختفت الحكومة فجأة بقيام الثورة. واختفت هيبة بيت الباشا منذ أن قبض على محمد محمود باشا وحبس كما يحبس غيره من الناس فتلاشى الخلاف حول جدوى التطلع إلى استرداد الجزيرة وحلت محله إرادة موحدة على استردادها.

مع ذلك بقي الخلاف قائما حول وسيلة استردادها، لايه
كثير من أهل القرية كيف تسترد الجزيرة، وعند كثير غيرهم
تكون القوة هي الوسيلة الوحيدة. وكلهم بشر جاهلون أو خائ
وهما فريقان من الناس لايعترفون على أنفسهم بما هم ع
فتراهم جميعا نزاعين إلى الإبقاء على الخلاف واللجاجة فيه ا
المجهول أو المعلوم. من يجهل يتعلم من خلال الحوار، أما الخ
فلا يزايله خوفه إلا في جوف كثرة وحدها المصير، وقد تو
الكثرة تدريجيا مصاحبة الحرب التى لا يعلم أهل القرية أسب
إنما أثرت فى الكثرة فوفرت ظرف الوحدة خلال معايشة
القرية يوما بعد يوم لمدة سنين أخبار القتل والقتال وال
العنيف. ثم ما أن انتهت الحرب حتى جاءت أخبار الثورة،
الثورة مصدر للفخار إذ قوتها الضاربة فى الأرض من الفلا
مثل أهل الهمامية. كل هذا أذاب فى أفئدتهم إنكار العنا
استنكاره بل نزع بهم شوق إلى ممارسته كشوق المريض
الاستمتاع بالصحة إذا ماتم الشفاء. وكان شفاؤهم من الد
متوقفا على أن يتوفر لهم من السلاح ماتصل إليهم أخبار
يوم.

وقد حصلوا عليه من حيث لم يحتسبوا.

كيف؟

اسأل نعمان ولد الشيخ عمار زيدان فعنده الجواب.

(٨)

قال نعمان:

كان والدى، عليه رحمة الله، يكره صديق محمود حماد لسبب أصيل يكتمه إلا عنى إذ أنا أكبر أبنائه، حين استقال المرحوم الشيخ محمد إسماعيل، اختارت الحكومة الشيخ محمود عبداللطيف ليخلفه كنائب عمدة إلى أن يولى على القرية عمدة يرشحه المشايخ. اختارته لأنه أكبر المشايخ سنا. لم يكن والدى يرى أن ثمة علاقة تفضيل بين السن وتولى المنصب. كان يرى أن أولى بالفضل أن يكون لشيخ أكبر العائلات مالا وأكثرها رجالا، فكان، يرى أنه أحق بالعمدية منْ غيره. ثم أنه هو وحده الشيخ الذى يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن. مع ذلك، لم يكره الشيخ محمود عبداللطيف. ربما لأنه لم يسع إلى المنصب الذى اختير له، وربما لأن عائلتنا وعائلته من جدين أخين شقيقين وأن كانا أخين غير شقيقين لباقى الجدود، والراجح إن والدى قد رأى «نائب العمدة» شاغلا منصب العمدية مؤقتا إلى أن يعين للقرية عمدة أصيل. لن يكون حينئذ غيره لولا صديق محمود حماد.

علاقته ببيت الباشا الذين يختارون العمد فى كل قرى المركز، وكالته عن بيت الباشا وكالة رسمية، إدارته مزارع بيت الباشا فى الجزيرة، كل ذلك يجعل لصديق عليه درجة، فيضعه منه موضع الغريم الأصيل فهو يكرهه ويخشاه معا، لكنه يكتم كبرياء

ولايتحدث به حياء إلا حين ينفرد بولده الكبير، فكأنه يشكو إليه.

إلى أن جاء يوم.

فوجئت وأنا جالس مع والدى منفردين فى منضرتنا بأن دخل إلينا صديق. السلام عليكم.. رددنا السلام واقفين. صافح والدى فرحب به ودعاه إلى الجلوس بجواره. جلس. هممت بأن أنصرف فإذا بصديق هو الذى يستوقفنى ويدعونى إلى البقاء. التمست رأى والدى بنظرة فأذن لى بإيماءة. فسمعت حديثا عجبا.

قهوة؟

بعد العتاب ياشيخ عمار فقد جئت عاتبا ومعاتبا..

خير إن شاء الله؟..

قال صديق: ياشيخ عمار أنت من أعيان بلدنا المرموقين، ثم أن عائلتك أكبر العائلات فى القرية، ولايخفى علىّ ولا عليك أننى أنتمى إلى بيت قليل الرجال،، فلا يخفى على حكمتك أننى وقد اخترت زوجتى من أكبر عائلات قاو الكبيرة، قد قُبلت لأن أهلها يعرفون أن عائلتكم قد قبلت منذ قديم الزمان تزويج ابنتهم بهية لجدى حماد، وأننا منذئذ نعتبر فرعا من عائلتكم، ولقد دعوت عائلتكم فى شخصكم الكريم لحضور فرح زفافى لتشرفونا وترفعوا رءوسنا أمام عائلة أصهارى الذين حضروا جميعا وكانوا يتوقعون حضوركم، فلماذا قاطعتم الفرح ياشيخ عمار، لا أهمية

عندى لمن لم يحضر من العائلات الأخرى، ولكن عدم حضوركم أنتم أصهارنا منذ الجدود قد أخل بصورتى فى أعين أصهارى الجدد، فما الذى حدث منى يبرر مقاطعتكم فرحى..

قال والدى: يا صديق حدث مالم يحدث..

ماهو؟

لم توجه دعوتك إلا إلى عائلتنا وأولاد عيسى فلم نحضر لا نحن ولا هم، لأنك ياصديق لم توجهها إلى باقى العائلات كما هو متبع فى بلدنا. إن كانت بقية العائلات غير ذات أهمية عندك فهذا شأنك، ولكن المساواة فى التعامل مع العائلات وخاصة فى المجاملات ذات أهمية كبرى بالنسبة لكل العائلات. وقد تحدثت مع الشيخ محمود عبداللطيف عن دعوتك الغريبة واتفقنا على أن حضورنا سيكون موافقة منا على بدعة تفضيل عائلة على عائلة التى ابتدعتها، ولقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار، فلم نحضر لا نحن ولا هم. إن الله لايستحى من الحق.

وجم صديق. فخفف والدي من حدة كلامه وقال باسما: على أى حال مبروك «وعقبال ماتفرح بجواز أولادك». ومد يده مباركا فتصافحا.

قال صديق: الله يبارك فيك و«عقبال أولادك». إنما فقط أريد أن تعرف أنت بالذات أنها ليست غلطتى. إنها غلطة على حامد ولد

عمى الذى عهدت إليه بتوجيه الدعوات إلى كل العائلات.

حصل خير.

لايكون خيرا إلا إذا سامحتنى والمسامح كريم.

وأنت تكرم فى دارنا ياصديق.

هناك أمر آخر أرجو أن يكون عنوان إكرامك لى ألا ترد رجائى فيه.

تفضل..

منذ أن صاهرت أكبر عائلات قاو الكبيرة لاحظت أن قد كثرت السرقات من زراعة القمح، يسرقونه أخضرا ليأكلوه فريكا، ويسرقونه ناضجا قبل أن يحصد. ويسرقونه من الأجران قبل أن يدرس.. ويسرقونه حبا بعد الدراسة.. ويسرقون التبن بعد نقل الحبوب. كما لاحظت أنها كلها سرقات «حسنة» كما نقول، ناس جوعانة تسرق لتأكل ومايسرقون إلا قليلا، لكنها على أى حال سرقة وقد تحريت الأمر فعرفت أن فقراء العائلة الكبيرة التى زوجتنى بنتها عددها كبير. وأن كثيرا منهم يظنون أننى لو أمسكت أحدهم وهو يسرق فسيشفع له عندى أصهارى. فاجترأوا على الزرع ثم تجاوزت جرأتهم حدها فأصبحت استهتارا. والاستهتار باب مفتوح للعدوان. ولما كان الحارسان القادمان من ساحل سليم مشغولين بما كلفا به حصرا وهو حراسة الوابور

والماشية، ولست أريد أن يعرفوا مدى فداحة السرقات حتى لاتنتقل أخبارها إلى بيت الباشا فتنتقص عندهم مما يعتقدون فيّ من هيبة، فإنى فى حاجة إلى «شاب جدع» يتولى حراسة الطرف الجنوبى من الجزيرة، ويختار من يساعده واحدا أو اثنين، سأوفر له ولمن يختار المأوى والسلاح وأجرا مجزيا، ثلاثة جنيهات كل شهر على مدار السنة وجنيهين لكل واحد من مساعديه. على أن يقيموا جميعا فى الجزيرة إقامة دائمة.

ولقد استخرت الله فاخترت أجدع أولاد بلدنا، ولدك نعمان، فأرجو موافقتك إذ جئت إليك مستجيرا من الجيران. وضحك.

قال والدى: سأرد عليك غدا، ومافيه الخير يعمله الله.

قال : مارأيك؟

قلت : لا أقبل أن أكون أجيرا عند رجل تكرهه.

قال: بل تقبل. أننى أكرهه وهو غير صادق فهو غير أمين. لا حاجة بصديق إليك فلست أفضل من كثيرين يتمنون ماهو معروض عليك. إنه يريد أن «يربط» نفسه بعائلتنا وبى عن طريقك، كما ربط نفسه بأكبر عائلات قاو عن طريق الزواج بعانس شمطاء. إنه يعد من الآن مسوغات تعيينه عمدة ومن بينها صلاته الاجتماعية بالعائلات. ومع ذلك تقبل. بل تقترب منه أو تلتحم. لأنك حينئذ ستعرف كيف يفكر وماذا يدبر وتحيط بأسرار علاقته المريبة ببيت الباشا، وقد يكون كل هذا مفيدا فى يوم لا نعرف متى

يجيء. وما نعرفه اليوم هو أنك لاتستطيع أن تنقل «تليس القيضي» من مكانها إلا إذا احتضنتها ورفعتها منه ولاتستطيع أن تنحر الذبيحة وأنت بعيدا عنها. ثم أنه منذ أن قامت الحرب وارتفعت أسعار كل شيء اختلت الأمور وأصبحنا نبيع قدرا من المحصول بدلا من إدخاره للغذاء. وأصبحت الزوجات يحتفظن بالمهور ذهبا وفضة. فما ستقبضه أجرا سيعجل بزواجك إن شاء الله، وهو بعد أكثر من مرتب وكيل شيخ الخفراء، تقبل إذن، وتحذر وعلى بركة الله..

هذا ما أتذكر مما ذكر، ذلك لأنه قال كلاما كثيرا تلقيته بعيون مفتوحة وآذان مغلقة بحلم اقتناء سلاح منذ أن ذكر صديق السلاح ومنذ أن قال والدي: إقبل.

انتقلت إلى الجزيرة ورابطت في مربض في جنوبها، لحق بي ولدا عمي الزهري عبدالله وأخوه محمد عبدالله، ثم فكري عبدالنبي بعد مقتل محمد ظرظور، لم يمدنا صديق بسلاح إلا بعد أن انضم إلينا فكري عبدالنبي. كان ذلك بعد زراعة القمح عام الفيضان الذي أغرق القيضي، أمدنا صديق بأربعة بنادق رمنجتون وذخائرها. عرفنا أنه اشتراها من فكري عبدالنبي.

ثم كثر السلاح..

فقد كانت الجزيرة طوال سنوات الحرب تزرع قمحا. يعبأ القمح في أكياس يسع كل منها أردبا، ويجمع التبن في «بالات»

ضخمة مغطاة بالخيش ومحزمة بالحبال. فى وقت معلوم تحضر فى البحر صنادل تجرها غلايين، تحمل القمح والتبن وتتجه شمالا، يحرس كل صندل منها أربعة جنود وضابط من الانجليز، استمر هذا سنة وراء سنة إلى أن قالوا انتهت الحرب. بعد أن قالوا بشهر جاء خبر هز المركز كله ولم يكن من الممكن أن نصدقه لولا أن بيت الباشا كلهم، كبيرهم وصغيرهم، وصديق، وخفراء الوابور قد غادروا الجزيرة وساحل سليم إلى مصر. فقد قيل أن الإنجليز قبضوا على محمد باشا محمود ورحلوه إلى بلد بعيدة تدعى مالطة وحبسوه هناك. فكرى عبدالنبى أكبرنا سنا تولى الرياسة فى الجزيرة وباشرنا الزراعة بعد أن استأجرنا «أسطى» من طما لتشغيل الوابور. فلما اقترب الحصاد احترنا فيما نفعل بالقمح والتبن، إذ لم يكن من المتوقع أن الانجليز الذين قبضوا على محمد باشا وحبسوه سيعودون إلى شراء القمح والتبن من أخيه عبدالرحمن بك كما كانوا يفعلون من قبل.

قال فكرى عبدالنبى ، ننتظر ونرى.. انتظرنا.

باع فكرى عبدالنبى من المواشى فى سوق طما ما وفر أجور العاملين فى الحصاد والدراسة والأكياس والتعبئة، لم نقبض نحن أجورنا، قال ننتظر ونرى.. انتظرنا.

فى موعد كل عام جاءت الصنادل وحراسها الانجليز. لم نعرف ماذا نفعل وصديق غير موجود. قال لنا ريس الصندل أن الانجليز

يقولون أن وكيل دائرة بيت الباشا منتظر وصول الغلال والتبن فى أسيوط، قلنا نذهب معهم إلى أسيوط لنتأكد مما يقولون. قالوا واحدا فقط. قال فكرى عبدالنبى أذهب أنت معهم وستجدنى قد سبقتكم بالقطار. فقابلنى فى المحطة، ذهبت بدون سلاح. فقد كانت تعليمات صديق أن نخفى السلاح كلما حضر الانجليز، وصلنا إلى أسيوط بعد المغرب. رسونا قبلى «الحَمَرَة». غادرنا الانجليز على أن يعودوا إلينا فى الصباح، قبل أن تمضى ساعة، أى قبل صلاة العشاء، تحول الليل فى أسيوط إلى نهار، حريق فظيع امتدت ألسنة لهبه إلى السماء فأنارت الأرض والسماء، قلت أذهب لأستطلع الخبر. ما أن اقتربت من الحمرة حتى رأيتها محاصرة، أحاط بها الانجليز. آلاف من الانجليز. يقبضون على الناس، كل الناس كبارا وصغارا، ويرصونهم فى صفوف طويلة تبدأ من النهر حتى الحريق. تتبادل أيديهم جرادل الماء وتنتقل من خلالها حتى تصل إلى النار ثم تعود من يد إلى يد لتمتلأ من جديد، الناس يصرخون والانجليز يضيحون والرصاص يدوى، فزعت فهربت جريا مع الجارين بعيدا عن الحمرة ونارها، وجدتنى مع عدد كبير من الناس يتزاحمون على دخول مركز البوليس القريب من الحمرة، زاحمت ودخلت، امتلأ المركز أناسا يتساءلون. عرفنا أن جبالا من التبن كان الانجليز يخزنونها قريبا من الحمرة إلى أن تنقلها القطارات قد احترقت «بفعل فاعل». طلع علينا

المأمور ونحن وقوف في الحوش، هالني أنه لم يكن مهتما بل كان مبتسما.

لا أنسى طلعته وهيبته وابتسامته، ولا أنسى اسمه.

رفع يديه فتوقفنا عن الهمهمة. قال: يا إخواني. ما بالكم هلعون. حريق مثل كل الحرائق اشتعل في تبن مثل كل التبن. فما بالكم هلعون، التبن ليس تبننا بل سرقه الانجليز من إخواننا الفلاحين، فما بالكم هلعون، إن يكون صوت رصاص الانجليز فإن رصاص الانجليز يدوى في مصر المحروسة منذ شهور. فما بالكم هلعون، إن كنتم تخافون الموت فقد قال الله تعالى لأفضل خلق الله محمد رسوله ونبيه «إنك ميت وإنهم ميتون» فما بالكم هلعون، إن يكن منكم من يأسى على أن تلك خسارة تصيب بلدنا مصر، فمصر لم تعد بلدنا منذ أن استولى عليها الانجليز، وأني لناقل إلي أمرا تلقيته إن كنتم لاتصدقون، يقتل بالرصاص عمدا من ينتقل من قرية إلى قرية ابتداء من مغرب هذا اليوم إلى أن يسمح لكم الانجليز بالانتقال في بلدكم. على كل منكم إذن أن ينصرف فورا إلى بيته، انصرفوا سريعا وفورا، انطلق الناس يجرون إلى منازلهم حتى خلوا من المركز وبقيت أنا لا أعرف إلى أين أذهب، استدعاني محمد بك كامل وقال لى برقة لماذا لم تنصرف فقلت أنا لا أعرف إلى أين أذهب وحكيت له حكايتي، قال هل تعرف كيف تنظف الخيول، قلت أعرف، قال فأنت معين منذ اليوم للمساعدة

فى تنظيف خيول المركز حتى يأتينا فرج الله.

قضيت الليلة مع الشاويش النوباتشى سمعان بخيت الذى قدم لى، الله يستره، عشاء وشايا، قلت له ما الحكاية يا شاويش، قال لقد قامت الثورة فى مصر وامتدت إلى المديريات والمراكز والبنادر والقرى، وسقط كثيرون قتلى مصريون وانجليز، وربنا يستر، والسبب؟ قضى الليل يحكى لى أسبابا لم أفهم أكثرها ولكنى فهمت أنها مثل ما قال: «جاء ضيف غريب وأنت فى الغيط وطلب إليك أن تجيره مؤقتا للضرورة، فأقام عندك إلى أن أصبح آمنا. قلت له «تفضل من غير مطرود» فقال بل الأرض أرضى فماذا تفعل؟ قلت بحماس شديد: «يوه أندب رصاصه فى عينه. دى الأرض زى العرض». قال هذه هى الحكاية. أنت المصرى ومصر أرضك وجاء الانجليز يحتمون من الحرب، انتهت الحرب، قال لهم سعد باشا «تفضلوا من غير مطرود» قالوا بل مصر لنا، فقام المصريون يقاتلونهم فى كل مكان فهل تحب تشترك فى القتال.

قلت طبعا.. ألم أقل لك أن الأرض مثل العرض.

قال سأقدمك غدا إلى البك المأمور.

فى صباح اليوم التالى أدخلنى إلى حجرة المأمور وتركنى وخرج بدون كلام.

قال لى محمد بك كامل هل أنت متزوج؟. قلت لا. هل لك أخوة، قلت أربعة. قال: هل تريد أن تكفر عن ذنبك؟ قلت يابك أنا لم

أرتكب ذنبا. قال: أليس ذنبا أن تقدم خيرات البلد إلى الانجليز. قلت: أنا لم أقدم إليهم شيئا. إنها أرض الحكومة وقمح عبدالرحمن بك محمود. قال: لو لم تكن أنت وباقي الفلاحين قد زرعتم الأرض هل كان عبدالرحمن محمود يزرعها؟. قلت لا. هل كان الانجليز يحصلون على خيراتها؟. قلت، لا تؤخذني يا بك الأرض أرض الحكومة. قال أجلس. أغلق الباب واجلس. أغلقت الباب وبقيت واقفا، قال اجلس يا نعمان. قلت العفو يابك. نهرني وقال اجلس فجلست. قال مبتسما من الذي قال لك أن الأرض أرض الحكومة. قلت الحكومة. قال طيب يا نعمان افترض أنه لاتوجد حكومة فلمن تكون الأرض؟ قلت لأهل البلد. قال عظيم، هل تعرف من هو رئيس الحكومة، قلت لا... ضحك ثم قال: آه نسيت أن أسألك عما إذا كنت تقرأ الجرائد. قلت أني لا أقرأ ولا أكتب مع أن والدي يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن. أني أقيم منذ سنين في الجزيرة ولا أغادرها فلا أعرف مايدور في الدنيا. قال رئيس الحكومة يا نعمان اسمه حسين رشدي باشا هل سمعت عنه. قلت لا. قال استقال . استعفى. فلم تعد هناك حكومة في مصر. قلت بلهفة فرحة الحمد لله يابك. قال على ماذا تحمده. قلت الحكومة غارت وكبير بيت الباشا محمد باشا محمود محبوس في آخر الدنيا، وأخوه سافر إليه، يبقى خلاص والحمد لله. قال: خلاص من ماذا يا نعمان. قلت خلاص من الذين أخذوا الجزيرة من بلدنا

وحرموا أهلها من خيرها. والله لو كان أحد قد قال لي أنه لاتوجد حكومة لكنت وزعت المحصول على أهالي البلد. «لكن ماحدش قاللى». قال: لا يا نعمان لن تعود إليكم الجزيرة إلا بعد طرد الانجليز لأنها جزء من أرض مصر ومصر كلها تحت يد الانجليز، فماذا تقول. قلت، يقال أن رجلا اسمه سعد باشا يقاتل الانجليز ليطردهم من مصر. قال هذا صحيح ومعه الشعب كله. قلت وهل إذا انتصر سعد زغلول باشا وطرد الانجليز من مصر تعود الجزيرة إلى الهمامية، قال إن شاء الله، المهم الآن طرد الانجليز. قلت خلاص. قال ماذا تريد أن تقول، قلت أنا وبلدنا كلها مع سعد زغلول باشا، قال ما الذى تستطيع أنت أن تفعله. قلت ماتأمر به يا بك. قال عظيم. انتظر فى حجرة السلاحليك إلى أن أدعوك.

بعد ثلاثة أيام ألبسنى الشويش سمعان بخيت بدلة عسكرى قديمة من غير طربوش وأدخلنى فى جوف «البوكس فورد» حيث وجدت ثلاثة آخرين لم أتبين وجوههم بسبب الظلام. غلق السائق الباب الخلفى وسار بنا البوكس حتى وقف فى حارة ضيقة ومظلمة لا أعرفها. جاء السائق مسرعا وأنزلنا مسرعا، وفتح باب الحديقة مسرعا، ودفع بنا إلى داخله ثم غلقه وغادر المكان مسرعا، خرج إلينا من بين الشجر شخص يحمل فانوسا باهت الضوء. قادنا على ممر قصير انتهى بنا إلى باب من حديد. أدخلنا منه وصعد بنا سلما ضيقا انتهى إلى باب من خشب فتحه، ودخل أمامنا

فدخلنا إلى حجرة مضيئة مليئة بالحلل والأطباق «وبوابير» الجاز، قال لنا انتظروا هنا إلى أن تتناولوا العشاء وغادر المطبخ إلى داخل الدار. قدم شخص آخر من باب جانبى فقدم إلينا طبيخا وخبزا ولحما وأرزا وشايا بدون أن ينطق كلمة أو يسألنا سؤالا ثم انصرف. عاد إلينا الذى قادنا فى الحديقة من الباب الذى خرج منه وقال اتفضلوا الباشا منتظركم. دخلنا إلى حجرة كبيرة مليئة بالمقاعد الوثيرة مضاءة بكلوب قوى النور. الباشا على أحد المقاعد وأمامه سبعة أشخاص آخرون جالسون على السجاجيد. لمحت بينهم فكرى عبدالنبى فأسرعت إلى الجلوس بجواره، أخيرا شعرت بالاطمئنان. هممت بأن أسأله همسا فأشار بأصبعه أن أسكت. سكت. كلهم ساكتون. بعد وقت قصير دخل إلينا من باب كبير محمد بك كامل، قام الباشا ورحب به وتعانقا، تأملنا محمد بك وحين وقعت عينه علىّ ابتسم. قام فجأة وهمس للباشا بما لم أسمعه فقال له تفضل وأشار إلى باب حجرة جانبية، جاء الذى قادنا فى الحديقة وقال للجالسين تفضلوا وسبقهم إلى الباب الذى دخله محمد بك. هممت بأن أتبع الاخرين فشدنى فكرى عبدالنبى فبقيت جالسا بجواره. صعد الباشا سلما دائريا عريضا إلى الدور العلوى. قبل أن يغيب عن نظرى حضر الذى قادنا فى الحديقة قادما من باب المطبخ ومعه الذى قدم لنا العشاء يحمل كل منهما خمس بنادق وأكياس ذخائر ودخلا بما حملا الحجرة التى

كان قد دخلها محمد بك ومن معه. بعد نحو ساعتين استدعانا محمد بك، أنا وفكرى عبدالنبى، فإذا بى أجد الغرفة خالية إلا منه. اختفى الرجال واختفت الأسلحة، أبوابها كثيرة، خرجوا من أحد الأبواب.

قال محمد بك لمن قادنا فى الحديقة يا مقدس وهيب أطلب لنا ثلاثة أكواب شاى. جاء الشاى وشربناه. قال محمد بك استمعا إلىّ جيدا. غدا. الساعة السابعة صباحا، سيمر البوكس خلف السراى ويقف عند الباب الذى دخلت منه يانعمان. تركبا فيه. ستجدان بداخله أحد العساكر. سيقيد أيديكما بكلابشات، وسيحملكما إلى البدارى، ومعه استمارة ترحيلكما إلى محكمة البدارى حتى إذا تعرض البوكس لتفتيش الانجليز فى الطريق لايقبضون عليكما، ولكنه قبل أن يصل إلى البدارى سيفك قيدكما ويترككما بجوار حديقة «الزوايدة» التى لا سور لها، وعليكما التسلل والهرب إلى بلدكما. سأترككما الآن وسيحضر إليكما من يوقظكما الساعة السادسة صباحا.

الباقى فكرى عبدالنبى يعرفه. السلام عليكم. نهض فجأة وبقينا وحيدين. أنا مذهول وفكرى عبدالنبى يتأملنى ويضحك ويضحك ضحكات مكتومة.

ما الحكاية يا فكرى ؟

ضحك وقال نم وسأحكى لك كل شىء غدا. فى البوكس..

قلت منفعلا: عليَّ الطلاق إذا لم تحك لى الآن. قال: هل تزوجت من أسيوط لقد افترقنا وأنت أعزب. قلت ضاحكا برغمي على الطلاق ممن سأتزوجها. قال فكرى: أهدأ وسأحكى لك.

(٩)

ركبت من طما قطار الليل القادم من قبلي على أمل أن أسبقك ونلتقى في محطة أسيوط صباحا كما اتفقنا. حين اقتربنا من أسيوط رأينا النار مشتعلة فيها غريبى الحمرة، وعندما وصلنا إلى المحطة وجدناها شعلة نار فلم يتوقف القطار واستمر فى طريقه بأقصى سرعة حتى اقترب من ديروط. فرمل فجأة حتى أن الركاب وقعوا على الأرض. ذهبت مع بعض الراكبين إلى سائق القطار أو الكمسارى، من نجده، لنستطلع الأمر. اعترضنا نحو عشرة من الانجليز كانوا يركبون معا عربة خاصة. نزلنا من القطار وعدونا نحو سائقه. قال لنا أن القضبان قد انتزعت. بينما كنا نتحدث اجتمع كثير من الركاب، وحضر ثلاثة من الانجليز. تحدثوا بغضب شديد إلى سائق القطار، لا أعرف ماذا قال لهم ولكنى شاهدت واحدا منهم يطلق عليه الرصاص. فهجم الواقفون على الانجليز وذبحوهم، وهموا بأن يذهبوا إلى من بقى من الانجليز فى العربة فقلت لهم لاتفعلوا. ننتظر إلى أن يحضروا واحدا واحدا أو اثنين اثنين ليستطلعوا أخبار زملائهم، وهذا ماحدث. قتلنا واحدا، ثم اثنين، ثم لم ننتظر. هاجم الرجال عربة القطار فوجدوا الباقين

منتظرين فقتلوهم برصاص بنادق من سبقوهم وبالسكاكين. جمعنا الجثث وأركبناها القطار ووضعناها عارية في العربة. أعجبتني بندقية أحد القتلى أولا فاشتركت بها مع من قتل الأخيرين. عدت جريا على الطريق إلى أسيوط. ما أن غادرت القطار حتى فوجئت باثنين من الانجليز هاربين. لا أعرف أين كانوا أو من أين أتوا. رأوني ورأيتهم إذ تقابلنا وجها لوجه. أحدهما يحمل طبنجة والاخر لايحمل سلاحا. قبل أن يرفع يده بالطبنجة كنت قد أطلقت عليه رصاصة أصابته في ذراعه، انشغل رفيقه به وجريت أنا عائدا، قبل الفجر كنت قد وصلت إلى الترعة الإبراهيمية. دفنت البندقية في جسرها، وخلعت ملابسي، رفعتها بذراع وعديت الترعة بالذراع الآخر. لبست «هدومي» وتقدمت مشيا إلى المدينة، حين اقتربت من المستشفى الأميرى وجدته محاصرا بالانجليز. فاتجهت رأسا إلى الكنيسة القريبة منه. وجدتها مليئة بالناس. منهم قساوسة ومشايخ معممون وتلاميذ كثير يهتفون باسم سعد باشا، بقيت معهم حتى هدأت الأمور ظهر اليوم التالي. تسللت ذاهبا إلى سراى بيت ويصا. كنت قد جئت إليها مع المرحوم محمد ظرظور قبل أن يقتل. عرفني ويصا بك واستقبلني وتحدث معي عن حديقته وعرض عليَّ حراستها، بعد أن سمعت حكايته سمع حكايتي وقال لي لاتغادر هذا المكان قبل أن أقول لك. في الظهر ركبت الكمبيل الملاكي وراء السواق. السواق

رخى ستائر على شبابيك الكمبيل. قلت للسائق إلى أين يابيه. قال ستعرف. دخل بالسيارة فى حديقة سراية جورج بك خياط، هذه التى نحن فيها وأنزلنى ويسلمنى لأحد الخدم الذى صعد بى السلاملك، فى المساء حضر أشخاص لا أعرفهم وانتظروا حتى حضر البك المأمور، كون منهم فرقا، كل فرقة من ثلاثة، وأمدهم بالسلاح، وطلب منهم الانتشار فى شوارع أسيوط وحواريها ومهاجمة الدوريات الانجليزية والاستيلاء على سلاحها والعودة بها إلى المركز فرادى قبل الفجر ووضعها فى البوكس الذى سيكون واقفا أمام مدخل المركز، ثم الانصراف والالتقاء فى هذه السراى بعد ثلاثة أيام.

بعد أن انصرفوا بدأ التحقيق معى. سألنى ألف سؤال ليعرف ويتأكد من شىء واحد. هل يكون أحد الانجليز من الذين واجهتهما قد تحقق من شخصيتى، وهل إذا قابلنى يتعرف على، وهل إذا لم يقابلنى يستطيع أن يذكر أوصافى، وهل وهل. قلت إجابة على كل الأسئلة إننى لا أعرف فقد كان الوقت ليلا ولم يكن ضوء القمر كافيا، قال انتظر إذن إلى أن ندبر لك وسيلة تعود بها إلى بلدك سالما.

وقد سمعت أنت الوسيلة.

قلت ما شاء الله، ونخرج من المولد بلا حمص.

قال ماذا تقصد؟

قلت : نريد سلاحا.

قال. لاتعجل. انتظر وسترى فترضى.

عدنا إلى البدارى مكبلين، وعدنا إلى الهمامية سائرين على الأقدام بمحاذاة شط البحر إلى أن وصلنا إلى الجزيرة. بعد أسبوع حضر صديق. لم يسأل عن القمح أو التبن. سألناه نحن. قال ليس هذا من شأنكم. الثمن يدفع عادة فى شارع الفلكى وقد دفع. تحاسبنا وأخذنا أجورنا. قال فكرى عبدالنبى استأذن أنا ياصديق فقد رزقنى الله عملا آخر. قال أى عمل وأين. قال: لقد عيننى ويصا بك خفيرا لحراسة حديقته فى الريانية حينما علم أننى صديق المرحوم محمد ظرظور، قال غاضبا أنت حر، فقط لاتنسى أنك أنت الذى اخترت مفارقتى حين يأتى اليوم الذى تندم فيه على ما اخترت.

تركنا فكرى عبدالنبى بعد أن اتفق معى على أن أزوره فى الريانة إذا أرسل إلىَّ رسولا. بعد نحو شهر أرسل إلىَّ والدى من يبلغنى أنه يريد أن أذهب إليه. ذهبت. دخلت الدار. خير. قال خير إن شاء الله. جاء رسول من عند فكرى عبدالنبى يقول إنه يريد أن يراك، توجهت ساعتها إلى الريانية على أن أعود قبل المغرب، قبل أن يمنع الانتقال بين القرى، ذهبت فرأيت فذهلت، قال فكرى عبدالنبى اختر لنفسك أية قطعة تريد فقد وعدتك بالسلاح وها هو أمامك، الدار التى كان يسكنها محمد ظرظور وسكنها فكرى

عبدالنبى مليئة بالصوامع، كانت امرأة محمد ظرظور تهوى وتتقن إنشاءها. الآن تحولت الصوامع إلى مخازن أسلحة من كل نوع وعلى أن اختار. اخترت قطعتين. قال فكرى عبدالنبى قطعة واحدة فقط إلا إذا كان السلاح مطلوبا لأمر محدد. إنه أمانة. استلمته بالعدد واستأذنت فى قطعة لك وقد أرده بالعدد لمن أنا مسئول أمامه.

قلت من هو يافكرى؟

قال لم تسأل. ما فائدة السؤال. لو سألتك أو سألك أحد غيرى عما جرى لنا فى أسيوط، ومن آوانا، ومن كلبشنا، ومن أوصلنا إلى البدارى فهل تقول. قلت لا والله. وقد سألنى والدى عن سر غيابى فقلت له أننى مرضت فى أسيوط. قال ممتعضا: «وين فى سيوط، فى الوسعة، غور من وشى». فغرت. ضحكا. قال فكرى عبدالنبى: إننا نحضر ليوم كبير وإلا فلماذا استخدمنى ويصا بك، إنه رجل عظيم من رجال سعد باشا وقد اعتاد أن يحضر إلىّ هنا كل أسبوع بالكمبيل وفيه سلاح.

قلت ألا يخاف أن يمسكه الانجليز؟

قال لا يستطيع الانجليز مساس شعرة من رأسه.

لماذا يافكرى من هو.. ملك؟

قال: لا. بس قنصلاتو أمريكانى.. حماية أمريكانى.

قلت: سبحان الله. ربنا قادر علي كل شيء. هل سيساعدنا فى استرداد الجزيرة.

قال: بعد الثورة لن يسترد أحد السلاح منا فنسترد جزيرتنا بإذن الله إذا لم يردوها لنا. فقلت سمعت فى أسيوط أن قد سقطت حكومة الباشوات التى يرأسها رشدى باشا. وغدا تنتصر الثورة وتقوم حكومة الفلاحين.

قلنا معا. آمين....

(١٠)

قال الشيخ عباس كانت تلك أسوأ أيام حياتى، فعلى الطريق إلى الهمامية، وأنا غارق فى مستنقع الحزن على يونس عبدالله، عاجز عن انقاذه، تحدث عزيز حسين حديثا قائدا، آمرا، موجها، مؤنبا، ساخرا، ولكنه صادق فى دلالاته جميعا. كانت كلماته ونبرات صوته كأبر مسنونات يخرق بها قربة منتفخة فتفرغ محتواها الكريه. حتى إذا ما داهمنى بأننى لا أعرف شيئا عن الجزيرة، ولم أهتم بأن أعرف شيئا عنها وهى فردوس القرية المفقود، بالرغم مما أدعيه غرورا من علم بما ينفع الناس وما أظهره اصطناعا من اهتمام بهم، بدأت أشعر بأننى أتلاشى، وتمنيت لو أنه رحمنى فتوقف عن الحديث. ولقد كدت أرجوه لولا

ما ربتنى عليه القرية من أن استجداء الرحمة من غير الخالق هو قاع هاوية الذل وشرك بالله. ولقد أصبح حديثه ساخرا كما لو كان يستمتع به حين قال أن والدى قد باع أغلب ما كان يملك واشترى الجزيرة فاستردها لأهل القرية بعد عودتهم من الشتات وإن فى بيتكم ذاته حجة البيع والشراء تستطيع أن تقرأها لو استبدلت بقراءة الصحف قراءة أوراق والدك.

قلت لوالدتى فور عودتى بصوت واهن متوتر استنكرته أريد أن أرى أوراق والدى. فدست يدها المعروقة داخل «السحارة» العتيقة وأخرجت أنبوبة غليظة من الصفيح الصدىء ودفعتها إلى بغضب صامت. حملتها مهرولا بخطى مضطربة إلىّ «منضرتى» وغلقت على الباب ونبشت أوراقها وأنا أرتجف أو أكاد. كنت فى أعماقى أتمنى ألا أجدها لأجد نفسى الضائعة.

وجدتها..

ورقة كالحة، ممزقة الحوافى، عطنة الريح، عليها كتابة تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم [illegible] شوال سنة ١٢٨٦ [illegible]

[illegible] الشيخ محمد اسماعيل جوده [illegible]

[illegible] المشهور [illegible]

وبحضور الشيخ حسن اسماعيل [illegible]

قد قبض واستلم محمد اغا [illegible]

[illegible] من الشيخ اسماعيل جوده [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] المشهور [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] تحريرا [illegible]

[illegible]

حسن اسماعيل

محمد اغا [illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

«إنه فى يوم ٧ شوال سنة ١٢٨٦ بعد هجرة الرسول عليه السلام بدار الشيخ محمد إسماعيل جودة شيخ مشايخ بنزلة همام بك المشهورة باسم الشيخ جابر قسم صدفا أسيوط «كلمة غير مقروءة» وبوجود الشيخ حسن إسماعيل ووجود معوض مسعود قد قبض واستلم محمد أغا شماشرجى لطيف باشا المقيم الآن فى نزلة همام بك من الشيخ محمد إسماعيل جودة مبلغ قدره ستين جنيه بنتو ومائة جنيه فرنكي وقد باع له ستون فدانا والمنزل الذى بها والشجرات الكائنة فى قبالة الدير فى زمام العزبة المنوه عنها المشهورة بإنعام فخامة لطيف باشا حضرتلرى وقد قبض المبلغ بالتمام والكمال وأصبح البيع باتا فروغا ونزولا لا رجوع فيه والمشترى استلم الأطيان وعليه دفع أموال الدوان. وقد تحرر هذا للعمل بموجبه عند اللزوم».

شاهد بذلك	شاهد بذلك	المقر بما فيه
حسن اسماعيل	معوض مسعود	
« ختم »	« ختم »	كاتبه
		محمد أغا شمشرجى

قرأتها عدة مرات حتى شعرت بعرق بارد يتصبب على بدنى، وجفاف فى حلقى، وكأن «الكاكولة» قد أطبقت على صدرى فضاق

نفسى لولا أننى خلعتها، ثم تراخت يداى حتى سقطت الورقة فانتبهت مذعورا وأعدتها إلىّ ثم دسستها بين أوراق المصحف وأعدته إلى مكانه بين الكتب ونمت نوما أقرب إلى الإغماء.

ولقد عرفت حين أفقت بعد نحو أربعين يوما أننى قد مرضت مرضا كاد يفقد أهلى الأمل فى الشفاء. وأنه كانت نوبات متصلة من الإغماء كان جسمى خلالها يكاد يحترق من الحمى، وأنهم قد عالجونى بكل مايعرفونه من الأعشاب، وحمامات الخل، وعصير الليمون، وأحجبة شفاء كتبها مشايخ مشهورون فى القرى القريبة والبعيدة، وأن والدتى التى نقلت مقرها إلى منضرتى قد أصرت على ألا أنتقل أو أنقل من دارى لألتمس الشفاء فى أسيوط عند الأطباء، فهى تحس بقلبها، وقلب الأم لايخطىء، أننى لو انتقلت من هذه الدار سأنتقل إلى الدار الآخرة خاصة أنها لن تكون معى لضعفها كيفما يكون الانتقال، وقيل لى أن أهل القرية كانوا يسألون عنى ولايزوروننى لأن أمى قد منعت الزوار من غير بيت إسماعيل حتى لايقول أهل القرية أننى جننت، ذلك لأننى قضيت أغلب أيام مرضى الطويلة لا أكف عن «الهلوسة» سرا أو جهرا وأننى كنت أردد كلمات لايجوز أن يسمعها غير أمى أو أخوتى الذين صبروا علىّ صبر أيوب..

إلى أن زغردت نعيمة..

قالت والدته بخاتى بنت عبداللطيف لقد صعب علىّ أن يرى

أحد ولدى فيما كان عليه من مرض وجنون فانتقلت إلى «مطرحه» لأرعاه بنفسى ومنعت زيارته، منعت زوجتى أخويه، وأعمامه وأولادهم وأولاد خاله، كل الناس منعتهم سترا لمصيبته، مرسى وإسماعيل فقط كانا يدخلان عليه كل يوم ينظران إليه من بعيد ويسألانه عن حاله ثم ينصرفان وهما يبكيان. لا. مرسى هو الذى كان يبكى، ولما تفاقمت حالته وعجزت منفردة عن أن أقضى ماهو فى حاجة إليه أرسلت إلى نعيمة بنت جاد الكريم التى كنت قد آويتها وداويتها يوم أن عادت من الريانية بعد مقتل زوجها، فحضرت فاتفقت معها على أن تبقى معى ونرعى معا ولدى عباس وتكتم سر مرضه، وافقت، الله يسترها، وظلت مقيمة تخدمه وتخدمنى ورسول بينى وبين صفية وبخيتة طوال الشهر الأخير، فلما بدأ يسترد عافيته اتفقت معها على أنه حين يفيق ويقعد ويأكل ويتكلم تخرج من المنضرة إلى الحوش وتزغرد زغرودة تسمعها كل البلد، فوعدت وأوفت فعرف هل البلد أن عباس بخير وتوافد الزائرون.

كان أول الوافدين مرسى واسماعيل وعمه الحاج مشهور وعمه عبدالرحيم أحمد وولد خاله أحمد عبداللطيف فتركت لهم المنضرة وعدت إلى «مطرحى» داخل الدار تساندنى نعيمة فزغردت صفية وبخيتة ونعيمة مرة أخرى.

(١١)

بعد نحو أسبوع زارني الشيخ محمود عبد اللطيف نائب العمدة والشيخ عمار زيدان وأحمد عبد اللطيف وعزيز حسين وسيد عبد النبى وعمى مشهور وعمى عبد الرحيم أحمد معا ، قادمين من المسجد بعد صلاة الجمعة، فاستقبلهم مرسى أخي وقد وجدني جالسا وبخير، ذكرت لهم طرفا مما كنت أعانيه واذكره من كراهية الأكل وشعور كاذب بانتفاخ فى البطن والكوابيس المتكررة فحمدوا الله على أنني نجوت من الحمى ، وتطوع عزيز حسين فقال أن سبب كل هذا ضربة شمس تحولت الى حمى لأن الشيخ عباس كان قد نزع العمامة طوال المشوار من البدارى والشمس حارقة ولما هموا بالانصراف قلت لعمى مشهور أريد أن أتحدث معك يا عم وأنت كبير عائلتنا وفى حضور كبار العائلات. أريد أن أعرف منك ومن كل من يتذكر ماهى حكاية الجزيرة «من طقطق لسلاموا عليكم » صمتوا جميعا وهم يتبادلون النظرات . وقام الشيخ محمود عبد اللطيف وقال مادام الأمر كذلك فانصرف أنا لانني لا أعرف شيئا عن حكاية الجزيرة ثم خرج . خرج على أثره عزيز حسن . قال عمى مشهور ممتعضا : أولا تعرف يا ولدى؟ كيف إذن عرفت أباك وأمك وأخوتك وعائلتك وبلدك .. قال سيد عبد النبى لاتقسو عليه يا مشهور لقد عاش مغتربا فى مصر . قلت خجلا : أريد فقط أن أعرف فقد وجدت بين أوراق والدى «حجة» شراء الجزيرة فكيف بدأت الحكاية من البداية أى من قبل الغارة .

تحدث عمى مشهور وعمى عبد الرحيم أحمد وروى أحمد عبد اللطيف ما سمعه من أخيه ومن والده . وأسهب سيد عبد النبى أكبرهم

سنا فى سرد تفاصيل أحداث الغارة . وختم الشيخ عمار زيدان الحديث بما حدث حين زيارتهم الساحل ومقابلة عبد الرحمن بك محمود وأكد أن عبد الرحمن بك كان سيترك الجزيرة لأهلها لولا صديق حماد. وهكذا عرفت قصة الجزيرة ، لما أن وقفوا لينصرفوا قال لى عمى مشهور بحدة : لكن يا ابن أخى ما فائدة هذه الحكاية . الجزيرة أخذتها الحكومة وأعطتها لمن اعطتها . ولا ننسى نحن العواجيز ما فعلت بنا الحكومة حين عارضناها . وقد سمعت من عمك سيد عبد النبى بعض ما حدث من بهدلة ، فأرجو ألا تتهور وتكتب عرائض ضد الحكومة فتعرضنا لما لا طاقة لنا به ، ثم ساخرا ، أم أنك تعرف طريقا سحريا لتأخذ الجزيرة فى غفلة من الحكومة . قلت أردت فقط أن أعرف المشكلة ولكنى لا أعرف كيف يكون حلها فلا تغضب يا عم . قال لست غاضبا ولكنى خائف عليك. نهض مرسى فجأة وواجهنا قائلا : أنا أعرف . نظر اليه الجميع وقال عمى عبد الرحيم أحمد ماذا تعرف يا مرسى وضحك ساخرا وشاركه إسماعيل . قال مرسى بحزم قاطع . ألستم تقولون أن الحكومة أخذت الجزيرة . ثم بجدية واثقة : «يبقى مافيش طريقة غير أننا ناخد الحكومة فترجع لنا الجزيرة » تحول الضحك الى قهقهة وانصرفوا جميعا بينما بقى مرسى واقفا منفعلا غاضبا من أن أحدا لم يفهم ما قال :

(١٢)

فى مكتب الاستاذ أبو شقة . أصبحت لى ، أخيرا ، قضية هى ذات قضية أهلى .

رويت له ملخصا وافيا لقصة الجزيرة ورجوته فيما يشبه الاستغاثة

أن يرفع قضية ترفع ظلم الحكومة عن أهل القرية وترد اليهم جزيرتهم . وأكدت له أننى المسئول عن أتعاب المكتب ايا كان مقدارها ، وأن لدى الدليل القاطع على حقنا فى الجزيرة ، وقدمت اليه الورقة .

قرأ الابوكاتو عبد الكريم أبو شقة الورقة مرة ثم مرة . ثم فى المرة الثالثة أخذ يكتب ، كلما قرأ ، اسطرا على ورقة من عنده ، مد يده الى صوان كتب وراء مكتبه وأخرج كتابا صغيراً ذا غلاف أسود . تصفحه ثم أعاده وعاد يقرأ الورقة. ثم كتب اسطرا على ورقة ثانية من عنده وألقى بالورقة الأولى فى سلة المهملات ، أخيرا رفع رأسه ونظر الىَّ نظرة ثاقبة ثم قال ، قبل أن يقرأ من ورقته ، يا شيخ عباس أجب بصدق واختصار :

– هل تعرف لماذا لم يوقع والدك أو يختم على العقد وهو المشترى ؟

– لا .

– هل لديك اعلام وراثة بوفاة والدك وأسماء الورثة ؟

– لا .

– هل تعرف حدود الأرض المبيعة على الطبيعة ؟

– لا .

– هل لديك إثبات رسمي بأن نزلة همام بك هى الهمامية الحالية.

– لا .

– هل لديك أثبات رسمى بأن الجزيرة كانت تسمى قبالة الدير ؟

– لا .

– هل لديك شهادة رسمية بوفاة كل من حسن اسماعيل ومعوض مسعود ؟

– لا .

– هل لديك شهادة رسمية بوفاة محمد أغا شمشرجى ؟

– لا .

– هل تعرف اسم ومحال اقامة ورثته ؟

– لا .

– هل تعرف من أين تستطيع الحصول على هذه الأوراق الرسمية ؟

– لا .

يا شيخ عباس ، هذه الأوراق لازمة لانها الحد الادنى لاثبات جدية المطالبة. بعد هذا يأتى تطبيق القانون . وفى قضيتك هذه تتوقف النتيجة على اثبات وضع يدكم على الأرض لمدة مستمرة لاتقل عن خمس سنوات من تاريخ العقد. دعنا الآن نركز على جدية المطالبة خاصة وأن خصمك فى الدعوى ستكون الحكومة وورثة محمد أغا شمشرجى . وانى لارد اليك مستندك آسفا . يمكنك العودة الى المكتب اذا رغبت بعد استيفاء مستندات الاثبات . هاهى مكتوبة على ورقة من مكتبى يمكنك الاحتفاظ بها لتهتدى بها الى أن تستوفيها .

قلت لا أعرف من أين استوفيها .

قال : كلها ماعدا البند الأول أوراق رسمية . وكل أصول الاوراق الرسمية تحت يد الحكومة تجدها فى «الحفظخانة» بالقلعة فى مصر ،

ان أردت فاذهب الى مصر واطلب صورا رسمية من تلك المستندات . ولأسهل لك الأمر بقدر ما استطيع خذ هذه البطاقة وقابل الاستاذ محمد على بك علوية المحامي . عنوان مكتبه مكتوب على البطاقة . وقد كتبت اليه على البطاقة أوصيه بك خيرا وان كان لايحتاج الى توصية حين يتصل الامر بأحد أبناء أسيوط فهو «بلدينا» بالاضافة الى ما هو معروف عنه من الشهامة والشجاعة والكفاءة .

قلت : هل تسمح لى بسؤال .

قال : طبعا تفضل .

قلت : مادامت أصول هذه المستندات تحت يد الحكومة فلماذا أطلبها منها ولا تقدمها هى .

قال : لأن القانون يضع عبء الاثبات على عاتق المدعى وليس المدعى عليه وأنت فى موقف المدعى .

قلت : ما الذى يحدث لو أن المدعى لم يتمكن من الحصول على المستندات من الحكومة .

قال مبتسما ابتسامة ساخرة : يخسر قضيته .

قلت وأنا عاجز عن الفهم : حتى لو كان الحق معه .

قال ضاحكا : حتى لو كان الحق معه شيخ عباس .

شعرت بأننى اثقلت على الرجل الكريم فأخذت أوراقى واستأذنت فى الانصراف وأنا أتذكر حكمة الشيخ محمود عبد اللطيف حين سخر من غفلة الذين «يشتكون الحكومة إلى الحكومة» .

قال الشيخ عبد الجواد وهو يرحب بى فى فندقه هل قرأت جرائد

اليوم ؟ قلت : لا ، هل ثمة أخبار جديدة . قال نعم . لقد انكسر الجيش التركى ودخل اللينبى فلسطين واستسلمت تركيا . قلت قبل أن أفكر : الحمد لله . قال أتحمده يا شيخ عباس على هزيمة دولة الخلافة . قلت : دولة الخلافة لم تكن طرفا فى الحرب يا شيخ عبد الجواد انما هى دولة الاتحاد والترقى ، واللهم لا شماته ، ولكنى أحمده على عودة يونس عبدالله ألف حمد . قال : ومن هذا المسمى يونس عبد الله . قلت : واحد ممن اخذتهم السلطة ، أعز واحد عندى . قال بسخرية : الله يشفيك وهم بالانصراف فرجوته أن يأتينى بإحدى جرائد اليوم .

قرأت : انتصار حاسم لجيوش الحلفاء . جيوش الحلفاء تجتاح العراق وتدخل بغداد . اللينبى يكتسح الحشود التركية على الحدود الشرقية ويتقدم فى فلسطين . ايقاف عملية الجمالة (المتطوعون) . مائة وسبعون ألف متطوع يعودون الى الوطن .

(١٣)

حملت الصحف وعدت الى القرية أكاد أطير فرحا لولا أن الحمار الذى حملنى وراء صاحبه العائد من البدارى مبالغ فى بلادته . حمار . لو لم يكن حمارا لادرك أننى أحمل الى القرية بشرى «قرب» عودة ابنها يونس عبد الله قطار . ولكنه حمار . أما صاحبه فهو انسان عديم الاحساس . سألنى ما سبب فرحتك ، قلت له أن يونس عبد الله سيعود من السلطة . قال ببلادة باردة هل أنت متأكد . قلت قرأت فى الجرائد أن كل الذين أخذتهم السلطة سيعودون . قال ببرود بليد هل ذكروا يونس عبد الله فى «الجرنان» قلت لا ، قال : هل قالوا فى «الجرنان» إن

الذين ماتوا سيعودون . قلت لا : طبعا ، قال : اصبر اذن الى أن يعود يونس عبدالله ثم افرح كما تريد . كما لو كان قد صب على رأسي دلوا من الماء البارد. انكتمت بعد صمت طال حتى وصلنا الى «الملصي» وبانت القرية من بعد ، قال يا شيخ عباس هل «زعلت» قلت بحدة طبعا ان يونس عبد الله عزيز عليّ . قال بذات البلادة الباردة : يا شيخ عباس أنا لا أقرأ ولا أكتب فلا أعرف ما تقوله «الجرانين» ولكني أعرف بلدنا وكيف تفكر أنصحك، لمصلحة البلد لا لمصلحتك ، أن تكتم الخبر حتى يعود يونس عبد الله . انك اذ تذيعه كما صدقته ستدق الطبول وتقام الافراح لان أهل بلدنا قد اعتادوا تصديق ما تقول . «فلنفرض» أن يونس عبد الله قد مات ، فهل يرضيك أن تتحول أفراح البلد الى جنائز وكيف يكون موقفك . أصبر يا شيخ عباس ، الصبر جميل وان الله مع الصابرين . لا مانع من ان تقرا لهم الجرائد كعاداتك ولكن لا تبشرهم بعودة يونس ولا تضيف الى الجرائد إمنياتك الشخصية انت رجل متعلم فكيف يغيب عنك كل هذا .. لقد وصلنا و سأتركك عند «تاية ولد سطوحي» لانى ذاهب الى الجزيرة ، وتكمل انت طريقك الى بيتك مع السلامة و«لاتزعل» مني.

قابلت كثيرين فى الطريق الى بيتنا النظرات باردة والتحيات مقتضبة ، كما لو كانت القرية غاضبة . دخلت دارنا الى منضرتى فوجدت عمي مشهورا وأمي يتحدثان، وامرأة «تزغنفت» وخرجت جريا فلم أستطع تبين من هي. احتضنني عمي مشهور حامدا الله على سلامة عودتي وصافحت يد أمي وهي تصافحني، ثم قلت «جلسة فى الحرم» قالا معا: عقباك وصمتا. قلت قاطعا الصمت، من هذه التى

جرت «مزغنفة» خارجة حين دخولى. قالت أمى «دى نعيمة» قلت مستغربا ولماذا تجرى نعيمة وتتزغنف كأنى غريب.

قالت أمى وعلى غمها ابتسامة عريضة : يرد عليك الحاج عمك مشهور، أما أنا فسأتركك‌ما لحديث لا يدور الا بين الرجال..

قلت : ايه الحكاية يا عم مشهور.

قال : ياولدى لقد كنت مرضت «مرضة وحشة» لمدة طويلة فقدت فى أغلبها وعيك، فانتقلت والدتك الى هنا لتكون معك ولتحجبك عن عيون الآخرين حتى لو كانت عيون زوجتى اخويك .. ولقد كنت تقول مالا يقوله عاقل . ولم تكن قادرا على ان تتحكم فيما يدخل جسدك أو يخرج منه ; وكنت فى حاجة متكررة للاغتسال واستبدال الملابس فلم تستطع امك بحكم سنها أن تؤدى لك ماكنت فى حاجة اليه وأن تسترك . فاستعانت بأرملة محمد ظرظور على ما كنت عليه . ولقد صاحبتها – الله يسترها – أغلب أيام مرضك وأشدها حرجا . ولم يكن كل هذا أو حتى بعضه يعجب الناس أو يتفق مع علاقات بلدنا وعاداتها . ولقد بدأ الحديث همسا وتردد جهرا فى لقاءات الموردة حيث لم ينسبوا اليك ولا اليها ما يشين فقد كان مرضك شائعا ولكنهم توقفوا عند عجز امك منفردة عن أن تقوم بجهد اغتسالك المتكرر واستبدال زوجتى ولديها بنعيمة. ويعلم الله أنها لو استعانت بزوجتى ولديها لما اعانتاها على ما هو غير مباح الا للامهات والزوجات. فشاورتنى فى كيف تقطع ألسنة السوء، وانتهينا، هى وأنا وأخوك مرسى الى أن نخطب لك نعيمة على أن يكون الزواج بعد نجاتك من المرض. فذهبت أنا وأخوك وتحدثنا فى هذا مع الشيخ محمود عطية كبير عائلة أولاد عمران. عائلة نعيمة. شاورها فى

الامر فوافقت . وقرأنا الفاتحة. شاعت الخطبة فى البلد ولكن صدقها بقى، فى الضمائر معلقا على مصيرك. فلما «زغردت» نعيمة وعرف الناس أنك قد عوفيت انتظروا الزفاف ولكنك ما أن عوفيت حتى شوهدت خارجا من البلد الى حيث لا يعلمون، فظنوا وبعض الظن إثم انك «مشيت» من البلد واعادوا ذكر ما فعلت فى مطلع شبابك. ولقد تفاقم الشك حتى كاد يكون اتهاما صريحا دعتنى أمك فحضرت لنتدبر ماذا نقول أو ماذا نفعل وانضمت الينا خطيبتك نعيمة ولقد دخلت فجأة سعدنا بعودتك وحجبت نعيمة وجهها وانفلتت خارجة كما تحجب كل خطيبة عن خطيبها . فأرجو الا نكون ، أنا و أمك وأخوك ، قد حملناك ما لا تحتمل.

قلت صادقا: لا والله ياعمى ، اننى قابل وسعيد بأن أتزوج «أنيسه».. وضحكت. قال عمى وقد تجهم وجهه فبرزت غضونه : أنيسه من ياولدى نحن نتحدث عن نعيمة فضحكت حتى كدت أثير غضبه .

قال بحزم ليس فى الزواج ضحك ولا هزل ياولدى . نعيمة محمد جاد المولى من عائلة أولاد عمران الذى هو أخ جدك الكبير مشهور أولاد فرج قداح فماذا تقول.

قلت : أقول يا عمى نعم أتزوج نعيمة.

فانفرجت أساريره كما لو أننى أخيرا صححت خطأ ارتكبته.

قال : على بركة الله . متى نكتب الكتاب.قلت : خير البر عاجله .. أرجو فقط أن تراعى (وحكيت له بالتفصيل قصتى مع الجزيرة، بما فيها خاتمتها مما قاله الاستاذ أبو شقة من ضرورة الذهاب الى مصر

لاستخراج المستندات من دار المحفوظات ، وما يحتاجه ذلك من وقت طويل ومال وفير).

قال عمى مشهور : بارك الله فيك. سنكتب الكتاب يوم الخميس القادم بإذن الله . وقد عرفت من أمك أنها منذ خطبت لك نعيمة والمهر جاهز. أما تكاليف سفر مصر والقضية فستشترك فى توفيره العائلة كلها ويكون جاهزا بعد المحصول الشتوى .

ضحكت وقلت : وماذا عن تكاليف الفرح يا عمى.

فقال ساخرا : لازلت غريبا عن الهمامية يا عباس . ألا تعلم يا ولدى أن أفراح الزواج لا تقام فى الهمامية إلا للبنات الأبكار . مبروك يا ولدى . حمدا لله على سلامتك ، سأقوم لأذهب وأقابل الشيخ محمود عطية لأبلغه بالموعد .

توقف وقال : كم ستكون المصاريف ؟ قلت لا أدري ولكنى أعتقد أن مصاريفى ومصاريف استخراج الاوراق وأتعاب المحامى لن تقل عن مائة جنيه . قال : لن تتوافر إلا بعد ضم المحاصيل فلا تضم إليك زوجتك إلا بعد أن تعود من مصر منتصراً بأذن الله لانك إذ تخرج من جوارها بعد مدة قصيرة إلى غيبة قد تطول تسئ إليها بما لا تستحقه ، أما والدتى فقد قالت جادة : «يا ولدى أريد أن أرى» قبل أن أموت ، ما يقولون عنه أنه سرير بأعمدة من الحديد ودولاب بمرآة كبيرة . وزواجك آخر فرصة لى» اصطنعت الجدية وقلت لها : «أنى ذاهب إلى مصر بعد جمع المحاصيل فلابد ، إذن ، من إرجاء «الدخلة» إلى أن احضر هذه الاشياء من مصر» .

وافقت وهى سعيدة . ولم أر زوجتى إلا بعد نحو عام . والواقع أننى لم أنكر على القرية أن اختارت لى ، بأساليب شتى ، الزواج والزوجة وموعد الزواج . بل أعترف بأننى «ارتحت» حين اجابت عنى على أسئلة كثيرة عن رغبتى الزواج : متى ، وممن ، أين ، ولماذا ؟ وكيف كانت تراودنى من حين إلى حين وتبقى بدون أجوبة .

وتفرغت لهمى المقيم : كيف ومتى يعود يونس عبد الله من حيث ذهب بديلا عنى .

(١٤)

كنت أتوقع ما أتمنى أن يعود يونس قريبا فكأننى أردت أن أكون أول مستقبليه ، وهكذا قضيت أكثر من شهر أذهب ثلاث مرات كل اسبوع إلى البدارى . أرابط كل يوم فى المقهى المواجه للكوبرى ، مدخل المدينة ، متوقعا أن أراه قادما ، جامعا كل ما يصل إلى البدارى من صحف أقرأ كل كلمة في كل واحدة منها لعلى أجد خبر عودته منشورا مع العائدين . كدت أيأس من عودته ففكرت ألا أعود إلى القرية لولا الزوجة التى تنتظر .

ثم كدت أيأس من حياتى فتمنيت لو لم أكن حيا . ثم يأتى خبر منشور فى الصفحة الأولى من كل جريدة يعيد إلىّ الأمل وحب الحياة . انتهاء الحرب والاعداد لمؤتمر الصلح قرأته وعدت أستحث حمارى لادرك القرية سريعا وأعلن الخبر لأهل القرية ، أو أسر به لأم يونس عبد الله خاصة ، لولا أنني تذكرت حديثا «بارداً» سمعته من قروى حكيم من قبل فاكتفيت بأن اصطنع الحكمة فأتلو على أهلى

خبر انتهـــاء الحرب وأتجاهــل من سأل عن مصير الـــذين «أخذتهم السلطة» .

وتراكمت الأخبار يوما بعد يوم حتى طردت من ذهني يونس عبد الله وسيرته وبعثرت كل ما كان يشغلني من أفكار متفائلة عن استرداد الجزيرة . وقد شغلني ما توالى نشره عن كل شئ ما عدا تلاوة أخبار الصحف التى احضرها ، كل يوم ، من البدارى لأقرأها على من يريد من أهل القرية وأذيعـــها وأعـــلق عليـها لمن يريد . وقد كان المريدون يتكـــاثرون يوما بعد يوم كما تطوع كثيرون باحضار الصحف أكثر أيام الاسبوع .

كانت أخبار الأيام الأولى محيرة :

قرأت أن الأنجليز قد قبضوا على سعد زغلول ومحمد محمود واسماعيل صدقي وحمد الباسل ونفـــوهم إلى مالطـــة . ليه ؟ لم استطع إلا أن أذهب إلى المأمور ، ذات المأمور الذى زج بى فى السجن من قبـــل ، فإذا به يرحب بى كــــأنه يرانى أول مرة ثم يسألنى ما شـــأنك ، فلما أن عبـــرت لـــه عن رغبتي في فـهم ماهو منشور أو ماوراءه، لم يجب . مد إلىّ يدا بحزمة من الأوراق المطبوعة وقال: من أجل هذا «خذها واجمع عليها توقيعـــات» ، ثم ضحك وقـــال فإن لك خبرة فى هذا ولا أقول «سابقة» .

أخذتها وخرجت بدون استئذان أو تحية .

قرأت فى المقهى : «نحن الموقعين على هذا قد أنبنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شـعراوى باشـــا وعبد العزيز فهمى بك ومحمود

باشا وأحمد لطفى السيد بك وعبد اللطيف المكباتى بك ، ومحمد بك أعضاء الوفد المصرى ولهم أن يضموا إليهم من يختارون فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا سبيلا لاستقلال مصر التام» .

أحفظه طبعا كما حفظه كل جيلى .

حيرنى أن يكون من بينهم سعد زغلول ، عدو الحزب الوطنى ، الساخر من مصطفى كامل صديق الأميرة نازلى فاضل مدمن لعب القمار ووزير مصطفى فهمى خادم الانجليز كما حيرنى أن أعرف هل محمد على بك هو الابوكاتو محمد على علوبة الذى أسعى لمقابلته لاسترداد الجزيرة أو شخص غيره .

إن يكن هو فقد خاب مسعاى وانهارت آمالى وآمال أهلى . ولقد دفنت تلك الآمال بعد يومين . نشروا قائمة أسماء قيل أنهم أعضاء فى الوفد . قرأت واستعذت بالله من الشيطان الرجيم ودعوت الله أن يلطف بنا ، رئيس الوفد محمود سليمان باشا ومعه خمسة وأربعون كلهم باشوات وبكوات ، والأدهى أن من بينهم عبد الرحمن بك محمود . لا حول ولا قوة إلا بالله . لا أدرى لماذا اعتبرتها مسلمة أن أعضاء الوفد هم ملاك الأراضى فى بر مصر ميراثا أو ايجارا أو استيلاء ، مادام الرئيس محمود سليمان والعضو الرئاسى محمد محمود، والعضو العادى عبد الرحمن محمود حارم قرية الهمامية من جزيرتها وأن غايتهم استقلال مصر ليستقلوا هم بأرضها دون الفلاحين .. فاستعذت بالله ..

لم أذع تلك الأخبار وإنما أذعت غيرها التى غيرتنى ..

اضراب الطلبة . اضراب المحامين . قطع المواصلات فى المديريات . مظاهرة السيدات . مذبحة فى قطار فى ديروط . ثورة فى زفتى . طائرات مائية تسقط قنابل على أسيوط ، مذبحة فى العزيزية ، ابن القباقيبى الطفل يقتل فى طولون . كل الأمة تقاتل الانجليز . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تجتمع أمتى على ضلالة» . إنها إذن الثورة التى سمعت الدعوة إليها منقولة عن جمال الدين الافغانى يوم أن كنت أتردد على مقهى متاتيا ، ثورة ضد «السلطة» ، فعاد إلى ذاكرتى يونس عبد الله والشهيد محمد ظرظور والغلابة الذين نهبت أموالهم والمساجين فى زنازين التراحيل حتى رحلوا .. واذعت كل تلك المعانى فى الهمامية حتى جاء يوم جمعة فخطبت فى المصلين عن الثورة وختمت الخطبة صائحا : يسقط الانجليز ، رددها المصلون ثم اضفت «يحيا سعد» فزأر بها المصلون ، ثم ذهبت إلى منضرتى وبقيت حتى صباح اليوم التالى أنسخ التوكيلات بخطى فيوقعها أو يبصمها من أدعوه ، أما من لم أستطع دعوته فقد «بصمت له» وذهبت بها إلى ساحل سليم وسلمتها إلى محمود باشا سليمان فى «الدهبية» .. وقد كنت أعرف من الأخبار أن الانجليز قد أمروه بأن يغادر القاهرة فغادرها إلى ساحل سليم .

(١٥)

حددت يوما لزواجى بدون الاعداد «لفرح» كما هى التقاليد . غير أن الله أراد أن يكون ذاك اليوم فرحا للقرية جميعا ، لعلعت الزغاريد فى كل البيت . ودقت الطبول فى الرهبات .

وصدحت البنات بأغاني عــودة الغائبين في الرهبـــات ، وتبادل الاهــالي التهـــاني على المصــاطب ، لا فرحـــا بزواجـــي ولكن لأن يــونس عبد الله قد دخــل القــرية في ذات الليلة التي «دخلت» فيها .

بعد يومين طلب منى نعمـــان ولـــد الشيخ عمــار زيدان وفكــرى عبد النبى أن استمع إليهما في خلــوة . لمــاذا ؟ قــال فكرى عبد النبى حتى لا يعــرف أحد . قــال فكرى أنه ســرنا ونحن نأتمنك عليه . هــل تتذكر مــا ذكرته عن قــتل الانجــليز في قطار ديروط ؟ قلت نعــم ومــا شــأنك في هــذا . قــال كنت معهم هنــاك واشــتركت في القتــال وقتــلت . لــم أعــرف مــاذا أقول ، فقــال نعمـــان :

«عليَّ الطلاق» صح . فقبلت جبين فكــرى ومسحت على ذراعه الأيمن وقلت له «يسلم دراعك» . وحكى نعمان قصتهما وانتهيا إلى أنهما يملكان الآن الســلاح اللازم لاســترداد الجـــزيرة بالقوة . ويطلبــان رأيي . قلت لهمــا : نفكر في هــذا بعد طــرد الانجليـز واســترداد أرض مصر ومنها الجزيرة . قالا معا . هل هذا مؤكد ؟ قلت .. المؤكد يا فكرى ، يا نعمان ، أن الله قد خلقنا لنعيش ونتمتع بالحياة في الأرض التي اســتخلفنا فيها لا أن نلقى بأنفــسنا إلــى التهلكة . وستعود إليــنا الجزيرة لانها حقنا طال الزمـــان أو قصر إذ لا يضيع حق وراءه مطالب . قلت كل هذا بلغة أزهــرية مقعرة لتكون أكثر تأثيرا ، وقــد تأثرا فعــلا ولكنهما لــم يتراجعا صراحة . قال فكرى متــى تعود الجزيرة وإلى متى يمتد الصبر على الفقر. قلت

لهما من ذا الذى كان يستطيع أن يقول قبل يومين متى يعود يونس عبد الله وإلـــى متى تمتد غربتـه . إن هناك ألوفـــا من الناس يقـاتلون الانجليز بكل سلاح لتعود إلينا أرض مصر . بعدها سنسترد الجزيرة .

بعد بضعة أشهر.جاءتنى رســـــالة من الشيخ عبد الجـــــواد بأن أوافيه «فوراً» فى أسيوط ، ذهبت . ما الخبر ؟ قال ألا تريد أن تستأجر جـــزيرة الهمامية . قلت أنها مؤجرة إلى عبد الرحمن محمود . قال ساخرا : هل توقفت عن قراءة الجرائد . قلت لا ولكنى لا أرى لهذا علاقة بالموضوع . قال : ألم تقرأ في الجرائد خروج محمد محمود على سعد باشـــا والوفد . قلت قرأت . قـــال إذن ستفهم ما أقول . كل الناس مع ســـــعد باشا وضد الخـوارج عليه ومنهم محمد محمود وعبد الرحمن محمود . وقد آن أوان تجديد تأجير جزيرتك لعبد الرحمن محمود. أعضاء اللجنة . لجنة الايجارات فى المديرية كلهم وفديون . وهم يعتبرون أن من يخون سعد باشا يخون الثورة ويخون مصر فهم مصممون على ألا يجددوا الإيجار لعبد الرحمن محمود ، فإن كان لديك ' ـكفى ولو ايجـــــار سنة ، احضر به الاسبوع القادم واحضر المزاد ولن يحضر عبد الرحمن محمود وسيرســـو عليك مزاد الجزيرة فتستأجرها . كيف هذا . كيف لن يحضر عبد الرحمن محمود . قال إنهم يطبقون الــــدروس التى تعلموها منه . فقد كانت تؤجر له ، وتجدد، بدون أن يحضر .

عدت إلى القرية . ثم عدت إلى المديرية بعد أسبوع ومعى فكرى ونعمان . وذهبت بهمـا إلى ديوان المديرية . قـال فكرى إلى أين نحن ذاهبون . قلت له لنسترد الجزيرة فبهت الاثنـــــــان . بعد أقل من ربع ساعة كنت أحمـــــل فى يدى عقد ايجـــــار الجزيرة لمدة أربع سنوات

قابلة للتجديد إذ لم يحضر المـــزاد أحـــــد غيرى . قال فكرى كيف تم هـــذا سهلاً . قلت له شجرة الثـــورة الصعبة قد طرحت ثمرة سهلة و «يا ما هتطرح» .

عدنا إلى الهمامية . وعادت إلينا الجزيرة .

عادت إلى أهل القرية «كلاتهم» كما كانت من قبل لأن «ما فيش حد أحسن من حد» .

قال الراوى :

إن تزر تلك القرية، «النطرة» نسبة الى قبيلة «عرب مطير» كما يزعم اهلها ، أو «الشيخ جابر» نسبة الى الشيخ الصحابى جابر بن عبد العزيز الذى اعتكف فيها حتى توفي ودفن فى مقامه كما يزعم احفاده الاشراف من سكانها، أو «الهمامية» نسبة الى همام بك عميد عائلة اقطاعية من قرية «ساحل سليم» كما اسمتها الحكومة فى أواخر القرن الماضى، ستلفتك ثلاث مقابر من حجرات غير ذوات ابواب أو نوافذ تعلوها قباب ، متناثرة بين مصاطب القبور فاقرأ الفاتحة عند كل منها كما يفعل أهل القرية حين يزورون تلك المقابر . ستعرف ممن تسألهم ، إن المقبرة التى تكاد تنقض من القدم هى مدفن فرح قداح مؤسس القرية وجد نبيها ، بناها أولاده الخمسة منذ مالا يدرى أحد من السنين. المقبرة الثانية هى مدفن «الشيخ ابو حسوب» قائد المقاتلين من أبناء القرية دفاعا عنها ضد الغارة منذ ١٤٠ عاما وأشجع المقاتلين كافة. المقبرة الثالثة هى مدفن الشيخ «عباس» المدافع عن القرية فيما بين الحرب والثورة التى استرد لهم جزيرتهم .

عليهم رحمة الله جميعا .... آمين ...

الفهـــرس

رقم الإيداع
٥٠٤٨ – ٩٦
I. S. B. N.
977 - 07 - 0477 - 6

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

مايو ١٩٩٦ .. تقرأ فيها :

فـكـر وثقافـة

- الابداع وقيـاداتنا الاجـتمـاعية .... د. مـصطفى سـويف
- حدود حرية التعبير .... د. نصار عبدالله
- (القـفـز على الاشـواك) ملحـمـة صـحـراوية .... د.شكرى عيـاد
- قرن القـومـيات والايدلوجيـات، القرن الحـادى والعـشـرون .... جميل مطر
- فـرانكلين ديلانو روزفلت .... د.رشدى سعيد
- الفكر الاقـتـصـادى المصـرى فى ظل عـبـدالناصـر .... د.جلال امين
- غـول التكنولوجـيـا والفكر الاجـتـمـاعى .... عبدالرحمن شاكر
- رحيل الدكـتـور عـصـمت سـيف الدولة، شـيخ جـبل البـدارى .... مصطفى نبيل
- الوسطية الاسلامية .... د. محمد عمارة
- شـيـوخ الاسـلام فى الدولة العـثمـانية .... سليمان فياض
- المسلمـون والاسـلام فى المجـر......... روبرت كازمير مانياس
- حقـيقة قصـة المكـارى والمالطى! قـبائل سـيناء تقتل بالمـر فى
- صحراء التيه!!.................................. سلمان ابو ستة
- هل خـدع نابليـون اهل مـصـر المحـروسـة ؟!... حلمى النمنم
- ثلاثيـة غـرناطة .... د.احمد عـبـدالرحيم مـصطفى
- عالم يشار كمال – قضية الهوية فى تركيا .... محمود قاسم
- هوى صـرح شـامخ، رحـيل الدكـتـور حـسين مـؤنس .... د. محمود على مكى

رئيس مجلس الإدارة | رئيس التحرير

مكرم محمد أحمد | **مصطفى نبيل**

كتاب الهلال القادم

الحملة الأمريكية على الشرق

المستعربون .. الرحالة .. السفراء

تأليف

روبرت كابلان

ترجمة

محمد الخولى

يصدر : ٥ يونيو ١٩٩٦

هذا الكتاب

ما بين نشر الجزء الأول من مذكرات قرية فى كتاب الهلال ١٩٩٥ وبين نشر الجزء الثانى الذى بين يدينا الآن فى مايو ١٩٩٦ رحل عنا .. د. عصمت سيف الدولة راوى هذه المذكرات .. والكتاب بين يديه يراجعه وتركه لنا وكأنه ترك لنا وصية .. وهى خلاصة حكاية قريته ، التى تقدم نموذجا لكل قرى مصر ، وإن اختلفت بعض القسمات من قرية لأخرى .

وتؤكد تجربة قرية « الهمامية » على المساواة بين جميع أهل القرية ، فسكان القرية جميعا يعودون إلى أصل واحد ، ومن عائلة واحدة ، وعانت القرية طويلا من فساد السلطة وتحيزها أحيانا للمستعمر البريطانى ، وأحيانا للإقطاع ، الذى انتزع أرض الجزيرة من أصحابها .

ورغم شيوع الخوف من السلطة إلى حد فرار شباب القرية إلى الجبل ، أو حقول الذرة أو القصب ، بمجرد اقتراب رجل بملابس رسمية من القرية ، فإن المقاومة الذكية ، التى قادها الشيخ عباس ، نجحت فى حماية شباب القرية ، من اصطيادهم ، وترحيلهم لخدمة المجهود الحربى البريطانى ، خلال الحرب العالمية الأولى ونجحت القرية مرة أخرى مع قيام ثورة ١٩١٩ ، فى استرداد أرض الجزيرة ، وبقى الصراع مع الطبيعة والفيضان ، والجفاف ، ورمال الجبل ، وفى مواجهة الفقر والظلم .

وتقدم تجربة الهمامية التى نقلها د. عصمت سيف الدولة وسائل كسب هذا الصراع .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N